٣٠

مفتاح دار السعاده

لابن الجوزى

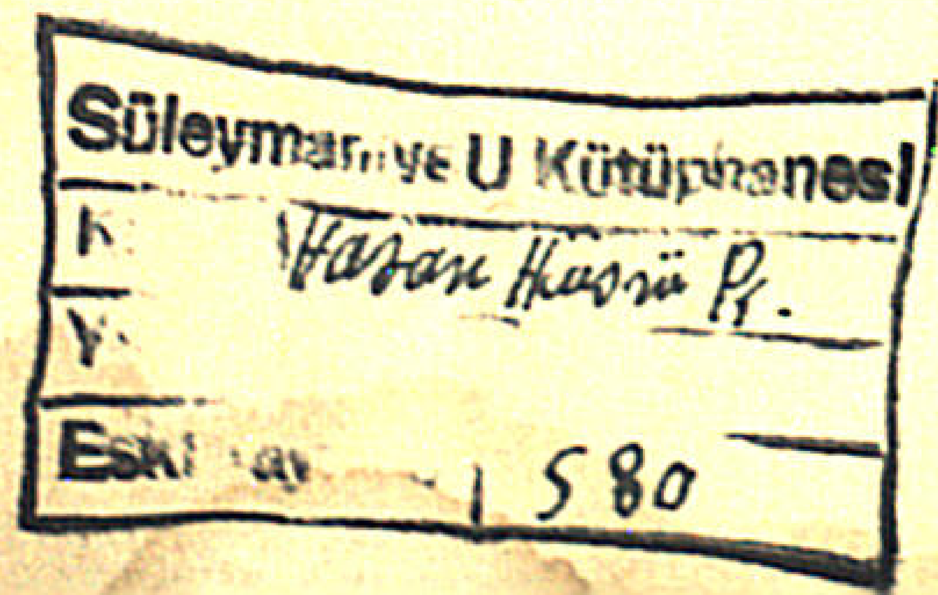
تعلق نظرى الى هذا الكتاب
الشريف بالاتقان والاهمان
العبد الراجي محمود
[illegible]
[illegible]
[illegible]

محرم
١٢٨٩

٩٤

مفتاح دار السعادة

للشيخ شمس الدين محمد بن ابي بكر المعروف بابن قيم الجوزية الدمشقي المتوفى ٧٥١
مجلد اوله الحمد لله الذي سهل لعباده المتقين الى مرضاته سبيلا الخ وهو كتاب
[illegible] جم عجائب [illegible] العلم وفضله ومعرفة العا...
الصانع ومعرفة قدر نعمته ومعرفة النبوة وشدة الحاجة
الى المبعوث ومعرفة الرد على المنجمين ومعرفة الطيرة
والفال والزجر ومعرفة صنوف نافعة جامعة
بما يجلب النفس البشرية الى الخير وغير ذلك
من الفوائد



تأمل سطور الكائنات فانها من الملك الاعلى اليك رسائل
وقد خط فيها لو تأملت خطها الا كل شيء ما خلا الله باطل

هو
استصحبه العبد الفقير عفتي عفا الله عنه باكبيكج

كتاب

مفتاح دار السعادة تأليف الشيخ الامام العالم العلامة
الحافظ الاستاذ الحبر البحر احد الاعلام وحيد عصره وفريد دهره
شيخ الاسلام علم العلماء الاعلام ابي عبد الله محمد بن الشيخ
الامام العالم الصالح ابي بكر بن قيم الجوزية رضي الله عنه وارضاه
وجعل الجنة مثواه آمين يا رب العالمين

لبعضهم رحمه الله
اذا عاش امرؤ ستين عاما ... فنصف العمر تمحقه الليالي
ونصف النصف يمضي ليس يدري ... لغفلته يمينا عن شمال
وثلث النصف آمال وحرص ... وشغل بالمكاسب والعيال
وباقي العمر اسقام وشيب ... وهم بارتحال وانتقال
فحب المرء طول العمر جهل ... وقسمته على هذا المثال

وقال علي كرم الله وجهه
الى كم لا تتوب من المعاصي ... وتنسى يوم اخذك بالنواصي
اذا لم تزجر عقلا شيب راس ... فكيف يكون حالك يوم فاجر
فلا يغررك طول عمر مستعاد ... يؤول الى زوال وانتقاص

حضر لدى امير المؤمنين علي رضي الله عنه انسان فقال يا امير المؤمنين اسألك ان تخبرني عن واجب واوجب وعجيب واعجب وصعب واصعب وقريب واقرب فاجاب امير المؤمنين رضي الله عنه مرتجلا وقال

[illegible]

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي سهل لعباده المتقين الى مرضاته سبيلا ، واوضح لهم طرق الهداية وجعل اتباع الرسول
عليها دليلا ، واتخذهم عبيدا له فاقروا له بالعبودية ولم يتخذوا من دونه وكيلا ، وكتب في قلوبهم الايمان
وايدهم بروح منه لما رضوا بالله ربا وبالاسلام دينا وبمحمد رسولا ، والحمد لله الذي اقام في ازمنة الفترات
من يكون ببيان سنن المرسلين كفيلا ، واختص هذه الامة انه لا يزال فيها طايفة على الحق لا يضرهم من خذلهم
ولا من خالفهم حتى ياتي امره ولو اجتمع الثقلان على حربهم قبيلا ، يدعون من ضل الى الهدى ويصبرون
منهم على الاذى ويبصرون بنور الله اهل العمى ويحيون بكتابه الموتى فهم احسن الناس هديا واقومهم
قيلا ، فكم من قتيل لابليس قد احيوه ، ومن ضال جاهل لا يعلم طريق رشده قد هدوه ، ومن مبتدع في
دين الله بشهب الحق قد رموه ، جهادا في الله وابتغاء مرضاته وبيانا لحجته على العالمين وبيناته ،
وطلبا للزلفى لديه ونيل رضوانه وجناته ، فحاربوا لله من خرج عن دينه القويم وصراطه المستقيم
الذين عقدوا الوية البدعة واطلقوا اعنة الفتنة وخالفوا الكتاب واختلفوا في الكتاب واتفقوا
على مفارقة الكتاب ونبذوه وراء ظهورهم وارتضوا غيره منه بديلا ، احمده
وهو المحمود على كل ما قدره وقضاه واستعينه استعانة من يعلم انه لا رب غيره ولا اله سواه واستهديه
سبل الذين انعم عليهم من احبابه لقبول الحق وارتضاه ، واشكره والشكر كفيل بالمزيد من عطاياه ،
واستغفره من الذنوب التي تحول بين القلب وهداه واعوذ بالله من شرور نفسي وسيات عملي استعاذة عبد
فار الى ربه بذنوبه وخطاياه ، واعتصم به من الاهواء المردية والبدع المضلة فما خاب من اصبح به
معتصما وبجاهه نزيلا ، واشهد ان لا اله الا الله وحده لا شريك له شهادة اشهد بها مع
الشاهدين واتحملها عن الجاحدين وادخرها عند الله عدة ليوم الدين ، واشهد ان الحلال ما
حلله والحرام ما حرمه والدين ما شرعه وان الساعة اتية لا ريب فيها وان الله يبعث من في القبور
واشهد ان محمدا عبده [illegible] ونبيه المرتضى ورسوله الصادق المصدوق الذي لا ينطق عن
الهوى ان هو الا وحي يوحى ، ارسله رحمة للعالمين ومحجة للسالكين وحجة على العباد اجمعين
ارسله على حين فترة من الرسل فهدى به الى اقوم الطرق واوضح السبل وافترض على العباد طاعته

وتعظيمه

وتعظيمه وتوقيره وتبجيله والقيام بحقوقه وسد اليه جميع الطرق فلم يفتح لاحد الا من طريقه
فشرح له صدره ورفع له ذكره وعلم به من الجهالة وبصر به من العمى وارشد به من الغي وفتح به
اعينا عميا واذانا صما وقلوبا غلفا فلم يزل صلى الله عليه وسلم قايما بامر الله لا يرده عنه راد داعيا الى الله
لا يصده عنه صاد الى ان اشرقت برسالته الارض بعد ظلماتها وتالفت القلوب بعد شتاتها وسارت
دعوته سير الشمس في الاقطار وبلغ دينه ما بلغ الليل والنهار فلما اكمل الله به الدين واتم به النعمة
على عباده المومنين استاثره ونقله الى الرفيق الاعلى من كرامته والمحل الارفع الاسنى من اعلا جنانه
ففارق امته وقد تركها على المحجة البيضاء التي لا يزيغ عنها الا من كان من الهالكين فصلى الله عليه وعلى اله
الطيبين الطاهرين صلاة دايمة بدوام السموات والارض مقيمة عليهم ابد الابدين لا يبغون عنها حولا ولا
تحويلا ، اما بعد فان الله سبحانه لما اهبط ادم ابا البشر من الجنة لما له في ذلك من الحكم
التي تعجز العقول عن معرفتها والالسن عن صفتها فكان اهباطه منها عين كماله ليعود اليها على احسن احواله
فاراد سبحانه ان يذيقه وولده من نصب الدنيا وغمومها وهمومها واوصابها ما يعظم به عندهم مقدار دخولهم
اليها في الدار الاخرة فان الضد يظهر حسنه الضد ولو تربوا في دار النعيم لم يعرفوا قدرها وايضا
فانه سبحانه اراد امرهم ونهيهم وابتلاهم واختبارهم وليست الجنة دار تكليف فاهبطهم الى الارض
وعرضهم بذلك لافضل الثواب الذي لم يكن لينال بدون الامر والنهي وايضا فانه سبحانه
اراد ان يتخذ منهم انبياء ورسلا واولياء وشهداء يحبهم ويحبونه فخلى بينهم وبين اعدايه وامتحنهم بهم
فلما اثروه وبذلوا نفوسهم واموالهم في مرضاته ومحابه نالوا من محبته ورضوانه والقرب منه ما لم يكن
لينال بدون ذلك اصلا فدرجة الرسالة والنبوة والشهادة والحب فيه والبغض فيه وموالاة اوليايه
ومعاداة اعدايه عنده من افضل الدرجات ولم يكن ينال هذا الا على الوجه الذي قدره وقضاه من اهباطه الى
الارض وجعل معيشته ومعيشة اولاده فيها وايضا فانه سبحانه له الاسماء الحسنى فمن
اسمايه الغفور الرحيم العفو الحليم الخافض الرافع المعز المذل المحيي المميت الوارث الصبور ولا بد من
ظهور اثار هذه الاسماء فاقتضت حكمته سبحانه ان ينزل ادم وذريته دارا يظهر عليهم فيها اثر اسمايه
الحسنى فيغفر فيها لمن يشاء ويرحم من يشاء ويخفض من يشاء ويرفع من يشاء ويعز من يشاء ويذل من يشاء وينتقم ممن يشاء ويعطي
ويمنع ويبسط الى غير ذلك من ظهور اثر اسمايه وصفاته وايضا فانه سبحانه الملك الحق المبين
والملك هو الذي يامر وينهى ويثيب ويعاقب ويهين ويكرم ويعز ويذل فاقتضى ملكه سبحانه ان انزل
ادم وذريته دارا تجري عليهم فيها احكام الملك ثم ينقلهم الى دار يتم عليهم فيها ذلك وايضا فانه سبحانه

انزلهم الى دار يكون ايمانهم فيها بالغيب والايمان بالغيب هو الايمان النافع واما الايمان بالشهادة فكل احد
يومن يوم القيمة يوم لا ينفع نفسا الا ايمانها في الدنيا فلو خلقوا في دار النعيم لم ينالوا درجة الايمان بالغيب
واللذة والكرامة الحاصلة بذلك لا تحصل بدونه بل كان الحاصل لهم في دار النعيم لذة وكرامة غير هذه
وايضا فان الله سبحانه خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الارض والارض فيها الطيب والخبيث
والسهل والحزن والكريم واللئيم فعلم سبحانه ان في ظهره من لا يصلح لمساكنته في داره فانزله الى دار استخرج
فيها الطيب والخبيث من صلبه ثم ميزهم سبحانه بدارين فجعل الطيبين اهل جواره ومساكنته في داره وجعل
الخبيث اهل دار الشقاء دار الخبثاء قال الله تعالى ليميز الله الخبيث من الطيب ويجعل الخبيث
بعضه على بعض فيركمه جميعا فيجعله في جهنم اولئك هم الخاسرون فلما علم سبحانه ان في ذريته من ليس
باهل لمجاورته انزلهم دارا استخرج منها اولئك والحقهم بالدار التي هم لها اهل حكمة بالغة ومشية
نافذة ذلك تقدير العزيز العليم وايضا فانه سبحانه لما قال للملائكة اني جاعل في الارض خليفة
قالوا اتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك اجابهم بقوله اني اعلم
ما لا تعلمون ثم اظهر سبحانه علمه لعباده وملائكته بما جعله في الارض من خواص خلقه ورسله وانبيائه
واوليائه ومن يتقرب اليه ويبذل نفسه في محبته ومرضاته مع مجاهدة شهوته وهواه فيترك محبوباته تقربا الي نعتهم
الي ويترك شهواته ابتغاء مرضاتي ويبذل دمه ونفسه في محبتي واخصه بعلم لا تعلمونه يسبح بحمدي
اناء الليل واطراف النهار ويعبدني مع معارضات الهوى والشهوة والنفس والعدو واذ تعبدوني انتم
من غير معارض يعارضكم ولا شهوة يعتريكم ولا عدو اسلطه عليكم بل عبادتكم لي بمنزلة النفس لاحدهم
وايضا فاني اريد ان اظهر ما خفي عليكم من شان عدوي ومحاربته لي وتكبره عن امري
وسعيه في خلاف مرضاتي وهذا وهذا كانا كامنين مستترين في ابي البشر وابي الجن فانزلهم دارا
اظهر فيها ما كان الله سبحانه منفردا بعلمه لا يعلمه سواه فظهرت حكمته وتم امره وبدا للملائكة من علمه ما لم يكونوا
يعلمون وايضا فانه سبحانه لما كان يحب الصابرين ويحب المحسنين ويحب الذين يقاتلون في سبيله
صفا ويحب التوابين ويحب المتطهرين ويحب الشاكرين وكانت محبته اعلا انواع الكرامات اقتضت حكمته
ان اسكن آدم وبنيه دارا ياتون فيها بهذه الصفات التي ينالون بها اعلا الكرامات من محبته وكان
انزالهم الى الارض من اعظم النعم عليهم والله يختص برحمته من يشاء والله ذو الفضل العظيم وايضا
فانه سبحانه اراد ان يتخذ من آدم ذرية يواليهم ويودهم ويحبهم ويحبونه فمحبتهم له هي غاية كمالهم ونهاية شرفهم ولم
يمكن تحقيق هذه المرتبة السنية الا بموافقة رضاه واتباع امره وترك ارادات النفس وشهواتها التي يكرهها

محبوبهم

محبوبهم فانزلهم دارا امرهم فيها ونهاهم فقاموا بامره ونهيه فنالوا درجة محبتهم له فانالهم درجة
حبه اياهم وهذا من تمام حكمته وكمال رحمته وهو البر الرحيم وايضا فانه سبحانه لما خلق
نهم خلقه اطوارا واصنافا وسبق في حكمه تفضيل آدم وبنيه على كثير من مخلوقاته جعل عبوديته افضل درجاتهم
اعني العبودية الاختيارية التي ياتون بها طوعا واختيارا لا كرها واضطرارا وقد ثبت ان الله
سبحانه ارسل جبريل الى النبي صلى الله عليه وسلم يخيره بين ان يكون ملكا نبيا او عبدا نبيا فنظر الى جبريل كالمستشير
له فاشار اليه ان تواضع فقال بل اكون عبدا نبيا فذكره سبحانه باسم عبوديته في اشرف مقاماته في
مقام الاسراء ومقام الدعوة ومقام التحدي فقال في مقام الاسراء سبحان الذي اسرى بعبده
ليلا ولم يقل برسوله ولا نبيه اشارة الى انه قام هذا المقام الاعظم بكمال عبوديته لربه وقال في
مقام الدعوة وانه لما قام عبد الله يدعوه كادوا يكونون عليه لبدا وقال في مقام التحدي وان
محمد كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فاتوا بسورة من مثله وفي الصحيحين في حديث الشفاعة وتراجع الانبياء
فيها وقول المسيح صلى الله عليه وسلم اذهبوا الى عبد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تاخر فدل ذلك على انه نال
ذلك المقام الاعظم بكمال عبوديته لله وكمال مغفرة الله له واذا كانت العبودية عند الله بهذه المنزلة اقتضت
حكمته ان اسكن آدم وذريته دارا ينالون فيها هذه الدرجة بكمال طاعتهم لله وتقربهم اليه بمحابه
وترك مالوفاتهم من اجله فكان ذلك من تمام نعمته عليهم واحسانه اليهم وايضا فانه سبحانه
اراد ان يعرف عباده الذين انعم عليهم تمام نعمته عليهم وقدرها ليكونوا اعظم محبة واكثر شكرا واعظم
التذاذا بما اعطاهم من النعيم فاراهم سبحانه فعله باعدائه وما اعد لهم من العذاب وانواع الالام
واشهدهم تخليصهم من ذلك وتخصيصهم باعلى انواع النعيم ليزداد سرورهم ويكمل غبطتهم ويعظم
فرحهم ويتم لذتهم وكان ذلك من اتمام الانعام عليهم ومحبتهم ولم يكن بد في ذلك من انزالهم الى الارض
وامتحانهم واختبارهم وتوفيق من شاء منهم رحمة منه وفضلا وخذلان من شاء منهم حكمة منه وعدلا وهو
العليم الحكيم ولا ريب ان المومن اذا راى عدوه وعدو محبوبه الذي هو احب الاشياء اليه في انواع العذاب
والالام وهو يتقلب في انواع النعيم واللذة ازداد بذلك سروره وهي الغاية منهم قال تعالى
وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون ومعلوم ان كمال العبودية المطلوب من الخلق لا يحصل في دار
النعيم والبقاء انما يحصل في دار المحنة والابتلاء واما دار البقاء فدار لذة ونعيم لا دار ابتلاء وامتحان
وتكليف

والشهوة ونصبها داعيين بمقتضاتها ليتم مراده ويظهر لعباده عزه في حكمته وجبروته

وعظمت لذته وكمل نعيمه

ورحمته وبره ولطفه في سلطانه وملكه فاقتضت حكمته ورحمته ان اذاق اباهم وبال مخالفته وعرفه
ما تجني عواقب اجابة الشهوة والهوى ليكون اعظم حذرا فيها واشد عدوا وهذا كحال رجل سائر على
طريق قد كمن له الاعداء في جنباته وخلفه وامامه وهو لا يشعر بها فاذا اصيب منها مرة بمصيبة استعد
في سيره واخذ اهبة عدوه واعد له ما يدفعه به ولولا انه ذاق الم اغارة عدوه عليه وتبييته له
لما سمحت نفسه بالاستعداد والحذر واخذ العدة فمن تمام نعمة الله على آدم وذريته ان اراهم ما فعل العدو
بهم وبابيهم فاستعدوا له واخذوا اهبته فان قيل كان من الممكن ان لا يسلط عليهم العدو قيل
قد تقدم انه سبحانه خلق آدم وذريته على بنية وتركيب مستلزم لمخالطتهم لعدوهم وابتلائهم به
ولو شاء لخلقهم كالملائكة الذين هم عقول بلا شهوات فلم يكن لعدوهم طريق اليهم ولكن لو خلقوا هكذا
لكانوا خلقا آخر غير بني آدم فان بني آدم قد ركبوا على العقل والشهوة وايضا فانه لما كانت
محبة الله وحده هي غاية كمال العبد وسعادته التي لا كمال له ولا سعادة بدونها اصلا وكانت المحبة
الصادقة انما تتحقق بايثار المحبوب على غيره من محبوبات النفوس واحتمال اعظم المشاق في طاعته ومرضاته
فبهذا تتحقق المحبة ويعلم ثبوتها في القلب اقتضت حكمته سبحانه اخراجهم الى هذه الدار المحفوفة بالشهوات
ومحاب النفوس التي بايثار الحق عليها والاعراض عنها يتحقق حبهم له وايثارهم اياه على غيره وكذلك بتحمل
المشاق الشديدة وركوب الاخطار واحتمال الملامة والصبر على دواعي الغي والضلال ومجاهدتها يقوى
سلطان المحبة وتثبت شجرتها في القلب وتطعم ثمرتها على الجوارح فان المحبة الثابتة اللازمة على كثرة
الموانع والعوارض والصوارف هي المحبة الحقيقية النافعة واما المحبة المشروطة بالعافية والنعيم
واللذة وحصول مراد المحب من محبوبه فليست محبة صادقة ولا ثبات لها عند المعارضات والموانع
فان المعلق على الشرط عدم عند عدمه ومن ودك لامر ولى عند انقضائه وفرق بين من يعبد الله على
السراء والرخاء والعافية فقط وبين من يعبده على السراء والضراء والشدة والرخاء والعافية
والبلاء وايضا فان الله سبحانه له الحمد المطلق الكامل الذي لا نهاية بعده وكان ظهور
الاسباب التي يحمد عليها من مقتضى كونه محمودا وهي من لوازم حمده تعالى وهي نوعان فضل وعدل اذ
هو سبحانه المحمود على هذا وعلى هذا فلا بد من ظهور اسباب العدل واقتضائها المسميات لها ليترتب
عليها كمال الحمد الذي هو اهله فكما انه سبحانه محمود على احسانه وبره وفضله وثوابه فهو محمود على عدله
وانتقامه وعقابه اذ يصدر ذلك كله عن عزته وحكمته ولهذا ينبه سبحانه على هذا كثيرا
كما في سورة الشعراء حيث يذكر في آخر كل قصة من قصص الرسل واممهم ان في ذلك لآية وما كان اكثرهم

مؤمنين وان ربك لهو العزيز الرحيم فاخبر سبحانه ان ذلك صادر عن عزته المتضمنة كمال القدرة
وحكمته المتضمنة كمال علمه ووضعه الاشياء مواضعها اللائقة بها فما وضع نعمته ونجاته لرسله ولاتباعهم
ونقمته واهلاكه لاعدائهم الا في محلها اللائق بها لكمال عزته وحكمته ولهذا قال سبحانه عقيب
اخباره عن قضائه بين اهل السعادة والشقاوة ومصير كل منهم الى دارهم التي لا يليق بهم غيرها ولا تقتضي
حكمته سواها وقضي بينهم بالحق وقيل الحمد لله رب العالمين وايضا فانه سبحانه اقتضت
حكمته وحمده ان فاوت بين عباده اعظم تفاوت وابينه ليشكره منهم من ظهرت عليه نعمته وفضله ويعرف
انه قد حبي بالانعام وخص دون غيره بالاكرام ولو تساووا جميعهم في النعمة والعافية لم يعرف صاحب
النعمة قدرها ولم يبذل شكرها اذ لا يرى احدا الا في مثل حاله ومن اقوى اسباب الشكر واعظمها استخراجا له من
العبد ان يرى غيره في ضد حاله التي هو عليها من الكمال والفلاح وفي الاثر المشهور ان الله سبحانه
لما ارى آدم ذريته وتفاوت مراتبهم قال يا رب هلا سويت بين عبادك قال اني احب ان اشكر
فاقتضت محبته سبحانه لان يشكر خلق الاسباب التي يكون شكر الشاكر عندها اعظم واكمل وهذا هو عين
الحكمة الصادرة عن صفة الحمد وايضا فانه سبحانه لا شيء احب اليه من تذلل العبد بين يديه وخضوعه
وافتقاره وانكساره وتضرعه اليه ومعلوم ان هذا المطلوب من العبد انما يتم باسبابه التي
تتوقف عليها وحصول هذه الاسباب في دار النعيم المطلق والعافية الكاملة ممتنع اذ هو مستلزم للجمع
بين الضدين وايضا فانه سبحانه له الخلق والامر والامر هو شرعه وامره ودينه الذي بعث به
رسله وانزل به كتبه وليست الجنة دار تكليف تجري عليهم فيها احكام التكليف ولوازمها وانما هي دار نعيم
ولذة فاقتضت حكمته سبحانه استخراج آدم وذريته الى دار تجري عليهم احكام دينه وامره ليظهر فيهم
مقتضى الامر ولوازمه فان الله سبحانه كما ان افعاله وخلقه من لوازم كمال اسمائه الحسنى وصفاته العلى فكذلك
امره وشرعه وما ترتب عليه من الثواب والعقاب وقد ارشد سبحانه الى هذا المعنى في غير موضع من كتابه فقال
تعالى ايحسب الانسان ان يترك سدى اي مهملا معطلا لا يؤمر ولا ينهى ولا يثاب ولا يعاقب وهذا
يدل على ان هذا مناف لكمال حكمته وان ربوبيته وعزته وحكمته تابى ذلك ولهذا اخرج الكلام
مخرج الانكار على من زعم ذلك وهو يدل على ان حسنه مستقر في الفطر والعقول وقبح تركه سدى معطلا
ايضا مستقر في الفطر فكيف ينسب الى الرب ما قبحه مستقر في فطركم وعقولكم وقال تعالى
افحسبتم انما خلقناكم عبثا وانكم الينا لا ترجعون فتعالى الله الملك الحق لا اله الا هو رب العرش الكريم فنزه نفسه
سبحانه عن هذا الحسبان الباطل المضاد لموجب اسمائه وصفاته وانه لا يليق بجلاله نسبته اليه ونظائر هذا

في القرآن كثير وأيضاً فإنه سبحانه يحب من عباده أموراً يتوقف حصولها منهم على حصول الأسباب المقتضية لها ولا تحصل إلا في دار الابتلاء والامتحان فإنه سبحانه يحب الصابرين ويحب الشاكرين ويحب الذين يقاتلون في سبيله صفاً ويحب التوابين ويحب المتطهرين ولا ريب أن حصول هذه المحبوبات بدون أسبابها ممتنع كامتناع حصول الملزوم بدون لازمه والله سبحانه أفرح بتوبة عبده حين يتوب إليه من الفاقد لراحلته التي عليها طعامه وشرابه في أرض دوية مهلكة إذا وجدها كما ثبت في الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال لله أفرح بتوبة عبده من رجل في أرض دوية مهلكة معه راحلته عليها طعامه وشرابه فنام فاستيقظ وقد ذهبت فطلبها حتى أدركه العطش ثم قال أرجع إلى المكان الذي كنت فيه فأنام حتى أموت فوضع رأسه على ساعده ليموت فاستيقظ وعنده راحلته عليها زاده طعامه وشرابه فالله أشد فرحاً بتوبة العبد المؤمن من هذا براحلته وهذا غاية ما يكون من الفرح وأعظمه ومع هذا فالله سبحانه أشد فرحاً بتوبة العبد المؤمن من فرح هذا براحلته وسيأتي إن شاء الله الكلام على هذا الحديث وذكر سر الفرح بتوبة العبد والمقصود أن هذا الفرح المذكور إنما يكون بعد التوبة من الذنب فالتوبة والذنب لازمان لهذا الفرح ولا يوجد الملزوم بدون لازمه وإذا كان هذا الفرح المذكور إنما يحصل بالتوبة المستلزمة للذنب فحصوله في دار النعيم التي لا ذنب فيها ولا مخالفة ممتنع ولما كان هذا الفرح أحب إلى الرب سبحانه من عدمه اقتضت محبته له خلق الأسباب المفضية إليه ليترتب عليها المسبب الذي هو محبوب له وأيضاً فإن الله سبحانه جعل الجنة دار جزاء وثواب وقسم منازلها بين أهلها على قدر أعمالهم وعلى هذا خلقها سبحانه لما له في ذلك من الحكمة التي اقتضتها أسماؤه وصفاته فإن الجنة درجات بعضها فوق بعض وبين الدرجتين كما بين السماء والأرض وفي الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال إن الجنة مائة درجة بين كل درجتين كما بين السماء والأرض وحكمة الرب سبحانه مقتضية لعمارة هذه الدرجات كلها وإنما تعمر ويقع التفاوت فيها بحسب الأعمال كما قال غير واحد من السلف ينجون من النار بعفو الله ومغفرته ويدخلون الجنة بفضله ونعمته ويتقاسمون المنازل بأعمالهم وعلى هذا حمل غير واحد ما جاء من إثبات دخول الجنة بالأعمال كقوله تعالى وتلك الجنة التي أورثتموها بما كنتم تعملون وقوله تعالى ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون قالوا وأما نفي دخولها بالأعمال كما في قوله صلى الله عليه وسلم لن يدخل الجنة أحد بعمله قالوا ولا أنت يا رسول الله قال ولا أنا فالمراد به نفي أصل الدخول وأحسن من هذا أن يقال إن الباء المقتضية للدخول غير الباء التي نفي معها الدخول فالمقتضية هي باء السببية الدالة على أن الأعمال سبب للدخول مقتضية له كاقتضاء سائر الأسباب لمسبباتها والباء التي نفي بها الدخول

هي

هي باء المعاوضة والمقابلة التي في نحو قولهم اشتريت هذا بهذا فأخبر صلى الله عليه وسلم أن دخول الجنة ليس في مقابلة عمل أحد وأنه لولا تغمد الله سبحانه لعبده برحمته لما أدخله الجنة فليس عمل العبد وإن تناهى موجباً بمجرده لدخول الجنة ولا عوضاً لها فإن أعماله وإن وقعت منه على الوجه الذي يحبه الله ويرضاه فهي لا تقاوم نعمة الله التي أنعم بها عليه في دار الدنيا ولا تعادلها بل لو حاسبه لوقعت أعماله كلها في مقابلة اليسير من نعمه وتبقى بقية النعم مقتضية لشكرها فلو عذبه في هذه الحال لعذبه وهو غير ظالم له ولو رحمه لكانت رحمته خيراً له من عمله كما في السنن من حديث زيد بن ثابت وحذيفة وغيرهما مرفوعاً إلى النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال إن الله لو عذب أهل سماواته وأهل أرضه لعذبهم وهو غير ظالم لهم ولو رحمهم لكانت رحمته لهم خيراً من أعمالهم والمقصود أن حكمته سبحانه اقتضت خلق الجنة درجات بعضها فوق بعض وعمارتها بآدم وذريته وإنزالهم فيها بحسب أعمالهم ولازم هذا إنزالهم إلى دار العمل والمجاهدة وأيضاً فإنه سبحانه خلق آدم وذريته ليستخلفهم في الأرض كما أخبر سبحانه في كتابه بقوله إني جاعل في الأرض خليفة وقوله وهو الذي جعلكم خلائف الأرض وقال ويستخلفكم في الأرض فأراد سبحانه أن ينقله وذريته من هذا الاستخلاف إلى توريثه جنة الخلد وعلم سبحانه بسابق علمه أنه لضعفه وقصور نظره قد يختار العاجل الخسيس على الآجل النفيس فإن النفس مولعة بحب العاجل وإيثارها على الآخرة وهذا من لوازم قوله خلق الإنسان من عجل وقوله وخلق الإنسان عجولا فعلم سبحانه ما في طبيعته من الضعف والخور فاقتضت حكمته أن أدخله الجنة ليعرف النعيم الذي أعد له عياناً فيكون إليه أشوق وعليه أحرص وله أشد طلباً فإن محبة الشيء وطلبه والشوق إليه من لوازم تصوره فمن باشر طيب شيء ولذته وتذوق به لم يكن يصبر عنه وهذا لأن النفس ذواقة تواقة فإذا ذاقت تاقت ولهذا إذا ذاق العبد طعم الإيمان وخالط بشاشته قلبه رسخ فيه حبه ولم يؤثر عليه شيئاً أبداً وفي الصحيح من حديث أبي هريرة رضي الله عنه المرفوع أن الله عز وجل يسأل الملائكة فيقول ما يسأل عبادي فيقولون يسألونك الجنة فيقول وهل رأوها فيقولون لا يا رب فيقول كيف لو رأوها فيقولون لو رأوها لكانوا أشد لها طلباً فاقتضت حكمته أن أراها أباهم وأسكنه إياها ثم قص على بنيه قصته فصاروا كأنهم مشاهدين لها حاضرين مع أبيهم فاستجاب من خلق لها وخلقت له وسارع إليها ولم يثنه عنها العاجلة بل يعد نفسه كأنه فيها ثم سباه العدو فيراها وطنه الأول فهو دائم الحنين إلى وطنه ولا يقر قراره حتى يرى نفسه فيه كما قيل

نقل فؤادك حيث شئت من الهوى … ما الحب إلا للحبيب الأول
كم منزل في الأرض يألفه الفتى … وحنينه أبداً لأول منزل

ولكي مرابات نلم بهذا المعنى

وحيّ على جنات عدن فإنها ... منازلك الأولى وفيها المخيم

ولكننا سبي العدو فهل ترى ... نعود إلى أوطاننا ونسلم

فسر هذه الوجوه انه سبحانه وتعالى سبق حكمه وحكمته ان الغايات المطلوبة لا تنال الا باسبابها التي جعلها
اسبابا مفضية اليها واذا كانت الغايات التي في دون ذلك لا تنال الا باسبابها مع ضعفها وانقطاعها كتحصيل
المأكول والمشروب والملبوس والولد والمال والجاه في الدنيا فكيف يتوهم حصول اعلا الغايات واشرف
المقامات بلا سبب يفضي اليه ولم يكن تحصيل تلك الاسباب الا في دار المجاهدة والحرث فكان اسكان آدم وذريته
هذه الدار التي ينالون فيها الاسباب الموصلة الى اعلا المقامات من تمام انعامه عليهم وسرها ايضا انه سبحانه
جعل الدنيا لذوي النبوة والخلة والتكليم والولاية والعبودية من اشرف مقامات خلقه ونهايات كمالهم فانزلهم دارا
اخرج منهم الانبياء وبعث فيها الرسل واتخذ منهم من اتخذ خليلا وكلم موسى تكليما واتخذ منهم اولياء وشهداء
وعبيدا وخاصة يحبهم ويحبونه وكان انزالهم الى الارض من تمام الانعام والاحسان وسرها
ايضا انه اظهر لخلقه من آثار اسمائه وجريان احكامها عليهم ما اقتضته حكمته ورحمته وعلمه وسرها ايضا
انه تعرف الى خلقه بافعاله واسمائه وصفاته وما احدثه في اوليائه واعدائه من كرامته وانعامه على الاولياء
واهانته واشقائه للاعداء ومن اجابته دعواتهم وقضاء حوائجهم وتفريج كرباتهم وكشف بلاياهم وتصريفهم
تحت اقداره كيف يشاء وتقليبهم في انواع الخير والشر فكان في ذلك اعظم دليل لهم على انه ربهم ومليكهم
وانه الله الذي لا اله الا هو وانه العليم الحكيم السميع البصير وانه الاله الحق وكل ما سواه باطل فتظاهرت
ادلة ربوبيته وتوحيده في الارض وتنوعت وقامت من كل جانب فعرفه الموحدون من عباده واقروا
بتوحيده ايمانا واذعانا وجحده المخذولون من خليقته واشركوا به ظلما وكفرانا فهلك من هلك عن بينة
وحيي من حيي عن بينة والله سميع عليم ومن تأمل الآيات المشهودة والمسموعة في الارض ورأى آثارها علم تمام
حكمته في اسكان آدم وذريته في هذه الدار الى اجل معلوم فالله سبحانه انما خلق الجنة لآدم وذريته
وجعل الملائكة فيها خدما لهم ولكن اقتضت حكمته ان خلق لهم دارا يتزودون منها الى الدار التي خلقت لهم
وانهم لا ينالونها الا بالزاد قال تعالى في هذه الدار وتحمل اثقالكم الى بلد لم تكونوا بالغيه الا
بشق الانفس ان ربكم لرؤف رحيم فهذا اشارة الى الاسفار في الدنيا بلدا الى بلد وكذلك الاسفار من الدنيا
الى دار القرار وقال تعالى وتزودوا فان خير الزاد التقوى فباع المغبونون منازلهم منها
بابخس الحظ وانقص الثمن وباع الموفقون نفوسهم واموالهم من الله وجعلوها ثمنا للجنة فربحت تجارتهم

ونالوا

ونالوا الفوز العظيم قال الله تعالى ان الله اشترى من المؤمنين انفسهم واموالهم بان لهم الجنة فهو سبحانه
ما اخرج آدم منها الا وهو يريد ان يعيده اليها اكمل اعادة كما قيل على لسان القدر يا آدم لا تجزع من قولي لك اخرج منها
فلك خلقتها فانا الغني عنها وعن كل شيء وانا الجواد الكريم وانا لا اجوع فيها فاني اطعم ولا اطعم وانا الغني
الحميد ولكن انزل الى دار البذر فاذا بذرت فاستوى الزرع على سوقه وصار حصيدا فحينئذ تعال فاستوفه
احوج ما انت اليه الحبة بعشر امثالها الى سبع مائة ضعف الى اضعاف كثيرة فاني اعلم بمصالحك منك وانا
العليم الحكيم فان قيل ما ذكرتموه من هذه الوجوه وامثالها انما يتم اذا قيل ان الجنة التي اسكنها آدم واهبط
منها جنة الخلد التي اعدت للمتقين المؤمنين يوم القيمة وحينئذ يظهر سر اهباطه واخراجه منها ولكن
قد قالت طائفة منهم ابو مسلم ومنذر بن سعيد البلوطي وغيرهما انها انما كانت جنة في الارض في موضع عال
منها لا انها جنة المأوى التي اعدها الله لعباده المؤمنين يوم القيمة وذكر منذر بن سعيد هذا
القول في تفسيره عن جماعة فقال واما قوله تعالى لآدم اسكن انت وزوجك الجنة فقالت طائفة اسكن
الله تعالى آدم صلى الله عليه وسلم جنة الخلد التي يدخلها المؤمنون يوم القيمة وقال آخرون هي جنة
غيرها جعلها الله له واسكنه اياها ليست جنة الخلد قال وهذا قول تكثر الدلايل الشاهدة
له والموجبة للقول به لان الجنة التي تدخل بعد القيمة هي من حيز الآخرة وفي اليوم الآخر تدخل ولم يأت
بعد وقد وصفها الله لنا في كتابه بصفاتها ومحال ان يصف الله شيئا بصفة ثم يكون ذلك الشيء بغير تلك الصفة التي
وصفها به والقول بهذا دافع لما اخبر الله به قالوا وجدنا الله تبارك وتعالى وصف الجنة التي اعدت
للمتقين بعد قيام القيمة بدار المقامة ولم يقم آدم فيها ووصفها بجنة الخلد ولم يخلد آدم فيها ووصفها بانها
دار جزاء ولم يقل انها دار ابتلاء وقد ابتلى آدم فيها بالمعصية والفتنة ووصفها بانها ليس فيها حزن
وان الداخلين اليها يقولون الحمد لله الذي اذهب عنا الحزن وقد حزن فيها آدم وحواء وسماها دار السلام
ولم يسلم فيها آدم من الآفات التي تكون في الدنيا وسماها دار القرار ولم يستقر فيها آدم وقال فيمن
يدخلها وما هم منها بمخرجين وقد اخرج منها آدم بمعصيته وقال لا يمسهم فيها نصب وقد ندم آدم فيها
هاربا فارا عند اصابته المعصية وطفق يخصف ورق الجنة على نفسه وهذا النصب بعينه الذي نفاه
الله تعالى عنها واخبر انه لا يسمع فيها لغو ولا تأثيم وقد أثم فيها آدم واسمع ما هو اكبر من اللغو وهو انه
امر فيها بمعصية ربه واخبر انه لا يسمع فيها لغو ولا كذاب وقد اسمعه ابليس فيها الكذب وغره
وقاسمه عليه ايضا بعد ان اسمعه اياه وقد شرب آدم من شرابها الذي سماه في كتابه شرابا طهورا اي مطهرا
من جميع الآفات المذمومة وآدم لم يطهر من تلك الآفات وسماها الله تعالى مقعد صدق وقد كذب

ابليس فيها ادم ومقعد الصدق لا كذب فيه وعليون لم يكن فيه استحالة قط ولا تبديل ولا يكون باجماع المصلين
والجنة في اعلا عليين والله تعالى فانما قال اني جاعل في الارض خليفة ولم يقل انه جاعله في جنة
المأوى فقالت الملائكة اتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء والملائكة اتقى لله ان يقولوا ما لا تعلم وهم
القايلون لا علم لنا الا ما علمتنا وفي هذا دلالة ان الله قد كان اعلمهم ان بني ادم سيفسدون في الارض والا
فكيف كانوا يقولون ما لا يعلمون والله تعالى يقول وقوله الحق لا يسبقونه بالقول وهم بامره يعملون والملائكة لا
تقول ولا تعمل الا بما تومر به لا غير قال الله تعالى ويفعلون ما يومرون وقال الله تعالى
اخبارا ان ابليس قال لادم هل ادلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى فان كان اسكن الله ادم جنة الخلد والملك
الذي لا يبلى فكيف لم يرد عليه نصيحته ويكذبه في قوله ويقول وكيف تدلني على شيء انا فيه وقد اعطيته
واخبرت بل كيف لم يحتج الراي وجهه ويشبه لان ابليس ليس كان يكون بهذا الكلام مغويا له انما كان زاريا
عليه لانه انما وعده على معصيه ربه بما كان فيه لا زاريا عليه ومثل هذا لا يخاطب به المجانين الذي لا
يعقلون لان العوض الذي وعده به بمعصيه ربه قد كان احرزه وهو الخلد والملك الذي لا يبلى ولم يخبر الله
ادم اذا اسكنه الجنة انه فيها من الخالدين ولو كان فيها من الخالدين لما ركن الى قول ابليس ولا قبل نصيحته ولكنه
لما كان في غير دار خلود عز بما اطمعه فيه من الخلد فقبل منه ولو اخبر الله ادم انه في دار الخلد ثم شك في خبر
ربه لسماه كافرا ولما سماه عاصيا لان من شك في خبر الله فهو كافر ومن فعل غير ما امر الله وهو معتقد
للتصديق بخبره فهو عاص وانما سمى الله ادم عاصيا ولم يسمه كافرا قالوا فان كان ادم اسكن جنة
الخلد وهي دار القدس التي لا يدخلها الا طاهر مقدس فكيف توصل اليها ابليس الرجس النجس الملعون المذموم
المدحور حتى فتن فيها ادم وابليس فاسق قد فسق عن امر ربه وليست جنة الخلد دار الفاسقين ولا يدخلها
فاسق البتة انما هي دار المتقين وابليس غير تقي بعد ان قيل له اهبط منها فما يكون لك ان تتكبر فيها ايفسح له
ان يرقى الى جنة المأوى فوق السماء السابعة بعد السخط والابعاد له بالعتو والاستكبار هذا مضاد
لقوله تعالى فاهبط منها فما يكون لك ان تتكبر فيها فان كانت مخاطبة ادم بما خاطبه به وقاسمه عليه ليست
تكبرا فليس تعقل العرب التي نزل القران بلسانها ما التكبر ولعل ضعف رويته وفقر حجته ان يقول ان ابليس
لم يوصل اليها ولكن وسوسته وصلت فهذا اقول اشبه قايله وبيانكل معتقد وقول الله تعالى
حكم بيننا وبينه وقوله تعالى وقاسمهما يرد ما قال لان المقاسمة ليست وسوسة ولكنها مخاطبة
ومشافهة ولا يكون الا من اثنين وشاهدين غير غايبين ولا احدهما ومما يدل على ان وسوسته
كانت مخاطبة قول الله تعالى فوسوس اليه الشيطان قال يا ادم هل ادلك على شجرة الخلد وملك

الآية

فاخبر انه قال له وذلك يدل على انه انما وسوس اليه مخاطبة لا انه اوقع ذلك في نفسه بلا مقاولة فمن
ادعى على الظاهر تاويلا ولم يقم عليه دليلا لم يجب قبول قوله وعلى ان الوسوسة قد يكون كلاما مسموعا
اوصوتا قال رؤبة وسوس يدعو مخلصا رب الفلق وقال الاعشى
تسمع للحلي وسواسا اذا انصرفت كما استعان بريح عشرق زجل
قالوا وفي قول ابليس لهما ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة دليل على مشاهدته لهما وللشجرة ولما كان
ادم خارجا من الجنة وغير شاهد فيها لقال الله الم انهكما عن تلكما الشجرة ولم يقل عن هذه الشجرة
كما قال له ابليس لان ادم لم يكن حينئذ في الجنة ولا مشاهدا للشجرة مع قوله عز وجل اليه يصعد الكلم
الطيب والعمل الصالح يرفعه فقد اخبر سبحانه خبرا محكما غير متشابه انه لا يصعد الا كلم طيب وعمل
صالح وهذا اما قدمنا ذكره انه لا يلج المقدس المطهر الا مقدس مطهر طيب ومعاذ الله ان يكون وسوسة
ابليس مقدسة او طاهرة او خيرا بل هي شر كلها وظلمة وخبث ورجس تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا وكان
اعمال الكافرين لا يلج القدس الطاهر ولا يصل اليه لانها خبيثة غير طيبة كذلك لا يصل ولم يصل وسو
ابليس ولا وجد الى القدس قال تعالى كلا ان كتاب الفجار لفي سجين وقد روي عن
النبي صلى الله عليه وسلم ان ادم نام في جنته وجنة الخلد لا نوم فيها باجماع من المسلمين لان النوم وفاة
وقد نطق به القران والوفاة تقلب حال ودار السلام مسلمة من تقلب الاحوال والنائم ميت او كالميت
قالوا وقد روي عنه صلى الله عليه وسلم انه قال لام حارثة لما قالت له يا رسول الله
ان حارثة قتل معك فان كان صار الى الجنة صبرت واحتسبت وان كان صار الى ما سوى ذلك رايت
ما افعل فقال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم او جنة واحدة هي انما هي جنان كثيرة فاخبر صلى الله
عليه وسلم ان لله جنات كثيرة فلعل ادم اسكنه الله جنة من جنات ليست جنة الخلد قالوا وقد
جاء في بعض الاخبار ان جنة ادم كانت بارض الهند قالوا وهذا وان كان لا يصح رواة الاخبار
ونقلة الاثار فالذي يقبله الالباب ويشهد له ظاهر الكتاب ان جنة ادم ليست جنة الخلد ولا
دار البقاء وكيف يجوز ان يلون الله اسكن ادم جنة الخلد ليكون فيها من الخالدين وهو قايل للملائكة
اني جاعل في الارض خليفة وكيف خبر الملائكة انه يريد ان يجعل في الارض خليفة ثم يسكنه دار الخلود
ودار الخلود لا يدخلها الا من يخلد فيها كما سميت بدار الخلود فقد سماها الله بالاسماء التي تقدم ذكرنا
لها تسمية مطلقة لا خصوص فيها فاذا قيل الجنة دار الخلد لم يجز ان يعص مسمى هذا الاسم بحال فهذا
بعض ما احتج به القايلون بهذا المذهب وعلى هذا فاسكان ادم وذريته في هذه الجنة لا ينافي

بدله اليدم

شه

كونهم في دار الابتلاء والامتحان وحينئذ فكانت تلك الوجوه والفوائد التي ذكرتموها ممكنة الحصول في
الجنة فالجواب ان يقال هذا فيه قولان للناس ونحن نذكر القولين واحتجاج الفريقين
ونبين ثبوت الوجوه التي ذكرناها وامثالها على كلا القولين ونذكر اولا قول من قال انها جنة الخلد التي
وعدها المتقون وما احتجوا به وما نقضوا به حجج من قال انها غيرها ثم نتبعه بمقالة الآخرين وما
احتجوا به وما اجابوا به عن حجج منازعيهم من غير انتصاب لنصرة احد القولين وابطال الآخر اذ ليس غرضنا
ذلك وانما الغرض ذكر بعض الحكم والمصالح المقتضية لاخراج آدم من الجنة واسكانه في الارض في دار الابتلاء
والامتحان وكان الغرض بذلك الرد على من زعم ان حكمة الله سبحانه تأبى ادخال آدم الجنة وتعريضه للذنب
الذي اخرج منها به وانه اي فائدة في ذلك والرد على من ابطل ان يكون له في ذلك حكمة وانما هو صادر عن
محض المشيئة التي لا حكمة وراءها ولما كان المقصود حاصلا على كل تقدير سواء كانت جنة الخلد او غيرها
بنينا الكلام على التقديرين ورأينا ان الرد على هؤلاء بدون هذين التقديرين لا يحصل غرضا ولا يزيل مرضا
فسلكنا هذا السبيل ليكون قولهم مردودا على كل قول من اقوال الامة وبالله المستعان وعليه التكلان
ولا حول ولا قوة الا بالله فصل اما ما ذكرتموه من كون الجنة التي اهبط منها آدم
ليست جنة الخلد وانما هي جنة غيرها فهذا مما قد اختلف فيه الناس والمشهور عند الخاصة والعامة
الذي لا يخطر بقلوبهم سواه انها جنة الخلد التي اعدت للمتقين وقد نص غير واحد من السلف على ذلك
واحتج من نصر هذا بما رواه مسلم في صحيحه من حديث ابي مالك الاشجعي عن ابي حازم عن ابي هريرة وابو مالك
عن ربعي بن حراش عن حذيفة قالا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يجمع الله الناس حتى تزلف
لهم الجنة فيأتون آدم عليه السلام فيقولون يا ابانا استفتح لنا الجنة فيقول وهل اخرجكم من الجنة الا خطيئة
ابيكم آدم وذكر الحديث قالوا فهذا يدل على ان الجنة التي اخرج منها آدم هي بعينها التي يطلب منه ان
يستفتحها لهم قالوا ويدل عليه ان الله سبحانه قال يا آدم اسكن انت وزوجك
الجنة الى قوله اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم في الارض مستقر ومتاع الى حين فهذا يدل على ان
هبوطهم كان من الجنة الى الارض من وجهين احدهما من لفظ قوله اهبطوا فان الهبوط نزول
من علو الى سفل والثاني قوله تعالى ولكم في الارض مستقر عقب قوله اهبطوا فدل على انهم
لم يكونوا اولا في الارض وايضا فانه سبحانه وصف الجنة التي اسكنها آدم بصفات لا تكون في
الجنة الدنيوية فقال تعالى ان لك ان لا تجوع فيها ولا تعرى وانك لا تظمأ فيها ولا تضحى وهذا
لا يكون في الدنيا اصلا ولو كان الرجل في اطيب منازلها فلا بد ان يعرض له الجوع والظمأ والعري

والضحى

والضحى للشمس وايضا فانها لو كانت الجنة في الدنيا لعلم آدم كذب ابليس في قوله هل ادلك على شجرة
الخلد وملك لا يبلى فان آدم كان يعلم ان الدنيا منقضية فانية وان ملكها يبلى وايضا
فان قصة آدم في البقرة ظاهرة جدا في ان الجنة التي اخرج منها فوق السماء فانه سبحانه قال واذ قلنا
للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا الا ابليس ابى واستكبر وكان من الكافرين وقلنا يا آدم اسكن انت
وزوجك الجنة وكلا منها رغدا حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين فازلهما الشيطان
عنها فاخرجهما مما كانا فيه وقلنا اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم في الارض مستقر ومتاع الى حين
فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه انه هو التواب الرحيم فهذا اهباط آدم وحواء وابليس من
الجنة ولهذا اتى فيه بضمير الجمع وقيل انه خطاب لهم وللحية وهذا يحتاج الى نقل ثابت اذ لا
ذكر للحية في شيء من قصة آدم وابليس وقيل خطاب لآدم وحواء واتى فيه بلفظ الجمع كقوله
تعالى وكنا لحكمهم شاهدين وقيل لآدم وحواء وذريتهما وهذه الاقوال ضعيفة غير الاول
لانها بين قول لا دليل عليه وبين ما يدل الخطاب على خلافه فثبت ان ابليس داخل في هذا الخطاب
وانه من المهبطين من الجنة ثم قال تعالى قلنا اهبطوا منها جميعا فاما يأتينكم مني هدى فمن تبع هداي
فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون وهذا الاهباط الثاني لا بد ان يكون غير الاول وهو اهباط من
السماء الى الارض وحينئذ فتكون الجنة التي اهبطوا منها اولا فوق السماء وهي جنة الخلد وقد
ذهبت طائفة منهم الزمخشري الى ان قوله اهبطوا منها جميعا خطاب لآدم وحواء
خاصة وعبر عنهما بالجمع لاستتباعهما ذرياتهما قال والدليل عليه قوله تعالى قال
اهبطا منها جميعا بعضكم لبعض عدو فاما يأتينكم مني هدى قال ويدل على ذلك قوله فمن تبع
هداي فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون والذين كفروا وكذبوا بآياتنا اولئك اصحاب النار هم فيها خالدون
وما هو الا حكم يعم الناس كلهم ومعنى بعضكم لبعض عدو ما عليه الناس من التعادي والتباغض
وتضليل بعضهم لبعض وهذا الذي اختاره اضعف الاقوال في الآية فان العداوة التي ذكرها الله
انما هي بين آدم وابليس وذرياتهما كما قال تعالى ان الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا واما آدم
وزوجه فان الله سبحانه اخبر في كتابه انه خلقها منه ليسكن اليها وقال تعالى ومن آياته ان خلق
لكم من انفسكم ازواجا لتسكنوا اليها وجعل بينكم مودة ورحمة فهو سبحانه جعل المودة بين الرجل وزوجه
وجعل العداوة بين ابليس وآدم وذرياتهما ويدل عليه ايضا عود الضمير اليهم بلفظ الجمع وقد تقدم
ذكر آدم وزوجه وابليس فلماذا يعود الضمير على بعض المذكور مع منافرته لطريق الكلام ولا يعود على

في قوله فازلهما الشيطان عنها فاخرجهما هؤلاء الثلاثة آدم وزوجه وابليس

جميع المذكور مع انه وجه الكلام فان قيل لما تصنعون بقوله في سورة طه قال اهبطا منها
جميعا بعضكم لبعض عدو وهذا خطاب لادم وحوا وقد اخبر بعداوة بعضهم بعضا قيل اما ان
يكون الضمير في قوله اهبطا راجعا الى ادم وزوجه او يكون راجعا الى ادم وابليس ولم يذكر الزوجه
لانها تبع له وعلى الثاني فالعداوة المذكورة للمخاطبين بالاهباط وهما ادم وابليس وعلى الاول تكون
الايه قد اشتملت على امرين احدهما امر لادم وزوجه بالهبوط والثاني جعله العداوة بين ادم
وزوجه وابليس ولا بد ان يكون ابليس داخلا في حكم هذه العداوة قطعا كما قال تعالى له ان هذا عدو لك
ولزوجك وقال لذريته ان الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا وتامل كيف اتفقت المواضع
التي فيها العداوة على ضمير الجمع دون التثنيه واما ذكر الاهباط فتارة ياتي بلفظ ضمير الجمع وتارة بلفظ التثنيه
وتارة ياتي بلفظ الافراد لابليس وحده كقوله تعالى في سورة الاعراف قال ما منعك الا تسجد اذ
امرتك قال انا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين قال فاهبط منها فما يكون لك ان تتكبر فيها فهذا
الاهباط لابليس وحده والضمير في قوله منها قيل انه عائد الى الجنه وقيل عائد الى السماء وحيث
اتى بصيغة الجمع كان لادم وزوجه وابليس اذ مدار القصه عليهم وحيث اتى بلفظ التثنيه فاما ان يكون
لادم وزوجه اذ هما اللذان باشرا الاكل من الشجره واقدما على المعصيه واما ان يكون لادم وابليس اذ هما
ابوا الثقلين فذكر حالهما وما ال اليه امرهما ليكون عظة وعبرة لاولادهما والقولان محكيان
في ذلك وحيث اتى بلفظ الافراد فهو لابليس وحده وايضا فالذي يوضح ان الضمير في قوله اهبطا منها
جميعا لادم وابليس ان الله سبحانه لما ذكر المعصيه افرد بها ادم دون زوجه فقال وعصى ادم ربه فغوى
ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى وقال اهبطا منها جميعا وهذا يدل على ان المخاطب بالاهباط
هو ادم ومن زين له المعصيه ودخلت الزوجه تبعا وهذا لان المقصود اخبار الله تعالى لعباده المكلفين
من الجن والانس بما جرى على ابويهما من شوم المعصيه ومخالفة الامر لئلا يقتدوا بهما في ذلك فذكر
ابوي الثقلين ابلغ في حصول هذا المعنى من ذكر ابوي الانس فقط وقد اخبر سبحانه عن الزوجه
انها اكلت فعلم ان هذا اقتضى حكم الزوجه وانها صارت الى ما صار اليه ادم وكان تجريد العناية الى ذكر
حال الابوين اللذين هما اصل الذريه اولى من تجريدها الى ذكر ابوي الانس وابيهم والله اعلم وبالجمله
فقوله اهبطوا بعضكم لبعض عدو ظاهر في الجمع فلا يسوغ حمله على الاثنين في قوله اهبطا قالوا
واما قولكم انه كيف وسوس لهما بعد اهباطه من الجنه ومحال ان يصعد اليها بعد قوله تعالى اهبط منها
فجوابه من وجوه احدها انه اخرج منها ومنع من دخولها على وجه السكنى والكرامه واتخاذها

دارا فمن اين لكم انه منع من دخولها على وجه الابتلاء والامتحان لادم وزوجه ويكون هذا دخولا
عارضا كما تدخل الشرط دار من امروا بابتلائه ومحنته وان لم يكونوا اهلا لسكنى تلك الدار الثاني
انه لعله قام على الباب فناداهما وقاسمهما ولم يلج الجنه الرابع انه قد روي انه اراد الدخول عليهما
فمنعته الخزنه فدخل في فم الحيه حتى دخلت به عليهما ولا تشعر الخزنه بذلك قالوا ومما يدل على انها
جنه الخلد بعينها ان ها هنا معرفة بلام التعريف في جميع المواضع كقوله اسكن انت وزوجك الجنه
ولا جنه يعرفها المخاطبون الا جنه الخلد التي وعد الرحمن عباده بالغيب فقد صار هذا الاسم علما عليها
بالغلبه وان كان في اصل الوضع عبارة عن البستان ذي الثمار والفواكه وهذا كالمدينه لطيبه والنجم للثريا
ونظايرها فحيث ورد اللفظ معرفا بالالف واللام انصرف الى الجنه المعهوده في قلوب المومنين واما ان
اريد به جنه غيرها فانها تجي منكره كقوله جنتين من اعناب او مقيده بالاضافه كقوله ولولا اذ دخلت جنتك
او مقيده من السياق بما يدل على انها جنه في الارض كقوله تعالى انا بلوناهم كما بلونا اصحاب الجنه اذ اقسموا
ليصرمنها مصبحين الايات فهذا السياق والتقييد يدل على انها بستان في الارض قالوا وايضا فان
قد اتفق اهل السنه والجماعه على ان الجنه والنار مخلوقتان وقد تواترت الاحاديث عن النبي صلى الله عليه وسلم
بذلك كما في الصحيحين عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال ان احدكم
اذا مات عرض عليه مقعده بالغداة والعشي ان كان من اهل الجنه فمن اهل الجنه وان كان من اهل النار فمن اهل
النار فيقال هذا مقعدك حتى يبعثك الله يوم القيمه وفي الصحيحين من حديث ابي سعيد الخدري
رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال اختصمت الجنه والنار فقالت الجنه ما لي لا يدخلني الا ضعفاء
الناس وسقطهم وقالت النار ما لي يدخلني الجبارون والمتكبرون فقال للجنه انت رحمتي ارحم بك من اشاء
وقال للنار انت عذابي اعذب بك من اشاء الحديث وفي السنن عن ابي هريرة رضي الله عنه
ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لما خلق الله الجنه والنار ارسل جبريل صلى الله عليه وسلم الى الجنه فقال
اذهب فانظر اليها والى ما اعددت لاهلها فيها قال فذهب فنظر اليها والى ما اعد الله لاهلها الحديث
وفي الصحيحين في حديث الاسراء ثم رفعت لي سدرة المنتهى فاذا ورقها مثل اذان الفيول
واذا نبقها مثل قلال هجر واذا اربعه انهار نهران ظاهران ونهران باطنان فقلت ما هذا يا جبريل قال
اما النهران الظاهران فالنيل والفرات واما الباطنان فنهران في الجنه وفيه ايضا ثم ادخلت الجنه
فاذا جنابذ اللولو واذا ترابها المسك وفي صحيح البخاري عن انس قال بينا انا اسير في
الجنه اذا بنهر حافتاه قباب الدر المجوف قلت ما هذا يا جبريل قال هذا الكوثر الذي اعطاك ربك

فضرب الملك بيده فاذا طينه مسك اذفر وفي صحيح مسلم في حديث صلاة الكسوف ان النبي صلى
الله عليه وسلم جعل يتقدم ويتأخر في الصلاة ثم اقبل على اصحابه فقال اني عرضت الجنة والنار فقربت مني الجنة
حتى لو تناولت منها قطفا لاكلتم منه ما بقيت الدنيا وفي صحيح مسلم عن ابن مسعود في قوله تعالى ولا
تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله امواتا بل احياء عند ربهم يرزقون قال ارواحهم في جوف طير خضر لها قناديل
معلقة بالعرش تسرح من الجنة حيث شاءت ثم تأوي الى تلك القناديل فاطلع عليهم ربك اطلاعة فقال
هل تشتهون شيئا فقالوا اي شيء نشتهي ونحن نسرح من الجنة حيث شئنا الحديث وفي الصحيح
من حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لما اصيب اخوانكم باحد جعل
الله ارواحهم في اجواف طير خضر ترد انهار الجنة وتأكل من ثمارها وتأوي الى قناديل من ذهب معلقة في ظل
العرش فلما وجدوا طيب مأكلهم ومشربهم ومقيلهم قالوا من يبلغ عنا اخواننا انا في الجنة نرزق
لئلا يزهدوا في الجهاد ولا ينكلوا عند الحرب فقال الله انا ابلغهم عنكم فانزل الله عز وجل ولا تحسبن الذين
قتلوا في سبيل الله الاية وفي الموطأ من حديث كعب بن مالك رضي الله عنه ان رسول الله صلى الله عليه وسلم
قال انما نسمة المؤمن طير يعلق في شجر الجنة حتى يرجعه الله الى جسده يوم يبعثه وفي البخاري
ان ابراهيم بن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما توفي قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان له مرضعا في الجنة
وفي صحيح البخاري عن عمران بن حصين رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم اطلعت في
الجنة فرأيت اكثر اهلها الفقراء واطلعت على النار فرأيت اكثر اهلها النساء والاثار في هذا الباب
اكثر من ان تذكر واما القول بان الجنة والنار لم تخلقا بعد فهو قول اهل البدع من ضلال المعتزلة ومن قال
بقولهم وهم الذين يقولون ان الجنة التي اهبط منها ادم انما كانت جنة بستان في الارض وهذه الاحاديث
وامثالها ترد قولهم قالوا واما احتجاجكم بسائر الوجوه التي ذكرتموها في الجنة وانها منتفية في
الجنة التي اسكنها ادم من اللغو والكذب والنصب والعري وعندنا ان هذا كله حق لا نشك نحن
ولا احد من اهل الاسلام ولكن هذا انما هو اذا دخلها المؤمنون يوم القيمة كما يدل عليه سياق
الكلام وهذا لا ينفي ان يكون فيها من ادم وابليس ما حكاه الله عز وجل من الامتحان والابتلاء ثم يصير
الامر عند دخول المؤمنين الى ما اخبر الله عز وجل به فلا تنافي بين الامرين قالوا واما قولكم ان الجنة
دار جزاء وثواب وليست دار تكليف وقد كلف الله سبحانه ادم فيها بالنهي عن الشجرة فجوابه من وجهين
احدهما انما يمتنع ان تكون دار تكليف اذا دخلها المؤمنون يوم القيمة فحينئذ ينقطع التكليف ابهام
واما امتناع وقوع التكليف فيها في دار الدنيا فلا دليل عليه الثاني ان التكليف فيها لم يكن

بالاعمال

بالاعمال التي يكلف بها الناس في الدنيا من الصيام والصلاة والجهاد ونحوها وانما كان حجرا عليهما في شجرة من
جملة اشجارها وهذا لا يمتنع وقوعه في جنة الخلد كما ان كل احد محجور عليه ان يقرب اهل غيره
فيها فان اردتم بان الجنة ليست دار تكليف امتناع وقوع مثل هذا فيها في وقت من الاوقات فلا دليل لكم عليه
وان اردتم ان غالب التكاليف التي تكون في الدنيا منتفية فيها فهو حق ولكن لا يدل على مطلوبكم قالوا
وهذا كما انه موجب الدليل فهو قول سلف الامة فلا يعرف بقولكم قائل من ائمة العلم ولا يعرج عليه
ولا يلتفت اليه قال الاولون الجواب عما ذكرتم من وجهين مجمل ومفصل اما المجمل فانكم
لم تأتوا على قولكم بدليل يعين المصير اليه لا من قرآن ولا من سنة ولا اثر ثابت عن احد من اصحاب رسول الله
صلى الله عليه وسلم ولا التابعين لا مسندا ولا مقطوعا ونحن نوجدكم من قال بقولنا هذا سفيان
ابن عيينة قال في قوله عز وجل ان لك ان لا تجوع فيها ولا تعرى قال يعني في الارض وهذا ابو
عبد الله بن مسلم بن قتيبة قال في معارفه بعد ان ذكر خلق الله لادم وزوجته ان الله سبحانه اخرجه من
جنة عدن الى الارض التي منها اخذ وهذا ابي قد حكى الحسن عنه ان ادم لما احتضر اشتهى قطفا من
قطف الجنة فانطلق بنوه ليطلبوه له فلقيتهم الملائكة فقالوا اين تريدون يا بني ادم فقالوا ان ابانا
اشتهى قطفا من قطف الجنة فقالوا لهم ارجعوا فقد كفيتموه فانتهوا اليه فقبضوا روحه وغسلوه
وحنطوه وكفنوه وصلى عليه جبريل ومن خلفه الملائكة ودفنوه وقالوا هذه سنتكم في موتاكم
وهذا ابو صالح قد نقل عن ابن عباس في قوله اهبطوا منها قال هو كما يقال هبط فلان
ارض كذا وكذا وهذا وهب بن منبه يذكر ان ادم خلق في الارض وفيها سكن وفيها نصب له الفردوس
وانه كان بعدن وان سيحون وجيحون والفرات انقسمت من النهر الذي كان في وسط الجنة وهو
الذي كان يسقيها وهذا منذر بن سعيد البلوطي اختاره في تفسيره ونصره بما حكيناه عنه وحكاه
في غير التفسير عن ابي حنيفة رضي الله عنه وقد قال بقوله والذين ردوا عليه فقالت له لم ينكروا
نسبته الى ابي حنيفة وانما قصدوا بكونه خالف ابا حنيفة فيما خالفه فيه فلم قال بقوله في هذه
المسألة وهذا ابو مسلم الاصبهاني صاحب التفسير وغيره احد الفضلاء المشهورين
قال بهذا وانتصر له واحتج عليه بما هو معروف في كتابه وهذا ابو محمد عبد الحق بن
عطية ذكر القولين في تفسيره في قصة ادم في البقرة وهذا ابو محمد بن حزم ذكر
القولين في كتاب الملل والنحل له فقال وكان منذر بن سعيد القاضي يذهب الى ان الجنة
والنار مخلوقتان الا انه كان يقول انها ليست هي التي كان فيها ادم وامرأته ومن حكى القولين

ايضًا ابو عيسى الرماني في تفسيره واختار انها جنة الخلد ثم قال والمذهب الذي اخترناه قول
الحسن وعمرو بن واصل واكثر اصحابنا وهو قول ابي علي وشيخنا ابي بكر وعليه اهل التفسير وممن ذكر
القولين ابو القسم الراغب في تفسيره فقال واختلف في الجنة التي اسكنها ادم فقال بعض المتكلمين
كان بستانا جعله الله امتحانا ولم يكن جنة المأوى ثم قال ومن قال لم يكن جنة الخلد لانه
لا تكليف في الجنة وادم كان مكلفا قال وقد قيل في جوابه انما لا يكون دار التكليف في الاخرة ولا يمتنع
ان يكون في وقت دار تكليف دون وقت كما ان الانسان يكون في وقت مكلفا دون وقت وممن ذكر الخلاف
في المسئلة ابو عبد الله بن الخطيب في تفسيره فذكر هذين القولين وقولا ثالثا وهو التوقف في الايجاز
الجمع وعدم الوصول الى القطع كما سياتي حكاية كلامه ومن المفسرين من لم يذكر غير هذا القول وهو انها
لم تكن جنة الخلد انما كانت جنة بشأ الله من الارض قالوا وكانت تطلع فيها الشمس والقمر وكان
ابليس فيها ثم اخرج قال ولو كانت جنة الخلد لما اخرج منها وممن ذكر القولين ايضًا
ابو الحسن الماوردي فقال في تفسيره واختلف في الجنة التي اسكناها على قولين احدهما انها جنة
الخلد الثاني انها جنة اعدها الله لهما وجعلها دار ابتلاء وليست جنة الخلد التي جعلها الله دار جزاء
ومن قال هذا اختلفوا فيه على قولين احدهما انها في السماء لانه اهبطهما منها وهذا قول
الحسن والثاني انها في الارض لانه امتحنهما فيها بالنهي عن الشجرة التي نهيا عنها دون غيرها من الثمار
وهذا قول ابن يحيى وكان ذلك بعد ان امر ابليس بالسجود لادم والله اعلم بصواب ذلك
هذا كلامه وقال ابن الخطيب في تفسيره اختلفوا في ان الجنة المذكورة في هذه الاية هل كانت
في الارض او في السماء وبتقدير انها كانت في السماء فهل هي الجنة التي هي دار الثواب او جنة الخلد او جنة
اخرى فقال ابو القسم البلخي وابو مسلم الاصبهاني هذه الجنة في الارض وحملا الاهباط
على الانتقال من بقعة الى بقعة كما في قوله تعالى اهبطوا مصرا القول الثاني
وهو قول الجبائي ان تلك كانت في السماء السابعة قال والدليل عليه قوله اهبطوا ثم ان الاهباط
الاول كان من السماء السابعة الى السماء الاولى والاهباط الثاني كان من السماء الى الارض قال
والقول الثالث وهو قول جمهور اصحابنا ان هذه الجنة هي دار الثواب والدليل عليه ان الالف
واللام في لفظ الجنة لا يفيدان العموم لان سكنى جميع الجنان محال فلا بد من صرفها الى المعهود السابق
والجنة هي المعهودة المعلومة بين المسلمين هي دار الثواب فوجب صرف اللفظ اليها قال والقول
الرابع ان الكل ممكن والادلة النقلية ضعيفة ومتعارضة فوجب التوقف وترك القطع قالوا ونحن

بلغ مقابلة

لا نقلد

لا نقلد هؤلاء ولا نعتمد على ما حكي عنهم والحجة الصحيحة حكم بين المتنازعين قالوا وقد ذكرنا
على هذا القول ما فيه كفاية واما الجواب المفصل فنحن نتكلم على ما ذكرتم من الحجج لينكشف
وجه الصواب فنقول وبالله التوفيق اما استدلالكم بحديث ابي هريرة وحذيفة حين يقول
الناس لادم استفتح لنا الجنة فيقول وهل اخرجكم منها الا خطيئة ابيكم فهذا الحديث لا يدل على
ان الجنة التي طلبوا منه ان يستفتحها لهم هي التي اخرج منها بعينها فان الجنة اسم جنس فكل بستان
يسمى جنة كما قال تعالى انا بلوناهم كما بلونا اصحاب الجنة اذ اقسموا ليصرمنها مصبحين وقال
تعالى وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الارض ينبوعا او تكون لك جنة من نخيل وعنب وقال تعالى
ومثل الذين ينفقون اموالهم ابتغاء مرضات الله كمثل جنة بربوة وقال تعالى واضرب لهم
مثلا رجلين جعلنا لاحدهما جنتين من اعناب وحففناهما بنخل الى قوله ولولا اذ دخلت جنتك
قلت ما شاء الله لا قوة الا بالله فالجنة اسم جنس فهم لما طلبوا من ادم ان يستفتح لهم جنة الخلد اخبرهم
بانه لا يحسن منه ان يقدم على ذلك وقد اخرج نفسه وذريته من الجنة التي اسكنه الله اياها بذنبه
وخطيئته هذا الذي دل عليه الحديث واما كون الجنة التي اخرج منها هي بعينها التي طلبوا
منه ان يستفتحها لهم فلا يدل الحديث عليه بنوع من وجوه الدلالات الثلاث ولو دل عليه لوجب المصير
الى مدلول الحديث وامتنع القول بمخالفته وهل مرادنا الا على ما هم كلام الصادق المصدوق صلوات
الله وسلامه عليه قالوا واما استدلالكم بالهبوط وانه نزول من علو الى سفل فجوابه
من وجهين احدهما ان الهبوط قد استعمل في النقلة من ارض الى ارض كما يقال هبط فلان بلد كذا
وكذا وقال تعالى اهبطوا مصرا فان لكم ما سالتم وهذا كثير في نظم العرب ونثرها
قال ان يهبطن بلاد قوم يرتعون من الطلاح
وقد روى ابو صالح عن ابن عباس رضي الله عنهما قال هو كما يقال هبط فلان ارض كذا وكذا
الثاني انا لا ننازعكم في ان الهبوط حقيقة ما ذكرتموه ولكن من اين يلزم ان يكون الجنة التي منها الهبوط
فوق السموات فاذا كانت في اعلى الارض اما يصح ان يقال هبط منها كما هبط الحجر من اعلى الجبل الى اسفله
ونحوه واما قوله تعالى ولكم في الارض مستقر ومتاع الى حين فهذا يدل على ان الارض التي
اهبطوا اليها لهم فيها مستقر الى حين ولا يدل على انهم لم يكونوا في جنة عالية على الارض التي
اهبطوا اليها تخالف الارض في صفاتها واشجارها ونعيمها وطيبها فالله سبحانه فاوت بين بقاع الارض
اعظم تفاوت وابينه وهذا مشهود بالحس فمن اين لكم ان تلك لم تكن جنة تميزت عن سائر بقاع الارض

ويقال لها النعيم

معنى

بما لا يكون الا فيها ثم اهبطوا منها الى الارض التي هي محل التعب والنصب والابتلاء والامتحان وهذا
بعينه هو استدلالكم بقوله تعالى ان لك ان لا تجوع فيها ولا تعرى الى اخرها اذ ذكر ثم قولوا ان هذا حكم معلق
بشرط والشرط لم يحصل فانه سبحانه انما قال ذلك عقب قوله ولا تقربا هذه الشجرة فقوله ان لك ان
لا تجوع فيها ولا تعرى هو صيغة وعد مرتبط بما قبلها والمعنى ان اجتنبت الشجرة التي نهيتك عنها ولم
تقربها كان لك هذا الوعد والحكم المعلق بالشرط عدم عند عدم الشرط فلما اكل من الشجرة زال استحقاقه
لهذا الوعد **قالوا واما** قولكم انه لو كانت الجنة في الدنيا لعلم ادم كذب ابليس في قوله
هل ادلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى الى اخره فدعوى لا دليل عليها لانه لا دليل لكم على ان الله سبحانه كان قد
اعلم ادم حين خلقه ان الدنيا منقضية فانية وان ملكها يبلى ويزول وعلى تقدير ان يكون ادم حينئذ قد
اعلم ذلك فقول ابليس هل ادلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى لا يدل على انه اراد بالخلد ما لا انتهاء له فان الخلد
في لغة العرب هو اللبث الطويل كقولهم قيد مخلد وحبس مخلد وقوله تعالى لثمود اتبنون بكل ريع
اية تعبثون وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون وكذلك قوله وملك لا يبلى يراد به الملك الطويل الثابت
وايضا فلا وجه للاعتذار عن قول ابليس مع تحقق كذبه ومقاسمته ادم وحوا على الكذب والله سبحانه قد اخبر انه
قاسمهما ودلاهما بغرور وهذا يدل على انهما اغترا بقوله فغرهما بان اطمعهما في الخلد والملك الذي لا
يبلى وبالجملة فالاستدلال بهذا على كون الجنة التي اسكنها ادم هي جنة الخلد التي وعد المتقون غير بين
ثم نقول لو كانت الجنة هي جنة الخلد التي لا يزول ملكها لكانت جميع اشجارها شجر الخلد فلم يكن لتلك الشجرة
اختصاص من بين سائر الشجر بكونها شجرة الخلد وكان ادم يسخر من ابليس اذ علم ان الجنة دار الخلد فان قلتم
لعل ادم لم يعلم حينئذ ذلك فغره اللعين وخدعه بان هذه الشجرة وحدها هي شجرة الخلد قلنا فاقنعوا
منا بهذا الجواب بعينه عن قولكم لو كانت الجنة في الدنيا لعلم ادم كذب ابليس في ذلك فان قوله كان خداعا
وغرورا محضا على كل تقدير فما تقولون في ذلك نقوله علينا والله التوفيق **قالوا واما** قولكم
ان قصة ادم في البقرة ظاهرة جدا في ان جنة ادم كانت فوق السماء فنحن نطالبكم بهذا الظهور ولا سبيل لكم
اليه ابدا وقولكم انه كرر فيه ذكر الهبوط مرتين ولا بد ان يفيد الثاني غير ما افاد الاول فيكون الهبوط الاول
من الجنة والثاني من السماء هذا فيه طائفة من اهل التفسير فقالت طائفة هذا القول الذي
ذكرتموه وقالت طائفة منهم النقاش وغيره ان الهبوط الثاني انما هو من الجنة الى السماء والهبوط الاول
الى الارض وهو اخر الهبوطين في الوقوع وان كان اولهما في الذكر وقالت طائفة اخرى هو على جهة
التغليظ والتاكيد كما تقول للرجل اخرج اخرج وهذه الاقوال ضعيفة فاما القول الاول فظاهر ضعفه

رجوع

من وجوه احدها انه مجرد دعوى لا دليل عليها من اللفظ ولا من خبر يجب المصير اليه وما كان هذا
سبيله لا يحمل القران عليه الثاني ان الله سبحانه قد اهبط ابليس لما امتنع من السجود لادم اهباطا كونيا قدريا
لا سبيل له الى التخلف عنه فقال تعالى اهبط منها فما يكون لك ان تتكبر فيها فاخرج انك من الصاغرين
وقال في موضع اخر واخرج منها فانك رجيم وان عليك اللعنة الى يوم الدين وفي موضع اخر
اخرج منها مذءوما مدحورا لمن تبعك منهم لاملان جهنم منكم اجمعين وسواء كان الضمير في قوله منها راجعا
الى السماء او الى الجنة فهذا صريح في اهباطه وطرده ولعنه وادحاره والمدحور المبعد وعلى هذا فلو
كانت الجنة فوق السموات لكان قد صعد اليها بعد اهباط الله له وهذا وان كان ممكنا فهو في غاية
البعد عن حكمة الله ولا تقتضيه حكمته فلا ينبغي ان يصار اليه واما الوجوه الاربعة التي ذكرتموها من صعوده للوسوسة
فهي مع امر الله تعالى له بالهبوط مطلقا وطرده ولعنه ودحوره لا دليل عليها لا من اللفظ ولا من الخبر الذي
يجب المصير اليه وما هي الا احتمالات مجردة وتقديرات لا دليل عليها الثالث ان سياق قصة اهباط
الله تعالى لابليس ظاهر في انه اهباط الى الارض من وجوه احدها انه سبحانه نبه على حكمة اهباطه بما قام
من التكبر المقتضي غاية ذله وطرده ومعاملته بنقيض قصده وهو اهباطه من فوق السموات الى قرار الارض
ولا تقتضي الحكمة ان يكون فوق السماء مع كبره ومنافاة حاله لحال الملائكة الاكرمين الثاني انه قال
فاخرج منها فانك رجيم وان عليك لعنتي الى يوم الدين وكونه رجيما ملعونا ينافي ان يكون في السماء بين المقربين
المطهرين الثالث انه قال اخرج منها مذءوما مدحورا وملكوت السموات لا يعلوها المذموم المدحور
ابدا واما القول الثاني فهو الاول بعينه مع زيادة ما لا يدل عليه السياق بحال من تقديم ما هو مؤخر في الواقع وتاخير
ما هو مقدم فيه فيرد بما يرد به القول الذي قبله **واما القول الثالث** وهو انه للتاكيد فان اريد
التاكيد اللفظي المجرد فهذا لا يقع في القران وان اريد به انه مستلزم للتغليظ والتاكيد مع ما يشتمل عليه
من الفائدة فصحيح والصواب ان يقال اعاد الاهباط مرة ثانية لانه علق عليه حكما غير المعلق على
الاهباط الاول فانه علق على الاول عداوة بعضهم بعضا فقال اهبطوا بعضكم لبعض عدو وهذه
جملة حالية وهي اسمية بالضمير وحده عند الاكثرين والمعنى اهبطوا متعادين وعلق على الهبوط الثاني
حكمين اخرين احدهما اهبطوا منها جميعا والثاني قوله فاما ياتينكم مني هدى فمن تبع هداي فلا خوف
عليهم ولا هم يحزنون فكانه قيل اهبطوا بهذا الشرط ماخوذا عليكم هذا العهد وهو انه مهما جاءكم مني هدى
فمن اتبعه منكم فلا خوف عليه ولا حزن فالحكمة في الاهباط الاول ايذان بالعقوبة ومقابلتهم على الجريمة
وفي الاهباط الثاني روح التسلية والاستبشار بحسن عاقبة هذا الهبوط لمن تبع هداي وتضمن الحـ

الأمن والسرور المضاد للخوف والحزن فكسرهم بالإهباط وجبرهم باتباع هداه بالإهباط الثاني على عادته
سبحانه ولطفه بعباده وأهل طاعته كما كسر آدم بالإخراج من الجنة وجبره بالكلمات التي تلقاها منه فتاب عليه
وهداه ومن تدبر حكمته سبحانه ولطفه وبره بعباده وأحبابه في كسره لهم ثم جبره بعد الانكسار كما يكسر العبد بالذنب
ويذله به ثم يجبره بتوبته عليه ومغفرته له وكما يكسره بأنواع المصائب والمحن ثم يجبره بالعافية والنعمة انفتح
له باب عظيم من أبواب معرفته ومحبته وعلم أنه أرحم بعباده من الوالدة بولدها وأن ذلك الكسر هو نفس رحمته
به وبره ولطفه وهو أعلم بمصلحته منه ولكن العبد لضعف بصيرته ومعرفته بأسماء ربه وصفاته لا
يكاد يشعر بذلك عنده ولا ينال رضى المحبوب وقربه والابتهاج والفرح بالدنو منه والزلفى لديه إلا على
جسر من الذل والمسكنة وعلى هذا قام أمر المحبة فلا سبيل إلى الوصول إلى المحبوب إلا بذلك كما قيل

تذلل لمن تهوى لتحظى بقربه ... فكم عزة قد نالها العبد بالذل
إذا كان من تهوى عزيزا ولم تكن ... ذليلا له فاقرأ السلام على الوصل

وقال آخر: اخضع وذل لمن تحب فليس في ... شرع الهوى أنف يشال ويعقد
وقال آخر: وما فرحت بالوصل نفس عزيزة ... وما العز إلا ذلها وانكسارها

قالوا وإذا علم أن إبليس أهبط من دار العز عقب امتناعه وإبائه من السجود لآدم ثبت أن وسوسته
له ولزوجه كانت في غير المحل الذي أهبط منه والله أعلم قالوا وأما قولكم إن الجنة إنما جاءت معرفة
باللام وهي تنصرف إلى الجنة التي لا يعهد سواها أو ما سواها فلا ريب أنها جاءت كذلك ولكن العهد وقع في خطاب
الله تعالى لآدم لسكناها بقوله اسكن أنت وزوجك الجنة فهي كانت معهودة عند آدم ثم أخبرنا سبحانه عنها
معرفا لها بلام التعريف فانصرف المعرف بها إلى تلك الجنة المعهودة في الذهن وهي التي سكنها آدم ثم أخرج
منها فأين في هذا ما يدل على محلها وموضعها بنفي أو إثبات وأما مجيء جنة الخلد معرفة باللام فلأنها الجنة
التي أخبرت بها الرسل لأممهم ووعدها الرحمن عباده بالغيب حتى إذا ذكرت انصرف الأذهان دون غيرها
لأنها قد صارت معلومة في القلوب مستقرة فيها فلا ينصرف الذهن إلى غيرها ولا يتوجه الخطاب إلى سواها
وقد جاءت الجنة في القرآن معرفة باللام والمراد بها بستان في بقعة من الأرض كقوله تعالى إنا بلوناهم كما بلونا
أصحاب الجنة إذ أقسموا ليصرمنها مصبحين فهذا لا ينصرف الذهن فيها إلى جنة الخلد ولا إلى
جنة آدم بحال قالوا وأما قولكم إنه قد اتفق أهل السنة والجماعة على أن الجنة والنار مخلوقتان وإنه لم
ينازع في ذلك إلا بعض أهل البدع والضلال واستدلالكم على وجود الجنة الآن نحن لا ننازعكم فيه وعندنا من
الأدلة على وجودهما أضعاف ما ذكرتم ولكن أي تلازم بين أن تكون جنة الخلد مخلوقة وبين أن تكون هي جنة

آدم بعينها

وكأنكم تزعمون أن كل من قال إن جنة آدم هي جنة في الأرض فلا بد له أن يقول إن الجنة والنار لم يخلقا بعد وهذا
غلط منكم منشؤه من توهمكم أن كل من قال إن الجنة لم تخلق بعد فإنه يقول إن جنة آدم هي في الأرض وكذلك
بالعكس أن كل من قال إن جنة آدم في الأرض فيقول إن الجنة لم تخلق بعد فأما الأول فلا ريب فيه وأما الثاني
فوهم لا تلازم بينهما لا في المذهب ولا في الدليل بحال فأنتم نصبتم دليلكم مع طائفة نحن وأنتم متفقون على إنكار
قولهم ورده وإبطاله ولكن لا يلزم من هذا إبطال هذا القول الثالث وهذا واضح قالوا
وأما قولكم إن جميع ما نفاه الله سبحانه عن الجنة من اللغو والكذب وسائر الآفات التي وجد بعضها من إبليس
عدو الله فهذا إنما يكون بعد القيامة إذا دخلها المؤمنون كما يدل عليه السياق فجوابه
من وجهين أحدهما أن ظاهر الخبر يقتضي نفيه مطلقا لقوله تعالى لا لغو فيها ولا تأثيم ولقوله تعالى
لا تسمع فيها لاغية فهذا نفي عام لا يجوز تخصيصه إلا بمخصص بين والله سبحانه قد حكم بأنها دار الخلد مطلقا حكم
فلا يدخلها إلا خالد فيها فتخصيصكم هذه التسمية بما بعد القيامة خلاف الظاهر الثاني أن ما ذكرتم إنما
يصار إليه إذا قام الدليل السالم عن المعارض المقاوم على أنها جنة الخلد بعينها وحينئذ يتعين المصير إلى ما ذكرتم
فأما إذا لم يقم دليل سالم على ذلك ولم تجمع الأمة عليه فلا يسوغ مخالفة ما دلت عليه النصوص البينة بغير
موجب والله أعلم قالوا ومما يدل على أنها ليست جنة الخلد التي وعدها المتقون أن الله سبحانه
لما خلق آدم أعلمه أن لعمره أجلا ينتهي إليه وأنه لم يخلقه للبقاء ويدل على هذا ما رواه الترمذي
في جامعه قال ثنا محمد بن بشار ثنا صفوان بن عيسى ثنا الحارث بن عبد الرحمن بن أبي ذباب عن سعيد بن أبي
سعيد المقبري عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لما خلق الله آدم ونفخ فيه الروح عطس
فقال الحمد لله فحمد الله بإذنه فقال له ربه يرحمك الله يا آدم اذهب إلى أولئك الملائكة إلى ملإ منهم جلوس فقل
السلام عليكم قالوا وعليك السلام ثم رجع إلى ربه فقال إن هذه تحيتك وتحية بنيك بينهم فقال الله له
ويداه مقبوضتان اختر أيهما شئت قال اخترت يمين ربي وكلتا يدي ربي يمين مباركة ثم بسطها فإذا فيها
آدم وذريته فقال أي رب ما هؤلاء قال هؤلاء ذريتك فإذا كل إنسان مكتوب عمره بين عينيه فإذا فيهم رجل
أضوأهم أو من أضوئهم قال يا رب من هذا قال هذا ابنك داود وقد كتبت له عمر أربعين سنة قال يا رب زده
في عمره قال ذاك الذي كتبت له قال أي رب فإني قد جعلت له من عمري ستين سنة قال أنت وذاك قال ثم
أسكن الجنة ما شاء الله ثم أهبط منها وكان آدم يعد لنفسه فأتاه ملك فقال له آدم قد عجلت قد كتب لي
ألف سنة قال بلى ولكنك جعلت لابنك داود ستين سنة فجحد فجحدت ذريته ونسي فنسيت ذريته قال
فمن يومئذ أمر بالكتاب والشهود هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه وروي من غير وجه عن أبي

عنه رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قالوا فهذا صريح في ان ادم لم يكن مخلوقا في دار الخلد التي لا يموت من دخلها
وانما خلق في دار الفناء التي جعل الله لها ولاهلها اجلا معلوما وفيها اسكن فان قيل فاذا كان قد علم ان
له عمرا ينتهي اليه وانه ليس من الخالدين فكيف لم يكذب ابليس ويعلم بطلان قوله حين قال هل ادلك على شجرة
الخلد بل جوز ذلك واكل من الشجرة طمعا في الخلد **فالجواب** ما تقدم من الوجهين اما ان
يكون المراد بالخلد المكث الطويل لا الابد الابدي ويكون عدو ابليس لما قاسمه وزوجه وغرهما واطمعهما بدوامهما
في الجنة نسي ما قدر له من عمره قالوا والمعول عليه في ذلك قوله تعالى اني جاعل في الارض خليفة وهذا
الخليفة هو ادم باتفاق الناس ولما تعجبت الملائكة من ذلك قالوا اتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء
ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك اخبرهم سبحانه ان هذا الخليفة الذي هو جاعله في الارض ليس حاله كما توهمتم من
الفساد بل اعلمه علي ما لا تعلمونه فاظهر فضله وشرفه بان علمه الاسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فلم يعرفوها
وقالوا سبحانك لا علم لنا الا ما علمتنا انك انت العليم الحليم وهذا ادل على ان هذا الخليفة الذي
سبق من اخبار الرب تعالى للملائكة واظهر تعالى فضله وشرفه وعلمه بما لم يعلمه الملائكة هو خليفة مجعول في
الارض لا فوق السموات فان قيل قوله تعالى اني جاعل في الارض خليفة انما هو بمعنى سأجعله في الارض
فهو مآله ومصيره وهذا لا ينافي ان يكون في جنة الخلد فوق السموات اولا ثم يصير الى الارض للخلافة التي جعلها
الله له واسم الفاعل هنا بمعنى الاستقبال ولهذا انتصب عنه المفعول **فالجواب** ان الله سبحانه
اعلم ملائكته بانه يخلق خليفة في الارض لا في جنة الخلود وخبره الصدق وقوله الحق وقد علمت الملائكة انه
هو ادم ولو كان قد اسكنه دار الخلود فوق السماء لم يظهر للملائكة وقوع المخبر ولم يحاجوا الحال بعينهم
فضله وشرفه وعلمه المتضمن رد قولهم اتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء فانهم سالوا هذا السؤال
في الخليفة المجعول في الارض فاما من هو في دار الخلد فوق السما فلم يتوهم الملائكة منه سفك الدماء والفساد
في الارض ولا كان اظهار فضله وشرفه وعلمه وهو فوق السماء مرادا لقولهم وجوابا لسؤالهم بل الذي يحصل
جوابهم وضد ما توهموه اظهار تلك الفضايل والعلوم منه وهو في محل خلافته التي ظنوها وتوهمت
الملائكة انه لا يحصل منه هناك الا ضد ذلك من الفساد وسفك الدماء وهذا واضح لمن تامله واما اسم
الفاعل وهو جاعل وان كان بمعنى الاستقبال فلان هذا اخبار عما سيفعله الرب تعالى في المستقبل من
جعله للخليفة في الارض وقد صدق وعده ووقع ما اخبر به وهذا ظاهر في انه من اول الامر جعله خليفة
في الارض واما جعله في السماء اولا ثم جعله خليفة في الارض ثانيا وان كان مما لا ينافي الاستخلاف المذكور فهو
مما لا يقتضيه اللفظ بوجه بل هو شي ظاهر خلافه ولا يصار اليه الا بدليل يوجب المصير اليه وقوله قالوا

وايضا

وايضا فمن المعلوم الذي لا يخالف فيه مسلم ان الله سبحانه خلق ادم من تراب وهو تراب هذه الارض بلا ريب
كما روى الترمذي في جامعه من حديث عوف عن قسامة بن زهير عن ابي موسى الاشعري رضي الله عنه قال قال
رسول الله صلى الله عليه وسلم ان الله تبارك وتعالى خلق ادم من قبضة قبضها من جميع الارض فجاء بنو ادم على قدر الارض
فجاء منهم الاحمر والابيض والاسود وبين ذلك والسهل والحزن والخبيث والطيب قال الترمذي
هذا حديث حسن صحيح وقد رواه الامام احمد في مسنده من طرق عدة وقد اخبر سبحانه انه خلقه من
تراب واخبر انه خلقه من سلالة من طين واخبر انه خلقه من صلصال من حما مسنون والصلصال قيل فيه
هو الطين اليابس الذي له صلصلة ما لم يطبخ فاذا طبخ فهو فخار وقيل فيه هو المتغير الرائحة من
قولهم صل اذا انتن والحما هو الطين الاسود المتغير والمسنون قيل المصبوب من سننت الماء اذا صببته
وقيل المسن من قولهم سننت الحجر اذا حككته فاذا سال بينهما شي فهو سنين ولا يكون الا منتنا
على الحجر
وهذه كلها اطوار للتراب الذي هو مبداه الاول كما اخبر عن خلق الذرية من نطفة ثم من علقة ثم من
مضغة وهذه احوال النطفة التي هي مبدا الذرية ولم يخبر سبحانه انه رفعه من الارض الى فوق السموات لا
قبل التخليق ولا بعده وانما اخبر عن اسجاد الملائكة له وعن ادخاله الجنة وما جرى له مع ابليس بعد خلقه
فاخبر سبحانه بالامور التي في نسق واحد مرتبطا بعضها ببعض قالوا فاين الدليل الدال على
اصعاد مادته واصعاده بعد خلقه الى فوق السموات هذا مما لا دليل لكم عليه اصلا ولا هو لازم من لوازم
ما اخبر الله به قالوا ومن المعلوم ان ما فوق السموات ليس بمكان للطين الارضي المتغير الرائحة الذي
قد انتن من تغيره وانما محله هذه الارض التي هي محل المتغيرات والفاسدات واما ما كان فوق الافلاك
فلا يلحقه تغير ولا نتن ولا فساد ولا استحالة قالوا وهذا امر لا ارتياب فيه للعقلاء قالوا
وقد قال تعالى واما الذين سعدوا ففي الجنة خالدين فيها ما دامت السموات والارض الا ما شاء ربك
عطاء غير مجذوذ فاخبر سبحانه ان هذا العطاء في جنة الخلد غير مقطوع وما اعطيه ادم فقد انقطع
فلم تكن تلك جنة الخلد قالوا وايضا فلا نزاع في ان الله خلق ادم في الارض كما تقدم ولم يذكر
تعالى
في قصته انه نقله الى السماء ولو كان تعالى قد نقله الى السماء لكان هذا اولى بالذكر لانه من اعظم انواع
النعم عليه واكبر اسباب تفضيله وتشريفه وابلغ في بيان ايات قدرته وربوبيته وحكمته وابلغ في بيان
المقصود من عاقبة المعصية وهو الاهباط من السماء التي نقل اليها كما ذكر ذلك في حق ابليس وحيث لم يجي
في القران ولا في السنة حرف واحد انه نقله الى السماء ورفعه اليها بعد خلقه في الارض علم ان الجنة التي
ادخلها لم تكن هي جنة الخلد التي فوق السموات **قالوا** وايضا فانه سبحانه قد اخبر في كتابه انه لم

خلق عباده عبثا ولا سدى وانكر على من زعم ذلك فدل على ان هذا مناف للحكمة ولو كانت جنة ادم هي
جنة الخلد لكانوا قد خلقوا في دار لا يؤمرون فيها ولا ينهون وهذا باطل بقوله ايحسب الانسان ان
يترك سدى قال الشافعي وغيره معطلا لا يؤمر ولا ينهى وقال افحسبتم انما خلقناكم
عبثا فهو تعالى لم يخلقهم عبثا ولا تركهم سدى وجنة الخلد لا تكليف فيها قالوا وايضا فانه خلقها
جزاء للعاملين بقوله تعالى نعم اجر العاملين وجزاء المتقين بقوله ولنعم دار المتقين ودار الثواب بقوله
ثوابا من عند الله فلم يكن ليسكنها الا من خلقها لهم من العاملين ومن المتقين ومن تبعهم من ذرياتهم وغيرهم من الحور والولدان
وبالجملة فحكمته تعالى اقتضت انها لا تنال الا بعد الابتلاء والامتحان والصبر والجهاد وانواع الطاعات
فاذا كان هذا مقتضى حكمته فانه سبحانه لا يفعل الا ما هو مطابق لها قالوا واذا جمع ما اخبر الله عز وجل
به من انه خلقه من الارض وجعله خليفة في الارض وان ابليس وسوس له في مكانه الذي اسكنه فيه بعد ان اهبط
ابليس من السماء وانه اخبر ملائكته انه جاعل في الارض خليفة وان دار الخلد لا لغو فيها ولا تاثيم وان
داخلها لا يخرج منها وان من دخلها ينعم لا يبوس وانه لا يخاف ولا يحزن وان الله سبحانه حرمها على الكافرين
وعدو الله ابليس اكفر الكافرين فمحال ان يدخلها اصلا لا دخول عبور ولا دخول قرار وانها دار نعيم لا
دار ابتلاء وامتحان الى غير ذلك مما ذكرناه من منافاة اوصاف جنة الخلد للجنة التي اسكنها ادم اذا جمع
ذلك بعضه الى بعض ونظر فيه بعين الانصاف والتجرد عن نصرة المقالات تبين الصواب من ذلك والله المستعان
قال الاخرون بل الجنة التي اسكنها ادم عند سلف الامة وائمتها واهل السنة والجماعة
هي جنة الخلد ومن قال انها كانت جنة في الارض بارض الهند او بارض جدة او غير ذلك فهو من المتفلسفة
والملحدين او من المعتزلة او من اخوانهم والكتاب يرد هذا القول وسلف الامة وائمتها متفقون على بطلان هذا
القول قال تعالى واذ قلنا للملائكة اسجدوا لادم فسجدوا الا ابليس ابى واستكبر وكان من الكافرين
وقلنا يا ادم اسكن انت وزوجك الجنة وكلا منها رغدا حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من
الظالمين فازلهما الشيطان عنها فاخرجهما مما كانا فيه وقلنا اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم في الارض
مستقر ومتاع الى حين فهذا يبين انهم لم يكونوا في الارض وانما اهبطوا الى الارض فانهم
لو كانوا في الارض وانتقلوا منها الى ارض اخرى كما انتقل موسى من ارض الى ارض كان مستقرهم ومتاعهم الى
حين في الارض قبل الهبوط كما هو بعده وهذا باطل قالوا وقد قال تعالى في سورة الاعراف
لما قال ابليس انا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين قال فاهبط منها فما يكون لك ان تتكبر فيها
فاخرج انك من الصاغرين فبين اختصاص الجنة التي في السماء بهذا الحكم بخلاف جنة الارض فان

عبدهم

ابليس

ابليس غير ممنوع من التكبر فيها والضمير في قوله منها عائد الى معلوم وان كان غير مذكور في اللفظ لان
العلم به اغنى عن ذكره قالوا وهذا بخلاف قوله اهبطوا مصرا فان لكم ما سالتم فانه لم يذكر هنا ما
اهبطوا منه وانما ذكر ما اهبطوا اليه بخلاف اهباط ابليس فانه ذكر مبدا هبوطه وهو الجنة والهبوط
يكون من علو الى سفل وبنو اسرائيل كانوا بجبال السراة المشرفة على المصر الذي يهبطون اليه ومن هبط
من جبل الى واد قيل له اهبط قالوا وايضا فبنو اسرائيل كانوا يسيرون ويرحلون والذي يسير
ويرحل اذا جاء بلدة يقال نزل فيها لان من عادته ان يركب في سيره فاذا وصل نزل عن دوابه فيقال نزل العسكر
بارض كذا ونزل القفل ونحوه ولفظ النزول كلفظ الهبوط ولا يستعمل نزل وهبط الا اذا كان من علو الى
سفل وقال تعالى عقيب قوله اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم في الارض مستقر
ومتاع الى حين قال فيها تحيون وفيها تموتون ومنها تخرجون فهذا دليل على انهم لم يكونوا قبل
ذلك في مكان فيه يحيون وفيه يموتون ومنه يخرجون والقران صريح في انهم انما صاروا اليه بعد
الاهباط قالوا ولو لم يكن في هذه القصة الا مراجعة موسى لكانت كافية فان موسى صلى الله عليه وسلم انما لام
ادم عليه السلام لما حصل له ولذريته بالخروج من الجنة من النكد والمشقة فلو كانت بستانا في الارض
لكان غيره من بساتين الارض يعوض عنه وموسى اعظم قدرا من ان يلومه على ان اخرج نفسه وذريته من بستان
في الارض قالوا وكذلك قول ادم يوم القيامة لما يرغب اليه الناس ان يستفتح لهم باب الجنة فيقول
وهل اخرجكم منها الا خطيئة ابيكم فانظر ظهور هذا في انها جنة الخلد وانه اعتذر بانه لا يحسن منه
ان يستفتحها وقد اخرج منها بخطيئته من اظهر الادلة قال الاولون اما
قولكم ان من قال انها جنة في الارض فهو من المتفلسفة والملحدين او المعتزلة او اخوانهم فقد اوجدناكم
من قال بهذا وليس من احد من هؤلاء ومشاركة اهل الباطل للحق في المسالة لا يدل على بطلانها ولا تكون
اضافتها اليهم موجبا لبطلانها ما لم يختصوا بها فان اردتم انهم لم يقل بذلك الا هؤلاء فليس كذلك وان اردتم
ان هؤلاء من جملة القائلين بهذا لم يفدكم شيئا قالوا واما قولكم وسلف الامة وائمتها متفقون على
بطلان هذا القول فيحتاج ابطاله نقل واحد من الصحابة ومن بعدهم من ائمة السلف فضلا عن اتفاقهم قالوا
ولا يوجد عن صاحب ولا تابع ولا تابع التابع خبر يصح موصولا ولا شاذا ولا مشهورا ان النبي صلى الله عليه وسلم
قال ان الله تعالى اسكن ادم جنة الخلد التي هي دار المتقين يوم المعاد قالوا وهذا القاضي منذر بن
سعيد قد حكى عن غير واحد من السلف انها ليست جنة الخلد قال ونحن نوجدكم ان فقيه العراق ومن
يقوله وقد قالوا ان جنة ادم التي حلها الله ليست جنة الخلد وليسوا عند احد من العلماء من الشاذين بل من رؤساء

لعله العسكر

صحيح ع

وهذه

المخالفين وفي هذه الدواوين يشحنونه من علومهم وقد ذكرنا قول ابن عيينة وقد ذكر ابن مزين في تفسيره قال
سألت ابن نافع عن الجنة امخلوقة هي فقال السكوت عن هذا افضل قالوا فلو كان عند ابن نافع ان الجنة التي
اسكنها ادم هي جنة الخلد لم يشك انها مخلوقة ولم يتوقف في ذلك وقال ابن قتيبة في كتاب غريب القرآن
في قوله تعالى وقلنا اهبطوا منها قال ابن عباس رضي الله عنهما في رواية ابي صالح هو كما يقال هبط فلان ارض كذا
وكذا ولم يذكر في كتابه غيره فاين اجماع سلف الامة وائمتها قالوا واما احتجاجكم بقوله تعالى ولكم
في الارض مستقر عقب قوله اهبطوا فهذا لا يدل على انهم كانوا في جنة الخلد فان احد الاقوال في المسألة انها
كانت جنة في السماء غير جنة الخلد كما حكاه الماوردي في تفسيره وقد تقدم وايضا فان قوله ولكم في
الارض مستقر يدل على انهم مستقرا الى حين في الارض وقالوا الحمد لله الذي صدقنا وعده واورثنا
الارض نتبوأ من الجنة حيث نشاء فدلت على ان قوله ولكم في الارض مستقر ان المراد به الارض الخالية من
تلك الجنة لا اكل ما ينبغي ارضنا وكان مستقرهم الاول في ارض الجنة ثم صار في ارض الابتلاء والامتحان ثم تصير
مستقر المومنين يوم الجزاء ارض الجنة ايضا فلا بد له من دليل على انه جنة الخلد قالوا وهذا هو الجواب
بعينه عن استدلالكم بقوله تعالى قال فيها تحيون وفيها تموتون ومنها تخرجون فان المراد به الارض التي
اهبطوا اليها وجعلت مسكنا لهم بدل الجنة وهذا تفسير المستقر المذكور في البقرة مع تضمنه ذكر الاخراج
منها قالوا واما قوله تعالى لابليس اهبط منها فما يكون لك ان تتكبر فيها وقولكم ان هذا انما هو في الجنة
التي في السماء والجنة الارضية لم يمنع ابليس من التكبر فيها فهو دليل لنا في المسألة فان جنة الخلد لا سبيل لابليس
الى دخولها والتكبر فيها ~~فهو دليل لنا في المسألة فان جنة الخلد لا سبيل لابليس الى دخولها والتكبر فيها~~ اصلا
وقد اخبر تعالى انه وسوس لادم وزوجه وكذبهما وغرهما وخانهما وتكبر عليهما وحسدهما
وهما حينئذ في الجنة فدل على انها لم تكن جنة الخلد ومحال ان يصعد لها بعد اهباطه واخراجه منها قالوا
والضمير في قوله اهبطوا منها اما ان يكون عائدا الى السماء كما هو احد القولين وعلى هذا فيكون سبحانه قد
اهبطه من السماء عقب امتناعه من السجود واخبر انه ليس له ان يتكبر فيها ثم تكبر وكذب وخان في الجنة فدل
على انها ليست في السماء او يكون عائدا الى الجنة على القول الاخر ولا يلزم من هذا القول ان تكون الجنة التي كان
فيها ادم وعدوه وقاسمه كاذبا هي تلك التي اهبط منها بل القرآن يدل على انها غيرها كما ذكرناه فعلى
التقديرين لا يدل الآية على ان الجنة التي جرى لادم مع ابليس ما جرى فيها هي جنة الخلد قالوا واما
قولكم ان بني اسرائيل كانوا في حال الشراة المشرفة على الارض التي يسطون ثم كانوا يسيرون ويرحلون فلذلك
قيل لهم اهبطوا فهذا حق لا ننازعكم فيه وهو بعينه جواب لنا فان الهبوط يدل على ان تلك الجنة كانت اعلى من الارض

ادم في جنة

الى

التي اهبطوا اليها واما كونها جنة الخلد فلا قالوا والفرق بين قوله اهبطوا مصرا وقوله
اهبطوا منها فان الاول لنهاية الهبوط وغايته واهبطوا منها متضمن لمبداه واوله لا لابتدائه فيما نحن فيه فان
هبط من كذا والى كذا يتضمن معنى الانتقال من مكان عال الى مكان سافل فاي باتي لابتداء الغاية والى لنهايتها في
تعيين محل الهبوط ما هو جنة الخلد قالوا واما قصة موسى ولومه لادم على اخراجه من الجنة فلا يدل
على انها جنة الخلد وقولكم لا يظن بموسى انه يلوم ادم على اخراجه من بستان في الارض فيشنع لا يعد شيئا
آخر كان ذلك بستانا مثل احاد هذه البساتين المقطوعة الممنوعة التي هي عرضة الافات والتعب
والنصب والظمأ والضحى والحرث والسقي والتلقيح وسائر وجوه التعب الذي يلحق هذه البساتين
ولا ريب ان موسى عليه الصلاة والسلام اعلم واجل من ان يلوم ادم على خروجه واخراجه من بستان
هذا شأنه ولكن من قال بهذا وانما كانت جنة لا يلحقها آفة ولا تنقطع ثمارها ولا تغور انهارها لا يجوع
ساكنها ولا يظمأ ولا يضحى للشمس ولا يعرى ولا يمسه فيها التعب والنصب والشقاء ومثل هذه الجنة
يحسن لوم الانسان على التسبب في خروجه منها قالوا واما اعتذار ادم صلى الله عليه وسلم يوم القيمة
لاهل الموقف بان خطيئته هي التي اخرجتهم من الجنة فلا يحسن ان يستفتحها لهم فهذا لا يستلزم ان تكون هي بعينها
التي اخرج منها بل اذا كانت غيرها كان ابلغ في الاعتذار فانه اذا كان الخروج من غير جنة الخلد حصل بسبب
الخطيئة فكيف يليق استفتاح جنة الخلد والشفاعة فيها ثم خرج من غيرها بخطيئته فهذا موقف نظر الفريقين بين اهل
ونهاية اقدام الطائفتين فمن كان له فضل علم في هذه المسألة فليجد به فهذا اوقت الحاجة اليه ومن علم منتهى
حظوته ومقدار بضاعته فليكل الامر الى عالمه ولا يرضى لنفسه بالنقص والازراء عليه وليكن من اهل الدلول
الذين هم نظار الحرب اذا لم يكن من اهل الكر والفر والطعن والضرب فقد تلاقت الفحول وتطاعنت
الاقران وضاق بهم المجال في حلبة هذا الميدان

اذا تلاقي الفحول في لحب فكيف حال الضعيف في الوسط

البعوض

اللحب الطريق الواضح قاموس

فهذه معاقد حجج الطائفتين محاذيا بيانك والمك تنساق وهذه بضائع تجار العلماء ينادي
عليها في سوق الكساد لا في سوق النفاق فمن لم يكن له بصر باسباب البيان فلا التصر فلا يعدم من رد
استفرغ وسعه وبذل جهده منا التصويب والمعذرة ولا يرضى لنفسه بشر الخطتين واخس الحظين
جهل الحق واسبابه ومعاداة اهله وطلابه واذا عظم المطلوب واعوزك الرفيق الناصح العليم فارحل
بهمتك من بين الاموات وعليك بمعلم ابراهيم فقد ذكرنا في هذه المسألة من النقول والادلة والنكت البديعة
ما لعله لا يوجد في شيء من كتب المصنفين ولا يعرف قدره الا من كان من الفضلاء المنصفين ومن الله سبحانه الاستمداد

وعليه التوكل واليه الاستناد فانه لا يخيب من توكل عليه ولا يضيع من لاذ به وفوض امره اليه وهو حسبنا
ونعم الوكيل ٥ **فصل** ولما اهبطه سبحانه من الجنة وعرضه وذريته
لانواع المحن والبلاء اعطاهم افضل ما منحهم وهو عهده الذي عهده اليه والى بنيه واخبر انه من
تمسك به منهم صار الى رضوانه ودار كرامته قال تعالى عقيب اخراجه منها قلنا اهبطوا منها
جميعا فاما ياتينكم مني هدى فمن تبع هداي فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون وفي الاية الاخرى قال
اهبطا منها جميعا فاما ياتينكم مني هدى فمن اتبع هداي فلا يضل ولا يشقى ومن اعرض عن ذكري فان له معيشة
ضنكا ونحشره يوم القيمة اعمى قال رب لم حشرتني اعمى وقد كنت بصيرا قال كذلك اتتك اياتنا فنسيتها
وكذلك اليوم تنسى ولما امر سبحانه باهباطه من الجنة جعله وذريته بهذا العهد الذي عهده اليهم قال
تعالى فاما ياتينكم مني هدى وهذه هي ان الشرطية المؤكدة بما الدالة على استغراق الزمان والمعنى اي وقت اخرى صح
واي حين اتاكم مني هدى وجعل جواب هذا الشرط جملة شرطية وهي قوله فمن اتبع هداي فلا يضل ولا
يشقى كما تقول ان زرتني فمن بشرني بقدومك فهو حر وجواب الشرط يكون جملة تامة اما خبرا محضا كقولك
ان زرتني اكرمتك او خبرا مقرونا بالشرط كهذا او موكدا بالقسم او بان واللام كقوله تعالى وان
اطعتموهم انكم لمشركون واما طلبا كقول النبي صلى الله عليه وسلم اذا سالت فاسال الله واذا استعنت فاستعن
بالله وقوله فاذا لقيتموهم فاصبروا وقوله تعالى واذا حللتم فاصطادوا فاذا انسلخ الاشهر الحرم
فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم واكثر ما ياتي هذا النوع مع اذا التي تفيد تحقيق وقوع الشرط وهو افادة
تحقق الطلب عند تحقق الشرط فمتى تحقق الشرط فالطلب متحقق فاتي باذا الدالة على تحقق الشرط فيعلم
تحقق الطلب عندها وقد ياتي مع ان قليلا كقوله تعالى وان كذبوك فقل لي عملي ولكم عملكم واما جملة
انشائية كقوله لعبده الكافر ان اسلمت فانت حر او لامراته ان فعلت كذا فانت طالق فهذا انشاء
للعتق والطلاق عند وجود الشرط على راي او انشاء له حال التعليق وتاخر نفوذه الى حين وجود الشرط
على راي اخر وعلى التقديرين فجواب الشرط جملة انشائية والمقصود ان جواب الشرط في الاية المذكورة
جملة شرطية وهي قوله فمن اتبع هداي فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون وهذا الشرط يقتضي ارتباط
الجملة الاولى بالثانية ارتباط العلة بالمعلول والسبب بالمسبب فيكون الشرط الذي هو ملزوم علة
ومقتضيا للجزاء الذي هو لازم فان كان بينهما تلازم من الطرفين كان وجود كل منهما بدون الاخر
ممتنعا كدخول الجنة بالاسلام وارتفاع الخوف والحزن والضلال والشقاء مع متابعة الهدى وهذه عامة
شروط القران والسنة فانها اسباب وعلل والحكم ينتفي بانتفاء علته وان كان التلازم بينهما من احد الطرفين

كان

كان الشرط ملزوما خاصا والجزاء لازما عاما فمتى تحقق الشرط الملزوم الخاص تحقق الجزاء اللازم العام كان صح
ولا يلزم العكس كما تقول ان كان هذا انسانا فهو حيوان وان كان البيع صحيحا فالملك ثابت وهذا غالب الباب
في باب الدلالة حيث يكون الشرط دليلا على الجزاء فيلزم من وجوده وجود الجزاء لان الجزاء لازمه ووجود
الملزوم يستلزم وجود اللازم ولا يلزم من عدمه عدم الجزاء وان وقع هذا الشرط بين علة ومعلول
فان كان الحكم معللا بعلل صح ذلك وجاز ان يكون الجزاء اعم من الشرط كقولك ان كان هذا مرتدا فهو
حلال الدم فان حل الدم اعم من حله بالردة لان تعلق الحكم بالعلة المعينة ينتفي بانتفائها وان ثبت
الحكم بعلة اخرى فهو حكم اخر واما مع العلة المعينة فمحال ان يبقى مع زوالها فيعود التلازم من الطرفين
ويلزم من وجود كل واحد من الشرط والجزاء وجود الاخر ومن عدمه عدمه وتمام تحقيق هذه المسالة
تعليل الحكم الواحد بعلتين وللناس فيه نزاع مشهور **وفصل الخطاب** فيها ان الحكم
الواحد ان كان واحدا بالنوع كحل الدم وثبوت الملك ونقض الطهارة جاز تعليله بالعلل المختلفة
وان كان واحدا بالعين كحل الدم بالردة وثبوت الملك بالبيع او الميراث ونحو ذلك لم يجز تعليله بعلتين
مختلفتين وبهذا التفصيل يزول الاشتباه في هذه المسالة والله اعلم **ومن تامل** ادلة الطائفتين
وجد كل ما احتج به من راى تعليل الحكم بعلل مختلفة انما يدل على تعليل الواحد بالنوع بها وكل من نفى تعليل
الحكم بعلتين فانما يتم دليله على نفي تعليل الواحد بالعين بهما فالقولان عند التحقيق يرجعان الى حكم
واحد والمقصود ان الله سبحانه جعل اتباع هداه وعهده الذي عهده الى ادم سببا ومقتضيا
لعدم الخوف والحزن والضلال والشقاء وهذا الجزاء ثابت بثبوت الشرط منتف بانتفائه
كما تقدم بيانه ونفي الخوف والحزن عن متبع الهدى نفي لجميع انواع الشرور فان المكروه الذي ينزل بالعبد
متى علم بحصوله فهو خائف منه ان يقع به واذا وقع به فهو حزين على ما اصابه منه فهو دائما في خوف وحزن
وكل خائف حزين وكل حزين خائف وكل من الخوف والحزن يكون على فوت المحبوب وحصول المكروه فالاقسام
اربعة خوف من فوت المحبوب وحصول المكروه وهذا اجماع الشر كله فنفى الله سبحانه ذلك عن متبع
هداه الذي انزله على السنة رسله واتى في نفي الخوف بالاسم الدال على نفي الثبوت واللزوم فان اهل
الجنة لا بد لهم من الخوف في الدنيا وفي البرزخ ويوم القيمة حتى يقول ادم وغيره من الانبياء نفسي نفسي واخبر
سبحانه انهم وان خافوا فلا خوف عليهم اي لا يلحقهم الخوف الذي خافوا منه واتى في نفي الحزن بالفعل المضارع
الدال على نفي التجدد والحدوث اي لا يلحقهم حزن ولا يحدث لهم اذا قدموا على ما اسلفوا بل هم في سرور
دائم لا يعرض لهم حزن على ما فات واما الخوف فلما كان تعلقه بالمستقبل دون الماضي نفي لحوقه لهم جملة

اي الذي خافوه امنه لا ينالهم ولا يلم بهم والله اعلم فالحزن انما يكون على الماضي والخايف انما يخاف
في الحال مما يستقبل فلا خوف عليهم اي لا يلحقهم ما خافوه ولا يعرض لهم حزن على ما فات وقال في الاخرى فقال عز
فمن اتبع هداي فلا يضل ولا يشقى فنفى عن متبع هداه امرين الضلال والشقا. قال عبد الله بن
عباس رضي الله عنهما تكفل الله لمن قرا القران وعمل بما فيه ان لا يضل في الدنيا ولا يشقى في الاخرة ثم قرا فاما ياتينكم
مني هدى فمن اتبع هداي فلا يضل ولا يشقى والاية تنفي مسمى الضلال والشقا عن متبع الهدى مطلقا فاقتضت
الاية انه لا يضل في الدنيا ولا يشقى ولا يضل في الاخرة ولا يشقى فيها فان المراتب اربعة هدى وسعادة في فيهما
الدنيا وهدى وضلال وشقاوة في الاخرة لكن ذكر ابن عباس رضي الله عنهما في كل دار اظهر مرتبتيها فذكر
الضلال في الدنيا اذ هو اظهر لنا واقرب وذكر الضلال في الاخرة وايضا فضلال الدنيا اصل ضلال
الاخرة وشقا الاخرة مستلزم للضلال فيها فنبه بكل مرتبة على الاخرى فنبه بنفي الضلال في الدنيا على نفي ضلال
الاخرة فان العبد يموت على ما عاش عليه ويبعث على ما مات عليه وقال الله تعالى في الاية الاخرى ومن اعرض
عن ذكري فان له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة اعمى قال رب لم حشرتني اعمى وقد كنت بصيرا قال
كذلك اتتك اياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى وقال في الاية الاخرى ومن كان في هذه اعمى فهو في الاخرة
اعمى واضل سبيلا فاخبر ان من كان في هذه الدار اعمى فهو في الاخرة اضل واما نفي شقا الدنيا فقد قال
انه كما نفى عنه الضلال فيها وحصل له الهدى فيه برد اليقين وطمانينة القلب وذوق
طعم الايمان ووجود حلاوته وفرحة القلب به وسروره والتنعم به ومصير القلب حيا بالايمان
مستنيرا به قويا به قد نال به غذاءه ودواءه وشفاءه وحياته ونوره وقوته ولذته ونعيمه ما هو
اجل انواع النعيم واطيب الطيبات واعظم اللذات قال الله تعالى من عمل صالحا من ذكر او انثى
وهو مومن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم اجرهم باحسن ما كانوا يعملون فهذا خبر اصدق الصادقين
ومخبره عند اهله عين اليقين بل هو حق اليقين ولا بد لكل من عمل صالحا ان يحييه الله حياة طيبة بحسب
ايمانه وعمله ولكن يغلط الجفاة الاجلاف في مسمى الحياة حيث يظنونها التنعم بانواع الماكل والمشارب الطيبة
والملابس والمناكح او لذة الرياسة والمال وقهر الاعداء والتفنن بانواع الشهوات ولا ريب ان هذه
لذة مشتركة بين البهائم بل قد يكون حظ كثير من البهائم منها اكثر من حظ الانسان فمن لم يكن عنده لذة الا اللذة التي تشاركه
فيها السباع والدواب والانعام فذلك ممن ينادى من مكان بعيد ولكن اين هذه اللذة من اللذة بامر اذا خالط ه
بشاشته القلوب سلى عن الابناء والنساء والاوطان والاموال والاخوان والمساكن ورضي بتركها كلها
والخروج منها راسا وعرض نفسه لانواع المكاره والمشاق وهو متحل بهذا منشرح الصدر به يطيب له قتل ابنه

وابيه

وابيه وصاحبته واخيه لا تاخذه في ذلك لومة لائم حتى ان احدهم ليتلقى الرمح بصدره وهو يقول
فزت ورب الكعبة ويستطيل الاخر حياته حتى يلقي قوته من يده ويقول انها لحياة طويلة ان صبرت حتى
اكلها ثم يتقدم فرحان مسرورا ويقول الاخر مع فقره لو علم الملوك وابناء الملوك ما نحن عليه الى الموت
لجالدونا عليه بالسيوف ويقول الاخر انه ليمر بالقلب اوقات يرقص فيها طربا وقال
بعض العارفين انه ليمر بي اوقات اقول فيها ان كان اهل الجنة في مثل هذا انهم لفي عيش طيب ومن تامل
قول النبي صلى الله عليه وسلم لما نهاهم عن الوصال فقالوا انك تواصل فقال اني لست كهيئتكم اني اظل عند
ربي يطعمني ويسقيني علم ان هذا طعام الارواح وشرابها وما تفيض عليها من انواع البهجة واللذة
والسرور والنعيم الذي رسول الله صلى الله عليه وسلم في الذروة العليا منه وغيره اذا تعلق بغبار
راى تلك الدنيا ونعيمها ما لا نسبة اليه هباء منثورا باطلا وغرورا وغلط من قال انه كان
ياكل ويشرب طعاما وشرابا يتغذى به بدنه لوجوه احدها انه قال اظل عند ربي يطعمني
ويسقيني ولو كان اكلا وشربا لم يكن وصالا ولا صوما الثاني ان النبي صلى الله عليه وسلم
اخبرهم انهم ليسوا كهيئته في الوصال فانهم اذا واصلوا تضرروا بذلك واما هو صلى الله عليه وسلم فانه اذا
واصل لا يتضرر بالوصال فلو كان ياكل ويشرب لكان الجواب وانا ايضا لا اواصل بل اكل واشرب
كما تاكلون وتشربون فلما اقرهم على قولهم انك تواصل ولم ينكره عليهم دل على انه كان مواصلا وانه لم يكن انه
ياكل اكلا وشربا يفطر الصائم الثالث انه لو كان اكلا وشربا يفطر الصائم لم يصح الجواب
بالفارق بينهم وبينه فانه حينئذ يكون صلى الله عليه وسلم هو وهم مشتركون في عدم الوصال فكيف
يصح الجواب بقوله لست كهيئتكم وهذا امر يعلمه غالب الناس ان القلب متى حصل له ما يفرحه ويسره
من نيل مطلوبه ووصال حبيبه او ما يغمه ويسوءه ويحزنه شغل عن الطعام والشراب حتى ان كثيرا
من العشاق تمر به الايام لا ياكل شيا ولا يطلب نفسه اكلا وقد افصح القائل في هذا المعنى

لها احاديث من ذكراك تشغلها عن الشراب وتلهيها عن الزاد
لها بوجهك نور تستضي به ومن حديثك في اعقابها حادي
اذا اشتكت من كلال السير اوعدها روح القدوم فتحيى عند ميعاد

والمقصود ان الهدى مستلزم لسعادة الدنيا وطيب الحياة والنعيم العاجل وهو امر يشهد به
الحس والوجد واما سعادة الاخرة فغيب يعلم بالايمان فذكرها ابن عباس رضي الله عنهما لكونها اهم وهي
الغاية المطلوبة وضلال الدنيا اظهر وبالنجاة منه يحصل كل خير وهو اصل ضلال الاخرة وشقائها

فلذلك ذكرهما وحدهما والله اعلم **فصل** وهذان الضلالان اعني
الضلال والشقاء يذكرهما سبحانه كثيرا في كلامه ويخبر انهما حظ اعدائه ويذكر ضدهما وهما
الهدى والفلاح كثيرا ويخبر انهما حظ اوليائه اما الاول فكقوله تعالى ان المجرمين في ضلال وسعر
فالضلال الضلال والسعر هو الشقاء والعذاب وقال تعالى قد خسر الذين كذبوا
بلقاء الله وما كانوا مهتدين واما الثاني فكقوله تعالى في اول البقرة وقد ذكر المؤمنين
وصفاتهم اولئك على هدى من ربهم واولئك هم المفلحون وكذلك في اول لقمان وقال في الانعام
الذين امنوا ولم يلبسوا ايمانهم بظلم اولئك لهم الامن وهم مهتدون ولما كانت سورة ام القران اعظم
سورة في القران وافرضها قراءة على الامة واجمعها لكل ما يحتاج اليه العبد واعمها نفعا ذكر فيها الامرين
فامرنا ان نقول اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين انعمت عليهم فذكر الهداية والنعمة وهما الهدى والفلاح
ثم قال غير المغضوب عليهم ولا الضالين فذكر المغضوب عليهم وهم اهل الشقاء والضالين وهم اهل
الضلال وكل من الطائفتين له الضلال والشقاء لكن ذكر الوصفين معا ليكون الدلالة على كل منهما بصريح
لفظه وايضا فانه ذكر ما هو اظهر الوصفين في كل طائفة فان الغضب على اليهود اظهر لعنادهم
الحق بعد معرفته والضلال في النصارى اظهر لغلبة الجهل فيهم وقد صح عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال
اليهود مغضوب عليهم والنصارى ضالون **فصل** وقوله تعالى فاما ياتينكم
مني هدى هو خطاب لمن اهبطه من الجنة بقوله اهبطا منها جميعا بعضكم لبعض عدو ثم قال
فاما ياتينكم مني هدى وكلا الخطابين لابوي الثقلين وهو دليل على ان الجن مامورون منهيون داخلون
تحت شرائع الانبياء وهذا مما لا اختلاف فيه بين الامة وان نبينا بعث اليهم كما بعث الى الانس كما لا اختلاف
بينها ان مسيئهم مستحق للعقاب وانما اختلف علماء الاسلام في المسلمين منهم هل يدخل الجنة فالجمهور على
ان محسنهم في الجنة كما ان مسيئهم في النار وقيل بل ثوابهم سلامتهم واما الجنة فلا يدخلها احد من من الجحيم
اولاد ابليس وانما هي لبني ادم وصالحي ذريته خاصة وحكي هذا القول عن ابي حنيفة رحمه الله تعالى
والصحيح الاول بوجوه احدها هذه الاية فانه سبحانه اخبر ان من اتبع هداه فلا خوف ولا
يحزن ولا يضل ولا يشقى وهذا مستلزم لكمال النعيم ولا يقال الاية انما تدل على نفي العذاب فقط
ولا خلاف ان مؤمنهم لا يعاقبون لانا نقول لو لم تدل الاية الا على امر عدمي فقط لم يكن مدحا للمؤمن الانس
ولما كان فيها الا مجرد امر عدمي وهو عدم الخوف والحزن ومعلوم ان سياق الاية ومقصودها
انما اريد به ان من اتبع هدى الله الذي انزله حصل له غاية النعيم واندفع عنه غاية الشقاء وعبر عن هذا المعنى

المطلوب

المطلوب بنفي الامور المذكورة لاقتضاء الحال لذلك فانه لما اهبط ادم من الجنة حصل له من الخوف
والحزن والشقاء ما حصل فاخبر سبحانه انه معطيه وذريته عهدا من تبعه منهم انتفى عنه الخوف
والحزن والضلال والشقاء ومعلوم انه لا ينتفي ذلك كله الا بدخول دار النعيم ولكن المقام بذكر
التصريح بنفي غاية المكروهات اولى **الثاني** قوله تعالى واذ صرفنا اليك نفرا من الجن يستمعون
القران فلما حضروه قالوا انصتوا فلما قضي ولوا الى قومهم منذرين قالوا يا قومنا انا سمعنا كتابا
انزل من بعد موسى مصدقا لما بين يديه يهدي الى الحق والى طريق مستقيم يا قومنا اجيبوا داعي الله وامنوا
به يغفر لكم من ذنوبكم ويجركم من عذاب اليم اخبر سبحانه عن نذيرهم اخبارا مقرا له ان من اجاب داعيه
غفر له واجاره من العذاب ولو كانت المغفرة لهم انما ينالون بها مجرد النجاة من العذاب كان ذلك حاصلا
بقوله ويجركم من عذاب اليم بل تمام المغفرة دخول الجنة والنجاة من النار وكل من غفر الله له فلا بد من دخول الجنة
الثالث قوله تعالى في الحور العين لم يطمثهن انس قبلهم ولا جان فهذا يدل على ان مؤمني الجن
والانس يدخلون الجنة وانه لم يسبق منهم من طمث لاحد من الحور فدل على ان مؤمنيهم يتاتى منهم طمث
الحور العين بعد الدخول كما ياتي من الانس ولو كانوا ممن لا يدخل الجنة لما حسن الاخبار عنهم بذلك
الرابع قوله تعالى فان لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة اعدت للكافرين
وبشر الذين امنوا وعملوا الصالحات ان لهم جنات تجري من تحتها الانهار الاية والجن منهم مؤمن ومنهم كافر
كما قال صالحوهم وانا منا المسلمون ومنا القاسطون فكما دخل كافرهم في الاية الاولى وجب ان يدخل مؤمنهم
في الاية **الخامس** قوله تعالى عن صالحيهم فمن اسلم فاولئك تحروا رشدا والرشد هو الهدى
والفلاح وهو الذي يهدي اليه القران ومن لم يدخل الجنة لم ينل غاية الرشد بل لم يحصل له من الرشد الا
مجرد العدم **السادس** قوله تعالى سابقوا الى مغفرة من ربكم وجنة عرضها كعرض السماء والارض
اعدت للذين امنوا بالله ورسله ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم ومؤمنهم ممن
امن بالله ورسله فيدخل في المبشرين ويستحق البشارة **السابع** قوله تعالى والله يدعو الى دار
السلام ويهدي من يشاء الى صراط مستقيم عم سبحانه بالدعوة وخص بالهداية المفضية اليها فمن هداه الله
فهو ممن دعاه اليها فمن اهتدى من الجن فهو من المدعوين اليها **الثامن** قوله تعالى ويوم يحشرهم جميعا
يا معشر الجن قد استكثرتم من الانس وقال اولياؤهم من الانس ربنا استمتع بعضنا ببعض وبلغنا اجلنا الذي
اجلت لنا الى قوله يا معشر الجن والانس الم ياتكم رسل منكم يقصون عليكم اياتي وينذرونكم لقاء يومكم هذا
قالوا شهدنا على انفسنا وغرتهم الحياة الدنيا وشهدوا على انفسهم انهم كانوا كافرين ذلك ان لم يكن ربك مهلك

التي تطلع واهلها غافلون ولكل درجات مما عملوا وهذا عام في الجن والانس فاخبر تعالى ان لكلهم
درجات من عمله فاقتضى ان يكون لمحسنهم درجات من عمله كالمحسن من الانس التاسع قوله تعالى ان الذين قالوا
ربنا الله ثم استقاموا فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون اولئك اصحاب الجنة خالدين فيها جزاء بما كانوا يعملون
ووجه التمسك بالاية من وجوه ثلاثة احدها عموم الاسم الموصول فيها الثاني ترتيبه
الجزاء المذكور على الصلة المذكورة على انه مستحق بها وهو قول ربنا الله مع الاستقامة والحكم يعم بعموم علته
فاذا كان دخول الجنة مرتبا على الاقرار بالله وربوبيته مع الاستقامة على امره فمن اتى بذلك استحق
الجزاء الثالث انه قال فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون اولئك اصحاب الجنة خالدين فيها جزاء
بما كانوا يعملون فدل على ان كل من لا خوف عليه ولا حزن فهو من اهل الجنة وقد تقدم في
اول الايات قوله تعالى فمن تبع هداي فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون وانه متناول للفريقين ودلت
هذه الاية على ان من لا خوف عليه ولا حزن فهو من اهل الجنة العاشر انه اذا دخل مسيئهم
النار بعدل الله فدخول محسنهم الجنة بفضله ورحمته اولى فان رحمته سبقت غضبه والفضل اغلب
من العدل ولهذا لا يدخل النار الا من عمل اعمال اهل النار واما الجنة فيدخلها من لم يعمل خيرا قط بل
ينشئ لها اقواما يسكنهم اياها من غير عمل عملوه ويرفع فيها درجات العبد من غير سعي منه بل بما يصل اليه من دعاء
المومنين وصلاتهم وصدقتهم واعمال البر التي يهدونها اليه بخلاف النار فانه لا يعذب فيها بغير عمل اصلا
وقد ثبت بنص القران واجماع الامة ان مسيء الجن في النار بعدل الله وبما يكسبون فمحسنهم
في الجنة بفضل الله وبما كانوا يعملون لكن قيل انهم يكونون في ربض الجنة يراهم اهل الجنة ولا يرونهم كما كانوا
في الدنيا يرون بني ادم من حيث لا يرونهم ومثل هذا لا يعلم الا بتوقيف يقطع الحجة عنده فان ثبت
وجب اتباعها والا فهو مما يحال العلم بحقيقته موقوفة على الدليل والله اعلم

فصل

ومتابعة هدى الله التي رتب عليها هذه الامور هي تصديق خبره من غير اعتراض شبهة تقدح في تصديقه
وامتثال امره من غير اعتراض شهوة تمنع امتثاله وعلى هذين الاصلين مدار الايمان وهما تصديق الخبر وطاعة
الامر ويتبعهما امران اخران وهما نفي شبهات الباطل الواردة عليه المانعة من كمال التصديق وان لا يخمش
بها وجه تصديقه ودفع شهوات الغي الواردة عليه المانعة من كمال الامتثال فهنا اربعة امور احدها
تصديق الخبر والثاني بذل الاجتهاد في رد الشبهات التي توحيها شياطين الجن والانس في معارضته
والثالث طاعة الامر والرابع مجاهدة النفس في دفع الشهوات التي تحول بين العبد وبين كمال الطاعة
وهذان الامران اعني الشبهات والشهوات اصل فساد العبد وشقاوته في معاشه ومعاده كما ان الاصلين

الاولين

الاولين وهما تصديق الخبر وطاعة الامر اصل كل سعادته وفلاحه في معاشه ومعاده وذلك ان العبد
له قوتان قوة الادراك والنظر وما يتبعها من العلم والمعرفة والكلام وقوة الارادة والحب وما يتبعهما من النية
والعزم والعمل فالشبهة تؤثر فسادا في القوة العلمية النظرية ما لم يداوها بدفعها والشهوة تؤثر
فسادا في القوة الارادية العملية ما لم يداوها باخراجها كذلك اخبر الله تعالى عن نبيه بتبرئته عليه
من هذه وطهارته منهما لحق غيره من ذلك والنجم اذا هوى ما ضل صاحبكم وما غوى فما ضل دليل على
كمال علمه ومعرفته وانه على الحق المبين وما غوى دليل على كمال رشده وانه ابر العالمين فهو الكامل في
علمه وامر باتباعهم على سنتهم فقال عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي رواه الترمذي
وغيره فالراشد ضد الغاوي والمهدي ضد الضال وقد قال تعالى كالذين من قبلكم كانوا اشد منكم
قوة واكثر اموالا واولادا فاستمتعوا بخلاقهم فاستمتعتم بخلاقكم كما استمتع الذين من قبلكم بخلاقهم وخضتم
كالذي خاضوا اولئك حبطت اعمالهم في الدنيا والاخرة واولئك هم الخاسرون فذكر تعالى الاصلين
وهما داء الاولين والاخرين احدهما الاستمتاع بالخلاق وهو النصيب من الدنيا والاستمتاع به متضمن
لنيل الشهوات المانعة من متابعة الامر بخلاف المومن فانه وان نال من الدنيا وشهواتها فانه لا يستمتع بنصيبه
كله ولا يذهب طيباته في حياته الدنيا بل ينال منها ما ينال ليتقوى به على التزود لمعاده والثاني
الخوض بالشبهات الباطلة وهو قوله وخضتم كالذي خاضوا وهذا شان النفوس الباطلة التي لم تخلق
للاخرة لا تزال ساعية في نيل شهواتها فاذا نالتها فانما هي في خوض بالباطل الذي لا يجدي عليها الا الضرر
العاجل والاجل ومن تمام حكمة الله انه يبتلي هذه النفوس بالشقاء والتعب في تحصيل مراداتها وشهواتها
فلا تتفرغ للخوض بالباطل الا قليلا ولو تفرغت هذه النفوس الباطولية لكانت ائمة تدعو الى النار
وهذا حال من تفرغ منها كما هو مشاهد بالعيان وسواء كان المعنى وخضتم كالحزب الذي خاضوا
او كالفريق الذي خاضوا فان الذي يكون للواحد والجمع ونظيره قوله تعالى والذي جاء بالصدق
وصدق به اولئك هم المتقون لهم ما يشاءون عند ربهم ذلك جزاء المحسنين ثم قال الحق على جمع يصح فلا
يحتمل الذي جاء واولئك انما يجيء على لفظ اسم الجمع كالحزب والفريق او حيث لا يذكر الموصوف
وان كان جمعا كقول الشاعر
وان الذي حانت بفلج دماؤهم ... هم القوم كل القوم يا ام خالد
او حيث يراد الجنس دون الواحد والعدد كقوله تعالى والذي جاء بالصدق وصدق به ثم قال اولئك
هم المتقون ونظيره الاية التي نحن فيها وهي قوله كالذي خاضوا او كان المعنى على اطراد القول
الاخر وخضتم خوضا كالخوض الذي خاضوا فيكون صفة لمصدر محذوف كقولك اضرب كالذي ضرب

الادراك

لا مح

واحسن كالذي خاضوا ونظائره وعلى هذا فيكون العائد منصوبا محذوفا وحذفه في مثل ذلك قياس
مطرد وعلى القولين فقد ذمهم سبحانه على الخوض بالباطل واتباع الشهوات واخبر ان من كانت هذه
حاله فقد حبط عمله في الدنيا والاخرة وهو من الخاسرين ونظير هذا قول اهل النار لاهل الجنة
وقد سالوهم فيم دخلوها فقالوا لم نك من المصلين ولم نك نطعم المسكين وكنا نخوض مع الخائضين
وكنا نكذب بيوم الدين فذكروا الاصلين الخوض بالباطل وما يتبعه من التكذيب بيوم الدين وايثار
الشهوات وما يستلزمه من ترك الصلوات واطعام ذوي الحاجات فهذان الاصلان هما امّاها
والله ولي التوفيق ○ **فصل** والقلب السليم الذي لا ينجو من عذاب
الله الا من اتى الله به هو القلب الذي قد سلم من هذا وهذا هو القلب الذي قد سلم لربه وسلم لامره ولم
تبق فيه منازعة لامره ولا معارضة لخبره فهو سليم مما سوى الله وامره لا يريد الا الله ولا يفعل الا ما امره الله
فالله وحده غايته وامره وشرعه وسيلته وطريقه لا تعترضه شبهة تحول بينه وبين تصديق خبره
لكن لا تمر عليه الا وهي مجتازة تعلم انه لا قرار لها فيه ولا شهوة تحول بينه وبين متابعة رضاه ومتى كان القلب
كذلك فهو سليم من الشرك وسليم من البدع وسليم من الغي وسليم من الباطل وكل الاقوال التي قبله تفسير قلت
ينتظمها وحقيقته انه القلب الذي قد سلم لعبودية ربه حيا وخوفا ورجاء ففني بحبه عن حب ما سواه ه
وبخوفه عن خوف ما سواه وبرجائه عن رجاء ما سواه وسلم لامره ولرسوله تصديقا وطاعة كما تقدم
واستسلم لقضائه وقدره فلم يتهمه ولم ينازعه ولم يتسخط لاقداره فاسلم لربه انقيادا وخضوعا وذلا
وعبودية وسلم جميع احكامه واقواله واعماله واذواقه ومواجيده ظاهرا وباطنا من مشكاة رسوله
وعرض ما جاء من سواها عليها فما وافقها قبله وما خالفها رده وما لم يتبين له فيه موافقته ولا مخالفته وقف
امره وارجاه الى ان يتبين له وسالم اولياءه وحزبه المفلحين الذابين عن دينه وسنة نبيه القائمين بها وعادى
اعداءه المخالفين لكتابه وسنة نبيه الخارجين عنهما الداعين الى خلافهما **فصل**
وهذه المتابعة هي التلاوة التي اثنى على اهلها في قوله تعالى ان الذين يتلون كتاب الله وفي قوله الذين
اتيناهم الكتاب يتلونه حق تلاوته والمعنى يتبعون كتاب الله حق اتباعه وقال تعالى اتل ما اوحي اليك
من الكتاب واقم الصلاة وقال انما امرت ان اعبد رب هذه البلدة الذي حرمها وله كل شيء وامرت
ان اكون من المسلمين وان اتلو القرآن فحقيقة التلاوة في هذه المواضع هي التلاوة المطلقة التامة وهي
تلاوة اللفظ والمعنى فتلاوة اللفظ جزء مسمى التلاوة المطلقة وحقيقة اللفظ انما هي الاتباع يقال
اتل اثر فلان وتلوت اثره وقفوته وقصصته بمعنى تبعت خلفه ومنه قوله تعالى والشمس وضحاها

بلغ مقابلة

والقمر اذا

والقمر اذا تلاها اي تبعها في الطلوع بعد غيبتها ويقال جاء القوم يتلو بعضهم بعضا اي يتبع ويسمى تالي
الكلام تاليا لانه يتبع بعض الحروف بعضا لا يخرجها جملة واحدة بل يتبع بعضها بعضا مرتبة كلما انتهى
حرف وكلمة اتبعه بحرف اخر وكلمة اخرى وهذه التلاوة وسيلة وطريق والمقصود التلاوة
الحقيقية وهي تلاوة المعنى واتباعه تصديقا بخبره وائتمارا بامره وانتهاء عن نهيه وائتماما به حيث ما
قادك انقدت معه فتلاوة القرآن تتناول تلاوة لفظه ومعناه وتلاوة المعنى اشرف من مجرد تلاوة اللفظ
واهلها هم اهل القرآن الذين لهم الثناء في الدنيا والاخرة فانهم اهل متابعة وتلاوة حقا **فصل**
ثم قال تعالى ومن اعرض عن ذكري فان له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة اعمى لما اخبر سبحانه
عن حال من اتبع هداه في معاشه ومعاده اخبر عن حال من اعرض عنه ولم يتبعه فقال ومن اعرض عن
ذكري فان له معيشة ضنكا اي عن الذكر الذي انزلته فالذكر هنا مصدر مضاف الى الفاعل كهداي وقراتي
لا الى المفعول وليس المعنى ومن اعرض عن ان يذكرني بل هذا لازم المعنى ومقتضاه من وجه اخر سنذكره
واحسن من هذا الوجه ان يقال الذكر هنا مضاف اضافة الاسماء لا اضافة المصادر الى معمولاتها
والمعنى من اعرض عن كتابي ولم يتبعه فان القرآن يسمى ذكرا قال تعالى وهذا ذكر مبارك
انزلناه وقال تعالى ذلك نتلوه عليك من الآيات والذكر الحكيم وقال تعالى وما هو الا
ذكر للعالمين وقال تعالى ان الذين كفروا بالذكر لما جاءهم وانه لكتاب عزيز وقال تعالى انما
تنذر من اتبع الذكر وخشي الرحمن بالغيب وعلى هذا فاضافته كاضافة الاسماء الجوامد التي لا يقصد
بها اضافة العامل الى معموله ونظيره في اضافة اسم الفاعل غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب
فان هذه الاضافات لم يقصد بها قصد الفعل المتجدد وانما قصد بها قصد الوصف الثابت اللازم
ولذلك جرت اوصافا على اعرف المعارف وهو اسم الله تعالى في قوله تعالى تنزيل الكتاب من الله العزيز
الحكيم غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب ذي الطول لا اله الا هو اليه المصير **فصل**
وقوله تعالى فان له معيشة ضنكا فسرها غير واحد من السلف بعذاب القبر وجعلوا هذه الآية
احد الادلة الدالة على عذاب القبر ولهذا قال ونحشره يوم القيامة اعمى قال رب لم حشرتني
اعمى وقد كنت بصيرا قال كذلك اتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى اي تترك في العذاب كما تركت
العمل باياتنا فذكر عذاب البرزخ وعذاب دار البوار ونظيره قوله تعالى في حق آل فرعون النار
يعرضون عليها غدوا وعشيا فهذا في البرزخ ويوم تقوم الساعة ادخلوا آل فرعون اشد العذاب
فهذا في القيامة الكبرى ونظيره قوله تعالى ولو ترى اذ الظالمون في غمرات الموت والملائكة

باسطوا ايديهم اخرجوا انفسكم اليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تقولون على الله غير الحق وكنتم عن اياته تستكبرون

مقول الملايكة تجزون عذاب الهون المراد به عذاب البرزخ الذي اوله يوم القبض والموت ونظير قوله

تعالى ولو ترى اذ يتوفى الذين كفروا الملايكة يضربون وجوههم وادبارهم وذوقوا عذاب الحريق فهذه الاذاقة

هي في البرزخ واولها حين الوفاة فانه معطوف على قوله يضربون وجوههم وادبارهم وهو من القول المحذوف

مقوله لدلالة الكلام عليه لنظايره وكلاهما واقع وقت الوفاة **وفي الصحيح عن البراء بن عازب**

رضي الله عنه في قوله تعالى يثبت الله الذين امنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الاخرة قال نزلت في عذاب

القبر والاحاديث في عذاب القبر تكاد تبلغ حد التواتر والمقصود ان الله سبحانه اخبر ان من اعرض عن ذكره وهو

الهدى الذي من اتبعه لا يضل ولا يشقى فان له معيشة ضنكا وتكفل لمن حفظ عهده ان يحييه حياة طيبة

ويجزيه اجره في الاخرة فقال تعالى من عمل صالحا من ذكر او انثى وهو مومن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم

اجرهم باحسن ما كانوا يعملون فاخبر سبحانه عن فلاح من تمسك بعهده علما وعملا في العاجلة بالحياة الطيبة

وفي الاخرة باحسن الجزا وهذا بعكس من له المعيشة الضنك في الدنيا والبرزخ ونسيانه في العذاب

الاخرة وقال سبحانه ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطانا فهو له قرين وانهم ليصدونهم عن السبيل

ويحسبون انهم مهتدون فاخبر سبحانه ان ابتلاه بقرينه من الشياطين وضلاله به انما كان بسبب اعراضه

وعشوه عن ذكره الذي انزله على رسوله فكان عقوبة هذا الاعراض ان قيض له شيطانا يقارنه فيصده عن

سبيل ربه وطريق فلاحه وهو يحسب انه مهتد حتى اذا وافى ربه يوم القيمة مع قرينه وعاين هلاكه وافلاسه

قال يا ليت بيني وبينك بعد المشرقين فبيس القرين وكل من اعرض عن الاهتدا بالوحي الذي هو ذكر الله

فلا بد ان يقول هذا يوم القيمة فان قيل فهل لهذا عذر في ضلاله اذا كان يحسب انه على هدى كما قال

تعالى ويحسبون انهم مهتدون قيل لا عذر لهذا وامثاله من الضلال الذين منشا ضلالهم الاعراض

عن الوحي الذي جا به الرسول ولو ظن انه مهتد فانه مفرط باعراضه عن اتباع داعي الهدى فاذا ضل فانما

اتي من تفريطه واعراضه وهذا بخلاف من كان ضلاله لعدم بلوغ الرسالة وعجزه عن الوصول اليها

فذاك له حكم اخر والوعيد في القران انما يتناول الاول واما الثاني فان الله لا يعذب احدا الا بعد اقامة

الحجة عليه كما قال تعالى وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا وقال تعالى في اهل النار وما

ظلمناهم ولكن كانوا هم الظالمين وقال تعالى ان تقول نفس يا حسرتا على ما فرطت في جنب الله وان كنت

لمن الساخرين او تقول لو ان الله هداني لكنت من المتقين او تقول حين ترى العذاب لو ان لي كرة فاكون

من المحسنين بلى قد جاتك اياتي فكذبت بها واستكبرت وكنت من الكافرين وهذا كثير في القران

فصل

فصل وقوله تعالى ونحشره يوم القيمة اعمى قال رب لم حشرتني اعمى وقد

كنت بصيرا اختلف فيه هل هو من عمى البصيرة او من عمى البصر والذين قالوا هو من عمى البصيرة انما حملهم

على ذلك قوله اسمع بهم وابصر يوم ياتوننا وقوله لقد كنت في غفلة من هذا فكشفنا عنك غطاك فبصرك اليوم

حديد وقوله يوم يرون الملايكة لا بشرى يومئذ للمجرمين وقوله لترون الجحيم ثم لترونها عين اليقين

ونظاير هذا مما يثبت لهم الروية في الاخرة كقوله تعالى وتراهم يعرضون عليها خاشعين من الذل ينظرون

من طرف خفي وقوله يوم يدعون الى نار جهنم دعا هذه النار التي كنتم بها تكذبون افسحر هذا ام انتم لا

تبصرون وقوله وراى المجرمون النار فظنوا انهم مواقعوها وقال الذين رجحوا انه من عمى البصر قالوا

السياق يدل عليه لقوله قال رب لم حشرتني اعمى وقد كنت بصيرا وهو لم يكن بصيرا في كفره قط بل قد تبين له

حينئذ انه كان في الدنيا في عمى عن الحق فكيف يقول وقد كنت بصيرا وكيف يجاب بقوله كذلك اتتك اياتنا

فنسيتها بل هذا الجواب فيه تنبيه على انه من عمى البصر وانه جوزي من جنس عمله فانه لما اعرض عن الذكر الذي

بعث الله به رسوله وعميت عنه بصيرته اعمى الله بصره يوم القيمة وتركه في العذاب كما ترك الذكر في الدنيا

فجازاه على عمى بصيرته عمى بصره في الاخرة وعلى تركه ذكره تركه في العذاب وقال تعالى ومن يهد الله فهو

المهتد ومن يضلل فلن تجد لهم اوليا من دونه ونحشرهم يوم القيمة على وجوههم عميا وبكما وصما وقد

قيل في هذه الاية ايضا انهم عمي وبكم وصم عن الهدى كما قيل في قوله ونحشره يوم القيمة اعمى

قالوا لانهم يتكلمون يومئذ ويسمعون ويبصرون ومن نصر انه العمى والبكم والصمم المضاد للبصر والسمع

والنطق قال بعضهم هو عمى وصمم وبكم مقيد لا مطلق فهم عمي عن روية ما يسرهم وسماعه وهذا

قد روي عن ابن عباس رضي الله عنهما قال لا يرون شيا يسرهم **وقال اخرون** هذا الحشر

حين تتوفاهم الملايكة يخرجون من الدنيا كذلك فاذا قاموا من قبورهم الى الموقف قاموا كذلك ثم انهم يسمعون

ويبصرون فيما بعد وهذا مروي عن الحسن وقال اخرون هذا انما يكون اذا دخلوا النار

واستقروا فيها سلبوا الاسماع والابصار والنطق حين يقول لهم الرب تبارك وتعالى اخسوا فيها ولا

تكلمون فحينيذ ينقطع الرجا وتبكم عقولهم فيصيرون باجمعهم عميا بكما صما لا يبصرون ولا يسمعون

ولا ينطقون ولا يسمع منها بعدها الا الزفير والشهيق وهذا منقول عن مقاتل والذين قالوا

المراد به العمى عن الحجة انما مرادهم انهم لا حجة لهم ولم يريدوا ان حججهم عمي عن الهدى كما كانوا في الدنيا فان العبد

يموت على ما عاش عليه ويبعث على ما مات عليه وهذا يظهر ان الصواب هو القول الاخر وانه عمى البصر فان

الكافر يعلم الحق يوم القيمة عيانا ويقر بما كان يجحده في الدنيا فليس هو اعمى عن الحق يومئذ ونصل

اليوم

الخطاب ان الحشر هو الضم والجمع ويراد به تارة الحشر الى موقف القيمة كقول النبي صلى الله عليه وسلم انكم محشورون
الى الله حفاة عراة وكقوله تعالى واذا الوحوش حشرت وقوله تعالى وحشرناهم فلم نغادر
منهم احدا ويراد به الضم والجمع الى دار المستقر فحشر المتقين الى الرحمن وفدا وق تعالى احشروا
الذين ظلموا وازواجهم وما كانوا يعبدون من دون الله فاهدوهم الى صراط الجحيم فهذا الحشر هو
بعد حشرهم الى الموقف وهو حشرهم وضمهم الى النار لانه قد اخبر عنهم انهم قالوا يا ويلنا هذا يوم
الدين هذا يوم الفصل الذي كنتم به تكذبون ثم ق تعالى احشروا الذين ظلموا وازواجهم
الاية وهذا الحشر الثاني وعلى هذا فهم ما بين الحشر الاول من القبور الى الموقف والحشر الثاني يسمعون
ويبصرون ويجادلون ويتكلمون وعند الحشر الثاني يحشرون على وجوههم عميا وبكما وصما فلكل
موقف حال يليق به ويقتضيه عدل الرب تعالى وحكمته فالقران يصدق بعضه بعضا ولو كان من عند غير الله
لوجدوا فيه اختلافا كثيرا فصل والمقصود ان الله سبحانه وتعالى لما اقتضت حكمته
ورحمته اخراج ادم وذريته من الجنة اعاضهم افضل منها وهو ما اعطاهم من عهده الذي جعله سببا موصلا
لهم اليه وطريقا واضحا بين الدلالة عليه من تمسك به فاز واهتدى ومن اعرض عنه شقي وغوى ولما كان هذا
العهد الكريم والصراط المستقيم والنبا العظيم لا يوصل اليه ابدا الا من باب العلم والارادة فالارادة باب الوصول
اليه والعلم مفتاح ذلك الباب المتوقف فتحه عليه وكمال كل انسان انما يتم بهذين النوعين همة ترقيه وعلم يبصره
ويهديه فان مراتب السعادة والفلاح انما تفوت العبد من هاتين الجهتين او من احداهما اما ان لا يكون له علم بها
فلا يتحرك في طلبها او يكون عالما بها ولا تنهض همته اليها فلا يزال في حضيض طبعه محبوسا وقلبه عن كماله الذي
خلق له مصدودا منكوسا قد اسام نفسه مع الانعام راعيا مع الهمل واستطاب لقيمات الراحة والبطالة
واستلان فراش العجز والكسل لا كمن رفع له علم فشمر اليه وبورك له في تفرده في طريق طلبه فلزمه واستقام
عليه قد ابت غلبات شوقه الا الهجرة الى الله ورسوله ومقتت نفسه الرفقاء الا ابن السبيل يرافقه
في سبيله ولما كان كمال الارادة بحسب كمال مرادها وشرف العلم تابع لشرف معلومه كانت نهاية سعادة العبد
الذي لا سعادة له بدونها ولا حياة له الا بها ان تكون ارادته متعلقة بالمراد الذي لا يبلى ولا يفوت وعزمات
همته مسافرة الى حضرة الحي الذي لا يموت ولا سبيل له الى هذا المطلب الاسنى والحظ الاوفى الا بالعلم
الموروث عن عبده ورسوله وخليله وحبيبه الذي بعثه لذلك داعيا واقامه على هذه الطريق هاديا
وجعله واسطة بينه وبين الانام وداعيا لهم باذنه الى دار السلام وابى سبحانه ان يفتح لاحد منهم الا على يديه
او يقبل من احد سعيا الا ان يكون مبتدئا منه ومنتهيا اليه فالطرق كلها الا طريقه صلى الله عليه
وسلم

وسلم مسدودة والقلوب باسرها مقلوبة الا قلوب اتباعه المنقادة اليه عن الله محجوبة مصدودة فحقيق على
من كان في سعادة نفسه ساعيا وكان قلبه حيا عن الله واعيا ان يجعل على هذين الاصلين مدار اقواله واعماله
وان يصيرها اخيته التي اليها مفزعه في حياته ولا جرم كان وضع الكتاب مؤسسا على هاتين القاعدتين
ومقصوده التعريف بشرف هذين الاصلين وتسميته مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية اهل العلم والارا
اذ كان هذا من بعض النزل والتحف التي فتح الله بها علي حين انقطاعي اليه عند بيته والقائي نفسي ببابه
مسكينا ذليلا وتعرضي لنفحاته في بيته وحوله بكرة واصيلا فما خاب من انزل به حوائجه وعلق به اماله
واصبح ببابه مقيما وبحماه نزيلا ولما كان العلم امام الارادة ومقدما عليها ومفصلا لها
ومرشدا اليها قدمنا الكلام عليه على الكلام على المحبة ثم نتبعه ان شا الله بعد الفراغ منه كتابا في الكلام
على المحبة واقسامها وفوائدها وثمراتها واسبابها وموانعها وما يقويها وما يضعفها والاستدلال بسائر
طرق الادلة من العقل والنقل والفطرة والقياس والاعتبار والذوق والوجد على تعلقها بالاله الحق الذي
لا اله غيره بل لا ينبغي ان تكون الا له ومن اجله والرد على من انكر ذلك وبيان فساد قوله عقلا ونقلا وفطرة
وقياسا وذوقا ووجدا فهذا مضمون هذه التحفة وهذه عرائس معانيها الآن تجلى عليك وخود ابكارها
البديعة الجمال ترفل في حللها وهي تزف اليك فاما شمس منازلها تسعد الاسعد واما خود تزف الى ضرير
مقعد فاختر لنفسك احدى الخطتين وانزلها فيما شئت من المنزلتين ولا بد لكل نعمة من حاسد
ولكل حق من جاحد ومعاند هذا وانه مع انه ما اودع من المعاني والنفائس رهن عند متامله ومطالعه
له غنمه وعلى مؤلفه غرمه وله ثمرته ومنفعته ولصاحبه كده ومشقته مع تعرضه لمطاعن
الطاعنين ولاعتراض المنافقين وعرضه بضاعته المزجاة وعقله المكدود على عقول العالمين
والقايه نفسه وعرضه بين مخالب الحاسدين وانياب البغاة المعتدين فلك ايها القارئ صفوه ولمؤلفه
كدره وهو الذي تجشم غراسه وتعبه ولك ثمره وها هو قد استهدف لسهام الراشقين واستعذر الى الله
من الزلل والخطا ثم الى عباده المؤمنين اللهم فعياذا بك من قصر في العلم باعه والدين وطالت
الجهل والاذى ذراعه فهو لجهله يرى الاحسان اساءة والسنة بدعة والعرف نكرا ولظلمه يجزي
بالحسنة سيئة كاملة وبالسيئة الواحدة عشرا قد اتخذ بطر الحق وغمط الناس سلما الى ما يحبه ويرضاه
ولا يعرف من المعروف ولا ينكر من المنكر الا ما وافق ارادته او خالف هواه يستطيل على اولياء الرسول وحزبه
باصغريه ويجالس اهل الغي والجهالة ويزاحمهم بركبتيه قد ارتوى من ماء آجن وتضلع واستشرف
الى مراتب ورثة الانبياء وتطلع يركض في ميدان جهله مع الجاهلين ويبرز عليهم في الجهالة فيظن انه

والدين

السابقين وهو عند الله ورسوله والمؤمنين عن تلك الوراثة النبوية بمعزل وإذا نزل الورثة منازلهم منها فمنزلته منها أقصى وأبعد منزل

نزلوا بمكة في قبائل هاشم ... ونزلت بالبيداء أبعد منزل

وعياذًا بك من جعل الملامة بضاعته والعذل نصيحته فهو دائمًا يبدي في الملامة ويعيد ويكرر على العذل فلا يفيد ولا يستفيد بل عياذًا بك من عدو في صورة ناصح وولي في مسلاخ بعيد كاشح يجعل عداوته وأذاه حذرًا وإشفاقًا وتنفيره وتخذيله إسعافًا وإرفاقًا وإذا كانت العين لا تكاد تقع على هؤلاء في الخلق والميزان بهم تخف ولا ترجح فما أحرى اللبيب بأن لا يعيرهم من قلبه جزءًا من الالتفات ويسافر في طريق مقصده بينهم سفر الحي بين الأموات وما أحسن ما قال القائل

وفي الجهل قبل الموت موت لأهله ... وأجسامهم قبل القبور قبور

وأرواحهم في وحشة من جسومهم ... وليس لهم حتى النشور نشور

اللهم فلك الحمد وإليك المشتكى وأنت المستعان وبك المستغاث وعليك التكلان ولا حول ولا قوة إلا بك وأنت حسبنا ونعم الوكيل فلنشرع الآن في المقصود بحول الله وقوته فنقول

الفصل الأول في العلم وفضله

وشرفه وبيان عموم الحاجة إليه وتوقف كمال العبد ونجاته في معاشه ومعاده عليه قال الله تعالى شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم قائمًا بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم استشهد سبحانه بأولي العلم على أجل مشهود عليه وهو توحيده فقال شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم قائمًا بالقسط وهذا يدل على فضل العلم وأهله من وجوه أحدها استشهادهم دون غيرهم من البشر والثاني اقتران شهادتهم بشهادته والثالث اقترانها بشهادة ملائكته والرابع أن في ضمن هذا تزكيتهم وتعديلهم فإن الله لا يستشهد من خلقه إلا العدول ومنه الأثر المعروف عن النبي صلى الله عليه وسلم يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله ينفون عنه تحريف الغالين وانتحال المبطلين وقال محمد بن أحمد بن يعقوب بن شيبة رأيت رجلًا قدم رجلًا إلى إسماعيل بن إسحاق القاضي فادعى عليه دعوى فسأل المدعى عليه فأنكر فقال للمدعي ألك بينة قال نعم فلان وفلان قال أما فلان فمن شهودي وأما فلان فليس من شهودي قال فيعرفه القاضي قال نعم قال بماذا قال أعرفه بكتب الحديث قال فكيف تعرفه في كتب الحديث قال ما علمت إلا خيرًا قال فإن النبي صلى الله عليه وسلم قال يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله فمن عدله رسول الله صلى الله عليه وسلم أولى ممن عدلته أنت قال فقم فهاته فقد قبلت شهادته وسيأتي إن شاء الله الكلام على هذا الحديث في موضعه الخامس أنه وصفهم بكونهم أولي العلم وهذا يدل على اختصاصهم به وأنهم أهله وأصحابه ليس بمستعار لهم السادس أنه سبحانه استشهد بنفسه وهو أجل شاهد ثم بخيار خلقه وهم ملائكته والعلماء من

عباده

عباده ويكفي هذا فضلًا وشرفًا السابع أنه استشهد بهم على أجل مشهود به وأعظمه وأكبره وهو شهادة أن لا إله إلا هو والعظيم القدر إنما يستشهد على الأمر العظيم أكابر الخلق وساداتهم الثامن أنه سبحانه جعل شهادتهم حجة على المنكرين فهم بمنزلة أدلته وآياته وبراهينه الدالة على توحيده التاسع أنه سبحانه أفرد الفعل المتضمن لهذه الشهادة الصادرة منه ومن ملائكته ومنهم ولم يعطف شهادتهم بفعل آخر غير شهادته وهذا يدل على شدة ارتباط شهادتهم بشهادته فكأنه سبحانه شهد لنفسه بالتوحيد على ألسنتهم وأنطقهم بهذه الشهادة فكان هو الشاهد بها لنفسه إقامة وإنطاقًا وتعليمًا وهم الشاهدون بها له إقرارًا واعترافًا وتصديقًا وإيمانًا العاشر أنه سبحانه جعلهم مؤدين لحقه عند عباده بهذه الشهادة فإذا أدوها فقد أدوا الحق المشهود به فثبت الحق المشهود به فوجب على الخلق الإقرار به وكان في ذلك غاية سعادتهم في معاشهم ومعادهم وكل من ناله الهدى بشهادتهم وأقر بهذا الحق بسبب شهادتهم فلهم مثل أجره وهذا فضل عظيم لا يدرك قدره إلا الله وكذلك كل من شهد بها عن شهادتهم فلهم من الأجر مثل أجره أيضًا فهذه عشرة أوجه في هذه الآية في فضل العلم وأهله أنه تعالى نفى التسوية بين أهله وبين غيرهم كما نفى التسوية بين أصحاب الجنة وأصحاب النار فقال تعالى قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون كما قال تعالى لا يستوي أصحاب النار وأصحاب الجنة وهذا يدل على غاية فضلهم وشرفهم **الوجه** الثاني عشر أنه سبحانه جعل أهل الجهل بمنزلة العميان الذين لا يبصرون فقال تعالى أفمن يعلم أنما أنزل إليك من ربك الحق كمن هو أعمى فما ثم إلا عالم أو أعمى وقد وصف سبحانه أهل الجهل بأنهم صم بكم عمي في غير موضع من كتابه **الوجه** الثالث عشر أنه سبحانه أخبر عن أولي العلم بأنهم يرون ما أنزل إليه من ربه حقًا وجعل هذا ثناء عليهم واستشهادًا بهم فقال تعالى ويرى الذين أوتوا العلم الذي أنزل إليك من ربك هو الحق **الوجه** الرابع عشر أنه سبحانه أمر بسؤالهم والرجوع إلى أقوالهم وجعل ذلك كالشهادة منهم فقال وما أرسلنا من قبلك إلا رجالًا نوحي إليهم فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون وأهل الذكر هم أهل العلم بما أنزل على الأنبياء **الوجه** الخامس عشر أنه سبحانه شهد لأهل العلم شهادة في ضمنها الاستشهاد بهم على صحة ما أنزل على رسوله فقال تعالى أفغير الله أبتغي حكمًا وهو الذي أنزل إليكم الكتاب مفصلًا والذين آتيناهم الكتاب يعلمون أنه منزل من ربك بالحق فلا تكونن من الممترين **الوجه** السادس عشر أنه سبحانه سلى نبيه بإيمان أهل العلم به وأمره أن لا يعبأ بالجاهلين شيئًا فقال تعالى وقرآنًا فرقناه لتقرأه على الناس على مكث ونزلناه تنزيلًا قل آمنوا به أو لا تؤمنوا إن الذين أوتوا العلم من قبله إذا يتلى عليهم يخرون للأذقان سجدًا ويقولون سبحان ربنا إن كان وعد ربنا لمفعولًا وهذا تشريف عظيم لأهل العلم وتحته أن أهله العالمون

قد عرفوه وآمنوا به وصدقوا وآمنوا من عندهم أولا **الوجه** السابع عشر أنه سبحانه مدح أهل العلم
وأثنى عليهم وشرفهم بأن جعل كتابه آيات بينات في صدورهم وهذه خاصة ومنقبة لهم دون غيرهم فقال
تعالى وكذلك أنزلنا إليك الكتاب فالذين آتيناهم الكتاب يؤمنون به ومن هؤلاء من يؤمن به وما يجحد بآياتنا
إلا الكافرون وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك إذا لارتاب المبطلون بل هو آيات بينات في صدور
الذين أوتوا العلم أو كان المعنى أنه آيات بينات والثاني أنه محفوظ مستقر ثابت في صدور الذين أوتوا
العلم أو كان المعنى أنه آيات بينات في صدورهم أي كونه آيات بينات معلوم لهم ثابت في صدورهم والقولان متلازمان
ليسا مختلفين وعلى التقديرين فهو مدح لهم وثناء عليهم في ضمنه الاستشهاد بهم فتأمله **الوجه**
الثامن عشر أنه سبحانه أمر نبيه أن يسأله مزيد العلم فقال تعالى فتعالى الله الملك الحق ولا تعجل بالقرآن من قبل
أن يقضى إليك وحيه وقل رب زدني علما وكفى بهذا شرفا للعلم أن أمر نبيه أن يسأله المزيد منه **الوجه**
التاسع عشر أنه سبحانه أخبر عن رفعة درجات أهل العلم والإيمان خاصة فقال تعالى يا أيها الذين
آمنوا إذا قيل لكم تفسحوا في المجالس فافسحوا يفسح الله لكم وإذا قيل انشزوا فانشزوا يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين
أوتوا العلم درجات والله بما تعملون خبير وقد أخبر سبحانه في كتابه برفعة الدرجات في أربعة مواضع
أحدها هذا والثاني قوله إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته
زادتهم إيمانا وعلى ربهم يتوكلون أولئك هم المؤمنون حقا لهم درجات عند ربهم والثالث
قوله تعالى ومن يأته مؤمنا قد عمل الصالحات فأولئك لهم الدرجات العلى والرابع قوله تعالى وفضل
الله المجاهدين على القاعدين أجرا عظيما درجات فهذه أربعة مواضع في ثلاثة منها الرفعة بالدرجات
لأهل الإيمان الذي هو العلم النافع والعمل الصالح والرابع الرفعة بالجهاد فعادت رفعة الدرجات
كلها إلى العلم والجهاد الذين بهما قوام الدين **الوجه العشرون** أنه سبحانه استشهد
بأهل العلم والإيمان يوم القيامة على بطلان قول الكفار فقال تعالى ويوم تقوم الساعة يقسم المجرمون ما
لبثوا غير ساعة كذلك كانوا يؤفكون وقال الذين أوتوا العلم والإيمان لقد لبثتم في كتاب الله إلى يوم البعث
فهذا يوم البعث ولكنكم كنتم لا تعلمون **الوجه** الحادي والعشرون أنه سبحانه أخبر أنهم
أهل خشيته بل خصهم من بين الناس بذلك فقال تعالى إنما يخشى الله من عباده العلماء إن الله عزيز غفور
وهذا حصر لخشيته في أولي العلم وقال تعالى جزاؤهم عند ربهم جنات عدن تجري من تحتها الأنهار خالدين
فيها أبدا رضي الله عنهم ورضوا عنه ذلك لمن خشي ربه وقد أخبر أن أهل خشيته هم العلماء فدل على
أن هذا الجزاء المذكور للعلماء بمجموع النصين **وقال ابن مسعود** رضي الله عنه كفى بخشية

الله علما

الله علما وكفى بالاغترار بالله جهلا **الوجه** الثاني والعشرون أنه سبحانه أخبر عن أمثاله التي
يضربها لعباده يدلهم على صحة ما أخبر به أن أهل العلم هم المنتفعون بها المختصون بعلمها فقال تعالى وتلك
الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون وفي القرآن بضعة وأربعون مثلا وكان بعض السلف رضي الله
عنهم إذا مر بمثل لا يعرفه يبكي ويقول لست من العالمين **الوجه** الثالث والعشرون أنه سبحانه
ذكر مناظرة إبراهيم لأبيه وقومه وغلبته لهم بالحجة وأخبر عن تفضيله بذلك ورفعه درجته بعلم
الحجة فقال تعالى عقب مناظرته لأبيه وقومه في سورة الأنعام وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه
نرفع درجات من نشاء إن ربك حكيم عليم قال زيد بن أسلم رضي الله عنه نرفع درجات من نشاء بعلم
الحجة **الوجه** الرابع والعشرون أنه سبحانه أخبر أنه خلق الخلق ووضع بيته الحرام والشهر
الحرام والهدي والقلائد ليعلم عباده أنه بكل شيء عليم وعلى كل شيء قدير فقال تعالى الله الذي خلق
سبع سموات ومن الأرض مثلهن يتنزل الأمر بينهن لتعلموا أن الله على كل شيء قدير وأن الله قد أحاط بكل شيء علما
فدل على أن علم العباد بربهم وصفاته وعبادته وحده هو الغاية المطلوبة من الخلق والأمر **الوجه**
الخامس والعشرون أن الله سبحانه أمر أهل العلم بالفرح بما آتاهم وأخبر أنه خير مما يجمع الناس فقال
تعالى قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون وفسر فضل الله بالإيمان ورحمته
بالقرآن والقرآن والإيمان هما العلم النافع والعمل الصالح الهدى ودين الحق وهما أفضل علم وأفضل عمل
الوجه السادس والعشرون شهد لمن آتاه العلم بأنه قد آتاه خيرا كثيرا فقال تعالى
يؤتي الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا قال ابن قتيبة والجمهور الحكمة إصابة الحق
والعمل به وهي العلم النافع والعمل الصالح **الوجه** السابع والعشرون أنه سبحانه عدد نعمه
وفضله على رسوله وجعل من أجلها أن آتاه الكتاب والحكمة وعلمه ما لم يكن يعلم فقال تعالى وأنزل الله
عليك الكتاب والحكمة وعلمك ما لم تكن تعلم وكان فضل الله عليك عظيما **الوجه** الثامن والعشرون
أنه سبحانه ذكر عباده المؤمنين بهذه النعمة وأمرهم بشكرها وأن يذكروه على إسدائها إليهم فقال تعالى كما أرسلنا
فيكم رسولا منكم يتلو عليكم آياتنا ويزكيكم ويعلمكم الكتاب والحكمة ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون فاذكروني أذكركم
واشكروا لي ولا تكفرون **الوجه** التاسع والعشرون أنه سبحانه لما أخبر
ملائكته بأنه يريد أن يجعل في الأرض خليفة قالوا له أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح
بحمدك ونقدس لك قال إني أعلم سبحانه ما لا تعلمون وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة
فقال أنبئوني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين إلى آخر قصة آدم وأمر الملائكة بالسجود لآدم فأبى إبليس

ولعنه واخراجه من السماء وبيان فضل العلم من هذه القصة من وجوه احدها انه سبحانه رد على الملائكة
لما سألوه كيف يجعل في الارض من هو اطوع له منه فقال اني اعلم ما لا تعلمون فاجاب سؤالهم بانه يعلم من بواطن
الامور وحقائقها ما لا يعلمونه وهو العليم الحكيم فظهر من هذا الخليفة من خيار خلقه ورسله وانبيائه وصالحي
عباده والشهداء والصديقين والعلماء وطبقات اهل الايمان من هو خير من الملائكة وظهر من ابليس من هو
شر العالمين فاخرج سبحانه هذا وهذا والملائكة لم يكن لها علم لا بهذا ولا بهذا ولا بما في خلق ادم واسكانه
الارض من الحكم الباهرة الثاني انه سبحانه لما اراد اظهار تفضيل ادم وتمييزه وفضله ومنته عليهم بالعلم فعلمه
الاسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال انبئوني باسماء هؤلاء ان كنتم صادقين جاء في التفسير انهم قالوا
لن يخلق ربنا خلقا هو اكرم عليه منا فظنوا انهم خير وافضل من الخليفة الذي يجعله الله في الارض فلما امتحنهم
بعلم ما علمه لهذا الخليفة اقروا بالعجز وجهل ما لم يعلموه فقالوا سبحانك لا علم لنا الا ما علمتنا انك انت العليم
الحكيم فحينئذ اظهر لهم فضل ادم بما خصه به من العلم فقال يا ادم انبئهم باسمائهم فلما انبأهم باسمائهم اقروا له
بالفضل الثالث انه سبحانه لما ان عرفهم فضل ادم بالعلم وعجزهم عن معرفة ما علمه قال لهم الم اقل
لكم اني اعلم غيب السموات والارض واعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون فعرفهم سبحانه نفسه بالعلم وانه احاط
علما بظاهرهم وباطنهم وبغيب السموات والارض فتعرف اليهم بصفة العلم وعرفهم فضل نبيه وكليمه بالعلم
وعجزهم عما اتاه ادم من العلم وكفى بهذا شرفا للعلم الرابع انه سبحانه جعل في ادم من صفات الكمال ما
كان به افضل غيره من المخلوقات واراد سبحانه ان يظهر للملائكة فضله وشرفه فاظهر لهم احسن ما فيه وهو
علمه فدل على ان العلم اشرف ما في الانسان وان فضله وشرفه انما هو بالعلم ونظير هذا ما فعله بنبيه يوسف
عليه السلام لما اراد اظهار فضله وشرفه على اهل زمانه كلهم اظهر للملك واهل مصر من علمه بتأويل رؤياه ما عجز عنه
علماء التعبير فحينئذ قدمه ومكنه وسلم اليه خزائن الارض وكان قبل ذلك قد حبسه على ما رأه من حسن وجهه
وجمال صورته ولما ظهر له حسن صورة علمه وجمال معرفته اطلقه من الحبس ومكنه في الارض فدل
على ان صورة العلم عند بني ادم ابهى واحسن من الصورة الحسية ولو كانت اجمل صورة وهذا وجه مستقل في
تفضيل العلم مضاف الى ما تقدم فتم به **ثلثون وجها الوجه** الحادي والثلثون
انه سبحانه ذم اهل الجهل في مواضع كثيرة من كتابه فقال تعالى ولكن اكثرهم يجهلون وقال ولكن اكثرهم لا يعلمون
وقال تعالى ام تحسب ان اكثرهم يسمعون او يعقلون ان هم الا كالانعام بل هم اضل سبيلا فلم يقتصر سبحانه
على تشبيه الجهال بالانعام حتى جعلهم اضل سبيلا منهم وقال تعالى ان شر الدواب عند الله الصم البكم الذين
لا يعقلون اخبر ان الجهال شر الدواب عنده على اختلاف اصنافها من الحمير والسباع والكلاب والحشرات

وسائر

وسائر الدواب فالجهال شر منهم وليس على دين الرسل اضر من الجهال بل هم اعداؤهم على الحقيقة وقال تعالى
لنبيه وقد اعاذه فلا تكونن من الجاهلين وقال كليمه موسى عليه الصلاة والسلام اعوذ بالله ان اكون من
الجاهلين وقال لاول رسله نوح عليه السلام اني اعظك ان تكون من الجاهلين فهذه حال الجاهلين
عنده والاول حال اهل العلم عنده واخبر سبحانه عن عقوبته لاعدائه انه منعهم علم كتابه ومعرفته
وفقهه فقال تعالى واذا قرأت القران جعلنا بينك وبين الذين لا يؤمنون بالاخرة حجابا مستورا
وجعلنا على قلوبهم اكنة ان يفقهوه وفي اذانهم وقرا وامر نبيه بالاعراض عنهم فقال واعرض عن الجاهلين
واثنى على عباده بالاعراض عنهم ومتاركتهم كما في قوله واذا سمعوا اللغو اعرضوا عنه وقالوا لنا اعمالنا
ولكم اعمالكم سلام عليكم لا نبتغي الجاهلين وقال تعالى واذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما **وكل**
هذا يدل على قبح الجهل عنده وبغضه للجهل واهله وهو كذلك عند الناس فان كل احد يتبرأ منه وان كان
فيه **الوجه** الثاني والثلثون ان العلم حياة ونور والجهل موت وظلمة والشر كله
سببه عدم الحياة والنور والخير كله سببه النور والحياة فان النور يكشف عن حقائق الاشياء ويبين
مراتبها والحياة هي المصححة لصفات الكمال الموجبة لتسديد الاقوال والاعمال وكلما تصرف من الحياة فهو خير
كله كالحياء الذي سببه كمال حياة القلب وتصوره حقيقة القبح ونفرته منه وضده الوقاحة والفحش
وسببه موت القلب وعدم نفرته من القبيح وكالحيا الذي هو المطر الذي به حياة كل شيء قال تعالى
او من كان ميتا فاحييناه وجعلنا له نورا يمشي به في الناس كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها كان ميتا
بالجهل فاحياه بالعلم وجعل له من الايمان نورا يمشي به في الناس وقال تعالى يا ايها الذين امنوا اتقوا
الله وامنوا برسوله يؤتكم كفلين من رحمته ويجعل لكم نورا تمشون به ويغفر لكم والله غفور رحيم لئلا يعلم
اهل الكتاب الا يقدرون على شيء من فضل الله وان الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم
وقال تعالى الله ولي الذين امنوا يخرجهم من الظلمات الى النور والذين كفروا اولياؤهم الطاغوت
يخرجونهم من النور الى الظلمات اولئك اصحاب النار هم فيها خالدون وقال تعالى وكذلك اوحينا
اليك روحا من امرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الايمان ولكن جعلناه نورا نهدي به من نشاء من عبادنا
وانك لتهدي الى صراط مستقيم فاخبر انه روح تحصل به الحياة ونور يحصل به الاضاءة والاشراق
فجمع بين الاصلين الحياة والنور وقال تعالى قد جاءكم من الله نور وكتاب
مبين يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات الى النور باذنه ويهديهم الى صراط
مستقيم وقال تعالى فامنوا بالله ورسوله والنور الذي انزلنا والله بما تعملون خبير وقال

تعالى يا ايها الناس قد جاءكم برهان من ربكم وانزلنا اليكم نورا مبينا وقال تعالى قد انزل الله اليكم ذكرا
رسولا يتلو عليكم ايات الله مبينات ليخرج الذين امنوا وعملوا الصالحات من الظلمات الى النور وقال
تعالى الله نور السموات والارض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح المصباح في زجاجة الزجاجة كانها
كوكب دري يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار نور على
نور يهدي الله لنوره من يشاء ويضرب الله الامثال للناس والله بكل شيء عليم فضرب سبحانه مثلا للنور
الذي قذفه في قلب المؤمن كما قال ابي بن كعب رضي الله عنه مثل نوره في قلب عبده المؤمن وهو نور القران
والايمان الذي اعطاه اياه كما قال في اخر الاية نور على نور يعني نور الايمان على نور القران كما قال بعض
السلف يكاد المؤمن ينطق بالحكمة وان لم يسمع بها فاذا سمع فيها بالاثر كان نورا على نور وقد جمع الله
سبحانه بين ذكر هذين النورين وهما الكتاب والايمان في غير موضع من كتابه كقوله ما كنت تدري ما الكتاب
ولا الايمان ولكن جعلناه نورا نهدي به من نشاء من عبادنا وقال تعالى قل بفضل الله وبرحمته فبذلك
فليفرحوا ففضل الله الايمان ورحمته القران وقال تعالى او من كان ميتا فاحييناه وجعلنا له
نورا يمشي به في الناس وقد تقدمت هذه الايات وقال في اية النور نور على نور وهو نور القران
على نور الايمان وفي حديث النواس بن سمعان رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم ان الله ضرب مثلا صراطا
مستقيما على كتفي الصراط داران لهما ابواب مفتحة على الابواب ستور وداع يدعو الى الصراط وداع يدعو فوقه
والله يدعو الى دار السلام ويهدي من يشاء الى صراط مستقيم والابواب التي على كتفي الصراط حدود الله فلا
يقع احد في حدود الله حتى يكشف الستر والذي يدعو من فوقه واعظ ربه رواه الترمذي وهذا لفظه
والامام احمد ولفظه فالداعي على راس الصراط كتاب الله والداعي فوق الصراط واعظ الله في قلب كل مؤمن
فذكر الاصلين وهما داعي القران وداعي الايمان وقال حذيفة رضي الله عنه حدثنا رسول
الله صلى الله عليه وسلم ان الامانة نزلت في جذر قلوب الرجال ثم نزل القران فعلموا من الايمان ثم علموا من القران
وفي الصحيحين من حديث ابي موسى الاشعري رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم مثل المؤمن
الذي يقرا القران كمثل الاترجة طعمها طيب وريحها طيب ومثل المؤمن الذي لا يقرا القران كمثل التمرة
طعمها طيب ولا ريح لها ومثل المنافق الذي يقرا القران كمثل الريحانة ريحها طيب وطعمها مر ومثل
المنافق الذي لا يقرا القران كمثل الحنظلة طعمها مر ولا ريح لها فجعل الناس اربعة اقسام اهل الايمان
والقران وهم خيار الناس الثاني اهل الايمان الذين لا يقرؤون القران وهم دونهم فهؤلاء هم
السعداء والاشقياء قسمان احدهما من اوتي قرانا بلا ايمان فهو منافق والثاني من لا اوتي قرانا

ولا ايمانا

ولا ايمانا والمقصود ان القران والايمان هما نور يجعله الله في قلب من يشاء من عباده وانهما اصل خير
في الدنيا والاخرة وعلمهما اصل العلوم وافضلها بل لا علم في الحقيقة ينفع صاحبه الا علمهما والله يهدي من
يشاء الى صراط مستقيم الوجه الثالث والثلاثون ان الله سبحانه جعل صيد الكلب
الجاهل ميتة يحرم اكلها واباح صيد الكلب المعلم وهذا ايضا من شرف العلم انه لا يباح الا صيد الكلب العالم
واما الكلب الجاهل فلا يحل اكل صيده فدل على شرف العلم وفضله قال الله تعالى يسالونك ماذا
احل لهم قل احل لكم الطيبات وما علمتم من الجوارح مكلبين تعلمونهن مما علمكم الله فكلوا مما امسكن عليكم واذكروا اسم
الله عليه واتقوا الله ان الله سريع الحساب ولولا مزية العلم والتعليم وشرفهما كان صيد الكلب المعلم والجاهل
سواء الوجه الرابع والثلاثون ان الله سبحانه اخبر عن صفيه وكليمه الذي كتب له التوراة
بيده وكلمه منه اليه انه رحل الى رجل عالم يتعلم منه ويزداد علما الى علمه وقال لفتاه لا ابرح حتى
ابلغ مجمع البحرين او امضي حقبا حرصا منه على لقاء هذا العالم وعلى التعلم منه فلما لقيه سلك معه مسلك
المتعلم مع معلمه وقال له هل اتبعك على ان تعلمني مما علمت رشدا فبداه بعد السلام بالاستئذان على متابعته
وانه لا يتبعه الا باذنه وقال على ان تعلمني مما علمت رشدا فلم يجئ ممتحنا ولا متعنتا وانما جاء متعلما
مستزيدا علما الى علمه وكفى بهذا فضلا وشرفا للعلم فان نبي الله وكليمه سافر ورحل حتى لقي النصب من سفره
في تعلم ثلاث مسائل من رجل عالم ولما سمع به لم يقر له قرار حتى لقيه وطلب منه متابعته وتعليمه
وفي قصتهما عبر وايات وحكم ليس هذا موضع ذكرها الوجه الخامس والثلاثون
قوله تعالى وما كان المؤمنون لينفروا كافة فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين ولينذروا
قومهم اذا رجعوا اليهم لعلهم يحذرون ندب تعالى المؤمنين الى التفقه في الدين وهو تعلمه
وانذار قومهم اذا رجعوا اليهم وهو التعليم وقد اختلف في الاية فقيل المعنى ان المؤمنين لم يكونوا لينفروا
كلهم للتفقه والتعلم بل ينبغي ان ينفر من كل فرقة منهم طائفة تتفقه تلك الطائفة ثم ترجع تعلم القاعدين
فيكون النفير على هذا نفير تعلم والطائفة تقال على الواحد فما زاد قالوا فهو دليل على قبول خبر الواحد
وعلى هذا حملها الشافعي وجماعة وقالت طائفة اخرى المعنى وما كان المؤمنون لينفروا
الى الجهاد كلهم بل ينبغي ان تنفر طائفة للجهاد وفرقة تقعد تتفقه في الدين فاذا جاءت الطائفة التي نفرت
فقهتها القاعدة وعلمتها ما انزل من الدين والحلال والحرام وعلى هذا فالضمير في قوله ليتفقهوا ولينذروا
للفرقة التي نفرت منها طائفة وهذا قول الاكثرين وعلى هذا فالنفير نفير جهاد على اصله فانه
حيث استعمل انما يفهم منه الجهاد قال الله تعالى انفروا خفافا وثقالا وجاهدوا وقال النبي صلى الله عليه وسلم

لا هجرة بعد الفتح ولكن جهاد ونية وإذا استنفرتم فانفروا وهذا هو المعروف من هذه اللفظة
وعلى القولين فهو ترغيب في التفقه في الدين وتعلمه وتعليمه وأن ذلك يعدل الجهاد بل ربما يكون أفضل منه
كما سيأتي تقريره إن شاء الله تعالى ٥ الوجه السادس والثلاثون قوله تعالى والعصر
إن الإنسان لفي خسر إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر قال
الشافعي رضي الله عنه لو فكر الناس كلهم في هذه السورة لكفتهم ٥ وبيان ذلك أن المراتب أربعة وباستكمالها
يحصل للشخص غاية كماله أحدها معرفة الحق الثانية عمله به الثالثة تعليمه من لا يحسنه ٥
الرابعة صبره على تعلمه والعمل به وتعليمه فذكر تعالى المراتب الأربعة في هذه السورة وأقسم
سبحانه بالعصر أن كل أحد في خسر إلا الذين آمنوا وهم الذين عرفوا الحق وصدقوا به فهذه مرتبة
وعملوا الصالحات وهم الذين عملوا بما علموه من الحق فهذه مرتبة أخرى وتواصوا بالحق وصى بعضهم بعضا
تعليما وإرشادا فهذه مرتبة ثالثة وتواصوا بالصبر صبروا على الحق ووصى بعضهم بعضا بالصبر
عليه والثبات فهذه مرتبة رابعة وهذا نهاية الكمال فإن الكمال أن يكون الشخص كاملا في نفسه
مكملا لغيره وكماله بإصلاح قوتيه العلمية والعملية فصلاح القوة العلمية بالإيمان وصلاح القوة العملية
بعمل الصالحات وتكميله غيره بتعليمه إياه وصبره عليه وتوصيته بالصبر على العلم والعمل فهذه السورة
على اختصارها هي من أجمع سور القرآن للخير بحذافيره والحمد لله الذي جعل كتابه كافيا عن كل ما سواه شافيا
من كل داء هاديا إلى كل خير ٥ الوجه السابع والثلاثون أنه سبحانه ذكر فضله ومنته
على أنبيائه ورسله وأوليائه وعباده بما آتاهم من العلم فذكر نعمته على خاتم أنبيائه ورسله بقوله وأنزل الله
عليك الكتاب والحكمة وعلمك ما لم تكن تعلم وقد تقدمت الآية وقال في يوسف ولما بلغ أشده آتيناه
حكما وعلما وكذلك نجزي المحسنين وقال في كليمه موسى ولما بلغ أشده واستوى آتيناه حكما وعلما وكذلك نجزي
المحسنين ولما كان الذي آتاه سبحانه من ذلك أمرا عظيما خصه على غيره لا يثبت له إلا الأقوياء أولو العزم
آتاه له بعد أن بلغ أشده واستوى يقينه وكملت قوته وقال في حق المسيح يا عيسى ابن مريم اذكر نعمتي عليك
وعلى والدتك إذ أيدتك بروح القدس تكلم الناس في المهد وكهلا وإذ علمتك الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل
وقال في حقه ويعلمه الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل فجعل تعليمه مما بشر به أمه وأقر عينها به وقال
في حق داود وآتيناه الحكمة وفصل الخطاب وقال في حق الخضر صاحب موسى فوجدا عبدا من عبادنا آتيناه
رحمة من عندنا وعلمناه من لدنا علما فذكر نعمه عليه بتعليمه وما آتاه من رحمة وقال تعالى يذكر نعمته على داود
وسليمان وداود وسليمان إذ يحكمان في الحرث إذ نفشت فيه غنم القوم وكنا لحكمهم شاهدين ففهمناها سليمان
وكلا

وكلا آتينا حكما وعلما فذكر هذين النبيين الكريمين وأثنى عليهما بالحكم والعلم وخص بفهم القضية أحدهما وقد
ذكرنا الحكمين الداودي والسليماني ووجههما ومن صار من الأئمة إلى هذا ومن صار إلى هذا وترجيح الحكم
السليماني من عدة وجوه وموافقته للقياس وقواعد الشرع في كتاب الاجتهاد والتقليد وقال تعالى قل من
أنزل الكتاب الذي جاء به موسى نورا وهدى للناس تجعلونه قراطيس تبدونها وتخفون كثيرا وعلمتم ما لم تعلموا أنتم
ولا آباؤكم قل الله يعني الذي أنزله فجعل سبحانه تعليمهم ما لم يعلموا هم ولا آباؤهم دليلا على صحة النبوة والرسالة إذ
لا ينال هذا العلم إلا من جهة الرسل فكيف تقولون ما أنزل الله على بشر من شيء وهذا من فضل العلم وشرفه أنه
دليل على صحة النبوة والرسالة والله الموفق للرشاد وقال تعالى لقد من الله على المؤمنين إذ بعث
فيهم رسولا من أنفسهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين وآخرين
منهم لما يلحقوا بهم وهو العزيز الحكيم ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم يعني وبعث في
آخرين منهم لما يلحقوا بهم وقد اختلف في هذا اللحاق المنفي فقيل هو اللحاق في الزمان أي يتأخر
زمانهم عنهم وقيل هو اللحاق في الفضل والسبق وعلى التقديرين فامتن عليهم بتعليم العلم بعد الجهل وهدايتهم
بعد الضلالة وبالهم بمنة عظيمة فاتت المنن وجلت أن يقدر العباد لها على ثمن الوجه
الثامن والثلاثون أن أول سورة أنزلها الله في كتابه سورة القلم فذكر فيها ما من به على الإنسان من
تعليمه ما لم يعلم فذكر فيها فضله بتعليمه وتفضيله الإنسان بما علمه إياه وذلك يدل على شرف التعليم والعلم
فقال تعالى اقرأ باسم ربك الذي خلق خلق الإنسان من علق اقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم
علم الإنسان ما لم يعلم فافتتح السورة بالأمر بالقراءة الناشئة عن العلم وذكر خلقه خصوصا وعموما فقال
الذي خلق خلق الإنسان من علق وخص الإنسان من بين المخلوقات لما أودعه من عجائبه وآياته الدالة على ربوبيته
وقدرته وعلمه وحكمته وكمال رحمته وأنه لا إله غيره ولا رب سواه وذكر هنا مبدأ خلقه من علق
لكون العلقة مبدأ الأطوار التي انتقلت إليها النطفة فهي مبدأ تعلق الخلق ثم أعاد الأمر بالقراءة مخبرا عن
نفسه بأنه الأكرم وهو الأفعل من الكرم وهو كثرة الخير ولا أحد أولى بذلك منه سبحانه فإن الخير كله بيديه
والخير كله منه والنعم كلها هو موليها والكمال كله والمجد كله له فهو الأكرم حقا ثم ذكر تعليمه عموما
وخصوصا فقال الذي علم بالقلم فهذا يدخل فيه تعليم الملائكة والناس ثم ذكر تعليم الإنسان
خصوصا فقال علم الإنسان ما لم يعلم فاشتملت هذه الكلمات على أنه معطي الموجودات كلها بجميع
أقسامها فإن الوجود له مراتب أربعة أحدها مرتبتها الخارجية المدلول عليها بقوله خلق المرتبة
الثانية الذهنية المدلول عليها بقوله علم الإنسان ما لم يعلم المرتبة الثالثة والرابعة اللفظية والخطية

[illegible]

فالخطية مصرح بها في قوله علم بالقلم واللفظية الوجود من لوازم التعليم بالعلم فان الكتابة فرع النطق والنطق
فرع التصور فاشتملت هذه الكلمات على مراتب الوجود كلها وانه سبحانه هو معطيها بخلقه وتعليمه فهو الخالق
المعلم فكل ما في الخارج فبخلقه وجد وكل علم في الذهن فبتعليمه حصل وكل لفظ في اللسان او خط في البنان
فباقداره وخلقه وتعليمه وهذا من ايات قدرته وبراهين حكمته لا اله الا هو الرحمن الرحيم والمقصود
انه سبحانه تعرف الى عباده بما علمهم اياه من الخط واللفظ والمعنى فكان العلم احد الادلة الدالة عليه بل اعظمها
واظهرها وكفى بهذا شرفا وفضلا الوجه التاسع والثلاثون انه سبحانه سمى الحجة العلمية سلطانا
قال ابن عباس رضي الله عنهما كل سلطان في القران فهو حجة وهذا في قوله تعالى قالوا اتخذ الله ولدا
سبحانه هو الغني له ما في السموات وما في الارض ان عندكم من سلطان بهذا اتقولون على الله ما لا تعلمون فنفى عنهم
الحجة بما قالوه وبين انه قول على الله بلا علم وقال تعالى ان هي الا اسماء سميتموها انتم واباؤكم ما انزل الله
بها من سلطان يعني ما انزل بها حجة ولا برهانا بل هي من تلقاء انفسكم واباىكم وقال تعالى ام لكم سلطان
مبين فاتوا بكتابكم ان كنتم صادقين يعني حجة واضحة فاتوا بها ان كنتم صادقين في دعواكم الا موضعا واحدا
اختلف فيه وهو قوله ما اغنى عني ماليه هلك عني سلطانيه فقيل المراد به القدرة والملك اي ذهب
عني (1) وملكي فلا الحجة ولا سلطان وقيل هو على بابه اي انقطعت حجتي وبطلت فلا حجة لي ○ لعله مالي
والمقصود ان الله سبحانه سمى علم الحجة سلطانا لانها توجب تسلط صاحبها واقتداره فله بها سلطان على
الجاهلين بل سلطان العلم اعظم من سلطان اليد ولهذا ينقاد الناس للحجة ما لا ينقادون لليد فان الحجة
تنقاد لها القلوب واما اليد فانما تنقاد لها الابدان فالحجة تاسر القلب وتقوده وتذل المخالف وان اظهر العناد
والمكابرة فقلبه خاضع لها ذليل مقهور تحت سلطانها بل سلطان الجاه ان لم يكن معه علم يساس به فهو
بمنزلة سلطان السباع والاسود ونحوها قدرة بلا علم ولا رحمة بخلاف سلطان الحجة فانه قدرة بعلم ورحمة وحكمة
ومن لم يكن له اقتدار في علمه فهو اما لضعف حجته وسلطانه واما لقهر سلطان اليد والسيف له والا فالحجة ناصرة
نفسها ظاهرة على الباطل قاهرة له الوجه الاربعون ان الله تعالى وصف اهل النار
بالجهل واخبر انه سد عليهم طرق العلم فقال تعالى حكاية عنهم وقالوا لو كنا نسمع او نعقل ما كنا في اصحاب
السعير فاعترفوا بذنبهم فسحقا لاصحاب السعير فاخبروا انهم كانوا لا يسمعون ولا يعقلون والسمع
والعقل هما اصل العلم وبهما ينال وقال تعالى ولقد ذرانا لجهنم كثيرا من الجن والانس لهم قلوب
لا يفقهون بها ولهم اعين لا يبصرون بها ولهم اذان لا يسمعون بها اولئك كالانعام بل هم اضل اولئك هم الغافلون
فاخبر سبحانه انهم لم يحصل لهم علم من جهة من جهات العلم الثلاث وهي العقل والسمع والبصر كما قال في موضع

اخر

اخر صم بكم عمي فهم لا يعقلون وقال تعالى افلم يسيروا في الارض فتكون لهم قلوب يعقلون بها او اذان يسمعون
بها فانها لا تعمى الابصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور وقال تعالى وجعلنا لهم سمعا وابصارا
وافئدة فما اغنى عنهم سمعهم ولا ابصارهم ولا افئدتهم من شيء اذ كانوا يجحدون بايات الله وحاق بهم ما كانوا
به يستهزءون فقد وصف اهل الشقاء كما ترى بعدم العلم وشبههم بالانعام تارة وتارة بالحمار الذي يحمل
الاسفار وتارة جعلهم اضل من الانعام وتارة جعلهم شر الدواب عنده وتارة جعلهم امواتا غير احياء
وتارة اخبر انهم في ظلمات الجهل والضلال وتارة اخبر ان على قلوبهم اكنة وفي اذانهم وقرا وعلى ابصارهم
غشاوة وهذا كله يدل على قبح الجهل وذمه وبغضه لهم كما انه يحب اهل العلم ويمدحهم ويثني عليهم
كما تقدم والله المستعان الوجه الحادي والاربعون ما في الصحيحين من حديث
معوية رضي الله عنه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول من يرد الله به خيرا يفقهه في الدين
وهذا يدل على ان من لم يفقهه في دينه لم يرد به خيرا كما ان من اراد به خيرا فقهه في دينه ومن فقهه في دينه
فقد اراد به خيرا اذا اريد بالفقه العلم المستلزم للعمل واما ان اريد به مجرد العلم فلا يدل على ان من فقه
في الدين فقد اريد به خيرا فان الفقه حينئذ يكون شرطا لارادة الخير وعلى الاول يكون موجبا والله اعلم
الوجه الثاني والاربعون ما في الصحيحين ايضا من حديث ابي موسى رضي الله عنه قال قال
رسول الله صلى الله عليه وسلم ان مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم كمثل غيث اصاب ارضا فكانت منها طائفة
طيبة قبلت الماء فانبتت الكلأ والعشب الكثير وكان منها اجادب امسكت الماء فنفع الله بها الناس فشربوا
منها وسقوا وزرعوا واصاب طائفة منها اخرى انما هي قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ فذلك
مثل من فقه في دين الله ونفعه ما بعثني الله به فعلم وعلم ومثل من لم يرفع بذلك راسا ولم يقبل هدى الله
الذي ارسلت به شبه صلى الله عليه وسلم العلم والهدى الذي جاء به بالغيث لما يحصل بكل
واحد منهما من الحياة والمنافع والاغذية والادوية وساير مصالح العباد فانها بالعلم والمطر وشبه
القلوب بالاراضي التي يقع عليها المطر لانها المحل الذي يمسك الماء فينبت سائر انواع النبات النافع كما
ان القلوب تعي العلم فيثمر فيها ويزكو وتظهر بركته وثمرته ثم قسم الناس الى ثلاثة اقسام بحسب قبولهم واستعدادهم
لحفظه وفهم معانيه واستنباط احكامه واستخراج حكمه وفوائده احدها اهل الحفظ والفهم الذين
حفظوه وعقلوه وفهموا معانيه واستنبطوا وجوه الاحكام والحكم والفوائد منه فهؤلاء بمنزلة
الارض التي قبلت الماء وهذا بمنزلة الحفظ فانبتت الكلأ والعشب الكثير وهذا هو الفهم فيه والمعرفة
والاستنباط فانه بمنزلة انبات الكلأ والعشب بالماء فهذا مثل الحفاظ الفقهاء اهل الرواية والدراية

القسم الثاني أهل الحفظ الذين رزقوا حفظه ونقله وضبطه ولم يرزقوا تفقهاً في معانيه ولا استنباطاً
واستخراجاً لوجوه الحكم والفوائد منه فهم بمنزلة من يقرأ القرآن ويحفظه ويراعي حروفه وإعرابه ولم يرزق
فيه فهماً خاصاً عن الله كما قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه إلا فهماً يؤتيه الله عبداً في كتابه والناس
متفاوتون في الفهم عن الله ورسوله أعظم تفاوت فرب شخص يفهم من النص حكماً أو حكمين ويفهم منه الآخر مائة
أو مائتين فهؤلاء بمنزلة الأرض التي أمسكت الماء للناس فانتفعوا به هذا يشرب منه وهذا يسقي وهذا
يزرع فهؤلاء القسمان هم السعداء والأولون أرفع درجة وأعلى قدراً وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله
ذو الفضل العظيم. القسم الثالث الذين لا نصيب لهم منه لا حفظاً ولا فهماً ولا رواية ولا دراية
بل هم بمنزلة الأرض التي هي قيعان لا تنبت ولا تمسك الماء فهؤلاء هم الأشقياء والقسمان الأولان
اشتركا في العلم والتعليم كل بحسب ما قبله ووصل إليه فهذا يعلم ألفاظ القرآن ويحفظها وهذا
يعلم معانيه وأحكامه وعلومه. والقسم الثالث لا علم ولا تعليم فهم الذين لم يرفعوا بهدى الله
رأساً ولم يقبلوه وهؤلاء شر من الأنعام وهم وقود النار فقد اشتمل هذا الحديث الشريف العظيم
على التنبيه على شرف العلم والتعليم وعظم موقعه وشقاء من ليس من أهله وذكر أقسام بني آدم بالنسبة
فيه إلى شقيهم وسعيدهم وتقسيم سعيدهم إلى سابق مقرب وصاحب يمين مقتصد وفيه دلالة على أن حاجة
العباد إلى العلم كحاجتهم إلى المطر بل أعظم وأنهم إذا فقدوا العلم فهم بمنزلة الأرض التي فقدت الغيث
قال الإمام أحمد الناس محتاجون إلى العلم أكثر من حاجتهم إلى الطعام والشراب لأن الطعام
والشراب يحتاج إليه في اليوم مرة أو مرتين والعلم يحتاج إليه بعدد الأنفاس وقد قال تعالى
أنزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها فاحتمل السيل زبداً رابياً ومما يوقدون عليه في النار ابتغاء حلية
أو متاع زبد مثله كذلك يضرب الله الحق والباطل شبه سبحانه العلم الذي أنزله على رسوله
بالماء الذي أنزله من السماء لما يحصل بكل واحد منهما من الحياة ومصالح العباد في معاشهم ومعادهم ثم شبه
القلوب بالأودية فقلب كبير يسع علماً كثيراً كواد عظيم يسع ماء كثيراً وقلب صغير إنما يسع علماً قليلاً
كواد صغير إنما يسع ماء قليلاً فقال فسالت أودية بقدرها فاحتمل السيل زبداً رابياً. هذا
مثل ضربه الله تعالى للعلم حين تخالط القلوب بشاشته فإنه يستخرج منه زبد الشبهات الباطلة فيطفو
على وجه القلب كما يستخرج السيل من الوادي زبداً يعلو فوق الماء وأخبر سبحانه أنه راب يطفو ويعلو
على الماء لا يستقر في أرض الوادي كذلك الشبهات الباطلة إذا أخرجها العلم ربت فوق القلب
وطفت فلا يستقر فيه بل تجفى وترمى فيستقر في القلب ما ينفع صاحبه والناس من الهدى ودين
الحق

الحق كما يستقر في الوادي الماء الصافي ويذهب الزبد جفاء وما يعقل عن الله أمثاله إلا العالمون ثم ضرب
سبحانه لذلك مثلاً آخر فقال ومما يوقدون عليه في النار ابتغاء حلية أو متاع زبد مثله يعني أن
مما يوقد عليه بنو آدم من الذهب والفضة والنحاس والحديد يخرج منه خبثه وهو الزبد الذي تلقيه
النار وتخرجه من ذلك الجوهر بسبب مخالطتها فإنه يقذف ويلقى به ويستقر الجوهر الخالص وحده وضرب
سبحانه مثلاً بالماء لما فيه من الحياة والتبريد والمنفعة ومثلاً بالنار لما فيها من الإضاءة والإشراق والإحراق
فآيات القرآن تحيي القلوب كما تحيا الأرض بالماء وتحرق خبثها وشبهاتها وشهواتها وسخائمها كما تحرق
النار ما يلقى فيها وتميز جيدها من زبدها كما تميز النار الخبث من الذهب والفضة والنحاس ونحوه فهذا
بعض ما في هذا المثل العظيم من العبر والعلم قال الله تعالى وتلك الأمثال نضربها للناس وما
يعقلها إلا العالمون. **الوجه** الثالث والأربعون ما في الصحيحين أيضاً من
حديث سهل بن سعد رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لعلي رضي الله عنه لأن يهدي الله بك
رجلاً واحداً خير لك من حمر النعم وهذا يدل على فضل العلم والتعليم وشرف منزلة أهله بحيث إذا
اهتدى رجل واحد بالعالم كان ذلك خيراً له من حمر النعم وهي خيارها وأشرفها عند أهلها فما الظن
بمن يهتدي به كل يوم طوائف من الناس. **الوجه** الرابع والأربعون ما روى مسلم في صحيحه
من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من دعا إلى هدى كان له
من الأجر مثل أجور من تبعه لا ينقص ذلك من أجورهم شيئاً ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من
تبعه لا ينقص ذلك من آثامهم شيئاً. أخبر صلى الله عليه وسلم أن المتسبب إلى الهدى بدعوته له مثل أجر من
اهتدى به والمتسبب إلى الضلالة بدعوته عليه مثل إثم من ضل به لأن هذا بذل قدرته في هداية الناس
وهذا بذل قدرته في ضلالتهم فنزل كل واحد منهما منزلة الفاعل التام وهذه قاعدة الشريعة
كما هو مذكور في غير هذا الموضع قال تعالى ليحملوا أوزارهم كاملة يوم القيامة ومن أوزار الذين
يضلونهم بغير علم ألا ساء ما يزرون وقال تعالى وليحملن أثقالهم وأثقالاً مع أثقالهم وهذا يدل على أن من دعا
الأمة إلى غير سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم فهو عدوه حقاً لأنه قطع وصول أجر من اهتدى بسنته إليه
وهذا من أعظم معاداته نعوذ بالله من الخذلان. **الوجه** الخامس والأربعون
ما خرجاه في الصحيحين من حديث ابن مسعود رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم
لا حسد إلا في اثنتين رجل آتاه الله مالاً فسلطه على هلكته في الحق ورجل آتاه الله الحكمة فهو يقضي بها ويعلمها
فأخبر صلى الله عليه وسلم أنه لا ينبغي لأحد أن يحسد أحداً يعني حسد غبطة ويتمنى مثل حاله من غير أن يتمنى

زوال نعم الله عنه الا واحد من هاتين الخصلتين وهي الاحسان الى الناس بعلمه او بماله وما عدا هذين
فلا يسع غبطته ولا تمني مثل حاله لقلة منفعة الناس به **الوجه** السادس
والاربعون قال الترمذي حدثنا محمد بن عبد الاعلى نا سلمة بن رجاء نا الوليد بن جميل نا القاسم
عن ابي امامة قال ذكر لرسول الله صلى الله عليه وسلم رجلان احدهما عابد والاخر عالم فقال رسول الله
صلى الله عليه وسلم فضل العالم على العابد كفضلي على ادناكم ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان الله وملائكته
واهل السموات والارض حتى النملة في جحرها وحتى الحوت ليصلون على معلم الناس الخير قال الترمذي
هذا حديث حسن غريب سمعت ابا عمار الحسين بن حريث الخزاعي قال سمعت الفضيل بن عياض يقول
عالم عامل معلم يدعى كبيرا في ملكوت السماء وهذا مروي عن الصحابة قال ابن عباس علماء هذه الامة
رجلان فرجل اعطاه الله علما فبذله للناس ولم يأخذ عليه صفدا ولم يشتر به ثمنا اولئك يصلي عليهم طير
السماء وحيتان الماء ودواب الارض والكرام الكاتبون ورجل اتاه الله علما فبخل به عن عباده واخذ عليه
صفدا واشترى به ثمنا فذلك يأتي يوم القيامة ملجما بلجام من نار ذكره ابن عبد البر مرفوعا وفي رفعه
نظر وقوله ان الله وملائكته واهل السموات والارض يصلون على معلم الناس الخير لما
كان تعليمه للناس الخير سببا لنجاتهم وسعادتهم وزكاة نفوسهم جازاه الله من جنس عمله بان جعل عليه
صلاته وصلاة ملائكته واهل الارض ما يكون سببا لنجاته وسعادته وفلاحه وايضا فان معلم
الناس الخير لما كان مظهرا لدين الرب واحكامه ومعرفا لهم باسمائه وصفاته جعل الله صلاته وصلاة
اهل سماواته وارضه عليه بما يكون تنويها به وتشريفا له واظهارا للثناء عليه بين اهل السماء والارض
الوجه السابع والاربعون ما رواه ابو داود والترمذي من حديث ابي الدرداء
رضي الله عنه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول من سلك طريقا يبتغي فيه علما سلك الله به
طريقا الى الجنة وان الملائكة لتضع اجنحتها رضى لطالب العلم وان العالم ليستغفر له من في السموات
ومن في الارض حتى الحيتان في الماء وفضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب ان العلماء
ورثة الانبياء ان الانبياء لم يورثوا دينارا ولا درهما انما ورثوا العلم فمن اخذه اخذ بحظ وافر
وقد رواه الوليد بن مسلم عن خالد بن يزيد عن عثمان بن ايمن عن ابي الدرداء قال سمعت رسول الله صلى الله
عليه وسلم يقول من غدا لعلم يتعلمه فتح الله له به طريقا الى الجنة وفرشت له الملائكة اكنافها وصلت عليه
ملائكة السماء وحيتان البحر وللعالم من الفضل على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب والعلماء
ورثة الانبياء لم يورثوا دينارا ولا درهما انما ورثوا العلم فمن اخذ بالعلم اخذ بحظ وافر وموت بلغ مقابلة

العالم

العالم مصيبة لا تجبر وثلمة لا تسد ونجم طمس وموت قبيلة ايسر من موت عالم وهذا حديث حسن والطريق
التي يسلكها الى الجنة جزاء على سلوكه في الدنيا طريق العلم الموصلة الى رضى ربه ووضع الملائكة اجنحتها
له تواضعا له وتوقيرا واكراما لما يحمله من ميراث النبوة ويطلبه وهو يدل على المحبة والتعظيم فمن محبة
الملائكة له وتعظيمه تضع اجنحتها له لانه طالب لما به حياة العالم ونجاته ففيه شبه من الملائكة وبينه
وبينهم تناسب فان الملائكة انصح خلق الله وانفعهم لبني ادم وعلى ايديهم حصل لهم كل سعادة وعلم وهدى
ومن نفعهم لبني ادم ونصحهم انهم يستغفرون لمسيئهم ويثنون على مؤمنيهم ويعينونهم على اعدائهم من الشياطين
ويحرصون على مصالح العبد اضعاف حرصه على مصلحة نفسه بل يريدون له من خير الدنيا والاخرة ما لا يريده
العبد ولا يخطر بباله **حتى** قال لنا بعض وجدنا الملائكة انصح خلق الله لعباده
ووجدنا الشياطين اغش الخلق للعباد وقال تعالى الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم
ويؤمنون به ويستغفرون للذين امنوا ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلما فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك
وقهم عذاب الجحيم ربنا وادخلهم جنات عدن التي وعدتهم ومن صلح من ابائهم وازواجهم وذرياتهم انك انت العزيز
الحكيم وقهم السيئات ومن تق السيئات يومئذ فقد رحمته وذلك هو الفوز العظيم فاي نصح للعباد مثل هذا
الا نصح الانبياء فاذا طلب العبد العلم فقد سعى في اعظم ما ينصح به عباد الله فلذلك تحبه الملائكة وتعظمه
حتى تضع اجنحتها له رضى ومحبة وتعظيما **وقال** ابو حاتم الرازي سمعت
ابن ابي اويس يقول سمعت مالك بن انس يقول معنى قول رسول الله صلى الله عليه وسلم تضع اجنحتها يعني تبسطها
بالدعاء لطالب العلم بدلا من الايدي وقال احمد بن مروان المالكي في كتاب المجالسة له حدثنا
زكريا بن عبد الرحمن البصري قال سمعت احمد بن شعيب يقول كنا عند بعض المحدثين بالبصرة فحدثنا بحديث النبي
صلى الله عليه وسلم ان الملائكة تضع اجنحتها لطالب العلم وفي المجلس معنا رجل من المعتزلة فجعل يستهزئ بالحديث
فقال والله لاطرقن غدا نعلي فاطأ بها اجنحة الملائكة ففعل ومشى في النعلين فجفت رجلاه
جميعا ووقعت في رجليه الاكلة وقال الطبراني سمعت ابا يحيى زكريا بن يحيى الساجي قال
كنا نمشي في بعض ازقة البصرة الى باب بعض المحدثين فاسرعنا المشي وكان معنا رجل ماجن متهم في دينه فقال
ارفعوا ارجلكم عن اجنحة الملائكة لا تكسروها كالمستهزئ فما زال من موضعه حتى جفت رجلاه وسقط
مطلب وفي السنن والمسانيد عن صفوان بن عسال قال قلت يا رسول الله اني جئت اطلب العلم قال مرحبا
بطالب العلم ان طالب العلم لتحف به الملائكة وتظله باجنحتها فيركب بعضها بعضا حتى يبلغوا السماء الدنيا
من حبهم لما يطلب وذكر حديثا فيه المسح على الخفين قال ابو عبد الله الحاكم اسناده صحيح **وقال**

ابن عبد البر هو حديث صحيح حسن ثابت محفوظ مرفوع ومثله لا يقال بالرأي فمعنى هذا الحديث حف الملائكة له بأجنحتها إلى السماء، وفي الأول وضعها أجنحتها له فالوضع تواضع وتوقير وتبجيل والحف بالأجنحة حفظ وحماية وصيانة، فتضمن الحديثان تعظيم الملائكة له وحبها إياه وحياطته وحفظه فلو لم يكن لطالب العلم إلا هذا الحظ الجزيل لكفى به شرفًا وفضلًا. **وقوله** صلى الله عليه وسلم إن العالم ليستغفر له من في السموات ومن في الأرض حتى الحيتان في الماء، فإنه لما كان العالم سببًا في حصول العلم الذي به نجاة النفوس من أنواع المهلكات وكان سعيه مقصورًا على هذا وكانت نجاة العباد على يديه جوزي من جنس عمله وجعل من في السموات والأرض ساعيًا في نجاته من أسباب المهلكات باستغفارهم له، وإذا كانت الملائكة تستغفر للمؤمنين فكيف لا تستغفر لخاصتهم وخلاصتهم، وقد قيل إن من في السموات ومن في الأرض المستغفرين للعالم عام في الحيوانات ناطقها وبهيمها طيرها وغيره، ويؤكد هذا قوله حتى الحيتان في الماء وحتى النملة في جحرها، فقيل سبب هذا الاستغفار أن العالم يعلم الخلق مراعاة هذه الحيوانات ويعرفهم ما يحل منها وما يحرم ويعرفهم كيفية تناولها واستخدامها وركوبها والانتفاع بها وكيفية ذبحها على أحسن الوجوه وأرفقها بالحيوان، والعالم أشفق الخلق على الناس على الحيوان وأقومهم ببيان ما خلق له، وبالجملة فالرحمة والإحسان التي خلق بها وله الحيوان وكتب لها حظها منه إنما يعرف بالعلم فالعالم معرف لذلك فاستحق أن تستغفر له البهائم والله أعلم. **وقوله** وفضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب تشبيه مطابق لحال القمر والكواكب فإن القمر يضيء الآفاق ويمتد نوره في أقطار العالم وهذه حالة العالم، وأما الكوكب فنوره لا يجاوز نفسه أو ما قرب منه وهذه حال العابد الذي يضيء نور عبادته عليه دون غيره وإن جاوز غيره فإنما يجاوزه غير بعيد كما يجاوز ضوء الكوكب له مجاوزة يسيرة، ومن هذا الأثر المروي إذا كان يوم القيامة يقول الله للعابد ادخل الجنة فإنما كانت منفعتك لنفسك ويقال للعالم اشفع تشفع فإنما كانت منفعتك للناس. **وروى ابن جريج** عن عطاء عن ابن عباس رضي الله عنهما إذا كان يوم القيامة يؤتى بالعابد والفقيه فيقال للعابد ادخل الجنة ويقال للفقيه اشفع تشفع. وفي التشبيه المذكور لطيفة أخرى وهو أن الجهل كالليل في ظلمته وحندسه والعلماء والعباد بمنزلة القمر والكواكب الطالعة في تلك الظلمة وفضل نور العالم فيها على نور العابد كفضل نور القمر على الكواكب، وأيضًا فالدين قوامه وزينته وأمنته بعلمائه وعباده فإذا ذهب علماؤه وعباده ذهب الدين كما أن السماء أمنتها وزينتها بقمرها وكواكبها فإذا خسف قمرها وانتثرت كواكبها أتاها ما توعد، وفضل علماء الدين على العباد كفضل ما بين القمر والكواكب. فإن قيل كيف وقع تشبيه العالم بالقمر دون الشمس وهي أعظم نورًا، قيل فيه فائدتان إحداهما أن نور القمر لما كان مستفادًا من غيره كان تشبيه العالم الذي نوره مستفاد من شمس الرسالة

عالم خ

نور عبادته خ

بالقمر اولى

بالقمر أولى من تشبيهه بالشمس. الثانية أن الشمس لا يختلف حالها في نورها ولا يلحقها محاق ولا تفاوت في الإضاءة، وأما القمر فإنه يقل نوره ويكثر ويمتلئ وينقص كما أن العلماء في العلم على مراتبهم من كثرته وقلته فيفضل كل منهم في علمه بحسب كثرته وقلته وظهوره وخفائه كما يكون القمر كذلك فعالم كالبدر ليلة تمه وآخر دونه بليلة وثانية وثالثة وما بعدها إلى آخر مراتبه وهم درجات عند الله. فإن قيل تشبيه العلماء بالنجوم أمر معلوم كقوله صلى الله عليه وسلم أصحابي كالنجوم، ولهذا هي في تعبير الرؤيا عبارة عن العلماء فكيف وقع تشبيههم هنا بالقمر، قيل أما تشبيه العلماء بالنجوم فلأن النجوم يهتدى بها في ظلمات البر والبحر وكذلك العلماء، والنجوم زينة للسماء وكذلك العلماء زينة للأرض، وهي رجوم للشياطين حائلة بينهم وبين استراق السمع لئلا يلبسوا بما يسترقونه من الوحي الوارد إلى الرسل من الله على أيدي ملائكته، وكذلك العلماء رجوم لشياطين الإنس الذين يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورًا، فالعلماء رجوم لهذا الصنف من الشياطين ولولاهم لطمست معالم الدين بتلبيس المضلين، ولكن الله سبحانه أقامهم حراسًا وحفظة لدينه ورجومًا لأعدائه وأعداء رسوله، فهذا وجه تشبيههم بالنجوم، وأما تشبيههم بالقمر فذلك إنما كان في مقام تفضيلهم على أهل العبادة المجردة وموازنة ما بينهما من الفضل، والمعنى أنهم يفضلون العباد الذين ليسوا بعلماء كما يفضل القمر سائر الكواكب، فكل من التشبيهين لائق بموضعه والحمد لله. **وقوله** إن العلماء ورثة الأنبياء، هذا من أعظم المناقب لأهل العلم فإن الأنبياء خير خلق الله فورثتهم خير الخلق بعدهم، ولما كان كل موروث ينتقل ميراثه إلى ورثته إذ هم الذين يقومون مقامه من بعده ولم يكن بعد الرسل من يقوم مقامهم في تبليغ ما أرسلوا به إلا العلماء كانوا أحق الناس بميراثهم، وفي هذا تنبيه على أنهم أقرب الناس إليهم فإن الميراث إنما يكون لأقرب الناس إلى الموروث، وهذا كما أنه ثابت في ميراث الدينار والدرهم فكذلك هو في ميراث النبوة والله يختص برحمته من يشاء. وفيه أيضًا إرشاد وأمر للأمة بطاعتهم واحترامهم وتعزيرهم وتوقيرهم وإجلالهم فإنهم ورثة من هذه بعض حقوقهم على الأمة وخلفاؤهم فيهم. وفيه تنبيه على أن محبتهم من الدين وبغضهم مناف للدين كما هو ثابت لموروثهم، وكذلك معاداتهم ومحاربتهم معاداة ومحاربة لله كما هو في موروثهم. قال علي كرم الله وجهه ورضي عنه محبة العلماء دين يدان به. وقال صلى الله عليه وسلم فيما يروي عن ربه عز وجل من عادى لي وليًا فقد بارزني بالمحاربة، وورثة الأنبياء سادات أولياء الله عز وجل. **وفيه** تنبيه للعلماء على سلوك هدي الأنبياء وطريقتهم في التبليغ من الصبر والاحتمال ومقابلة إساءة الناس إليهم بالإحسان والرفق بهم واستجلابهم إلى الله بأحسن الطرق وبذل ما يمكن من النصيحة لهم فإنه بذلك يحصل لهم نصيبهم من هذا الميراث

العظيم قدره الجليل خطره وفيه ايضا تنبيه لاهل العلم على تربية الامة كما يربي الوالد ولده فيربونهم
بالتدريج والترقي من صغار العلم الى كباره وتحميلهم منه ما يطيقون كما يفعل الاب بولده الطفل في ايصال
الغذاء اليه فان ارواح البشر بالنسبة الى الانبياء والرسل كالاطفال بالنسبة الى ابائهم بل دون هذه
النسبة بكثير ولهذا كل روح لم يربها الرسول لم يفلح ولم تصلح لصالحة كما قيل

ومن لا يربيه الرسول ويسقه لبانا له قد در من ثدي قدسه
فذاك لقيط ماله نسبة الولا ولا يتعدى طور ابناء جنسه

وقوله ان الانبياء لم يورثوا دينارا ولا درهما انما ورثوا العلم هذا من كمال الانبياء
وعظم نصحهم للامم وتمام نعمة الله عليهم وعلى اممهم ان ازاح جميع العلل وحسم جميع المواد التي توهم
بعض النفوس ان الانبياء من جنس الملوك الذين يريدون الدنيا وملكها فحماهم سبحانه وتعالى من ذلك اتم
الحماية ثم لما كان الغالب على الناس ان احدهم يريد الدنيا لولده من بعده ويسعى ويتعب ويحرم نفسه لولده سد هذه
الذريعة عن انبيائه ورسله وقطع هذا الوهم الذي عسى ان يخالط كثيرا من النفوس التي تقول فلعله لم يطلب
الدنيا فهو يحصلها لولده فقال صلى الله عليه وسلم نحن معاشر الانبياء لا نورث ما تركنا فهو صدقة فلم يورث الانبياء
دينارا ولا درهما وانما ورثوا العلم واما قوله تعالى وورث سليمان داود فهو ميراث العلم والنبوة لا غير
وهذا باتفاق اهل العلم من المفسرين وغيرهم وهذا لان داود عليه السلام كان له اولاد كثير سوى
سليمان فلو كان الموروث هو المال لم يكن سليمان مختصا به وايضا فان كلام الله يصان عن الاخبار بمثل هذا فانه بمنزلة
ان يقال مات فلان وورثه ابنه ومن المعلوم ان كل احد يرثه ابنه وليس في الاخبار بمثل هذا فائدة وايضا
فان ما قبل الاية وما بعدها يبين ان المراد بهذه الوراثة وراثة العلم والنبوة لا وراثة المال قال تعالى
ولقد اتينا داود وسليمان علما وقالا الحمد لله الذي فضلنا على كثير من عباده المومنين وورث سليمان داود
وانما سيق هذا لبيان فضل سليمان وما خصه الله به من كرامته وميراثه ما كان لابيه من اعلى المواهب وهو العلم
والنبوة ان هذا لهو الفضل المبين وكذلك قول زكريا عليه الصلاة والسلام واني خفت الموالي من ورائي
وكانت امراتي عاقرا فهب لي من لدنك وليا يرثني ويرث من ال يعقوب واجعله رب رضيا فهذا ميراث
العلم والنبوة والدعوة الى الله والا فلا يظن بنبي كريم انه يخاف عصبته ان يرثوا ماله فيسال الله العظيم
ولدا يمنعهم ميراثه ويكون احق به منهم وقد نزه الله انبياءه ورسله عن هذا وامثاله فبعدا لمن حرف كتاب الله
ورد على رسوله كلامه ونسب الانبياء الى ما هم ابرياء منزهون عنه والحمد لله على توفيقه وهدايته
ويذكر عن ابي هريرة رضي الله عنه انه مر بالسوق فوجدهم في تجاراتهم وبياعاتهم فقال انتم ههنا فيما انتم فيه

وميراث

وميراث رسول الله صلى الله عليه وسلم يقسم في مسجده فقاموا سراعا الى المسجد فلم يجدوا فيه الا القران والذكر
ومجالس العلم فقالوا اين ما قلت يا ابا هريرة فقال هذا ميراث محمد يقسم بين ورثته وليس بمواريثكم
ودنياكم او كما قال وقوله فمن اخذه اخذ بحظ وافر اعظم الحظوظ واجلها ما نفع العبد ودام
نفعه له وليس هذا الا حظه من العلم والدين فهو الحظ الدائم النافع الذي اذا انقطعت الحظوظ لاربابها
فهو موصول له الابد الابد وذلك لانه موصول بالحي الذي لا يموت فلذلك لا ينقطع ولا يفوت وسائر الحظوظ
تعدم وتتلاشى بتلاشي متعلقاتها كما قال تعالى وقدمنا الى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثورا فان
الغاية لما كانت منقطعة زائلة تبعتها اعمالهم فانقطعت عنهم احوج ما يكون العامل الى عمله وهذه
هي المصيبة التي لا تجبر عياذا بالله واستعانة به وافتقارا وتوكلا عليه ولا حول ولا قوة الا بالله
وقوله موت العالم مصيبة لا تجبر وثلمة لا تسد ونجم طمس وموت قبيلة ايسر من موت عالم
لما كان صلاح الوجود بالعلماء ولولاهم كان الناس كالبهائم بل اسوا حالا كان موت العالم مصيبة لا
يجبرها الا خلف غيره له وايضا فان العلماء هم الذين يسوسون العباد والبلاد والممالك بهم يحفظ دينه
وكتابه وعباده وتامل اذا كان في الوجود رجل قد فاق العالم في الغنى والكرم وحاجتهم الى ما عنده
شديدة وهو محسن اليهم بكل ممكن ثم مات وانقطعت عنهم تلك المادة فموت العالم اعظم مصيبة من موت
مثل هذا بكثير ومثل هذا يموت بموته امم وخلائق كما قيل

تعلم ما الرزية فقد مال ولا شاة تموت ولا بعير
ولكن الرزية فقد حر يموت بموته بشر كثير

وقال اخر
فما كان قيس هلكه هلك واحد ولكنه بنيان قوم تهدما

الوجه السابع والاربعون ما رواه الترمذي من حديث الوليد بن مسلم ثنا روح بن جناح عن
مجاهد عن ابن عباس رضي الله عنهما قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فقيه اشد على الشيطان من الف
عابد قال الترمذي غريب لا نعرفه الا من هذا الوجه من حديث الوليد بن مسلم قال الدارقطني والمرسل
هو المحفوظ عن روح عن مجاهد عن ابن عباس وما ارى الوهم وقع في هذا الحديث الا من ابي جعفر لان عمر بن سنان
حدثه عن هشام بن عمار عن الوليد عن روح عن الزهري عن ابي سلمة عن ابي هريرة حديث في السماء بيت يقال له البيت
المعمور حيال الكعبة وحديث ابن عباس كانا في كتاب ابن سنان عن هشام يتلو احدهما الاخر فكتب
ابو جعفر اسناد حديث ابي هريرة ثم عارضه بنهو او زاغ نظره فنزل الى متن حديث ابن عباس
فركب متن هذا على اسناد هذا وكل واحد منهما ثقة مامون بريء من تعمد الغلط وقد رواه ابو احمد

ابن عدي عن محمد بن سعيد بن مهران ثنا أبو الربيع السمان عن أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة رضي الله عنه قال
قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لكل شيء دعامة ودعامة الإسلام الفقه في الدين والفقيه أشد على
الشيطان من ألف عابد ولهذا الحديث علة وهو أنه روي من كلام الزهري وهو أشبه ورواه هشام بن يحيى
حدثنا يزيد بن عياض ثنا صفوان بن سليم عن سليمان بن يسار عن أبي هريرة رضي الله عنه قال قال رسول
الله صلى الله عليه وسلم ما عُبد الله بشيء أفضل من فقه في الدين قال قال أبو هريرة لأن أفقه ساعة أحب إلي من أن
أحيي ليلة أصليها حتى أصبح والفقيه أشد على الشيطان من ألف عابد ولكل شيء دعامة ودعامة الدين الفقه
وقد روي بإسناد فيه من لا يحتج به من حديث عاصم بن أبي النجود عن زر بن حبيش عن عمر بن الخطاب يرفعه
أن الفقيه أشد على الشيطان من ألف ورع وألف مجتهد وألف متعبد وروي عن ابن عباس أنه قال
إن الشياطين قالوا لإبليس يا سيدنا ما لنا نراك تفرح بموت العالم ما لا تفرح بموت العابد والعالم لا نصيب
منه والعابد نصيب منه قال انطلقوا فانطلقوا إلى عابد فأتوه في عبادته فقالوا إنا نريد أن نسألك فانصرف
فقال إبليس هل يقدر ربك أن يجعل الدنيا في جوف بيضة فقال لا أدري فقال أترونه كفر في ساعة
ثم جاؤوا إلى عالم في حلقته يضاحك أصحابه ويحدثهم فقالوا إنا نريد أن نسألك فقال سل فقال هل يقدر
ربك أن يجعل الدنيا في جوف بيضة قال نعم قالوا كيف قال يقول كن فيكون فقال أترون ذلك لا يعدوا
نفسه وهذا أفسد على عالمًا كثيرًا وقد رويت هذه الحكاية على وجه آخر وأنهم سألوا العابد فقالوا
هل يقدر ربك أن يخلق مثل نفسه فقال لا أدري فقال أترونه لم تنفعه عبادته مع جهله وسألوا العالم عن
ذلك فقال هذه المسألة محال لأنه لو كان مثله لم يكن مخلوقًا فكونه مخلوقًا وهو مثل نفسه مستحيل فإذا كان مخلوقًا
لم يكن مثله بل كان عبدًا من عبيده وخلقًا من خلقه فقال أترون هذا يهدم في ساعة ما أبنيه في سنين أو كما قال
وروي عن عبد الله بن عمرو فضل العالم على العابد سبعين درجة ما بين كل درجتين حضر الفرس سبعين
عامًا وذلك أن الشيطان يضع البدعة فيبصرها العالم وينهى عنها والعابد مقبل على عبادته لا يتوجه
لها ولا يعرفها وهذا معنى صحيح فإن العالم يفسد على الشيطان ما يسعى فيه ويهدم ما يبنيه فكلما أراد
إحياء بدعة وإماتة سنة حال العالم بينه وبين ذلك فلا شيء أشد عليه من بقاء العالم بين ظهراني الأمة
ولا شيء أحب إليه من زوال العلماء من بين أظهرهم ليتمكن من إفساد الدين وإغواء الأمة وأما العابد فغايته أن
يجاهد ليسلم منه في خاصة نفسه وهيهات له ذلك **الوجه** التاسع والأربعون
ما روى الترمذي من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول الدنيا ملعونة
وملعون ما فيها إلا ذكر الله وما والاه وعالم ومتعلم قال الترمذي هذا حديث حسن ولما كانت الدنيا

حقيرة

حقيرة عند الله لا تساوي لديه جناح بعوضة كانت وما فيها في غاية البعد منه وهذا هو حقيقة
اللعنة وهو سبحانه إنما خلقها مزرعة للآخرة ومعبرًا إليها يتزود منها عباده إليه فلم يكن يقرب منها إلا ما
كان متضمنًا لإقامة ذكره ومفضيًا إلى محابه وهو العلم الذي به يعرف ويعبد ويذكر ويثنى عليه ويمجد
ولهذا خلقها وخلق أهلها كما قال تعالى وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون وقال الله
الذي خلق سبع سموات ومن الأرض مثلهن يتنزل الأمر بينهن لتعلموا أن الله على كل شيء قدير وأن الله قد أحاط
بكل شيء علمًا فتضمنت هاتان الآيتان أنه سبحانه إنما خلق السموات والأرض وما بينهما ليعرف بأسمائه وصفاته
وليعبد فهذا المطلوب وما كان طريقًا إليه من العلم والتعلم فهو المستثنى من اللعنة واللعنة واقعة على ما عداه
إذ هو بعيد عن الله وعن محابه وعن دينه وهذا هو متعلق العقاب في الآخرة فإنه كما كان متعلق اللعنة التي تتضمن
الذم والبغض فهو متعلق العقاب والله سبحانه إنما يحب من عباده ذكره وعبادته ومعرفته ومحبته ولوازم
ذلك وما أفضى إليه وما عداه فهو مبغوض له مذموم عنده **الوجه** الخمسون ما رواه الترمذي
من حديث أبي جعفر الرازي عن الربيع بن أنس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من خرج في طلب العلم فهو
في سبيل الله حتى يرجع قال الترمذي هذا حديث حسن غريب رواه بعضهم فلم يرفعه وإنما جعل طلب العلم من
سبيل الله لأن به قوام الإسلام كما أن قوامه بالجهاد فقوام الدين بالعلم والجهاد ولهذا كان الجهاد نوعين
جهاد باليد والسنان وهذا المشارك فيه كثير والثاني الجهاد بالحجة والبيان وهذا جهاد الخاصة
من أتباع الرسل وهو جهاد الأئمة وهو أفضل الجهادين لعظم منفعته وشدة مؤنته وكثرة أعدائه قال
تعالى في سورة الفرقان وهي مكية ولو شئنا لبعثنا في كل قرية نذيرًا فلا تطع الكافرين وجاهدهم به جهادًا
كبيرًا فهذا جهاد لهم بالقرآن وهو أكبر الجهادين وهو جهاد المنافقين أيضًا فإن المنافقين لم يكونوا
يقاتلون المسلمين بل كانوا معهم في الظاهر وربما كانوا يقاتلون عدوهم معهم ومع هذا فقد قال تعالى يا أيها
النبي جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم ومعلوم أن جهاد المنافقين بالحجة والقرآن **والمقصود**
أن سبيل الله هي الجهاد وطلب العلم ودعوة الخلق به إلى الله ولهذا قال معاذ رضي الله عنه عليكم بطلب
العلم فإن تعلمه لله خشية ومدارسته عبادة ومذاكرته تسبيح والبحث عنه جهاد ولهذا يقرن سبحانه
بين الكتاب المنزل والحديد الناصر كما قال تعالى لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان
ليقوم الناس بالقسط وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب إن الله
قوي عزيز فذكر الكتاب والحديد إذ بهما قيام الدين كما قيل

فما هو إلا الوحي أو حد مرهف تميل ظباه أخدعي كل مائل

نوعين

بلغ

فهذا استشفاء الداء من كل عاقل وهذا دواء الداء من كل جاهل

ولما كان الجهاد بالسيف والحجة والسيف يسمى سبيل الله فسر الصحابة رضي الله عنهم قوله اطيعوا الله واطيعوا الرسول واولي الامر منكم بالعلماء فانهم المجاهدون في سبيل الله هؤلاء بايديهم وهؤلاء بالسنتهم فطلب العلم وتعليمه من اعظم سبيل الله قال كعب الاحبار رضي الله عنه طالب العلم كالغادي الرائح في سبيل الله عز وجل وجاء عن بعض الصحابة اذا جاء الموت طالب العلم وهو على هذه الحال مات وهو شهيد وقال سفيان بن عيينة من طلب العلم فقد بايع الله عز وجل وقال ابو الدرداء من راى الغدو والرواح الى العلم ليس بجهاد فقد نقص في عقله ورايه **الوجه** الحادي والخمسون ما رواه الترمذي ثنا محمود بن غيلان ثنا ابو اسامة عن الاعمش عن ابي صالح عن ابي هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من سلك طريقا يلتمس فيه علما سهل الله له طريقا الى الجنة قال الترمذي هذا حديث حسن قال بعضهم ولم يقل في هذا الحديث صحيح لانه يقال دلس الاعمش في هذا الحديث لانه رواه بعضهم فقال حدثت عن ابي صالح والحديث رواه مسلم في صحيحه من حديث الاعمش عن ابي صالح قال الحاكم في المستدرك هو صحيح على شرط البخاري ومسلم رواه عن الاعمش جماعة منهم زائدة وابو معاوية وابن نمير **وقد تقدم** حديث ابي الدرداء في ذلك والحديث محفوظ وله اصل وقد تظاهر الشرع على ان الجزاء من جنس العمل فكما سلك طريقا يطلب فيه حياة قلبه ونجاته من الهلاك سلك الله به طريقا يحصل له ذلك **وقد روي** في حديث عائشة رواه ابن عدي من حديث محمد بن عبد الملك الانصاري عن الزهري عن عروة عنها مرفوعا ولفظه اوحى الله الي انه من سلك مسلكا يطلب العلم سهلت له طريقا الى الجنة ٥ **الوجه** الثاني والخمسون ان النبي صلى الله عليه وسلم دعا لمن سمع كلامه ووعاه وبلغه بالنضرة وهي البهجة ونضارة الوجه وتحسينه ففي الترمذي وغيره من حديث ابن مسعود رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال نضر الله امرا سمع مقالتي فوعاها وحفظها وبلغها فرب حامل فقه الى من هو افقه منه ثلاث لا يغل عليهن قلب مسلم اخلاص العمل لله ومناصحة ائمة المسلمين ولزوم جماعتهم فان دعوتهم تحيط من ورائهم **وروى** هذا الاصل عن النبي صلى الله عليه وسلم ابن مسعود ومعاذ بن جبل وابو الدرداء وجبير بن مطعم وانس بن مالك وزيد بن ثابت والنعمان بن بشير قال الترمذي حديث ابن مسعود حديث حسن صحيح وحديث زيد بن ثابت حديث حسن واخرج الحاكم في صحيحه حديث جبير والنعمان بن بشير وقال في حديث جبير على شرط البخاري ومسلم ولو لم يكن في فضل العلم الا هذا وحده لكفى به شرفا فان النبي صلى الله عليه وسلم دعا لمن سمع كلامه ووعاه وحفظه وبلغه وهذه مراتب العلم اولها سماعه فاذا سمعه وعاه

بقلبه

بقلبه اي عقله واستقر في قلبه كما يستقر الشيء الذي يوعى في وعائه لا يخرج منه وكذلك عقله هو بمنزلة عقل البعير والدابة ونحوها حتى لا تشرد وتذهب ولهذا كان الوعي والعقل قدرا زائدا على مجرد ادراك المعلوم المرتبة الثالثة تعاهده وحفظه حتى لا ينساه فيذهب المرتبة الرابعة تبليغه وبثه في الامة ليحصل به ثمرته ومقصوده فانه ما لم يبلغ ويبث في الامة فهو بمنزلة الكنز المدفون في الارض الذي لا ينفق منه وهو معرض لذهابه فان العلم ما لم ينفق منه ويعلم فانه يوشك ان يذهب فاذا انفق منه نما وزكى على الانفاق فمن قام بهذه المراتب الاربع دخل تحت هذه الدعوة النبوية المتضمنة لجمال الظاهر والباطن فان النضرة هي البهجة والحسن الذي يكساه الوجه من اثار الايمان وابتهاج الباطن به وفرح القلب وسروره والتذاذه به فتظهر هذه البهجة والسرور والفرحة نضارة على الوجه ولهذا يجمع سبحانه بين البهجة والسرور والنضرة كما في قوله تعالى فوقاهم الله شر ذلك اليوم ولقاهم نضرة وسرورا فالنضرة في وجوههم والسرور في قلوبهم فالنعيم وطيب القلب يظهر نضارة في الوجه كما قال تعالى تعرف في وجوههم نضرة النعيم **والمقصود** ان هذه النضرة في وجه من سمع سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ووعاها وحفظها وبلغها هي اثر تلك الحلاوة والبهجة والسرور الذي في قلبه وباطنه **وقوله** صلى الله عليه وسلم رب حامل فقه الى من هو افقه منه تنبيه على فائدة التبليغ وان المبلغ قد يكون افهم من المبلغ فيحصل له في تلك المقالة ما لم يحصل للمبلغ او يكون المعنى ان المبلغ قد يكون افقه من المبلغ فاذا سمع تلك المقالة حملها على احسن وجوهها واستنبط فقهها وعلم المراد منها **وقوله** صلى الله عليه وسلم ثلاث لا يغل عليهن قلب مسلم الى اخره اي لا يحمل الغل ولا يبقى فيه مع هذه الثلاثة فانها تنفي الغل والغش وهو فساد القلب وسخائمه ٥ فالمخلص لله اخلاصه يمنع غل قلبه ويخرجه ويزيله جملة لانه قد انصرفت دواعي قلبه وارادته الى مرضاة ربه فلم يبق فيه موضع للغل والغش كما قال تعالى كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء انه من عبادنا المخلصين فلما اخلص لربه صرف عنه دواعي السوء والفحشاء ولهذا لما علم ابليس انه لا سبيل له على اهل الاخلاص استثناهم من شرطته التي اشترطها للغواية والاهلاك فقال فبعزتك لاغوينهم اجمعين الا عبادك منهم المخلصين قال الله تعالى ان عبادي ليس لك عليهم سلطان الا من اتبعك من الغاوين فالاخلاص هو سبيل الخلاص والاسلام مركب السلامة والايمان خاتم الامان **وقوله** ومناصحة ائمة المسلمين هذا ايضا مناف للغل والغش فان النصيحة لا تجامع الغل اذ هي ضده فمن نصح الائمة والامة فقد برئ من الغل **وقوله** ولزوم جماعتهم هذا ايضا مما يطهر القلب من الغل والغش فان صاحبه للزومه جماعة المسلمين يحب لهم ما يحب لنفسه ويكره لهم ما يكره لها ويسوءه ما يسوؤهم ويسره ما يسرهم وهذا بخلاف

من ايجار عنهم واشتغل بالطعن عليهم والعيب والذم كفعل الرافضة والخوارج والمعتزلة وغيرهم فان
قلوبهم ممتلية غلا وغشا ولهذا تجد الرافضة ابعد الناس من الاخلاص واغشهم للايمة والامة
واشدهم بعدا عن جماعة المسلمين فهولاء اشد الناس غلا وغشا بشهادة الرسول والامة عليهم وشهادتهم
على انفسهم بذلك فانهم لا يكونون قط الا اعوانا وظهرا على اهل الاسلام فاي عدو قام للمسلمين كانوا
اعوان ذلك وبطانته وهذا امر قد شاهدته الامة منهم ومن لم يشاهده فقد سمع منه ما يصم الاذان
ويشجي القلوب وقوله فان دعوتهم تحيط من ورايهم هذا من احسن الكلام واوجزه وافخمه
معنى شبه دعوة المسلمين بالسور والسياج المحيط بهم المانع من دخول عدوهم عليهم فتلك الدعوة التي هي
دعوة الاسلام وهم داخلوها لما كانت سورا وسياجا عليهم اخبر ان من لزم جماعة المسلمين احاطت
به تلك الدعوة التي هي دعوة الاسلام كما احاطت بهم فالدعوة تجمع شمل الامة وتلم شعثها وتحيط بها فمن دخل
في جماعتها احاطت به وشملته **الوجه** الثالث والخمسون ان النبي صلى الله عليه وسلم
امر بتبليغ العلم عنه ففي الصحيح عن عبد الله بن عمرو قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم
بلغوا عني ولو اية وحدثوا عن بني اسرائيل ولا حرج ومن كذب علي متعمدا فليتبوا مقعده من النار وقال
ليبلغ الشاهد منكم الغايب روى ذلك ابو بكرة ووابصة بن معبد وعمار بن ياسر وعبد الله بن عمر وعبد الله
ابن عباس واسماء بنت يزيد بن السكن وحجير وابو قريع وسرى بنت نبهان ومعوية بن حيدة القشيري
وعم ابي حرة وغيرهم فامر صلى الله عليه وسلم بالتبليغ عنه لما في ذلك من حصول الهدى بالتبليغ وله صلى الله
عليه وسلم اجر من بلغ عنه واجر من قبل ذلك البلاغ وكلما كثر التبليغ عنه تضاعف له الثواب فله
من الاجر بعدد كل مبلغ وكل مهتد بذلك البلاغ سوى ما له من اجر عمله المختص به فكل من هدي واهتدى بتبليغه
فله اجر لانه هو الداعي اليه ولو لم يكن في تبليغ العلم عنه الا حصول ما يحبه صلى الله عليه وسلم لكفى به فضلا وعلامة
المحب الصادق ان يسعى في محبوب محبوبه ويبذل جهده وطاقته فيها ومعلوم انه لا شيء احب الى رسول
الله صلى الله عليه وسلم من ايصاله الى جميع الامة فالمبلغ عنه ساع في حصول محابه فهو اقرب الناس منه واحبهم
اليه وهو نايبه وخليفته في امته وكفى بهذا فضلا وشرفا للعلم واهله **الوجه**
الرابع والخمسون ان النبي صلى الله عليه وسلم قدم بالفضايل العلمية في اعلا الولايات الدينية واشرفها
وقدم بالعلم بالافضل على غيره فروى مسلم في صحيحه من حديث ابي مسعود البدري عن النبي صلى الله عليه وسلم
يؤم القوم اقراهم لكتاب الله فان كانوا في القراءة سوا فاعلمهم بالسنة فان كانوا في السنة سوا فاقدمهم
سلما او سنا وذكر الحديث فقدم في الامامة بفضيلة العلم على تقديم الاسلام والهجرة ولما كان العلم بالقران

افضل

الهدي

افضل من العلم بالسنة لشرف معلومه على معلوم السنة قدم العلم به ثم قدم العلم بالسنة على تقديم الهجرة وفيه
زيادة العمل ما هو متميز به لكن انما راعى التقديم بالعلم ثم بالعمل وراعى التقديم بالعلم بالافضل على غيره
وهذا يدل على شرف العلم وفضله وان اهله هم اهل التقديم الى المراتب الدينية **الوجه**
الخامس والخمسون ما في صحيح البخاري من حديث عثمان بن عفان رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال
خيركم من تعلم القران وعلمه وتعلم القران وتعليمه يتناول تعلم حروفه وتعليمها وتعلم معانيه وتعليمها وهو
اشرف قسمي علمه وتعلمه فان المعنى هو المقصود واللفظ وسيلة اليه فتعلم المعنى وتعليمه تعلم الغاية وتعليمها
وتعلم اللفظ المجرد وتعليمه تعلم الوسايل وتعليمها وبينهما كما بين الغايات والوسايل **الوجه**
السادس والخمسون ما رواه الترمذي وغيره من نسخة عمرو بن الحرث عن دراج عن ابي الهيثم عن ابي سعيد
رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال لن يشبع المومن من خير يسمعه حتى يكون منتهاه الجنة قال الترمذي هذا حديث
حسن غريب وهذه نسخة معروفة رواها الناس وساق احمد في المسند اكثرها او كثيرا منها ولهذا
الحديث شواهد فجعل النبي صلى الله عليه وسلم النهمة في العلم وعدم الشبع منه من لوازم الايمان واوصاف المومنين
واخبر ان هذا لا يزال داب المومن حتى دخوله الجنة ولهذا كان ايمة الاسلام اذا قيل لاحدهم الى متى تطلب
العلم فيقول الى الممات قال نعيم بن حماد سمعت عبد الله بن المبارك يقول وقد عابه قوم في كثرة طلبه للحديث
فقالوا له الى متى تسمع قال الى الممات وقال الحسن بن منصور الجصاص قلت لاحمد بن حنبل
رضي الله عنه الى متى يكتب الرجل الحديث قال الى الموت وقال عبد الله بن محمد البغوي سمعت احمد بن حنبل
يقول انما اطلب العلم الى ان ادخل القبر وقال محمد بن اسمعيل الصايغ كنت اصوغ مع ابي ببغداد فمر بنا احمد
ابن حنبل وهو يعدو ونعلاه في يديه فاخذ ابي بمجامع ثوبه فقال يا ابا عبد الله الا تستحي الى متى تعدو مع هولاء
قال الى الموت وقال عبد الله بن بشر الطالقاني ارجو ان ياتيني امر الله والمحبرة بين يدي ولم يفارقني العلم والمحبرة
وقال حميد بن محمد بن يزيد البصري جا ابن بسطام الحافظ يسالني عن الحديث فقلت له ما اشد حرصك على
الحديث فقال او ما احب ان اكون في قطار ال رسول الله صلى الله عليه وسلم وسيل الخليل بن احمد عن الرجل الى كم يكون
سنه ايحسن ان يطلب العلم قال ان كان يحسن به ان يعيش **الوجه** السابع والخمسون ما روى
الترمذي ايضا من حديث ابرهيم بن الفضل عن المقبري عن ابي هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم
الكلمة الحكمة ضالة المومن فحيث وجدها فهو احق بها قال الترمذي هذا حديث غريب لا نعرفه الا من
هذا الوجه وابرهيم بن الفضل المدني المخزومي يضعف في الحديث من قبل حفظه وهذا ايضا شاهد لما
تقدم وله شواهد والحكمة هي العلم فاذا فقده المومن فهو بمنزلة من فقد ضالة نفيسة من نفايسه فاذا وجدها

يث

لعل ابا عبد الله

في قلبه وفرحت نفسه بوجدانها كذلك المؤمن إذا وجد ضالته قلبه وروحه التي هو دائما يطلبها وينشدها وانتقش عليها وهذا من أحسن الأمثلة فإن قلب المؤمن يطلب العلم حيث وجده أعظم من طلب صاحب الضالة لضالته

الوجه الثامن والخمسون قال الترمذي ثنا أبو كريب ثنا خلف ابن أيوب عن عوف عن ابن سيرين عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم خصلتان لا تجتمعان في منافق حسن سمت وفقه في الدين قال الترمذي هذا حديث غريب ولا نعرف هذا الحديث من حديث عوف إلا من هذا الشيخ خلف بن أيوب العامري ولم أر أحدا يروي عنه غير أبي كريب محمد بن العلاء ولا أدري كيف هو وهذه شهادة بأن من اجتمع فيه حسن السمت والفقه في الدين فهو مؤمن وأجدر بهذا الحديث أن يكون حقا وإن كان إسناده فيه جهالة فإن حسن السمت والفقه في الدين من أخص علامات الإيمان ولن يجمعهما الله في منافق فإن النفاق ينافيهما ويباينه

الوجه التاسع والخمسون قال الترمذي ثنا مسلم بن حاتم الأنصاري ثنا أبو حاتم البصري ثنا محمد بن عبد الله الأنصاري عن أبيه عن علي بن زيد عن سعيد بن المسيب قال قال أنس بن مالك رضي الله عنه قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم يا بني إن قدرت أن تصبح وتمسي وليس في قلبك غش لأحد فافعل ثم قال يا بني وذلك من سنتي ومن أحيا سنتي فقد أحبني ومن أحبني كان معي في الجنة وفي الحديث قصة طويلة قال الترمذي هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه ومحمد بن عبد الله الأنصاري صدوق وأبوه ثقة وعلي بن زيد صدوق إلا أنه ربما يرفع الشيء الذي يوقفه غيره سمعت محمد بن بشار يقول قال أبو الوليد قال شعبة ثنا علي بن زيد وكان رفاعا قال الترمذي ولا نعرف لسعيد بن المسيب عن أنس رواية إلا هذا الحديث بطوله وقد روى عباد المنقري هذا الحديث عن علي بن زيد عن أنس ولم يذكر فيه عن سعيد بن المسيب عن أنس هذا الحديث ولا غيره ومات أنس سنة ثلاث وتسعين وسعيد بن المسيب سنة خمس وتسعين بعده بسنتين قلت ولهذا الحديث شواهد منها ما رواه الدارمي عبد الله ثنا محمد بن عيينة عن مروان بن معاوية الفزاري عن كثير بن عبد الله عن أبيه عن جده أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لبلال بن الحارث اعلم قال ما أعلم يا رسول الله قال اعلم يا بلال قال ما أعلم يا رسول الله قال إنه من أحيا سنة من سنتي قد أميتت بعدي فإن له من الأجر مثل من عمل بها من غير أن ينقص من أجورهم شيء ومن ابتدع بدعة ضلالة لا يرضاها الله ورسوله كان عليه مثل آثام من عمل بها لا ينقص ذلك من أوزار الناس شيئا رواه الترمذي عنه وقال حديث حسن قال ومحمد بن عيينة مصيصي شامي وكثير بن عبد الله هو ابن عمرو بن عوف المزني وفي حديثه ثلاثة أقوال لأهل الحديث فمنهم من يصححه ومنهم من يحسنه وهما للترمذي ومنهم من يضعفه ولا يرى أن يحتج به كالإمام أحمد وغيره ولكن هذا الأصل ثابت من وجوه كحديث من دعا إلى الهدى كان له من الأجر

مثل

مثل أجور من اتبعه وهو صحيح من وجوه وحديث من دل على خير فله مثل أجر فاعله وهو حديث حسن رواه الترمذي وغيره فهذا الأصل محفوظ عن النبي صلى الله عليه وسلم فالحديث الضعيف فيه بمنزلة الشواهد والمتابعات فلا يضر ذكره

الوجه الستون أن النبي صلى الله عليه وسلم أوصى بطلبة العلم خيرا وما ذاك إلا لفضل مطلوبهم وشرفه قال الترمذي ثنا سفيان بن وكيع ثنا أبو داود الحفري عن سفيان عن أبي هارون قال كنا نأتي أبا سعيد فيقول مرحبا بوصية رسول الله صلى الله عليه وسلم أن النبي صلى الله عليه وسلم قال إن الناس لكم تبع وإن رجالا يأتونكم من أقطار الأرض يتفقهون في الدين فإذا أتوكم فاستوصوا بهم خيرا فكان أبو سعيد إذا رآنا يقول مرحبا بوصية رسول الله صلى الله عليه وسلم قال الترمذي هذا حديث لا نعرفه إلا من حديث أبي هارون العبدي عن أبي سعيد قال أبو بكر العطار قال علي بن المديني قال يحيى بن سعيد كان شعبة يضعف أبا هارون العبدي قال يحيى وما زال ابن عون يروي عن أبي هارون حتى مات وأبو هارون اسمه عمارة بن جوين

الوجه الحادي والستون ما رواه الترمذي من حديث أبي داود عن عبد الله بن سخبرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال من طلب العلم كان كفارة لما مضى هذا الأصل لم أجده لأهل الحديث وليس بشيء فإن أبا داود هو نفيع الأعمى غير ثقة ولكن قد تقدم أن العالم يستغفر له من في السموات ومن في الأرض وقد رويت آثار عديدة عن جماعة من الصحابة في هذا المعنى منها ما رواه الثوري عن عبد الكريم عن مجاهد عن ابن عباس أن ملكا موكلا بطالب العلم حتى يرده من حيث أبداه مغفورا له ومنها ما رواه فطر بن خليفة عن أبي الطفيل عن علي ما انتعل عبد قط ولا تخفف ولا لبس ثوبا ليغدو في طلب العلم إلا غفرت ذنوبه حيث يخطو عتبة باب بيته وقد رواه ابن عدي مرفوعا وقال ليس يرويه عن فطر إلا إسماعيل بن يحيى التيمي قلت وقد رواه إسماعيل بن يحيى هذا عن الثوري ثنا محمد أبو أيوب الجوزجاني عن مجالد عن الشعبي عن الأسود عن عائشة رضي الله عنها مرفوعا من انتعل ليتعلم خيرا غفر له قبل أن يخطو وقد رواه عبد الرحمن بن محمد المحاربي عن فطر عن أبي الطفيل وهذه الأسانيد وإن لم تكن بمفردها حجة فطلب العلم من أفضل الحسنات والحسنات يذهبن السيئات فقد دلت النصوص أن اتباع السيئة الحسنة يمحوها فكيف بما هو من أفضل الحسنات وأجل الطاعات فالمعتمد على ذلك لا على حديث أبي داود والله أعلم وقد روي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن الرجل ليخرج من منزله وعليه من الذنوب مثل جبل تهامة فإذا سمع العلم خاف ورجع وتاب فانصرف إلى منزله وليس عليه ذنب فلا تفارقوا مجالس العلماء

الوجه الثاني والستون ما رواه ابن ماجه في سننه من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه قال خرج رسول الله صلى الله

عليه وسلم فاذا المجلس مجلسان مجلس يتفقهون ومجلس يدعون الله تعالى ويسألونه فقال كلا المجلسين الى خير اما هؤلاء فيدعون الله واما هؤلاء فيتعلمون ويفقهون الجاهل هؤلاء افضل بالتعليم ارسلت ثم قعد معهم

الوجه الثالث والستون ان الله تبارك وتعالى يباهي ملائكته بالقوم الذين يتذاكرون العلم ويذكرون الله ويحمدونه على ما من عليهم به منه قال الترمذي حدثنا محمد بن بشار ثنا مرحوم بن عبد العزيز العطار ثنا ابو نعامة عن ابي عثمان عن ابي سعيد قال خرج معاوية رضي الله عنه الى المسجد فقال ما يجلسكم قالوا جلسنا نذكر الله عز وجل قال آلله ما اجلسكم الا ذلك قالوا والله ما اجلسنا الا ذلك قال اما اني لم استحلفكم تهمة لكم وما كان احد بمنزلتي من رسول الله صلى الله عليه وسلم اقل حديثا عنه مني ان رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج على حلقة من اصحابه فقال ما يجلسكم قالوا جلسنا نذكر الله ونحمده لما هدانا للاسلام ومن علينا بك قال آلله ما اجلسكم الا ذلك قالوا والله ما اجلسنا الا ذلك قال اما اني لم استحلفكم تهمة لكم انه اتاني جبريل فاخبرني ان الله تعالى يباهي بكم الملائكة قال الترمذي هذا حديث حسن غريب لا نعرفه الا من هذا الوجه وابو نعامة السعدي اسمه عمرو بن عيسى وابو عثمان النهدي اسمه عبد الرحمن بن مل فهؤلاء كانوا قد جلسوا يحمدون الله بذكر اوصافه وآلائه ويثنون عليه بذلك ويذكرون حسن الاسلام ويعترفون لله بالفضل العظيم اذ هداهم له ومن عليهم برسوله وهذا اشرف علم على الاطلاق ولا يعنى به الا الراسخون في العلم فانه يتضمن معرفة الله وصفاته وافعاله ودينه ورسوله ومحبة ذلك وتعظيمه والفرح به واحرى باصحاب هذا العلم ان يباهي الله بهم الملائكة وقد بشر النبي صلى الله عليه وسلم الرجل الذي كان يحب سورة الاخلاص وقال احبها لانها صفة الرحمن فقال حبك اياها ادخلك الجنة وفي لفظ اخبروه ان الله يحبه فدل على ان من احب صفات الله احبه الله وادخله الجنة والجهمية اشد الناس نفرة وتنفيرا عن صفاته ونعوت كماله يعاقبون ويذمون من يذكرها ويقرؤها ويجمعها ويعتني بها ولهذا لهم المقت والذم عند الامة وعلى لسان كل عالم من علماء الاسلام والله تعالى اشد بغضا ومقتا لهم جزاء وفاقا

الوجه الرابع والستون ان افضل منازل الخلق عند الله منزلة الرسالة والنبوة فالله يصطفي من الملائكة رسلا ومن الناس وكيف لا يكون افضل الخلق عند الله من جعلهم وسائط بينه وبين عباده في تبليغ رسالاته وتعريف اسمائه وصفاته وافعاله واحكامه ومراضيه ومساخطه وثوابه وعقابه وخصهم بوحيه واختصهم بتفضيله وارتضاهم لرسالته الى عباده وجعلهم ازكى العالمين نفوسا واشرفهم اخلاقا واكملهم علوما واعمالا واحسنهم خلقة واعظمهم

محبة

محبة وقبولا في قلوب الناس وبراهم من كل وصم وعيب وكل خلق دني وجعل اشرف مراتب الناس بعدهم مرتبة خلافتهم ونيابتهم في اممهم فانهم يخلفونهم على منهاجهم وطريقتهم من نصيحتهم للامة وارشادهم الضال وتعليمهم الجاهل ونصرهم المظلوم واخذهم على يد الظالم وامرهم بالمعروف وفعله ونهيهم عن المنكر وتركه والدعوة الى الله بالحكمة للمستجيبين والموعظة الحسنة للمعرضين الغافلين والجدال بالتي هي احسن للمعاندين المعرضين فهذه حال اتباع المرسلين وورثة النبيين قال تعالى قل هذه سبيلي ادعو الى الله على بصيرة انا ومن اتبعني وسواء كان المعنى انا ومن اتبعني على بصيرة وانا ادعو الى الله او المعنى ادعو الى الله على بصيرة والقولان متلازمان فانه لا يكون من اتباعه حقا الا من دعا الى الله على بصيرة كما كان متبوعه يفعل صلى الله عليه وسلم فهؤلاء خلفاء الرسل حقا وورثتهم دون الناس وهم اولوا العلم الذين قاموا بما جاء به علما وعملا وهداية وارشادا وصبرا وجهادا وهؤلاء هم الصديقون وهم افضل اتباع الانبياء ورأسهم وامامهم الصديق الاكبر ابو بكر رضي الله عنه قال الله تعالى ومن يطع الله والرسول فاولئك مع الذين انعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن اولئك رفيقا ذلك الفضل من الله وكفى بالله عليما فذكر مراتب السعداء وهي اربعة وبدا باعلاهم مرتبة ثم الذين يلونهم الى آخر المراتب وهؤلاء الاربعة هم اهل الجنة الذين هم اهلها جعلنا الله منهم بمنه وكرمه

الوجه الخامس والستون ان الانسان انما يميز على غيره من الحيوانات بفضيلة العلم والبيان والا فغيره من الدواب والسباع اكثر اكلا منه واقوى بطشا واكثر جماعا واولادا واطول عمرا وانما ميز على الدواب والحيوانات بعلمه وبيانه فاذا عدم العلم بقي معه القدر المشترك بينه وبين سائر الدواب وهي الحيوانية المحضة فلا يبقى فيه فضل عليهم بل قد يبقى شرا منهم كما قال تعالى في هذا الصنف من الناس ان شر الدواب عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون فهؤلاء هم الجهال ولو علم الله فيهم خيرا لاسمعهم اي ليس عندهم محل قابل للخير ولو كان محلهم قابلا للخير لاسمعهم اي لافهمهم فالسمع هاهنا سمع فهم والا فسمع الصوت حاصل لهم وبه قامت حجة الله عليهم قال تعالى ولا تكونوا كالذين قالوا سمعنا وهم لا يسمعون وقال تعالى ومثل الذين كفروا كمثل الذي ينعق بما لا يسمع الا دعاء ونداء صم بكم عمي فهم لا يعقلون وسواء كان المعنى ومثل داعي الذين كفروا كمثل الذي ينعق بما لا يسمع من الدواب الا صوتا مجردا او كان المعنى ومثل الذين كفروا حين يدعون كمثل دواب الذي ينعق بها فلا تسمع الا صوتا للدعاء والنداء فالقولان متلازمان بل هما واحد وان كان المعنى الثاني اقرب الى اللفظ والاول ابلغ في المعنى فعلى التقديرين لم يحصل لهم من الدعوة الا

الصوت الحاصل للانعام فهؤلاء لم يحصل لهم حقيقة الانسانية التي يميزها صاحبها عن سائر الحيوان
والسمع يراد به ادراك الصوت ويراد به فهم المعنى ويراد به القبول والاجابة والثلاثة في القرآن فمن الاول
قوله قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها وتشتكي الى الله والله يسمع تحاوركما ان الله سميع بصير
وهذا اصرح ما يكون في اثبات صفة السمع ذكر الماضي والمضارع واسم الفاعل سمع ويسمع وهو
سميع وله السمع كما قالت عائشة رضي الله عنها الحمد لله الذي وسع سمعه الاصوات لقد جاءت المجادلة تشكوا
الى رسول الله صلى الله عليه وسلم وانا في جانب البيت وانه ليخفى علي بعض كلامها فانزل الله قد سمع الله قول التي تجادلك
في زوجها والثاني سمع الفهم كقوله ولو علم الله فيهم خيرا لاسمعهم ولو اسمعهم لتولوا وهم معرضون
لما في قلوبهم من الكبر والاعراض عن قبول الحق ففيهم آفتان احدهما انهم لا يفهمون الحق لجهلهم ولو فهموه لتولوا
عنه لكبرهم وهذا غاية النقص والعيب والثالث سمع القبول والاجابة كقوله تعالى لو خرجوا
فيكم ما زادوكم الا خبالا ولاوضعوا خلالكم يبغونكم الفتنة وفيكم سماعون لهم اي قابلون لهم مستجيبون
ومنه قوله سماعون للكذب اي قابلون له مستجيبون لاهله ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلم
اي اجاب الله حمد من حمده ودعاء من دعاه وقول النبي صلى الله عليه وسلم اذا قال الامام سمع الله لمن حمده فقولوا
ربنا ولك الحمد يسمع الله لكم اي يجبكم **والمقصود** ان الانسان اذا لم يكن له علم بما يصلحه في معاشه ومعاده
كان الحيوان البهيم خيرا منه لسلامته في المعاد مما يهلكه دون الانسان الجاهل

الوجه السادس والستون ان العلم حاكم على ما سواه ولا يحكم عليه شيء فكل شيء اختلف في وجوده وعدمه وصحته
وفساده ومنفعته ومضرته ورجحانه ونقصانه وكماله ونقصه ومدحه وذمه ومرتبته في الخير
وجودته ورداءته وقربه وبعده وافضائه الى مطلوب كذا وعدم افضائه وحصول المقصود به وعدم
حصوله الى سائر جهات المعلومات فان العلم حاكم على ذلك كله فاذا حكم العلم انقطع النزاع ووجب الاتباع
وهو الحاكم على الممالك والسياسات والاموال والاقلام فملك لا يتايد بعلم لا يقوم وسيف بلا علم مخراق
لاعب وقلم بلا علم حركة عابث والعلم مسلط حاكم على ذلك كله ولا يحكم شيء من ذلك على العلم وقد اختلف
في تفضيل مداد العلماء على دم الشهداء وعكسه وذكر لكل قول وجوه من الترجيح والادلة ونفس هذا
النزاع دليل على تفضيل العلم ومرتبته فان الحاكم في هذه المسئلة هو العلم فبه واليه وعنه يقع التحاكم
والتخاصم والمفضل منهما من حكم له بالتفضيل فان قيل فكيف يقبل حكم العلم في نفسه قيل وهذا ايضا
دليل على فضله وعلو مرتبته وشرفه فان الحاكم انما لم يسوغ ان يحكم لنفسه لاجل مظنة التهمة والعلم لا
يلحقه تهمة في حكمه لنفسه فانه اذا حكم حكم بما تشهد العقول والفطر بصحته وتلقاه بالقبول ويستحيل حكمه

لتهمه

لتهمة فانه اذا حكم بها انعزل عن مرتبته وانحط عن درجته فهو الشاهد المزكى العدل والحاكم الذي لا
يجور ولا يعزل فان قيل فما حكمه في هذه المسئلة التي ذكرتموها قيل هذه المسئلة كثر فيها الجدال
واتسع المجال وادلى كل منهما بحجته واستعلى بمرتبته والذي يفصل النزاع ويعيد المسئلة الى مواقع
الاجماع الكلام في انواع مراتب الكمال وذكر الافضل منها والنظر في اي هذين الامرين اولى به واقرب
اليه فهذه الاصول الثلاثة تبين الصواب ويقع بها فصل الخطاب فاما مراتب الكمال فاربع النبوة
والصديقية والشهادة والولاية **وقد ذكرها** الله سبحانه في قوله ومن يطع الله والرسول فاولئك
مع الذين انعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن اولئك رفيقا ذلك الفضل
من الله وكفى بالله عليما وذكر تعالى هؤلاء الاربعة في سورة الحديد فذكر تعالى الايمان به وبرسوله ثم ندب
المؤمنين الى ان تخشع قلوبهم لكتابه ووحيه ثم ذكر مراتب الخلائق شقيهم وسعيدهم فقال
ان المصدقين والمصدقات واقرضوا الله قرضا حسنا يضاعف لهم ولهم اجر كريم والذين امنوا بالله
ورسله اولئك هم الصديقون والشهداء عند ربهم لهم اجرهم ونورهم والذين كفروا وكذبوا باياتنا
اولئك اصحاب الجحيم وذكر المنافقين قبل ذلك فاستوعبت هذه الاية اقسام العباد شقيهم وسعيدهم
والمقصود انه ذكر فيها المراتب الاربعة الرسالة والصديقية والشهادة والولاية فاعلا هذه
المراتب النبوة والرسالة ويليها الصديقية فالصديقون هم ائمة اتباع الرسل ودرجتهم اعلا الدرجات
بعد النبوة فان جرى قلم العالم بالصديقية وسال مداده بها كان افضل من دم الشهيد الذي لم يلحقه في
رتبة الصديقية وان سال دم الشهيد بالصديقية وقطر عليها كان افضل من مداد العالم الذي قصر
عنها فافضلهما صديقهما فان استويا في الصديقية استويا في المرتبة والله اعلم والصديقية هي كمال
الايمان بما جاء به الرسول علما وتصديقا وقياما به فهي راجعة الى نفس العلم فكل من كان اعلم بما جاء به الرسول
واكمل تصديقا له كان اتم صديقية فالصديقية شجرة اصولها العلم وفروعها التصديق وثمرتها العمل
فهذه كلمات جامعة في مسئلة العالم والشهيد وايهما افضل

الوجه السابع والستون ان النصوص النبوية قد تواترت بان افضل الاعمال الايمان بالله فهو راس الامر والاعمال بعده على مراتبها ومنازلها
والايمان له ركنان احدهما معرفة ما جاء به الرسول والعلم به والثاني تصديقه بالقول والعمل والتصديق
بدون العلم والمعرفة محال فانه فرع العلم بالشيء المصدق به فاذا العلم من الايمان بمنزلة الروح من الجسد ولا
تقوم شجرة الايمان الا على ساق العلم والمعرفة فالعلم اذا اجل المطالب واسنى المواهب

الوجه الثامن والستون ان صفات الكمال كلها ترجع الى العلم والقدرة والارادة فرع العلم فانها تستلزم

الشعور بالمراد فهي مفتقرة الى العلم في ذاتها وحقيقتها والقدرة لا تؤثر الا بواسطة الارادة والعلم لا يفتقر
في تعلقه بالمعلوم الى واحد منهما واما القدرة والارادة فكل منهما مفتقر في تعلقه بالمراد والمقدور الى
العلم وذلك يدل على فضيلته وشرف منزلته الوجه التاسع والستون انه اعم الصفات
تعلقا بمتعلقه واوسعها فانه يتعلق بالواجب والممكن والمستحيل والجائز والموجود والمعدوم فذات الرب سبحانه
وصفاته واسماؤه معلومة له وتعلم العباد من ذلك ما علمهم العليم الخبير واما القدرة والارادة فمكانهما اخص
في التعلق اما القدرة فانما تتعلق بالممكن خاصة لا بالمستحيل ولا بالواجب فهي اخص من العلم في هذا الوجه
واعم من الارادة فان الارادة لا تتعلق الا ببعض الممكنات وهو ما اريد وجوده فالعلم اوسع واعم واشمل في ذاته
ومتعلقه الوجه السبعون ان الله سبحانه اخبر عن اهل العلم بانه جعلهم يهدون بامره وانهم
لمن بعدهم وقال تعالى وجعلنا منهم ائمة يهدون بامرنا لما صبروا وكانوا باياتنا يوقنون وقال
في موضع اخر والذين يقولون ربنا هب لنا من ازواجنا وذرياتنا قرة اعين واجعلنا للمتقين اماما اي ائمة يقتدى
بنا من بعدنا فاخبر سبحانه ان بالصبر واليقين تنال الامامة في الدين وهي ارفع مراتب الصديقين واليقين هو
كمال العلم وغايته وبتكميل مرتبة العلم تحصل امامة الدين وهي ولاية آلتها العلم يختص الله بها من يشاء
من عباده الوجه الحادي والسبعون ان حاجة العباد الى العلم ضرورية فوق حاجة الجسم
الى الغذاء لان الجسم يحتاج الى الغذاء في اليوم مرة او مرتين وحاجة الانسان الى العلم بعدد الانفاس لان
كل نفس من انفاسه فهو محتاج فيه الى ان يكون مصاحبا للايمان او حكمة فان فارقه الايمان او الحكمة في نفس
من انفاسه فقد عطب وقرب هلاكه وليس الى حصول ذلك سبيل الا بالعلم فالحاجة اليه فوق الطعام
والشراب وقد ذكر الامام احمد هذا المعنى بعينه فقال الناس احوج الى العلم منهم الى الطعام
والشراب لان الطعام والشراب يحتاج اليه في اليوم مرة او مرتين والعلم يحتاج اليه كل وقت
الوجه الثاني والسبعون ان صاحب العلم اقل تعبا وعملا واكثر اجرا واعتبر هذا
بالشاهد فان الصناع والاجراء يعانون الاعمال الشاقة بانفسهم والاستاذ المعلم يجلس يامرهم وينهاهم
ويريهم كيفية العمل وياخذ اضعاف ما ياخذونه وقد اشار النبي صلى الله عليه وسلم الى هذا المعنى حيث
قال افضل الاعمال ايمان بالله ثم الجهاد فالجهاد فيه بذل النفس وغاية المشقة والايمان علم القلب
وعمله وتصديقه وهو افضل الاعمال مع ان مشقة الجهاد فوق مشقته باضعاف مضاعفة وهذا لان
العلم يعرف مقادير الاعمال ومراتبها وفاضلها من مفضولها وراجحها من مرجوحها فصاحبه لا يختار
لنفسه الا افضل الاعمال والعامل بلا علم يظن ان الفضيلة في كثرة المشقة فهو يتحمل المشاق وان كان
ما يعانيه

يعانيه مفضولا ورب عمل فاضل والمفضول اكثر مشقة منه واعتبر هذا بحال الصديق فانه افضل
الامة ومعلوم ان فيهم من هو اكثر عملا وحجا وصوما وصلاة وقراءة قال ابو بكر بن عياش ما سبقكم
ابو بكر بكثرة صلاة ولا صوم ولكن بشيء وقر في قلبه وهذا موضع المثل المشهور

من لي بمثل سيرك المدلل تمشي رويدا وتجي في الاول

الوجه الثالث والسبعون ان العلم امام العمل وقائد له والعمل تابع له ومؤتم به فكل
عمل لا يكون خلف العلم مقتديا به فهو غير نافع لصاحبه بل مضرة عليه كما قال بعض السلف من عبد الله
بغير علم كان ما يفسد اكثر مما يصلح والاعمال انما تتفاوت في القبول والرد بحسب موافقتها العلم ومخالفتها
له فالعمل الموافق للعلم هو المقبول والمخالف له هو المردود فالعلم هو الميزان وهو المحك قال
تعالى الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم ايكم احسن عملا وهو العزيز الغفور قال
الفضيل بن عياض هو اخلص العمل واصوبه قالوا يا ابا علي ما اخلصه واصوبه قال ان العمل اذا كان
خالصا ولم يكن صوابا لم يقبل واذا كان صوابا ولم يكن خالصا لم يقبل حتى يكون خالصا صوابا فالخالص
ان يكون لله والصواب ان يكون على السنة وقد قال تعالى فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا
ولا يشرك بعبادة ربه احدا فهذا هو العمل المقبول الذي لا يقبل الله من الاعمال سواه وهو ان يكون
موافقا لسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم مرادا به وجه الله ولا يتمكن العامل من الاتيان بعمل يجمع هذين
الوصفين الا بالعلم فانه ان لم يعلم ما جاء به الرسول لم يمكنه قصده وان لم يعرف معبوده لم يمكنه ارادته
وحده فلولا العلم لما كان عمله مقبولا فالعلم هو الدليل على الاخلاص وهو الدليل على المتابعة وقد
قال الله تعالى انما يتقبل الله من المتقين واحسن ما قيل في تفسير الاية انه انما يتقبل الله عمل من
اتقاه في ذلك العمل وتقواه فيه ان يكون لوجهه على موافقة امره وهذا انما يحصل بالعلم واذا
كان هذا منزلة العلم وموقعه علم انه اشرف شيء واجله وافضله والله اعلم الوجه
الرابع والسبعون ان العامل بلا علم كالسائر بلا دليل ومعلوم ان عطب مثل هذا اقرب من سلامته
وان قدر سلامته اتفاقا نادرا فهو غير محمود بل مذموم عند العقلاء وكان شيخ الاسلام ابن
تيمية رحمه الله يقول من فارق الدليل ضل السبيل ولا دليل الا بما جاء به الرسول قال
الحسن العامل على غير علم كالسالك على غير طريق والعامل على غير علم ما يفسد اكثر مما يصلح
فاطلبوا العلم طلبا لا تضروا بالعبادة واطلبوا العبادة طلبا لا تضروا بالعلم فان قوما طلبوا العبادة
وتركوا العلم حتى خرجوا باسيافهم على امة محمد صلى الله عليه وسلم ولو طلبوا العلم لم يدلهم على ما فعلوا

بين هذا وبين ما قبله ان العلم مرتبته في الوجه الاول مرتبة المطاع المتبوع المقتدى به المتبع حكمه المطاع امره
ومرتبته في هذا الوجه مرتبة الدليل المرشد الى المطلوب الموصل الى الغاية **الوجه**
الخامس والسبعون ان النبي صلى الله عليه وسلم ثبت عنه في الصحيح انه كان يقول اللهم رب جبريل وميكائيل
واسرافيل فاطر السموات والارض عالم الغيب والشهادة انت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون اهدني
لما اختلف فيه من الحق باذنك انك تهدي من تشاء الى صراط مستقيم وفي بعض السنن انه كان يكبر لتكبيرة الاحرام
في صلاة الليل ثم يدعو بهذا الدعاء والهداية هي العلم بالحق مع قصده وايثاره على غيره فالمهتدي
هو العامل بالحق المريد له وهي اعظم نعمة لله على العبد ولهذا امرنا سبحانه ان نسأله هداية الصراط المستقيم
كل يوم وليلة في صلواتنا الخمس فان العبد محتاج الى معرفة الحق الذي يرضي الله في كل حركة ظاهرة وباطنة
فاذا عرفها فهو محتاج الى من يلهمه قصد الحق فيجعل ارادته في قلبه ثم الى من يقدره على فعله ومعلوم ان ما
يجهله العبد اضعاف اضعاف ما يعلمه وان كل ما يعلم انه حق لا تطاوعه نفسه على ارادته ولو اراده لعجز عن
كثير منه فهو مضطر كل وقت الى هداية تتعلق بالماضي وبالحال والمستقبل اما الماضي فهو محتاج الى محاسبة
نفسه عليه وهل وقع على السداد فيشكر الله عليه ويستديمه ام خرج فيه عن الحق فيتوب الى الله تعالى منه
ويستغفره ويعزم على ان لا يعود **واما الهداية** في الحال فهي مطلوبة منه فانه ابن وقته فيحتاج ان
يعلم حكم ما هو متلبس به من الافعال هل هو صواب ام خطأ واما المستقبل فحاجته في الهداية اظهر ليكون
سيره على الطريق واذا كان هذا شأن الهداية علم ان العبد اشد شيء اضطرارا اليها وان ما يورده بعض الناس
من السؤال الفاسد وهو انا اذا كنا مهتدين فاي حاجة بنا ان نسأل الله ان يهدينا وهل هذا الا تحصيل الحاصل
افسد سؤال وابعده عن الصواب وهو دليل على ان صاحبه لم يحصل معنى الهداية ولا احاط علما بحقيقتها ومسماها
فلذلك تكلف من تكلف الجواب عنه بان المعنى ثبتنا على الهداية وادمها لنا ومن احاط علما بحقيقة الهداية
وحاجة العبد اليها علم ان الذي لم يحصل له منها اضعاف ما حصل له وانه كل وقت محتاج الى هداية متجددة
لا سيما والله تعالى خالق افعال القلوب والجوارح فهو كل وقت محتاج ان يخلق الله له هداية خاصة ثم ان لم يصرف
عنه الموانع والصوارف التي تمنع موجب الهداية وتصرفها لم ينتفع بالهداية ولم يتم مقصودها له فان الحكم لا يكفي
فيه وجود مقتضيه بل لا بد مع ذلك من عدم مانعه ومنافيه ومعلوم ان وساوس العبد وخواطره وشهوات
الغي في قلبه كل منها مانع وصول اثر الهداية اليه فان لم يصرفها الله عنه لم يهتد هدى تاما فحاجاته الى هداية
الله مقرونة بانفاسه وهي اعظم حاجة للعبد وذكر النبي صلى الله عليه وسلم في هذا الدعاء العظيم القدر
من اوصاف الله وربوبيته ما يناسب المطلوب فان فطر السموات والارض توسل الى الله بهذا الوصف في الهداية للفطرة التي بلغ مقابلة

ابتدأ الخلق

ابتدأ الخلق عليها فذكر كونه فاطر السموات والارض والمطلوب تعليم الحق والتوفيق له فذكر علمه
سبحانه بالغيب والشهادة وان من هو بكل شيء عليم جدير ان يطلب منه عبده ان يعلمه ويرشده ويهديه
وهو منزلة التوسل الى الغني بغناه وسعة كرمه ان يعطي عبده شيئا من ماله والتوسل الى الغفور بسعة
مغفرته ان يغفر لعبده وبعفوه ان يعفو عنه وبرحمته ان يرحمه ونظائر ذلك وذكر ربوبيته
تعالى لجبريل وميكائيل واسرافيل وهذا والله اعلم لان المطلوب هدى يحيى به القلب وهؤلاء
الثلاثة الاملاك قد جعل الله تعالى على ايديهم اسباب حياة العباد اما جبريل فهو صاحب الوحي
الذي يوحيه الله الى الانبياء وهو سبب حياة الدنيا والاخرة واما ميكائيل فهو الموكل بالقطر
الذي به سبب حياة كل شيء واما اسرافيل فهو الذي ينفخ في الصور فيحيي الله الموتى بنفخته فاذا هم
قيام لرب العالمين **والهداية** لها اربع مراتب وهي مذكورة في القرآن المرتبة
الاولى الهداية العامة وهي هداية كل مخلوق من الحيوان والادمي لمصالحه التي بها قام امره قال
الله سبح اسم ربك الاعلى الذي خلق فسوى والذي قدر فهدى فذكر امورا اربعة الخلق
والتسوية والتقدير والهداية فسوى ما خلقه واتقنه واحكمه ثم قدر اسباب مصالحه في
معاشه وتقلباته وتصرفاته وهداه اليها والهداية تعليم فذكر انه خلق وعلم كما ذكر نظير
ذلك في اول سورة انزلها على رسوله وقد تقدم ذلك وقال تعالى حكاية عن عدوه
فرعون انه قال فمن ربكما يا موسى قال ربنا الذي اعطى كل شيء خلقه ثم هدى وهذه
المرتبة اسبق مراتب الهداية واعمها **المرتبة** الثانية هداية البيان والدلالة
التي اقام بها حجته على عباده وهذه لا تستلزم الاهتداء التام قال تعالى واما ثمود فهدينا هم
فاستحبوا العمى على الهدى يعني بينا لهم ودللناهم وعرفناهم فآثروا الضلالة والعمى وقال
تعالى وعادا وثمودا وقد تبين لكم من مساكنهم وزين لهم الشيطان اعمالهم فصدهم عن السبيل وكانوا مستبصرين
وهذه المرتبة اخص من الاولى واعم من الثالثة وهي هدى التوفيق والالهام قال الله تعالى
والله يدعو الى دار السلام ويهدي من يشاء الى صراط مستقيم فعم بالدعوة خلقه وخص بالهداية
من شاء منهم وقال تعالى انك لا تهدي من احببت ولكن الله يهدي من يشاء مع قوله
وانك لتهدي الى صراط مستقيم فاثبت هداية الدعوة والبيان ونفى هداية التوفيق والالهام
وقال النبي صلى الله عليه وسلم في خطبة الحاجة من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له وقال
تعالى ان تحرص على هداهم فان الله لا يهدي من يضل اي من يضله الله فلا يهدي ابدا وهذه الهداية

الثالثة هي الهداية الموجبة المستلزمة للاهتداء وأما الثانية فشرط لا موجب فلا يستحيل تخلف
الهدى عنها بخلاف الثالثة فإن تخلف الهدى عنها مستحيل **المرتبة الرابعة** الهداية
في الآخرة إلى طريق الجنة والنار قال تعالى احشروا الذين ظلموا وأزواجهم وما كانوا يعبدون
من دون الله فاهدوهم إلى صراط الجحيم وأما قول أهل الجنة الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي
لولا أن هدانا الله فيحتمل أن يكونوا أرادوا الهداية إلى طريق الجنة وأن يكونوا أرادوا الهداية في الدنيا
التي أوصلتهم إلى دار النعيم ولو قيل إن كلا الأمرين مرادهم وأنهم حمدوا الله على هدايته
لهم في الدنيا وهدايتهم إلى طريق الجنة كان أحسن وأبلغ وقد ضرب الله تعالى لمن لم تحصل له العلم
بالحق واتباعه مثلا مطابقا لحاله فقال تعالى قل أندعو من دون الله ما لا ينفعنا ولا يضرنا ونرد على
أعقابنا بعد إذ هدانا الله كالذي استهوته الشياطين في الأرض حيران له أصحاب يدعونه إلى الهدى
ائتنا قل إن هدى الله هو الهدى وأمرنا لنسلم لرب العالمين **الوجه** السادس
والستون أن فضيلة الشيء وشرفه يظهر تارة من عموم منفعته وتارة من شدة الحاجة إليه وعدم
الاستغناء عنه وتارة من ظهور النقص والشر بفقده وتارة من حصول اللذة والسرور والبهجة بوجوده
لكونه محبوبا ملائما فإدراكه يوجب غاية اللذة وتارة من كمال الثمرة المترتبة عليه وشرف علته الغائية
وإفضائه إلى أجل المطالب وهذه الوجوه ونحوها تنشأ وتظهر من متعلقه فإذا كان في نفسه كمالا
وشرفا بقطع النظر عن متعلقاته جمع جهات الشرف والفضل في نفسه ومتعلقه ومعلومه
ان هذه الجهات بأسرها حاصلة للعلم فإنه أعم شيء نفعا وأكثره وأدومه والحاجة إليه فوق الحاجة
إلى الغذاء بل فوق الحاجة إلى التنفس إذ غاية ما يتصور من فقدهما فقد حياة الجسم وأما فقد العلم ففيه
فقد حياة القلب والروح فلا غنى للعبد عنه طرفة عين **ولهذا** إذا فقد من الشخص كان شرا
من الحمير بل كان شر الدواب عند الله ولا شيء أنقص منه حينئذ وأما حصول اللذة والبهجة بوجوده
فلأنه كمال في نفسه وهو ملائم غاية الملاءمة للنفوس فإن الجهل مرض ونقص وهو في غاية الإيذاء والإيلام
للنفس ومن لم يشعر بهذه الملاءمة والمنافرة فهو لفقد حسه وموت نفسه وما لجرح بميت إيلام والمحبوب له
لنفسه إذا أدرك منها الغاية بحبوها واتصالها وذلك غاية لذتها وفرحتها وهذا بحسب المعلوم نفسه
ومحبة النفس له ولذتها بقربه والعلوم والمعلومات متفاوتة في ذلك أعظم التفاوت وأبينه
فليس علم النفوس بفاطرها وباريها ومبدعها ومحبته والتقرب إليه كعلمها بالطبيعة وأحوالها وعوارضها
وصحتها وفسادها وحركاتها وهذا أشبه بالوجه السابع والستين وهو أن شرف

العلم

العلم تابع لشرف معلومه ولوثوق النفس بأدلة وجوده وبراهينه ولشدة الحاجة إلى معرفته وعظم
النفع بها ولا ريب أن أجل معلوم وأعظمه وأكبره هو الله الذي لا إله إلا هو رب العالمين وقيوم السموات
والأرضين الملك الحق المبين الموصوف بالكمال كله المنزه عن كل عيب ونقص وعن كل تمثيل وتشبيه في
كماله ولا ريب أن العلم به وبأسمائه وصفاته وأفعاله أجل العلوم وأفضلها ونسبته إلى سائر العلوم كنسبة
معلومه إلى سائر المعلومات وكما أن العلم به أجل العلوم وأشرفها فهو أصلها كلها كما أن كل موجود فهو
مستند في وجوده إلى الحق المبين ومفتقر إليه في تحقق ذاته وأينيته وكل علم فهو تابع للعلم به مفتقر
في تحقق ذاته إليه فالعلم به أصل كل علم كما أنه سبحانه رب كل شيء ومليكه وموجده ولا ريب أن كمال
العلم بالسبب التام وكونه سببا يستلزم العلم بمسببه كما أن العلم بالعلة التامة ومعرفة كونها علة يستلزم
العلم بالمعلول وكل موجود سوى الله فهو مستند في وجوده إليه استناد المصنوع إلى صانعه والمفعول
إلى فاعله فالعلم بذاته سبحانه وصفاته وأفعاله يستلزم العلم بما سواه فهو في ذاته رب كل شيء ومليكه
والعلم به أصل كل علم ومنشؤه فمن عرف الله عرف ما سواه ومن جهل به فهو لما سواه أجهل قال
تعالى ولا تكونوا كالذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم فتأمل هذه الآية تجد تحتها معنى شريفا
عظيما أن من نسي ربه أنساه ذاته ونفسه فلم يعرف حقيقته ولا مصالحه بل نسي ما به صلاحه وفلاحه
في معاشه ومعاده فصار معطلا مهملا بمنزلة الأنعام السائبة بل ربما كانت الأنعام السائبة أخبر
بمصالحها منه لبقائها على هداها الذي أعطاها إياه خالقها وأما هذا فخرج عن فطرته التي خلق عليها
فنسي ربه فأنساه نفسه وصفاتها وما تكمل به وما تزكو به وتسعد به في معاشها ومعادها قال
الله تعالى ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطا فغفل عن ذكر ربه فانفرط عليه
أمره وقلبه فلا التفات له إلى مصالحه وكماله وما تزكو به نفسه وقلبه بل هو مشتت القلب مضيعه
مفرط الأمر حيران لا يهتدي سبيلا **والمقصود** أن العلم بالله أصل كل علم وهو أصل علم العبد
بسعادته وكماله ومصالح دنياه وآخرته والجهل به مستلزم للجهل بنفسه ومصالحها وكمالها وما تزكو
به وتفلح به فالعلم به سعادة العبد والجهل به أصل شقاوته **الوجه** الثامن
والستون أنه لا شيء أطيب للعبد ولا ألذ ولا أهنى ولا أنعم لقلبه وعيشه من محبة فاطره
وباريه ودوام ذكره والسعي في مرضاته وهذا هو الكمال الذي لا كمال للعبد بدونه وله خلق الخلق
ولأجله نزل الوحي وأرسلت الرسل وقامت السموات والأرض ووجدت الجنة والنار ولأجله شرعت
الشرائع ووضع البيت الحرام ووجب حجه على الناس إقامة لذكره الذي هو من توابع محبته والرضا به وعنه

ولاجل هذا العلم الجهاد وضرب اعناق من اباه وآثر غيره عليه وجعل له في الآخرة دار الهوان
خالدا مخلدا وعلى هذا الامر العظيم اسست الملة ونصبت القبلة وهو قطب رحى الخلق والامر الذي مدارهما
عليه ولا سبيل الى الدخول الى ذلك الا من باب العلم فان محبة الشي فرع على الشعور به واعرف الخلق بالله اشدهم
حبا له فكل من عرف الله احبه ومن عرف الدنيا واهلها زهد فيهم فالعلم يفتح هذا الباب العظيم الذي هو
سر الخلق والامر كما سياتي بيانه ان شا الله تعالى ه **الوجه** التاسع والسبعون
ان اللذة بالمحبوب تضعف وتقوى بحسب قوة الحب وضعفه فكلما كان الحب اقوى كانت اللذة اعظم
ولهذا تعظم لذة الظمآن بشرب الما البارد بحسب شدة طلبه للما وكذلك الجائع وكذلك
من احب شيئا كانت لذته على قدر حبه اياه والحب تابع للعلم بالمحبوب ومعرفة جماله الظاهر والباطن
فلذة النظر الى الله بعد لقائه بحسب قوة حبه وارادته وذلك بحسب العلم به ونعوت كماله فاذا
العلم هو اقرب الطرق الى اعظم اللذات وسياتي تقرير هذا فيما بعد ان شا الله تعالى **الوجه**
الثمانون ان كل ما سوى الله مفتقر الى العلم لا قوام له بدونه فان الوجود وجودان وجود الخلق
ووجود الامر والخلق والامر مصدرهما علم الرب وحكمته فكل ما تضمنه الوجود من خلقه وامره صادر عن
علمه وحكمته فما قامت السموات والارض وما بينهما الا بالعلم ولا بعثت الرسل وانزلت الكتب الا بالعلم ولا
عبد الله وحده وحمد واثني عليه ومجد الا بالعلم ولا عرف الحلال من الحرام الا بالعلم ولا عرف فضل الاسلام
على غيره الا بالعلم واختلف هنا في مسالة وهي ان العلم صفة فعلية او انفعالية فقالت
طائفة هو صفة فعلية لانه شرط او جز سبب في وجود المفعول فان الفعل الاختياري يستدعي
حياة الفاعل وعلمه وقدرته وارادته ولا يتصور وجوده بدون هذه الصفات وقالت
طائفة هو انفعالي فانه تابع للمعلوم متعلق به على ما هو عليه فان العلم يدرك المعلوم على ما هو به فادراكه
تابع له فيكون متعلقا عليه **والصواب** ان العلم قسمان علم فعلي وهو علم الفاعل
المختار بما يريد ان يفعله فانه موقوف على ارادته الموقوفة على تصور المراد وعلمه به فهذا علم قبل
الفعل متقدم عليه مؤثر فيه وعلم انفعالي وهو العلم التابع للمعلوم الذي لا تاثير له فيه كعلمنا بوجود
الانبيا والامم والملوك وسائر الموجودات فان هذا العلم لا يؤثر في المعلوم ولا هو شرط فيه فكل
من الطائفتين نظرت جزءا وحكمت كليا وهذا موضع يغلط فيه كثير من الناس وكلا القسمين من العلم
صفة كمال وعدمه من اعظم النقص **الوجه** الحادي والثمانون ان فضيلة
الشي تعرف بضده فالضد يظهر حسنه الضد وبضدها تتبين الاشيا ولا ريب ان الجهل اصل كل فساد

وكل ضرر

وكل ضرر يلحق العبد في دنياه واخراه فهو نتيجة الجهل والمانع العلم التام بان هذا الطعام مثلا مسموم
من اكله قطع امعاه في وقت معين لا يقدم على اكله وان قدر انه اقدم عليه لغلبة جوع او استعجال وفاة
فهو لعلمه بموافقة اكله لمقصوده الذي هو احب اليه من العذاب بالجوع او بغيره وههنا اختلف في
مسالة عظيمة وهي ان العلم هل يستلزم الاهتدا ولا يتخلف عنه الهدى الا لعدم العلم او نقصه والمانع
المعرفة الجازمة لا يتصور الضلال او انه لا يستلزم الهدى فقد يكون الرجل عالما وهو ضال على
علم هذا مما اختلف فيه المتكلمون وارباب السلوك وغيرهم فقالت فرقة من عرف
الحق معرفة لا شك فيها استحال ان لا يهتدي وحيث ضل فلنقصان علمه **واحتجوا** بالنصوص
بقوله تعالى لكن الراسخون في العلم منهم والمؤمنون يؤمنون بما انزل اليك وما انزل من قبلك فشهد تعالى
لكل راسخ في العلم بالايمان وبقوله تعالى انما يخشى الله من عباده العلما وبقوله ويرى الذين اوتوا العلم
الذي انزل اليك من ربك هو الحق وبقوله شهد الله انه لا اله الا هو والملائكة واولوا العلم وبقوله
افمن يعلم انما انزل اليك من ربك الحق كمن هو اعمى فدل على انه لا واسطة بينهما وبقوله في وصف الكفار صم
بكم عمي فهم لا يعقلون وطبع على قلوبهم فهم لا يعلمون وبقوله ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى ابصارهم
غشاوة وهذه مدارك العلم الثلاث قد سدت عليهم وكذلك قوله تعالى افرايت من اتخذ
الهه هواه واضله الله على علم وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة فمن يهديه من بعد الله افلا
تذكرون وقوله واضله الله على علم قال سعيد بن جبير على علمه تعالى فيه وقال
الزجاج اي على ما سبق في علمه تعالى انه ضال قبل ان يخلقه وختم على سمعه اي طبع عليه فلم يسمع الهدى
وعلى قلبه فلم يعقل الهدى وعلى بصره غشاوة فهو لا يبصر اسباب الهدى وهذا في القرآن كثير
مما يشير فيه منافاة الضلال للعلم ومنه قوله تعالى ومنهم من يستمع اليك حتى اذا خرجوا من عندك
قالوا للذين اوتوا العلم ماذا قال آنفا اولئك الذين طبع الله على قلوبهم فلو كانوا علموا ما قال
الرسول لم يسالوا اهل العلم ماذا قال ولما كانوا مطبوعا على قلوبهم وقال تعالى والذين
كذبوا باياتنا صم وبكم في الظلمات وقال تعالى قل آمنوا به او لا تؤمنوا ان الذين اوتوا العلم
من قبله اذا يتلى عليهم يخرون للاذقان سجدا ويقولون سبحان ربنا ان كان وعد ربنا لمفعولا فهذه
شهادة من الله لاولي العلم بالايمان به وبكلامه وقال تعالى عن اهل النار وقالوا لو كنا نسمع
او نعقل ما كنا في اصحاب السعير فدل على ان اصحاب الضلال لا سمع لهم ولا عقل وقال
تعالى وتلك الامثال نضربها للناس وما يعقلها الا العالمون **اخبر تعالى** انه لا يعقل

[illegible]

إما أنهم العالمون والكفار لا يدخلون في مسمى العالمين فهم لا يعقلونها وقال تعالى بل اتبع الذين
ظلموا أهواءهم بغير علم فمن يهدي من أضل الله وقال تعالى وقال الذين لا يعلمون لولا يكلمنا
الله أو تأتينا آية وقال تعالى قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون والنصح لأمته والقرآن
مملوء بسلب العلم والمعرفة عن الكفار فتارة يصفهم بأنهم لا يعلمون وتارة بأنهم لا يعقلون وتارة بأنهم
يشعرون وتارة بأنهم لا يفقهون وتارة بأنهم لا يسمعون والمراد بالسمع المنفي سمع الفهم وهو سمع
القلب لا إدراك الصوت وتارة بأنهم لا يبصرون فدل ذلك كله على أن الكفر مستلزم للجهل مناف
للعلم لا يجامعه ولهذا يصف سبحانه الكفار بأنهم جاهلون كقوله تعالى وعباد الرحمن الذين
يمشون على الأرض هونا وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما وقوله وإذا سمعوا اللغو أعرضوا
عنه وقالوا لنا أعمالنا ولكم أعمالكم سلام عليكم لا نبتغي الجاهلين وقوله خذ العفو وأمر
بالعرف وأعرض عن الجاهلين وقال النبي صلى الله عليه وسلم للمبلغ فوه من أذاه
ذلك المبلغ اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون وفي الصحيحين عنه صلى الله عليه وسلم من يرد الله به
خيرا يفقهه في الدين فدل على أن الفقه يستلزم لإرادة الله الخير في العبد ولا يقال الحديث
دل على أن من أراد الله به خيرا فقهه في الدين ولا يدل على أن كل من فقهه في الدين فقد أراد به خيرا وبينهما
فرق ودليلكم إنما يتم بالتقدير الثاني والحديث لا يقتضيه لأنا نقول إن النبي صلى الله عليه وسلم جعل
الفقه في الدين دليلا وعلامة على إرادة الله بصاحبه خيرا والدليل يستلزم المدلول ولا يتخلف
عنه فإن المدلول وجود الملزوم بدون لازمه محال وفي الترمذي وغيره عنه صلى الله عليه
وسلم خصلتان لا يجتمعان في منافق حسن سمت ولا فقه في الدين فجعل الفقه في الدين منافيا
للنفاق بل لم يكن السلف يطلقون اسم الفقه إلا على العلم الذي يصحبه العمل كما سئل
سعد بن إبراهيم عن أفقه أهل المدينة قال أتقاهم وسأل فرقد الحسن البصري عن شيء
فأجابه فقال إن الفقهاء يخالفونك فقال الحسن ثكلتك أمك فريقد وهل رأيت بعينيك
فقيها إنما الفقيه الزاهد في الدنيا الراغب في الآخرة البصير بدينه المداوم على عبادة ربه الذي
لا يهمز من فوقه ولا يسخر ممن دونه ولا يبتغي على علم علمه الله أجرا وقال بعض السلف
إن الفقيه من لم يقنط الناس من رحمة الله ولم يؤمنهم من مكر الله ولم يدع القرآن رغبة عنه إلى ما
سواه وقال ابن مسعود كفى بخشية الله علما وكفى بالاغترار بالله جهلا قالوا
فهذا القرآن والسنة وإطلاق السلف من الصحابة والتابعين يدل على أن العلم والمعرفة

يستلزم

مستلزم للهداية وأن عدم الهداية دليل على الجهل وعدم العلم قالوا ويدل عليه أن
الإنسان ما دام عقله معه لا يؤثر هلاك نفسه على نجاتها وعذابها العظيم الدائم على نعيمها المقيم
والحس شاهد بذلك ولهذا وصف سبحانه أهل معصيته بالجهل في قوله إنما التوبة على الله
للذين يعملون السوء بجهالة ثم يتوبون من قريب فأولئك يتوب الله عليهم قال سفيان
الثوري رحمه الله كل من عمل ذنبا من خلق الله فهو جاهل كان جاهلا أو عالما إن كان عالما فمن
أجهل منه وإن كان لا يعلم فمن مثل ذلك وقوله ثم يتوبون من قريب قال قبل الموت وقال
ابن عباس رضي الله عنهما ذنب المؤمن جهل منه وقال قتادة أجمع أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم
أن كل شيء عصي الله فيه فهو جهالة وقال السدي كل من عصى الله فهو جاهل قالوا ويدل
على صحة هذا أن مع كمال العلم لا تصدر المعصية من العبد فإنه لو رأى صبيا يتطلع عليه وهو لم
تتحرك جوارحه لمواقعة الفاحشة فكيف يقع منه حال كمال علمه بنظر الله إليه ورؤيته له
وعقابه على الذنب وتحريمه له وسوء عاقبته فلا بد من غفلة القلب عن هذا العلم وغيبته عنه
فحينئذ يكون وقوعه في المعصية صادرا عن جهل وغفلة ونسيان مضاد للعلم والذنب
محفوف بجهلين جهل بحقيقة الأسباب الصارفة عنه وجهل بحقيقة المفسدة المترتبة
عليه وكل واحد من الجهلين تحته جهالات كثيرة فما عصي الله إلا بالجهل وما أطيع إلا بالعلم فهذا
بعض ما احتجت به هذه الطائفة قالت الطائفة الأخرى العلم
لا يستلزم الهداية وكثيرا ما يكون الضلال عن عمد وعلم لا يشك صاحبه فيه بل يؤثر الضلال
والكفر وهو عالم بقبحه ومفسدته قالوا وهذا شيخ الضلال وداعي الكفر إبليس
عدو الله قد علم أمر الله له بالسجود لآدم ولم يشك فيه فخالفه وعاند الأمر وباء باللعنة والعذاب
الدائم مع علمه بذلك ومعرفته به وأقسم له بعزته أنه يغوي خلقه أجمعين إلا عباده منهم المخلصين
فكان غير شاك في الله وفي وحدانيته وفي البعث الآخر وفي الجنة والنار ومع ذلك اختار الخلود
في النار واحتمال لعنة الله وغضبه وطرده من سمائه وجنته عن علم بذلك ومعرفة لم تحصل لكثير من الناس
ولهذا قال رب فأنظرني إلى يوم يبعثون وهذا اعتراف منه بالبعث وإقرار به وقد
علم قسم ربه ليملأن جهنم منه ومن أتباعه فكان ذلك كفر عناد محض لا كفر جهل وقال
تعالى إخبارا عن قوم وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى بعد ما بينا لهم وعرفناهم فعرفوا
الحق وتيقنوه وآثروا العمى عليه فكان كفر هؤلاء لا عن الجهل وقال تعالى

حاكيا عن موسى عليه الصلاة والسلام انه قال لفرعون لقد علمت ما انزل هؤلاء الا رب السموات
والارض بصائر واني لاظنك يا فرعون مثبورا اي هالكا على قراءة من فتح التاء وهي قراءة الجمهور
وضمها الكسائي وحده وقراءة الجمهور احسن واوضح واجمع معنى وبها تقوم الدلالة ويتم الالزام
ويتحقق كفر فرعون وعناده ويشهد لها قوله تعالى اخبارا عنه وعن قومه فلما جاءتهم
اياتنا مبصرة قالوا هذا سحر مبين وجحدوا بها واستيقنتها انفسهم ظلما وعلوا فاخبر
سبحانه ان تكذيبهم وكفرهم كان عن يقين وهو اقوى العلم ظلما منهم وعلوا لا جهلا وقال
تعالى لرسوله قد نعلم انه ليحزنك الذي يقولون فانهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بايات الله يجحدون
يعني انهم قد عرفوا صدقك وانك غير كاذب فيما تقول ولكن عاندوا وجحدوا بالمعرفة قاله
ابن عباس رضي الله عنهما والمفسرون قال قتادة يعلمون انك رسول ولكن يجحدون كقوله وجحدوا
بها واستيقنتها انفسهم ظلما وعلوا وقال تعالى يا اهل الكتاب لم تكفرون
بايات الله وانتم تشهدون يا اهل الكتاب لم تلبسون الحق بالباطل وتكتمون الحق وانتم تعلمون يعني تكفرون
بالقران ومن جاء به وانتم تشهدون بصحته وبانه الحق فكفركم كفر عناد وجحود عن علم لا عن
جهل وخفاء وقال تعالى عن السحرة من اليهود ولقد علموا لمن اشتراه ما له في الاخرة
من خلاق اي علموا ان من اخذ هذا السحر وقبله لا نصيب له في الاخرة ومع هذا العلم والمعرفة
فهم يشترونه ويقبلونه ويتعلمونه وقال تعالى الذين اتيناهم الكتاب يعرفونه
كما يعرفون ابناءهم ذكر هذه المعرفة عن اهل الكتاب في القبلة في سورة البقرة وفي التوحيد
كقوله في الانعام ائنكم لتشهدون ان مع الله الهة اخرى قل لا اشهد قل انما هو اله واحد وانني
بريء مما تشركون الذين اتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون ابناءهم وفي الكتاب انه منزل من عند الله
كقوله تعالى والذين اتيناهم الكتاب يعلمون انه منزل من ربك بالحق وقال
تعالى كيف يهدي الله قوما كفروا بعد ايمانهم وشهدوا ان الرسول حق وجاءهم البينات والله لا
يهدي القوم الظالمين قال ابن عباس رضي الله عنهما هم قريظة والنضير ومن دان بدينهم
كفروا بالنبي صلى الله عليه وسلم بعد ان كانوا قبل مبعثه مؤمنين به وشهدوا له بالنبوة وانما كفروا
بغيا وحسدا قال الزجاج اعلم الله عز وجل انه لا يهديهم
لانهم قد استحقوا ان يضلوا بكفرهم لانهم كفروا بعد البينات وشهدوا به وتيقنوه وكفروا عنادا
فمن اين يأتيهم الهداية فان الذي يرجى هدايته من كان ضالا ولا يدري انه ضال بل يظن انه على هدى

فاذا

فاذا عرف الهدى اهتدى واما من عرف الحق وتيقنه وشهد به قلبه ثم اختار الكفر والضلال
عليه فكيف يهدي الله مثل هذا وقال تعالى عن اليهود فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به
فلعنة الله على الكافرين ثم قال بئسما اشتروا به انفسهم ان يكفروا بما انزل الله بغيا ان ينزل
الله من فضله على من يشاء من عباده قال ابن عباس رضي الله عنهما لم يكن كفرهم شكا ولا اشتباها ولكن
بغيا منهم حيث صارت النبوة في ولد اسمعيل ثم قال بعد ذلك ولما جاءهم رسول من عند الله مصدق
لما معهم نبذ فريق من الذين اوتوا الكتاب كتاب الله وراء ظهورهم كانهم لا يعلمون فلما شبههم في
فعلهم هذا بمن لا يعلم دل على انهم نبذوه عن علم كفعل من لا يعلم يقول اذا خالفت من عصاك عمدا
كانك لم تعلم ما فعلت او كانك لم تعلم بنهيه اياك ومنه على احد القولين قوله تعالى فان تولوا
فانما عليك البلاغ المبين يعرفون نعمة الله ثم ينكرونها واكثرهم الكافرون قال
السدي يعني محمدا صلى الله عليه وسلم واختاره الزجاج قال يعرفون ان امر محمد صلى الله عليه وسلم
حق ثم ينكرون ذلك واول الاية يشهد لهذا القول وقال تعالى واتل عليهم نبا الذي
اتيناه اياتنا فانسلخ منها فاتبعه الشيطان فكان من الغاوين ولو شئنا لرفعناه بها ولكنه اخلد
الى الارض واتبع هواه فمثله كمثل الكلب ان تحمل عليه يلهث قالوا فهل بعد هذه الاية بيان ان
هذا اتاه الله اياته فانسلخ منها واثر الضلال والغي وقصته معروفة حتى قيل انه كان اوتي الاسم
الاعظم ومع هذا فلم ينفعه علمه وكان من الغاوين ولو استلزم العلم والمعرفة الهداية لاستلزمه
في حق هذا وقال تعالى وعادا وثمودا وقد تبين لكم من مساكنهم وزين لهم الشيطان اعمالهم
فصدهم عن السبيل وكانوا مستبصرين وهذا يدل على ان قولهم يا هود ما جئتنا ببينة وما نحن
بتاركي الهتنا عن قولك وما نحن لك بمؤمنين انما بهت منهم وجحود وانما هي لاجل الاقتراح
والتعنت ولا يجب الاتيان بها وقد وصف سبحانه ثمود بانها ابصرت عن علم وبصيرة بالحق ولهذا
قال واتينا ثمود الناقة مبصرة فظلموا بها يعني بينة مضيئة وهذا كقوله تعالى
وجعلنا اية النهار مبصرة اي مضيئة وحقيقة اللفظ انها تجعل من راها مبصرا ان توجب له
البصر فتبصر اي تجعله ذا بصر فهي موضحة مبينة تعالى الحرية اذا راه كقوله تعالى فبصرت به عن
جنب وقوله بصرت بما لم يبصروا به واما ابصره فله معنيان احدهما جعله باصرا بالشيء اذا ابصره
كاية النهار ورواية ثمود والثاني بمعنى راه كقولك ابصرت زيدا وفي حديث
ابي شريح العدوي احدثك قولا قام به رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الفتح سمعته اذناي

ووعاه قلبي وابصرته عيناي حين تكلم به ومنه قوله فتول عنهم حتى حين وابصرهم فسوف
يبصرون قيل المعنى ابصرهم وما يقضى عليهم من الاسر والقتل والعذاب الآخر فسوف يبصرونك وما
يقضى لك من النصر والتاييد وحسن العاقبة والمراد تقريب المبصر من المخاطب حتى كانه نصب عينيه
ورأي ناظريه والمقصود ان الآية اوجبت لهم البصيرة فآثروا الضلال والكفر عن علم ويقين
ولهذا والله اعلم ذكر قصتهم من بين قصص الامم في سورة والشمس وضحاها لانه ذكر
فيها انقسام النفوس الى الزكية الراشدة المهتدية والى الفاجرة الضالة الغاوية وذكر فيها الاصلين
القدر والشرع فقال فالهمها فجورها وتقواها فهذا القدر والقضاء ثم قال قد افلح من زكاها
وقد خاب من دساها فهذا الامر ودينه وثمود هداهم فاستحبوا العمى على الهدى فذكر قصتهم
ليبين سوء عاقبة من آثر الفجور على التقوى والتدسية على التزكية والله اعلم بما اراد قالوا ولكن في
هذا اخباره تعالى عن الكفار انهم يقولون بعدما عاينوا العذاب ووردوا القيامة ورأوا ما اخبرت به
الرسل يا ليتنا نرد ولا نكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين بل بدا لهم ما كانوا يخفون من قبل ولو ردوا لعادوا
لما نهوا عنه فأي علم ابين من علم من ورد القيامة ورأى ما فيها وذاق عذاب الآخرة ثم لو رد الى الدنيا لاختار
الضلال على الهدى ولم ينفعه ما قد عاينه ورآه وقال تعالى ولو اننا نزلنا
اليهم الملائكة وكلمهم الموتى وحشرنا عليهم كل شيء قبلا ما كانوا ليؤمنوا الا ان يشاء الله ولكن فهل بعد
نزول الملائكة عيانا وتكليم الموتى لهم وشهادتهم للرسول بالصدق وحشر كل شيء في الدنيا عليهم
بيان وايضاح للحق وهدى ومع هذا فلا يؤمنون ولا ينقادون للحق ولا يصدقون الرسول ومن
نظر في سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم مع قومه ومع اليهود علم انهم كانوا جازمين بصدقه لا يشكون صلى الله عليه وسلم
انه صادق في قوله انه رسول الله ولكن اختاروا الضلال والكفر على الايمان قال
المسور بن مخرمة رضي الله عنه لابي جهل وكان خاله اي خال هل كنتم تتهمون محمدا بالكذب قبل ان يقول مقالته
التي قالها قال يا ابن اختي والله لقد كان محمد فينا وهو شاب يدعى الامين فما جربنا عليه كذبا قط
فلما وخطه الشيب لم يكن ليكذب على الله قال يا خال فلم لا تتبعونه قال يا ابن اختي تنازعنا نحن وبنو
هاشم الشرف فاطعموا واطعمنا وسقوا وسقينا واجاروا واجرنا فلما تجاثينا على الركب وكنا كفرسي
رهان قالوا منا نبي فمتى ندرك هذه وهذا امية بن ابي الصلت كان ينتظر يوما بيوم وعنده علم
قبل مبعثه وقصته مع ابي سفيان لما سافرا الى الشام معروفة واخباره برسول الله صلى الله عليه وسلم ثم لما
تيقنه وعرف صدقه قال لا اومن بنبي من غير ثقيف ابدا وهذا هرقل تيقن انه رسول ولم

يشك

يشك فيه وآثر الضلال والكفر استبقاء لملكه ولما سأله اليهود عن التسع آيات البينات
فاخبرهم بها قبلوا يده وقالوا نشهد انك نبي قال فما يمنعكم ان تتبعوني قالوا ان داود دعا
ان لا يزال في ذريته نبي وانا نخشى ان اتبعناك ان تقتلنا يهود فهؤلاء قد تحققوا نبوته وشهدوا له
بها ومع هذا فآثروا الكفر والضلال ولم يصيروا مسلمين بهذه الشهادة فقيل لا يصير
الكافر مسلما بمجرد شهادته ان محمدا رسول الله حتى يشهد لله بالوحدانية وقيل يصير بذلك مسلما وقيل
ان كان كفره بتكذيب الرسول كاليهود صار مسلما بذلك وان كان كفره بالشرك مع ذلك لم يصر مسلما
الا بالشهادة بالتوحيد كالنصارى والمشركين وهذه الاقوال الثلاثة في مذهب الامام احمد وغيره
وعلى هذا فانما لم يحكم لهؤلاء اليهود الذين شهدوا له بالرسالة بحكم الاسلام لان مجرد الاقرار بصحة
رسالته لا يوجب الاسلام الا ان يلتزم طاعته ومتابعته والا فلو قال انا اعلم انه نبي ولكن لا اتبعه
ولا ادين بدينه كان من اكفر الكفار كحال هؤلاء المذكورين وغيرهم وهذا متفق عليه بين الصحابة والتابعين
وائمة السنة ان الايمان لا يكفي فيه قول اللسان بمجرده ولا معرفة القلب مع ذلك بل لا بد فيه من عمل القلب
وهو حبه لله ورسوله وانقياده لدينه والتزامه طاعته ومتابعة رسوله وهذا خلاف من
زعم ان الايمان هو مجرد معرفة القلب واقراره وفيما تقدم كفاية في ابطال هذه المقالة ومن قال الايمان
هو مجرد اعتقاد صدق الرسول فيما جاء به وان لم يلتزم متابعته وعاداه وابغضه وقاتله لزمه ان يكون
هؤلاء كلهم مؤمنين وهذا الزام لا محيد عنه ولهذا اضطرب هؤلاء في الجواب عن ذلك لما ورد عليهم
واجابوا بما يستحيي العاقل من قوله كقول بعضهم ان ابليس كان مستهزئا ولم يكن يقر بوجود الله ولا بان الله ربه
وخالقه ولم يكن يعرف ذلك وكذلك فرعون وقومه لم يكونوا يعرفون صحة نبوة موسى ولا
يعتقدون وجود الصانع وهذه فضائح نعوذ بالله من الوقوع في امثالها ونصر المقالات وتقليد
اربابها تحمل على اكثر من هذا ونعوذ بالله من الخذلان قالوا وقد بين القرآن ان الكفر اقسام احدها
كفر صادر عن جهل وضلال وتقليد الاسلاف وهو كفر اكثر الاتباع والعوام الثاني كفر جحود
وعناد وقصد مخالفة الحق ككفر من تقدم ذكره وغالب ما يقع هذا النوع فيمن له رياسة علمية في
قومه من الكفار او رياسة سلطانية او من له مأكل واموال في قومه فيخاف هذا على رياسته وهذا على ماله
ومأكله فيؤثر الكفر على الايمان عمدا الثالث كفر اعراض محض لا ينظر فيما جاء به الرسول ولا يحبه
ولا يبغضه ولا يواليه ولا يعاديه بل هو معرض عن متابعته ومعاداته وهذان القسمان اكثر المتكلمين
ينكرونهما ولا يثبتون من الكفر الا الاول ويجعلون الثاني والثالث كفرا لدلالته على الاول لا لانه في

نفسه

وانه كفر فليس عندهم الكفر الا مجرد الجهل ومن تامل القرآن والسنة وسير الانبياء في اممهم ودعوتهم
لهم وما جرى لهم معهم جزم بخطأ اهل الكلام فيما قالوه وعلم ان عامة كفر الامم عن يقين وعلم ومعرفة
بصدق انبيائهم وصحة دعواهم وما جاؤوا به وهذا القرآن مملوء بالاخبار عن المشركين
عباد الاصنام انهم كانوا يقرون بالله فانه هو وحده ربهم وخالقهم وان الارض وما فيها له وحده
وانه رب السموات السبع ورب العرش العظيم وانه بيده ملكوت كل شيء وهو يجير ولا يجار عليه وانه
هو الذي سخر الشمس والقمر وانزل المطر واخرج النبات والقرآن مناد عليهم بذلك محتج بما اقروا به
من ذلك على صحة ما دعتهم اليه رسله فكيف يقال ان القوم لم يكونوا مقرين قط بان لهم ربا وخالقا وهذا
بهتان عظيم فالكفر امر وراء مجرد الجهل بل الكفر الاغلظ هو ما انكره هؤلاء وزعموا انه ليس بكفر
قالوا والعلم عليه واجبان لا يصير مؤمنا الا بهما جميعا واجب المعرفة والعلم وواجب
الحب والانقياد والاستسلام فكما لا يكون مؤمنا اذا لم يأت بواجب العلم والاعتقاد لا يكون مؤمنا
اذا لم يأت بواجب الحب والانقياد والاستسلام بل اذا ترك هذا الواجب مع علمه ومعرفته به كان
اعظم كفرا وابعد عن الايمان من الكافر جهلا فان الجاهل اذا عرف وعلم فهو قريب الى الانقياد والاتباع
واما المعاند فلا دواء فيه قال تعالى كيف يهدي الله قوما كفروا بعد ايمانهم وشهدوا
ان الرسول حق وجاءهم البينات والله لا يهدي القوم الظالمين قالوا والحب لله ورسوله بل كون
الله ورسوله احب الى العبد مما سواهما لا يكون العبد مسلما الا به ولا ريب ان الحب امر وراء العلم
فما كل من عرف الرسول احبه كما تقدم قالوا وهذا الحاسد يحمله بغض المحسود على معاداته
والسعي في اذاه بكل ممكن مع علمه بفضله وعلمه وانه لا شيء فيه يوجب عداوته الا محاسنه
وفضائله ولهذا قيل الحاسد عدو النعم والمكارم فالحاسد لم يحمله على معاداة المحسود جهله
بفضله وكماله وانما حمله على ذلك فساد قصده وارادته كما هي حال الرسل وورثتهم مع الرؤساء
الذين سلبهم الرسل وورثتهم رياستهم الباطلة فعادوهم وصدوا النفوس عن متابعتهم ظنا
ان الرياسة تبقى لهم وينفردون بها وسنة الله في هؤلاء ان يسلبهم رياسة الدنيا والآخرة
ويصغرهم في عيون الخلق مقابلة لهم بنقيض قصدهم وما ربك بظلام للعبيد فهذا امور داحجاج
الفريقين وموقف اقدام الطائفتين فاجلس منها ايها المنصف مجلس الحكومة وتوخ بعلمك
وعدلك فصل هذه الخصومة فقد ادلى كل منهما بحجج لا تعارض ولا تمانع وجاء بينات لا ترد
ولا تدافع فهل عندك شيء غير هذا يحصل به فصل الخطاب وينكشف به لطالب الحق وجه الصواب

الصواب فيرضى الطائفتين ويزول به الاختلاف من البين والا فخل المطي وحاديها واعط
القوس باريها

دع الهوى لاناس يعرفون به قد كابدوا الحب حتى لان اصعبه

ومن عرف قدره وعرف لذي الفضل فضله فقد قرع باب التوفيق والله الفتاح العليم **فنقول**
وبالله التوفيق كلا الطائفتين ما خرجت عن موجب العلم ولا عدلت عن سنن الحق وانما الاختلاف
والتباين بينهما من عدم التوارد على محل واحد ومن اطلاق الفاظ مجملة بتفصيل معانيها يزول الاختلاف
ويظهر ان كل طائفة موافقة للاخرى على نفس قولها وبيان هذا ان المقتضي قسمان مقتض لا يتخلف عنه
موجبه ومقتضاه بل يستلزمه استلزام العلة التامة لمعلولها ومقتض غير تام يتخلف عنه
مقتضاه لقصوره في نفسه عن التمام او لفوات شرط اقتضائه او قيام مانع منع تاثيره فان اريد بكون
العلم مقتضيا للاهتداء الاقتضاء التام الذي لا يتخلف عنه اثره بل يلزمه الاهتداء بالفعل
فالصواب قول الطائفة الثانية وانه لا يلزم من العلم حصول الاهتداء المطلوب وان اريد بكونه
موجبا انه صالح للاهتداء مقتض وقد يتخلف عنه مقتضاه لقصوره او فوات شرط او قيام مانع
فالصواب قول الطائفة الاولى وتفصيل هذه الجملة ان العلم بكون الشيء سببا لمصلحة
العبد ولذاته وسروره قد يتخلف عنه عمله بمقتضاه لاسباب عديدة **السبب الاول** ضعف
معرفته السبب الثاني عدم الاهلية وقد تكون معرفته به تامة لكن يكون مشروطا بزكاة
المحل وقبوله للتزكية فاذا كان المحل غير زكي ولا قابل للتزكية كان كالارض الصلدة التي يخالطها
الماء فانه يمتنع النبات منها لعدم اهليتها وقبولها فاذا كان القلب قاسيا لا يقبل تزكيته ولا تؤثر فيه
النصائح لم ينتفع بكل علم يعلمه كما لا تنبت الارض الصلبة ولو اصابها كل مطر وبذر فيها كل بذر كما
قال تعالى في هذا الصنف من الناس ان الذين حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون ولو جاءتهم كل
آية حتى يروا العذاب الاليم وقال تعالى ولو اننا نزلنا اليهم الملائكة وكلمهم الموتى وحشرنا
عليهم كل شيء قبلا ما كانوا ليؤمنوا الا ان يشاء الله وقال تعالى قل انظروا ماذا في السموات
والارض وما تغني الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون وهذا في القرآن كثير فاذا كان القلب قاسيا
غليظا جافيا لا يعمل فيه العلم شيئا وكذلك اذا كان مريضا مهينا مائيا لا صلابة فيه ولا قوة
ولا عزيمة لم يؤثر فيه العلم **السبب الثالث** قيام مانع وهو اما حسد او كبر وذلك
مانع ابليس من الانقياد للامر وهو داء الاولين والآخرين الا من عصم الله وبه تخلف الايمان عن

اليهود الذين شاهدوا رسول الله صلى الله عليه وسلم وعرفوا صحة نبوته ومن جرى مجراهم وهو الذي منع
عبد الله بن أبي من الإيمان وبه تخلف الإيمان عن أبي جهل وسائر المشركين فإنهم لم يكونوا يرتابون
في صدقه وأن الحق معه لكن حملهم الكبر والحسد على الكفر وبه تخلف الإيمان عن أمية وأضرابه
ممن كان عنده علم بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم **السبب الرابع** مانع الرياسة والملك وإن لم يقم
بصاحبه حسد ولا تكبر عن الانقياد للحق لكن لا يمكن أن يجتمع له الانقياد وملكه ورياسته فيضن
بملكه ورياسته كحال هرقل وأضرابه من ملوك الكفار الذين علموا نبوته وصدقه وأقروا بها باطنا وأحبوا
الدخول في دينه لكن خافوا على ملكهم وهذا داء أرباب الملك والولاية والرياسة وقل من نجا منه
إلا من عصم الله وهو داء فرعون وقومه ولهذا قالوا أنؤمن لبشرين مثلنا وقومهما لنا عابدون
أنفوا أن يؤمنوا ويتبعوا موسى وهرون وينقادوا لهما وبنو إسرائيل عبيد لهم ولهذا قيل إن فرعون
لما أراد متابعة موسى وتصديقه شاور هامان وزيره فقال بينا أنت إله تعبد تصير
عبدا تعبد غيرك فأبى العبودية واختار الرياسة والإلهية المحال **السبب الخامس**
مانع الشهوة والمال وهو الذي منع كثيرا من أهل الكتاب من الإيمان خوفا من بطلان مآكلهم وأموالهم التي
تصير إليهم من قومهم وقد كانت كفار قريش يصدون الرجل عن الإيمان بحسب شهوته فيدخلون عليه
منها فكانوا يقولون لمن يحب الزنا والفواحش إن محمدا يحرم الزنا ويحرم الخمر وبه صدوا الأعشى
الشاعر عن الإسلام وقد فاوضت غير واحد من أهل الكتاب في الإسلام وصحته فكان آخر ما كلمني به
أحدهم أنا لا أترك الخمر وأشربها آمنا فإذا أسلمت حلتم بيني وبينها وجلدتموني على شربها وقال
لي آخر منهم بعد أن عرف ما قلت له لي أقارب أرباب أموال وإني إن أسلمت لم يصل إلي منها شيء وأنا أؤمل
أن أرثهم أو كما قال ولا ريب أن هذا القدر في نفوس خلق كثير من الكفار فتتفق قوة داعي الشهوة والمال
وضعف داعي الإيمان فيجيب داعي الشهوة والمال ويقول لا أرغب بنفسي عن آبائي وسلفي **السبب السادس**
محبة الأهل والأقارب والعشيرة يرى أنه إذا اتبع الحق وخالفهم أبعدوه وطردوه عنهم وأخرجوه
من بين أظهرهم وهذا سبب بقاء خلق كثير على الكفر بين قومهم وأهاليهم وعشائرهم
السبب السابع محبة الدار والوطن وإن لم يكن بها عشيرة ولا أقارب لكن يرى أن في متابعة
الرسول خروجه عن داره ووطنه إلى دار الغربة والنوى فيضن بوطنه وداره **السبب الثامن**
تخيل أن في الإسلام ومتابعة الرسول إزراء وطعنا منه على آبائه وأجداده وذمهم وهذا هو
الذي منع أبا طالب وأمثاله عن الإسلام استعظموا آباءهم وأجدادهم أن يشهدوا عليهم بالكفر

والضلال

والضلال وأن يختاروا خلاف ما اختاروا لأنفسهم ورأوا أنهم إن أسلموا سفهوا أحلام أولئك
وضللوا عقولهم ورموهم بأقبح القبائح وهو الكفر والشرك ولهذا قال أعداء الله لأبي
طالب عند الموت أترغب عن ملة عبد المطلب فكان آخر ما كلمهم به هو على ملة عبد المطلب فلم يدعه
أعداء الله إلا من هذا الباب لعلمهم بتعظيمه أباه عبد المطلب وأنه إنما حاز الفخر والشرف به فكيف
يأتي أمرا يلزم منه تنقيصه وذمه ولهذا قال لولا أن تكون سبة على بني عبد المطلب لأقررت
بها عينك أو كما قال وهذا شعره يصرح فيه بأنه قد علم وتحقق نبوة محمد صلى الله عليه وسلم وصدقه
كقوله

ولقد علمت بأن دين محمد ... من خير أديان البرية دينا
لولا الملامة أو حذار مسبة ... لوجدتني سمحا بذاك مبينا

وفي قصيدته اللامية

فوالله لولا أن تكون مسبة ... تجر على أشياخنا في المحافل
لكنا اتبعناه على كل حالة ... من الدهر جدا غير قول التهازل
لقد علموا أن ابننا لا مكذب ... لدينا ولا يعنى بقول الأباطل

والمسبة التي زعم أنها تجر على أشياخه شهادته عليهم بالكفر والضلال وتسفيه الأحلام
وتضليل العقول فهذا هو الذي منعه من الإسلام بعد تيقنه **السبب التاسع** متابعة
من يعاديه من الناس للرسول وسبقه إلى الدخول في دينه وتخصيصه وقربه منه وهذا القدر
منع كثيرا من اتباع الهدى يكون للرجل عدو ويبغض مكانه ولا يحب أرضا يمشي عليها ويقصد مخالفته
ومناقضته فيراه قد اتبع الحق فيحمله قصد مناقضته ومعاداته على معاداة الحق وأهله وإن
كان لا عداوة بينه وبينهم وهذا كما جرى لليهود مع الأنصار فإنهم كانوا أعداءهم وكانوا يتواعدونهم وبينهم
بخروج النبي صلى الله عليه وسلم وأنهم يتبعونه ويقاتلونهم معه فلما بدرهم إليه الأنصار وأسلموا حملهم
معاداتهم على البقاء على كفرهم ويهوديتهم **السبب العاشر** مانع الإلف والعادة
والمنشأ فإن العادة قد تقوى حتى تغلب حكم الطبيعة ولهذا قيل هي طبيعة ثانية فيربى
الرجل على المقالة وينشأ عليها صغيرا فتتربى قلبه ونفسه عليها كما يتربى لحمه وعظمه على الغذاء
المعتاد ولا يعقل نفسه إلا عليها ثم يأتيه العلم وهلة واحدة يريد إزالتها وإخراجها من قلبه
وأن يسكن موضعها فيعسر عليه الانتقال ويصعب عليه الزوال وهذا السبب وإن كان
أضعف المقالات معنى فهو أغلبها على الأمم وأرباب المقالات والنحل ليس مع أكثرهم بل جميعهم

الاسباب

لما عسى أن يشتد الإعادة ومن نربي عليها طفلاً لا يعرف غيرها ولا يحس به فمن ترك العوائد هو الغا
على الناس والاشتغال عنه كالاشتغال عن الطبيعة إلى طبيعة ثانية فصلوات الله وسلامه على أنبيائه
ورسله خصوصاً على خاتمهم وأفضلهم محمد صلى الله عليه وسلم كيف غيروا عوائد الأمم الباطلة ونقلوهم إلى
الإيمان حتى استحدثوا به طبيعة ثانية خرجوا بها عن عاداتهم وطبيعتهم الفاسدة ولا يعلم مشقة هذا
على النفوس إلا من زاول نقل رجل واحد عن دينه ومقالته إلى الحق فجزى الله المرسلين أفضل ما جزى به أحداً
من العالمين إذا عرف أن المقتضي نوعان ما الهدى المقتضي وحده لا يوجب الاهتداء والهدى
التام يوجب الاهتداء فالأول هدى البيان والدلالة والتعليم ولهذا يقال هدى فما اهتدى
والثاني هدى البيان والدلالة مع إعطاء التوفيق وخلق الإرادة فهذا الهدى الذي
يستلزم الاهتداء ولا يتخلف عنه موجبه فمتى وجد السبب وانتفت الموانع لزم وجود حكمه وها هنا
دقيقة بها ينفصل النزاع وهو أنه هل ينعطف من قيام المانع وعدم الشرط على المقتضي أمر يضعفه في
نفسه ويسلبه اقتضاءه وقوته أو اقتضاؤه بحاله وإنما غلب المانع فكان الحكم له ومثال
ذلك مسألتنا أنه بوجود هذه الموانع المذكورة أو بعضها هل يضعف العلم ويعدم حتى لا يصير مؤثراً البتة
أو العلم بحاله ولكن المانع بقوته غلب فكان الحكم له هذا سر المسألة وفقهها فأما الأول
فلا شك فيه ولكن الشأن في القسم الثاني وهو بقاء العلم بحاله والتحقيق أن الموانع تحجبه وتعميه وربما
قلب حقيقته من القلب والقرآن يدل على هذا قال تعالى وإذ قال موسى لقومه يا قوم لم تؤذونني
وقد تعلمون أني رسول الله إليكم فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم والله لا يهدي القوم الفاسقين فعاقبهم سبحانه
بإزاغة قلوبهم عن الحق لما زاغوا عنه ابتداء ونظيره قوله تعالى ونقلب أفئدتهم وأبصارهم
كما لم يؤمنوا به أول مرة ونذرهم في طغيانهم يعمهون ولهذا قيل من عرض عليه حق فرده ولم يقبله
عوقب بفساد قلبه وعقله ورأيه ومن هنا قيل لا رأي لصاحب هوى فإن هواه يحمله على رد الحق
فيفسد الله عليه رأيه وعقله وقال تعالى فبما نقضهم ميثاقهم وكفرهم بآيات الله وقتلهم الأنبياء
بغير حق وقولهم قلوبنا غلف بل طبع الله عليها بكفرهم أخبر سبحانه أن كفرهم بالحق بعد
أن علموه كان سبباً لطبع الله على قلوبهم حتى صارت غلفاً والغلف جمع أغلف وهو القلب الذي قد
غشيه غلاف كالسيف الذي في غلافه وكل شيء في غلاف فهو أغلف وجمعه غلف يقال سيف أغلف
وقوس غلفاء ورجل أغلف وأقلف إذا لم يختتن والمعنى قلوبنا عليها غشاوة وغطاء فلا تفقه
ما يقول محمد صلى الله عليه وسلم ولم يصنع شيئاً من قال أن المعنى أنها غلف للعلم والحكمة أي أوعية لها فلا نحتاج

إلى

إلى قولك ولا نقبله استغناء بما عندنا لوجوه أحدها أن غلف جمع أغلف كقلف وأقلف
وحمر وأحمر وجرد وأجرد وغلب وأغلب ونظائره والأغلف من القلوب هو الداخل في الغلاف
هذا المعروف من اللغة الثاني أنه ليس من الاستعمال السائغ المشهور أن يقال قلب
فلان غلاف لكذا وهذا لا يكاد يوجد في شيء من كلامهم ولا نظمه ولا نظير له في القرآن فيحمل
عليه ولا هو من التشبيه البديع المستحسن فلا يجوز حمل الآية عليه الثالث أن نظير قول هؤلاء
قول الآخرين من الكفار قلوبنا في أكنة مما تدعونا إليه والأكنة هنا هي الغلف التي قلوب هؤلاء فيها
والأكنة كالأوعية والأغطية التي تغطي المتاع ومنه الكنانة لغلاف السهام ومنه الرابع
أن سياق الآية لا يحتمل مع المعنى الذي ذكروه ولا يحتمل مقابلته بقوله بل طبع الله عليها بكفرهم
وإنما يحتمل مع هذا المعنى أن يسلب عنهم العلم والحكمة التي ادعوها كأن قيل لهم لما ادعوا ذلك وما
أوتيتم من العلم إلا قليلاً وأما هنا فلما ادعوا أن قلوبهم في أغطية وأغشية لا تفقه قوله قوبلوا
بأن عرفهم أن كفرهم ونقضهم ميثاقهم وقتلهم الأنبياء كان سبباً لأن طبع على قلوبهم ولا ريب أن القلب
إذا طبع عليه أظلمت صورة العلم فيه وانطمست وربما ذهب أثرها حتى يصير السبب الذي يهتدي
به المهتدون سبباً لضلاله هذا كما قال تعالى يضل به كثيراً ويهدي به كثيراً وما يضل به إلا الفاسقين
الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون في الأرض أولئك
هم الخاسرون وأخبر تعالى أن القرآن سبب لضلال هذا الصنف من الناس وهو
هداه الذي هدى به رسوله وعباده المؤمنين ولهذا أخبر سبحانه أنه إنما يهدي به من اتبع
رضوانه قال الله تعالى وإذا ما أنزلت سورة فمنهم من يقول أيكم زادته هذه إيماناً فأما الذين
آمنوا فزادتهم إيماناً وهم يستبشرون وأما الذين في قلوبهم مرض فزادتهم رجساً إلى رجسهم وماتوا وهم
كافرون ولا شيء أعظم فساداً لمحل العلم من صيرورته بحيث يضل بما يهتدي به فنسبته إلى الهدى
والعلم نسبة الفم الذي قد استحكمت فيه المرارة إلى الماء العذب كما قيل

ومن يك ذا فم مر مريض يجد مراً به الماء الزلالا

فإذا فسد القلب فسد إدراكه وإذا فسد الفم فسد إدراكه وكذلك إذا فسدت العين وأهل
المعرفة من الصيارفة يقولون إن من خان في نقده نسي النقد وسلبه فاشتبه عليه الخالص بالزغل ومن كلام
بعض السلف العلم يهتف بالعمل فإن أجابه وإلا ارتحل وقال بعض السلف كنا نستعين على حفظ
العلم بالعمل به فترك العمل بالعلم من أقوى الأسباب في ذهابه ونسيانه وأيضاً فإن العلم يراد للعمل فإنه بمنزلة

الدليل لشبا بين فاذا لم يسر خلف الدليل لم ينتفع بدلالته ونزل منزلة من لم يعلم شيا لان من علم ولم يعمل
بمنزلة الجاهل الذي لا يعلم كما ان من ملك ذهبا وفضة وجاع وعري ولم يشتر منهما ما ياكل ويلبس
فهو بمنزلة الفقير العادم كما قيل

ومن ترك الانفاق عند احتياجه مخافة فقر فالذي فعل الفقر

والعرب تسمي الغش والبذاء جهلا اما لكونه من ثمرة الجهل فيسمى باسم سببه وموجبه واما لان
الجهل يقال في جانب العلم والعمل قال الشاعر

الا لا يجهلن احد علينا فنجهل فوق جهل الجاهلينا

ومن هذا قول موسى لقومه وقد قالوا اتتخذنا هزوا قال اعوذ بالله ان اكون من الجاهلين فجعل الاستهزاء
بالمومنين جهلا ومنه قوله تعالى حكاية عن يوسف عليه الصلاة والسلام والا تصرف عني
كيدهن اصب اليهن واكن من الجاهلين ومن هذا قوله تعالى خذ العفو وامر بالعرف واعرض عن
الجاهلين ليس المراد اعراضه عمن لا علم عنده فلا يعلمه ولا يرشده وانما المراد اعراضه عن جهل من جهل عليه
فلا يقابله ولا يعاتبه قال مقاتل وعروة والضحاك وغيرهم صن نفسك عن مقابلتهم
على سفههم وهذا كثير في كلامهم ومنه الحديث اذا كان صوم احدكم فلا يصخب ولا يجهل ومن هذا
تسمية المعصية جهلا قال قتادة اجمع اصحاب محمد صلى الله عليه وسلم ان كل من عصى الله فهو جاهل وليس
المراد انه جاهل بالتحريم اذ لو كان جاهلا به لم يكن عاصيا فلا يترتب الحد في الدنيا والعقوبة في الاخرة على
جاهل بالتحريم بل نفس الذنب يسمى جهلا وان علم مرتكبه بتحريمه اما لانه لا يصدر الا عن ضعف العلم ونقصانه
وذلك جهل فيسمى باسم سببه واما تنزيلا لفاعله منزلة الجاهل به الثاني انهم لما ردوا الحق
ورغبوا عنه عوقبوا بالطبع والرين وسلب العقل والفهم كما قال تعالى عن المنافقين ذلك بانهم امنوا
ثم كفروا فطبع على قلوبهم فهم لا يفقهون الثالث ان العلم الذي ينتفع به ويستلزم النجاة والفلاح
لم يكن حاصلا لهم فسلب عنهم حقيقته والشي قد ينفى لنفي ثمرته والمراد منه قال تعالى في ساكن النار
فان له جهنم لا يموت فيها ولا يحيى فنفى الحياة لانتفاء فايدتها والمراد منها ويقولون لا مال الا ما انفق ولا علم
الا ما نفع ولهذا نفى سبحانه عن الكفار الاسماع والابصار والعقول لما لم ينتفعوا بها قال تعالى
وجعلنا لهم سمعا وابصارا وافيدة فما اغنى عنهم سمعهم ولا ابصارهم ولا افيدتهم من شي اذ كانوا يجحدون
بايات الله وقال تعالى ولقد ذرانا لجهنم كثيرا من الجن والانس لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم
اعين لا يبصرون بها ولهم اذان لا يسمعون بها ولما لم يحصل لهم الهدى المطلوب بهذه الحواس كانوا بمنزلة

فاقدها قال تعالى صم بكم عمي فهم لا يعقلون والقلب يوصف بالبصر والعمى والسمع والصمم والنطق
والبكم بل هذه له اصلا وللعين والاذن واللسان تبعا فاذا عدمها القلب فصاحبه اعمى مفتوح
العين اصم ولا افة باذنه ابكم وان كان فصيح اللسان قال تعالى فانها لا تعمى الابصار ولكن تعمى القلوب
التي في الصدور فلا تنافي بين قيام الحجة بالعلم وبين سلبه ونفيه بالطبع والختم والقفل على قلوب
من لم يعمل بموجب الحجة وسقادها وقال تعالى واذا قرات القران جعلنا بينك وبين الذين لا يومنون
بالاخرة حجابا مستورا وجعلنا على قلوبهم اكنة ان يفقهوه وفي اذانهم وقرا واذا ذكرت ربك في القران
وحده ولوا على ادبارهم نفورا فاخبر سبحانه بانه منعهم فقه كلامه وهو الادراك الذي
ينتفع به من فقهه ولم يكن ذلك مانعا لهم من الادراك الذي تقوم به الحجة عليهم فانهم لو لم يفهموه جملة ما ولوا
على ادبارهم نفورا عند ذكر توحيد الله فلما ولوا عند ذكر التوحيد دل على انهم كانوا يفهمون الخطاب
وان الذي غشي قلوبهم كالذي غشي اذانهم ومعلوم انهم لم يعدموا السمع جملة ويصيروا كالاصم
ومعلوم انهم قد سمعوا القران وامر الرسول باسماعهم اياه وقال تعالى وقالوا لو كنا
نسمع او نعقل ما كنا في اصحاب السعير فهذا السمع المنفي عنهم سمع الفهم والفقه والمعنى ولو علم الله
فيهم خيرا لاسمعهم سمعا ينتفعون به وهو فقه المعنى وعقله والا فقد سمعوا سمعا تقوم به عليهم
الحجة ولكن لما سمعوه مع شدة بغضه وكراهته ونفرتهم عنه لم يفهموه ولم يعقلوه والرجل اذا اشتد
كراهته للكلام ونفرته عنه لم يفهم ما يراد به فنزل منزلة من لم يسمعه قال تعالى ما
كانوا يستطيعون السمع وما كانوا يبصرون نفى عنهم استطاعة السمع مع صحة حواسهم وسلامتها وانما
لفرط بغضهم ونفرتهم عنه وعن كلامه صاروا بمنزلة من لا يستطيع ان يسمعه ولا يراه وهذا استعمال
معروف للخاصة والعامة يقولون لا اطيق انظر الى فلان ولا استطيع اسمع كلامه من بغضه ونفرته
عنه وبعض الجبرية يحتج بهذه الاية وشبهها على مذهبهم ولا دلالة فيها اذ ليس المراد سلبهم السمع
والبصر الذي تقوم الحجة به قطعا وانما المراد سلب السمع الذي يترتب عليه فايدته وثمرته والحجة
حيث كانت مثل هذا اذا لم يحصل له فهم الخطاب لا يعذر بذلك لان الافة منه وهو بمنزلة من
سد اذنيه عند الخطاب فلم يسمعه فلا يكون ذلك عذرا له ومن هذا قولهم قلوبنا في اكنة مما تدعونا
اليه وفي اذاننا وقر ومن بيننا وبينك حجاب يعنون انهم في ترك القبول منه ونحوه الاستماع لما
جاء به وايثار الاعراض عنه وشدة النفرة عنه بمنزلة من لا يعقله ولا يسمعه ولا يبصر المخاطب لهم
فهذا هو الذي يقولون لاجله في النار لو كنا نسمع او نعقل ما كنا في اصحاب السعير ولهذا

وتمنعه والقدح ... بمثل العبارات ... العرايه ... منازله ... على معرا اصحابها

جعل ذلك مقدورا لهم وذنبا اكتسبوه وقال تعالى فاعترفوا بذنبهم فسحقا لأصحاب السعير والله تعالى
تارة ينفي عن هؤلاء العقل والسمع والبصر فإنها مدارك العلم وأسباب حصوله وتارة ينفي عنهم السمع والعقل
وتارة ينفي عنهم السمع والبصر وتارة ينفي عنهم العقل والبصر وتارة ينفي عنهم السمع وحده فنفي الثلاثة نفي لإدراك
العلم بطريق المطابقة ونفي بعضها نفي له بالمطابقة وللآخر بالتلازم فإن القلب إذا فسد فسد السمع والبصر
بل أصل فساده من فساده وإذا فسد السمع والبصر فسد القلب فإذا أعرض عن سمع الحق وأبغض قائله بحيث
لا يحب رؤيته امتنع وصول الهدى إلى القلب فيفسد وإذا فسد السمع والعقل تبعهما فساد البصر
فكل مدرك من هذه يصح بصحة الآخر ويفسد بفساده ولهذا يجيء القرآن بنفي ذلك صريحا ولزوما وبهذا
التفصيل يعلم اتفاق الأدلة من الجانبين وفي استدلال الطائفة الثانية بقوله الذين آتيناهم الكتاب
يعرفونه كما يعرفون أبناءهم ونظائرها نظر فإن الله تعالى حيث قال آتيناهم الكتاب لم يكونوا إلا ممدوحين
مؤمنين وإذا أراد ذمهم والإخبار عنهم بالعناد وإيثار الضلال أتى بلفظ الذين أوتوا الكتاب مبنيا
للمفعول فالأول كقوله تعالى الذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون وإذا يتلى عليهم قالوا آمنا به إنه
الحق من ربنا إنا كنا من قبله مسلمين أولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا الآيات وكقوله تعالى أفغير
الله أبتغي حكما وهو الذي أنزل إليكم الكتاب مفصلا والذين آتيناهم الكتاب يعلمون أنه منزل من ربك بالحق
فلا تكونن من الممترين فهذا في سياق مدحهم والاستشهاد لهم ليس في سياق ذمهم والإخبار بعنادهم
وجحودهم كما استشهد بهم في قوله قل كفى بالله شهيدا بيني وبينكم ومن عنده علم الكتاب وفي قوله
فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون وقال تعالى الذين آتيناهم الكتاب يتلونه حق تلاوته
أولئك يؤمنون به ومن يكفر به فأولئك هم الخاسرون واختلف في الضمير في يتلونه حق تلاوته فقيل هو
ضمير للكتاب الذي أوتوه قال ابن مسعود رضي الله عنه يحلون حلاله ويحرمون حرامه ويقرؤونه
كما أنزل ولا يحرفونه عن مواضعه قالوا ونزلت في مؤمني أهل الكتاب وقيل هذا وصف للمسلمين
والضمير في يتلونه للكتاب الذي هو القرآن وهذا بعيد إذ عرف القرآن يأباه ولا يرد على ما ذكرنا قوله
تعالى الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم وإن فريقا منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون بل هذا
حجة أيضا لما ذكرنا فإنه أخبر في الأول عن معرفتهم برسول الله صلى الله عليه وسلم ودينه وقبلته كما
يعرفون أبناءهم استشهادا بهم على من كفر وثناء عليهم ولهذا ذكر المفسرون أنهم عبد الله بن
سلام وأصحابه وخص في آخر الآية بالذم طائفة منهم فدل على أن الأولين غير مذمومين وغيرهم دخلوا
في جملة الأولين بلفظ المضمر لا يوجب أن يقال آتيناهم الكتاب عند الإطلاق فإنهم دخلوا في هذا اللفظ

(هامش: وتارة ينفي عنهم العقل وحده)

(هامش: بلغ مقابلة)

ضمنا وتبعا

ضمنا وتبعا فلا يلزم تناوله لهم قصدا واختيارا وقال تعالى في سورة الأنعام قل أئنكم لتشهدون
أن مع الله آلهة أخرى قل لا أشهد قل إنما هو إله واحد وإنني بريء مما تشركون الذين آتيناهم الكتاب
يعرفونه كما يعرفون أبناءهم قيل الرسول وصدقه وقيل المذكور وهو التوحيد والقولان متلازمان
إذ ذلك في معرض الاستشهاد والاحتجاج على المشركين لا في معرض ذم الذين آتيناهم الكتاب فإن السورة
مكية والحجاج كان فيها مع أهل الشرك والسياق يدل على الاحتجاج لا ذم المذكورين من أهل الكتاب
وأما الثاني فكقوله وإن الذين أوتوا الكتاب ليعلمون أنه الحق من ربهم وما الله بغافل عما يعملون
ولئن أتيت الذين أوتوا الكتاب بكل آية ما تبعوا قبلتك فهذه شهادة منه سبحانه للذين أوتوا الكتاب والأول
شهادة للذين آتاهم الكتاب بأنهم يؤمنون وقال تعالى يا أيها الذين أوتوا الكتاب
آمنوا بما نزلنا مصدقا لما معكم من قبل أن نطمس وجوها فنردها على أدبارها الآية وقال تعالى وقل
للذين أوتوا الكتاب والأميين أأسلمتم وهذا خطاب لمن لم يسلم منهم وإلا لم يؤمر صلى الله عليه وسلم أن يقول
هذا لمن أسلم منهم وصدق به ولهذا لا يذكر سبحانه الذين أوتوا نصيبا من الكتاب إلا في الذم أيضا
كقوله ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت الآية
وقال تعالى ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب يشترون الضلالة ويريدون
أن تضلوا السبيل وقال ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب يدعون إلى كتاب الله ليحكم بينهم
ثم يتولى فريق منهم وهم معرضون فالأقسام أربعة الذين آتيناهم الكتاب وهذا لا يذكره سبحانه
إلا في معرض المدح والذين أوتوا نصيبا من الكتاب لا يكون قط إلا في معرض الذم والذين أوتوا
الكتاب أعم منه فإنه قد يتناولهما ولكن لا يفرد به الممدوحون قط وأهل الكتاب يعم الجنس
كله ويتناول الممدوح منه والمذموم فقوله من أهل الكتاب أمة قائمة يتلون آيات الله آناء
الليل وهم يسجدون يؤمنون بالله واليوم الآخر الآية وقال في الذم لم يكن الذين كفروا
من أهل الكتاب والمشركين منفكين وهذا الفصل ينتفع به جدا في أكبر مسائل أصول الإسلام
وهي مسألة الإيمان واختلاف أهل القبلة فيه وقد ذكرنا فيه نكتا حسانا يتضح بها الحق
في المسألة والله أعلم **الوجه** الثاني والثمانون أن الله سبحانه فاوت
بين النوع الإنساني أعظم تفاوت يكون بين المخلوقين فلا يعرف اثنان من نوع واحد بينهما من
التفاوت ما بين خير البشر وشرهم والله سبحانه خلق الملائكة عقولا بلا شهوات وخلق الحيوانات
ذوات شهوات بلا عقول وخلق الإنسان مركبا من عقل وشهوة فمن غلب عقله شهوته كان خيرا

(هامش: ات)

من الملائكة ومن غلب شهوته عقله كان شرا من الحيوانات وفاوت سبحانه بينهم في العلم فجعل عالمهم معلم
الملائكة كما قال تعالى يا آدم أنبئهم بأسمائهم وتلك مرتبة لا مرتبة فوقها وجعل جاهلهم بحيث
لا يرضى الشيطان به ولا يصلح له كما قال الشيطان لجاهلهم الذي أطاعه في الكفر إني بريء
منك وقال لجملتهم الذين عصوا رسوله إني بريء منكم فما أشد هذا التفاوت العظيم إنما
حصل بالعلم وثمرته ولو لم يكن في العلم إلا القرب من رب العالمين والالتحاق بعالم الملائكة وصحبة الملأ
الأعلى لكفى به فضلا وشرفا فكيف وعز الدنيا والآخرة منوط به ومشروط بحصوله الوجه
الثالث والخمسون أن أشرف ما في الإنسان محل العلم منه وهو قلبه وسمعه وبصره ولما كان القلب
هو محل العلم والسمع رسوله الذي يأتيه به والعين طليعته كان ملكا على سائر الأعضاء يأمرها
فتأتمر لأمره ويصرفها فتنقاد له طائعة بما خص به من العلم دونها فلذلك كان ملكها والمطاع
فيها وهكذا العالم في الناس كالقلب في الأعضاء ولما كان صلاح الأعضاء بصلاح ملكها ومطاعها
وفسادها بفساده كانت هذه حال الناس مع علمائهم وملوكهم كما قال بعض السلف صنفان إذا
صلحا صلح الناس وإذا فسدا فسد الناس العلماء والأمراء وقال عبد الله بن المبارك
رحمه الله   وهل أفسد الدين إلا الملوك   وأحبار سوء ورهبانها
ولما كان للسمع والبصر من الإدراك ما ليس لغيرهما من الأعضاء كانا أشرف جزء من الإنسان وهو
وجهه وكانا من أفضل ما في الإنسان من الأجزاء والأعضاء والمنافع واختلف في الأفضل منهما
فقالت طائفة منهم أبو المعالي وغيره السمع أفضل لأن به ينال سعادة الدنيا والآخرة
فإنها إنما تحصل بمتابعة الرسل وقبول رسالاتهم وبالسمع عرف ذلك فإن من لا سمع له لا يعلم ما
جاؤوا به وأيضا فإن السمع يدرك به أجل شيء وأفضله وهو كلام الله الذي فضله على الكلام كفضل الله
على خلقه وأيضا فإن العلوم إنما تنال بالتفاهم والتخاطب ولا يحصل ذلك إلا بالسمع وأيضا
فإن مدركه أعم من مدرك البصر فإنه يدرك الكليات والجزئيات والشاهد والغائب والموجود
والمعدوم والبصر لا يدرك إلا بعض المشاهدات والسمع يسمع كل علم فأين أحدهما من الآخر
ولو فرضنا شخصين أحدهما يسمع كلام الرسول ولا يرى شخصه والآخر بصير يراه ولا يسمع كلامه
لصممه هل كانا سواء وأيضا ففاقد البصر إنما يفقد إدراك بعض الأمور الجزئية المشاهدة ويمكنه
معرفتها بالصفة ولو تقريبا وأما فاقد السمع فالذي فاته من العلم لا يمكن حصوله بحاسة البصر ولا
قريبا وأيضا فإن ذم الله تعالى للكفار بعدم السمع في القرآن أكثر من ذمه بعدم البصر بل لما

يذمهم

يذمهم بعدم البصر إلا تبعا لعدم العقل والسمع وأيضا فإن الذي يورده السمع على القلب من
العلوم لا يلحقه فيه كلال ولا سآمة ولا تعب مع كثرته وعظمه والذي يورده البصر عليه يلحقه
فيه الكلال والضعف والنقص وربما خشي صاحبه على ذهابه مع قلته ونزارته بالنسبة
إلى السمع وقالت طائفة منهم ابن قتيبة بل البصر أفضل فإن أعلى النعيم وأفضله
وأعظمه لذة هو النظر إلى الله في الدار الآخرة وهذا إنما ينال بالبصر وهذا وحده كاف في
تفضيله قالوا وهو مقدمة القلب وطليعته ورائده ومنزلته منه أقرب من منزلة السمع
ولهذا كثيرا ما يقرن بينهما في الذكر بقوله فاعتبروا يا أولي الأبصار فالاعتبار بالقلب والبصر
بالعين وقال تعالى ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة ولم يقل وأسماعهم وقال
تعالى فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور وقال قلوب يومئذ واجفة أبصارها
خاشعة وقال تعالى يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور وقال في حق رسوله ما
كذب الفؤاد ما رأى ثم قال ما زاغ البصر وما طغى وهذا يدل على شدة الوصلة والارتباط بين
القلب والبصر ولهذا يقرأ الإنسان ما في قلب الآخر من عينه وهذا كثير في كلام الناس نظمه ونثره
وهو أكثر من أن نذكر هنا ولما كان القلب أشرف الأعضاء كان أشدها ارتباطا به أشرف من
غيره قالوا ولهذا ما تمنيه القلب ما لا يأمن السمع عليه بل إذا ارتاب من جهته عرض ما يأتيه به
على البصر ليزكيه أو يرده فالبصر حاكم عليه مؤتمن عليه قالوا ومن هذا الحديث الذي رواه الإمام
أحمد في مسنده مرفوعا ليس المخبر كالمعاين قالوا ولهذا أخبر الله سبحانه موسى عليه الصلاة
والسلام أن قومه افتتنوا من بعده وعبدوا العجل فلم يلحقه في ذلك ما لحقه عند رؤية ذلك ومعاينته
من إلقاء الألواح وكسرها للقوة المعاينة على الخبر قالوا وهذا إبراهيم خليل الله صلى الله عليه وسلم
سأل ربه أن يريه كيف يحيي الموتى وقد علم ذلك بخبر الله ولكن طلب أفضل المنازل وهي طمأنينة
القلب قالوا ولليقين ثلاث مراتب أولها للسمع وثانيها للعين وهي المسماة بعين اليقين وهي
أفضل من المرتبة الأولى وأكمل قالوا وأيضا فالبصر يؤدي إلى القلب ويؤدي عنه فإن العين
مرآة القلب يظهر فيها ما فيه من المحبة والبغض والموالاة والمعاداة والسرور والحزن وغيرها
وأما الأذن فلا تؤدي عن القلب شيئا البتة وإنما مرتبتها الإيصال إليه حسب فالعين أشد تعلقا به
والصواب أن كلا منهما له خاصية فضل بها الآخر فالمدرك بالسمع أعم وأشمل والمدرك بالبصر
أتم وأكمل فالسمع له العموم والشمول والبصر له الظهور والتمام وكمال الإدراك وأما نعيم الجنة

فشأن الجنة بهما النظر الى الله والثاني سماع خطابه وكلامه كما رواه عبد الله بن الامام احمد في السنة وغيره كأن الناس يوم القيمة لم يسمعوا القران اذا سمعوه من الرحمن عز وجل ومعلوم ان سلام الله عليهم وخطابه لهم ومحاضرته اياهم كما في الترمذي وغيره لا يشبهها شيء قط ولا يكون اطيب عندهم منها ولهذا يذكر سبحانه في عقاب اعدائه انه لا يكلمهم كما يذكر احتجابه عنهم ولا يرونه فكلامه ورؤيته اعلا نعيم اهل الجنة والله اعلم **الوجه** الرابع والثمانون ان الله سبحانه في القران يعدد على عباده من نعمه عليهم ان اعطاهم آلات العلم فيذكر الفؤاد والسمع والابصار ومرة يذكر اللسان الذي يترجم عن القلب فقال تعالى في سورة النعم وهي سورة النحل التي ذكر فيها اصول النعم وفروعها ومتمماتها ومكملاتها فعدد نعمه فيها على عباده وتعرف بها اليهم واقتضاهم شكرها واخبر انه يتمها عليهم ليعرفوها ويذكروها ويشكروها فقال في اولها اصول النعم واخرها في مكملاتها فقال تعالى والله اخرجكم من بطون امهاتكم لا تعلمون شيئا وجعل لكم السمع والابصار والافئدة لعلكم تشكرون فذكر سبحانه نعمته عليهم بان اخرجهم لا علم لهم ثم اعطاهم الاسماع والابصار والافئدة التي نالوا بها من العلم ما نالوه وانه فعل بهم ذلك ليشكروه وقال تعالى وجعلنا لهم سمعا وابصارا وافئدة فما اغنى عنهم سمعهم ولا ابصارهم ولا افئدتهم من شيء وقال تعالى الم نجعل له عينين ولسانا وشفتين وهديناه النجدين فذكر هنا العينين اللتين يبصر بهما فيعلم المشاهدات وذكر هداية النجدين وهما طريقا الخير والشر وفي ذلك حديث مرفوع ومرسل وهو قول اكثر المفسرين وتدل عليه الاية الاخرى انا هديناه السبيل اما شاكرا واما كفورا والهداية تكون بالقلب والسمع فقد دخل السمع في ذلك لزوما وذكر اللسان والشفتين اللتين هما آلة التعليم فذكر آلات العلم والتعليم وجعلها من اياته الدالة عليه وعلى قدرته ووحدانيته ونعمه التي تعرف بها الى عباده ولما كانت هذه الاعضاء الثلاثة هي اشرف الاعضاء وملوكها والمتصرفة فيها والحاكمة عليها خصها سبحانه وتعالى بالذكر في السؤال عنها فقال ان السمع والبصر والفؤاد كل اولئك كان عنه مسؤولا فسعادة الانسان بصحة هذه الاعضاء الثلاثة وشقاوته بفسادها **قال ابن عباس** رضي الله عنهما يسال الله العباد فيما استعملوا هذه الثلاثة السمع والبصر والفؤاد فالله تعالى اعطى العبد السمع ليسمع به اوامر ربه ونواهيه وعهوده والقلب ليعقلها ويفقهها والبصر ليرى اياته فيستدل بها على وحدانيته وربوبيته فالمقصود باعطاء هذه الالات العلم وثمرته ومقتضاه **الوجه** الخامس والثمانون ان انواع السعادات التي تؤثرها النفوس ثلاثة سعادة خارجية عن ذات الانسان بل هي

مطلب

مستعار

مستعارة له من غيره تزول باسترداد العارية وهي سعادة المال والجاه فبينا المرء بها سعيدا محظوظا بالعناية مرموق بالابصار اذا اصبح في اليوم الواحد اذل من وتد بقاع يشج راسه بالفهر واجي فالسعادة والفرح بهذه كفرح الاقرع بجمة ابن عمه والجمال بها كجمال المرء بثيابه وبزته فاذا جاوز بصرك كسوته فليس وراء عبادان قرية وحكي عن بعض العلماء انه ركب مع تجار في مركب فانكسرت بهم السفينة فاصبحوا بعد عز الغنى في ذل الفقر ووصل العالم الى البلد فاكرم وقصد بانواع التحف والكرامات فلما ارادوا الرجوع الى بلادهم قالوا له هل لك الى قومك كتاب او حاجة فقال نعم تقولون لهم اذا اتخذتم مالا فاتخذوا مالا لا يغرق اذا انكسرت السفينة واجتمع رجل ذو هيبة حسنة ولباس جميل ورواء برجل عالم بحضر المخاطبة فلم ير شيئا فقالوا كيف رايته فقال رايت دارا حسنة مزخرفة ولكن ليس بها ساكن **السعادة الثانية** سعادة في جسمه وبدنه كصحته واعتدال مزاجه وتناسب اعضائه وحسن تركيبه وصفاء لونه وقوة اعضائه فهذه الصق به من الاولى ولكن هي في الحقيقة خارجة عن ذاته وحقيقته فان الانسان انسان بروحه وقلبه لا بجسمه وبدنه كما قيل

يا خادم الجسم كم تشقى بخدمته فانت بالروح لا بالجسم انسان

فنسبة هذه الى روحه وقلبه كنسبة ثيابه ولباسه الى بدنه فان البدن ايضا عارية للروح وآلة لها ومركب من مراكبها فسعادتها بصحته وجماله وحسنه سعادة خارجية عن ذاتها وحقيقتها **السعادة الثالثة** هي السعادة الحقيقية وهي سعادة نفسانية روحية قلبية وهي سعادة العلم النافع وثمرته فانها هي الباقية على تقلب الاحوال والمصاحبة للعبد في جميع اسفاره وفي دوره الثلاث اعني دار الدنيا ودار البرزخ ودار القرار وبها يترقى في معارج الفضل ودرجات الكمال واما الاولى فانها تصحبه في البقعة التي فيها ماله وجاهه والثانية بعرضة الزوال والتبدل بتنكس الخلق والرد الى الضعف فلا سعادة في الحقيقة الا هذه الثالثة التي كلما طال الامد ازدادت قوة وعلوا واما عدم المال والجاه فهي مال العبد وجاهه وتظهر قوتها واثرها بعد مفارقة البدن اذا انقطعت السعادتان الاوليان وهذه السعادة لا يعرف قدرها ويبعث على طلبها الا العلم بها فعادت السعادة كلها الى العلم وما يقتضيه والله يوفق من يشاء لا مانع لما اعطى ولا معطي لما منع وانما رغب اكثر الخلق عن اكتساب هذه السعادة وتحصيلها وعورة طريقها ومرارة مباديها وتعب تحصيلها وانها لا تنال الا على جسر من التعب فانها لا تحصل الا بالجد المحض بخلاف الاوليين فانهما حظ

قد يكون غير طالبه وبخت قد يكون غير جالبه من ميراث او هبة او غير ذلك واما سعادة
العلم فلا يورثك اياها الا الجد المتواصل وصدق الطلب وصحة النية وقد احسن القايل

فقل لمرجي معالي الامور بغير اجتهاد رجوت المحالا

وقال الاخر لولا المشقة ساد الناس كلهم الجود يفقر والاقدام قتال

ومن طمحت همته الى الامور العلية فواجب عليه ان يشتد على محبته الطرق الدنية وهذه السعادة وان كانت همته
في ابتدائها لا تنال الا بضرب من المشقة والكره والتاذي فانها متى اكرهت النفس عليها وسيقت طايعة
وكارهة اليها وصبرت على لاوايها وشدتها افضت منها الى رياض مونقة ومقاعد صدق ومقام
كريم تجد كل لذة دونها كلذة لعب الصبي بالعصفور بالنسبة الى لذات الملوك فحينيذ حال صاحبها كما
قيل وكنت ارى ان قد تناهى بي الهوى الى غاية ما بعدها لي مذهب

فلما تلاقينا وعاينت حسنها تيقنت اني انما كنت العب

فالمكارم منوطة بالمكاره والسعادة لا يعبر اليها الا على جسر المشقة فلا تقطع مسافتها الا في سفينة
الجد والاجتهاد قال مسلم في صحيحه قال يحيى بن ابي كثير لا ينال العلم براحة
الجسم وقد قيل من طلب الراحة ترك الراحة

فيا وصل الحبيب اما اليه بغير مشقة ابدا طريق

ولولا جهل الاكثرين بحلاوة هذه اللذة وعظم قدرها لتجالدوا عليها بالسيوف ولكن حفت بحجاب
من المكاره وحجبوا عنها بحجاب من الجهل ليختص الله بها من يشاء من عباده والله ذو الفضل العظيم الوجه
السادس والثمانون ان الله سبحانه خلق الموجودات وجعل لكل شيء منها كمالا يختص به هو غاية شرفه
فاذا عدم كماله انتقل الى الرتبة التي دونه واستعمل فيها فكان استعماله فيها كمال مثاله فاذا عدم تلك
ايضا نقل الى ما دونها ولا يعطل وهكذا ابدا حتى اذا عدم كل فضيلة صار كالشوك والحطب الذي لا يصلح
الا للوقود فالفرس اذا كانت فيه فيه وشيته التامة اعد لمراكب الملوك واكرم اكرام مثله فاذا نزل عنها
قليلا اعد لمن دون الملك فان ازداد تقصيره منها اعد لاحاد الاجناد فان تقاصر عنها جملة استعمل
استعمال الحمار اما حول المدار واما لنقل الزبل ونحوه فان عدم ذلك استعمل استعمال الاغنام للذبح والاعدام
كما قال في المثل ان فرسين للعبا احدهما تحت ملك والاخر تحت الروايا فقال فرس الملك ما انت صاحبي
وكنا انا وانت في مكان واحد فما الذي نزل بك الى هذه المرتبة فقال ما ذاك الا انك مهلجت فلسلا
وتكسعت انا وهكذا السيف اذا نبا عما هي له ولم يصلح له ضرب منه فاس او منشار او نحوه وهكذا الدور العظام

همته

فيه

الحسان اذا خربت وتهدمت اتخذت حظاير للغنم او الابل وغيرها وهكذا الادمي اذا كان
صالحا لاصطفاء الله برسالته ونبوته اتخذه رسولا ونبيا كما قال تعالى الله اعلم حيث يجعل
رسالاته فاذا كان جوهره قاصرا عن هذه الدرجة صالحا للخلافة النبوة وميراثها رشحه لذلك
وبلغه اياه فاذا كان قاصرا عن ذلك قابلا لدرجة الولاية رشحه لها وان كان ممن يصلح للعمل والعبادة
دون المعرفة والعلم جعل من اهله حتى ينتهي الى درجة عموم المؤمنين فان نقص عن هذه الدرجة ولم تكن
نفسه قابلة لشي من الخير اصلا استعمل حطبا ووقودا للنار وفي اثر اسرايلي ان موسى عليه الصلاة
والسلام سال ربه عز شان من بعدهم من خلقه فقال يا موسى ازرع زرعا فزرعه فاوحى اليه ان
احصده ثم اوحى اليه ان انسفه وذره ففعل وخلص الحب وحده والتبن والعيدان والعصف
وحده فاوحى اليه اني لا اجعل في النار من العباد من لا خير فيه بمنزلة العيدان والشوك التي لا يصلح
الا للنار وهكذا الانسان يترقى في درجات الكمال درجة بعد درجة حتى يبلغ نهاية ما يناله
امثاله منها فكم بين حاله في اول كونه نطفة وبين حاله والرب تبارك وتعالى يسلم عليه في داره وينظر
الى وجهه بكرة وعشيا والنبي صلى الله عليه وسلم في اول امره لما جاءه الملك فقال له اقرا فقال
ما انا بقارى وفي اخر امره يقول الله اليوم اكملت لكم دينكم واتممت عليكم نعمتي ويقول له خاصة
وانزل الله عليك الكتاب والحكمة وعلمك ما لم تكن تعلم وكان فضل الله عليك عظيما ويحكى ان جماعة
من النصارى تحدثوا فيما بينهم فقال قايل منهم ما اقل عقول المسلمين يزعمون ان نبيهم كان راعي
الغنم فكيف يصلح راعي الغنم للنبوة فقال له اخر منهم اما هم فوالله اعقل منا فان الله
بحكمته يسترعي الحيوان البهيم فاذا احسن رعايته والقيام عليه نقله منه الى رعاية الحيوان
الناطق حكمة من الله وتدريجا لعبده ولكن نحن جينا الى مولود خرج من امراة ياكل ويشرب ويبول
ويبكي فقلنا هذا الهنا الذي خلق السموات والارض فامسك القوم عنه فكيف تحسن بذي
همة قد ازاح الله عنه علله وعرفه السعادة والشقاوة ان يرضى بان يكون حيوانا وقد امكنه ان يصير
انسانا وبان يكون انسانا وقد امكنه ان يكون ملكا وبان يكون ملكا وقد امكنه ان يكون ملكا في مقعد
صدق عند مليك مقتدر فتقوم الملايكة في خدمته وتدخل عليهم من كل باب سلام عليكم بما صبرتم
فنعم عقبى الدار وهذا الكمال انما ينال بالعلم ورعايته والقيام بموجبه فعاد الامر الى العلم وثمرته
والله تعالى الموفق واعظم النقص واشد الحسرة نقص القادر على التمام وحسرته على تفويته كما قال
بعض السلف اذا كثرت طرق الخير كان الخارج منها اشد حسرة وصدق القايل

لعله الا

ولم ارَ في عيوب الناس عيباً كنقص القادرين على التمام

فثبت انه لا شيء اقبح بالانسان من ان يكون غافلا عن الفضائل الدينية والعلوم النافعة والاعمال
الصالحة فمن كان كذلك فهو من الهمج الرعاع الذين يكدرون الماء ويغلون الاسعار ان عاش عاش غير
حميد وان مات مات غير فقيد فقدهم راحة للبلاد والعباد ولا تبكي عليهم السماء ولا تستوحش
لهم الغبراء **الوجه** السابع والثمانون ان القلب يعترضه مرضان يتواردان عليه
اذا استحكما فيه كان هلاكه وموته وهما مرض الشهوات ومرض الشبهات هذان اصل داء الخلق
الا من عافاه الله وقد ذكر الله تعالى هذين المرضين في كتابه اما مرض الشبهات وهو اصعبهما واقتلهما
للقلب ففي قوله في حق المنافقين في قلوبهم مرض فزادهم الله مرضا وقوله وليقول الذين في قلوبهم مرض
والكافرون ماذا اراد الله بهذا مثلا وقال تعالى ليجعل ما يلقي الشيطان فتنة للذين في
قلوبهم مرض والقاسية قلوبهم فهذه ثلاث مواضع المراد بمرض القلب فيها مرض الجهل والشبهة واما
مرض الشهوة ففي قوله يا نساء النبي لستن كاحد من النساء ان اتقيتن فلا تخضعن بالقول فيطمع الذي في
قلبه مرض اي لا تلنّ بالكلام فيطمع الذي في قلبه فجور وزنا قالوا والمرأة ينبغي لها اذا خاطبت
الاجانب ان تغلظ كلامها وتقويه ولا تلينه ولا تكسره فان ذلك ابعد من الريبة والطمع فيها
وللقلب امراض اخر من الرياء والكبر والعجب والحسد والفخر والخيلاء وحب الرياسة والعلو في
الارض وهذا المرض مركب من مرض الشبهة والشهوة فانه لا بد فيه من تخيل فاسد وارادة باطلة كالعجب
والفخر والخيلاء والكبر المركب من تخيل عظمته وفضله وارادة تعظيم الخلق له ومحمدتهم فلا يخرج مرضه عن
شهوة او شبهة او مركب منهما وهذه الامراض كلها متولدة عن الجهل ودواؤها العلم كما قال
النبي صلى الله عليه وسلم في حديث صاحب الشجة الذي افتوه بالغسل فمات قتلوه قتلهم الله الا سألوا
اذا لم يعلموا انما شفاء العي السؤال فجعل العي وهو عي القلب عن العلم واللسان عن النطق به مرضا
وشفاؤه سؤال العلماء فامراض القلوب اصعب من امراض الابدان لان غاية مرض البدن ان يفضي بصاحبه
الى الموت واما مرض القلب فيفضي بصاحبه الى الشقاء الابدي ولا شفاء لهذا المرض الا بالعلم ولهذا
سمى الله تعالى كتابه شفاء لامراض الصدور قال تعالى يا ايها الناس قد جاءتكم
موعظة من ربكم وشفاء لما في الصدور وهدى ورحمة للمؤمنين ولهذا السبب نسبة العلماء
الى القلوب كنسبة الاطباء الى الابدان وما يقال للعلماء اطباء القلوب فهو لقدر ما جامع بينهما والا فالامر
اعظم فان كثيرا من الامم يستغنون عن الاطباء ولا يوجد الاطباء الا في اليسير من البلاد وقد يعيش الرجل

عمره

عمره او برهة منه لا يحتاج الى طبيب واما العلماء بالله وامره فهم حياة الوجود وروحه ولا يستغنى
عنهم طرفة عين فحاجة القلب الى العلم ليست كالحاجة الى التنفس في الهواء بل اعظم وبالجملة فالعلم
للقلب مثل الماء للسمك اذا فقده مات فنسبة العلم الى القلب كنسبة ضوء العين اليها وكنسبة سمع
الاذان وكنسبة كلام اللسان اليه فاذا عدمه كان كالعين العمياء والاذن الصماء واللسان
الاخرس ولهذا يصف سبحانه اهل الجهل بالعمى والصم والبكم وذلك صفة قلوبهم حيث فقدت
العلم النافع فبقيت على عماها وصممها وبكمها قال تعالى ومن كان في هذه اعمى فهو في الاخرة اعمى
واضل سبيلا والمراد عمى القلب في الدنيا وقال تعالى ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم عميا وبكما
وصما لانهم هكذا كانوا في الدنيا والعبد يبعث على ما مات عليه **واختلف** في هذا العمى
في الاخرة فقيل هو عمى البصيرة بدليل اخباره تعالى عن رؤية الكفار في القيامة ورؤية الملائكة ورؤية
النار وقيل هو عمى البصر ورجح هذا بان الاطلاق ينصرف اليه وبقوله قال رب لم حشرتني
اعمى وقد كنت بصيرا وهذا عمى العين فان الكافر لم يكن بصيرا بحجته واجاب هؤلاء عن
رؤية الكفار في القيامة بان الله يخرجهم من قبورهم الى موقف القيامة بصراء ويحشرون من الموقف الى النار
عميا قاله الفراء وغيره ق **الوجه** الثامن والثمانون ان الله سبحانه بحكمته سلط على
العبد عدوا عالما بطرق هلاكه واسباب الشر الذي يلقيه فيه متفننا فيها خبيرا بها حريصا عليها
لا يفتر عنه يقظة ولا مناما ولا بد له من واحدة من ست ينالها منه احدها وهي غاية مراده
منه ان يحول بينه وبين العلم والايمان فيلقيه في الكفر فاذا ظفر بذلك فرغ منه واستراح فان
فاته هذه وهدي للاسلام حرص على تلو الكفر وهي البدعة وهي احب اليه من المعصية فان المعصية
يتاب منها والبدعة لا يتاب منها لان صاحبها يرى انه على هدى وفي بعض الاثار يقول ابليس اهلكت
بني ادم بالذنوب واهلكوني بالاستغفار وبلا اله الا الله فلما رايت ذلك بثثت فيهم الاهواء فهم
يذنبون ولا يتوبون لانهم يحسبون انهم يحسنون صنعا فاذا ظفر منه بهذه صيره من دعاته
وامرائه فان اعجزه القاه في الثالثة وهي الكبائر فان اعجزه القاه في اللمم وهي الرابعة
وهي الصغائر فان اعجزه شغله بالعمل المفضول عما هو افضل منه ليربح عليه الذي بينهما وهي الخامسة
فان اعجزه ذلك صار الى السادسة وهي تسليط حزبه عليه يؤذونه ويشتمونه ويبهتونه ويرمونه
بالعظائم ليحزنه ويشغل قلبه عن العلم والارادة وسائر اعماله فكيف يمكن ان يحترز منه من لا علم له
بهذه الامور ولا بعدوه ولا بما يحصنه منه فانه لا ينجو من عدوه الا من عرفه وعرف طريقه التي يأتيه

منها وحيلته الذي يستعين به عليه وعرف مداخله ومخارجه وكيفية محاربته وبأي شيء يحاربه وبماذا
يداوي جراحته وبأي شيء يستمد القوة لقتاله ودفعه وهذا كله لا يحصل إلا بالعلم فالجاهل
في غفلة وعمى عن هذا الأمر العظيم والخطب الجسيم ولهذا لما ذكر العدو وشأنه وجنوده ومكايده
في القرآن لشدة حاجة النفوس إلى معرفة عدوها وطرق محاربته ومجاهدته فلولا العلم بكشف
هذا الأمر لما نجا منه فالعلم وثمرته هو الذي يحصل به النجاة منه **الوجه**
التاسع والثمانون أن أعظم الأسباب التي يحرم بها العبد خير الدنيا والآخرة ولذة النعيم في الدارين
ويدخل عليه عدوه منها هو الغفلة المضادة للعلم والكسل المضاد للإرادة والعزيمة هذان أصل بلاء
العبد وحرمانه منازل السعداء وهما من عدم العلم أما الغفلة فمضادة للعلم منافية له وقد ذم سبحانه
أهلها ونهى عن الكون منهم وعن طاعتهم والقبول منهم قال تعالى ولا تكن من الغافلين وقال
تعالى ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا وقال تعالى ولقد ذرأنا لجهنم كثيرا من الجن والإنس لهم قلوب
لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون
وقال النبي صلى الله عليه وسلم في وصيته لنساء المؤمنين فتنسين الرحمة وسئل بعض العلماء
عن عشق الصور فقال قلوب غفلت عن ذكر الله فابتلاها الله بعبودية غيره فالقلب الغافل مأوى الشيطان
فإنه وسواس خناس قد التقم القلب الغافل يقرأ عليه أنواع الوساوس والخيالات الباطلة فإذا تذكر
وذكر الله انجمع وانضم وخنس وتضاءل لذكر الله فهو دائما بين الوسوسة والخنس وقال
عروة بن رويم أن المسيح صلى الله عليه وسلم سأل ربه أن يريه موضع الشيطان من ابن آدم فجلى له فإذا رأسه
رأس الحية واضع رأسه على ثمرة القلب فإذا ذكر العبد ربه خنس وإذا لم يذكره وضع رأسه على ثمرة قلبه
فمناه وحدثه وقد روي في هذا المعنى حديث مرفوع فهو دائما يترقب غفلة العبد فيبذر في قلبه
بذر الأماني والشهوات والخيالات الباطلة فيثمر كل حنظلة وكل شوك وكل بلاء ولا يزال يمده بسقيه
حتى يغطي القلب ويعميه وأما الكسل فيتولد عنه الإضاعة والتفريط والحرمان وأشد الندامة وهو مناف
للإرادة والعزيمة التي هي ثمرة العلم فإن من علم أن كماله ونعيمه في شيء طلبه بجهده وعزم عليه بقلبه كله
فإن كل أحد يسعى في تكميل نفسه ولذته ولكن أكثرهم أخطأ الطريق لعدم علمه بما يسعى أن يطلبه فلما رأى أنه مسبوق
بالعلم والتصور فتخلفه في الغالب إنما يكون لتخلف العلم والإدراك وإلا فمع العلم التام بأن سعادة العبد في هذا
المطلب ونجاته وفوزه كيف يلحقه كسل في النهوض إليه ولهذا استعاذ النبي صلى الله عليه وسلم من الكسل
في الصحيح عنه أنه كان يقول اللهم إني أعوذ بك من الهم والحزن والعجز والكسل والجبن والبخل وضلع الدين

وغلبة

وغلبة الرجال فاستعاذ من ثمانية أشياء كل شيئين منها قرينان فالهم والحزن قرينان والفرق بينهما أن المكروه الوارد
على القلب إما أن يكون على أمر ماض أو لما يستقبل فالأول هو الحزن والثاني الهم وإن شئت قلت الحزن
على المكروه الذي فات ولا يتوقع دفعه والهم على المكروه المنتظر الذي يتوقع دفعه وتأمله
والعجز والكسل قرينان فإن تخلف مصلحة العبد وكماله ولذته وسروره عنه إما أن يكون مصدره عدم
القدرة فهو العجز أو يكون قادرا عليه لكن تخلف لعدم إرادته فهو الكسل وصاحبه يلام عليه
ما لا يلام على العجز وقد يكون العجز ثمرة الكسل فيلام عليه أيضا فكثيرا ما يكسل المرء عن الشيء الذي
هو قادر عليه وتضعف عنه إرادته فيفضي به إلى العجز عنه وهذا هو العجز الذي يلوم الله عليه
في قول النبي صلى الله عليه وسلم إن الله يلوم على العجز وإلا فالعجز الذي لم يخلق له قدرة على دفعه ولا يدخل معجوزه
تحت القدرة لا يلام عليه **وقال** بعض الحكماء في وصيته إياك والكسل والضجر
فإن الكسل لا ينهض لمكرمة والضجر إذا نهض إليها لا يصبر عليها والضجر متولد عن الكسل والعجز فلم يفرده في
الحديث بلفظ ثم ذكر الجبن والبخل فإن الإحسان المتوقع من العبد إما بماله وإما ببدنه فالبخيل مانع لنفع ماله
والجبان مانع لنفع بدنه والمشهور عند الناس أن البخل يستلزم الجبن من غير عكس لأن من بخل بماله فهو بنفسه أبخل
والشجاعة تستلزم الكرم من غير عكس لأن من جاد بنفسه فهو بماله أسمح وأجود وهذا الذي قالوه
ليس بلازم وإن كان أكثريا فإن الشجاعة والكرم وأضدادهما أخلاق وغرائز قد تجمع في الرجل وقد
تعطى بعضها دون بعض وقد شاهد الناس من أهل الإقدام والشجاعة والبأس من هو أبخل الناس
وهذا كثيرا ما يوجد في أمة الترك يكون أشجع من ليث وأبخل من كلب فالرجل قد يسمح بنفسه ويبخل
بماله ولهذا يقاتل عليه حتى يقتل فيبذل نفسه دونه فمن الناس من يسمح بنفسه وماله ومنهم
من يبخل بنفسه ومنهم من يسمح بماله ويبخل بنفسه وعكسه والأقسام الأربعة موجودة في الناس ثم ذكر
ضلع الدين وغلبة الرجال فإن القهر الذي ينال العبد نوعان أحدهما قهر بحق وهو ضلع الدين والثاني
قهر بباطل وهو غلبة الرجال فصلوات الله وسلامه على من أوتي جوامع الكلم واقتبست كنوز العلم والحكم
من ألفاظه **والمقصود** أن الغفلة والكسل اللذين هما أصل الحرمان سببهما عدم العلم فعاد
النقص كله إلى عدم العلم والعزيمة والكمال كله إلى العلم والعزيمة والناس في هذا على أربعة أضرب
الضرب الأول من رزق علما وأعين على ذلك بقوة العزيمة على العمل وهذا الضرب
خلاصة الخلق وهم الموصوفون في القرآن بقوله الذين آمنوا وعملوا الصالحات وقوله أولي الأيدي والأبصار
وبقوله أومن كان ميتا فأحييناه وجعلنا له نورا يمشي به في الناس كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها فإن

بالحياة نال العربية وبالنور نال العلم وايمة هذا الضرب هم اولوا العزم من الرسل **الضرب**
الثاني من حرم هذا وهذا وهم الموصوفون بقوله تعالى ان شر الدواب عند الله الصم البكم الذين
لا يعقلون وبقوله ام تحسب ان اكثرهم يسمعون او يعقلون ان هم الا كالانعام بل هم اضل سبيلا
وبقوله انك لا تسمع الموتى ولا تسمع الصم الدعاء وقوله وما انت بمسمع من في القبور وهذا
الصنف شر البرية يضيقون الديار ويغلون الاسعار وعند انفسهم انهم يعلمون ولكن ظاهرا من الحياة
الدنيا وهم عن الاخرة هم غافلون ويتعلمون ولكن ما يضرهم ولا ينفعهم وينطقون ولكن عن الهوى ينطقون
ويتكلمون ولكن بالجهل يتكلمون ويومنون ولكن بالجبت والطاغوت ويعبدون ولكن يعبدون من
دون الله ما لا يضرهم ولا ينفعهم ويجادلون ولكن بالباطل ليدحضوا به الحق ويتفكرون ويبيتون ولكن ما لا
يرضى من القول ويدعون ولكن مع الله الها اخر يدعون ويذكرون ولكن اذا ذكروا لا
يذكرون ويصلون ولكنهم من المصلين الذين هم عن صلاتهم ساهون الذين هم يراوون ويمنعون الماعون
ويحكمون ولكن حكم الجاهلية يبغون ويكتبون الكتاب بايديهم ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمنا ولا يذكرون م
قليلا فويل لهم مما كتبت ايديهم وويل لهم مما يكسبون ويقولون انما نحن مصلحون الا انهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون
هذا الضرب ناس بالصورة وشياطين بالحقيقة

وجلهم او اذا فكرت فيهم حمير او كلاب او ذئاب

وصدق البحتري في قوله لم يبق من جل هذا الناس باقية ينالها الوهم الا هذه الصور
وقال اخر لا تخدعنك اللحى ولا الصور تسعة اعشار من ترى بقر
في شجر السرو منهم مثل له رواء وما له ثمر

واحسن من هذا كله قوله تعالى واذا رايتهم تعجبك اجسامهم وان يقولوا تسمع لقولهم كانهم خشب مسندة
عالمهم كما قيل فيه زوامل للاشعار لا علم عندهم بجيدها الا كعلم الاباعر
لعمرك ما يدري البعير اذا غدا باوساقه او راح ما في الغرائر

واحسن من هذا وابلغ وافصح قوله تعالى كمثل الحمار يحمل اسفارا بئس مثل القوم الذين كذبوا بايات الله
والله لا يهدي القوم الظالمين **الضرب** الثالث من فتح له باب العلم واغلق عليه باب
العزم والعمل فهذا في رتبة الجاهل او شر منه وفي الحديث المرفوع اشد الناس عذابا يوم القيامة
عالم لم ينفعه الله بعلمه ذكره ابو نعيم وغيره فهذا جهله كان خيرا له واخف لعذابه من علمه فما زاده
العلم الا وبالا وعذابا ومع هذا فلا مطمع في صلاحه فان التائه عن الطريق يرجى له العود اليها اذا ابصرها

فاذا

فاذا عرفها وحاد عنها عمدا فمتى ترجى هدايته قال تعالى كيف يهدي الله قوما كفروا بعد ايمانهم
وشهدوا ان الرسول حق وجاءهم البينات والله لا يهدي القوم الظالمين **الضرب**
الرابع من رزق حظا من العزيمة والارادة ولكن قل نصيبه من العلم والمعرفة فهذا اذا وفق له
الاقتداء بداع من دعاة الله ورسوله كان من الذين قال الله فيهم ومن يطع الله والرسول فاولئك
مع الذين انعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن اولئك رفيقا ذلك
الفضل من الله وكفى بالله عليما رزقنا الله من فضله ولا حرمنا بسوء اعمالنا انه غفور رحيم
الوجه الثلاثون ان كل صفة مدح الله بها العبد في القران فهي ثمرة العلم ونتيجته وكل
ذم ذمه فهو ثمرة الجهل ونتيجته فمدحه بالايمان وهو راس العلم ولبه ومدحه بالعمل الصالح الذي ى
هو ثمرة العلم النافع ومدحه بالشكر والصبر والمسارعة في الخيرات والحب له والخوف
منه والرجاء والانابة والحلم والوقار واللب والعقل والعفة والكرم والايثار على النفس
والنصيحة لعباده والرحمة بهم والرافة وخفض الجناح والعفو عن مسيئهم والصفح عن جانيهم
وبذل الاحسان لكافتهم ودفع السيئة بالحسنة والامر بالمعروف والنهي عن المنكر والصبر في مواطن
الصبر والرضا بالقضاء واللين للاولياء والشدة على الاعداء والصدق في الوعد والوفاء بالعهد
والاعراض عن الجاهلين والقبول من الناصحين واليقين والتوكل والطمانينة والسكينة
والتواصل والتعاطف والعدل في الاقوال والافعال والاخلاق والقوة في امره والبصيرة في
دينه والقيام باداء حقه واستخراجه من المانعين له والدعوة اليه والى مرضاته وجنته والتحذ بد
عن سبل اهل الضلال وتبيين طرق الغي وحال سالكيها والتواصي بالحق والتواصي بالصبر والحض
على طعام المسكين وبر الوالدين وصلة الارحام وبذل السلام لكافة المومنين الى سائر الاخلاق
المحمودة والافعال المرضية التي اقسم الله سبحانه على عظمها فقال تعالى ن
والقلم وما يسطرون ما انت بنعمة ربك بمجنون وان لك لاجرا غير ممنون وانك لعلى خلق عظيم وقالت
عائشة رضي الله عنها وقد سئلت عن خلق رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت كان خلقه القران فاكتفى
بذلك السائل وقال فهممت ان اقوم ولا اسال عن شيء بعدها فهذه الاخلاق ونحوها
هي ثمرة شجرة العلم واما شجرة الجهل فتثمر كل ثمرة قبيحة من الكفر والفساد والشرك والظلم والبغي
والعدوان والجزع والهلع والكنود والعجلة والطيش والحدة والفحش والبذاء والشح والبخل
ولهذا قيل في حد البخل جهل مقرون بسوء الظن ومن ثمرة الغش للخلق والكبر عليهم ٢

والعجز والخلاء والعجب والرياء والسمعة والنفاق والمكر واخلاف الوعد والغلظة على الناس
والاستعلام ومقابلة الحسنة بالسيئة والامر بالمنكر والنهي عن المعروف وترك القبول من الناصحين وحب
غير الله ورجاءه والتوكل عليه وايثار رضاه على رضى الله وتقديم امره على امر الله والتماوت عند حق الله
والوثوب عند حق نفسه والغضب لها والانتصار لها فاذا انتهكت حقوق نفسه لم يقم لغضبه شيء
حتى يشتفي باكثر من حقه واذا انتهكت محارم الله لم ينبض له عرق غضب لله فلا قوة في امره ولا نصرة في دينه
ومن ثمرتها الدعوة الى سبيل الشيطان والى سلوك طرق البغي واتباع الهوى وايثار الشهوات على
الطاعات وقيل وقال وكثرة السؤال واضاعة المال ووأد البنات وعقوق الامهات وقطيعة
الارحام واساءة الجوار وركوب مراكب الخزي والعار وبالجملة فالخير بمجموعه ثمار تجتنى من شجرة العلم
والشر بمجموعه شوك يجتنى من شجرة الجهل ولو ظهرت صورة العلم للابصار لزاد حسنها على صورة الشمس
والقمر ولو ظهرت صورة الجهل للابصار لكان منظرها اقبح منظر بل كل خير في العالم فهو من آثار العلم
الذي جاءت به الرسل ومسبب عنه وكذلك كل خير يكون الى قيام الساعة وبعدها في القيامة وكل شر
وفساد حصل في العالم ويحصل الى قيام الساعة وبعدها في القيامة فسببه مخالفة ما جاءت به الرسل في
العلم والعمل ولو لم يكن للعلم الا انه مربٍّ وسائس ووزير لهذا العقل الذي به عمارة الدارين وهو الذي
ارشد الى طاعة الرسل وتسليم القلب والجوارح ونفسه اليهم وانقاد لحكمهم وعزل بغيره وسلم الامر الى
اهله لكفى به شرفا وفضلا وقد مدح الله سبحانه العقل واهله في كتابه في مواضع كثيرة منه وذم من لا عقل
لهم واخبر انهم اهل النار الذين لا سمع لهم ولا عقل فهو آلة كل علم وميزانه الذي به يعرف صحيحه من سقيمه
وراجحه من مرجوحه والمرآة التي يعرف بها الحسن من القبيح وقد قيل العقل ملك والبدن
روحه وحواسه وافعاله وحركاته كلها رعية له فاذا ضعف عن القيام عليها وتعهدها وصل الخلل
اليها كلها ولهذا قيل من لم يكن عقله اغلب خصال الخير عليه كان حتفه في اغلب خصال الشر
عليه وروي انه لما اهبط آدم من الجنة عليه السلام اتاه جبريل عليه الصلاة والسلام فقال
ان الله قد حباك بالعقل والدين والحياء لتختار واحدا منها فقال اخترت العقل فقال الدين والحياء امرنا
ان لا نفارق العقل حيث كان فانحازا اليه والعقل عقلان عقل غريزة وهو اب العلم ومربيه ومثمره وعقل
مكتسب مستفاد وهو ولد العلم وثمرته ونتيجته فاذا اجتمعا في العبد فذلك فضل الله يؤتيه من يشاء واستقام
له امره واقبلت عليه جيوش السعادة من كل جانب واذا فقدهما فالحيوان البهيم احسن حالا منه واذا
انفردا انتقص الرجل بنقصان احدهما ومن الناس من يرجح صاحب العقل الغريزي ومنهم من يرجح

صاحب

صاحب العقل المكتسب والتحقيق ان صاحب العقل الغريزي الذي لا علم ولا تجربة عنده آفته التي
يؤتى منها الاحجام وترك انتهاز الفرصة لان عقله يعقله عن انتهاز الفرصة لعدم علمه بها وصاحب
العقل المكتسب المستفاد يؤتى من الاقدام فان علمه بالفرص وطرقها يلقيه على المبادرة اليها وعقله
الغريزي لا يطيق رده عنها فهو غالبا يؤتى من اقدامه والاول من احجامه فاذا رزق العقل الغريزي
عقلا ايمانيا مستفادا من مشكاة النبوة لا عقلا معيشيا نفاقيا يظن اربابه انهم على شيء الا انهم هم الكاذبون
فانهم يرون العقل ان يرضوا الناس على طبقاتهم ويسالموهم ويستجلبون مودتهم ومحبتهم وهذا مع
انه لا سبيل اليه فهو ايثار للراحة والدعة ومؤنة الاذى في الله والموالاة فيه والمعاداة فيه وهو وان
كان اسلم عاجلة فهو الهلك في الآجلة فانه ما ذاق طعم الايمان من لم يوال في الله ويعادي في الله فالعقل
كل العقل ما اوصل الى رضى الله ورسوله والله الموفق المعين وفي حديث مرفوع ذكره ابن
عبد البر وغيره اوحى الله الى نبي من انبياء بني اسرائيل قل لفلان العابد اما زهدك في الدنيا فتعجلت به
الراحة واما انقطاعك الي فتعززت بي فما عملت فيما لي عليك قال وما لك علي قال هل واليت
في وليا او عاديت في عدوا وذكر ايضا انه اوحى الله الى جبريل عليه الصلاة والسلام ان اخسف بقرية
كذا وكذا قال يا رب ان فيهم فلانا العابد قال به فابدا انه لم يتمعر وجهه في يوما قط ه
الوجه الحادي والتسعون حديث ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم اذا
مررتم برياض الجنة فارتعوا قالوا يا رسول الله وما رياض الجنة قال حلق الذكر فان لله تبارك وتعالى
سيارات من الملائكة يطلبون حلق الذكر فاذا اتوا عليهم حفوا بهم قال عطاء مجالس الذكر
مجالس الحلال والحرام كيف تشتري وتبيع وتصوم وتصلي وتتصدق وتنكح وتطلق وتحج ذكره الخطيب
في كتاب الفقيه والمتفقه وقد تقدم بيانه الوجه الثاني والتسعون
ما رواه الخطيب ايضا عن ابن عمر يرفعه مجلس فقه خير من عبادة ستين سنة وفي رفعه نظر ه
الوجه الثالث والتسعون ما رواه ايضا من حديث عبد الرحمن بن عوف
رضي الله عنه يرفعه يسير الفقه خير من كثير العبادة ولا يصح رفعه الوجه
الرابع والتسعون ما رواه ايضا من حديث انس رضي الله عنه يرفعه فقيه افضل عند الله من الف
عابد وهو في الترمذي من حديث روح بن جناح عن مجاهد عن ابن عباس رضي الله عنهما مرفوعا وفي سنده
روح وفيه نظر والظاهر ان هذا من كلام الصحابة فمن دونهم الوجه الخامس
والتسعون ما رواه ايضا عن ابن عمر رضي الله عنهما يرفعه افضل العبادة الفقه ه

الوجه السادس والتسعون ما رواه ايضا من حديث نافع عن ابن عمر رضي الله عنهما يرفعه
ما عبد الله بشيء افضل من فقه في دين. الوجه السابع والتسعون ما رواه
علي رضي الله عنه انه قال العالم اعظم اجرا من الصائم القائم الغازي في سبيل الله. الوجه
الثامن والتسعون ما رواه المخلص عن ابن صاعد ثنا القاسم بن الفضل بن بزيع ثنا حجاج بن نصير — لطوس اصل ناس
حدثنا هلال بن عبد الرحمن الحنفي عن عطاء بن ابي ميمونة عن ابي هريرة وابي ذر انهما قالا لباب من العلم نتعلمه
احب الينا من الف ركعة تطوعا وباب من العلم نعلمه عمل به او لم يعمل احب الينا من مائة ركعة تطوعا
وقالا سمعنا رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول اذا جاء الموت طالب العلم وهو على هذه الحال مات شهيدا
ورواه ابن ابي داود عن شاذان عن حجاج به فذكره وشاهده ما مر من حديث الترمذي عن انس
رضي الله عنه يرفعه من خرج في طلب العلم فهو في سبيل الله حتى يرجع. الوجه التاسع والتسعون
ما رواه الخطيب ايضا عن ابي هريرة قال لان اعلم بابا من العلم في امر ونهي احب الي من سبعين غزوة في سبيل الله
وهذا ان صح فمعناه احب الي من سبعين غزوة بلا علم لان العمل بلا علم فساده اكثر من صلاحه ومن يريد
علما يعلمه ويعمله فيكون له اجر من عمل به الى يوم القيامة وهذا لا يحصل في الغزو المجرد
الوجه المائة ما رواه الخطيب ايضا عن ابي الدرداء رضي الله عنه انه قال مذاكرة
العلم ساعة خير من قيام ليلة. الوجه الحادي والمائة ما رواه عن الحسن قال لان اتعلم
بابا من العلم فاعلمه مسلما احب الي من ان تكون لي الدنيا كلها في سبيل الله. الوجه الثاني والمائة
قال مكحول ما عبد الله بافضل من الفقه. الوجه الثالث والمائة قال سعيد بن المسيب
رضي الله عنه ليست عبادة الله بالصوم والصلاة ولكن بالفقه في دينه وهذا الكلام يراد به امران احدهما
انها ليست بالصوم والصلاة الخاليين عن العلم ولكن بالفقه في الدين الذي يعلم به كيف الصوم والصلاة
والثاني انها ليست الصوم والصلاة فقط بل الفقه في دينه من اعظم عباداته. الوجه — غ
الرابع والمائة قال اسحاق بن عبد الله بن ابي فروة اقرب الناس من درجة النبوة العلماء واهل الجهاد
والعلماء دلوا الناس على ما جاءت به الرسل واهل الجهاد جاهدوا على ما جاءت به الرسل وقد تقدم
الكلام في تفضيل العالم على الشهيد وعكسه. الوجه الخامس والمائة قال سفيان بن عيينة
ارفع الناس عند الله منزلة من كان بين الله وبين عباده وهم الرسل والعلماء. الوجه
السادس والمائة قال محمد بن شهاب الزهري ما عبد الله بمثل الفقه وهذا الكلام ونحوه يراد به
ان ما تعبد الله بمثل ان يعبد بالفقه في الدين فيكون نفس التفقه عبادة كما قال معاذ بن جبل عليكم بالعلم

فان

فان طلبه لله عبادة وسيأتي ان شاء الله ذكر كلامه بتمامه وقد يراد به ان ما عبد الله بعبادة افضل من
عبادة يصحبها الفقه في الدين فالعبادة المقترنة بالفقه في دينه من ارفع العبادات ومعرفة اركانها وواجباتها وسننها
وما يكملها وما ينقصها وكلا المعنيين صحيح. الوجه السابع والمائة قال
سهل التستري رحمه الله تعالى من اراد النظر الى مجالس الانبياء فلينظر الى مجالس العلماء وهذا لان العلماء
خلفاء الرسل في اممهم ووارثوهم في علمهم فمجالسهم مجالس خلافة النبوة. الوجه الثامن
والمائة ان كثيرا من الائمة صرحوا بان افضل الاعمال بعد الفرائض طلب العلم فقال الشافعي رضي الله عنه
ليس شيء بعد الفرائض افضل من طلب العلم وهذا الذي ذكره اصحابه عنه انه مذهبه وكذلك قال
سفيان الثوري رضي الله عنه وحكاه الحنفية عن ابي حنيفة واما الامام احمد رضي الله عنه فحكي عنه
ثلث روايات احداهن انه العلم فانه قيل له اي شيء احب اليك اجلس بالليل انسخ او اصلي تطوعا قال
نسخك تعلم به امر دينك فهو احب الي وذكر الخلال عنه في كتاب العلم نصوصا كثيرة في
فضل العلم ومن كلامه فيه الناس الى العلم احوج منهم الى الطعام والشراب وقد تقدم والرواية — بيه
الثانية ان افضل الاعمال بعد الفرائض صلاة التطوع واحتج لهذه الرواية بقوله صلى الله عليه وسلم
واعلموا ان خير اعمالكم الصلاة وبقوله صلى الله عليه وسلم في حديث ابي ذر وقد سأله عن الصلاة
فقال خير موضوع وبانه اوصى من سأله مرافقته في الجنة بكثرة السجود وهو الصلاة وكذلك
قوله صلى الله عليه وسلم في الحديث الآخر عليك بكثرة السجود فانك لا تسجد لله سجدة الا رفعك الله
بها درجة وحط عنك بها خطيئة وما لها احاديث الدالة على تفضيل الصلاة والرواية الثالثة
انه الجهاد فانه قال لا اعدل بالجهاد شيئا ومن ذا يطيقه ولا ريب ان اكثر الاحاديث في الصلاة والجهاد
واما مالك رضي الله عنه فقال ابن القاسم سمعت مالكا يقول ان اقواما ابتغوا العبادة واضاعوا
العلم فخرجوا على امة محمد صلى الله عليه وسلم باسيافهم ولو ابتغوا العلم لحجزهم عن ذلك قال مالك كتب ابو
موسى الاشعري الى عمر بن الخطاب رضي الله عنهما انه قد قرأ القرآن عندنا عدد كذا وكذا فكتب اليه عمر ان
افرض لهم من بيت المال فلما كان في العام الثاني كتب اليه انه قد قرأ القرآن عندنا عدد كثير لاكثر من
ذلك فكتب اليه عمر ان امحهم من الديوان فاني اخاف ان يسرع الناس في القرآن ان يتفقهوا في الدين فيتأولوه
على غير تأويله وقال ابن وهب كنت بين يدي مالك بن انس فوضعت الواحي وقمت الى — ع
الصلاة فقال ما الذي قمت اليه بافضل من الذي تركته قال شيخنا قدس الله روحه وهذه
الامور الثلاثة التي فضل كل واحد من الائمة بعضها وهي الصلاة والعلم والجهاد هي التي قال فيها عمر بن

الخطاب رضي الله عنه لولا ثلاث في الدنيا لما احببت البقاء فيها لولا ان احمل او احمل جيشا في سبيل الله
ولولا مكابدة هذا الليل ولولا مجالسة اقوام ينتقون اطايب الكلام كما ينتقى اطايب التمر لما احببت
البقاء فالاول الجهاد والثاني قيام الليل والثالث مذاكرة العلم فاجتمعت في الصحابة كمالهم
وتفرقت فيمن بعدهم الوجه التاسع والمائة ما ذكره ابو نعيم وغيره عن بعض اصحاب رسول الله
صلى الله عليه وسلم انه قال فضل العلم خير من فضل العمل وخير دينكم الورع وقد روى هذا مرفوعا
من حديث عائشة رضي الله عنها وفي رفعه نظر وهذا الكلام هو فصل الخطاب في هذه المسألة فانه اذا
كان كل من العلم والعمل فرضا فلا بد منهما كالصوم والصلاة فاذا كانا فضلين وهما النفلان المتطوع
بهما ففضل العلم ونفله خير من فضل العبادة ونفلها لان العلم يعم نفعه صاحبه والناس معه والعبادة
يختص نفعها بصاحبها ولان العلم تبقى فائدته وعمله بعد موته والعبادة تنقطع عنه ولما مر من الوجوه السابقة
الوجه العاشر بعد المائة ما رواه الخطيب وابو نعيم وغيرهما عن معاذ بن جبل رضي الله عنه
قال تعلموا العلم فان تعلمه لله خشية وطلبه عبادة ومدارسته تسبيح والبحث عنه جهاد وتعليمه
لمن لا يعلمه صدقة وبذله لاهله قربة به يعرف الله ويعبد وبه يوحد وبه يعرف الحلال من الحرام
وتوصل الارحام وهو الانيس في الوحدة والصاحب في الخلوة والدليل على السراء والمعين على الضراء
والوزير عند الاخلاء والقريب عند الغرباء ومنار سبيل الجنة يرفع الله به اقواما فيجعلهم في الخير
قادة وسادة يقتدى بهم ادلة في الخير تقتص اثارهم وترمق افعالهم وترغب الملائكة في خلتهم وباجنحتها
تمسحهم يستغفر لهم كل رطب ويابس حتى حيتان البحر وهوامه وسباع البر وانعامه والسماء ونجومها
والعلم حياة القلوب من العمى ونور للابصار من الظلم وقوة للابدان من الضعف يبلغ به العبد منازل الابرار
والدرجات العلى التفكر فيه يعدل بالصيام ومدارسته بالقيام وهو امام للعمل والعمل تابعه
يلهمه السعداء ويحرمه الاشقياء هذا الاثر معروف عن معاذ ورواه ابو نعيم في المعجم من حديث
معاذ مرفوعا الى النبي صلى الله عليه وسلم ولا يثبت وحسبه ان يصل الى معاذ الوجه
الحادي عشر بعد المائة ما رواه يونس بن عبد الاعلى عن ابن وهب حدثني عمرو بن قيس عن يحيى بن العلاء
عن الحسن رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال من جاءه الموت وهو يطلب العلم ليحيي به الاسلام
فبينه وبين الانبياء في الجنة درجة النبوة وقد روى من حديث علي بن زيد بن جدعان عن سعيد بن
المسيب عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم وهذا وان كان لا يثبت اسناده فلا يبعد معناه
عن الصحة فان افضل الدرجات النبوة وبعدها الصديقية وبعدها الشهادة وبعدها الصلاح وهذه

الدرجات

الدرجات الاربع التي ذكرها الله تعالى في كتابه في قوله ومن يطع الله والرسول فاولئك مع الذين انعم
الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين فمن طلب العلم ليحيي به الاسلام فهو من الصديقين
ودرجته بعد درجة النبوة الوجه الثاني عشر بعد المائة قال الحسن رضي الله عنه
في قوله تعالى ربنا آتنا في الدنيا حسنة قال العلم والعبادة وفي الاخرة حسنة قال الجنة وهذا
من احسن التفسير فان اجل حسنات الدنيا العلم النافع والعمل الصالح الوجه الثالث
عشر بعد المائة قال ابن مسعود رضي الله عنه عليكم بالعلم قبل ان يرفع ورفعه هلاك العلماء
فوالذي نفسي بيده ليودن رجال قتلوا في سبيل الله شهداء ان يبعثهم الله علماء لما يرون من كرامتهم
وان احدا لم يولد عالما وانما العلم بالتعلم الوجه الرابع عشر بعد المائة قال
ابن عباس وابو هريرة وبعدهما احمد بن حنبل تذاكر العلم بعض ليلة احب الينا من احيائها
الوجه الخامس عشر بعد المائة قال عمر رضي الله عنه ايها الناس عليكم بالعلم فان لله
سبحانه رداء يحبه فمن طلب بابا من العلم رداه الله بردائه فان اذنب ذنبا استعتبه فان اذنب
ذنبا استعتبه لئلا يسلبه رداءه ذلك حتى يموت به قلت ومعنى استعتاب الله عبده ان يطلب
منه ان يعتبه اي يزيل عتبه عليه بالتوبة والاستغفار والانابة فاذا اناب اليه رفع عنه عتبه
فيكون قد اعتبه اي ازال عتبه عليه والرب تعالى قد استعتبه اي طلب منه
ان يعتبه ومن هذا قول ابن مسعود رضي الله عنه وقد وقعت زلزلة بالكوفة ان ربكم يستعتبكم
فاعتبوه وهذا هو الاستعتاب الذي نفاه سبحانه في الاخرة في قوله فاليوم لا يخرجون منها ولا هم
يستعتبون اي لا يطلب منهم ازالة عتبنا عليهم فان ازالته انما تكون بالتوبة وهي لا تنفع في الاخرة
وهذا غير استعتاب العبد ربه كما في قوله تعالى فان يصبروا فالنار مثوى لهم وان يستعتبوا فما هم
من المعتبين فهذا معناه ان يطلبوا ازالة عتبنا عليهم والعفو فما هم من المعتبين اي ما هم ممن
يزال العتب عنهم وهذا الاستعتاب ينفع في الدنيا دون الاخرة الوجه السادس عشر
بعد المائة قال عمر رضي الله عنه موت الف عابد اهون من موت عالم بصير بحلال الله وحرامه
ووجه قول عمر ان هذا العالم يهدم على ابليس كلما يبنيه بعلمه وارشاده والعابد نفعه
مقصور على نفسه الوجه السابع عشر بعد المائة قول بعض السلف اذا اتى
علي يوم لا ازداد فيه علما يقربني الى الله فلا بورك لي في طلوع شمس ذلك اليوم وقد رفع هذا
الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ورفعه اليه باطل وحسبه ان يصل الى احد الصحابة او التابعين

لعله عنهم

الدنيا بأبدان أرواحها معلقة بالملأ الأعلى أولئك خلفاء الله في أرضه والدعاة إلى دينه هاه هاه
شوقاً إلى رؤيتهم واستغفر الله لي ولك إذا شئت فقم ذكره أبو نعيم في الحلية وغيره قال
أبو بكر الخطيب هذا حديث حسن من أحسن الأحاديث معنى وأشرفها لفظاً وتقسيم أمير المؤمنين للناس أوله
تقسيم في غاية الصحة ونهاية السداد لأن الإنسان لا يخلو من أحد الأقسام التي ذكرها مع كمال العقل وإزاحة
العلل إما أن يكون عالماً أو متعلماً أو مغفلاً للعلم وطلبه ليس بعالم ولا طالب له فالعالم الرباني هو الذي
لا زيادة على فضله لفاضل ولا منزلة فوق منزلته لمجتهد وقد دخل في الوصف له بأنه رباني وصفه بالصفات
التي يقتضيها العلم لأهله ويمنع وصفه بما خالفها ومعنى الرباني في اللغة الرفيع الدرجة في العلم العالي
المنزلة فيه وعلى ذلك حملوا قوله تعالى لولا ينهاهم الربانيون وقوله كونوا ربانيين قال
حكماء فقهاء وقال أبو رزين فقهاء علماء وقال أبو عمر الزاهد سألت ثعلباً عن هذا
الحرف وهو الرباني فقال سألت ابن الأعرابي فقال إذا كان الرجل عالماً عاملاً معلماً قيل له هذا
رباني فإن خرم عن خصلة منها لم يقل له رباني وقال ابن الأنباري عن النحويين إن الربانيين
منسوبون إلى الرب وأن الألف والنون زيدتا للمبالغة في النسب كما تقول لحياني إذا كان
عظيم اللحية والجمة وأما المتعلم على سبيل النجاة فهو الطالب بتعلمه والقاصد به نجاته من التفريط في
تضييع الفروض الواجبة عليه والرغبة بنفسه عن إهمالها واطراحها والأنفة من مجانسة البهائم قال
وقد نفى بعض المتقدمين عن الناس من لم يكن من أهل العلم وأما القسم الثالث فهم المهملون لأنفسهم
الراضون بالمنزلة الدنية والحال الخسيسة التي هي في الحضيض الأوهد والهبوط الأسفل التي لا منزلة
بعدها في الجهل ولا دونها في السقوط وما أحسن ما شبههم بالهمج الرعاع وبه يشبه دناة الناس وأراذلهم
والرعاع المتبدد المتفرق والناعق الصائح وهو في هذا الموضع الداعي يقال نعق الراعي بالغنم
ينعق إذا صاح بها ومنه قوله تعالى ومثل الذين كفروا كمثل الذي ينعق بما لا يسمع إلا دعاء ونداء
صم بكم عمي فهم لا يعقلون ونحن نشير إلى بعض ما في هذا الحديث من الفوائد فقوله رضي الله عنه
القلوب أوعية القلب يشبه بالوعاء والإناء والوادي لأنه وعاء للخير والشر وفي بعض الآثار
إن لله في أرضه آنية وهي القلوب فخيرها أرقها وأصلبها وأصفاها فهي أواني مملوءة من الخير وأواني
مملوءة من الشر كما قال بعض السلف قلوب الأبرار تغلي بالبر وقلوب الفجار تغلي بالفجور وفي مثل
هذا قيل المثل   وكل إناء بالذي فيه ينضح
وقال تعالى أنزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها شبه العلم بالماء النازل من السماء والقلوب

في سعتها

في سعتها وضيقها بالأودية فقلب كبير واسع يسع علماً كثيراً كواد كبير واسع يسع ماء كثيراً وقلب
صغير ضيق يسع علماً قليلاً كواد صغير ضيق يسع ماء قليلاً ولهذا قال النبي صلى الله عليه وسلم لا
تسموا العنب الكرم فإن الكرم قلب المؤمن فإنهم كانوا يسمون شجر العنب الكرم لكثرة منافعه وخيره والكرم
كثرة الخير والمنافع فأخبرهم أن قلب المؤمن أولى بهذه التسمية لكثرة ما فيه من الخير والبر والمنافع
وقوله فخيرها أوعاها يريد به أسرعها وعياً وأكثرها وعياً وأثبتها وعياً ويراد به أيضاً أحسنها
وعياً فيكون حسن الوعي الذي هو إيعاء ما يقال له في قلبه وهو سرعته وكثرته وثباته والوعاء من آلة
الوعي فإنه آلة ما يوعى فيه كالغطاء والغرائر والبساط ونحوها ويوصف بذلك القلب والأذن كقوله
تعالى إنا لما طغى الماء حملناكم في الجارية لنجعلها لكم تذكرة وتعيها أذن واعية قال
قتادة أذن سمعت وعقلت عن الله ما سمعت وقال الفراء لتحفظها كل أذن فتكون عظة لمن يأتي
بعد فالوعي يوصف به الأذن كما يوصف به القلب يقال قلب واع وأذن واعية لما بين الأذن
والقلب من الارتباط فالعلم يدخل من الأذن إلى القلب فهي بابه والرسول الموصل إليه العلم كما أن اللسان
رسوله المؤدي عنه ومن عرف ارتباط الجوارح بالقلب علم أن الأذن أحقها بأن توصف بالوعي وأنها إذا
وعت وعى القلب وفي حديث جابر في المثل الذي ضربته الملائكة للنبي صلى الله عليه وسلم
ولأمته ويقول الملك له اسمع سمعت أذنك واعقل عقل قلبك فلما كان القلب وعاء والأذن مدخل ذلك
الوعاء وبابه كان حصول العلم موقوفاً على حسن الاستماع وعقل القلب والعقل هو ضبط ما وصل
إلى القلب وإمساكه حتى لا يتفلت ومنه عقل البعير والدابة والعقال لما يعقل به وعقل الإنسان
سمي عقلاً لأنه يعقله عن اتباع الغي والهلاك ولهذا سمي حجراً لأنه يمنع صاحبه كما يمنع الحجر
ما وراءه فعقل الشيء أخص من علمه ومعرفته لأن صاحبه يعقل ما علمه فلا يدعه يذهب كما تعقل
الدابة التي يخاف شرودها وللإدراك مراتب بعضها أقوى من بعض فأولها الشعور ثم الفهم ثم المعرفة
ثم العلم ثم العقل ومرادنا بالعقل المصدر لا القوة الغريزية التي جعلها الله في الإنسان فخير
القلوب ما كان واعياً للخير ضابطاً له وليس كالقلب القاسي الذي لا يقبله فهذا قلب
حجري ولا كالمائع الأخرق الذي يقبل ولكن لا يحفظ ولا يضبط فتفهيم الأول كالرقم في الحجر
وتفهيم الثاني كالرقم على الماء بل خير القلوب ما كان ليناً صلباً يقبل بلينه ما ينطبع فيه
ويحفظ صورته بصلابته فهذا تنبيه كالرقم في الشمع وشبهه وقوله الناس ثلاثة
فعالم رباني ومتعلم على سبيل نجاة وهمج رعاع هذا تقسيم حاصر للناس وهو الواقع فإن العبد إما

حاصل له

ان يكون قد حصل كماله من العلم والعمل اولا فالاول العالم الرباني والثاني اما ان يكون نفسه متحركة
في طلب ذلك الكمال ساعية في ادراكه اولا فالثاني هو المتعلم على سبيل النجاة والثالث هو الهمج الرعاع
فالاول هو الواصل والثاني هو الطالب والثالث هو المحروم والعالم الرباني قال ابن عباس
رضي الله عنهما هو المعلم اخذه من التربية اي يربي الناس بالعلم ويربيهم به كما يربي الطفل ابوه وقال
سعيد بن جبير هو الفقيه العليم الحكيم قال سيبويه زادوا الالف والنون في الرباني اذا ارادوا
تخصيصا بعلم الرب تعالى كما قالوا شعراني ولحياني ومعنى قول سيبويه رحمه الله ان هذا العالم لما
نسب الى علم الرب تعالى الذي بعث به رسوله وخصصه نسب اليه دون سائر علم علماء الامة قال
الواحدي فالرباني على قوله منسوب الى الرب على معنى التخصيص بعلم الرب اي بعلم الشريعة وصفات الرب
تبارك وتعالى وقال المبرد الرباني الذي يرب العلم ويربي الناس به اي يعلمهم ويصلحهم وعلى
قوله فالرباني من رب يرب ربا اي تربية فهو منسوب الى التربية يربي علمه ليكمل ويتم بقيامه
عليه وتعاهده اياه كما يربي صاحب المال ماله ويربي الناس به كما يربي الاطفال اولياؤهم وليس هذا
من قوله وكاين من نبي قتل معه ربيون كثير فالربيون هنا الجماعات باجماع المفسرين قيل انه من الربة
بكسر الراء وهي الجماعة قال الجوهري الربي واحد الربيين وهم الالوف
من الناس قال تعالى وكاين من نبي قتل معه ربيون كثير فما وهنوا لما اصابهم ولا يوصف العالم
بكونه ربانيا حتى يكون عاملا بعلمه معلما له فهذا قسم والقسم الثاني متعلم على سبيل نجاة اي قاصدا
بعلمه النجاة وهو المخلص في تعلمه المتعلم ما ينفعه العامل بما علمه فلا يكون المتعلم على سبيل نجاة الا بهذه الامور
الثلاثة فانه ان تعلم ما يضره ولا ينفعه لم يكن على سبيل نجاة وان تعلم ما ينفع به لا للنجاة وكذلك وان تعلمه
ولم يعمل به لم يحصل له النجاة ولهذا وصفه بكونه على السبيل اي على الطريق التي تنجيه وليس من حرف
على وما عمل فيه متعلقا بتعلم الا على وجه التضمين اي متفتش متطلع على سبيل نجاته ليسلكه فتعلمه تفتيش
على سبيل نجاته فهذه في الدرجة الثانية وليس من تعلمه ليماري به السفهاء او يجاري به العلماء او
يصرف وجوه الناس اليه فان هذا من اهل النار كما جاء في الحديث رواه ابو نعيم وابو عمرو بن الصلاح وغيرهما
قال ابن الصلاح وثبت ابو نعيم ايضا قوله صلى الله عليه وسلم من تعلم علما مما يبتغى به وجه الله لا يتعلمه
الا ليصيب به عرضا من الدنيا لم يجد رائحة الجنة قال وثبت ايضا قوله صلى الله عليه وسلم اشد
الناس عذابا يوم القيامة عالم لم ينفعه الله بعلمه فهولاء ليس فيهم من هو على سبيل نجاة بل على سبيل الهلكة
نعوذ بالله من الخذلان القسم الثالث المحروم المعرض فلا عالم ولا متعلم بل همج رعاع والهمج من الناس

حمقاهم

حمقاهم وجهلتهم واصله من الهمج جمع همجة وهو ذباب صغير كالبعوض يسقط على وجوه الغنم والدواب
واعينها فشبه همج الناس به والهمج ايضا مصدر قال الراجز

قد هلكت جارتنا من الهمج
وان تجع تاكل عتودا او بذج

والهمج هنا مصدر ومعناه سوء التدبير في المعيشة وقولهم همج هامج مثل ليل لايل والرعاع من
الناس الحمقى الذين لا يعتد بهم وقوله اتباع كل ناعق اي من صاح بهم ودعاهم تبعوه سواء دعاهم الى
هدى او ضلال فانهم لا علم لهم بالذي يدعون اليه احق هو ام باطل فهم مستجيبون لدعوته وهولاء
من اضر الخلق على الاديان فانهم الاكثرون عددا الاقلون عند الله قدرا وهم حطب كل فتنة
بهم توقد ويشب ضرامها فانها يعتزلها اولو الدين ويتولاها الهمج الرعاع وسمي داعيهم ناعقا
تشبيها لهم بالانعام التي ينعق بها الداعي فتذهب معه اين ذهب قال تعالى ومثل
الذين كفروا كمثل الذي ينعق بما لا يسمع الا دعاء ونداء صم بكم عمي فهم لا يعقلون وهذا
الذي وصفهم به امير المؤمنين هو من عدم علمهم وظلمة قلوبهم فليس لهم نور ولا بصيرة يفرقون
بها بين الحق والباطل بل الكل عندهم سواء وقوله رضي الله عنه يميلون مع كل ريح
وفي لفظ مع كل صائح شبه عقولهم الضعيفة بالغصن الضعيف وشبه الاهوية والاراء
بالرياح والغصن يميل مع الريح حيث مالت وعقول هولاء تميل مع كل هوى وكل داع ولو
كانت عقولا كاملة كانت كالشجرة الكبيرة التي لا تتلاعب بها الرياح وهذا بخلاف المثل الذي ضربه
النبي صلى الله عليه وسلم للمومن بالخامة من الزرع تفيئها الرياح مرة وتقيمها اخرى والمنافق كشجرة
الارز التي لا تنقطع حتى تستحصد فان هذا المثل ضرب للمومن وما يلقاه من عواصف البلاء والاوجاع
والاوجال وغيرها فلا يزال بين عافية وبلاء ومحنة ومنحة وصحة وسقم وامن وخوف وغير
ذلك فيقع مرة ويقوم اخرى ويميل تارة ويعتدل اخرى فيكفى بالبلاء ويمحص ويخلص من
كدره والكافر كله خبث ولا يصلح الا للوقود فليس في اصابته في الدنيا بانواع البلاء من الحكمة
والرحمة ما في اصابة المومن فهذه حال المومن في البلاء واما مع الاهواء ودعاة الفتن
والضلال والبدع فكما قيل

تزول الجبال الراسيات وقلبه
على العهد لا يلوي ولا يتغير

وقوله رضي الله عنه لم يستضيئوا بنور العلم ولم يلجأوا الى ركن وثيق بين
السبب الذي جعلهم بتلك المثابة وهو انه لم يحصل لهم من العلم نور يفرقون به بين الحق والباطل كما قال

تعالى يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وآمنوا برسوله يؤتكم كفلين من رحمته ويجعل لكم نورا تمشون به
وقال تعالى أومن كان ميتا فأحييناه وجعلنا له نورا يمشي به في الناس كمن مثله في الظلمات
ليس بخارج منها وقوله يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور
بإذنه وقوله تعالى ولكن جعلناه نورا نهدي به من نشاء من عبادنا فإذا عدم القلب هذا النور
صار بمنزلة الحيوان الذي لا يدري أين يذهب فهو لحيرته وجهله بطريق مقصده يؤم كل صوت
يسمعه ولم يسكن قلوبهم من العلم ما يمتنع به من دعاة الباطل فإن الحق متى استقر في القلب قوي به
وامتنع مما يضره ويهلكه ولهذا سمى الله الحجة العلمية سلطانا وقد تقدم ذلك فالعبد
يؤتى من ظلمة بصيرته ومن ضعف قلبه فإذا استقر فيه العلم النافع استنارت بصيرته وقوي قلبه
وهذان الأصلان هما قطبا السعادة أعني العلم والقوة وقد وصف بهما سبحانه المعلم الأول
جبريل صلوات الله وسلامه عليه إن هو إلا وحي يوحى علمه شديد القوى وقال تعالى في
سورة التكوير إنه لقول رسول كريم ذي قوة عند ذي العرش مكين فوصفه بالعلم والقوة وفيه معنى أحسن
من هذا وهو الأشبه بمراد علي رضي الله عنه وهو أن هؤلاء ليسوا من أهل البصائر الذين استضاؤوا
بنور العلم ولا لجأوا إلى عالم مستبصر فقلدوه فلا مستبصرين ولا متبعين لمستبصر فإن الرجل إما أن يكون
بصيرا أو أعمى متمسكا ببصير يقوده أو أعمى يسير بلا قائد قوله رضي الله عنه
العلم خير من المال العلم يحرسك وأنت تحرس المال يعني أن العلم يحفظ صاحبه ويحميه من موارد الهلكة
ومواقع العطب فإن الإنسان لا يلقي نفسه في هلكة إذا كان عقله معه ولا يعرضها لتلف إلا إذا
كان جاهلا بذلك لا علم له فهو كمن يأكل طعاما مسموما فالعالم بالسم وضرره يحرسه علمه ويمنعه من أكله به
والجاهل به يقتله جهله فهذا مثل حراسة العلم للعالم وكذا الطبيب الحاذق يمنعه علمه من كثير
مما يجلب له الأمراض والأسقام وكذا العالم بمخاوف طريق سلوكه ومعاطبها يأخذ حذره منها
فيحرسه علمه من الهلاك وهكذا العالم بالله وبأمره وبعدوه ومكايده ومداخله على العبد يحرسه
علمه من وساوس الشيطان وخطراته وإلقاء الشكوك والريب والكفر في قلبه فهو بعلمه يمنع من قبول
ذلك فعلمه يحرسه من الشيطان وكلما جاء ليأخذه صاح به حرس العلم والإيمان فيرجع خاسئا خاسرا
وأعظم ما يحرسه من هذا العدو المبين العلم والإيمان فهذا السبب الذي من العبد والله من وراءه
حفظه وحراسته وكلايته متى وكله إلى نفسه طرفة عين تخطفه عدوه قال
بعض العارفين أجمع العارفون على أن التوفيق أن لا يكلك الله إلى نفسك وأجمعوا على أن الخذلان أن يخلي

بينك

الانفاق

بينك وبين نفسك قوله رضي الله عنه العلم يزكو على العمل والمال تنقصه
النفقة يعني العالم كلما بذل علمه للناس وأنفق منه تفجرت ينابيعه وازداد كثرة وقوة وظهورا فيكتسب
بتعليمه حفظ ما علمه ويحصل له علم ما لم يكن عنده وربما تكون المسألة في نفسه غير مكشوفة ولا
خارجة من حيز الإشكال فإذا تكلم بها وعلمها اتضحت له وأضاءت وانفتح له منها علوم أخر وأيضا
فإن الجزاء من جنس العمل فكما علم الخلق من جهالتهم جزاه الله بأن علمه من جهالته كما في صحيح مسلم
من حديث عياض بن حمار عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال في حديث طويل وإن الله قال لي أنفق
أنفق عليك وهذا يتناول نفقة العلم إما بلفظه وإما بمعناه وإشارته وفحواه ولزكاء العلم
ونموه طريقان أحدهما تعليمه والثاني العمل به فإن العمل به أيضا ينميه ويكثره ويفتح لصاحبه
أبوابه وخباياه وقوله والمال تنقصه النفقة لا ينافي قول النبي صلى الله عليه وسلم ما نقصت
صدقة من مال فإن المال إذا تصدق منه وأنفقت ذهب ذلك القدر وخلفه غيره وأما العلم
فكالقبس من النار لو اقتبس منها العالم لم يذهب منها شيء بل يزيد العلم بالاقتباس منه فهو كالعين
التي كلما أخذ منها قوي ينبوعها وجاش معينها وفضل العلم على المال يعلم من وجوه أحدها
أن العلم ميراث الأنبياء والمال ميراث الملوك والأغنياء الثاني أن العلم يحرس صاحبه
وصاحب المال يحرس ماله الثالث أن المال تذهبه النفقات والعلم يزكو على النفقة
الرابع أن صاحب المال إذا مات فارقه ماله والعلم يدخل معه قبره الخامس أن
العلم حاكم على المال والمال لا يحكم على العلم السادس أن المال يحصل للمؤمن والكافر
والبر والفاجر والعلم النافع لا يحصل إلا للمؤمن السابع أن العالم يحتاج إليه الملوك فمن دونهم
وصاحب المال إنما يحتاج إليه أهل العدم والفاقة الثامن أن النفوس تشرف وتزكو بجمع العلم
وتحصيله وذلك من كمالها وشرفها والمال لا يزكيها ولا يكملها ولا يزيدها صفة كمال بل النفس تنقص
وتشح وتبخل بجمعه والحرص عليه فحرصها على العلم عين كمالها وحرصها على المال عين نقصها
التاسع أن المال يدعوها إلى الطغيان والفخر والخيلاء والعلم يدعوها إلى التواضع والقيام
بالعبودية فالمال يدعوها إلى صفات الملوك والعلم يدعوها إلى صفات العبيد العاشر
أن العلم جاذب موصل لها إلى سعادتها التي خلقت لها والمال حجاب بينها وبينها الحادي عشر
أن غنى العلم أجل من غنى المال فإن غنى المال غنى بأمر خارج عن حقيقة الإنسان لو ذهب في ليلة أصبح
فقيرا معدما وغنى العلم لا يخشى عليه الفقر بل هو في زيادة أبدا فهو الغنى العالي حقيقة كما قيل

غنيت بلا مال عن الناس كلهم وان الغنى العالي عن الشيء لا به

الثاني عشر ان المال يستعبد محبه وصاحبه فيجعله عبدا له كما قال النبي صلى الله عليه وسلم تعس عبد الدينار تعس عبد الدرهم الحديث والعلم يستعبده لربه وخالقه فهو لا يدعو الا الى عبودية الله وحده الثالث عشر ان حب العلم وطلبه اصل كل طاعة وحب الدنيا والمال وطلبه اصل كل سيئة الرابع عشر ان قيمة الغني ماله وقيمة العالم علمه فهذا متقوم بماله فاذا عدم ماله عدمت قيمته فبقي بلا قيمة والعالم لا تزول قيمته بل هي في تضاعف وزيادة دائما الخامس عشر ان جوهر المال من جنس جوهر البدن وجوهر العلم من جنس جوهر الروح كما قال يونس بن حبيب علمك من روحك ومالك من بدنك والفرق بين الامرين كالفرق بين الروح والبدن السادس عشر ان العالم لو عرض عليه بحظه من العلم الدنيا بما فيها لم يرضها عوضا من علمه والغني العاقل اذا راى شرف العالم وفضله وابتهاجه بالعلم وكماله به يود لو ان له علمه بغناه اجمع السابع عشر انه ما اطاع الله احد قط الا بالعلم وعامة من يعصيه انما يعصيه بالمال الثامن عشر ان العالم يدعو الناس الى الله بعلمه وحاله وجامع المال يدعوهم الى الدنيا بحاله وماله ن التاسع عشر ان غنى المال قد يكون سبب هلاك صاحبه كثيرا فانه معشوق النفوس فاذا رات من يستاثر بمعشوقها عليها سعت في هلاكه كما هو الواقع واما غنى العلم فسبب حياة الرجل وحياة غيره والناس اذا راوا من يستاثر عليهم به ويطلبه احبوه وخدموه واكرموه العشرون ان اللذة الحاصلة من غنى المال اما لذة وهمية واما لذة بهيمية فان صاحبه ان التذ بنفس جمعه وتحصيله فتلك لذة وهمية خيالية وان التذ بانفاقه في شهواته فهي لذة بهيمية واما لذة العلم فلذة عقلية روحية وهي تشبه لذة الملائكة وبهجتها وفرق ما بين اللذتين الحادي والعشرون ان عقلاء الامم مطبقون على ذم الشره في جمع المال الحريص عليه وتنقصه والازراء به ومطبقون على تعظيم الشره على جمع العلم وتحصيله ومدحه ومحبته ورؤيته بعين الكمال الثاني والعشرون انهم مطبقون على تعظيم الزاهد في المال المعرض عن جمعه الذي لا يلتفت اليه ولا يجعل قلبه عبدا له ومطبقون على ذم الزاهد في العلم الذي لا يلتفت اليه ولا يحرص عليه الثالث والعشرون ان المال انما يمدح صاحبه بتخليه منه واخراجه والعلم انما يمدح بتحليه به واتصافه به الرابع والعشرون ان غنى المال مقرون بالخوف والحزن فهو حزين قبل حصوله خائف بعد حصوله وكلما كان اكثر كان الخوف اقوى وغنى العلم مقرون بالامن والفرح والسرور الخامس والعشرون ان الغني بماله لا بد ان

الرابع عشر

خيالية

ذم في

كان في

يفارقه غناه فيتعذب ويتالم بمفارقته والغنى بالعلم لا يزول ولا يعدم صاحبه ولا يناله الم فوته الغنى بالمال لذة زائلة منقطعة يعقبها الالم وكذا الغنى بالعلم لذة باقية مستمرة لا يلحقها الم ن السادس والعشرون ان استلذاذ النفس وكمالها بالغنى استلذاذ بعارية مؤداة فتجملها بالمال تجمل بثوب مستعار لا بد ان يرجع الى مالكه يوما ما واما تجملها بالعلم وكمالها به فتجمل بصفة ثابتة لها راسخة فيها لا تفارقها السابع والعشرون ان الغنى بالمال هو عين فقر النفس والغنى بالعلم هو غناها الحقيقي فغناها بعلمها هو الغنى وغناها بمالها هو الفقر الثامن والعشرون ان من قدم واكرم لماله اذا زال ماله ذهب تقديمه واكرامه ومن قدم واكرم لعلمه لا يزداد الا اعزازا واكراما التاسع والعشرون ان تعظيم الرجل لماله هو عين ذمه فانه نداء عليه بنقصه وانه لولا ماله لكان مستحقا للاطراح والاهانة واما تقديمه واكرامه لعلمه فانه عين كماله اذ هو تقديم له بنفسه وصفته القائمة به لا بامر خارج عن ذاته الثلاثون ان طالب الكمال بغنى المال كالجامع بين الضدين فهو طالب ما لا سبيل اليه وبيان ذلك ان القدرة صفة كمال وصفة الكمال محبوبة بالذات والاستغناء عن الغير ايضا صفة كمال محبوبة بالذات فاذا مال الرجل بطبعه الى السخاوة والجود وفعل المكرمات فهذا كمال مطلوب للعقلاء محبوب للنفوس واذا التفت الى ان ذلك يقتضي خروج المال من يده وذلك يوجب نقصه واحتياجه الى الغير وزوال المقدرة نفرت نفسه عن الكرم والسخاء والجود واصطناع المعروف وظن ان كماله في امساك المال وهذه البلية من بلية عامة الخلق لا يتخلصون منها لاجل ميل الطبع الى حصول المدح والثناء والتعظيم بحب الجود والسخاء والمكارم ولاجل فوت اللذة الحاصلة بسبب اخراجه والحاجة المنافية لكمال الغنى بحب ابقاء ماله ويلزم السخاء والكرم والجود في قلبه واقعا بين هذين الداعيين يتجاذبانه ويعتوران عليه فيبقى القلب في مقام المعارضة بينهما فمن الناس من يترجح عنده جانب البذل والجود والكرم فيؤثره على الجانب الاخر ومنهم من يترجح عنده جانب الامساك وبقاء القدرة والغنى فيؤثره فهذان نظار العقلاء ومنهم من يسلط به الجهل والحماقة حتى يريد الجمع بين الوجهين فيعد الناس بالجود والسخاء والمكارم طمعا منه في فوزه بالمدح والثناء على ذلك وعند حضور الوقت لا يفي بما قال فيشح ويبذل الثناء ويمسك بقلبه ويده فيقع في انواع من القبائح والفضائح واذا تاملت احوال اهل الدنيا من الاغنياء رايتهم تحت اسر هذه البلية وهم غالبا يبكون ويشكون واما غنى العلم فلا يعرض له شيء من ذلك

ان في

امر ناسب

بل كلما بذله ازداد بذله فرحًا وسرورًا وابتهاجًا وان فاتته لذة اهل الغنى وتمتعهم باموالهم فهم ايضًا
قد فاتتهم لذة العلم اكمل وتمتعهم بعلومهم وابتهاجهم بها مع ان صاحب العلم من اسباب اللذة ما هو اعظم
واقوى وادوم من لذة الغنى وتعبه في تحصيله وجمعه وضبطه اقل من تعب جامع المال بجمعه
والمه دون المه كما قال تعالى للمومنين يسليهم بما ينالهم من الالم والتعب في طاعته ومرضاته
ولا تهنوا في ابتغاء القوم ان تكونوا تالمون فانهم يالمون كما تالمون وترجون من الله ما لا يرجون وكان الله
عليما حكيما الحادي والثلاثون ان اللذة الحاصلة من المال والغنى انما هي حال تجدده فقط واما حال
دوامه فاما ان تذهب تلك اللذة واما ان تنقص ويدل عليه ان الطبع يبقى طالبا لغنى آخر حريصًا عليه
فهو يحاول تحصيل الزيادة دائما فهو في فقر مستمر غير منقض ولو ملك خزائن الارض ففقره وطلبه وحرصه
باق عليه فانه احد المنهومين الذين لا يشبعان فهو لا يفارقه الم الحرص والطلب وهذا بخلاف
غنى العلم والايمان فان لذته في حال بقائه مثلها في حال تجدده بل ازيد وصاحبها وان كان لا يزال طالبًا
للمزيد حريصًا عليه فطلبه وحرصه مستصحب للذة الحاصل ولذة المرجو المطلوب ولذة الطلب وابتهاجه
وفرحه به الثاني والثلاثون ان غنى المال يسد عن الانعام على الناس والاحسان اليهم
فصاحبه اما ان يسد على نفسه هذا الباب واما ان يفتحه عليه فان سده على نفسه اشتهر عند الناس
بالبعد من الخير والنفع فابغضوه وذموه واحتقروه وكل من كان بغيضًا عند الناس حقيرًا لديهم
كان وصول الآفات والمضرات اليه اسرع من النار في الحطب اليابس ومن السيل في منحدره واذا عرف
من الخلق انهم يمقتونه ويبغضونه ولا يعينون له وربما تالم قلبه غاية التالم واحضر الهموم والغموم
والاحزان وان فتح باب الاحسان والعطاء فانه لا يمكنه ايصال الخير والاحسان الى كل احد فلا بد
من ايصاله الى البعض وامساكه عن البعض وهذا يفتح عليه باب العداوة والمذمة من المحروم والمرحوم
اما المحروم فيقول كيف جاد على غيري واما المرحوم فانه يلتذ ويفرح بما يحصل له من الخير والنفع
فيبقى طامعًا مستشرفًا للنظر على الدوام وهذا قد يتعذر غالبا فيفضي ذلك الى العداوة والتدبيه
والمذمة ولهذا قيل اتق شر من احسنت اليه وهذه الآفات لا تعرض في غنى العلم فان صاحبه
يمكنه بذله للعالم كلهم واشراكهم فيه والقدر المبذول منه باق لا ياخذه لا يزول بل يتجدد فهو
كالغني اذا اعطى الفقير راس مال يتجر به حتى يصير غنيا مثله الوجه الثالث والثلاثون
ان جمع المال مقرون بثلاثة انواع من الآفات والمحن نوع قبله ونوع عند حصوله ونوع بعد مفارقته
فاما النوع الاول فهو المشاق والانكاد والآلام التي لا يحصل الا بها واما النوع الثاني

فمشقة

فمشقة حفظه وحراسته وتعلق القلب به فلا يصبح الا مهمومًا ولا يمسي الا مغمومًا فهو بمنزلة عاشق
مفرط المحبة قد ظفر بمعشوقه والعيون من كل جانب ترمقه والالسنة والقلوب ترشقه فاي
عيش واي لذة لمن هذه حاله وقد علم ان اعداءه وحساده لا يفترون عن سعيهم في التفريق بينه وبين
معشوقه وان لم يظفروا هم به ولكن مقصودهم ان يزيلوا اختصاصه به دونهم فان فازوا به
والا استووا في الحرمان فزال الاختصاص المولم للنفوس ولو قدروا على مثل ذلك مع العالم
لفعلوه ولكنهم لما علموا انه لا سبيل الى سلبه علمه عمدوا الى جحده وانكاره ليزيلوا من القلوب محبته
وتقديمه والثناء عليه فان بهر علمه وامتنع من مكابرة الجحود والانكار رموه بالعظايم ونسبوه الى
كل قبيح ليزيلوا من القلوب محبته ويسكنوا موضعها النفرة عنه وبغضه وهذا شغل السحرة بعينه
هؤلاء سحرة بالسنتهم فان عجز الهم عن شيء من القبائح الظاهرة رموه بالتلبيس والتدليس والزوكرة
والريا وحب الترفع وطلب الجاه وهذا القدر من معاداة اهل الجهل والظلم للعلماء مثل الحر والبرد
لا بد منه فلا ينبغي لمن له مسكة عقل ان يتاذى به اذ لا سبيل له الى دفعه بحال فليوطن نفسه عليه كما
يوطنها على برد الشتاء وحر الصيف والنوع الثالث من آفات الغنا ما يحصل للعبد بعد
مفارقته من تعلق قلبه به ولو نزع وحيل بينه وبينه والمطالبة بحقوقه والمحاسبة على مقبوضه
ومصروفه من اين اكتسبه وفيما ذا انفقه وغنى العلم والايمان مع سلامته عن هذه الآفات
فهو كفيل بكل لذة وفرحة وسرور ولكن لا ينال الا على جسر من التعب والصبر والمشقة الرابع
والثلاثون ان لذة الغنى بالمال مقرونة بمخالطة الناس ولو لم يكن الا خدمه وازواجه
وسراريه واتباعه اذ لو انفرد الغني بماله وحده من غير ان يتعلق بخادم او زوجة او احد من
الناس لم يكمل انتفاعه بماله ولا التذاذه به واذا كان كمال لذة غناه موقوفة على اتصاله بالغير فذلك
منشا الآفات والآلام وانواع النكد ولو لم يكن الا اختلاف اخلاق الناس وطبايعهم وارادتهم فيقبح
هذا حسن ذاك ومصلحة ذاك مفسدة هذا ومنفعة هذا مضرة الآخر والعاقل فهو مبتلى بهم ولا بد
من وقوع النفرة والتباغض والتعادي بينهم وبينه فان رضاهم كلهم محال وهو جمع بين الضدين
وارضاء بعضهم واسخاط غيره سبب الشر والمعاداة وكلما طالت المخالطة ازدادت اسباب الشر
والعداوة وقويت وبهذا السبب كان الشر الحاصل من الاقارب والعشراء اضعاف الشر
الحاصل من الاجانب والبعداء وهذه المخالطة انما حصلت من جانب الغني بالمال اما اذا لم يبذل فيه
نصله لهم فانهم يجتنبون مخالطته ومعاشرته فيستريح من اذى الخلطة والعشرة وهذه الآفات

معدومة في الغني بالعلم الخامس والثلاثون ان المال لا يراد لذاته وعينه فانه لا يحصل بذاته شيء من المنافع اصلا فانه لا يشبع ولا يروي ولا يدفي ولا يمنع وانما يراد لهذه الاشياء فانه لما كان طريقا اليها اريد اراده الوسايل ومعلوم ان الغايات اشرف من الوسايل فهذه الغايات اذا اشرف منه وهي مع شرفها بالنسبة اليه ناقصة دنية وقد ذهب كثير من العقلاء الى انها لا حقيقة لها وانما هي دفع الالم فقط فان لبس الثياب مثلا انما فايدته دفع الالم بالحر والبرد والريح وليس فيها لذه زايده على ذلك وكذلك الاكل انما فايدته دفع الم الجوع ولهذا لو لم يجد الم الجوع لم يستطب الاكل وكذلك الشرب مع العطش والراحة مع التعب ومعلوم ان في مزاولة ذلك وتحصيله الم وضرر من ضرره والمه اقل من ضرر ما يدفع به والمه فيتحمل الانسان اخف الضررين دفعا لاعظمهما

وحكي عن العقلاء انه قيل له وقد تناول قدحا كريها من الدواء كيف حالك معه فقال اصبحت في دار بليات ادفع آفات بآفات وفي الحقيقة فلذات الدنيا من الماكل والمشرب والملبس والمسكن والمنكح من هذا الجنس واللذة التي يباشرها الحس ويتحرك لها الحس وهي الغاية المطلوبة لذة الماكل والمنكح شهوة البطن والفرج ليس لهما لذة البتة الا ما كان وسيلة اليها وطريقا الى تحصيلها وهذه اللذة منغصة من وجوه عديدة منها ان تصور زوالها وانقضاها وفناها يوجب تنغيصها ومنها انها ممزوجة بالآفات ومحفوفة بالآلام مختلطة بالمخاوف وفي الغالب تعقب المهالك بطيها كما قيل

قايست بين جمالها وفعالها فاذا الملاحة بالقباحة لا تفي

ومنها ان الاراذل من الناس وسقطهم يشاركون فيها اكابرهم وعقلاهم بل يزيدون عليهم فيها اعظم زيادة والحيوانات تشاركهم فيها الى الافاضل كنسبة الحيوانات البهيمة اليهم فمشاركة الاراذل واهل الخسة والدناءة فيها وزيادتهم على العقلاء فيها مما يوجب النفرة والاعراض عنها وكثير من الناس حصل له الزهد في المحبوب والمعشوق منها بهذه الطريق وهذا كثير في اشعار الناس ونثرهم كما قيل

ساترك حبها من غير بغض وذاك لكثرة الشركاء فيه
اذا وقع الذباب على طعام رفعت يدي ونفسي تشتهيه
وتجتنب الاسود ورود ماء اذا كان الكلاب يلغن فيه

وقيل لزاهد ما الذي زهدك في الدنيا قال خسة شركائها وقلة وفائها وكثرة جفائها وقيل لآخر في ذلك فقال ما مددت يدي الى شيء منها الا وجدت غيري قد سبقني اليه فاتركه له

ومنها

ومنها ان الملتذ بوقوعها انما هو بقدر شدة الحاجة اليها والالم بمطالبة النفس لتناولها وكلما كانت شهوة الظفر بالشيء اقوى كانت اللذة الحاصلة بوجوده اكمل فلما لم يحصل تلك الشهوة لم يحصل تلك اللذة فمقدار اللذة الحاصلة في الحال مناسب لمقدار الحاجة والالم والمضض الماضي وحينئذ يقابل اللذة الحاصلة والالم المتقدم متناسبا فتطارحا فتصير اللذة كانها لم توجد وتصير بمنزلة من شق بطن رجل ثم خاطه وداواه بالمراهم وبمنزلة من ضرب عشرة اسواط واعطاه عشرة دراهم ولا يحتج للذات الدنيا غالبا الا عن ذلك ومثل هذا لا يعد لذة ولا سعادة ولا كمالا بل هو بمنزلة قضاء الحاجة من البول والغايط فان المضطر يتضرر بثقله فاذا قضى حاجته استراح منه فاما ان يعد ذلك سعادة ولذة وبهجة ولذة مطلوبة فلا ومنها انهما بين اللذتين اللتين هما اكثر اللذات عند الناس ولا سبيل الى نيلهما الا بما يقترن بهما قبلهما وبعدهما من مباشرة القاذورات والالم الحاصل عقيبهما مثال لذة الاكل فان العاقل لو نظر الى طعامه حال مخالطته ريقه ومضغه به لنفرت نفسه منه ولو سقطت تلك اللقمة من فيه لتقذر طبعه اعادتها اليه ثم ان لذته انما يحصل في مجرى نحو الاربع الاصابع فاذا فصل عن ذلك المجرى زال تلذذه به فاذا استقر في معدته وخالطه الشراب وماء المعدة من الاقذار الفضلية فحينئذ يصير في غاية الخسة فان زاد على مقدار الحاجة اورث الادواء والحاله هذه اليوبه كما قال بعضهم

لولا قضاء جرى نزهت انملتي عن ان تلم بماكول ومشروب

واما لذة الوقاع فقذرها ابين من ان يذكر فاه ويدل عليه ان اعضاء هذه اللذة هي عورة الانسان التي يستحي من رؤيتها وذكرها وسترها امر الله تعالى عليه عباده ولا يتم لذة المواقعة الا بالاطلاع عليها وابرازها والتلطخ بالرطوبات المستقذرة المتولدة فيها ثم ان تمامها انما يحصل بانفصال النطفة وهي اللذة المقصودة من الوقاع ومنها انه يشبه الالم الذي لا ينقسم فصعوبة تلك المزاولة والمحاولة والمطاولة والمراوضة والتعب لاجل لذة لحظة كمر الطرف فاي مقايسة بين هذه اللذة وبين التعب في طريق تحصيلها وهذا يدل على ان هذه اللذة ليست من جنس الخيرات والسعادات والكمال الذي خلق له العبد ولا كمال له بدونه بل ثم امر وراء ذلك كله وهي له العبد ولا يفطن له هو لغفلته عنه واعراضه عن التفتيش عليه حتى يظفر بمعرفته وعن التفتيش على طريقه حتى يصل اليه يسوم نفسه مع الانعام السايمة

قد هيأوك لامر لو فطنت له فاربأ بنفسك ان ترعى مع الهمل

لعله الانسان

ونوقع هذه اللذات من النفس لموقع لذة البراز ممن حل به الحبس في موضع لا يمكنه القيام إلى الخلاء وصار مضطرًا إليه فإنه يجد مشقة شديدة وبلاءً عظيمًا فإذا تمكن من الذهاب إلى الخلاء وقدر على دفع ذلك الخبيث المؤذي وجد لذة عظيمة عند دفعه وإرساله ولا لذة هناك إلا الراحة من حمل ما يؤذي حمله فنعلم أن هذه اللذات إما أن تكون دفع الآلام وإما أن تكون لذات ضعيفة خسيسة مقترنة بآفات تربي مضرتها عليها وهذا كما يعقب لذة الوقاع من ضعف القلب وخفقان الفؤاد وضعف القوى البدنية والقلبية وضعف الأرواح واستيلاء العفونة على كل البدن وإسراع الضعف والخور إليه واستيلاء الأخلاط عليه لضعف القوى عن دفعها وقهرها ومما يدل على أن هذه اللذات ليست خيرات وسعادات وكمالات أن العقلاء من جميع الأمم مطبقون على ذم من كانت نهمته وشغله وصرف همته وإرادته ولذاته به وتحقير شأنه وإلحاقه بالبهائم ولا يقيمون له وزنًا ولو كانت خيرات وكمالات لكان من صرف إليها همته أكمل الناس ومما يدل على ذلك أن القلب الذي قد وجه قصده وإرادته إلى هذه اللذات لا يزال مستغرقًا في الهموم والغموم والأحزان وما ينال من اللذة في جنب هذه الآلام كقطرة في بحر كما قيل

سروره وزن حبة وحزنه قنطار

وأن القلب يجري مجرى مرآة منصوبة على جدار وذلك الجدار ممر لأنواع المشتهيات والملذوذات والمكروهات ممن وكلما مر به شيء من ذلك طرقه أثره فإن كان محبوبًا مشتهًى مال طبعه إليه فإن لم يقدر على تحصيله تألم وتعذب بفقده وإن قدر على تحصيله تألم في طريق الحصول بالتعب والمشقة ومنازعة الغير له وتألم حال حصوله خوفًا من فراقه وبعد فراقه خوفًا على ذهابه وإن كان مكروهًا له فلم يقدر على دفعه تألم بوجوده وإن قدر على دفعه اشتغل بدفعه فقاسى مشقة راحة الحصول فيتألم لفواتها فعلم أن هذا القلب أبدًا مستغرق في بحار الهموم والغموم والأحزان وإن نفسه تضحك عليه ومن حسنه بوزن درهم من لذة فتغيب بها عن شهود القناطير من ألمه وعذابه فإذا حيل بينه وبين تلك اللذة ولم يتوسل إليها بسبيل تجرد ذلك الألم وأحاط به واستولى عليه من كل جهاته فقل ما شئت في حال عبد قد غيب عنه نعيمه وحظوظه وأفراحه وأحضر شقوته وهمومه وغمومه وأحزانه وبين العبد وبين هذه الحال أن ينكشف الغطاء ويرتفع الستر وينجلي الغبار ويحصل ما في الصدور فإذا كانت هذه غاية اللذات الحيوانية التي هي غاية جمع الأموال وطلبها فما الظن بقدر الوسيلة **وأما في العلم والإيمان** فدائم اللذة متصل الفرحة متضمن لأنواع المسرة والبهجة لا يزول ولا يحزن ولا يفارق قلوبهم بل أصحابه كما قال الله تعالى فيهم لا خوف عليهم ولا هم يحزنون **السادس والثلاثون** أن غنى المال يبغض الموت ولقاء الله فإنه لحبه للمال يكره مفارقته

ويحب لقاه

ويحب بقاءه ليتمتع به كما يشهد به الواقع وأما العلم فإنه يحبب للعبد لقاء ربه ويزهده في هذه الحياة الدنيا النكدة الفانية **السابع والثلاثون** أن الأغنياء يموت ذكرهم بموتهم والعلماء يموتون ويحيى ذكرهم كما قال أمير المؤمنين في هذا الحديث مات خزان الأموال وهم أحياء والعلماء باقون ما بقي الدهر فخزان الأموال أحياء كأموات والعلماء بعد موتهم أموات كأحياء **الثامن والثلاثون** أن نسبة العلم إلى الروح كنسبة الروح إلى البدن فالروح ميتة حياتها العلم كما أن الجسد ميت حياته بالروح وأما الغنى والمال فغايته أن يزيد في حياة البدن وأما العلم فهو حياة القلوب والأرواح كما تقدم تقريره

ح

التاسع والثلاثون أن العلم ملك البدن والعلم زينته وعدته وماله وبه قوام ملكه لا بد له من عدة وعدد ومال وزينة فالعلم هو مركبه وعدته وكماله وأما المال فغايته أن يكون زينة وجمالاً للبدن إذا أنفقه في ذلك فإذا اخزنه ولم ينفقه لم يكن زينة ولا جمالاً بل نقصًا وعيبًا ومن المعلوم أن زينة الملك وما به قوام ملكه أجل وأفضل من زينة رعيته وجمالهم فقوام القلب بالعلم كما أن قوام الجسم بالغذاء **الوجه الأربعون** أن القدر المقصود من المال هو ما يكفي العبد ويغنيه ويدفع ضرورته حتى يتمكن من قضاء جهازه ومن التزود لسفره إلى ربه عز وجل فما زاد على ذلك شغله وقطعه عن السفر عن قضاء جهازه وتعبية زاده فكان ضرره عليه أكثر من مصلحته وكلما ازداد غناه به ازداد تثبطًا وتخلفًا عن التجهز لما أمامه وأما العلم النافع فكلما ازداد منه ازداد في تعبية الزاد وقضاء الجهاز والإعداد على المسير والله الموفق وبه الاستعانة ولا حول ولا قوة إلا به فحقيقة هذا السفر هو العلم والعمل وعدة الإقامة جمع الأموال للادخار ومن أراد شيئًا هيأ له عدته قال تعالى ولو أرادوا الخروج لأعدوا له عدة ولكن كره الله انبعاثهم فثبطهم وقيل اقعدوا مع القاعدين **قوله رضي الله عنه** محبة العلم أو العالم دين يدان به لأن العلم ميراث الأنبياء والعلماء ورثتهم فمحبة العلم وأهله محبة لميراث الأنبياء وورثتهم وبغض العلم وأهله بغض لميراث الأنبياء وورثتهم فمحبة العلم من علامات السعادة وبغض العلم من علامات الشقاء وهذا كله إنما هو في علم الرسل الذي جاءوا به وورثوه للأمة لا في كل ما يسمى علمًا وأيضًا فإن محبة العلم تحمل على تعلمه واتباعه وذلك هو الدين وبغضه ينهى عن تعلمه واتباعه وذلك هو الشقاء والضلال وأيضًا فإن الله سبحانه عليم يحب كل عليم وإنما يضع علمه عند من يحبه فمن أحب العلم وأهله فقد أحب ما أحب الله وذلك مما يدان به **قوله رضي الله عنه** العلم يكسب العالم الطاعة في حياته وجميل الأحدوثة

بعد مماته يكسبه ذلك اي يجعله كسبًا له ويورثه اياه ويقال كسبه ذلك عزًّا وطاعة واكسبه لغتان ومنه
حديث خديجة رضي الله عنها انك لتصل الرحم وتصدق الحديث وتحمل الكل وتكسب المعدوم روي بفتح
التاء وضمها ومعناه تكسبه المال والمعنى هذا هو الصواب وقال طايفة من رواه بضمها
فذلك من اكسبته مالًا وعزًّا ومن رواه بفتحها فمعناه تكسب انت المال المعدوم بمعرفتك وحذقك بالتجارة
ومعاذ الله من هذا الفهم وخديجة رضي الله عنها اجل قدرًا من ان تكلمها بهذا في هذا المقام العظيم ان تقول
لرسول الله صلى الله عليه وسلم ابشر فوالله لا يخزيك الله انك تكسب الدرهم والدينار وتحسن التجارة ومثل هذه
التحريفات انما تذكر لئلا يغتر بها في تفسير كلام الله ورسوله والمقصود ان قوله العلم يكسب العالم
الطاعة في حياته اي يجعله مطاعًا لان الحاجة الى العلم عامة لكل احد الملوك فمن دونهم فكل احد
محتاج الى طاعة العالم فانه يامر بطاعة الله ورسوله فتجب على الخلق طاعته قال تعالى يا ايها الذين
امنوا اطيعوا الله واطيعوا الرسول واولي الامر منكم وفسر اولي الامر بالعلماء قال ابن عباس رضي الله
عنهما هم الفقهاء والعلماء اهل الدين الذين يعلمون الناس دينهم اوجب الله طاعتهم وهذا قول
الحسن ومجاهد والضحاك واحدى الروايتين عن الامام احمد وفسر بالامراء وهو قول ابن زيد
واحدى الروايتين عن ابن عباس وعن احمد والاية تتناولهما جميعًا فطاعة ولاة الامر واجبة اذا امروا
بطاعة الله ورسوله وطاعة العلماء كذلك فالعالم بما جاء به الرسول العامل به اطوع في اهل الارض
من كل احد فاذا مات احيى الله ذكره ونشر له في العالمين حسن الثناء فالعالم بعد وفاته ميت وهو حي
بين الناس والجاهل في حياته حي وهو ميت بين الناس كما قيل

وفي الجهل قبل الموت موت لاهله ... وليس لهم حتى النشور نشور
وارواحهم في وحشة من جسومهم ... واجسامهم قبل القبور قبور

وقال اخر قد مات قوم وما ماتت مكارمهم ... وعاش قوم وهم في الناس اموات

وقال اخر وما دام ذكر المرء بالفضل باقيًا ... فذلك حي وهو في الترب هالك

ومن تامل احوال ائمة الاسلام كائمة الحديث والفقه كيف هم تحت التراب وهم في العالمين كانهم احياء
بينهم لم يفقدوا منهم الا صورهم والا فذكرهم وحديثهم والثناء عليهم غير منقطع وهذه الحياة حقا
حتى عد ذلك حياة ثانية كما قال المتنبي

ذكر الفتى عمره الثاني وحاجته ... ما قاته وفضول العيش اشغال

قوله رضي الله عنه وصنيعة المال تزول بزواله يعني ان كل صنيعة صنعت للرجل لاجل

ماله

ماله من اكرام ومحبة وخدمة وقضاء حوائج وتقديم واحترام وتولية وغير ذلك فانها انما هي
مراعاة لماله فاذا زال ماله وفارقه زالت تلك الصنايع كلها حتى انه ربما لا يسلم عليه من كان يبادر
في خدمته ويسعى في مصالحه وقد اكثر الناس في هذا المعنى في اشعارهم وكلامهم وفي مثل قولهم
من ودك لامر ملك عند انقضائه قال بعض العرب

وكانوا بنو عمي يقولون مرحبًا ... فلما راوني معسرًا مات مرحب

ومن هذا ما قيل اذا اكرمك الناس لمال او سلطان فلا يعجبنك ذلك فان زوال الكرامة بزوالهما ولكن
ليعجبك ان اكرموك لعلم او دين وهذا امر لا ينكر في الناس حتى انهم ليكرمون الرجل لثيابه فاذا
نزعها لم ير منهم تلك الكرامة وهو قوله قال مالك بلغني ان ابا هريرة دعي الى وليمة فاتى فحجب
فرجع فلبس غير تلك الثياب فادخل فلما وضع الطعام ادخل كمه في الطعام فعوتب في ذلك فقال
ان هذه الثياب هي التي دخلت فهي تاكل حكاه ابن مزين الطليطلي في كتابه وهذا بخلاف صنيعة
العلم فانها لا تزول ابدا بل كلما لها في زيادة ما لم يسلب ذلك العالم علمه فصنيعة العلم والدين اعظم من
صنيعة المال لانها تكون بالقلب واللسان والجوارح فهي صادرة عن حب واكرام لاجل ما اودعه
الله تعالى اياه من علمه وفضله به على غيره وايضا فصنيعة العلم تابعة لنفس العالم وذاته وصنيعة
المال تابعة لماله المنفصل عنه وايضا فصنيعة المال صنيعة معاوضة وصنيعة العلم
والدين صنيعة حب وتقرب وديانة وايضا فصنيعة المال تكون مع البر والفاجر والمؤمن
والكافر واما صنيعة العلم والدين فانها لا تكون الا مع اهل ذلك وقد يراد من هذا ايضا معنى اخر
وهو ان من اصطنعت عنده صنيعة بالك اذا زال ذلك المال وفارقه عدمت صنيعتك عنده
واما من اصطنعت اليه صنيعة علم وهدى فان تلك الصنيعة لا تفارقه ابدا بل ترى في كل وقت
كانك اسديتها اليه حينئذ قوله رضي الله عنه مات خزان الاموال وهم احياء
قد تقدم بيانه وكذلك قوله والعلماء باقون ما بقي الدهر وقوله اعيانهم مفقودة وامثالهم في
القلوب موجودة المراد بامثالهم صورهم العلمية ووجودهم المثالي اي وان فقدت ذواتهم فصور
وامثالهم في القلوب لا تفارقها وهذا هو الوجود الذهني العلمي لان محبة الناس لهم واقتداءهم
وانتفاعهم بعلومهم يوجب ان لا يزالوا نصب عيونهم وقبلة قلوبهم فهم موجودون معهم وحاضرون
عندهم وان غابت عنهم اعيانهم كما قيل

ومن عجب اني احن اليهم ... واسال عنهم من لقيت وهم معي

وتطلبهم عيني وهم في سوادها ويشتاقهم قلبي وهم بين اضلعي
وقال اخر ومن عجب ان يشكوا البعد عاشق وهل غاب عن قلب المحب حبيب
خيالك في عيني وذكرك في فمي ومثواك في قلبي فاين تغيب

قوله رضي الله عنه ان ههنا علما واشار الى صدره يدل على جواز اخبار الرجل بما عنده من العلم والخير ليقتبس منه ولينتفع به ومنه قول يوسف صلى الله عليه وسلم اجعلني على خزائن الارض اني حفيظ عليم فمن اخبر عن نفسه بمثل ذلك ليكثر به ما يحبه الله ورسوله من الخير فهو محمود ومن اخبر بذلك ليتكثر به عند الناس ويتعظم فهذا يجازيه الله بمقت الناس له وصغره في اعينهم والمقصود ليكثره في قلوبهم وعيونهم وانما الاعمال بالنيات وكذلك اذا اثنى الرجل على نفسه ليخلص بذلك من مظلمة وشر او ليستوفي بذلك حقا له يحتاج فيه الى التعريف بحاله او ليقطع عنه اطماع السفلة او عند خطبته الى من لا يعرف حاله والاحسن في هذا ان يوكل من يعرف به وبحاله فان لسان ثناء المرء على نفسه قصير وهو في الغالب مذموم لما يقترن به من الفخر والتعاظم ثم ذكر اصناف حملة العلم الذين لا يصلحون لحمله وهم اربعة احدهم من ليس هو بمامون عليه وهو الذي اوتي ذكاء وحفظا ولكن مع ذلك لم يوت زكاء فهو يتخذ العلم الذي هو اله الدين اله الدنيا يستجلبها به ويتوسل بالعلم اليها ويجعل البضاعة التي هي متجر الاخرة متجرا للدنيا وهذا غير امين على ما حمله من العلم ولا يجعله الله اماما فيه قط فان الامين هو الذي لا غرض له ولا ارادة لنفسه الا اتباع الحق وموافقته ثم لا يدعوا الى اقامة رياسته ولا دنياه وهذا الذي قد يجد بضاعة الاخرة ومتجرها متجرا للدنيا فقد خان الله وخان عباده فلهذا كان غير مامون عليه وقوله رضي الله عنه يستظهر بحجج الله على كتابه وبنعمه على عباده هذه صفة هذا الخائن اذا انعم عليه استظهر بتلك النعمة على الناس واذا تعلم علما استظهر به على كتاب الله ومعنى استظهاره بالعلم على كتاب الله تحكيمه عليه وتقديمه واقامته دونه وهذه حال الذي يحصل له علم فانه يشتغل به ويستظهر به ويحكمه ويجعل كتاب الله تعالى تابعا له يقال استظهر فلان على كذا بكذا اي ظهر عليه به وتقدم بجعله وراء ظهره وليست هذه حال العلماء فان العالم حقا يستظهر بكتاب الله على كل ما سواه بعده ويحكمه ويجعله امامه ويجعله عيارا على غيره مهيمنا كما جعله الله كذلك فالمستظهر به موفق سعيد والمستظهر عليه مخذول شقي فمن استظهر على النبي فقد جعله خلف ظهره [illegible] عليه ما استظهر به وهذه حال من اشتغل بغير كتاب الله عنه وبالنبي بغيره وقدم غيره واخره الصنف الثاني من حملة العلم المنقاد الذي لم يثلج له صدره ولم يطمئن به قلبه بل هو ضعيف البصيرة فيه لكنه منقاد لاهله وهذه حال اتباع الحق من مقلديهم وهؤلاء وان كانوا على سبيل نجاة فليسوا من دعاة الدين وانما هم مكثرين سواد الجيش لا من امرائه وفرسانه والمنقاد منفعل من ذاته يقوده وهو مطاوع الثلاثي من قاده فانقاد

لكن

كما تنبت ثم اعلقت البانة الفالج كما بعد فتحه فصار منقاد يقول قدته فانقاد اي لم يمتنع والاحناء جمع حنو بوزن علم وهي الجوانب والنواحي والعرب تقول ازجر احناء طيرك اي امسك نواحي خفتك وطيشك يمينا وشمالا واماما وخلفا قال لبيد

فقلت ازجر احناء طيرك واعلمن بانك ان قدمت رجلك عاثر

والطير هنا الخفة والطيش وقوله رضي الله عنه ينقدح الشك في قلبه باول عارض من شبهة هذا لضعف علمه وقلة بصيرته اذا وردت على قلبه ادنى شبهة قدحت فيه الشك والريب بخلاف الراسخ في العلم لو وردت عليه من الشبه بعدد امواج البحر ما ازالت يقينه ولا قدحت فيه شكا لانه قد رسخ في العلم فلا تستفزه الشبهات بل اذا وردت عليه ردها حرس العلم وجيشه مغلولة مغلوبة والشبهة وارد يرد على القلب يحول بينه وبين انكشاف الحق له فمتى باشر القلب حقيقة العلم لم توثر تلك الشبهة فيه بل يقوى علمه ويقينه بردها ومعرفة بطلانها ومتى لم يباشر حقيقة العلم بالحق قلبه قدحت فيه الشك باول وهلة فان تداركها والا تتابعت على قلبه امثالها حتى يصير شاكا مرتابا والقلب يتوارده جيشان من الباطل جيش شهوات الغي وجيش شبهات الباطل فايما قلب صغى اليها وركن اليها تشربها وامتلا بها فينضح لسانه وجوارحه بموجبها فان اشرب شبهات الباطل تفجرت على لسانه الشكوك والشبهات والايرادات فيظن الجاهل ان ذلك لسعة علمه وانما ذلك من عدم علمه ويقينه وقال لي شيخ الاسلام رضي الله عنه وقد جعلت اورد عليه ايرادا بعد ايراد لا تجعل قلبك للايرادات والشبهات مثل السفنجة فيتشربها فلا ينضح الا بها ولكن اجعله كالزجاجة المصمتة تمر الشبهات بظاهرها ولا تستقر فيها فيراها بصفائه ويدفعها بصلابته والا فاذا اشربت قلبك كل شبهة تمر عليك صار مقرا للشبهات او كما قال فما اعلم اني انتفعت بوصيه في دفع الشبهات كانتفاعي بذلك وانما سميت الشبهة شبهة لاشتباه الحق بالباطل فيها فانها تلبس ثوب الحق على جسم الباطل واكثر الناس اصحاب حسن ظاهر فينظر الناظر فيما البسته من اللباس فيعتقد صحتها واما صاحب العلم واليقين فانه لا يغتر بذلك بل يجاوز نظره الى باطنها وما تحت لباسها فينكشف له حقيقتها ومثال ذلك هذا الدرهم الزائف فانه يغتر به الجاهل بالنقد نظرا الى ما عليه من لباس الفضة والناقد البصير يجاوز نظره الى ما وراء ذلك فيطلع على زيفه فاللفظ الحسن الفصيح هو للشبهة بمنزلة اللباس من الفضة على الدرهم الزائف والمعنى كالنحاس الذي تحته وكم قد قتل هذا الاغترار من خلق لا يحصيهم الا الله واذا تامل العاقل الفطن هذا القدر وتدبره راى اكثر الناس يقبل المذهب والمقالة بلفظ ويردها بعينها بلفظ اخر

وقد رأيت آثار هذا كثيرًا في الناس ما شاء الله وكم قد رُدّ من الحق بتشنيعه بلباس من اللفظ قبيح وفي مثل
هذا قال أئمة السنة منهم الإمام أحمد رضي الله عنه وغيره لا نزيل عن الله تعالى صفة من صفاته لأجل شناعة
شُنّعت فهؤلاء الجهمية يسمون إثبات صفات الكمال لله من حياته وعلمه وكلامه وسمعه وبصره وسائر ما
وصف به نفسه تشبيهًا وتجسيمًا ومن أثبت ذلك مشبهًا فلا ينفر من هذا المعنى الحق لأجل هذه التسمية الباطلة
إلا العقول الصغيرة القاصرة خفافيش البصائر وكل أهل نحلة ومقالة يكسون نحلتهم ومقالتهم أحسن
ما يقدرون عليه من الألفاظ ومقالة مخالفيهم أقبح ما يقدرون عليه من الألفاظ ومن رزقه الله بصيرة فهو يكشف
بها حقيقة ما تحت تلك الألفاظ من الحق والباطل ولا تغتر باللفظ كما قيل في هذا المعنى

تقول هذا جنى النحل تمدحه ... وإن تشأ قلت ذا قيء الزنابير
مدحًا وذمًّا وما جاوزت وصفهما ... والحق قد يعتريه سوء تعبير

فإذا أردت الاطلاع على كنه المعنى هل هو حق أو باطل فجرّده من لباس العبارة وجرّد قلبك عن النفرة والميل
ثم أعط النظر حقه ناظرًا بعين الإنصاف ولا تكن ممن ينظر في مقالة أصحابه ومن يحسن ظنه نظرًا تامًّا بكل
قلبه ثم ينظر في مقالة خصومه وممن يسيء ظنه به كنظر الشزر والملاحظة فالناظر بعين العداوة يرى المحاسن
مساوي والناظر بعين المحبة عكسه وما سلم من هذا إلا من أراد الله كرامته وارتضاه لقبول الحق وقد قيل

وعين الرضى عن كل عيب كليلة ... كما أن عين السخط تبدي المساويا

وقال آخر: نظروا بعين عداوة لو أنها ... عين الرضا لاستحسنوا ما استقبحوا

فإذا كان هذا في نظر العين الذي يدرك المحسوسات ولا يتمكن من المكابرة فيها فما الظن بنظر القلب الذي يدرك
المعاني التي هي عرضة المكابرة والله المستعان على معرفة الحق وقبوله ورد الباطل وعدم الاغترار
وقوله رضي الله عنه بأول عارض من شبهة هذا دليل ضعف عقله ومعرفته إذ تؤثر فيه
البدوات وتستفزه أوائل الأمور بخلاف الثابت التام العاقل فإنه لا تستفزه البدوات ولا تزعجه وتقلقه
فإن الباطل له دهشة وروعة في أوله فإذا ثبت له القلب رُدّ على عقبه والله يحب من عبده الحلم والأناة
فلا يعجل بل يتثبت حتى يعلم ويستيقن ما ورد عليه ولا يعجل بأمر قبل استحكامه فالعجلة والطيش من الشيطان
فمن ثبت عند صدمة البدوات استقبل أمره بعلم وحزم ومن لم يثبت لها استقبله بعجلة وطيش وعاقبته
الندامة وعاقبة الأول حمد أمره ولكن للأول آفة متى قرنت بالعزم والحزم نجا منها وهي الفوت
فإنه لا يخاف من التثبت إلا الفوت فإذا اقترن به العزم والحزم تم أمره ولهذا في الدعاء الذي رواه
الإمام أحمد والنسائي عن النبي صلى الله عليه وسلم اللهم إني أسألك الثبات في الأمر والعزيمة على الرشد وهاتان

بلغ مقابلة

الكلمتان

الكلمتان هما جماع الفلاح وما أتي العبد إلا من تضييعهما أو تضييع أحدهما فما أتي أحد إلا من باب العجلة
والطيش واستفزاز البدوات له أو من باب التهاون والتماوت وتضييع الفرصة بعد مواتاتها فإذا حصل
الثبات أولًا والعزيمة ثانيًا أفلح كل الفلاح والله ولي التوفيق

الصنف الثالث

رجل همته في نيل لذته فهو منقاد لداعي الشهوة أين كان ولا ينال درجة وراثة النبوة مع ذلك ولا ينال
العلم إلا بهجر اللذات وتطليق الراحة كما قال مسلم في صحيحه قال يحيى بن أبي كثير لا ينال العلم براحة
الجسم وقال الإمام إبراهيم الحربي أجمع عقلاء كل أمة أن النعيم لا يدرك بالنعيم ومن آثر الراحة
فاتته الراحة فما لصاحب اللذات وما لدرجة وراثة الأنبياء

فدع عنك الكتابة لست منها ... ولو سودت وجهك بالمداد

فإن العلم صناعة القلب وشغله فما لم تتفرغ لصناعته وشغله لم ينلها وله وجهة واحدة فإذا وجهت
وجهته إلى اللذات والشهوات انصرفت عن العلم ومن لم يغلب لذة إدراكه للعلم وشهوته على لذة جسمه وشهوة
نفسه لم ينل درجة العلم أبدًا فإذا صارت شهوته في العلم ولذته في إدراكه رجي له أن يكون من جملة أهله ولذة
العلم لذة عقلية روحانية من جنس لذة الملائكة ولذة شهوات الأكل والشرب والنكاح لذة حيوانية يشارك
الإنسان فيها الحيوان ولذة الشرور والظلم والفساد والعلو في الأرض شيطانية يشارك صاحبها فيها
إبليس وجنوده وسائر اللذات تبطل بمفارقة الروح البدن إلا لذة العلم والإيمان فإنها تكمل بعد المفارقة
لأن البدن وشواغله كان ينقصها ويقللها ويحجبها فإذا انطلقت الروح عن البدن التذت لذة كاملة بما
حصلته من العلم النافع والعمل الصالح فمن طلب اللذة العظمى وآثر النعيم المقيم فهو في العلم والإيمان الذي
بهما كمال سعادة الإنسان وأيضًا فإن تلك اللذات سريعة الزوال وإذا انقضت أعقبت همًّا وغمًّا وألمًا يحتاج
صاحبها يداويه بمثلها دفعًا لألمه وربما كان معاودته لها مؤلمًا لكونها لا بد له يحمله عليه مداواة ذلك
الغم والهم فأين هذا من لذة العلم ولذة الإيمان بالله ومحبته والإقبال عليه والتنعم بذكره فهذه هي اللذة الحقيقية

الصنف الرابع

من حرصه وهمته في جمع الأموال وتثميرها وادخارها فقد صارت
لذته في ذلك وفني به عما سواه فلا يرى شيئًا أطيب له مما هو فيه فمن أين لهذا درجة العلم فهؤلاء الأصناف
الأربعة ليسوا من دعاة الدين ولا من أئمة العلم ولا من طلبته الصادقين في طلبه ومن تعلق منهم بشيء منه فهو
من المتسلقين عليه المتشبهين بحملته وأهله المدعين لوصاله المبتوتين من حباله وفتنة هؤلاء فتنة
لكل مفتون فإن الناس يتشبهون بهم لما يظنون عندهم من العلم ويقولون لسنا خيرًا منهم ولا نرغب بأنفسنا
عنهم فهم حجة لكل مفتون ولهذا قال فيهم بعض الصحابة الكرام احذروا فتنة العالم الفاجر

أو العابد الجاهل فإن فيهما فتنة لكل مفتون **وقوله رضي الله عنه** أقرب شبهًا بهم
الأنعام السائمة هذا التشبيه مأخوذ من قوله تعالى إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلا فإنه سبحانه
على تشبيههم بالأنعام حتى جعلهم أضل سبيلًا منهم والسائمة الراعية وشبه أمير المؤمنين هؤلاء
بها لأن همتهم في رعي الدنيا وحطامها والله تعالى شبه أهل الجهل والغي تارة بالأنعام وتارة بالحمر وهذا
شبه لمن تعلم علمًا ولم يعقله ولم يعمل به فهو كالحمار الذي يحمل أسفارًا وتارة بالكلب وهذا المثل انسلخ عن
العلم وأخلد إلى الشهوات والهوى **وقوله رضي الله عنه** كذلك يموت العلم بموت حامليه
هذا من قول النبي صلى الله عليه وسلم في حديث عبد الله بن عمرو وعائشة وغيرهما إن الله لا يقبض العلم انتزاعًا ينتزعه
من صدور الرجال ولكن يقبض العلم بقبض العلماء فإذا لم يبق عالم اتخذ الناس رؤساء جهالًا فسئلوا فأفتوا
بغير علم فضلوا وأضلوا رواه البخاري في صحيحه فذهاب العلم إنما هو بذهاب العلماء وقال ابن مسعود
يوم مات عمر رضي الله عنه إني لأحسب تسعة أعشار العلم اليوم قد ذهب **وقد تقدم** قول عمر موت
ألف عابد أهون من موت عالم بصير بحلال الله وحرامه **وقوله رضي الله عنه** اللهم بلى لن تخلو الأرض
من مجتهد قائم لله بحجة ويدل عليه الحديث الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم لا تزال طائفة من أمتي على الحق لا يضرهم
من خذلهم ولا من خالفهم حتى يأتي أمر الله وهم على ذلك ويدل عليه أيضًا ما رواه الترمذي عن قتيبة ثنا حماد حماد
بن يحيى الأبح عن ثابت عن أنس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم مثل أمتي مثل المطر لا يدرى أوله خير
أم آخره قال هذا حديث حسن غريب ويروى عن عبد الرحمن بن مهدي أنه كان يثبت حماد بن يحيى الأبح
وكان يقول هو من شيوخنا وفي الباب عن عمار وعبد الله بن عمرو فلو لم يكن في أواخر الأمة قائم بحجج الله مجتهد
لم يكونوا موصوفين بهذه الخيرية وأيضًا فإن هذه الأمة أكمل الأمم وخير أمة أخرجت للناس ونبيها
خاتم النبيين لا نبي بعده فجعل الله العلماء فيها كلما هلك عالم خلفه عالم لئلا تطمس معالم الدين وتخفى أعلامه
وكان بنو إسرائيل كلما هلك نبي خلفه نبي فكانت تسوسهم الأنبياء والعلماء لهذه الأمة كالأنبياء في بني
إسرائيل وأيضًا ففي الحديث الآخر يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله ينفون عنه تحريف الغالين وانتحال
المبطلين وتأويل الجاهلين وهذا يدل على أنه لا يزال محمولًا في القرون قرنًا بعد قرن **وفي صحيح أبي**
حاتم من حديث الخولاني قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يزال الله يغرس في هذا الدين غرسًا يستعملهم في طاعته
وغرس الله هم أهل العلم والعمل فلو خلت الأرض من عالم خلت من غرس الله ولهذا القول حجج كثيرة لها موضع
آخر وزاد الكذابون في حديث علي إما ظاهرًا مشهورًا وإما خفيًا مستورًا وظنوا أن ذلك دليل لهم على
لم ينقل أحد عنه بهذه المقالة إلا الكذاب وحجة الله لا تقوم بخفي مستور لا يقع العالم له على خبر ولا يشعر به

[illegible]

بخلاف

حي أصلًا فلا جاهل يتعلم منه ولا ضال يهتدي به ولا خائف يأمن به ولا ذليل يتعزز به فأي حجة لله قامت
بمن لا يرى له شخص ولا يسمع منه كلمة ولا يعلم له مكان ولا سيما على أصول القائلين به فإن الذي دعاهم
إلى ذلك أنهم قالوا لا بد في اللطف بالمكلفين وانقطاع حجتهم عن الله فيا لله العجب أي لطف يحصل بهذا منه ح
المعدوم لا المعصوم وأي حجة أثبتم لله على عباده بأصلكم الباطل فإن هذا المعدوم إذا لم يكن لهم سبيل قط
إلى لقائه والاهتداء به فهل في تكليف ما لا يطاق أبلغ من هذا وهل في العذر والحجة أبلغ من هذا فالذي فررتم
منه وقعتم في شر منه وشر من ذلك كما قيل

المستجير بعمرو عند كربته كالمستجير من الرمضاء بالنار

ولكن أبى الله إلا أن يفضح من تنقص بالصحابة الأخيار وسادات هذه الأمة وأن يري الناس عورته
ويفضحه بلسانه ونعوذ بالله من الخذلان ولقد أحسن القائل

ما آن للسرداب أن يلد الذي كلمتموه بزعمكم ما آنا
فعلى عقولكم العفاء فإنكم ثلثتم العنقاء والغيلانا

ولقد بطلت حجج استودعها مثل هذا الغائب وضاعت أعظم ضياع فأنتم أبطلتم حجج الله من حيث زعمتم حفظها
وهذا الصحيح من أمير المؤمنين رضي الله عنه أن حامل حجج الله لا بد أن يكون في الأرض بحيث يؤديها عن الله
ويبلغها إلى عباده مثله رضي الله عنه ومثل إخوانه من الخلفاء الراشدين ومن اتبعهم إلى يوم القيمة
وقوله رضي الله عنه لكيلا تبطل حجج الله وبيناته أي لكيلا تذهب من بين الناس وتبطل من بدي ح
صدورهم وأما البطلان فمحال عليها لأنها ملزوم ما يستحيل عليه البطلان فإن قيل ما الفرق بين
الحجج والبينات قيل الفرق بينهما أن الحجج هي الأدلة العلمية التي تعقلها القلب وتسمع بالأذن
قال تعالى في مناظرة إبراهيم عليه الصلاة والسلام لقومه وتبيينه بطلان ما هم عليه بالدليل
العقلي وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه نرفع درجات من نشاء قال ابن زيد بعلم الحجة وقال
تعالى فإن حاجوك فقل أسلمت وجهي لله ومن اتبعن وقال تعالى والذين يحاجون في الله من بعد ما استجيب
له حجتهم داحضة عند ربهم والحجة هي اسم لما يحتج به من حق وباطل قال تعالى لئلا يكون
للناس عليكم حجة إلا الذين ظلموا منهم فإنهم يحتجون عليكم بحجة باطلة فلا تخشوهم واخشوني وقال تعالى
وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات ما كان حجتهم إلا أن قالوا ائتوا بآبائنا إن كنتم صادقين والحجة المضافة
إلى الله هي الحق وقد تكون الحجة بمعنى المخاصمة ومنه قوله تعالى فلذلك فادع واستقم كما أمرت
ولا تتبع أهواءهم وقل آمنت بما أنزل الله من كتاب وأمرت لأعدل بينكم الله ربنا وربكم لنا أعمالنا ولكم أعمالكم

لا حجة بيننا وبينكم أي قد وضح الحق واستبان وظهر فلا خصومة بيننا بعد ظهوره ولا مجادلة
فإن الجدال الشرعي موضوعه للتعاون على إظهار الحق فإذا ظهر الحق ولم يبق به خفاء فلا فائدة
في الخصومة والجدال على تصيير مخاصمة المنكر ومجادلته عناء لا غناء فيه هذا معنى هذه الآية
وقد يقع في وهم كثير من الجهال أن الشريعة لا احتجاج فيها وأن المرسل بها صلوات الله وسلامه عليه
لم يكن يحتج على خصومه ولا يجادلهم ويظن جهال المنطقيين وفروخ اليونان أن الشريعة خطاب
للجمهور ولا احتجاج فيها وأن الأنبياء دعوا الجمهور بطريق الخطابة والحجج للخواص وهم أهل البرهان
يعنون نفوسهم ومن سلك طريقتهم وهذا من جهلهم بالشريعة والقرآن فإن القرآن مملوء من الحجج والأدلة
والبراهين في مسائل التوحيد وإثبات الصانع والمعاد وإرسال الرسل وحدوث العالم فلا يذكر
المتكلمون وغيرهم دليلا صحيحا على ذلك إلا وهو في القرآن بأحسن عبارة وأوضح بيان وأتم معنى وأبعده
عن الإيرادات والأسولة وقد اعترف بهذا حذاق المتكلمين من المتقدمين والمتأخرين **قال**
أبو حامد في أول الإحياء فإن قلت فلم لم تورد في أقسام العلم الكلام والفلسفة وتبين أنهما مذمومان أو ممدوحان
فاعلم أن حاصل ما يشتمل عليه الكلام من الأدلة التي ينتفع بها فالقرآن والأخبار مشتملة عليه وما خرج عنهما
فهو إما مجادلة مذمومة وهي من البدع كما سيأتي بيانه وإما مشاغبة بالتعلق بمناقضات الفرق وتطويل
بنقل المقالات التي أكثرها ترهات وهذيانات تزدريها الطباع وتمجها الأسماع وبعضها خوض فيما لا
يتعلق بالدين ولم يكن شيء منه مألوفا في العصر الأول ولكن تغير الآن حكمه إذ حدثت البدع الصارفة عن
مقتضى القرآن والسنة لفقت لها شبها ورتبت لها كلاما مؤلفا فصار ذلك المحذور بحكم الضرورة
مأذونا فيه **وقال الرازي في كتابه** أقسام اللذات لقد تأملت الكتب الكلامية والمناهج
الفلسفية فما رأيتها تشفي عليلا ولا تروي غليلا ورأيت أقرب الطرق طريقة القرآن اقرأ في الإثبات
إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه الرحمن على العرش استوى واقرأ في النفي ليس كمثله شيء
ومن جرب مثل تجربتي عرف مثل معرفتي وهذا الذي أشار إليه بحسب ما فتح له من دلالة القرآن
بطريق الخبر والمقصود أن الأدلة البرهانية العقلية التي يشير إليها ويرشد إليها تكون دليلا سمعيا عقليا
امتاز به القرآن وصار العالم من الراسخين في العلم وهو العلم الذي يطمئن إليه القلب وتسكن عنده
النفس ويزكو به العقل وتستنير به البصيرة وتقوى به الحجة ولا سبيل لأحد من العالمين إلى قطع
من حاج به بل من خاصم به فلجت حجته وكسر شبهة خصمه وبه فتحت القلوب واستجيب لله ولرسوله ولكن
أهل هذا العلم لا يكادون الأعصار تسمح منهم إلا بالواحد بعد الواحد فدلالة القرآن سمعية عقلية قطعية

يقينية

يقينية لا تعترضها الشبهات ولا تتداولها الاحتمالات ولا تنصرف القلوب عنها بعد فهمها **قال**
بعض المتكلمين أفنيت عمري في الكلام أطلب الدليل وإذا أنا لا أزداد إلا بعدا عن الدليل فرجعت إلى
القرآن أتدبره وأتفكر فيه وإذا أنا بالدليل حقا معي وأنا لا أشعر به فقلت والله ما مثلي إلا كما قال
القائل

ومن العجائب والعجائب جمة ... قرب الحبيب وما إليه وصول
كالعيس في البيداء يقتلها الظما ... والماء فوق ظهورها محمول

قال فلما رجعت إلى القرآن إذا هو الحكم والدليل ورأيت فيه من أدلة الله وحججه وبراهينه وبيناته
ما لو جمع كل حق قاله المتكلمون في كتبهم لكانت سورة من سور القرآن وآية منه تفي بمضمونه مع حسن البيان وفصاحة حيه
اللفظ وتطبيق المفصل وحسن الاختصار والتنبيه على مواقع الشبه والإرشاد إلى جوابها وإذا هو كما
قيل بل فوق ما قيل

كفى وشفى ما في الفؤاد فلم يدع ... لذي أرب في القول جدا ولا هزلا

وجعلت جيوش الكلام تغزو إلي كما كانت وبراجم في صدري ولا تأذن لها القلب بالدخول فيه ولا
يلقى منه إقبالا ولا قبولا فترجع على أدبارها **والمقصود** أن القرآن مملوء بالاحتجاج وفيه جميع
أنواع الأدلة والأقيسة الصحيحة وأمر الله تعالى رسوله فيه بإقامة الحجة والمجادلة فقال
تعالى وجادلهم بالتي هي أحسن وقال تعالى ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن وهذه
مناظرات القرآن مع الكفار موجودة فيه وهذه مناظرات رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه
لخصومهم وإقامة الحجج والأدلة عليهم لا ينكر ذلك إلا جاهل مفرط بالجهل والمقصود الفرق
بين الحجج والبينات **فصل الحجج الأدلة** العلمية والبينات جمع بينة وهي صفة
في الأصل تقال آية بينة وحجة بينة والبينة اسم لكل ما يبين الحق من علامة منصوبة أو أمارة أو دليل علمي
قال تعالى لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان فالبينات الآيات التي
أقامها الله دلالة على صدقهم من المعجزات والكتاب هو الدعوة وقال تعالى إن أول بيت وضع
للناس للذي ببكة مباركا وهدى للعالمين فيه آيات بينات مقام إبراهيم ومقام إبراهيم صلى الله عليه وسلم
آية جزئية مرئية بالأبصار وهو من آيات الله الموجودة في العالم ومنه قول موسى صلى الله عليه وسلم
لفرعون وقومه قد جئتكم ببينة من ربكم فأرسل معي بني إسرائيل قال إن كنت جئت بآية فأت بها إن كنت من
الصادقين فألقى عصاه وكان إلقاء العصا وانقلابها حية هو البينة وقال قوم هود عليه
السلام ما جئتنا ببينة يريدون آية الاقتراح وإلا فهو قد جاءهم بما يعرفون به أنه رسول الله إليهم

بأهود

فطلب الآية بعد ذلك تعنت واقتراح لا يكون لهم عذر في عدم الإجابة إليه وهذه هي الآيات التي قال
الله تعالى فيها وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون فعدم إجابته سبحانه إليها إذا
طلبها الكفار رحمة منه وإحسانا فإنه جرت سنته التي لا تبديل لها أنهم إذا طلبوا الآية واقترحوها
وأجيبوا ولم يؤمنوا عوجلوا بعذاب الاستئصال فلما علم سبحانه أن هؤلاء لا يؤمنون ولو جاءتهم كل آية
لم يجبهم إلى ما طلبوا فلم يعمهم بعذاب لما أخرج منهم ومن أصلابهم عباده المؤمنين وآمن أكثرهم من بعد
ذلك بغير الآية التي اقترحوها فكان عدم إنزال الآيات المطلوبة من تمام حلم الرب ورحمته وإحسانه
بخلاف الحجج فإنها لم تزل متتابعة يتلو بعضها بعضا وهي كل يوم في مزيد وتوفي رسول الله صلى الله عليه
وسلم أكمل ما كانت وهي باقية إلى يوم القيامة وقوله رضي الله عنه أولئك الأقلون
عددا الأعظمون عند الله قدرا يعني هذا الصنف من الناس أقل الخلق عددا وهذا سبب غربتهم
فإنهم قليلون في الناس والناس على خلاف طريقتهم فلهم نبأ وللناس نبأ قال النبي صلى الله عليه وسلم
بدأ الإسلام غريبا وسيعود غريبا فطوبى للغرباء فالمؤمنون قليل في الناس والعلماء قليل في المؤمنين
وهؤلاء قليل في العلماء وإياك أن تغتر بما يغتر به الجاهلون فإنهم يقولون لو كان هؤلاء على حق لم
يكونوا أقل الناس عددا والناس على خلافهم فاعلم أن هؤلاء هم الناس ومن خالفهم فمشبهون بالناس
وليسوا بناس إنما الناس أهل الحق وإن كانوا أقلهم عددا قال ابن مسعود رضي الله عنه
لا يكن أحدكم إمعة يعني يقول أنا مع الناس ليوطن أحدكم نفسه على أن يؤمن ولو كفر الناس وقد ذم سبحانه
الأكثر في غير موضع كقوله وإن تطع أكثر من في الأرض يضلوك عن سبيل الله وقال تعالى وما أكثر
الناس ولو حرصت بمؤمنين وقال تعالى وقليل من عبادي الشكور وقال تعالى وإن
كثيرا من الخلطاء ليبغي بعضهم على بعض إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وقليل ما هم وقال بعض العارفين
انفرادك في طريق طلبك دليل على صدق الطلب

مت بداء الهوى وإلا فخاطر ... واطرق الحي والعيون نواظر
لا تخف وحشة الطريق إذا سرت ... وكن في خفارة الحق سائر

وقوله رضي الله عنه بهم يدفع الله عن حججه حتى يؤدوها إلى نظرائهم ويزرعوها
في قلوب أشباههم وهذا لأن الله سبحانه ضمن حفظ حججه وبيناته وأخبر رسوله أنه لا تزال طائفة من
أمته على الحق لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم إلى قيام الساعة فلا يزال غرس الله الذين غرسهم في
دينه يغرسون العلم في قلوب من أهلهم الله لذلك وارتضاهم فيكونوا ورثة لهم كما كانوا هم ورثة لمن

قبلهم

قبلهم ولا تنقطع حجج الله والقائم بها من الأرض وفي الأثر المشهور لا يزال الله يغرس في هذا الدين غرسا
يستعملهم بطاعته وكان من دعاء بعض من تقدم اللهم اجعلني من غرسك الذين تستعملهم بطاعتك
ولهذا ما أقام الله لهذا الدين من يحفظه ثم قبضه إليه إلا وقد زرع ما علمه من العلم والحكمة إما في
قلوب أمثاله وإما في كتب ينتفع بها الناس بعده وبهذا وغيره فضل العلماء العباد فإن العالم إذا زرع
علمه عند غيره ثم مات جرى عليه أجره وبقي له ذكره وهو عمر ثان وحياة أخرى وذلك أحق ما تنافس
فيه المتنافسون ورغب فيه الراغبون وقوله رضي الله عنه هجم بهم العلم على حقيقة
الأمر فاستلانوا ما استوعره المترفون وأنسوا بما استوحش منه الجاهلون الهجوم على الرجل الدخول عليه
بلا استئذان ولما كانت طريق الآخرة وعرة على أكثر الخلق لمخالفتها لشهواتهم ومباينتها لإراداتهم
ومألوفاتهم قل سالكوها وزهدهم فيها قلة علمهم أو عدمه بحقيقة الأمر وعاقبة العباد ومصيرهم
وما هيئوا له وهي لهم فيقل عليهم بذلك واستلانوا مركب الشهوة والهوى على مركب الإخلاص والتقوى
وتوعرت عليهم الطريق وبعدت الشقة وصعب عليهم مرتقى عقابها وهبوط أوديتها وسلوك شعابها
فأخلدوا إلى الدعة والراحة وآثروا العاجل على الآجل وقالوا عيشنا اليوم نقد وموعدنا نسيئة
فنظروا إلى عاجل الدنيا وأغمضوا العيون عن آجلها وقنعوا من ظاهرها ولم يتأملوا باطنها وذاقوا
حلاوة مبادئها وغاب عنهم مرارة عواقبها ودر لهم ثديها فطاب لهم الارتضاع واشتغلوا به عن التفكر في
الفطام ومرارة الانقطاع وقال مغترهم بالله وجاحدهم لعظمته وربوبيته متمثلا في
ذلك

خذ ما تراه ودع شيئا سمعت به

وأما العارفون بالله وكتابه ودينه خلفاء
نبيه صلى الله عليه وسلم في أمته فإنهم لكمال علمهم وقوته نفذ بهم إلى حقيقة الأمر وهجم بهم عليه فعاينوا
ببصائرهم ما غشيت عنه أبصار الجاهلين فاطمأنت قلوبهم به وعملوا على الوصول إليه لما باشرهم من روح
اليقين رفع لهم علم السعادة فشمروا إليه وأسمعهم منادي الإيمان النداء فاستبقوا إليه واستيقنت
أنفسهم ما وعدهم به ربهم فزهدوا فيما سواه ورغبوا فيما لديه علموا أن الدار دار ممر لا دار مقر ومنزل
عبور لا مقعد حبور وأنها خيال طيف أو سحابة صيف وأن من فيها كراكب قال في ظل شجرة ثم راح وتركها
وتيقنوا أنها أحلام نوم أو كظل زائل إن اللبيب بمثلها لا يخدع وأن واصفها صدق في وصفها إذ
يقول

أرى أشقياء الناس لا يسأمونها ... على أنهم فيها عراة وجوع
أراها وإن كانت تحب فإنها ... سحابة صيف عن قليل تقشع

فترحلت عن قلوبهم مدبرة كما ترحلت عن أهلها مولية وأقبلت الآخرة إلى قلوبهم مسرعة كما أسرعت إلى

الحلو مقبلة ما سطوا ظهور العزايم وهجروا في لذة المنام وما ليل المحب بنايم علموا طول الطريق
وقلة المقام في منزل التزود فشمروا عن سواعد الجهاد وجد بهم السير الى منازل الاحباب فقطعوا المراحل
وطووا المفاوز وهذا كله من ثمرات اليقين فان القلب اذا استيقن ما امامه من كرامة الله وما اعد
لاوليائه بحيث كان ينظر اليه من وراء حجاب الدنيا ويعلم انه اذا زال الحجاب راى ذلك عيانا زالت عنه
الوحشة التي يجدها المتخلفون ولان له ما استوعره المترفون وهذه المرتبة هي اول مراتب اليقين
وهي علمه وتيقنه وهي انكشاف المعلوم للقلب بحيث يشاهده ولا يشك فيه كانكشاف المرئي للبصر
ثم يليها المرتبة الثانية وهي مرتبة عين اليقين ونسبتها الى العين كنسبة الاولى الى القلب ثم يليها
المرتبة الثالثة وهي حق اليقين وهي مباشرة المعلوم وادراكه الادراك التام فالاولى كعلمك بان في
هذا الوادي ماء والثانية كرؤيته والثالثة كالشرب منه **ومن هذا ما روي في حديث**
حارثة وقول النبي صلى الله عليه وسلم كيف اصبحت يا حارثة قال اصبحت مومنا حقا قال ان لكل حق حقيقة
فما حقيقة ايمانك قال عزفت نفسي عن الدنيا وشهواتها فاسهرت ليلي واظمات نهاري وكاني انظر
الى عرش ربي بارزا وكاني انظر الى الجنة يتزاورون فيها والى اهل النار يتعاوون فيها فقال عبد
نور الله قلبه ۝ فهذا هو هجوم العلم بصاحبه على حقيقة الامر ومن وصل الى هذا استلان ما استوعره
المترفون وانس بما يستوحش منه الجاهلون ومن لم يثبت قدم ايمانه على هذه الدرجة فهو ايمان
ضعيف وعلامة هذا انشراح الصدر لمنازل الايمان وانفساحه وطمانينة القلب لامر الله والانابة
الى ذكر الله ومحبته والفرح بلقائه والتجافي عن دار الغرور كما في الاثر المشهور اذا دخل النور القلب
انفسح وانشرح قيل وما علامة ذلك قال التجافي عن دار الغرور والانابة الى دار الخلود والاستعداد للموت
قبل نزوله وهذه هي الحال التي كانت تحصل للصحابة عند النبي صلى الله عليه وسلم اذا ذكرهم الجنة والنار وفي الترمذي
وغيره من حديث الجريري عن ابي عثمان النهدي عن حنظلة الاسيدي وكان من كتاب النبي صلى الله عليه وسلم انه مر بابي بكر
رضي الله عنه وهو يبكي فقال ما لك يا حنظلة فقال نافق حنظلة يا ابا بكر نكون عند رسول الله صلى الله عليه وسلم
يذكرنا بالجنة والنار كانا راي عين فاذا رجعنا عافسنا الازواج والضيعة نسينا كثيرا قال فوالله انا
لكذلك انطلق بنا الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فانطلقنا فلما راه رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ما لك يا حنظلة
قال نافق حنظلة يا رسول الله نكون عندك تذكرنا بالنار والجنة كانا راي عين فاذا رجعنا عافسنا الازواج
والضيعة ونسينا كثيرا قال فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لو تدومون على الحال التي تقومون بها من عندي لصافحتكم
الملائكة في مجالسكم وفي طرقكم وعلى فرشكم ولكن يا حنظلة ساعة وساعة وساعة قال الترمذي

اهلها

هذا حديث حسن صحيح وفي الترمذي ايضا نحوه من حديث ابي هريرة رضي الله عنه والمقصود
ان الذي يهجم بالقلب على حقيقة الايمان ويلين له ما استوعره غيره ويؤنسه بما يستوحش منه سواه العلم
التام والحب الخالص والحب تبع للعلم يقوى بقوته ويضعف بضعفه والمحب لا يستوعر طريقا توصله
الى محبوبه ولا يستوحش فيها **وقوله رضي الله عنه** صحبوا الدنيا بابدان ارواحها
معلقة بالملا الاعلى وفي رواية بالمحل الاعلى الروح في هذا الجسد في دار غربة ولها وطن غيره
فلا تستقر الا في وطنها وهي جوهر علوي مخلوق من مادة علوية وقد اضطرت الى مساكنة هذا البدن
الكثيف فهي دائما تطلب وطنها في المحل الاعلى وتحن اليه حنين الطير الى اوكارها وكل روح فيها ذلك
ولكن لفرط اشتغالها بالبدن بالمحسوسات المالوفة اخلدت الى الارض ونسيت معلمها ووطنها
الذي لا راحة لها في غيره فانه لا راحة للمؤمن دون لقاء ربه والدنيا سجنه حقا فلهذا تجد المؤمن بدنه في الدنيا
وروحه في المحل الاعلى **وفي الحديث المرفوع** اذا نام العبد وهو ساجد باهى الله به الملائكة فيقول انظروا
الى عبدي بدنه في الارض وروحه عندي رواه تمام وغيره وهذا معنى قول بعض السلف القلوب
جوالة فقلب حول الحش وقلب يطوف مع الملائكة حول العرش واعظم عذاب الروح انغماسها وتدسيسها في
اعماق هذا البدن واشتغالها بملاذه وانقطاعها عن ملاحظة ما خلقت له وهيئت له وعن وطنها ومحلها ومحل انسها ومنزل
كرامتها ولكن سكر الشهوات يحجبها عن مطالعة هذا الالم والعذاب فاذا صحت من سكرها وافاقت من غمرتها اقبلت البدن
عليها جيوش الحسرات من كل جانب فحينئذ يتقطع حسرات على ما فاتها من كرامة الله وقربه والانس به والوصول
الى وطنها الذي لا راحة لها الا فيه كما قيل

صحبتك اذ عيني عليها غشاوة ... فلما انجلت قطعت نفسي الومها

ولو تنقلت الروح في المواطن كلها والمنازل لم تستقر ولم تطمئن الا في وطنها ومحلها الذي خلقت له كما قيل

نقل فؤادك حيث شئت من الهوى ... ما الحب الا للحبيب الاول
كم منزل في الارض يالفه الفتى ... وحنينه ابدا لاول منزل

واذا كانت الروح ابدا تحن الى وطنها من الارض مع قيام غيره مقامه في السكنى وكثيرا ما يكون غيره وطنها
احسن واطيب منه وهي انما تحن اليه مع انه لا ضرر عليها ولا عذاب في مفارقته الى مثله فكيف بحنينها الى
الوطن الذي في فراقها له عذابها والمها وحسرتها التي لا تنقضي فالعبد المؤمن في هذه الدار سبي من الجنة
الى دار التعب والعناء ثم ضرب عليه الرق فيها فكيف يلام على حنينه الى داره التي سبي منها وفرق بينه وبين
من يحب وجمع بينه وبين عدوه فروحه دائما معلقة بذلك الوطن وبدنه في الدنيا ولي من ابيات في ذلك

وحيّ على جنات عدن فإنها منازلك الأولى وفيها المخيّم
ولكننا سبي العدو فهل ترى نعود إلى أوطاننا ونسلم

وكلما أراد منه العدو نسيان وطنه وضرب الذكر عنه صفحاً وإبلاءه وطناً غيره أبى ذلك روحه وقلبه كما قيل

يراد من القلب نسيانكم وتأبى الطباع على الناقل

ولهذا كان المؤمن غريباً في هذه الدار أين حل منها فهو في دار غربة كما قال النبي صلى الله عليه وسلم كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل ولكنها غربة تنقضي ويصير إلى وطنه ومنزله وإنما الغربة التي لا يرجى انقطاعها غربة في دار الهوان ومفارقة وطنه الذي كان هيئ له وأعد له وأمر بالتجهز إليه والقدوم عليه فأبى إلا اغترابه عنه ومفارقته له فتلك غربة لا يرجى إيابها ولا يجبر مصابها ولا سبيل إلى انكار كون البدن في الدنيا والروح في الملأ الأعلى فللروح شأن وللبدن شأن والنبي صلى الله عليه وسلم كان بين ظهراني أصحابه وهو عند ربه يطعمه ويسقيه فبدنه بينهم وروحه وقلبه عند ربه وقال أبو الدرداء رضي الله عنه إذا نام العبد عرج بروحه إلى تحت العرش فإن كان طاهراً أذن لها بالسجود وإن لم يكن طاهراً لم يؤذن لها بالسجود فهذه والله أعلم هي العلة التي أمر الجنب لأجلها أن يتوضأ إذا أراد النوم وهذا الصعود إنما كان لتجرد الروح عن البدن بالنوم فإذا تجردت بسبب آخر حصل لها الترقي والصعود بحسب ذلك التجرد وقد يقوى الحب بالمحب حتى لا يشاهد منه بين الناس إلا جسمه وروحه في موضع آخر عند محبوبه وفي هذا من أشعار الناس وحكاياتهم ما هو معروف وقوله رضي الله عنه أولئك خلفاء الله في أرضه ودعاة إلى دينه هذا احتج به أحد القولين في أنه يجوز أن يقال فلان خليفة الله في أرضه واحتج أصحابه أيضاً بقوله تعالى للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة واحتجوا بقوله تعالى وهو الذي جعلكم خلائف الأرض وهذا خطاب لنوع الإنسان وبقوله أمن يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء ويجعلكم خلفاء الأرض وبقول موسى لقومه عسى ربكم أن يهلك عدوكم ويستخلفكم في الأرض فينظر كيف تعملون وبقول النبي صلى الله عليه وسلم إن الله ممكنكم في الأرض ومستخلفكم فيها فناظر كيف تعملون فاتقوا الدنيا واتقوا النساء واحتجوا بقول الراعي يخاطب أبا بكر رضي الله عنه

أخليفة الرحمن إنا معشر حنفاء نسجد بكرة وأصيلا
عرب نرى لله في أموالنا حق الزكاة منزلاً تنزيلا

ومنعت طائفة هذا الإطلاق وقالت لا يقال لأحد إنه خليفة الله فإن الخليفة إنما يكون عمن يغيب ويخلفه غيره والله تعالى شاهد غير غائب قريب غير بعيد راءٍ وسامع فمحال

ان

أن يخلفه غيره بل هو سبحانه الذي يخلف عبده المؤمن فيكون خليفته كما قال النبي صلى الله عليه وسلم في حديث الدجال إن يخرج وأنا فيكم فأنا حجيجه دونكم وإن يخرج ولست فيكم فامرؤ حجيج نفسه والله خليفتي على كل مؤمن والحديث في الصحيح وفي صحيح مسلم أيضاً من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول إذا سافر اللهم أنت الصاحب في السفر والخليفة في الأهل الحديث وفي الحديث أن النبي صلى الله عليه وسلم قال اللهم اغفر لأبي سلمة وارفع درجته في المهديين واخلفه في أهله فالله تعالى هو خليفة العبد لأن العبد يموت فيحتاج إلى من يخلفه في أهله قالوا ولهذا أنكر الصديق رضي الله عنه على من قال له يا خليفة الله وقال لست بخليفة الله ولكني خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم وحسبي ذلك قالوا وأما قوله تعالى إني جاعل في الأرض خليفة فلا خلاف أن المراد به آدم وذريته وجمهور أهل التفسير من السلف والخلف على أنه جعله خليفة عمن كان قبله في الأرض قيل عن الجن الذين كانوا سكانها وقيل عن الملائكة الذين سكنوها بعد الجن وقصتهم مذكورة في التفاسير وأما قوله تعالى وهو الذي جعلكم خلائف الأرض فليس المراد به خلائف عن الله وإنما المراد به أنه جعلكم يخلف بعضكم بعضاً فكلما هلك قرن خلفه قرن إلى آخر الدهر ثم قيل إن هذا خطاب لأمة محمد خاصة أي جعلكم خلائف من الأمم الماضية فهلكوا وورثتم أنتم الأرض من بعدهم ولا ريب أن هذا الخطاب للأمة والمراد نوع الإنسان الذي جعل الله أباهم خليفة عمن قبله وجعل ذريته يخلف بعضهم بعضاً إلى قيام الساعة ولهذا جعل هذا آية من آياته كقوله تعالى أمن يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء ويجعلكم خلفاء الأرض وأما قول موسى صلى الله عليه وسلم لقومه ويستخلفكم في الأرض فليس ذلك استخلافاً عنه وإنما هو استخلاف عن فرعون وقومه أهلكهم وجعل قوم موسى خلفاء من بعدهم وكذا خلفاء من بعدهم قالوا وأما قول الراعي فقول شاعر قاله في قصيدة في غيبة الصديق رضي الله عنه لا يدري أبلغت أبا بكر أم لا ولو بلغته فلا يعلم أنه أقره على هذه اللفظة قلت إن أريد بالإضافة إلى الله أنه خليفة عنه فالصواب قول الطائفة المانعة منها وإن أريد بالإضافة أن الله استخلفه عن غيره ممن كان قبله فهذا لا يمتنع فيه الإضافة وحقيقتها خليفة الله الذي جعله خلفاً عن غيره وبهذا يخرج الجواب عن قول أمير المؤمنين أولئك خلفاء الله في أرضه فإن قيل فهذا لا مدح فيه لأن هذا الاستخلاف عام في الأمة وخلافة الله التي ذكرها أمير المؤمنين خاصة بخواص الخلق فالجواب أن الاختصاص المذكور أفاد اختصاص الإضافة فالإضافة هنا للتشريف والتخصيص كما يضاف إليه عباده بقوله إن عبادي ليس لك عليهم سلطان وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هوناً ونظائرها ومعلوم

ان كل الخلق عباد لله فخلفاء الارض كالعباد في قوله والله بصير بالعباد وما الله يريد ظلما للعباد وخلفاء الله كعباد الله في قوله ان عبادي ليس لك عليهم سلطان ونظائره وحقيقة اللفظ ان الخليفة هو الذي يخلف الذاهب اي يجيء بعده يقال خلف فلان فلانا واصلها خليف بغير هاء لانها فعيل بمعنى فاعل كالعليم والقدير فدخلت الهاء للمبالغة في الوصف كراوية وعلامة ولهذا جمع جمع فعيل فقيل خلفاء كشريف وشرفاء وكريم وكرماء ومن راعى لفظه بعد دخول الهاء عليه جمعه على فعائل فقال خلائف كصحيفة وصحائف وطريفة وطرائف وكلاهما ورد به القرآن هذا قول جماعة من النحاة والصواب ان الهاء انما دخلت فيها للنقل عن الوصف الى الاسم فان الكلمة صفة في الاصل ثم اجريت مجرى الاسماء فالحقت الهاء لذلك كما قالوا نطيحة بالهاء فاذا اجروها صفة قالوا شاة نطيح كما تقول كف خضيب والا فلا معنى للمبالغة في خليفة حتى يلحقها تاء المبالغة والله اعلم وقوله رضي الله عنه ودعاته الى دينه الدعاة جمع داع كقاض وقضاة ورام ورماة واضافهم الى الله للاختصاص اي الدعاة المخصوصون به الذين يدعون الى دينه وعبادته ومعرفته ومحبته وهؤلاء هم خواص خلق الله وافضلهم عند الله منزلة واعلاهم قدرا يدل على ذلك الوجه الثلاثون بعد المائة وهو قوله تعالى ومن احسن قولا ممن دعا الى الله وعمل صالحا وقال انني من المسلمين قال الحسن هو المؤمن اجاب الله في دعوته ودعا الناس الى ما اجاب الله فيه من دعوته وعمل صالحا في اجابته فهذا حبيب الله هذا ولي الله فمقام الدعوة الى الله افضل مقامات العبد قال تعالى وانه لما قام عبد الله يدعوه كادوا يكونون عليه لبدا وقال تعالى ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي احسن فجعل سبحانه مراتب الدعوة بحسب مراتب الخلق فالمستجيب القابل الذكي الذي لا يعاند الحق ولا يأباه يدعى بطريق الحكمة والقابل الذي عنده نوع غفلة وتاخر يدعى بالموعظة الحسنة وهي الامر والنهي المقرون بالرغبة والرهبة والمعاند الجاحد يجادل بالتي هي احسن هذا هو الصحيح في معنى الاية لا ما يزعم اسير منطق اليونان ان الحكمة قياس البرهان وهو دعوة الخواص والموعظة الحسنة قياس الخطابة وهو دعوة العوام والمجادلة بالتي هي احسن القياس الجدلي وهو رد شغب المشاغب بقياس جدلي مسلم المقدمات وهذا باطل وهو مبني على اصول الفلسفة وهو مناف لاصول المسلمين وقواعد الدين من وجوه كثيرة ليس هذا موضع ذكرها وقال تعالى قل هذه سبيلي ادعو الى الله على بصيرة انا ومن اتبعني قال الفراء وجماعة ومن اتبعني معطوف على الضمير في ادعو يعني ومن اتبعني يدعو الى الله كما ادعو وهذا قول الكلبي قال حق على كل من اتبعه ان يدعو الى ما دعا اليه ويذكر بالقرآن والموعظة الحسنة ويقوي هذا القول من وجوه كثيرة قال ابن الانباري ويجوز ان يتم الكلام عند قوله

الى الله

الى الله ثم يبتدئ على بصيرة انا ومن اتبعني فيكون الكلام على قوله جملتين اخبر في اولاهما انه يدعو الى الله وفي الثانية بانه من اتباعه على بصيرة والقولان متلازمان فلا يكون الرجل من اتباعه حقا حتى يدعو الى ما دعا اليه وقول الفراء احسن واقرب الى الفصاحة والبلاغة واذا كانت الدعوة الى الله اشرف مقامات العبد واجلها وافضلها فهي لا تحصل الا بالعلم الذي يدعو به واليه بل لا بد في كمال الدعوة من البلوغ في العلم الى حد يصل اليه السعي ويكفي هذا في شرف العلم ان صاحبه يحوز به هذا المقام والله يؤتي فضله من يشاء الوجه الحادي والثلاثون بعد المائة انه لو لم يكن من فوائد العلم الا انه يثمر اليقين الذي هو اعظم حياة القلب وبه طمانينته وقوته ونشاطه وسائر لوازم الحياة ولهذا مدح الله سبحانه اهله في كتابه واثنى عليهم بقوله وبالآخرة هم يوقنون وقوله قد بينا الآيات لقوم يوقنون وقوله في حق خليله ابراهيم صلى الله عليه وسلم وكذلك نري ابراهيم ملكوت السموات والارض وليكون من الموقنين وذم من لا يقين عنده فقال ان الناس كانوا باياتنا لا يوقنون وفي الحديث المرفوع من حديث سفيان الثوري عن سليمان التيمي عن خيثمة عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه رفعه لا ترضين احدا بسخط الله ولا تحمدن احدا على فضل الله ولا تذمن احدا على ما لم يؤتك الله فان رزق الله لا يسوقه حرص حريص ولا يرده عنك كراهية كاره وان الله بعدله وقسطه جعل الروح والراحة والفرح في الرضا واليقين وجعل الهم والحزن في الشك والسخط فاذا باشر القلب اليقين امتلأ نورا وانتفى عنه كل ريب وشك وعوفي من امراضه القاتلة وامتلأ شكرا لله وذكرا له ومحبة وخوفا فحيي عن بينة واليقين والمحبة هما ركنا الايمان وعليهما ينبني وبهما قوامه وهما يمدان سائر الاعمال القلبية والبدنية وعنهما تصدر وبضعفهما يكون ضعف الاعمال وبقوتهما وجميع منازل السائرين قوتها؟ ومقامات العارفين انما تفتح بهما وهما يثمران كل عمل صالح وعلم نافع وهدى مستقيم قال شيخ العارفين الجنيد رحمه الله اليقين هو استقرار العلم الذي لا ينقلب ولا يحول ولا يتغير في القلب وقال سهل حرام على قلب ان يشم رائحة اليقين وفيه سكون الى غير الله وقال غيره من علامات اليقين الالتفات الى الله في كل نازلة والرجوع اليه في كل امر والاستعانة به في كل حال وارادة وجهه بكل حركة وسكون وقال السري اليقين سكونك عند جولان الموارد في صدرك لتيقنك ان حركتك فيها لا تنفعك ولا ترد عنك مقضيا قلت هذا اذا لم تكن الحركة مامورا بها فاذا كانت مامورا بها فاليقين في بذل الجهد فيها واستفراغ الوسع وقيل اذا استكمل العبد حقيقة اليقين صار البلاء عنده نعمة والمحنة منحة فالعلم اول درجات اليقين ولهذا قيل العلم يستعملك واليقين

بجملته فاليقين افضل مواهب الرب لعبده ولا تثبت قدم الرضا الا على درجة اليقين قال تعالى ما اصاب من مصيبة الا باذن الله ومن يومن بالله يهد قلبه قال ابن مسعود رضي الله عنه هو العبد تصيبه المصيبة فيعلم انها من الله فيرضى ويسلم فلهذا لم يحصل له هداية القلب والرضى والتسليم الا بيقينه قال في الصحاح اليقين العلم وزوال الشك يقال منه يقنت الامر بالكسر يقنا واستيقنت وايقنت وتيقنت كله بمعنى واحد وانا على يقين منه وانما صارت الياء واوا في موقن للضمة قبلها واذا صغرته رددته الى الاصل فقلت مييقن وربما عبروا عن الظن باليقين وباليقين عن الظن قال

تحسب هواس وايقن انني بها مفتد من واحد لا اغامره

يقول تشمم الاسد ناقتي يظن انني افتدي بها منه واستحمي نفسي فاتركها له ولا اقتحم المهالك بمقاتلته

قلت هذا موضع اختلف فيه اهل اللغة والتفسير هل يستعمل اليقين في موضع الظن والظن في موضع اليقين فرأى ذلك طائفة منهم الجوهري وغيره واحتجوا بما تقدم من ذكره وبقوله تعالى الذين يظنون انهم ملاقوا ربهم وانهم اليه راجعون ولو شكوا في ذلك لم يكونوا مومنين فضلا عن ان يمدحوا بهذا المدح وبقوله قال الذين يظنون انهم ملاقوا الله كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله وبقوله ورأى المجرمون النار فظنوا انهم مواقعوها وبقول الشاعر

فقلت لهم ظنوا بالفي مقاتل سراتهم في الفارسي المسرد

اي استيقنوا بهذا العدد وابى ذلك طائفة وقالوا لا يكون اليقين الا للعلم واما الظن فمنهم من وافق على انه يكون بمعنى العلم ومنهم من قال لا يكون الظن في موضع اليقين واجابوا عما احتج به من جوز ذلك بان قالوا هذه المواضع التي زعمتم ان الظن وقع فيها موقع اليقين على بابها فانا لم نجد ذلك الا في علم بمغيب ولم نجدهم كلها يقولون لمن رأى الشيء اظنه ولمن ذاقه اظنه وانما يقال للغايب قد عرف بالسمع والعلم فاذا صار الى المشاهدة امتنع اطلاق الظن عليه قالوا وبين العيان والخبر مرتبة متوسطة باعتبارها اوقع على العلم بالغايب الظن لفقد الحال التي تحصل المدركة بالمشاهدة وعلى هذا خرجت سائر الادلة التي ذكرتموها ولا يرد على هذا قوله ورأى المجرمون النار فظنوا انهم مواقعوها لان الظن انما وقع على مواقعتها وهي غير حال الروية فاذا واقعوها لم يكن ذلك ظنا بل حق يقين قالوا واما قول الشاعر وايقن اني بها مفتد فعلى بابه لانه ظن ان الاسد يتقيه بشجاعته وجراته موقن بان الرجل يدع ناقته ويفتدي بها من نفسه قالوا وعلى هذا يخرج معنى الحديث نحن احق بالشك من ابراهيم وفيه اجوبة لكن بين العيان والخبر رتبة طلب ابراهيم زوالها بقوله ولكن ليطمئن قلبي فعبر عن تلك الرتبة بالشك

والله

والله اعلم **الوجه** الثالث والثلاثون بعد المائة ما رواه ابو يعلى الموصلي في مسنده من حديث انس بن مالك رضي الله عنه يرفعه الى النبي صلى الله عليه وسلم قال طلب العلم فريضة على كل مسلم وهذا وان كان في سنده حفص بن سليمان وقد ضعف فمعناه صحيح فان الايمان فرض على كل احد وهو ماهية مركبة من علم وعمل فلا يتصور وجود الايمان الا بالعلم والعمل ثم شرائع الاسلام واجبة على كل مسلم ولا يمكن اداؤها الا بعد معرفتها والعلم بها والله تعالى اخرج عباده من بطون امهاتهم لا يعلمون شيئا فطلب العلم فريضة على كل مسلم وهل تمكن عبادة الله التي هي حقه على العباد الا بالعلم وهل ينال العلم الا بطلبه ثم ان العلم المفروض تعلمه ضربان ضرب منه فرض عين لا يسع مسلما جهله وهو انواع النوع الاول علم اصول الايمان الخمسة الايمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الاخر فان من لم يومن بهذه الخمس لم يدخل في باب الايمان ولا يستحق اسم المومن قال الله تعالى ولكن البر من امن بالله واليوم الاخر والملائكة والكتاب والنبيين وقال ومن يكفر بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الاخر فقد ضل ضلالا بعيدا ولما سال جبريل عليه الصلاة والسلام رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الايمان قال ان تومن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الاخر قال صدقت فالايمان بهذه الاصول فرع معرفتها والعلم بها النوع الثاني علم شرائع الاسلام واللازم منها علم ما يخص العبد من فعلها كعلم الوضوء والصلاة والصيام والحج والزكاة وتوابعها وشروطها ومبطلاتها النوع الثالث علم المحرمات الخمس التي اتفقت عليها الرسل والشرائع والكتب الالهية وهي المذكورة في قوله تعالى قل انما حرم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن والاثم والبغي بغير الحق وان تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانا وان تقولوا على الله ما لا تعلمون فهذه محرمات على كل احد في كل حال على لسان كل رسول لا تباح قط ولهذا اتى فيها بانما المفيدة للحصر مطلقا وغيرها محرم في وقت مباح في غيره كالميتة والدم ولحم الخنزير ونحوه فهذه ليست محرمة على الاطلاق والدوام فلم تدخل تحت التحريم المحصور المطلق **النوع الرابع** علم احكام المعاشرة والمعاملة التي تحصل بينه وبين الناس خصوصا وعموما والواجب في هذا النوع يختلف باختلاف احوال الناس ومنازلهم فليس الواجب على الامام مع رعيته كالواجب على الرجل مع اهله وجيرته وليس الواجب على من نصب نفسه لانواع التجارات من تعلم احكام البياعات كالواجب على من لا يبيع ولا يشتري الا ما تدعو الحاجة اليه وتفصيل هذه الجملة لا ينضبط بحد لاختلاف الناس في اسباب العلم الواجب وذلك يرجع الى ثلاثة اصول اعتقاد وفعل وترك فالواجب في الاعتقاد مطابقته للحق في نفسه والواجب في العمل معرفة موافقة حركات العبد الظاهرة والباطنة الاختيارية للشرائع امرا واباحة والواجب

الترك معرفة موافقة الكف والسكون لمرضاة الله وان المطلوب منه ابقاء هذا الفعل على عدمه
المستصحب فلا يتحرك في طلبه او كف النفس عن فعله على الطريقين وقد دخل في هذه الجملة علم حركات
القلوب والابدان واما فرض الكفاية فلا اعلم فيه ضابطا صحيحا فان كل احد يدخل في ذلك ما يظنه فرضا
فيدخل بعض الناس في ذلك علم الطب وعلم الحساب وعلم الهندسة والمساحات ونحوها وبعضهم يزيد على
ذلك علم المنطق وربما جعله فرض عين وبناه على عدم صحة ايمان المقلد وكل هذا هوس وخبط فلا فرض
الا ما فرضه الله ورسوله فيا سبحان الله هل فرض الله على كل مسلم ان يكون طبيبا حجاما حاسبا مهندسا او حائكا
او فلاحا او نجارا او خياطا فان فرض الكفاية كفرض العين في تعلقه بعموم المكلفين وانما يخالفه في سقوطه
بفعل البعض ثم على قول هذا القائل يكون الله قد فرض على كل احد جملة هذه الصنائع والعلوم فانه
ليس واحد منها فرضا على معين والآخر على معين آخر بل عموم فرضيتها مشتركة بين العموم فيجب على كل احد
ان يكون حاسبا حائكا خياطا نجارا فلاحا طبيبا مهندسا فان قال المجموع فرض على المجموع لم يكن
قولك ان كل واحد منها فرض كفاية صحيحا لان فرض الكفاية يجب على العموم واما المنطق فلو كان علما
صحيحا كان غايته ان يكون كالمساحة والهندسة ونحوها فكيف وباطله اضعاف حقه وفساده وتناقض
اصوله واختلاف مبانيه توجب مراعاتها للذهن ان يزيغ في فكره ولا يؤمن بهذا الا من قد عرفه وعرف فساده
وتناقضه ومناقضة كثير منه للعقل الصريح واخبر بعض من كان قد قرأه وعني به انه لم يزل متعجبا من فساد
اصوله وقواعده ومباينتها للصريح المعقول وتضمنها لدعاوي محضة غير مدلول عليها وتفريقه بين
متساويين وجمعه بين مختلفين فيحكم على الشيء بحكم وعلى نظيره بضد ذلك الحكم او يحكم على الشيء بحكم ثم يحكم على
مضاده او مناقضه به قال الى ان سألت بعض رؤسائه وشيوخ اهله عن شيء من ذلك فافكر فيه ثم قال
هذا علم قد صقلته الاذهان ومرت عليه من عهد القرون الاوائل او كما قال فينبغي ان نتسلمه من اهله وكان
هذا افضل من رأيت في المنطق قال الى ان وقفت على رد متكلمي الاسلام عليه وتبيين فساده وتناقضه
فوقفت على مصنف لابي سعيد السيرافي النحوي في ذلك وعلى رد كثير من اهل الكلام والعربية عليهم كالقاضي
ابي بكر بن الطيب والقاضي عبد الجبار والجبائي وابنه وابي المعالي وابي القاسم الانصاري وخلق لا يحصون
كثرة ورأيت استشكالات فضلائهم ورؤسائهم لمواضع الاشكال ومخالفتها لما كان يقدح لي كثير منه ورأيت
آخر من تجرد للرد عليهم شيخ الاسلام قدس الله روحه فانه اتى في كتابيه الكبير والصغير بالعجب العجاب
وكشف اسرارهم وهتك استارهم فقلت في ذلك، واعجبا لمنطق اليونان، كم فيه من افك ومن بهتان،
مخبط لجيد الاذهان، ومفسد لفطرة الانسان، ومشكل للعقل واللسان، مضطرب الاصول والمباني،
على شفا هار وبناء الباني احوج ما كان اليه العاقل يخونه في السر والاعلان يمشي به اللسان في الميدان

متى

متى معتمد على صفوان، منصل العثار والتواني، كأنه سراب بقيعان، يبدو للعين الظمآن الحيران،
فاتيه بالظن والحسبان، يرجو شفاء علة الظمآن، فلم يجده سوى الحرمان، فعاد بالخيبة والخسران،
يقرع سن نادم حيران، قد ضاع منه العمر في الاماني، وعاين الخفة في الميزان ه وما كان من هوس
النفوس بهذه المنزلة فهو بان يكون جهلا اولى منه بان يكون علما تعلمه فرض كفاية او فرض عين
وهذا الشافعي واحمد وسائر ائمة الاسلام وتصانيفهم وسائر ائمة العربية وتصانيفهم وائمة
التفسير وتصانيفهم لمن نظر فيها هل راعوا فيها حدود المنطق واوضاعه وهل صح لهم علمهم بدونه
ام لا بل هم كانوا اجل قدرا واعظم عقولا من ان يشغلوا افكارهم بهذيان المنطقيين وما دخل المنطق
على علم الا افسده وغير اوضاعه وشوش قواعده ومن الناس من يقول ان علوم العربية من التصريف والنحو
واللغة والمعاني والبيان ونحوها تعلمها فرض كفاية لتوقف فهم كلام الله ورسوله عليها ومن الناس
من يقول تعلم اصول الفقه فرض كفاية لانه العلم الذي يعرف به الدليل ومرتبته وكيفية الاستدلال وهذه
الاقوال وان كانت اقرب الى الصواب من القول الاول فليس وجوبها عاما على كل احد ولا في كل وقت
وانما يجب وجوب الوسائل في بعض الازمان وعلى بعض الاشخاص بخلاف الفرض الذي يعم وجوبه كل احد
وهو علم الايمان وشرائع الاسلام فهذا هو الواجب واما ما عداه فان توقفت معرفته عليه
فهو من باب ما لا يتم الواجب الا به ويكون الواجب منه القدر الموصل اليه دون المسائل التي هي فضلة
لا يفتقر معرفة الخطاب وفهمه عليها فلا يطلق القول بان علم العربية واجب على الاطلاق اذ الكثير منه
ومن مسائله وبحوثه لا يتوقف فهم كلام الله ورسوله عليها وكذلك اصول الفقه القدر الذي يتوقف فهم
الخطاب عليه منه تجب معرفته دون المسائل المقدرة والابحاث التي هي فضلة فكيف يقال ان تعلمها واجب
وبالجملة فالمطلوب الواجب من العبد من العلوم والاعمال اذا توقف على شيء منها كان ذلك الشيء
واجبا وجوب الوسائل ومعلوم ان ذلك التوقف يختلف باختلاف الاشخاص والالسنة والاذهان
فليس لذلك حد مقدر والله اعلم

الوجه الثالث والثلاثون بعد المائة

ما رواه ابن حبان في صحيحه من حديث ابي هريرة رضي الله عنه يرفعه الى النبي صلى الله عليه وسلم قال سأل
موسى عليه الصلاة والسلام ربه عن ست خصال كان يظن انها له خالصة والسابعة لم يكن موسى يحبها قال يا
رب اي عبادك اتقى قال الذي يذكر ولا ينسى قال فاي عبادك اهدى قال الذي يتبع الهدى قال
فاي عبادك احكم قال الذي يحكم للناس كما يحكم لنفسه قال اي عبادك اعلم قال عالم لا يشبع من العلم
يجمع علم الناس الى علمه قال فاي عبادك اعز قال الذي اذا قدر غفر قال فاي عبادك اغنى قال

الذي يرضى بما اوتي قال فاي عباد الله افقر قال صاحب منقوص فاخبر في هذا الحديث ان اعلم
عباد الله الذي لا يشبع من العلم فهو يجمع علم الناس الى علمه لنهمته في العلم وحرصه عليه ولا ريب ان كون
العبد اعلم عباد الله من اعظم اوصاف كماله وقد اهوى الذي حمل موسى على الرحلة الى عالم الارض ليعلمه
مما علمه الله هذا وهو كليم الرحمن واكرم الخلق على الله في زمانه واعلم الخلق فحمله حرصه ونهمته في العلم
على الرحلة الى العالم الذي وصف له فلولا ان العلم اشرف ما بذلت فيه المهج وانفقت فيه الانفاس لما اشتغل
موسى صلى الله عليه وسلم عن الرحلة الى الخضر بما هو بصدده من امر الامة وعن مقاساة النصب والتعب في رحلته وتلطفه
للخضر في قوله هل اتبعك على ان تعلمن مما علمت رشدا ولم يرد من اتباعه حتى اساء اليه في ذلك واخبره انه جاء متعلما
مستفيدا فهذا النبي الكريم عليه وعلى نبينا وسائر الانبياء والمرسلين افضل الصلاة والتسليم كان عالما بقدر العلم
واهله صلوات الله وسلامه عليه وعلى سائرهم **الوجه** الرابع والثلاثون بعد المائة ان الله سبحانه
خلق الخلق لعبادته الجامعة لمحبته وايثار مرضاته المستلزمة لمعرفته ونصب للعباد علما لا كمال لهم الا به
وهو ان يكون حركاتهم كلها واقعة على وفق مرضاته ومحبته ولذلك ارسل رسله وانزل كتبه وشرع
شرايعه فكمال العبد الذي لا كمال له الا به ان يكون حركاته موافقة لما يحبه الله منه ويرضاه له ولهذا
جعل اتباع رسوله دليلا على محبته قال تعالى ان كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم
والله غفور رحيم فالمحب الصادق يرى خيانة منه لمحبوبه ان يتحرك بحركة اختيارية في غير مرضاته واذا فعل منه صح
فعلا مما ابيح له بموجب طبيعته وشهوته تاب منه كما يتوب من الذنب ولا يزال هذا الامر يقوى عنده حتى
تنقلب مباحاته كلها طاعات فيحتسب نومه وفطره وراحته كما يحتسب قومته وصومه واجتهاده وهو
دائما بين سراء يشكر الله عليها وضراء يصبر عليها فهو سائر الى الله دائما في نومه ويقظته قال
بعض العلماء الاكياس عاداتهم عبادات والحمقى عباداتهم عادات وقال بعض السلف حبذا
نوم الاكياس وفطرهم يغبنون به سهر الحمقى وصومهم فالمحب الصادق ان نطق نطق لله وبالله وان سكت
سكت لله وان تحرك فبامر الله وان سكن فسكونه استعانة على مرضاة الله فهو لله وبالله ومع الله ومعلوم
ان صاحب هذا المقام احوج خلق الله الى العلم فانه لا يتميز له الحركة لله من غيرها ولا السكون المحبوب
له من غيره الا بالعلم فليست حاجته الى العلم كحاجة من طلب العلم لذاته ولانه في نفسه صفة كمال بل حاجته
اليه كحاجته الى ما به قوام نفسه وذاته ولهذا اشتد وصاة الشيوخ العارفين لمريديهم بالعلم
وطلبه وانه من لم يطلب العلم لم يفلح حتى كانوا يعدون من لا علم له من السفلة قال ذو النون
وقد سئل عن السفلة هو من لا يعرف الطريق الى الله ولا يتعرفه وقال ابو يزيد لو نظرتم الى الرجل

وقد اعطي من الكرامات حتى يتربع في الهواء فلا تغتروا به حتى تنظروا كيف تجدونه عند الامر والنهي وحفظ
الحدود ومعرفة الشريعة وقال ابو حمزة البزاز من علم طريق الحق سهل عليه سلوكه ولا دليل على الطريق
الا متابعة الرسول في اقواله وافعاله واحواله وقال محمد بن الفضل الصوفي الزاهد ذهاب الاسلام
على يدي اربعة اصناف من الناس صنف لا يعملون بما يعلمون وصنف يعملون بما لا يعلمون وصنف لا يعلمون
ولا يعملون وصنف يمنعون الناس من التعلم **قلت** الصنف الاول من له علم بلا عمل فهو اضر
شيء على العامة فانه حجة لهم في كل نقيصة ومنحسة والصنف الثاني العابد الجاهل فان الناس يحسنون
الظن به لعبادته وصلاحه فيقتدون به على جهله وهذان الصنفان هما اللذان ذكرهما بعض السلف
في قوله احذروا فتنة العالم الفاجر والعابد الجاهل فان فتنتهما فتنة لكل مفتون فان الناس انما يقتدون
بعلمائهم وعبادهم فاذا كان العلماء فجرة والعباد جهلة عمت المصيبة بهما وعظمت الفتنة على الخاصة
والعامة والصنف الثالث الذين لا علم لهم ولا عمل وانما هم كالانعام السائمة
والصنف الرابع نواب ابليس في الارض وهم الذين يثبطون الناس عن طلب العلم والتفقه في الدين
فهؤلاء اضر عليهم من شياطين الجن فانهم يحولون بين القلوب وبين هدى الله وطريقه فهؤلاء الاربعة كلهم
اصناف هم الذين ذكرهم هذا العارف رحمة الله عليه وهؤلاء على شفا جرف هار وعلى سبيل هلكة
وما يلقى العالم الداعي الى الله ورسوله ما يلقاه من الاذى والمحاربة الا على ايديهم والله يستعمل من يشاء
في سخطه كما يستعمل من يحب في مرضاته انه بعباده خبير بصير ولا ينكشف سر هذه الطوائف وطريقتهم
الا بالعلم فعاد الخير بحذافيره الى العلم وموجبه والشر بحذافيره الى الجهل وموجبه **الوجه**
الخامس والثلاثون بعد المائة ان الله سبحانه جعل العلماء وكلاء وامناء على دينه ووحيه وارتضاهم
لحفظه والقيام به والذب عنه وناهيك بها منزلة شريفة ومنقبة عظيمة قال تعالى ذلك هدى
الله يهدي به من يشاء من عباده ولو اشركوا لحبط عنهم ما كانوا يعملون اولئك الذين اتيناهم الكتاب والحكم
والنبوة فان يكفر بها هؤلاء فقد وكلنا بها قوما ليسوا بها بكافرين وقد قيل ان هؤلاء القوم
هم الانبياء وقيل اصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وقيل كل مومن هذه امهات الاقوال
بعد اقوال متفرعة عن هذه كقول من قال هم الانصار او المهاجرون والانصار او قوم من ابناء فارس
وقال اخرون هم الملائكة قال ابن جرير واولى هذه الاقوال بالصواب انهم الانبياء الثمانية
عشر الذين سماهم في الايات قبل هذه الاية قال وذلك ان الخبر في الايات قبلها عنهم مضى وفي التي بعدها
عنهم ذكر فما بينها بان يكون خبرا عنهم اولى واحق من ان يكون خبرا عن غيرهم قال فالتاويل فان يكفر قومك من قريش

يا محمد ما أتينا وكذبوا بها وجحدوا حقيقتها فقد استحفظناها واسترعينا القيام بها رسلنا وأنبياءنا وملك
الذين لا يجحدون حقيقتها ولا يلحدون بها ولكنهم يصدقون بها ويؤمنون بصحتها قلت المشهور
مكة والإشارة بقوله هؤلاء إلى من هو من قومه أصلا ومن عداهم تبعا فيدخل فيها من كفر بها من هذه
الأمة والقوم الموكلون بها هم الأنبياء أصلا والمؤمنون بهم تبعا فيدخل فيها كل من قام بحفظها والذب
عنها والدعوة إليها ولا ريب أن هذا للأنبياء أصلا وللمؤمنين بهم تبعا وأحق من دخل فيها من أتباع الرسول
خلفاؤه في أمته وورثته فهم الموكلون بها وهذا أصح الأقوال التي قيلت في الآية وأما قول من قال
إنهم الملائكة فضعيف جدا لا يدل عليه السياق وتأباه لفظة قوم إذ الغالب في القرآن بل المطرد تخصيص
القوم ببني آدم دون الملائكة وأما قول إبراهيم لهم قوم منكرون فإنما قاله لما ظنهم من الإنس وأيضا فلا
يقتضيه تمام المعنى ومقصوده ولهذا أظهر ذلك وقيل إن يكفر بها كفار قومك فقد وكلنا
بها الملائكة فإنهم لا يكفرون بها لم تحصل منه التسلية وتحقير شأن الكفرة وسائر عدم تأهلهم لها والإنعام
عليهم وإيثار غيرهم من أهل الإيمان الذين سبقت لهم الحسنى عليهم لكونهم أحق بها وأهلها والله أعلم حيث
يضع هداه ويخص به من يشاء وأيضا فإن في هذه الآية إشارة وبشارة بحفظها وأنه لا ضيعة عليها وأن
هؤلاء وإن ضيعوها ولم يقبلوها فإن لها قوما غيرهم يقبلونها ويحفظونها ويرعونها ويذبون عنها فكفر هؤلاء
بها لا يضيعها ولا يذهبها ولا يضرها شيئا فإن لها أهلا ومستحقا سواهم فتأمل شرف هذا المعنى
وجلالته وما تضمنه من تحريض عباده المؤمنين على المبادرة إليها والمسارعة إلى قبولها وما تحته من
تنبيههم على محبته لهم وإيثاره إياهم بهذه النعمة على أعدائه الكافرين وما تحته من احتقارهم وازدرائهم
وعدم المبالاة والاحتفال بهم وأنكم وإن لم تؤمنوا بها فعبادي المؤمنون بها الموكلون بها سواكم كثير
كما قال تعالى قل آمنوا به أو لا تؤمنوا إن الذين أوتوا العلم من قبله إذا يتلى عليهم يخرون للأذقان سجدا
ويقولون سبحان ربنا إن كان وعد ربنا لمفعولا وإذا كان للملك عبيد قد عصوه وخالفوا أمره ولم يلتفتوا
إلى عهده وله عبيد آخرون سامعون مطيعون قابلة مستجيبون لأمره فنظر إليهم وقال إن يكفر
هؤلاء نعمتي ويعصوا أمري ويضيعوا عهدي فإن لي عبيدا سواهم وهم أنتم مطيعون أمري يحفظون
عهدي ويؤدون حقي فإن عبيده المطيعين يحدث لهم من الفرح والسرور والنشاط وقوة العزيمة ما
يكون موجبا لهم المزيد من القيام بحق العبودية والمزيد من كرامته لسيدهم ومالكهم وهذا أمر يشهد به الحس
والعيان وأما توكيلهم بها فهو ما يتضمن توفيقهم للإيمان بها والقيام بحقوقها ومراعاتها والذب عنها والنصح
لها كما يوكل الرجل غيره بالشيء ليقوم به ويتعهده ويحافظ عليه وبها الأولى متعلقة بوكلنا وبها الثانية بلغ مقابلة

متعلقة

متعلقة بكافرين والباء في بكافرين لتأكيد النفي فإن قلت فهل يصح أن يقال لأحد هؤلاء الموكلين
إنه وكيل الله بهذا المعنى كما يقال ولي الله قلت لا يلزم من إطلاق فعل التوكيل المقيد بأمر ما
أن يصاغ منه اسم فاعل مطلق كما أنه لا يلزم من إطلاق فعل الاستخلاف المقيد أن يقال خليفة لقوله تعالى
ويستخلفكم في الأرض وقوله وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف
الذين من قبلهم فلا يوجب هذا الاستخلاف أن يقال لكل منهم إنه خليفة الله لأن الاستخلاف مقيد ولما
قيل للصديق رضي الله عنه يا خليفة الله قال لست بخليفة الله ولكني خليفة رسول الله وحسبي بذلك
ولكن يسوغ أن يقال هو وكيل بذلك كما قال تعالى فقد وكلنا بها قوما والمقصود أن هذا
التوكيل خاص بمن قام بها علما وعملا وجهادا لأعدائها وذبا عنها ونفيا لتحريف الغالين وانتحال
المبطلين وتأويل الجاهلين وأيضا فهو توكيل رحمة وإحسان وتوفيق واختصاص لا توكيل حاجة
كما يوكل الرجل من يتصرف عنه في غيبته لحاجته إليه ولهذا قال بعض السلف فقد وكلنا بها قوما
نقول رزقناها قوما فلهذا لا يقال لمن رزقها ورحم بها إنه وكيل الله وهذا بخلاف اشتقاق ولي الله
من الموالاة فإنها المحبة والقرب كما يقال عبد الله وحبيبه يقال وليه والله تعالى يوالي عبده إحسانا
إليه وجبرا له ورحمة بخلاف المخلوق فإنه يوالي المخلوق لتعززه به وتكثره بموالاته لذل العبد
وحاجته إليه وأما العزيز الغني فلا يوالي أحدا من ذل ولا من حاجة قال تعالى وقل الحمد لله الذي
لم يتخذ ولدا ولم يكن له شريك في الملك ولم يكن له ولي من الذل وكبره تكبيرا فلم ينف الولي نفيا
عاما مطلقا بل نفى أن يكون له ولي من الذل وأثبت في موضع آخر أن له أولياء بقوله تعالى ألا إن
أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون وقوله الله ولي الذين آمنوا فهذه موالاة رحمة وإحسان
وجبر والموالاة المنفية موالاة حاجة وذل ويوضح هذا **الوجه** السادس
والثلاثون بعد المائة وهو ما روي عن النبي صلى الله عليه وسلم من وجوه متعددة أنه قال يحمل هذا العلم من كل
خلف عدوله ينفون عنه تحريف الغالين وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين فهذا الحمل المشار
إليه في هذا الحديث هو التوكيل المذكور في الآية فأخبر صلى الله عليه وسلم أن العلم الذي جاء به يحمله
عدول أمته من كل خلف حتى لا يضيع ويذهب وهذا يتضمن تعديله صلى الله عليه وسلم لحملة العلم
الذي بعث به وهو المشار إليه في قوله هذا العلم فكل من حمل العلم المشار إليه فلا بد وأن يكون
عدلا ولهذا اشتهر عند الأمة عدالة نقلته وحملته اشتهارا لا يقبل شكا ولا امتراء ولا ريب
أن من عدله رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يسمع فيه جرح فالأئمة الذين اشتهروا عند الأمة بنقل العلم النبوي

ومبرأته كلهم عدول بتعديل رسول الله صلى الله عليه وسلم ولهذا لا يقبل قدح بعضهم في بعض وهذا
بخلاف من اشتهر عند الامة جرحه والقدح فيه كأئمة البدع ومن جرى مجراهم من المتهمين في الدين فانهم
ليسوا عند الامة من حملة العلم فما حمل علم الرسول صلى الله عليه وسلم الا عدل ولكن قد يغلط في مسمى العدالة
فيظن ان المراد بالعدل من لا ذنب له وليس كذلك بل هو عدل مؤتمن على الدين وان كان له ما يتوب الى الله
منه فان هذا لا ينافي العدالة كما لا ينافي الايمان والولاية **فصل** وهذا الحديث
له طرق عديدة منها ما رواه ابن عدي من حديث اسمعيل بن موسى بن جعفر عن ابيه عن جده جعفر بن محمد عن
ابيه عن علي بن ابي طالب رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم ومنها ما رواه العوام بن حوشب عن شهر بن
حوشب عن معاذ عن النبي صلى الله عليه وسلم ذكره الخطيب وغيره ومنها ما رواه ابن عدي من حديث
الليث بن سعد عن يزيد بن ابي حبيب عن سالم عن ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم ومنها ما
رواه محمد بن جرير الطبري من حديث ابن ابي كريمة عن معان بن رفاعة السلامي عن ابي عثمان النهدي عن اسامة
ابن زيد عن النبي صلى الله عليه وسلم ومنها ما رواه حماد بن زيد عن بقية بن الوليد عن معان بن رفاعة
عن ابرهيم بن عبد الرحمن العذري قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم قال الدارقطني حدثنا
احمد بن الحسين بن هاشم بن القاسم ثنا شيبة بكر ومبشر وغيرهما من اهل العلم كلهم يقولون عن معان بن رفاعة
عن ابرهيم بن عبد الرحمن عن النبي صلى الله عليه وسلم يعني ان المحفوظ من هذا الطريق مرسل لان ابرهيم هذا
لا صحبة له وقال الخلال في كتاب العلل قرات على زهير بن صالح بن احمد ثنا مهنا قال سالت
احمد عن حديث معان بن رفاعة عن ابرهيم بن عبد الرحمن العذري قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم
يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله ينفون عنه تحريف الغالين وانتحال المبطلين وتاويل الجاهلين
فقلت لاحمد كانه كلام موضوع قال لا هو صحيح فقلت ممن سمعته انت قال من غير واحد قال
حدثني به مسكين الا انه يقول عن معان عن القاسم بن عبد الرحمن قال احمد ومعان بن رفاعة لا
باس به ومنها ما رواه ابو صالح ثنا الليث بن سعد عن يحيى بن سعيد عن سعيد بن المسيب عن عبد الله بن مسعود
قال سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول يرث هذا العلم من كل خلف عدوله ومنها ما رواه ابو احمد
بن عدي من حديث رزيق ابي عبد الله الالهاني عن القاسم بن عبد الرحمن عن ابي امامة الباهلي قال قال
رسول الله صلى الله عليه وسلم رواه عنه بقية ومنها ما رواه ابن عدي ايضا من طريق مروان الفزاري
عن يزيد بن كيسان عن ابي حازم عن ابي هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ومنها
ما رواه تمام في فوائده من حديث الليث عن يزيد بن ابي حبيب عن ابي الخير عن ابي قبيل عن عبد الله بن عمرو وابي

هريرة

وابي هريرة رواه عنه خالد بن عمرو ومنها ما رواه القاضي اسمعيل من حديث علي بن مسلم اللؤلؤي
عن ابي صالح الاشعري عن ابي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم **الوجه** السابع
والثلاثون بعد المائة ان بقاء الدين والدنيا في بقاء العلم وبذهاب العلم تذهب الدنيا والدين
فقوام الدين والدنيا انما هو بالعلم قال الاوزاعي قال ابن شهاب الزهري الاعتصام
بالسنة نجاة والعلم يقبض قبضا سريعا فنعش العلم ثبات الدين والدنيا وذهاب العلم ذهاب ذلك
كله وقال ابن وهب اخبرني يزيد عن ابن شهاب قال بلغنا عن رجال من اهل العلم انهم كانوا
يقولون الاعتصام بالسنة نجاة والعلم يقبض قبضا سريعا فنعش العلم ثبات الدين والدنيا وذهاب
العلم ذهاب ذلك كله **الوجه** الثامن والثلاثون بعد المائة ان العلم يرفع صاحبه
في الدنيا والاخرة ما لا يرفعه الملك ولا المال ولا غيرهما فالعلم يزيد الشريف شرفا ويرفع العبد المملوك
حتى يجلسه مجالس الملوك كما ثبت في الصحيح من حديث الزهري عن ابي الطفيل ان نافع بن عبد الحرث
لقي عمر بن الخطاب رضي الله عنه بعسفان وكان عمر استعمله على اهل مكة فقال له عمر رضي الله عنه من
استخلفت على اهل الوادي فقال استخلفت عليهم ابن ابزى فقال ومن ابن ابزى فقال رجل من
موالينا فقال عمر استخلفت عليهم مولى فقال انه قارئ لكتاب الله عالم بالفرائض فقال عمر رضي الله عنه
اما ان نبيكم صلى الله عليه وسلم قد قال ان الله يرفع بهذا الكتاب اقواما ويضع به اخرين قال
ابو العالية كنت اتي ابن عباس رضي الله عنه وهو على سريره وحوله قريش فياخذ بيدي فيجلسني معه على
السرير فتغامزت بي قريش ففطن لهم ابن عباس فقال كذا هذا العلم يزيد الشريف شرفا ويجلس
المملوك على الاسرة وقال ابرهيم الحربي كان عطاء بن ابي رباح عبدا اسود لامراة من اهل
مكة وكان انفه كانه باقلاة قال وجاء سليمان بن عبد الملك امير المؤمنين الى عطاء هو وابناه فجلسوا
اليه وهو يصلي فلما صلى انفتل اليهم فما زالوا يسألونه عن مناسك الحج وقد حول قفاه اليهم ثم قال سليمان
لابنيه قوما فقاما فقال يا بني لا تنيا في طلب العلم فاني لا انسى ذلنا بين يدي هذا العبد الاسود قال
الحربي وكان محمد بن عبد الرحمن الاوقص عنقه داخل في بدنه وكان منكباه خارجين كانهما زجان فقالت
له امه يا بني لا تكون في قوم الا كنت المضحوك منه المسخور به فعليك بطلب العلم فانه يرفعك فولي قضاء مكة
عشرين سنة قال وكان الخصم اذا جلس بين يديه يرعد حتى يقوم قال ومرت به امراة وهو يقول
اللهم اعتق رقبتي من النار فقالت له يا ابن اخي واي رقبة لك وقال يحيى بن اكثم قال لي الرشيد
ما انبل المراتب قلت ما انت فيه يا امير المؤمنين قال فتعرف اجل مني قلت لا قال لكني اعرفه رجل في

خليفة يقول ما فلان عن فلان عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال قلت يا امير المومنين اهذا احب منك وانت
ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم وولي عهد المسلمين قال نعم ويلك هذا احب مني لان اسمه مقرون باسم
رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يموت ابدا ونحن نموت ونفنى والعلماء باقون ما بقي الدهر وقال خيثمة بن
سليمان سمعت ابن ابي الخناجر يقول كان في مجلس يزيد بن هرون والناس قد اجتمعوا فمر امير المومنين فوقف
عليهم في المجلس وفي المجلس الوف فالتفت الى اصحابه فقال هذا الملك وفي تاريخ بغداد للخطيب حدثني
ابو النجيب عبد الغفار بن عبد الواحد قال سمعت الحسن بن علي المقرئ يقول سمعت ابا الحسن بن فارس
يقول سمعت الاستاذ ابن العميد يقول ما كنت اظن ان في الدنيا حلاوة الذ من الرياسة والوزارة التي
انا فيها حتى شهدت مذاكرة سليمان بن ايوب الطبراني وابي بكر الجعابي بحضرتي فكان الطبراني يغلب الجعابي
بكثرة حفظه وكان الجعابي يغلب الطبراني بفطنته وذكاء اهل بغداد حتى ارتفعت اصواتهما ولا يكاد
احدهما يغلب صاحبه فقال الجعابي عندي حديث ليس في الدنيا الا عندي فقال هاته فقال نا
ابو خليفة نا سليمان بن ايوب وحدث بالحديث فقال الطبراني انا سليمان بن ايوب ومني سمع ابو خليفة
فاسمع مني حتى تعلو اسنادك فانك تروي عن ابي خليفة عني فخجل الجعابي وغلبه الطبراني قال
ابن العميد فتمنيت ان الوزارة والرياسة ليستا لي وكنت الطبراني وفرحت مثل الفرح
الذي فرح به الطبراني لاجل الحديث او كما قال وقال المزني سمعت الشافعي رضي الله عنه
يقول من تعلم القران عظمت قيمته ومن نظر في الفقه نبل مقداره ومن تعلم اللغة رق طبعه ومن تعلم الحساب
جزل رايه ومن كتب الحديث قويت حجته ومن لم يصن نفسه لم ينفعه علمه او قد روي هذا الكلام عن
الشافعي رضي الله عنه من وجوه متعددة وقال سفين الثوري من اراد الدنيا والاخرة فعليه بطلب
العلم وقال عبد الله بن داود سمعت سفين الثوري يقول ان هذا الحديث عز من اراد به
الدنيا وجدها ومن اراد به الاخرة وجدها وقال النضر بن شميل من اراد ان يشرف في الدنيا والاخرة
فليتعلم العلم وكفى بالمرء سعادة ان يوثق به في دين الله ويكون بين الله وبين عباده وقال
حمزة بن سعيد المصري لما حدث ابو مسلم الكجي اول يوم حدث قال لابنه كم تصدق عندنا ان اتمّ علينا
قال بكمال دينار قال فرقها على اصحاب الحديث والفقراء شكرا ان اتاني اليوم شهدت على
رسول الله صلى الله عليه وسلم فقبلت شهادتي وفي كتاب الجليس والانيس لابي الفرج المعافى بن زكريا
الحريري نا محمد بن الحسن بن دريد نا ابو حاتم عن العتبي عن ابيه قال اتيت معوية بالابطح مجلسا جلس
عليه ومعه ابنه قرظة فاذا هو بجماعة على رحالهم واذا شاب منهم قد رفع عقيرته يتغنى

رشا جلي

من رشا جلي بها جل ما جلا بملا الدلو الى عقد الكرب
قال من هذا قالوا عبد الله بن جعفر قال خلوا له الطريق ثم اذا هو بجماعة فيهم غلام يتغنى
بينما يذكرنني ابصرنني عند قيد الميل يسعى في الاغر
قلن تعرفن الفتى قلن نعم قد عرفناه وهل يخفى القمر
قال من هذا قالوا عمر بن ابي ربيعة قال خلوا له الطريق فليذهب قال ثم اذا هو بجماعة واذا فيهم
رجل يسال فقال رميت قبل ان احلق وحلقت قبل ان ارمي اشياء اشكلت عليهم من مناسك الحج
قال من هذا قالوا عبد الله بن عمر فالتفت الى ابنه قرظة فقال هذا وابيك الشرف هذا والله
شرف الدنيا والاخرة وقال سفين بن عيينة ارفع الناس منزلة عند الله من كان بين الله وبين عباده
وهم الانبياء والعلماء وقال سهل التستري من اراد ان ينظر الى مجالس الانبياء فلينظر الى
مجالس العلماء يجي الرجل فيقول يا فلان ايش تقول في رجل حلف على امراته بكذا وكذا فيقول طلقت امراته
ويجي اخر فيقول حلفت بكذا وكذا فيقول ليس يحنث بهذا القول وليس هذا الا لنبي او عالم فاعرفوا لهم
ذلك ن الوجه التاسع والثلاثون بعد المائة ان النفوس الجاهلة التي لا علم عندها
قد لبست ثوب الذل والازراء عليها والتنقص بها اسرع منه الى غيرها وهذا امر معلوم
عند الخاص والعام قال الاعمش اني لارى الشيخ لا يروي شيئا من الحديث فاشتهي ان الطمه وقال
ابو معوية سمعت الاعمش يقول من لم يطلب الحديث اشتهي ان اصفعه بنعلي وقال عثام بن علي سمعت
الاعمش يقول اذا رايت الشيخ لم يقرا القران ولم يكتب الحديث فاصفع له فانه من شيوخ القمراء قال
ابو صالح قلت لابي جعفر ما شيوخ القمراء قال شيوخ دهريون يجتمعون في ليالي القمر يتذاكرون
ايام الناس ولا يحسن احدهم ان يتوضا للصلاة وقال المزني كان الشافعي رضي الله عنه
اذا راى شابا له عن الحديث والفقه فان كان عنده شي والا قال له لا جزاك الله خيرا عن نفسك
ولا عن الاسلام قد ضيعت نفسك وضيعت الاسلام وكان بعض خلفاء بني العباس يلعب بالشطرنج فاستاذن
عليه عمه فاذن له ورفع الرقعة فلما جلس قال له يا عم هل قرات القران قال لا قال فهل كتبت
شيئا من السنة قال لا قال فهل نظرت في الفقه واختلاف الناس قال لا قال فهل نظرت في العربية وايام
الناس قال لا قال الخليفة اكشفوا الرقعة ثم اللعب وزال احتشامه وحياؤه منه فقال له ملاعبه يا امير
المومنين تكشفها ومعنا من نحتشم منه قال اسكت فما معنا احد وهذا لان الانسان انما يميز عن
سائر الحيوانات بما خص به من العلم والعقل والفهم فاذا عدم ذلك لم يبق فيه الا القدر المشترك بينه وبين

سائر الحيوانات وهي الحوانة البهيمية ومثل هذا لا يستحى منه الناس ولا يمتنعون بحضرته وشهودها
يستحى منه من أولي الفضل والعلم. **الوجه** الثامن والأربعون بعد المائة أن كل صاحب بضاعة سوى
العلم فإنه ليس يجب أن له يحظه منها خطرًا أصلًا. قال أبو جعفر الطحاوي كنت عند أحمد بن أبي عمران فمر
بنا رجل من بني الدنيا فنظرت إليه وشغلت به عما كنت فيه من المذاكرة فقال لي كأني بك قد فكرت فيما أعطي
هذا الرجل من الدنيا قلت له نعم قال هل أدلك على خلة هل لك أن يحول الله إليك ما عنده من المال ويحول
إليه ما عندك من العلم فتعيش أنت غنيًا جاهلًا ويعيش هو عالمًا فقيرًا فقلت ما أختار أن يحول الله ما عندي
من العلم إلى ما عنده فالعلم غنى بلا مال وعز بلا عشيرة وسلطان بلا رجال وفي ذلك قيل

العلم كنز وذخر لا نفاد له ... نعم القرين إذا ما صاحب صحبا
قد يجمع المرء مالًا ثم يحرمه ... عما قليل فيلقى الذل والحربا
وجامع العلم مغبوط به أبدًا ... ولا يحاذر منه الفوت والسلبا
يا جامع العلم نعم الذخر تجمعه ... لا تعدلن به درًا ولا ذهبا

الوجه الحادي والأربعون بعد المائة أن الله سبحانه أخبر أنه يجزي المحسنين أجرهم بأحسن
ما كانوا يعملون وأخبر سبحانه أنه يجزي على الإحسان بالعلم وهذا يدل على أنه من حسن الجزاء أما المقام
الأول ففي قوله تعالى والذي جاء بالصدق وصدق به أولئك هم المتقون لهم ما يشاؤون عند ربهم ذلك
جزاء المحسنين ليكفر الله عنهم أسوأ الذي عملوا ويجزيهم أجرهم بأحسن الذي كانوا يعملون وهذا يتناول
الجزائين الدنيوي والأخروي وأما المقام الثاني ففي قوله تعالى ولما بلغ أشده آتيناه حكمًا وعلمًا وكذلك
نجزي المحسنين قال الحسن من أحسن عبادة الله في شبيبته آتاه الله الحكمة في سنه وذلك قوله ولما بلغ
أشده آتيناه حكمًا وعلمًا وكذلك نجزي المحسنين ومن هذا ما قال بعض العلماء تقول الحكمة من التمسني فلم يجدني
فليعمل بأحسن ما يعلم وليترك أقبح ما يعلم فإذا فعل فأنا معه وإن لم يعرفني. **الوجه** الثاني
والأربعون بعد المائة أن الله سبحانه جعل العلم للقلوب كالمطر للأرض فكما أنه لا حياة للأرض إلا بالمطر فكذلك
لا حياة للقلب إلا بالعلم وفي الموطأ قال لقمان لابنه يا بني جالس العلماء وزاحمهم بركبتيك فإن الله تعالى
يحيي القلوب الميتة بنور الحكمة كما يحيي الأرض بوابل المطر وهذا الأرض إنما تحتاج إلى المطر في
بعض الأوقات فإذا تابع عليها احتاجت إلى انقطاعه وأما العلم فيحتاج القلب إليه بعدد الأنفاس ولا يزيده
كثرته إلا صلاحًا ونفعًا. **الوجه** الثالث والأربعون بعد المائة أن كثيرًا من الأخلاق التي لا تحمد
في الشخص بل يذم عليها تحمد في طلب العلم كالملق وترك الاستحياء والذل والتردد إلى أبواب العلماء ونحوها

قال ابن

قال ابن قتيبة جاء في الحديث ليس الملق من أخلاق المؤمنين إلا في طلب العلم وهذا أثر عن بعض السلف
وقال ابن عباس رضي الله عنهما ذللت طالبًا فعززت مطلوبًا وقال وجدت عامة علم رسول الله صلى الله
عليه وسلم عند هذا الحي من الأنصار إن كنت لآتي باب أحدهم ولو شئت أذن لي ولكن أبتغي بذلك طيب نفسه
وقال أبو إسحاق قال علي كلمات لو رحلتم المطي فيهن لأنضيتموهن قبل أن تدركوا مثلهن لا يرجون
عبد إلا ربه ولا يخافن إلا ذنبه ولا يستحي من لا يعلم أن يتعلم ولا يستحي إذا سئل عما لا يعلم أن يقول الله أعلم
واعلموا أن منزلة الصبر من الإيمان كمنزلة الرأس من الجسد فإذا ذهب الرأس ذهب الجسد وإذا ذهب
الصبر ذهب الإيمان ومن كلام بعض العلماء لا ينال العلم مستحي ولا متكبر هذا يمنعه حياؤه من التعلم وهذا يمنعه
كبره وإنما حمدت هذه الأخلاق في طلب العلم لأنها طريق إلى تحصيله فكانت من كمال الرجل ومفضية إلى كماله
ومن كلام الخليل أيضًا من استتر عن الطلب بالحياء لبس للجهل سرباله فقطعوا سرابيل الحياء فإنه
من رق وجهه رق علمه وقال الخليل منزلة الجهل بين الحياء والأنفة ومن كلام علي رضي الله عنه
قرنت الهيبة بالخيبة والحياء بالحرمان وقال إبراهيم لمنصور سل مسألة الحمقى واحفظ حفظ
الأكياس وكذلك سؤال الناس هو عيب ونقص في الرجل وذلة تنافي المروءة إلا في العلم فإنه عين
كماله ومروءته وعزه كما قال بعض أهل العلم خير خصال الرجل السؤال عن العلم وقيل إذا
جلست إلى عالم فسل تفقهًا لا تعنتًا وقال رؤبة بن العجاج أتيت النسابة البكري فقال
من أنت قلت أنا ابن العجاج قال قصرت وعرفت لعلك كقوم إن سكت لم يسألوني وإن حدثت لم يعوا عني
قلت أرجو أن لا أكون كذلك قال ما أعداء المروءة قلت تخبرني قال بنو عم السوء إن رأوا
حسنًا ستروه وإن رأوا سيئًا أذاعوه ثم قال إن للعلم آفة ونكدًا وهجنة فآفته نسيانه ونكده
الكذب فيه وهجنته نشره عند غير أهله وأنشد ابن الأعرابي

ما أقرب الأشياء حين يسوقها ... قدر وأبعدها إذا لم يقدر
فسل الفقيه تكن فقيهًا مثله ... من يسع في علم بذل يمهر
فتدبر العلم الذي تعنى به ... لا خير في علم بغير تدبر
ولقد يجد المرء وهو مقصر ... ويخيب جد المرء غير مقصر
ذهب الرجال المقتدى بفعالهم ... والمنكرون لكل أمر منكر
وبقيت في خلف يزين بعضهم ... بعضًا ليدفع معور عن معور

وللعلم ست مراتب أولها حسن السؤال الثانية حسن الإنصات والاستماع الثالثة حسن الفهم

الرابعة الحفظ الخامسة التعليم السادسة وهي ثمرته وهي العمل به ومراعاة حدوده فمن الناس
من يحرمه لعدم حسن سؤاله إما لأنه لا يسأل بحال أو يسأل عن شيء وغيره أهم إليه منه كمن يسأل عن فضوله
التي لا يضر جهله بها ويدع ما لا غنى له عن معرفته وهذه حال كثير من الجهال المتعلمين ومن الناس من يحرمه
لسوء إنصاته فيكون الكلام والمماراة آثر عنده من حسن الاستماع وهذه آفة كامنة في أكثر النفوس الطالبة
للعلم وهي تمنعهم علما كثيرا ولو كان حسن الفهم ذكر ابن عبد البر عن بعض السلف أنه قال من كان حسن كان
الفهم رديء الاستماع لم يقم خيره بشره وذكر عبد الله بن الإمام أحمد في كتاب العلل له قال كان عروة بن
الزبير يحب مماراة ابن عباس رضي الله عنهم فكان يخزن علمه عنه وكان عبيد الله بن عبد الله يلطف له في السؤال
فيغره بالعلم غرا وقال ابن جريج لم أستخرج العلم الذي استخرجت من عطاء إلا برفقي به وقال
بعض السلف رضي الله عنهم إذا جالست العالم فكن على أن تسمع أحرص منك على أن تقول وقد قال تعالى إن في
ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد فتأمل ما تحت هذه الألفاظ من كنوز العلم وكيف
تفتح مراعاتها للعبد أبواب العلم والهدى وكيف ينغلق باب العلم عنه من إهمالها وعدم مراعاتها فإنه سبحانه ذكر
أن آياته المتلوة والمرئية المشهودة إنما تكون تذكرة لمن كان له قلب فإن من عدم القلب الواعي عن الله لم
ينتفع بكل آية تمر عليه ولو مرت به كل آية ومرور الآيات عليه كطلوع الشمس والقمر والنجوم ومرورها على من
لا بصر له فإذا كان له قلب كان بمنزلة البصير إذا مرت به المرئيات فإنه يراها ولكن صاحب القلب لا ينتفع
بقلبه إلا بأمرين أحدهما أن يحضره ويشهده لما يلقى إليه فإذا كان غائبا عنه مسافرا في الأماني والشهوات
والخيالات لا ينتفع به فإذا أحضره وأشهده لم ينتفع إلا بأن يلقي سمعه ويصغي بكليته إلى ما يوعظ به ويرشد إليه
وههنا ثلاثة أمور أحدها سلامة القلب وصحته وقبوله الثاني إحضاره وجمعه ومنعه من الشرود
والتفرق الثالث إلقاء السمع وإصغاؤه والإقبال على الذكر فذكر الله تعالى الأمور الثلاثة في هذه
الآية قال ابن عطية القلب هنا عبارة عن العقل إذ هو محله والمعنى لمن كان له قلب واع ينتفع به وقال
الشبلي قلب حاضر مع الله لا يغفل عنه طرفة عين وقوله أو ألقى السمع وهو شهيد معناه
صرف سمعه إلى هذه الأنباء الواعظة وأثبته في سمعه فذلك إلقاء له عليها ومنه قوله تعالى
وألقيت عليك محبة مني أي أثبتها عليك وقوله وهو شهيد قال بعض المتأولين معناه وهو شاهد مقبل
على الأمر غير معرض عنه ولا منفكر في غير ما يسمع وقال قتادة هي إشارة إلى أهل الكتاب وكأنه
قال إن هذه العبرة لذكرى لمن له فهم فتدبر الأمر أو لمن سمعها من أهل الكتاب فيشهد بصحتها لعلمه بها من كتابه
التوراة وسائر كتب بني إسرائيل قال فشهيد على التأويل الأول من المشاهدة وعلى التأويل الثاني من الشهادة

وقال الزجاج

وقال الزجاج معنى من كان له قلب من صرف قلبه إلى التفهم ألا ترى أن قوله صم بكم عمي
أنهم لم يستمعوا استماع مستفهم مسترشد فجعلوا بمنزلة من لم يسمع كما قال الشاعر
أصم عما ساءه سميع ومعنى أو ألقى السمع استمع ولم يشغل قلبه بغير ما يستمع والعرب تقول ألق إلي سمعك
أي استمع مني وهو شهيد أي قلبه فيما يسمع قال وجاء في التفسير أنه يعني من أهل الكتاب الذين عندهم
صفة النبي صلى الله عليه وسلم فالمعنى أو ألقى السمع وهو شهيد أن صفة النبي صلى الله عليه وسلم في كتابه وهذا هو
الذي حكاه ابن عطية عن قتادة وذكر أن شهيد فيه بمعنى شاهد أي مخبر وقال صاحب الكشاف لمن كان
له قلب واع لأن من لا يعي قلبه فكأنه لا قلب له وإلقاء السمع الإصغاء وهو شهيد أي حاضر بفطنته لأن من لا
يحضر ذهنه فكأنه غائب أو هو مؤمن شاهد على صحته وأنه وحي من الله وهو بعض الشهداء في قوله لتكونوا
شهداء على الناس وعن قتادة وهو شاهد على صدقه من أهل الكتاب لوجود نعته عنده فلم يختلف في أن المراد
بالقلب القلب الواعي وأن المراد بإلقاء السمع إصغاؤه وإقباله على الذكر وتفريغ سمعه له واختلف
في الشهيد على أربعة أقوال أحدها أنه من المشاهدة وهي الحضور وهذا أصح الأقوال ولا يليق
بالآية غيره والثاني أنه شهيد من الشهادة وفيه على هذا ثلاثة أقوال أحدها أنه شاهد على صحة ما معه
من الإيمان الثاني أنه شاهد من الشهداء على الناس يوم القيامة الثالث أنه شاهد من الله عنده على صحة
نبوة رسول الله صلى الله عليه وسلم بما علم من الكتب المنزلة والصواب القول الأول فإن قوله وهو شهيد جملة
حالية والواو فيها واو الحال أي ألقى السمع في هذه الحال وهذا يقتضي أن يكون حال إلقائه السمع شهيدا
وهذا هو من المشاهدة والحضور ولو كان المراد الشهادة في الآخرة أو في الدنيا لما كان لتقييدها بإلقاء
السمع معنى إذ يصير الكلام إن في ذلك لآية لمن كان له قلب أو ألقى السمع حال كونه شاهدا بما معه في التوراة
أو حال كونه شهيدا يوم القيامة ولا ريب أن هذا ليس هو المراد بالآية وأيضا فالآية عامة في كل من له
قلب أو ألقى السمع فكيف يدعى تخصيصها بمؤمني أهل الكتاب الذين عندهم شهادة من كتبهم على صفة رسول الله صلى الله عليه وسلم
وأيضا فالسورة مكية والخطاب فيها لا يجوز أن يختص بأهل الكتاب ولا سيما مثل هذا الخطاب الذي علق
فيه حصول مضمون الآية ومقصودها بالقلب الواعي وإلقاء السمع فكيف يقال هي في أهل الكتاب
فإن قيل المختص بهم قوله وهو شهيد فهذا أفسد وأفسد لأن قوله وهو شهيد يرجع الضمير
فيه إلى جملة من تقدم وهو من له قلب أو ألقى السمع فكيف يدعى عوده إلى شيء غايته أن يكون بعض المذكور
أولا ولا دلالة في اللفظ عليه فهذا في غاية الفساد وأيضا فإن المشهود به محذوف ولا دلالة في اللفظ
عليه فلو كان المراد وهو شاهد بكذا لذكر المشهود به إذ ليس في اللفظ ما يدل عليه وهذا بخلاف ما إذا جعل من

الشهود وهو الحضور فان لا تقتضي مفعولا مشهودا به فتم الكلام بذكره وحده وايضا فان الآية تضمنت
تقسيما وترتيبا بين قسمين احدهما من كان له قلب والثاني من التي السمع وحضر بقلبه ولم يغب فهو حاضر
القلب شاهد لا غائب وهذا والله اعلم سر الاتيان باو دون الواو لان المنتفع بالآيات من
الناس نوعان احدهما ذو القلب الواعي الذكي الذي يكتفي بهدايته بادنى تنبيه ولا يحتاج الى ان
يستجلب قلبه ويحضره ويجمعه من مواضع شتاته بل قلبه واع زكي قابل للهدى غير معرض عنه فهذا لا يحتاج
الا الى وصول الهدى اليه فقط لكمال استعداده وصحة فطرته فاذا جاءه الهدى سارع قلبه الى قبوله كانه
كان مكتوبا فيه فهو قد ادركه مجملا ثم جاء الهدى بتفصيل ما شهد قلبه بصحته مجملا وهذه حال اكمل الخلق
استجابة لدعوة الرسل كما هي حال الصديق الاكبر رضي الله عنه والنوع الثاني من ليس له هذا الاستعداد
والقبول فاذا ورد عليه الهدى اصغى اليه بسمعه واحضر قلبه وجمع فكرته عليه وعلم صحته وحسنه بنظره
واستدلاله وهذه طريقة اكثر المستجيبين ولهم نوع ضرب الامثال واقامة الحجج وذكر المعارضات
والاجوبة عنها والاولون هم الذين يدعون بالحكمة وهؤلاء يدعون بالموعظة الحسنة فهؤلاء نوعا المستجيبين
واما المعارضون المدافعون للحق فنوعان نوع يدعون بالمجادلة بالتي هي احسن فان استجابوا والا
فالمجالدة فهؤلاء لا بد لهم من جدال او جلاد ومن تامل دعوة القرآن وجدها شاملة لهؤلاء الاقسام متناولة لها
كلها كما قال تعالى ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي احسن فهؤلاء المدعوون
بالكلام واما اهل الجلاد فهم الذين امر الله تعالى بقتالهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله واما من فسر
الآية بان المراد بمن كان له قلب هو المستغني بفطرته عن علم المنطق وهو المؤيد بقوة قدسية ينال بها الحد
الاوسط بسرعة فهو لكمال فطرته مستغن عن مراعاة اوضاع المنطق والمراد بمن القى السمع وهو شهيد
من ليست له هذه القوة فهو محتاج الى تعلم المنطق توجب له مراعاته واصغاؤه اليه ان لا يزيغ في فكره
وفسر قوله ادع الى سبيل ربك بالحكمة انها القياس البرهاني والموعظة الحسنة القياس الخطابي
وجادلهم بالتي هي احسن القياس الجدلي فهذا ليس من تفاسير الصحابة ولا التابعين ولا احد من ائمة التفسير
بل ولا من تفاسير المسلمين وهو تحريف لكلام الله تعالى وحمل له على اصطلاح المنطقية المبخوسة الحظ من
العقل والايمان وهذا من جنس تفاسير القرامطة الباطنية وغلاة الاسماعيلية لما يفسرونه من القرآن
وينزلونه على مذاهبهم الباطلة وكذلك تفسير الجهمية والمعتزلة والرافضة للآيات التي ينزلونها على اقوالهم
الباطلة والقرآن بريء من ذلك كله منزه عن هذه الاباطيل والهذيانات وقد ذكرنا بطلان ما فسر المنطقيون
هذه الآية اليه وبالكلام الآخر في موضع آخر من وجوه متعددة وبينا بطلانه عقلا وشرعا وعرفا وانه

تعالى

تعالى كلام الله عن حمله على ذلك وبالله التوفيق والمقصود بيان حرمان العلم من هذه الوجوه الستة
احدها ترك السؤال الثاني سوء الانصات وعدم القاء السمع الثالث سوء الفهم الرابع
عدم الحفظ الخامس عدم نشره وتعليمه فان من خزن علمه ولم ينشره ولم يعلمه ابتلاه الله بنسيانه
وذهابه منه جزاء من جنس عمله وهذا امر يشهد به الحس والوجود السادس عدم العمل به فان
العمل به يوجب تذكره وتدبره ومراعاته والنظر فيه فاذا اهمل العمل به نسيه قال
بعض السلف كنا نستعين على حفظ العلم بالعمل به وقال بعض السلف ايضا العلم يهتف بالعمل
فان اجابه والا ارتحل فالعمل به من اعظم اسباب حفظه وثباته وترك العمل به اضاعة له فما استدر
العلم واستجلب بمثل العمل قال تعالى يا ايها الذين آمنوا اتقوا الله وآمنوا برسوله يؤتكم كفلين من رحمته ويجعل
لكم نورا تمشون به واما قوله تعالى واتقوا الله ويعلمكم الله فليس من هذا الباب بل هما جملتان
مستقلتان طلبية وهي الامر بالتقوى وخبرية وهي قوله ويعلمكم الله اي والله يعلمكم ما تتقون وليست
جوابا للامر ولو اريد بها الجزاء لاتى بها مجزومة مجردة عن الواو فكان يقول واتقوا الله يعلمكم الله او ان تتقوه
يعلمكم كما قال ان تتقوا الله يجعل لكم فرقانا فتدبره. الوجه الرابع والاربعون بعد المائة
ان الله سبحانه نفى التسوية بين العالم وغيره كما نفى التسوية بين الخبيث والطيب وبين الاعمى والبصير وبين النور
والظلمة وبين الظل والحرور وبين اصحاب الجنة واصحاب النار وبين الابكم العاجز الذي لا يقدر على شيء
ومن يأمر بالعدل وهو على صراط مستقيم وبين المؤمنين والكفار وبين الذين آمنوا وعملوا الصالحات والمفسدين
في الارض وبين المتقين والفجار فهذه عشرة مواضع في القرآن نفى فيها التسوية بين هؤلاء الاصناف
وهذا يدل على ان منزلة العالم من الجاهل كمنزلة النور من الظلمة والظل من الحرور والطيب من الخبيث ومنزلة
كل واحد من هذه الاصناف مع مقابله وهذا كاف في شرف العلم واهله بل اذا تاملت هذه الاصناف
كلها وجدت نفي التسوية بينها راجعا الى العلم وموجبه فبه وقع التفضيل وانتفت المساواة. الوجه
الخامس والاربعون بعد المائة ان سليمان صلى الله عليه وسلم لما توعد الهدهد بان يعذبه عذابا شديدا او يذبحه
انما نجا منه بالعلم واقدم عليه في خطابه له بقوله احطت بما لم تحط به وهذا الخطاب لسليمان مع
والا فالهدهد مع ضعفه لا يتمكن في خطابه لسليمان مع قوته بمثل هذا الخطاب لولا سلطان العلم ومن
هذا الحكاية المشهورة ان بعض اهل العلم سئل عن مسألة فقال لا اعلمها فقال احد تلامذته انا
اعلم هذه المسألة فغضب الاستاذ وهم به فقال له ايها الاستاذ لست اعلم من سليمان بن داود عليهما
الصلاة والسلام ولو بلغت في العلم ما بلغت ولست انا اجهل من الهدهد وقد قال لسليمان احطت بما لم تحط

بين

انما نجا بالعلم

به فلم يعتب عليه ولم يعنفه . الوجه السادس والاربعون بعد المائة ان ما نال الانبياء
من شرف الدنيا والاخرة فانما نالوه بالعلم وتامل ما حصل لادم عليه الصلاة والسلام من تميزه على الملائكة
واعترافهم له بتعليم الله له الاسماء كلها ثم ما حصل له من تدارك المصيبة والتعويض عن سكنى الجنة بما هو خير
له منها بعلم الكلمات التي تلقاها من ربه وما حصل ليوسف من التمكين في الارض والعز والعظمة بعلمه بتعبير
تلك الرؤيا ثم علمه بوجوه استخراج اخيه من اخوته بما يقرون به ويحكمون هم به حتى آل الامر الى ما آل اليه
من العز والعاقبة الحميدة وكمال الحال التي توصل اليها بالعلم كما اشار اليها سبحانه في قوله كذلك كدنا
ليوسف ما كان ليأخذ اخاه في دين الملك الا ان يشاء الله نرفع درجات من نشاء وفوق كل ذي علم عليم
جاء في تفسيرها نرفع درجات من نشاء بالعلم كما رفعنا درجة يوسف على اخوته بالعلم وقال في
ابراهيم صلى الله عليه وسلم وتلك حجتنا آتيناها ابراهيم على قومه نرفع درجات من نشاء فهذه رفعة بعلم الحجة
والاول رفعة بعلم السياسة وكذلك ما حصل للخضر بسبب علمه من تلمذة كليم الرحمن له وتلطفه معه
في السؤال حتى قال هل اتبعك على ان تعلمني مما علمت رشدا وكذلك ما حصل لسليمان من علم منطق الطير
حتى وصل الى ملك سبأ وقهر ملكتهم واحتوى على سرير ملكها ودخولهم تحت طاعته ولذلك قال يا ايها الناس
علمنا منطق الطير واوتينا من كل شيء ان هذا لهو الفضل المبين وكذلك ما حصل لداود من علم نسج الدروع
من الوقاية من سلاح الاعداء وعدد سبحانه هذه النعمة بهذا العلم على عباده فقال وعلمناه صنعة لبوس
لكم لتحصنكم من بأسكم فهل انتم شاكرون وكذلك ما حصل للمسيح من علم الكتاب والحكمة والتوراة والانجيل ما رفعه
الله اليه به وفضله وكرمه وكذلك ما حصل لسيد ولد ادم من العلم الذي ذكره الله به نعمة عليه فقال وانزل
الله عليك الكتاب والحكمة وعلمك ما لم تكن تعلم وكان فضل الله عليك عظيما . الوجه السابع والاربعون
بعد المائة ان الله سبحانه اثنى على خليله ابراهيم بقوله ان ابراهيم كان امة قانتا لله حنيفا ولم يك من المشركين شاكرا
لانعمه فهذه اربعة انواع من الثناء افتتحها بانه امة والامة هو القدوة الذي يؤتم به قال ابن
مسعود رضي الله عنه والامة المعلم للخير وهي فعلة من الايتمام كقدوة وهو الذي يقتدى به والفرق بين الامة
والامام من وجهين احدهما ان الامام كل ما يؤتم به سواء كان بقصده وشعوره ام لا ومنه سمي الطريق اماما
لقوله تعالى وان كان اصحاب الايكة لظالمين فانتقمنا منهم وانهما لبامام مبين اي بطريق واضح لا
يخفى على السالك ولا يسمى الطريق امة . الثاني ان الامة فيه زيادة معنى وهو الذي جمع صفات الكمال
من العلم والعمل بحيث بقي فيها فردا وحده فهو الجامع لخصال تفرقت في غيره فكأنه باين غيره باجتماعها فيه
وتفرقها او عدمها في غيره ولفظ الامة يشعر بهذا المعنى لما فيه من الميم المضعفة الدالة على الضم بمخرجها

وتكريرها

وتكريرها وكذلك ضم اوله فان الضمة من الواو ومخرجها منضم عند النطق بها واتى بالتاء الدالة على
الوحدة كالغرفة واللقمة ومنه الحديث ان زيد بن عمرو بن نفيل يبعث يوم القيامة امة وحده
فالضم والاجتماع لازم لمعنى الامة ومنه سميت الامة التي هي آحاد الامم لانهم الناس المجتمعون على
دين واحد وفي عصر واحد . الثاني قوله تعالى قانتا لله قال ابن مسعود القانت المطيع والقنوت
يفسر باشياء كلها ترجع الى دوام الطاعة . الثالث قوله تعالى حنيفا والحنيف المقبل على الله ويلزم
هذا المعنى ميله عما سواه فالميل لازم لمعنى الحنيف لا انه موضوعه لغة . الرابع قوله تعالى
شاكرا لانعمه والشكر للنعم مبني على ثلاثة اركان الاقرار بالنعمة واضافتها الى المنعم بها وصرفها في مرضاته
والعمل فيها بما يحب فلا يكون العبد شاكرا الا بهذه الاشياء الثلاثة والمقصود انه مدح خليله باربع صفات
كلها ترجع الى العلم والعمل بموجبه وتعليمه ونشره فعاد الكمال كله الى العلم والعمل بموجبه ودعوة
الخلق اليه . الوجه الثامن والاربعون بعد المائة قوله تعالى عن المسيح انه قال
اني عبد الله آتاني الكتاب وجعلني نبيا وجعلني مباركا اينما كنت قال سفيان بن عيينة جعلني مباركا اينما كنت
قال معلما للخير وهذا يدل على ان تعليم الرجل الخير هو البركة التي جعلها الله فيه فان البركة حصول
الخير ونماؤه ودوامه وهذا في الحقيقة ليس الا في العلم الموروث عن الانبياء وتعليمه ولهذا
سمى الله كتابه مباركا فقال تعالى وهذا ذكر مبارك انزلناه وقال كتاب انزلناه اليك مبارك ووصف
رسوله بانه مبارك كما في قول المسيح وجعلني مباركا اينما كنت فبركة كتابه ورسوله هي بسبب ما يحصل بهما
من العلم والهدى والدعوة الى الله . الوجه التاسع والاربعون بعد المائة ما في الصحيح من
حديث ابي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال اذا مات ابن ادم انقطع عمله الا من ثلاث صدقة جارية
او علم ينتفع به او ولد صالح يدعو له رواه مسلم في الصحيح وهذا من اعظم الادلة على شرف العلم وفضله وعظم
ثمرته فان ثوابه يصل الى الرجل بعد موته ما دام ينتفع به فكأنه حي لم ينقطع عمله مع ما له من حياة الذكر
والثناء فجريان اجره عليه اذا انقطع عن الناس ثواب اعمالهم حياة ثانية وخص النبي صلى الله عليه وسلم هذه
الاشياء الثلاثة بوصول الثواب منها الى الميت لانه سبب لحصولها والعبد اذا باشر السبب الذي يتعلق
به الامر والنهي ترتب عليه مسببه وان كان خارجا عن سعيه وكسبه فلما كان هو السبب في حصول
هذا الولد الصالح والصدقة الجارية والعلم النافع جرى عليه ثوابه واجره لتسببه فيه فالعبد
انما يثاب على ما باشره او على ما تولد منه وقد ذكر تعالى هذين الاصلين في كتابه في سورة براءة
فقال ذلك بانهم لا يصيبهم ظمأ ولا نصب ولا مخمصة في سبيل الله ولا يطأون موطئا يغيظ

الكفار ولا ينالون من عدو نيلا الا كتب لهم به عمل صالح ان الله لا يضيع اجر المحسنين فهذه الامور كلها متولدات عن افعالهم غير مقدورة لهم وانما المقدور لهم اسبابها التي باشروها ثم قال ولا ينفقون نفقة صغيرة ولا كبيرة ولا يقطعون واديا الا كتب لهم ليجزيهم الله احسن ما كانوا يعملون فالنفقة وقطع الوادي افعال مقدورة لهم وقال في القسم الاول كتب لهم به عمل صالح لان المتولد حاصل عن شيئين افعالهم وغيرها فليست افعالهم شيئا مستقلا في حصول المتولد بل هي جزء من اجزاء السبب فكتب لهم من ذلك ما كان مقابلا لافعالهم وايضا فان الظمأ والنصب وغيظ العدو ليس من افعالهم فلا يكتب لهم نفسه ولكن لما تولد عن افعالهم كتب لهم به عمل صالح واما القسم الاخر فهو الافعال المقدورة نفسها كالانفاق وقطع الوادي فهو عمل صالح فيكتب لهم نفسه اذ هو مقدور لهم حاصل بارادتهم وقدرتهم فعاد الثواب الى الاسباب المقدورة والمتولد عنها وبالله التوفيق ٥

الوجه الخمسون

بعد المائة ما ذكره ابن عبد البر عن عبد الله بن داود قال اذا كان يوم القيامة عزل الله تبارك وتعالى العلماء عن الحساب فيقول ادخلوا الجنة على ما كان فيكم اني لم اجعل علمي فيكم الا لخير اردته بكم وقال ابن عبد البر وزاد غيره في هذا الخبر ان الله يحبس العلماء يوم القيامة في زمرة واحدة حتى يقضي بين الناس ويدخل اهل الجنة الجنة واهل النار النار ثم يدعو العلماء فيقول يا معشر العلماء اني لم اضع حلمي فيكم وانا اريد ان اعذبكم قد علمت انكم تخلطون من المعاصي ما تخلط غيركم فسترتها عليكم وغفرتها لكم وانما كنت اعبد بفتياكم وتعليمكم عبادي ادخلوا الجنة بغير حساب ثم قال لا معطي لما منع الله ولا مانع لما اعطى قال وقد روي نحو هذا المعنى باسناد متصل مرفوع وقد روى حرب الكرماني في مسائله نحوه مرفوعا وقال ابراهيم بلغني انه اذا كان يوم القيامة توضع حسنات الرجل في كفة وسيئاته في الكفة الاخرى فتشيل سيئاته فاذا ايس وظن انها النار جاء شيء مثل السحاب حتى يقع مع حسناته فتشيل حسناته قال فيقال له اتعرف هذا من عملك فيقول لا فيقال هذا ما علمت الناس من الخير فعمل به من بعدك فان قيل فقواعد الشرع تقتضي ان يسامح الجاهل بما لا يسامح به العالم وانه يغفر له ما لا يغفر للعالم فان حجة الله عليه اقوم منها على الجاهل وعلمه بقبح المعصية وبغض الله لها وعقوبته عليها اعظم من علم الجاهل ونعمة الله بما اودعه من العلم اعظم من نعمته على الجاهل وقد دلت الشريعة وحكم الله على ان من حبي بالانعام وخص بالفضل والاكرام ثم اسام نفسه مع اهل الشهوات فارتعها في مراتع الهلكات وتجرأ على انتهاك الحرمات واستخف بالتبعات والسيئات انه يقابل من الانتقام والعتب بما لا يقابل به من لم يبلغ مرتبته وعلى هذا جاء قوله تعالى يا نساء النبي من يأت منكن بفاحشة مبينة يضاعف لها العذاب ضعفين وكان ذلك

على الله يسيرا ولهذا كان حد الحر ضعفي حد العبد في الزنا والقذف وشرب الخمر لكمال النعمة على الحر ومما يدل على هذا الحديث المشهور الذي يرويه ابو نعيم وغيره عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال اشد الناس عذابا يوم القيامة عالم لم ينفعه الله بعلمه وقال بعض السلف رضي الله عنهم يغفر للجاهل سبعون ذنبا قبل ان يغفر للعالم ذنب وقال بعضهم ايضا ان الله تعالى يعافي الجاهل ما لا يعافي العلماء فالجواب ان هذا الذي ذكرتموه حق لا ريب فيه ولكن من قواعد الشرع والحكمة ايضا ان من كثرت حسناته وعظمت وكان له في الاسلام تاثير ظاهر فانه يحتمل له ما لا يحتمل لغيره ويعفى عنه ما لا يعفى عن غيره فان المعصية خبث والماء اذا بلغ قلتين لم يحمل الخبث بخلاف الماء القليل فانه يحمل ادنى خبث يقع فيه ومن هذا قول النبي صلى الله عليه وسلم لعمر وما يدريك لعل الله اطلع على اهل بدر فقال اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم وهذا هو المانع له صلى الله عليه وسلم من قتل من جس عليه وعلى المسلمين وارتكب مثل ذلك الذنب العظيم فاخبر صلى الله عليه وسلم انه شهد بدرا فدل على ان مقتضي عقوبته قائم لكن منع من ترتب اثره عليه ما له من المشهد العظيم فوقعت تلك السقطة العظيمة مغتفرة في جنب ما له من الحسنات ولما حض النبي صلى الله عليه وسلم على الصدقة فاخرج عثمان رضي الله عنه تلك الصدقة العظيمة قال ما ضر عثمان ما عمل بعدها وقال لطلحة لما تطاطا للنبي صلى الله عليه وسلم حتى صعد على ظهره الى الصخرة اوجب طلحة وهذا موسى كليم الرحمن عز وجل القى الالواح التي فيها كلام الله الذي كتبه له القاها على الارض حتى تكسرت ولطم عين ملك الموت ففقاها وعاتب ربه ليلة الاسراء في النبي صلى الله عليه وسلم وقال شاب بعث بعدي يدخل الجنة من امته اكثر ممن يدخلها من امتي واخذ بلحية هارون وجره اليه وهو نبي الله وكل هذا لم ينقص من قدره شيئا عند ربه وربه تعالى يكرمه ويحبه فان الامر الذي قام به موسى صلى الله عليه وسلم والعدو الذي برز له والصبر الذي صبره والاذى الذي اوذيه في الله امر لا يؤثر امثال هذه الامور ولا تغير به في وجهه ولا تخفض منزلته وهذا امر معلوم عند الناس مستقر في فطرهم ان من له الوف من الحسنات فانه يسامح بالسيئة والسيئتين ونحوها حتى انه ليختلج داعي عقوبته على اساءته وداعي شكره على احسانه فيغلب داعي الشكر لداعي العقوبة كما قيل

واذا الحبيب اتى بذنب واحد ... جاءت محاسنه بالف شفيع

وقال اخر

فان يكن الفعل الذي ساء واحدا ... فافعاله اللاتي سررن كثير

والله سبحانه يوازن يوم القيامة بين حسنات العبد وسيئاته فايهما غلب كان التاثير له فيفعل مع اهل الحسنات الكثيرة الذين اثروا محابه ومراضيه وغلبتهم دواعي طبعهم احيانا من العفو والمسامحة ما لا يفعله مع غيرهم

وايضا فان العالم اذا زل فانه يحسن استرجاع الغيبة وتدارك الفارط ومداواة الجرح فهو كالطبيب الحاذق
البصير بالمرض واسبابه وعلاجه فان زواله على يده اسرع من زواله على يد الجاهل وايضا فان معه من معرفته
بامر الله وتصديقه بوعده ووعيده وخشيته منه وازرايه على نفسه بارتكابه وايمانه بان الله حرمه وان
له ربا يغفر الذنب وياخذ به الى غير ذلك من الامور المحبوبة للرب ما يغمر الذنب ويضعف اقتضاءه ويزيل
اثره بخلاف الجاهل او اكثر فانه ليس معه ما يطفي الخطيئة ويمحوها واثارها المردية فلا يستويان فهذا بذلك
وهذا فصل الخطاب في هذا الموضع وبه يتبين ان الامرين حق وانه لا منافاة بينهما فان كل واحد
من العالم والجاهل انما ازداد قبح الذنب منه على الاخر بسبب جهله وتجرد خطيئته عما يقاومها ويضعف
تاثيرها ويزيل اثرها فعاد القبح في الموضعين الى الجهل وما يستلزمه وقلته وضعفه الى العلم وما يستلزمه
وهذا دليل ظاهر على شرف العلم وفضله وبالله التوفيق

الوجه الحادي والخمسون

بعد المائة ان العالم المشتغل بالعلم والتعليم لا يزال في عبادة فنفس تعلمه وتعليمه عبادة قال ابن مسعود
رضي الله عنه لا يزال الفقيه يصلي قالوا وكيف يصلي قال ذكر الله على قلبه ولسانه ذكره ابن عبد البر وفي حديث
معاذ مرفوعا وموقوفا تعلموا العلم فان تعلمه لله خشية وطلبه عبادة ومذاكرته تسبيح وقد تقدم
والصواب انه موقوف وذكر ابن عبد البر عن معاذ مرفوعا لان تغدو فتعلم بابا من ابواب العلم خير لك من
ان تصلي مائة ركعة وهذا الاسناد رفعه وقال ابن وهب كنت عند مالك بن انس فحانت صلاة
الظهر او العصر وانا اقرأ وانظر في العلم بين يديه فجمعت كتبي وقمت لاركع فقال لي مالك ما هذا قلت
اقوم الى الصلاة قال ان هذا لعجب ما الذي قمت اليه افضل من الذي كنت فيه اذا صحت فيه النية
وقال الربيع سمعت الشافعي يقول طلب العلم افضل من صلاة النافلة وقال سفيان الثوري ما من
عمل افضل من طلب العلم اذا صحت فيه النية وقال رجل للمعافى بن عمران ايما احب اليك اقوم اصلي الليل
كله او اكتب الحديث فقال حديث تكتبه احب الي من قيامك من اول الليل الى اخره وقال ايضا
كتابة حديث واحد احب الي من قيام ليلة وقال ابن عباس رضي الله عنهما تذاكر العلم بعض ليلة احب الي
من احيائها وفي مسائل اسحق بن منصور قلت لاحمد بن حنبل قوله تذاكر العلم بعض ليلة احب الي من احيائها
اي علم اراد قال هو العلم الذي ينتفع به الناس في امر دينهم قلت في الوضوء والصلاة والصوم والحج
والطلاق ونحو هذا قال نعم قال اسحق وقال لي اسحق بن راهويه هو كما قال احمد وقال
ابو هريرة لان اجلس ساعة فافقه في ديني احب الي من احيي ليلة الى الصباح وذكر ابن عبد البر من حديث
ابي هريرة رضي الله عنه رفعه لكل شيء عماد وعماد هذا الدين الفقه وما عبد الله بشيء افضل من فقه في الدين

الحديث وقد تقدم وقال محمد بن علي الباقر عالم ينتفع به افضل من الف عابد وقال ايضا رواية
الحديث وبثه في الناس افضل من عبادة الف عابد ولما كان طلب العلم والبحث عنه وكتابته والتفتيش
عليه من عمل القلب والجوارح كان من افضل الاعمال ومنزلته من عمل الجوارح كمنزلة اعمال القلب من الاخلاص
والتوكل والمحبة والانابة والخشية والرضا ونحوها من الاعمال الظاهرة فان قيل فالعلم انما
هو وسيلة الى العمل ومراد له والعمل هو الغاية ومعلوم ان الغاية اشرف من الوسيلة فكيف تفضل
الوسائل على غاياتها قيل كل من العلم والعمل ينقسم قسمين منه ما يكون وسيلة ومنه ما يكون غاية
فليس العلم كله وسيلة مرادة لغيرها فان العلم بالله واسمائه وصفاته هو اشرف العلوم على الاطلاق وهو
مطلوب لنفسه مراد لذاته قال الله تعالى الله الذي خلق سبع سموات ومن الارض مثلهن يتنزل الامر بينهن
لتعلموا ان الله على كل شيء قدير وان الله قد احاط بكل شيء علما فقد اخبر سبحانه انه خلق السموات والارض
ونزل الامر بينهن ليعلم عباده انه بكل شيء عليم وعلى كل شيء قدير فهذا العلم هو غاية الخلق المطلوبة وقال
تعالى فاعلم انه لا اله الا الله فالعلم بوحدانيته تعالى وانه لا اله الا هو مطلوب لذاته وان كان لا يكتفى
به وحده بل لا بد معه من عبادته وحده لا شريك له فهما امران مطلوبان لانفسهما ان يعرف الرب تعالى
باسمائه وصفاته وافعاله واحكامه وان يعبد بموجبها ومقتضاها فكما ان عبادته مطلوبة مرادة لذاتها فكذلك
العلم به ومعرفته وايضا فان العلم من افضل انواع العبادات كما تقدم تقريره فهو متضمن للغاية والوسيلة
وقولكم ان العمل غاية اما ان تريدوا به العمل الذي يدخل فيه عمل القلب والجوارح او العمل المختص بالجوارح
فقط فان اريد الاول فهو حق وهو يدل على ان العلم غاية مطلوبة لانه من اعمال القلب كما تقدم وان اريد به
الثاني وهو عمل الجوارح فقط فليس بصحيح فان اعمال القلوب مقصودة ومرادة بل هي الاصل في الحقيقة
واعمال الجوارح وسيلة مرادة لغيرها فان الثواب والعقاب والمدح والذم وتوابعها هو للقلب اصلا
وللجوارح تبعا وكذلك الاعمال المقصودة بها اولا اصلاح القلب واستقامته وعبوديته لربه ومليكه
وجعلت اعمال الجوارح تابعة لهذا المقصود مرادة له وان كان كثير منها يراد لما فيه من المصلحة
المترتبة عليه فمن اجلها صلاح القلب وزكاؤه وطهارته واستقامته فعلم ان الاعمال منها غاية ومنها
وسيلة وان العلم كذلك وايضا فالعلم الذي هو وسيلة الى العمل فقط اذا تجرد عن العمل لم
ينتفع به صاحبه فالعمل اشرف منه واما العلم المقصود الذي تنشا ثمرته المطلوبة منه من نفسه
فهذا لا يقال ان العمل المجرد اشرف منه فكيف يكون مجرد العبادة البدنية افضل من
العلم بالله واسمائه وصفاته واحكامه في خلقه وامره ومن العلم باعمال القلوب وافات النفوس والطرق

التي تفسد الاعمال وتمنع وصولها من القلب الى الله والمسافات التي بين الاعمال والقلب وبين القلب
والرب تعالى وبم تقطع تلك المسافات الى غير ذلك من علم الايمان وما يقويه وما يضعفه فكيف
يقال ان مجرد التعبد الظاهر بالجوارح افضل من هذا العلم بل من قام بالامرين فهو اكمل واذا كان احدهما
فضل ففضل هذا العلم خير من فضل العبادة فاذا كان في العبد فضلة عن الواجبات كان صرفها الى العلم الموروث ح
عن الانبياء افضل من صرفها الى مجرد العبادة فهذا افضل الخطاب في هذه المسئلة والله اعلم **الوجه**
الثاني والخمسون بعد المائة ما رواه الامام احمد والترمذي من حديث ابي كبشة الانماري قال قال
رسول الله صلى الله عليه وسلم انما الدنيا لاربعة نفر عبد رزقه الله مالا وعلما فهو يتقي فيه ربه ويصل فيه رحمه
ويعلم لله فيه حقا فهذا بافضل المنازل عند الله ورجل آتاه الله علما ولم يؤته مالا فهو يقول لو ان لي مالا
لعملت بعمل فلان فهو بنيته وهما في الاجر سواء ورجل آتاه الله مالا ولم يؤته علما فهو يخبط في ماله بغير علم ولا يتقي
فيه ربه ولا يصل فيه رحمه ولا يعلم لله فيه حقا فهذا باسوء المنازل عند الله ورجل لم يؤته مالا ولا علما
فيقول لو ان لي مالا لعملت بعمل فلان فهو بنيته وهما في الوزر سواء حديث صحيح صححه الترمذي والحاكم
وغيرهما فقسم النبي صلى الله عليه وسلم اهل الدنيا اربعة اقسام خيرهم من اوتي علما ومالا فهو محسن الى الناس والى
نفسه بعلمه وماله ويليه في المرتبة من اوتي علما ولم يؤت مالا وان كان اجرهما سواء فذلك انما كان لنيته
والا فالمنفق المتصدق فوقه بدرجة الانفاق والصدقة والعالم الذي لا مال له انما ساواه في الاجر
بالنية الجازمة المقترن بها مقدورها وهو القول المجرد الثالث من اوتي مالا ولم يؤت علما فهذا
اسوء الناس منزلة عند الله لان ماله طريق الى هلاكه فلو عدمه لكان خيرا له فانه اعطي ما يتزود به
الى الجنة فجعله زادا الى النار الرابع من لم يؤت مالا ولا علما ومن نيته انه لو كان له مال لعمل فيه
بمعصية الله تعالى فهذا يلي الغني الجاهل في المرتبة ويساويه في الوزر بنيته الجازمة المقترن بها مقدورها
وهو القول الذي لم يقدر على غيره فقسم السعداء قسمين وجعل العلم والعمل بموجبه سبب سعادتهما
وقسم الاشقياء قسمين وجعل الجهل وما يترتب عليه سبب شقاوتهما فعادت السعادة بجملتها الى العلم
وموجبه والشقاوة بجملتها الى الجهل وثمرته **الوجه** الثالث والخمسون بعد المائة ما ثبت
عن بعض السلف رضي الله عنهم انه قال تفكر ساعة خير من عبادة ستين سنة وسال رجل ام الدرداء
رضي الله عنها بعد موته عن عبادته فقالت كان نهاره اجمع في بادية التفكر وقال الحسن تفكر ساعة
خير من قيام ليلة وقال الفضيل التفكر مراة تريك حسناتك وسيئاتك وقيل لابراهيم انك
تطيل الفكرة فقال الفكرة مخ العقل وكان سفيان بن عيينة كثيرا ما يتمثل

اذا المرء كانت له فكرة ففي كل شيء له عبرة

وقال الحسن في قوله تعالى سأصرف عن آياتي الذين يتكبرون في الارض بغير الحق قال امنعهم التفكر
فيها وقال بعض العارفين لو طالعت قلوب المتقين بفكرها الى ما قدر في حجب الغيب من خير
الاخرة لم يصف لهم في الدنيا عيش ولم تقر لهم فيها عين وقال الحسن طول الوحدة اتم للفكرة
وطول الفكرة دليل على طريق الجنة وقال وهب ما طالت فكرة احد قط الا علم وما علم امرؤ قط الا
عمل وقال عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه الفكرة في نعم الله من اعظم العبادة وقال
عبد الله بن المبارك لبعض اصحابه وقد رآه مفكرا اين بلغت قال الصراط وقال بشر لو فكر
الناس في عظمة الله ما عصوه وقال ابن عباس رضي الله عنه ركعتان مقتصدتان في تفكر خير من قيام
ليلة بلا قلب وقال ابو سليمان الفكرة في الدنيا حجاب عن الاخرة وعقوبة لاهل الولاية والفكرة في الاخرة
تورث الحكمة وتحيي القلوب وقال ابن عباس رضي الله عنهما التفكر في الخير يدعو الى العمل به وقال
الحسن ان اهل العلم لم يزالوا يعودون بالذكر على الفكر والفكر على الذكر ويناطقون القلوب
حتى نطقت بالحكمة ومن كلام الشافعي استعينوا على الكلام بالصمت وعلى الاستنباط بالفكرة وهذا لان
الفكر عمل القلب والعبادة عمل الجوارح والقلب اشرف من الجوارح فكان عمله اشرف من عمل الجوارح وايضا
فالتفكر يوقع صاحبه من الايمان على ما لا يوقعه العمل المجرد فان التفكر يوجب له من انكشاف حقائق الامور
وظهورها له وتميز مراتبها في الخير والشر ومعرفة مفضولها من فاضلها واقبحها من قبيحها ومعرفة اسبابها الموصلة
اليها وما يقاوم تلك الاسباب ويدفع موجبها والتمييز بين ما ينبغي السعي في تحصيلها وما ينبغي السعي في دفع
اسبابه والفرق بين الوهم والخيال المانع لاكثر النفوس من انتهاز الفرص بعد امكانها وبين السبب
المانع حقيقة فيشتغل به دون الاول فما قطع العبد عن كماله وفلاحه وسعادته العاجلة والآجلة قاطع
اعظم من الوهم الغالب على النفس والخيال الذي هو مركبها بل بحرها الذي لا تنفك سابحة فيه وانما
يقطع هذا العارض بفكرة صحيحة وعزم صادق يميز به بين الوهم والحقيقة وكذلك اذا فكر في عواقب
الامور وتجاوز فكره مباديها وضعها مواضعها وعلم مراتبها فاذا ورد عليه وارد الذنب والشهوة
فتجاوز فكره لذته وفرح النفس به الى سوء عاقبته وما يترتب عليه من الالم والحزن الذي لا يقاوم تلك
اللذة والفرحة ومن فكر في ذلك فانه لا يكاد يقدم عليه وكذلك اذا ورد عليه وارد الراحة
والدعة والكسل والتقاعد عن مشقة الطاعات وتعبها حتى عبر بفكره الى ما يترتب عليه من اللذات
والخيرات والافراح التي تغمر تلك الالام في مباديها بالنسبة الى كمال عواقبها كلما غاص فكره في ذلك

استطالته لها وسهل عليه معاناتها واستقبلها بنشاط وقوة وعزيمة وكذلك اذا فكر في منتهى ما يستعبد من المال والجاه والصور ونظر الى غاية ذلك بعين فكره استحيى من عقله ونفسه ان يكون عبدا لذلك

كما قيل   لو فكر العاشق في منتهى حسن الذي تيمه لم يسبه

وكذلك اذا فكر في آخر الاطعمة المفتخرة التي تفانت عليها نفوس اشباه الانعام وما يصير امرها اليه عند خروجها ارتفعت همته عن صرفها الى الاعتناء بها وجعلها معبود قلبه الذي اليه يتوجه وله يرضى ويغضب ويسعى ويكدح ويوالي ويعادي كما جاء في المسند عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال ان الله جعل طعام ابن آدم مثل الدنيا وان قزحه وملحه فانه يعلم الى ماذا يصير او كما قال صلى الله عليه وسلم فاذا وقع فكره على عاقبة ذلك وآخر امره وكانت نفسه حرة ابية ربا بها ان يجعلها عبدا لما آخره انتن شيء واخبثه واخسه

فصل اذا عرف هذا فالفكر هو احضار معرفتين في القلب ليستثمر منهما معرفة ثالثة

ومثال ذلك اذا احضر في قلبه العاجلة وعيشها ونعيمها وما يقترن به من الآفات وانقطاعه وزواله ثم احضر في قلبه الآخرة ونعيمها ولذته ودوامه وفضله على نعيم الدنيا وجزم بهذين العلمين اثمر له ذلك علما ثالثا وهو ان الآخرة ونعيمها الفاضل الدائم اولى عند كل عاقل بايثاره من العاجلة المنقضية فله في معرفة الآخرة حالتان احداهما ان يكون قد سمع ذلك من غيره من غير ان يباشر قلبه برد اليقين به ولم ينفذ قلبه الى مكافحة حقيقة الآخرة وهذا حال اكثر الناس فيتجاذبه داعيان احدهما داعي العاجلة وايثارها وهو اقوى الداعيين عنده لانه مشاهد له محسوس وداعي الآخرة وهو اضعف الداعيين عنده لانه داعي سماع لم يباشر قلبه اليقين به ولا كافح حقيقته العلمية فاذا ترك العاجلة للآجلة تربه نفسه بانه قد ترك معلوما لمظنون او متحققا لموهوم فلسان الحال ينادي عليه لا ادع ذرة منقودة لدرة موعودة وهذه الآفة هي التي منعت النفوس من الاستعداد للآخرة وان تسعى لها سعيها وهي من ضعف العلم بها وتيقنها والا فمع الجزم التام الذي لا يخالج القلب فيه شك لا يقع التهاون بها وعدم الرغبة فيها ولهذا لو قدم لرجل طعام في غاية الطيب واللذة وهو شديد الحاجة اليه ثم قيل له انه مسموم فانه لا يقدم عليه لعلمه بان سوء ما يجني عاقبة تناوله يربي في المضرة على لذة اكله فما بال الايمان بالآخرة لم يكون في قلبه بهذه المنزلة ما ذاك الا لضعف شجرة العلم والايمان بها في القلب وعدم استقرارها فيه وكذلك اذا كان سائرا في طريق فقيل له ان بها قطاعا ولصوصا يقتلون من وجدوه وياخذون متاعه فانه لا يسلكها الا على احد وجهين اما ان لا يصدق المخبر واما ان يثق من نفسه بغلبتهم وقهرهم والانتصار عليهم والمانع تصديقه للخبر تصديقا لا يتمارى فيه وعلمه من نفسه بضعفه وعجزه عن مقاومتهم فانه لا يسلكها بلغ مقابلة

ولو حصل

ولو حصل له هذان العلمان فيما يتركه من ايثار الدنيا وشهواتها لم يقدم على ذلك فعلم ان ايثار الدنيا وترك الاستعداد للآخرة لا يكون قط مع كمال التصديق والايمان ابدا الحالة الثانية ان يتيقن ويجزم جزما لا شك فيه بان له دارا غير هذه الدار ومعادا له خلق وان هذه الدار طريق الى ذلك المعاد ومنزل من منازل السائرين اليه ويعلم مع ذلك انها باقية ونعيمها وعذابها لا يزول ولا نسبة لهذا النعيم والعذاب العاجل اليه الا كما يدخل الرجل اصبعه في اليم ثم ينزعها فالذي تعلق بها منه هو كالدنيا بالنسبة الى الآخرة فيثمر له هذا العلم ايثار الآخرة وطلبها والاستعداد التام لها وان يسعى لها سعيها وهذا يسمى تفكرا وتذكرا ونظرا وتاملا واعتبارا وتدبرا واستبصارا وهذه معان متقاربة تجتمع في شيء وتفترق في آخر فيسمى تفكرا لانه استعمال الفكرة في ذلك واحضاره عنده ويسمى تذكرا لانه احضار للعلم الذي يجب مراعاته بعد ذهوله وغيبته ومنه قوله تعالى ان الذين اتقوا اذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فاذا هم مبصرون ويسمى نظرا لانه التفات بالقلب الى المنظور فيه ويسمى تاملا لانه مراجعة للنظر كرة بعد كرة حتى يتجلى له وينكشف لقلبه ويسمى اعتبارا وهو افتعال من العبور لانه يعبر منه الى غيره فيعبر من ذلك الذي قد فكر فيه الى معرفة ثالثة وهي المقصود من الاعتبار ولهذا يسمى عبرة وهي على بناء الحالات كالجلسة والركبة والقتلة ايذانا بان هذا العلم والمعرفة قد صار حالا لصاحبه يعبر منه الى المقصود به قال تعالى لقد كان في قصصهم عبرة لاولي الالباب وقال تعالى ان في ذلك لعبرة لمن يخشى وقال تعالى ان في ذلك لعبرة لاولي الابصار ويسمى تدبرا لانه نظر في ادبار الامور وهي اواخرها وعواقبها ومنه تدبر القول قال تعالى افلم يدبروا القول وقال افلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا وتدبر الكلام ان ينظر في اوله وآخره ثم يعيد نظره مرة بعد مرة ولهذا جاء على بناء التفعل كالتجرع والتفهم والتبين ويسمى استبصارا وهو استفعال من التبصر وهو تبين الامر وانكشافه وتجليه للبصيرة وكل من التذكر والتفكر له فائدة غير فائدة الآخر فالتذكر يفيد تكرار القلب على ما علمه وعرفه ليرسخ فيه ويثبت ولا ينمحي فيذهب اثره من القلب جملة والتفكر يفيد تكثير العلم واستجلاب ما ليس حاصلا عند القلب فالتفكر يحصله والتذكر يحفظه ولهذا قال الحسن ما زال اهل العلم يعودون بالتذكر على التفكر وبالتفكر على التذكر ويناطقون القلوب حتى نطقت بالحكمة فالتفكر والتذكر بذار العلم وسقيه مطارحته ومذاكرته تلقيحه كما قال بعض السلف رضي الله عنهم ملاقاة الرجال تلقيح لالبابها فالمذاكرة بها لقاح العقل فالخير والسعادة في خزانة مفتاحها التفكر فانه لا بد من تفكر وعلم يكون نتيجة الفكر وحال يحدث للقلب من ذلك العلم فان كل علم من آثار المحبوب او

التفعل

المكروه لا بد ان يبقى لقلبه حالة وينصبغ بصبغة من علمه وتلك الحال توجب له ارادة وتلك الارادة توجب له وقوع العمل فههنا خمسة امور الفكر وثمرته العلم وثمرتهما الحالة التي تحدث للقلب وثمرة ذلك الارادة وثمرتها العمل فالفكر اذا هو المبدأ والمفتاح للخيرات كلها وهذا يكشف لك عن فضل التفكر وشرفه وانه من افضل اعمال القلب وانفعها له حتى قيل تفكر ساعة خير من عبادة سنة فالفكر هو الذي ينقل من موت الفطنة الى حياة اليقظة ومن المكاره الى المحاب ومن الرغبة والحرص الى الزهد والقناعة ومن سجن الدنيا الى فضاء الآخرة ومن ضيق الجهل الى سعة العلم ورحبه ومن مرض الشهوة والاخلاد الى هذه الدار الى شفاء الانابة الى الله والتجافي عن دار الغرور ومن مصيبة العمى والصمم والبكم الى نعمة البصر والسمع والفهم عن الله والعقل عنه ومن امراض الشبهات الى برد اليقين وثلج الصدر وبالجملة فاصل كل طاعة انما هي الفكر وكذلك اصل كل معصية انما يحدث من جانب الفكرة فان الشيطان يصادف ارض القلب خالية فارغة فيبذر فيها حب الافكار الردية فيتولد منه الارادات والعزوم فيتولد منها العمل فاذا صادف ارض القلب مشغولة ببذر الافكار النافعة فيما خلق له وفيما امر به وفيما هيئ له واعد له من النعيم المقيم او العذاب الاليم لم يجد لبذره موضعا وهذا كما قيل

اتاني هواها قبل ان اعرف الهوى ... فصادف قلبا فارغا فتمكنا

فان قيل قد ذكرتم الفكر ومنفعته وعظم تاثيره في الخير والشر فما متعلقه الذي ينبغي ان يوقع عليه ويجري فيه فانه لا يتم المقصود منه الا بذكر متعلقه الذي يقع الفكر فيه والا فتفكر بغير متفكر فيه محال قيل مجرى الفكر ومتعلقه اربعة امور احدها غاية محبوبة مرادة الحصول الثاني طريق موصلة الى تلك الغاية الثالث مضرة مطلوبة الاعدام مكروهة الحصول الرابع الطريق المفضي اليها الموقع عليها فلا تتجاوز افكار العقلاء هذه الامور الاربعة واي فكر تخطاها فهو من الافكار الردية والخيالات والاماني الباطلة كما يتمثل الفقير المعدم نفسه من اغنى البشر وهو ياخذ ويعطي ويمنع ويحرم وكما يتمثل العاجز نفسه من اقوى الملوك وهو يتصرف في البلاد والرعية ونظائر ذلك من افكار القلوب الباطولية التي هي من جنس افكار السكران والمحشوش والضعيف العقل فالافكار الردية هي قوت الانفس الخسيسة التي هي في غاية الدناءة توجب لها آثارا ردية ووساوس واوهاما باطلة الزوال واذا كان الفكر النافع لا يخرج عن الاقسام الاربعة التي ذكرناها فله ايضا مجالان ومنزلان احدهما هذه الدار والآخر دار القرار فابناء الدنيا الذين ليس لهم في الآخرة من خلاق عمروا وانبتوا افكارهم بتلك الاقسام الاربعة في هذه الدار فاثمرت لهم افكارهم فيها ما اثمرت ولكن اذا حقت الحقائق

وبطلت الدنيا وقامت الآخرة تبين الرابح من المغبون وخسر هنالك المبطلون وابناء الآخرة الذين خلقوا لها عمروا وانبتوا افكارهم على تلك الاقسام الاربعة فيها ونحن نفصل ذلك بعون الله وفضله

فنقول كل طالب لشيء هو محب له مؤثر لقربه ساع في طريق تحصيله متوصل اليه بجهده وهذا يوجب له تعلق افكاره بجمال محبوبه وكماله وصفاته التي يحب لاجلها وتعلقها بما ينال به من الخير والفرحة والسرور بفكره في جمال محبوبه دائر بين الجمال والحسن والاحسان فكلما قويت محبته له ازداد هذا الفكر وقوي وتضاعف حتى يستغرق اجزاء القلب فلا يبقى فيه فضل لغيره بل يصير بين الناس بقالبه وقلبه كله في حضرة محبوبه فان كان هذا المحبوب هو المحبوب الحق الذي لا تنبغي المحبة الا له ولا يحب غيره الا تبعا لمحبته فهو اسعد المحبين به وقد وضع الحب موضعه وتهيأت نفسه لكمالها الذي خلقت له الذي لا كمال لها دونه بوجه وان كانت تلك المحبة لغيره من المحبوبات الباطلة المتلاشية التي تفنى وتبقى حسراتها لنفوسها على حالها فقد وضع المحبة في غير موضعها وظلم نفسه اعظم ظلم واقبحه وتهيأت نفسه بذلك لغاية شقائها والمها واذا عرف هذا عرف ان تعلق المحبة بغير الاله الحق هو عين شقاء العبد وخسرانه فافكاره المتعلقة بها كلها باطلة وهي مضرة عليه في حياته وبعد موته والمحب الذي قد ملك المحبوب افكار قلبه لا يخرج فكره عن تعلقه بمحبوبه او بنفسه ثم فكره في محبوبه لا يخرج عن حالتين احداهما فكرته في جماله واوصافه والثانية فكرته في افعاله واحسانه وبره ولطفه الدالة على كمال صفاته وان تعلق فكره بنفسه لم يخرج ايضا عن حالتين اما ان يفكر في اوصافه المسخوطة التي يبغضها محبوبه ويمقته عليها ويسقطه من عينه فهو دائما يتوقع بفكره عليها ليحسبها ويبعد منها والثانية ان يفكر في الصفات والاخلاق والافعال التي تقربه منه وتحببه اليه حتى يتصف بها فالفكرتان الاولتان توجبان له زيادة محبته وقوتها وتضاعفها والفكرتان الاخريان توجبان محبة محبوبه له واقباله عليه وقربه منه وعطفه عليه وايثاره على غيره فالمحبة التامة مستلزمة لهذه الافكار الاربعة فالفكرة الاولى والثانية تتعلق بعلم التوحيد وصفات الاله سبحانه وافعاله والثالثة والرابعة تتعلق بالطريق الموصلة اليه وقواطعها وآفاتها وما يمنع من السير فيها فيفكر في صفات نفسه بمنزلة المحبوب لذيذ منها والمكروه له وهذه الفكرة توجب ثلاثة امور احدها ان هذا الوصف هل هو مكروه مبغوض لله ام لا والثاني اذا كان مكروها فهل هو متصف به ام لا والثالث اذا كان متصفا به فما طريق دفعه والعافية منه وان لم يكن متصفا به فما طريق حفظ الصحة وبقائه على العافية والاحتراز منه وكذلك الفكرة في الصفة المحبوبة تستدعي ثلاثة امور هل هي محبوبة لله مرضية له ام لا الثاني هل العبد متصف

بها، ولا الاحوال

المعبود، اليه،

بها ام لا الثالث انه اذا كان متصفا بها فما طريق حفظها ودوامها وان لم يكن متصفا بها فما طريق اجتلابها
والتخلق بها ثم فكرته في هذه الافعال على هذين الوجهين ايضا سواء ومجاري هذه الافكار ومواقعها
كثيرة جدا لا تكاد تنضبط وانما يحصرها ستة اجناس الطاعات الظاهرة والباطنة والمعاصي الظاهرة
والباطنة والصفات والاخلاق الحميدة والصفات والاخلاق الذميمة فهذه مجاري الفكر في صفات
نفسه وافعالها واما الفكر في صفات المعبود وافعاله واحكامه فتوجب له التمييز بين الايمان والكفر
والتوحيد والشرك والاقرار والتعطيل وتنزيه الرب عما لا يليق به ووصفه بما هو اهله من الجلال
والاكرام ومجاري هذا الفكر تدبر كلامه وما تعرف به سبحانه الى عباده على السنة رسله من اسمائه وصفاته
وافعاله وما نزه نفسه عنه مما لا ينبغي له ولا يليق به سبحانه وتدبر افعاله وايامه في اوليائه واعدائه التي
قصها على عباده واشهدهم اياها ليستدلوا بها على انه الههم الحق المبين الذي لا تنبغي العبادة الا له ويستدلوا بها
على انه على كل شيء قدير وانه بكل شيء عليم وانه شديد العقاب وانه الغفور الرحيم وانه العزيز الحكيم وانه الفعال
لما يريد وانه الذي وسع كل شيء رحمة وعلما وان افعاله كلها دائرة بين الحكمة والرحمة والعدل والمصلحة
لا يخرج شيء منها عن ذلك وهذه الثمرة لا سبيل الى تحصيلها الا بتدبر كلامه والنظر في اثار افعاله والى
هذين الاصلين ندب عباده في القرآن فقال في الاصل الاول افلا يتدبرون القرآن افلم
يدبروا القول كتاب انزلناه اليك مبارك ليدبروا اياته انا انزلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون كتاب
فصلت اياته قرآنا عربيا لقوم يعلمون وقال في الاصل الثاني قل انظروا ماذا في السموات
والارض ان في خلق السموات والارض واختلاف الليل والنهار لآيات لاولي الالباب ان في السموات والارض
لايات للمؤمنين وفي خلقكم وما يبث من دابة ايات لقوم يوقنون واختلاف الليل والنهار وما انزل الله من السماء
من رزق فاحيا به الارض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح ايات لقوم يعقلون اولم يسيروا في
الارض فينظروا كيف كان عاقبة الذين كانوا من قبلهم قل سيروا في الارض فانظروا كيف كان عاقبة الذين
من قبل ومن اياته ان خلقكم من تراب ثم اذا انتم بشر تنتشرون ومن اياته ان خلق لكم من انفسكم ازواجا لتسكنوا
اليها وجعل بينكم مودة ورحمة ان في ذلك لايات لقوم يتفكرون الى قوله ومن اياته ان تقوم السماء والارض
بامره ونوع سبحانه الآيات في هذه السورة فجعل خلق السموات والارض واختلاف لغات الامم
والوانهم ايات للعالمين كلهم لاشتراكهم في العلم بذلك وظهوره ووضوح دلالته وجعل خلق الازواج
التي يسكن اليها الرجال والقاء المودة والرحمة بينهم ايات لقوم يتفكرون فان سكون الرجل الى امرأته
وما يكون بينهما من المودة والتعاطف والتراحم امر باطن مشهود بعين الفكر والبصيرة فمتى نظر بهذه

العين

العين الى الحكمة والرحمة والقدرة التي صدر عنها ذلك دله فكره على انه الاله الحق المبين الذي اقرت الفطر
بربوبيته والهيته وحكمته ورحمته وجعل المنام بالليل والنهار والتصرف في المعاش وابتغاء فضله ايات
لقوم يسمعون وهو سمع الفهم وتدبر هذه الآيات وارتباطها بما جعلت اية له مما اخبرت به الرسل من
حياة العباد بعد موتهم وقيامهم من قبورهم كما احياهم سبحانه بعد موتهم واقامهم للتصرف في معاشهم فهذه
الآية انما ينتفع بها من سمع ما جاءت به الرسل واصغى اليه واستدل بهذه الآية عليه وجعل اراءتهم البرق
وانزال الماء من السماء واحياء الارض به ايات لقوم يعقلون فان هذه امور مرئية بالابصار مشاهدة
بالحس فاذا نظر فيها ببصر قلبه وهو عقله استدل بها على وجود الرب تعالى وقدرته وعلمه ورحمته
وحكمته وامكان ما اخبر به من احياء الخلائق بعد موتهم كما احيا هذه الارض بعد موتها وهذه امور لا تدرك
الا ببصر القلب وهو العقل فان الحس دل على الآية والعقل دل على ما جعلت اية له فذكر سبحانه الآية المشهودة
بالبصر والمدلول عليه المشهود بالعقل وقال في ومن اياته يريكم البرق خوفا وطمعا وينزل من السماء ماء
فيحيي به الارض بعد موتها ان في ذلك لايات لقوم يعقلون فتبارك الذي جعل كلامه حياة القلوب
وشفاء لما في الصدور وبالجملة فلا شيء انفع للقلب من قراءة القرآن بالتدبر والتفكر فانه جامع لجميع منازل
السائرين واحوال العاملين ومقامات العارفين وهو الذي يورث المحبة والشوق والخوف والرجا
والانابة والتوكل والرضى والتفويض والشكر والصبر وسائر الاحوال التي بها حياة القلب وكماله
وكذلك يزجر عن جميع الصفات والافعال المذمومة التي بها فساد القلب وهلاكه فلو علم الناس
ما في قراءة القرآن بالتدبر لاشتغلوا بها عن كل ما سواها فاذا قراه بتفكر حتى مر باية هو محتاج اليها في شفاء
قلبه كررها ولو مائة مرة ولو ليلة فقراءة اية بتفكر خير من قراءة ختمة بغير تدبر وتفهم وانفع للقلب
وادعى الى حصول الايمان وذوق حلاوة القرآن وهذه كانت عادة السلف يردد احدهم الآية حتى
الصباح وقد ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قام باية يرددها حتى الصباح وهي قوله تعالى ان تعذبهم
فانهم عبادك وان تغفر لهم فانك انت العزيز الحكيم فقراءة القرآن بالتفكر هي اصل صلاح القلب
ولهذا قال ابن مسعود رضي الله عنه لا تهذوا القرآن هذ الشعر ولا تنثروه نثر الدقل
وقفوا عند عجائبه وحركوا به القلوب وقال ابن مسعود رضي الله عنه ايضا اقرؤوا القرآن
وحركوا به القلوب لا يكن هم احدكم اخر السورة وروى ايوب عن ابي جمرة قال قلت لابن عباس
رضي الله عنهما اني سريع القراءة اني اقرأ القرآن في ثلاث قال لان اقرأ سورة من القرآن في ليلة
فاتدبرها وارتلها احب الي من ان اقرأ القرآن كما تقرأ والتفكر في القرآن نوعان تفكر فيه ليقع على

مراد الرب تعالى منه والتفكر في معاني ما دعا عباده الى التفكر فيه فالاول تفكر في الدليل القراني والثاني
تفكر في الدليل العياني فالاول تفكر في اياته المسموعة والثاني تفكر في اياته المشهودة ولهذا انزل الله
القران ليتدبر ويتفكر فيه ويعمل به لا لمجرد تلاوته مع الاعراض عنه قال الحسن البصري انزل القران
ليعمل به فاتخذوا تلاوته عملا **فصل** اذا تاملت ما دعا الله سبحانه في كتابه عباده الى التفكر
فيه اوقعك على العلم به سبحانه وبوحدانيته وصفات كماله ونعوت جلاله من عموم قدرته وعلمه وكمال
حكمته ورحمته واحسانه وبره ولطفه وعدله ورضاه وغضبه وثوابه وعقابه فبهذا تعرف الى
عباده وندبهم الى التفكر في اياته ونذكر لذلك امثلة مما ذكرها الله سبحانه وندب الى التفكر فيه
والنظر في غير موضع من كتابه كقوله تعالى فلينظر الانسان مم خلق وقوله تعالى وفي انفسكم افلا
تبصرون وقال يا ايها الناس ان كنتم في ريب من البعث فانا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم
من مضغة مخلقة وغير مخلقة لنبين لكم ونقر في الارحام ما نشاء الى اجل مسمى ثم نخرجكم طفلا ثم لتبلغوا
اشدكم ومنكم من يتوفى ومنكم من يرد الى ارذل العمر لكيلا يعلم من بعد علم شيئا وقال تعالى ايحسب
الانسان ان يترك سدى الم يك نطفة من مني يمنى ثم كان علقة فخلق فسوى فجعل منه الزوجين الذكر
والانثى اليس ذلك بقادر على ان يحيي الموتى وقال تعالى الم نخلقكم من ماء مهين فجعلناه في قرار
مكين الى قدر معلوم فقدرنا فنعم القادرون وقال تعالى اولم ير الانسان انا خلقناه من نطفة فاذا
هو خصيم مبين وقال تعالى ولقد خلقنا الانسان من سلالة من طين ثم جعلناه نطفة في قرار مكين
ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاما فكسونا العظام لحما ثم انشاناه
خلقا اخر فتبارك الله احسن الخالقين وهذا كثير في القران يدعو العبد الى النظر والفكر في مبدا
خلقه ووسطه واخره اذ نفسه وخلقه من اعظم الدلائل على خالقه وفاطره واقرب شيء الى الانسان خالقه / مطلب
نفسه وفيه من العجائب الدالة على عظمة الله ما تنقضي الاعمار في الوقوف على بعضه وهو غافل عنه معرض عن
التفكر فيه ولو فكر في نفسه لزجره ما يعلم من عجائب خلقها عن كفره قال تعالى قتل الانسان ما اكفره
من اي شيء خلقه من نطفة خلقه فقدره ثم السبيل يسره ثم اماته فاقبره ثم اذا شاء انشره فلم يكرر سبحانه
على اسماعنا وعقولنا ذكر هذا لنسمع لفظ النطفة والعلقة والمضغة والتراب ولا لنتكلم بها فقط ولا
لمجرد تعريفنا بذلك بل لامر وراء ذلك كله وهو المقصود بالخطاب واليه جرى ذكر الحديث فانظر
الان الى النطفة بعين البصيرة وهي قطرة من ماء مهين ضعيف مستقذر لو مرت بها ساعة من الزمان ح
فسدت وانتنت كيف استخرجها رب الارباب العليم القادر من بين الصلب والترائب منقادة لقدرته مطيعة العليم

لمشيته

لمشيته مذللة القياد على ضيق طرقها واختلاف مجاريها الى ان ساقها الى مستقرها ومجمعها وكيف
جمع سبحانه بين الذكر والانثى والقى المحبة بينهما وكيف قادهما بسلسلة المحبة والاجتماع الذي هو
سبب تخليق الولد وتكوينه وكيف قدر اجتماع ذينك الماءين مع بعد كل منهما عن صاحبه وساقهما من
اعماق العروق والاعضاء وجمعهما في موضع واحد جعل لهما قرارا مكينا لا يناله هواء يفسده ولا برد
يجمده ولا عارض يصل اليه ولا افة تتسلط عليه ثم قلب تلك النطفة البيضاء المشربة علقة حمراء
تضرب الى سواد ثم جعلها مضغة لحم مخالفة للعلقة في لونها وحقيقتها وشكلها ثم جعلها عظاما مجردة
لا كسوة عليها مباينة للمضغة في شكلها وهيئتها وقدرها وملمسها ولونها وانظر كيف قسم تلك الاجزاء
المتساوية المتشابهة الى الاعصاب والعظام والعروق والاوتار واليابس واللين وبين ذلك
ثم كيف ربط بعضها ببعض اقوى رباط واشده وابعده من الانحلال وكيف كساها لحما ركبه عليها وجعله
وعاء لها وغشاء وحافظا وجعلها حاملة له مقيمة له فاللحم قائم بها وهي محفوظة به وكيف صورها
فاحسن صورها وشق لها السمع والبصر والفم والانف وسائر المنافذ ومد اليدين والرجلين
وبسطهما وقسم رؤوسهما بالاصابع ثم قسم الاصابع بالانامل وركب الاعضاء الباطنة من القلب والمعدة والكبد
والطحال والرئة والرحم والمثانة والامعاء كل واحد منها له قدر يخصه ومنفعة تخصه ثم انظر
الحكمة البالغة في تركيب العظام قواما للبدن وعمادا له وكيف قدرها وخالف بينها بمقادير
مختلفة واشكال مختلفة فمنها الصغير والكبير والطويل والقصير والمنحني والمستدير والدقيق والعريض
والمصمت والمجوف وكيف ركب بعضها في بعض فمنها ما تركيبه تركيب الذكر في الانثى ومنها ما تركيبه
تركيب اتصال فقط وكيف اختلفت اشكالها باختلاف منافعها كالاضراس فانها لما كانت الة للطحن
جعلت عريضة ولما كانت الاسنان الة للقطع جعلت مستدقة محددة ولما كان الانسان محتاجا الى
الحركة بجملة بدنه وببعض اعضائه للتردد لم يجعل عظمه عظما واحدا بل عظاما متعددة وجعل بينها
مفاصل حتى تتيسر بها الحركة وكان قدر كل واحد منها وشكله على حسب الحركة المطلوبة منه وكيف شد
ط اسر المفاصل والاعضاء وربط بعضها ببعض باوتار ورباطات انبتها من احد طرفي العظم والصق العظم
بالطرف الاخر كالرباط له ثم جعل في احد طرفي العظم زوائد خارجة عنه وفي الاخر نقرا غائصة فيه
موافقة لشكل تلك الزوائد لتدخل فيها وتنطبق عليها فاذا اراد العبد ان يحرك جزءا من بدنه لم يمتنع عليه
مطلب ولولا المفاصل لتعذر عليه ذلك وتامل كيفية خلق الراس وكثرة ما فيه من العظام حتى قيل انها خمسة
وخمسون عظما مختلفة الاشكال والمقادير والمنافع وكيف ركبه سبحانه على البدن وجعله عاليا

عليه علو الراكب على مركوبه ولما كان عاليا على البدن جعل فيه الحواس الخمس والآلات للادراك كلها من السمع
والبصر والشم والذوق واللمس وجعل حاسة البصر في مقدمه ليكون كالطليعة والحرس والكاشف
للبدن وركب كل عين من سبع طبقات لكل طبقة وصف مخصوص ومقدار مخصوص ومنفعة مخصوصة
لو فقدت طبقة من تلك السبع الطبقات او زالت عن هيأتها ومواضعها لتعطلت العين عن الابصار
ثم اركز سبحانه داخل تلك الطبقات السبع خلقا عجيبا وهو انسان العين بقدر العدسة يبصر به
ما بين المشرق والمغرب والارض والسماء وجعله من العين بمنزلة القلب من الاعضاء فهو ملكها وتلك
الطبقات والاجفان والاهداب خدم له وحجاب وحراس فتبارك الله احسن الخالقين فانظر
كيف حسن شكل العينين وهيأتهما ومقدارهما ثم جملهما بالاجفان غطاء وسترا وحفظا وزينة
فهما يتلقيان عن العين الاذى والقذى والغبار ويكنانها من البارد المؤذي والحار المؤذي ثم غرس
في اطراف تلك الاجفان الاهداب جمالا وزينة ولمنافع اخر وراء الجمال والزينة ثم اودع هاتين
النور الباصر والضوء الباهر الذي يخرق ما بين السماء والارض ثم يخرق السماء مجاوزا لرؤية
ما فوقها من الكواكب وقد اودع سبحانه هذا السر العجيب في هذا المقدار الصغير بحيث ينطبع فيه
صورة السموات مع اتساع اكنافها وتباعد اقطارها وشق له السمع وخلق الاذن احسن خلقه
وابلغها في حصول المقصود منها فجعلها مجوفة كالصدفة لتجمع الصوت فتؤديه الى الصماخ وليحس
بدبيب الحيوان فيها فيبادر الى اخراجه وجعل فيها غضونا وتجاويف واعوجاجات تمسك الهواء
والصوت الداخل وتكسر حدته ثم تؤديه الى الصماخ ومن حكمة ذلك ان يطول به الطريق على الحيوان
فلا يصل الى الصماخ حتى يستيقظ او ينتبه لامساكه وفيه ايضا حكم غير ذلك ثم اقتضت
حكمة الرب الخالق سبحانه ان جعل ماء الاذن مرا في غاية المرارة فلا يجاوزه الحيوان ولا يقطعه داخلا
الى باطن الاذن بل اذا وصل اليه اعمل الحيلة في رجوعه وجعل ماء العين ملحا ليحفظها فانها شحمة
قابلة للفساد فكانت ملوحة مائها صيانة لها وحفظا وجعل ماء الفم عذبا حلوا ليدرك به
طعوم الاشياء على ما هي عليه اذ لو كان على غير هذه الصفة لاحالها الى طبيعته كما ان من عرض لفمه
المرارة استمر طعم الاشياء التي ليست بمرة كما قيل

ومن يك ذا فم مر مريض ... يجد مرا به الماء الزلالا

ونصب سبحانه قصبة الانف في وسط الوجه فاحسن شكله وهيأته ووضعه وفتح فيه المنخرين
وحجز بينهما بحاجز واودع فيهما حاسة الشم التي تدرك بها انواع الروائح الطيبة والخبيثة

والنافعة

والنافعة والضارة ويستنشق به الهواء فيوصله الى القلب فيتروح به ويتغذى به ثم لم يجعل في داخله
من الاعوجاجات والغضون ما جعل في الاذن لئلا يمسك الرائحة فيضعفها ويقطع مجراها وجعله
سبحانه مصبا تنحدر اليه فضلات الدماغ فتجتمع فيه ثم تخرج منه واقتضت حكمته ان جعل اعلاه ادق من
اسفله لان اسفله اذا كان واسعا اجتمعت فيه تلك الفضلات فخرجت بسهولة ولانه يأخذ من الهواء ملأه
ثم يتصاعد في مجراه قليلا قليلا حتى يصل الى القلب وصولا لا يضره ولا يزعجه ثم فصل بين المنخرين بحاجز
بينهما حكمة منه ورحمة فانه لما كان قصبة ومجرى لسائر ما ينحدر منه من فضلات الدماغ ومجرى للنفس الصاعد
منه جعل في وسطه حاجزا لئلا يفسد بما يجري فيه فيمنع تنشقه للنفس بل اما ان يعتمد الفضلات نازلة
من احد المنخرين الغالب فيبقى الآخر للنفس واما ان يجري فيهما فيقسم فلا يفسد الانف جملة بل يبقى فيه
مدخل للنفس وايضا فانه لما كان عضوا واحدا وحاسة واحدة ولم يكن عضوين وحاستين كالاذنين
والعينين التي اقتضت الحكمة تعددهما فانه ربما اصيبت احداهما وعرضت لها آفة تمنعها من كمالها فيكون
الاخرى سالمة فلا تتعطل منفعة هذا الجنس جملة وكان وجود انف في الوجه شيئا ظاهرا انصب
فيه انفا واحدا وجعل فيه منفذين حجز بينهما بحاجز يجري مجرى تعدد العينين والاذنين في المنفعة وهو
واحد فتبارك الله رب العالمين واحسن الخالقين وشق سبحانه للعبد الفم في احسن موضع واليقه به
واودع فيه من المنافع والآلات الذوق والكلام والآت القطع والطحن ما يبهر العقول عجائبه فاودعه
اللسان الذي هو احدى آياته الدالة عليه وجعله ترجمانا للملك للاعضاء مبينا عنه كما جعل الاذن رسولا
مؤديا مبلغا اليه فهي رسوله وبريده الذي يؤدي اليه الاخبار واللسان رسوله وبريده الذي يؤدي
عنه ما يريد واقتضت حكمته سبحانه ان جعل هذا الرسول مصونا محفوظا مستورا غير بارز مكشوف كالاذن
والعين والانف لان تلك الاعضاء لما كانت تؤدي من الخارج اليه جعلت بارزة ظاهرة لانها تأخذ
من خارج الى القلب وايضا فلانه لما كان اشرف الاعضاء بعد القلب ومنزلته منه منزلة ترجمانه ووزيره
ضرب عليه سرادق تستره وتصونه وجعله في ذلك السرادق كالقلب في الصدر وايضا فانه من الطف
الاعضاء والينها واشدها رطوبة وهو لا يتصرف الا بواسطة الرطوبة المحيطة به فلو كان بارزا
صار عرضة للحرارة واليبوسة والنشاف المانع له من التصرف ولغير ذلك من الحكم والفوائد ○
ثم زين سبحانه الفم بما فيه من الاسنان التي هي جمال له وزينة وبها قوام العبد وغذاؤه وجعل
بعضها ارحاء للطحن وبعضها آلة للقطع فاحكم اصولها وحدد رؤوسها وبيض لونها ورتب صفوفها متساوية
الرؤوس متناسقة الترتيب كانها الدر المنظوم بياضا وصفاء وحسنا واحاط سبحانه على ذلك كله حائطين

اودعهما من المنافع والحكم ما اودعهما وهما الشفتان فحسن لونهما وشكلهما ووضعهما وهيأتهما وجعلهما
غطاء للفم وطبقا له وجعلهما اتماما لمخارج حروف الكلام ونهاية له كما جعل اقصى الحلق بداية له واللسان
وما جاوره وسطا ولهذا كان اكثر العمل فيها له اذ هو الواسطة واقتضت حكمته سبحانه ان جعل الشفتين
لحما صرفا لا عظم فيه ولا عصب ليتمكن بهما من مص الشراب ويسهل عليه فتحهما وطبقهما وخص الفك الاسفل
بالتحريك لان تحريك الاسفل اخف واحسن ولانه يشتمل على الاعضاء الشريفة فلم يخاطر بها في الحركة وخلق
سبحانه الحناجر مختلفة الاشكال في الضيق والسعة والخشونة والملاسة والصلابة واللين والطول
والقصر فاختلفت بذلك الاصوات اعظم اختلاف ولا يكاد يشتبه صوتان الا نادرا ولهذا
كان الصحيح قبول شهادة الاعمى لتمييزه بين الاشخاص باصواتهم كما يميز البصير بينهم بصورهم والاشتباه
العارض بين الاصوات كالاشتباه العارض بين الصور وزين سبحانه الراس بالشعر وجعله
لباسا له لاحتياجه اليه وزين الوجه بما انبت فيه من الشعور المختلفة الاشكال والمقادير فزينه
بالحاجبين وجعلهما وقاية لما يتحدر من بشرة الراس الى العينين وقوسهما واحسن خطهما وزين اجفان
العينين بالاهداب وزين الوجه ايضا باللحية وجعلها كمالا ووقارا ومهابة للرجل وزين
الشفتين بما انبت فوقهما من الشارب وتحتهما من العنفقة وكذلك خلقه سبحانه اليدين اللتين هما آلة
العبد وسلاحه ورأس ماله ومعاشه فطولهما بحيث تصلان الى ما شاء من بدنه وعرض الكف ليتمكن
به من القبض والبسط وقسم فيه الاصابع الخمس وقسم كل اصبع بثلاث انامل والابهام باثنتين ووضع
الاصابع الاربعة في جانب والابهام في جانب لتدور الابهام على الجميع فجاءت على احسن وضع صلحت
به للقبض والبسط ومباشرة الاعمال ولو اجتمع الاولون والاخرون على ان يستنبطوا بدقيق افكارهم
وضعا اخر للاصابع سوى ما وضعت عليه لم يجدوا اليه سبيلا فانه لو ساواها لسواها وجعلها
طبقا واحدا كالصفيحة فلم يتمكن العبد بذلك من مصالحه ومن انواع تصرفاته ودقيق الصنائع والخط وغير ذلك
فان بسط اصابعه كانت طبقا يضع عليه ما يريد وان ضمها وقبضها كانت دبوسا وآلة للضرب
وان جعلها بين الضم والبسط كانت مغرفة له يشرب بها ويمسك فيها ما يتناوله وركب الاظفار على
رؤوسها زينة لها وعمادا ووقاية وليلتقط بها الاشياء الدقيقة التي لا تنالها جسم الاصابع وجعلها
سلاحا لغير الانسان من الحيوان والطير وآلة للمعاشة وليحك الانسان بها بدنه عند الحاجة فالظفر الذي
هو اقل الاعضاء واحقرها لو عدمه الانسان ثم ظهرت به حكة لاشتدت حاجته اليه ولم يقم مقامه
شيء في حك بدنه ثم هدى اليد الى موضع الحك حتى تمتد اليه ولو في النوم والغفلة من غير حاجة الى طلب

ولو

يده

مع هذا

و زنو

الى هنا
كل ذلك صنع
الرب الحكيم
[illegible]

ولو اشتغل بغيره لم يعثر على موضع الحك الا بعد تعب ومشقة ثم انظر الى الحكمة البالغة في جعل
عظام اسفل البدن غليظة قوية لانها اساس له وعظام اعاليه دونها في الثخانة والصلابة لانها محمولة
ثم انظر كيف جعل الرقبة مركبا للراس وركبها من سبع خرزات مجوفات مستديرات ثم طبق بعضها على بعض
وركب كل خرزة على صاحبتها تركيبا محكما متقنا حتى صارت كانها خرزة واحدة ثم ركب الرقبة على الظهر
والصدر ثم ركب الظهر من لدن اعلا الى منتهى عظم العجز من اربع وعشرين خرزة مركبة بعضها في بعض هي مجمع
اضلاعه والتي تمسكها ان تنحل وتنفصل ثم وصل تلك العظام بعضها ببعض فوصل عظام الظهر بعظام
الصدر وعظام الكتفين بعظام العضدين والعضدين بالذراعين والذراعين بالكف والاصابع
وانظر كيف كسى العظام العريضة كعظام الظهر والراس كسوة من اللحم تناسبها والعظام الدقيقة كسوة
تناسبها كالاصابع والمتوسطة كذلك كعظام الذراعين والعضدين فهو مركب على ثلثمائة وستين عظما
منها مائتان وثمانية واربعون مفاصل وباقيها صغار حشيت خلال المفاصل فلو زادت عظما واحدا
لكان مضرة على الانسان يحتاج الى قلعه ولو نقصت عظما واحدا كان نقصانا يحتاج الى جبره فالطبيب
ينظر في هذه العظام وكيفية تركيبها ليعرف وجه العلاج في جبرها والعارف ينظر فيها ليستدل
بها على عظمة باريها وخالقها وحكمته وعلمه ولطفه وكم بين النظرين ثم انه سبحانه ربط تلك الاعضاء والاجزاء
بالرباطات فشد بها اسرها وجعلها كالاوتار تمسكها وتحفظها حتى بلغ عددها الى خمسمائة وتسعة وعشرين
رباطا وهي مختلفة في الغلظ والدقة والطول والقصر والاستقامة والانحناء بحسب اختلاف مواضعها ومحالها
فجعل منها اربعة وعشرين رباطا آلة لتحريك العين وفتحها وضمها وابصارها لو نقصت منهن رباطا واحدا
اختل امر العين وهكذا لكل عضو من الاعضاء رباطات هي له كالآلات التي بها يتحرك ويتصرف ويفعل
كل ذلك صنع الرب الحكيم وتقدير العزيز العليم في قطرة ماء مهين فويل للمكذبين وتعسا للجاحدين
ومن عجائب خلقه ان جعل في الراس ثلاث خزائن نافذا بعضها الى بعض خزانة في مقدمه وخزانة في وسطه
وخزانة في اخره واودع تلك الخزائن من اسراره ما اودعها من الذكر والفكر والتعقل ومن عجائب خلقه ما فيه
من الامور الباطنة التي لا تشاهد كالقلب والكبد والطحال والرية والامعاء والمثانة وسائر ما في باطنه
من الالات العجيبة والقوى المتعددة المختلفة المنافع فاما القلب فهو الملك المستعمل لجميع
آلات البدن والمستخدم لها فهو محفوف بها محشود بجنوده يخدمونه مستقر في الوسط وهو اشرف اعضاء البدن
ومنه قوام الحياة وهو منبع الروح الحيواني والحرارة الغريزية وهو معدن العقل والعلم والحلم والشجاعة
والكرم والصبر والاحتمال والحب والارادة والرضى والغضب وسائر صفات الكمال فجميع الاعضاء

جزاء

الظاهرة والباطنة وقواها انما هي جند من اجناد القلب فان العين طليعته ورائده الذي يكشف له
المرئيات فان رأت شيئا أدته اليه ولشدة الارتباط الذي بينها وبينه اذا استقر فيه شيء ظهر فيها
فهي مرآته المترجمة للناظر ما فيه كما ان اللسان ترجمانه المؤدي للسمع ما فيه ولهذا كثيرا ما يقرن
سبحانه في كتابه بين هذه الثلاث كقوله ان السمع والبصر والفؤاد كل اولئك كان عنه مسؤولا وقوله
وجعلنا لهم سمعا وابصارا وافئدة وقوله صم بكم عمي وقد تقدم ذلك ولذلك يقرن بين
القلب والبصر كقوله ونقلب افئدتهم وابصارهم وكقوله في حق رسوله محمد صلى الله عليه وسلم ما
كذب الفؤاد ما رأى ثم قال ما زاغ البصر وما طغى وكذلك الاذن هي رسوله المؤدي اليه وكذلك
اللسان ترجمانه وبالجملة فجميع الاعضاء خدمه وجنوده وقال النبي صلى الله عليه وسلم الا ان
في الجسد مضغة اذا صلحت صلح لها سائر الجسد واذا فسدت فسد لها سائر الجسد الا وهي القلب وقال
ابو هريرة رضي الله عنه القلب ملك والاعضاء جنوده فان طاب الملك طابت جنوده واذا خبث الملك خبثت
جنوده وجعلت الرئة له كالمروحة تروح عليه دائما لانه اشد الاعضاء حرارة بل هو منبع الحرارة كا رح
واما الدماغ وهو المخ فانه جعل باردا واختلف في حكمة ذلك فقالت طائفة انما جعل الدماغ باردا لتبريد
الحرارة التي في القلب ليردها عن الافراط الى الاعتدال وردت طائفة هذا وقالت لو كان
كذلك لم يكن الدماغ بعيدا عن القلب بل كان ينبغي ان يحيط به كالرئة او يكون قريبا منه في الصدر ليكسر
حرارته وقالت الفرقة الاولى لاجل بعد الدماغ عن القلب لا يمنع ما ذكرناه من الحكمة الا لو قرب منه
لغلبته حرارة القلب بقوتها فجعل البعد بينهما بحيث لا يتفاسدان وتعتدل كيفية كل واحد منهما بكيفية
الاخر وهذا بخلاف الرئة فانها آلة للترويح على القلب لم تجعل لتعديل حرارته وتوسطت
فرقة وقالت بل المخ حار لكنه فاتر الحرارة وفيه تبريد بالخاصة فانه مبدأ للذهن ولهذا
كان الذهن يحتاج الى موضع ساكن قار صاف عن الاقذاء والكدر خال من الجلبة والزجل ولذلك
تكون جودة الفكر والتذكر واستخراج الصواب عند سكون البدن وفتور حركاته وقلة شواغله ومزعجاته
ولذلك لم يصلح لها القلب وكان الدماغ معتدلا في ذلك صالحا له ولذلك تجد هذه الافعال في الليل
وفي المواضع الخالية وتفسد عند التهاب نار الغضب والشهوة وعند الهم الشديد ومع التعب والحركات
العنيفة البدنية والنفسانية وهذا بحث متصل بقاعدة اخرى وهي ان الحواس والعقل مبدؤها
القلب او الدماغ فقالت طائفة مبدؤها كلها القلب وهي مرتبطة به وبينه وبين الحواس منافذ وطرق
قالوا وكل واحد من هذه الاعضاء التي هي آلات الحواس له اتصال بالقلب باعصاب وغير ذلك

وهذه الاعصاب تخرج من القلب الى ان تاتي الى كل واحد من هذه الاجسام التي فيها الحواس
ومشاهدة الاعضاء من القلب وهو مركب من اشياء تشاكل جميع هذه الاجسام التي فيها هذه الحواس
قالوا فالعين اذا ابصرت شيئا ادته بالآلة التي فيها الى القلب لان هذه الآلة متصلة منها الى القلب
والسمع اذا احس صوتا اداه الى القلب وكذلك كل حاسة ثم اوردوا على انفسهم سؤالا فقالوا ان قيل
كيف يجوز ان يكون عضو واحد على ضرب من المزاج يمد عدة حواس مختلفة واجسام هذه الحواس
مختلفة وقوة كل حاسة مخالفة لقوة الحاسة الاخرى واجابوا عن ذلك بان جميع العروق التي في
البدن كلها متصلة بالقلب اما بانفسها واما بواسطة فما من عرق ولا عضو الا وله اتصال بالقلب
اتصالا قريبا او بعيدا قالوا وينبعث منه في تلك العروق والمجاري الى كل عضو ما يناسبه ويشاكله
فينبعث منه الى العينين ما يكون منه جنس البصر والى الاذنين ما يدرك به المسموعات والى اللحم ما يكون
منه جنس اللمس والى الانف ما يكون منه حس الشم والى اللسان ما يكون منه حس الذوق والى كل
ذي قوة ما يمد قوته ويحفظها فهو الممد لهذه الاعضاء والحواس والقوى ولهذا كان الرأي
الصحيح ان اول الاعضاء تكونا بل قالوا ولا ريب ان مبدأ القوة العاقلة منه وان كان قد خالف في ذلك
آخرون وقالوا العقل في الرأس فالصواب ان مبدأه ومنشأه من القلب وفروعه وثمرته
في الرأس والقرآن قد دل على هذا بقوله افلم يسيروا في الارض فتكون لهم قلوب يعقلون بها وقال ان في
ذلك لذكرى لمن كان له قلب ولم يرد بالقلب هنا مضغة اللحم المشترك بين الحيوانات بل المراد ما فيه
من العقل واللب وتنازعهم في ذلك طائفة اخرى وقالوا مبدأ هذه الحواس انما هو الدماغ
وانكروا ان يكون بين القلب والعين والاذن والانف اعصاب او عروق وقالوا هذا كذب
على الخلقة والصواب التوسط بين الفريقين وهو ان القلب ينبعث منه قوى الى هذه الحواس وهي
قوى معنوية لا تحتاج في وصولها اليها الى مجار مخصوصة واعصاب تكون حاملة لها فان وصول
القوى الى هذه الحواس والاعضاء لا يتوقف الا على قبولها واستعدادها وامداد القلب لا على مجار
واعصاب وبهذا يزول اللبس في هذا المقام الذي طال فيه الكلام وكثر فيه النزاع والخصام والله
اعلم وبه التوفيق للصواب والمقصود التنبيه على اقل القليل من وجوه الحكمة التي في خلق الانسان لو لامر
اضعاف اضعاف ما يخطر بالبال او يجري في المقال وانما فائدة ذكر هذه النبذة التي هي كالاشارة بالنسبة
الى ما وراءها التنبيه واذا نظر العبد الى غذائه فقط في مدخله ومستقره ومخرجه رأى فيه العبر والعجائب
كيف جعلت له آلة تناوله بها ثم باب يدخل منه ثم آلة تقطعه صغارا ثم طاحون تطحنه ثم

اعين بما يعجنه ثم جعل له مجرى وطريقا الى جانب مجرى النفس ينزل هذا ويصعد هذا فلا يلتقيان
مع غاية القرب ثم جعل له حوايا وطرقا توصله الى المعدة فهي خزانته وموضع اجتماعه ولها بابان باب
اعلى يدخل منه الطعام وباب اسفل يخرج منه ثفله والباب الاعلى اوسع من الاسفل اذ الاعلى مدخل للحاصل
والاسفل مصرف للضار منه والاسفل منطبق دائما ليستقر الطعام في موضعه فاذا انتهى الهضم فان ذلك
الباب ينفتح الى انقضاء الدفع ويسمى البواب لذلك والاعلى يسمى فم المعدة والطعام ينزل الى المعدة متلملما
فاذا استقر فيها انماع وذاب ويحيط بالمعدة من داخلها وخارجها حرارة نارية بل ربما تزيد على حرارة
النار ينضج بها الطعام فيها كما ينضج الطعام في القدر بالنار المحيطة به ولذلك تذيب ما هو مستحجر كالحصا
وغيره حتى تتركه مايعا فاذا اذابته علا صفوه الى فوق ورسب كدره الى اسفل ومن المعدة عروق متصلة
بسائر البدن يبعث فيها معلوم كل عضو وقوامه بحسب استعداده وقبوله فيبعث اشرف ما في ذلك والطفه
واحبه الى الارواح فيبعث الى البصر بصرا والى السمع سمعا والى الشم شما والى كل حاسة بحسبها فهذا
الطف ما يتولد عن الغذاء ثم يبعث منه الى الدماغ ما يناسبه في اللطافة والاعتدال ثم يبعث من الباقي الى
الاعضاء في تلك المجاري بحسبها ويبعث منه الى العظام والشعور والاظفار ما يغذيها ويحفظها
فيكون الغذاء داخلا الى المعدة من طرق ومجار هذا واردا اليها وهذا صادر عنها بحكمة بالغة ونعمة
سابغة ولما كان الغذاء اذا استحال في المعدة استحال دما ومرة سوداء ومرة صفراء وبلغما اقتضت
حكمته سبحانه وتعالى ان جعل لكل واحد من هذه الاخلاط مصرفا ينصب اليه ويجتمع فيه ولا يسعى الى الاعضاء
الشريفة الا الاكمل فوضع المرارة مصبا للمرة الصفراء ووضع الطحال مقرا للمرة السوداء والكبد
يمتص اشرف ما في ذلك وهو الدم ثم يبعثه الى جميع البدن من عرق واحد ينقسم على مجار كثيرة يوصل الى
كل واحد من الشعور والاعصاب والعظام والعروق ما يكون به قوامه ثم اذا نظرت الى ما فيه من القوى
الباطنة والظاهرة المختلفة في انفسها ومنافعها رايت العجب العجاب كقوة سمعه وبصره وشمه وذوقه ولمسه
وحبه وبغضه ورضاه وغضبه وغير ذلك من القوى المتعلقة بالادراك والارادة وكذلك القوى
المتصرفة في غذائه كالقوة المنضجة له وكالقوة الماسكة له والدافعة له الى الاعضاء والقوة الهاضمة له بعد
اخذ الاعضاء حاجتها الى غير ذلك من عجائب خلقته الظاهرة والباطنة **فصل** فارجع الان
الى النطفة وتامل حالها اولا وما صارت اليه ثانيا وانه لو اجتمع الانس والجن على ان يخلقوا لها سمعا
او بصرا او عقلا او قدرة او علما او روحا بل عظما واحدا من اصغر عظامها بل عرقا من ادق عروقها بل
شعرة واحدة لعجزوا عن ذلك بل ذلك كله اثار صنع الله الذي اتقن كل شيء في قطرة من ماء مهين فمن هذا

صنعه

صنعه في قطرة ماء فكيف صنعه في ملكوت السماوات وعلوها وسعتها واستدارتها وعظم خلقها
وحسن بنائها وعجائب شمسها وقمرها وكواكبها ومقاديرها واشكالها وتفاوت مشارقها ومغاربها فلا
ذرة فيها تنفك عن حكمة بل هي احكم خلقا واتقن صنعا واجمع للعجائب من بدن الانسان بل لا نسبة لجميع ما
في الارض الى عجائب السموات قال تعالى ءانتم اشد خلقا ام السماء بناها رفع سمكها فسواها وقال
تعالى ان في خلق السموات والارض واختلاف الليل والنهار والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس الى قوله
لايات لقوم يعقلون فبدا بذكر خلق السموات وقال تعالى ان في خلق السموات والارض واختلاف
الليل والنهار لايات لاولي الالباب وهذا كثير في القران فالارض والبحار والهواء وكل ما تحت السموات
بالاضافة الى السموات كقطرة في بحر ولهذا قل ان تجي سورة في القران الا وفيها ذكرها اما اخبارا عن
عظمها وسعتها واما اقساما بها واما دعاء الى النظر فيها واما ارشادا للعباد ان يستدلوا بها على عظمة بانيها ورافعها
واما استدلالا منه سبحانه بخلقها على ما اخبر به من المعاد والقيامة واما استدلالا منه بربوبيته لها
على وحدانيته وانه الله الذي لا اله الا هو واما استدلالا بحسنها واستوائها والتئام اجزائها وعدم الفطور
فيها على تمام حكمته وقدرته وكذلك ما فيها من الكواكب والشمس والقمر والعجائب التي تتقاصر عقول البشر عن
قليلها فكم من قسم في القران بها كقوله والسماء ذات البروج والسماء والطارق والسماء وما بناها
والسماء ذات الرجع والشمس وضحاها والنجم اذا هوى والنجم الثاقب فلا اقسم بالخنس وهي الكواكب
التي تكون خنسا عند طلوعها جوارى في مجراها ومسيرها كنسا عند غروبها فاقسم بها في احوالها الثلاثة
ولم يقسم في كتابه بشي من مخلوقاته اكثر من السماء والنجوم والشمس والقمر وهو سبحانه يقسم بما يقسم به من مخلوقاته
لتضمنه الايات والعجائب الدالة عليه وكلما كان اعظم اية وابلغ في الدلالة كان اقسامه به اكثر من غيره
ولهذا يعظم سبحانه هذا القسم كقوله فلا اقسم بمواقع النجوم وانه لقسم لو تعلمون عظيم واظهر القولين
انه قسم بمواقع هذه النجوم التي في السماء فان اسم النجوم عند الاطلاق انما ينصرف اليها وايضا فانه لم يجر
عادته باستعمال النجوم في ايات القران ولا في موضع واحد من كلامه حتى تحمل عليه هذه الاية وجرت عادته
باستعمال النجوم في الكواكب في جميع القران وايضا فان نظير الاقسام بمواقعها اقسامه
بهويها في قوله تعالى والنجم اذا هوى **وايضا** فان هذا قول جمهور اهل التفسير
وايضا فانه سبحانه انما يقسم بالقران نفسه لا بوصوله الى عباده هذه طريقة القران قال
تعالى ص والقران ذي الذكر والقران الحكيم والقران المجيد حم والكتاب المبين ونظائره
والمقصود انه سبحانه انما يقسم من مخلوقاته بما هو من اياته الدالة على ربوبيته ووحدانيته وقد ابى سبحانه

مطلب

في كتابه على المتفكرين في خلق السموات والأرض وذم المعرضين عن ذلك فقال وجعلنا السماء سقفا
محفوظا وهم عن آياتها معرضون وتأمل خلق هذا السقف الأعظم مع صلابته وشدته ووثاقته من دخان
وهو بخار الماء قال تعالى وبنينا فوقكم سبعا شدادا وقال أأنتم أشد خلقا أم السماء بناها
رفع سمكها فسواها وقال تعالى وجعلنا السماء سقفا محفوظا فانظر الى هذا البناء الشديد العظيم
الواسع الذي رفع سمكه أعظم ارتفاع وزينه بأحسن زينة وأودعه العجائب والآيات وكيف
ابتدأ خلقه من بخار ارتفع من الماء وهو الدخان فسبحان من لا يقدر الخلق قدره ومن هو فوق العرش فرد موحد
لقد تعرف الى خلقه بأنواع التعرفات ونصب لهم الدلالات وأوضح لهم الآيات البينات ليهلك من
هلك عن بينة ويحيى من حي عن بينة وان الله لسميع عليم فارجع البصر الى السماء وانظر فيها وفي كواكبها ودورانها
وطلوعها وغروبها وشمسها وقمرها واختلاف مشارقها ومغاربها ودؤوبها في الحركة على الدوام من غير
فتور في حركتها ولا تغير في سيرها بل تجري في منازل قد رتبت لها بحساب مقدر لا يزيد ولا ينقص الى أن
يطويها فاطرها وبديعها وانظر الى كثرة كواكبها واختلاف ألوانها ومقاديرها فبعضها يميل الى الحمرة
وبعضها يميل الى البياض وبعضها الى اللون الرصاصي ثم انظر الى مسير الشمس في فلكها في مدة سنة
ثم هي في كل يوم تطلع وتغرب بسير سخرها له خالقها لا تتعداه ولا تقصر عنه ولولا طلوعها وغروبها لما
عرف الليل والنهار ولا المواقيت ولأطبق الظلام على العالم أو الضياء ولم يتميز وقت المعاش عن وقت
السبات والراحة وكيف قدر لها العزيز العليم سفرين متباعدين أحدهما سفرها صاعدة الى
أوجها والثاني سفرها هابطة الى حضيضها تنتقل في منازل هذا السفر منزلة منزلة حتى تبلغ
غايتها منه فأحدث ذلك السفر بتقدير الرب الخالق العادل اختلاف الفصول من الصيف والشتاء
والخريف والربيع فاذا انخفض سيرها عن وسط السماء برد الهواء وظهر الشتاء واذا استوت في وسط
السماء اشتد القيظ واذا كانت بين المنزلتين اعتدل الزمان وقامت مصالح العباد والحيوانات والنبات
بهذه الفصول الأربعة واختلفت بسببها الأقوات وأحوال النبات والألوان ومنافع الحيوان والأغذية
وغيرها وانظر الى القمر وعجائب آياته كيف يبديه الله كالخيط الدقيق ثم يتزايد نوره ويتكامل
شيئا فشيئا كل ليلة حتى ينتهي الى ابداره وكماله وتمامه ثم يأخذ في النقصان حتى يعود الى حالته الأولى ليظهر من
ذلك مواقيت العباد في معايشهم وعباداتهم ومناسكهم فتميزت بذلك الشهور والسنين وقام حساب العالم
مع ما في ذلك من الحكم والآيات والعبر التي لا يحصيها الا الله وبالجملة فما من كوكب من الكواكب الا
وللرب تبارك وتعالى في خلقه حكمة في مقداره ثم في شكله ولونه في موضعه من السماء وقربه من وسطها

وبعده

وبعده وقربه من الكوكب الذي يليه وبعده منه وان أردت معرفة ذلك على سبيل الاجمال فقسه بأعضاء
بدنك واختلافها وتفاوت ما بين المتجاورات منها وبعدها بين المتباعدات وأشكالها ومقاديرها وتفاوت
منافعها وما خلقت له وأي نسبة لذلك الى عظم السموات وكواكبها وآياتها وقد اتفق أرباب الهيئة على أن
الشمس بقدر الأرض مائة مرة ونيفا وستين مرة والكواكب التي نراها أكثر منها أصغرها بقدر الأرض
وبهذا يعرف ارتفاعها وبعدها وفي حديث أبي هريرة رضي الله عنه الذي رواه الترمذي
أن بين السماء والأرض مسيرة خمسمائة عام وبين كل سماءين كذلك وأنت ترى الكوكب كأنه واقف
لا يسير وهو في أول جزء من طلوعه الى تمام طلوعه يقطع من فلكه قد طلع بقدر مسافة الأرض مائة مرة أو
أكثر وذلك بقدر لحظة واحدة لأن الكوكب اذا كان بقدر الأرض مائة مرة مثلا ثم سار في لحظة من
موضع الى موضع وقد قطع بقدر مسافة الأرض مائة مرة وزيادة في لحظة من اللحظات وهكذا أمره على الدوام
والعبد غافل عنه وعن آياته وقال بعضهم اذا تلفظت بقولك لا نعم بين اللفظتين تكون الشمس
قد قطعت من الفلك خمسمائة عام ثم انه سبحانه أمسك السموات مع عظمها وعظم ما فيها وثبتها من غير
علاقة من فوقها ولا عمد من تحتها الله الذي خلق السموات بغير عمد ترونها وألقى في الأرض رواسي أن تميد
بكم وبث فيها من كل دابة وأنزلنا من السماء ماء فأنبتنا فيها من كل زوج كريم هذا خلق الله فأروني ماذا
خلق الذين من دونه بل الظالمون في ضلال مبين فصل والنظر في هذه الآيات
وأمثالها نوعان نظر اليها بالبصر الظاهر فيرى مثلا زرقة السماء ونجومها وعلوها وسعتها وهذا
نظر يشارك الانسان فيه غيره من الحيوانات وليس هو المقصود بالأمر والثاني أن يتجاوز
هذا الى النظر بالبصيرة الباطنة فيفتح له أبواب السماء فيجول في أقطارها وملكوتها وبين ملائكتها
ثم يفتح له باب بعد باب حتى ينتهي به سير القلب الى عرش الرحمن فينظر سعته وعظمته وجلاله ومجده
ورفعته ويرى السموات السبع والأرضين السبع بالنسبة اليه كحلقة ملقاة بأرض فلاة ويرى
الملائكة حافين من حوله لهم زجل بالتسبيح والتحميد والتقديس والتكبير والأمر ينزل من فوقه بتدبير
الممالك والجنود التي لا يعلمها الا ربها ومليكها فينزل الأمر باحياء قوم وإماتة آخرين وإعزاز قوم
وإذلال آخرين وإسعاد قوم وشقاوة آخرين وإنشاء ملك وسلب ملك وتحويل نعمة من محل الى محل
وقضاء الحاجات على اختلافها وتباينها وكثرتها من جبر كسير وإغناء فقير وشفاء مريض وتفريج
كرب ومغفرة ذنب وكشف ضر ونصر مظلوم وهداية حيران وتعليم جاهل ورد آبق وأمان
خائف وإجارة مستجير ومدد لضعيف وإغاثة لملهوف وإعانة لعاجز وانتقام من ظالم وكف

لعدوانه من مراسيم دائرة بين العدل والفضل والحكمة والرحمة تنفذ في أقطار العوالم لا يشغله سمع عن
سمع ولا تغلطه كثرة المسائل والحوائج على اختلافها وتباينها واتحاد وقتها ولا يتبرم بإلحاح
الملحين ولا تنقص ذرة من خزائنه لا إله إلا الله العزيز الحكيم فحينئذ يقوم القلب بين يدي الرحمن مطرقا
لهيبته خاشعا لعظمته عانيا لعزته فيسجد بين يدي الملك الحق المبين سجدة لا يرفع رأسه منها إلى
يوم المزيد فهذا سفر القلب وهو في وطنه وداره ومحل ملكه وهذا من أعظم آيات الله وعجائب
صنعه فيا له من سفر ما أبركه وأروحه وأعظم ثمرته وربحه وأجل منفعته وأحسن عاقبته سفر
هو حياة الأرواح ومفتاح السعادة وغنيمة العقول والألباب لا كالسفر الذي هو قطعة من العذاب

فصل وإذا نظرت إلى الأرض كيف خلقت رأيتها من أعظم آيات فاطرها وبديعها
خلقها سبحانه فراشا ومهادا وذللها لعباده وجعل فيها أرزاقهم وأقواتهم ومعايشهم وجعل فيها
السبل لينتقلوا فيها في حوائجهم وتصرفاتهم وأرساها بالجبال فجعلها أوتادا تحفظها لئلا تميد بهم
ووسع أكنافها ودحاها فمدها وبسطها وطحاها فوسعها من جوانبها وجعلها كفاتا للأحياء تضمهم على
ظهرها ما داموا أحياء وكفاتا للأموات تضمهم في بطنها إذا ماتوا فظهرها وطن للأحياء وبطنها وطن
للأموات وقد أكثر تعالى من ذكر الأرض في كتابه ودعا عباده إلى النظر إليها والتفكر في خلقها فقال
تعالى والأرض فرشناها فنعم الماهدون وقال الذي جعل لكم الأرض قرارا وقال الله الذي جعل لكم الأرض
فراشا وقال أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت وإلى السماء كيف رفعت وإلى الجبال كيف نصبت وإلى
الأرض كيف سطحت إن في السموات والأرض لآيات للمؤمنين وهذا كثير في القرآن فانظر إليها
وهي ميتة خاشعة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت فارتفعت واخضرت وأنبتت من كل زوج
بهيج للناظرين كريم للمتناولين فأخرجت الأقوات على اختلافها وتباين مقاديرها وأشكالها وألوانها
ومنافعها والفواكه والثمار وأنواع الأدوية ومراعي الدواب والطير ثم انظر إلى قطعها المتجاورات
وكيف ينزل عليها ماء واحد فتنبت الأزواج المختلفة كما قال تعالى وفي الأرض قطع متجاورات
وجنات من أعناب وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان يسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض في
الأكل إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون **فليت** كانت هذه الأجنة المختلفة مودعة في بطن
هذه الأم وكيف كان حملها من لقاح واحد صنع الله الذي أتقن كل شيء لا إله إلا هو ولولا أن هذا
من أعظم آياته لما نبه عليه عباده ودعاهم إلى التفكر فيه فقال تعالى وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا
عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج ذلك بأن الله هو الحق وأنه يحيي الموتى وأنه على كل

شيء

[illegible]

شيء قدير وأن الساعة آتية لا ريب فيها وأن الله يبعث من في القبور فجعل النظر في هذه الآية وما قبلها
من طور الجنين دليلا على هذه المطالب الخمس مستلزما للعلم بها ثم انظر كيف أحكم جوانب الأرض
بالجبال الراسيات الشوامخ الصم الصلاب وكيف نصبها فأحسن نصبها وكيف رفعها وجعلها
أصلب أجزاء الأرض لئلا تضمحل على تطاول السنين وترادف الأمطار والرياح بل أتقن صنعها وأحكم
وضعها وأودعها من المنافع والمعادن والعيون ما أودعها ثم هدى الناس إلى استخراج تلك
المعادن منها وألهمهم كيف يصنعون منها النقود والحلي والزينة واللباس والسلاح وآلات المعاش
على اختلافها ولولا هدايته سبحانه لهم إلى ذلك لما كان لهم علم بشيء منه ولا قدرة عليه ومن
آياته الباهرة هذا الهواء اللطيف المحبوس بين السماء والأرض يدرك بحس اللمس عند هبوبه
يدرك جسمه ولا يرى شخصه فهو يجري بين السماء والأرض والطير محلقة فيه سابحة بأجنحتها في أمواجه
كما تسبح حيوانات البحر في الماء وتضطرب جوانبه وأمواجه عند هيجانه كما تضطرب أمواج البحر
فإذا شاء سبحانه حركه بحركة الرحمة فجعله رخاء ورحمة وبشرى بين يدي رحمته ولاقحا للسحاب
تلقحه بحمل الماء كما يلقح الذكر للأنثى بالحمل ومن رياح الرحمة المبشرات والنشر والذاريات والمرسلات
والرخاء والرياح اللواقح ومن رياح العذاب العاصف والقاصف وهما في البحر والعقيم والصرصر
وهما في البر وإن شاء حركه بحركة العذاب فجعله عقيما وأودعه عذابا أليما وجعله نقمة على من يشاء من
عباده فيجعله صرصرا ونحسا وعاتيا ومفسدا لما يمر عليه وهي مختلفة في مهابها صبا ودبور وجنوب
وشمال وفي منفعتها وتأثيرها أعظم اختلاف فريح لينة رطبة تغذي النبات وأبدان الحيوان
وأخرى تجففه وأخرى تهلكه وتعطبه وأخرى تسده وتصلبه وأخرى توهنه وتضعفه ولهذا
أخبر سبحانه عن رياح الرحمة بصيغة الجمع لاختلاف منافعها وما يحدث منها فريح تثير السحاب وريح
تلقحه وريح تحمله على متونها وريح تغذي النبات ولما كانت الرياح مختلفة في مهابها وطبائعها جعل
لكل ريح ريحا مقابلها تكسر سورتها وتدفع حدتها وتبقي لينها ورحمتها فرياح الرحمة متعددة وأما
رياح العذاب فإنه ريح واحدة ترسل من وجه واحد لإهلاك ما ترسل بإهلاكه فلا تقوم لها ريح
أخرى تقابلها وتكسر سورتها وتدفع حدتها بل تكون كالجيش العظيم الذي لا يقاومه شيء يدمر كل ما
أتى عليه وتأمل حكمة القرآن وجلالته وفصاحته كيف اطرد هذا فيه في البر والبحر فجاءت
ريح الرحمة فيه بلفظ الواحد لقوله تعالى هو الذي يسيركم في البر والبحر حتى إذا كنتم في الفلك وجرين
بهم بريح طيبة وفرحوا بها جاءتها ريح عاصف وجاءهم الموج من كل مكان فإن السفن إنما تسير بالريح

الواحدة التي يأتي بريحه واحدة فاذا اختلفت الرياح على السفن وتقابلت لم يتم سيرها فالمقصود منها
في البر خلاف المقصود منها في البحر فان المقصود في البحر ان يكون واحدة طيبة لا يعارضها شي فافردت
هنا وجمعت في البر ثم آيته سبحانه اعطى هذا المخلوق اللطيف الذي يحركه اضعف المخلوقات ويخرقه
من الشدة والقوة والبأس ان يسلق الاجسام الصلبة القوية الممتنعة ويزعجها عن اماكنها ويفتتها
ويحملها على متنه فانظر الى الريح مع لطافته وخفته اذا دخل في الزق مثلا وامتلأ به ثم وضع عليه
الجسم الثقيل كالرجل وغيره ويحاول تغميسه في الماء لم يطق وتضع الحديد الصلب الثقيل على
وجه الماء فيرسب فيه فامتنع هذا اللطيف من هذا الماء ولم يمتنع منه القوي الشديد
وبهذه الحكمة امسك الله سبحانه السفن على وجه الماء مع ثقلها وثقل ما تحويه وكذلك كل مجوف
حل فيه الهواء فانه لا يرسب فيه لان الهواء يمنعه من الغوص فيعلو به الثقيل المجوف الموقر
فتأمل كيف انجذب هذا الجسم الثقيل العظيم بهذا اللطيف الخفيف وتعلق حتى امن من الغرق
وهذا كالذي يهوي في قليب فيتعلق بذيل رجل قوي شديد يمتنع من السقوط في القليب فيبقى
متعلقا به فسبحان من علق هذا المركب العظيم الثقيل بهذا الهواء اللطيف من غير علاقة ولا عقدة
تشاهد ومن آياته السحاب المسخر بين السماء والارض كيف ينشئه سبحانه بالرياح فيثيره سحابا ثم
يؤلف بينه ويضم بعضه الى بعض ثم تلقحه الريح وهي التي سماها سبحانه لواقح ثم يسوقه على متونها
الى الارض المحتاجة اليه فاذا علاها واستوى عليها اهراق ماءه عليها فيرسل سبحانه عليه الريح وهو
في الجو فتذروه وتفرقه لئلا يؤذي ويهدم ما ينزل عليه بجملته حتى اذا رويت واخذت حاجتها
منه اقلع عنها وفارقها فهي روايا الارض محمولة على ظهور الرياح وفي الترمذي وغيره ان
النبي صلى الله عليه وسلم لما رأى السحابة قال هذه روايا الارض يسوقها الله الى قوم لا يشكرونه ولا يذكرونه
فالسحاب حامل رزق العباد وغيرهم الذي عليه معايشهم وكان الحسن اذا رأى السحاب قال هذا
والله رزقكم ولكنكم تحرمونه بخطاياكم وذنوبكم وفي الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم قال بينا رجل بفلاة
من الارض اذ سمع صوتا في سحابة اسق حديقة فلان فتنحى ذلك الرجل مع السحاب حتى اتت على حديقة فلما توسطتها
افرغت ماءها فيها فاذا برجل في حديقته يحول الماء بمسحاته فقال ما اسمك يا عبد الله قال فلان للاسم
الذي سمعه في السحابة وذكر الحديث فاذا تأملت السحاب الكثيف المظلم كيف تراه يجتمع في جو صاف
لا كدورة فيه وكيف يخلقه الله سبحانه متى شاء واذا شاء وهو مع لينه ورخاوته حامل للماء الثقيل بين السماء
والارض الى ان يأذن له ربه وخالقه في ارسال ما معه من الماء فيرسله وينزله منه مقطعا بالقطرات

بلغ مقابلة

كل قطرة

كل قطرة بقدر مخصوص اقتضته حكمته ورحمته فيرش السحاب الماء على الارض رشا ويرسله قطرات
منفصلة لا تختلط قطرة منها باخرى ولا يتقدم متأخرها ولا يتأخر متقدمها ولا تدرك القطرة صاحبتها
فتمتزج بها بل تنزل كل واحدة في الطريق الذي رسم لها لا تعدل عنه حتى تصيب الارض قطرة قطرة قد عينت
كل قطرة منها لجزء من الارض لا تتعداه الى غيره فلو اجتمع الخلائق كلهم على ان يخلقوا منها قطرة واحدة
او يحصوا عدد القطر في لحظة واحدة لعجزوا عنه فتأمل كيف يسوقه سبحانه رزقا للعباد والدواب
والطير والذر والنمل يسوقه رزقا للحيوان الفلاني في الارض الفلانية بجانب الجبل الفلاني فيصل
اليه على شدة من الحاجة والعطش في وقت كذا وكذا ثم كيف اودعه في الارض ثم اخرج به انواع الاغذية
والادوية والاقوات فهذا النبات يغذي وهذا ابطأ الغذاء وهذا يعده وهذا يقوي وهذا
يضعف وهذا سم قاتل وهذا شفاء من السم وهذا يمرض وهذا دواء من المرض وهذا يبرد وهذا
يسخن وهذا اذا حصل في المعدة قمع الصفراء من اعماق العروق وهذا اذا حصل فيها ولد الصفراء
واستحال اليها وهذا يدفع البلغم والسوداء وهذا يستحيل اليهما وهذا يهيج الدم وهذا يسكنه
وهذا ينوم وهذا يمنع النوم وهذا يفرح وهذا يجلب الغم الى غير ذلك من عجائب النبات
التي لا تكاد تخلو ورقة منه ولا عرق ولا ثمرة من منافع تعجز عقول البشر عن الاحاطة بها وتفصيلها
وانظر الى مجاري الماء في تلك العروق الدقيقة الضئيلة الضعيفة التي لا تكاد تبصر الا بعد التحديق
كيف تقوى على قسره وعلى احداره من قعره ومركزه الى فوق ثم يتصرف في تلك
المجاري بحسب قبولها وسعتها وضيقها ثم تتفرق وتتشعب وتدق الى غاية لا ينالها البصر ثم انظر
الى تكون حمل الشجر وتنقله من حال الى حال كتنقل احوال الجنين المغيب عن الابصار ترى العجب العجاب
فتبارك الله رب العالمين واحسن الخالقين بينا تراها حطبا قائما عاريا لا كسوة عليها اذ كساها
ربها وخالقها من الزهر احسن كسوة ثم سلبها تلك الكسوة وكساها من الورق كسوة هي اثبت من الاولى
ثم اطلع فيها حملها ضعيفا ضئيلا بعد ان اخرج ورقها صيانة وثوبا لتلك الثمرة الضعيفة لتحرسه
من الحر والبرد والآفات ثم ساق الى تلك الثمرات رزقها وغذاءها في تلك العروق والمجاري
فتغذت به كما يتغذى الطفل بلبان امه ثم رباها ونماها شيئا فشيئا حتى استوت وكملت وتناهى ادراكها
فاخرج ذلك الجنى اللذيذ اللين من تلك الحطبة الصماء هذا وكم لله في كل ما يقع الحس عليه ويبصره
العباد وما لا يبصرونه من الحكم التي لا يقدر العباد دون الاحاطة بها وجميع تفاصيلها

فصل

ومن آياته سبحانه الليل والنهار وهما من اعجب آياته وبدائع مصنوعاته ولهذا يعيد ذكرهما في القرآن

وبديهه كقوله تعالى ومن آياته الليل والنهار وقوله وهو الذي جعل لكم الليل لباسا والنوم
سباتا وجعل النهار نشورا وقوله وهو الذي خلق الليل والنهار والشمس والقمر كل في فلك
يسبحون وقوله الله الذي جعل لكم الليل لتسكنوا فيه والنهار مبصرا وهذا كثير في القرآن فانظر الليل
الى هاتين الآيتين وما تضمنتاه من العبرة والدلالة على ربوبية الله وحكمته كيف جعل الليل سكنا
ولباسا يغشى العالم فتسكن فيه الحركات وتأوي الحيوانات الى بيوتها والطير الى أوكارها
وتستجم فيه النفوس وتستريح من كد السعي والتعب حتى اذا أخذت منه النفوس راحتها وسباتها
وتطلعت الى معايشها وتصرفها جاء فالق الاصباح سبحانه بالنهار يقدم جيشه بشير الصباح
فهزم تلك الظلمة ومزقها كل ممزق وأزالها وكشفها عن العالم فاذا هم مبصرون فانتشر
الحيوان وتصرف في معايشه ومصالحه وخرجت الطيور من أوكارها فيا له من معاد ونشأة دال
على قدرة الله سبحانه على المعاد الاكبر وتكرره ودوام مشاهدة النفوس له بحيث صار عادة ومألفا
منعها من الاعتبار به والاستدلال على النشأة الثانية واحياء الخلق بعد موتهم ولا ضعف في قدرة
القادر التام القدرة ولا قصور في حكمته ولا في علمه يوجب تخلف ذلك ولكن الله يهدي من يشاء
ويضل من يشاء وهذا ايضا من آياته الباهرة ان يعمي عن هذه الآيات الواضحات البينات من شاء
من خلقه فلا يهتدي بها ولا يبصرها كمن هو واقف في الماء الى حلقه وهو يستغيث العطش وينكر
وجود الماء وبهذا وامثاله يعرف الله عز وجل ويشكر ويحمد ويتضرع اليه ويسأل

ومن آياته وعجائب مصنوعاته البحار المكتنفة لاقطار الارض التي هي خلجان من البحر
المحيط الاعظم بجميع الارض حتى ان المكشوف من الارض والجبال والمدن بالنسبة الى الماء كجزيرة
صغيرة في بحر عظيم وبقية الارض مغمورة بالماء ولولا امساك الرب تعالى له بقدرته ومشيئته وحبسه
الماء لطفح على الارض وعلاها كلها هذا طبع الماء ولهذا حار عقلاء الطبائعيين في سبب بروز
هذا الجزء من الارض مع اقتضاء طبيعة الماء للعلو عليه وان يغمره ولم يجدوا ما يحيلون عليه ذلك
الا الاعتراف بالعناية الازلية والحكمة الالهية التي اقتضت ذلك ليعيش الحيوان الارضي في الارض
وهذا حق ولكنه يوجب الاعتراف بقدرة الله تعالى وارادته ومشيئته وعلمه وحكمته وصفات
كماله ولا محيص عنه وفي مسند الامام احمد رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال ما من يوم الا
والبحر يستأذن ربه ان يغرق بني آدم وهذا احد الاقوال في قوله تعالى والبحر المسجور انه المحبوس
حكاه ابن عطية وغيره قالوا ومنه ساجور الكلب وهي القلادة من عود او حديد التي تمسكه

ولكن

وذلك لولا ان الله سبحانه يحبس البحر ويمسكه لفاض على الارض فالارض في البحر كبيت في جملة الارض
واذا تاملت عجائب البحر وما فيه من الحيوانات على اختلاف اجناسها واشكالها ومقاديرها ومنافعها
ومضارها والوانها حتى ان فيها حيوانا امثال الجبال لا يقوم له شيء حتى ان فيه من الحيوانات ما يرى ظهورها
فيظن انها جزيرة فينزل الركاب عليها فتحس بالنار اذا اوقدت فيتحرك فيعلم انه حيوان وما من صنف من
اصناف حيوان البر الا وفي البحر امثاله حتى الانسان والفرس والبعير واصنافها وفيه اجناس لا
يعهد لها نظير في البر اصلا هذا مع ما فيه من الجواهر واللؤلؤ والمرجان فترى اللؤلؤة كيف اودعت
في كن كالبيت لها وهي الصدفة تكنها وتحفظها ومنه اللؤلؤ المكنون وهو الذي في صدفه لم تمسه
الايدي وتامل كيف نبت المرجان في قعره في الصخرة الصماء تحت الماء على هيئة الشجر هذا مع ما فيه
من العنبر واصناف النفائس التي يقذفها البحر ويستخرج منه ثم انظر الى عجائب السفن وسيرها
في البحر تشقه وتجري بلا قائد يقودها ولا سائق يسوقها وانما قائدها وسائقها الرياح التي يسخرها
الله تعالى لاجرائها فاذا حبس عنها القائد والسائق ظلت راكدة على وجه الماء قال تعالى ومن
آياته الجوار في البحر كالاعلام ان يشأ يسكن الريح فيظللن رواكد على ظهره ان في ذلك لآيات لكل صبار
شكور وقال الله الذي سخر البحر لتأكلوا منه لحما طريا وتستخرجوا منه حلية تلبسونها وترى الفلك
مواخر فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون فما اعظمها من آية وما ابينها من دلالة ولهذا يكرر سبحانه
ذكرها في كتابه كثيرا وبالجملة فعجائب البحر وآياته اعظم واكثر من ان يحصيها الا الله سبحانه وقال
تعالى انا لما طغى الماء حملناكم في الجارية لنجعلها لكم تذكرة وتعيها اذن واعية

فصل

ومن آياته سبحانه خلق الحيوان على اختلاف اصنافه واجناسه واشكاله ومنافعه والوانه
وعجائبه المودعة فيه فمنه الماشي على بطنه ومنه الماشي على رجليه ومنه الماشي على اربع
ومنه ما جعل سلاحه في رجليه وهو ذو المخالب ومنه ما سلاحه المناقير كالنسر والرخم
والغراب ومنه ما سلاحه الاسنان ومنه ما سلاحه الصياصي وهي القرون يدافع بها عن
نفسه من يروم اخذه ومنها ما اعطي قوة يدفع بها عن نفسه لم يحتج الى سلاح كالاسد فان سلاحه
قوته ومنها ما سلاحه في ذرقه وهو نوع من الطير اذا دنا منه من يريد اخذه ذرق عليه فاهلكه
ونحن نذكرها فصولا منثورة في هذا الباب محررة وان تضمنت بعض التكرار وان
كانت غير مرتبة فلا ضير في التكرار وترك الترتيب هذا المقام الذي هو من اهم فصول الكتاب
بل هو لب هذا القسم الاول ولهذا يكرر في القرآن ذكر آياته ويعددها ويبديها ويأمر عباده

بالنظر فيها مرة بعد اخرى فهو من اجل مقاصد القرآن قال تعالى قل انظروا ماذا في السموات
والارض وقال تعالى ان في خلق السموات والارض لآيات لاولي الالباب وقال تعالى افلا ينظرون
الى الابل كيف خلقت والى السماء كيف رفعت والى الجبال كيف نصبت والى الارض كيف سطحت وقال
تعالى اولم ينظروا في ملكوت السموات والارض وما خلق الله من شيء وقال تعالى ان الله فالق الحب
والنوى يخرج الحي من الميت ومخرج الميت من الحي ذلكم الله فانى تؤفكون فالق الاصباح وجاعل الليل سكنا
والشمس والقمر حسبانا ذلك تقدير العزيز العليم وهو الذي جعل لكم النجوم لتهتدوا بها في ظلمات البر
والبحر قد فصلنا الآيات لقوم يعلمون وهو الذي انشأكم من نفس واحدة فمستقر ومستودع قد فصلنا
الآيات لقوم يفقهون وهو الذي انزل من السماء ماء فاخرجنا به نبات كل شيء فاخرجنا منه خضرا نخرج
منه حبا متراكبا ومن النخل من طلعها قنوان دانية وجنات من اعناب والزيتون والرمان مشتبها وغير
متشابه انظروا الى ثمره اذا اثمر وينعه فامر سبحانه بالنظر اليه وقت خروجه واثماره ووقت نضجه
وادراكه يقال ينعت الثمار اذا نضجت وطابت لان في خروجه من الخشب والورق آية باهرة ونقله
بالغة ثم في خروجه من حد العفوصة واليبوسة والمرارة والحموضة الى ذلك اللون المشرق الناصع
والطعم الحلو اللذيذ المشتهى لآيات لقوم يؤمنون وقال بعض السلف رضي الله عنهم حق على
الناس ان يخرجوا وقت ادراك الثمار وينعها فينظروا اليها ثم تلا انظروا الى ثمره اذا اثمر وينعه
ولو اردنا ان نستوعب ما في آيات الله المشهودة من العجائب والدلالات الشاهدة لله بانه الله الذي لا اله الا
هو الذي ليس كمثله شيء وانه الذي لا اعظم منه ولا اكمل منه ولا ابر ولا الطف لعجزنا نحن والاولون
والآخرون عن معرفة ادنى عشر معشار ذلك ولكن ما لا يدرك جميعه لا يسعى ترك التنبيه على البعض والله
ما يستدل به على ذلك وهذا حين الشروع في الفصول **فصل** تأمل العبرة في
وضع هذا العالم وتأليف اجزائه ونظمها على احسن نظام وادله على كمال قدرة خالقه وكمال علمه وكمال
حكمته وكمال لطفه فانك اذا تأملت العالم وجدته كالبيت المبني المعد فيه جميع آلاته ومصالحه وكل ما
يحتاج اليه فالسماء سقفه المرفوع عليه والارض مهاد وبساط وفراش ومستقر للساكن والشمس والقمر
سراجان يزهران فيه والنجوم مصابيح له وزينة وادلة للمتنقل في طرق هذه الدار والجواهر
والمعادن مخزونة فيه كالذخائر والحواصل المعدة المهيأة كل شيء منها لشأنه الذي يصلح له وضروب
النبات مهيأة لمآربه وصنوف الحيوان مصروفة في مصالحه فمنها الركوب ومنها الحلوب ومنها الغذاء
ومنها الدواء ومنها اللباس والامتعة والآلات ومنها الحرس الذي وكل بحرس الانسان يحرسه

وهو نائم

وهو نائم وقاعد مما هو مستعد لاهلاكه واذاه فلولا ما سلط عليه من ضده لم يستقر للانسان قرار بينهم
وجعل الانسان كالملك المخول في ذلك المحكم فيه المتصرف بفعله وامره ففي هذا اعظم دلالة واوضحها على
ان العالم مخلوق لخالق حكيم عليم قدير قدره احسن تقدير ونظمه احسن نظام وان الخالق له يستحيل
ان يكون اثنين بل الاله واحد لا اله الا هو تعالى عما يقول الظالمون والجاحدون علوا كبيرا وانه لو كان
في السموات والارض اله غير الله لفسد امرهما واختل نظامهما وتعطلت مصالحهما واذا كان البدن يستحيل
ان يكون المدبر له روحان متكافيان متساويان ولو كان كذلك لفسد وهلك مع امكان ان يكونا تحت
قهر ثالث فكيف يمكن ان يكون المدبر لهذا العالم العلوي والسفلي الهين متكافيين متساويين
ليسا تحت قهر ثالث هذا من المحال في اوائل العقول وبداية الفطر فلو كان فيهما الهة الا الله لفسدتا
فسبحان الله رب العرش عما يصفون ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من اله اذا لذهب كل اله بما خلق ولعلا
بعضهم على بعض سبحان الله عما يصفون عالم الغيب والشهادة فتعالى عما يشركون فهذان برهانان
يعجز الاولون والآخرون ان يقدحوا فيهما بقدح صحيح او يأتوا باحسن منهما ولا يعترض عليهما الا من لم
يفهم المراد منهما ولولا خشية الاطالة لذكرنا تقريرهما وبيان ما تضمناه من السر العجيب والبرهان
الباهر وسنفرد انشاء الله كتابا مستقلا لادلة التوحيد **فصل** تأمل خلق السماء وارجع
البصر فيها كرة بعد كرة كيف تراها من اعظم الآيات في علوها وارتفاعها وسعتها وقرارها بحيث لا تصعد علوا
كالنار ولا تهبط نازلة كالاجسام الثقيلة ولا عمد تحتها ولا علاقة فوقها بل هي ممسوكة بقدرة الله الذي
يمسك السموات والارض ان تزولا ثم تأمل استواءها واعتدالها فلا صدع فيها ولا فطر ولا شق ولا امت
ولا عوج ثم تأمل ما وضعت عليه من هذا اللون الذي هو احسن الالوان واشدها موافقة للبصر وتقوية
له حتى ان من اصابه شيء اضر ببصره يؤمر بادمان النظر الى الخضرة وما قرب منها الى السواد وقال
الاطباء ان من كل بصره فان من دوائه ان يديم الاطلاع الى اجانة خضراء مملوءة ماء فتأمل كيف جعل اديم
السماء بهذا اللون ليمسك الابصار المتقلبة فيه ولا ينكأ فيها بطول مباشرتها له هذا بعض فوائد هذا
مطلب اللون والحكمة فيه اضعاف ذلك **فصل** ثم تأمل حال الشمس والقمر في طلوعهما وغروبهما
لاقامة دولتي الليل والنهار فلولا طلوعها لبطل امر العالم وكيف كان الناس يسعون في معايشهم ويتصرفون
في امورهم والدنيا مظلمة عليهم وكيف كانوا يتهنون بالعيش مع فقد النور ثم تأمل الحكمة في غروبها
فانه لولا غروبها لم يكن للناس هدوء ولا قرار مع فرط الحاجة الى السبات وجموم الحواس وانبعاث
القوى الباطنة وظهور سلطانها في النوم المعين على هضم الطعام وتنفيذ الغذاء الى الاعضاء ثم لولا الغروب

لكانت الارض تحمى بدوام شروق الشمس واتصال طلوعها حتى يحترق كل ما عليها من حيوان ونبات فصارت
تطلع وقتاً بمنزلة السراج يرفع لاهل البيت ليقضوا حوائجهم ثم تغيب عنهم مثل ذلك ليقروا ويهدوا وصار
ضياء النهار مع ظلام الليل وحر هذا مع برد هذا مع تضادهما متعاونين متظاهرين بهما تمام مصالح
العالم وقد اشار تعالى الى هذا المعنى ونبه عباده عليه بقوله تعالى قل ارايتم ان جعل الله عليكم الليل
سرمدا الى يوم القيمة من اله غير الله ياتيكم بضياء افلا تسمعون قل ارايتم ان جعل الله عليكم النهار سرمدا
الى يوم القيمة من اله غير الله ياتيكم بليل تسكنون فيه افلا تبصرون وخص النهار بذكر البصر لانه
محله وفيه سلطان البصر وتصرفه وخص الليل بذكر السمع لان سلطان السمع يكون بالليل وتسمع فيه
الحيوانات ما لا تسمع في النهار لانه وقت هدو الاصوات وخمود الحركات وقوة سلطان السمع وضعف
سلطان البصر والنهار بالعكس فيه قوة سلطان البصر وضعف سلطان السمع فقوله افلا تسمعون راجع
الى قوله قل ارايتم ان جعل الله عليكم الليل سرمدا الى يوم القيمة من اله غير الله ياتيكم به وقوله افلا تبصرون راجع
الى قوله قل ارايتم ان جعل الله عليكم النهار سرمدا الى يوم القيمة وقال تعالى تبارك الذي جعل في السماء
بروجا وجعل فيها سراجا وقمرا منيرا وهو الذي جعل الليل والنهار خلفة لمن اراد ان يذكر او اراد شكورا
فذكر تعالى خلق الليل والنهار وانهما خلفة اي يخلف احدهما الاخر لا يجتمع معه ولو اجتمع معه لفاتت
المصلحة بتعاقبهما واختلافهما وهذا هو المراد باختلاف الليل والنهار كون كل واحد منهما يخلف الاخر
لا يجامعه ولا يخالطه بل يغشى احدهما صاحبه فيطلبه حثيثا حتى يزيله عن سلطانه ثم يجي الاخر عقيبه
يطلبه حثيثا حتى يهزمه ويزيله عن سلطانه فهما دائما يتطالبان ولا يدرك احدهما صاحبه

فصل ثم تامل بعد ذلك احوال هذه الشمس في انخفاضها وارتفاعها لاقامة هذه الازمنة
والفصول وما فيها من المصالح والحكم اذ لو كان الزمان كله فصلا واحدا لفاتت مصالح الفصول الباقية
فيه فلو كان صيفا كله لفاتت مصالح الشتاء ولو كان شتاء لفاتت منافع الصيف وكذلك لو كان ربيعا
كله او خريفا كله ففي الشتاء تغور الحرارة في الاجواف وبطون الارض والجبال فتتولد مواد الثمار وغيرها
وتبرد الظواهر ويستكثف الهواء فيه فيحصل السحاب والمطر والثلج والبرد الذي به حياة الارض
واهلها واشتداد ابدان الحيوان وقوتها وتزايد القوى الطبيعية واستخلاف ما حللته حرارة الصيف
من الابدان وفي الربيع تتحرك الطبائع وتظهر المواد المتولدة في الشتاء فيظهر النبات ويتنور
الشجر بالزهر ويتحرك الحيوان للتناسل وفي الصيف يحتد الهواء ويسخن جدا فتنضج الثمار وتنحل
فضلات الابدان والاخلاط التي انعقدت في الشتاء وتغور البرودة وتهرب الى الاجواف ولهذا

مطلب

١٧

تبرد

تبرد العيون والابار ولا تهضم المعدة الطعام الذي كانت تهضمه في الشتاء من الاطعمة الغليظة لانها
كانت تهضمها بالحرارة التي سكنت في البطون فلما جاء الصيف خرجت الحرارة الى ظاهر الجسد وغارت
البرودة فيه فاذا جاء الخريف اعتدل الزمان وصفا الهواء وبرد فانكسر ذلك السموم وجعله الله
بحكمته برزخا بين سموم الصيف وبرد الشتاء لئلا ينتقل الحيوان وهلة واحدة من الحر الشديد الى البرد
الشديد فيجد اذاه ويعظم ضرره فاذا انتقل اليه بتدريج وترتيب لم يصعب عليه فانه عند كل جزء منه
يستعد لقبول ما هو اشد منه حتى ياتي جمهور البرد بعد استعداد من قبول جملة بالغة وانه باهرة وكذلك
الربيع برزخ بين الشتاء والصيف ينتقل فيه الحيوان من برد هذا الى حر هذا بتدريج وترتيب فتبارك
الله احسن الخالقين ورب العالمين **فصل** ثم تامل حال الشمس والقمر وما اودعاه
من النور والضياء وكيف جعل لهما بروجا ومنازل ينزلانها مرحلة بعد مرحلة لاقامة دولة السنة
وتمام مصالح حساب العالم الذي لا غنى لهم في مصالحهم عنه فبذلك يعلم حساب الاعمار والاجال المؤجلة
للديون والاجارات والمعاملات والعدد وغير ذلك فلولا حلول الشمس والقمر في تلك المنازل وتنقلهما
فيها منزلة بعد منزلة لم يعلم شي من ذلك وقد نبه تعالى على هذا في غير موضع من كتابه بقوله هو الذي
جعل الشمس ضياء والقمر نورا وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب ما خلق الله ذلك الا بالحق
يفصل الايات لقوم يعلمون وقال تعالى وجعلنا الليل والنهار ايتين فمحونا اية الليل وجعلنا اية
النهار مبصرة لتبتغوا فضلا من ربكم ولتعلموا عدد السنين والحساب **فصل** ثم تامل الحكمة
في طلوع الشمس على العالم كيف قدره العزيز العليم سبحانه فانها لو كانت تطلع في موضع من السماء فتقف
فيه ولا تعدوه لما وصل شعاعها الى كثير من الجهات لان ظل احد جوانب كرة الارض يحجبها عن الجانب الاخر
فكان يكون الليل دائما سرمدا على من لم تطلع عليهم والنهار دائما سرمدا على من هي طالعة عليهم فيفسد
هولاء وهولاء فاقتضت الحكمة الالهية والعناية الربانية ان قدر طلوعها من اول النهار من المشرق على
فتشرق على ما قابلها من الافق الغربي ثم لا تزال تدور وتغشى جهة بعد جهة حتى تنتهي الى الغرب
فتشرق على ما استتر عنها في اول النهار فيختلف عندهم الليل والنهار فتنتظم مصالحهم **فصل**
ثم تامل الحكمة في مقادير الليل والنهار تجدها على غاية المصلحة والحكمة وان مقدار اليوم والليلة لو زاد على ما
قدر عليه او نقص لفاتت المصلحة واختلت الحكمة بذلك بل جعل مجالهما اربعا وعشرين ساعة وجعلا
يتقارضان الزيادة والنقصان بينهما فما يزيد في احدهما من الاخر يعود الاخر فيسترده منه قال
تعالى يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل وفيه قولان احدهما ان المعنى يدخل ظلمة هذا في مكان

ضياء ذاك وضياء هذا في مكان ظلمة الآخر فيدخل كل واحد منهما في موضع صاحبه وعلى هذا فهي عامة
في كل ليل ونهار والقول الثاني أن يزيد في أحدهما ما ينقصه من الآخر بما ينقص منه يلحق في الآخر لا يذهب
جملة وعلى هذا فالآية خاصة ببعض ساعات كل من الليل والنهار في غير زمن الاعتدال في خاصة
الزمان وفي مقدار ما يلج في أحدهما من الآخر وهو في الأقاليم المعتدلة ما ينتهي إليه الزيادة خمس عشرة ساعة
فيصير الآخر تسع ساعات فإذا زاد على ذلك يخرج ذلك الإقليم في الحرارة أو البرودة إلى أن ينتهي إلى حد
لا يسكنه الإنسان ولا يتكون فيه النبات وكل موضع لا تقع عليه الشمس لا يعيش فيه حيوان ولا نبات
لفرط برده ويبسه وكل موضع لا تفارقه كذلك لفرط حره ويبسه والمواضع التي يعيش فيها الحيوان
والنبات هي التي تطلع عليها الشمس وتغيب وأعدلها المواضع التي تعاقبت عليها الفصول الأربعة
ويكون فيها اعتدال خريفي وربيعي **فصل** ثم تأمل إنارة القمر والكواكب في ظلمة
الليل والحكمة في ذلك فإن الله تعالى قضت حكمته خلق الظلمة لهدوء الحيوان وبرد الهواء على الأبدان
والنبات فتعادل حرارة الشمس فيقوم الحيوان والنبات فلما كان ذلك مقتضى حكمته ستار الليل بحي
والأنوار ولم يجعله ظلمة داجية حندسًا لا ضوء فيه أصلًا فكان لا يمكن الحيوان فيه شيء من الحركة
ولا الأعمال ولما كان الحيوان قد يحتاج في الليل إلى حركة وسير وعمل لا يتهيأ له بالنهار لضيق
النهار ولشدة الحر والخوف بالنهار كحال كثير من الحيوانات جعل في الليل من أضواء الكواكب
وضوء القمر ما تتم معه أعمال كثيرة كالسفر والحرث وغير ذلك من أعمال أهل الحرث والزروع
فجعل ضوء القمر بالليل معونة للحيوان على هذه الحركات وجعل طلوعه في بعض الليل دون بعض مع نقص
ضوئه عن ضوء الشمس لئلا يستوي الليل والنهار فتفوت حكمة الاختلاف بينهما والتفاوت الذي قدره
العزيز العليم فتأمل الحكمة البالغة والتقدير العجيب الذي اقتضى أن أعان الحيوان على دولة الظلام
بجند من النور يستعين به على هذه الدولة المظلمة ولم يجعل الدولة كلها ظلمة صرفًا بل ظلمة مشوبة بنور
رحمة منه وإحسانًا فسبحان من أتقن ما صنع وأحسن كل شيء خلقه **فصل** ثم تأمل
حكمته تبارك وتعالى في هذه النجوم وكثرتها وعجيب خلقها وأنها زينة للسماء وأدلة يهتدى بها في طرق
البر والبحر وما جعل فيها من الضوء والنور بحيث يمكننا رؤيتها مع البعد المفرط ولولا ذلك لم يحصل
لنا بها الاهتداء والدلالة ومعرفة المواقيت ثم تأمل تسخيرها منقادة بأمر ربها تبارك وتعالى
جارية على سنن واحد اقتضته حكمته وعلمه لا تخرج عنه فجعل منها البروج والمنازل والثوابت والسيارة
والكبار والصغار والمتوسط والأبيض الأزهر والأبيض الأحمر ومنها ما يخفى على الناظر فلا يدركه

مطلب

وجعل

قوله وجعل ذكره في هذا ان اربع النجوم
الذي يذكره فيما بعد فتامله

وجعل منطقة البروج قسمين مرتفعة ومنخفضة وقدر سيرها تقديرًا واحدًا وترك
الشمس والقمر والسيارة منها منازلها فمنها ما يقطعها في شهر واحد وهو القمر ومنها ما يقطعها في
عام ومنها ما يقطعها في عدة أعوام كل ذلك بموجب الحكمة والعناية وجعل ذلك أسبابًا لما يحدثه
سبحانه في هذا العالم فيستدل بها الناس على تلك الحوادث التي تقارنها لمعرفتهم بما يكون مع طلوع
الثريا إذا طلعت وغروبها إذا سقطت من الحوادث التي تقارنها وكذلك غيرها من المنازل
والسيارات ثم تأمل جعله سبحانه بنات نعش وما قرب منها ظاهرة لا تغيب لغرض من المرادات ولما
في ذلك من الحكمة الإلهية وأنها بمنزلة الأعلام التي يهتدي بها الناس في الطرق المجهولة في البر والبحر
فهم ينظرون إليها وإلى الجدي والفرقدين كل وقت أرادوا من الليل فيهتدون بها حيث شاءوا وان
فصل ثم تأمل اختلاف سير الكواكب وما فيه من العجائب كيف تجد بعضها لا تسير إلا
مع رفقته لا تنفرد عنهم بسير أبدًا بل لا يسيرون إلا جميعًا وبعضها يسير سيرًا مطلقًا غير
مقيد برفيق ولا صاحب بل إذا اتفق له مصاحبته في منزل رافقه فيه ليلة وفارقه الليلة
الأخرى فبينا تراه رفيقه وقرينه إذ رأيتهما مفترقين متباعدين كأنهما لم يصطحبا قط وهذه
السيارة لها في سيرها سيران مختلفان غاية الاختلاف سير عام تسير به بفلكها وسير خاص
تسير هي في فلكها كأنها نملة تدب على رحى دائرة الشمال في الرحى تأخذ ذات اليمين
فللنملة بذلك حركتان مختلفتان إحداهما بنفسها والأخرى مكرهة عليها تبعًا
للرحى تجذبها إلى غير جهة مقصدها وبذلك يحصل التقدم فيها كل منزلة إلى جهة المشرق ثم تسير
بفلكها وبمنزلتها إلى جهة الغرب **فسل** الزنادقة المعطلة أي طبيعة اقتضت هذا وأي
فلك أوجبه وهلا كانت كلها راتبة أو منتقلة أو على مقدار واحد وشكل واحد وحركة
واحدة وجريان واحد وهل هذا إلا صنع من بهرت العقول حكمته وشهدت مصنوعاته ومبدعاته
بأنه الخالق البارئ المصور الذي أحسن كل شيء خلقه وأتقن كل ما صنع وأنه العليم الحكيم الذي خلق فسوى
وقدر فهدى وأن هذه إحدى آياته الدالة عليه وعجائب مصنوعاته الموصلة للأفكار إذا اشتغلت فيها
إليه وأنه خلق مسخر مربوب مدبر إن ربكم الله الذي خلق السماوات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش
يغشي الليل النهار يطلبه حثيثًا والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب
العالمين فإن قلت فما الحكمة في كون بعض النجوم راتبًا وبعضها منتقلًا قيل لأنها لو كانت
كلها راتبة لبطلت الدلالات والحكم التي تنشأ من تنقلها في منازلها ومسيرها في بروجها ولو كانت منتقلة

لم يكن لمسيرها منازل تعرف بها ولا رسم تقاس عليه لانه انما يقاس مسير المنتقلة منها بالبروج كما يقاس
مسير السائرين على الارض بالمنازل التي يمرون عليها فلو كانت كلها بحال واحدة لاختلط نظامها وبطلت
الحكم والفوائد والدلالات التي في اختلافها لتشبث المعطل بذلك وقال لو كان فاعلها
ومبدعها مختارا لم تكن على وجه واحد وقدر واحد فهذا الترتيب والنظام الذي هي عليه من ادل
الدلائل على وجودها خالقها وقدرته وارادته وعلمه وحكمته ووحدانيته فصل ثم
تامل هذا الفلك الدوار بشمسه وقمره ونجومه وبروجه وكيف يدور على هذا العالم هذا الدوران
الدائم الى آخر الاجل على هذا الترتيب والنظام وما في طي ذلك من اختلاف الليل والنهار والفصول
والحر والبرد وما في ضمن ذلك من مصالح ما على الارض من اصناف الحيوان والنبات وهل يخفى على ذي
بصيرة ان هذا ابداع المبدع الحكيم وتقدير العزيز العليم ولهذا خاطبت الرسل اممهم مخاطبة من
لا شك عنده في الله وانما دعوهم الى عبادته وحده لا الى الاقرار به فقالت لهم رسلهم افي الله شك فاطر
السموات والارض فوجوده سبحانه وربوبيته وقدرته اظهر من كل شي على الاطلاق فهو اظهر للبصائر من
الشمس للابصار وابين للعقول من كل ما تعقله وتقر بوجوده فما ينكره الا مكابر بلسانه وقلبه وعقله وفطرته
وكلها تكذبه وقال تعالى الله الذي رفع السموات بغير عمد ترونها ثم استوى على العرش يدبر الامر
يفصل الايات لعلكم بلقاء ربكم توقنون وهو الذي مد الارض وجعل فيها رواسي وانهارا ومن كل الثمرات
جعل فيها زوجين اثنين يغشي الليل النهار ان في ذلك لايات لقوم يتفكرون وفي الارض قطع متجاورات
وجنات من اعناب وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان يسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض في الاكل
ان في ذلك لايات لقوم يعقلون وقال تعالى ان في السموات والارض لايات للمومنين وفي خلقكم
وما يبث من دابة ايات لقوم يوقنون واختلاف الليل والنهار وما انزل الله من السماء من رزق فاحيا به
الارض بعد موتها وتصريف الرياح ايات لقوم يعقلون تلك ايات الله نتلوها عليك بالحق فباي حديث
بعد الله واياته يومنون وقال تعالى خلق السموات بغير عمد ترونها والقى في الارض رواسي
ان تميد بكم وبث فيها من كل دابة وانزلنا من السماء ماء فانبتنا فيها من كل زوج كريم هذا خلق الله فاروني
ماذا خلق الذين من دونه بل الظالمون في ضلال مبين وقال تعالى خلق الانسان من نطفة فاذا هو
خصيم مبين والانعام خلقها لكم فيها دفء ومنافع ومنها تاكلون ولكم فيها جمال حين تريحون
وحين تسرحون وتحمل اثقالكم الى بلد لم تكونوا بالغيه الا بشق الانفس ان ربكم لرءوف رحيم والخيل
والبغال والحمير لتركبوها وزينة ويخلق ما لا تعلمون وعلى الله قصد السبيل ومنها جائر ولو شاء لهداكم

اجمعين

وامر واحد

والزيتون

اجمعين هو الذي انزل من السماء ماء لكم منه شراب ومنه شجر فيه تسيمون ينبت لكم به الزرع والنخيل
والاعناب ومن كل الثمرات ان في ذلك لاية لقوم يتفكرون وسخر لكم الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم
مسخرات بامره ان في ذلك لايات لقوم يعقلون وما ذرا لكم في الارض مختلفا الوانه ان في ذلك لاية لقوم يذكرون
وهو الذي سخر البحر لتاكلوا منه لحما طريا وتستخرجوا منه حلية تلبسونها وترى الفلك مواخر فيه ولتبتغوا من فضله
ولعلكم تشكرون والقى في الارض رواسي ان تميد بكم وانهارا وسبلا لعلكم تهتدون وعلامات وبالنجم
هم يهتدون افمن يخلق كمن لا يخلق افلا تذكرون وان تعدوا نعمة الله لا تحصوها فتامل كيف وحد سبحانه
الاية من قوله هو الذي انزل من السماء ماء لكم منه شراب الى اخرها وختمها باصحاب الفكر فاما توحيد
الاية فلان موضع الدلالة واحد وهو الماء الذي انزله من السماء فاخرج به كل ما ذكر من الارض وهو على
اختلاف انواعه لقاحه واحد وامه واحدة فهذا نوع واحد من انواع اياته واما تخصيصه ذلك
باهل الفكر فلان هذه المخلوقات التي ذكرها من الماء ولان الموضع موضع فكر وهو نظر القلب وتامله لا
موضع نظر مجرد بالعين فلا يستغني الناظر بمجرد روية العين حتى ينتقل منه الى نظر القلب في حكمة ذلك
وبديع صنعه والاستدلال على خالقه وباريه وذلك هو الفكر بعينه واما قوله في الاية التي
بعدها ان في ذلك لايات لقوم يعقلون فجمع الايات لانها تضمنت الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم
وهي ايات متعددة مختلفة في انفسها وخلقها وكيفياتها فان اظلام الجو بالغروب ومجي الليل الذي يلبس العالم
كالثوب فيسكنون تحته اية باهرة ثم ورود جيش الضياء يقدمه بشير الصباح فيهزم عسكر الظلام
وينتشر الحيوان وينبسط ذلك اللباس بجملته اية اخرى ثم في الشمس التي هي اية النهار اية اخرى وفي
القمر الذي هو اية الليل اية اخرى وفي النجوم ايات اخر كما قدمنا هذا مع ما يتبعها من الايات المقارنة
لها من الرياح واختلافها وسائر ما يحدثه الله بسببها ايات اخر فالموضع موضع جمع وخص هذه
الايات باهل العقل لانها اعظم مما قبلها وادل واكثر ولهي كالباب لهذه لمن استدل بهذه الايات
واعطاها حقها من الدلالة استحق من الوصف فوق ما يستحقه صاحب الفكر وهو العقل ولان منزلة العقل
بعد منزلة الفكر فلما دلهم بالاية الاولى على الفكر نقلهم بالايات التالية التي هي اعظم منها الى العقل الذي
هو فوق الفكر وتامله واما قوله في الاية الثالثة ان في ذلك لاية لقوم يذكرون فوحد الاية وخصها
باهل التذكر فاما توحيدها فلتوحيد الاول سواء فان ما ذرا في الارض على اختلاف من الجواهر والنبات
والمعادن والحيوان كله في محل واحد وبمقر واحد فهو نوع من انواع اياته وان تعددت اصنافه
وانواعه فاما تخصيصه اياها باهل التذكر فطريقة القران في ذلك ان يجعل اياته للتبصر والتذكر كما قال

تعالى في سورة ق والأرض مددناها وألقينا فيها رواسي وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج تبصرة وذكرى
لكل عبد منيب فالتبصر العقل والذكرى التذكر والتفكر باب ذلك ومدخله فاذا فكر تبصر واذا تبصر
تذكر فجاءت التذكرة في الآية لترتبه على العقل المرتب على التفكر فقدم التفكر اذ هو الباب والمدخل ووسط
العقل اذ هو ثمرة التفكر ونتيجته وأخر التذكر اذ هو المطلوب من التفكر والعقل فتأمل ذلك حق التأمل
فان قلت فما الفرق بين التفكر والتذكر فاذا تبين الفرق ظهرت الفائدة قلت التفكر
والتذكر اصل الهدى والصلاح وهما قطبا السعادة ولهذا وسعنا الكلام في التفكر في هذا الوجه
لعظم المنفعة وشدة الحاجة اليه قال الحسن رضي الله عنه ما زال أهل العلم يعودون بالتذكر
على التفكر وبالتفكر على التذكر ويناطقون القلوب حتى نطقت فاذا لها اسماع وابصار فاعلم ان التفكر طلب
القلب ما ليس بحاصل من العلوم من امر هو حاصل منها هذا حقيقته فانه لو لم يكن ثم مواد يكون موردا للتفكر
استحال التفكر لان التفكر بغير متعلق متفكر فيه محال وتلك المواد هي الامور الحاصلة ولو كان المطلوب
بها حاصلا عنده لم يتفكر فيه فاذا عرف هذا فالمتفكر ينتقل من المقدمات والمبادي التي عنده الى المطلوب
الذي يريده فاذا ظفر به وتحصل له تذكر به وابصر مواقع الفعل والترك وما ينبغي ايثاره وما ينبغي
اجتنابه فالتذكر هو مقصود التفكر وثمرته فاذا تذكر عاد بتذكره على تفكره فاستخرج به ما لم يكن حاصلا
عنده فهو لا يزال يكرر بتفكره على تذكره وبتذكره على تفكره ما دام عاقلا لان العلم والارادة لا تقف عند حد
بل هو دائما سائر بين العلم والارادة واذا عرفت معنى كون آيات الرب تبارك وتعالى تبصرة وذكرى
يتبصر بها من عمى القلب ويتذكر بها من غفلته فان المضاد للعلم اما عمى القلب وزواله بالتبصر واما
غفلته وزواله بالتذكر والمقصود تنبيه القلب من رقدته بالاشارة الى شيء من بعض آيات الله ولو
ذهبنا نتتبع ذلك لنفد الزمان ولم نحط بتفصيل واحدة من آياته على التمام ولكن ما لا يدرك جملة لا يترك
جملة واحسن ما انفقت فيه الانفاس التفكر في آيات الله وعجائب صنعه والانتقال منها الى تعلق
القلب والهمة به دون شيء من مخلوقاته فلذلك عقدنا هذا الكتاب على هذين الاصلين اذ هما افضل
ما يكتسبه العبد في هذه الدار فصل فسل المعطل الجاحد ما تقول في دولاب
يدور على نهر قد احكمت آلاته واحكم تركيبه وقدرت ادواته احسن تقدير وابلغه بحيث لا يرى
الناظر فيه خللا في مادته ولا في صورته وقد جعل على حديقة عظيمة فيها من كل انواع الثمار
والزروع يسقيها حاجتها وفي تلك الحديقة من يلم شعثها ويحسن مراعاتها وتعهدها
والقيام بجميع مصالحها فلا يختل منها شيء ولا يتلف ثمارها ثم يقسم قيمتها عند الجذاذ على سائر المخارج

بحسب حاجاتهم وضروراتهم فيقسم لكل صنف منهم ما يليق به ويقسمه هكذا على الدوام أترى هذا اتفاقا
بلا صانع ولا مختار ولا مدبر بل اتفق وجود ذلك الدولاب والحديقة وكل ذلك اتفاقا من غير فاعل ولا
قيم ولا مدبر أفترى ما يقول لك عقلك في ذلك لو كان وما الذي يفتيك به وما الذي يرشدك اليه ولكن
من حكمة العزيز الحكيم ان خلق قلوبا عميا لا بصائر لها فلا ترى هذه الآيات الباهرة الا رؤية الحيوانات
البهيمية كما خلق اعينا عميا لا ابصار لها فالشمس والقمر والنجوم بادية وهي لا تراها فما ذنبها ان انكرتها
وجحدتها فهي تقول في ضوء النهار هذا ليل ولكن اصحاب الاعين لا يعرفون شيئا ولقد احسن القائل
وهبني قلت هذا الصبح ليل ايعمى العالمون عن الضياء
فصل ثم تأمل الممسك للسموات والارض الحافظ لهما ان تزولا او تقعا او يتعطل
بعض ما فيهما أفترى من الممسك لذلك ومن الحافظ له ومن القيم بامره ومن المقيم له فلو تعطلت بعض آلات
هذا الدولاب العظيم والحديقة العظيمة من كان يصلحه ويعيده وماذا كان عند الخلق كلهم من الحيلة في
رده كما كان فلو امسك عنهم قيم السموات والارض الشمس فجعل عليهم الليل سرمدا من ذا الذي كان يطلعها
عليهم ويأتيهم بالنهار ولو حبسها في الافق ولم يسيرها من الذي يسيرها عليهم ويأتيهم بالليل ولو ازال
السماء والارض من ذا الذي كان يمسكهما من بعده فصل ثم تأمل هذه الحكمة البالغة زالتا
في الحر والبرد وقيام الحيوان والنبات عليهما وفكر في دخول احدهما على الآخر بالتدريج والمهلة حتى
يبلغ نهايته ولو دخل عليه مفاجأة لاضر ذلك بالابدان واهلكها وبالنبات كما لو خرج الرجل من حمام
مفرط الحرارة الى مكان مفرط البرد ولولا العناية والحكمة والرحمة والاحسان لما كان ذلك
فان قلت هذا التدريج والمهلة انما كان لابطاء سير الشمس في ارتفاعها وانخفاضها قيل
لك فما السبب في ذلك الابطاء في الانخفاض والارتفاع فان قلت السبب في ذلك بعد المسافة
من مشارقها ومغاربها قيل لك فما السبب في بعد المسافة ولا تزال المسألة متوجهة عليك كلما
عينت سببا حتى تفضي بك الى احد امرين اما مكابرة ظاهرة ودعوى ان ذلك اتفاق من غير مدبر
ولا صانع واما الاعتراف برب العالمين والاقرار بقيوم السموات والارضين والدخول في زمرة
اولي العقل من العالمين ولن تجد بين القسمين منزلة ابدا فلا تتعب ذهنك بهذيانات الملحدين
فانها عند من عرفها هوس الشياطين وخيالات المبطلين واذا طلع فجر الهدى واشرقت
شمس النبوة فعساكر تلك الخيالات والوساوس اول المنهزمين والله متم نوره ولو كره
الكافرون فصل ثم تأمل الحكمة في خلق النار على ما هي عليه من الكمون والظهور فانها

لو كانت ظاهرة ابدًا كالماء والهواء كانت تحرق العالم وتنتشر ويعظم الضرر بها والمفسدة ولو كانت
كامنة لا تظهر ابدًا لفاتت المصالح المترتبة على وجودها فاقتضت حكمة العزيز الحليم ان جعلها مخزونة
في الاجسام يخرجها ويبقيها الرجل عند حاجته اليها فيمسكها ويحبسها بمادة يجعلها فيها من الحطب
ونحوه فلا يزال حابسها ما احتاج الى بقائها فاذا استغنى عنها وترك حبسها بالمادة خبت باذن ربها
وفاطرها فسقطت المؤنة والمضرة ببقائها فسبحان من سخرها وانشاها على تقدير محكم عجيب اجتمع فيه
الاستمتاع والانتفاع والسلامة من الضرر قال تعالى افرايتم النار التي تورون ءانتم انشأتم
شجرتها ام نحن المنشئون نحن جعلناها تذكرة ومتاعا للمقوين فسبح باسم ربك العظيم فسبحان ربنا العظيم
لقد تعرف الينا باياته وشفانا ببيناته ولقننا باهر دلالات العالمين فاخبر سبحانه انه جعلها تذكرة
تذكر بنار الآخرة فنستجير منها ونهرب اليه منها ومتاعا للمقوين وهم المسافرون النازلون بالقواء
والقي وهي الارض الخالية وهم احوج الى الاستمتاع بالنار للاضاءة والطبخ والخبز والدفئ والانس
وغير ذلك **فصل** ثم تامل حكمته تعالى في كونه خص بها الانسان دون غيره من الحيوانات
فلا حاجة بالحيوان اليها بخلاف الانسان فانه لو فقدها لعظم الداخل عليه في معاشه ومصالحه وغيره
من الحيوانات لا يستعملها ولا يتمتع بها وتنبه من مصالح النار على خلة صغيرة القدر عظيمة
النفع وهي في هذا المصباح الذي يتخذه الناس فيقضون به حوائجهم ما شاؤوا من ليلهم ولولا هذه
الخلة لكان الناس نصف اعمارهم بمنزلة اصحاب القبور فمن كان يستطيع كتابة او خياطة او صناعة
او يتصرف في ظلمة الليل الداجي وكيف كان من يلم به وجع في وقت من الليل فاحتاج الى
ضماد او دواء او استخراج دم او غير ذلك ثم انظر الى ذلك النور المحمول في ذبالة المصباح على
صغر جرمه كيف يبدي ما حولك فترى العجب والعجب ثم انظر الى الخلة لو اقتبس منه كل من على الارض او
عدد من خلق الله كذا لا يفنى ولا ينفد ولا يضعف واما منافع النار في نضاج الاطعمة والادوية
وتجفيف ما لا ينفع الا تجفيفه وتحليل ما لا ينفع الا تحليله وعقد ما لا ينفع الا منعقدا وترك ذلك فاكثر
من ان يحصى ثم تامل ما اعطيه النار من الحركة الصاعدة بطبعها الى العلو فلولا المادة تمسكها لذهبت
صاعدة كما ان الجسم الثقيل لولا الممسك يمسكه لذهب نازلا فمن اعطى هذه القوة التي تطلب بها الهبوط
الى مستقرها واعطى هذه القوة التي تطلب بها الصعود الى مستقرها وهل ذلك الا تقدير العزيز
العليم **فصل** ثم تامل هذا الهواء وما فيه من المصالح فانه حياة هذه الابدان والممسك
لها من داخل بما يستنشق منه ومن خارج بما يباشر من روحه فتتغذى به ظاهرا وباطنا وفيه تطرد

هذه

هذه الاصوات فيحملها ويؤديها للقريب والبعيد كالبريد والرسول الذي شانه حمل الاخبار
والرسائل وهو الحامل لهذه الروائح على اختلافها يسلمها من موضع الى موضع فتاتي العبد الرائحة
من حيث تهب الريح وكذلك ياتيه الصوت وهو ايضا الحامل للحر والبرد اللذين بهما صلاح الحيوان
والنبات وتامل منفعة الريح وما تجري له في البر والبحر وما هيئت له من الرحمة والعذاب
وتامل كم تحرك للسحاب من ريح حتى يمطر فتحرك له المثيرة اولا فتثيره بين السماء والارض ثم تحرك
له الحاملة التي تحمله على متنها كالجمل الذي يحمل الراوية ثم تحرك له المؤلفة فتؤلف بين كسفه وقطعه
حتى تجمع بعضها الى بعض فيصير طبقا واحدا ثم تحرك له اللاقحة بمنزلة الذكر الذي يلقح الانثى
فتلقحه بالماء ولولاها لكان جهاما لا ماء فيه ثم تحرك له المزجية التي تزجيه وتسوقه الى حيث امر
فيفرغ ماءه هنالك ثم تحرك بعد اعصاره المفرقة التي تبثه وتفرقه في الجو فلا ينزل مجتمعا
ولو نزل جملة لاهلك المساكن والحيوان والنبات بل تفرقه فتجعله قطرا وكذلك الرياح
التي تلقح الشجر والنبات ولولاها لكانت عقيما وكذلك الرياح التي تسير السفن ولولاها لوقفت
على ظهر البحر ومن منافعها انها تبرد الماء وتضرم النار التي يراد اضرامها وتجفف الاشياء التي
يحتاج الى جفافها وبالجملة فحياة ما على الارض من نبات وحيوان بالرياح فانه لولا تسخير الله لها لعباده
لذوى النبات ومات الحيوان وفسدت المطاعم وانتن العالم وفسد الا ترى اذا ركدت الريح
كيف يحدث الكرب والغم الذي لو دام لاتلف النفوس واسقم الحيوان وامرض الاصحاء وانهك
المرضى وافسد الثمار وعفن الزرع واحدث الوباء في الجو **فسبحان** من جعل هبوب الرياح
ياتي بروحه ورحمته ولطفه ونعمته كما قال النبي صلى الله عليه وسلم في الرياح انها من روح الله تاتي
بالرحمة **وتنبه** للطيفة في هذا الهواء وهي ان الصوت اثر يحدث عن اصطكاك
الاجرام وليس نفس الاصطكاك كما قال ذلك من قاله ولكنه موجب للاصطكاك وقرع الجسم
للجسم او قلعه عنه فيشبه قرع او قلع فيحدث الصوت فيحمله الهواء ويؤديه الى مسامع الناس
فيسعفون به في حوائجهم ومعاملاتهم بالليل والنهار وتحدث الاصوات العظيمة من حركاتهم فلو
كان اثر هذه الحركات والاصوات يبقى في الهواء كما يبقى الكتاب في القرطاس لامتلا العالم منه ولعظم
الضرر به واشتدت مؤونته واحتاج الناس الى محوه من الهواء والاستبدال به اعظم من حاجاتهم
الى استبدال الكتاب المملوء كتابة فان ما يلقى من الكلام في الهواء اضعاف اضعاف ما يودع القراطيس
فاقتضت حكمة العزيز الحليم ان جعل هذا الهواء قرطاسا خفيفا يحمل الكلام بقدر ما يبلغ الحاجة ثم يمحى

باذن ربه فيعود جديدا غضا لا يخفى منه فيحمل ما حمل كل وقت **فصل** ثم تأمل خلق الارض
على ما هي عليه حين خلقت واقفة ساكنة لتكون مهادا ومستقرا للحيوان والنبات والامتعة ويتمكن
الحيوان والناس من السعي عليها في مآربهم والجلوس لراحاتهم والنوم لهدوّهم والتمكن من اعمالهم ولو كانت
رجراجة متكفئة لم يستطيعوا على ظهرها قرارا ولا هدوا ولا ثبت لهم عليها بناء ولا امكنهم عليها صناعة
ولا تجارة ولا حراثة ولا مصلحة وكيف كانوا يتهنؤون بالعيش والارض ترتج من تحتهم واعتبر ذلك
بما يصيبهم من الزلازل على قلة مكثها كيف تصيرهم الى ترك منازلهم والهرب عنها وقد نبه على ذلك تعالى
بقوله والقى في الارض رواسي ان تميد بكم وقوله الله الذي جعل لكم الارض قرارا وقوله الذي جعل لكم
الارض مهادا وفي القراءة الاخرى مهدا وفي جامع الترمذي وغيره من حديث انس بن مالك رضي الله عنه عن
النبي صلى الله عليه وسلم قال لما خلق الله الارض جعلت تميد فخلق الجبال فقال بها عليها فاستقرت
فعجبت الملائكة من شدة الجبال فقالوا يا رب هل من خلقك شيء اشد من الجبال قال نعم الحديد قالوا يا رب فهل
من خلقك شيء اشد من الحديد قال نعم النار فقالوا يا رب هل من خلقك شيء اشد من النار قال نعم الريح قالوا
يا رب فهل من خلقك شيء اشد من الريح قال نعم ابن آدم يتصدق صدقة بيمينه يخفيها عن شماله ثم تأمل
الحكمة البالغة في ليونة الارض مع يبسها فانها لو افرطت في الليونة كالطين لم يستقر عليها بناء ولا حيوان
ولا تمكن من الانتفاع بها ولو افرطت في اليبس كالحجر والحديد لم يمكن حرثها ولا زرعها ولا سقيها ولا فلحها ولا
حفر عيونها ولا البناء عليها فنقصت عن يبس الحجارة وزادت على ليونة الطين فجاءت بمقدار بتقدير فاطرها
على احسن ما جاء عليه مهاد للحيوان من الاعتدال بين اللين واليبوسة فتهيأ عليها جميع المصالح

فصل ثم تأمل الحكمة البالغة في ان جعل مهب الشمال عليها ارفع من مهب الجنوب وحكمة ذلك
ان تنحدر المياه على وجه الارض فتسقيها وترويها ثم تفيض في البحر فكما ان الباني اذا رفع سطحا رفع
احد جانبيه وخفض الآخر ليكون مصبا للماء ولو جعله مستويا لقام عليه الماء فافسده كذلك جعل
مهب الشمال في كل بلد ارفع من مهب الجنوب ولولا ذلك لبقي الماء واقفا على وجه الارض فمنع الناس من العمل
والانتفاع وقطع الطرق والمسالك واضر بالخلق افحص عند من له مسكة عقل ان يقول هذا كله اتفاق
غير تدبير العزيز الحكيم الذي اتقن كل شيء

فصل ثم تأمل الحكمة العجيبة في الجبال التي قد
يحسبها الجاهل الغافل فضلة في الارض لا حاجة اليها وفيها من المنافع ما لا يحصيه الا خالقها وناصبها وفي
حديث اسلام ضمام بن ثعلبة قوله للنبي صلى الله عليه وسلم بالذي نصب الجبال واودع فيها المنافع آلله ارسلك
بلدا وكذا قال اللهم نعم فمن منافعها ان الثلج يسقط عليها فيبقى في قللها حاصلا لشراب الناس الى حين نفاده

وجعل

وجعل فيها ليذوب اولا فاولا فتجري منه العيون الغزيرة وتسيل منه الانهار والاودية فينبت
في المروج والوهاد والربا ضروب النبات والفواكه والادوية التي لا يكون مثلها في السهل والرمال فلولا
الجبال لسقط الثلج على وجه الارض فانحل جملة وسال دفعة فعدم وقت الحاجة اليه وكان في انحلاله جملة
السيول التي تهلك ما مرت عليه فيضر بالناس ضررا لا يمكن تلافيه ولا دفع اذيته ومن منافعها ما يكون في حصونها
وقللها من المغارات والكهوف والمعاقل التي هي بمنزلة الحصون والقلاع وهي ايضا اكنان للناس والحيوان
ومن منافعها ما ينحت من احجارها للابنية على اختلافها والارحية وغيرها ومن منافعها ما يوجد فيها من المعادن
على اختلاف اصنافها من الذهب والفضة والنحاس والحديد والرصاص والزبرجد والزمرد واضعاف
ذلك من انواع المعادن التي يعجز البشر عن معرفتها على التفصيل حتى ان فيها ما يكون الشيء اليسير منه تزيد قيمته
ومنفعته على قيمة الذهب باضعاف مضاعفة وفيها من المنافع ما لا يعلمه الا فاطرها ومبدعها سبحانه
ومن منافعها ايضا انها ترد الرياح العاصفة وتكسر حدتها فلا تدعها تصدم ما تحتها ولهذا الساكنون
تحتها امان من الرياح العظام المؤذية ومن منافعها ايضا انها ترد عنهم السيول اذا كانت في مجاريها
فتصرفها عنهم ذات اليمين وذات الشمال ولولاها لاخربت السيول في مجاريها ما مرت به فلو كانت لهم بمنزلة السد
والسكر ومن منافعها انها اعلام يستدل بها في الطرقات فهي بمنزلة الادلة المنصوبة المرشدة الى الطرق
ولهذا سماها الله اعلاما فقال تعالى ومن آياته الجوار في البحر كالاعلام فالجواري هي السفن
والاعلام الجبال واحدها علم قالت الخنساء

وان صخرا لتأتم الهداة به ... كأنه علم في رأسه نار

سمي الجبل علما من العلامة والظهور ومن منافعها ايضا ما ينبت فيها من انواع العقاقير والادوية التي لا تكون
في السهول والرمال فان ما ينبت في السهول والرمال لا ينبت مثله في الجبال وفي كل من هذا وهذا
منافع وحكم لا يحيط بها الا الخلاق العليم ومن منافعها انها تكون حصونا من الاعداء يتحرز فيها عباد الله
من اعدائهم كما يتحصنون بالقلاع بل تكون ابلغ واحصن من كثير من القلاع والمدن ومن منافعها ما ذكره الله
تعالى في كتابه ان جعلها للارض اوتادا تثبتها ورواسي بمنزلة مراسي السفن واعظم بها من منفعة وحكمة هذا
واذا تأملت خلقتها العجيبة البديعة على هذا الوضع وجدتها في غاية المطابقة للحكمة فانها لو
طالت واستدقت كالحائط لتعذر الصعود عليها والانتفاع بها وسترت عن الناس الشمس والهوى
ولم يتمكنوا من الانتفاع بها ولو بسطت على وجه الارض لضيقت عليهم المزارع والمساكن ولملأت السهل ولما
حصل لهم بها الانتفاع من التحصن في المغارات والاكنان ولما سترت عنهم الرياح ولا حجبت السيول ولو جعلت

مستديرة على شكل الكرة لم يتمكنوا من صعودها ولما حصل لهم بها الانتفاع التام فكان أولى الأشكال والأوضاع بها ما اقتضته وأوقعها على وفق المصلحة هذا الشكل الذي نصبت عليه ولقد دعانا الله سبحانه في كتابه إلى النظر فيها وفي حكمة خلقها فقال تعالى أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت وإلى السماء كيف رفعت وإلى الجبال كيف نصبت وإلى الأرض كيف سطحت فخلقها ومنافعها من أكبر الشواهد على قدرة بارئها وفاطرها وعلمه وحكمته ووحدانيته هذا مع أنها تسبح بحمده وتخشع له وتسجد له وتشقق وتهبط من خشيته وهي التي خافت من ربها وفاطرها وخالقها على شدتها وعظم خلقها من الأمانة إذ عرضها عليها وأشفقت من حملها ومنها الجبل الذي تجلى له ربه فساخ وتدكدك ومنها الجبل الذي كلم الله عز وجل عليه موسى كليمه ونجيه صلى الله عليه وسلم ومنها الجبلان اللذان جعلهما الله تعالى سورا على بيته وجعل الصفا في ذيل أحدهما والمروة في ذيل الآخر وشرع لعباده السعي بينهما وجعله من مناسكهم ومتعبداتهم ومنها جبل الرحمة المنصوب عليه ميدان عرفات فسدهم من ذنب مغفور وعثرة مقالة وزلة معفو عنها وحاجة مقضية وكربة مفرجة وبلية مدفوعة ونعمة متجددة وسعادة مكتسبة وشقاوة ممحوة كيف وهو الجبل المخصوص بذلك الجمع الأعظم والوفد الأكرم الذين جاؤوا من كل فج عميق ووقفوا لديه مستكينين لعظمته خاضعين لعزته شعثا غبرا حاسرين عن رؤوسهم يستقيلونه عثراتهم ويسألونه حاجاتهم فيدنو منهم ثم يباهي بهم الملائكة فسد ذلك الجبل وما ينزل عليه من الرحمة والتجاوز عن الذنوب العظام ومنها جبل حراء الذي كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يخلو فيه بربه حتى أكرمه الله برسالته وهو في غاره فهو الجبل الذي فاض منه النور على أقطار العالم فإنه يفتخر على الجبال وحق له ذلك فسبحان من اختص برحمته وتكريمه من شاء من الجبال والرجال فجعل منها جبالا هي مغناطيس القلوب كأنها مركبة منها فهي تهوي إليها كلما ذكرها وتهفو نحوها كما اختص من الرجال من اختصه بكرامته وأتم عليه نعمته ووضع عليه محبة منه فأحبه وحببه إلى ملائكته وعباده المؤمنين ووضع له القبول بينهم

وإذا تأملت البقاع وجدتها ... تشقى كما تشقى الرجال وتسعد

فدع عنك الجبل الفلاني وجبل بني فلان وجبل كذا

خذ ما تراه ودع شيئا سمعت به ... في طلعة البدر ما يغنيك عن زحل

هذا وإنا لنعلم أن لها موعدا ويوما ينسفها فيه نسفا ويصيرها كالعهن من هوله وعظمته فهي مشفقة من هول ذلك الموعد منتظرة له وكانت أم الدرداء رضي الله عنها إذا سافرت فصعدت على جبل تقول لمن معها أسمع الجبال ما وعدها ربها فيقول ما أسمعها فتقول ويسألونك عن الجبال فقل ينسفها

مطلب

ربي

ربي نسفا فيذرها قاعا صفصفا لا ترى فيها عوجا ولا أمتا فهذا حال الجبال وهي الحجارة الصلبة وهذه رقتها وخشيتها وتدكدكها من جلال ربها وعظمته وقد أخبر عنها فاطرها وباريها أنه لو أنزل عليها كلامه لخشعت ولتصدعت من خشيته فيا عجبا من مضغة لحم أقسى من هذه الجبال تسمع آيات الله تتلى عليها ويذكر الرب تبارك وتعالى فلا تلين ولا تخشع ولا تنيب فليس بمستنكر لله عز وجل ولا يخالف حكمته أن يخلق لها نارا تذيبها إذ لم تلن بكلامه وذكره وزواجره ومواعظه فمن لم يلن لله في هذه الدار قلبه ولم ينب إليه ولم يذبه بحبه والبكاء من خشيته فليتمتع قليلا فإن أمامه الملين الأعظم وسيرد إلى عالم الغيب والشهادة فيرى ويعلم

أو لم تكن

فصل ولما اقتضت حكمته تبارك وتعالى أن جعل من الأرض السهل والوعور والجبال والرمال ليستمتع بكل ذلك في وجه ويحصل منه ما خلق له وهبت الأرض بهذه الأمور لزم من ذلك أن صارت كالأم التي تحمل في بطنها أنواع الأولاد من كل صنف ثم تخرج إلى الناس والحيوان من ذلك ما أذن لها فيه ربها أن تخرجه إما بعلمهم وإما بدونه ثم يرد إليها ما خرج منها وجعلها سبحانه كفاتا للأحياء ما داموا على ظهرها فإذا ماتوا استودعتهم في بطنها فكانت كفاتا لهم تضمهم على ظهرها أحياء وفي بطنها أمواتا فإذا كان يوم الوقت المعلوم وقد أثقلها الحمل وحان وقت الولادة ودنا المخاض أوحى لها ربها وفاطرها أن تضع حملها وتخرج أثقالها فتخرج الناس من بطنها إلى ظهرها وتقول رب هذا ما استودعتني وتخرج كنوزها بإذن ربها تعالى ثم تحدث أخبارها وتشهد على بنيها بما عملوا على ظهرها من خير وشر

فصل ولما كانت الرياح تجول فيها وتدخل في تجاويفها وتحدث فيها الأبخرة وتحتقن الرياح ويتعذر عليها المنفذ أذن الله سبحانه لها في الأحيان بالتنفس فتحدث منه الزلازل العظام فيحدث من ذلك لعباده الخوف والخشية والإنابة والإقلاع عن معاصيه والتضرع إليه والتوبة كما قال بعض السلف رضي الله عنهم وقد زلزلت الأرض إن ربكم يستعتبكم وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه وقد زلزلت المدينة فخطبهم ووعظهم وقال لئن عادت لا أساكنكم فيها

فصل ثم تأمل حكمة الله عز وجل في عزة هذين النقدين الذهب والفضة وقصور حيلة العالم عما حاولوه من صنعتهما والتشبه بخلق الله إياهما مع شدة حرصهم وبلوغ أقصى جهدهم وإفنائهم دهرهم في ذلك فلم يظفروا بسوى الصبغة ولو تمكنوا من أن يصنعوا مثل ما خلق الله من ذلك لفسد أمر العالم واستفاض الذهب والفضة في الناس حتى صار كالسقف والفخار وكانت تتعطل المصلحة التي وضع لأجلها وكانت قيمتهما تبطل بسبب تعطل الانتفاع بهما فإنه لا يبقى لها قيمة وتبطل كونهما قيم المتاع من الأموال والمعاملات وأرزاق المقاتلة ولم يسخر بعض الناس لبعض إذ يصير أكثر الناس أرباب ذهب وفضة فلو أعطي خلقه كلهم

لافقرهم كلهم ومن يرضى لنفسه ما منها في الصنائع التي لا قوام للعالم الا بها فسبحان من جعل عزتهما
شيئا نظام العالم ولم يجعلهما في العز كالكبريت الاحمر الذي لا يوصل اليه فتفوت المصلحة بالكلية
بل وضعهما وبثهما في العالم بقدر اقتضته حكمته ورحمته ومصالح عباده وقرات بخط
الفاضل جبريل بن روح الانباري ان اخبرني بعض من يداول المعادن انهم اوغلوا في طلبها الى بعض
نواحي الجبل فانتهوا الى موضع راوا فيه امثال الجبال من الفضة ومن دون ذلك واد يجري متصلا بما عرض
لا يدرك ولا حيلة في عبوره فانصرفوا الحجب يحملون ما يعبرون منه فلما اهبوا ورحلوا عادوا وراموا
طريقا لهم فما وقعوا على اثر ولا عرفوا اين يتوجهون فانصرفوا آيسين وهذا احد ما يدل على بطلان صناعة
الكيميا وانها عند التحقيق زغل وصبغة لا غير وقد ذكرنا بطلانها وبيا فسادها من اربعين وجها
في رسالة مفردة والمقصود ان حكمة الله اقتضت عزة هذين الجوهرين وقلتهما بالنسبة الى الحديد
والنحاس والرصاص لصلاح امر الناس واعتبر ذلك بانه اذا ظهر الشيء الظريف المستحسن مما يحدثه
الناس من الامتعة كان نفيسا عزيزا ما دام فيه قلة وهو مرغوب فيه فاذا فشا وكثر في ايدي الناس
وقدر عليه الخاص والعام سقط عندهم وقلت رغباتهم فيه ومن هذا قول القائل نفاسة الشيء من عزته
ولهذا كان ازهد الناس في العالم اهله وجيرانه وارغبهم فيه البعداء عنه

فصل
وتامل الحكمة البديعة في تيسيره سبحانه على عباده ما هم اليه احوج وتوسعته وبذله فكلما كان احوج اليه
كان اكثر واوسع وكلما استغنوا عنه كان اقل واذا توسطت الحاجة توسط وجوده فتامل ذلك بالعام ثم
بالنادر على مراتب الحاجات وتفاوتها واعتبر هذا بالاصول الاربعة التراب والماء والهواء والنار
وتامل سعة ما خلق الله منها وكثرته وعمومه وتامل سعة الهواء وعمومه ووجوده بكل مكان لان
الحيوان المخلوق في البر لا يمكنه الحياة الا به فهو معه اين كان وحيث كان لانه لا يستغني عنه لحظة واحدة
ولولا كثرته وسعته وامتداده في اقطار العالم لاختنق اهل العالم من الدخان والبخار المتصاعد المنعقد
فتامل حكمة ربك انه تحركه الرياح فاذا تصاعد الى الجو احالته سحابا او ضبابا فاذهب عن العالم
شره واذاه فسل الجاحد الذي في يده هذا التدبير ومن قدر هذا التقدير وهل يقدر اهل
العالم كلهم لو اجتمعوا ان يحيلوا ذلك ويقلبوه سحابا او ضبابا او يذهبوه عن الناس ويكشفوه عنهم ولو شاء
ربه تعالى لحبس عنه الرياح فاختنق على وجه الارض فاهلك ما عليها من الحيوان والناس

فصل
ومن ذلك سعة هذه الارض وامتدادها ولولا ذلك لضاقت عن مساكن الانس
والحيوان وعن مزارعهم ومراعيهم ومنابت ثمارهم واعنابهم فان قلت فما حكمة هذه القفار الخالية

بلغ مقابلة

والفلوات

والفلوات الفارغة الموحشة فاعلم ان فيها معايش لا يحصيه الا الله من الوحوش والدواب
وعليها ارزاقهم وفيها مطاردهم ومنازلهم كالمدن والمساكن للانس وفيها مجالهم ومراعيهم ومصايفهم
ومشاتيهم ثم فيها بعد متسع ومتنفس للناس ومضطرب اذا احتاجوا الى الانتقال والبدو والاستبدال
بالاوطان فكم بيداء سملق صارت قصورا وجنانا ومساكن ولولا سعة الارض وفسحتها لكان اهلها
كالمحصورين والمحبوسين اماكنهم لا يجدون عنها انتقالا اذا دهمهم ما يزعجهم عنها ويضطرهم الى
النقلة منها وكذلك الماء لولا كثرته وتدفقه في الاودية والانهار لضاق عن حاجة الناس اليه
ولغلب القوي فيه الضعيف واستبد به دونه فيحصل الضرر ويعظم البلاء مع شدة حاجة جميع الحيوان
اليه من الطير والوحش والسباع فاقتضت الحكمة ان كان بهذه الكثرة والسعة في كل وقت واما النار
فقد تقدم ان الحكمة اقتضت كونها مما ينشئ العبد وارها عند الحاجة ثم وان لم تكن مبثوثة في كل مكان
فانها عتيدة حاصلة متى احتيج اليها واسعة لكل ما يحتاج اليه منها غير انها مودعة في اجسام جعلت
معادن لها للحكمة التي تقدمت

فصل
ثم تامل الحكمة البالغة في نزول المطر على الارض
من علو ليعم بسقيه وهادها وتلالها وظرابها واكامها ومنخفضها ومرتفعها ولو كان ربها تعالى
انما يسقيها من ناحية من نواحيها لما اتى الماء على الناحية المرتفعة الا اذا اجتمع في السفل وكثر وفي ذلك
ضرر وفساد فاقتضت حكمته ان سقاها من فوقها فينشئ سبحانه السحاب وهي روايا الارض ثم يرسل الرياح
فتحمل الماء من البحر وتلقحها به كما يلقح الفحل الانثى ولهذا تجد البلاد القريبة من البحر كثيرة الامطار واذا
بعدت من البحر قل مطرها وفي هذا المعنى قول الشاعر يصف السحاب

شربن بماء البحر ثم ترفعت ... متى لجج خضر لهن نئيج

وفي الموطا مرفوعا وهو اصح الاحاديث الاربعة المقطوعة اذا انشات بحرية ثم تشاءمت فتلك عين غديقة
والله سبحانه ينشئ الماء في السحاب انشاء تارة ينقلب الهواء ماء وتارة يحمله الهواء من البحر فيلقح به السحاب ثم ينزل
منه على الارض للحكمة التي ذكرناها ولو انه ساقه من البحر الى الارض جاريا على ظهرها لم يحصل عموم السقي الا
بتخريب كثير من الارض ولم يحصل عموم السقي لاجزائها فصاعده سبحانه الى الجو بلطفه وقدرته ثم انزله على
الارض بغاية من اللطف والحكمة التي لا اقتراح لعقول جميع الحكماء فوقها فانزله ومعه رحمته على الارض

فصل
ثم تامل الحكمة البالغة في انزاله بقدر الحاجة حتى اذا اخذت الارض حاجتها منه
وكان تتابعه عليها بعد ذلك يضرها اقلع عنها واعقبه بالصحو فهما اعني الصحو والغيم يتعاقبان على
العالم لما فيه صلاحه ولو دام احدهما كان فيه فساده فلو توالت الامطار اهلكت ما على الارض ولو

زادت على الحاجة افسدت الحبوب والثمار وعفنت الزروع والخضراوات وارخت الابدان وخثرت الهواء فحدثت ضروب من الامراض وفسدت المآكل وتقطعت المسالك والسبل ولو دام الصحو لجفت الابدان وغيض الماء وانقطع معين العيون والآبار والانهار والاودية وعظم الضرر واحتدم الهواء فيبس ما على الارض وجفت الابدان وغلب اليبس واحدث ذلك ضروبا من الامراض عسرة الزوال فاقتضت حكمة اللطيف الخبير ان تعاقب بين الصحو والمطر على هذا العالم فاعتدل الامر وصح الهواء ودفع كل واحد منهما عادية الاخر واستقام امر العالم وصلح

فصل ثم تامل الحكمة الالهية في اخراج الاقوات والثمار والحبوب والفواكه متلاحقة شيئا بعد شيء متتابعة ولم تخلق كلها جملة واحدة فانها لو خلقت كذلك على وجه الارض ولم تنبت على هذه السوق والاغصان لدخل الخلل وفاتت المصالح التي رتبت على تلاحقها وتتابعها فان كل فصل واوان يقتضي من الفواكه والنبات غير ما يقتضيه الفصل الآخر فهذا حار وهذا بارد وهذا معتدل وكل في فصله موافق للمصلحة لا يليق به غير ما خلق فيه ثم انه سبحانه خلق تلك الاقوات مقارنة لمنافع اخر من العصف والخشب والورق والنور والسعف والكرب وغيرها من منافع النبات والشجر غير الاقوات فعلف للبهائم وآلات الابنية والسفن والرحال والاواني وغيرها ومنافع النور من الادوية والمنظر البهيج الذي يسر الناظرين وحسن مرأى الشجر وخلقها البديع الشاهد لفاطرها ومبدعها بغاية الحكمة واللطف ثم اذا تاملت اخراج ذلك النور الذي ينشق عنه الحطب ثم اخراج الورق الاخضر ثم اخراج تلك الثمار على اختلاف انواعها واشكالها ومقاديرها والوانها وطعومها وروائحها ومنافعها وما يراد منها ثم تامل اين كانت مستودعة في تلك الخشبة وهاتيك العيدان وجعلت الشجرة لها كالام فهل كان في قدرة المادة العاجز الضعيف ابراز هذا التصوير العجيب وهذا التقدير المحكم وهذه الاصباغ الفائقة وهذه الطعوم اللذيذة والروائح الطيبة وهذه المناظر المستحسنة

فسل الجاحد من تولى تقدير ذلك وتصويره وابرازه وتربيته شيئا فشيئا وسوق الغذاء اليه في تلك العروق اللطاف التي يكاد البصر يعجز عن ادراكها وتلك المجاري الرقاق من الذي تولى ذلك كله ومن الذي اطلع لها الشمس وسخر لها الرياح وانزل عليها المطر ودفع عنها الآفات وتامل تقدير اللطيف الخبير فان الاشجار لما كانت تحتاج الى الغذاء الدائم كحاجة الناس وسائر الحيوان ولم يكن لها افواه كافواه الحيوان ولا حركة تنبعث بها لتناول الغذاء جعلت اصولها مركوزة في الارض لتنتزع لها الغذاء فتمتصه من اسفل الى ما تؤديه الى الاغصان تؤديه الاغصان الى الورق والثمر فكل له شرب معلوم لا يتعداه يصل اليه في مجاري وطرق

فقد احكمت

قد احكمت غاية الاحكام فتاخذ الغذاء من اسفل وتلقمه بعروقها كما يلقم الحيوان غذاءه بفيه ثم تقسمه على حملها بحسب ما يحتمله فتعطي كل جزء منه بحسب ما يحتاج اليه لا تظلمه ولا تزيده على قدر حاجته ۝

فسل الجاحد من اعطاها هذا ومن هداها اليه ووضعه فيها فلو اجتمع الاولون والاخرون هل كانت قدرهم وارادتهم تصل الى تربية ثمرة واحدة منها هكذا باشارة او صناعة او حيلة او مزاولة وهل ذلك الا صنع من شهدت له مصنوعاته ودلت عليه آياته

فوا عجبا كيف يعصى الاله ام كيف يجحده جاحد
ولله في كل تحريكة وتسكينة ابدا شاهد
وفي كل شيء له آية تدل على انه واحد

فصل ثم تامل اذا نصبت خيمة او فسطاطا كيف تمده من كل جانب بالاطناب لتثبت فلا تسقط ولا تعوج فهكذا تجد النبات والشجر له عروق ممتدة في الارض منتشرة الى كل جانب لتمسكه وتقيمه وكلما انتشرت اعاليه امتدت عروقه واطنابه من اسفل في الجهات ولولا ذلك كيف كانت تثبت هذه النخل الطوال الباسقات والدوح العظام على الرياح العواصف فتامل سبق الخلقة الالهية للصناعة البشرية حتى يعلم الناس نصب الخيم والفساطيط من خلقة الشجر والنبات لان عروقها اطناب لها كاطناب الخيمة واغصان الشجر تحكي منها الفساطيط ثم تحاكي بها الشجر ۝

فصل ثم تامل الحكمة في خلق الورق فانك ترى في الورقة الواحدة من جملة العروق الممتدة فيها المبثوثة فيها ما يبهر الناظر فمنها غلاظ ممتدة في الطول وفي العرض ومنها دقاق تتخلل تلك الغلاظ منسوجة نسجا دقيقا معجبا لو كان مما يتولى البشر صنع مثله بايديهم لما فرغ من ورقة في عام كامل ولاحتاجوا فيه الى آلات وحركات وعلاج تعجز قدرهم عن تحصيله فيبث الخلاق العليم في ايام قلائل من ذلك ما يملأ الارض سهلها وجبالها بلا آلة ولا معين ولا فكرة ولا معالجة ان هي الا ارادته النافذة في كل شيء وقدرته التي لا يمتنع منها شيء انما امره اذا اراد شيئا ان يقول له كن فيكون فتامل الحكمة في تلك العروق المتخللة الورقة باسرها لتسقيها وتوصل اليها الماء فتحفظ عليها حياتها ونضارتها بمنزلة العروق المبثوثة في الابدان التي توصل الغذاء الى كل جزء منه وتامل ما في العروق الغلاظ من امساكها الورق بصلابتها ومتانتها فلولا ذلك لتمزق وتضمحل فهي بمنزلة الاعصاب لبدن الحيوان فتراها قد احكمت صنعها ومدت العروق في طولها وعرضها لتتماسك فلا يعرض لها التمزق ۝

فصل ثم تامل حكمة اللطيف الخبير في كونها جعلت زينة للشجرة وسترا ولباسا للثمرة ووقاية لها من الآفات التي تمنع كمالها ولهذا اذا جرد الشجر عن ورقها فسدت

الثمر ولم ينتفع بها وانظر كيف جعلت وقاية لنبات الثمر الضعيف من اليبس فاذا ذهبت الثمرة بقي الورق
وقاية لتلك الافنان الضعيفة من الحر حتى اذا طفيت تلك الحمرة ولم يضر الافنان عريها من ورقها فلها ان
تكتسي لباسا حسنا احسن منه فتبارك الله رب العالمين الذي يعلم مساقط تلك الاوراق ومنابتها
فلا تخرج ورقة منها الا باذنه ولا تسقط الا بعلمه ومع هذا فلو شاهدها العباد على كثرتها وتنوعها وهي تسبح
بحمد ربها مع الثمار والافنان والاشجار لشاهدوا من جمالها امرا آخر ولرأوا خلقتها بعين اخرى ولعلموا
انها لشأن عظيم خلقت وانها لم تخلق سدى قال تعالى والنجم والشجر يسجدان فالنجم ما ليس له ساق
من النبات والشجر ما له ساق وكلها ساجدة لله مسبحة بحمده وان من شيء الا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون
تسبيحهم ولعلك ان تكون ممن غلظ حجابه فذهب الى ان التسبيح دلالتها على صانعها فقط فاعلم ان هذا
القول يظهر بطلانه من اكثر من ثلاثين وجها قد ذكرناها في موضع آخر وفي اي لغة تسمى الدلالة على
الصانع تسبيحا وسجودا وصلاة وتأويبا وهبوطا من خشية الله كما ذكر الله تعالى في كتابه فتارة يخبر عنها
بالتسبيح وتارة بالسجود وتارة بالصلاة كقوله تعالى والطير صافات كل قد علم صلاته وتسبيحه افترى
يشكل عقلك ان يكون معنى الاية كل قد علم دلالته عليه وهل تسمى تلك الدلالة له صلاة وتسبيحا وفرق بينهما وعطف
احدهما على الاخر وتارة يخبر عنها بالتأويب كقوله يا جبال اوبي معه وتارة يخبر عنها بالتسبيح
الخاص بوقت دون وقت كالعشي والاشراق افترى دلالتها على صانعها انما تكون في هذين الوقتين وبالجملة
فبطلان هذا القول اظهر لذي البصائر من ان يطلبوا دليلا على بطلانه والحمد لله

فصل ثم تأمل حكمته تبارك وتعالى في ابداع العجم والنوى في جوف الثمرة وما في ذلك من الحكم
والفوائد التي منها انه كالعظم لبدن الحيوان فهو يمسك بصلابته رخاوة الثمرة ورقتها ولطافتها ولولا
ذلك لتشدخت وتفسخت ولاسرع اليها الفساد فهو بمنزلة العظم والثمرة بمنزلة اللحم الذي يكسو
الله عز وجل العظام ومنها ان في ذلك بقاء المادة وحفظها اذ ربما تعطلت الشجرة او نوعها
فخلق فيها ما يقوم مقامها عند تعطلها وهو النوى الذي يغرس فيعود مثلها ومنها ما في تلك
الحبوب من اقوات الحيوانات وما فيها من المنافع والادهان والادوية والاصباغ وضروب اخر
من المصالح التي يعلمها الناس وما خفي عليهم منها اكثر فتأمل الحكمة في اخراجه سبحانه هذه الحبوب
لمنافع فيها وكسوتها الجلد الذي اشبه شيء بما يتغلف به ابن آدم ثم تأمل هذه الحكمة البديعة اذ جعل للثمرة
الرقيقة اللطيفة التي تفسدها الهواء والشمس غلافا يحفظها وغشاء يواريها كالرمان والجوز
واللوز ونحوه واما ما لا يفسده ذلك كان بارزا لم يجعل له في اول خروجه غشاء يواريه لضعفه ولقلة

صبره

علم

صبره على الحر فاذا استد وقوي نشق عن ذلك الغشاء وضحى للشمس والهواء كطلع النخل وغيره

فصل ثم تأمل خلقة الرمان وما ادا فيه من الحكم والعجائب فانك ترى داخل الرمانة
كامثال التلال شحما متراكما في نواحيها وترى ذلك الحب مرصوفا رصفا ومنضودا نضدا لا تمكن
الايدي ان تنضده وترى الحب مقسوما اقساما وفرقا وكل قسم وفرقة منه ملفوفا بلفائف وحجب
منسوجة اعجب نسج والطفه وادقه على غير منوال الا منوال كن فيكون ثم ترى الوعاء المحكم له
الصلب قد اشتمل على ذلك كله وضمه احسن ضم فتأمل هذه الحكمة البديعة في الشحم المودع
فيها فان الحب لا يمد بعضه بعضا اذ لو مد بعضه بعضا لاختلط وصار حبة واحدة فجعل ذلك
الشحم خلاله ليمده بالغذاء والدليل عليه انك ترى اصول الحب مركوزة في ذلك الشحم وهذا بخلاف
حب العنب فانه استغنى عن ذلك بان جعل لكل حبة مجرى يشرب منه فلا تشرب حبة من اختها بل يجري
الغذاء في ذلك العرق مجرى واحدا ثم ينقسم منه في مجاري الحبوب كلها فينصب منه في كل مجرى
قدر تلك الحبة فتبارك الله احسن الخالقين ثم انه لف ذلك الحب في تلك الرمانة بتلك اللفائف لتضمه
وتمسكه فلا يضطرب وشدد ثم غشى فوق ذلك بالغشاء الصلب صوانا له وحافظا وممسكا له باذن
الله وقدرته فهذا قليل من كثير من حكمة هذه الثمرة الواحدة ولو امكننا ولا عرفنا استقصاء ذلك ولو
طالت الايام واتسع الفكر ولكن هذا تنبيه على ما وراءه واللبيب يكفيه بعض ذلك واما من غلبت عليه
الشقاوة فكاين من آية في السموات والارض يمرون عليها وهم عنها معرضون عنها عما فلا عبرة بموضع الدلالة
فيها

فصل ثم تأمل هذا الريع والنماء الذي وضعه الله في الزرع حتى صارت الحبة
الواحدة ربما انبتت سبع مائة حبة ولم تنبت الحبة حبة واحدة مثلها لتكون في الغلة متسع لما يرد في الارض
من الحب وما يكفي الناس من قوت الزارع الى ادراك زرعه فصار الزرع يربع هذا الريع ليفي بما يحتاج
اليه للقوت والزراعة وكذلك ثمار الاشجار والنخل وكذلك ما يخرج من الاصل الواحد منها من الصنوان
ليكون لما يقطعه الناس من ذلك ويستعملونه في مآربهم خلفا فلا تبطل المادة عليهم ولا ينقص ولو ان
صاحب بلد من البلاد اراد عمارته لاعطى اهله ما يبذرونه فيهم وما يقيتهم الى استواء الزرع فاقتضت حكمة
اللطيف الخبير ان اخرج من الحبة الواحدة حبات عديدة ليقيت الخارج الناس ويدخرون منه ما يزرعون

فصل ثم تأمل الحكمة في الحبوب كالبر والشعير ونحوهما كيف يخرج الحب مدرجا في قشور
على رؤوسها امثال الاسنة فلا يتمكن الطير من افسادها والعبث بها فانه لو صادف الحب بارزا
بلا صوان عليه ولا وقاية تحول دونه لتمكن منه كل التمكن فافسد وعاث وعبثا وانكب عليه اكلا

ما استطاع وتجارب الورع عنده فجعل اللطيف الخبير عليه هذه الوقايات لتصونه فتنال الطير منه
مقدار قوته وتبقى اكثره للانسان فانه اولى به لانه هو الذي كدح فيه وشقي به وكان الذي يحتاج اليه
اضعاف حاجة الطير **وصل** ثم تامل الحكمة الباهرة في هذه الاشجار كيف تراها في كل
عام لها حمل ووضع فهي دائما في حمل وولادة فاذا اذن لها ربها في الحمل احست الحرارة الطبيعية في داخلها
واحتاجت فيها ليكون فيها حملها في الوقت المقدر لها فلو ان ذلك الوقت بمنزلة وقت العلوق وقد اتكون
النطفة فتعمل المادة في اجوافها عملها وتهيئها للعلوق حتى اذا آن وقت الحمل دب فيها الماء ولانت اعطافها
وتحركت للحمل وسرى الماء في افنانها وانتشرت فيها الحرارة والرطوبة حتى اذا آن وقت الولادة كسيت
من سابر اللباس الفاخر من النور والورق ما تتحير فيه وتميس وتبحر على العقيم فاذا اظهرت اولادها وبان
للناظر حملها علم حينئذ من دبرها وطيبها من لونها وشكلها فتولى تعهد ذلك الحمل من تولى غذاء الاجنة في بطون
امهاتها وتغشاها الاوراق وصانها من الحر والبرد فاذا تكامل الحمل وآن وقت الفطام تدلت لك اغصانها
كانها تناولك ثمرة يدها فاذا قابلتها ارتت لك افنانها كانها تناولك اولادها وتجيك وتكرمك بهم وتقدمهم
اليك حتى كانت تمنا ولنا ولكن بآبائها ولا سيما قطوف جنات النعيم الدانية التي يتناولها المؤمن
قائما وقاعدا ومضطجعا وكذلك ترى الرياحين كانها تجيبك بانفسها وتقابلك بطيب رائحتها وكل هذا
اكراما لك وعناية بامرك وتخصيصا لك وتفضيلا على غيرك من الحيوانات افيجمل بك الاشتغال بهذه
النعم عن المنعم بها فكيف اذا استعنت بها على معاصيه وصرفتها في مساخطه فكيف اذا جحدته واضفتها
الى غيره كما قال تعالى وتجعلون رزقكم انكم تكذبون نجد بمن له مسكة عقل ان يسافر بفكره
في هذه النعم والآلاء ويكرر ذكرها لعله يوقفه على المراد منها ما هو ولاي شيء خلق ولماذا هيئ واي
امر طلب منه على هذه النعم قال تعالى فاذكروا آلاء الله لعلكم تفلحون فذكر آلائه تبارك وتعالى
ونعمه على عبده سبب الفلاح والسعادة لان ذلك لا يزيده الا محبة لله وحمدا وشكرا وطاعة وشهود
تقصيره بل تفريطه في القليل مما يجب لله عليه ولله در القائل

قد هيؤوك لامر لو فطنت له ... فاربأ بنفسك ان ترعى مع الهمل

وصل ثم تامل الحكمة في شجر اليقطين والبطيخ والخيار كيف لما اقتضت الحكمة ان يكون حمله
ثمارا كبارا جعل نباته منبسطا على الارض اذ لو انتصب قائما كما ينتصب الزرع لضعف قوته عن حمل
هذه الثمار الثقيلة ولتقصفت قبل ادراكها وانتهائها الى غاياتها فاقتضت حكمته ان جعله مدا ممدودا لغاية
بسطه ومده على الارض ليلقي عليها ثماره فتحملها عنه الارض وترى العرق الضعيف الدقيق من ذلك

منبسطا على الارض وثمار مبثوثة حواليه كانه حيوان قد اكتنفها اجراؤها فهي ترضعها ولما كان
شجر اللوبيا والباذنجان والباقلا وغيرها مما يقوى على حمل ثمره انبته الله منتصبا قائما على ساقه
اذ لا يلقى من حمل ثماره مؤونة ولا تضعف عنها **وصل** ثم تامل كيف اقتضت الحكمة الالهية
موافاة اصناف الثمار والفواكه للناس بحسب الوقت المشاكل لها المقتضي لها فتوافيهم كموافاة الآلاف اللطاف
فتلقاها الطبيعة بانشراح واشتياق منتظر لقدومها كانتظار الغائب للغائب فلو كان نبات الصيف
ونباته انما يوافي في الشتاء لصادف من الناس كراهية واستثقالا لوروده مع ما كان فيه من المضرة
للابدان والاذى لها وكذلك لو وافى ربيعها في الخريف او خريفها في الربيع لم يقع من النفوس ذلك
الموقع ولا استطابته واستلذته ذلك الالتذاذ ولهذا تجد المتاخر منها عن وقته فاترا مملولا
محلول الطعم ولا تظن ان هذا الجريان العادة المجرد بذلك فان العادة انما جرت به لانه وفق الحكمة
والمصلحة التي لا تخل بها الحكيم الخبير **وصل** ثم تامل هذه النخلة التي هي احدى آيات الله
تجد فيها من العجائب والآيات ما يبهرك فانه لما قدر ان يكون فيه اناث يحتاج الى اللقاح جعلت فيها ذكور
تلقحها بمنزلة ذكور الحيوان واناثه ولذلك اشتد شبهها من بين سائر الاشجار بالانسان خصوصا بالمؤمن
كما مثله النبي صلى الله عليه وسلم وذلك من وجوه كثيرة احدها ثبات اصلها في الارض واستقرارها فيها
وليست بمنزلة الشجرة التي اجتثت من فوق الارض ما لها من قرار الثاني طيب ثمرها وحلاوته وعموم المنفعة
بها كذلك المؤمن طيب الكلام طيب العمل فيه المنفعة لنفسه ولغيره الثالث دوام لباسها وزينتها
فلا يسقط عنها صيفا ولا شتاء كذلك المؤمن لا يزول عنه لباس التقوى وزينتها حتى يوافي ربه تعالى
الرابع سهولة تناول ثمرتها وتيسيره اما قصيرها فلا يحوج المتناول ولا يحوجه ان يرقاها واما
باسقها فصعوده سهل بالنسبة الى صعود الشجر الطوال وغيرها فتراها كانها قد هيئت منها المراقي
من الدرج الى اعلاها وكذلك المؤمن خيره سهل قريب لمن رام تناوله لا بالغر ولا اللئيم الخامس
ان ثمرها من انفع ثمار العالم فانه يؤكل فاكهة رطبه وحلاوة يابسه فيكون قوتا واداما وفاكهة
ويتخذ منه الخل والناطف والحلوى ويدخل في الادوية والاشربة وعموم المنفعة بها وبالعنب فوق
كل الثمار وقد اختلف الناس في ايهما انفع وافضل وصنف الحافظ في المحاكمة بينهما مجلدا
فاطال فيه الحجاج والتفصيل من الجانبين وفصل النزاع في ذلك ان النخل في معدنه ومحل سلطانه
افضل من العنب واعم نفعا واجدى على اهله كالمدينة والحجاز والعراق والعنب في معدنه ومحل
سلطانه افضل واعم نفعا واجدى على اهله كالشام والجبال والمواضع الباردة التي لا ينبت النخل

وحضرت مرة في مجلس بمكة فيه من اكابر البلد فجرت هذه المسئلة واخذ بعض الحاضرين يطنب
في تفضيل النخل وفوايده وقال في اثناء كلامه ومما يدل على تفضيله انا نشتري نواه العنب فكيف نفضل عليه
ثمرا يكون نواه بمثاله وقال اخر من الجماعة قد فصل النبي صلى الله عليه وسلم النزاع في هذه المسئلة
ونهى فيها بنهيه عن تسمية شجر العنب كرما وقال الكرم قلب المؤمن فاي دليل ابين من هذا واخذوا يبالغون
في تقرير ذلك فقلت للاول ما ذكرته من كون نوى التمر ثمنا للعنب ليس بدليل فان لهذا اسباب
احدها حاجتكم الى النوى للعلف وغنى صاحب العنب عنه لعلف ماشيته وحمولته الثاني
ان نوى العنب لا فايدة فيه ولا يجمع الثالث ان الاعناب عندكم قليلة جدا والتمر ما اكثره عندكم فيكثر
نواه فيشترى به الشي اليسير من العنب واما في بلاد فيها سلطان العنب فلا يشترى بالنوى منه شي ولا قيمة
لنوى التمر فيها وقلت للاخر احتج بالحديث هذا الحديث من حجة فضل العنب لانهم كانوا يسمونه شجر الاشبه ؟
الكرم لكثرة منافعه وخيره فانه يؤكل رطبا ويابسا وحلوا وحامضا ويجيء منه انواع الحلوى والدبس
وغير ذلك فسموه كرما لكثرة خيره فاخبرهم النبي صلى الله عليه وسلم ان قلب المؤمن احق منه بهذه التسمية لكثرة
ما اودع الله فيه من الخير والبر والرحمة واللين والعدل والاحسان والنصح وساير انواع البر والخير
التي وضعها الله فيه فقلب المؤمن هو احق بان يسمى كرما من شجر العنب ولم يرد النبي صلى الله عليه وسلم ابطال ما في شجر
العنب من المنافع والفوايد وان تسميته كرما كذب وانها لفظة لا معنى تحتها كتسمية الجاهل عالما والفاجر برا
والبخيل سخيا الا ترى انه لم ينف فوايد شجر العنب وانما اخبر ان قلب المؤمن اعظم فوايد واعظم منافع منها هذا
الكلام او قريب منه جرى في ذلك المجلس ورايت اذا تدبرت قول النبي صلى الله عليه وسلم الكرم قلب المؤمن وجدته
مطابقا لقوله في النخلة مثلها مثل المسلم فشبه النخلة بالمسلم وفي حديث ابن عمر وشبه المسلم بالكرم
في الحديث الاخر ونهاهم ان يخصوا شجر العنب باسم الكرم دون قلب المؤمن وقد قال بعض الناس في
هذا معنى اخر وهو انه نهاهم عن تسمية شجر العنب كرما لانه يتخذ منه ام الخبايث فيكره ان يسمى باسم يرغب النفوس
فيها ويحضها عليها من باب سد الذرايع في الالفاظ وهذا لا باس به لولا ان قوله فان الكرم قلب المؤمن
كالتعليل لهذا النهي والاشارة الى ان القلب اولى بهذه التسمية من شجر العنب ورسول الله صلى الله عليه وسلم اعلم
بما اراد من كلامه فالذي قصده هو الحق وبالجملة فالله سبحانه عدد على عباده من نعمه عليهم ثمرات النخيل والاعناب
فنافعها فيما عدده عليهم من نعمه والمعنى الاول اظهر ان شاء الله والمعنى الاخر فان ام الخبايث تتخذ من ثمر النخل
والاعناب كما قال تعالى ومن ثمرات النخيل والاعناب تتخذون منه سكرا ورزقا حسنا وقال
انس نزل تحريم الخمر وما بالمدينة من شراب الاعناب شي وانما كان شراب القوم الفضيخ المتخذ من التمر ولو

كان نهيه

كان نهيه صلى الله عليه وسلم عن تسمية شجر العنب كرما لاجل المسكر لم يشبه النخلة بالمومن لان المسكر يتخذ
منها والله اعلم الوجه السادس من وجوه التشبيه ان النخلة اصبر الشجر على الرياح والجهد وغيرها
من الدوح العظام تميلها الريح تارة وتقلعها تارة وتقصف افنانها ولا صبر لكثير منها على العطش كصبر
النخلة فكذلك المومن صبور على البلاء لا تزعزعه الرياح السابع ان النخلة كلها منفعة لا
يسقط منها شي بغير منفعة فثمرها منفعة وجذعها فيه من المنافع ما لا يجهل للابنية والسقوف
وغير ذلك وسعفها تسقف به البيوت مكان القصب ويستر به الفرج والخلل وخوصها يتخذ منه
المكاتل والزنابيل وانواع الانية والحصر وغيرها وليفها وكربها فيه من المنافع ما هو معلوم عند
الناس وقد طابق بعض الناس هذه المنافع وصفات المسلم وجعل لكل منفعة منها صفة في المسلم
ان بليته تقابلها فلما جا الى الشوك الذي في النخلة جعل بازائه الحدة صفة الحدة على اعداء الله واهل
الفجور فيكونون عليهم في الشدة والغلظة بمنزلة الشوك وللمومنين المتقين بمنزلة الرطب حلاوة ولينا
اشداء على الكفار رحماء بينهم الثامن انها كلما طال عمرها ازداد خيرها وجاد ثمرها وكذلك
المومن اذا طال عمره ازداد خيره وحسن عمله التاسع ان قلبها من اطيب القلوب واحلاه وهذا
امر خصت به دون ساير الشجر وكذلك قلب المومن من اطيب القلوب العاشر
انها لا يتعطل نفعها بالكلية ابدا بل ان تعطلت منها منفعة ففيها منافع اخر حتى لو تعطلت ثمارها سنة
لكان للناس في سعفها وخوصها وليفها وكربها منافع واراب وهكذا المومن لا يخلو عن شي من خصال
الخير قط بل ان اجدب منه جانب من الخير اخصب منه جانب فلا يزال خيره مامولا وشره مامونا
وفي الترمذي مرفوعا الى النبي صلى الله عليه وسلم خيركم من يرجى خيره ويؤمن شره وشركم من
لا يرجى خيره ولا يؤمن شره فهذا فصل معترض ذكرناه استطرادا للحاجة في خلق النخلة
وهيئتها فلنرجع اليه فتامل خلقة الجذع الذي لها كيف تجده كالمنسوج من خيوط ممدودة كالسدى
واخرى معترضة كاللحمة كنحو المنسوج باليد وذلك لتشتد وتصلب فلا تتقصف من حمل القنوان
الثقيلة ويصبر على هز الرياح العاصفة ولتبقى في السقوف والجسور والاواني وغير ذلك
مما يتخذ منها وهكذا ساير الخشب اذا تاملته تراه كالنسج ولا تراه مصمتا كالحجر الصلد
بل ترى بعضه كانه يداخل بعضا طولا وعرضا كتداخل اجزاء اللحم بعضها في بعض فان ذلك
امتن له واهيا لما يراد منه من الاستعمال لو كان مستحصفا كالحجارة لم يمكن ان يستعمل في الالات والابواب
والاواني والامتعة والاسرة والتوابيت وما اشبه ذلك ومن بديع الحكمة في الخشب ان جعل يطفو على الماء

وذلك للحكمة البالغة اذ لولا ذلك لما كانت هذه السفن تحمل امثال الجبال من الحمولات والامتعة وتمخر البحر مقبلة ومدبرة من بلد الى بلد بحيث لو نقلت في البر لعظمت المؤونة في نقلها وتعذر على الناس كثير من مصالحهم **فصل** ثم تامل احوال هذه العقاقير والادوية التي يخرجها الله من الارض وما خص به كل واحد منها وجعل عليه من العمل والنفع فهذا يغور في المفاصل فيستخرج الفضول الغليظة القاتلة لو احتبست وهذا يستخرج المرة السوداء وهذا يستخرج الصفراء وهذا يحلل الاورام وهذا يسكن الهيجان والقلق وهذا يجلب النوم ويعين اذا اعوز الانسان وهذا يحفظ البدن اذا وجد الثقل وهذا يفرح القلب اذا تراكمت عليه الهموم وهذا يجلو البلغم ويحسطه وهذا يحد البصر وهذا يطيب النكهة وهذا يسكن هيجان الباه وهذا يهيجها وهذا يبرد الحرارة ويطفيها وهذا يسخن البرودة ويهيج الحرارة وهذا يدفع ضرر غيره من الادوية والاغذية وهذا يقاوم سمية غيره فيعتدلان فيعتدل المزاج بتناولهما وهذا يسكن العطش وهذا يصرف الرياح الغليظة ويهيجها وهذا يعطي اللون اشراقا ونضارة وهذا يزيد في اجزاء البدن بالسمانة وهذا ينقص منها وهذا يدبغ المعدة وهذا يحلو بها ويغسلها الى اضعاف اضعاف ذلك مما لا يحصيه العباد **فسل** المعطل من جعل المنافع والقوى في هذه النباتات والحشائش والحبوب والعروق ومن اعطى كلا منها خاصيته ومن هدى العباد بل الحيوان الى تناول ما ينفع منه وترك ما يضر ومن فطن هذا من الناس والحيوان البهيم وباي عقل وتجربة كان يوقف على ذلك ويعرف ما خلق له كما زعم من قل نصيبه من التوفيق لولا العالم الذي اعطى كل شيء خلقه ثم هدى **وعجب** ان الانسان فطن لهذه الاشياء بذهنه وتجاربه وفكره وقياسه فمن الذي فطن لها البهايم في اشياء كثيرة منها لا يهتدي اليها الانسان حتى صار بعض السباع يتداوى من جراحه ببعض تلك العقاقير من النبات فيبرا فمن الذي جعله يقصد ذلك النبات دون غيره وقد شوهد بعض الطير يحتقن عند الحصر بماء البحر فيسهل عليه الخارج وبعض الطير يتناول اذا اعتل شيئا من النبات فيعود صحيحه وقد ذكر الاطباء في مبادي الطب في كتبهم من هذا عجايب **فسل** المعطل من الهمها ذلك ومن ارشدها اليه ومن دلها عليه افيجوز ان يكون هذا من غير مدبر عن غير حكيم وتقدير عن غير عليم وتدبير لطيف خبير بهرت حكمته العقول وشهدت له

ما لعـ

يبع مقاله

البقل

الفطر بما استودعها من تعريفه بانه الله الذي لا اله الا هو الخالق البارئ المصور الذي لا ينبغي العبادة الا له وانه لو كان معه في سماواته وارضه سواه لفسدت السموات والارض واختل نظام الملك فسبحانه وتعالى عما يقول الظالمون والجاحدون علوا كبيرا ولعلك ان تقول ما حكمة هذا النبات المبثوث في الصحاري والقفار والجبال التي لا انيس بها ولا ساكن وتظن انه فضلة لا حاجة اليه ولا فايدة فيه وهذا مقدار عقلك ونهاية علمك فكم للبارئ وخالقه من حكمة واية من طعم وحش وطير ودواب مساكنها حيث لا تراها تحت الارض وفوقها فذلك بمنزلة مائدة نصبها الله لهذه الوحوش والطيور والدواب تتناول منها كفايتها ويبقى الباقي كما يبقى الرزق الواسع الفاضل عن الضيف لسعة رب الطعام وغناه التام وكثرة انعامه **فصل** ثم تامل الحكمة البالغة في اعطائه سبحانه هذه الانعام الاسماع والابصار ليتم تناولها لمصالحها ويكمل انتفاع الانسان بها اذ لو كانت عميا وصما لم يمكن الانتفاع بها ثم سلبها العقول التي للانسان ليتم تسخيرها له فيقودها ويصرفها حيث شاء ولو اعطيت العقول على كبر خلقتها لامتنعت من طاعته واستعصت عليه ولم تكن مسخرة له فاعطيت من التمييز والادراك ما تتم به مصلحتها ومصلحة من ذللت له وسلبت من الذهن والعقل ما ميز به عليها الانسان وليظهر ايضا فضيلة التمييز والاختصاص ثم تامل كيف قادها وذللها على كبر اجسامها ولم تكن تطيقها لو لا تسخيره كما قال تعالى وجعل لكم من الفلك والانعام ما تركبون لتستووا على ظهوره ثم تذكروا نعمة ربكم اذا استويتم عليه وتقولوا سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين اي مطيقين ضابطين وقال ~~اولم ير الانسان انا خلقناهم~~ مما عملت ايدينا انعاما فهم لها مالكون وذللناها لهم فمنها ركوبهم ومنها ياكلون فترى البعير على عظم خلقته يقوده الصبي الصغير ذليلا منقادا ولو ارسل عليه لسواه بالارض ولفصله عضوا عضوا **فسل** المعطل من الذي سخره وذلله وقاده على قوته لبشر ضعيف من اضعف المخلوقات وفرغ بذلك التسخير النوع الانساني لمصالح معاشه ومعاده فانه لو كان يزاول من الاعمال والاحمال ما يزاول الحيوان لشغل بذلك عن كثير من الاعمال لانه كان يحتاج مكان الجمل الواحد الى عدة اناسي يحملون اثقاله وحمله ويعجزون عن ذلك وكان ذلك يستفرغ اوقاتهم ويصدهم عن مصالحهم فاعينوا بهذه الحيوانات مع ما لهم فيها من المنافع التي لا يحصيها الا الله من الغذاء والشراب والدواء واللباس والامتعة والالات والاواني والركوب والحرث والمنافع الكثيرة والجمال **فصل** ثم تامل الحكمة في خلق الات البطش في الحيوانات من الانسان وغيره فالانسان لما خلق مهيئا لمثل هذه الصناعات من البناء والخياطة والكتابة والتجارة وغيرها خلق له كف مستديرة منبسطة واصابع يمكن

اولم يروا انا خلقنا لهم

بها من القبض والبسط والطي والنشر والجمع والتفريق وضم الشي الى مثله وفي الحيوان البهيم لما لم يهيأ
لتلك الصنائع لم يخلق له تلك الاكف والاصابع بل لما قدر ان يكون غذاء بعضها من صيده كالسباع خلق لها
اكف لطاف مدمجة ذوات براثن ومخالب تصلح لاقتناص الصيد ولا تصلح للصناعات هذا في اكلة
اللحم من الحيوان واما اكلة النبات فلما قدر انها لا تتعاطى ولا صنعة لها خلق لبعضها اظلاف تقيها خشونة
الارض اذا حاولت طلب المرعى ولبعضها حوافر ململمة مقعرة كاخمص القدم لتنطبق على الارض وتسهل
للركوب والحمولة ولم يخلق لها براثن ولا انياب لان غذاها لا يحتاج الى ذلك

فصل

ثم تأمل الحكمة في خلقة الحيوان الذي ياكل اللحم من البهائم كيف جعل لها اسنان حداد وبراثن شداد واشداق
مفروته وافواه واسعة واعينت باسلحة وادوات تصلح للصيد والاكل وكذلك تجد سباع الطير
ذوات مناقير حداد ومخاليب كالكلاليب ولهذا حرم النبي صلى الله عليه وسلم كل ذي ناب من السباع
ومخلب من الطير لضررها وعدوانها وشرها والمغتذي شبيه بالغاذي فلو اغتذى بها الانسان
لصار فيه من اخلاقها وعدوانها وشرها ما يشابهها فحرم على الامة اكلها ولم يحرم عليهم الضبع وان كان
ذا ناب فانه ليس من السباع عند احد من الامم والتحريم انما كان لما تضمن الوصفين ان يكون ذا ناب وان يكون
من السباع ولا يقال هذا ينتقض بالسبع اذا لم يكن له ناب لان هذا لم يوجد ابدا فصلوات الله وسلامه
على من اوتي جوامع الكلم فاوضح الاحكام وبين الحلال والحرام فانظر حكمة الله عز وجل في خلقه وامره فيما
خلقه وفيما شرعه تجد مصدر ذلك كله الحكمة البالغة التي لا تخل نظامها ولا تخل ابدا ومن الناس
من يكون حظه من مشاهدة حكمة الامر اعظم من مشاهدة حكمة الخلق وهؤلاء خواص العباد الذين عقلوا عن
الله امره ودينه وعرفوا حكمته فيما احله وشهدت فطرهم وعقولهم ان مصدر ذلك حكمة بالغة واحسان
تام ومصلحة اريدت بالعباد في معاشهم ومعادهم وهم في ذلك درجات لا يحصيها الا الله ومنهم
من يكون حظه من مشاهدة حكمة الخلق اوفر من حظه من حكمة الامر وهم الاطباء والطبائعيين الذين صرفوا
افكارهم الى استخراج منافع النبات والحيوان وقواها وما يصلح له مفرده ومركبه ولكن لم تنصب
في حكمة الامر كما للفقهاء من حكمة الخلق بل اقل من ذلك ومنهم من فتح عليه بمشاهدة حكمة الخلق والامر
بحسب استعداده وقوته فرأى الحكمة الباهرة التي بهرت العقول في هذا وهذا فاذا نظر الى خلقه
وما فيه من الحكم ازداد ايمانا ومعرفة وتصديقا بما جاءت به الرسل واذا نظر الى امره وما تضمنه من الحكم
الباهرة ازداد ايمانا ويقينا وتسليما لا كمن حجب بالصنعة عن صانعها وبالكواكب عن مكوكبها فعمي بصره
وغلظ عن الله حجابه ولو اعطي علمه حقه لكان من اقوى الناس ايمانا لانه اطلع من حكمة الله وباهر اياته وعجائب

صنعه

صنعه الدالة عليه وعلى علمه وقدرته وحكمته على ما خفي عن غيره ولكن من حكمة الله ايضا ان سلب كثيرا
من عقول هؤلاء خاصتها وحجبها عن معرفته واوقفها عند ظاهر من العلم بالحياة الدنيا وهم عن الاخرة
هم غافلون لدناءتها وخستها وحقارتها وعدم اهليتها للمعرفة ومعرفة اسمائه وصفاته واسرار دينه
وشرعه والفضل بيد الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم وهذا باب لا يطلع الخلق
منه على ما له نسبة الى الخافي عنهم ابدا بل علم الاولين والاخرين منه كنقرة العصفور من البحر ومع هذا
فليس ذلك بموجب للاعراض عنه والياس منه بل يستدرك العاقل بما ظهر له منه على ما وراءه

فصل

ثم تامل اولاد ذوات الاربع من الحيوان كيف تراها تتبع امهاتها مستقلة بانفسها
فلا تحتاج الى الحمل والتربية كما تحتاج اليه اولاد الانس فمن اجل انه ليس عند امهاتها ما عند امهات
البشر من التربية والملاطفة والرفق والالات المتصلة والمنفصلة اعطاها اللطيف
الخبير النهوض والاستقلال بانفسها على قرب العهد بالولادة وكذلك ترى فراخ كثير من الطير كالدجاج
والدراج والقبج تدرج وتلقط حين تخرج من البيضة وما كان منها ضعيفا للنهوض كفراخ الحمام
واليمام اعطى سبحانه امهاتها من فضل العطف والشفقة والحنان ما تمج به الطعم في افواه الفراخ
من حواصلها فتجاوره في اعز مكان منها ثم تسوقه منها الى افواه الفراخ ولا تزال بها كذلك حتى
ينهض الفرخ ويستقل بنفسه وذلك كله من حيطتها وقسمتها الذي وصل لها من الرحمة الواحدة
من المائة فاذا استقل بنفسه وامكنه الطيران لم يزل به الابوان يعالجانه اتم معالجة والطف
حتى يطير من وكره ويسترزق لنفسه وياكل من حيث ياكلان وكانهما لم يعرفاه ولا عرفهما قط بل يطردانه
عن الوكر ولا يدعانه واقواتهما وبيتهما بل يقولان له بلسان يفهمه اتخذ لك وكرا وقوتا فلا وكر
لك عندنا ولا قوت **فسل** المعطل هذا كله عن اهمال ومن الذي الهمها ذلك ومن الذي
عطفها على الفراخ وهي صغار احوج ما كانت اليها ثم سلب ذلك عنها اذا استغنت الفراخ
رحمة بالامهات لتسعى في مصالحها اذ لو دام لها ذلك لاضر بها وشغلها عن معاشها لا سيما مع
كثرة ما يحتاج اليه اولادها من الغذاء فوضع فيها الرحمة والايثار والحنان رحمة بالفراخ
وسلبها اياها عند استغنائها رحمة بالامهات افيجوز ان يكون هذا كله بلا تدبير من حكيم ولا عناية
ولا لطف منه سبحانه وتعالى لقد قامت ادلة ربوبيته وبراهين الهيته وشواهد حكمته وايات
قدرته فلا تستطيع العقول لها جحودا ان هي الا مكابرة اللسان من كل جحود كفور افي الله شك فاطر
السموات والارض وانما يكون الشك فيما تخفى ادلته وتشكل براهينه فاما من له في كل شي محسوس

او معقول آية بل آيات مؤدية عنه شاهدة له بانه الله الذي لا اله الا هو رب العالمين فكيف يكون
فيه شك **فصل** ثم تأمل الحكمة البالغة في قوائم الحيوان كيف اقتضت ان يكون زوجا لا
فردا اما اثنين واما اربعا ليتهيأ له المشي والسعي ويتم بذلك مصلحته اذ لو كانت فردا لم يصلح لذلك
لان الماشي ينقل بعض قوائمه ويعتمد على بعض فذو القائمتين ينقل واحدة ويعتمد على واحدة وذو الاربع
ينقل اثنين ويعتمد على اثنين وذلك من خلاف فلانه لو كان ينقل قائمتين من جانب ويعتمد على قائمتين من
الجانب الآخر لم يثبت على الارض حال نقله قوائمه ولكان مشيه نقزا كنقز الطائر وذلك مما يؤذيه ويتعبه
لثقل بدنه بخلاف الطائر ولهذا اذا مشى الانسان كذلك اجهده قليلا وشق عليه بخلاف مشيه
الطبيعي الذي هيئ له فاقتضت الحكمة تقديم نقل اليمنى من يديه مع اليسرى من رجليه وآخر يسرى اليدين
ويمنى الرجلين ثم ينقل الاخريين كذلك وهذا اسهل ما يكون من المشي واخفه على الحيوان **فصل**
ثم تأمل الحكمة البالغة في ان جعل ظهور الدواب مسطحة كانها سقف على عمد القوائم ليتهيأ ركوبها وتستقر
الحمولة عليها ثم خولف هذا في الابل فجعل ظهورها مسنمة معقودة كالقبو لما خصت به من فضل القوة
وعظيم ما يحمله والاقباء تحمل اكثر مما تحمله السقوف حتى قيل ان عقد الاقباء انما اخذ من ظهور الابل وتأمل
كيف لما طول قوائم البعير طول عنقه ليتناول المرعى من قيام فلو قصرت عنقه لم يمكنه ذلك مع طول قوائمه
وليكون ايضا طول عنقه موازنا للحمل على ظهره اذا استقل به كما ترى طول قصبة القبان حتى قيل ان
القبان انما عمل من خلقة الجمل من طول عنقه وثقل ما يحمله ولهذا تراه يمد عنقه اذا استقل بالحمل كانه يوازنه
موازنة **فصل** ثم تأمل الحكمة في كون فرج الدابة جعل بارزا من ورائها ليتمكن الفحل من ضرابها
ولو جعل في اسفل بطنها كما جعل للمرأة لم يتمكن الفحل من ضرابها الا على الوجه الذي يجامع به المرأة وقد ذكر
في كتب الحيوان ان فرج الفيلة في اسفل بطنها فاذا كان وقت الضراب ارتفع ونتأ وبرز للفحل فتمكن
من ضرابها فلما جعل في الفيلة على خلاف ما هو في سائر البهائم خصت بهذه الخاصة عنها ليتهيأ الامر
الذي به دوام النسل **فصل** ثم تأمل كيف كسيت اجسام الحيوان البهيمي هذه الكسوة من
الشعر والوبر والصوف وكسيت الطيور الريش وكسيت بعض الدواب من الجلد ما هو في غاية الصلابة
والقوة كالسلحفاة وبعضها من الريش ما هو كالاسنة كل ذلك بحسب حاجتها الى الوقاية من الحر والبرد
والعدو الذي يريد اذاها فانها لما لم يكن لها سبيل الى اتخاذ الملابس واصطناع الكسوة والات الحرب
اغنيت بملابس وكسوة لا تفارقها والات واسلحة تدفع بها عن نفسها واغنيت بالاظلاف والاخفاف والحوافر
لما عدمت الاحذية والنعال لمنعها حذاؤها وسقاؤها وخص الفرس والبغل والحمار بالحوافر لما خلق

للركض

للركض والشد والجري وجعل لها ذلك ايضا سلاحا عند انتصافها من خصومها عوضا من الصياصي
والمخالب والانياب والبراثن فتأمل هذا اللطف والحكمة فانها لما كانت بهائم خرسا لا عقول لها ولا
اكف ولا اصابع مهيأة للاسفاع والدفاع ولا حظ لها فيما يتصرف فيه الآدميون من النسج والغزل ولطيف
الحيلة جعلت كسوتها من خلقتها باقية عليها ما بقيت لا تحتاج الى استبدالها واعطيت الآلة والاسلحة
تحفظ بها انفسها كل ذلك لتتم الحكمة التي ربيت لها ومنها واما الانسان فانه ذو حيلة وكف مهيأة
للعمل فهي تغزل وتنسج وتتخذ لنفسه الكسوة ويستبدل بها حالا بعد حال وله في ذلك صلاح من
جهات عديدة منها ان يستريح اذا خلع كسوته اذا شاء ويلبسها اذا شاء ليس كالمضطر الى حمل كسوته ومنها
انه يتخذ لنفسه ضروبا من الكسوة للصيف وضروبا للشتاء فان كسوة الصيف لا تليق بالشتاء وكسوة الشتاء
لا تليق بالصيف فيتخذ لنفسه في كل فصل كسوة تناسبه ومنها انه يجعلها تابعة لشهوته وارادته ومنها
انه يتلذذ بانواع الملابس كما يتلذذ بانواع المطاعم فجعلت كسوته متنوعة تابعة لاختياره كما جعلت مطاعمه
كذلك فهو يكتسي ما شاء من انواع الملابس المتخذة من النبات تارة كالقطن والكتان ومن الحيوان تارة كالوبر
والصوف والشعر ومن الدود تارة كالخز والابريسم ومن المعادن تارة كالذهب والفضة فجعلت كسوته
متنوعة ليتم لذته وسروره وابتهاجه وزينته بها ولذلك كانت كسوة اهل الجنة منفصلة عنهم كما هي في
الدنيا ليست مخلوقة من اجسامهم كالحيوان فدل على ان ذلك اكمل واجل وابلغ في النعمة واللذة ومنها
ارادة ما يتبين به عن الحيوان في ملبسه كما ميز عنه في مطعمه ومسكنه وبيانه وعقله وفهمه ومنها اختلاف
الكسوة واللباس وتباينه بحسب تباين احواله وصنائعه وحربه وسلمه وظعنه واقامته
وصحته ومرضه ونومه ويقظته ورفاهيته فلكل حال من هذه الاحوال لباس وكسوة تخصها لا تليق
الا بها فلم يجعل كسوته في هذه الاحوال كلها واحدة لا سبيل الى استبدالها فهذا من تكريمه وتفضيله
على سائر الحيوان **فصل** ثم تأمل حكمة عجيبة جعلت للبهائم والوحوش والسباع
والدواب على كثرتها لا يرى منها شيء وليست شيئا قليلا فيخفى لقلتها بل قد قيل انها اكثر من الناس
واعتبر ذلك بما تراه في هذه الصحاري من اسراب الظباء والبقر والوعول والذئاب والنمور وضروب
الهوام على اختلافها وسائر دواب الارض وانواع الطيور التي هي اضعاف اضعاف بني آدم لا تكاد ترى
منها شيئا ميتا لا في كناسه ولا في اوكاره ولا في مساقطه ومراعيه وطرقه وموارده ومناهله
ومعاقله ومعاصمه الا ما عدا عليه عاد اما افترسه سبع او رماه صائد او عدى عليه عاد اشغله
او اشغل بجنسه عن احراز جسمه واخفاء جيفته فدل ذلك على انها اذا احست بالموت ثم تغلب

على انفسها بحيث لا يوصل الى اجتنابها وقرب جيفها قبل نزول الليث بها ولولا ذلك لامتلات الصحارى
بجيفها وافسدت الهواء بروائحها فعاد ضرر ذلك على الناس وكان سبيلا الى وقوع الوباء وقد
دل على ذلك قوله تعالى في قصة ابني ادم فبعث الله غرابا يبحث في الارض ليريه كيف يواري سوءة اخيه
قال يا ويلتا اعجزت ان اكون مثل هذا الغراب فاواري سوءة اخي فاصبح من النادمين واما ما جعل
عيشه بين الناس كالانعام والدواب فلقدرة الانسان على نقله واحتياله في دفع اذيته بخلاف ما جعل في
الوحوش كالسباع فتامل هذا الذي جاء بسواد من فيه وفيما يفعلونه به كيف جعل طبعا في البهائم
وكيف تعلموه من الطير وتامل الحكمة في ارسال الله تعالى لابن ادم الغراب المؤذن اسمه بغربة القاتل من اخيه
وغربته هو من رحمة الله وغربته بين ابيه واهل بيته واستيحاشه منهم واستيحاشهم منه وهو من
الطيور التي يتشاءم منها الناس ويبغضونها ويستوحشون بها فارسل اليه مثل هذا الطائر حتى صار كالمعلم
والمرشد وصار بمنزلة المتعلم والمسترشد ولاسرار جليلة هذا الباب وارتباط المسميات فيه باسمائها
فقد قال النبي صلى الله عليه وسلم اذا بعثتم الي بريدا فابعثوه حسن الاسم حسن الوجه وكان
يسال عن اسم الارض اذا نزلها واسم الرسول اذا جاء اليه ولما جاءهم سهيل بن عمرو يوم الحديبية
قال قد سهل لكم من امركم ولما اراد تغيير اسم حزن بن سهل قال لم يزل معنى اسمه فيه وفي ذريته
ولما سال عمر بن الخطاب رضي الله عنه الرجل عن اسمه واسم ابيه وداره ومنزله فاخبره انه جمرة بن شهاب
وان داره بالحرقة وان مسكنه منها ذات لظى قال له ادرك بيتك فقد احترق فكان كما قال
وشواهد هذا الباب اوسع من ان نذكرها هنا وهو باب لطيف المنزع شديد المناسبة بين الاسماء
والمسميات وكثيرا ما اولع الناس قديما وحديثا بنعيق الغراب واستدلالهم على البين والاغتراب
وينسبونها الى الشوم ويتطيرون منها وينفرون منه فكان جديرا ان يرسل هذا الطائر الى القاتل من
بني ادم دون غيره من الطيور فكانه صورة طائره الذي الزمه في عنقه وطار عنه عمله ولا تظنن
ان ارسال الغراب وقع اتفاقا خاليا من الحكمة فانك اذا خفي عليك وجه الحكمة فيه فلا تنكرها واعلم ان
خفاها للطفها وشرفها والله تعالى فيما خفي وجه الحكمة فيه على البشر الحكم الباهرة المتضمنة للغايات
المحمودة **فصل** تامل الحكمة الباهرة في وجه الدابة كيف هو فانك ترى العينين فيه
شاخصتين امامها لتبصر ما بين يديها لئلا يقصر عنها لانها تحرس نفسها وراكبها فتتقي ان تصدم
حائطا او تتردى في حفرة فجعلت عيناها في المنتصب لقامته لانها طليعة لها وجعل فوها
مشقوقا في اسفل الخطم لتتمكن من العض والقبض على العلف اذ لو كان فوها في مقدم الخطم كمكانه

من الانسان في مقدم الذقن لما استطاعت ان تتناول به شيئا من الارض الا ترى ان الانسان لا يتناول
الطعام بفيه لكن بيده فلما لم يكن للدابة يد تتناول الطعام بيدها جعل خطمها مشقوقا من اسفله لتقبضه
على العلف ثم تقضمه واعينت بالجحفلة وهي لها كالشفة للانسان لتقيم بها ما قرب منها وما بعد وقد
اشكلت منفعة الذنب على بعض الناس ولم يهتد اليها وفيه منافع عديدة فمنها انه بمنزلة الطبق على الدبر
والغطاء على حياها يواريهما ويسترهما ومنها ان ما بين الدبر ومراق البطن من الدابة له وضر يجمع عليه
الذباب والبعوض فيؤذي الدابة فجعل ذنبها كالمذبة لها والمراوح تطرد به ذلك ومنها ان
الدابة تستريح الى تحريكه وتصريفه يمنة ويسرة فانه لما كان قيامها على الاربع بكل جثتها وشغلت قوائمها
بحمل البدن عن التصرف والتقلب كان لها في تحريك الذنب راحة ويسر وعسى ان يكون فيه حكم اخر
تقصر عنها افهام الخلق ويزدريها السامع اذا عرضت عليه فانه لا يعرف موقعها الا في وقت
الحاجة فمن ذلك ان الدابة تتورط في الوحل فلا يكون شيء اهون على رافعها من الاخذ بذنبها
فصل ثم تامل مشفر الفيل وما فيه من الحكم الباهرة فانه يقوم له مقام اليد في تناول
العلف والماء وايرادهما الى جوفه ولولا ذلك ما استطاع ان يتناول شيئا من الارض لانه ليست له
عنق يمدها كسائر الانعام فلما عدم العنق اخلف عليه مكانه الخرطوم الطويل ليسد مسده وجعل
قادرا على سدله ورفعه وثنيه والتصرف فيه كيف شاء وجعل وعاء اجوف لين الملمس فهو
يتناول به حاجته ويحمل ما اراد الى جوفه ويحبس منه ما يريد ويلقيه اذا شاء ويعطي ويتناول اذا
اراد **فسل** المعطل من الذي عوضه واخلف عليه مكان العضو الذي منعه ما يقوم
له مقامه وينوب منابه غير الرؤوف الرحيم بخلقه المتكفل بمصالحهم اللطيف بهم وكيف يتاتى
ذلك مع الاهمال وخلو العالم عن قيمه وباريه ومبدعه وفاطره لا اله الا هو العزيز الحكيم فان
قلت فما باله لم يخلقه ذا عنق كسائر الانعام وما الحكمة في ذلك قيل ذلك والله اعلم بحكمة
مصنوعاته لان راسه واذنيه امر هائل عظيم وحمل ثقيل فلو كان ذا عنق كسائر الاعناق
لانهدت رقبته بثقله ووهنت بحمله فجعل راسه ملصقا بجثته لكيلا ينال منه شيء من الثقل
والمؤونة وخلق له مكان العنق هذا المشفر الطويل يتناول به غذاءه ولما طالت عنق البعير
للحكمة في ذلك صغر راسه بالنسبة الى عظم جثته لئلا يؤوده ثقله ويوهن عنقه فسبحان من
فاتت حكمته عد العادين وحصر الحاصرين **فصل** ثم تامل طول الزرافة واختلاف
اعضائها وشبهها باعضاء جميع الحيوان فراسها راس فرس وعنقها عنق بعير واظلافها

اطلاق بعض وحل هذا حل بمرحى لقد زعم بعض الناس ان لقاح حمار بخول شي وذكروا ان اصنافها
من حيوان البر اذا وردت الماء نزا بعضها على بعض فنتجوا المستوحشة على التشابه فتنتج مثل هذا
الشخص الذي هو كالملتقط من اثنين شي وما ارى هذا القايل الا كاذبا عليها وعلى الخلقة اذ ليس في الحيوان
صنف يلقح صنفا اخر فلا الجمل يلقح البقر ولا الثور يلقح الناقة ولا الفرس يلقح المهاة ولا البغال ولا
الوحوش يلقح بعضها بعضا ولا الطيور وانما يقع هذا نادرا فيما يتقارب كالبقر الوحشي والاهلي
والضبع والعنز والفرس والحمار والذيب والضبع فيتولد من ذلك البغل والسمع والعسبار وقول
الفقهاء هل يجب الزكاة في المتولد بين الوحشي والاهلي فيه وجهان هذا انما يتصور في واحد واثنين
او ثلاثة يكمل بها النصاب فاما نصاب كل متولد من الوحشي والاهلي فلا وجود لذلك والاحكام المتعلقة
بهذه المتولدات تذكر في الزكاة وجزاء الصيد والاضاحي والاحوط فعله في كل باب فالاحوط في الاضاحي
تغليب عدم الاجزاء وفي الاحرام والحرم يغلب وجوب الجزاء وفي الاطعمة يغلب جانب التحريم وفي الزكاة
اختلاف مشهور وسئل شيخنا ابو العباس بن تيمية قدس الله روحه عن حمار نزى على فرس فاحبلها
فهل يكون لبن الفرس حلالا او حراما فاجاب بانه حلال ولا حكم للفحل في اللبن في هذا الموضع بخلاف الادمي
لان لبن الفرس حادث من العلف فهو تابع للحمها ولم ينشر وطي الفحل الى هذا اللبن فانه لا حرمة هنا تنتشر
بخلاف لبن الفحل في الادمي فانه ينشر به حرمة الرضاع ولا حرمة ههنا تنتشر من جهة الفحل الا الى الولد
خاصة فانه يتكون منه ومن الام فيغلب عليه التحريم واما اللبن فلم يتكون بوطئه وانما يتكون من العلف
فلم يكن حراما هذا بسيط كلامه ونعود الى المقصود ابطال زعم ان هذه الحيوانات المختلفة يلقح بعضها
بعضا عند الموارد انه ليس الخارج من بين ما ذكرنا الفرس والحمار على الابداع والذي يدل على كذبه انه ليس الخارج
من بين ما ذكرنا الفرس والحمار والذيب والضبع والظبي والعنز الا عضو كل واحد من ابيه وامه كما
يكون للزرافة عضو الفرس وعضو الجمل بل يكون كالمتوسط بينهما الممتزج منهما كما تشاهد في البغل
فانك ترى راسه واذنيه وكفله وذنبه وحوافره وسطا بين اعضا ابيه وامه مشتقة منهما حتى نجد
شحيجه كالممتزج من صهيل الفرس ونهيق الحمار فهذا يدل على ان الزرافة ليست نتاج لاباء مختلفة
كما زعم هذا الزاعم بل من خلق عجيب وصنع بديع من خلق الله الذي ابدعه اية ودلالة على قدرته
وحكمته التي لا يعجزها شي ليري عباده انه خالق اصناف الحيوان كلها كما شاء وفي اي صورة شاء وفي اي
لون شاء فمنها المتشابه الخلقة المتناسب الاعضاء ومنها المختلف التركيب والشكل والصورة كما
اري عباده قدرته التامة في خلقه لنوع الانسان على الاقسام الاربعة الدالة على انه مخلوق بقدرته

وارادته

وارادته ومشيئته ما يعجز لها فمنه ما خلق من غير اب ولا ام وهو ابو النوع الانساني ومنه ما خلق
من ذكر بلا انثى وهي امهم التي خلقت من ضلع ادم ومنه ما خلق من انثى بلا ذكر وهو المسيح بن مريم صلى الله
عليه وعلى سائر رسله وسلم ومنه ما خلق من ذكر وانثى وهو سائر النوع الانساني ليري عباده اياته ويتعرف
اليهم بالائه وقدرته وانه اذا اراد شيئا فانما يقول له كن فيكون فاما طول عنق الزرافة وما لها فيه من
المصلحة فلان منشاها ومرعاها كما ذكر المعتنون بحالها ومساكنها في غياطل ذوات اشجار شاهقة
ذاهبة طولا فعينت بطول العنق لتتناول اطراف الشجر الذي هناك وثمارها فهذا ما وصلت
اليه معرفتهم وحكمة اللطيف الخبير فوق ذلك واجل منه **فصل** ثم تأمل هذه النملة من
الضعفة وما اعطيته من الفطنة والحيلة في جمع القوت وادخاره وحفظه ودفع الافة عنه فانك
ترى في ذلك عبرا وايات فترى جماعة النمل اذا ارادت احراز القوت خرجت من اسرابها طالبة له
فاذا ظفرت به اخذت طريقا من اسرابها اليه وشرعت في نقله فتراها رفقتين رفقة حاملة تحمله الى
بيوتها ذاهبا ورفقة خارجة من بيوتها اليه لا تخالط تلك في طريقها بل هما كالخيطين بمنزلة جماعة
الناس الذاهبين في طريق والجماعة الراجعين من جانبهم في طريق فاذا ثقل عليها حمل الشي من ذلك
اجتمعت عليه جماعة من النمل وتساعدت على حمله بمنزلة الخشبة والحجر الذي يتساعد الفئة من
الناس عليه فاذا كان الذي ظفرت به منهن واحدة ساعدها رفقتها عليه الى بيتها وخلوا بينها
وبينه وان كان الذي صادفته جماعة تساعدن عليه ثم تقاسمنه على باب البيت ولقد
اخبر بعض الصادقين انه شاهد منهن نوعا عجيبا قال رأيت نملة جاءت الى شق جرادة
فزاولته فلم تطق رفعه من الارض فذهبت غير بعيد ثم جاءت معها بجماعة من النمل قال فرفعت
ذلك الشق من الارض فلما وصلت النملة بمن معها الى مكانه دارت حوله ودرن معها فلم يجدن
شيئا فرجعن فوضعته فجاءت فصادفته فزاولته فلم تطق رفعه من الارض فذهبت غير بعيد ثم جاءت
بهن فرفعته فدرن حول مكانه فلم يجدن شيئا فذهبن فوضعته فعادت فجاءت بهن فرفعته
فدرن حول المكان فلما لم يجدن شيئا تحلقن حلقة وجعلن تلك النملة في وسطها ثم تحاملن
عليها فقطعنها عضوا عضوا وانا انظر **ومن عجيب** الفطنة فيها اذا نقلت الحب الى مساكنها
كسرته لئلا ينبت فان كان مما ينبت الفلقتان منه كسرته ارباعا فاذا اصابه ندى وبلل وخافت
عليه العفن اخرجته للشمس ثم ترده الى بيوتها ولهذا ترى في بعض الاحيان حبا كثيرا على
ابواب مساكنها مكسرا ثم يعود عن قريب فلا ترى منه واحدة ومن فطنتها انها لا تتخذ قريتها الا على

تنشره من الأرض لئلا تعفن عليها السنبل فيعفنها فلا ترى قريتها في بطن واد ولكن في أعلاه وما ارتفع عن السيل منه ويكفي من فطنتها ما قص الله سبحانه في كتابه من قولها لجماعة النمل وقد رأت سليمان عليه السلام وجنوده يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم لا يحطمنكم سليمان وجنوده وهم لا يشعرون فتكلمت بعشرة أنواع من الخطاب في هذه النصيحة النداء والتنبيه والتسمية والأمر والنص والتحذير والتخصيص والتفهيم والاعتذار فاشتملت نصيحتها مع اختصارها على هذه الأنواع العشرة ولذلك أعجب سليمان قولها وتبسم ضاحكا منه وسأل الله أن يوزعه شكر نعمته لما سمع كلامها ولا تستبعد هذه الفطنة من أمة من الأمم تسبح بحمد ربها كما في الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم قال نزل نبي من الأنبياء تحت شجرة فلدغته نملة فأمر بجهازه فأخرج ثم أمر بقرية النمل فأحرقت فأوحى الله إليه من أجل أن لدغتك نملة أحرقت أمة من الأمم تسبح فهلا نملة واحدة

فصل ومن عجيب الفطنة في الحيوان أن الثعلب إذا أعوزه الطعام ولم يجد صيدا تماوت ونفخ بطنه حتى يحسبه الطير ميتا فيقع عليه ليأكل منه فيثب الثعلب عليه ويأخذه ومن عجيب الفطنة في هذه الذبابة الكبيرة التي تسمى أسد الذباب فإنك تراها حين تحس بالذباب قد وقع قريبا منه تسكن مليا حتى كأنه موات لا حراك به فإذا رأى الذباب قد اطمأن وغفل عنه دب دبيبا رفيقا حتى يكون منه بحيث يناله ثم يثب عليه فيأخذه ومن عجيب حيل العنكبوت أنه ينسج الشبكة شركا للصيد ثم يكمن في جوفها فإذا نشب فيه البرغش والذباب وثب عليه وامتص دمه فهذا يحكي صيد الأشراك والشباك والأول يحكي صيد الكلاب والفهود ولا تزدرين العبرة بالشيء الحقير من الذرة والنملة والبعوض والعنكبوت فإن المعنى النفيس يقتبس من المحل الحقير والازدراء بذلك ميراث من الذين استكبرت عقولهم ضرب الله تعالى في كتابه المثل بالذباب والعنكبوت والكلب والحمار فأنزل الله تعالى إن الله لا يستحيي أن يضرب مثلا ما بعوضة فما فوقها فما أغزر الحكم وأكثرها في هذه الحيوانات التي تزدريها وتحتقرها وكم من دلالة فيها على الخالق وحكمته ولطفه ورحمته فسل المعطل من ألهمها هذه الحيل والتلطف في اقتناص صيدها الذي جعل قوتها ومن جعل هذه الحيل فيها بدل ما سلبها من القوة والقدرة فأعاضها بما أعطاها من الحيلة عما سلبها من القوة والقدرة سوى اللطيف الخبير

فصل تأمل جسم الطائر وخلقته فإنه حين قدر أن يكون طائرا في الجو خفف جسمه وأدمج خلقه واقتصر به من القوائم الأربع على اثنتين ومن الأصابع الخمس على أربع ومن مخرجي البول والزبل على واحد يجمعهما جميعا ثم خلق ذا جؤجؤ محدد ليسهل عليه أن يخرق الهواء كيف توجه فيه

كما جعل

كما جعل صدر السفينة بهذه الهيئة ليشق الماء بسرعة وينفذ فيه وجعل في جناحيه وذنبه ريشات طوالا متانا لينهض بها للطيران وكسى جسمه كله الريش ليتداخله الهواء فيحمله ولما قدر أن يكون طعامه اللحم والحب يبلعه بلعا بلا مضغ نقص من خلقه الأسنان وخلق له منقار صلب يتناول به طعامه فلا ينسحج من لقط الحب ولا يتقصف من نهش اللحم ولما عدم الأسنان وصار يزدرد الحب صحيحا واللحم غريضا أعين بفضل حرارة في الجوف تطحن له الحب وتطبخ اللحم فاستغنى عن المضغ والذي يدلك على قوة الحرارة التي أعين بها أنك ترى عجم الزبيب وأمثاله يخرج من بطن الإنسان صحيحا ويطحن في جوف الطائر حتى لا يرى له أثر ثم اقتضت الحكمة أن جعل يبيض بيضا ولا يلد ولادة لئلا يثقل عن الطيران فإنه لو كان مما يحمل ويمكث حمله في جوفه حتى يستحكم ويكمل لأثقله وعاقه عن النهوض والطيران وتأمل الحكمة في كون الطائر المرسل السائح في الجو يلهم صبر نفسه أسبوعا أو أسبوعين باختياره قاعدا على بيضه حاضنا له ويتحمل مشقة الحبس ثم إذا خرج فراخه تحمل مشقة الكسب وجمع الحب في حوصلته ثم يزقه فراخه وليس بذي روية ولا فكر في عاقبة أمره ولا يؤمل في فراخه ما يؤمل الإنسان في ولده من العون والرفد وبقاء الذكر فهذا من فعله يشهد بأنه معطوف على فراخه لعلة لا يعلمها هو ولا يفكر فيها من دوام النسل وبقائه

فصل ثم تأمل خلقة البيضة وما فيها من المح الأصفر الخاثر والماء الأبيض الرقيق فبعضه ينشأ منه الفرخ وبعضه يتغذى منه إلى أن يخرج من البيضة وما في ذلك من الحكمة فإنه لما كان نشوء الفرخ في تلك القشرة المستحصفة التي لا نفاذ فيها للواصل من خارج جعل معه في جوف البيضة من الغذاء ما يكتفي به إلى خروجه

فصل وتأمل الحكمة في حوصلة الطائر وما قدر له فإن مسلك الطعام إلى القانصة ضيق لا ينفذ فيه الطعام إلا قليلا قليلا فلو كان الطائر لا يلتقط حبة ثانية حتى يصل الأولى إلى جوفه لطال ذلك عليه فمتى كان يستوفي طعمه وإنما يختلسه اختلاسا لشدة الحذر فجعلت له الحوصلة كالمخلاة المعلقة أمامه ليوعي فيها ما ازدرد من الطعم بسرعة ثم ينفذه إلى القانصة على مهل وفي الحوصلة أيضا خصلة أخرى فإن من الطير ما يحتاج أن يزق فراخه فيكون رده الطعم من قرب ليسهل عليه

فصل ثم تأمل هذه الألوان والأصباغ والوشي التي تراها في كثير من الطير كالطاووس والدراج وغيرهما التي لو خطت بدقيق الأقلام ووشيت بالأيدي لم يكن هذا فمن أين في الطبيعة المجردة هذا التشكيل والتخطيط والتلوين والصبغ العجيب البسيط والمركب الذي لو اجتمعت الخليقة على أن يحاكوه لتعذر عليهم فتأمل

ريش الطاووس كيف هو فانك تراه كنسج الثوب الرفيع من خيوط رقاق حتى الف بعضها الى بعض
كتأليف الخيط الى الخيط بل الشعرة الى الشعرة ثم ترى ذلك النسج اذا مددته ينفتح قليلا ولا ينشق
لتداخله الهواء فيقل الطائر اذا طار وترى في وسط الريشة عمودا غليظا متينا قد نسج عليه ذلك
الثوب الذي هو مثل الشعر ليمسكه بصلابته وهو القصبة التي تكون في وسط الريشة وهو مع ذلك
اجوف ليشتمل على الهواء فيحمل الطائر فاي طبيعة فيها هذه الحكمة والخبرة واللطف ثم لو كان
ذلك في الطبيعة كما يقولون لكانت من ادل الدلائل واعظم البراهين على قدرة مبدعها ومنشيها وعلمه
وحكمته فانه لم يكن لها ذلك من نفسها بل انما هو لها من خالقها ومبدعها فما تدعيه المعطل هو اصل البراهين
والايات التي على مثلها يزداد ايمان المومنين وهكذا ايات الله يضل بها من يشاء ويهدي من يشاء ه

فصل تامل هذا الطائر الطويل الساقين واعرف المنفعة في طول ساقيه
فانه يرعى اكثر مرعاه في ضحضاح من الماء فتراه يربا على ساقيه كانه ربيئة فوق مرقب وهو يتامل ما دب
في الماء فاذا راى شيئا من حاجته خطا خطوا رفيقا حتى يتناوله ولو كان قصير القائمتين كان
يخطو الى الصيد لياخذه يصفق بطنه الماء فيثور ويذعر الصيد منه فيتفرق فخلق له ذانك
العمودان ليدرك بهما حاجته ولا يفسد عليه مطلبه وكل طائر فله نصيب من طول الساقين والعنق
ليمكنه تناول طعمه من الارض ولو طال ساقاه وقصر عنقه لم يمكنه ان يتناول شيئا من الارض
وربما اعين مع طول عنقه بطول المنقار ليزداد مطلبه سهولة عليه وامكانا ثم تامل هذه العصافير — العصافير
كيف تطلب اكلها بالنهار كله فلا هي تفقده ولا هي تجده مجموعا معدا بل تناله بالحركة والطلب في الجهات
والنواحي فسبحان الذي قدره ويسره كيف لم يجعله مما يتعذر عليها اذا التمسته ولا مما تفوتها
اذا فقدت عنه وجعلها قادرة عليه في كل حين واوان وفي كل ارض ومكان حتى من الجدران والاسطحة
والسقوف تناله بالهوينا من السعي ولا ينالها فيه عناء يحبسها عن الطير ولو كانت مما تعاف
به ويوجد معدا مجموعا كله كانت الطير تنزل فيه وتغلبها عليه وتحله اخرى بديعة وذلك
انها لو وجدته معدا مجموعا لاتت عليه بحرص الرغبة فلا تقلع عنه وان شبعت حتى تبشم وتهلك
وكذلك سائر الناس لو جعل طعامهم معدا لهم بغير سعي ولا تعب لاخرجهم وجدانهم له كذلك
الى الشره والبطنة والاذى ولكثر الفساد وعمت الفواحش والعوادي في الارض فسبحان اللطيف
الخبير الذي لم يخلق شيئا سدى ولا عبثا وانظر في هذه الطير التي لا تخرج الا بالليل كالبوم والهام
والخفاش فان اقواتها هيئت لها في هذا الجو لا من الحب ولا من اللحم بل من البعوض والفراش واشباههما

مما يلتقطه

مما يلتقطه من الجو فياخذ منه بقدر حاجته ثم تاوي الى بيوتها فلا تخرج الى مثل ذلك الوقت من
الليل وذلك ان هذه الضروب من البعوض والفراش واشباهها مبثوثة في الجو لا يكاد يخلو منها
موضع منه واعتبر ذلك بانك اذا وضعت سراجا بالليل في سطح او عرصة الدار فتجتمع عليه من هذا
الضرب شيء كثير وهذا الضرب من الفراش ونحوها ناقص الفطنة ضعيف الحيلة ليس في الطير
اضعف منه ولا اجهل وفيما ترى من تهافته في النار وانت تطرده عنها حتى يحرق نفسه دليل على
ذلك فجعل معاش هذه الطيور التي تخرج بالليل من هذا الضرب فتقتات منه فاذا اتى لها النهار انقطعت
الى اوكارها فالليل لها بمنزلة النهار لغيرها من الطير ونهارها ليل غيرها ومع ذلك فسبحان — بمنزلة
الذي تكفل بارزاق خلقه رزقها وخلقه لها في الجو ولم يدعها بلا رزق مع ضعفها وعجزها وهذه
احد الحكم والفوائد في خلق هذه الفراش والجنادب والبعوض فكم فيها من رزق لامة تسبح بحمد ربها
ولولا ذلك لانتشرت وكثرت حتى اضرت بالناس ومنعتهم القرار فانظر الى عجيب تقدير الله تعالى
وتدبيره كيف اضطر العقول التي شهدت بربوبيته وقدرته وعلمه وحكمته وان ذلك الذي
شاهدته ليس باتفاق ولا باهمال من سائر وجوه الادلة التي لا تتمكن الفطر من جحدها اصلا وقد
جرى الكلام الى ذكر الخفاش من الحيوانات العجيبة الخلقة بين خلقة الطير وذوات الاربع وهو
الى ذوات الاربع اقرب فانه ذو اذنين ناشزتين واسنان ووبر وهو يلد ولادا ويرضع ويمشي
على اربع وكل هذه صفة ذوات الاربع وله جناحان يطير بهما مع الطيور ولما كان بصره يضعف
عن نور الشمس كان نهاره كليل غيره فاذا غابت الشمس انتشر ومن ذلك سمي ضعيف البصر اخفش
والخفش ضعف البصر ولما كان كذلك جعلت قوته من هذه الطيور الضعاف التي تطير بالليل وقد
زعم بعض من تكلم في الحيوان انه ليس يطعم شيئا وانما غذاوه من النسيم البارد فقط وهذا يرده عليه وعلى
الخلقة لانه يبول وقد تكلم الفقهاء في بوله هل هو نجس لانه غير ماكول او نجس معفو عن يسيره لمشقة — بوله م
التحرز منه على قولين هما روايتان عن الامام احمد وبعض الفقهاء لا ينجس بوله بحال وهذا اقيس
الاقوال اذ لا نص فيه ولا يصح قياسه على الابوال النجسة لعدم الجامع المؤثر ووضوح الفرق ه
وليس موضع استيفاء الحجج في هذه المسالة من الجانبين والمقصود انه لو كان لا ياكل شيئا لم يكن — هذا
له اسنان اذ لا معنى للاسنان في حق من لا ياكل شيئا ولهذا لما عدم الطفل الرضيع الاكل لم يعط
الاسنان فلما كبر واحتاج الى الغذاء اعين عليه بالاسنان التي تقطعه والاضراس التي تطحنه
وليس في الخليقة شيء مهمل ولا في الحكمة معطل ولا شيء لا معنى له واما الحكم والمنافع في خلق الخفاش

وقد ذكر منها الاطبا في كتبهم ما انتهت اليه معرفتهم حتى ان بوله يدخل في بعض المحال فاذا كان
هذا بوله الذي لا يخطر بالبال ان فيه منفعة البتة فما الظن بجملته ولقد اخبر بعض من نشهد بصدقه
انه راى رخلا وهو طاير معروف قد عشش في شجرة فنظر الى حية عظيمة قد اقبلت نحو عشه
فاتحة فاها لتبتلعه فبينا هو يضطرب في حيلة النجاة منها اذ وجد حسكة في العش فحملها فالقاها
في فم الحية فلم تزل تلتوي حتى ماتت **فصل** ثم تامل احوال النحل وما فيها من العبر والايات
فانظر اليها والى اجتهادها في صنعة العسل وبنائها البيوت المسدسة التي هي من اتم الاشكال
واحسنها استدارة واحكمها صنعا فاذا انضم بعضها الى بعض لم يكن بينها فرجة ولا خلل كل هذا
بغير مقياس ولا آلة ولا بركار وذلك من اثر صنع الله تعالى والهامه اياها وايحائه اليها كما قال
تعالى واوحى ربك الى النحل ان اتخذي من الجبال بيوتا ومن الشجر ومما يعرشون ثم كلي من كل الثمرات
فاسلكي سبل ربك ذللا يخرج من بطونها شراب مختلف الوانه فيه شفاء للناس ان في ذلك لاية لقوم يعقلون
فتامل كمال طاعتها وحسن ائتمارها لامر ربها كيف اتخذت بيوتها في هذه الامكنة الثلاثة
في الجبال والشقفان وفي الشجر وفي بيوت الناس حيث يعرشون اي يبنون العروش وهي البيوت
فلا يرى للنحل بيت غير هذه الثلاثة البتة وتامل كيف اكثر بيوتها في الجبال والشقفان وهو البيت
المقدم في الاية ثم الاشجار وهي من اكثر بيوتها ومما يعرش الناس اقل بيوتها بينهم حيث يعرشون واما في الجبال
والشجر فبيوت عظيمة يوخذ منها من العسل الكثير جدا وتامل كيف اداها حسن الامتثال الى ان اتخذت
البيوت قبل المرعى فهي تتخذ البيوت اولا فاذا استقر لها بيت خرجت منه فرعت واكلت من الثمرات
ثم اوت الى بيوتها لان ربها سبحانه امرها باتخاذ البيوت اولا ثم بالاكل بعد ذلك ثم اذا اكلت سلكت
سبل ربها مذللة لها لا يستوعر عليها شي ترعى ثم تعود ومن عجيب شانها ان لها اميرا يسمى اليعسوب
لا يتم لها رواح ولا اياب ولا عمل ولا مرعى الا به فهي مؤتمرة لامره سامعة له مطيعة وله عليها تكلف
وامر ونهي وهي رعية له منقادة لامره متبعة لرايه يدبرها كما يدبر الملك امر رعيته حتى انها اذا اوت
الى بيوتها وقف على باب البيت فلا يدع واحدة تزاحم اخرى ولا تتقدم عليها في العبور بل تعبر بيوتها
واحدة واحدة بغير تزاحم ولا تصادم ولا تراكم كما يفعل الامير اذا انتهى بعسكره الى معبر ضيق لا يجوزه
الا واحدا واحدا ومن تدبر احوالها وسياستها وهدايتها واجتماع شملها وانتظام امرها وتدبير ملكها
وتفويض كل عمل الى واحد منها يتعجب منها كل العجب ويعلم ان هذا ليس في مقدورها ولا هو من ذاتها
فان هذه اعمال محكمة متقنة في غاية الاحكام والاتقان فاذا نظرت الى العامل رايته من اضعف خلق الله

واجهله

واجهله بنفسه وبحاله واعجزه عن القيام بمصلحته فضلا عما يصدر منه من الامور العجيبة ومن عجيب
امرها ان فيها اميرين لا يجتمعان في بيت ولا يتامران على جمع واحد بل اذا اجتمع منها جندان واميران
قتلوا احد الاميرين وقطعوه واتفقوا على الامير الواحد من غير معاداة بينهم ولا اذى من بعضهم لبعض
بل يصيرون يدا واحدة وجندا واحدا **فصل** ومن عجيب امرها ما لا يهتدي اليه اكثر
الناس ولا يعرفونه وهو النتاج الذي يكون لها هل هو على وجه الولادة والتوالد او الاستحالة
فقل من يعرف ذلك او يفطن له وليس نتاجها على واحد من هذين الوجهين وانما نتاجها بامر من اعجب
العجب فانها اذا ذهبت الى المرعى اخذت تلك الاجزاء الصافية التي على الورق من الورد والزهر
والحشيش وغيره وهي الطل فتمصها وذلك مادة العسل ثم انها تلبس الاجزاء المنعقدة على وجه الورقة
وتعقدها على رجلها كالعدسة فتملا بها المسدسات الفارغة من العسل ثم تقوم يعسوبها على بيته
مستدبرا منه فتنفخ فيه ثم تطوف على تلك البيوت بيتا بيتا وتنفخ فيها كلها فتدب فيها الحياة باذن
الله عز وجل فتتحرك وتخرج طيورا باذن الله وتلك احدى الايات والعجائب التي قل من يفطن
لها وهذا كله من ثمرة ذلك الوحي الالهي اياها وكسبها هذا التدبير والتسخير والمعاش والبنا
والنتاج **فصل** المعطل الضال من الذي اوحى اليها امرها وجعل ما جعل في طباعها ومن الذي
سهل لها سبله ذللا منقادة لا تستعصي عليها ولا تستوعرها ولا تضل عنها على بعدها ومن الذي
هداها لشانها ومن الذي انزل لها من الطل ما اذا جنته ردته عسلا صافيا مختلفا الوانه في غاية
الحلاوة واللذاذة والمنفعة من بين ابيض يرى فيه الوجه اعظم من رؤيته في المراة ومنها الى [illegible]
به وقت هذا اجود ما يعرف الناس من العسل واصفاه واطيبه واذا طعمه الذايق يكون من
الحلاوة من بين احمر واخضر ومورد واسود واصفر وغير ذلك من الالوان والطعوم المختلفة فيه
بحسب مراعيه ومادتها واذا تاملت ما فيه من المنافع والشفاء ودخوله في غالب الادوية
حتى كان المتقدمون لا يعرفون السكر ولا هو مذكور في كتبهم اصلا وانما كان الذي يستعملونه
في الادوية هو العسل وهو المذكور في كتب القوم ولعمر الله انه لانفع من السكر واجدى واجلى
للاخلاط واقمع لها واذهب لضررها واقوى للمعدة واشد تفريحا للنفس وتقوية للارواح
وتنفيذا للدواء واعانة له على استخراج الداء من اعماق البدن ولهذا لا يجي في شي من الحديث
قط ذكر السكر ولا كانوا يعرفونه اصلا ولو عدم من العالم لما احتاج اليه ولو عدم العسل لاشتدت
الحاجة اليه وانما غلب على بعض المدن استعمال السكر حتى هجروا العسل واستطابوه عليه وراوه

اقل حدة وحرارة منه ولم يعلموا ان من منافع العسل ما فيه من الحدة والحرارة فاذا لم يوافق من يستعمله
كسرها بمقابلها فتصير انفع له من السكر وسنفرد ان شاء الله مقالة نبين فيها فضل العسل على السكر
من طرق عديدة لا تمنع وبراهين كثيرة لا تدفع ومتى رايت السكر يجلو البلغم او يذيب خلطا او يشفي
من داء وانما غايته بعض التنفيذ للدواء الى العروق للطافته وحلاوته واما الشفاء الحاصل من
العسل فقد حرمه الله لكثير من الناس حتى صاروا يذمونه ويخشون غائلته من حرارته وحدته
ولا ريب ان كونه شفاء وكون القران شفاء والصلاة شفاء وذكر الله والاقبال عليه شفاء امر لا يعم
الطبايع والانفس فهذا كتاب الله هو الشفاء النافع وهو اعظم الشفاء وما اقل المستشفين به
بل لا يزيد الطبايع الرديه الا رداءة ولا يزيد الظالمين الا خسارا وكذلك ذكر الله تعالى والاقبال
عليه والانابة اليه والفزع الى الصلاة كم قد شفي به من عليل وكم عوفي به من مريض وكم قام مقام
كثير من الادوية التي لا تبلغ قريبا من مبلغه في الشفاء وانت ترى كثيرا من الناس بل اكثرهم لا نصيب
لهم من الشفاء بذلك البتة اصلا ولقد رايت في بعض كتب الاطباء المسلمين في ذكر الادوية
المفردة ذكر الصلاة ذكرها في باب الصاد وذكر من منافعها في البدن التي توجب الشفاء وجوها
عديدة ومن منافعها في الروح والقلب وسمعت شيخنا ابا العباس ابن تيمية رحمه
الله تعالى يقول وقد عرض له بعض الالم فقال له الطبيب اضر ما عليك الكلام في العلم والفكر فيه
والتوجه والذكر فقال الستم تزعمون ان النفس اذا قويت وفرحت اوجب فرحها قوة تعين
بها الطبيعة على دفع العارض فانه عدوها فاذا قويت عليه قهرته فقال له الطبيب بلى
فقال وانا اذا اشتغلت نفسي بالتوجه والذكر والكلام في العلم وظفرت بما اشكل علي فيها وقويت
منه فرحت به فاوجب ذلك دفع العارض هذا او نحوه من الكلام والمقصود ان ترك كثير من
الناس الاستشفاء بالعسل لا يخرجه عن كونه شفاء كما ان القران شفاء لما في الصدور وان لم يستشف به اكثر المرضى
كما قال تعالى يا ايها الناس قد جاءتكم موعظة من ربكم وشفاء لما في الصدور وهدى ورحمة للمؤمنين
فعم بالموعظة والشفاء وخص بالهدى والرحمة فهو نفسه شفاء استشفي به او لم يستشف به ولم يصف
الله تعالى كتابا بالشفاء الا القران والعسل فهما الشفاءان هذا شفاء القلوب من امراض غيها
وضلالها وادواء شبهاتها وشهواتها وهذا شفاء للابدان من كثير من اسقامها واخلاطها
وافاتها ولقد اصابني ايام اقامتي بمكة اسقام مختلفة ولا طبيب هناك ولا ادوية كما في غيرها
من المدن فكنت استشفي بالعسل وماء زمزم ورايت فيهما من الشفاء امرا عجيبا وتامل اخباره سبحانه

عن

عن القران بانه شفاء وليس هذا موضع استقصاء فوائد العسل ومنافعه

فصل

ثم تامل العبرة التي ذكرها الله عز وجل في الانعام وما اسقانا من بطونها من اللبن الخالص السائغ الهني
المري الخارج من بين الفرث والدم وتامل كيف ينزل الغذاء من افواهها الى المعدة فينقلب بعضه
دما باذن الله وما يسري في عروقها واعضائها وشعورها ولحمها فاذا ارسلته العروق في مجاريها الى
جملة الاجزاء قلبه كل عضو وعصب وغضروف وشعر وظفر وحافر الى طبيعته ثم يبقى الدم
في تلك الخزاين التي له اذ به قوام الحيوان ثم ينصب ثفله الى الكرش فيصير زبلا ثم ينقلب باقيه لبنا
صافيا ابيض سائغا للشاربين فيخرج من بين الفرث والدم حتى اذا انهكت الشاة او غيرها حلبا
خرج الدم مشوبا بحمرة فصفى الله سبحانه الالطف من الثقل بالطبخ الاول فانفصل الى الكبد وصار
دما وكان مخلوطا بالاخلاط الاربعة فاذهب الله عز وجل كل خلط منها الى مقره وخزانته
المهياة له من المرارة والطحال والكلية وباقي الدم الخالص يدخل في اوردة الكبد فينصب من تلك
العروق الى الضرع فيقلبه الرب تبارك وتعالى من صورة الدم وطبعه وطعمه الى صورة اللبن
وطبعه وطعمه فاستخرج من الفرث والدم فسل المعطل الجاحد من الذي دبر هذا
التدبير وقدر هذا التقدير واتقن هذا الصنع ولطف هذا اللطف سوى اللطيف الخبير

فصل

ثم تامل العبرة في السمك وكيفية خلقته فانه خلق غير ذي قوائم لانه لا يحتاج
الى المشي اذ كان مسكنه الماء ولم يخلق له رئة لان منفعة الرئة التنفس والسمك لم يحتج اليه لانه
ينغمس في الماء وخلقت له عوض القوائم اجنحة شداد يقذف بها من جانبيه كما يقذف صاحب
المركب بالمقاذيف من جانبي السفينة وكسي جلده قشورا متداخلة كتداخل الجوشن ليقيه من الافات
واعين بقوة الشم لان بصره ضعيف والماء يحجبه فصار يشم الطعام من بعد فيقصده وقد ذكر
في بعض كتب الحيوان ان من فيه الى صماخه منافذ فهو يعب الماء فيها بفيه ويرسله من صماخيه
فيتروح بذلك كما ياخذ الحيوان من النسيم البارد بانفه ثم يرسله ليتروح به فان الماء للحيوان
البحري كالهواء للحيوان البري فهما بحران احدهما الطف من الاخر بحر هواء يسبح فيه حيوان البر
وبحر ماء يسبح فيه حيوان البحر فلو فارق كل من الصنفين بحره الى البحر الاخر مات فكما يختنق الحيوان
البري في الماء يختنق البحري في الهواء فسبحان من لا يحصي العادون اياته ولا يحيطون بتفصيل اية
منها على الانفراد بل ان علموا منها وجها جهلوا منها اوجها فتامل الحكمة البالغة في كون السمك
اكثر الحيوان نسلا ولهذا ترى في جوف السمكة الواحدة من البيض ما لا يحصى كثرة وحكمة ذلك

ان يتسع لما تعدى به من اصناف الحيوان فان اكثرها ياكل السمك حتى السباع لانها في حافات الآجام
حائمة تعلق على الماء الصافي فاذا تعذر عليها صيد البر رصدت السمك فاختطفته فلما كان السباع
تاكل السمك والطير ياكله والناس تاكله والسمك الكبار ياكله ودواب البر تاكله وقد جعله الله سبحانه
غذاء لهذه الاصناف اقتضت حكمته ان يكون بهذه الكثرة ولو رأى العبد ما في البحار من ضروب الحيوانات
والجواهر والاصناف التي لا يحصيها الا الله تعالى ولا يعرف الناس منها الا الشيء اليسير الذي لا نسبة
له اصلا الى ما غاب عنهم لرأى العجب العجيب ولعلم سعة ملك الله وكثرة جنوده التي لا يعلمها الا هو
هذا الجراد نثرة حوت من حيتان البحر يشره من منخريه وهو جند من جنود الله ضعيف الخلقة عجيب
التركيب فيه خلق سبع حيوانات فاذا رأيت عساكره قد اقبلت ابصرت جندا لا مرد له ولا يحصى منه
عدد ولا عدة فلو جمع الملك خيله ورجله ودوابه وسلاحه ليصده عن بلاده لما امكنه ذلك فانظر
كيف ينساب على الارض كالسيل فيغشى السهل والجبل والبدو والحضر حتى يستر نور الشمس بكثرته ويسد
وجه السماء باجنحته ويبلغ من الجو الى حيث لا يبلغ طائر اكبر جناحين منه فسل
المعطل من الذي بعث هذا الجند الضعيف الذي لا يستطيع ان يرد عن نفسه حيوانا رام اخذه بعينه
على العسكر اهل القوة والكثرة والعدد والعدة والحيلة فلا يقدرون باجمعهم على دفعه بل ينظرون
اليه يستبد باقواتهم دونهم ويمزقها كل ممزق ويذر الارض قفرا منها وهم لا يستطيعون ان يردوه ولا
يحولوا بينه وبينها وهذا من حكمته سبحانه ان يسلط الضعيف من خلقه الذي لا مؤنة له على القوي
فينتقم به منه وينزل به ما كان يحذره منه حتى لا يستطيع لذلك ردا ولا صرفا قال الله تعالى
ونريد ان نمن على الذين استضعفوا في الارض ونجعلهم ائمة ونجعلهم الوارثين ونمكن لهم في الارض
ونري فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون فواحسرتاه على استقامة مع الله وايثار
لمرضاته في كل حال يمكن به للضعيف المستضعف حتى يرى من استضعفه انه اولى بالله ورسوله منه
ولكن اقتضت حكمة العزيز الحكيم ان ياكل الظالم الباغي ويتمتع في خفارة ذنوب المظلوم المبغي
عليه فذنوبه من اعظم اسباب الرحمة في حق ظالمه كما ان المسؤول اذا رد السائل فهو في خفارة كذبه
ولو صدق السائل لما افلح راده وكذلك السارق وقاطع الطريق في خفارة منع اصحاب
الاموال حقوق الله فيها ولو ادوا ما لله عليهم فيها لحفظها الله عليهم وهذا ايضا باب عظيم من
حكم الله يطلع الناظر فيه على اسرار من اسرار التقدير وتسليط العالم بعضهم على بعض وتمكين الجناة
والبغاة فسبحان من له في كل شيء حكمة بالغة واية باهرة حتى ان الحيوانات العادية على الناس

موضع درك الظالم في خفارة ذنوب المظلوم

١٢ اموالهم

اموالهم وارزاقهم وابدانهم تعيش في خفارة ما كسبت ايديهم ولولا ذلك لم تسلط عليهم منها شيء ولعل
هذا الفصل الطردي انفع لمتامله من كثير من الفصول المتقدمة فانه اذا اعطاه حقه من النظر والعلم
عظم انتفاعه به جدا والله الموفق ويحكى ان بعض اصحاب الماشية كان يشوب اللبن ويبيعه على
انه خالص فارسل الله عليه سيلا فذهب بالغنم فجعل يعجب فاتي في منامه فقيل له اتعجب من
اخذ السيل غنمك انه تلك القطرات التي شيبت بها اللبن اجتمعت فصارت سيلا فقس على هذه
الحكاية ما تراه في نفسك وفي غيرك تعلم حينئذ ان الله قائم بالقسط وانه قائم على كل نفس بما كسبت
وانه لا يظلم مثقال ذرة والاثر الاسرائيلي معروف ان رجلا كان يشوب الخمر ويبيعه على انه خالص
فجمع من ذلك كيس ذهب وسافر به فركب البحر ومعه قرد له فلما نام اخذ القرد الكيس
وصعد به الى اعلى المركب ثم فتحه وجعل يلقي دينارا في الماء ودينارا في المركب كانه يقول له بلسان
الحال ثمن الماء صار الى الماء ولم تظلمك وتأمل الحكمة في حبس الله عز وجل الغيث عن عباده
وابتلائهم بالقحط اذا منعوا الزكاة وحرموا المساكين كيف جوزوا على منع ما للمساكين قبلهم من القوت
بمنع الله مادة القوت والرزق وحبسها عنهم فقال لهم بلسان الحال منعتم الحق فمنعتم الغيث
فهلا استنزلتموه ببذل ما لله قبلكم وتأمل حكمة الله تعالى في صرفه الهدى والايمان عن قلوب
الذين يصرفون الناس عنه فصدهم عنه كما صدوا عباده صدا بصد ومنعا بمنع وتأمل
حكمته تعالى في محق اموال المرابين وتسليط المتلفات عليها كما فعلوا باموال الناس ومحقوها عليهم
واتلفوها بالربا جوزوا اتلافا باتلاف فقل ان ترى مرابيا الا وآخرته الى محق وقلة وحاجة
وتأمل حكمته تعالى في تسليط العدو على العباد اذا جار قويهم على ضعيفهم ولم يؤخذ للمظلوم حقه
من ظالمه كيف يسلط عليهم من يفعل بهم كفعلهم برعاياهم وضعفائهم سواء وهذه سنته تعالى منذ
قامت الدنيا الى ان تطوى الارض ويعيدها كما بداها وتأمل حكمته تعالى في ان جعل ملوك العباد
وامراءهم وولاتهم من جنس اعمالهم بل كأن اعمالهم ظهرت في صور ولاتهم وملوكهم فان استقاموا استقامت
ملوكهم وان عدلوا عدلت عليهم وان جاروا جارت ملوكهم وولاتهم وان ظهر فيهم المكر والخديعة
فولاتهم كذلك وان منعوا حقوق الله لديهم وبخلوا بها منعت ملوكهم وولاتهم ما لهم عندهم من الحق وبخلوا
بها عليهم وان اخذوا ممن يستضعفونه ما لا يستحقونه في معاملتهم اخذت منهم الملوك ما لا يستحقونه
وضربوا عليهم المكوس والوظائف وكلما يستخرجونه من الضعيف يستخرجه الملوك منهم بالقوة فعمالهم
ظهرت في صور اعمالهم وليس في الحكمة الالهية ان يولي على الاشرار الفجار الا من يكون من جنسهم ولما

كان الصدر الأول خيار القرون وأبرها كانت ولاتهم كذلك فلما شابوا شيبت لهم الولاة فحكمة الله تعالى
تأبى أن يولي علينا في هذه الأزمان مثل معاوية وعمر بن عبد العزيز فضلاً عن مثل أبي بكر وعمر بل ولاتنا
على قدرنا وولاة من قبلنا على قدرهم وكل من الأمرين موجب الحكمة ومقتضاها ومن له فطنة إذا سافر بفكره في
هذا الباب رأى الحكمة الإلهية سائرة في القضاء والقدر ظاهرة وباطنة فيه كما في الخلق والأمر سواء
فإياك أن تظن بظنك الفاسد أن شيئاً من أقضيته وأقداره عارٍ عن الحكمة البالغة بل جميع أقضيته
تعالى وأقداره واقعة على أتم وجوه الحكمة والصواب ولكن العقول الضعيفة محجوبة بضعفها عن إدراكها
كما أن الأبصار الخفاشية محجوبة بضعفها عن ضوء الشمس وهذه العقول الضعاف إذا صادفها
الباطل جالت فيه وصالت ونطقت وقالت كما أن الخفاش إذا صادفه ظلام الليل طار وسار

خفافيش أعشاها النهار بضوئه ... ولازمها قطع من الليل مظلم

وتأمل حكمته تبارك وتعالى في عقوبات الأمم الخالية وتنويعها عليهم بحسب تنوع جرائمهم
كما قال تعالى وعاداً وثموداً وقد تبين لكم من مساكنهم وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن
السبيل وكانوا مستبصرين وقارون وفرعون وهامان ولقد جاءهم موسى بالبينات فاستكبروا في
الأرض وما كانوا سابقين فكلاً أخذنا بذنبه فمنهم من أرسلنا عليه حاصباً ومنهم من أخذته الصيحة
ومنهم من خسفنا به الأرض ومنهم من أغرقنا وما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ق
وتأمل حكمته تعالى في مسخ من مسخ من الأمم في صور مختلفة مناسبة لتلك الجرائم فإنهم لما مسخت
قلوبهم وصارت على قلوب تلك الحيوانات وطباعها اقتضت الحكمة البالغة أن جعلت صورهم على
صورها لتتم المناسبة ويكمل الشبه وهذا غاية الحكمة واعتبر هذا بمن مسخوا قردة وخنازير
كيف غلبت عليهم صفات هذه الحيوانات وأخلاقها وأعمالها ثم إن كنت من المتوسمين فاقرأ هذه
النسخة من وجوه أشباههم ونظرائهم كيف تراها بادية عليها وإن كانت مستورة بصورة الإنسانية
فاقرأ نسخة القردة من صور أهل المكر والخديعة والفسق الذين لا عقول لهم بل هم أخف الناس
عقولاً وأعظمهم مكراً وخداعاً وفسقاً فإن لم تقرأ نسخة القردة من وجوههم فلست من المتوسمين
واقرأ نسخة الخنازير من صور أشباههم ولا سيما أعداء خيار خلق الله بعد الرسل وهم أصحاب رسول الله
صلى الله عليه وسلم فإن هذه النسخة ظاهرة على وجوه الرافضة يقرأها كل مؤمن كاتب وغير كاتب
وهي تظهر وتخفى بحسب خنزيرية القلب وخبثه فإن الخنزير أخبث الحيوانات وأردأها طباعاً
ومن خاصته أنه يدع الطيبات فلا يأكلها ويقوم الإنسان عن رجيعه فيبادر إليه فتأمل مطابقة

هذا

هذا الوصف لأعداء الصحابة كيف تجده منطبقاً عليهم فإنهم عمدوا إلى أطيب خلق الله وأطهرهم
فعادوهم وتبرؤوا منهم ثم والوا كل عدو لهم من النصارى واليهود والمشركين فاستعانوا في كل زمان
على حرب المؤمنين الموالين لأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمشركين والكفار وصرحوا بأنهم خير
منهم فأي شبه ومناسبة أولى بهذا الضرب من الخنازير فإن لم تقرأ هذه النسخة من وجوههم فلست
من المتوسمين وأما الأخبار التي تكاد تبلغ حد التواتر بمسخ من مسخ منهم عند الموت جداً
فأكثر من أن نذكرها هنا وقد أفرد لها الحافظ محمد بن عبد الواحد المقدسي كتاباً وتأمل حكمته تعالى
في عذاب الأمم السالفة بعذاب الاستئصال لما كانوا أطول أعماراً وأعظم قوى وأعتى على الله وعلى
رسله فلما تقاصرت الأعمار وضعفت القوى رفع عذاب الاستئصال وجعل عذابهم بأيدي المؤمنين
فكانت الحكمة في كل واحد من الأمرين ما اقتضته في وقته وتأمل حكمته تبارك وتعالى في إرسال
الرسل في الأمم واحداً بعد واحد كلما مات واحد خلفه آخر لحاجتها إلى تتابع الرسل والأنبياء
لضعفها في عقولها وعدم اكتفائها بآثار شريعة الرسول السابق فلما انتهت النبوة إلى محمد بن عبد الله
رسول الله صلى الله عليه وسلم ونبيه فأرسله إلى أكمل الأمم عقولاً ومعارف وأصحها أذهاناً وأغزرها
علوماً وبعثه بأكمل شريعة ظهرت في الأرض منذ قامت الدنيا إلى حين مبعثه فأغنى الله الأمة بكمال
رسولها وكمال شريعته وكمال عقولها وصحة أذهانها عن رسول يأتي بعده وأقام له من أمته ورثة
يحفظون شريعته ووكلهم بها حتى يؤدوها إلى نظرائهم ويزرعوها في قلوب أشباههم فلم يحتاجوا
معه إلى رسول آخر ولا نبي ولا محدث ولهذا قال صلى الله عليه وسلم إنه قد كان في الأمم قبلكم محدثون
فإن يكن من أمتي أحد فعمر فجزم بوجود المحدثين في الأمم وعلق وجوده في أمته بحرف الشرط وليس بنقصان هداة
لأمته عمن قبلهم بل هذا من كمال أمته على من قبلها فإنها لكمالها وكمال نبيها وكمال شريعته لا تحتاج إلى
محدث بل إن وجد فهو صالح للمتابعة والاستشهاد لا أنه عمدة لأنها في غنية بما بعث الله به نبيها عن كل
منام أو إلهام أو مكاشفة أو تحديث وأما من قبلها فللحاجة إلى ذلك جعل فيهم المحدثون ولا تظن أن
تخصيص عمر رضي الله عنه بهذا تفضيل له على أبي بكر الصديق رضي الله عنه بل هذا من أقوى مناقب الصديق فإنه
لكمال مشربه من حوض النبوة وتمام رضاعه من ثدي الرسالة استغنى بذلك عما يتلقاه من تحديث وغيره
فالذي يتلقاه من مشكاة النبوة أتم من الذي يتلقاه عمر من التحديث فتأمل هذا الموضع وأعطه حقه
من المعرفة وتأمل ما فيه من الحكمة البالغة الشاهدة لله بأنه الحكيم الخبير وأن رسوله صلى الله عليه وسلم
أكمل خلقه وأكملهم شريعة وأن أمته أكمل الأمم وهذا فصل معترض وهو من أنفع فصول الكتاب ولو

الاطالة لو تتبعنا فيه المقال واكثرنا فيه من الشواهد والامثال ولعل يفتح الله الكريم فيه الباب وارشد فيه الى الصواب وهو المرجو لتمام نعمته ولا قوة الا به

فصل فاعد الان النظر فيك وفي نفسك مرة ثانية من الذي دبرك بالطف التدبير وانت جنين في بطن امك في موضع لا يد تنالك ولا بصر يدركك ولا حيلة لك في التماس الغذاء ولا في دفع الضرر فمن الذي اجرى اليك من دم الام ما يغذوك كما يغذو الماء النبات وقلب ذلك الدم لبنا ولم يزل يغذيك به في اضيق المواضع وابعدها من حيلة التكسب والطلب حتى اذا كمل خلقك واستحكم وقوي اديمك على مباشرة الهواء وبصرك على ملاقاة الضياء وصلبت عظامك على مباشرة الايدي والتقلب على الغبراء هاج الطلق بامك فازعجك الى الخروج ايما ازعاج الى عالم الابتلاء فركضك الرحم ركضة من مكانه كانه لم يضمك قط ولم يشتمل عليك فيا بعد ما بين ذلك القبول والاشتمال حين وضع نطفة وبين هذا الدفع والطرد والاخراج وكان مبتهجا بحملك فصار يستغيث ويعج الى ربه من ثقلك فمن الذي فتح له بابه حتى ولجت ثم ضمه عليك حتى حفظت وكملت ثم فتح لك ذلك الباب ووسعه حتى خرجت منه كلمح البصر لم يخنقك ضيقه ولم يحبسك صعوبة طريقك فيه فلو تاملت حالك في دخولك من ذلك الباب وخروجك منه لاذهلك العجب كل مذهب فمن الذي اوحى اليه ان يضايق عليك وانت نطفة حتى لا تفسد هناك ثم اوحى اليه ان يتسع لك وينفسح حتى تخرج منه سليما الى ان خرجت فريدا وحيدا ضعيفا لا قشر ولا لباس ولا متاع ولا مال احوج خلق الله واضعفهم وافقرهم فصرف ذلك اللبن الذي كنت تتغذى به في بطن امك الى خزانتين معلقتين على صدرها تحمل غذاءك على صدرها كما حملتك في بطنها ثم ساقه الى تلك الخزانتين الطف سوق على مجار وطرق قد تهيأت له فلا يزال واقفا في طرقه ومجاريه حتى تستوفي ما في الخزانة فيجري وينساق اليك فهو بير لا تنقطع مادتها ولا تنسد طرقها يسوقها اليك في طرق لا تهتدي اليها الطواف ولا يسلكها الرجال فمن رققه لك وصفاه واطاب طعمه وحسن لونه واحكم طبخه اعدل الاحكام لا بالحار المؤذي ولا البارد المردي ولا المر ولا المالح ولا الكريه الرائحة بل قلبه الى ضرب آخر من التغذية والمنفعة خلاف ما كان في البطن فوافاك في اشد اوقات الحاجة اليه على حين ظماء شديد وجوع مفرط جمع لك فيه بين الشراب والغذاء فحين تولد قد تلمظت وحركت شفتيك للرضاع فتجد الثدي المعلق كالاداوة قد تدلى اليك واقبل بدره عليك ثم جعل في راسه تلك الحلمة التي هي بمقدار صغر فمك فلا تضيع عنها ولا يتعب بالتقامها ثم نقب لك في راسها نقبا لطيفا بحسب احتمالك ولم يوسعه فتختنق باللبن ولم تضيقه فتمصه بكد بل جعله بقدر اقتضته حكمته ومصلحتك فمن عطف عليك قلب الام ووضع لك فيه الحنان العجيب والرحمة الباهرة حتى يكون في اهنى ما يكون من شانها وراحتها ومقيلها فاذا احست

منك بادنى صوت او بكاء قامت اليك وآثرتك على نفسها على مدى الانفاس منقادة اليك بغير قائد ولا سائق الا قائد الرحمة وسائق الحنان تود لو ان كل ما يولمك بجسمها وانه لم يطرقك منه شيء وان حياتها تزاد في حياتك فمن الذي وضع ذلك في قلبها حتى اذا قوي بدنك واتسعت امعاؤك وخشنت عظامك وصح في فمك آلة القطع والطحن فنبت لك اسنانا تقطع بها الطعام وطواحين تطحنه بها فمن الذي حبسها عنك ايام ارضاعك رحمة بامك ولطفا بها ثم اعطاكها ايام اكلك رحمة بك واحسانا اليك ولطفا بك فلو انك خرجت من البطن ذا سن وناب وناجذ وضرس كيف كانت حال امك بك ولو انك منعتها وقت الحاجة اليها كيف كانت حالك بهذه الاطعمة التي لا تسيغها الا بعد تقطيعها وطحنها وكلما ازددت قوة وحاجة الى الافتنان في اكل المطاعم المختلفة زيد لك في تلك الالة حتى تنتهي الى النواجذ فتطحن بها اللحم وتقطع الخبز وتكسر الصلب ثم اذا ازددت قوة زيد لك فيها حتى تنتهي الى الطواحين التي هي اخر الاضراس فمن الذي ساعدك بهذه الالات واتحفك بها ومكن لك بها من ضروب الغذاء ثم ان اقتضت حكمته تعالى ان اخرجك من بطن امك لا تعلم شيئا بل غبيا لا عقل ولا فهم ولا علم وذلك من رحمته بك فانك على ضعفك لا تحتمل العقل والفهم والمعرفة بل كنت تمزق وتتصدع بل جعل ذلك ينشأ فيك بالتدريج شيئا فشيئا فلا يصادفك ذلك وهلة واحدة بل يصادفك يسيرا يسيرا حتى يتكامل فيك واعتبر ذلك بان الطفل اذا سبي صغيرا من بلده وبين ابويه ولا عقل له فانه لا يهتم لذلك وكلما كان اقرب الى العقل كان اشق عليه واصعب حتى اذا كان محتنكا عاقلا تراه كالواله الحيران ثم لو ولدت عاقلا فهما كحالك في كبرك لتنغصت عليك حياتك اعظم تنغص وتنكدت اعظم تنكد لانك ترى نفسك محمولا رضيعا معصبا بالخرق مربطا بالقمط مسجونا في المهد عاجزا ضعيفا عما يحاوله الكبير فكيف كان يكون حالك مع عقلك التام في هذه الحال ثم لم يكن يوجد لك من الحلاوة واللطافة والوقع في القلب والرحمة بك ما يوجد للمولود الطفل بل يكون انكد خلق الله واثقلهم واعنتهم واكثرهم فضولا وكان دخولك هذا العالم واستغنائك لا تعقل شيئا ولا تعلم ما فيه واهله محض الحكمة والرحمة والتدبير فتلقى الاشياء بذهن ضعيف ومعرفة ناقصة ثم لا تزال تتزايد فيك العقل والمعرفة شيئا فشيئا حتى تالف الاشياء وتتمرن عليها فتخرج من التامل لها والحيرة فيها وتستقبلها بحسن التصرف فيها والتدبير لها والاتقان لها وفي ذلك وجوه اخر من الحكمة غير ما ذكرناه فمن هذا الذي هو قيم عليك بالمرصاد من رصدك حتى يوافيك كل شيء من المنافع والاراب والالات في وقت حاجتك اليها ولا يقدمها عن وقتها ولا يؤخرها عنه ثم انه اعطاك الاظفار وقت حاجتك اليها لمنافع شتى فانها تعين الاصابع وتقويها فان اكثر العمل انما كان

ما احتجاب الانامل عن الاصابع الا لهذا السر [illegible]
[illegible]

ولم يتعرض الملك للشبه الذي للطبيعة فيه مدخل ولا يرى عبد الله بن سلام لم يسأل إلا عن الشبه الذي يمكن الجواب عنه ولم يسأل عن الإذكار والإيناث مع أنه أبلغ من الشبه فالله أعلم وإن كان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد قاله فهو عين الحق وعلى كل تقدير فهو يبطل ما زعمه بعض الطبائعيين من معرفة أسباب الإذكار والإيناث والله أعلم

فصل فانظر كيف جعلت آلات الجماع في الذكر والأنثى جميعا على وفق الحكمة فجعلت في الذكر آلة ناشرة تمتد حتى توصل المني إلى قعر الرحم بمنزلة من يناول غيره شيئا فهو يمد يده إليه حتى يوصله إياه ولا يحتاج إلى أن يقذف ماءه في قعر الرحم وأما الأنثى فجعل لها وعاء مجوف لأنها تحتاج إلى أن تقبل ماء الرجل وتمسكه وتشتمل عليه فأعطيت الآلة التي تليق بها ثم لما كان ماء الرجل يتحدر من أجزاء الجسد بقي ضعيفا لا يخلق منه الولد فجعل له آلة الأنثيين وعاء يطبخ فيهما ويحكم انضاجه فيشتد وينعقد ويصير قابلا لأن يكون مبدأ التخليق ولم تحتج المرأة إلى ذلك لأن رقة مائها ولطافته إذا مازج غلظ ماء الرجل وشدة قوي به واستحكم ولو كان الماءان رقيقين ضعيفين لم يتكون الولد منهما وخص الرجل بآلة النضج والطبخ لحكم منها أن حرارته أقوى والأنثى باردة فلو أعطيت تلك الآلة لم تستحكم طبخ الماء الماء وإنضاجه فيها ومنها أنها لا تخرج عن محله بل يترك من بين ترائبها إلى محله بخلاف ماء الرجل فلو أعطيت المرأة تلك الآلة لكانت تحتاج إلى آلة أخرى توصل بها إلى محله ومنها أنها لما كانت محلا للجماع أعطيت من الآلة ما يليق بها فلو أعطيت آلة الرجل لم يحصل لهما اللذة والاستمتاع بها ولكانت تلك الآلة معطلة بغير منفعة فالحكمة التامة فيما وجدت خلقة كل منهما عليه ٥

فصل ثم ارجع الآن إلى نفسك وكرر النظر فيك فهو يكفيك وتأمل أعضاءك وتقدير كل عضو منها للأرب والمنفعة المهيأة لها فاليدان للعلاج والبطش والأخذ والعطاء والمحاربة والدفع والرجلان لحمل البدن والسعي والركوب وانتصاب القامة والعينان للاهتداء والجمال والزينة والملاحة ورؤية ما في السموات والأرض وآياتهما وعجائبهما والفم للغذاء والكلام والجمال وغير ذلك والأنف للتنفس ولإخراج فضلات الدماغ وزينة للوجه واللسان للبيان والترجمة عنك والأذنان صاحبا الأخبار يؤديانها إليك فاللسان رسول الجوارح والأذنان رسولان من خارج إليك فهما يؤديان إليك واللسان يبلغ عنك والمعدة خزانة يستقر فيها الغذاء فتطبخه وتنضجه وتصلحه صلاحا آخر وطبخا آخر غير الإصلاح والطبخ الذي تولته من خارج فأنت تعاني إنضاجه وطبخه وإصلاحه من خارج حتى تظن أنه قد كمل وأنه قد استغنى عن طبخ آخر وإنضاج آخر وطباخه الداخل ومنضجه يعاني من نضجه وطبخه ما لا تهتدي إليه ولا تقدر عليه فهو يوقد عليه نيرانا تذيب الحصا وتذيب ما لا تذيبه النار وهي في ألطف موضع منك لا تحرقك

ولا

ولا تلتهب عليك وهي أشد حرارة من النار وإلا فما يذيب هذه الأطعمة الغليظة الشديدة جدا حتى تجعلها ماء ذائبا وجعل الكبد للتخليص وأخذ صفو الغذاء والطفه ثم رتب منها مجاري وطرقا يسوق بها الغذاء إلى كل عضو وعظم وعصب ولحم وشعر وظفر وجعل المنافذ والأبواب لإدخال ما ينفعك وإخراج ما يضرك وجعل الأوعية المختلفة خزائن للدم وجعل منها خزائن مؤديات للأخلاط فالخزائن للأخر فجعل خزانة للمرة السوداء وأخرى للمرة الصفراء وأخرى للبول وأخرى للمني وتأمل حال الطعام في وصوله إلى المعدة وكيف يسري منها في البدن فإنه إذا استقر فيها اشتملت عليه وانضمت فتطبخه وتجيد صنعه ثم تبعثه إلى الكبد في مجار دقاق وقد جعل بين الكبد وبين تلك المجاري غشاء كالمصفاة الضيقة المنافذ يصفيه فلا يصل إلى الكبد منه شيء غليظ خشن فينكأها لأن الكبد رقيقة لا تحتمل الغليظ فإذا قبلته الكبد أنفذته إلى البدن كله في مجار مهيأة له بمنزلة المجاري المعدة للماء ليسلك في الأرض فيعمها بالسقي ثم تبعث ما بقي من الخبث والفضول إلى مغايض ومصارف قد أعدت لها فما كان من مرة صفراء بعثت به إلى المرارة وما كان من مرة سوداء بعثت به إلى الطحال وما كان من الرطوبة المائية بعثت به إلى المثانة فمن الذي تولى ذلك كله وأحكمه ودبره وقدره أحسن تقدير وكأني بك أيها المسكين تقول هذا كله من فعل الطبيعة وفي الطبيعة عجائب وأسرار فلو أراد الله أن يهديك لسألت نفسك بنفسك وقلت أخبرني عن هذه الطبيعة أهي ذات قائمة بنفسها لها علم وقدرة على هذه الأفعال العجيبة أم ليست كذلك بل عرض وصفة قائمة بالمطبوع تابعة له محمولة فيه فإن قالت لك بل هي ذات قائمة بنفسها لها العلم التام والقدرة والإرادة والحكمة فقل لها هذا هو الخالق البارئ المصور فلم تسميه طبيعة ويا لله عن ذكر الطبائع يرغب فيها فهلا سميته بما سمى به نفسه على ألسن رسله ودخلت في جملة العقلاء والسعداء فإن هذا الذي وصفت به الطبيعة صفته تعالى وإن قالت لك بل الطبيعة عرض محمول مفتقر إلى حامل وهذا كله فعلها بغير علم منها ولا إرادة ولا قدرة ولا شعور أصلا وقد شوهد من آثارها ما شوهد فقل لها هذا ما لا يصدقه ذو عقل سليم كيف تصدر هذه الأفعال العجيبة والحكم الدقيقة التي تعجز عقول العقلاء عن معرفتها وعن القدرة عليها ممن لا عقل له ولا قدرة ولا حكمة ولا شعور وهل التصديق بمثل هذا إلا دخول في سلك المجانين والمبرسمين ثم قل لها بعد ولو ثبت لك ما ادعيت فمعلوم أن مثل هذه الصفة ليست خالقة لنفسها ولا مبدعة لذاتها فمن ربها ومبدعها وخالقها ومن طبعها وجعلها تفعل ذلك فهي إذا من أدل الدليل على بارئها وفاطرها وكمال قدرته وعلمه وحكمته فلم يجد عليك تعطيلك رب العالم وجحدك لصفاته وأفعاله إلا مخالفتك لموجب العقل والفطرة ولو حاكمناك إلى الطبيعة لرأيناك أنك خارج عن موجبها فلا أنت مع موجب العقل

ولا الفطن ولا الطبيعة ولا الانسانية اصلا ولقي بذلك جهلا وضلالا فان رجعت الى العقل
وقلت لا توجد حكمة الا من حليم قادر عليم ولا تدبير متقن محكم الا من صانع قادر مختار مدبر عليم
بما يدبر قادر عليه لا يعجز ولا يصعب عليه ولا يوده فقيل لك فقد اقررت ويحك بالخالق
العظيم الذي لا اله غيره ولا رب سواه فدع تسميته طبيعة او عقلا فعالا او موجبا بذاته وقل هو الله
هو الله الخالق البارئ المصور رب العالمين وقيوم السموات والارضين ورب المشارق والمغارب الذي احسن
كل شيء خلقه واتقن ما صنع فما لك جحدت اسماءه وصفاته بل وذاته واضفت صنعه الى غيره وخلقه
الى سواه مع انك مضطر الى الاقرار به واضافة الابداع والخلق والربوبية والتدبير اليه ولا بد فالحمد لله رب
العالمين على انك لو تاملت قولك طبيعة ومعنى هذه اللفظة لدلك على الخالق البارئ لفظها كما دل العقول
عليه لمعناها لان طبيعة فعيلة بمعنى مفعولة اي مطبوعة ولا يحتمل غير هذا البتة لانها على بناء الغرائز التي
ركبت في الجسم ووضعت فيه كالسجية والغريزة والنحيزة والسليقة والطبيعة فهي التي طبع عليها الحيوان وطبعت
فيه ومعلوم ان طبيعة من غير طابع لها محال فقد دل لفظ الطبيعة على البارئ تعالى كما دل معناها عليه
والمسلمون يقولون ان الطبيعة خلق من خلق الله مسخر مربوب وهي سنته في خليقته التي اجراها عليها ثم انه يتصرف
فيها كيف شاء وكما شاء فيسلبها تاثيرها اذا اراد ويقلب تاثيرها الى ضده اذا شاء ليري عباده انه وحده
الخالق البارئ المصور وانه يخلق ما يشاء كما يشاء وانما امره اذا اراد شيئا ان يقول له كن فيكون وان الطبيعة التي
انتهى نظر الخفافيش اليها انما هي خلق من خلقه بمنزلة سائر مخلوقاته فكيف يحسن بمن له حظ من عقل او
انسانية ان ينسى من طبعها وخلقها ويحيل الصنع والابداع عليها ولم يزل الله عز وجل يسلبها قوتها ويحيلها
ويقلبها الى ضد ما جعلت له حتى يري عباده انها خلقه وصنعه مسخرة بامره الا له الخلق والامر تبارك الله رب
العالمين **فصل** فاعد النظر في نفسك وتامل حكمة اللطيف الخبير في تركيب البدن ووضع هذه الاعضاء
مواضعها منه واعدادها لما اعدت له واعداد هذه الاوعية المعدة لحمل الفضلات وجمعها لكيلا تنتشر
في البدن فتفسده ثم تامل الحكمة البالغة في تمسك ولين اجزائك من غير تفكك ولا تفصيل ولو ان
صائغا اخذ تمثالا من ذهب او فضة او نحاس فاراد ان يجعله اكثر مما هو او اقل كان يمكنه ذلك الا بعد
ان يكسره ويصوغه صياغة اخرى والرجال ينمي جسم الطفل واعضاؤه الظاهرة والباطنة وجميع اجزائه
وهو باق على شكله وهيئته لا يتزايل ولا يتفكك ولا ينقص واعجب من هذا كله تصويره في الرحم حيث لا تراه
العيون ولا تلمسه الايدي ولا تصل اليه الالات فيخرج منها سويا مستوفيا لكل ما فيه صلاحه وقوامه من عضو وحاسة
واحشا والبدن الاحشاء والجوارح والحوامل والاعصاب والرباطات والاعصبة والعظام المختلفة الشكل والقدر

والمنفعة والموضع الى غير ذلك من اللحم والشحم والمخ وما في ذلك من دقيق التركيب ولطيف الخلقة وخفي
الحكمة وبديع الصنعة كل هذا صنع الله احسن الخالقين في قطرة من ماء مهين وما ذكر علمك في كتابه مبدا
خلقك واعادته ودعاك الى التفكر فيه لما فيه من العبرة والمعرفة فلا تستطل هذا الفصل وما فيه من نوع
تكرار مشتمل على مزيد فائدة فان الحاجة اليه ماسة والمنفعة به عظيمة فانظر ما خصك به وفضلك به
على البهائم المهملة اذ خلقك على هيئة تنتصب فائما وتستوي جالسا وتستقبل الاشياء بيديك وتقبل عليها
بجملتك فيمكنك العمل والصلاح والتدبير ولو كنت كذوات الاربع المكبوبة على وجوهها لم تظهر لك فضيلة
التمييز والاختصاص ولم يتهيا منك ما تهيا من هذه النصبة قال تعالى ولقد كرمنا بني ادم
وحملناهم في البر والبحر وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا فسبحان من البس خلع الكرامة كلها
لبني ادم من العقل والعلم والبيان والنطق والشكل والصورة الحسنة والهيئة الشريفة والقد المعتدل
واكتساب العلوم بالاستدلال والفكر واقتناص الاخلاق الشريفة الفاضلة بالبر والطاعة والانقياد
فكم بين حاله وهو نطفة داخل الى الرحم مستودع هناك وبين حاله والملك يدخل به على ربه عز وجل في
جنات النعيم فتبارك الله احسن الخالقين فالدنيا قرية والمؤمن رئيسها والكل مشغول به ساع في مصالحه
مسخر له والملائكة الذين هم حملة
عرش الرحمن ومن حوله يستغفرون له والملائكة الموكلون به يحفظونه والموكلون بالقطر
والنبات يسعون في رزقه ويعملون فيه والافلاك مسخرة منقادة دائرة بما فيه مصالحه والشمس
والقمر والنجوم مسخرات جاريات بحساب ازمنته واوقاته واصلاح رواتب اقواته والعالم الجوي
مسخر له برياحه وهوائه وسحابه وطيره وما اودع فيه والعالم السفلي كله مسخر له مخلوق لمصالحه ارضه
وجباله وبحاره وانهاره واشجاره وثماره ونباته وحيوانه وكل ما فيه كما قال تعالى الله الذي
سخر لكم البحر لتجري الفلك فيه بامره ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون وسخر لكم ما في السموات وما في
الارض جميعا منه ان في ذلك لايات لقوم يتفكرون **وقال** تعالى الله الذي خلق السموات
والارض وانزل من السماء ماء فاخرج به من الثمرات رزقا لكم وسخر لكم الفلك لتجري في البحر بامره وسخر لكم
الانهار وسخر لكم الشمس والقمر دائبين وسخر لكم الليل والنهار واتاكم من كل ما سالتموه وان تعدوا نعمة الله لا
تحصوها ان الانسان لظلوم كفار فما اشد غرور من جهل نعم الله وتامل حكمته وبديع صنعته اطول ما غاب والا
صواعق الليل من مكان المقيم في بلده وعادته وطبعه راضيا بعيشه في جنسه لا يانف لنفسه ان
يكون واحدا منهم يقول الحق سوى بهم وقل انا الا من ربيعة او مضر وليست تقايس البضائع الا من يتطي

ورزقناهم من الطيبات

غار في الاغتراب وطوف في الآفاق حتى رضي من الغنيمة بالإياب فاستلان ما استوعره البطالون وأنس
بما استوحش منه الجاهلون **فصل** فاعد النظر في نفسك وحكمة الخلاق العليم في خلقك
وانظر إلى الحواس التي منها تشرف على الأشياء كيف جعلها الله في الرأس كالمصابيح فوق المنارة لتطلع
بها على مطالعة الأشياء ولم يجعلها في الأعضاء التي تمتهن كاليدين والرجلين فتعرض للآفات بمباشرة الأعمال
والحركات ولا جعلها في الأعضاء التي في وسط البدن كالبطن والظهر فيعسر عليها التلفت والاطلاع
على الأشياء فلما لم يكن لها في شيء من هذه الأعضاء موضع كان الرأس أليق المواضع بها وأجملها فالرأس
صومعة الحواس ثم تأمل الحكمة في أن جعل الحواس خمسا في مقابلة المحسوسات الخمس لتلقى خمسا بخمس
لكيلا يبقى شيء من المحسوسات لا تناله بحاسة فجعل البصر في مقابلة المبصرات والسمع في مقابلة الأصوات
والشم في مقابلة أنواع الروائح المختلفات والذوق في مقابلة الكيفيات المذوقات واللمس في مقابلة
الملموسات فأي محسوس بقي بلا حاسة ولو كان في المحسوسات شيء غير هذه لأعطاك له حاسة سادسة
ولما كان ما عداها إنما يدرك بالباطن أعطاك الحواس الباطنة وهذه هي الأخماس التي جرت على ألسنة
العامة والخاصة حيث يقولون ضرب أخماسه في أسداسه فأخماسه حواسه الخمس وأسداسه جهاته
الست أرادوا بذلك أنه جذبه الفكر وسار به في الأقطار والجهات حتى قلب حواسه الخمس في جهاته
الست وضربها فيه لشدة فكره **فصل** ثم أعينت هذه الحواس بمخلوقات أخر منفصلة عنها
تكون واسطة في إحساسها فأعينت حاسة البصر بالضياء والشعاع فلولاهما لم ينتفع الناظر ببصره
فلو منع الضياء والشعاع لم ينفع العين شيئا وأعينت حاسة السمع بالهواء يحمل الأصوات في الجو يلقيه
إلى الأذن فيحوسه ويلقيه إلى القوة السامعة ولولا الهواء لم يسمع الرجل شيئا وأعينت حاسة الشم
بالنسيم اللطيف يحمل الرائحة ثم يؤديها إليها فتدركها فلولا هو لم يشم شيئا وأعينت حاسة الذوق
بالريق المتحلل في الفم تدرك القوة الذائقة به طعوم الأشياء ولهذا لم يكن له طعم لا حلو ولا حامض
ولا مالح ولا حريف لأنه كان يختلط بذلك الطعوم المطعمة فلا يحصل به مقصوده وأعينت حاسة اللمس
بقوة جعلها الله فيها تدرك بها الملموسات ولم تحتج إلى شيء من خارج بخلاف غيرها من الحواس بل تدرك الملموسات
بلا واسطة بينها وبينها لأنها إنما تدركها بالاجتماع والملامسة فلم تحتج إلى واسطة **فصل**
فتأمل حال من عدم البصر وما يناله من الخلل في أموره فإنه لا يعرف موضع قدمه ولا يبصر ما بين يديه ولا يعرف
بين الألوان والمناظر الحسنة من القبيحة ولا يتمكن من استفادة علم من كتاب يقرؤه ولا يتهيأ له الاعتبار والنظر بلغ مقابلة
في عجائب ملك الله هذا مع أنه لا يشعر بكثير من مصالحه ومضاره فلا يشعر بحفرة يهوي فيها ولا بحيوان

يقصده

يقصده كالسبع فيحترز منه ولا بعدو يهوي نحوه ليقتله ولا يتمكن من هرب إن طلب بل هو ملقى للشر لمن رامه
بأذى ولولا حفظ خاص من الله ورعاية له حفظ الوليد وكلاءته لكان عطبه إليه أقرب من سلامته فإنه
بمنزلة لحم على وضم ولذلك جعل الله ثوابه إذا صبر واحتسب الجنة ومن كمال الفطنة أن علمس لو نصره إلى البصيرة
فهو أحوج الناس إلى بصيرة وحسن تيقظ وجمع عليه همه وقلبه مجموع عليه غير مشتت ليهنأ له العيش ويتم مصلحته
ولا يظن أنه مغموم مهموم حزين متأسف فهذا حكم من ولد أعمى فأما من أصيب بعينيه بعد البصر فهو بمنزلة
سائر أهل البلاء المنتقلين من العافية إلى البلية فالمحنة عليه شديدة لأنه قد حيل بينه وبين ما ألفه من المرائي
والصور ووجوه الانتفاع ببصره فهذا له حكم آخر وكذلك من عدم السمع فإنه يفقد روح المخاطبة والمحاورة
ويعدم لذة المذاكرة ونغمة الأصوات الشجية وتعظم المؤنة على الناس في خطابه ويتبرمون به ولا يسمع شيئا
من أخبار الناس وأحاديثهم فهو بينهم شاهد كغائب وحي كميت وقريب كبعيد وقد اختلف النظار
في أيهما أقرب إلى الكمال وأقل اختلالا لأموره الضرير أو الأطروش وذكروا في ذلك وجوها وهذا مبني
على أصل آخر وهو أي الصفتين أكمل صفة السمع أو صفة البصر وقد ذكرنا الخلاف فيها فيما تقدم من هذا
الكتاب وذكرت أقوال الناس وأدلتهم والتحقيق في ذلك فأي الصفتين كانت أكمل فالضرر بعدمها أقوى
والذي يليق بهذا الموضع أن يقال عادم البصر أشدهما ضررا وأسلمهما دينا وأحمدهما عاقبة وعادم السمع
أقلهما ضررا في دنياه وأجهلهما بدينه وأسوأ عاقبة فإنه إذا عدم السمع عدم المواعظ والنصائح وانسدت
عليه أبواب العلوم النافعة وانفتحت له طرق الشهوات التي يدركها البصر ولا يناله من العلم ما يكفه عنها
فضرره في دينه أكثر وضرر الأعمى في دنياه أكثر ولهذا لم يكن في الصحابة أطرش وكان فيهم جماعة أضراء
وقل أن يبتلي الله أولياءه بالطرش في الدين ومضرة العمى في الدنيا فهذا فصل الخطاب في هذه المسألة فمضرة
الطرش في الدين ومضرة العمى في الدنيا والمعافى من عافاه الله تعالى منهما ومتعه بسمعه وبصره وجعلهما الوارث
منه **فصل** وأما من عدم البيان من بيان القلب وبيان اللسان فذلك بمنزلة الحيوانات
البهيمة بل هي أحسن حالا منه فإن فيها ما خلقت له من المنافع والمصالح التي يستعمل فيها وهذا يجهل كثيرا
مما يهتدي إليه البهائم ويلقي بنفسه فيما تكف البهائم أنفسها عنه ومن عدم بيان اللسان دون بيان القلب
عدم خاصة الإنسان وهي النطق واشتدت المؤنة به وعليه وعظمت حسرته وطال أسفه على رد
الجواب ورجع الخطاب فهو كالمقعد الذي يرى ما هو محتاج إليه ولا تمتد إليه يده ولا رجله فكم لله على
عبده من نعمة سابغة في هذه الأعضاء والجوارح والقوى والمنافع التي فيه فهو لا يلتفت إليها ولا يشكر الله
عليها ولو فقد شيئا منها لتمنى أن له بالدنيا وما عليها فهو يتقلب في نعم الله بسلامة أعضائه وجوارحه وقواه

وهو عارٍ من شكرها ولو عرضت عليه الدنيا بما فيها بزوال واحدة منها لأبى المعاوضة وعلم أنها معاوضة
غبن إن الإنسان لظلوم كفار فصل ثم تأمل حكمته تعالى في الأعضاء التي خلقت فرادًا
ومثنى وثلاث ورباع وما في ذلك من الحكم البالغة فالرأس واللسان والأنف والذكر خلق كل منها واحد
فقط ولا مصلحة في كونه أكثر من ذلك ألا ترى أنه لو أضيف إلى الرأس رأس آخر لأثقل البدن من غير حاجة إليه
لأن جميع الحواس التي يحتاج إليها مجتمعة في رأس واحد ثم إن الإنسان كان ينقسم برأسه قسمين فإن تكلم
من أحدهما وسمع به وأبصر وشم وذاق بقي الآخر معطلًا لا أرب فيه وإن تكلم وأبصر وشم بهما معًا كلامًا
واحدًا وسمعًا واحدًا وبصرًا واحدًا كان الآخر فضلة لا فائدة فيه وإن اختلف إدراكهما اختلفت عليه
أحواله وإدراكاته وكذلك لو كان له لسانان في فم واحد فإن تكلم بهما كلامًا واحدًا كان أحدهما ضايعًا
وإن تكلم بأحدهما دون الآخر فكذلك وإن تكلم بهما معًا كلامين مختلفين خلط على السامع ولم يدر بأي
الكلامين يأخذ وكذلك لو كان له هنوان أو فمان لكان مع قبح الخلقة أحدهما فضلة لا منفعة فيه
وهذا بخلاف الأعضاء التي خلقت مثنى كالعينين والأذنين والشفتين واليدين والرجلين والساقين
والفخذين والوركين والثديين فإن الحكمة فيها ظاهرة والمصلحة فيها بينة والجمال والزينة عليها بادية
فلو كان للإنسان عين واحدة لكان مشوه الخلقة ناقصها وكذلك الحاجبان وأما اليدان والرجلان
والساقان والفخذان فتعددهما ضروري للإنسان لأن مصلحته لا تتم بذلك ألا ترى من قطعت إحدى يديه
أو رجليه كيف تبقى حاله وعجزه فلو أن النجار والخياط والحداد والجزار والبناء وأصحاب الصنائع التي لا
تأتي إلا باليدين شلت يد أحدهم لتعطلت عليه صنعته فاقتضت الحكمة أن أعطي من هذا الضرب من الجوارح
والأعضاء اثنين اثنين وكذلك أعطي شفتين لأنه لا تكمل مصلحته إلا بهما وفيهما ضروب عديدة من المنافع من
الكلام والذوق وغطاء الفم والجمال والزينة والقبلة وغير ذلك وأما الأعضاء الثلاثة فهي جوانب
أنفه وحيطانه وقد ذكرنا حكمة ذلك فيما تقدم وأما الأعضاء الرباعية فالكعاب الأربعة التي هي
مجمع القدمين والممسكة لهما وبهما قوام القدمين في حركتهما وفيهما منافع للساقين وكذلك أجفان العينين
الأربعة وفيها من الحكم والمنافع أنها غطاء للعينين ووقاية لهما وجمال وزينة وغير ذلك من الحكمة ٥
فاقتضت الحكمة البالغة أن جعلت الأعضاء على ما هي عليه من العدد والشكل والهيئة فلو زادت
أو نقصت لكان نقصانًا في الخلقة ولهذا توجد في النوع الإنساني من زاد في خلقه ونقص منه ما يدل على
حكمة الرب تبارك وتعالى وأنه لو شاء لجعل خلقه كلهم هكذا وليعلم الكامل الخلقة تمام النعمة عليه وأنه
خلقه سويًّا معتدلًا لم يزد في خلقه ما لا يحتاج إليه ولم ينقص منه ما يحتاج إليه كما جرى في غيره فهو أجدر أن

يزداد شكرًا وحمدًا لربه ويعلم أن ذلك ليس من صنع الطبيعة وإنما ذلك صنع الله الذي أتقن كل
شيء وأنه يخلق ما يشاء فصل من أين للطبيعة هذا الاختلاف والفرق الحاصل في النوع
الإنساني بين صورهم فقل أن ترى اثنين متشابهين من كل وجه وذلك من أندر ما في العالم بخلاف أصناف
الحيوانات كالنعم والوحوش والطير وسائر الدواب فإنك ترى السرب من الظباء والثلة من الغنم
والذود من الإبل والصوار من البقر تتشابه حتى لا يفرق بين واحد منها وبين الآخر إلا بعد طول تأمل
أو بعلامة ظاهرة والناس مختلفة صورهم وخلقتهم فلا يكاد اثنان منهم يجتمعان في صفة واحدة وخلقة
واحدة بل ولا صوت واحد وحنجرة واحدة والحكمة البالغة في ذلك أن الناس يحتاجون إلى أن
يتعارفوا بأعيانهم وحلاهم لما يجري بينهم من المعاملات فلولا الفرق والاختلاف في الصور لفسدت
أحوالهم وتشتت نظامهم ولم يعرف الشاهد من المشهود عليه ولا المدين من رب الدين ولا البايع من المشتري
ولا كان الرجل يعرف عرسه من غيرها عند الاختلاط ولا تعرف هي بعلها من غيره وفي ذلك أعظم
الفساد والخلل فمن الذي ميز بين حلاهم وصورهم وخلقتهم وأصواتهم وفرق بينها بفروق لا ينالها
العبارة ولا يدركها الطرف فسل المعطل هل هذا فعل الطبيعة وهل في الطبيعة اقتضاء
هذا الاختلاف والافتراق في النوع وأين قول الطبايعيين أن فعلها متشابه لأنها واحدة في نفسها
لا تفعل بإرادة ولا مشيئة فلا يمكن اختلاف أفعالها فكيف يجمع المعطل بين هذا وهذا فإنها لا تعمى الأبصار
ولكن تعمى القلوب التي في الصدور وربما وقع في النوع الإنساني تشابه بين اثنين لا يكاد يميز بينهما فيعظم
عليهم المؤنة في معاملتهما وتشتد الحاجة إلى تمييز المستحق منهما والمؤاخذ بذنبه وما عليه من الحق
وإذا كان هذا يعرض في التشابه في الأسماء كثيرًا ويلقى الشاهد والحاكم من ذلك ما يلقى فما الظن لو وقع
التشابه في الخلقة والصورة ولما كان الحيوان البهيم والطير والوحوش لا يضرها هذا التشابه شيئًا
لم تدع الحكمة إلى الفرق بين كل زوجين منها فتبارك الله أحسن الخالقين فصل
ثم تأمل لم صارت المرأة والرجل إذا أدركا اشتركا في نبات العانة ثم ينفرد الرجل عن المرأة باللحية
فإن الله عز وجل لما جعل الرجل قيمًا على المرأة وجعلها كالخول له والعاني في يديه ميزه عليها بما فيه
له المهابة والعز والوقار والجلالة لكماله وحاجته إلى ذلك ومنعتها المرأة لكمال الاستمتاع بها
والتلذذ ليبقى نضارة وجهها وحسنه لا يشينه الشعر واشتركا في سائر الشعور للحكمة والمنفعة
التي فيها فصل تأمل هذا الصوت الخارج من الحلق وتهيئة آلاته والكلام وانتظامه من الحروف
ومخارجها وأدواتها ومقاطعها وأجراسها تجد الحكمة الباهرة في هذا هواء ساذج يخرج من الجوف فيسلك في أنبوبة

الحنجرة حتى ينتهي الى الحلق واللسان والشفتين والاسنان يحدث له هناك مقاطع ونهايات واجراس
تسمع له عند كل مقطع ونهاية جرس متميز منفصل عن الاخر يحدث بسببه الحرف فهو صوت واحد ساذج
يجري في قصبة واحدة حتى ينتهي الى مقاطع وحدود تسمع له منها تسعة وعشرون جرسا يدور عليها
الكلام كله امره ونهيه وخبره واستخباره ونظمه ونثره وخطبه ومواعظه وفصوله فمنه المضحك
ومنه المبكي ومنه المطرب ومنه المونس ومنه المخوف والمرجي والمسلي والمحزن والقابض للنفس
والجوارح والمنشط لهما والذي يسقم الصحيح ويبري السقيم ومنه ما يزيل النعم ويحل النقم ومنه
ما يستدفع به البلا وتستجلب به النعما وتستمال به القلوب ويولف بين المتباغضين ويوالي بين المتعادين
ومنه ما هو بضد ذلك ومنها الكلمة التي لا يلقي لها صاحبها بالا لا يهوي بها في النار ابعد ما بين المشرق
والمغرب والكلمة التي يلقي لها بالا صاحبها يرتقي بها اعلا عليين في جوار رب العالمين فسبحان من انشا
ذلك كله من هوا ساذج يخرج من الصدر لا يدري ما يراد به ولا اين ينتهي ولا الى اين مستقره هذا الى ما في ذلك
من اختلاف الالسنة واللغات التي لا يحصيها الا الله عز وجل فيجتمع الجمع من الناس من بلاد شتى يتكلم كل منهم
بلغته فيسمع لغات مختلفة وكلاما منتظما مولفا ولا يدرك منهم ما يقول الاخر واللسان الذي هو جارحه
واحدة في الشكل والمنظر وكذلك الحلق والاضراس والشفتان والكلام مختلف متفاوت اعظم اختلاف
فالاية في ذلك كالاية في الارض التي تسقى بما واحد ويخرج من ذلك من انواع النبات والازهار والحبوب
والثمار تلك الانواع المختلفة المتباينة ولهذا اخبر سبحانه في كتابه ان في كل منهما ايات فقال ومن اياته خلق
السموات والارض واختلاف السنتكم والوانكم ان في ذلك لايات للعالمين وقال تعالى وفي الارض
قطع متجاورات وجنات من نخيل واعناب وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان تسقى بما واحد ونفضل
بعضها على بعض في الاكل ان في ذلك لايات لقوم يعقلون فانظر الان الى الحنجرة كيف هي كالانبوب لخروج
الصوت واللسان والشفتان والاسنان لصياغة الحروف والنغمات الا ترى ان من سقطت اسنانه
لم يقم الحروف التي يخرج منها ومن سقط لسانه كيف لم يقم الحروف الشفهية ومن ثقل لسانه كيف
لم يقم الرا واللام والدال ومن عرضت له افة في حلقه كيف لم يتمكن من الحروف الحلقية وقد شبه اصحاب
التشريح مخرج الصوت بالمزمار والريه بالزق الذي ينفخ فيه من تحته لتدخل الريح فيه والعضلات التي تقبض
على الريه ليخرج الصوت من الحنجرة بالاصابع التي تقبض على الزق حتى يخرج الهوا في القصبة والشفتين واللسان
التي تصوغ حروفا ونغما بالاصابع التي تختلف على المزمار فتصوغه الحانا والمقاطع التي ينتهي اليها الصوت بالانابيب
التي في القصبة حتى قيل ان المزمار انما اتخذ على مثال ذلك من الانسان فاذا تحركت من الاصابع التي تعملها الانامل حتى

تخرج منها تلك الاصوات فما اجراك بطول التعجب من الصناعة الالاهية التي اخرجت تلك الحروف
والاصوات من بين اللحم والدم والعروق والعظام وما تعلق بينهما وتكرار المألوف المعتاد لا يقع عند
النفوس موقع التعجب فاذا رات ما لا تانس له ولا الفته اصلا الا انه غريب عندها بلغته بالتعجب وتسبيح
الرب تبارك وتعالى وعندها من ايات العجيبة الباهرة ما هو اعظم من ذلك مما لا يدركه القياس ثم تامل
اختلاف هذه النغمات وتباين هذه الاصوات مع تشابه الحناجر والحلوق والالسنة والشفاه
والاسنان فمن الذي ميز بينها اتم تمييز مع تشابه محالها سوى الخلاق العليم **فصل**

وفي هذه الالات مارب اخرى ومنافع سوى منفعة الكلام ففي الحنجرة مسلك النسيم البارد الذي
يروح عن الفواد بهذا النفس الدايم المتتابع وفي اللسان منفعة الذوق فتذاق به الطعوم
وتدرك لذتها ويميز بينها فتعرف حقيقة كل واحد منها وفيه مع ذلك معونة على اساغة الطعام
وانه يلوكه ويقلبه حتى يسهل مسلكه في الحلق وفي الاسنان من المنافع ما هو معلوم من تقطيع
الطعام كما تقدم وفيها اسناد الشفتين وامساكهما عن الاسترخا وتشويه الصورة
ولهذا ترى من سقطت اسنانه كيف تسترخي شفتاه وفي الشفتين منافع عديدة يرشف بهما بمص
الشراب حتى يكون الداخل منه الى الحلق بقدر فلا يشرق به الشارب ويتكافو بهم هما باب
مغلق على الفم الذي اليه ينتهي ما يخرج من الجوف ومنه يبتدي ما يلج فيه فهما غطا وطابق
عليه يفتحهما البواب متى شا ويغلقهما اذا شا وفيهما ايضا جمال وزينة للوجه وفيهما منافع
اخر سوى ذلك **وانظر** الى من سقطت شفتاه ما اشوه منظره فقد بان ان كل واحد
من هذه الاعضا يتصرف الى وجوه شتى من المنافع والمارب والمصالح كما يتصرف الاداة الواحدة
في اعمال شتى هذا ولو رايت الدماغ وكشف لك عن تركيبه وخلقه لرايت العجب العجاب ولكشف
لك عن ترتيب يحار فيه العقل قد لفّ بحجب واغشية بعضها فوق بعض لتصونه عن الاعراض
وتحفظه عن الاضطراب ثم اطبقت عليه الجمجمة بمنزلة الخوذة وبيضة الحديد لتقيه حد الصدمة
والسقطة والضربة التي تصل اليه فيتلقاها تلك البيضة عنه بمنزلة البيضة التي على راس
المحارب ثم جللت تلك الجمجمة بالجلد الذي هو فروة الراس يستتر العظم من البروز للموذيات
ثم كسيت تلك الفروة حلة من الشعر الوافر وقاية لها وسترا من الحر والبرد والاذى وجمالا
وزينة له **فصل** المعطل من الذي حصن الدماغ هذا التحصين وقدره هذا التقدير
وجعله خزانة اودع فيها من المنافع والقوى والعجايب ما اودعه ثم احكم سد تلك الخزانة

الا التكافوء الاسنواخ

وجعلها ابن تحصين وصانها اعظم صيانه وجعلها معدن الحواس والادراكات ومن الذي جعل الاجفان على العينين كالغشاوة والاشفار كالاشراج والاهداب كالدوق عليها اذا فتحت ومن الذي ركب طبقاتها المختلفة طبقة فوق طبقة حتى بلغت عدد السموات سبعا وجعل لكل طبقة منفعة وغاية فلو اختلت طبقة منها لاختل البصر ومن شقهما في الوجه احسن شق واعطاهما احسن شكل واودع الملاحة فيهما وجعلهما مراة للقلب وطليعة وحارسا للبدن ورايدا يرسله كل الجند في مهماته ولا يتعبه ولا يعيى على بعد ظعنه وطول سفره ومن اودع النور الباصر فيه في قدر حرم العدسة فيرى به السموات والارض والجبال والشمس والقمر والبحار والعجايب من داخل سبع طبقات وجعلهما في اعلا الوجه بمنزلة الحارس على الرابية العالية زينة للبدن ومن نصب الملك في الصدر واجلسه هناك على كرسي المملكة واقام جند الجوارح والاعضاء والقوى الباطنة والظاهرة في خدمته وذللها له فهي تتوتر اذا امرها منتهية اذا نهاها سامعة له مطيعة تكدح وتسعى في مرضاته فلا تستطيع له خلافا ولا خروجا عن امره فمنها رسوله ومنها بريده ومنها ترجمانه ومنها اعوانه وخدمه كل منهما على عمل لا يتعداه ولا ينصرف في غير عمله حتى اذا اراد الراحة اوعز اليها بالهدو والسكون ليأخذ الملك راحته فاذا استيقظ من منامه قامت جنوده بين يديه على اعمالها وذهبت حيث وجهها دايما لا يفتر فلو شاهدته في محل ملكه والاشغال والمراسيم صادرة عنه وواردة والعساكر في خدمته والبرد تتردد بينه وبين جنده ورعيته لرايت له شانا عجيبا فما داخل الجاهل الغافل من العجايب والمعارف والعبر التي لا يحتاج فيها الى طول الاسفار وركوب القفار وقال تعالى وفي الارض ايات للموقنين وفي انفسكم افلا تبصرون قد دعا عباده الى التفكر في انفسهم والاستدلال بها على فاطرها وباريها ولولا هذا لم يوسع الكلام في هذا الباب ولا اطلنا النفس الى هذه الغاية ولكن الغرض بذلك حاصلة والمنفعة عظيمة والفكرة فيه مما يزيد المومن ايمانا فكم دون القلب من حرس وكم له من خادم وكم له من عبيد ولا يشعر به وبما خلق له وهي له واريد منه وما عد له من الكرامة والنعيم او الهوان والعذاب فاما على سرير الملك في مقعد صدق عند مليك مقتدر ينظر الى وجه ربه ويسمع خطابه واما اسير في السجن الاعظم بين اطباق النيران في العذاب الاليم فلو عقل هذا السلطان ما هي له لظن بملكه ولسعى في الملك الذي لا ينقطع ولا يبيد ولكنه ضرب عليه حجب الغفلة ليقضي الله فيه امرا كان مفعولا ٥

فصل من جعل في الحلق منفذين

احديهما

احديهما للصوت وللنفس الواصل الى الريه والاخر للطعام والشراب وهو المري الواصل الى المعدة وجعل بينهما حاجزا يمنع عبور احديهما في طريق الاخر فلو وصل الطعام من منفذ النفس الى الريه لاهلك الحيوان من جعل الريه روحة للقلب تروح عليه لا تني ولا تفتر لكي لا ينحصر الحرارة فيه فيهلك من جعل المنافذ لفضلات الغذاء وجعل لها اشراجا تضبطها لكي لا تجري جريا دايما فيفسد على الانسان عيشه ويمنع الناس من مجالسة بعضهم بعضا من جعل المعدة كاشد ما يكون من العصب لانها هيئت لطبخ الاطعمة وانضاجها فلو كانت لحما غضا لا نطفيت هي ونضجت فجعلت كالعصب الشديد لتقوى على الطبخ والانضاج ولا تهلكها النار التي تحتها من جعل الكبد رقيقة ناعمة لانها هيئت لتقبل الصفو اللطيف من الغذاء والهضم وعمل هو الطف من عمل المعدة من حصن المخ اللطيف الرقيق في انابيب صلبة من العظام ليحفظها ويصونها فلا تفسد ولا تذوب من جعل الدم السيال محبوسا محصورا في العروق بمنزلة الماء في الوعاء لينضبط فلا يجري من جعل الاظفار على اطراف الاصابع وقاية لها ومعونة على الاعمال والصناعات من جعل داخل الاذن ملتويا كهيئة اللولب ليطرد فيه الصوت حتى ينتهي الى السمع الداخل وقد انكسرت حدة الهوا فلا ينكاه وليتعذر على الهوام الدخول اليه قبل ان يمسك ويمسك ما عساه ان يغشاها من القذى والوسخ ولغير ذلك من الحكم من جعل على الفخذين والوركين من اللحم اكثر مما على سائر الاعضاء ليقيها من الارض ولا تالم عظامها من كثرة الجلوس كما تالم من قد نحل جسمه وقل لحمه من طول الجلوس حتى لم يحل بينه وبين الارض حايل من جعل ماء العين ملحا يحفظها من الذوبان وماء الاذن مرا يحفظها من الذباب والهوام والبعوض وماء الفم عذبا يدرك به طعوم الاشياء فلا يخالطها طعم غيرها من جعل باب الخلاء في الانسان في استر موضع منه كما ان البناء الحكيم يجعل موضع التخلي استر موضع في الدار وهكذا منفذ الخلاء من الانسان في استر موضع ليس بارزا من خلفه ولا ناشرا من بين يديه بل تغيب في موضع غامض من البدن يلتقي عليه الفخذان بما عليهما من اللحم متواريا به فاذا جاء وقت الحاجة وجلس لها الانسان برز ذلك المخرج للارض من جعل الاسنان حدادا لقطع الطعام وتفصيله والاضراس عراضا لرضه وطحنه من سلب الاحساس الحيواني الشعور والاظفار التي في الادمي لانها قد تطول وتمتد وتدعو الحاجة الى اخذها وتخفيفها فلو اعطاها الحس لالمته وشق عليه اخذ ما شاء منها فلو

كانت تجيش لو وقع الانسان منها في احدى البليتين اما تركها حتى يطول ويبخش ويثقل عليه واما قصها ففيه
الالم والوجع عند اخذها من جعل باطن الكف غير قابل لانبات الشعر لانه لو نبت الشعر لتعذر
على الانسان صحة اللمس ولشق عليه كثير من الاعمال التي يباشرها بالكف ولهذه الحكمة لم يكن
ذكر الرجل قابلا للانبات لانه يمنعه من الجماع ولما كانت المادة تقتضي انباته هناك نبت
حوله في الرجل والمراة **ولهذه** الحكمة سلب عن الشفتين وكذا باطن الفم وكذا ايضا
عن القدم اخمصها وظاهرها لانها تلاقي التراب والوحل والطين والشوك فلو كان هناك
شعر لادى الانسان جدا وجلب من الارض كل وسخ ما يثقل الانسان ولكن هذا للانسان
وحده بل ترى البهائم قد جللها الشعر كلها واخليت هذه المواضع منه لهذه الحكمة افلا
ترى الصنعة الالهية كيف سلبت وجوه الخطاء والمضرة وجاءت بكل صواب وكل منفعة وكل
مصلحة ولما اجتهد الطاعنون في الحكمة العابثون بالخلقة فيما يطعنون به الشعر تحت الابط
وشعر العانة وشعر باطن الانف وشعر الذقن وقالوا اي حكمة فيها واي فائدة
وهذا من فرط جهلهم وسخافة عقولهم فان الحكمة لا يجب ان يكون باثرها معلومة للبشر
ولا اكثرها بالنسبة لما علموه الى ما جهلوه منها فلو قيست علوم الخلائق كلهم بوجوه حكمة الله في
خلقه وامره التي خفي عليهم ما كانت كنقرة عصفور في البحر وحسب الفطن اللبيب ان يستدل بما
عرف منها على ما لم يعرف ويعلم الحكمة فيما جهله مثلها فيما علمه بل اعظم وادق والطف وما مثل
هؤلاء الحمقى النوكى الا مثل رجل لا علم له بدقائق الصنائع والعلوم من البناء والهندسة
والطب بل والحياكة والخياطة والنجارة واذا رام الاعتراض بعقله الفاسد على اربابها
في شيء من آلاتهم وصنائعهم وترتيب صناعاتهم يخفى عليه يجعل كلما يخفى عليه منها شيء قال
هذا لا فائدة فيه واي حكمة تقتضيه هذا مع ان ارباب الصنائع بشر مثله يمكنه ان يشاركهم في
صنائعهم ويفوقهم فيها فما الظن بمن بهرت حكمته العقول الذي لا يشاركه مشارك في حكمته
كما لا يشاركه في خلقه فلا شريك له بوجه ثم من ظن ان يحيط بكمال حكمته بكمال عقله ويجعل عقله عيارا
عليها فما ادركه اقر به وما لم يدركه نفاه فهو من اجهل الجاهلين وفي كل ما خفي على الناس وجه
الحكمة فيه حكم عديدة لا يبدع ولا يجحد فاعلم الان ان تحت منابت هذه الشعور من الحرارة والرطوبة
ما اقتضت الطبيعة اخراج هذه الشعور عليها الا ترى ان العشب ينبت في مستنقع المياه بعد
نضوب الماء عنها لما حصل من الرطوبة ولهذا كانت هذه المواضع من ارطب مواضع البدن

عابوا

وهي

وهي اقبل لنبات الشعر واهيا فدفعت الطبيعة تلك الفضلات والرطوبات الى خارج فصارت
شعرا ولو حبسها في داخل البدن لاضرته واذته باطنه لخروجها عن مصلحة الحيوان
واحتباسها انما يكون لنقص وآفة فيه وهذا لخروج دم الحيض من المراة فانه عين
مصلحتها وكمالها ولهذا يكون احتباسه لفساد في الطبيعة ونقص فيها الا ترى ان من احتبس
عنه شعر الراس واللحية بعد ابانه كيف تراه ناقص الطبيعة ناقص الخلقة ضعيف التركيب
فاذا شاهدت ذلك في الشعر الذي عرفت بعض حكمته فما لك لا تعتبر في الشعر الذي خفيت
عليك حكمته من جعل الريق يجري جريا دائما الى الفم لا ينقطع عنه ليبل الحلق واللهوات
ويسهل الكلام ويسيغ الطعام **وفي** ابقاء الرطوبة في الفم مطية الغذاء فتامل
حالك عندما يجف ريقك بعض الجفاف ويقل ينبوع هذه العين التي لا يستغنى عنها ح

فصل تامل حكمة الله تعالى في كثرة بكاء الاطفال وما لهم فيه من المنفعة فان الاطباء
والطبايعيين شهدوا منفعة ذلك وحكمته وقالوا في ادمغة الاطفال رطوبة لو بقيت في
ادمغتهم لاحدثت احداثا عظيمة فالبكاء يسيل ذلك ويحدره من ادمغتهم فيقوى ادمغتهم وتصح
وايضا فان البكاء والعياط يوسع عليه مجاري النفس ويفتح العروق ويصلبها ويقوي الاعصاب
وكم للطفل من منفعة ومصلحة فيما يسمعه من بكائه وصراخه فاذا كانت هذه الحكمة في البكاء
الذي سببه ورود الالم والمؤذي وانت لا تعرفها ولا يكاد يخطر ببالك فهكذا ايلام الاطفال
فيه وفي اسبابه وعواقبه الحميدة من الحكم ما قد خفي على اكثر الناس واضطرب عليهم الكلام
في حكمته اضطراب الارشيه وسلكوا في هذا الباب مسالك فقالت طايفة ليس الا محض المشية
العارية عن الحكمة والغاية المطلوبة وسدوا على انفسهم هذا الباب جملة وكلما سئلوا عن شيء اجابوا
بلا يسال عما يفعل وهذا من اصدق الكلام وليس المراد به نفي حكمته تعالى وعواقب افعاله
الحميدة وغاياتها المطلوبة منها وانما المراد بالاية افراده بالالهية والربوبية وانه لكمال
حكمته لا معقب لحكمه ولا يعترض عليه بالسؤال لانه لا يفعل شيئا سدى ولا خلق شيئا عبثا
وانما يسال عن فعله من خرج عن الصواب ولم يكن فيه منفعة ولا فائدة الا ترى الى قوله تعالى
ام اتخذوا الهة من الارض هم ينشرون لو كان فيهما الهة الا الله لفسدتا فسبحان الله رب العرش
عما يصفون لا يسال عما يفعل وهم يسالون كيف ساق الاية في الانكار على من اتخذ من دونه
الهة لا تساويه فسووها به مع اعظم الفرق فقوله لا يسال عما يفعل اثبات لحقيقة الالهية

وإفراده بالربوبية والإلهية وقوله وهم يُسألون نفي لصلاح تلك الآلهة المتخذة للإلهية
فإنها مسؤولة مربوبة مدبَّرة فكيف يسوّى بينه وبينها مع أعظم حكمة كان فهذا الذي
سيق له الكلام فجعلها الجبرية معقلاً وملجأ في إنكار حكمته وتعليل أفعاله بغاياتها المحمودة
وعواقبها الحميدة والله الموفق للصواب وقالت طائفة الحكمة في ابتلائهم تعويضهم في
الآخرة بالثواب التام فقيل لهم فقد كان يمكن إيصال الثواب إليهم بدون هذا الإيلام فأجابوا
بأن توسط الإيلام في حقهم كتوسط التكاليف في حق المكلفين فقيل لهم هذا ينتقض عليكم بإيلام
أطفال الكفار فأجابوا بأنا لا نقول إنهم في النار كما قاله من قاله من الناس والنار لا يدخلها أحد
إلا بذنب وهؤلاء لا ذنب لهم وكذا الكلام معهم في مسألة الأطفال والحجاج للجانبين ما ليس هذا
موضعه فأورد عليهم ما لا جواب لهم عنه وهو إيلام أطفالهم الذين قد بلغوا وتوبتهم على
الكفر فإن هذا لا تعويض فيه قطعاً ولا هو عقوبة على الكفر فإن العقوبة لا تكون سلفاً وتعجيلاً
فحاروا في هذا الموضع واضطربت أصولهم ولم يأتوا بما يقبله العقل وقالت طائفة
ثالثة هذا السؤال لو تأمله مورده لعلم أنه ساقط وأن تكلف الجواب عنه إلزام ما لا يلزم فإن
هذه الآلام وتوابعها وأسبابها من لوازم النشأة الإنسانية التي لم يخلق منفكاً عنها فهي كالحر والبرد
والجوع والعطش والتعب والنصب والهم والغم والضعف والعجز فالسؤال عن حكمتها كالسؤال
عن حكمة الحاجة إلى الأكل عند الجوع والحاجة إلى الشرب عند الظمأ وإلى النوم والراحة
عند التعب فإن هذه الآلام هي من لوازم النشأة الإنسانية التي لا ينفك عنها الإنسان ولا الحيوان
فلو تجرد عنها لم يكن إنساناً بل كان ملكاً أو خلقاً آخر وليست آلام الأطفال بأصعب من آلام البالغين
لكن لما صارت لهم عادة سهل موقعها عندهم وكم بين ما يقاسيه الطفل ويعانيه البالغ العاقل
وكل ذلك من مقتضى الإنسانية وموجب الخلقة فلو لم يخلق كذلك لكان خلقاً آخر أفترى أن الطفل
إذا جاع أو عطش أو برد أو تعب قد خص من ذلك بما لم يمتحن به الكبير فابتلاؤه بما هو دون ذلك من
الأوجاع والأسقام كابتلائه بالجوع والعطش والبرد والحر أو دون ذلك أو فوقه وما خلق
الإنسان بل الحيوان إلا على هذه النشأة فلو قال قائل لم خلق كذلك وهلا
خلق خلقة غير قابلة للألم فهذا سؤال فاسد فإن الله تعالى خلقه في عالم الابتلاء والامتحان
بنشأة ضعيفة هي عرضة للآفات وركبه تركيباً معرضاً لأنواع من الآلام وجعل فيه الأخلاط
الأربعة التي لا قوام له إلا بها ولا يكون إلا عليها وهي لا محالة توجب امتزاجاً واختلاطاً وتفاعلاً

وبغي بعضها على بعض بكيفيته تارة وبكميته تارة وبهما تارة وذلك يوجب الألم قطعاً ووجود
الملزوم بدون لازمه محال ثم إنه سبحانه ركب فيه من القوى والشهوة والإرادة ما يوجب حركته
الدائمة وسعيه في طلب ما يصلحه ودفع ما يضره بنفسه تارة ومن يعينه تارة فأحوج النوع بعضه
إلى بعض فيحدث من ذلك الاختلاط بينهم وبغي بعضهم على بعض فيحدث من ذلك من الآلام والشرور
نحو ما يحدث من امتزاج أخلاطه واختلاطها وبغي بعضها على بعض والآلام تتخلف عن هذا الاختلاط
والامتزاج أبداً إلا في دار البقاء والنعيم المقيم لا في دار الابتلاء والامتحان فمن ظن أن الحكمة في أن يجعل
خصائص تلك الدار في هذه فقد ظن باطلاً بل الحكمة التامة البالغة اقتضت أن تكون هذه الدار
ممزوجة عافيتها ببلائها وراحتها بعنائها ولذاتها بآلامها وصحتها بسقمها وفرحها بغمها فهي دار
ابتلاء يدفع بعض آفاتها ببعض كما قال القائل

أصبحت في دار بليات ... أدفع آفات بآفات

ولقد صدق فإنك إذا فكرت في الأكل والشرب واللباس والجماع والراحة وسائر ما يلتذ به
رأيته يدفع بها ما قابله من الآلام والبليات أفلا تراك تدفع بالأكل ألم الجوع وبالشرب ألم العطش
وباللباس ألم الحر والبرد وهلم جرا ولهذا قال بعض العقلاء إن لذاتها إنما هي دفع الآلام
لا غير فأما اللذات الحقيقية فلها دار أخرى ومحل آخر غير هذه فوجود هذه الآلام واللذات
الممتزجة المختلطة من الأدلة على المعاد وأن الحكمة التي اقتضت ذلك هي أولى باقتضاء دارين دار
خالصة اللذات لا يشوبها ألم ما ودار خالصة للآلام لا يشوبها لذة ما فالدار الأولى الجنة والدار
الثانية النار أفلا ترى كيف دلك ما أنت مجبول عليه في هذه النشأة من اللذة والألم على الجنة
والنار ورأيت شواهدهما وأدلة وجودهما من نفسك حتى كأنك تعاينهما عياناً وانظر كيف
دل العيان والحس والوجود على حكمة الرب تعالى وعلى صدق رسله فيما أخبروا به من الجنة والنار
فتأمل كيف قاد النظر في حكمة الله تعالى إلى شهادة العقول والفطر بصدق رسله وأنما
أخبروا به تفصيلاً ما يدل عليه العقل مجملاً فأين هذا من مقام من أداه علمه إلى المعارضة بين ما
جاءت به الرسل وبين شواهد العقل وأدلته وتلك عقول كادها باريها ووكلها إلى نفسها
فحلت بها عساكر الخذلان من كل جانب وحسبك بهذا الفصل وعظم منفعته من هذا الكتاب
والله المحمود المسؤول تمام نعمته فهذه كلمات مختصرة نافعة في مسألة آلام الأطفال ولعلك لا
تظفر بها في أكثر الكتب فارجع الآن إلى تمام الكلام في هذه الأفعال الطبيعية

التي جعلت في الانسان وما فيها من الحكمة والمنفعة وما جعل لكل واحد منها في الطبع من المحرك والداعي
الذي يقتضيه ويستحثه فالجوع يستحث الاكل ويطلبه لما فيه من قوام البدن وحياته ومادته
والكرى يقتضي النوم ويستحثه لما فيه من راحة البدن والاعضاء وجمام القوى وعودها الى قوتها
جديدة غير كالة والشبق لمقتضي الجماع الذي به دوام النسل وقضاء الوطر وتمام اللذة فتجد هذه
الدواعي تستحث الانسان لهذه الامور وتقاضاها منه بغير اختياره وذلك عين الحكمة فانه لو
كان الانسان انما ينبعث على هذه المستحثات اذا اراد ولا شك ان تشتغل عنها بعروة من العوارض
مدة فيختل بدنه ويهلك ويتمادى الى الفساد وهو لا يشعر كما اذا احتاج بدنه الى شيء من الدواء
والصلاح فدافعه واعرض عنه حتى استحكم به الداء فاهلكه فاقتضت حكمة اللطيف الخبير ان
جعلت فيه بواعث ومستحثات تؤزه ازا الى ما فيه قوامه وبقاؤه ومصلحته من تردد عليه بغير
اختيار ولا استدعاء فجعل لكل واحد من هذه الافعال محركا من نفس الطبيعة تحركه وتحذوه عليه
ثم انظر الى ما اعطيه من القوى المختلفة التي بها قوامه فاعطي القوة الجاذبة الطالبة
المستحثة التي تعني بعلوفها من الغذاء فتاخذه وتورده على الاعضاء بحسب قبولها ثم اعطي القوة
الممسكة التي تمسك الطعام وتحبسه ريثما ينضجه ويحلم طبخه وتهيؤه لمصارفه وتبعثه
لمستحقه ثم اعطي القوة الهاضمة التي تصرفه في البدن وتهضمه في المعدة ثم اعطي القوة الدافعة
وهي التي تدفع ثقله وما لا منفعة فيه فتدفعه وتخرجه من البدن لئلا يؤذيه ويتهكه فمن اعطاك
هذه القوى عند شدة حاجتك اليها ومن جعلها خدما لك ومن اعطاها افعالها واستعمل كل
واحد منها على عمل غير عمل الاخرى ثم الف بينها على تباينها حتى اجتمعت في شخص واحد ومحل
واحد ولو عادى بينها كان بعضها يذهب بعضا ممن كان يحول بينه وبين ذلك فلولا القوة
الجاذبة فيم كنت تتحرك لطلب الغذاء الذي به قوام البدن ولولا الممسكة كيف كان الطعام
يذهب في الجوف حتى تهضمه المعدة ولولا الهاضمة كيف كان ينطبخ حتى يخلص منه الصفو الى سائر اجزاء
البدن واعضائه ولولا الدافعة كيف كان الثقل المؤذي الغائل لو انحبس يخرج اولا فيستريح
البدن ويخف وينشط وتامل كيف وكلت هذه القوى بك والقيام بمصالحك فالبدن
كدار الملك فيها حشمه وخدمه وقد وكل بتلك الدار اقواما يقومون بمصالحها فبعضهم لقضاء
حوائجها وايرادها عليها وبعضهم لقبض الوارد وحفظه وخزنه الى ان يهيأ ويصلح وبعضهم
لعبضه وتهيئته واصلاحه وبدفعه الى اهل الدار وتفرقه عليهم بحسب حاجاتهم وبعضهم لكنس

الدار وتنظيفها وكنسها من الزبل والاقذار فالملك هو الملك الحق المبين جل جلاله والدارات
والحشم والخدم الاعضاء والجوارح والقوام عليها هذه القوى التي ذكرناها **تنبيه**
وفرق بين نظر الطبيب والطبائعي في هذه الامور وكونه مقصورا على النظر في حفظ الصحة
ودفع السقم فهو ينظر فيها من هذه الجهة فقط وبين نظر المؤمن العارف فيها فهو ينظر فيها من جهة
دلالتها على خالقها وباريها وما له فيها من الحكم البالغة والنعم السابغة والالاء التي دعا العباد
الى ذكرها وشكرها **تنبيه** تامل حكمة الله عز وجل في الحفظ والنسيان الذي خص به
نوع الانسان وما له فيهما من الحكم وما للعبد فيهما من المصالح فانه لولا القوة الحافظة التي خص بها
لدخل عليه الخلل في اموره كلها ولم يعرف ما له وما عليه ولا ما اخذ وما اعطى وسمع وراى ولا
ما قال ولا ما قيل له ولا ذكر من احسن اليه ولا من اساء اليه ولا من عامله ولا من نفعه فيقرب منه
ولا من ضره فينأى عنه ثم كان لا يهتدي للطريق الذي سلكه اول مرة ولو سلكه مرارا ولا يعرف
علما ولو درسه عمره ولا ينتفع بتجربة ولا يستطيع ان يعتبر شيئا على ما مضى بل كان خليقا ان ينسلخ
من الانسانية اصلا **فتامل** عظيم المنفعة عليك في هذه الخلال وموقع الواحدة منها
فضلا عن جميعهن ومن اعجب النعم عليه نعمة النسيان فانه لولا النسيان لما سلا شيئا ولا انقضت
حسرة ولا تعزى عن مصيبة ولا مات له حزن ولا بطل له حقد ولا استمتع بشيء من متاع الدنيا
مع تذكر الافات ولا رجا غفلة من عدو ولا فترة من حاسد **فتامل** نعمة الله عليه في
الحفظ والنسيان مع اختلافهما وتضادهما وجعل له في كل واحد منهما ضربا من المصلحة ○
تنبيه تامل هذا الخلق الذي خص به الانسان دون جميع الحيوان وهو خلق الحياء
الذي هو من افضل الاخلاق واجلها واعظمها قدرا واكثرها نفعا بل هو خاصة الانسانية فمن لا
حياء فيه ليس معه من الانسانية الا اللحم والدم وصورتهما الظاهرة كما انه ليس معه من الخير
شيء ولولا هذا الخلق لم يقر الضيف ولم يوف بالوعد ولم يؤد امانة ولم يقض لاحد حاجة
ولا تحرى الرجل الجميل فاثره والقبيح فتركه ولا ستر له عورة ولا امتنع من فاحشة وكثير من
الناس لولا الحياء الذي فيه لم يؤد شيئا من الامور المفترضة عليه ولم يرع لمخلوق حقا ولم
يصل له رحما ولا بر له والدا فان الباعث على هذه الافعال اما ديني وهو رجاء عاقبتها الحميدة واما
دنيوي علوي وهو حياء فاعلها من الخلق فقد تبين انه لولا الحياء اما من الخالق او من الخلائق لم يفعلها
صاحبها وفي الترمذي وغيره مرفوعا استحيوا من الله حق الحياء قالوا وما حق الحياء قال

ان يحفظ الراس وما حوى والبطن وما وعى وليذكر المقابر والبلى وقال صلى الله عليه وسلم اذا لم
تستح فاصنع ما شئت واصح القولين فيه قول ابي عبيد والاكثرين انه تهديد كقوله تعالى اعملوا ما شئتم
وقوله تعالى كلوا وتمتعوا قليلا وقالت طائفة هو اذن واباحة والمعنى انك
اذا اردت ان تفعل فعلا فانظر قبل فعله فان كان مما يستحيى فيه من الله ومن الناس فلا تفعله وان كان مما لا يستحيى
منه فافعله فانه ليس بقبيح وعندي ان هذا الكلام صورته صورة الطلب ومعناه معنى الخبر وهو في قوة
الرادع عن القبيح انما هو الحياء فمن لم يستحي فانه يصنع ما يشاء واخرج هذا المعنى في صيغة الطلب لنكتة
بديعة جدا وهو ان للانسان آمرين وزاجرين فله آمر وزاجر من جهة الحياء فاذا اطاعه امتنع من فعل كل ما
يشتهي وله آمر وزاجر من جهة الشهوة والهوى والطبيعة فمن لم يطع آمر الحياء وزاجره اطاع آمر الهوى امره
والشهوة ولا بد فاخراج الكلام في قالب الطلب يتضمن هذا المعنى دون ان يقال من لا يستحيي يصنع ما يشتهي

تنبيه تامل نعمة الله على الانسان بالبيانين البيان النطقي والبيان الخطي وقد اعتد بهما
سبحانه في جملة ما اعتد به من نعمه على العبد فقال في اول سورة انزلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم اقرا باسم
ربك الذي خلق خلق الانسان من علق اقرا وربك الاكرم الذي علم بالقلم علم الانسان ما لم يعلم فتامل
كيف جمع في هذه الكلمات مراتب الخلق كلها وكيف تضمنت مراتب الموجودات الاربعة باوجز لفظ واوضحه
واحسنه فذكر اولا عموم الخلق وهو اعطاء الوجود الخارجي ثم ذكر ثانيا خصوص خلق الانسان لانه
موضع العبرة والاية فيه عظيمة ومن شهوده عن محض تعدد النعم وذكر مادة خلقه ههنا مافيه ج
العلقة وفي سائر المواضع يذكر ما هو سابق عليها اما مادة اصله وهو التراب او الطين او الصلصال
كالفخار واما مادة الفرع وهو الماء المهين وذكر في هذا الموضع اول مبادي تعلق التخليق
به وهي العلقة فانه كان قبلها نطفة فاول انتقالها انما هو الى العلقة ثم ذكر ثالثا التعليم
بالقلم الذي هو من اعظم نعمه على عباده اذ به تخلد العلوم وتثبت الحقوق وتعلم الوصايا وتحفظ الشهادات
ويضبط حساب المعاملات الواقعة بين الناس وبه تقيد اخبار الماضين للباقين واخبار الباقين
للاحقين ولولا الكتابة لانقطعت اخبار بعض الازمنة عن بعض ودرست السنن وتخبطت
الاحكام ولم يعرف الخلف مذاهب السلف وكان معظم الخلل الداخل على الناس في دينهم ودنياهم
انما يعتريهم من النسيان الذي يمحو صور العلوم من قلوبهم فجعل لهم الكتاب وعاء حافظا للعلم من الضياع
كالاوعية التي تحفظ الامتعة من الذهاب والبطلان فنعمة الله عز وجل بتعليم القرآن من اجل النعم والتعليم
به وان كان مما يخلص اليه الانسان بالفطنة والحيلة فان الذي بلغ به ذلك واوصله اليه عطية

وهبها الله منه وفضل اعطاه الله اياه وزيادة في خلقه وفضيلة فهو الذي علمه الكتابة
وان كان هو المتعلم ففعله فعل مطاوع لتعليم الذي علم بالقلم فانه علمه فتعلم كما انه علمه الكلام
فتكلم هذا ومن اعطاه الذهن الذي يعي به واللسان الذي يترجم به والبنان الذي يخط به ومن هيأ
ذهنه لقبول هذا التعليم دون سائر الحيوانات ومن الذي انطق لسانه وحرك بنانه ومن الذي
دعم البنان بالكف ودعم الكف بالساعد فكم لله من آية نحن غافلون عنها في التعليم بالقلم فقف وقفة
في حال الكتابة وتامل حالك وقد امسكت القلم وهو جماد ووضعته على القرطاس وهو جماد
فتولد من بينهما انواع الحكم واصناف العلوم وفنون المراسلات والخطب والنظم والنثر وجوابات
المسائل فمن الذي اجرى فلك المعاني على قلبك ورسمها في ذهنك ثم اجرى العبارات الدالة عليها
على لسانك ثم حرك بها بنانك حتى صارت نقشا عجيبا معناه اعجب من صورته فتقضي بها مآربك
وتبلغ بها حاجة في صدرك وترسله الى الاقطار النائية والجهات المتباعدة فيقوم مقامك ويترجم
عنك ويتكلم على لسانك ويقوم مقام رسولك ويجدي عليك ما لا يجدي من ترسله سوى من علم
بالعلم على الانسان ما لم يعلم والتعليم بالقلم يستلزم المراتب الثلاثة مرتبة الوجود الذهني والوجود
اللفظي والوجود الرسمي فقد دل التعليم بالقلم على انه سبحانه هو المعطي لهذه المراتب ودل قوله
خلق على انه يعطي الوجود العيني فدلت هذه الآيات مع اختصارها ووجازتها وفصاحتها على ان
مراتب الوجود باسرها مسندة اليه تعالى خلقا وتعليما وذكر خلقين وتعليمين خلقا
عاما وخلقا خاصا وتعليما عاما وخاصا وذكر من صفاته ههنا اسم الاكرم الذي فيه كل
خير وكل كمال فله كل كمال وصفا ومنه كل خير فعلا فهو الاكرم في ذاته واوصافه وافعاله
وهذا الخلق والتعليم انما نشا من كرمه وبره واحسانه لا من حاجة دعته الى ذلك وهو
الغني الحميد وقوله تعالى الرحمن علم القرآن خلق الانسان علمه البيان دلت هذه الكلمات
على اعطائه سبحانه مراتب الوجود باسرها فقوله خلق الانسان اخبار عن الايجاد الخارجي العيني وخص
الانسان بالخلق لما تقدم وقوله علم القرآن اخبار عن اعطاء الوجود العلمي الذهني فانما تعلم الانسان
القرآن بتعليمه كما انه انما صار انسانا بخلقه فهو الذي خلقه وعلمه ثم قال علمه البيان والبيان
ههنا يتناول مراتب ثلاثة كل منها يسمى بيانا احدها البيان الذهني الذي يميز فيه بين المعلومات
الثاني البيان اللفظي الذي يعبر به عن تلك المعلومات ويترجم عنها فيها غيره والثالث
البيان الخطي الرسمي الذي يرسم به تلك الالفاظ فيتبين للناظر معانيها كما يتبين للسامع معاني الالفاظ

فهذا بيان للعين وذاك بيان للسمع والاول بيان للقلب وكثيراً ما يجمع سبحانه بين هذه الثلثة
كقوله تعالى ان السمع والبصر والفواد كل اوليك كان عنه مسولا وقوله عز وجل والله اخرجكم
من بطون امهاتكم لا تعلمون شيا وجعل لكم السمع والابصار والافيدة لعلكم تشكرون ويذم من عدم الانتفاع بها
في اكتساب الهدى والعلم النافع كقوله تعالى صم بكم عمي وقوله عز وجل ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم
وعلى ابصارهم وقد تقدم بسط هذا المعنى . **تنبيه** تامل حكمة اللطيف الخبير فيما
اعطى الانسان علمه مما فيه صلاح معاشه ومعاده ومنعه منه علم ما لا حاجة له به فجهله به لا يضره وعلمه
به لا ينتفع به انتفاعاً طايلاً ثم يسر عليه طرق ما هو محتاج اليه من العلم اتم تيسير وكلما كانت حاجته اليه
العلم اعظم كان تيسيره اياه عليه اتم فاعطاه معرفة خالقه وباريه ومبدعه سبحانه والاقرار به ويسر
عليه طرق هذه المعرفة فليس في العلوم ما هو اجل منها ولا اظهر عند العقل والفطرة وليس في طرق العلوم
التي ينال بها العبد طرقها ولا ادل ولا ابين ولا اوضح فكلما تراه بعينك او تسمعه باذنك او تعقله بقلبك
وكلما يخطر ببالك وكلما نالته حاسة من حواسك فهو دليل على الرب تبارك وتعالى فطرق العلم
بالصانع فطرية ضرورية ليس في العلوم اجلى منها وكل ما استدل به على الصانع فالعلم بوجوده اظهر
من دلالته ولهذا قالت الرسل صلوات الله وسلامه عليهم لاممهم افي الله شك فخاطبوهم مخاطبة
من لا ينبغي ان يخطر له شك ما في وجود الله سبحانه ونصب الادلة على وجوده ووحدانيته وصفات كماله
الادلة على اختلاف انواعها ولا يطيق حصرها الا الله ثم ركز ذلك في الفطرة ووضعه في العقل جملة
ثم بعث الرسل مذكرين به ولهذا يقول تعالى وذكر فان الذكرى تنفع المومنين وقوله
تعالى فذكر ان نفعت الذكرى وقوله تعالى انما انت مذكر وقوله تعالى كلا انها تذكرة في مواضع
وهو كثير في القران ومفصل لما في الفطرة والعقل والعلم به جملة فانظر كيف وصل الاقرار به وتوحيده
وصفات كماله ونعوت جلاله وحكمته في خلقه وامره المقتضية اثبات رسالة رسله ومجازاة المحسن
باحسانه والمسي باساته مودعاً في الفطرة مركوزاً فيها فلو خليت على ما خلقت عليه لم يعرض لها
ما يفسدها ويحولها ويغيرها عما فطرت عليه لاقرت بوحدانيته ووجوب شكره وطاعته وبصفاته
وحكمته في افعاله وبالثواب والعقاب ولكنها لما فسدت وانحرفت عن المنهج الذي خلقت عليه انكرت
ما انكرت وجحدت ما جحدت فبعث الله رسله مذكرين لاصحاب الفطر الصحيحة السليمة فانقادوا
طوعاً واختياراً ومحبة واذعاناً بما جعل من شواهد ذلك في قلوبهم حتى ان منهم لمن لا يسال عن المعجزة
والخارق بل علم صحة الدعوى في ذاتها وعلم انها دعوة حق برهانها فيها ومعذرين ومقيمين للبينة

على اصحاب الفطر الفاسدة لئلا يحتج على الله بانه ما ارشدها ولا هداها فيحق القول عليها باقامة
الحجة فلا تلومن سبحانه طالما تعذبها واشقاها وقد بين ذلك سبحانه في قوله ان هو الا ذكر وقران
مبين لينذر من كان حياً ويحق القول على الكافرين فتامل كيف فطرت معرفة الله والشهادة له بالتوحيد
واثبات اسمايه وصفاته ورسالة رسله والبعث للجزاء مسطورة مثبتة في الفطر ولم يكن ليعرف
بها الا انها ثابتة في فطرته فلما ذكرته الرسل ونبهته راى ما اخبروه به مستقراً في فطرته
شاهداً به عقله بل وجوارحه ولسان حاله وهذا اعظم ما يكون من الايمان وهو الذي كتبه سبحانه
في قلوب اوليايه وخاصته فقال اوليك كتب في قلوبهم الايمان فتدبر هذا الفصل فانه من الكنوز
في هذا الكتاب وهو حقيق بان يثني عليه الخناصر ولله الحمد والمنة والمقصود ان الله سبحانه
اعطى العبد من هذه المعارف وطرقها ويسرها عليه ما لم يعطه غيرها لعظم حاجته في معاشه
ومعاده اليها ثم وضع في العقل الاقرار بحسن شرعه ودينه الذي هو ظله في ارضه وعدله بين
عباده ونوره في العالم ما لو اجتمعت عقول العالمين كلهم فكانوا على عقل رجل واحد منهم لما
امكنهم ان يقترحوا شيا احسن منه ولا اعدل ولا اصلح ولا انفع للخليقة في معاشها ومعادها فهو
اعظم اياته واوضح بيناته واظهر حججه على انه الله الذي لا اله الا هو وانه المتصف بكل كمال المنزه
عن كل عيب ومثال فضلا عن ان يحتاج الى اقامة شاهد من خارج عليه بل الادلة والشواهد للبشر
طرق الهدى وقطع المعذرة وازاحة العلة والشبهة ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حي عن بينة
وان الله لسميع عليم . **فاثبت** في الفطر حسن العدل والانصاف والصدق والبر والاحسان
والوفاء بالعهد والنصيحة للخلق ورحمة المساكين ونصر المظلوم ومواساة اهل الحاجة والفاقة
واداء الامانات ومقابلة الاحسان بالاحسان والاساءة بالعفو والصفح والصبر في مواطن الصبر
والبذل في مواطن البذل والانتقام في موضع الانتقام والحلم في موضع الحلم والسكينة والوقار
والرافة والرفق والتؤدة وحسن الاخلاق وجميل المعاشرة مع الاقارب وستر العورات
واقالة العثرات والايثار عند الحاجات واغاثة اللهفان وتفريج الكربات والتعاون على
انواع الخير والبر والشجاعة والسماحة والبصيرة والثبات والعزيمة والقوة في الحق واللين
لاهله والشدة على اهل الباطل والغلظة عليهم والاصلاح بين الناس والسعي في اصلاح ذات
البين وتعظيم من يستحق التعظيم واهانة من يستحق الاهانة وتنزيل الناس منازلهم واعطاء كل ذي حق
حقه واصلاح ما اشهل عليهم وطوعت بانفسهم الاموال الاعمال والاخلاق وارشاد ضالهم وتعليم

جاهلهم واحتمال جفوتهم واستواء قريبهم وبعيدهم في الحق فاقربهم اليه اولاهم بالحق وان كان بعيدا
وابعدهم عنه ابعدهم من الحق وان كان قريبا حبيبا الى غير ذلك من معرفة الخلق الذي وضعه
بينهم في المعاملات والمناكحات والجنايات وما اودع في فطرهم من حسن شكره وعبادته وحده لا شريك
له وان نعمه عليهم توجب بذل قدرتهم وطاقتهم في شكره والتقرب اليه وايثاره على ما سواه واثبت
الفطر عليها تقبيح اضداد ذلك كله ثم بعث رسله في الامر بما اثبت في الفطر حسنه وكماله والنهي عما
اثبت فيها قبحه وعيبه وذمه فطابقت الشريعة المنزلة للفطرة المكملة مطابقة التفصيل لجملته
وقامت شواهد دينه في الفطر منادية بالايمان حي على الفلاح وصدعت تلك الشواهد والايات
وناحت ظلم الاساءة كما صدع الليل ضوء الصباح وقبل حاكم الشريعة شهادة العقل والفطرة لما كان
الشاهد غير متهم ولا متعرض للجراح **فصل** وكذلك اعطاهم من العلوم المتعلقة
بصلاح معاشهم ودنياهم بقدر حاجتهم كعلم الطب والحساب وعلم الزراعة والغراس وضروب
الصنائع واستنباط المياه وعقد الابنية وصنعة السفن واستخراج المعادن وتهيئتها لما يراد منها
وتركيب الادوية وصنعة الاطعمة ومعرفة ضروب الحيل في صيد الوحش والطير ودواب الماء
والتصرف في وجوه التجارات ومعرفة وجوه المكاسب وغير ذلك مما فيه قيام معاشهم ثم منعهم
سبحانه علم ما سوى ذلك مما ليس من شأنهم ولا فيه مصلحة لهم ولا نشاتهم قابلة له كعلم الغيب وعلم ما
كان وكل ما يكون والعلم بعدد القطر وامواج البحر وذرات الرمال ومساقط الاوراق وعدد
الكواكب ومقاديرها وعلم ما فوق السموات وما تحت الارض وما في لجج البحار واقطار العالم وما
يكنه الناس في صدورهم وما تحمل كل انثى وما تغيض الارحام وما تزداد الى سائر ما حجب عنهم علمه فمن
تكلف معرفة ذلك فقد ظلم نفسه وبخس من التوفيق حظه ولم يحصل الا على الجهل المركب والخيال
الفاسد في اكثر امره وجرت سنة الله وحكمته ان هذا الضرب من الناس اجهلهم بالعلم النافع
واقلهم صوابا وترى عندهم لا يرعون من اساس الحكم والعلم الحق النافع ما لم يخطر ببالهم اصلا وذلك
من حكمة الله في خلقه وهو العزيز الحكيم ولا يعرف هذا الا من اطلع على ما عند القوم من انواع الخيال
وضروب المحال وفنون الوساوس والهوس والخبط وهم يحسبون انهم على شيء الا انهم هم الكاذبون
فالحمد لله الذي من على المؤمنين اذ بعث فيهم رسولا من انفسهم يتلوا عليهم اياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب
والحكمة وان كانوا من قبل لفي ضلال مبين **فصل** ومن حكمته سبحانه ما منعهم من العلم
علم الساعة ومعرفة اجالهم وفي ذلك من الحكمة البالغة ما لا يحتاج الى نظر فلو عرف الانسان مقدار

عمره فان كان قصير العمر لم يتهنا بالعيش وكيف يتهنا به وهو يترقب الموت في ذلك الوقت فلولا طول العمر
لخربت الدنيا وانما عمارتها بالامال وان كان طويل العمر وقد تحقق ذلك فهو واثق بالبقاء فلا يبالي بالانهماك
في الشهوات والمعاصي وانواع الفساد ويقول اذا قرب الوقت احدثت توبة وهذا مذهب لا يرتضيه الله
عز وجل من عباده ولا يقبله منهم ولا يصلح عليه احوال العالم ولا يصلح العالم الا على هذا الذي اقتضته
حكمته وسبق في علمه فلو ان عبدا من عبيدك عمل على ان يسخطك اعواما ثم يرضيك ساعة واحدة اذا تيقن
انه صائر اليك لم تقبل منه ولم يفز لديك بما يفوز به من همه رضاك وكذا سنة الله عز وجل ان العبد
اذا عاين الانتقال الى الله عز وجل لم ينفعه توبة ولا اقلاع قال تعالى وليست التوبة
للذين يعملون السيئات حتى اذا حضر احدهم الموت قال اني تبت الان وقوله تعالى فلما راوا باسنا
قالوا امنا بالله وحده وكفرنا بما كنا به مشركين فلم يك ينفعهم ايمانهم لما راوا باسنا سنة الله التي قد خلت في
عباده وانما يغفر الله للعبد اذا كان وقوع الذنب منه على وجه غلبة الشهوة وقوة الطبيعة فيواقع
الذنب مع كراهيته له من غير اصرار في نفسه فهذا ترجى له مغفرة الله وصفحه وعفوه لعلمه تعالى
بضعفه وغلبة شهوته له وانه يرى في كل وقت ما لا صبر له عليه فهو اذا واقع الذنب واقعه
مواقعة ذليل منكسر خاضع لربه خائف منه يختلج في صدره شهوة النفس الذنب وكراهة الايمان
له فهو يجيب داعي النفس تارة وداعي الايمان تارات فاما من بنى امره على ان لا يقف عن ذنب ولا
يقدم خوفا ولا يدع لله شهوة وهو فرح مسرور يضحك ظهرا لبطن اذا ظفر بالذنب فهذا الذي
يخاف عليه ان يحال بينه وبين التوبة ولا يوفق لها فانه من معاصيه وقبائحه على نقد عاجل يتقاضاه
سلفا وتعجيلا ومن توبته وانابته ورجوعه الى الله على دين مؤجل الى انقضاء الاجل وانما كان هذا
الضرب من الناس يحال بينهم وبين التوبة غالبا لان النزوع عن اللذات والشهوات الى مخالفة الطبع
والنفس والاستمرار على ذلك شديد على النفس صعب عليها اثقل من الجبال عليها ولا سيما اذا انضاف
الى ذلك ضعف البصيرة وقلة النصيب من الايمان فنفسه لا تطوع له ان يبيع نقدا بنسيئة
ولا عاجلا باجل كما قال بعض هؤلاء وقد سئل ايما احب اليك درهم اليوم او دينار غدا فقال
لا هذا ولا هذا ولكن ربع درهم من اول امس فحرام على هؤلاء ان يوفقوا للتوبة الا ان يشاء الله فاذا بلغ
العبد حد الكبر وضعف بصره ووهنت قواه وقد اوجبت له تلك الاعمال قوة في غيه وضعفا
في ايمانه صارت كالملكة له بحيث لا يتمكن من تركها فان كثرة المزاولات تعطي الملكات فتبقى للنفس
هيئة راسخة وملكة ثابتة في الغي والمعاصي وكلما صدر منه واحد منها اثر اثرا زائدا على اثرها

قبله ويقوى الاقتران وهلم جرا فيهجم عليه الضعف والكبر ووهن القوى على هذه الحال فينتقل الى الله
سبحانه بنجاسته واوساخه وادرانه لم يتطهر للقدوم على اسقاطه ربه ولو انه تاب واناب وقت
القدرة والامكان لقبلت توبته ومحيت سيئاته ولكن حيل بينهم وبين ما يشتهون ولا شيء اشهى لمن انتقل الى الله
على هذه الحال من التوبة ولكن فرط في داء الدين حتى فقد المال ولو اداه وقت الامكان لقبله ربه
وسبيل المسوف المفرط في دين الله ان واي غريم يتقاضاه يوم يكون الوفاء من الحسنات فان فنيت
فيحمل السيئات فيا لك من حكمة الله ونعمه على عباده ان ستر عنهم مقادير آجالهم ومبلغ اعمارهم فلا يزال الكيس
يترقب الموت قد وضعه بين عينيه فينكف عما يضره في معاده ويجتهد فيما ينفعه ويسر به عند القدوم
فان قلت فها هو مع ذلك قد غيب عنه مقدار اجله وهو يترقب الموت في كل ساعة ومع ذلك يقارف
الفواحش وينتهك المحارم فاي فائدة وحكمة حصلت بستر اجله عنه قيل لعمر الله ان الامر
كذلك وهذا الموضع هو الذي حير الباب العقلاء وافترق الناس لاجله فرقا شتى ففرقة انكرت
الحكم وتعليل افعال الرب جملة وقالوا اما الجبر المحض وشدوا على نفوسهم الباب وقالوا لا تعلل افعال
الرب تعالى ولا هي مقصودها مصالح العباد وانما مصدرها محض المشيئة وصرف الارادة فانكروا حكمة
الله في خلقه وامره وفرقة نفت لاجلها القدر جملة وزعموا ان افعال العباد غير مخلوقة لله حتى تطلب
لها وجه الحكمة وانما هي خلقهم وابداعهم فهي واقعة بحسب جهلهم وظلمهم وضعفهم فلا تقع على السداد
والصواب الا اقل القليل منها فهاتان الطائفتان متقابلتان اعظم تقابل فالاولى غلت في الجبر وانكار
الحكم المقصودة في افعال الله والثانية غلت في القدر واخرجت كثيرا من الحوادث بل اكثرها عن ملك
الرب وقدرته وهدى الله اهل السنة الوسط لما اختلفوا فيه من الحق باذنه فاثبتوا لله عز وجل
عموم القدرة والمشيئة وانه تعالى لا يكون في ملكه ما لا يشاء او يشاء ما لا يكون وان اهل سمواته وارضه
اعجز واضعف من ان يخلقوا ما لم يخلقه الله ويحدثوا ما لم يشاء بل ما شاء الله كان ووجد بوجود مشيئته
وما لم يشأ لم يكن وامتنع وجوده لعدم مشيئته له وانه لا حول ولا قوة الا به ولا يتحرك في العالم العلوي
والسفلي ذرة الا باذنه ومع ذلك فله في كل ما خلق وقضى وقدر وشرع الحكم البالغة والعواقب
الحميدة وما اقتضاه كمال حكمته وعلمه وهو العليم الحكيم فما خلق شيئا ولا قضاه ولا شرعه الا لحكمة
بالغة وان تقاصرت عنها عقول البشر فهو الحكيم القدير فلا تجحد حكمته كما لا تجحد قدرته والطائفة
الاولى جحدت الحكمة والثانية جحدت القدرة والامة الوسط اثبتت له كمال الحكمة وكمال القدرة
فالفرقة الاولى تشهد في المعصية مجرد المشيئة والخلق العاري عن الحكمة وربما شهدت الجبر وان

حركاتهم

حركاتهم بمنزلة حركات الاشجار ونحوها والفرقة الثانية تشهد في المعصية مجرد كونها
فاعلة محدثة لها هي التي شاءت ذلك بدون مشيئة الله والامة الوسط تشهد عز الربوبية
وقهر المشيئة ونفوذها في كل شيء وتشهد مع ذلك فعلها وكسبها واختيارها وايثارها شهواتها
على مرضاة ربها فيوجب لها الشهود الاول سؤال ربها والتذلل له والتضرع اليه وان يوفقها
لطاعته ويحول بينها وبين معصيته وان يثبتها على دينه ويعصمها بطواعيته ويوجب
الشهود الثاني لها اعترافها بالذنب واقرارها به على انفسها وانها هي الظالمة المستحقة للعقوبة
وتنزيه ربها عن الظلم وان يعذبها بغير استحقاق منها او يعذبها على ما لم يعمله فيجتمع لها الشهودين
شهود التوحيد والعدل والشرع والحكمة وقد ذكرنا في الفتوحات القدسية مشاهد الخلق — هذا اسم كتاب له
في مواقعة الذنب وانها تنتهي الى ثمانية مشاهد احدها المشهد الحيواني البهيمي الذي
شهود صاحبه مقصور على شهود اللذة فقط وهو في هذا المشهد مشارك لسائر الحيوانات وربما
يزيد عليها في اللذة وكثرة التمتع **الثاني** مشهد الجبر وان الفاعل فيه سواه والمحرك
له غيره ولا ذنب له فهو وهذا مشهد المشركين واعداء الرسل **الثالث** مشهد القدر وهو
انه هو الخالق لفعله المحدث له بدون مشيئة الله وخلقه وهذا مشهد القدرية المجوسية
الرابع مشهد اهل العلم والايمان وهو مشهد القدر والشرع يشهد فعله وقضاء الله وقدره
كما تقدم **الخامس** مشهد الفقر والفاقة والعجز والضعف وانه ان لم يعنه الله
ويثبته ويوفقه فهو هالك والفرق بين هذا ومشهد الجبرية ظاهر **السادس** مشهد
التوحيد الذي يشهد فيه انفراد الله عز وجل بالخلق والابداع ونفوذ المشيئة وان الخلق اعجز ان يعصوه
بغير مشيئته والفرق بين هذا وبين المشهد الخامس ان صاحبه شاهد لكمال فقره وضعفه وحاجته
وهذا شاهد لتفرد الله عز وجل بالخلق والابداع وانه لا حول ولا قوة الا به **السابع** مشهد
الحكمة وهو ان يشهد حكمة الله عز وجل في قضائه وتخليته بين عبده وبين الذنب ولله في ذلك حكم تعجز
العقول عن الاحاطة بها وذكرنا منها في ذلك الكتاب قريبا من اربعين حكمة وقد تقدم في اول — يعني الفتوحات القدسية
هذا الكتاب التنبيه على بعضها **الثامن** مشهد الاسماء والصفات وهو ان يشهد ارتباط الخلق
والامر والقضاء والقدر باسمائه تعالى وصفاته وان ذلك موجبها ومقتضاها فاسماؤه الحسنى اقتضت
ما اقتضته من التخلية بين العبد وبين الذنب فانه الغفار التواب العفو الحليم وهذه اسماء تطلب
آثارها وموجباتها ولا بد فلو لم تذنبوا لذهب الله بكم ولجاء بقوم يذنبون ويستغفرون فيغفر لهم

وهذا المشهد والذي قبله اجل هذه المشاهد وارفعها قدرا وهما لخواص الخليقة فتامل
بعد ما بينهما وبين المشهد الاول وهذان المشهدان يطرحان العبد على باب المحبة ويفتحان له من المعارف
والعلوم امورا لا يعبر عنها وهذا باب عظيم من ابواب المعرفة قل من استفتحه من الناس وهو شهود الحكمة
البالغة في قضاء السيئات وتقدير المعاصي وانما استفتح الناس باب الحكمة في الاوامر والنواهي وخاضوا
فيها واتوا بما وصلت اليه علومهم واستفتحوا ايضا بابها في المخلوقات كما قدمنا واتوا فيه بما وصلت
قواهم واما هذا الباب فكما رايت كلامهم فيه فقل ان ترى لاحد منهم فيه ما يشفي او يلم وكيف يطلع
على حكمة هذا الباب من عنده ان اعمال العباد ليست مخلوقة لله ولا داخلة تحت مشيئته اصلا وكيف يطلب
لها حكمة او يثبتها من يقول ان افعاله تعالى غير معللة بالحكم ولا يدخلها لام تعليل
اصلا وان جاء شيء من ذلك صرف الكلام الى لام العاقبة لا الى لام العلة والغاية فاما اذا جاءت الباء في
افعاله صرفناها الى باء المصاحبة لا باء السببية واذا كان المتكلمون عند الناس هم هؤلاء الطائفتين
فانهم لا يرون الحق خارجا عنهما ثم كثير من الفضلاء يتحير اذا راى بعض اقوالهم الفاسدة من
ولا يدري اين يذهب ولما عربت كتب الفلاسفة صار كثير من الناس اذا راى اقوال المتكلمين الضعيفة وقد
قالوا ان هذا هو الذي جاء به الرسول قطع القنطرة وعدى الى تلك البر وكل هذا من الجهل
القبيح والظن الفاسد ان الحق لا يخرج عن اقوالهم فانا ان خرج الحق عن اقوالهم وما الذي يمنعه في المسائل التي
هي حق وصواب الى خلاف الصواب والمقصود ان المتكلمين لو اجمعوا على شيء لم يكن اجماعهم حجة
عند احد من العلماء فكيف اذا اختلفوا والمقصود ان مشاهدة حكمة الله في اقضيته واقداره التي يجريها
على عباده باختيارهم وارادتهم هو من الطف ما تكلم فيه الناس وادقه واغمضه وفي ذلك حكم
لا يعلمها الا الحكيم العليم سبحانه ونحن نشير الى بعضها فمنها انه سبحانه يحب التوابين حتى ان من محبته لهم
انه يفرح بتوبة احدهم اعظم من فرح الواجد لراحلته التي عليها طعامه وشرابه في الارض الدوية
المهلكة اذا فقدها وايس منها وليس في انواع الفرح اكمل ولا اعظم من هذا الفرح كما سنوضحه
ونزيده تقريرا عن قريب ان شاء الله ولولا المحبة التامة للتوبة ولاهلها لم يحصل هذا الفرح ومن المعلوم
ان وجود المسبب بدون سببه ممتنع وهل يوجد ملزوم بدون لازمه او غاية بدون وسيلتها
وهذا معنى قول بعض العارفين لو لم تكن التوبة احب الاشياء اليه لما ابتلى بالذنب اكرم المخلوقات
عليه فالتوبة هي غاية كمال كل آدمي وانما كان كمال ابيهم بها فكم بين حاله وقد قيل له ان لك الا
تجوع فيها ولا تعرى وانك لا تظمأ فيها ولا تضحى وبين قوله ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى فالحال

الاول

الاولى حال اكل وشرب وتمتع والحال الاخرى حال اجتباء واصطفاء وهداية فيا بعد ما بينهما
ولما كان كماله بالتوبة كان كمال بنيه ايضا بها كما قال تعالى ليعذب الله المنافقين
والمنافقات والمشركين والمشركات ويتوب الله على المؤمنين والمؤمنات فكمال الآدمي في هذه الدار بالتو بة
النصوح وفي الاخرة بالنجاة من النار ودخول الجنة وهذا الكمال مرتب على كماله الاول ٥
والمقصود انه سبحانه لمحبته التوبة وفرحه بها يقضي على عبده بالذنب ثم ان كان ممن سبقت
له الحسنى قضى له بالتوبة وان كان ممن غلبت عليه شقاوته اقام عليه حجة عدله وعاقبه بذنبه ٥

فصل ومنها انه سبحانه يحب ان يتفضل على عباده ويتم عليهم نعمه ويريهم مواقع بره
وكرمه فلمحبته الافضال والانعام ينوعه عليهم اعظم الانواع واكثرها في سائر الوجوه الظاهرة
والباطنة ومن اعظم انواع الاحسان والبر ان يحسن الى من اساء ويعفو عمن ظلم ويغفر لمن اذنب
ويتوب على من تاب اليه ويقبل عذر من اعتذر اليه وقد ندب عباده الى هذه الشيم الفاضلة والافعال
الجميلة وهو اولى بها منهم واحق وكان له في تقدير اسبابها من الحكم والعواقب الحميدة ما يبهر
العقول فسبحانه وبحمده وحكي عن بعض العارفين انه قال طفت في ليلة مطيرة شديدة الظلمة
وقد خلا الطواف وطابت نفسي فوقفت عند الملتزم ودعوت وقلت اللهم اعصمني حتى لا اعصيك
فهتف بي هاتف انت تسالني العصمة وكل عبادي يسالوني العصمة فاذا عصمتهم فعلى من اتفضل ولمن
اغفر قال فبقيت ليلتي الى الصباح استغفر الله حياء منه هذا ولو شاء الله عز وجل ان لا يعصى
في الارض طرفة عين لم يعص ولكن اقتضت مشيئته ما هو موجب حكمته سبحانه فمن اجهل بالله ممن يقول
انه يعصى قهرا بغير اختياره ومشيئته سبحانه وتعالى عما يقولون علوا كبيرا ٥

فصل ومنها انه سبحانه له الاسماء الحسنى ولكل اسم من اسمائه اثر من الاثار في الخلق والامر لا بد من ترتبه عليه
كترتب المرزوق والرزق على الرازق وترتب المرحوم واسباب الرحمة على الراحم وترتب المرئيات
والمسموعات على السميع والبصير ونظائر ذلك في جميع الاسماء فلو لم يكن في عباده من يخطئ ويذنب ليتوب
عليه ويغفر له ويعفو عنه لم يظهر اثر اسمائه الغفور والعفو والحليم والتواب وما جرى مجراها
وظهور اثر هذه الاسماء ومتعلقاتها في الخليقة كظهور اثار سائر الاسماء الحسنى ومتعلقاتها
فكما ان اسمه الخالق يقتضي مخلوقا والبارئ يقتضي مبروءا والمصور يقتضي مصورا ولا بد فاسماؤه الغفار
التواب العفو الحليم يقتضي مغفورا له وما يغفره له وكذلك من يتوب عليه وامورا يتوب عليه من اجلها
ومن يحلم عنه ويعفو عنه وما يكون متعلق الحلم والعفو فان هذه الامور متعلقة بالغير ومعانيها

مستلزمة لمتعلقاتها وهذا باب أوسع من أن يدرك والبيت يكفي منه بالتنبيه وغليظ الحجاب في
وادٍ ونحن في وادِ ۝ وإن كان أنك لو أراد يجمع بيننا فغير خفي شبه حرامه
فتأمل ظهور هذين الاسمين اسم الرزاق واسم الغفار في الخليقة ترى ما يبهر العقول وتأمل
آثارهما حق التأمل في أعظم مجامع الخليقة وانظر كيف وسعهم رزقه ومغفرته ولولا ذلك لما كان
لأحد قيام أصلاً فلكل منهم نصيب من الرزق والمغفرة فأما متصلاً بنشأته الثانية وأما مختصاً بهذه
النشأة ۝ **فصل** ومنها أنه سبحانه يعرف عبده عزه في قضائه وقدره ونفوذ مشيئته
وجريان حكمه وأنه لا محيص للعبد عما قضاه الله عليه ولا مفر له منه بل هو في قبضة مالكه وسيده
وأنه عبده وابن عبده وابن أمته ناصيته بيده ماضٍ فيه حكمه عدل فيه قضاؤه ۝ **فصل**
ومنها أن يعرف العبد حاجته إلى حفظه له ومعونته وصيانته وأنه كالوليد الطفل في حاجته
إلى من يحفظه ويصونه فإن لم يحفظه مولاه الحق ويصونه ويعينه فهو هالك ولا بد وقد مدت
الشياطين أيديها إليه من كل جانب تريد تمزيق حاله كله وإفساد شأنه كله وإن مولاه وسيده إن
وكله إلى نفسه وكله إلى ضيعة وعجز وذنب وخطيئة وتفريط فهلاكه أدنى إليه من شراك نعله فقد أجمع
العلماء بالله على أن التوفيق أن لا يكل الله العبد إلى نفسه وأجمعوا على أن الخذلان أن يخلي بينه وبين نفسه
فصل ومنها أنه سبحانه يستجلب من عبده بذلك ما هو من أعظم أسباب سعادة العبد
من استعانته به واستعاذته به من شر نفسه وكيد عدوه ومن أنواع الدعاء والتضرع والابتهال والإنابة
والفاقة والمحبة والرجاء والخوف وأنواع من كمالات العبد تبلغ نحو المائة ومنها ما لا تدركه
العبارة وإنما يدرك بوجوده فيحصل للروح بذلك قرب خاص لم يكن يحصل بدون هذه الأسباب
ويجد العبد من نفسه كأنه ملقى على باب مولاه بعد أن كان نائياً عنه وهذا الذي لأجله أن الله
يحب التوابين وهو من لله أفرح بتوبة عبده وأسرار هذا الوجه يضيق عنها القلب واللسان
وعسى أن يجيء في القسم الثاني من الكتاب ما نقربه عليك إن شاء الله تعالى فكم بين عابد مدل على ربه
بعبادته شامخ بأنفه كلما طلب منه أوصاف العبد قامت صور تلك الأعمال في نفسه فحجبته عن معبوده
وإلهه وبين عابد من قد كسر الذل قلبه كل الكسر وأحرق ما فيه من الرعونات والحماقات
والخيالات فهو لا يرى نفسه مع الله إلا مسيئاً كما لا يرى ربه إليه إلا محسناً فهو لا يرى نفسه سد طرفه
عين قد كسر انكساره على نفسه قلبه وذلل لسانه وجوارحه وطأطأ منه ما ارتفع من
قلبه وأنف بين يدي ربه وقوف ناكس الرأس خاضع غاض البصر خاشع الصوت هادي الحركات

فنجد

قد سجد بين يديه سجدة إلى الممات فلو لم يكن من ثمرة ذلك القضاء والقدر إلا هذا وحده لكفى به حكمة
والله المستعان ۝ **فصل** ومنها أنه سبحانه يستخرج بذلك من عبده تمام عبوديته
فإن تمام العبودية هو بتكميل مقام الذل والانقياد وأكمل الخلق عبودية أكملهم ذلاً لله وانقياداً وطاعة
والعبد ذليل لمولاه الحق بكل وجه من وجوه الذل فهو ذليل لعزه وذليل لقهره وذليل لربوبيته
وتصرفه فيه وذليل لإحسانه إليه وإنعامه عليه فإن من أحسن إليك فقد استعبدك وصار قلبك
معبداً له وذليل بحاجته إليه على عدد اللحظات في جلب كل ما ينفعه ودفع كل ما يضره وهي نوعا
من أنواع التذلل والتعبد لهما أثر عجيب ويقتضيان من صاحبهما من الطاعة والفوز ما لا يقتضيه غيرهما
لأجل ذل المحبة وهذا نوع آخر غير ما تقدم وهو خاصة المحبة ولبها بل هو روحها وقوامها
وحقيقتها وهو المراد على الحقيقة من العبد لو فطن وهذا يستخرج من قلب المحب من أنواع التقرب والتودد
والتملق والإيثار والرضى والحمد والشكر والصبر والتقدم وتحمل العظائم ما لا يستخرجه الخوف وحده ولا
الرجاء وحده كما قال بعض الصحابة رضي الله عنهم إنه ليستخرج محبته من قلبي من طاعته ما لا يستخرجه
خوفه أو كما قال فهذا ذل المحبين الذل اللائق ذل المعصية فإذا انضاف هذا إلى هذا
هناك فنيت الرسوم وتلاشت الأنفس واضمحلت القوى وبطلت الدعاوى جملة وذهبت الرعونات
وطاحت الشطحات ومحي من القلب واللسان أنا وأنا واستراح المسكين من شكاوى الصدود والإعراض
والهجر وتجرد الشهودان فلم يبق إلا شهود العز والجلال المحض الذي قد تفرد به ذو الجلال
والإكرام الذي لا يشاركه أحد من خلقه في ذرة من ذاته وشهود الذل والفقر المحض من جميع الوجوه
بكل اعتبار فشهد عليه ذله وانكساره وعز محبوبه وجلاله وعظمته وقدرته وغناه فإذا تجرد له
هذان الشهودان ولم يبق فيه ذرة من الذل والفقر والضرورة إلى ربه إلا شهدها فيه بالفعل وقد
شهد مقابلها هنالك فلله أي مقام أقيم فيه هذا القلب إذ ذاك وأي قرب حظي به وأي نعيم أدركه
وأي روح باشره فتأمل الآن موقع الكسرة التي حصلت له بالمعصية في هذا الموطن ما أعجبها
وما أعظم موقعها كيف جاءت فمحقت من نفسه الدعاوى والرعونات وأنواع الأماني الباطلة ثم أوجب
لها الحياء والخجل من صالح ما عمل ثم أوجب له استكثار قليل ما يرد عليه من ربه لعلمه بأن قدره أصغر من
ذلك وأنه لا يستحقه واستقلال أمثال الجبال من عمله الصالح بأن سيئاته وذنوبه تحتاج من المكفرات
والماحيات إلى أعظم من هذا فهو لا يرى إلا محسناً وهو عند نفسه المسيء المذنب منكسراً ذليلاً خاضعاً لا يرفع
له رأساً ولا يثبت له صدراً وإنما ساقه إلى هذا الذل الذي أورثه إياه مباشرة الذنب فأي شيء أنفع

له من هذا الداء لعل عتبك محمود عواقبه وربما صحت الاجسام بالعلل
ونكتة هذا الوجه ان العبد متى شهد صلاحه واستقامته شمخ بانفه وتعاظمت اليه نفسه
وظن انه وانه فاذا ابتلي بالذنب تصاغرت اليه نفسه وذل وخضع وتيقن انه وانه فصل
ومنها ان العبد يعرف حقيقة نفسه وانها الظالمة وان ما صدر منها من شر فقد صدر من اهله
ومعدنه اذ الجهل والظلم منبع الشر كله وان كل ما فيها من خير وعلم وهدى وانابة وتقوى فهو من ربها
تعالى هو الذي زكاها به واعطاها اياه لا منها فاذا لم يشأ تزكية العبد تركه مع دواعي جهله
وظلمه فهو تعالى الذي يزكي من يشاء من النفوس فتزكو وتاتي بانواع الخير والبر ويترك تزكية من يشاء منها
فتاتي بانواع الشر والخبث وكان من دعاء النبي صلى الله عليه وسلم اللهم آت نفسي تقواها وزكها انت خير من
زكاها انت وليها ومولاها فاذا ابتلى الله العبد بالذنب عرف به نفسه ونقصها فرتب له على ذلك العرفان
حكم ومصالح عديدة منها انه يانف من نقصها ويجتهد في كمالها ومنها ان يعلم فقرها دائما الى من
يتولاها ويحفظها ومنها انه يستريح ويريح العباد من الدعاوى والجهالات التي ادعاها اهل الجهل في
انفسهم من قدم او اتصال بالقديم واتحاد به او حلول او غير ذلك من المحالات فلولا ان هؤلاء غاب عنهم
شهودهم لنقص انفسهم وحقيقتها لم يتفوهوا فيها بما تفوهوا به فصل ومنها تعريفه سبحانه
عبده سعة حلمه وكرمه في ستره عليه وانه لو شاء لعاجله على الذنب ولهتكه بين عباده فلم يطب له
معهم عيش ابدا ولكن جلله بستره وغشاه بحلمه وقيض له من يحفظه وهو في حالته تلك بل كان شاهدا
يبارزه بالمعاصي والاثام وهو مع ذلك يحرسه بعينه التي لا تنام وقد جاء في بعض الاثار يقول مطلب
الله تعالى انا الجواد الكريم من اعظم مني جودا وكرما عبادي يبارزوني بالعظائم وانا اكلؤهم في مضاجعهم
فاي حلم اعظم من هذا الحلم واي كرم اوسع من هذا الكرم فلولا حلمه ومغفرته لما استقرت السموات
والارض في اماكنهما قال تعالى ان الله يمسك السموات والارض ان تزولا ولئن زالتا ان
امسكهما من احد من بعده انه كان حليما غفورا فهذه الاية تقتضي الحلم والمغفرة فلولا حلمه ومغفرته
لزالتا عن اماكنهما ومن هذا قوله تعالى تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الارض وتخر الجبال هدا
ان دعوا للرحمن ولدا فصل ومنها تعريفه عبده انه لا سبيل له الى النجاة الا بعفوه
ومغفرته وانه رهين بحقه فان لم يتغمده بعفوه ومغفرته والا فهو من الهالكين لا محالة فليس احد
من خلقه الا وهو محتاج الى عفوه ومغفرته كما هو محتاج الى فضله ورحمته فصل
ومنها تعريفه عباده كرمه سبحانه في قبول توبته ومغفرته له على ظلمه واساءته فهو الذي

جاد عليه

جاد عليه بان وفقه للتوبة والهمه اياها ثم قبلها منه فتاب عليه اولا واخرا فتوبة العبد محفوفة
بتوبة قبلها عليه من الله اذنا وتوفيقا وتوبة ثانية عليه قبولا ورضى فله الفضل في التوبة والكرم
اولا واخرا لا اله الا هو فصل ومنها اقامة حجة عدله على عبده ليعلم العبد ان لله
عليه الحجة البالغة فاذا اصابه ما اصابه من المكروه فلا يقول من اين هذا ولا من اين اتيت ولا باي
ذنب اصبت فما اصاب العبد مصيبة قط دقيقة ولا جليلة الا بما كسبت يداه وما يعفو الله عنه
اكثر وما نزل بلاء قط الا بذنب ولا رفع الا بتوبة ولهذا وضع الله المصائب والبلايا والمحن رحمة
بين عباده يكفر بها من خطاياهم فهي من اعظم نعمه عليهم وان كرهتها انفسهم ولا يدري العبد اي النعمتين
عليه اعظم نعمته عليه فيما يكره او نعمته عليه فيما يحب وما يصيب المؤمن من هم ولا وصب ولا اذى
حتى الشوكة يشاكها الا كفر الله بها من خطاياه واذا كان للذنوب عقوبات ولا بد فكلما عوقب به
العبد من ذلك قبل الموت خير له مما بعده وايسر واسهل بكثير فصل ومنها ان يعامل
العبد بني جنسه في اساءتهم اليه وزلاتهم معه بما يحب ان يعامله الله في اساءته وزلاته وذنوبه
فان الجزاء من جنس العمل فمن عفا عفا الله عنه ومن سامح اخاه في اساءته اليه سامحه الله في سيئاته
ومن اغضى وتجاوز تجاوز الله عنه ومن استقصى استقصى عليه وتامل حال الذي قبضت الملائكة روحه
فقيل له هل عملت خيرا او عملت حسنة قط قال ما اعلمه قيل تذكر قال كنت ابايع الناس فكنت انظر
الموسر واتجاوز عن المعسر او قال كنت امر فتياني ان يتجاوزوا في السكة فقال الله نحن احق بذلك
منك وتجاوز عنه فالله عز وجل يعامل العبد في ذنوبه بمثل ما يعامل به العبد الناس في ذنوبهم فاذا
عرف العبد ذلك كان في ابتلائه بالذنوب من الحكم والفوائد ما هو انفع الاشياء له فصل
ومنها انه اذا عرف هذا فاحسن الى من اساء اليه ولم يقابله باساءته اساءة مثلها تعرض بذلك
لمثلها من ربه تعالى وانه سبحانه يقابل اساءته وذنوبه باحسانه كما كان هو يقابل بذلك اساءة
الخلق اليه والله اوسع فضلا واكرم واجزل عطاء فمن احب ان يقابل الله اساءته بالاحسان فليقابل
هو اساءة الناس اليه بالاحسان ومن علم ان الذنوب والاساءة لازمة للانسان لم يعظم عنده اساءة
الناس اليه فليتامل هو حاله مع الله كيف هي مع فرط احسانه اليه وحاجته هو الى ربه وهكذا
هو له فاذا كان العبد هكذا لربه فكيف ينكر ان يكون الناس له بتلك المنزلة فصل
ومنها ان يقيم معاذير الخلائق وتتسع رحمته لهم ويفرج بطانه ويزول ذلك الحصر والضيق
والانحراف واكل بعضه بعضا ويستريح العصاة من دعائه عليهم وقنوته عليهم وسؤال الله ان

يخسف بهم الارض ويسلط عليهم البلاء فانه حينئذ يرى نفسه واحدا منهم فهو يسال الله لهم ما يساله
لنفسه واذا دعا لنفسه بالتوبة والمغفرة والعفو ادخلهم معه فيرجو لهم ما يرجو لنفسه ويخاف
عليهم اكثر مما يخاف على نفسه فاين هذا من حاله الاولى وهو ناظر اليهم بعين الاحتقار والازدراء
لا يجد في قلبه رحمة لهم ولا دعوة ولا يرجو لهم نجاة فالذنب في حق مثل هذا من اعظم اسباب رحمته ومع
هذا فيقيم فيهم امر الله طاعة لله ورحمة بهم واحسانا اليهم اذ هو عين حظهم لا قسوة ولا غلظة ولا
فظاظة ه **فصل** ومنها ان يخلع صولة الطاعة من قلبه وينزع عنه رداء
الكبر والعظمة الذي ليس له ويلبس رداء الذل والانكسار والفقر والفاقة فلو دامت تلك الصولة
والعزة في قلبه لخيف عليه ما هو من اعظم الآفات كما في الحديث لو لم تذنبوا لخفت عليكم ما هو اشد من ذلك
العجب او كما قال صلى الله عليه وسلم فكم بين آثار العجب والكبر وصولة الطاعة وبين آثار الذل والانكسار
كما قيل يا ادم لا تجزع من كاس زلل كانت سبب كيسك فقد استخرج منك داء العجب والبست
رداء العبودية يا ادم لا تجزع من قولي لك اخرج منها فلك خلقتها ولكن انزل الى دار المجاهدة
وابذر بذر العبودية فاذا كمل الزرع واستحصد فتعال فاستوفه لا يوحشنك ذلك العتب
انه لطف بك في الرضا في حاله الغضب فبينا هو لابس ثوب الادلال الذي لا يليق بمثله تداركه
ربه برحمته فنزعه عنه والبسه ثوب الذل الذي يليق بالعبد عبيد فما البس العبد ثوبا اكمل
عليه ولا احسن ولا ابهى من ثوب العبودية وهو ثوب المذلة الذي لا عزة له بغيره ه **فصل**
ومنها ان لله على القلوب انواعا من العبودية من الخشية والخوف والاشفاق وتوابعها من المحبة
والانابة وابتغاء الوسيلة اليه وتوابعها وهذه العبوديات لها اسباب تهيجها وتبعث عليها
فكلما قيضه الرب تعالى لعبده من الاسباب الباعثة على ذلك المهيجة له فهو من اسباب رحمته له
ورب ذنب قد هاج لصاحبه من الخوف والاشفاق والوجل والانابة والمحبة والايثار والفرار
الى الله ما لا يهيجه له كثير من الطاعات وكم من ذنب كان سبب استقامة العبد وفراره الى الله وبعده من
طرق الغي فهو بمنزلة خلط فاحش في مزاجه وكان عنده اخلاط رديئة قاتلة وهو لا يشعر
فشرب دواء ازال تلك الاخلاط العفنة التي لو دامت لترامت به الى الفساد والعطب وان يبلغ
رحمته ولطفه ومن بعبده هذا المبلغ وما هو اعجب والطف منه فحقيق بان يكون الحمد كله له
والطاعة كلها له وان يذكر فلا ينسى وان يطاع فلا يعصى ويشكر فلا يكفر ه **فصل**
ومنها ان يعرف العبد مقدار نعمة معافاته وفضله في توفيقه له وحفظه اياه فان من تربى في

العافية

العافية لا يعرف ما يقاسيه المبتلى ولا يعرف مقدار النعمة فلو عرف اهل طاعة الله انهم هم
المنعم عليهم في الحقيقة وان لله عليهم من الشكر اضعاف ما على غيرهم وان توسدوا التراب ومضغوا
الحصا فهم اهل النعمة المطلقة وان من خلى الله بينه وبين معاصيه فقد سقط من عينه وهان عليه
وان ذلك ليس من كرامته على ربه وان وسع له في الدنيا ومد له من اسبابها فانهم اهل الابتلاء على
الحقيقة فاذا طالبت العبد نفسه بما تطالبه به من الحظوظ والاقسام وارته انه في بلية وضائقة
تداركه الله برحمته وابتلاه ببعض الذنوب فرأى ما كان فيه من المعافاة والنعمة وانه لا نسبة لما كان
فيه من النعم الى ما طلبته نفسه من الحظوظ فحينئذ يكون اكثر امانيه وآماله العود الى حاله وان
يمتعه الله بعافيته ه **فصل** ومنها ان التوبة توجب للتائب آثارا عجيبة
من المقامات لا تحصل بدونها فتوجب له من المحبة والرقة واللطف وشكر الله وحمده والرضى عنه
عبوديات اخر فانه اذا تاب الى الله فقبل الله توبته فرتب له على ذلك القبول انواعا من النعم
لا يهتدي العبد لتفاصيلها بل لا يزال يتقلب في بركتها وآثارها ما لم ينقضها ويفسدها ه
فصل ومنها ان الله سبحانه يحبه ويفرح بتوبته اعظم فرح وقد تقرر ان الجزاء
من جنس العمل فلا ينسى الفرحة التي يظفر بها عند التوبة النصوح وتامل كيف تجد القلب
يرقص فرحا وانت لا تدري سبب ذلك الفرح ما هو وهذا امر لا يحس به الا حي القلب واما ميت
القلب فانما يجد الفرح عند ظفره بالذنب ولا يعرف فرحا غيره فوازن بين هذين الفرحين
وانظر ما يعقبه فرح الظفر بالذنب من انواع الاحزان والهموم والغموم والمصائب فمن يشتري
فرحة ساعة بغم الابد وانظر ما يعقبه فرح الظفر بالطاعة والتوبة النصوح من الانشراح
الدائم والنعيم وطيب العيش ووازن بين هذا وهذا ثم اختر ما يليق بك ويناسبك وكل
يعمل على شاكلته   وكل امرئ يصبو الى ما يناسبه
فصل ومنها انه اذا شهد ذنوبه ومعاصيه وتفريطه في حق ربه
استكثر القليل من نعم الله عليه ولا قليل منه لعلمه بان الواصل اليه منها كثير على مثله واستقل
الكثير من عمله لعلمه بان الذي ينبغي ان يغسل به نجاسته واوضاره واوساخه اضعاف ما ياتي به فهو
دائما مستقل لعمله كائنا ما كان مستكثر لنعمة الله عليه وان دقت وقد تقدم التنبيه على هذا
الوجه وهو من الطف الوجوه فعليك بمراعاته فله تاثير عجيب ولو لم يكن في فوائد الذنب الا هذا
لكفى به فاين حال هذا من حال من لا يرى لله عليه نعمة الا ويرى انه كان ينبغي ان يعطى ما هو فوقها

واجل منه وانه لا يقدر ان يتكلم وكيف يعاند القدر وهو مطلوب مع الذنب لا يصفو له بعطيه مرتبه بل هو حري بمعاندته لفضله وكماله وانه كان ينبغي له ان ينال الثريا ويطا باخمصه هنالك ولكنه مظلوم منحوس الحظ وهذا الضرب من ابغض الخلق الى الله واشدهم مقتا عند الله تعالى يعني انهم لا يزالون في سفال فهم يتعتب على الخالق ويشكوه له وذل لخلقه وحاجه اليهم وجدهم اشغل الناس قلوبا بابواب الولايات والمناصب ينظرون ما يتقربون به اليهم من عظامهم وغسالة ايديهم وادوابهم وافرغ الناس قلوبا عن معامله الله والانقطاع اليه والتلذذ بمناجاته والطمانينه بذكره وقره العين بخشيته والتحبب فنعوذ بالله من زوال نعمته وتحول عافيته وفجاه نقمته وجميع سخطه ٥

فصل ومنها ان الذنب يوجب لصاحبه السقوط والتحرز مصايد عدوه ومكامنه ومن اين يدخل عليه اللصوص والقطاع ومكامنهم ومن اين يخرجون عليه وفي اي وقت يخرجون فهو قد استعد لهم وتاهب وعرف بماذا يستدفع شرهم وكيدهم فلو انه مر عليهم على غرة وطمانينه لم يامن ان يظفروا به ويجتاحوا جملة ٥

فصل ومنها ان القلب يكون ذاهلا عن عدوه معرضا عنه مشتغلا ببعض مهماته فاذا اصابه سهم من عدوه استجمعت له قوته وحاسته وحميته وطلب بثاره ان كان قلبه حرا كريما كالرجل الشجاع اذا جرح فانه لا يقوم له شي بل تراه بعدها هائجا طالبا مقدما والقلب الجبان المهين اذا جرح كالرجل الضعيف المهين اذا جرح ولى هاربا والجراحات في اكتافه وكذلك الاسد اذا جرح فانه لا يطاق فلا خير فيمن لا مروه له يطلب اخذ ثاره من اعدى عدوه فما شي اشفى للقلب من اخذه بثاره من عدوه ولا عدو اعدى له من الشيطان فان كان من قلوب الرجال المتسابقين في حلبه المجد جد في اخذ الثار وغاظ عدوه كل الغيظ واضناه كما جاء عن بعض السلف ان المومن لينضي شيطانه كما ينضي احدكم بعيره في السفر ٥

فصل ومنها ان مثل هذا يصير كالطبيب ينتفع به المرضى في علاجهم ودوايهم والطبيب الذي عرف المرض مباشره وعرف دواءه وعلاجه احذق واخبر من الطبيب الذي انما عرفه وصفا هذا في امراض الابدان وكذلك في امراض القلوب وادوايها وهذا معنى قول بعض الصوفيه اعرف الناس بالافات اكثرهم افات وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه انما تنقض عرى الاسلام عروة عروة اذا نشا في الاسلام من لم يعرف الجاهليه ولهذا كان الصحابه رضي الله عنهم اعرف الامه بالاسلام وتفاصيله وابوابه وطرقه واشد الناس رغبة فيه ومحبة له وجهادا لاعدايه وتكلما باعلامه وتحذيرا من خلافه لكمال علمهم بضده فجاءهم الاسلام كل خصله منه مضاده لكل خصله مما كانوا عليه فازدادوا له معرفة

وجا

وحبا وبه جهادا بمعرفتهم بضده وذلك بمنزله من كان في حصر شديد وضيق ومرض وفقر وخوف ووحشه فقيض الله له من نقله منه الى فضا وسعه وامن وعافيه وغنى وبهجه ومسره فانه يزداد سروره وغبطته ومحبته بما نقل اليه بحسب معرفته بما كان فيه وليس حال هذا كمن ولد في الامن والعافيه والغنى والسرور فانه لم يشعر بغيره وربما قيضت له اسباب تخرجه عن ذلك الى ضده وهو لا يشعر وربما ظن ان كثيرا من اسباب الهلاك والعطب تفضي به الى السلامه والامن والعافيه فيكون هلاكه على يدي نفسه وهو لا يشعر وما اكثر هذا الضرب من الناس فاذا عرف الضدين وعلم مباينة الطريقين وعرف اسباب الهلاك على التفصيل كان احرى ان تدوم له النعمه ما لم يوثر اسباب زوالها على علم وفي مثل هذا قال القايل عرفت الشر لا للشر لكن لتوقيه

ومن لا يعرف الشر من الناس يقع فيه ٥

وهذه حال المومن ان يكون فطنا حاذقا اعرف الناس بالشر وابعدهم منه فاذا تكلم في الشر واسبابه ظننته من شر الناس فاذا خالطته وعرفت طويته رايته من ابر الناس والمقصود ان من بلي بالافات صار من اعرف الناس بطرقها وامكنه ان يسدها على نفسه وعلى من استنصحه من الناس ومن لم يستنصحه ٥

فصل ومنها انه يجد من عبدة الم الحجاب عنه والبعد وزوال ذلك الانس والقرب ليمحص عبده فان اقام على الرضى بهذه الحال ولم يجد نفسه تطالبه بحالها الاول مع الله بل اطمانت وسكنت الى غيره علم انه قد سقط من عين ربه وان اشتاقت الى حالها الاول فهو اغاثه الملهوف وتقلق تقلق المكروب ودعا دعاء المضطر وعلم انه قد فاته حياته حقا فهو يهتف بربه ان يرد عليه حياته ويعيد عليه ما لا حياة له بدونه علم انه موضع لما اهل له فرد عليه احوج ما هو اليه فعظمت به فرحته وكملت به لذته وتم به نعمته واتصل به سروره وعلم حسن مقداره فعض عليه بالنواجذ وثنى عليه الخناصر وكان حاله كحال ذلك الفاقد لراحلته التي عليها طعامه وشرابه في الارض المهلكة اذا وجدها بعد معاينته الهلاك فما اعظم موقع تلك الوجدان عنده ولله في ذلك اسرار وحكم ومنبهات وتعريفات لا تنالها عقول البشر ٥

فقل لغليظ القلب ويحك ليس ذا بعشك فادرج طالبا عشك البالي
ولا تك ممن مد باعا الى الجنا فقصر عنه ذا ليس بالحالي

فالعبد اذا بلي بعد الانس بتجرع مر الوحشه وبعد القرب صلي بنار البعاد اشتاقت نفسه الى لذه تلك المعاملة فحنت وانت وتضرعت وتعرضت لنفحات من ليس لها منه عوض ابدا ولا سيما اذا تذكرت بره ولطفه وحنانه

وقربه فان هذه الذكرى تمنعها القرار وتهيج منها البلابل كما قال القائل وقد فاته مطوات
الوداع وذنب الاخطار ورجع اليه ٥

ولما تذكرت المنازل بالحمى ولم يقض لي تسليمه المتردد
تيقنت ان العيش ليس بنافعي اذا انا لم انظر اليها بموعد

وان استمر اعراضها ولم يحن الى معهدها الاول ولم يحس بفاقتها الشديدة وضرورتها الى مراجعة قربها
من ربها فهي ممن اذا غاب لم يطلب واذا ابق لم يسترجع واذا جنى لم يستعتب وهذه هي النفوس التي لم تؤهل
لما هنالك ويحسب المعرض هذا الحرمان فانه يكفيه وذاك ذنب عقابه فيه ٥

فصل ومنها ان الحكمة الالهية اقتضت تركيب الشهوة والغضب في الانسان وهاتان القوتان فيه بمنزلة
صفاته الذاتية لا ينفك عنهما وبهما وقعت المحنة والابتلاء وعرض لنيل الدرجات العلى
واللحاق بالرفيق الاعلى والهبوط الى اسفل سافلين فهاتان القوتان لا تدعان العبد حتى تنيلانه
منازل الابرار او تضعانه تحت اقدام الاشرار ولن يجعل الله من شهوته مصروفة الى ما اعد الله له
في دار النعيم وغضبه حمية لله ولكتابه ولرسوله ولدينه كمن جعل شهوته مصروفة في هواه
وامانيه العاجلة وغضبه مقصورا على حظه ولو انتهكت محارم الله وحدوده وعطلت شرائعه
وسننه نعم اذا حصر هو ملحوظا بعين الاحترام والتعظيم والتوقير ونفوذ الكلمة وهذه حال
اكثر الرؤساء اعاذنا الله منها فلن يجعل الله هذين الصنفين في دار واحدة هذا ارقى بشهوته
وغضبه الى اعلى عليين وهذا هوى بهما الى اسفل سافلين والمقصود ان تركيب الانسان
على هذا الوجه هو غاية الحكمة ولا بد ان يقتضي كل واحد من القوتين اثره فلا بد من وقوع الذنب
والمخالفات والمعاصي فلا بد من ترتب اثار هاتين القوتين عليهما ولو لم يخلقا في الانسان لم يكن انسانا
بل كان ملكا فالترتب من موجبات الانسانية كما قال النبي صلى الله عليه وسلم كل بني ادم خطاء
مطلب — وخير الخطائين التوابون واما من اشتقت له العصمة وضربت عليه سرادقات الحفظ فهم اقل افراد
النوع الانساني وهم خلاصته ولبه ٥

فصل ومنها ان الله سبحانه اذا اراد
بعبده خيرا انساه رؤية طاعاته ورفعها من قلبه ولسانه فاذا ابتلي بالذنب جعله نصب عينيه
ونسي طاعاته وجعل همه كله بذنبه فلا يزال الذنب امامه ان قام او قعد او غدا او راح فيكون
هذا عين الرحمة في حقه كما قال بعض السلف ان العبد ليعمل الذنب فيدخل به الجنة ويعمل
الحسنة فيدخل بها النار قالوا وكيف ذلك قال يعمل الخطيئة فلا تزال نصب عينيه كلما ذكرها بكى

وندم وتاب واستغفر وتضرع واناب الى الله وذل له وانكسر وعمل لها اعمالا فتكون سبب الرحمة
في حقه ويعمل الحسنة فلا تزال نصب عينيه يمن بها ويراها ويعتد بها على ربه وعلى الخلق ويتكبر
بها ويتعجب من الناس كيف لا يعظمونه ويكرمونه ويجلونه عليها فلا تزال هذه الامور به حتى تقوى عليه
اثارها فتدخله النار وعلامة السعادة ان تكون حسنات العبد خلف ظهره وسيئاته نصب عينيه
وعلامة الشقاوة ان يجعل حسناته نصب عينيه وسيئاته خلف ظهره والله المستعان ٥

فصل ومنها ان شهود العبد ذنوبه وخطاياه توجب له ان لا يرى لنفسه على
احد فضلا ولا له على احد حقا فانه يشهد عيوب نفسه وذنوبه فلا يظن انه خير من مسلم يؤمن بالله
ورسوله ويحرم ما حرم الله ورسوله واذا شهد ذلك من نفسه لم ير لها على الناس حقوقا من الاكرام
يتقاضاهم اياها ويذمهم على ترك القيام بها فانها عنده اخس قدرا واقل قيمة من ان يكون لها على
عباد الله حقوق يجب عليهم مراعاتها او لها عليهم فضل يستحق ان يكرم ويعظم ويقدم لاجله فيرى
ان من سلم عليه او لقيه بوجه منبسط فقد احسن اليه وبذل له ما لا يستحقه فاستراح هذا في نفسه
واراح الناس من شكايته وغضبه على الوجود واهله فما اطيب عيشه وما انعم باله وما اقر
عينه واين هذا ممن لا يزال عاتبا على الخلق شاكيا ترك قيامهم بحقه ساخطا عليهم وهم عليه
اسخط فسبحان من تبهر حكمته عقول العالمين ٥

فصل ومنها انه يوجب له الامساك
عن عيوب الناس والفكر فيها فانه في شغل بعيبه ونفسه فطوبى لمن شغله عيبه عن عيوب الناس وويل
لمن نسي عيبه وتفرغ لعيوب الناس فهذا من علامة الشقاوة كما ان الاول من امارات السعادة ٥

مطلب — فصل ومنها انه اذا وقع في الذنب شهد نفسه مثل اخوانه الخطائين وشهد ان
المصيبة واحدة والجميع مشتركون في الحاجة بل في الضرورة الى مغفرة الله وعفوه ورحمته فكما
يحب ان يستغفر له اخوه المسلم كذلك هو ايضا ينبغي ان يستغفر لاخيه المسلم فيصير هجيراه رب
اغفر لي ولوالدي وللمسلمين يداوم على هذا الدعاء كل يوم سبعين وقد كان بعض السلف يستحب
لكل احد ان يداوم على هذا الدعاء كل يوم سبعين مرة فيجعل له منه وردا لا يخل به وسمعت شيخنا
قدس الله روحه يذكره وذكر فيه فضلا اجرا لا احفظه وربما كان من جملة اوراده التي لا يخل بها وسمعته
يقول ان جعله بين السجدتين جائز فاذا شهد العبد ان اخوانه مصابون بمثل ما اصيب به محتاجون
الى ما هو محتاج اليه لم يمتنع من مساعدتهم الا لفرط جهل بمغفرة الله وفضله وحقيق بهذا ان لا يساعد
مطلب — فان الجزاء من جنس العمل وقد قال بعض السلف ان الله لما عتب على الملائكة بسبب قولهم

ان يجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء وامتحن هاروت وماروت بما امتحنهما به جعلت الملائكة بعد ذلك تستغفر
لبني آدم وتدعو الله لهم **فصل** ومنها انه اذا شهد نفسه مع ربه مسيئا خاطئا
مفرطا مع فرط احسان الله اليه في كل طرفة عين وبره به ودفعه عنه وشدة حاجته الى
ربه وعدم استغنائه عنه نفسا واحدا وهو مع هذا مقصر فلا يطمع ان يكون الناس معه
كما يحب وان يعاملوه بمحض الاحسان وهو لم يعامل ربه بتلك المعاملة فكيف يطمع ان يطيعه مملوكه
وولده وزوجته في كل ما يريد ولا يعصونه ولا يخلون بحقوقه وهو مع ربه ليس كذلك وهذا
يوجب له ان يستغفر لمسيئهم ويعفو عنه ويسامحه ويغضي عن الاستقصاء في طلب حقه فهذه
الآثار ونحوها متى احسها العبد من الذنب فهي علامة كونه رحمة في حقه ومتى اجتنى الا اضدادها
واوجبت له خلاف كل ما ذكرنا فهي والله علامة الشقاوة وانه من هوانه على الله وسقوطه من عينه
خلاه وبين معاصيه ليقيم عليه حجة عدله فيعاقبه باستحقاقه وتداعي السيئات في حق مثل هذا
ويتولد من الذنب الواحد ما شاء الله من المتالف والمعاطب التي يهوي بها في دركات العذاب والمصيبة
كل المصيبة الذنب يتولد من الذنب ثم يتولد من الاثنين ثالث ثم تقوى الثلاثة فتوجب رابعا وهلم جرا
ومن لم يكن له فقه نفس في هذا الباب هلك من حيث لا يشعر فالحسنات والسيئات آخذ بعضها برقاب
بعض يتلو بعضها بعضا ويثمر بعضها بعضا قال بعض السلف رضي الله عنهم ان من ثواب الحسنة
الحسنة بعدها وان من عقاب السيئة السيئة بعدها وهذا اظهر عند الناس من ان يضرب له الامثال
وتطلب له الشواهد والله المستعان ○ **فصل** واذا تأملت حكم الله سبحانه فيما ابتلى به
عباده وصفوته بما ساقهم به الى اجل الغايات واكمل النهايات التي لم يكونوا يعبرون اليها الا على
جسر من الابتلاء والامتحان وكان ذلك الجسر لكماله كالجسر الذي لا سبيل الى عبورهم الى الجنة
الا عليه وكان ذلك الابتلاء والامتحان عين المنح في حقهم والكرامة فصورته صورة ابتلاء وامتحان
وباطنه فيه الرحمة والنعمة والمنة فكم لله من نعمة جسيمة ومنة عظيمة تجنى من قطوف الابتلاء والامتحان
فتأمل حال ابينا آدم صلى الله عليه وسلم وما آلت اليه محنته من الاصطفاء والاجتباء والتوبة
والهداية ورفعة المنزلة ولولا تلك المحنة التي جرت عليه باخراجه من الجنة وتوابع ذلك لما وصل
الى ما وصل اليه فكم بين حالته الاولى وحالته الثانية في نهايته وتأمل حال ابينا الثاني نوح
صلى الله عليه وسلم وما آلت اليه محنته وصبره على قومه تلك القرون كلها حتى اقر الله عينه واغرق
اهل الارض بدعوته وجعل العالم بعده من ذريته وجعله خامس خمسة وهم اولو العزم الذين هم افضل

الرسل وامر رسوله ونبيه محمدا صلى الله عليه وسلم ان يصبر كصبره واثنى عليه بالشكر فقال انه كان
عبدا شكورا فوصفه بكمال الصبر والشكر ثم تأمل حال ابينا الثالث ابراهيم صلى الله عليه وسلم مطلب
امام الحنفاء وشيخ الانبياء وعمود العالم وخليل رب العالمين من بني آدم وتأمل ما آلت اليه محنته
وصبره وبذله نفسه لله وتأمل كيف آل به بذله نفسه لله ونصره دينه الى ان اتخذه الله خليلا
لنفسه وامر رسوله وخليله محمدا صلى الله عليه وسلم ان يتبع ملته وانبهك على حكمة واحدة مما اكرمه
الله به في محنته بذبح ولده فان الله تبارك وتعالى جازاه على تسليمه ولده لامر الله ان بارك له في نسله
وكثره حتى ملأوا السهل والجبل فان الله تعالى لا يتكرم عليه احد وهو اكرم الاكرمين فمن ترك لوجهه
امرا او فعله لوجهه بذل الله له اضعاف ما تركه من ذلك الامر اضعافا مضاعفة وجازاه باضعاف
ما فعله لاجله اضعافا مضاعفة فلما امر ابراهيم صلى الله عليه وسلم بذبح ولده فبادر لامر الله ووافق
عليه الولد اباه رضى منهما وتسليما وعلم الله منهما الصدق والوفاء فداه بذبح عظيم واعطاهما
ما اعطاهما من فضله وكان من بعض عطاياه ان بارك في ذريتهما حتى ملأوا الارض فان المقصود بالولد
انما هو التناسل وتكثير الذرية ولهذا قال ابراهيم صلى الله عليه وسلم رب هب لي من الصالحين
وقال رب اجعلني مقيم الصلاة ومن ذريتي فغاية ما كان يحذر ويخشى من ذبح الولد انقطاع نسله فلما
بذل ولده لله وبذل الولد نفسه ضاعف الله له النسل وبارك فيه وكثره حتى ملأوا الدنيا وجعل
النبوة والكتاب في ذريته خاصة واخرج منهم محمدا صلى الله عليه وسلم وقد ذكر ان داود عليه
السلام اراد ان يعلم عدد بني اسرائيل فامر باحصائهم وبعث لذلك نقباء وعرفاء وامرهم ان يرفعوا اليه
ما يبلغ عددهم فمكثوا مدة لا يقدرون على ذلك فاوحى الله الى داود انك قد علمت اني قد وعدت
اباك ابراهيم صلى الله عليه وسلم لما امرته بذبح ولده فبادر الى طاعة امري ان ابارك له في ذريته حتى يصيروا
في عدد النجوم واجعلهم بحيث لا يحصى عددهم وقد اردت ان تحصي عددا قدرت انه لا يحصى وذكر
باقي الحديث فجعل من نسله هاتين الامتين العظيمتين اللتين لا يحصي عددهم الا خالقهم ورازقهم وهم
بنو اسرائيل وبنو اسمعيل هذا سوى ما اكرمه الله به من رفع الذكر والثناء الجميل على السنة جميع
الامم وفي السموات بين الملائكة فهذا من بعض ثمرة معاملته فتبا لمن عرفه ثم عامل غيره
ما اخسر صفقته وما اعظم حسرته ○ **فصل** ثم تأمل حال الكليم موسى صلى الله عليه وسلم
وما آلت اليه محنته وفتونه من اول ولادته الى منتهى امره حتى كلمه الله منه اليه تكليما وكتب
له التوراة بيده ورفعه الى اعلى السموات واحتمل له ما لا يحتمل لغيره فانه رمى الالواح على الارض حتى

تكسرت واخذ بلحية نبي الله هرون عليه السلام وجره اليه ولطم وجه ملك الموت ففقأ عينه وخاصم
ربه ليلة المعراج في شأن رسول الله صلى الله عليه وسلم وربه يحبه على ذلك كله ولا سقط شيء منه من عينه
ولا سقطت منزلته عنده بل هو الوجيه عند الله القريب ولولا ما تقدم له من السوابق وتحمل الشدائد
والمحن العظام في الله ومقاساة الأمر بين الشديد بين فرعون وقومه ثم بني اسرائيل وما آذوه به وما
صبر عليهم لله لم يكن ذلك ثم تأمل حال المسيح صلى الله عليه وسلم وصبره على أذى قومه واحتماله في الله ما تحمله منهم حتى
رفعه الله اليه وطهره من الذين كفروا وانتقم من أعدائه وقطعهم في الأرض ومزقهم كل ممزق وسلبهم
ملكهم وفخرهم الى آخر الدهر

فصل فاذا جئت الى النبي صلى الله عليه وسلم وتأملت
سيرته مع قومه وصبره في الله واحتماله ما لم يحتمله نبي قبله وتلون الأحوال عليه من سلم وحرب
وغنى وفقر وخوف وأمن واقامة في وطنه وظعن عنه وتركه لله وقتل أحبابه وأوليائه
بين يديه وأذى الكفار له بسائر أنواع الأذى من القول والفعل والسحر والكذب والافتراء عليه
والبهتان وهو مع ذلك كله صابر على أمر الله يدعو الى الله فلم يؤذ نبي ما أوذي ولم يحتمل في الله ما احتمله
ولم يعط نبي ما أعطيه فرفع الله ذكره وقرن اسمه باسمه وجعله سيد الناس كلهم وجعله
أقرب الخلق اليه وسيلة وأعظمهم عنده جاها وأسمعهم عنده شفاعة وكانت تلك المحن والابتلاء
عين كرامته وهي مما زاده الله بها شرفا وفضلا وساقه بها الى أعلى المقامات وهذا حال
ورثته من بعده الأمثل فالأمثل كل له نصيب من المحن يسوقه الله به الى كماله بحسب متابعته له ومن لا
نصيب له من ذلك فحظه في الدنيا حظ من خلق لها وخلقت له وجعل خلاقه ونصيبه فيها فهو يأكل
منها رغدا ويتمتع فيها حتى يناله نصيبه من الكتاب يمتحن أولياء الله وهو في دعة وخفض عيش
ويخافون وهو آمن ويحزنون وهو في أهله مسرور له شأن ولهم شأن وهو في واد وهم في واد همه
ما يقيم به جاهه ويسلم به ماله وتسمع به كلمته لزم من ذلك ما لزم ورضي من رضي وسخط من سخط وهمهم اقامة
دين الله واعلاء كلمته واعزاز أوليائه وأن تكون الدعوة له وحده فيكون هو وحده المعبود لا غيره
ورسوله المطاع لا سواه فسبحان الله تبارك وتعالى من الحكم في ابتلائه أنبياءه ورسله وعباده المؤمنين
ما تقاصر عقول العالمين عن معرفته وهل وصل من وصل الى الغايات المحمودة والنهايات الفاضلة الا على
جسر المحنة والابتلاء

كذا المعالي اذا ما رمت تدركها فاعبر اليها على جسر من التعب

فصل واذا تأملت الحكمة الباهرة في هذا الدين القيم والملة الحنيفية والشريعة المحمدية التي لا تنال
العبارة كمالها ولا يدرك الوصف حسنها ولا مقترح لعقول العقلاء ولو اجتمعت وكانت على اكمل عقل رجل

منهم فوقها وحسب العقول الكاملة الفاضلة ان ادركت حسنها وشهدت بفضلها وأنه ما طرق
العالم شريعة أكمل ولا أجل ولا أعظم منها فهي نفسها الشاهد والمشهود له والحجة والمحتج له
والدعوى والبرهان ولو لم يأت الرسول ببرهان عليها لكفى بها برهانا وآية وشاهدا على أنها من عند الله
وكلها شاهدة بكمال العلم وكمال الحكمة وسعة الرحمة والبر والاحسان والاحاطة بالغيب والشهادة
والعلم بالمبادي والعواقب وأنها من أعظم نعمه التي أنعم بها على عباده فما أنعم عليهم بنعمة أجل من
ان هداهم لها وجعلهم من أهلها وممن ارتضاها لهم فلهذا امتن على عباده بأن
هداهم لها قال تعالى لقد من الله على المؤمنين اذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم يتلو عليهم آياته
ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وان كانوا من قبل لفي ضلال مبين وقال معرفا لعباده ومذكرا لهم
عظيم نعمته وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الاسلام دينا وتأمل كيف وصف الدين الذي
اختاره لهم بالكمال والنعمة التي أسبغها عليهم بالتمام ايذانا في الدين بأنه لا نقص فيه ولا عيب ولا خلل
ولا شيئا خارجا عن الحكمة بوجه بل هو الكامل في حسنه وجلاله ووصف النعمة بالتمام ايذانا
بدوامها واتصالها وأنه لا يسلبهم اياها بعد اذ أعطاهموها بل يتمها لهم بالدوام في هذه الدار وفي
دار البقاء وتأمل حسن اقتران التمام بالنعمة وحسن اقتران الكمال بالدين واضافة الدين
اليهم اذ هم القائمون به المقيمون له وأضاف النعمة اليه اذ هو وليها ومسديها والمنعم بها عليهم
فهي نعمته حقا وهم قابلوها وأتى في الكمال باللام المؤذنة بالاختصاص وأنه شيء خصوا به
دون الأمم وفي اتمام النعمة بعلى المؤذنة بالاستعلاء والاشتمال والاحاطة فجاء أتممت في مقابلة
أكملت وعليكم في مقابلة لكم ونعمتي في مقابلة دينكم وأكد ذلك وزاده تقريرا وكمالا واتماما للنعمة بقوله ورضيت
لكم الاسلام دينا وكان بعض السلف الصالح رضي الله عنهم يقول يا له من دين لو ان له رجالا وقد
ذكرنا فصلا مختصرا في دلالة خلقه على وحدانيته وصفات كماله ونعوت جلاله وأسمائه
الحسنى وأردنا أن نختم به القسم الأول من الكتاب ثم رأينا أن نتبعه فصلا في دلالة دينه وشرعه
على وحدانيته وعلمه وحكمته ورحمته وسائر صفات كماله اذ هذا من أشرف العلوم التي يكتسبها العبد
في هذه الدار ويدخل بها الى الدار الآخرة وقد كان الأولى بنا الامساك عن ذلك لأن ما يصفه
الواصفون منه وينتهي اليه علمهم هو كما يدخل الرجل اصبعه في اليم ثم ينزعها فهو يصف البحر
بما يعلق على اصبعه من البلل وأين ذلك من البحر فيظن السامع أنه قد أحاط بالبحر وانما هي
صفة ما علق بالاصبع منه والا فالأمر أجل وأعظم وأوسع من أن تحيط عقول البشر بأدنى جزء منه

وماذا عسى ان يصف به الناظر الى قرص الشمس من ضوئها وقدرها وحسنها وعجائب صنع الله فيها ولكن
قد حض الله عباده بالثناء عليه وذكر آلائه واسمائه وصفاته وحكمه وجلاله مع انه لا يحصي ثناء
عليه ابدا بل هو كما اثنى على نفسه فلا يبلغ مخلوق ثناء عليه تبارك وتعالى ولا وصف كتابه ودينه
بما ينبغي له بل لا يبلغ احد من الامة ثناء على رسوله صلى الله عليه وسلم كما هو اهله الذي يثني عليه بل هو فوق ما يثنون
به عليه ومع هذا فالله تعالى يحب ان يحمد ويثنى عليه وعلى كتابه وعلى دينه ورسوله فهذه مقدمة
اعتذار بين يدي القصور والتقصير من بلوغ هذا الحجر الاعظم والله اعلم بمقاصد العباد ونياتهم
وهو اولى بالعذر والتجاوز ه **فصل** ونصائر الناس في هذا النور التام ينقسم الى ثلاثة
اقسام احدها من عدم بصيرة الايمان جملة فهو لا يرى من هذا الصنف الا الظلمات والرعد والبرق فهو
يجعل اصبعه في اذنيه من الصواعق ويده على عينيه من البرق فهو يجعل اصبعه في اذنيه من الصواعق
ويده على عينيه من البرق خشية ان يخطف بصره ولا يجاوز نظره ما وراء ذلك من الرحمة واسباب الحياة
الابدية فهذا القسم هو الذي لم يرفع بهذا الذي راسا ولم يقبل هدى الله الذي هدى به عباده
ولو جاءته كل آية لانه ممن سبقت له الشقاوة وحقت عليه الكلمة فغاية انذار هذا اقامة الحجة عليه
ليعذب بذنبه لا بمجرد علم الله فيه القسم الثاني اصحاب البصائر الضعيفة الخفاشية
التي نسبة ابصارهم الى هذا النور كنسبة ابصار الخفافيش الى جرم الشمس فهم تبع لآبائهم واسلافهم
دينهم دين العادة والمنشأ وهم الذين قال فيهم امير المؤمنين علي بن ابي طالب رضي الله عنه او منقادا
للحق لا بصيرة له في احنائه فهؤلاء اذكانوا هم خلاصة الوجود ولباب بني آدم وهم اصحاب البصائر
النافذة الذين شهدت بصائرهم هذا النور المبين فكانوا منه على بصيرة ويقين ومشاهدة
لحسنه وكماله بحيث لو عرض على عقولهم ضده لرأوه كالليل البهيم الاسود وهذا هو المحك
والفرقان بينهم وبين الذين قبلهم فان اولئك بحسب داعيهم ومن تقرن بهم كما قال فيهم علي بن ابي
طالب كرم الله وجهه اتباع كل ناعق يميلون مع كل صائح لم يستضيئوا بنور العلم ولم يلجأوا الى ركن
وثيق وهذا علامة عدم البصيرة انك تراه يستحسن الشيء وضده ويمدح الشيء وضده بعينه اذا
جاءه قالب لا يعرفه فيعظم طاعة الرسول ويرى عظيما مخالفته ثم هو من اشد الناس مخالفة
له ونفيا لما اثبته ومعاداة للقائمين بسنته وهذا من عدم البصيرة فهذا القسم الثالث
انما علمهم على البصائر وبها تفاوت مراتبهم في درجات الفضل كما قال بعض السلف رضي الله عنهم وقد
ذكر التابعين فقال انما كانوا يعملون على البصائر وما اوتي احد افضل من بصيرة في دين الله ولو

قصر في العمل قال تعالى واذكر عبادنا ابراهيم واسحق ويعقوب اولي الايدي والابصار قال
ابن عباس رضي الله عنهما اولي القوة في طاعة الله والابصار في المعرفة بالله وقال قتادة ومجاهد
اعطوا قوة في العبادة وبصرا في الدين واعلم الناس ابصرهم بالحق اذا اختلف الناس وان كان مقصرا
في العمل وتحت كل من هذه الاقسام انواع لا يحصي مقاديرها ونسبها الا الله اذا عرف هذا فالقسم
الاول لا ينتفع بهذا الباب ولا يزداد به الا ضلالة والقسم الثاني ينتفع منه بقدر فهمه
واستعداده والقسم الثالث واليهم هذا الحديث يساق وهم اولوا الالباب الذين يخصهم الله في
كتابه بخطاب التنبيه والارشاد وهم المرادون على الحقيقة ما التذكر قال تعالى وما يذكر الا اولوا
الالباب ه **فصل** وقد شهدت الفطر السليمة والعقول بان للعالم ربا قادرا حكيما
عليما رحيما كاملا في ذاته وصفاته لا يليق به الامر بالخير لعباده محرضا لهم على الشريعة والسنة
الفاضلة العائدة باصطلاحهم الموافقة لما ركب في عقولهم من استحسان الحسن واستقباح القبيح
وما جبل طباعهم عليه من ايثار النافع لهم المصلح لشانهم وترك الضار المفسد لهم وشهدت بهذه
الشريعة له بانه احكم الحاكمين وارحم الراحمين وانه المحيط بكل شيء علما واذا عرف ذلك فليس
الحكم الالهية بل ولا الحكمة في ملوك العالم انهم يسوسون من هو تحت تدبيرهم في تعريفهم كلما
يعرفه الملوك واعلامهم بجميع ما يعلمونه واطلاعهم على كل ما يجرون عليه سياساتهم في انفسهم
وفي منازلهم حتى لا يتمولوا في بلد فيها الا الخبر وان يحيف ايديهم بالتشبه بذلك والمعنى الذي قصدوه
منه ولا يامرون رعيتهم بامر ولا يفرضون عليهم فرضا ولا يسوسونهم سياسة الا اخبروهم بوجه
ذلك وسببه وغايته ومدته بل لا ينصرف بهم الاحوال في مطاعمهم ومشاربهم وملابسهم
ومراكبهم الا وقفوهم على اغراضهم فيه ولا شك ان هذا مناف للحكمة والمصلحة بين المخلوقين فكيف
بشان رب العالمين واحكم الحاكمين الذي لا يشاركه في علمه ولا حكمته احد ابدا فحسب العقول
الكاملة ان تستدل بما عرفت من حكمته على ما غاب عنها وتعلم ان له حكمة في كل ما خلقه واربه وشرعه
وهل يسمع الحكيم ان الله يخبر تعالى كل عبد من عباده بكل ما يفعله ويوقفهم على وجه تدبيره في كل ما يريده
وعلى حكمته في صغيره وكبيره وذراه وبرايا خليقته وهل في قوى المخلوق ذلك بل طوى سبحانه وتعالى
كثيرا من صنعه وامره عن جميع خلقه فلم يطلع على ذلك ملكا مقربا ولا نبيا مرسلا والمدبر الحكيم
من البشر اذا استحكمه واستغواه الصلاح لمن تحت تدبيره وسياسته هي في ذلك مع مقاصده فيمن
يولي ويعزل وفي جنس ما يامر به وينهى عنه وفي تدبيره لرعيته وسياسته لهم دون تفاصيل كل فعل

فعل من افعاله الحكيمة الا ان يبلغ الامر في ذلك مبلغا لا يوجد لفضله منفذ
وشاع في المصلحة اصلا فحينئذ يخرج بذلك عن استحقاق اسم الحليم ولن تجد اصلا
في خلق الله ولا في امره ولا واحدا من هذا الضرب بل غاية ما يخرجه من المتعب امور العجز
العقل عن معرفة وجوهها وحكمها واما ان يخلو ذلك عنها فمعاذ الله الا ان يجوز تعالى
الله ربنا على الخلق والامر فلم يخلق الله ذلك ولا شرعه واذا عرف هذا فقد علم
ان رب العالمين احكم الحاكمين والعالم بكل شي والغني عن كل شي والقادر على كل شي
ومن هذا شانه لم يخرج افعاله واوامره قط عن الحكمة والرحمة والمصلحة وما يخفى
على العباد من معاني حكمته في صنعه وابداعه وامره وشرعه فيكفيهم فيه معرفته
بالوجه العام ان تضمنته حكمة بالغة وان لم يعرفوا تفصيلها وان ذلك من علم الغيب
الذي استاثر الله به فيكفيهم في ذلك الاسناد الى الحكمة البالغة العامة الشاملة
التي علموا ما خفي منها بما ظهر لهم هذا وان الله تعالى ينور عباده على ان عرفهم
معاني صلابات خلقه وامره دون دقايقها وتفاصيلها وهذا مطرد في الاشيا اصولها
وفروعها فانت اذا رايت الرجلين مثلا احدهما اشد شعرا من الاخر واشد بياضا او اصلب
دهنا لا يمكنك ان تعرف من هذه النسب التي اجرى الله عليه سنة الخليقة وجه
اختصاص كل واحد منهما بما اختص به وهذا في اختلاف الصور والاشكال ولكن
لو اردت ان تعرف المعنى الذي كان شعر هذا مثلا يزيد على شعر الاخر بعدد معين
او المعنى الذي فضل به في القدر المخصوص والشكل المخصوص ومعرفة القدر الذي
بينهما من التفاوت وسببه لما امكن لك اصلا وقس على هذا جميع المخلوقات من
الرمال والجبال والاشجار ومقادير الكواكب وهيئاتها واذا كان لا سبيل الى معرفة هذا
في الخلق بل يكفي فيه العلة العامة والحكمة الشاملة فهكذا في الامر نعلم ان جميع ما
امر به متضمن لحكمة بالغة وان لها تفاصيل اسرار المامورات والمنهيات فلا تحيل
الى علم البشرية ولكن يطلع الله من شاء من خلقه على ما شاء منه فاعتصم بهذا الاصل

فصل حاجة الناس الى الشريعة ضرورية فوق حاجتهم الى كل شي ولا نسبة لحاجتهم
الى علم الطب اليها الا ترى ان اكثر العالم يعيشون بغير طبيب ولا يكون الطبيب الا في بعض
المدن الجامعة واما اهل البدو كلهم واهل الكفور كلهم وعامة بني ادم فلا يحتاجون

سادس عوسا ح دار البيان

الى طبيب وهم اصح ابدانا واقوى طبيعة ممن هو متقيد بالطبيب ولعل اعمارهم متقاربة
وقد فطر الله بني ادم على تناول ما ينفعهم واجتناب ما يضرهم وجعل لكل قوم عادة وعرفا
في استخراج ما يهجم عليهم من الادوا حتى ان كثيرا من اصول الطب انما اخذت من عوايد الناس
وعرفهم وتجاربهم واما الشريعة فمبناها على تعريف مواقع رضى الله وسخطه في حركات العباد
الاختيارية فمبناها على الوحي المحض والحاجة الى التنفس فضلا عن الطعام والشراب
لان غاية ما يقدر في عدم التنفس والطعام والشراب موت البدن وتعطل الروح عنه واما ما يقدر
عند عدم الشريعة ففساد الروح والقلب جملة وهلاك الابد وشتان بين هذا وهلاك البدن
بالموت فليس للناس قط احوج الى شي منهم الى معرفة ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم والقيام به والدعوة اليه
والصبر عليه وجهاد من خرج عنه حتى يرجع اليه وليس للعالم صلاح بدون ذلك البتة ولا سبيل الى
الوصول الى السعادة والفوز الاكبر الا بالعبور على هذا الجسر **فصل** الشرايع كلها في اصولها وان
تباينت متفقة مركوز حسنها في العقول ولو وقعت على غير ما هي عليه لخرجت عن الحكمة والمصلحة والرحمة
بل من المحال ان تاتي بخلاف ما اتت به ولو اتبع الحق اهواءهم لفسدت السموات والارض ومن فيهن وكيف يجوز ذو
العقل ان ترد الشريعة احكم الحاكمين بضد ما وردت به فالصلاة قد وضعت على اكمل الوجوه واحسنها
التي تعبد بها الخالق تبارك وتعالى عباده من تضمنها للتعظيم له بانواع الجوارح من نطق اللسان
وعمل اليدين والرجلين والراس وحواسه وساير اجزاء البدن كل ياخذ حظه من الحكمة في هذه العبادة
العظيمة المقدار مع اخذ الجوارح الباطنة بحظها منها وقيام القلب بواجب عبوديته فيها فهي
مشتملة على الثناء والحمد والتمجيد والتسبيح والتكبير وشهادة الحق والقيام بين يدي الرب تعالى
مقام العبد الذليل الخاضع الخاشع المدبر المربوب ثم التذلل في هذا المقام والتضرع والتقرب
اليه بكلامه ثم انحناء الظهر ذلا له وخشوعا واستكانة ثم استواؤه قائما ليستعد للخضوع الاكمل له
من الخضوع الاول وهو السجود من قيام فيضع اشرف شي فيه وهو وجهه على التراب خشوعا لربه
واستكانة وخضوعا لعظمته وذلا لعزته قد انكسر له قلبه وذل له جسمه وخشعت له جوارحه
ثم يستوي قاعدا يتضرع له ويتذلل بين يديه ويساله من فضله ثم يعود الى حاله من الذل والخشوع
والاستكانة فلا يزال هذا دابه حتى يقضي صلاته فيجلس عند ارادة الانصراف منها مثنيا على ربه مسلما
على نبيه وعلى عباده ثم يصلي على رسوله ثم يسال ربه من خيره وبره وفضله فاي شي بعد هذه العبادة
من الحسن واي كمال وراء هذا الكمال واي عبودية اشرف من هذه العبودية لمن جوز عقله ان

مطلب في الحسن والقبح ال

ترد الشريعة بضدها من كل وجه في القول والعمل وانه لا فرق في نفس الامر بين هذه العبادة وبين
ضدها من التخريب والشطح والبطر وكشف العورة والبول على الساقين والضحك والصفير وانواع المجون
وامثال ذلك فليعرض عقله وليسال الله ان يهبه عقلا سواه واما حسن الزكوة وما تضمنته من مواساة
ذوي الحاجات والمسكنة والخلة من عباد الله الذين يعجزون عن اقامة نفوسهم ويخاف عليهم التلف اذا
خلاهم الاغنياء وانفسهم وما فيها من الرحمة والاحسان والبر والطهرة وايثار اهل الايثار والاتصاف
بصفة الكرم والجود والفضل والخروج عن سمات اهل الشح والبخل والدناءة فامر لا يستريب عاقل في حسنه
ومصلحته وان الامر به احكم الحاكمين وليس يجوز في العقل وفي الفطرة البتة ان ترد شريعة الحكيم
العليم بضد ذلك ابدا واما الصوم فناهيك به من عبادة تكف النفس عن شهواتها وتخرجها عن شبه البهائم
الى شبه الملائكة المقربين فان النفس اذا خليت ودواعي شهواتها التحقت بعالم البهائم فاذا كفت
شهواتها لله ضيقت مجاري الشيطان وصارت قريبة من الله بترك عادتها وشهواتها محبة له وايثارا
لمرضاته وتقربا اليه فيدع الصائم احب الاشياء اليه واعظمها لصوقا بنفسه من الطعام والشراب
والجماع من اجل ربه فهو عبادة ولا يتصور حقيقتها الا بترك الشهوة لله فالصائم يدع طعامه
وشرابه وشهواته من اجل ربه عز وجل وهذا معنى كون الصوم له تبارك وتعالى وبهذا فسر
النبي صلى الله عليه وسلم هذه الاضافة في الحديث فقال يقول الله تعالى كل عمل ابن ادم يضاعف
الحسنة بعشر امثالها قال الله الا الصوم فانه لي وانا اجزي به يدع طعامه وشرابه من اجلي
حتى ان الصائم ليتصور بصورة من لا حاجة له في الدنيا الا في تحصيل رضى الله تعالى واي حسن
يزيد على حسن هذه العبادة التي تكسر الشهوة وتقمع النفس وتحيي القلب وتفرحه وتزهد في الدنيا وشهواتها
وترغب فيما عند الله وتذكر الاغنياء بشان المساكين واحوالهم وانهم قد اخذوا بنصيب من عيشهم
فتعطف قلوبهم عليهم ويعلمون ما هم فيه من نعم الله فيزدادون له شكرا وبالجملة فعون
الصوم على تقوى الله امر مشهود فما استعان احد على تقوى الله وحفظ حدوده واجتناب محارمه
بمثل الصوم فهو شاهد لمن شرعه وامر به بانه احكم الحاكمين وارحم الراحمين وانه انما شرعه
احسانا الى عباده ورحمة بهم ولطفا بهم لا بخلا عليهم برزقه ولا مجرد تكليف وتعذيب خال من
الحكمة والمصلحة بل هو غاية الحكمة والرحمة والمصلحة وان شرع هذه العبادات لهم من تمام نعمته
عليهم ورحمته بهم واما الحج فشان اخر لا يدركه الا الحنفاء الذين ضربوا في المحبة بسهم
وشانه اجل من ان تحيط به العبارة وهو خاصة هذا الدين الحنيف حتى قيل في قوله تعالى

حنفاء لله

حنفاء لله اي حجاجا وجعل الله بيته الحرام قياما للناس فهو عمود العالم الذي عليه بناؤه
فلو ترك الناس كلهم الحج سنة لخرت السماء على الارض هكذا قال ترجمان القران ابن عباس رضي الله
عنهما فالبيت الحرام قيام العالم ولا يزال قائما ما دام هذا البيت قائما محجوجا فالحج هو خاصة
الحنيفية ومعونة الصلاة وسر قول العبد لا اله الا الله فانه مؤسس على التوحيد المحض
والمحبة الخالصة وهو استزارة المحبوب لاحبابه ودعوتهم الى بيته ومحل كرامته ولهذا
اذا دخلوا في هذه العبادة فشعارهم لبيك اللهم لبيك اجابة محب لدعوة حبيبه ولهذا كان
للتلبية موقع عند الله وكلما اكثر العبد منها كان احب الى ربه واحظى فهي اجابة دعوة فالمحب
مبادر اليه مسارع متصور بصورة من سمع احب الخلق اليه ينادي يا فلان فهو لا يملك نفسه
ان يقول لبيك لبيك حتى ينقطع نفسه واما اسرار ما في هذه العبادة من الاحرام واجتناب
العوائد وكشف الراس ونزع الثياب المعتادة والطواف والوقوف بعرفة ورمي الجمار وسائر شعائر الحج
فمما شهدت بحسنه العقول السليمة والفطر المستقيمة وعلمت بان الذي شرع هذا لا حكمة فوق حكمته
وسنعود ان شاء الله الى الكلام في ذلك في موضعه واما الجهاد فناهيك به من عبادة هي سنام
العبادات وذروتها وهو المحك والدليل المفرق بين المحب والمدعي فالمحب قد بذل مهجته وماله لربه
والهه متقربا اليه ببذل اعز ما بحضرته يود لو ان له بكل شعرة نفسا يبذلها في حبه ومرضاته
ويود لو ان لو قتل فيه ثم احيي ثم قتل ثم احيي ثم قتل فهو يفدي بنفسه حبيبه وعبده ورسوله ولسان
حاله يقول تفديك بالنفس صب لو يكون له اعز من نفسه شيء فداك به
فهو قد سلم نفسه وماله لمشتريها وعلم انه لا سبيل الى اخذ السلعة الا ببذل ثمنها ان الله اشترى من المؤمنين
انفسهم واموالهم بان لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون واذا كان من المعلوم المستقر
عند الخلق ان علامة المحبة الصحيحة بذل الروح والمال في مرضاة المحبوب فالمحبوب الحق الذي لا
تنبغي المحبة الا له وكل محبة سوى محبته فالمحبة له باطلة اولى ان يشرع لعباده الجهاد الذي
هو غاية ما يتقربون به الى الههم وربهم وكانت قرابين من قبلهم من الامم في ذبائحهم وقرابينهم
تقديمهم انفسهم للذبح في الله مولاهم الحق واي حسن يزيد على حسن هذه العبادة ولهذا
ادخرها الله لاكمل الانبياء واكمل الامم عقلا وتوحيدا ومحبة لله واما الضحايا والهدايا
فقربان الى الخالق سبحانه تقوم مقام الفدية عن النفس المستحقة للتلف فدية وعوضا وقربانا
الى الله وتشبها بامام الحنفاء واحياء لسنته اذ فدى الله ولده بالقربان فجعل ذلك في ذريته

ما فيها ابدا وأما الايمان والنذور فعقود يعقدها العبد على نفسه يؤكد بها ما التزمه بنفسه
من الامور بالله فهي تعظيم للخالق ولاسمائه وحقه وان تكون العقود به وله وهذا غاية
التعظيم فلا يعقد بغير اسمه ولا بغيره لقربه اليه بل ان حلف فباسمه تعظيما وتوحيدا واجلالا
وان نذر فله توحيدا وطاعة ومحبة وعبودية فيكون هو المعبود وحده والمستعان
به وحده وأما المطاعم والمشارب والملابس والمناكح فهي داخلة فيما يقيم الابدان ويحفظها
من الفساد والهلاك وفيما يعود ببقاء النوع الانساني ليتم بذلك قوام الاجساد وحفظ النوع
فيتحمل الامانة التي عرضت على السموات والارض ويقوى على حملها وادائها ويتمكن من شكر مولى
الانعام ومسديه وفرق في هذه الانواع بين المباح والمحظور والحسن والقبيح والضار والنافع
والطيب والخبيث فحرم منها القبيح والخبيث والضار واباح منها الحسن والطيب والنافع كما
سياتي ان شاء الله وتامل ذلك في المناكح فان من المستقر في العقول والفطر ان قضاء هذا الوطر
في الامهات والبنات والاخوات والعمات والخالات والجدات مستقبح في كل عقل مستهجن في كل
فطرة ومن المحال ان يكون المباح من ذلك مساويا للمحظور في نفس الامر ولا فرق بينهما الا مجرد التحكم
بالمشيئة فسبحانك هذا بهتان عظيم وكيف يكون في نفس الامر نكاح الام واستفراشها مساويا
لنكاح الاجنبية واستفراشها وانما فرق بينهما محض الامر وكذلك من المحال ان يكون الدم والبول
والرجيع مساويا للخبز والماء والفاكهة ونحوها وانما الشارع فرق فاباح هذا وحرم
هذا مع استواء الكل في نفس الامر وكذلك اخذ المال بالبيع والهبة والوصية والميراث لا يكون
مساويا لاخذه بالقهر والغلبة والغصب والسرقة والخيانة حتى يكون اباحة هذا وتحريم
هذا راجعا الى محض الامر والنهي المفرق بين المتماثلين وكذلك الظلم والكذب والزور والفواحش
كالزنا واللواط وكشف العورة بين الملا ويجوز ذلك كيف يسوغ عقل عاقل انه لا فرق قط في نفس الامر
بين ذلك وبين العدل والاحسان والعفة والصيانة وستر العورة وانما الشارع حكم بايجاب هذا
وتحريم هذا مما لو عرض على العقول السليمة التي لم تنقل ولم يمسها دغل المقالات الفاسدة
وتعظيم اهلها وحسن الظن بهم لكانت اشد انكارا له وشهادة ببطلانه من كثير من الضروريات
وهل ركب الله في فطرة عاقل قط ان الاحسان والاساءة والصدق والكذب والفجور والعفة
والعدل والظلم وقتل النفوس وانجاءها بالنجدة والنصح سواء في نفس الامر لا فرق بينهما
وانما الفرق بينهما الامر المجرد واي جحد للضروريات اعظم من هذا وهل هذا الا بمنزلة من يقول

انه لا

انه لا فرق بين الرجيع والبول والدم والقيء وبين الخبز واللحم والماء والفاكهة والكل سواء في
نفس الامر وانما الفرق بالعوائد فاي فرق بين منكر هذا الباطل وبين منكر ذلك الباطل
وهل هذه الا بهت للعقل والحس والضرورة والشرع والحكمة واذا كان لا معنى عندهم للمعروف
الا ما امر به فصار معروفا بالامر ولا للمنكر الا ما نهى عنه فصار منكرا بنهيه فاي معنى لقوله تعالى
يامرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر وهل حاصل ذلك زائد على ان يقال يامرهم بما يامرهم به وينهاهم عما ينهاهم
عنه وهذا كلام ينزه عنه احاد العقلاء فضلا عن كلام رب العالمين وهل دلت الاية الا على
انه امرهم بالمعروف الذي تعرفه العقول وتقر بحسنه الفطر فامرهم بما هو معروف في نفسه عند
كل عقل سليم ونهاهم عما هو منكر في الطباع والعقول بحيث اذا عرض على العقل السليم انكره اشد
الانكار كما ان ما امر به اذا عرض على العقل السليم قبله اعظم قبول وشهد بحسنه كما قال
بعض الاعراب وقد سئل بم عرفت انه رسول الله فقال ما امر بشيء فقال العقل ليته نهى عنه ولا
نهى عن شيء فقال العقل ليته امر به فهذا الاعرابي اعرف بالله ودينه ورسوله من هؤلاء وقد
اقر عقله وفطرته بحسن ما امر به وقبح ما نهى عنه حتى كان في حقه من اعلام نبوته وشواهد رسالته
ولو كان جهة كونه معروفا ومنكرا هو الامر المجرد لم يكن فيه دليل بل كان يطلب له الدليل من غيره
ومن سلك ذلك المسلك الباطل لم يمكنه ان يستدل على صحة نبوته بنفس دعوته ودينه
ومعلوم ان نفس الدين الذي جاء به والملة التي دعا اليها من اعظم براهين صدقه وشواهد نبوته
ومن لم يثبت لذلك صفات وجودية اوجبت حسنه وقبول العقول له ولضده صفات اوجبت
قبحه ونفور العقول عنه فقد سد على نفسه باب الاستدلال بنفس الدعوة وجعلها مستدلا عليه
فقط ومما يدل على صحة ذلك قوله تعالى ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث فهذا
صريح في ان الحلال كان طيبا قبل حله وان الخبيث كان خبيثا قبل تحريمه ولم يستفد طيب هذا وخبث
هذا من نفس الحل والتحريم لوجهين اثنين احدهما ان هذا علم من اعلام نبوته التي احتج الله
بها على اهل الكتاب فقال تعالى الذين يتبعون الرسول النبي الامي الذي يجدونه مكتوبا عندهم في
التوراة والانجيل يامرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث فلو
كان الخبيث والطيب انما استفيد من التحريم والتحليل لم يكن في ذلك دليل فانه بمنزلة ان يقال يحل لهم
ما يحل ويحرم عليهم ما يحرم وهذا ايضا باطل فانه لا فائدة فيه وهو الوجه الثاني
فثبت انه احل ما هو طيب في نفسه قبل الحل فكساه باحلاله طيبا اخر فصار منشا طيبه من

الوجهين معًا فتأمل هذا الموضع حق التأمل يطلعك على اسرار الشريعة ويشرفك على محاسنها
وكمالها وبهجتها وجلالها وانه من الممتنع في حكمة احكم الحاكمين ان ترد بخلاف ما وردت به وان
الله تعالى يتنزه عن ذلك كما يتنزه عن سائر ما لا يليق به ومما يدل على ذلك قوله تعالى قل انما حرم
ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن والاثم والبغي بغير الحق وان تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانا
وان تقولوا على الله ما لا تعلمون وهذا دليل على انها فواحش في نفسها لا تستحسنها العقول
فتعلق التحريم بها لفحشها فان ترتيب الحكم على الوصف المناسب المشتق يدل على انه هو العلة المقتضية
له وهذا دليل في جميع هذه الآيات التي ذكرناها فدل على انه حرمها لكونها فواحش وحرم
الخبيث لكونه خبيثا وامر بالمعروف لكونه معروفا والعلة يجب ان تغاير المعلول فلو كان كونه فاحشة
هو معنى كونه منهيا عنه وكونه خبيثا هو معنى كونه محرما كانت العلة عين المعلول وهذا محال
فتامله وكذا تحريم الاثم والبغي دليل على ان هذا وصف ثابت له قبل التحريم ومن هذا قوله تعالى
ولا تقربوا الزنا انه كان فاحشة ومقتا وساء سبيلا فعلل النهي في الموضعين بكون المنهي عنه
فاحشة ولو كان جهة كونه فاحشة هو النهي لكان تعليلا للشيء بنفسه ولكان بمنزلة ان يقال
لا تقربوا الزنا فانه يقول لكم لا تقربوه وفانه منهي عنه وهذا محال من وجهين احدهما
انه يتضمن اخلاء الكلام من الفائدة والثاني انه تعليل للنهي بالنهي ومن ذلك قوله تعالى ولولا ان
تصيبهم مصيبة بما قدمت ايديهم فيقولوا ربنا لولا ارسلت الينا رسولا فنتبع اياتك ونكون من
المؤمنين فاخبر تعالى ان ما قدمت ايديهم قبل البعثة سبب لاصابتهم بالمصيبة وانه
سبحانه لو اصابهم بما يستحقون من ذلك لاحتجوا عليه بانه لم يرسل اليهم رسولا ولم ينزل عليهم كتابا
فقطع هذه الحجة بارسال الرسول وانزال الكتاب لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل وهذا
صريح في ان اعمالهم قبل البعثة كانت قبيحة بحيث استحقوا ان يصيبوا بها المصيبة ولكنه سبحانه لا
يعذب الا بعد ارسال الرسل وهذا هو فصل الخطاب وتحقيق القول في هذا الاصل العظيم ان القبح
ثابت للفعل في نفسه وانه لا يعذب الله عليه الا بعد اقامة الحجة بالرسالة وهذه النكتة هي التي
فاتت المعتزلة والكلابية كليهما فاستطالت كل طائفة منهما على الاخرى لعدم جمعها بين هذين
الامرين فاستطالت الكلابية على المعتزلة باثباتهم العذاب قبل ارسال الرسول وترتيبهم العقاب
على مجرد القبح العقلي واحسنوا في رد ذلك عليهم واستطالت المعتزلة عليهم في انكارهم الحسن والقبح
العقليين جملة وجعلهم انتفاء العذاب قبل البعثة دليلا على انتفاء القبح واستواء الافعال في انفسها

واحسنوا

واحسنوا في رد هذا عليهم فكل طائفة استطالت على الاخرى بسبب انكارها الصواب واما من سلك
هذا المسلك الذي سلكناه فلا سبيل لواحدة من الطائفتين الى رد قوله ولا الظفر عليه اصلا فانه
موافق لكل طائفة على ما معها من الحق مقرر له مخالف لها في باطلها منكر له وليس مع النفاة قط
دليل واحد صحيح على نفي الحسن والقبح العقليين وان الافعال المتضادة كلها في نفس الامر سواء ولا فرق
بينهما الا بالامر والنهي وكل ادلتهم على هذا باطلة كما سنذكرها ونذكر بطلانها ان شاء الله تعالى
وليس مع المعتزلة دليل واحد صحيح قط يدل على اثبات العذاب على مجرد العقل قبل بعثة الرسل وادلتهم
على ذلك كلها باطلة كما سنذكرها ونذكر بطلانها ان شاء الله تعالى ومما يدل على ذلك ايضا انه سبحانه يحتج
على فساد مذهب من عبد غيره بالادلة العقلية التي تقبلها الفطر والعقول ويجعل ما ركبه في العقول
من حسن عبادة الخالق وحده وقبح عبادة غيره من اعظم الادلة على ذلك وهذا في القرآن اكثر من ان يذكر
ههنا ولولا انه مستقر في العقول والفطر حسن عبادته وشكره وقبح عبادة غيره وترك شكره لما
احتج عليهم بذلك اصلا وانما كانت الحجة في طريقة الامر وطريقة القرآن صريحة في هذا كقوله تعالى
يا ايها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون الذي جعل لكم الارض فراشا والسماء
بناء وانزل من السماء ماء فاخرج به من الثمرات رزقا لكم فلا تجعلوا لله اندادا وانتم تعلمون فذكر
سبحانه امرهم بعبادته وذكر اسم الرب مضافا اليهم المقتضي عبوديتهم لربهم ومالكهم ثم ذكر
ضروب انعامه عليهم بايجادهم وايجاد من قبلهم وجعل الارض فراشا لهم تمكنهم الاستقرار عليها
والبناء والسكنى وجعل السماء سقفا وبناء فذكر ارض العالم وسقفه ثم ذكر انزال مادة اقواتهم
ولباسهم وثمارهم منبها بهذا على استقرار حسن عبادة من هذا شانه وتشكره العقول والفطر وقبح
الاشراك به وعبادة غيره ومن هذا قوله تعالى حاكيا عن صاحب يس انه قال لقومه محتجا عليهم
بما تقر به فطرهم وعقولهم وما لي لا اعبد الذي فطرني واليه ترجعون فتامل هذا الخطاب كيف
تجد تحته اشرف معنى واجله وهو ان كونه سبحانه فاطر العباد يقتضي عبادتهم له وان كان مفطورا
مخلوقا فحقيق به ان يعبد فاطره وخالقه ولا سيما اذا كان مرده اليه فمبدؤه منه ومصيره اليه
وهذا يوجب عليه التفرغ لعبادته ثم احتج عليهم بما تقر به عقولهم وفطرهم من قبح عبادة غيره
وانها اقبح شيء في العقل وانكره فقال أأتخذ من دونه آلهة ان يردن الرحمن بضر لا تغن عني
شفاعتهم شيئا ولا ينقذون اني اذا لفي ضلال مبين افلا تراه ههنا لم يحتج عليهم بمجرد الامر بل احتج
عليهم بالعقل الصحيح ومقتضى الفطرة ومن هذا قوله تعالى يا ايها الناس ضرب مثل فاستمعوا له ان

الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له وإن يسلبهم الذباب شيئا لا يستنقذوه منه
ضعف الطالب والمطلوب ما قدروا الله حق قدره إن الله لقوي عزيز فضرب لهم سبحانه مثلا من
عقولهم يدلهم على قبح عبادتهم لغيره وأن هذا أمر مستقر قبحه وهجنته في كل عقل وإن لم يرد به
الشرع وهل في العقل أنكر وأقبح من عبادة من لو اجتمعوا كلهم لم يخلقوا ذبابا واحدا وإن يسلبهم الذباب
شيئا لم يقدروا على الانتصار منه ولا استنقاذ ما سلبهم إياه وترك عبادة الخلاق العليم القادر
على كل شيء الذي ليس كمثله شيء وهو السميع البصير أفلا تراه كيف احتج عليهم بما ركبه في العقول
من حسن عبادته وقبح عبادة غيره وقال تعالى ضرب الله مثلا رجلا فيه شركاء متشاكسون
ورجلا سلما لرجل هل يستويان مثلا هذا مثل ضربه الله لمن عبده وحده فسلم له ولمن عبد من دونه
آلهة فهم فيه شركاء متشاكسون عسرون فهل يستوي في العقول هذا وهذا وقد ذكر الله تعالى
من هذه الأمثال ونوعها مستدلا بها على حسن شكره وعبادته وقبح عبادة غيره ولم يحتج عليهم بنفس
الأمر بل بما ركبه في عقولهم من الإقرار بذلك وهذا أكثر في القرآن من يتبعه وجده
وقال تعالى وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه فذكر توحيده ثم ذكر المناهي التي نهاهم عنها
والأوامر التي أمرهم بها ثم ختم الآيات بقوله كل ذلك كان سيئه عند ربك مكروها أي مخالفة هذه الأوامر
وارتكاب هذه النواهي سيئه مكروه لله تعالى فتأمل قوله سيئه عند ربك مكروها أي إنه
سيئ في نفس الأمر عند الله حتى لو لم يرد به التكليف لكان سيئه في نفسه عند الله مكروها له وكراهته
سبحانه له لما هو عليه من الصفة التي اقتضت كراهته ولو كان قبحه إنما هو لمجرد النهي لم يكن مكروها لله
إذ لا معنى للكراهة عندهم إلا كونه منهيا عنه فيعود قوله كل ذلك كان سيئه عند ربك مكروها
إلى معنى كل ذلك منهي عنه عند ربك ومعلوم أن هذا غير مراد من الآية وأيضا فإنه إذا وقع
ذلك منهم فهو عند نفاة الحسن والقبح محبوب لله مرضي له لأنه إنما وقع بإرادته والإرادة عندهم
هي المحبة لا فرق بينهما والقرآن صريح في أن هذا كله قبيح عند الله مكروه مبغوض له وقع أو لم يقع
وجعل سبحانه هذا البغض والقبح سببا للنهي عنه وهؤلاء جعلوه علة وعلما للأمر فتأمله
والعلة غير المعلول وقال تعالى لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان
ليقوم الناس بالقسط فدل ذلك على أن في نفس الأمر قسطا وأن الله سبحانه أنزل كتابه وأنزل
الميزان وهو العدل ليقوم الناس بالقسط الذي أنزل الكتاب لأجله والميزان فعلم أن في نفس
الأمر ما هو قسط وعدل حسن ومخالفته قبيحه وأن الكتاب والميزان نزلا لأجله وأن نفي الحسن

والقبح يقول

والقبح يقول ليس في نفس الأمر ما هو عدل حسن وإنما صار قسطا وعدلا بالأمر فقط ونحن لا ننكر
أن الأمر ما هو عدل حسنا وعدلا إلى حسنه وعدله في نفسه فهو في نفسه قسط وعدل وكساه
الأمر حسنا آخر يضاعف به كونه عدلا حسنا فصار ذلك مأمورا له من الوجهين جميعا ومن هذا قوله
تعالى وإذا فعلوا فاحشة قالوا وجدنا عليها آباءنا والله أمرنا بها قل إن الله لا يأمر بالفحشاء
أتقولون على الله ما لا تعلمون فقوله إن الله لا يأمر بالفحشاء دليل على أنه في نفسه فحشاء وأن الله
لا يأمر بما يكون كذلك وأنه تعالى يتقدس عنه ولو كان كونه فاحشة إنما علم بالنهي خاصة
كان بمنزلة أن يقال إن الله لا يأمر بما ينهى عنه وهذا كلام يصان عنه آحاد العقلاء فكيف
بكلام رب العالمين ثم أتبع سبحانه هذا الإنكار بقوله قل أمر ربي بالقسط وأقيموا وجوهكم عند كل
مسجد وادعوه مخلصين له الدين فأخبر أنه تعالى عن الأمر بالفحشاء بل أوامره كلها حسنة في
العقول مقبوله في الفطر فإنه أمر بالقسط لا بالجور وبإقامة الوجوه له عند مساجده لا لغيره
وبدعوته وحده مخلصين له الدين لا بالشرك فهذا هو الذي أمر به تعالى لا بالفحشاء أفلا تراه
كيف يخبر بحسن ما أمر به وبحسنه وبين نفسه عن الأمر بضده وأنه لا يليق به تعالى ومن أحسن دينا ممن
أسلم وجهه لله وهو محسن واتبع ملة إبراهيم حنيفا واتخذ الله إبراهيم خليلا فاحتج سبحانه على حسن دين الإسلام
وأنه لا شيء أحسن منه فإنه يتضمن إسلام الوجه لله وهو إخلاص القصد والتوجه والعمل له سبحانه
والعبد مع ذلك محسن آت بكل حسن لا مرتكب للقبح الذي يكرهه الله بل هو مخلص لربه محسن في عبادته
بما يحبه ويرضاه وهو مع ذلك متبع لملة إبراهيم في محبته لله وحده وإخلاص الدين له وبذل النفس
والمال في مرضاته ومحبته وهذا احتجاج منه على أن دين الإسلام أحسن الأديان بما تضمنه
مما تستحسنه العقول وتشهد به الفطر وأنه قد بلغ الغاية القصوى في درجات الحسن والكمال وهذا
استدلال بغير الأمر المجرد بل هو دليل على أنه لما كان كذلك فحقيق بأن يأمر به عباده ولا يرضى منهم
سواه ومثل هذا قوله تعالى ومن أحسن قولا ممن دعا إلى الله وعمل صالحا وقال إنني من المسلمين
فهذا احتجاج بما ركب في العقول والفطر لأنه لا قول للعبد أحسن من هذا القول وقال تعالى
فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم فأي شيء أصرح من هذا أخبر سبحانه
أنه حرمه عليهم مع كونه طيبا في نفسه فلولا أن طيبه أمر ثابت له بدون الأمر لم يجمع الطيب
والتحريم وقد أخبر تعالى أنه حرم عليهم طيبات كانت حلالا عقوبة لهم فهذا التحريم عقوبة
بخلاف التحريم على هذه الأمة فإنه تحريم صيانة وحماية ولا فرق عند النفاة بين الأمرين بل الكل

سواء فالله سبحانه امر عباده بما امرهم به رحمة منه واحسانا وانعاما عليهم لان صلاحهم في معاشهم
وابدانهم واحوالهم وفي معادهم ومآلهم انما هو بفعل ما امروا به وهو في ذلك بمنزلة الغذاء الذي لا
قوام للبدن الا به بل اعظم ليس بمجرد تكليف وابتلاء كما يظنه كثير من الناس ونهاهم عما نهاهم عنه
صيانة وحمية لهم اذ لا بقاء لعيشهم ولا حفظ الا بهذه الحمية فلم يامرهم حاجة منه اليهم وهو
الغني الحميد ولا حرم عليهم ما حرم بخلا منه عليهم وهو الجواد الكريم بل امره ونهيه عين حظهم
وسعادتهم العاجلة والآجلة ومصدر امره ونهيه رحمته الواسعة وبره وجوده واحسانه
وانعامه فلا يسأل عما يفعل لكمال حكمته وعلمه ووقوع افعاله على وفق المصلحة والرحمة والحكمة وقال
تعالى ام لم يعرفوا رسولهم فهم له منكرون ام يقولون به جنة بل جاءهم بالحق واكثرهم للحق كارهون
ولو اتبع الحق اهواءهم لفسدت السموات والارض ومن فيهن بل اتيناهم بذكرهم فهم عن ذكرهم معرضون
فاخبر سبحانه ان الحق لو اتبع اهواء العباد فجاء شرع الله ودينه باهوائهم لفسدت السموات
والارض ومن فيهن ومعلوم ان عند النفاة يجوز ان يرد شرع الله ودينه باهواء العباد وانه لا فرق
في نفس الامر بين ما ورد به وبين ما يقتضيه اهواؤهم الا بمجرد الامر وانه لو ورد باهوائهم جاز وكان
تعبدا ودينا وهذا مخالف لصريح القرآن وانه من المحال ان يتبع الحق اهواءهم وان اهواءهم مشتملة على قبح
عظيم ولو ورد الشرع به لفسد العالم اعلاه واسفله وما بين ذلك ومعلوم ان هذا الفساد
انما يكون لقبح خلاف ما شرعه الله وامر به ومنافاته اصلاح العالم علويه وسفليه وان خراب العالم
وفساده لازم لحصوله ولشرعه وان كمال حكمة الله وكمال علمه ورحمته وربوبيته تابى ذلك وتمنع منه
ومن يقول الجميع في نفس الامر سواء يجوز وروده التعبد بكل شيء سواء كان مقتضى اهوائهم او خلافها
ومثل هذا قوله تعالى لو كان فيهما آلهة الا الله لفسدتا اي لو كان في السموات والارض آلهة
تعبد غير الله لفسدتا وبطلتا ولم يقل ارباب بل قال آلهة والاله هو المعبود المألوه وهذا يدل على
انه من الممتنع المستحيل عقلا ان يشرع الله عبادة غيره ابدا وانه لو كان معه معبود سواه لفسدت
السموات والارض فقبح عبادة غيره قد استقر في الفطر والعقول وان لم يرد بالنهي عنه شرع بل
العقل يدل على انه اقبح القبيح على الاطلاق وانه من المحال ان يشرعه الله قط فصلاح العالم في ان يكون
الله وحده هو المعبود وفساده وهلاكه في ان يعبد معه غيره ومحال ان يشرع الله لعباده ما فيه فساد
العالم وهلاكه بل هو المنزه عن ذلك ٥ **فصل** وقد انكر تعالى على من نسب الى حكمته
التسوية بين المختلفين كالتسوية بين الابرار والفجار فقال تعالى ام نجعل الذين آمنوا وعملوا

الصالحات كالمفسدين في الارض ام نجعل المتقين كالفجار وقال تعالى ام حسب الذين اجترحوا
السيئات ان نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواء محياهم ومماتهم ساء ما يحكمون فدل على
ان هذا حكم سيء قبيح ينزه الله عنه ولم ينكره سبحانه من جهة انه اخبر بانه لا يكون وانما انكره من جهة
قبحه في نفسه وانه حكم سيء يتعالى ويتنزه عنه لمنافاته لحكمته وغناه وكماله ووقوع افعاله
كلها على السداد والصواب والحكمة فلا يليق به ان يجعل البر كالفاجر ولا المحسن كالمسيء ولا المؤمن
كالمفسد في الارض فدل على ان هذا قبيح في نفسه تعالى الله عن فعله ومن هذا ايضا انكاره سبحانه
على من جوز ان يترك عباده سدى فلا يامرهم ولا ينهاهم ولا يثيبهم ولا يعاقبهم وان هذا الحسبان
باطل والله تعالى عنه لمنافاته لحكمته وكماله فقال تعالى ايحسب الانسان ان يترك سدى قال
الشافعي رضي الله عنه اي مهملا لا يؤمر ولا ينهى وقال غيره لا يثاب ولا يعاقب والقولان
واحد لان الثواب والعقاب غاية الامر والنهي فهو سبحانه خلقهم للامر والنهي في الدنيا والثواب
والعقاب في الاخرى فانكر سبحانه على من زعم انه يترك سدى انكار من جعل في العقل استقباح
ذلك واستهجانه وانه لا يليق ان ينسب ذلك الى احكم الحاكمين ومثله قوله تعالى افحسبتم
انما خلقناكم عبثا وانكم الينا لا ترجعون فتعالى الله الملك الحق لا اله الا هو رب العرش الكريم فنزه
سبحانه نفسه وباعدها عن هذا الحسبان وانه يتعالى عنه ولا يليق به لقبحه ولمنافاته
لحكمته وملكه والاهيته افلا ترى كيف ظهر في العقل الشهادة بدينه وشرعه وثوابه وعقابه
وهذا يدل على اثبات المعاد بالعقل كما يدل على اثباته بالسمع وكذلك دينه وامره وما بعث به
رسله هو ثابت في العقول جملة ثم علم بالوحي فقد تطابقت شهادة العقل والوحي على توحيده وشرعه
والتصديق بوعده ووعيده وانه سبحانه دعا عباده على السنة رسله الى ما وضع في العقول حسنه
والتصديق به جملة فجاء الوحي مفصلا ومبينا ومقررا ومذكرا لما هو مركوز في الفطر والعقول
ولهذا سأل هرقل ابا سفيان رضي الله عنه في جملة ما سأله عنه من ادلة النبوة وشواهدها عما
يامرهم النبي صلى الله عليه وسلم فقال يامرنا بالصلاة والصدقة والعفاف فجعل ما يامر به
من ادلة نبوته فان اكذب الخلق وافجرهم من ادعى النبوة وهو كاذب فيها على الله وهذا الحال ان
يامرهم بما يليق بكذبه وفجوره وافترائه فدعوته تليق به واما الصادق البار الذي هو اصدق
الخلق وابرهم فدعوته لا تكون الا اكمل دعوة واشرفها واجلها واعظمها فان العقول والفطر
تشهد بحسنها وصدق القائم بها فلو كانت الافعال كلها سواء في نفس الامر لم يكن هناك فرق بين ما

يجوز ان يدعوا اليه الرسول وما لا يجوز ان يدعوا اليه اذ العرف انما يعلم بنفس الدعوة والامر
والنهي وكذلك سأله النجاشي لجعفر واصحابه عما يدعوا اليه الرسول فدل على انه من
المستقر في العقول والفطر انقسام الافعال الى قبيح وحسن في نفسه وان الرسل يدعوا الى حسنها
وينهى عن قبيحها وان ذلك من ايات صدقهم وبراهين رسالتهم وهو اولى واعظم عند اولي الالباب
والحجى من مجرد خوارق العادات وان كان انتفاع ضعفاء العقول بالخوارق في الايمان اعظم من انتفاعهم
بنفس الدعوة وما جاء به في الايمان فطرق الهداية متنوعة رحمة من الله بعباده ولطفا بهم لتفاوت
عقولهم واذهانهم وبصائرهم فمنهم من يهتدي بنفس ما جاء به وما دعا اليه من غير ان يطلب منه برهانا
خارجا عن ذلك كحال الكمل من الصحابة كالصديق رضي الله عنه وارضاه ومنهم من يهتدي بمعرفة
بحاله صلى الله عليه وسلم وما فطر عليه من كمال الاخلاق والاوصاف والافعال وان عادة الله ان لا
يخزي من قامت به تلك الاوصاف والافعال لعلمها بالله ومعرفته به وانه لا يخزي من كان بهذه المثابة
كما قالت ام المومنين خديجة رضي الله عنها له صلى الله عليه وسلم ابشر فوالله لن يخزيك الله ابدا انك
لتصل الرحم وتصدق الحديث وتحمل الكل وتقري الضيف وتعين على نوائب الحق فاستدلت بمعرفتها بالله
وحكمته ورحمته على ان من كان كذلك فان الله لا يخزيه ولا يفضحه بل هو جدير بكرامة الله واصطفائه
ومحبته ونبوته وهذه المقامات في الايمان يعجز عنها اكثر الخلق فاحتاجوا الى الخوارق والايات
المشهودة بالحس فانكر كثير منهم عليها واضعف الناس ايمانا من كان ايمانه صادرا عن المظهر ورؤية
غلبته صلى الله عليه وسلم للناس فاستدلوا بذلك المظهر والغلبة والنصر على صحة الرسالة فاين بصائر
هولاء من بصائر من امن به واهل الارض قد نصبوا له العداوة وقد نال منه قومه ضروب الاذى
واصحابه في غاية قلة العدد والمخافة من الناس ومع هذا فقلبه مملي بالايمان واثق بانه سيظهر
على الامم وان دينه سيعلوا كل دين واضعف من هولاء ايمانا من ايمانه ايمان العادة والمربا والمنشا
فانه نشا بين ابوين مسلمين واقارب وجيران واصحاب كذلك فنشا واحدا منهم ليس عنده من الرسول
والكتاب الا اسمهما ولا من الدين الا ما راى عليه اقاربه واصحابه فهذا دين العوائد وهو اضعف
شي وصاحبه بحسب من يقترن به فلو قيض له من يخرجه عنه لم يكن عليه كلفة في الانتقال عنه
والمقصود ان خواص الامة ولبابها لما شهدت عقولهم حسن هذا الدين وجلالته وكماله وشهدت
قبح ما خالفه ونقصه ورداءته خالط الايمان به ومحبته بشاشة قلوبهم فلو خير بين ان يلقى في
النار وبين ان يختار دينا غيره لاختار ان يقذف في النار وتقطع اعضاؤه ولا يختار دينا غيره وهذا

الضرب من الناس هم الذين استقرت اقدامهم في الايمان وهم ابعد الناس عن الارتداد عنه واحقهم
بالثبات عليه الى يوم لقاء الله ولهذا قال هرقل لابي سفيان ايرتد احد منهم عن دينه سخطة له قال
لا قال وكذلك الايمان اذا خالط بشاشته القلوب لا يسخطه احد والمقصود ان الداخلين في
الاسلام المستدلين على انه من عند الله بحسنه وكماله وانه دين الله الذي لا يجوز ان يكون من عند غيره
هم خواص الخلق والعامة سدوا على انفسهم هذا الطريق فلا يمكنهم سلوكه

فصل

وتحقيق هذا المقام بالكلام في مقامين احدهما الاعمال خصوصا ورتبها في الحسن والقبح والثاني
في الموجودات عموما ورتبها في الخير والشر اما المقام الاول فالاعمال اما ان تشتمل على مصلحة
خالصة او راجحة واما ان تشتمل على مفسدة خالصة او راجحة واما ان تستوي مصلحتها ومفسدتها
فهذه اقسام خمسة منها اربعة تاتي بها الشرائع فتاتي بما مصلحته خالصة او راجحة امرة به
مقتضية له وما مفسدته خالصة او راجحة فحكمها فيه النهي عنه وطلب اعدامه فتاتي بتحصيل
المصلحة الخالصة والراجحة وتكميلها بحسب الامكان وتعطيل المفسدة الخالصة او الراجحة
او تقليلها بحسب الامكان فمدار الشرائع والديانات على هذه الاقسام الاربعة ونازع
الناس هنا في مسالتين المسالة الاولى وجود المصلحة الخالصة فمنهم من منعه وقال لا وجود
له قال لان المصلحة هي النعيم واللذة وما يفضي اليه والمفسدة هي العذاب والالم وما يفضي اليه
قالوا والمامور به لا بد ان يقترن به ما يحتاج معه الى الصبر على نوع من الالم وان كان فيه
لذة وسرور وفرح فلا بد من وقوع اذى لكن لما كان هذا مغمورا بالمصلحة لم يلتفت اليه ولم
يعطل المصلحة لاجله فترك الخير الكثير الغالب لاجل الشر القليل المغلوب شر كثير قالوا
وكذلك الشر المنهي عنه انما يفعله الانسان لان له فيه غرضا ووطرا ما وهذه مصلحة
عاجلة له فاذا نهي عنه وتركه فاتت عليه مصلحته ولذته العاجلة وان كانت مفسدته
اعظم من مصلحته بل مصلحته مغمورة جدا في جنب مفسدته كما قال تعالى في الخمر والميسر قل فيهما اثم
كبير ومنافع للناس واثمهما اكبر من نفعهما فالربا والظلم والفواحش والسحر وشرب الخمر وان
كانت شرورا ومفاسد ففيها منفعة ولذة لفاعلها ولذلك يوثرها ويختارها والا فلو تجردت
مفسدتها من كل وجه لما اثرها العاقل ولا فعلها اصلا ولما كان خاصة العقل النظر الى العواقب
والغايات كان اعقل الناس اتركهم لما ترجحت مفسدته في العاقبة وان كان فيه لذة ما ومنفعة يسيرة
بالنسبة الى مضرته ونازعهم اخرون وقالوا القسمة تقتضي امكان هذين القسمين والوجود يدل

على وقوعهما فان معرفة الله ومحبته والايمان به خير محض من كل وجه لا مفسدة فيه بوجه ما قالوا
ومعلوم ان الجنة خير محض لا شر فيها اصلا وان النار شر محض لا خير فيها اصلا واذا كان هذان القسمان
موجودين في الاخرة فما المحيل لوجودهما في الدنيا قالوا وايضا فالمخلوقات كلها منها ما هو خير
محض لا شر فيه اصلا كالانبيا والملائكة صلى الله عليهم وسلم ومنها ما هو شر محض لا خير فيه اصلا كابليس
والشياطين ومنها ما هو خير وشر واحدهما غالب على الاخر فمن الناس من يغلب خيره على شره ومنهم من يغلب
شره على خيره فهكذا الاعمال منها ما هو خالص المصلحة وراجحها وخالص المفسدة وراجحها هذا في الاعمال
كما ان ذلك في العمال قالوا وقد قال تعالى في السحر ويتعلمون ما يضرهم ولا ينفعهم فهذا دليل على
انه مضرة خالصة لا منفعة فيه اما لان بعض انواعه مضرة خالصة لا منفعة فيه بوجه فما كل السحر يحصل غرض
الساحر بل تعلم ما به باب منه حتى يحصل غرضه بباب والباقي مضرة خالصة وعلى هذا فهذا القسم
الخالص المفسدة واما لان المنفعة الحاصلة للساحر لما كانت مغمورة مستهلكة في جنب المفسدة العظيمة فيه
جعلت كلا منفعة فيكون من القسم الراجح المفسدة وعلى القولين فكل مامور به فهو راجح المصلحة على تركه
وان كان مكروها للنفوس قال تعالى كتب عليكم القتال وهو كره لكم وعسى ان تكرهوا شيئا وهو خير لكم
وعسى ان تحبوا شيئا وهو شر لكم والله يعلم وانتم لا تعلمون فبين ان الجهاد الذي امروا به وان كان مكروها
للنفوس شاقا عليها فمصلحته راجحة وهو خير لهم واحمد عاقبة واعظم فائدة من التقاعد عنه وايثار
البقاء والراحة فالشر الذي فيه مغمور بالنسبة الى ما يتضمنه من الخير وهكذا كل منهي عنه فهو راجح
المفسدة وان كان محبوبا للنفوس موافقا للهوى ففيه مضرة ومفسدة اعظم مما فيه من المنفعة وتلك المنفعة
واللذة مغمورة مستهلكة في جنب مضرته كما قال تعالى واثمهما اكبر من نفعهما وقال وعسى ان تحبوا
شيئا وهو شر لكم وفصل الخطاب في المسئلة اذا اريد بالمصلحة الخالصة انها في نفسها خالصة من المفسدة
لا يشوبها مفسدة فلا ريب في وجودها وان اريد بها المصلحة التي لا يشوبها مشقة ولا اذى في طريقها
والوسيلة اليها ولا في ذاتها فليست بموجودة بهذا الاعتبار اذ المصالح والخيرات واللذات والكمالات
كلها لا تنال الا بحظ من المشقة ولا يعبر اليها الا على جسر من التعب وقد اجمع عقلا كل امة على ان النعيم لا
يدرك بالنعيم وان من آثر الراحة فاتته الراحة وان بحسب ركوب الاهوال واحتمال المشاق تكون
الفرحة واللذة فلا فرحة لمن لا هم له ولا لذة لمن لا صبر له ولا نعيم لمن لا شقاء له ولا راحة لمن لا تعب
له بل اذا تعب العبد قليلا استراح طويلا واذا تحمل مشقة الصبر ساعة قاده لحياة الابد وكل ما فيه
اهل النعيم المقيم فهو ثمرة صبر ساعة والله المستعان ولا قوة الا بالله وكلما كانت النفس اشرف

والهمة اعلا كان تعب البدن اوفر وحظه من الراحة اقل كما قال المتنبي
واذا كانت النفوس كبارا   تعبت في مرادها الاجسام
وقال ابن الرومي   قلب يظل على افكاره وبد   تمضي الامور ونفس لهوها التعب
وقال مسلم في صحيحه قال يحيى بن ابي كثير لا ينال العلم براحة الجسد ولا ريب عند كل عاقل
(لعله الالم) ان كمال الراحة بحسب التعب وكمال النعيم بحسب تحمل المشاق في طريقه وانما تخلص الراحة واللذة
والنعيم في دار السلام فاما في هذه الدار فكلا ولما وبهذا التفصيل يزول النزاع في المسئلة ويعود
مسئلة وفاق **فصل** واما المسئلة الثانية وهي ما تساوت مصلحته ومفسدته فقد
اختلف في وجوده وحكمه فاثبت وجوده قوم ونفاه اخرون والجواب ان هذا القسم لا وجود له وان حصره
التقسيم بل التفصيل اما ان يكون حصوله اولى بالفاعل وهو راجح المصلحة واما ان يكون عدمه اولى به
وهو راجح المفسدة واما فعله يكون حصوله اولى به لمصلحته وعدمه اولى به لمفسدته وكلاهما متساويان
فهذا مما لم يقم دليل على ثبوته بل الدليل يقتضي نفيه فان المصلحة والمفسدة والمنفعة والمضرة واللذة
والالم والالم اذا تقابلا فلا بد ان يغلب احدهما الاخر فيصير الحكم للغالب واما ان يتدافعا ويتصادما
بحيث لا يغلب احدهما الاخر فغير واقع اصلا فانه اما ان يقال يوجد الامران معا وهو محال للتضاد
في المحل الواحد واما ان يقال يمتنع وجود كل من الامرين وهو ممتنع ايضا لوجود مقتضيه واما ان يقال
يوجد احدهما دون الاخر مع تساويهما وهو ممتنع لانه ترجيح لاحد الجائزين من غير مرجح وهذا
المحال انما نشا من فرض تدافع المؤثرين وتصادمهما فهو محال فلا بد ان يقهر احدهما صاحبه
(لعله الاثر) فيكون الحكم له فان قيل فما المانع من ان يمتنع وجود الامرين قولكم انه محال لوجود مقتضيه ان اردتم
به المقتضي السالم عن المعارض فغير موجود وان اردتم المقتضي المقارن لوجود المعارض فتخلف
اثره عنه غير ممتنع والمعارض قائم ههنا في كل منهما فلا يمتنع تخلف الامرين **فالجواب**
ان المعارض اذا كان قد سلب تاثير المقتضي في موجبه مع قوته وشدة اقتضائه لاثره ومع هذا فقد قوي
على سلبه قوة التاثير والاقتضاء فلان يقوى على سلبه قوة منعه لتاثيره في مقتضاه وموجبه
بطريق الاولى ووجه الاولوية ان امضاه لاثره اشد من منعه تاثير غيره فاذا قوي على سلبه الاقوى
فسلبه للاضعف اولى واحرى فان قيل هذا ينتقض بكل مانع يمنع تاثير العلة في معلولها
وهو باطل قطعا قيل لا ينتقض بما ذكرتم والنقض مندفع فان العلة والمانع ههنا لم يتدافعا
ويتصادما ولكن المانع اضعف العلة فابطل تاثيرها فهو عائق لها عن الاقتضاء واما في مسئلتنا فالعلتان

متضادتان متعارضتان كل منهما تقتضي اثرها فلو بطل اثرهما لكانت كل واحدة مؤثرة غير مؤثرة غالبة مغلوبة مانعة ممنوعة وهذا ممتنع وهو دليل يشبه دليل التمانع وسر الفرق ان العلة الواحدة اذا قارنها مانع منع تاثيرها لم تبق مقتضية له بل المانع عاقها عن اقتضائها وهذا غير ممتنع واما العلتان المتمانعتان المتساويتان كل منهما مانعة للاخرى من تاثيرها فان تمانعهما وتقابلهما يقتضي ابطال كل واحدة منهما للاخرى وتاثيرها فيها وعدم تاثيرها معا وهو جمع بين النقيضين لانها اذا ابطلت لم تكن مؤثرة واذا لم تكن مؤثرة لم تبطل غيرها فيكون كل منهما مؤثرة غير مؤثرة باطلة غير باطلة وهذا المحال نشأ من تساويهما فلا بد ان يترجح احدهما في الاخرى بقوتها فيكون الحكم لها فان قيل فما تقولون فيمن توسط ارضا مغصوبة ثم بدا له في التوبة فان امرتموه باللبث فهو محال وان امرتموه بقطعها والخروج من الجانب الاخر فقد امرتموه بالحركة والتصرف في ملك الغير وكذلك ان امرتموه بالرجوع وهو حركة وتصرف في ارض الغصب فهذا قد تعارضت فيه المصلحة والمفسدة فما الحكم في هذه الصورة وكذلك من توسط بين قتلى مثخنة بالجراح مشرفين للموت وليس له انتقال الا على احدهم فان اقام على من هو فوقه قتله وان انتقل الى غيره قتله فقد تعارضت هنا مصلحة النقلة ومفسدتها على السواء وكذلك من طلع عليه الفجر وهو مجامع فان اقام افسد صومه وان نزع فالنزع من الجماع والجماع مركب من الحركتين فههنا ايضا قد تضادت العلتان وكذلك ايضا اذا تترس الكفار باسرى من المسلمين ثم تعدد المقاتلة ودار الامر بين قتل الترس والكف عنه وقتل الكفار لمقاتلة المسلمين فههنا ايضا قد تقابلت المصلحة والمفسدة على السواء وكذلك ايضا اذا التقى في مركبهم نار وعاينوا الهلاك فان اقاموا احترقوا وان لجاوا الى الماء هلكوا بالغرق وكذلك الرجل اذا ضاق عليه الوقت ليلة عرفة ولم يبق منه الا ما يسع العصر فان اشتغل بها فاته الوقوف وان اشتغل بالذهاب الى عرفة فاتته الصلاة فههنا قد تعارضت المصلحتان والمفسدتان على السواء وكذلك الرجل اذا استيقظ قبل طلوع الشمس وهو جنب ولم يبق من الوقت الا ما يسع لقدر الغسل او الصلاة بالتيمم فان اغتسل فاتته مصلحة الصلاة وان صلى بالتيمم فاتته مصلحة الطهارة فقد تقابلت المصلحة والمفسدة وكذلك اذا اغتلم البحر بحيث يعلم ركبان السفينة انهم لا يخلصون الا بتغريق شطر الركبان لتخف بهم السفينة فان القوا شطرهم كان فيه مفسدة وان تركوهم كان فيه مفسدة فقد تقابلت المفسدتان والمصلحتان على السواء وكذلك لو اكره رجل على اتلاف درهم من درهمين متساويين او اتلاف حيوان من حيوانين متساويين او شرب قدح من قدحين متساويين او وجد كافرين قويين في حال المبارزة لا يمكنه الا قتل احدهما

او قصد المسلمين عدوان متكافئان من كل وجه في القرب والبعد والعدد والعداوة فان في هذه الصور كلها تساوت المصالح والمفاسد ولا يمكنهم ترجيح احدى المصلحتين ولا احدى المفسدتين

ومعلوم ان هذه حوادث لا تخلوا من حكم لله فيها واما ما ذكرتم من امتناع تقابل المصلحة والمفسدة على السواء فلمخالفيكم عليكم انكاره وانتم تقولون بالموازنة وان من الناس من تستوي حسناته وسيئاته فيبقى في الاعراف بين الجنة والنار لتقابل مقتضى الثواب والعقاب في حقه فان حسناته قصرت به عن دخول النار وسيئاته قصرت به عن دخول الجنة وهذا ثابت عن الصحابة حذيفة بن اليمان وابن مسعود وغيرهما

فالجواب من وجهين مجمل ومفصل اما المجمل فليس في شيء مما ذكرتم دليل على محل النزاع فان مورد النزاع ان تتقابل المصلحة والمفسدة وتتساويا فيتدافعا ويبطل اثرهما وليس في هذه الصور شيء من ذلك وهذا يتبين بالجواب التفصيلي عنها صورة صورة فاما من توسط ارضا مغصوبة فانه مامور من حين دخل فيها بالخروج منها فحكم الشارع في حقه المبادرة الى الخروج وان استلزم ذلك حركة في الارض المغصوبة فانها حركة تتضمن ترك الغصب فهي من باب ما لا خلاص عن الحرام الا به وان قيل انها واجبة فوجوب عقلي لزومي لا انه مقصود لمفسدة هذه الحركة مغمورة في مصلحة تفريغ الارض والخروج عن الغصب واذا قدر تساوي الجوانب بالنسبة اليه فالواجب القدر المشترك وهو الخروج من احدها وعلى كل تقدير فمفسدة هذه الحركة مغمورة في جانب مصلحة ترك الغصب فليس مما نحن فيه بسبيل واما مسالة من توسط بين قتلى ولا سبيل له الى المقام او الى النقلة الا بقتل احدهم فهذا ليس مكلفا في هذه الحال بل هو في حكم الملجأ والملجأ ليس مكلفا اتفاقا فانه لا قصد له ولا فعل وهذا الملجأ من حيث انه لا سبيل له الى ترك النقلة عن واحد الى اخر فهو ملجأ الى الحاقه فوق واحد ولا بد ومثل هذا لا يوصف فعله باباحة ولا تحريم ولا يجري احكام التكليف لان احكام التكليف منوطة بالاختيار فلا يتعلق بمن لا اختيار له فلو كان بعضهم مسلما وبعضهم كافرا فان اشترا ذلك في العصمة فقد قيل يلزمه الانتقال الى الكافر والمقام عليه لان قتله اخف مفسدة من قتل المسلم ولهذا يجوز قتله لا بقتله في المعركة واما اذا تترس الكفار فيرميهم ويقصد الكفار واما من طلع عليه الفجر وهو مجامع فالواجب عليه النزع عينا ويحرم عليه استدامة الجماع واللبث وانما اختلف في وجوب القضاء والكفارة على ثلاثة اقوال في مذهب الامام احمد وغيره احدها عليه القضاء والكفارة وهذا اختيار القاضي ابي يعلى والثاني لا شيء عليه وهذا اختيار شيخنا قدس الله روحه وهو الصحيح والثالث عليه القضاء دون الكفارة وعلى الاقوال كلها فالحكم في حقه وجوب النزع والمفسدة التي في حركة النازع مفسدة مغمورة في مصلحة اقلاعه ونزوعه فليست المسالة

من موارد النزاع وأما إذا تترس الكفار بأسرى من المسلمين بعدد المقاتلة فإنه لا يجوز رميهم إلا أن يخشى على جيش المسلمين
ويكون مصلحة حفظ الجيش أعظم من مصلحة حفظ الأسارى فحينئذ يجوز رمي الأسارى ويكون من باب دفع أعظم المفسدتين
باحتمال أدناهما فلو انعكس الأمر وكانت مصلحة بقاء الأسارى أعظم من رميهم لم يجز رميهم فهذا الباب مبني على دفع
المفسدتين بأدناهما وتحصيل أعظم المصلحتين بتفويت أدناهما فإن فرض أن ذلك تساوى الأمرين لم يجز
رمي الأسارى لأنه على يقين من قتلهم وعلى ظن وتخمين من قتل أصحابه وهلاكهم ولو قدر أنهم سعوا ذلك ولم يخرج
فلهم استباحة بيضة الإسلام وغلبة العدو على الديار والذرية لم يجز أن يتقوا العدو بهم نفوس الأسرى كلهم
يجوز للمكره على قتل المعصوم أن يقتله ويقي نفسه بنفسه بل الواجب عليه أن يستسلم للقتل ولا يجعل النفس المعصومة
وقاية لنفسه وأما إذا ألقي في مركبهم نار فإنهم يفعلون ما يرون السلامة فيه وإن شكوا أهل السلامة في
مقامهم أو في وقوعهم في الماء أو تيقنوا الهلاك في الصورتين أو غلب على ظنهم غلبة متساوية لا يترجح أحد
طرفيها ففي الصور الثلاث قولان لأهل العلم هما روايتان منصوصتان عن الإمام أحمد أحدهما أنهم يخيرون
بين الأمرين لأنهما موتتان قد عرضتا لهم فلهم أن يختاروا أيسرهما عليهم إذ لا بد من إحداهما وكلاهما بالنسبة إليهم
سواء فيخيرون بينهما والقول الثاني يلزمهم المقام ولا يعينون على أنفسهم لئلا يكون موتهم بسبب من جهتهم ليتمحض
موتهم شهادة بأيدي عدوهم وأما الذي ضاق عليه وقت الوقوف بعرفة والصلاة فإن الواجب في حقه
تقوى الله بحسب الإمكان وقد اختلف في تعيين ذلك الواجب على ثلاثة أقوال في مذهب الإمام أحمد رضي الله عنه وغيره
أحدها أن الواجب في حقه معينا إيقاع الصلاة في وقتها فإنها قد تضيقت والحج لم يتضيق وقته فإنه
إذا فعله في العام القابل لم يكن قد أخرجه عن وقته بخلاف الصلاة والقول الثاني أنه يقدم الحج ويقضي
الصلاة والوقوف لأن مشقة فواته وتكليفه إنشاء سفر آخر وإقامة في مكة إلى قابل ضرر عظيم تأباه الحنيفية
السمحة فيشتغل بإدراكه ويقضي الصلاة إلى عرفة فلو في طريقه مصليا كما يصلي الهارب من سيل أو سبع أو عدو
اتفاقا والطالب لعدو يخشى فواته على أحد القولين وهذا أقيس الأقوال وأفقهها إلى قواعد الشرع
ومقاصده فإن الشريعة مبناها على تحصيل المصالح بحسب الإمكان وأن لا يفوت منها شيء فإن أمكن تحصيلها
كلها حصلت وإن تزاحمت ولم يمكن تحصيل بعضها إلا بتفويت البعض قدم أكملها وأهمها وأشدها طلبا
للشارع وقد قال عبد الله بن أنيس بعثني رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى خالد بن سفيان العرني
وكان نحو عرنة وعرفات فقال اذهب فاقتله قال فرأيته وحضرت صلاة العصر فقلت إني أخاف أن يكون
بيني وبينه ما إن أؤخر الصلاة فانطلقت أمشي وأنا أصلي أومئ إيماء نحوه فلما دنوت منه قال لي من أنت
قلت رجل من العرب بلغني أنك تجمع لهذا الرجل فجئتك في ذلك قال إني لفي ذلك فمشيت معه ساعة

حتى إذا أمكنني علوته بسيفي حتى برد رواه أبو داود وأما مسألة المستيقظ قبل طلوع الشمس جنبا
وضيق الوقت عليه بحيث لا يتسع للغسل والصلاة فهذا الواجب في حقه عند جمهور العلماء أن يغتسل
وإن طلعت الشمس ولا تجزئه الصلاة بالتيمم لأنه واجد للماء وإن كان غير مفرط في نومه فلا إثم عليه
كما لو نام حتى طلعت الشمس والواجب في حقه المبادرة إلى الغسل والصلاة عقبه وهذا أفقه في حق أمثاله
وعلى هذا القول الصحيح فلم يتعارض هنا مصلحة ومفسدة متساويتان بل مصلحة الصلاة بالطهارة
أرجح من إيقاعها في الوقت بالتيمم وفي المسألة قول ثان وهو رواية عن مالك رضي الله عنه أنه يتيمم ويصلي في الوقت
لأن الشارع له التفات إلى إيقاع الصلاة في الوقت بالتيمم أعظم من التفاته إلى إيقاعها بطهارة الماء خارج
الوقت والعدم المبيح للتيمم هو العدم بالنسبة إلى وقت الصلاة لا مطلقا فإنه لا بد أن يجد الماء ولو
بعد حين ومع هذا فأوجب عليه الشارع التيمم لأنه عادم للماء بالنسبة إلى وقت الصلاة وهكذا هذا
النائم وإن كان واجدا للماء لكنه عادم بالنسبة إلى الوقت وصاحب هذا القول يقول مصلحة إيقاع
الصلاة في الوقت بالتيمم أرجح في نظر الشارع من إيقاعها خارج الوقت بطهارة الماء فعلى كلا القولين
لم تتساو المصلحة والمفسدة فثبت أنه لا وجود لهذا القسم في الشرع وأما مسألة إغراق البحر
فلا يجوز إلقاء أحد منهم في البحر بالقرعة ولا بغيرها لاستوائهم في العصمة وقتل من لا ذنب له وقاية
لنفس القاتل به وليس أولى بذلك منه نعم لو كان في السفينة مال أو حيوان وجب إلقاء المال ثم
الحيوان لأن المفسدة في فوات الأموال والحيوانات أولى من المفسدة في فوات أنفس الناس المعصومة
وأما سائر الصور التي تساوت فيها المفسدتان كإتلاف الدرهمين والحيوانين وقتال أحد العدوين
فهذا الحكم فيه التخيير بينهما لأنه لا بد من إتلاف أحدهما ووقاية للآخر وكلاهما سواء فيخير بينهما
وكذلك العدوان المتكافئان يخير بين قتالهما كالواجب المخير والأولى وأما من تساوت
حسناته وسيئاته وتدافع أثرها فهو حجة عليكم فإن الحكم للحسنات وهي تغلب السيئات فإنه لا يدخل النار
ولكنه يحبس على الأعراف مدة ثم يصير إلى الجنة فقد ثبت غلبة الحسنات لجانب السيئات ومنعها من ترتب
أثرها عليها وأن الأثر هو أثر الحسنات فقط فإنه لا دليل لكم على وجود هذا القسم أصلا وإن
الدليل يدل على امتناعه فإن قيل فما قولكم فيما إذا عارض المفسدة مصلحة أرجح منها وترتب الحكم
على الراجح هل يترتب عليه مع بقاء المرجوح من المصلحة والمفسدة لكنه لما كان مغمورا لم يلتفت
إليه أو تقولون إن المرجوح زال أثره بالراجح فلم يبق له أثر ومثال ذلك أن الله تعالى حرم
الميتة والدم ولحم الخنزير لما فيها من المفسدة الراجحة وهو خبث التغذية والغادي شبيه

بالمغتذي فيصير المغتذي بهذه الخبائث خبيث النفس فمن محاسن الشريعة تحريم هذه الخبائث فان
اضطر اليها وخاف على نفسه الهلاك ان لم يتناولها ابيح له فهل اباحتها والحالة هذه مع بقاء
وصف الخبث فيها لكن عارضته مصلحة ارجح منه وهي حفظ النفس او اباحتها ازالت وصف الخبث
منها فما ابيح له الا طيب وان كان خبيثا في حال الاختيار قيل هذا موضع دقيق وتحقيقه
يستدعي اطلاعا على اسرار الشريعة والطبيعة فلا تستهونه واعطه حقه من النظر والتامل وقد
اختلف الناس فيه على قولين فكثير منهم او اكثرهم سلك مسلك الترجيح مع بقاء وصف الخبث فيه
وراى ان مصلحة حفظ النفس ارجح من مفسدة خبث التغذية وهذا القول لم يحقق النظر ولم يعط
التامل بل استرسل مع ظاهر الامر والصواب ان وصف الخبث منتف في حال الاضطرار وكشف الغطا
عن المسالة ان وصف الخبث غير مستقل بنفسه في المحل المتغذى به بل هو متولد من القابل والفاعل فهو
حاصل من المغتذي والمغتذى به ونظيره تاثير السم في البدن هو موقوف على الفاعل والمحل القابل
اذا علم ذلك فتناول هذه الخبائث في حال الاختيار يوجب حصول الاثر المطلوب عدمه فاذا كان
المتناول لها مضطرا فان ضرورته تمنع قبول الخبث الذي في المغتذى فلم تحصل تلك المفسدة
لانها مشروطة بالاختيار الذي به يقبل المحل خبث المغتذى فاذا زال الاختيار زال شرط القبول فلم
تحصل المفسدة اصلا وان اعتاص هذا على فهمك فانظر في الاغذية والاشربة الضارة التي لا ينفك
عنها الضرر اذا تناولها المختار الواجد لغيرها فاذا اشتدت ضرورته اليها ولم يجد منها بدا فانها
تنفعه ولا يتولد له منها ضرر اصلا لان قبول طبيعته وفاقتها اليها وميلها اليها منعها من التضرر
بها بخلاف حال الاختيار وامثال ذلك معلومة مشهودة بالحس فاذا كانت هذه الاوصاف
الحسية المؤثرة في محالها بالحس فما الظن بالاوصاف المعنوية التي تاثيرها انما يعلم بالعقل او الشرع
ولا تظن ان الضرورة ازالت وصف المحل وبدلته فانا لم نقل هذا ولا يقوله عاقل وانما الضرورة
منعت تاثير الوصف وابطلته فهي من باب المانع الذي يمنع تاثير المقتضي لا انه يزيل قوة المؤثرات
السيف الحاد اذا صادف حجرا فانه يمنع قطعه وتاثيره لا انه يزيل حدته وتهيؤه لقطع القابل
ونظير هذا الملابس المحرمة اذا اضطر اليها فان ضرورته تمنع ترتب المفسدة التي حرمت لاجلها
فان قيل فهذا ينتقض عليكم بتحريم نكاح الامة فانه حرم للمفسدة التي تتضمنه من ارقاق
الولد ثم ابيح عند الضرورة اليه وهي خوف العنت الذي هو اعظم فسادا من ارقاق الولد ومع هذا
فالمفسدة قائمة بعينها ولكن عارضها مصلحة حفظ الفرج عن الحرام وهي ارجح عند الشارع من رق

الولد قيل

قيل هذا لا ينتقض ما قررناه فان الله سبحانه انما حرم نكاح الامة لما فيه من مفسدة رق الولد
واشتغال الامة بخدمة سيدها فلا يحصل للزوج من السكن اليها والايواء ودوام المعاشرة ما تقر به
عينه وتسكن به نفسه اباحه عند الحاجة اليه بان لا يقدر على نكاح حرة ويخشى على نفسه مواقعة
المحظور فكانت المصلحة له في نكاحها في هذه الحال ارجح من تلك المفاسد وليس هذا حال ضرورة تبيح
لها المحظور فان الله سبحانه لا يضطر عبده الى الجماع بحيث ان لم يجامع مات بخلاف الطعام والشراب
ولهذا لم يبح الزنا لضرورة كما ابيح الخنزير والميتة والدم وانما الشهوة وقضاء الوطر يشق
على الرجل تحمله وكف النفس عنه لضعفه وقلة صبره فرحمه ارحم الراحمين واباح له من اطايب النساء واحسنهن
اربعا من الحرائر وما شاء من ملك يمينه من الاماء فان عجز عن ذلك اباح له نكاح الامة رحمة به وتخفيفا عنه
لضعفه ولهذا قال تعالى ومن لم يستطع منكم طولا ان ينكح المحصنات المؤمنات فمن ما ملكت ايمانكم
من فتياتكم المؤمنات والله اعلم بايمانكم الى قوله والله يريد ان يتوب عليكم ويريد الذين يتبعون الشهوات
ان تميلوا ميلا عظيما يريد الله ان يخفف عنكم وخلق الانسان ضعيفا فاخبر سبحانه انه شرع لهم هذه الاحكام
تخفيفا عنهم لضعفهم وقلة صبرهم رحمة بهم واحسانا اليهم فليس ههنا ضرورة تبيح المحظور وانما
هي مصلحة ارجح من مصلحة ومفسدة اقل من مفسدة فاختار لهم اعظم المصلحتين وان فاتت ادناهما ودفع
عنهم اعظم المفسدتين وان فاتت ادناهما وهذا شان الحكيم اللطيف الخبير البر المحسن واذا تاملت
شرائع دينه التي وضعها بين عباده وجدتها لا تخرج عن تحصيل المصالح الخالصة او الراجحة بحسب الامكان
وان تزاحمت قدم اهمها واجلها وان فاتت ادناهما وتعطيل المفاسد الخالصة او الراجحة بحسب
الامكان وان تزاحمت عطل اعظمها فسادا باحتمال ادناهما وعلى هذا وضع احكم الحاكمين شرائع
دينه دالة عليه شاهدة له بكمال علمه وحكمته ولطفه بعباده واحسانه اليهم وهذه الجملة لا يستريب
فيها من له ذوق من الشريعة وارتضاع من ثديها وورود من صفو حوضها وكلما كان تضلعه منها اعظم
كان شهوده لمحاسنها ومصالحها اكمل ولا يمكن احدا من الفقهاء ان يتكلم في ماخذ الاحكام وعللها
والاوصاف المؤثرة فيها جمعا وفرقا الا على هذه الطريق واما طريقة انكار الحكم والتعليل
ونفي الاوصاف المقتضية لحسن ما امر به وقبح ما نهى عنه وتاثيرها واقتضائها الحب والبغض
الذي هو مصدر الامر والنهي بطريقة جدلية كلامية لا يتصور بناء الاحكام ولا يمكن فقيها
ان يستعملها في باب واحد من ابواب الفقه كيف والقران وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم مملوءة بتعليل
الاحكام بالحكم والمصالح وتعليل الخلق بهما والتنبيه على وجوه الحكم التي لاجلها شرع تلك الاحكام

ولاجلها خلق تلك الاعيان ولو كان هذا في القرآن والسنة في نحو مائة موضع او مائتين لسقناها ولكنه
يزيد على الف موضع بطرق متنوعة فتارة يذكر لام التعليل الصريحة وتارة يذكر المفعول لاجله الذي
هو المقصود بالفعل وتارة يذكر من اجل الصريحة في التعليل وتارة يذكر اداة كي وتارة يذكر الفاء وان
وتارة يذكر اداة لعل المتضمنة للتعليل المجردة عن معنى الرجاء المضاف الى المخلوق وتارة ينبه على السبب بذكره
صريحا وتارة يذكر الاوصاف المشتقة المناسبة لتلك الاحكام ثم يرتبها عليها ترتيب المسببات على اسبابها
وتارة ينكر على من زعم انه خلق خلقه وشرع دينه عبثا وسدى وتارة ينكر على من ظن انه يسوي بين المختلفين الذين
يقتضيان اثرين مختلفين وتارة يخبر بكمال حكمته وعلمه المقتضي انه لا يفرق بين متماثلين ولا يسوي بين مختلفين
وانه ينزل الاشياء منازلها ويرتبها مراتبها وتارة يستدعي من عباده التفكر والتامل والتدبر والتعقل لحسن ما بعث
به رسوله وشرعه لعباده كما يستدعي منهم التفكر والنظر في مخلوقاته وحكمها وما فيها من المنافع والمصالح وتارة
يذكر منافع مخلوقاته منبها بها على كمال حكمته وعلمه كما يذكر مصالح شرعه منبها بها على ذلك وانه الله الذي لا اله الا
هو وتارة يختم آيات خلقه وامره باسماء وصفات تناسبها وتقتضيها والقرآن مملوء من اوله الى آخره بذكر حكم
الخلق والامر ومصالحهما ومنافعهما وما تضمناه من الآيات الشاهدة له الدالة عليه ولا يمكن من له ادنى اطلاع
على معاني القرآن انكار ذلك وهل جعل الله سبحانه في فطر العباد استواء العدل والظلم والصدق والكذب والفجور
والعفة والاحسان والاساءة والصبر والعفو والاحتمال والطيش والانتقام والحدة والكرم والسماحة والبذل
والبخل والشح والامساك بل الفطرة على الفرقان بين ذلك كالفطرة على قبول الاغذية النافعة وترك ما لا ينفع
ولا يغذي ولا فرق في الفطرة بينهما اصلا واذا تاملت الشريعة التي بعث الله بها رسوله حق التامل وجدتها
من اولها الى آخرها شاهدة بذلك ناطقة به ووجدت الحكمة والمصلحة والعدل والرحمة باديا على صفحاتها
مناديا عليها يدعو العقول والالباب اليها وانه لا يجوز على احكم الحاكمين ولا يليق به ان يشرع لعباده ما
يضادها وذلك لان الذي شرعها علم ما في خلافها من المفاسد والقبائح والظلم والسفه الذي يتعالى عن
ارادته وشرعه وانه لا يصلح العباد الا عليها ولا سعادة لهم بدونها البتة فتامل
محاسن الوضوء بين يدي الصلاة وما تضمنه من النظافة والنزاهة ومجانبة الاوساخ والمستقذرات
وتامل كيف وضع على الاعضاء الاربعة التي هي آلة البطش ومجمع الحواس التي تعلق اكثر الذنوب والخطايا
بها ولهذا خصها النبي صلى الله عليه وسلم بالذكر في قوله ان الله كتب على ابن آدم حظه من الزنا ادرك
ذلك لا محالة فالعين تزني وزناها النظر والاذن تزني وزناها الاستماع واليد تزني وزناها
البطش والرجل تزني وزناها المشي والقلب يتمنى ويشتهي والفرج يصدق ذلك او يكذبه فلما كانت هذه الاعضاء

هي اكثر

اكثر الاعضاء مباشرة للمعاصي كان وسخ الذنوب الصق بها واعلق من غيرها فشرع احكم الحاكمين
الوضوء عليها المتضمن نظافتها وطهارتها من الاوساخ الحسية واوساخ الذنوب والمعاصي وقد اشار النبي صلى
الله عليه وسلم الى هذا المعنى بقوله اذا توضا العبد المسلم خرجت خطاياه مع الماء او مع آخر قطر الماء حتى يخرج من
تحت اظفاره وفي ابو امامة رسول الله عن الوضوء فقال اما الوضوء فانك اذا توضات
فغسلت كفيك فانقيتهما خرجت خطاياك من بين اظفارك وانا ملك فاذا تمضمضت واستنشقت منخريك وغسلت
وجهك ويديك الى المرفقين ومسحت براسك وغسلت رجليك الى الكعبين اغتسلت من عامة خطاياك فان
انت وضعت وجهك لله خرجت من خطاياك كيوم ولدتك امك رواه النسائي والاحاديث في هذا الباب
كثيرة فاقتضت حكمة احكم الحاكمين ورحمته ان شرع الوضوء على هذه الاعضاء وهي اسهل الاعضاء غسلا
فلا يشق تكرار غسلها في اليوم والليلة فكانت الحكمة الباهرة في شرع الوضوء عليها دون سائر الاعضاء
وهذا يدل على ان المضمضة من آكد اعضاء الوضوء ولهذا كان النبي صلى الله عليه وسلم يداوم عليها
ولم ينقل عنه باسناد قط انه اخل بها يوما واحدا وهذا يدل على انها فرض لا يصح الوضوء بدونه كما هو
الصحيح من مذهب الامام احمد وغيره من السلف فمن سوى بين هذه الاعضاء وغيرها وجعل تعيينها بمجرد
الامر الخالي عن الحكمة والمصلحة فقد ذهب مذهبا فاسدا فكيف اذا زعم مع ذلك انه لا فرق في نفس الامر
بين التعبد بذلك وبين التعبد بالجلسة وانواع الاقذار والاوساخ والانتان والرائحة الكريهة
ويجعل ذلك مكان الطهارة والوضوء وان الامرين سواء وانما الحكم بمجرد المشيئة بهذا الامر دون ضده
ولا فرق بينهما في نفس الامر وهذا قول تصوره كاف في الجزم ببطلانه وجميع مسائل الشريعة
كذلك آيات بينات ودلالات واضحات وشواهد ناطقات بان الذي شرعها له الحكمة البالغة والعلم المحيط
والرحمة والعناية بعباده وارادة الصلاح لهم وسوقهم الى كمالهم وعواقبهم الحميدة وقد نبه سبحانه عباده على
هذا في قوله يا ايها الذين آمنوا اذا قمتم الى الصلاة فاغسلوا وجوهكم وايديكم الى المرافق وامسحوا برؤوسكم
وارجلكم الى الكعبين الى قوله ما يريد الله ليجعل عليكم في الدين من حرج ولكن يريد ليطهركم وليتم نعمته عليكم
لعلكم تشكرون فاخبر سبحانه انه لم يامرهم بذلك حرجا عليهم وتضييقا ومشقة ولكن ارادة تطهيرهم واتمام
نعمته عليهم ليشكروه على ذلك فله الحمد كما هو اهله وكما ينبغي لكرم وجهه وعز جلاله فان قيل
فما جوابكم عن الادلة التي ذكرها نفاة التحسين والتقبيح على كثرتها قيل قد كفونا بحمد الله مؤنة ابطالها
بقدحهم فيها وقد ابطلها اهلها واعترض عليها فضلاء اتباعها واصحابها ابو عبد الله بن الخطيب وابو الحسن
الآمدي واعتمد كل منهما على مسلك من افسد المسالك واعتمد العاصي على مسلك من جنسها في المفاسد فاعتمد

هؤلاء الفضلاء على إبطال مسالك فاسدة وتعرضوا لإبطال الاستدلالات والقدح فيه ونحن نذكر منها ما اتكلهم
الى اعتمدوا عليها ونبين فسادها وبطلانها فأما ابن الخطيب فاعتمد على المسلك المشهور وهو ان فعل العبد غير
اختياري وما ليس بفعل اختياري لا يكون حسنا ولا قبيحا عقلا بالاتفاق لأن القائلين بالحسن والقبح العقليين
يعترفون بأنه انما يكون كذلك اذا كان اختياريا وقد بينا انه اضطراري فلا يوصف بحسن ولا قبح
على المذهبين اما بيان كونه غير اختياري فلأنه ان لم يتمكن العبد من فعله وتركه فواضح وان كان متمكنا من فعله وتركه
كان جائزا فاما ان يفتقر ترجيح الفاعلية على التاركية الى مرجح او لا فان لم يفتقر كان اتفاقيا والاتفاقي
لا يوصف بالحسن والقبح وان افتقر الى مرجح فهو مع مرجحه اما لازم واما جائز فان كان لازما فهو اضطراري
وان كان جائزا عاد التقسيم فاما ان ينتهي الى ما يكون لازما فيكون ضروريا او لا ينتهي اليه فيتسلسل وهو محال
او يكون اتفاقيا فلا يوصف بحسن ولا قبح فهذا الدليل هو الذي يصول به ويجول ويثبت به الجبر
ويرد به على القدرية ويسمي به الجبر ونفي التقبيح وهو فاسد من وجوه متعددة احدها انه يتضمن التسوية
بين الحركة الضرورية والاختيارية وعدم التفريق بينهما وهو باطل بالضرورة والحس والشرع فالاستدلال
على ان فعل العبد غير اختياري استدلال على ما هو معلوم البطلان ضرورة وحسا وشرعا فهو بمنزلة الاستدلال
على الجمع بين النقيضين وعلى وجود المحال لذاته الوجه الثاني لو صح الدليل المذكور لزم
منه ان يكون الرب تعالى غير مختار في فعله لأن التقسيم المذكور والترديد جار فيه بعينه بأن يقال فعله
تعالى اما ان يكون لازما او جائزا فان كان لازما كان ضروريا وان كان جائزا فان احتاج الى مرجح
عاد التقسيم والا فهو اتفاقي ويكفي في بطلان الدليل المذكور ان يستلزم كون الرب غير مختار الوجه
الثالث ان الدليل المذكور لو صح لزم بطلان الحسن والقبح الشرعيين لأن فعل العبد ضروري او اتفاقي
وما كان كذلك فان الشرع لا يحسنه ولا يقبحه لانه لا يرد بالتكليف به فضلا عن ان يجعله متعلق الحسن والقبح
الوجه الرابع ان قولك اما ان يكون الفعل لازما او جائزا قلنا لازم عند مرجحه التام هو ح
وكان ماذا قولك يكون ضروريا ان عنيت به انه لا بد منه او عنيت به انه لا يكون اختياريا فان عنيت الاول
منعنا انتفاء اللازم فانه لا يلزم منه ان يكون غير مختار ويكون حاصل الدليل ان كان لا بد منه فلا بد منه
ولا يلزم من ذلك ان يكون غير اختياري وان عنيت الثاني وهو انه لا يكون اختياريا منعنا الملازمة اذ لا
يلزم من كونه لا بد منه ان يكون غير اختياري وانتم لم تذكروا على ذلك دليلا بل هي دعوى معلومة البطلان
بالضرورة الوجه الخامس ان يقال هو جائز قولك اما ان يتوقف ترجيح الفاعلية على التاركية
على مرجح او لا قلنا يتوقف على مرجح قولك عند المرجح اما ان يجب او يبقى جائزا قلنا يجب واجبا بالمرجح

جائزا بالنظر

جائزا بالنظر الى ذاته والمرجح هو الاختيار وما وجب بالاختيار لا ينافي ان يكون اختياريا فلزوم الفعل
بالاختيار لا ينافي كونه اختياريا الوجه السادس ان هذا الدليل الذي ذكره بعينه
حجة على انه اختياري لأنه وجب بالاختيار وما وجب بالاختيار لا يكون الا اختياريا والا كان الاختيار
وهو جمع بين النقيضين والدليل المذكور حجة على فساد قولك وان الفعل الواجب بالاختيار اختياري
الوجه السابع ان صدور الفعل عن المختار مشروط بتعلق اختياره به لا ينافي كونه مقدورا له
والا كانت ارادته وقدرته غير مشروطة في الفعل وهو محال واذا لم يناف ذلك كونه مقدورا فهو
اختياري قطعا الوجه الثامن قولك ان لم يتوقف هذا المرجح كونه اتفاقيا اذ هذا المرجح
خاص ولا يلزم من نفي المرجح المعين نفي المطلق الترجيح فما المانع من ان يتوقف على مرجح ولا يجعله اضطراريا
غير اختياري وان عنيت بالمرجح ما هو اعم من ذلك لم يلزم من توقفه على المرجح الاعم ان يكون غير اختياري
لأن المرجح هو الاختيار وما ترجح بالاختيار لم يمنع كونه اختياريا الوجه التاسع قولك
وان لم يتوقف على مرجح فهو اتفاقي ما تعني بالاتفاقي أتعني به ما لا فاعل له او ما فاعله مرجح بالاختيار او تعني ما لا
فان عنيت الاول لم يلزم من عدم المرجح الموجب كونه اضطراريا ان يكون الفعل صادرا عن غير فاعل وان
عنيت الثاني لم يلزم منه كونه اضطراريا وان عنيت معنى ثالثا فابده الوجه العاشر
ان غاية هذا الدليل ان يكون الفعل لازما عند وجود مشيئته وانتم لم تقيموا دليلا على انه اذا كان كذلك
يمتنع تحسينه وتقبيحه سوى الدعوى المجردة فأين الدليل على انه اذا كان لازما بهذا الاعتبار يمتنع تحسينه
وتقبيحه وذلك انما يدل على انه غير اختياري من الافعال الممتنع تحسينه وتقبيحه فمحل النزاع لم
يتناوله الدليل المذكور وما تناوله وصحت مقدمته فهو غير متنازع فيه فدليلكم لم يفد شيئا
الوجه الحادي عشر ان قولك يلزم ان لا يوصف بحسن ولا قبح على المذهبين باطل فان منازعيك
انما يمنعون من وصف الفعل بالحسن والقبح اذا لم يكن متعلق القدرة والاختيار اما ما وجب بالاختيار والقدرة
فانهم لا يساعدونك على امتناع وصفه بالحسن والقبح ابدا الوجه الثاني عشر
ان هذا الدليل لو صح لزم بطلان الشرائع والتكليف جملة لأن التكليف انما يكون بالافعال الاختيارية
اذ يستحيل ان يكلف المرتعش بحركة يده وان يكلف المحموم بتسخين جلده والمقرور بتبريده واذا كانت الافعال
اضطرارية غير اختيارية لم يتصور تعلق التكليف والامر والنهي بها فلو صح الدليل المذكور بطلت الشرائع جملة
فهذا هو الدليل الذي اعتمد عليه ابن الخطيب وابطال ادلة غيره واما الدليل الذي اعتمد عليه الآمدي
الآمدي فهو ان حسن الفعل لو كان امرا زائدا على ذاته لزم قيام المعنى بالمعنى وهو محال لأن العرض

لا يقوم بالعرض وهذا البطلان من جنس ما قبله فانه منقوض بما لا يحصى من المعاني التي يوصف بالمعاني
كما يقال علم ضروري وعلم كسبي وارادة جازمة وحركة سريعة وحركة بطيئة وحركة مستديرة
وحركة مستقيمة ومزاج معتدل ومزاج منحرف وسواد براق وحمرة قانية وخضرة ناصعة ولون
مشرق وصوت شجي وحس رخيم ورفيع ودقيق وغليظ واضعاف اضعاف ذلك مما لا يحصى مما يوصف
المعاني والاعراض فيه بمعان واعراض وجودية ومن ادعى انها عدمية فهو مكابر وهل يشك احد
في وصف المعاني بالشدة والضعف فيقال هم شديد وحب شديد وحزن شديد والم شديد وتقابلها
فوصف المعاني بصفاتها امر معلوم عند كل العقلاء **الوجه الثاني** ان قوله يلزم
منه قيام المعنى بالمعنى غير صحيح بل المعنى يوصف بالمعنى ويقوم به تبعا لقيامه بالجوهر الذي هو
المحل فيكون المعنيان جميعا قائمين بالمحل واحدهما تابع للاخر وكلاهما تابع للمحل فما قام العرض بالعرض
وانما قام العرضان جميعا بالجوهر فالحركة والسرعة قائمتان بالمتحرك والصوت وشجاه وغلظه ودقته
وحسنه وقبحه قائمة بالحامل له والمحال انما هو قيام المعنى بالمعنى من غير ان يكون لهما حامل فاما اذا كان لهما حامل
واحدهما صفة للاخر وكلاهما قايم بالمحل الحامل فليس بمحال وهذا في غاية الوضوح **الوجه**
الثالث ان حسن الفعل وقبحه شرعا امر زايد عليه لان المفهوم منه زايد على المفهوم من نفس الفعل وهما
وجوديان لا عدميان لان نقيضهما يحمل على العدم فهو عدمي فهما اذا وجوديان لان احد النقيضين
عدميا يستلزم كون نقيضه وجوديا فلو صح دليلكم المذكور لزم ان لا يوصف بالحسن والقبح شرعا
ولا خلاص عن هذا الا بالتزام كون الحسن والقبح الشرعيين عدميين ولا سبيل اليه لان الثواب والعقاب
والمدح والذم مرتب عليهما ترتب الاثر على موثره والمقتضي على مقتضيه وما كان كذلك لم يكن عدما محضا
اذ العدم المحض لا يترتب عليه ثواب ولا عقاب ولا مدح ولا ذم **وايضا** فانه لا معنى لكون
الفعل حسنا وقبيحا شرعا الا انه يشتمل على صفة لاجلها كان حسنا محبوبا للرب مرضيا له متعلقا للمدح
والثواب وكون القبيح مشتملا على صفة لاجلها كان قبيحا مبغوضا للرب متعلقا للذم والعقاب وهذه
امور وجودية ثابتة له في نفسه ومحبة الرب له وامره كساه اثرا وجوديا زاده حسنا الى حسنه
وبغضه له ونهيه عنه كساه اثرا وجوديا زاده قبحا الى قبحه فجعل ذلك كله عدما محضا ونفيا وصرفا
لا يرجع الى امر ثبوتي في غاية البطلان والاحالة وظهر ان هذا الدليل في غاية البطلان ولم نتعرض
للوجوه التي يقدحوا فيه فانها مع طولها غير شافية ولا نافعة لمن المعنى بها هي موجودة في كتبهم
واما المسلك الذي اعتمد كثير منهم كالقاضي وابي المعالي وابي عمرو بن الحاجب من المتاخرين

فهو ان الحسن والقبح لو كانا ذاتيين لما اختلفا باختلاف الاحوال والمتعلقات والازمان والامكنة
وورود النسخ على الفعل لان ما ثبت للذات فهو باق ببقائها لا يزول وهي باقية ومعلوم ان الكذب
يكون حسنا اذا تضمن عصمة نبي او مسلم ولو كان قبيحا لذاته لما اجتمع المتقابلان في صدق من قال لاكذبن
غدا ولكنه فانه لا يخلو اما ان يكذب في الغد او يصدق فان كذب لزم قبحه لكونه كذبا وحسنه لاستلزامه
صدق الخبر الاول والمستلزم للحسن حسن فيجتمع في الجزء الثاني الحسن والقبح وهما نقيضان وان صدق
لزم حسن الجزء الثاني من حيث انه صدق في نفسه وقبحه من حيث انه مستلزم لكذب الجزء الاول فلزم
النقيضان **قالوا** وايضا فلو كان القتل والجلد وقطع الاطراف قبيحا لذاته او لصفة لازمة
للذات لم يكن حسنا في الحدود والقصاص لان مقتضى الذات لا يتخلف عنها فاذا تخلف فيما ذكرناه من الصور
وغيرها دل على انه ليس ذاتيا فهذا تقرير هذا المسلك وهو من افسد المسالك لوجوه احدها
ان كون الفعل حسنا او قبيحا لذاته او لصفة لم يخرج ان ذلك يقوم بحقيقته لا ينفك عنها بحال مثل كونه
عرضا وكونه مفتقرا الى محل يقوم به وكون الحركة حركة والسواد لونا ومن هاهنا غلط علينا المنازعون
لنا في المسالة والزمونا ما لا يلزمنا وانما نعني بكونه حسنا او قبيحا لذاته او لصفة في نفسه منشا للمصلحة
والمفسدة وترتبهما عليه كترتب المسببات على اسبابها المقتضية لها وهذا كترتب الري على
الشرب والشبع على الاكل وترتب منافع الاغذية والادوية ومضارها عليها فحسن الفعل او قبحه
هو من جنس كون الدواء العلاني حسنا نافعا او قبيحا ضارا وكذلك الغذاء واللباس والمسكن
والجماع والاستفراغ والنوم والرياضة وغيرها فان ترتب اثارها عليها ترتب المعلولات والمسببات على عللها
واسبابها ومع ذلك فانها تختلف باختلاف الازمان والاحوال والاماكن والمحل القابل ووجود المعارض فتخلف
الشبع والري عن الخبز واللحم والماء في حق المريض ومن به علة تمنعه من قبول الغذاء لا يخرجه عن كونه مقتضيا
لذلك لذاته حتى يقال لو كان كذلك لذاته لم يتخلف لان ما بالذات لا يتخلف وكذلك تخلف الانتفاع بالدواء
الحرشلا لا يدل على انه ليس في ذاته نافعا ولا حسنا فهذه قوى الاغذية والادوية واللباس ومنافع
الجماع والنوم يتخلف عنها اثارها زمانا ومكانا وحالا وبحسب القبول والاستعداد فتكون نافعة
حسنة في زمان دون زمان ومكان دون مكان وحال دون حال وفي حق طايفة او شخص دون غيرهم
ولم يخرجها ذلك عن كونها مقتضية لاثارها وصفاتها فهكذا اوامر الرب تبارك وتعالى وشرايعه سوا
يكون الامر منشا للمصلحة ونافعا للمامور في وقت دون وقت فيامر به تبارك وتعالى في الوقت الذي
علم انه مصلحة فيه ثم ينهى عنه في الوقت الذي يكون فعله فيه مفسدة على نحو ما يامر الطبيب بالدواء والحمية

في وقت هو مصلحة للمريض وينهاه عنه في الوقت الذي يكون تناوله مفسدة له بل احكم الحاكمين الذي بهرت
حكمته العقول اولى بمراعاة مصالح عباده ومفاسدهم في الاوقات والاحوال والاماكن والاشخاص وهل وضعت
الشرائع الا على هذا وكان نكاح الاخت حسنا في وقته حيث لم يكن بد منه في التناسل وحفظ النوع
الانساني ثم صار قبيحا لما استغني عنه فحرمه على عباده واباحه في وقت كان فيه حسنا وحرمه في وقت
صار فيه قبيحا وكذلك كل ما نسخه تعالى من الشرائع بل الشريعة الواحدة لا تخرج عن هذا وان خفي
وجه المصلحة والمفسدة فيه على اكثر الناس وكذلك اباحة الغنائم كان قبيحا في حق من قبلنا لئلا
تحملهم اباحتها على القتال لاجلها والعمل لغير الله فيفوت عليهم مصلحة الاخلاص التي هي اعظم المصالح فحمى احكم
الحاكمين جانب هذه المصلحة العظيمة بتحريمها عليهم ليتمحض قتالهم لله لا للدنيا فكانت المصلحة في حقهم تحريمها
عليهم بتاتا او صد هذه الامة التي هي اكمل الامم عقولا وارسخهم ايمانا واعظمهم توحيدا واخلاصا وارغبهم
في الاخرة وازهدهم في الدنيا اباح لهم الغنائم وكانت اباحتها حسنة بالنسبة اليهم وان كانت قبيحة بالنسبة
الى من قبلهم فكانت كاباحة الطبيب اللحم للصحيح الذي لا يخشى عليه مضرته وحميته منه للمريض المحموم وهذا
الحكم فيما شرع في الشريعة الواحدة في وقت ثم نسخ في وقت اخر كالتخيير في الصوم في اول الاسلام بين الاطعام
وبينه لما كان غير مالوف لهم ولا معتاد والطباع تاباه اذ هو هجر مالوفها ومحبوبها ولم تذق بعد حلاوته
وعواقبه المحمودة وما في طيه من المصالح والمنافع فخيرت بينه وبين الاطعام وندبت اليه فلما عرفت علته والفته
وعرفت ما في ضمنه من المصالح والفوائد حتم عليها عينا ولم تقبل منها سواه فكان التخيير في وقته مصلحة وتعيين
الصوم في وقته مصلحة فاقتضت الحكمة البالغة شرع كل حكم في وقته لان المصلحة فيه في ذلك الوقت
وكذلك فرض الصلاة اولا ركعتين ركعتين لما كانوا حديثي عهد بالاسلام ولم يكونوا معتادين
لها ولا الفتها طباعهم وعقولهم فرضت عليهم بوصف التخفيف فلما ذلت بها جوارحهم وطوعت لها انفسهم
واطمانت اليها قلوبهم وباشرت نعيمها ولذتها وطيبها وذاقت حلاوة عبوديته لله فيها ولذة مناجاته
زيدت ضعفها واقرت في السفر على الفرض الاول لحاجة المسافر الى التخفيف ولمشقة السفر عليه ○
فتامل كيف جاء كل حكم في وقته مطابقا للمصلحة والحكمة شاهدا لله بانه احكم الحاكمين وارحم
الراحمين الذي بهرت حكمته العقول والالباب وبدا على صفحاتها بان ما خالفها هو الباطل وانها هي عين المصلحة
والصواب ومن هذا امره سبحانه لهم بالاعراض عن الكافرين وترك اذاهم والصبر عليهم والعفو عنهم لما
كان ذلك عين المصلحة لقلة عدد المسلمين وضعف شوكتهم وغلبة عدوهم فكان هذا في حقهم اذ ذاك
عين المصلحة فلما تحيزوا الى دار وكثر عددهم وقويت شوكتهم وتجرات انفسهم لمناجزة عدوهم اذن لهم

في ذلك

في ذلك اذ كان امرا غير ايجاب عليهم ليذيقهم حلاوة النصر والظفر وعز الغلبة وكان الجهاد اشق شيء على
النفوس فجعله اولا الى اختيارهم اذنا لا حتما فلما ذاقوا عز النصر والظفر وعرفوا عواقبه الحميدة
اوجبه عليهم حتما فانقادوا له طوعا ورغبة ومحبة ولو فاجاهم الامر به ابتداء على ضعف وقلة لنفروا
عنه اشد النفار وتامل الحكمة الباهرة في شرع الصلاة اولا الى بيت المقدس اذ كانت قبلة
الانبياء فبعث بما بعث به الرسل قبله وبما يعرفه اهل الكتاب وكان استقبال بيت المقدس مقررا لنبوته وانه
بعث بما بعث به الانبياء قبله وان دعوته هي دعوة الرسل بعينها وليس بدعا من الرسل ولا مخالفا لهم بل
مصدقا لهم مؤمنا بهم فلما استقرت اعلام نبوته في القلوب وقامت شواهد صدقه من كل جهة وشهدت القلوب
له بانه رسول الله حقا وان انكروا رسالته عنادا وحسدا وبغيا وعلم سبحانه ان المصلحة له ولامته ان
يستقبلوا الكعبة البيت الحرام افضل بقاع الارض واحبها الى الله واعظم البيوت واشرفها واقدمها
قرر قبله امورا كالمقدمات بين يديه لعظم شانه فذكر النسخ اولا وانه اذا نسخ اية او حكما اتى بخير منه
او مثله وانه على كل شيء قدير وان له ملك السموات والارض ثم حذرهم التعنت على رسوله والاعراض
كما فعل اهل الكتاب قبلهم ثم حذرهم من اهل الكتاب وعدوانهم وانهم يودون لو ردوهم كفارا فلا تسمعوا منهم
ولا تقبلوا قولهم ثم ذكر تعظيم دين الاسلام وتفضيله على اليهودية والنصرانية وان اهله هم السعداء
الفائزون لا اهل الاماني الباطلة ثم ذكر اختلاف اليهود والنصارى وشهادة بعضهم على بعض
بانهم ليسوا على شيء تحقيقا لاهل الاسلام ان لا تعدوا بهم وان تخالفوهم في هديهم الباطل ثم ذكر
ابن جرم من منع عباده ذكر اسمه في بيوته ومساجده وان يعبد فيها وطلبه وانه بذلك ساع في
خرابها لان عمارتها انما هي بذكر اسمه وعبادته فيها ثم بين ان له المشرق والمغرب وانه سبحانه لعظمته
واحاطته حيث استقبل المصلي فثم وجه الله تعالى فلا يظن الظان انه اذا استقبل البيت الحرام خرج عن كونه
مستقبلا ربه وقبلته فان الله واسع عليم ثم ذكر عبودية اهل السموات والارض له وانهم كلهم له
قانتون ثم نبه على عدم المصلحة في موافقة اهل الكتاب وان ذلك لا يعود باستصلاحهم ولا يرجى
معه ايمانهم وانهم لن يرضوا عنه حتى يتبع ملتهم وضمن هذا تنبيه لطيف على ان موافقتهم في القبلة
لا مصلحة فيها فسواء وافقتهم فيها او خالفتهم فانهم لن يرضوا عنك حتى تتبع ملتهم ثم اخبر ان هداه
هو الهدى الحق وحذره من اتباع اهوائهم ثم انتقل الى تعظيم ابراهيم صاحب البيت وبانيه والثناء
عليه وذكر امامته للناس وانه احق من اتبع ثم ذكر جلالة البيت وفضله وشرفه وانه امن
للناس ومثابة لهم يثوبون اليه ولا يقضون منه وطرا وفي هذا تنبيه على انه احق بالاستقبال

من غيره ثم امرهم ان يتخذوا من مقام ابرهيم مصلى ثم ذكر بناء ابرهيم واسمعيل البيت وتطهيره بعهده
واذنه ورفعهما قواعده وسؤالهما ربهما القبول منهما وان يجعلهما مسلمين له ويريهما مناسكهما ويبعث
في ذريتهما رسولا منهم يتلوا عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة ثم اخبر عن جهل من رغب عن ملة
ابرهيم وسفهه ونقصان عقله ثم اكد عليهم ان يكونوا على ملة ابرهيم وانهم ان خرجوا عنها الى يهودية او
نصرانية او غيرها كانوا ضلالا غير مهتدين وهذه كلها مقدمات بين يدي الامر باستقبال الكعبة
لمن تاملها وتدبرها وعلم ارتباطها بشان القبلة فانه يعلم بذلك عظمة القرآن وجلالته وتنبيهه على كمال
دينه وحسنه وجلالته وانه هو عين المصلحة لعباده لا مصلحة لهم سواه وتشوق بذلك النفوس الى
الشهادة له بالحسن والكمال والحكمة التامة **فلما قرر ذلك كله** اعلمهم بما سيقول السفهاء من الناس
اذا تركوا قبلتهم لئلا يفجأهم من غير علم به فيعظم موقعه عندهم فلما وقع لم يهلهم ولم يصعب عليهم مع اخبر
ان له المشرق والمغرب يهدي من يشاء الى صراط مستقيم ثم اخبر انه كما جعلهم امة وسطا خيارا
اختارهم وسط جهات الاستقبال وخيرها كما اختارهم خير الانبياء وشرع لهم خير الاديان وانزل
عليهم خير الكتب وجعلهم شهداء على الناس كلهم لكمال فضلهم وعلمهم وعدالتهم وظهرت حكمته في ان اختار لهم
افضل قبلة واشرفها لتكامل جهات الفضل في حقهم بالقبلة والرسول والكتاب والشريعة ثم نبه
سبحانه على حكمته البالغة في ان جعل القبلة اولا هي بيت المقدس ليعلم سبحانه واقعا في الخارج ما كان معلوما
له قبل وقوعه ممن يتبع الرسول في جميع احواله وينقاد له ولاوامر الرب تعالى ويدين بها كيف كانت
وحيث كانت فهذا هو المؤمن حقا الذي اعطى العبودية حقها وممن ينقلب على عقبيه ممن لم يرسخ الايمان في
قلبه ولم يستقر عليه قدمه فعارض واعترض ورجع على حافرته وشك في النبوة وخالط قلبه
شبهة الكفار الذين قالوا ان كانت القبلة الاولى حقا فقد خرجتم عن الحق وان كانت باطلا فقد كنتم على باطل
وضاق عقله المنكوس عن القسم الثالث الحق وهو اخبر سبحانه عن عظم شان هذا التحويل والنسخ في القبلة
فقال وان كانت لكبيرة الا على الذين هدى الله ثم اخبر سبحانه انه لم يكن ليضيع ما تقدم لهم من الصلوات الى
القبلة الاولى وان رأفته ورحمته بهم تابى اضاعة ذلك عليهم وقد كان طاعة له فلما قرر سبحانه
ذلك كله وبين حسن هذه الجهة بعظمة البيت وعلو شانه وجلالته قال تعالى قد نرى تقلب وجهك في
السماء فلنولينك قبلة ترضاها فول وجهك شطر المسجد الحرام وحيث ما كنتم فولوا وجوهكم شطره واكد
ذلك عليهم مرة بعد مرة اعتناء بهذا الشان وتفخيما له وانه شان ينبغي الاعتناء به والاحتفال بامره فتدبر
هذا الاعتناء وهذا التقرير وبيان المصالح الناشئة من هذا الفرع من فروع الشريعة وبيان المفاسد

الناشئة من خلافه وان كل جهة لها في وقتها كان استقبالها هو المصلحة ومقتضى الحكمة وان للرب تعالى الحكم
البالغة في شرع القبلة الاولى وتحويل عباده عنها الى المسجد الحرام فهذا معنى كون الحسن والقبح ذاتيا
للفعل ناشئا من ذاته ولا ريب عند ذوي العقول ان مثل هذا يختلف باختلاف الازمان والامكنة والاحوال
والاشخاص **وتامل** حكمة الرب تعالى في امر ابرهيم خليله صلى الله عليه وسلم بذبح ولده لان الله اتخذه
خليلا والخلة منزلة تقتضي افراد الخليل بالمحبة وان لا يكون له فيها منازع اصلا بل قد تخللت محبته جميع
اجزاء القلب والروح فلم يبق فيها موضع خال من حبه فضلا ان يكون محلا لمحبة غيره فلما سال ابرهيم
صلى الله عليه وسلم الولد واعطيه اخذ شعبة من قلبه كما ياخذ الولد شعبة من قلب والده فغار المحبوب على
خليله ان يكون في قلبه موضع لغيره فامره بذبح الولد ليخرج حبه من قلبه ويكون الله احب اليه واثر عنده
ولا يبقى في القلب سوى محبته فوطن نفسه على ذلك وعزم عليه فخلصت المحبة لوليها ومستحقها فحصلت
مصلحة المامور به من العزم عليه وتوطين النفس على الامتثال فبقي الذبح مفسدة لحصول المصلحة بدونه فنسخه في
حقه لما صار مفسدة وامره به لما كان عزمه عليه وتوطين نفسه مصلحة لهما فاي حكمة فوق هذا واي لطف
وبر واحسان يزيد على هذا واي مصلحة فوق هذه المصلحة بالنسبة الى هذا الامر ونسخه واذا تاملت
الشرائع الناسخة والمنسوخة وجدتها كلها بهذه المنزلة فمنها ما يكون وجه المصلحة فيه ظاهرا مكشوفا
ومنها ما يكون ذلك فيه خفيا لا يدرك الا بفضل فطنة وجودة ادراك

فصل

وههنا سر بديع من اسرار الخلق والامر به يتبين لك حقيقة الامر وهو ان الله لم يخلق شيئا ولم يامر بشيء
ثم ابطله واعدمه بالكلية بل لا بد ان يثبته بوجه ما لانه انما خلقه لحكمة له في خلقه وكذلك امره به
وشرعه اياه هو لما فيه من المصلحة ومعلوم ان تلك المصلحة والحكمة تقتضي ابقاءه فاذا عارض
تلك المصلحة مصلحة اخرى اعظم منها كان ما اشتملت عليه اولى بالخلق والامر ويبقى في الاولى ما شاء من الوجه
الذي تضمن المصلحة ويكون هذا من باب تزاحم المصالح والقاعدة فيها شرعا وخلقا تحصيلها واجتماعها
بحسب الامكان فان تعذر قدمت المصلحة العظمى وان فاتت الصغرى واذا تاملت الشريعة والخلق
رايت ذلك ظاهرا وهذا سر قل من تفطن له من الناس فتامل الاحكام المنسوخة حكما حكما
كيف تجد المنسوخ لم يبطل بالكلية بل له بقاء بوجه فمن ذلك نسخ القبلة وبقاء بيت المقدس معظما
محترما تشد اليه الرحال ويقصد بالسفر اليه وحط الاوزار عنده واستقباله مع غيره من الجهات في
السفر فلم يبطل تعظيمه واحترامه بالكلية وان بطل خصوص استقباله بالصلوات فالقصد اليه ليصلي
فيه باق وهو نوع من تعظيمه وتشريفه بالصلاة فيه والتوجه اليه قصدا للفضيلة وشرعة له

نشبه من التوجه اليه بالاستقبال في الصلوات وتقدم البيت الحرام عليه في الاستقبال لان مصلحته اعظم
واكمل وبقي قصده وشد الرحال اليه والصلاة فيه منشا للمصلحة فتمت للامة المصلحتان المتعلقتان
بهذين البيتين وهذا نهاية ما يكون من اللطف وتحصيل المصالح وتكميلها لهم فتامل هذا الموضع
ومن ذلك نسخ التخيير في الصوم بتعيينه فان له تبعا ثانيا ظاهرا وهو ان الرجل اذا اراد
افطر وتصدق فحصلت له مصلحة الصدقة دون مصلحة الصوم وان شا صام ولم يفد فحصلت له مصلحة
الصوم دون الصدقة فحتم الصوم على المكلف لان مصلحته اتم واكمل من مصلحة الفدية وندب الى الصدقة في
شهر رمضان فاذا صام وتصدق حصلت له المصلحتان معا وهذا اكمل ما يكون من الصوم وهو الذي
كان يفعله النبي صلى الله عليه وسلم فانه كان اجود ما يكون في رمضان فلم يبطل المعنى الاول جملة بل قدم
عليها ما هو اكمل منها وجوبا وشرع الجمع بينها وبين الاخرى ندبا واستحبابا ومن ذلك نسخ ثبات
الواحد من المسلمين للعشرة من العدو بثباته للاثنين ولم يبطل الحكم الاول من كل وجه بل بقي استحبابه وان
زال وجوبه بل اذا غلب على ظن المسلمين ظفرهم بعدوهم وهم عشرة امثالهم وجب عليهم الثبات وحرم
عليهم الفرار فلم يبطل الحكم الاول من كل وجه ومن ذلك نسخ وجوب الصدقة بين يدي مناجاة
الرسول صلى الله عليه وسلم لم يبطل حكمه بالكلية بل نسخ وجوبه وبقي استحبابه والندب اليه وما علم من تنبيهه واشارته
وهو انه اذا استحب الصدقة بين يدي مناجاة المخلوق فاستحبابها بين يدي مناجاة الله عند الصلوات
والدعاء اولى فكان بعض السلف الصالح رضي الله عنهم يتصدق بين يدي الصلاة والدعاء اذا امكنه
ويتاول هذه الاولوية ورايت شيخ الاسلام ابن تيمية رحمه الله عنه يفعله ويتحراه ما امكنه
وفاوضته فيه فذكر لي هذا التنبيه والاشارة ومن ذلك نسخ الصلوات الخمسين التي فرضها
الله تعالى على رسوله ليلة الاسرا بخمس فانها لم تبطل بالكلية بل اثبتت خمسين في الثواب والاجر
وجعلت خمسا في العمل والوجوب وقد اشار تعالى الى هذا بعينه حيث يقول على لسان
رسوله صلى الله عليه وسلم لا يبدل القول لدي هي خمس وهي خمسون في الاجر فتامل هذه الحكمة البالغة
والنعمة السابغة فانه لما اقتضت المصلحة ان تكون خمسين تكميلا للثواب وسوقا لهم بها الى اعلا المنازل
واقتضت ايضا ان تكون خمسا لعجز الامة وضعفهم وعدم احتمالهم الخمسين جعلها خمسا من وجه وخمسين
من وجه جمعا بين المصلحتين وتكميلا لها ولو لم تطلع من حكمته في شرعه وامره ولطفه بعباده ومراعاة مصالحهم
وتحصيلها لهم على اتم الوجوه الا على هذه الثلاث وحدها لكفى بذلك دليلا على ما وراها فسبحان
من له في كل ما خلق وامر حكمة بالغة شاهدة له بانه احكم الحاكمين وارحم الراحمين وانه الله الذي لا اله

الا هو رب العالمين ومن ذلك الوصية للوالدين والاقربين فانها كانت واجبة على من حضره
الموت ثم نسخ الله ذلك باية المواريث وبقيت مشروعة في حق الاقارب الذين لا يرثون وهل ذلك على
سبيل الوجوب او الاستحباب فيه للسلف والخلف قولان وهما في مذهب الامام احمد فعلى القول الاول بالاستحباب
اذا اوصى للاجانب دونهم صحت الوصية ولا شي للاقارب وعلى القول الثاني بالوجوب هل لهم ان يبطلوا وصية
الاجانب ويختصون هم بالوصية كما للورثة ان يبطلوا وصية الوارث او يبطلوا ما زاد على ثلث الثلث ويختصون
هم بثلثيه كما للورثة ان يبطلوا ما زاد على ثلث المال من الوصية ويكون الثلث في حقهم بمنزلة المال كله في حق الورثة
على وجهين وهذا الثاني اقيس وافقه وسره ان الثلث لما صار مستحقا لهم كان بمنزلة جميع المال
في حق الورثة وهم لا يكونون اقوى من الورثة فكما ان لا سبيل للورثة الى ابطال الوصية بالثلث للاجانب فلا سبيل
لهولاء الى ابطال الوصية بثلث الثلث للاجانب وتحقيق هذه المسائل والكلام على ماخذها له موضع
اخر والمقصود هنا ان ايجاب الوصية للاقارب وان نسخ لم يبطل بالكلية بل بقي منه ما هو منشا
المصلحة كما ذكرنا ونسخ منه ما لا مصلحة فيه بل المصلحة في خلافه ومن ذلك نسخ الاعتداد في الوفاة
بحول بالاعتداد باربعة اشهر وعشر على المشهور من القولين في ذلك فلم يبطل العدة الاولى جملة ومن ذلك
حبس الزانية في البيت حتى تموت فانه على احد القولين لا نسخ فيه لانه مغيا بالموت او يجعل الله لهن سبيلا
وقد جعل لهن سبيلا بالحد وعلى القول الاخر هو منسوخ بالحد وهو عقوبة من جنس عقوبة الحبس فلم يبطل
العقوبة عنها بالكلية بل نقلت من عقوبة الى عقوبة وكانت العقوبة الاولى اصلح في وقتها لانهم كانوا حديثي
عهد بجاهلية وزنا فامروا بحبس الزانية اولا ثم لما استوطنت انفسهم على عقوبتها وخرجوا عن عوايدهم
الجاهلية وركنوا الى التحريم والعقوبة نقلوا الى اغلظ من العقوبة الاولى وهو الرجم والجلد فكانت كل
عقوبة في وقتها هي المصلحة التي لا يصلحهم سواها وهذا الذي ذكرناه انما هو في نسخ الحكم الذي ثبت
بشرعه ولعن واما ما كان مستصحبا بالبراءة الاصلية فهذا لا يستلزم رفعه نسخا بحيث منه لانهم لم يبر مصلحتهم
وانما اخر عنهم تحريمه الى وقت لضرب من المصلحة في تاخير التحريم ولم يلزم من هذا ان يكون مصلحة حين
نعلهم اياه وهذا كتحريم الربا والمسكر وغير ذلك من المحرمات التي كانوا يفعلونها استصحابا
لعدم التحريم فانها لم تكن مصلحة في وقت ولهذا لم يشرعها الله تعالى ولهذا كان رفعها
بالخطاب لا يسمى نسخا اذ لو كان ذلك نسخا لكانت شريعة لها نسخا وانما النسخ رفع الحكم الثابت بالخطاب
لا رفع موجب الاستصحاب وهذا متفق عليه فصل واما ما خلقه سبحانه فانه اوجده
لحكمة له في ايجاده فاذا اقتضت حكمته اعدامه جملة اعدمه واحدث بدله واذا اقتضت حكمته تبديله

لعله من الاول

مطلب في المعاد

وتغييرها وتحويلها من صورة الى صورة بدله وعيّنه وحوّله ولم يعدمه جملة ومن فهم هذا فهم مسائل المعاد وما جاءت به الرسل فيه فان القران والسنة انما دلا على تغيير العالم وتحويله وتبديله لا جعله عدما محضا واعدامه بالكلية فدل على تبديل الارض غير الارض والسموات وعلى تشقق السماء وانفطارها وتكوير الشمس وانتثار الكواكب وتسجير البحار وانزال المطر على اجزاء بني ادم المختلطة بالتراب فينبتون كما ينبت النبات وترد تلك الارواح بعينها الى تلك الاجساد التي احيلت ثم انشيت نشاة اخرى وكذلك القبور تبعثر وكذلك الجبال تنسف وتصير كالعهن المنفوش وتقي الارض يوم القيمة افلاذ كبدها امثال الاسطوان من الذهب والفضة وتمد الارض وتدنوا الشمس من روس الناس **هذا هو الذي** اخبر به القران والسنة ولا سبيل لاحد من الملاحدة الفلاسفة وغيرهم الى الاعتراض على هذا المعاد الذي جاءت به الرسل بحرف واحد وانما اعترضوا على المعاد الذي عليه طايفة من المتكلمين ان الرسل جاوا به وهو ان الله تعالى يعدم اجزاء العالم العلوي والسفلي كلها فيجعلها عدما محضا ثم يعيد ذلك العدم وجودا وما ليس سوى من القران والسنة ان الله تعالى يعدم ذات العالم واجزاءه جملة ثم يقلب ذلك العدم وجودا وهذا هو الذي انكرته الفلاسفة ورمته بانواع الاعتراضات وضروب الالزامات واحتاج المتكلمون الى تعسف الجواب وتقريره بانواع من المكابرات واما المعاد الذي اخبرت به الرسل فبري من هذا كله مصون عنه لا مطمع للعقل في الاعتراض عليه ولا يقدح فيه شبهة واحدة **وقد اخبر سبحانه** انه يحيي العظام بعد ما صارت رميما وانه قد علم ما تنقص الارض من لحوم بني ادم وعظامهم فيرد ذلك اليهم عند النشاة الثانية وانه ينشي تلك الاجساد بعينها بعد ما بليت نشاة اخرى ويرد اليها تلك الارواح فلم يدل القران على انه يعدمها وينفيها حتى يصير عدما محضا ثم يخلقها خلقا جديدا ولم يدل على انه يفني الارض والسموات ويعدمهما عدما صرفا ثم يجدد وجودهما وانما دلت النصوص على تبديلهما وتغيير حالهما فلو اعطيت النصوص حقها لارتفع اكثر النزاع من العالم ولكن خفيت النصوص وفهم منها خلاف مرادها وانضاف الى ذلك تسليط الاراء عليها واتباع ما تقضيه فتضاعف البلاء وعظم الجهل واشتدت المحنة وتفاقم الخطب وسبب ذلك كله الجهل بما جاء به الرسول وبالمراد منه فليس للعبد انفع من سمع ما جاء به الرسول وتعقل معناه واما من لم يسمعه ولم يعقله فهو من الذين قال الله تعالى فيهم وقالوا لو كنا نسمع او نعقل ما كنا في اصحاب السعير فلنرجع الى الكلام على الدليل المذكور وهو ان الحسن والقبح لو كان ذاتيا لما اختلف الى اخره **فنقول** قد بينا ان اختلافه بحسب الازمنة والامكنة والاحوال والشروط لا يخرجه عن كونه ذاتيا الثاني ان ليس المعنى من كونه ذاتيا الا انه ناشي من الفعل فالفعل منشاه وهذا لا يوجب اختلافه بدليل ما ذكرناه من

سقى

الصورة الثالث انه يجوز اقتضاء الذات الواحدة لامرين متنافيين بحسب شرطين متنافيين فيقتضي الشي منافيه بمحل معين بشرط معين والتسخين بمحل اخر بشرط اخر والجسم حين يقتضي السكون فاذا اخرج عن حيزه اقتضى الحركة والجسم يقتضي الصحة بشرط سلامة البدن من الحمى والمرض الممتنع منه الاعتدال وتقتضي المرض بشرط دون الجسم محموما ونحوه **ونظاير ذلك** اكثر من ان يحصى فان قيل محل النزاع ان الفعل الذاته او لوصف لازم له يقتضي النهي عنه قيل معنى كونه يقتضي الحسن والقبح لذاته او لوصفه اللازم ان الحسن ينشا من ذاته او من صفته بشرط معين والقبح ينشا من ذاته او من صفته بشرط اخر فاذا عدم شرط الاقتضاء او وجد مانع يمنع اقتضاه زال الامر المترتب بحسب الذات او الوصف لزوال شرطه او لوجود مانعه وهذا واضح جدا **الثالث** انه قولكم يحسن الكذب اذا تضمن عصمة نبي او مسلم فهذا فيه طريقان احدهما لا نسلم انه يحسن الكذب فضلا عن ان يجب بل لا يكون الكذب الا قبيحا واما الذي يحسن فالتعريض والتورية كما وردت به السنة النبوية كما عرض ابرهيم صلى الله عليه وسلم بقوله للظالم هذه اختي لزوجته وكما قال عليه السلام اني سقيم فعرض بانه سقيم قلبه من شركهم او سيسقم يوما ما وكما فعل في قوله بل فعله كبيرهم هذا فاسالوهم ان كانوا ينطقون فان الخبر والطلب كلاهما معلقان بالشرط والشرط متصل بهما ومع هذا فسماها صلى الله عليه وسلم ثلاث كذبات وامتنع بها من مقام الشفاعة فكيف يصح دعواكم ان الكذب يجب اذا تضمن عصمة نبي ومع ذلك فان قيل فكيف سماها ابرهيم صلى الله عليه وسلم كذبات وهي تورية وتعريض صحيح **قيل** لا يلزمنا جواب هذا السؤال اذ الغرض ابطال استدلالكم وقد حصل فالجواب عنه تبرع منا وتكميل للفايدة ولم اجد في هذا المقام للناس جوابا شافيا يسكن القلب اليه وهذا السؤال لا يختص به طايفة معينة بل هو وارد عليكم بعينه وقد خلف الله الكريم بالجواب عنه **فنقول** الكلام له نسبتان نسبة الى المتكلم وقصده وارادته ونسبة الى السامع وافهام المتكلم اياه مضمونه فاذا اخبر المتكلم بخبر مطابق للواقع وقصد افهام المخاطب اياه فهو صدق بالنسبتين فان المتكلم ان قصد الواقع وقصد افهام المخاطب فهو صدق من الجهتين وان قصد خلاف الواقع وقصد مع ذلك افهام المخاطب خلاف ما قصد بل معنى ثالثا لا هو الواقع ولا هو المراد فهو كذب من الجهتين بالنسبتين معا وان قصد معنى مطابقا صحيحا وقصد مع ذلك التعمية على المخاطب وافهامه خلاف ما قصده فهو صدق بالنسبة الى قصده كذب بالنسبة الى افهامه ومن هذا الباب التورية والمعاريض وبهذا اطلق عليها ابرهيم الخليل صلى الله عليه وسلم اسم الكذب مع انه الصادق في خبره ولم يخبر الا صدقا فتامل هذا الموضع الذي اشكل على الناس **وقد ظهر بهذا** ان الكذب لا يكون قط الا قبيحا وان الذي يحسن ويجب انما هو التورية وهو صدق

لعله
[illegible] ... فانه [illegible] ... الكلام ... [illegible]

وقد يطلق عليها الكذب بالنسبة الى الافهام لا الى المعنى الطريق الثاني ان تخلف القبح عن الكذب
لفوات شرط او قيام مانع يقتضي مصلحة راجحة على الصدق لا يخرجه عن كونه قبيحا لذاته وتقرير ما تقدم وقد
تقدم ان الله سبحانه حرم الميتة والدم ولحم الخنزير للمفسدة التي في تناولها وهي ناشئة من ذوات
هذه المحرمات وتخلف التحريم عنها عند الضرورة لا يوجب ان تكون ذواتها مقتضية للمفسدة التي حرمت لاجلها
فهكذا الكذب المتضمن نجاة نبي او مسلم الوجه الرابع قوله لو كان ذاتيا لاجتمع النقيضان
في صدق من قال لاكذبن غدا الى آخره جوابه انه متى يجتمع النقيضان اذا كان الحسن والقبح
باعتبار واحد من جهة واحدة او اذا كانا باعتبارين من جهتين او اعم من ذلك فان عنيتم الاول فمسلم لكن لا نسلم الملازمة
فانه لا يلزم من اجتماع الحسن والقبح في الصورة المذكورة ان يكون من جهة واحدة واعتبار واحد فان اجتماع
الحسن والقبح فيها باعتبارين مختلفين من جهتين متباينتين وهذا ليس بممتنع فانه اذا كان كذبا كان
قبيحا بالنظر الى ذاته وحسنا بالنظر الى تضمنه صدق الخبر الاول ونظيره ان يقول والله لاشربن
الخمر غدا او والله لاسرقن هذا الثوب غدا او نحوه وان عنيتم الثاني فهو حق ولكن لا يلزم انتفاء اللازم وان
عنيتم الثالث منعنا الملازمة ايضا على التقدير الاول وانتفاء اللازم على التقدير الثاني وهذا واضح
جدا الوجه الخامس قوله القتل والضرب حسن اذا كان حدا او قصاصا وقبيح في غيره
فلو كان ذاتيا لاجتمع النقيضان كلام في غاية الفساد فان القتل والضرب واحد بالنوع فالقبيح منه ما كان
ظلما وعدوانا والحسن منه ما كان جزاء على اساءة اما حدا واما قصاصا فلم يرجع الحسن والقبح الى واحد بالعين
ونظير هذا السجود فانه في غاية الحسن لذاته اذا كان عبودية وخضوعا للواحد المعبود وفي غاية
القبح اذا كان لغيره ولو سلمنا ان القتل والضرب الواحد بالعين اذا كان حدا او قصاصا فانه يكون حسنا
قبيحا من ذلك محال لانه باعتبار فهو حسن لما تضمنه من الزجر والنكال وعقوبة المستحق وقبيح بالنظر الى
المقتول المضروب فهو قبيح له حسن في نفسه وهذا كما انه مكروه مبغوض له وهو محبوب مرضي لفاعله والآمر
به فاي محال في هذا فظهر ان الدليل فاسد والله اعلم ه فصل وهذه اقوى ادلة النفاة
باعترافهم تضعف باشواها فلا حاجة بنا الى ذكرها وبيان فسادها فقد تبين الصبح لذي عينين وطبت
عليك المسالة افكة في حال ادلتها الصحيحة وبراهينها المستقيمة ولا تغضض بصيرتك عن هذه
المسالة فان شانها عظيم وخطبها جسيم وقد احتج نفاتهم بدليل افسد من هذا كله فقالوا لو حسن الفعل
او قبح لذاته او لصفته لم يكن الباري تعالى مختارا في الحكم لان الحكم بالمرجوح على خلاف المعقول فيلزم الجبر
فلا اختيار وتقرير هذا المستدل بيان الملازمة المذكورة اولا وبيان انتفاء اللازم ثانيا ه

اما المقام الاول وهو بيان الملازمة ان الفعل لو حسن لذاته او لصفته لكان راجحا على القبح
في كونه متعلقا للوجوب او الندب ولو قبح لذاته او لصفته لكان راجحا على الحسن في كونه متعلقا للتحريم
او الكراهة وحينئذ اما ان يتعلق الحكم بالراجح المقتضي له او بالمرجوح المقتضي لضده والثاني باطل قطعا
لاستلزامه ترجيح المرجوح وهو باطل بصريح العقل فتعين الاول ضرورة فاذا كان تعلق الحكم بالراجح لازما
ضرورة لم يكن الباري مختارا في حكمه فتامل هذه الشبهة ما افسدها واين بطلانها والعجب
ممن يرضى لنفسه ان يحتج بمثلها وحسبك فساد الحجة مضمونها ان الله تعالى لم يشرع السجود له وتعظيمه
وشكره ويحرم السجود للصنم وتعظيمه لحسن هذا وقبح هذا مع استوائهما تفريقا بين المتماثلين فاي برهان اوضح
من هذا على فساد هذه الشبهة الباطلة الثاني ان غاية هذا يوجب ان يكون افعاله كلها مستلزمة للترجيح
بغير مرجح اذ لو ترجح الفعل منها بمرجح لزم عدم الاختيار بعين ما ذكرتم اذ الحكم بالمرجح لازم فان قيل
لا يلزم الاضطرار وترك الاختيار لان المرجح هو الارادة والاختيار قيل فهلا قنعتم بهذا الجواب
منا وقلتم اذا كان احسانه تعالى متعلقا بالفعل لما فيه من المصلحة الداعية الى فعله وشرعه ومحبته له ولما
فيه من المفسدة الداعية الى تحريمه والمنع منه لكان الحكم بالراجح في الموضعين متعلقا باحسانه تعالى
وارادته فانه الحكيم في خلقه وامره فاذا علم في الفعل مصلحة راجحة شرعه واوجبه ووصفه واذا علم فيه
مفسدة راجحة كرهه وابغضه وحرمه هذا في شرعه وكذلك في خلقه لم يفعل شيئا الا ومصلحة راجحة
وحكمة ظاهرة واشتماله على المصلحة والحكمة التي فعله لاجلها لا ينافي احسانه تعالى بل لا احسان الا بتعلق
بالفعل لما فيه من المصلحة والحكمة وكذلك تركه لما فيه من خلاف حكمته ولا يلزم من تعلق الحكم بالراجح ان لا يكون
الفعل احسانا فان المختار الذي هو الحكيم الحاكم لا يختار الا ما يكون على وفق الحكمة والمصلحة الثالث
اذا لزم تعلق الحكم بالراجح لم يكن مختارا بل العكس فانه انما تعلق بالراجح باحسانه وارادته واقتضت تعلقه بالراجح
على جهة اللزوم فكيف لا يكون مختارا واحسانه استلزم تعلق الفعل بالراجح الرابع ان تعلق حكمه تعالى
بالفعل المامور به او المنهي عنه اما ان يكون جائز الوجود والعدم او راجح الوجود او راجح العدم فان
كان جائز الطرفين لم يترجح احدهما الا بمرجح وان كان راجحا فالتعلق لازم لان الحكيم يمتنع سوته مع المساواة
ومع المرجوحية اما الاول فلاستلزامه الترجيح بلا مرجح واما الثاني فلاستلزامه ترجيح المرجوح وهو
باطل بصريح العقل فلا يستقيم الا مع المرجح التام وحينئذ فيلزم عدم الاختيار وما يجيبون به على الالزام
المذكور فهو جوابكم بعينه عن شبهتكم التي استدللتم بها الخامس ان هذه الشبهة الفاسدة
مستلزمة لاحد امرين ولا بد اما الترجيح بلا مرجح واما ان لا يكون الباري تعالى مختارا ثم قد زعمتم وكلاهما

باطل. السادس انها تقتضي ان لا يكون في الوجود قادر مختار لان ترجيح احد المتساويين على الآخر بلا مرجح واما ترجيح احد الجانبين بمرجح فلا يكون مختارا وهذا من ابطل الباطل بل القادر المختار لا يرجح احد مقدوريه على الآخر الا لمرجح وهو معلوم بالضرورة واحتج النفاة ايضا بقوله تعالى وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا ووجه الاحتجاج بالآية انه سبحانه نفى التعذيب قبل بعثة الرسل فلو كان حسن الفعل وقبحه ثابتا له قبل الشرع لكان مرتكب القبيح وتارك الحسن فاعلا للحرام وتاركا للواجب لان قبحه عقلا يقتضي تحريمه عقلا عندهم وحسنه عقلا يقتضي وجوبه عقلا واذا فعل المحرم وترك الواجب استحق العذاب عندهم والقرآن نص صريح ان الله لا يعذب بدون بعثة الرسل فهذا تقرير الاستدلال احتجاجا والزاما ولا ريب ان الآية حجة على الفريقين اذا اثبتوا التعذيب قبل البعثة فيلزم تناقضهم وابطال جمعهم بين هذين الحكمين اثبات الحسن والقبح عقلا واثبات التعذيب على ذلك بدون البعثة وليس ابطال القول بمجموع الامرين موجبا لابطال كل واحد منهما ولعل الباطل هو قولهم بجواز التعذيب قبل البعثة وهذا هو المتعين لانه خلاف نص القرآن وخلاف صريح العقل ايضا فان الله سبحانه انما اقام الحجة على العباد برسله قال تعالى رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل فهذا صريح بان الحجة انما قامت بالرسل صلوات الله وسلامه عليهم وانه بعد مجيئهم لا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل وهذا يدل على انه لا يعذبهم قبل مجيء الرسل اليهم لان الحجة حينئذ لم تقم عليهم **والصواب** في المسألة اثبات الحسن والقبح عقلا ونفي التعذيب على ذلك الا بعد بعثة الرسل فالحسن والقبح العقلي لا يستلزم التعذيب وانما يستلزمه مخالفة المرسلين واما المعتزلة فقد اجابوا عن ذلك بان قالوا الحسن والقبح العقلي يقتضي استحقاق العقاب على فعل القبيح وترك الحسن ولا يلزم من استحقاق العقاب وقوعه لجواز العفو قالوا ولا يرد هذا علينا حيث يمنع العفو بعد البعثة اذا وعد الرب على الفعل لان العذاب قد صار واجبا بخبره واستحقاقا بارتكاب القبيح وهو سبحانه لم يحصل منه ايعاد قبل البعثة فلا يمتنع العفو لانه مستلزم خلف الخبر وانما غايته ترك حق له قد وجب قبل العبد وهذا احسن والتحقيق في هذا ان سبب العقاب قائم قبل البعثة ولكن لا يلزم من وجود سبب العذاب حصوله لان هذا السبب قد نصب الله تعالى له شرطا وهو بعثة الرسل وانتفاء التعذيب قبل البعثة هو لانتفاء شرطه لا لعدم سببه ومقتضيه وهذا فصل الخطاب في هذا المقام وبه يزول الاشكال في المسألة وينقشع غيمها ويسفر صبحها والله الموفق للصواب واحتج بعضهم ايضا بانه لو كان الفعل حسنا لذاته لامتنع من الشارع نسخه قبل ايقاع المكلف له وقبل تمكنه منه لانه اذا كان حسنا لذاته فهو منشأ للمصلحة الراجحة فكيف يباح ولم يحصل منه

تلك المصلحة واجابت المعتزلة عن هذا بالتزامه ومنعوا النسخ قبل وقت الفعل وتابعهم جمهور هذه الامة في هذا الاصل وجوزوا وقوع النسخ قبل حضور وقت الفعل ثم انقسموا قسمين فنفاة التحسين والتقبيح بنوه على اصلهم ومثبتوا التحسين والتقبيح اجابوا عن ذلك بان المصلحة كما تنشأ من الفعل فانها ايضا قد تنشأ من العزم عليه ومن توطين النفس على الامتثال ويكون المصلحة المطلوبة هي العزم وتوطين النفس لا ايقاع الفعل في الخارج فاذا امر المكلف بامر فعزم عليه وتهيأ له ووطن نفسه على امتثاله حصلت المصلحة المرادة منه لم يمتنع نسخ الفعل وان لم يوقعه لانه لا مصلحة له فيه وهذا كامر ابراهيم الخليل صلى الله عليه وسلم بذبح ولده فان المصلحة لم تكن في ذبحه وانما كانت في استسلام الوالد والولد لامر الله وعزمهما عليه وتوطينهما انفسهما على امتثاله فلما حصلت هذه المصلحة بقي الذبح مفسدة في حقهما فنسخه الله ورفعه وهذا هو الجواب الحق الشافي في المسألة وبه يتبين الحكمة الباهرة في اثبات تعالى الاحكام ونسخ ما نسخه منها بعد وقوعه ونسخ ما نسخ منها قبل ايقاعه وان له في ذلك كله من الحكم البالغة ما يشهد له بانه احكم الحاكمين وانه اللطيف الخبير الذي بهرت حكمته العقول فتبارك الله رب العالمين ومما احتج به النفاة ايضا انه لو حسن الفعل او قبح لغير الطلب لم يكن تعلق الطلب لنفسه لتوقفه على امر زائد وتقرير هذه الحجة ان حسن الفعل وقبحه لا يجوز ان يكون لغير نفس الطلب بل لا معنى لحسنه الا كونه مطلوبا للشارع ايجاده ولا لقبحه الا كونه مطلوبا له اعدامه لانه لو حسن وقبح لمعنى غير الطلب الشرعي لم يكن الطلب متعلقا بالمطلوب لنفسه بل كان التعلق لاجل ذلك المعنى فتوقف الطلب على حصول ذلك الاعتبار الزائد على الفعل وهذا باطل لان التعلق نسبة بين الطلب والفعل والنسبة بين الامرين لا تتوقف الا على حصولهما فاذا حصل الفعل تعلق الطلب به سواء حصل فيه اعتبار زائد على ذاته او لا فاذا قلتم الطلب وان لم يتوقف الا على الفعل المطلوب والفاعل المطلوب منه لكن تعلقه بالفعل يتوقف على جهة الحسن والقبح حادثة ولا يصح توقف القديم على الحادث **وسر الدليل** ان تعلق الطلب بالفعل ذاتي فلا يجوز ان يكون معللا بامر زائد على الفعل اذ لو كان تعلقه به معللا لم يكن ذاتيا وهذا وجه تقرير هذه الشبهة وان كان كثير من شراح المختصر لم يفهموا تقريرها على هذا الوجه فقرروها على وجه آخر مع طوله لا يفيد شيئا ويعدون شبهة فاسدة من وجوه احدها انكم ان عنيتم بان تعلق الفعل بالطلب له ذاتي انه يعنون به ان التعلق مقوم لماهية الطالب وان تقوم الماهية بتقوم ماهيته ذاتيا وفصلها ام تعنون به انه لا يعقل ماهية الطلب الا بالتعلق لانه امر آخر فان عنيتم الاول

والتعلق نسبة اضافية وهي عدمية عندكم لا وجود لها في الاعيان فكيف يكون النسب العدمية
مقوم للماهية الوجودية وانتم تقولون انه ليس للمتعلق للطلب من الطلب صفة ثبوتية لان هذا هو الكلام
النفسي وليس لمتعلق القول فيه صفة ثبوتية وان عنيتم الثاني فلا يلزم من ذلك توقف الطلب على اعتبار
زائد على الفعل يجوز ذلك الاعتبار شرطا في الطلب وان عنيتم امرا ثالثا فلا بد من بيانه وعلى تقدير بيانه
فانه لا ينافي توقف التعلق على الشرط المذكور الثاني ان غاية ما قررتم ان التعلق ذاتي للطلب والذاتي
لا يعلل فان عنيتم في المطلوب دعوى مجردة ولم يقرروه ولم يبينوا ما معنى كونه غير معلل حتى ظن بعض الغالطين
المنطقيين ان معناه ثبوت الذات لنفسه بغير واسطة وهذا في غاية الفساد فلا يقوله من يدري
ما يقول وانما معناه انه لا يحتاج الذات في اتصافها به الى علة مغايرة لعلة وجودها بل علة وجودها
هو علة الذاتي فهذا معنى كونه غير معلل بعلة خارجية عن الذات بل علة الذات علته وليس هذا موضع
استقصاء الكلام على ذلك والمقصود ان كون التعلق ذاتيا للطلب ولا يعلل بغير علة الطلب
لا ينافي توقفه على شرط فهب ان صفة الفعل لا تكون علة للتعلق فما المانع ان تكون شرطا له
ويكون تعلق الطلب بالفعل مشروطا بكونه على الجهة المذكورة فاذا انتفت تلك الجهة انتفى التعلق
لانتفاء شرطه وهذا مما لم تتعرضوا لبطلانه اصلا ولا سبيل لكم الى ابطاله الثالث ان قولكم
الطلب قديم والجهة المذكورة حادثة للفعل ولا يصح توقف القديم على الحادث كلام في غاية البطلان
فان الفعل المطلوب حادث والطلب متوقف عليه اذ لا يتصور ماهية الطلب بدون المطلوب فما كان
جوابكم عن توقف الطلب على الفعل الحادث فهو جوابنا عن توقفه على جهة الفعل الحادثة فان جهته لا تزيد
عليه بل هي صفة من صفاته فان قلتم التوقف ههنا انما هو لتعلق الطلب بالمطلوب لا لنفس الطلب ولا
محذور في توقف التعلق لانه حادث قلنا فهلا قنعتم بهذا الجواب في صفة الفعل وقلتم التوقف على
الجهة المذكورة هو توقف التعلق لا توقف نفس الطلب فنسبة التعلق الى جهة الفعل كنسبته الى ذاته ونسبة
الطلب الى الجهة كنسبته الى نفس الفعل سواء بسواء فنسبة القديم الى احد الحادثين كنسبته الى الاخر
ونسبة تعلقه باحد الحادثين كنسبة تعلقه بالاخر فتبين فساد الدليل المذكور وحينئذ نرجع فنقول اذا
استلزم جواز ظهور المعجز على يد الكاذب فانه ليس بقبيح واستلزم جواز نسبة الكذب الى اصدق الصادقين
وانه لا يقبح منه واستلزم التسوية بين التثليث والتوحيد في العقل قبل ورود النبوة لا يقبح
التثليث ولا عبادة الاصنام ولا مسبة المعبود ولا شيء من انواع الكفر ولا السعي في الارض بالفساد
ولا يقبح شيء من القبائح اصلا وقد التزم النفاة ذلك وقالوا ان هذه الاشياء لم تقبح عقلا وانما قبحها

فيها السمع

ما عن سام دار السعادة

فيها السمع فقط وانه لا فرق قبل السمع بين ذكر الله والثناء عليه وحمده وبين ضد ذلك ولا بين
شكر المنعم بما يقدر عليه العبد وبين ضده ولا بين الصدق والكذب والعفة والفجور والاحسان الى
العالم والاساءة اليهم بوجه ما وانما التفريق بالشرع بين متماثلين من كل وجه وقد كان تصور هذا
المذهب على حقيقته كافيا في العلم ببطلانه وان لا يتكلف رده ولهذا رغب عنه فحول
الفقهاء والنظار من الطوائف كلهم فاطبق اصحاب ابي حنيفة على خلافه وحكوه عن ابي حنيفة نصا واختاره
من اصحاب الامام احمد ابو الخطاب وابن عقيل وابو يعلى الصغير ولم يقل احد من متقدميهم بخلافه ولا يمكن
ان ينقل عنهم حرف واحد موافق للنفاة واختاره من ائمة الشافعية الامام ابو بكر محمد بن علي بن اسمعيل القفال
الكبير وبالغ في اثباته وبنى عليه كتابه محاسن الشريعة واحسن فيه ما شاء وكذلك الامام سعد بن علي
الزنجاني بالغ في انكاره على الشيخ الاشعري القول بنفي التحسين والتقبيح وانه لم يسبقه اليه احد وكذلك
ابو القاسم الراغب وكذلك ابو عبد الله الحليمي وخلائق لا يحصون وكل من تكلم في علل الشرع
ومحاسنه وما تضمنه من المصالح ودرء المفاسد فلا يمكنه ذلك الا بتقرير الحسن والقبح العقليين اذ لو
كان حسنه وقبحه بمجرد الامر والنهي لم يتعرض في اثبات ذلك لغير الامر والنهي فقط وعلى تصحيح الكلام
في القياس وتعليق الاحكام بالاوصاف المناسبة المقتضية لها دون الاوصاف الطردية التي لا مناسبة
فيها فيجعل الاول ضابطا للحكم دون الثاني لا على اثبات هذا الاصل فلو تساوت الاوصاف في انفسها
لانسد باب القياس والمناسبات والتعليل بالحكم والمصالح ومراعاة الاوصاف المؤثرة دون الاوصاف
التي لا تاثير لها

فصل

واذ قد انتهينا في هذه المسالة الى هذا الموضع وهي جديرة
بعظمها فلنذكر سرها وغايتها واصولها التي تنبني عليها فبذلك تتم الفائدة فان كثيرا من الاصوليين
ذكروها مجردة ولم يتعرضوا لسرها واصلها الذي تنبني عليه ولمسائلها اصول هي اساسها الاصل
الاول هل افعال الرب تعالى واوامره معللة بالحكم والغايات وهذه من اجل مسائل التوحيد المتعلقة بالخلق
والامر بالشرع والقدر الاصل الثاني ان تلك الحكم المقصودة فعل يقوم بالرب سبحانه قيام الصفة به فيرجع
اليه حكمها ويشتق له اسمها ام ترجع الى المخلوق فقط من غير ان يعود الى الرب منها حكم او يشتق له منها اسم
الاصل الثالث هل تعلق ارادة الرب تعالى بجميع الافعال تعلقا واحدا فما وجد منها فهو مراد
له محبوب مرضي طاعة كان او معصية وما لم يوجد منها فهو مكروه له مبغوض غير مراد طاعة كان او
معصية ام تماما وجوده التي هي منشأ المصالح منها فهو وان لم يشأ تكوينها وايجادها الا انه محبة لايجادها
وارادة لها امرا فهي احب اليه منها وبعض الافعال القبيحة التي هي منشأ المفاسد ويمنعها وتمقت اهلها

مطلب عظيم في الحسن والقبح

وان شاء تكوينها وايجادها لما يستلزمه من حكمه ومصلحة هي احب اليه منها ولابد من توسط هذه الافعال
في وجودها فهذه الاصول الثلاثة عليها مدار هذه المسئلة بل ومسايل القدر والشرع وقد اختلف
فيها الناس قديما وحديثا الى اليوم فالجبرية نفي الاصول الثلاثة وعندهم ان الله لا يفعل لحكمة ولا باعث
لها ولا يدخل في امره وخلقه لام التعليل بوجه وانما هي لام العاقبة كما لا يدخل في افعاله باء السببية
وانما هي باء المصاحبة ومنهم من يثبت الاصل الثالث وينفي الاصلين الاولين وهو احد القولين للاشعري
وقول كثير من اصحابه واحد القولين لابي المعالي والمشهور من مذهب المعتزلة اثبات الاصل الاول وهو
التعليل بالحكم والمصالح ونفي الثاني بناء على قواعدهم الفاسدة في نفي الصفات فاما الاصل الثالث
فهم فيه ضد الجبرية من كل وجه فهما طرفا نقيض فانهم لا يثبتون لافعال العباد سوى المحبة لحسنها
والبغضة لقبيحها واما المشيئة لها فعندهم ان مشيئة الله لا تتعلق بها بتاتا منهم على نفي خلق افعال
العباد وليست عندهم ارادة الله لها الا بمعنى محبته لحسنها فقط واما قبيحها فليس مرادا لله بوجه واما الجبرية
فعندهم انه لم يتعلق بها سوى المشية والارادة واما المحبة عندهم فهي نفس الارادة والمشية فكل ما شاء فقد
احبه ورضيه واما اصحاب القول الوسط وهم اهل التحقيق من الاصوليين والفقهاء والمتكلمين فيثبتون
الاصول الثلاثة ويثبتون الحكمة المقصودة بالفعل في افعاله تعالى واوامره ويجعلونها غاية الفعل حكما
ومشتقا له انها فالمعاصي كلها مبغوضة مكروهة وان وقعت بمشيئته وخلقه والطاعات كلها محبوبة
له مرضية وان لم يشاءها ممن لم يطعه ومن وجدت منه فقد تعلق بها المشية والحب فما لم يوجد من
انواع المعاصي فلم يتعلق بها مشيته ومحبته وما وجد منها تعلقت به مشيته دون محبته وما لم يوجد من الطاعات
المقدورة تعلقت بها محبته دون مشيته وما وجد منها تعلقت به محبته ومشيته ومن لم يحكم هذه الاصول
الثلاثة لم يستقر له في مسايل الحكم والتعليل والتحسين والتقبيح قدم بل لابد من تناقضه وتسلط عليه خصومه من
جهة نفيه لواحد منها ولهذا لما راى القدرية الجبرية انهم لو سلموا للمعتزلة شيئا من هذا تسلطوا عليهم به
سدوا على انفسهم الباب بالكلية وانكروها جملة فلا حكمة عندهم ولا تعليل ولا محبة تزيد على المشية ولما انكر
المعتزلة رجوع الحكم اليه تعالى تسلطوا عليهم خصومهم فابدوا تناقضهم وكشفوا عوراتهم ولما سلك اهل السنة
القول الوسط وتوسطوا بين الفريقين لم يطمع احد في مناقضتهم ولا ادرك فساد قولهم وانت اذا تأملت حجج
الطائفتين وما الزمته كل منهما للاخرى علمت ان من سلك القول الوسط لم يلزمه شيء من الزاماتهم ولا تناقضهم
والحمد لله رب العالمين هادي من يشاء الى صراط مستقيم ○ فصل وقد سلم كثير
من النفاة ان كون الفعل حسنا او قبيحا بمعنى الملايمة والمنافرة والكمال والنقصان عقلي وقالوا انما لا

ننازعكم

ننازعكم في الحسن والقبح بهذين الاعتبارين وانما النزاع في اثباته عقلا بمعنى كونه متعلق المدح والذم م
عاجلا والثواب والعقاب آجلا فعندنا لا مدخل للعقل في ذلك وانما يعلم بالسمع المجرد قيل
هؤلاء اطلق الحسن والقبح بمعنى الملايمة والمنافرة وهو عقلي وبمعنى الكمال والنقصان وهو عقلي وبمعنى
استلزامه للثواب والعقاب وهو محل النزاع وهذا التفصيل لو اعطي حقه والتزمت لوازمه رفع
النزاع واعاد المسئلة اتفاقية وان كون الفعل صفة كمال او نقصان يستلزم اثبات تعلق الملايمة والمنافرة
لان الكمال محبوب للعالم به والنقص مبغوض له ولا معنى للملايمة والمنافرة الا الحب والبغض فان الله سبحانه
يحب الكامل من الافعال والاقوال والاعمال ومحبته لذلك بحسب كماله ويبغض الناقص منها ويمقته
ومقته له بحسب نقصانه ولهذا اسلفنا ان من اصول المسئلة اثبات صفة الحب والبغض لله تعالى فتامل
كيف عادت المسئلة اليه وتوقف عليه والله سبحانه يحب كما امر به ويبغض كما نهى عنه ولا يسمى ذلك ملايمة
ومنافرة بل يطلق عليه الاسماء التي اطلقها على نفسه واطلقها عليه رسوله من محبته للفعل الحسن المامور
به وبغضه للفعل القبيح ومقته له وما ذاك الا لكمال الاول ونقص الثاني فاذا كان الفعل مستلزما
للكمال والنقصان واستلزامه له عقلي والكمال والنقصان مستلزم للحب والبغض الذي سميتموه ملايمة
ومنافرة واستلزامه عقلي فما ان يكون الفعل حسنا كاملا محبوبا مرضيا وكونه قبيحا ناقصا مسخوطا مبغوضا
امر عقلي بقي حديث المدح والذم والثواب والعقاب ومن احاط علما بما اسلفناه في ذلك انكشف له
المسئلة واسفرت عن وجهها وزال عنها كل شبهة واشكال فاما المدح والذم فترتبه على النقصان
والكمال عقلي كترتب المسببات على اسبابها فمدح العقلاء لمؤثر الكمال والمتصف به وذمهم لمؤثر النقص
والمتصف به امر عقلي فطري وانكاره من مزاح المكابرة واما العقاب فقد قررنا ان ترتبه على فعل
القبيح مشروط بالسمع وانه انما انتفى عند انتفاء السمع انتفاء المشروط لانتفاء شرطه لا لانتفاء
لانتفاء سببه فان سببه قايم ومقتضيه موجود الا انه لم يتم لتوقفه على شرطه وعلى هذا فكونه
متعلقا للثواب والعقاب والمدح والذم عقلي وان كان وقوع العقاب موقوفا على شرط وهو ورود
السمع وهل يقال ان الاستحقاق ليس بثابت لان ورود السمع شرط فيه هذا فيه طريقان للناس وكل
النزاع لفظي فان اريد بالاستحقاق الاستحقاق التام فالحق نفيه وان اريد به قيام السبب والتخلف
لفوات شرط او وجود مانع فالحق اثباته فعادت الاقسام الثلاثة الى الكمال والنقصان والملايمة
والمنافرة والمدح والذم الى حرف واحد وهو كون الفعل محبوبا او مبغوضا ويلزم من كونه محبوبا ان
يكون كاملا وان يستحق عليه المدح والثواب ومن كونه مبغوضا ان يكون ناقصا يستحق به الذم والعقاب

وظهر أن التزام لوازم هذا الفصل وإعطاء حقه يدفع النزاع ويعد المسألة مما اتفق عليه ولكن أصول
الطائفتين تأبى التزام ذلك فلا بد لهم من التناقض إذا طردوا أصولهم وأما من كان أصله إثبات الحكمة واتصاف
الرب تعالى بها وإثبات الحب والبغض له وأنهما أمر وراء المشيئة العامة فأصوله مستلزمة لفروعه وفروعه
دالة على أصوله فأصوله وفروعه لا تناقض وأدلته لا تمانع ولا تعارض في تلك النقاط ولو قدر
نفسه وقد خلق تام الخلقة كامل العقل دفعة واحدة من غير أن تخلق بأخلاق قوم ولا تأدب بتأديب
الأبوين ولا تربى بآداب الشرع ولا تعلم من معلم ثم عرض عليه أمران أحدهما أن الاثنين أكثر من الواحد
والثاني أن الكذب قبيح بمعنى أنه يستحق من الله تعالى اللوم عليه لم نشك أنه لا يتوقف في الأول ويتوقف في الثاني
ومن حكم بأن الأمرين سيان بالنسبة إلى عقله خرج عن قضايا العقول وعاند عناد الفضول كيف ولو تقرر
عنده أن الله تعالى لا يتضرر بكذب ولا ينتفع بصدق فإن القولين في حكم التكاليف على وتيرة واحدة لم يمكنه
أن يرجح أحدهما على الثاني بمجرد عقله والذي يوضحه أن الصدق والكذب على حقيقة ذاتية لا تتحقق
ذاتهما إلا بركن تلك الحقيقة مثلا كما يقال إن الصدق إخبار عن أمر على ما هو عليه والكذب إخبار عن
أمر على خلاف ما هو به ونحن نعلم أن من أدرك هذه الحقيقة عرف المحقق ولم يخطر بباله كونه حسنا أو قبيحا
فلم يدخل الحسن والقبح إذا في صفاتهما الذاتية التي تحققت حقيقتهما بها ولا لوازمهما في الوهم بالبديهة
كما بيناه ولا لزمهما في الوجود ضرورة فإن من الأخبار التي هي صادقة ما يلام عليه من الدلالة على هرب
ظالم ومن الأخبار التي هي كاذبة ما يثاب عليها مثل إنكار الدلالة عليه فلم يدخل كون الكذب قبيحا في حد
الكذب ولا لزمه في الوهم ولا لزمه في الوجود فلا يجوز أن يعد من الصفات الذاتية التي تلزم النفس وجودا
وعدما عندهم ولا يجوز أن يعد من الصفات التابعة للحدوث فلا يعقل بالبديهة ولا بالنظر فإن النظر لا بد
أن يرد إلى الضروري البديهي وإذ لا بديهي فلا مرد له أصلا فلم يبق لهم إلا الاسترواح إلى عادات الناس
في تسميتهم ما يضرهم قبيحا وما ينفعهم حسنا ونحن لا ننكر أمثال تلك الأسامي على أنها تختلف بعادة قوم وزمان ومكان
دون مكان وإضافة دون إضافة وما تختلف به النسب والإضافات لا حقيقة لها في الذات وربما يستحسن
قوم ذبح الحيوان وربما يستقبحه قوم وربما يكون بالنسبة إلى قوم وزمان حسنا وربما يكون قبيحا وإنما وضعنا
الكلام في حكم التكليف بحيث يحسن به وجوب ما يثاب عليه قطعا ولا يتطرق إليه لوازم أصلا ومثل
هذا يمتنع إدراكه عقلا قالوا وهذه طريقة أهل الحق على الحسن نقرر وأحسن ما تحرر قالوا ولعلنا
نحن لا ننكر اشتهار حسن الفضائل التي ذكرتموها بالأمثال وقبح الرذائل وكونها محمودة مشكورة
من فاعلها أو مذمومة مذموم فاعلها ولكن نسندها إما بالشرائع وإما الأغراض ونحن إنما ننكرها في حق الله

عز وجل لانتفاء الأغراض عنه فأما إطلاق الناس هذه الألفاظ فيما يدور بينهم فيستمد من الأغراض ولكن قد
تدق الأغراض وتخفى ولا ينتبه لها إلا المحققون قالوا ونحن ننبه على مثارات الغلط فيه وهي ثلاث مثارات
يغلط الوهم فيها الأولى أن الإنسان يطلق اسم القبح على ما يخالف غرضه وإن كان يوافق غيره من حيث إنه لا يلتفت
إلى الغير فإن كل طبع مشغوف بنفسه ومستحقر لغيره فيقضي بالقبح مطلقا وربما يضيف القبح إلى ذات الشيء ويقول
هو في نفسه قبيح فقد قضى بثلاثة أمور هو مصيب في واحد منها وهو أصل الاستقباح ومخطئ في أمرين أحدهما
إضافة القبح إلى ذاته إذ غفل عن كونه قبيحا لمخالفة غرضه والثاني حكمه بالقبح مطلقا ومنشأه عدم الالتفات
إلى غيره بل عدم الالتفات إلى بعض أحوال نفسه فإنه قد يستحسن في بعض الأحوال عين ما يستقبحه إذا اختلف
الغرض الغلطة الثانية أن ما هو مخالف للغرض في جميع الأحوال إلا في حالة نادرة فقد لا يلتفت الوهم
إلى تلك الحالة النادرة عن ذكره فيحكم على الكذب بأنه قبيح مطلقا ويغفل عن الكذب الذي يستفاد منه عصمة
نبي أو ولي وإذا قضي بالقبح مطلقا واستمر عليه مرة وتكرر ذلك على سمعه ولسانه انغرس في قلبه استقباح
منفر فلو وقعت تلك الحالة النادرة وجد في نفسه نفرة عنه لطول نشوئه على الاستقباح فإنه ألقي إليه منذ
الصبا على سبيل التأديب والإرشاد أن الكذب قبيح لا ينبغي أن يقدم عليه أحد ولا ينبه على حسنه
في بعض الأحوال خيفة من أن لا يستحكم نفرته عن الكذب فيقدم عليه وهو قبيح في أكثر الأحوال والسماع
في الصغر كالنقش في الحجر وينغرس في النفس ويحن إلى التصديق به مطلقا وهو صدق ولكن لا على الإطلاق
بل في أكثر الأحوال فيعتقد مطلقا الغلطة الثالثة سببها سبق الوهم إلى العكس فإن من رأى
شيئا مقرونا بشيء يظن أن الشيء لا محالة مقرون به مطلقا ولا يدري أن الأخص أبدا مقرون بالأعم
والأعم لا يلزم أن يكون مقرونا بالأخص ومثاله نفرة نفس السليم الذي نهشته الحية عن
الحبل المرقش اللون لأنه وجد الأذى مقرونا بهذه الصورة فتوهم أن هذه الصورة مقرونة بالأذى
وكذلك تنفر عن العسل إذا شبه بالعذرة لأنه وجد الاستقذار مقرونا بالرطب الأصفر فتوهم أن
الرطب الأصفر يقترن به الاستقذار وقد يغلب على الوهم حتى يتعذر الأكل وإن كان حكم العقل يكذب
الوهم ولكن خلقت قوى النفس مطيعة للأوهام وإن كانت كاذبة حتى إن الطبع ينفر عن حسناء سميت باسم
اليهود إذ وجد الاسم مقرونا بالقبح فظن أن القبح أيضا ملازم للاسم ولهذا يورد على بعض العوام
مسألة عقلية فيقبلها فإذا قلت هذا مذهب الأشعري أو المعتزلي أو الظاهري أو غيره نفر عنه
إن كان يسيء الاعتقاد فيمن نسبتها إليه وليس هذا طبع العامي بل طبع أكثر العقلاء المتوسمين بالعلم إلا
العلماء الراسخين الذين أراهم الله الحق حقا وقواهم على اتباعه وأكثر الخلق ترى نفوسهم قطعه

للاوهام الكاذبة مع علمهم بكذبها واكثر اقدام الخلق واحجامهم بسبب هذه الاوهام فان الوهم
عظيم الاستيلاء على النفس ولذلك ينفر طبع الانسان عن المبيت في بيت فيه ميت مع قطعه بانه لا يتحرك
ولكنه كان يتوهم في كل ساعة حركته ونطقه قالوا فاذا انتبهت لهذه المثارات عرفت ان سر
القضايا التي يستحسنها العقول وسر استحسانها اياها والقضايا التي يستقبحها العقول وسر
استقباحها ولنضرب لذلك مثلين وهما مما يحتج بها علينا اهل الاثبات **المثل الاول** الملك
العظيم المستولي على الاقاليم اذا رأى ضعيفا مشرفا على الهلاك فانه يميل الى انقاذه ويستحسنه وان كان لا يعتقد
اصل الدين لينتظر ثوابا او مجازاة ولا سيما اذا لم يعرفه المثلين ولم يره بان كان اعمى اصم لا يسمع الصوت ولا يوافق
ذلك غرضه بل ربما يعبث به بل يحكم العقلاء بحسن الصبر على السيف اذا اكره على كلمة الكفر او على افشاء
السر ونقض العهد وهو على خلاف غرض المكره وعلى الجملة فاستحسان مكارم الاخلاق وافاضة
النعم لا يسلم الا عن عابد **المثل الثاني** العاقل اذا سنحت له حاجة وامكن قضاؤها
بالصدق كما امكن بالكذب بحيث تساويا في حصول الغرض منهما كل التساوي فانه يؤثر الصدق ويختاره ويميل
اليه طبعه وما ذاك الا لحسنه فلولا ان الكذب على صفة يجب عليه الاحتراز عنه والا لما ترجح الصدق
عنده قالوا وهذا الغرض واضح في حق من انكر الشرائع وفي حق من لم تبلغه الدعوة حتى لا يلزمونا
كون الترجيح بالتكليف فهذا ترجيحهم فيستطيلون على هذين المثلين **ونقول** واما انقاذ
الملك وحسبه حتى في حق من لم تبلغه الدعوة وانكر الشرائع فسببه دفع الاذى الذي يلحق الانسان
من رقة الجنس وهو طبع يستحيل الانفكاك عنه وذلك لان الانسان يقدر نفسه في تلك البلية على الهلاك
في حق نفسه فيدفع عن نفسه ذلك القبح المتوهم فان فرض في بهيمة او في شخص لا رقة فيه فهو بعيد تصوره
فلو تصور فيبقى امر آخر وهو طلب الثناء على احسانه فان فرض بحيث لا يعلم انه المنقذ فيتوقع ان يعلم فيكون
التوقع باعثا فان فرض في موضع يستحيل ان يعلم فيبقى ميل وترجح يضاهي نفرة طبع السليم عن الحبل وذلك
انه رأى هذه الصورة مقرونة بالالم وظن ان الشيء مقرون بها بكل حال كما انه لما رأى الاذى مقرونا
بصورة الحبل وطبعه ينفر عن الاذى فينفر عن المقرون به فالمقرون باللذيذ لذيذ والمقرون بالمكروه
مكروه بل الانسان اذا جالس من عشقه في مكان فاذا انتهى اليه احس من ذلك المكان وغيره في نسخة

قال الشاعر

امر على الديار ديار ليلى ... اقبل ذا الجدار وذا الجدارا
وما حب الديار شغفن قلبي ... ولكن حب من سكن الديارا

وقال ابن الرومي منبها على سبب حب الاوطان

وحبب

وحبب اوطان الرجال اليهم ... مآرب قضاها الشباب هنالكا
اذا ذكروا اوطانهم ذكرتهم ... عهود الصبا فيها فحنوا لذلكا

قال وشواهد ذلك مما يكثر وكل ذلك من حكم الوهم قالوا واما الصبر على السيف في ترك كلمة الكفر
مع طمأنينة النفس فلا يستحسنه جميع العقلاء لولا الشرع بل ربما استقبحوه فانما يستحسنه من ينتظر الثواب
على الصبر او من ينتظر الثناء عليه بالشجاعة والصلابة في الدين فكم من شجاع يركب متن الخطر ويهجم على عدد
وهو يعلم انه لا يطيقهم ويستحقر ما يناله من الالم لما يعتاضه من توهم الثناء والحمد ولو بعد موته وكذلك اخفاء
السر وحفظ العهد انما تواصى الناس بهما لما فيهما من المصالح واكثروا الثناء عليهما فمن يحتمل الضرر
لله تعالى فانما يحتمله لاجل الثناء فان فرض من لا يستولي عليه هذا الوهم ولا ينتظر الثناء والثواب فهو
يستقبح السعي في هلاك نفسه بغير فائدة ويستحمق من يفعل ذلك قطعا فمن يسلم ان مثل ذلك يؤثر الهلاك على
الحياة قالوا وهذا هو الجواب عمن عرضت له حاجة وامكن قضاؤها بالصدق والكذب واستويا عنده
وايثار الصدق على انا نقول تقدير استواء الصدق والكذب في المقصود مع قطع النظر عن الغير تقدير
مستحيل لان الصدق والكذب متنافيان ومن المحال تساوي المتنافيين في جميع الصفات فلاجل ذلك
التقدير المستحيل يستبعد العقل ايثار الكذب ومنع ايثار الصدق قالوا ولا يلزم من استبعاد منع ايثار
الصدق على التقدير المستحيل استبعاده في نفس الامر وانما يلزم لو كان التقدير المستلزم واقعا وهو ممنوع
قالوا ولئن سلمنا ان ذلك التقدير ممكن فغايته ان يدل على حسن الصدق شاهدا ولكن لا يلزم حسنه غائبا
الا بطريق القياس للغائب على الشاهد وهو فاسد لوضوح الفرق المانع من القياس والذي يقطع دابر القياس
ان السيد لو رأى عبيده واماءه يموج بعضهم في بعض ويرتكبون الظلم والفواحش وهو مطلع عليهم
قادر على منعهم لقبح ذلك منه والله عز وجل قد فعل ذلك بعباده بل اعانهم وامدهم ولم يقبح منه سبحانه
ولا ينفع قولهم انه سبحانه تركهم لينزجروا بانفسهم ليستحقوا الثواب لانه سبحانه قد علم انهم لا ينزجرون ولم
يمنعهم قهرا فلم يمنع من الفواحش لعلة وعجزه ذلك احسن من تمكينه من العلم بانه لا ينزجر
وبالجملة فقياس افعال الله على افعال العباد باطل قطعا وهو محض التشبيه في الافعال ولهذا
جمعت المعتزلة القدرية بين التعطيل في الصفات والتشبيه في الافعال فهم معطلة مشبهة لباسهم بعلم
الطرفين كيف وان انقاذ الغريق الذي استدللتم به حجة عليكم فان نفس الاغراق والاهلاك يحصل منه
سبحانه ولا يقبح وهو اقبح شيء منا فالانقاذ وان كان حسنا فالاغراق يجب ان يكون قبيحا فان قلتم
لعله في ضمن الاغراق والاهلاك سر لم نطلع عليه وغرض لم نصل اليه فقدروا مثله في ترك

انقادنا نحن للعرفي بل في اهلاكنا لمن هلكه والعقلاء من حيث الصفات لنا التكليف والايجاب عقلًا وشرعًا فانه سبحانه لا يتضرر بمعصية العبد ولا ينتفع بطاعته ولا يتوقف قدرته في الاحسان الى العبد على فعل يصدر من العبد بل كما انعم عليه ابتداء باجل المواهب وافضل العطايا من حسن الصورة وكمال الخلقة وقوام البنية واعطائه آلاته وتمام الاداة وتعديل القامة وما متعه به من ارواح الحياة وفضله به من حياة الارواح وما كرمه من قبول العلم وهداه الى معرفته التي هي انفع جوايزه وان تعدوا نعمة الله لا تحصوها فهو سبحانه اقدر على الانعام عليه دوامًا فكيف يوجب على العبد عبادة تشق عليه في الحال لارتقاب ثواب يأتي في المآل ليس لو الكل اليه زمام الاختيار حتى يفعل ما يشاء جريًا على شوق طبعه المايل الى لذيذ الشهوات ثم اجزل له في العطاء من غير حساب كان ذلك اروح للعبد ولم يكن يحتاج عند العقل فقد تعارض الامران احدهما ان يكلفهم فيامر وينهى حتى يطاع ويعصى ثم يثيبهم ويعاقبهم على فعلهم الثاني انه لا يكلفهم بامر ولا نهي اذ لا يهم من يتحا منهم بطاعته ولا يتضرر منهم بمعصيته بل لا تكون نعمه ثوابًا بل ابتداء واذا تعارضت العقول هذان الامران فكيف يهتدي العقل الى اختيار احدهما حقًا وقطعًا فكيف يعرفنا العقل وجوبًا على نفسه بالمعرفة وعلى الجوارح بالطاعة وعلى الباري سبحانه بالثواب والعقاب **قالوا** ولا سيما على اصول المعتزلة القدرية فان التكليف بالامر والنهي والايجاب من الله لا حقيقة له على اصلهم فانه لا يرجع الى ثواب الرب تعالى صفة يكون بها آمرًا ناهيًا موجبًا مكلفًا فعله للامر والنهي يفعله للخالق ومعلوم انه لا يرجع الى ذاته من الخلق صفة والعقل عندهم انما يعرفه على هذه الصفة ويستحيل عندهم ان يعرفه عندهم يقتضي ويطلب منه شيئًا او يامر وينهاه نهي كالعقل الامر والنهي الطلب ويستحيل عندهم ان يعرفوا دالم يقم به طلب استحال ان يكون امرًا ناهيًا فغايته العقل عندهم ان يعرفه على صفة يستحيل عليه الاتصاف بالامر والنهي فكيف يعرفه على صفة يريد منه طاعة فيستحق عليها ثوابًا ويكره منه معصية يستحق عليها عقابًا واذا لم امر ولا نهي يعقل فلا طاعة ولا معصية اذ هما فرع الامر والنهي فلا ثواب ولا عقاب اذا هما فرع الطاعة والمعصية وغاية ما يقولون انه يخلق في الهواء او في محل ما يفعل الا يفعل فشرط ان يدل الامر والنهي المخلوق على صفة في ذاته غير كونه عالمًا قادرًا **ومعلوم** ان هذا لا يدل الا على كون الفاعل قادرًا عالمًا حيًا مريدًا لفعله واما دلالته على حقيقة الامر والنهي المستلزم للطاعة والمعصية المستلزمين للثواب والعقاب فلا فكيف يعرف من ذلك ان من نفي قيام الكلام والامر والنهي بذات الله يمكنه اثبات التكليف على العبد ابدًا او اثبات حكم للفعل بحسن ولا قبح وفي ذلك ابطال الشرايع جملة مع اسناده

الى قوله

الى قول من قامت البراهين على صدقه ودلت المعجزات على ثبوت نبوته فلا عبرة بالاحكام العقلية المتعارضة المستندة الى عادات الناس المختلفة بالاضافة والنسب والازمنة والامكنة والاقوال وقد عرف بهذا ان من نفى قول الله وكلامه فقد نفى التكليف جملة وصار اخبث القدرية وشرهم مقالة حيث اثبت تكليفًا وايجابًا وتحريمًا بلا امر ولا نهي ولا اقتضاء ولا طلب وهل يعقل هذا في الرب تعالى واثبت فعلًا وطاعة ومعصية بلا فاعل ولا محدث وهذه قدرته في حق العبد فليسه هذه البلاء **قالوا** وايضًا فما من معنى يستنبط من قول او فعل ليربط به حكم مناسب له الا ومن جنسه العقل يعارضه اخر يساويه في الدرجة او يفضل عليه في المرتبة فيتحير العقل في الاختيار الا ان يرد شرع يختار احدهما ويرجحه بلقائه فيجب على العاقل اعتباره واختياره لترجيح الشرع له لا لرجحانه في نفسه **ونضرب** لذلك مثالًا **فنقول** اذا قتل انسان انسانًا فمثله عرض للعقل الصريح ههنا آراء متعارضة مختلفة منها انه يجب ان يقتل قصاصًا ردعًا للجناة وزجرًا للطغاة وحفظًا للحياة وشفاء للغيظ وتبريد الحر المصيبة اللاحقة لاولياء القتيل ويعارضه معنى آخر ان في ذلك اتلاف ثان وعدوان في مقابلة عدوان ولا يحيا الاول بقتل الثاني ففيه تكثير المفسدة باعدام النفسين واما مصلحة الردع والزجر واستبقاء النوع فامر متوهم وفي القصاص شبهة ان محقق فقد تعارض الامران وربما يعارضه ايضًا معنى ثالث ورابع فيفكر العقل الرابع شرايط اخر ورابع تجرد الانسانية والعقل والبلوغ والعلم والجهل والكمال والنقص والقرابة والاجنبية فيتحير العقل كل التحير فلا بد اذًا من شارع يفصل هذه الخطة ويعين باحدها يطرد عليه امر الامة ويستقيم عليه مصالحهم وظهر بهذا ان المعاني المستنبطة راجعة الى مجرد استنباط العقل لزم من ذلك ان يكون الحركة الواحدة مشتملة على صفات متنافية واحوال متنافرة وليس معنى قولنا ان العقل يستنبط منها انها ذات يوجب ثبوتها التي فاستخرجها العقل بل العقل يرد ذهن اضافات للاحوال بعضها الى بعض ونسب الاشخاص والحركات نوعًا الى نوع وشخصًا الى شخص فطرى عليه من تلك المعاني ما حكيناه واحصيناه وربما يبلغ مبلغًا يمتنع عن الاحصاء يعرف بذلك ان المعاني لم ترجع الى الذات بل الى مجرد الخواطر الطارية على الاصل وهي متعارضة **قالوا** وايضًا لو ثبت الحسن والقبح العقليين لتعلق بهما الايجاب والتحريم شاهدًا وغايبًا على العبد والرب واللازم محال فالملزوم كذلك اما الملازمة فقد حكاها اهل الاثبات بتقريرها الزامهم انه يجب على العبد عقلًا بعض الافعال الحسنة ويحرم عليه القبيح ويستحق الثواب والعقاب على ذلك وانه يجب على الرب تعالى فعل الحسن ورعاية الصلاح او الاصلح ويحرم عليه فعل القبيح والشر وما لا فايدة فيه كالعبث ووضعوا بعقولهم شريعة

اوجبوها على الرب تعالى وحرموا عليه وهذا عندهم ثمرة المسألة وفائدتها واما انتفاء اللازم فان
الوجوب والتحريم بدون الشرع ممتنع اذ لو ثبت بدونه لقامت الحجة بدون الرسل والله سبحانه انما اقام
الحجة بالرسل خاصة كما قال تعالى لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل **وايضا**
فلو ثبت بدون الشرع لاستحق الثواب والعقاب عليه وقد نفى الله سبحانه العقاب قبل البعثة وقال وما كنا معذبين
حتى نبعث رسولا وقال تعالى وهم يصطرخون فيها ربنا اخرجنا نعمل صالحا غير الذي كنا نعمل اولم نعمركم ما
يتذكر فيه من تذكر وجاءكم النذير فانما احتج عليهم بالنذير وقال تعالى ونادوا يا مالك
ليقض علينا ربك قال انكم ماكثون لقد جئناكم بالحق ولكن اكثركم للحق كارهون والحق هنا هو ما بعث الله به رسله
باتفاق المفسرين وقال تعالى كلما القي فيها فوج سألهم خزنتها الم يأتكم نذير قالوا بلى قد جاءنا نذير فكذبنا
وقلنا ما نزل الله من شيء ان انتم الا في ضلال كبير وقال تعالى ويوم يناديهم فيقول ماذا اجبتم المرسلين
فلا يسألهم تبارك وتعالى عن موجبات عقولهم بل عما اجابوا به رسله فعليه يقع الثواب والعقاب وقال
تعالى الم اعهد اليكم يا بني ادم ان لا تعبدوا الشيطان انه لكم عدو مبين وان اعبدوني هذا صراط مستقيم
فاحتج عليهم تبارك وتعالى بما عهد اليهم على ألسنة رسله خاصة فان عهده هو امره ونهيه الذي بلغته
رسله وقال تعالى وغرتهم الحياة الدنيا وشهدوا على انفسهم انهم كانوا كافرين فهذا تحكيم
الوجوب والتحريم على العباد قبل البعثة واما انتفاء الوجوب والتحريم على الله الخالق الامر ولا يسأل عما يفعل
فمن وجوه متعددة احدها ان الوجوب والتحريم في حقه سبحانه غير معقول على الاطلاق وكيف يعلم انه
سبحانه يجب عليه ان يمدح ويذم ويثيب ويعاقب على الفعل بمجرد العقل وهل ذلك الا نعت عنا فبم نعرف
رضى عن فاعل وسخط على فاعل وانه يثيب هذا ويعاقب هذا ولم يخبر عنه بذلك مخبر ولم يسلك قياس افعاله
على افعال عباده وهو افسد القياس واعظمه بطلانا فانه تعالى كما انه ليس كمثله شيء في ذاته ولا في صفاته
فكذلك ليس كمثله شيء في افعاله وكيف يقاس على خلقه في افعاله فيحسن منه ما يحسن منهم ويقبح منه ما يقبح
منهم ونحن نرى كثيرا من الافعال تقبح منا وهي حسنة منه تعالى كايلام الاطفال والحيوان واهلاك من لو
اهلكناه نحن لقبح منا من الاموال والانفس وهو منه تعالى مستحسن غير مستقبح وقد سئل بعض العلماء
وهي لسعهم عن ذلك فانشد السائل

ويقبح من سواك الفعل عندي · فتفعله فيحسن منك ذاكا

ونحن نرى ترك انقاذ الغرقى والهلكى قبيحا منا وهو سبحانه اذا اغرقهم واهلكهم لم يكن ذلك قبيحا منه وترك
ترك احدنا عبيده واماءه يقتل بعضهم بعضا ويبغي بعضهم على بعض ويفسد بعضهم بعضا وهو متمكن من منعهم قبيحا

وهو سبحانه قد ترك عباده كذلك وهو قادر على منعهم وهو منه حسن غير قبيح واذا كان هذا شأنه
سبحانه وشأننا فكيف يصح قياس افعاله على افعالنا فلا يدرك اذا الوجوب والتحريم عليه بوجه كيف
والايجاب والتحريم يقتضي موجبا ومحرما آمرا ناهيا وبينه فرق وبين الذي يجب عليه ويحرم وهذا
محال في حق الواحد القهار فالايجاب والتحريم طلب للفعل والترك على سبيل الاستعلاء فكيف
يتصور عاقل قال لواء هذا الايجاب والتحريم الذي زعمتم على الله لوازم فاسدة تدل على فساد
فساد الملزوم **اللازم الاول** اذا اوجبتم على الله تعالى رعاية الاصلح والصلاح في افعاله فيجب
ان توجبوا على العبد رعاية الصلاح والاصلح ايضا في افعاله حتى يصح اعتبار الغائب بالشاهد واذا لم
يجب علينا رعايتهما بالاتفاق يجب المقدور بطل ذلك في الغائب لان ذلك لو كان فارقا في
محل الالزام لكان فارقا في محل الصلاح فان ثبت الفرق في صفته ومقدار تثبيت اصله وان
بطل الفرق ثبت الالزام المذكور **اللازم الثاني** ان الفرائض والنوافل صلاح فلو كان الصلاح
واجبا وجب الفرض **اللازم الثالث** ان خلود اهل النار في النار يجب ان يكون صلاحا
لهم دون غيرهم فيعتبروا بهم ويتوبوا اليه ولا ينفعل اعتبارهم عن هذا الالزام بانهم لو ردوا لعادوا لما
فانه هذا اجيب وليكن لو اماتهم واعدمهم فقطع عذابهم كان اصلح لهم ولو غفر لهم ورحمهم واخرجهم
من النار كان اصلح لهم من اماتتهم واعدامهم ولم يفعل سبحانه ذلك **اللازم الرابع** ان ما فعله الرب
تعالى من الصلاح والاصلح وتركه من الفساد والعبث لو كان واجبا عليه لما استوجب بفعله له حمدا
وثناء فانه بفعله قد قضى ما وجب عليه وما استوجبه العبد بطاعته من ثوابه فانه عندكم حقه الواجب
له على ربه ومن قضى دينه لم يستوجب بقضائه شيئا اخر **اللازم الخامس** ان خلق ابليس وجنوده
اصلح للمخلوق وانفع لهم من ان لا يخلق مع ان قطاعه من العباد من كل الف تسع مائة وتسعة وتسعون **اللازم
السادس** انه مع كون خلقه اصلح لهم وانفع ان يكون انظاره الى يوم القيامة اصلح لهم وانفع
من اهلاكه واماتته **اللازم السابع** ان يكون تمكينه من اغوائهم وجريانه منهم مجرى الدم في
ابشارهم انفع لهم واصلح من ان يحال بينه وبينهم **اللازم الثامن** ان يكون اماتة الرسل صلوات
الله وسلامه عليهم اصلح للعباد من بقائهم بين اظهرهم مع هدايتهم لهم واصلح من ان يحال بينهم وبينها
اللازم العاشر ما الزمه ابو الحسن الاشعري للجبائي وقد سأله عن ثلاثة اخوة امات الله
احدهم صغيرا واحيا الاخرين فاختار احدهما الايمان والاخر الكفر فرفع درجة المؤمن البالغ
على اخيه الصغير في الجنة لعمله فقال اخوه يا رب لم لا تبلغني منزلة اخي فقال انه عاش وعمل اعمالا

ولا يصح نقل الحكم من الغايب الى الشاهد بالتعدي والنص الا بعد نقل الحكم من الشاهد الى الغايب هـ

استحق بها هذه المنزلة فيقول رب فهلا احييتني حتى اعمل مثل عمله فيقول كان الاصلح لك ان توفيك
صغيرا لاني علمت انك ان بلغت اخترت الكفر وكان الاصلح في حقك ان امتك صغيرا فينادي احدهما
الثالث من اطباق النار رب فهلا علمت مني هذا الاصلح واخترمتني صغيرا كما علمت من اخي واخترمته
صغيرا فاسكت الجائي ولم يحر جوابا فاذا علم الله سبحانه انه لو اخترم العبد قبل البلوغ وكمال العقل لكان ناجيا
ولو امهله وسهل له النظر لعند وكفر وجحد فكيف يقال ان الاصلح في حقه ابقاؤه حتى يبلغ **والمقصود**
عندكم بالتكليف والاستصلاح والتعويض بان ينال الدرجات التي لا تنال الا بالاعمال اوليس الواحد منا
اذا علم من حال ولده انه اذا اعطي مالا اتجر به فهلك وخسر بسبب ذلك فانه لا يعرضه لذلك ويقبح منه
تعريضه له وهو رب العالمين حسن عنده قبيح وكذلك من علم من حال ولده انه لو اعطاه سيفا او سلاحا يقاتل
به العدو قتل نفسه واعطى السلاح لعدوه فانه يقبح منه اعطاؤه ذلك السلاح والرب تعالى قد علم من اكثر
عباده ذلك ولم يقبح منه سبحانه تمكينهم واعطاؤهم الالات بل هو حسن منه كيف وقد ساعدوا على ان قولهم
ان الله سبحانه لو علم انه لو ارسل رسولا الى خليقه وكلفه الاداء عنه مع علمه بانه لا يؤدي فان علمه سبحانه
بذلك يمنعه عن ارادة الخير والصلاح وهذا بمثابة من ادلى حبلا الى غريق ليخلص به نفسه من الغرق مع علمه بانه
يخنق نفسه به وقد ساعدوا ايضا على قولهم بان الله سبحانه اذا علم ان في تكليفه عبدا من عباده فساد الكافة
فانه يقبح منه تكليفه لانه استفساد لمن يعلم انه يكفر عند تكليفه **الالزام الحادي عشر** انهم قالوا
وصدقوا ان الرب تعالى قادر على التفضل بحصول الثواب ابتداء بلا واسطة عمل فاي غرض له في تعريض
العباد للبلوى والمشاق كما لو قالوا ان الغرض في التكليف ان استيفاء المنتفع حقه اهنى له والذ من
قبول التفضل واحتمال المنه وهذا كلام اجهل الخلق بالرب تعالى وحقه وبعظمته ومننه ومنته ويعني
احاد الناس وهو اقبح المنه واخسه تعالى الله عن ضلالهم علوا كبيرا فكيف يستنكف العبد المخلوق
المربوب من قبول فضل الله تعالى ومنته وهل المنة في الحقيقة الا لله المان بفضله قال
تعالى يمنون عليك ان اسلموا قل لا تمنوا علي اسلامكم بل الله يمن عليكم ان هداكم للايمان ان كنتم صادقين
وقال تعالى لقد من الله على المؤمنين اذ بعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم اياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب
والحكمة وان كانوا من قبل لفي ضلال مبين ولما قال النبي صلى الله عليه وسلم للانصار رضي الله تعالى عنهم الم اجدكم
ضلالا فهداكم الله وعالة فاغناكم الله اجابوه بقولهم الله ورسوله امن وبالمعقول
التي قد حسنت بها اي حق للعبد على الرب حتى يمتنع من قبول منته عليه فباي حق استحق الانعام عليه بالايجاد
وكمال الخلقة وحسن الصورة وقوام البنية واعطاء القوى والمنافع والالات والاعضاء وتسخير ما في

السموات وما في الارض له ومن اقل ما له عليه من النعم النفس في الهواء الذي لا يكاد يخطر ببالهم انه
النعم وهي في اليوم والليلة اربعة وعشرون الف نفس فاذا كانت اقل نعمه عليهم ولا اقل منها اربعة
وعشرون الف نعمة كل يوم وليلة فما الظن بما هو اجل منها من النعم فما للعقول السخيفة المخسوف
بها اي علم لكم واي شيء يقابل القليل من نعمه الدنياويه حتى لا يبقى لله عليكم منة اذا اثابكم لا سيما ان استوفيتم
ذنوبكم قبله ولا نعمة له عليكم فيها فاي امة من الامم بلغ جهلها بالله هذا المبلغ واستنكف عن قبول
منته وزعمت ان لها الحق على ربها وان تفضله عليها ومنته مكدرا لذاذها بعطائه ولو ان العبد
استعمل هذا الادب مع ملك من ملوك الدنيا لمقته وابعده وسقط من عينه مع انه لا نعمة له عليه في الحقيقة
انما المنعم في الحقيقة هو الله ولي النعم ومولها ولقد حفا القوم عن اقبح عورة من عورات الجهل بهذا
الراي السخيف والمذهب القبيح والحمد لله الذي عافانا مما ابتلى ارباب هذا المذهب المستنكفين من
قبول منة الله الزاعمين ان ما انعم الله تعالى به عليهم حقهم عليه وحقهم قبله وانه لا يستحق الحمد والثناء
على اداء ما عليه من الدين والخروج مما عليه من الحق لان اداء الواجب يستحق عليه غير الله تعالى عن قولهم وقولهم
علوا كبيرا **الالزام الثاني عشر** انه يلزمهم ان يوجبوا على الله عز وجل ان يميت كل من علم من
الاطفال انه لو بلغ لكفر وعاند فان اخترامه هو الاصلح له بلا ريب او ان يجحدوا علمه سبحانه بما سيكون
قبل كونه كما التزمه سلفهم الخبيث الذين اتفق سلف الامة الطيب على تكفيرهم ولا خلاص لهم عن احد
هذين الالزامين الا بالتزام مذهب اهل السنة والجماعة ان افعال الله تعالى لا تقاس بافعال عباده ولا
تدخل تحت شرائع عقولهم القاصرة بل افعاله لا تشبه افعال خلقه ولا صفاته صفاتهم ولا ذاته
ذواتهم ليس كمثله شيء وهو السميع البصير **الالزام الثالث عشر** يلزمكم انه سبحانه لا يؤلم احدا من
خلقه ابدا لعدم المنفعة في ذلك بالنسبة اليه والى العبد ولا ينفعكم اعتذاركم بان الايلام سبب
مضاعفة الثواب ونيل الدرجات العلى فان هذا ينتقض بالحيوان البهيم وينتقض بالاطفال
الذين لا يستحقون ثوابا ولا عقابا ولا ينفعكم اعتذاركم بان الطفل ينتفع به في الاخرة في زيادة ثوابه
لانتقاضه عليكم بالطفل الذي علم الله تعالى انه يبلغ ويختار الكفر والجحود فاي مصلحة له في ايلامه
واي معنى ذكرتموه على اصولكم الفاسدة فهو منتقض عليكم بما لا جواب لكم عنه **الالزام الرابع عشر**
ان من علم الله سبحانه وتعالى انه اذا بلغ من الاطفال يختار الايمان والعمل الصالح فان الاصلح في حقه
ان يحييه حتى يبلغ ويؤمن فينال بذلك الدرجة العالية وان لم يخترمه صغيرا وهذا ايضا لا جواب
لكم عنه **الالزام الخامس عشر** وهو من اعظم الالزامات واصحها الزاما وقد التزمه القدرية

وهو انه ليس في مقدور الله تعالى لطف لو فعله الله تعالى بالكفار لآمنوا وقد التزم المعتزلة القدرية
هذا اللازم وبنوا على اصلهم الفاسد انه يجب على الله تعالى ان يفعل في حق كل عبد ما هو الاصلح له فلو كان
في مقدوره فعل يؤمن العبد عنده لوجب عليه ان يفعله به والقرآن من اوله الى اخره يرد هذا القول
ويكذبه ويخبر تعالى انه لو شاء لهدى الناس جميعا ولو شاء لآمن من في الارض كلهم جميعا ولو شئنا لآتينا كل
نفس هداها **الالزام السادس عشر** وهو مما التزمه القوم ايضا ان لطفه ونعمته وتوفيقه بالمؤمن
كلطفه بالكافر وان نعمته عليهما سواء لم يخص المؤمن بفضل عن الكافر ولولا الوحي وصريح المعقول وفطر
الله تعالى والاعتبار الصحيح واجماع الامة رد لهذا القول وتكذيبا له **الالزام السابع عشر**
ان ما من اصلح الا وفوقه ما هو اصلح منه والاقتصار على رتبة واحدة كالاقتصار على الصالح ولا يبقى لقولكم يجب
مراعاة الاصلح اذ لا نهاية له فلا يمكن في الفعل رعايته **الالزام الثامن عشر** ان الايجاب والتحريم يستدعي
سؤال الموجب المحرم لمن اوجب عليه وحرم هل فعل مقتضى ذلك ام لا وهذا محال في حق من لا يسأل عما يفعل
وانما يعقل في حق المخلوقين فانهم يسألون وبالجملة فتحكم بهذه المسألة طريقا للاستغناء عن الصواب
وتسلطهم بها الفلاسفة والصابئة والبراهمة وكل منكر للنبوات فهذه المسألة بيننا وبينهم فانكم اذا
زعمتم ان في العقل حاكما يحسن ويقبح ويوجب ويحرم ويقتضي الثواب والعقاب لم يكن الحاجة
الى البعثة ضرورية لا يكلف الاستغناء عنها بهذا الحكم ولهذا قالت الفلاسفة وردت عليكم حجة
وتقريرها انا استقرينا الوجود على خير مطلق وشر مطلق وخير وشر ممتزجين والخير المطلق
مطلوب في العقل لذاته والشر المطلق مرفوض في العقل لذاته والممتزج مطلوب من وجه ومرفوض من
وجه وهو بحسب الغالب من جهته ولا شك العاقل ان العلم بجنسه ونوعه خير ومحمود ومطلوب
والجهل بجنسه ونوعه شر ومذموم غير مطلوب وكما هو مطلوب في العقل فهو مستحسن عند العقلاء
وكلما هو مرفوض في العقل فهو مستقبح عند الجمهور والعقلاء لشبهه داعية الى تحصيل المستحسن ورفض
المستقبح سواء حمله عليه شارع او لم يحمله ثم الاخلاق الحميدة والخصال الرشيدة من العفة والجود والسخاء
والنجدة مستحسنات فعله واضدادها مستقبحات فعله وكمال حال الانسان ان يستكمل النفس قوتي العلم
الحق والعمل الخير والشارع انما يرد بتمهيد ما تقرر في العقل لا بتغييره لكن العقول الجزوية لما
كانت قاصرة عن اكتساب المعقولات باسرها عاجزة عن الاهتداء الى المصالح الكلية الشاملة لنوع
الانسان وجب من حيث الحكم ان يكون بين الناس شرع يفرضه شارع يحملهم على الايمان بالغيب
جملة ويهديهم الى مصالح معاشهم ومعادهم تفصيلا فيكون قد جمع لهم بين حظي العلم والعدل

على مقتضى العقل وحملهم على التوجه الى الخير المحض والاعراض عن الشر المحض ابتغاء لنوعهم
واستدامة لنظام العالم ثم ذلك الشارع يجب ان يكون ممتازا من بينهم بآيات تدل على انها من عند ربه
سبحانه وتعالى راجحا عليهم بعقله الرزين ورأيه المبين في حدسه النافذ وخلقه الحسن وسمته
وهديه يلين لهم في القول ويسارهم في الامر ويكلمهم على قدر عقولهم ويكلفهم بحسب وسعهم وطاقتهم
قالوا وقد اخطأت المعتزلة حين ردوا الحسن والقبح الى الصفات الذاتية للافعال وكان من
احقهم بتقرير ذلك في العلم والجهل اذ الافعال تختلف بالاشخاص والازمان وسائر الاضافات وليست
هي على صفات نفسية لازمة لها بحيث لا تفارقها البتة ه **ثم زادت** الصابئة
في ذلك على الفلاسفة وقالوا لما كانت الموجودات في العالم السفلي مركبة على تأثير الكواكب والروحانيات نبات
التي هي مدبرات الكواكب وكان في اتصالاتها نظر سعد ونحس وجب ان يكون في آثارها حسن وقبح في
الاخلاق والخلق والافعال والعقول والانسانية منشأ وبه في النوع فوجب ان يدركها كل عقل سليم
وطبع قويم لا يتوقف معرفة المعقولات على ان هو مثل ذلك العاقل في النوع فنحن لا نحتاج الى من يعرفنا
حسن الاشياء وقبحها وخيرها وشرها ونفعها وضرها وكما انا نستخرج بالعقول من طبائع الاشياء
منافعها ومضارها كذلك نستنبط من افعال نوع الانسان حسنها وقبحها فلا نبين ما هو احسن منها يجب
المستطاع ويجتنب ما هو قبيح منها بحسب الطاقة فأي حاجة بنا الى شارع يحكم على عقولنا ه
وزادت التناسخية على الصابئة بان قالوا نوع الانسان لما كان موصوفا
بنوع اختيار في افعاله مخصوصا بنطق وعقل في علومه واحواله ارتفع عن الدرجة الحيوانية ارتفاع
استسخارها فان كانت اعماله على مناهج الدرجة الانسانية ارتفعت الى الملائكة وان كانت على مناهج
الدرجة الحيوانية انحطت اليها او الى اسفل وهو ابدا في احد امرين اما فعل يقتضي جزاء او
جزاء على فعل فما باله يحتاج في افعاله واحواله الى شخص مثله يحسن او يقبح فلا العقل يحسن
ويقبح ولا الشرع ولكن حسن افعاله جزاء على حسن افعال غيره وقبح افعاله كذلك وربما يظهر
حسنها وقبحها صورا جسمانية روحانية وانما نصير الحسن والقبح في الحيوانات افعالا انسانية
وليس بعد هذا العالم عالم آخر يحكم فيه ويحاسب ويثاب ويعاقب **وزادت**
البراهمة على التناسخية بان قالوا نحن لا نحتاج الى شريعة وشارع اصلا فان كل ما امر به النبي صلى الله عليه وسلم
لا يخلو اما ان يكون معقولا او غير معقول فان كان معقولا فقد استغنى بالعقل عن النبي وان لم يكن
معقولا لم يكن مقبولا فهذه الطوائف كلها لما جعلت في العقل حاكما بالحسن والقبح اداها الى

اتبعتموهم

هذه الآراء الباطلة والنحل الكافرة وأنتم يا معشر المثبتة يصعب عليكم الرد عليهم وقد وافقتموهم
على هذا الأصل وأما نحن فأخذنا عليهم رأس الطريق وسددنا عليهم الأبواب فمن طرق لهم الطريق وفتح
لهم الأبواب ثم رام منا حزم القوم فقد رام مرتقى صعبا فهذه مجانيق جيوش النفاة قد وافتك
بعددها وعديدها وأقبلت إليك بحدها وحديدها فإن كنت من أبناء الطعن والضرب فقد التقى
الزحفان وتقابل الصفان وإن كنت من أصحاب التلول فالزم مقامك ولا تدن من الوطيس فإنه
قد حمي وإن كنت من أهل الأعراب الذين يسألون عن الأنباء ولا يمسون عند اللقاء

ندع الحروب لأقوام لها خلقوا — وما لها من سوى أجسامهم جنن
ولا تلمهم على ما فيك من جبن — فبئست الخلتان اللوم والجبن

قال المتوسطون من أهل الإثبات ما منكم أيها الفريقان إلا من معه حق وباطل
ونحن نساعد كل فريق على حقه ونصير إليه ونبطل ما معه من الباطل ونرده عليه فنجعل حق الطائفتين
مذهبا ثالثا يخرج من بين فرث ودم لبنا خالصا سائغا للشاربين فعسى أن تنتسب إلى ذي مقالة أو
طائفة معينة انتسابا يحملنا على قبول جميع أقوالها والانتصار لها بكل غث وسمين ورد جميع
أقوال خصومها ومكابرتها على ما معها من الحق حتى لو كانت تلك الأقوال منسوبة إلى نبيها وطائفتها
لبالغت في نصرها وتقريرها وهذه آفة ما نجا منها إلا من أنعم الله عليه وأهله لمتابعة الحق
أين كان ومع من كان وأما من يرى أن الحق وقف موقوف على طائفته وأهل مذهبه ومحجور على من
سواهم ممن لعله أقرب إلى الحق والصواب منه فقد حرم خيرا كثيرا وفاته هدى عظيم قالوا
وها نحن نجلس مجلس الحكومة بين هاتين الطائفتين فمن أدلى بحجة في موضع كان المحكوم له في ذلك
الموضع وإن كان المحكوم عليه حيث يدحض حجته والله تعالى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق
والعدل بين الطوائف المختلفة قال تعالى شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذي أوحينا
إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه كبر على المشركين ما تدعوهم
إليه الله يجتبي إليه من يشاء ويهدي إليه من ينيب وما تفرقوا إلا من بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم ولولا
كلمة سبقت من ربك إلى أجل مسمى لقضي بينهم وإن الذين أورثوا الكتاب من بعدهم لفي شك منه مريب
فلذلك فادع واستقم كما أمرت ولا تتبع أهواءهم وقل آمنت بما أنزل الله من كتاب وأمرت لأعدل بينكم
فأخبر تعالى أنه شرع لنا دينه الذي وصى به نوحا والنبيين من بعده وهو دين واحد ونهانا
عن التفرق فيه ثم أخبرنا أنه ما تفرق من قبلنا في الدين إلا بعد العلم الموجب للائتلاف وعدم

التفرق وأن الحامل على ذلك التفرق البغي من بعضهم على بعض وإرادة كل طائفة أن يكون العلو
والظهور لها دون غيرها وإذا تأملت تفرق أهل البدع والضلال رأيته صادرا عن
هذه العلة ثم أمر سبحانه نبيه صلى الله عليه وسلم أن يدعو إلى دينه الذي شرعه للأنبياء وأن
يستقيم كما أمره ربه وحذره من اتباع أهواء المتفرقين وأمره أن يؤمن بكل ما أنزل الله من الكتب وهذه
حال المحق أن يؤمن بكل ما جاء من الحق على لسان أي طائفة كانت ثم أمره أن يخبرهم بأنه أمر بالعدل
بينهم وهذا يعم العدل في الأقوال والأفعال والآراء والمحاكمات كلها فنصبه ربه ومرسله للعدل بين
الأمم هذا وارثه منتصب للعدل بين المقالات والآراء والمذاهب ونسبته منها إلى القدر
المشترك بينها من الحق فهو أولى به وسعد به وبالحكم لمن خاصمه ثم أمره أن يخبرهم بأن الرب المعبود واحد
فما الحامل للتفرق والاختلاف وهو ربنا وربكم والدين واحد ولكل عامل عمله لا يتعداه إلى غيره ثم قال
لا حجة بيننا وبينكم والحجة هاهنا هي الخصومة أي لا خصومة ولا وجه للخصومة بيننا وبينكم بعد ما ظهر
الحق وأسفر صبحه وبانت أعلامه وانكشفت الغمة عنه وليس المراد نفي الاحتجاج من الطرفين كما
ظنه بعض من لا يدري ما يقول وأن الدين لا احتجاج فيه كيف والقرآن من أوله إلى آخره حجج وبراهين
على أهل الباطل وقطعه لنفسه وأجوبة لمعارضاتهم وإفساد لأقوالهم بأنواع الحجج والبراهين وأخبار
عن أنبيائه ورسله بإقامة الحجج والبراهين وأمر لرسوله بمجادلة المخالفين بالتي هي أحسن وهل تكون
المجادلة إلا بالاحتجاج وإفساد حجج الخصم ولذلك أمر المسلمين بمجادلة أهل الكتاب بالتي هي أحسن
وقد ناظر النبي صلى الله عليه وسلم جميع طوائف الكفر أتم مناظرة وأقام عليهم ما ألجمهم به من
الحجج حتى عدل بعضهم إلى محاربته بعد أن عجز عن رد قوله وكسر حجته واختار بعضهم مسالمته
ومتاركته وبعضهم بذل الجزية عن يد وهو صاغر كل ذلك بعد إقامة الحجج عليهم وأجرى بلطفهم وأسرها
لنفوسهم وما استجاب له من استجاب إلا بعد أن وضحت له الحجة ولم يجد إلى ردها سبيلا وما خالفه
أعداؤه إلا عنادا منهم وميلا إلى المكابرة بعد اعترافهم بصحة حجته وأنها لا تدفع فما قام الدين
إلا على ساق الحجة فقوله لا حجة بيننا وبينكم أي لا خصومة فإن الرب واحد فلا وجه للخصومة فيه
ودينه واحد وقد قامت الحجة وتحقق البرهان فلم يبق للاحتجاج والمخاصمة فائدة فإن فائدة
الاحتجاج ظهور الحق ليتبع فإذا ظهر وعانده المخالف وتركه جحودا وعنادا لم يبق للاحتجاج فائدة بيده
فلا حجة بيننا وبينكم أيها الكفار فقد وضح الحق واستبان ولم يبق إلا الإقرار به أو العناد
والله يجمع بيننا يوم القيامة فيقضي بالحق على المبطل وإليه المصير قالوا ونحن نجري

القسط بين العوينين عملا بقوله صلى الله عليه وسلم المقسطون عند الله على منابر من نور عن يمين الرحمن
الذين يعدلون في حكمهم واهليهم وما ولوا ويكفي في هذا قوله تعالى يا ايها الذين امنوا كونوا قوامين
لله شهداء بالقسط ولا يجرمنكم شنآن قوم على ان لا تعدلوا اعدلوا هو اقرب للتقوى واتقوا الله ان الله
خبير بما تعملون فقالوا قد اصاب اهل الاثبات من المعتزلة في قولهم ان الحسن والقبح صفات ثبوتية
للافعال معلومة بالعقل والشرع وان الشرع جاء بتقرير ما هو مستقر في الفطر والعقول من تحسين
الحسن والامر به وتقبيح القبيح والنهي عنه وانه لم يجئ بما يخالف العقل والفطرة وان جاء بما تعجز
العقول عن ادراكه والاستقلال به فالشرائع جاءت بمجارات العقول لا بمحالاتها وفرق بين ما لا تدرك
العقول حسنه وبين ما تشهد بقبحه فالاول مما ياتي به الرسل دون الثاني واخطأوا في ترتيب
العقاب على هذا القبح عقلا كما تقدم واصابوا في اثبات الحكمة لله تعالى وانه سبحانه لا يفعل فعلا
خاليا عن الحكمة بل افعاله مقصودة لعواقبها الحميدة وغاياتها المحبوبة له واخطأوا في موضعين
احدهما انهم عادوا بتلك الحكمة الى المخلوق ولم يعيدوها الى الخالق سبحانه على فاسد اصولهم في
نفي قيام الصفات به فنفوا الحكمة من حيث اثبتوها وجحدوها من حيث اقروا بها الموضع الثاني
انهم وضعوا لتلك الحكمة شريعة بعقولهم واوجبوا على الرب تعالى بها وحرموا وشبهوه بخلقه
في افعاله بحيث ما حسن منهم حسن منه وما قبح منهم قبح منه فلزمهم بذلك اللوازم الشنيعة وضاق
عليهم المجال وعجزوا عن التخلص عن تلك الالزامات ولو انهم اثبتوا له حكمة تليق به لا تشبه خلقه فيها بل نسبتها
اليه كنسبة صفاته الى ذاته وكما لا يشبه خلقه في صفاته فكذلك في افعاله ولا يصح الاستدلال بقبح القبيح
وحسن الحسن منهم على ثبوت ذلك في حقه تعالى ولهذا استطال عليهم النفاة وصاحوا عليهم من كل
قطر واقاموا عليهم نائرة الشناعة واصابوا ايضا في قولهم بان الرب تعالى لا يمتنع في نفسه الوجوب
والتحريم واخطأوا في جعل ذلك تابعا لمقتضى عقولهم وآرائهم بل يجب عليه ما اوجبه على نفسه ويحرم
عليه ما حرمه هو على نفسه فهو الذي كتب على نفسه الرحمة واحق على نفسه نصر المؤمنين واحق على
نفسه ثواب المطيعين وحرم على نفسه الظلم كما جعله محرما بين عباده واصابوا في قولهم انه لا يحب
الشر والكفر وانواع الفساد بل يكرهها وانه يحب الايمان والخير والبر والطاعة ولكن اخطأوا في
تفسير هذه المحبة والكراهة بمجرد معان مفهومة من الفاظ خلقها في الهواء وفي الشجر ولم يجعلوها
معاني ما يتصف به تعالى على فاسد اصولهم في التعطيل ونفي الصفات فنفوا المحبة والكراهة من حيث
اثبتوها واعادوها الى مجرد الشرع ولم يثبتوا له حقيقة قائمة بذاته فان شرع الله هو امره

ونهيه ولم يقم به عندهم امر ولا نهي بحقيقة فقولهم انه لا شرع ولا محبة ولا كراهة وان خرج مع
القول ويخلو الاثبات ما سدوا على انفسهم طريق اثباته واصابوا ايضا في قولهم ان مصلحة
المامور به تارة تنشا من الفعل تارة ومن الامر اخرى فرب فعل لم يكن منشأ لمصلحة المكلف فلما امر به صار
منشأ للمصلحة بالامر ولو توسطوا هذا التوسط وسلكوا هذا المسلك وقالوا ان المصلحة
تنشا من الفعل المامور به تارة ومن الامر تارة ومنهما تارة ومن العزم المجرد تارة لانصفوا من
خصومهم ومثال الاول الصدق والعفة والاحسان والعدل فان مصلحتها ناشئة منها
ومثال الثاني التجرد في الاحرام والتطهر بالتراب والسعي بين الصفا والمروة ورمي الجمار
ونحو ذلك فان هذه الافعال لو تجردت عن الامر لم تكن منشأ لمصلحة فلما امر بها نشأت مصلحتها
من نفس الامر ومثال الثالث الصوم والصلاة والحج واقامة الحدود واكثر الاحكام الشرعية
فان مصلحتها ناشئة من الفعل والامر معا فالفعل يتضمن مصلحة والامر يتضمن مصلحة اخرى فالمصلحة
فيها من وجهين ومثال الرابع امر الله تعالى خليله ابراهيم صلى الله عليه وسلم بذبح ولده فان المصلحة
انما نشأت من عزمه على المامور به لا من نفس الفعل وكذلك امر نبيه صلى الله عليه وسلم ليلة الاسراء
بخمسين صلاة فلما حصروا المصلحة في الفعل وحده تسلط عليهم خصومهم بانواع المناقضات
والالزامات فقالوا وقد اصاب النفاة حيث قالوا ان الحجة انما تقوم على العباد بالرسالة
وان الله لا يعذبهم قبل البعثة لكنهم نقضوا الاصل ولم يطردوه حيث جوزوا تعذيب من لم تقم عليه
الحجة اصلا كالاطفال والمجانين ومن لم تبلغه الدعوة واخطأوا في تسويتهم بين الافعال التي خالف
الله تعالى بينها فجعل بعضها حسنا وبعضها قبيحا وركب في العقول والفطر التفرقة بينها كما ركب في
الحواس التفرقة بين الحلو والحامض والمر والعذب والسخن والبارد والضار والنافع فزعم
النفاة انه لا فرق في نفس الامر اصلا بين فعل وفعل في الحسن والقبح وانما يعود الفرق الى عادة
مجردة او وهم او خيال او مجرد الامر والنهي وسلبوا الافعال خواصها التي جعلها الله تعالى
عليها من الحسن والقبح فخالفوا الفطر والعقول وسلطوا عليهم خصومهم بانواع الالزامات
والمناقضات الشنيعة جدا ولم يجدوا الى ردها سبيلا الا بالعناد وجحد الضروري
واصابوا في نفيهم الايجاب والتحريم على الله الذي اثبته القدرية من المعتزلة ووضعوا على الله
شريعة بعقولهم فادتهم الى الخطأ لاجل التزامهم اللوازم الباطلة واخطأوا في نفيهم عنه ايجاب ما
اوجبه على نفسه وتحريم ما حرمه على نفسه بمقتضى حكمته وعدله وعزته وعلمه واخطأوا ايضا في

نفيهم حكمته تعالى في خلقه وامره وانه لا يفعل شيئا لشيء ولا يأمر بشيء لشيء وفي انكارهم الاسباب
والقوى التي اودعها الله في الاعيان والاعمال وجعلهم كل لام دخلت في القران لتعليل افعاله واوامره
المطلوبة في اوامره وافعاله وردوها الى العلم والقدرة فجعلوا مطابقة المعلوم للعلم ووقوع المقدور
على وفق القدرة هو الحكمة ومعلوم ان وقوع المقدور بالقدرة ومطابقة المعلوم للعلم غير الحكمة
والغايات المطلوبة من الفعل فتعلق القدرة بمقدورها والعلم بمعلومه اعم من كون المعلوم والمقدور
مشتملا على حكمة ومصلحة او مجردا عن ذلك والاعم لا يشعر بالاخص ولا يستلزمه وهل هذا الا الحقيقة
النافية للحكم واثبات الامر اخر واخطأوا ايضا في تسويتهم بين المحبة والمشية وان كل ما شاء من الافعال
والاعيان فقد احبه ورضيه وما لم يشأه فقد كرهه وابغضه فمحبته مشيته وارادته العامة
وكراهته وبغضه عدم مشيته وارادته فلزمهم من ذلك ان يكون ابليس محبوبا له وفرعون
وهامان وجميع الكفار والشياطين بل ان يكون الكفر والفسوق والظلم والعدوان الواقعة
في العالم محبوبة له مرضية وان يكون الايمان والهدى والعدل والبر التي لم توجد في الناس مكروهة
مسخوطة له مكروهة ممقوتة عنده فسووا بين الافعال الحقا وبين الله بينهما وسووا بين المتعلقة
بتكوينها وايجادها والمحبة المتعلقة بالرضا بها واختيارها وهذا مما استطال به عليهم خصومهم
كما استطالوا هم عليهم اخرجوها عن مشية الله وارادته العامة ونفوا تعلق قدرته وخلقه بها فاستطال
كل من الفريقين على الاخر بسبب ما معهم من الباطل وهدى الله اهل السنة الذين هم وسط في المقالات
والنحل لما اختلف الفريقان فيه من الحق باذنه والله يهدي من يشاء الى صراط مستقيم فالقدرية حجروا
على الله تعالى في الذي شرعه حجرا اعله الخروج عنها وخصومهم من الجبرية جوزوا عليه كل فعل بل
يتنزه عنه سبحانه اذ لا يليق بغناه وحمده وكماله ما تنزه نفسه عنه وحمد نفسه بانه لا يفعله فالطائفتان
متقابلتان غاية التقابل والقدرية اثبتوا له حكمة وغاية مطلوبة من الافعال على حسب ما اثبتوه
لخلقه والجبرية نفوا حكمته اللائقة به التي لا يشابهه فيها احد والقدرية قالت انه لا يريد من
عباده طاعتهم وايمانهم وانه لا ينال ذلك منهم والجبرية قالت انه يحب الكفر والفسوق والعصيان
ويرضاه من فاعله والقدرية قالت انه يجب عليه سبحانه ان يفعل بكل شخص ما هو الاصلح له والجبرية
قالت انه يجوز ان يعذب اولياءه واهل طاعته من لم يعصه قط وينعم اعداءه ومن كفر به
واشرك وله فرق عنده بين هذا وهذا فليعجب العاقل من هذا التقابل والتباعد الذي بين
كل فريق ان قولهم محض العقل وما خالفه باطل بصريح العقل ولذلك القدرية قالت انه

الجواب

ألقى الى عباده زمام الاختيار وفوض اليهم المشية والارادة وانه لم يخص احدا منهم بتوفيق ولا
لطف ولا هداية بل ساوى بينهم في مقدوره ولو قدر ان يهدي احدا ولم يهده كان بخيلا وانه
لا يهدي احدا ولا يضله الا بمعنى البيان والارشاد واما خلق الهدى والضلال فهو اليهم ليس اليه
وقالت الجبرية انه سبحانه اجبر عباده على افعالهم بل قالوا ان افعالهم هي نفس افعاله ولا فعل لهم في
الحقيقة ولا قدرة ولا اختيار ولا مشية وانما يعذبهم على ما فعله هو كرها على ما فعلوه ونسبة افعالهم
اليه كحركات الاشجار والمياه والجمادات فالقدرية سلبوا قدرته على افعال العباد ومشيته
لها والجبرية جعلوا افعال العباد نفس افعاله وانهم ليسوا فاعلين لها على الحقيقة ولا قادرين
عليها فالقدرية سلبته كمال ملكه والجبرية سلبته كمال حكمته والطائفتان سلبته كمال
حمده واهل السنة الوسط اثبتوا كمال الملك والحمد والحكمة فوصفوه بالقدرة التامة
على كل شيء من الاعيان وافعال العباد وغيرهم واثبتوا له الحكمة التامة في جميع خلقه وامره
واثبتوا له الحمد كله في جميع ما خلقه وامر به ونزهوه عن دخوله تحت شريعة يضعها العباد بآرائهم
ونزهوه عما نزه نفسه عنه مما لا يليق به فاستولوا على محاسن المذاهب وتجنبوا اردأها
ففازوا بالقدح المعلى وغيرهم طاف على ابواب المذاهب ففازوا باخس المطالب والهدى هدى
الله يختص به من يشاء من عباده **فصل** اذا عرفت هذه المقدمة فالكلام على كلمات
النفاة فروض احدها قولهم لو قدر الانسان نفسه وقد خلق تام الخلقة تام العقل
دفعة من غير تأدب بتأديب الابوين ولا تعلم متعلم ثم عرض عليه امران احدهما ان الواحد
اكثر من الاثنين والاخر ان الكذب قبيح لم يتوقف في الاول وتوقف في الثاني فقد افتقر متحمل

الوجه الثاني

ركيك عليه امر اعني معلوم الصحة فان تقدير الانسان لذلك محال كان
سلمنا امكان التقدير لكن لم قلتم انه لا يتوقف في كون الواحد نصف الاثنين ويتوقف في
كون الكذب قبيحا بعد تصور حقيقته فلا نسلم انه اذا تصور ماهية الكذب يتوقف في الجزم بقبحه
ومع هذا فهذه الدعوى مجرده **الوجه** الثالث سلمنا انه قد يتوقف في الحكم بقبحه
ولكن لا يلزم من ذلك ان لا يكون قبيحا لذاته وقبحه معلوم للعقل وتوقف الذهن في الحكم
العقلي لا يخرجه عن كونه عقليا ولا يجب التساوي في العقليات اذ بعضها اجلى من بعض فان
قلتم بهذا التوقف ينفي ان يكون الحكم بقبحه ضروريا وهو مبطل قولكم قلنا انما لزم
التقدير المستحيل الواقع والمحال قد يلزمه محال اخر سلمنا انه ينفي كون الحكم بقبحه ضروريا

ابتداءً فلم قلتم انه لا يكون ضروريًا بعد التأمل والنظر والضروري اعم من كونه ضروريًا ابتداءً بلا واسطة او ضروريًا بوسط ونفي الاخص لا يستلزم نفي الاعم ومن ادعى سلب الوسائط عن الضروريات فقد كابر واصطلح مع نفسه على تسمية الضروريات بما لا يتوقف على وسط

الوجه الرابع ان تصور ماهية الكذب يقتضي حكم العقل ونسبة الكذب الى العقل كنسبة المنافرات الحسية الى الحس وكما ان ادراك الحواس المنافرات تقتضي نفورها عنها فكذلك ادراك العقل حقيقة الكذب ولا فرق بينهما الا فرق ما بين ادراك الحس وادراك العقل فان جاز القدح في مدركات العقول وحكمها فيها بالحسن والقبح جاز القدح في مدركات الحواس

الوجه الخامس انكم فتحتم باب السفسطة فان القدح في معلومات العقول وموجباتها كالقدح في مدركات الحواس وموجباتها ثم لجأ الى المكابرة في المعقولات بعد فتح باب المكابرة في المحسوسات ولهذا كانت السفسطة جملة تعرض في هذا وهذا وليست مذهبًا لامة من الناس يعيشون عليه كما يظنه بعض اهل المقالات ولا يمكن ان يعيش امة ولا احد على ذلك ولا تتم له مصلحة وانما هي حال عارضة لكثير من الناس وهي بالمرض ونقل ما يثير صاحب مذهب باطل الا وهو يرتب للسفسطة شاء ام ابى وسنذكر ان شاء الله تعالى فصلًا فيما بعد نبين فيه ان جميع ارباب المذاهب الباطلة سوفسطائية صريحًا ولزومًا قريبًا وبعيدًا

الوجه السادس قولكم حكمتم بان هذين الامرين يتساويان بالنسبة الى العقل خرج عن قضايا العقول جوابه انكم اردتم بالتسوية كونهما معقولين في الجملة فمن اين يخرج عن قضايا العقول من حكم بذلك وهل الخارج في الحقيقة عنها الا من منع هذا الحكم فان اردتم بالتسوية الاستواء في الادراك وان كليهما على رتبة واحدة من الضرورة فلا يلزم من عدم هذا الاستواء ان لا يكون العلم بقبح الكذب عقليًا

الوجه السابع قولكم لو تقرر عند المثبتين ان الله تعالى لا يتضرر بكذب ولا ينتفع بصدق كان الامران في حكم التكليف على وتيرة واحدة كلام لا يرتضيه عاقل فان من المقرر ان الله تعالى لا يتضرر بكذب ولا ينتفع بصدق وانما يعود نفع الصدق وضرر الكذب على المكلف ولكن ليت شعري من اين يلزم ان يكون هذان الضدان بالنسبة الى المكلف على وتيرة واحدة وهل هذا الا مجرد تحكم ودعوى باطلة

الوجه الثامن انه لا يلزم من كون الحكيم لا يتضرر بالقبيح ولا ينتفع بالحسن ان لا يحب هذا وان يبغض هذا بل يكون نسبتهما اليه نسبة واحدة بل الامر بالعكس وهو انه لكماله يبغض القبيح وان لم يتضرر به ويحب الحسن وان لم ينتفع به وحينئذ فنقلب هذا الكلام عليكم ونكون اسعد به منكم فنقول لو تقرر عند النافي ان الله تعالى حكيم عليم يضع الاشياء مواضعها وينزلها منازلها العلم ان الكذب

اعني الصدق والكذب بالنسبة الى شرعه وتكليفه متباينان غاية التباين متضادان وانه يستحيل في حكمته التسوية بينهما وان يكونا على وتيرة واحدة ومعلوم ان هذا هو المعقول وما ذكرتموه خارج عن المعقول

الوجه التاسع قولكم ان الصدق والكذب على حقيقة ذاتية وان الحسن والقبح غير داخلين في صفاتهما الذاتية ولا يلزمهما في الوهم بالبديهة ولا في الوجود ضرورة جوابه انكم ان اردتم ان الحسن والقبح لا يدخل في مسمى الصدق والكذب فمسلم ولكن لا يفيدكم شيئًا فان غايته انما يدل على تغاير المفهومين وكان ماذا وان اردتم ان ذات الصدق والكذب لا تقتضي الحسن والقبح ولا يلزمهما فهل هذا الا مجرد المذهب ونفس الدعوى وهو مصادرة على المطلوب وخصومكم يقولون ان معنى كونهما ذاتيين للصدق والكذب ان ذات الصدق والكذب تقتضي الحسن والقبح وليس مرادهم ان الحسن والقبح صفة داخلة في مسمى الصدق والكذب وانتم لم تبطلوا هذا

الوجه العاشر قولكم ولا يلزمهما في الوهم بالبديهة ولا في الوجود دعوى مجردة كيف وقد علم بطلانها بالبديهة والضرورة

الوجه الحادي عشر قولكم ان من الاخبار التي هي صادقة ما يلام عليه مثل الدلالة على من هرب من ظالم ومن الاخبار التي هي كاذبة ما يثاب عليها مثل انكار الدلالة عليه فلم يدخل كون الكذب قبيحًا في حد الكذب ولا لازمه في الوهم ولا في الوجود فلا يجوز ان يعد من الصفات الذاتية التي يلزم النفس وجودًا وعدمًا جوابه من وجوه احدها انا لا نسلم ان الصدق يقبح في حال ولا ان الكذب يحسن في حال ابدًا ولا سلب ذاته وانما يحسن اللوم على المخبر الصادق وهو حيث لم يعرض المخبر ولم يور بما يقتضي سلامة النبي والولي

الوجه الثاني انه اخبر بما لا يجوز له الاخبار به لاستلزامه مفسدة راجحة ولا يقتضي هذا كون الصدق قبيحًا بل الاخبار بالصدق هو القبيح وفرق بين النسبة المطابقة التي هي صدق وبين الاعلام بها فالقبح انما نشأ من الاعلام بالنسبة الصادقة والاعلام غير ذاتي للخبر ولا داخل في حد الخبر غير الاخبار ولا يلزم من كون الاخبار قبيحًا ان يكون الخبر قبيحًا وهذه الدقيقة غفل عنها الطائفتان كلاهما

الوجه الثالث ان قبح الصدق وحسن الكذب المذكورين في بعض المواضع لمعارضة مصلحة او مفسدة راجحة لا ينفي عدم اتصاف ذات كل منهما بحكم عقلًا فان العلل العقلية والاوصاف الذاتية المقتضية لاحكامها قد يتخلف عنها اقتضاؤها لفوات شرط او قيام مانع ولا يوجب ذلك سلب اقتضائها لاحكامها عند عدم المانع وقيام الشرط وقد تقدم تقرير ذلك

الوجه الثاني عشر قولكم انه لم يبق للمتنبه المسترواح الى عادات الناس من تسمية ما يضرهم قبيحًا وما ينفعهم حسنًا كلام باطل فان استرواحهم

الجاري كتبه الله في عقولهم وفطرهم وبعث رسله بتقريره وتكميله من استحسان الحسن واستقباح القبيح
الوجه الثالث عشر قولكم انها تختلف بعادة قوم وزمان دون زمان ومكان دون مكان
واضافة دون اضافة فقد تقدم ان هذا الاختلاف لا يخرج هذه القبائح والمستحسنات عن كون
الحسن والقبح ناشئا من ذواتها وان الزمان المعين والمكان المخصوص والشخص والعامل من الاضافة شروط
لهذه الاقتضاء على حد اقتضاء الاغذية والادوية والمساكن والملابس اثارها فان اختلافها
بالازمنة والامكنة والاشخاص والاضافات لا يخرجها عن الاقتضاء الذاتي ونحن لا نعني بكون الحسن والقبح
ذاتيين الا هذا والمشاحة في الاصطلاحات لا تنفع طالب الحق ولا تجدي عليه الا المماكسة والتعنت
فلم تعدوا وسد ولد الذاتي وعين الذاتي سموا هذا المعنى بما شئتم ثم ان امكنكم ابطاله فابطلوه
الوجه الرابع عشر قولكم نحن لا ننكر اشتهار القضايا الحسنة والقبيحة بين الخلق وكونها
محمودة مثنيا بها على فاعلها او مذموما ولكن سندها اما الدين بالشرائع واما الاغراض ونحن انما
ننكرها في حق الله عز وجل لانتفاء الاغراض عنه فهذا معترك القول في الفرق في هذه المسئلة
وعندها فنقول ثم ما تعنون بانتفاء الاغراض التي نفيتموها عن الله عز وجل ونفيتم
لاجلها حسن اوامره الذاتية وقبح نواهيه الذاتية وزعمتم لاجلها انه لا فرق عنده بين مذمومها
ومحمودها وانهما بالنسبة اليه سواء فاخبروا واعن مرادكم بهذه اللفظة البدعية المجملة اتعنون
بها الحكم والمصالح والعواقب الحميدة والغايات المحبوبة التي يفعل ويامر لاجلها ام تعنون بها امرا وراء
ذلك يجب تنزيه الرب تعالى عنه كما يشعر به لفظ الاغراض من الارادات الفاسدة والامور التي يكون
الفاعل محتاجا اليها مستفيدا لها من غيره ام ماذا تعنون بالاغراض فان اردتم المعنى الاول
فنفيكم اياه عن احكم الحاكمين مذهب لكم خالفتم به صريح المنقول وصريح المعقول وانتم ملاحدة القدرية
العقول انه فعل فاعلا حكيما مختارا لا لحكمة ولا لمصلحة ولا لغاية محمودة ولا لعاقبة مطلوبة بل الفعل وعدمه
بالنسبة اليه سيان وقد علمتم ما شهد به النظر والعقول وبه نطق التنزيل والاعتبار وقد قررنا من ذكر
الحكم الباهرة في الخلق والامر ما يقر به عين كل طالب للحق وههنا من ادلة اثبات الحكم المقصودة بالخلق
والامر اضعاف اضعاف ما ذكرنا بل لا نسبة لما ذكرناه الى ما تركناه وكيف يمكن انكار ذلك والحكمة في
خلق العالم واجزائه ظاهرة لمن تامله بادية لمن ابصرها وقد رقمت سطورها على صفحات
المخلوقات يقراها كل عاقل كاتب وغير كاتب نصبت شاهدة لله تعالى بالوحدانية والربوبية
والعلم والحكمة واللطف والخبرة ٥

تامل سطور

تامل سطور الكائنات فانها ... من الملأ الاعلى اليك رسائل
وقد خط فيها لو تاملت خطها ... الا كل شيء ما خلا الله باطل

واما النصوص على ذلك فمن طلبها بهرته كثرتها وتطابقها ولعلها ان تزيد على المئين وتحيله انتفاء الحكمة
الله تعالى الى انتفائها يستلزم انتفاء اسمه واستدلالا بغير شيء هوس ووساوس فان هذا بعينه وارد عليهم
في اصل الفعل وايضا فهذا انما هو كمال للصنع استدل بالصنع وايضا فانه سبحانه فعاله عن كماله فانه
كمل فعل لان كماله عن فعاله فلا يقال فعل فكمل كما يقال للمخلوق وايضا فانه مصدر الحكمة ومتعلقها
واشباهها عنه سبحانه فهو الخالق وهو الحكيم وهو الغني من كل وجه اكمل الغنى واتمه وكمال الغنى والحمد
كمال القدرة والحكمة والمحال ان يكون سبحانه وتعالى مفتقرا الى غيره فاما اذا كان كل شيء فهو مفتقر
اليه من كل وجه وهو الغني المطلق عن كل شيء فاي تجدد في اثبات حكمة مع احتياج مجموع العالم
وكل ما يقدر معه اليه غيره هل الغنى الا ذلك ولله تعالى في كل شيء من صنائعه وامره وشرائعه
حكمة باهرة واية ظاهرة تدل على وحدانيته وحكمته وعلمه وغناه وقيوميته وملكه لا ينكرها الا
العقول الخفيفة ولا تنبو عنها الا الفطر المنكوسة ٥

وفي كل تسكينة وتحريكة ابدا شاهد
وفي كل شيء له اية تدل على انه واحد

وبالجملة فنحن لا ننكر حكمة الله تعالى ونساعدكم على جحدها لتسميتكم اياها اعراضا واخراجكم لها
في هذا القالب فالحق لا ينكر لسوء التعبير عنه وهذا اللفظ بدعي لم يرد به كتاب ولا سنة ولا
اطلقه احد من ائمة الاسلام واتباعهم على الله وقد قال الامام احمد رضي الله عنه لا نزيل عن الله
صفة من صفاته لاجل شناعة المشنعين فهل ينكر صفات كماله سبحانه لاجل تسمية المعطلة والجهمية
لها اعراضا ولارباب المقالات اغراض في سوء التعبير عن مقالات خصومهم وتخيرهم لها اقبح الالفاظ ظ
وحسن التعبير عن مقالات اصحابهم وتخيرهم لها احسن الالفاظ واتباعهم محبوسون في قيود تلك
العبارات ليس معهم في الحقيقة سواها بل ليس مع المتبوعين غيرها وصاحب البصيرة لا تهوله تلك
العبارات الهائلة بل يجرد المعنى عنها ولا يكسوه عبارة منها ثم يحمله على محك الدليل السالم عن المعارض
فحينئذ يتبين له الحق من الباطل والحالي من العاطل الوجه الخامس عشر قولكم
مستند الاستحسان والاستقباح الدين بالشرائع فيقال لا ريب ان الدين بالشرائع يفيد الاستحسان ن
والاستقباح ولكن الشرائع انما جاءت بتكميل الفطر وتقريرها لا بتحويلها وتغييرها فما كان في الفطر

مستحسنا جاءت الشريعة باستحسانه فكسته حسنا الى حسنه فصار حسنا من الجهتين وما كان في الفطر
مستقبحا جاءت باستقباحه فكسته قبحا الى قبحه فصار قبيحا من الجهتين وايضا فهذا العقلاء يستحسنه
ومستقبحه عند من لم تبلغه دعوة ولم يقر بنبوة وايضا فمجيء الرسول بالامر بحسنه والنهي عن قبيحه دليل
على نبوته وعلم على رسالته كما قال بعض الصحابة رضي الله عنهم وقد سئل عما اوجب اسلامه فقال ما امر
به فلو كان الحسن والقبح العقلي لم يكن مركوزا في الفطر والعقول لم يكن ما امر به الرسول ونهى عنه علما من
اعلام صدقه ومعلوم ان شرعه ودينه عند الخاصة من اكبر اعلام صدقه وشواهد نبوته كما تقدم
الوجه السادس عشر قولكم في منارات الغلط التي تخلط الوهم فيها انها ثلاث منارات الاولى
ان الانسان يطلق اسم القبح على ما يخالف غرضه وان كان يوافق غرض غيره من حيث انه لا يلتفت الى
الغير فان كل طبع مشغوف بنفسه فيقضي بالقبح مطلقا واخطا في اضافة القبح الى ذات الشيء وغفل عن كونه
قبيحا لمخالفة غرضه واخطا في حكمه بالقبح مطلقا ومنشاؤه عدم الالتفات الى غيره فجواب هذا من وجهين
احدهما ان انما قضى بالحسن والقبح لموافقة غرضه ومخالفته الثاني ان هذه الموافقة
والمخالفة ليست عامة في حق كل شخص وزمان ومكان بل ولا في جميع احوال الشخص هذا حاصل ما
طولتم به فيقال لا ريب ان الحسن يوافق الغرض والقبح يخالفه لكن موافقة هذا ومخالفة هذا
هي لما قام بكل واحد من الصفات التي اوجبت الموافقة والمخالفة اذ لو كانا سواء في نفس الامر وذاتيهما لم
يسم حسنا ولا قبحا ولم يختص احدهما بالموافقة والاخر بالمخالفة ولم يكن احدهما بما اختص به اولى من العكس
فما الجاتم اليه من موافقة الغرض ومخالفته من اكبر الادلة على ان ذات الفعل متصفة بما لاجله وافق الغرض
وخالفه وهذا كموافقة الغرض ومخالفته في الطعوم والاغذية والروائح فان ما لايم منها الانسان
ووافقه مخالف بالذات والوصف لما نافره منها وخالفه ولم يكن تلك الملايمة والمنافرة لمجرد
العادة بل لما قام بالملايم والمنافر من الصفات ففي الخبز والماء واللحم والفاكهة من الصفات التي اقتضت
ملايمتها للانسان ما ليس في التراب والحجر والقصب والعصف وغيرها ومن سوى بين الامرين فقد كابر
حسه وعقله فهكذا ما يلايم العقول والفطر من الاعمال والاحوال وما خالفها هو لما قام بكل منهما من
الصفات التي اختصت به فاوجب الملايمة والمنافرة فملايمة العدل والاحسان والبر للعقول والفطر
والحيوان لما اختصت به ذوات هذه الافعال من امور ليست في الظلم والاساءة وليست هذه الملايمة
والمنافرة لمجرد العادة والتربية على الشرائع بل هي امور ذاتية لهذه الافعال ونسبتها مما لا ينكره
العقل بعد تصوره الوجه السابع انا لا ننكر ان للعادة واختلاف الزمان

والمكان

والمكان والاضافة والحال تاثيرا في الملايمة والمنافرة ولا ننكر ان الانسان يلايم ما اعتاده من
الاغذية والمساكن والملابس وينافر ما لم يعتده منها وان كان اشرف منها وافضل ومن هذا الف
الاوطان وحب المساكن والحنين اليها ولكن هل يلزم من هذا ان يكون الملايمة والمنافرة كلها ترجع الى
الالف والعادة المجردة ومعلوم ان هذا مما لا سبيل اليه اذ الحكم على فرد جزئي من افراد
النوع لا يقتضي الحكم على جميع النوع واستلزام الفرد المعين من النوع اللازم معين لا
يقتضي استلزام النوع له وثبوت خاصية معينة للفرد الجزئي لا يقتضي ثبوتها للنوع الكلي ٥
الوجه التاسع عشر ان غاية ما ذكرتم من خطا الوهم في اعتقاده اضافة القبح الى ذات
الفعل وحكمه بالاستقباح مطلقا مما قد يعرض في بعض الافعال فهل يلزم من ذلك انه حيث قضى
بهاتين القضيتين يكون غالطا بالنسبة الى كل فعل ونحن انما علمنا غلطه فيما غلط فيه لقيام
الدليل العقلي على غلطه فاما اذا كان الدليل العقلي مطابقا لحكمه فمن اين لكم الحكم بغلطه فان قلتم
اذا ثبت غلطه في حكم ما لم يكن حكمه مقبولا اذ لا ثقة بحكمه قلنا اذا جوزتم ان يكون في الفطرة
حاكمان حاكم الوهم وحاكم العقل ونسبتم حكم العقل الى حكم الوهم وقلتم في بعض القضايا
التي يحكم بها العقل هي من حكم الوهم لم يمكنكم وثوق بالقضايا التي يحكم بها العقل ويحكم بها للاحتمال
ان يكون مستندها حكم الوهم لا حكم العقل فلا بد لكم من التفريق بينهما ولا بد للتفريق ان يكون بقضايا
ضرورية ابتداء وانتهاء واذا جوزتم ان يكون بعض القضايا الضرورية وهمية لم يمكنكم طريق الى
التفريق ٥ الوجه العشرون ان هذا الذي فرضتموه فيمن يستقبح شيئا لمخالفة
غرضه ويستحسنه لموافقة غرضه او بالعكس انما نورده الحسان غالبا كالماكل والملابس والمساكن
والمناكح فانها بحسب الدواعي والميول والعوائد والمناسبات فهذا انما يكون في الحركات واما الكليات
العقلية فلا يكاد يعرض فيها ذلك فلا يكون العدل والصدق والاحسان حسنا عند بعض العقول
قبيحا عند بعضها كما يكون اللون الاسود مشتهى حسنا موافقا لبعض الناس مبغوضا مستقبحا ٥
لبعضهم ومن اعتبر هذا بهذا فقد خرج واعتبر التي لا يصح اعتباره ويؤيد هذا الوجه
الحادي والعشرون ان العقل اذا حكم بقبح الكذب والظلم والفواحش فانه لا يختلف حكمه بذلك في
حق نفسه ولا غيره بل يعلم ان كل يستقبحها وان كان يرتكبها لحاجته او جهله نحو ما اصاب في استقباحها
اصاب في نسبة القبح الى ذاتها واصاب في حكمه بقبحها مطلقا ومن غلط في بعض هذه الاحكام فهو الغالط
عليه وهذا بخلاف ما اذا حكم باستحسان مطعم او ملبس او مسكن او لون فانه يعلم ان غيره يحكم باستحسان

لعله نورد

جها

غيره وان هذا مما يختلف باختلاف العوائد والامم والاشخاص فلا يحكم به حكما كليا الحديث يعلم انه
لا يختلف كما يحكم حكما كليا بان كل ظمآن يستحسن منه شرب الماء ما لم يمنع منه مانع وكل مضرور يستحسن
مباشرة ما ينفعه دونه ما لم يمنع منه مانع وكذلك كل جائع يستحسن ما يدفع به سورة الجوع فهذا حكم كلي
في هذه الامور المحسوسة لا غلط فيه ومن قوي المحسوسات عنده لا يختلف الناس في استحسانها
واستقباحها بحسب الاعراض والعوائد والالف فما الظن بالامور الكلية العقلية التي لا تختلف انما
هي من ذاتيات **الوجه الثاني والعشرون** قولكم من مثارات الغلط انما هو مخالف للعرض
في جميع الاحوال الا في حالة نادرة بل لا يلتفت الوهم الى تلك الحالة النادرة بل لا يخطر بالبال
فيقضي بالقبح مطلقا لاستيلاء قبحه على قلبه وذهاب الحالة النادرة عن ذكره فيحكم على الكذب بانه قبيح
مطلقا وغفلته عن الكذب الذي يستفاد به عصمة نبي او ولي واذا قضى بالقبح مطلقا واستمر عليه مرة وتكرر
ذلك على سمعه ولسانه انغرس في قلبه استقباح مستقر الى اخر فيضمونه بعد الاطالة انه لو كان الكذب
قبيحا لذاته لما تخلف عنه القبح ولكنه يتخلف اذا تضمن عصمة دم نبي فهذه الحالة ونحوها لا يكون قبيحا صح
وهي حالة نادرة لا يكاد يخطر بالبال فيقضي العقل بقبح الكذب مطلقا ويغفل عن هذه الحالة وهي ساقطة في
حكمه بقبحه مطلقا ثم يرسل ويسترسل على ذلك الاعتقاد فيظن ان قبحه لذاته مطلقا وليس كذلك وهذا
بعد تسليمه لا يمنع كونه قبيحا لذاته وان تخلف القبح عنه لمعارض راجح كما ان الغذاء بالميتة والدم ولحم الخنزير
يوجب ضررا وخبثا وان تخلف عنه ذلك عند المخمصة حيث وقد بينا ان القبح لا يتخلف عن الكذب اصلا واما اذا
تضمن عصمة ولي فالحسن انما هو التعريض والصدق لا يقبح ابدا وانما القبيح الاعلام به ويفرق بين الخبر
والاخبار فالقبح انما وقع في الاخبار لا في الخبر ولو سلمنا ذلك كله فتخلف الحكم العقلي لقيام مانع او لفوات
شرط غير مستنكر فهذه الشبهة من اضعف الشبه وحسبك ضعفا بحكم انما تستند اليها والى امثالها
الوجه الثالث والعشرون ان الوهم قد يسبق الى العكس فيرى شيئا مقرونا بشيء فيظن
انه لا محالة مقرون به مطلقا ولا يدري ان الاخص ابدا مقرون بالاعم من غير عكس وتمثيلكم ذلك
بنفرة السليم من الحبل المرقش ونفرة الطبع عن العسل اذا شبه بالعذرة الى اخر ما ذكرتم من الامثال
كنفرة الطبع عن الحسناء ذات الاسم القبيح ونفرة الرجل عن البيت الذي فيه الميت ونفرة كثير من الناس
عن اقوال الصحابة الحاضرة الى من يسوء الظن بهم فهي ليست الا بتلاوة الوهم ما يؤثر في النفوس في الحب
والبغض بل هو غالب على اكثر النفوس في اكثر الاحوال ولكن اذا سلط عليه العقل الصريح تبين
غلطه وانما حكم به هو موهوم لا معقول كما اذا سلط العقل الصريح والحس على الحبل المرقش تبين

ان نفرة

ان نفرة الطبع عنه مستندها الوهم الباطل وكذلك اذا سلط الذوق والعقل على العسل تبين
ان نفرة الطبع عنه مستندها الوهم الكاذب واذا تامل الطرف محاسن الحسناء البديعة الجمال تبين
ان النفرة عنها لقبح اسمها وهم فاسد واذا سلط العقل الصريح على الميت تبين ان نفرة الرجل عنه
لتوهم حركته وثورانه خيال باطل ووهم فاسد وهكذا نظائر ذلك افترى يلزم من هذا انا اذا
سلطنا العقل الصريح على الكذب والظلم والفواحش والاساءة الى الناس واهانة النعم وضرب الوالدين
والمبالغة في اهانتهما وشتمهما وامثال ذلك تبين ان الحكم بقبحها وهم منشؤه لا يكون نظير ما ذكرتم من
الامثلة وهل في الاعتبار افسد من اعتباركم هذا فان الحكم فيما ذكرتم قد تبين بالعقل الصريح والحس
انه حكم وهمي ونحن لا ننازع فيه ولا عاقل لانا لما سلطنا عليه العقل والحس ظهر ان مستنده الوهم
واما في القضايا التي هي في العقول والفطر حسنها وقبحها فاذا سلطنا العقل الصريح عليها لم
يحكم لها بخلاف ما هي عليه ابدا الا ان يجاوز الى دبوس الشلاق وهو الصدق المتضمن هلاك ولي
والكذب المتضمن عصمته وليس معكم ما تصولون به سواه وقد بينا حقيقة الامر فيه بما فيه كفاية
وحتى لو كان الامر فيهما كما ذكرتم قطعا لم يمكن ان يبطل بهما ما ركبه الله في العقول والفطر ولزمها اياه
الزاما لا انفكاك لها عنه من استحسان الحسن واستقباح القبيح والحكم بقبحه والتفرقة العقلية
التابعة لذواتهما واوصافهما بينهما وقد انكر الله سبحانه على العقول التي جوزت ان يجعل الله فاعل
القبيح وفاعل الحسن سواء ونزه نفسه سبحانه عن هذا الظن وعن نسبة هذا الحكم الباطل اليه ولولا
ان ذلك قبيح عقلا لما انكره على العقول التي جوزته فان الانكار انما كان يتوجه عليهم بمجرد الشرع
والخبر بانه ليس ما ظنوه عقلا ولا يقال فلو كان هذا الحكم باطلا قطعا لما جوزته اولئك العقلاء
لان هذا احتجاج بعقول اهل الشرك الفاسدة التي عابها الله وشهد عليهم بانهم لا يعقلون
وشهدوا على انفسهم بانهم لو كانوا يسمعون او يعقلون ما كانوا في اصحاب السعير وهل يقال ان استحسان
عبادة الاصنام بعقولهم واستحسان التثليث والسجود للقمر وعبادة النار وتعظيم الصليب يدل على
حسنها لاستحسان بعض العقلاء لها فان قيل فهذا حجة عليكم فان عقول هؤلاء قد قضت
بحسنها وهي اقبح القبائح قيل ما مثلنا ومثلكم الا مثل رجل قال اذا كان الاحول يرى القمر
اثنين لم يبق لنا وثوق برؤية الصحيح العين له واحدا واذا كان المحرور يجد طعم الماء العذب
والعسل مرا لم يبق لنا وثوق بكون صحيح الذوق يدركه عذبا وحلوا واذا كان صاحب الفهم السقيم يعيب
القول الصحيح ويشهد ببطلانه لم يبق لنا وثوق بشهادة صاحب الفهم المستقيم بصحته الى امثال ذلك

فاذا كانت فطرة ابن آدم وشرذمة من الناس وعقولهم قد فسدت فهل يلزم من هذا ابطال شهادة العقول
السليمة والفطر المستقيمة ولو صح لكم هذا الاعتراض لبطل استدلالكم على كل منازع لكم في كل مسألة فانه
عاقل وقد شهد عقله بما يخالف قولكم وفي هذا افساد العقول وابطالها وفي رد العقول وسائر العقلاء
لله والحمد لله رب العالمين **الوجه الرابع والعشرون** قولكم ان الملك العظيم اذا
راى مشرفا على الهلاك استحسن انقاذه والسبب في ذلك دفع الاذى الذي يلحق الانسان من رقة
الجنسية وهو طبع يستحيل الانفكاك عنه الى آخره كلام في غاية الفساد فان مضمونه ان هذا الاحسان
العظيم والبر الجليل من مثل هذا الملك العادل الى الحيوان المجهود المضرور وقد مسه الضر وتقطعت
به الاسباب وانقطعت به الحيل ليس فعلا حسنا في نفسه ولا فرق عند العقل بين ذلك وبين ان
يلقي عليه حجرا يغرقه وانما مال اليه طبعه لرقة الجنسية ولتصوير نفسه في تلك الحال واحتياجه
الى من ينقذه والا فلو جردنا النظر الى ذات الفعل وقطعناه عن لوازمه وما يقترن به ويبعث
عليه لم يقض العقل بحسنه ولم يفرق بينه وبين القاء حجر عليه حتى يغرقه هذا قول يكفي في فساده
مجرد تصوره وليس في المقدمات البديهية ما هو اجلى واوضح من كون مثل هذا الفعل حسنا لذاته
حتى يحتج بها عليه فان الاحتجاج انما يكون بالاوضح على الاخفى فاذا كان المطلوب المستدل عليه
اوضح من الدليل كان الاستدلال عناء وكلفة ولكن تصور الدعوى ومقابلتها تصورا مجردا وعرضها
على العقول التي لم يسبق اليها تقليد الآراء ولم تتواطأ عليها وتلقاها صاغر عن كابر وولد عن والد
حتى ينشأ نشوها مع نصرها بما دب ودرج من الادلة لاعتقادها ولا الحاجة في
نفسها الاستحسانها الطرق ربانها فلو تجردت من حب من ولدته وبغض من خالفته ووجدت
النظر وصادفت العلم ونابذت التشيعي ويصم والناظر بعين المبغض يعلم الحق من الباطل ولكن
حبك الشيء يعمي ويصم والناظر بعين البغض يرى المحاسن مساوي هذا في ادراك البصر
مع ظهوره ووضوحه فكيف في ادراك البصيرة لاسيما اذا صادف مشكلا فهذه بلية اكثر
العالم فان تنج منها تنج من ذي عظيمة والا فاني لا اخالك ناجيا
الوجه الخامس والعشرون ان قولكم هذه الامور التي ذكرتموها من رقة الجنسية
وتصور نفسه بصورة من يريد انقاذه ونحوها هي امور تقترن بهذا الاحسان فتقوى الباعث على فعله
ولا يوجب تجرده عن وصف يقتضي حسنه ان لا يكون ذاته مقتضية لحسنه وان لا تقترن بها عليه هذه الامور
وما مثلكم في ذلك الا كمثل من قال ان تناول الاطعمة والاغذية والادوية ليس حسنا لذاته فانه

تقترن بتناولها من لذة المرء لطعم المعدة ما يوجب نزوعها الى طلب الغذاء المناسب وكذلك
الادوية وغيرها ومعلوم ان هذه البواعث والدواعي واسباب الميول لا تنافي الاقتضاء
الذاتي وقيام الصفات التي تقتضي الاستمتاع بها فكذلك تلك البواعث والدواعي واسباب الميول
التي تحصل لفاعل الاحسان ومنقذ الغريق والحريق ونحو الهالك لا تنافي قيام علة هذه الافعال
في ذواتها من الصفات التي تقتضي حسنها وقبح اضدادها **الوجه السادس والعشرون**
قولكم انه يقدر نفسه في تلك الحال ويقدر غيره معرضا عن الانقاذ فيستقبحه منه لمخالفته
غرضه فيدفع عن نفسه ذلك القبح المتوهم فيقال هذا القبح المتوهم انما نشا عن القبح المحقق في ترك
الاحسان اليه مع القدرة عليه وعدم تضرره به فالقبح محقق في ترك انقاذه ومتوهم في
تصوير نفسه بتلك الحال وعدم انقاذ غيره له فلولا تلك الحقيقة لم يحكم العقل بهذا القبح
الموهوم وكون الانقاذ موافقا للغرض وتركه مخالفا له لا ينفي ان يكون في ذاته حسنا وقبيحا
ملائما وافق الغرض وخالفه لما اتصف به ذاته من الصفات المقتضية لهذه الموافقة والمخالفة
الوجه السابع والعشرون قولكم فلو فرض هذا في بهيمة او شخص لا رقة فيه فيبقى
امر اخر وهو طلب الثناء على احسانه فيقال طلب الثناء يقتضي ان هذا الفعل مما يتعلق الثناء به
وما ذاك الا انه في نفسه على صفة تقتضي الثناء على فاعله لو كان هذا الفعل مساويا للعدم في
نفس الامر لم يتعلق الثناء به والذم بضده وفعله لتوقع الثناء لا ينفي ان يكون على صفة لاجلها
استحق الثناء بل هو مما يقتضي ذلك او الحسن نفسه **الوجه الثامن والعشرون** قولكم فان
فرض في موضع يستحيل ان يعلم به فيبقى ميل وترجيح يضاهي نفرة طبع السليم عن الحبل وذلك انه راى
هذه الصورة يقترنونها بالثناء فيظن ان الثناء مقرون بها بكل حال كما انه لما راى الاذى
مقرونا بصورة الحبل وطبعه ينفر عن الاذى فينفر عن المقرون به فالمقرون باللذيذ لذيذ
والمقرون بالمكروه مكروه فيقال يا عجبا كيف يرد اعظم الاحسان الذي فطر الله عقول
عباده وفطرهم على استحسانه حتى لو تصور نطق الحيوان البهيم لشهد باستحسانه الى مجرد
وهم وخيال فاشد شبهه بنفرة طبع الرجل السليم عن حبل مبرقش ما اعجب تحمل نصر
الآراء المتغلبة وبغض مخالفيها على امثال هذه النسب وهل سوى الله سبحانه في العقول والفطر
بين انقاذ الحريق والغريق وتخليص الاسير من عدوه واحياء النفوس وبين نفرة طبع السليم
عن حبل مرقش لتوهمه انه حية وقد كان تجرد تصور هذه النسبة كافيا في العلم ببطلانها ولكنا

زدنا الامر ايضاحا وبيانا ٥ **الوجه التاسع والعشرون** قولكم الانسان اذا جالس من عشقه في مكان فاذا انتهى اليه احس في نفسه تفرقة بين ذلك المكان وغيره واستشهادكم على ذلك بقول الشاعر امر على الديار وقوله وحبب اوطان الرجال اليهم فيقال لا ريب ان الامر هكذا ولكن هل يلزم من هذا استواء الصدق والكذب في نفس الامر فاستووا العدل والظلم والبر والفجور والاحسان والاساءة بل هذا المثال نفسه حجة عليكم فانه لم يمل طبعه الى ذلك المكان مع مساواته لجميع الامكنة عنده وكذلك حنينه الى وطنه ومحبته له وكذلك حنينه الى الالفة من الناس وغيرهم فان هذا لا يقع منه مع تساوي تلك الاماكن والاشخاص عنده بل لظنه اختصاصها بامور لا توجد في سواها فترتب ذلك الحب والميل على هذا الظن ثم له حالان احدهما ان يكون كما ظنه بان في ذلك المكان او الشخص منا ولغيره وربما يكون غيره اكمل منه في الاوصاف التي تقتضي حبه والميل اليه فهذا اذا تسلط العقل والحس على تبين حاله وجده علم انه مجرد الف وعادة او تذكر او تخيل وهذا الوهم مستند الى تقرير العقل من ان اختصاص الحب والميل بالشيء دون غيره لما اختص به من الصفات التي اقتضت ذلك وكذلك تعلق البغض والنفرة به ثم يغلط الوهم في تخيل تلك الصفات بانها في المحل وليست منه بل يكون المحل مقارنا لكامل تلك الصفات فيحب ويبغض لاجل تلك المقارنة فمقارن المحبوب محبوب ومقارن المكروه مكروه ٥ **قوله**

وما حب الديار شغفن قلبي ولكن حب من سكن الديارا

وقول الآخر

اذا ذكروا اوطانهم ذكرتهم عهودا جرت فيها فحنوا لذالكا

الوجه الثلاثون قولكم ان الصبر على السيف في ترك كلمة الكفر لا يستحسنه العقلاء لولا الشرع بل ربما استقبحوه وانما يستحسن للثواب او الثناء بالشجاعة وكذلك بالصبر على حفظ السر والوفاء بالعهد لما في ذلك من المصالح فان فرض حيث لا ثناء فقد وجد مقرونا بالثناء فيبقى ميل الوهم للمقرون فيقال ثم استحسان الشرع له مطابق لاستحسان العقل لا مخالف وذلك انتظار الواجب به هو لحسنه في نفسه وذلك المصالح المترتبة على حفظ السر والوفاء بالعهد بين لما قام بذوات هذه الافعال من الصفات التي اوجبت المصالح اذ لو ساوت غيرها لم يكن مقتضيا للمصلحة اولى منه وقولكم انه اذا فرض حيث لا ثناء بقي ميل الوهم للمقارنة فقد تقدم ان هذا الميل تبع للحقيقة وانه يستحيل وجوده في فعل لا يقتضي ذاته المصلحة والاستحسان وان حصول الوهم المقارن تبع للحقيقة الثابتة لاستحالة حصول

هذا الوهم في فعل لا يكون ذاته منشأ للامر الموهوم فيتوهم الذهن بحيث يعطي الحقيقة ٥ **الوجه الحادي والثلاثون** قولكم ان من عرضت له حاجة والمقتضيان الصدق والكذب فانه انما يؤثر الصدق لما وجده مقرونا بالثناء فهو يؤثره لما يقترن به من الثناء الجواب ايضا ما تقدم وان اقترانه بالثناء لما اختص به من الصفات التي اقتضت الثناء على فاعله كما ان الكذب متضمن لفساد نظام العالم ولا يمكن قيام العالم عليه لا في معاشهم ولا في معادهم بل هو متضمن لفساد المعاش والمعاد ومفاسد الكذب اللازمة له معلومة عند خاصة الناس وعامتهم كيف وهو منشأ كل شر وفساد وشر الاعضاء لسان كذوب وكم قد زالت بالكذب من دول وممالك وخربت به من بلاد واستلبت به من نعم وتعطلت به من معايش وفسدت به مصالح وغرست به عداوات وقطعت به مودات وافتقر به غني وذل به عزيز وهتكت به مصونة ورميت به محصنة وخلت به دور وقصور وعمرت به قبور وازيل به انس واستجلبت به وحشة وافسد بين الابن وابيه وغاض بين الاخ واخيه واحال الصديق عدوا مبينا ورد الغني العزيز ذليلا مسكينا وكم فرق بين الحبيب وحبيبه فافسد عليه عيشه ونغص عليه حياته وكم جلا عن الاوطان وكم سود من وجوه وطمس من نور واعمى من بصيرة وافسد من عقل وغير من فطرة وجلب من معرة وقطعت به السبل وعفت به من معالم الهداية ودرست به من آثار النبوة وخفيت به من طرق الرشاد وتعطلت به من مصالح العباد في المعاش والمعاد وهذا واضعافه ذرة من مفاسده وجناح بعوضة من مضاره ومصالحه والا فما يحله من غضب الرحمن وحرمان الجنان وحلول دار الهوان اعظم من ذلك وهل ملئت الجحيم الا باهل الكذب الكاذبين على الله وعلى رسوله وعلى دينه وعلى اوليائه المكذبين بالحق حمية وعصبية جاهلية وهل عمرت الجنان الا باهل الصدق الصادقين المصدقين بالحق قال تعالى فمن اظلم ممن كذب على الله وكذب بالصدق اذ جاءه اليس في جهنم مثوى للكافرين والذي جاء بالصدق وصدق به اولئك هم المتقون لهم ما يشاؤون عند ربهم ذلك جزاء المحسنين واذا كانت هذه حال الكذب والصدق فاعلم من ابطل الباطل دعوى تساويهما في العقل وانما يؤثر الصدق لتوهم اقترانه بالثناء وانما يجتنب الكذب لتوهم اقترانه بالقبح لتوهم اقتران اللسع في الحبل المرقش وما استقباح هذه المفاسد والقبائح التي لا اقبح منها الا لمجرد وهم باطل تشبه نفرة الطبع عن الحبل المرقش وتفسير العلم بهذه المقالة كاف في الجزم ببطلانها ولو ذهبنا نعدد قبائح الكذب الناشئة من ذاته وصفاته لزادت على الالف وما من عاقل الا وعنده العلم ببعض ذلك علما ضروريا من نور فطرته فما سوى الله بينه وبين

الصدق ابداً ودعوى استوائهما كدعوى استواء النور والظلمة والكفر والايمان وخراب العالم
وهلاك الحرث والنسل وعمارته بل كدعوى استواء الجوع والشبع والري والظمأ والفرح والغم
ولا فرق عند العاقل بين علم هذا وهذا **الوجه الثاني والثلاثون** قولكم الصدق
والكذب متنافيان ومن المحال تساوي المتنافيين في جميع الصفات الى اخره اقرار منكم بالحق ونقض
لما اصلتموه فانهما اذا كانا متنافيين ذاتاً ووصفاً لم يرجع الفرق بينهما استحساناً واستقباحاً الى
مجرد العادة والمنشأ والمربى ومجرد الدين والشرائع بل يكون مرجع الفرق الى ذاتيهما وان ذات
هذا مقتضية لحسنه وذات هذا مقتضية لقبحه وهذا هو عين الصواب لولا انكم لا تثبتون عليه
وتصرحون بان الفرق بينهما سببه العادة والتربية والمنشأ والدين وشرائع الانبياء حتى
لو فرض انتفاء ذلك لم يؤثر الرجل الصدق على الكذب وهل هذا الا تناقض قبيح من هذا **الوجه**
الثالث والثلاثون قولكم ان غاية هذا ان يدل على قبح الكذب وحسن الصدق شاهداً والملزم
منه حسنه وقبحه غائباً الا بطريق قياس الغائب على الشاهد وهو باطل لوضوح الفرق واستناده
في الفرق الجلي الى ما هو من تخليه الله عن عباده بموج بعضهم في بعض ظلماً وافساداً ونحو ذلك شاهد
فيا لله العجب كيف يجوز للعقل التزام مذهب يلزم معه جواز الكذب على رب العالمين واصدق الصادقين
وانه لا فرق اصلاً بالنسبة اليه بين الصدق والكذب بل جواز الكذب عليه سبحانه وتعالى عما يقولون
علواً كبيراً كجواز الصدق وحسنه كحسنه وهل هذا الا من اعظم الافك والباطل ونسبته الى القدير
جواز التنسبه ما لا يليق بجلاله اليه من الولد والزوجة والشريك بل نسبة انواع الظلم والشر اليه
جوازاً تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً فمن اصدق من الله حديثاً ومن اصدق من الله قيلا وهل هذا الا
افك المفتري الرافع للوثوق باخباره ووعده ووعيده ويجوز عليه وعلى كلامه ما هو من اقبح القبائح
التي يتنزه عنها بعض عبيده ولا يليق به فضلاً عنه سبحانه فلو التزمتم كل ما الزم بلزوم نفي الحسن والقبح
العقليين لكان اسهل من التزام هذا الكفر الذي تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الارض وتخر الجبال
هداً ولا نسبة في القبح بين الولد والشريك والزوجة وبين الكذب ولهذا فطر الله عقول
عباده على الازراء والذم والمقت للكاذب دون من له زوجة وولد وشريك فتنزه اصدق
الصادقين عن هذا القبح كتنزهه عن الولد والشريك والزوجة بل لا يعرف احد من طوائف العالم
جوز الكذب على الله لما فطر الله عقول البشر وغيرهم على قبحه ومقت فاعله وخسته ودناءته ونسب
اليه طوائف المشركين الشريك والولد لما لم يكن قبحه عندهم كقبح الكذب وكفى بمذهب بطلاناً وفساداً

هذا القول العظيم والافك المبين لازمه ومع هذا فاهله لا يتحاشون من التزامه فلو التزم العاقل
ان هذا الذي كان خيراً له من هذا ونحن نستغفر الله من التقصير في رد هذا المذهب القبيح ولكن
ظهور قبحه للعقول والفطر اقوى شاهد على رده وابطاله ولقد كان يكفينا في رده نفس تصويره
وعرضه على عقول الناس وفطرهم فليتأمل اللبيب الفاضل ما يعود اليه نصر المقالات والتعصب
لها والتزام لوازمها واحسان الظن بأربابها بحيث يرى مساويهم محاسن واساءة الظن بخصومهم
بحيث يرى محاسنهم مساوي فما افسد هذا السلوك في فطرة وصاحبه من الذين يحسبون انهم
على شيء الا انهم هم الكاذبون ولا تعجب من هذا فان مرآة القلب لا تزال يتنفس فيها حتى يستحكم
صداها فليس يدع لها ان ترى الاشياء على خلاف ما هي عليها فمبدأ الهدى والفلاح
صقال تلك المرآة ومنع الهوى ان يتنفس فيها ومنع عين التعصب في اقوال من يحسن الظن بهم ان
يقبحها وفي اقوال من يسيء الظن به وقيام لله وشهادة ذلك بالقسط وان لا يحمله بغض مبارزيه
وخصومه على جحد دينهم وتقبيح محاسنهم وترك العدل فيهم فان الله تعالى لا يعبأ بمن هذا شأنه
ولا يصلح عمله شيئاً احوج ما يكون اليه والله يحب المقسطين ولا يحب الظالمين **الوجه**
الرابع والثلاثون قولكم ان مستند الحكم بقبح الكذب غائباً قياس الغائب على الشاهد
وهو فاسد فيقال الرب تعالى لا يدخل مع خلقه في قياس تمثيل ولا قياس شمول يستوي
افراده فهذان النوعان من القياس يستحيل ثبوتهما في حقه واما قياس الاولى فهو غير مستحيل في
حقه بل هو واجب له وهو مستعمل في حقه عقلاً ونقلاً اما العقل فكما استدل لنا على ان معطي
الكمال احق بالكمال فمن جعل غيره سميعاً بصيراً عالماً متكلماً حياً محسناً فهو اولى بذلك واحق
منه وثبت له من هذه الصفات اكملها واتمها وهذا مقتضى قولهم كمال المعلول مستفاد من كمال
علته ولكن نحن ننزه الله عز وجل عن اطلاق هذه العبارة في حقه بل نقول كل كمال ثبت للمخلوق
غير مستلزم للنقص فخالقه ومعطيه اياه احق به وما تنزه عنه من الكذب والظلم والسفه والعبث
بل يجب تنزيه الرب تعالى عن النقائص والعيوب مطلقاً وان لم يتنزه عنها المخلوقين وكذلك
اذا استدلينا على حكمته تعالى بهذه الطريق ان نقول اذا كان الفاعل الحكيم الذي لا يفعل فعلاً الا
لحكمة وغاية مطلوبة له من فعله اكمل ممن يفعل لا لغاية ولا لحكمة ولا لاجل عاقبة محمودة هي مطلوبة
من فعله في الشاهد ففي حقه تعالى اولى واحرى فاذا كان الفعل للحكمة كمالاً فينا فالرب تعالى اولى
واحق وكذلك اذا كان التنزه عن الظلم والكذب كمالاً في حقنا فالرب تعالى اولى واحق بالتنزه عنه

يعني الاتصاف بكل كمال يعطي الخلو عن النقص

وبهذا ونحوه ضرب الله الامثال في القرآن وذكر العقول ونبهها وارشدها الى ذلك كقوله ضرب
الله مثلاً رجلاً فيه شركاء متشاكسون ورجلاً سلماً لرجل هل يستويان مثلاً فهذا مثل ضربه سبحانه
للمشرك والموحد فهو يقول اذا كان المملوك فيه ملاك متشاكسون فيه وهم متنازعون ومملوك آخر له مالك
واحد فهل يكون هذا وهذا سواء فاذا كان هذا الشرع عندكم فمن له رب واحد ومالك واحد فكيف
ترضون ان تجعلوا لانفسكم الهة متعددة تجعلونها شركاء لله تحبونها كما تحبونه وتخافونها كما تخافونه
وترجونها كما ترجونه وكقوله واذا بشر احدهم بما ضرب للرحمن مثلاً ظل وجهه مسوداً وهو كظيم يعني
اذا كان احدكم لا يرضى ان يكون له بنت فكيف تجعلون لله ما تكرهونه لانفسكم وكقوله ضرب الله مثلاً عبداً
مملوكاً لا يقدر على شيء ومن رزقناه منا رزقاً حسناً فهو ينفق منه سراً وجهراً هل يستوون الحمد لله بل اكثرهم
لا يعلمون وضرب الله مثلاً رجلين احدهما ابكم لا يقدر على شيء وهو كل على مولاه اينما يوجهه لا يأت
بخير هل يستوي هو ومن يأمر بالعدل وهو على صراط مستقيم يعني اذا كان لا يستوي عندكم عبد مملوك
لا يقدر على شيء وحر موسع عليه ينفق مما رزقه الله فكيف تجعلون الصنم الذي هو اسوأ حالاً من
هذا العبد شريكاً له وكذلك اذا كان لا يستوي عندكم رجلان احدهما ابكم لا يعقل ولا ينطق
وهو مع ذلك عاجز لا يقدر على شيء والآخر على طريق مستقيم في اقواله وافعاله وهو آمر بالعدل عامل
به على صراط مستقيم فكيف تسوون بين الله وبين الصنم في العبادة ونظائر ذلك كثيرة في
القرآن وفي الحديث كقوله في حديث الحارث الاشعري وان الله امركم ان تعبدوه ولا
تشركوا به شيئاً وان مثل من اشرك كمثل رجل اشترى عبداً من خالص ماله ورق فقال اعمل واد الي
وكان يعمل ويؤدي الى غيره فايكم يحب شمولاً ولا تمثيلاً وانما يستعمل في حقه قياس الاولى كما تقدم

الوجه الخامس والثلاثون ان النفاة انما ردوا على خصومهم من الجهمية والمعتزلة
في انكار الصفات بقياس الغائب على الشاهد فقالوا العالم شاهداً من له العلم والمتكلم من قام به
الكلام والحي والمريد والقادر من قام به الحياة والارادة والقدرة ولا يعقل الا هذا قالوا ولان
شرط اطلاق الاسم في الشاهد الامر قامت به فكذلك في الغائب قالوا ولان علة كون العالم عالماً
شاهداً وجود العلم وقيامه به فكذلك في الغائب فقالوا بقياس الغائب على الشاهد في العلة
والشرط والحد فقالوا حد العالم شاهداً من قام به العلم فكذلك غائباً وعلة كونه عالماً شاهداً
قيام العلم به فكذلك غائباً فكيف تنكرون هنا قياس الغائب على الشاهد وتحتجون به في
مواضع اخرى واي تناقض اكبر من هذا فان كان قياس الغائب على الشاهد باطلاً بطل احتجاجكم

عليه في هذه المواضع وان كان صحيحاً بطل رده في هذا الموضع فاما ان يكون صحيحاً اذا
استدللتم به باطلاً اذا استدل به خصومكم فهذا اقبح التطفيف وفيه ما يأباه العقل والشرع

الوجه السادس والثلاثون قولكم ان الله تعالى خلى بين العباد وظلم بعضهم بعضاً
وان ذلك ليس بقبيح منه فانه قبيح منا فذلك فاسد على اصل التكليف فان التكليف انما يتم باعطاء
القدرة والاختيار والله تعالى قد اقدر عباده على الطاعات والمعاصي والصلاح والفساد وهذا
المقدار هو مناط الشرع والامر والنهي فلولاه لم يكن شرع ولا رسالة ولا ثواب ولا عقاب وكان
الناس بمنزلة الجمادات والاشجار والنبات فلو حال سبحانه بين العباد وبين القدرة على المعاصي
لارتفع الشرع والرسالة والتكليف وانتفت فوائد البعثة ولزم من ذلك لوازم لا يحبها الله
وتعطلت غايات محمودة محبوبة لله وهي ملزومة لاقدار العباد وتمكينهم من الطاعة والمعصية ووجود
الملزوم بدون اللازم محال وقد نبهنا على نحو يسير من الحكم المطلوبة والغايات المحمودة فيما سلف من
اهل الفضل وفي اول الكتاب فلو ان الرب تعالى خلق خلقه ممنوعين من المعاصي غير قادرين عليها
بوجه لم يكن لارسال الرسل وانزال الكتب والامر والنهي والثواب والعقاب شيء يقتضيه
ولا حكمة تستدعيه وفي ذلك تعطيل الامر جملة بل تعطيل الملك والحمد والرب تعالى له الخلق
والامر وله الملك والحمد والغايات المطلوبة والعواقب المحمودة التي لاجلها انزل كتبه وارسل رسله
وشرع شرائعه وخلق الجنة والنار ووضع الثواب والعقاب لا يحصل الا باقدار العباد
على الخير والشر وتمكينهم من ذلك واعطائهم الاسباب والآلات التي يتمكنون بها من فعل هذا وهذا
فلهذا احسن منه تبارك وتعالى التخلية بين عباده وبين ما هم فاعلوه وقبح منا ان نخلي
بين عبيده وبين الافساد وهو قادر على منعهم هذا مع انه سبحانه لم يخل بينهم بل منعهم منه
وحرمه عليهم ونصب لهم العقوبات الدنيوية والاخروية على القبائح واحل بهم من بأسه
وعذابه وانتقامه ما لم يفعله احد من المخلوقين بعبيده ليمنعهم ويزجرهم فقولكم انه خلى بين عباده
وبين افساد بعضهم بعضاً وظلم بعضهم بعضاً كذب عليه فانه لم يخل بينهم شرعاً ولا قدراً بل
حال بينهم وبين ذلك شرعاً اتم حيلولة ومنعهم قدراً بحسب ما تقتضيه حكمته الباهرة وعلمه
المحيط وخلى بينهم وبين ذلك بحسب ما تقتضيه حكمته وشرعه ودينه فشرعه حائل بينهم وحائل
بينهم وبين الشر العظيم بحيلولته والقدر الذي خلاهم فيه في ذلك فهو ملزوم امره وشرعه
ودينه فالذي فعله في الطرفين غاية الحكمة والمصلحة ولا نهاية فوقه لاقتراح عقل لو خلي

بينهم كما رعيتم لكانوا بمنزلة الأنعام السائمة بل لو تركهم ودواعي طباعهم لأهلك بعضهم بعضًا
وخرب العالم ومن عليه بل ألجمهم بلجام العجز والمنع من كل ما يريدون فلو أنه خلى بينهم وبين ما يريدون
لفسدت الخليقة كما ألجمهم بلجام الشرع والأمر ولو منعهم جملة ولم يبتلهم ولم يقدرهم لتعطل الأمر
والشرع جملة وانتفت حكمة البعث والإرسال والثواب والعقاب فأي حكمة فوق هذه الحكمة وأي
إحسان فوق ما فعله بهم ولو أعطي الناس هذا المقام بعض حقه لعلموا أنه مقتضى الحكمة البالغة
والقدرة التامة والعلم المحيط وأنه غاية الحكمة ومن فتح له فهمه في القرآن رآه من أوله إلى آخره ينبه
العقول على هذا ويرشدها إليه ويدلها عليه وأنه تعالى نزه نفسه أن يكون هذا منه عبثًا أو سدى
أو باطلًا أو لغير الحق والمعنى ولا لداع وباعث وأن مصدر ذلك جميعه عن عزة وحكمة ولهذا
كثيرًا ما يقرن تعالى بين هذين الاسمين العزيز الحكيم في آيات التشريع والتكوين والجزاء ليدل عباده
على أن مصدر ذلك كله عن حكمة بالغة وعزة قاهرة فيعلم الموفقون عن الله عز وجل مراده وحكمته
وانتهوا إليه ووقفوا عليه ووصلت أفهامهم وعلومهم وردوا علم ما غاب عنهم إلى أحكم الحاكمين
ومن هو بكل شيء عليم وتحققوا بما علموا من حكمته التي بهرت عقولهم أن لله في كل ما خلق وأمر وأثاب وعاقب
من الحكم البوالغ ما تقصر عقولهم عن إدراكه وأنه تعالى هو الغني الحميد العليم الحكيم فمصدر خلقه وأمره
وثوابه وعقابه غناه وحمده وعلمه وحكمته ليس مصدره مشيئة مجردة وقدرة خالية عن الحكمة والرحمة
والمصلحة والغايات المحمودة المطلوبة له خلقًا وأمرًا وأنه سبحانه لا يسأل عما يفعل لكمال حكمته وعلمه
ووقوع أفعاله كلها على أحسن الوجوه وأتمها على الصواب والسداد ومطابقة الحكم والعباد يسألون
إذ ليست أفعالهم كذلك ولهذا كان خطيب الأنبياء شعيب صلى الله عليه وسلم إني توكلت
على الله ربي وربكم ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها إن ربي على صراط مستقيم فأخبر عن عموم قدرته
تعالى وأن الخلق كلهم تحت تسخيره وقدرته وأنه آخذ بنواصيهم فلا محيص لهم عن نفوذ مشيئته
وقدرته فيهم ثم عقب ذلك بالإخبار عن تصرفه فيهم وأنه بالعدل لا بالظلم وبالإحسان لا بالإساءة
وبالصلاح لا بالفساد فهو يأمرهم وينهاهم إحسانًا إليهم وحماية وصيانة لهم لا حاجة إليهم ولا بخلًا
عليهم بل جودًا وكرمًا ولطفًا وبرًا ويثيبهم إحسانًا وتفضلًا ورحمة لا لمعاوضة واستحقاق منهم
ودين واجب لهم يستحقونه عليه ويعاقبهم عدلًا وحكمة لا تشفيًا ولا مخافة ولا ظلمًا كما يعاقب
الملوك وغيرهم بل هو على الصراط المستقيم وهو صراط العدل والإحسان في أمره ونهيه وثوابه
وعقابه فتأمل ألفاظ هذه الآية وما جمعته من عموم القدرة وكمال الملك ومن تمام الحكمة والعدل

والإحسان وما تضمنته من الرد على الطائفتين فإنها من كنوز القرآن ولقد هدت وشفت لمن فتح عليه
بفهمها فإنه تعالى على صراط مستقيم ينفي ظلمه للعباد وتكليفهم إياه ما لا يطيقونه وينفي العبث
من أفعاله وشرعه وتثبت غاية الحكمة ولهذا ردًا على منكري ذلك وكون كل دابة تحت قبضته
وقدرته وهو آخذ بناصيتها ينفي أن يقع في ملكه من أحد من المخلوقات شيء بغير مشيئته وقدرته وأن
ناصيته بيد الله وفي قبضته لا يملك أن يتحرك إلا بتحريكه ولا يفعل إلا بإقداره ولا يشاء إلا بمشيئته تعالى
ردًا على منكري ذلك من القدرية فالطائفتان أوقعوا الآية معناها وما قدروها حق قدرها فهو
سبحانه على صراط مستقيم في عطائه ومنعه وهدايته وإضلاله وفي نفعه وضره وعافيته
وبلائه وإغنائه وإفقاره وإعزازه وإذلاله وإنعامه وانتقامه وثوابه وعقابه وإحيائه وإماتته
وأمره ونهيه وتحليله وتحريمه وفي كل ما خلق وفي كل ما أمر به وهذا المعنى بالله لا يكون إلا
للأنبياء وأوليائهم ونظير هذه الآية قوله تعالى وضرب الله مثلًا رجلين أحدهما أبكم
لا يقدر على شيء وهو كل على مولاه أينما يوجهه لا يأت بخير هل يستوي هو ومن يأمر بالعدل وهو على
صراط مستقيم فالمثل الأول للصنم وعابديه والمثل الثاني ضربه تعالى لنفسه وأنه
يأمر بالعدل وهو على صراط مستقيم فكيف يسوى بينه وبين الصنم الذي له مثل السوء فما
فعله الرب تبارك وتعالى مع عباده هو غاية الحكمة والإحسان والعدل في إقدارهم ومنعهم
وأمرهم ونهيهم فقد عبر المدعي أن هذا نظير تخلية السيد بين عبيده وإمائه يفجر بعضهم ببعض
ويبغي بعضهم بعضًا الذي دعوى وأبطلها فالفرق بينهما أظهر وأعظم من أن يحتاج إلى ذكره
والتنبيه عليه والحمد لله الغني الحميد فغناه التام فارق وحمده وملك عزته وحكمته وعلمه
وإحسانه وعدله ودينه وشرعه وحكمه وكرمه ومحبته للمغفرة والعفو عن الجناة والجود على المسيئين
وتوبة التائبين وصبر الصابرين وشكر الشاكرين يؤثرونه على غيره ويتطلبون مراضيه
ويعبدونه وحده ويسيرون في عبيده بشرعه العدل والإحسان والنصائح ويجاهدون
أعداءه فيبذلون دماءهم وأموالهم في محبته ومرضاته فيتميز الخبيث من الطيب ووليه من عدوه ويخرج
طيبات هؤلاء وخبائث أولئك إلى الخارج فيترتب عليها آثارها المحبوبة للرب تعالى
من الثواب والعقاب والحمد لأوليائه والذم لأعدائه وقد نبه تعالى على هذه الحكمة في
كتابه في غير موضع كقوله تعالى ما كان الله ليذر المؤمنين على ما أنتم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب
وما كان الله ليطلعكم على الغيب ولكن الله يجتبي من رسله من يشاء وهذه الآية من كنوز القرآن

نبّه سبحانه فيها على حكمته تعالى المقتضية تمييز الخبيث من الطيب وان ذلك التمييز لا يقع الا برسله
فاجتبى منهم رسلا وارسلهم الى عباده فيتميز برسالتهم الخبيث من الطيب فالولي من العدو ومن يصلح لمجاورته
وقربه وكرامته ممن لا يصلح الا للوقود وفي هذا تنبيه على الحكمة في ارسال الرسل وانه لابد منه وان الله
تعالى لا يليق به الاخلال به وان من جحد رسالة رسله فما قدره حق قدره ولا عرفه حق معرفته ونسبه الى ما
لا يليق به كما قال تعالى وما قدروا الله حق قدره اذ قالوا ما انزل الله على بشر من شيء فتامل هذا الموضع حق
التامل واعطه حظه من الفكر فلو لم يكن في هذا الكتاب سواه لكان من اجل ما يستفاد والله الهادي الى سبيل
الرشاد **الوجه السابع والثلاثون** قولكم ان الاغراق والاهلاك يحسن منه تعالى
وهو قبيح منا فكيف تدعون اتحاد العرفي عقلا الى اخره كلام فاسد جدا فان الاغراق والاهلاك
من الرب تعالى لا يخرج قط عن المصلحة والعدل والحكمة فانه اذا اغرق اعداءه واهلكهم وانتقم منهم
كان هذا غاية الحكمة والعدل والمصلحة وان اغرق اولياءه واهل طاعته فهو سبب من الاسباب التي نصبها
لموتهم وتخليصهم من الدنيا والوصول الى دار كرامته ومحل قربه ولابد من موت على كل حال فما اختاره لهم
اكمل للمؤمنين وانفعهم في معادهم ليوصلهم بها الى درجات عالية لا تنال الا بتلك الاسباب التي نصبها
الله تعالى موصلة اليها كايصال سائر الاسباب الى مسبباتها وكذا تسليط على انبيائه من اوليائه ما تسلط
عليهم من القتل واذى الناس وظلمهم لهم وعدوانهم عليهم وما ذاك لهوانهم عليه ولا لكرامة
اعدائهم عليه بل ذلك عين كرامتهم وهوان اعدائهم عليه وسقوطهم من عينه ليبلوا بذلك ما خلقوا
له من منازلهم في دار الهوان وينال اولياؤه وحزبه بذلك ما هيئ لهم من الدرجات العلى والنعيم المقيم
وكان تسليط اعدائه واعدائهم عليهم عين كرامتهم وعين اهانة اعدائهم فهذا من بعض حكمته تعالى
في ذلك ووراء ذلك من الحكم ما لا تبلغه العقول والافهام وكان اغراقه واهلاكه وابتلاؤه محض الحكمة
والعدل في حق اعدائه ومحض الاحسان والفضل والرحمة في حق اوليائه فهذا احسن منه ولعل
الاغراق وتسليط القتل عليهم اسهل على المؤمن عليهم مع ما في ضمنه من الثواب العظيم فيكون قد بلغ حسن
اختياره لهم الى ان خفف عليهم الموت واعاضهم عليها افضل الثواب فانه لا يجد الشهيد من القتل الا كمس
القرصة ومن لم يمت بالسيف مات بغيره تنوعت الاسباب والداء واحد
فليس اماتة اوليائه شهداء بيد اعدائه اهانة لهم ولا غضبا عليهم بل كرامة ورحمة واحسانا ولطفا
وكذلك الغرق والحرق والهدم والتردي والبطن وغير ذلك والمخلوق ليس بهذه المثابة فلهذا
قبح منه الاغراق والاحراق والاهلاك وحسن من اللطيف الخبير **الوجه الثامن والثلاثون**

قولكم اذا كان في اغراقه واهلاكه سبحانه حكمة وسر لا يطلع نحن عليه فقدروا مثله في ترك انقاذنا
الغريق كلام تغني حكايته عن تكلف رده وهل تجوزون ان يقال اذا كان لله تعالى الحكمة البالغة
والاسرار العظيمة في اهلاكه من يهلكه وابتلاء من يبتليه فلهذا احسن منه ذلك فيلزم من هذا
ان يقال يجوز ان يكون في تركنا انجاء الغريق ونصر المظلوم وسد الخلة وستر العورة حكما واسرارا
لا يعلمها العقلاء والمناكدة في البحث اذا وصلت الى هذا الحد تحت وثقلت على النفوس ومجتها
القلوب والاسماع **الوجه التاسع والثلاثون** قولكم ان الفعلين من حيث الصفات النفسية
واحد فكيف يقبح احدهما من فاعل ويحسن من الاخر من فاعل فيقال هذا في البطلان
والفساد من جنس ما قبله وابطل وهو بمنزلة ان يقال القتل من المعتدي ومن المقتص من حيث الصفات
النفسية واحد فكيف يقبح احدهما ويحسن الاخر وبمنزلة ان يقال السجود لله والسجود للصنم
واحد من حيث الصفات النفسية فكيف يقبح احدهما ويحسن الاخر وهل في الباطل ابطل من هذا
الوهم فما جعل الله ذلك حجة اصلا وليس اماتة الله لعبده مثل قتل المخلوق له ولا اماتته واعزازه
وابتلاؤه مساوية في الصفات النفسية لفعل المخلوق بالمخلوق ذلك ومن عور التساوي كذب وباطل
فلا اعظم من التفاوت بينهما وهل يستوي عند العقل والفطر فعل الله وفعل المخلوق فيالله العجب
ان تساويا الفعل المنزه صارا سواء في الصفات النفسية اترى حصل لها هذا التساوي من جهة
الفعلية وهل يدل هذا على استواء الفعلين في الصفات النفسية ولقد وهت اركان مسئلة
بنيت على هذا الشفا فانه شفا جرف هار والله المستعان **الوجه الاربعون**
قولكم لو اوجب العقول في اصل التكليف معارضة الاصول فيقال معاذ الله من تعارضها
بل هي متفقة الاصول متفق حسنها في العقول والفطر من لم يرد ذلك فيها فما شرع شيئا يخالف
العقل السليم ليس في شرع الله ظلم بل هي متعارضة من العقل والهوى والعقل يستحسنها ويدعوا
اليه ويامر بما يتبعها جملة في بعضها وجملة وتفصيلا في بعض والهوى والشهوة تدعوا الى
خلافها فالتعارض واقع بين موجب العقول ومواجب الهوى وما جعل الله في العقل ولا في الفطر
استقباح لما امر به ولا استحسان لما نهى عنه ولكن نال الهوى الى خلاف امره ونهيه فالعقل
حينئذ يكون ماسورا مع الهوى مقهورا في قبضته وتحت سلطانه **الوجه**
الحادي والاربعون قولكم بطل الحكم باظهار وجه الحسن في اصل التكليف والايجاب
عقلا وشرعا فيقال بالله العجب ايجاب امر الله تعالى لعباده بما فيه غاية صلاحهم وسعادتهم

في معادهم ومعاشهم ونهيه لهم عما فيه هلاكهم وشقاوتهم في معاشهم ومعادهم الحاملة له
بحسنه ثم لا يتصور على المطالبة بحسنه عقلاً حتى يطالب بحسنه عقلاً وشرعاً فأي حسن لم يأمر
الله به ويشتمله لعباده ويندبهم إليه وأي حسن فوق حسن ما أمر الله به وشرعه وأي قبح لم ينه
عنه ولم يزجر عباده عن ارتكابه وأي قبح فوق قبح ما نهى عنه وهل في العقل دليل أوضح من علمه
بحسن ما أمر الله به من الإيمان والإسلام والإحسان وتفاصيلها من العدل والإحسان وإيتاء
ذي القربى وأنواع البر والتقوى وكل معروف تشهد الفطر والعقول بحسنه من عبادته وحده لا
شريك له على أكمل الوجوه وأتمها والإحسان إلى خلقه بحسب الإمكان وليس في العقل مقدمات هي
أوضح من هذا المستدل عليه فيجعل دليلاً له وكذلك ليس في العقل دليل أوضح من هذا المستدل
عليه من الفواحش ما ظهر منها وما بطن والإثم والبغي بغير الحق والشرك بالله بأن يجعل له عدل
من خلقه فيعبد كما يعبد ويحب كما يحب ويعظم كما يعظم ومن الكذب على الله وعلى أسمائه وعباده
المؤمنين الذي فيه خراب العالم وفساد الوجود فأي عقل لم يدرك حسن ذلك وقبح هذا
فأحرى أن لا يدرك الدليل على ذلك وليس يصح في الأذهان شيء إذا احتاج النهار إلى دليل ٥
ومما أبقى الله عز وجل حسناً إلا أمر به وشرعه ولا قبحاً إلا نهى عنه وحذر منه ثم إنه سبحانه
أودع في الفطر والعقول الإقرار بذلك فقام عليها الحجة من الوجهين ولكن اقتضت رحمته
وحكمته أن لا يعذبها إلا بعد إقامتها عليها برسله وإن كانت قائمة عليها بما أودع فيها وأشهدها
عليه من الإقرار به وبوحدانيته واستحقاقه الشكر من عباده بحسب طاقتهم على نعمه وبما نصب لها
الأدلة المسموعة المستلزمة إقرارها بحسن الحسن وقبح القبيح ٥ **الوجه الثاني والأربعون**
إنما نذكر لكم وجهاً من الوجوه الدالة على وجه الحسن في أصل التكليف والإيجاب فنقول
من بيان أن إلزام الناس شريعة يؤمرون بأوامرها التي فيها صلاحهم وينهون عن مناهيها التي
فيها فسادهم حسن عند كل عاقل من تركهم هملاً كالأنعام لا يعرفون معروفاً ولا ينكرون منكراً
وينزو بعضهم على بعض نزو الكلاب والحمر ويعدو بعضهم على بعض عدو السباع والذئاب
ويأكل قويهم ضعيفهم لا يعرفون الله ولا يعبدونه ولا يذكرونه ولا يشكرونه ولا يمجدونه
ولا يدينون بدين بل هم من جنس الأنعام السائمة ومن كابر عقله في هذا سقط الكلام معه
ونادى على نفسه بغاية الوقاحة ومفارقة الإنسانية وما نظير مطالبكم هذه المطالبة
من يقول لكم يطالبكم بإظهار وجه المنفعة في خلق الماء والهواء والرياح والتراب وخلق الأقوات

والفواكه والأنعام بل في خلق الأسماع والأبصار والألسن والقوى والأعضاء التي في العبد فإن
هذه أسباب ووسائل ووسائط وآلات أمره وشرعه ودينه كما له غاية وسعادة في المعاش والمعاد
ولا ريب عند العقلاء أن وجه الحسن فيه أعظم من وجه الحسن في الأمور الحسية وإن كان الحسن فهو
الغالب على الناس وإنما غاية إدراكهم إدراك الحسن والمنفعة في الحسيات وتقديمها وإيثارها
على مدارك العقول والبصائر قال تعالى ولكن أكثر الناس لا يعلمون يعلمون ظاهراً من
الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون ولو ذهبنا نذكر وجوه المحاسن المودعة في الشريعة لزادت
على الألوف ولعل الله أن يساعد بمصنف في ذلك مع أن هذه المسألة بابه وقاعدته التي عليها
بناؤه ٥ **الوجه الثالث والأربعون** قولكم إنه سبحانه لا يتضرر بمعصية العبد ولا
ينتفع بطاعته ولا يتوقف قدرته في الإحسان على فعل يصدر من العبد بل كلما أنعم عليه ابتداء
فهو قادر على أن ينعم عليه بلا توسط عمل فيقال هذا حق ولكن لا يلزم منه أن لا
تكون الشريعة والأمر والنهي متعلقه الحسن عقلاً وشرعاً ولا يلزم منه أيضاً عدم حسن التكليف
عقلاً ولا شرعاً وقد كررتم هذا عدة الفائدة فإنه لا تعلق بها بحكم ولا غيرهم أن الله سبحانه يتضرر
بمعاصي العباد وينتفع بطاعاتهم ولا أنه غير قادر على إيصال الإحسان إليهم بلا واسطة
ولكن ترك التكليف وترك العباد هملاً كالأنعام لا يؤمرون ولا ينهون مناف لحكمته وحمده
وكمال ملكه وإلهيته فيجب تنزيهه عنه ومن نسبه إليه فما قدره حق قدره وحكمته البالغة
اقتضت الإنعام عليهم ابتداء بواسطة الإيمان والواسطة من إنعامه عليهم أيضاً فهو المنعم
بالوسيلة والغاية وله الحمد والنعمة في هذا وهذا يوضحه ٥ **الوجه الرابع والأربعون**
وهو أن إنعامه عليه ابتداء بالإيجاد وإعطاء الحياة والعقل والسمع والبصر والنعم التي
سخرها له إنما فعلها لأجل عبادته إياه وشكره له كما قال تعالى وما خلقت الجن والإنس إلا
ليعبدون ما أريد منهم من رزق وقال تعالى قل ما يعبأ بكم ربي لولا دعاؤكم وأصح الأقوال
في الآية أن معناها ما يصنع بكم وما يكترث بكم لولا عبادتكم إياه وأي وزن وأي قدر يكون
لكم عنده لولا عبادتكم إياه فهو سبحانه لم يخلقكم إلا للعبادة فكيف يقال بعد هذا إن تكليفه
إياهم عبادته غير حسن في العقل لأنه قادر على الإنعام عليهم بالجزاء من غير توسط العبادة ٥
الوجه الخامس والأربعون أن قدرته سبحانه على التي لا تنفي حكمته من وجوه فإنه
تعالى يقدر على مقدورات يمنع حكمته لقدرته على قيام الساعة الآن وقدرته على إبدال الكل

بعد النبي صلى الله عليه وسلم وقدرته على ابقائهم من ظهور الامة الى يوم القيمة وقدرته على اماتة
ابليس وجنوده واراحة العالم منهم وقد ذكر سبحانه في القران قدرته على ما لم يفعله لحكمته
في غير موضع كقوله تعالى قل هو القادر على ان يبعث عليكم عذابا من فوقكم او من تحت ارجلكم وكقوله
تعالى وانزلنا من السماء ماء بقدر فاسكناه في الارض وانا على ذهاب به لقادرون وقوله
ايحسب الانسان ان لن نجمع عظامه بلى قادرين على ان نسوي بنانه اي نجعلها كخف البعير صفحة
واحدة وقوله تعالى ولو شئنا لاتينا كل نفس هداها وقوله تعالى ولو شاء ربك لآمن
من في الارض كلهم جميعا وقوله تعالى ولو شاء ربك لجعل الناس امة واحدة فهذه وغيرها
مقدورات له سبحانه وانما امتنعت لكمال الحكمة فهي التي اقتضت عدم وقوعها فلا يلزم من كون الشيء
مقدورا ان يكون جائزا موافقا للحكمة وعلى هذا فقدرته تبارك وتعالى على ما ذكرتم لا تقتضي
حسنه وموافقته لحكمته ونحن انما نتكلم معكم في الثاني لا في الاول فالكلام في الحكمة يعني الحكمة
والغاية عن الكلام في المقدور فمتعلق الحكمة شيء ومتعلق القدرة شيء ولكن انتم انما اتيتم من انكار
الحكمة فلا يمكنكم التفريق بين المتعلقين بل قد اعترف سلفكم وائمتكم بان الحكمة لا تخرج عن صحة تعلق
القدرة بالمقدور ومطابقته لها او تعلق العلم بالمعلوم ومطابقته له ولما بنيتم على هذا الاصل
لم يمكنكم الفرق بين موجب الحكمة وموجب القدرة فتوعرت عليكم الطرق والجأتكم الى
اصعب مضيق

الوجه السادس والاربعون قولكم انه تعالى لو القى الى العبد
زمام الاختيار وتركه يفعل ما يشاء جاريا على سوم طبعه المائل الى اللذات والشهوات ثم اجزل له في
العطاء من غير حساب كان اروح للعبد ولم يكن قبيحا عند العقل فيقال لكم ما تعنون بالقاء
زمام الاختيار اليه اتعنون به انه لا يكلفه ولا يامره ولا ينهاه بل يجعله كالبهيمة السائبة المهملة
ام تعنون به انه يلقي اليه زمام الاختيار مع تكليفه وامره ونهيه فان عنيتم الاول فهو من اقبح
في العقل واعظم نقصا في الادمي ولو ترك وسوم طبعه لكانت البهائم اكمل منه ولم يكن مكرما
مفضلا على كثير ممن خلق الله تفضيلا بل كان كثير من المخلوقات او اكثرها مفضلا عليه فانه يكون
مصدودا عن كماله الذي هو مستعد له قابل له وذلك اسوأ حالا واعظم نقصا ممن منع كمالا ليس
قابلا له وتامل حال الادمي المخلى وسوم طبعه المنزول ودواعي هواه كيف تجده شرار الخليقة
وافسدها للعالم ولولا ما اخذ على يديه لاهلك الحرث والنسل وكان شرا من الخنازير والذئاب
والحيات فكيف يستوي في العقل امره ونهيه بما فيه صلاحه وصلاح غيره وتركه وما فيه اعظم

فساد

فساده وفساد النوع وغيره به وكيف لا يكون هذا القول قبيحا واي قبح اعظم من هذا ولهذا
انكر الله سبحانه على من جوز عليه مثل هذا ونزه نفسه عنه فقال تعالى ايحسب الانسان ان يترك
سدى قال الشافعي رضي الله عنه معطلا لا يؤمر ولا ينهى وقيل لا يثاب ولا يعاقب وقال
تعالى افحسبتم انما خلقناكم عبثا وانكم الينا لا ترجعون ثم نزه نفسه عن هذا الظن الكاذب وانه
لا يليق به ولا يجوز في العقول نسبة مثله اليه لمنافاته لحكمته وربوبيته والاهيته وحمده
فقال تعالى فتعالى الله الملك الحق لا اله الا هو رب العرش الكريم وقال تعالى وما خلقنا
السموات والارض وما بينهما لاعبين ما خلقناهما الا بالحق وفسر الحق بالثواب والعقاب وفسر بالامر
والنهي وهذا التفسير له ببعض معناه والصواب ان الحق هو الهيته وحكمته المتضمنة للخلق والامر
والثواب والعقاب فمصدر ذلك كله الحق وبالحق وجد وبالحق قام وغايته الحق وبه خلق الخلق
ونزل الحق وبالحق قام وللحق وجد والحق سببه وغايته وبه قيامه فمحال ان يكون على غير
هذا الوجه فانه يكون باطلا وعبثا تعالى الله عنه لمنافاته الهيته وحكمته وكمال ملكه وحمده
وقال تعالى ان في خلق السموات والارض واختلاف الليل والنهار لايات لاولي الالباب
الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السموات والارض ربنا ما
خلقت هذا باطلا سبحانك فقنا عذاب النار فتامل كيف اخبر سبحانه عنهم بنفي البطلانية
عن خلقه دون اثبات الحكمة لان نفي الباطل على سبيل العموم والاستغراق اوعب في المعنى المقصود
وابلغ من اثبات الحكمة لان بيان جميعها لا تفي بها افهام الخليقة وبيان التفصيل دون تناهي
الحكم ونفي البطلان والخلو عن الحكمة والغاية يفيد ان كل جزء من اجزاء العالم علويه وسفليه
متضمن لحكم جمة وايات باهرة ثم اخبر سبحانه عنهم بتنزيهه عن الخلق باطلا خاليا عن الحكمة ولا معنى
لهذا التنزيه عند النفاة فان الباطل عندهم هو المحال لذاته تعالى فوهم تنزيهه عن المحال لذاته
الذي ليس شيئا كالجمع بين النقيضين وكون الجسم الواحد ملونا متحركا ساكنا ونحو ذلك ونعلم قطعا
ان هذا ليس مراد الرب مما نزه نفسه عنه فانه لا يمدح احد بتنزيهه عن هذا ولا يكون المثني به
مثنيا ولا حامدا ولم يخطر هذا بقلب بشر حتى ينزه الله عن زعمه ونسبته اليه وقال تعالى
وما خلقنا السموات والارض وما بينهما لاعبين ما خلقناهما الا بالحق فنفى اللعب عن خلقه واثبت
انه انما خلقهما بالحق فجمع تعالى بين نفي اللعب الصادر عن غير حكمة وغاية محمودة واثبات الحق
المتضمن للحكم والغايات المحمودة والعواقب المحبوبة والقران مملوء من هذا بنفي العبث والباطل

واللعب تارة وتنزيه الرب نفسه عنه تارة واثبات الحكم الباهرة في خلقه تارة كيف يجوز ان يقال
انه لو عطل خلقه وتركهم سدى لم يكن في ذلك قبح في العقل فان غايتهم ان يلحقوا الى زمام الاختيار
مع لعبهم ونهيه فهذا احق فانه جعله مختارا مأمورا منهيا وان كان اختياره مخلوقا له تعالى
اذ هو من جملة الحوادث الصادرة عن خلقه ولكن هذا الاختيار لا ينافي التكليف ولا يكون بوجه
بل لا يصح التكليف الا به **الوجه السابع والاربعون** قولكم قد تعارض الامران
احدهما ان يكلفهم فيامر وينهى حتى يطاع ويعصى ثم يثيبهم ويعاقبهم الثاني ان يكلهم
اذ لا يزين منهم بطاعة ولا تشينه معصيتهم واذا تعارض في العقول هذان الامران فكيف يهتدي
العقل الى اختيار احدهما حتما فكيف نعرف الوجوب على نفسه بالمعرفة وعلى الجوارح بالطاعة
وعلى الرب تعالى بالثواب فيقال لكم لم يتعارض بحمد الله الامران لان احدهما قد علم قبحه
في العقول والآخر قد علم حسنه في العقول فكيف يتعارض في العقل جواز الامرين وان يكون
نسبتهما الى الرب تعالى نسبة واحدة وانما يتعارض الجايزات على كل سواء بحيث لا يترجح بعضها
عن بعض فاما الحسن والقبيح فلم يتعارض في العقل قط استواهما وقد قررنا بما لا مدفع له قبح
الترك سدى بمنزلة الانعام السايمة وحسن الامر والنهي واستصلاحهم في معاشهم ومعادهم
فكيف يقال ان هذين الامرين سواء في العقل بحيث يتعارضان فيه ويقضي باستوائهما بالنسبة
الى احكم الحاكمين فان قيل انما تعارضا في المقدورية اذ نسبة القدرة اليهما واحدة
قلنا قد تقدم انه لا يلزم من كون الشيء مقدورا ان لا يكون ممتنعا لمنافاته الحكمة وقد بينا
ذلك قريبا فيكون تركهم هملا او سدى مقدورا للرب تعالى لا يقتضي معارضته لمقدوره الآخر
من تكليفهم وامرهم ونهيهم ه **الوجه الثامن والاربعون** قولكم اذ لا يزين منهم
بطاعة ولا تشينه معصيتهم قلنا من الذي نازع في هذا ولكن حسن التكليف ينافي ذلك
عن الرب تعالى وانه انما يكلفهم تكليف من لا يبلغوا ضره فيضروه ولن يبلغوا نفعه فينفعوه
وانهم لو كانوا كلهم على اتقى قلب رجل واحد منهم ما زاد ذلك في ملكه شيئا ولو كانوا على افجر قلب
رجل واحد منهم ما نقص ذلك من ملكه شيئا وههنا اختلفت الطرق بالناس في علة التكليف
وحكمته مع كونه سبحانه لا ينتفع بطاعتهم ولا تضره معصيتهم فسلكت الجبرية مسلكها المعروف
وان ذلك صادر عن محض المشيئة وصرف الارادة وانه لا علة له ولا باعث عليه سوى محض
الارادة وسلكت القدرية مسلكها المعروف وهو ان ذلك استيجار منه لعبيده ليناكوا اجرهم

بالعمل فيكون الذين اقتضاء الثواب بلا عمل لما فيه من تكدير المنة والمستكان كما نرى
وجميع ما يدل عليه العقل الصريح والنقل الصحيح من بطلانها وفسادها وليس عند الكل
عن هذين المسلكين الا مسلك من هو خارج عن الديانات واتباع الرسل ممن يرى ان الشرايع وضعت
نواميس يقوم عليها مصلحة الناس ومعيشتهم وان فايدتها تحصيل قوة النفس العملية وارتياضها
لتخرج عن شبه الانعام السايمة فتصير مستعدة لان تكون محلا لقبول الفلسفة العليا والحكمة
وهذا المسلك خارج عن مناهج الانبياء واممهم واما اتباع الرسل الذين هم اهل البصاير
في حكمة الله عز وجل في تكليفهم ما كلفهم به اعظم واجل عندهم مما يخطر بالبال او يجري به المقال
ويشهدون له سبحانه في ذلك من الحكم الباهرة والاسرار العظيمة الكثيرة بما يشهدونه في مخلوقاته
وما تضمنته من الاسرار والحكم ويعلمون مع ذلك انه لا نسبة لما اطلعهم سبحانه عليه من ذلك الى
ما طوى علمه عنهم واستأثر به دونهم وان حكمته في امره ونهيه وتكليفهم اجل واعظم مما تطيقه
عقول البشر فهم يعبدونه سبحانه بامره ونهيه لانه تعالى اهل ان يعبد واهل ان يكون الحب كله
له والعبادة كلها له حتى لو لم يخلق جنة ولا نارا ولا وضع ثوابا ولا عقابا لكان اهلا ان يعبد
اقصى ما ينبغي له قدر خلقه من العبادة وفي بعض الآثار الالهية لو لم اخلق جنة
ولا نارا الم اكن اهلا ان اعبد حتى انه لو قدر انه لم يرسل رسله ولم ينزل كتبه لكان في
الفطرة والعقل ما يقتضي شكره وافراده بالعبادة كما فيهما ما يقتضي تناول المنافع واجتناب
المضار ولا فرق بينهما في الفطرة والعقل فان الله فطر خلقه على محبته والاقبال عليه
وابتغاء الوسيلة اليه وانه لا شيء على الاطلاق احب اليها منه وان فسدت فطر اكثر الخلق
بما طرأ عليها مما اقتطعها واجتالها عما خلق فيها كما قال تعالى فاقم وجهك للدين حنيفا
فطرة الله التي فطر الناس عليها فبين سبحانه ان اقامة الوجه وهو اخلاص القصد وبذل
الوسع لدينه المتضمن محبته وعبادته حنيفا مقبلا عليه معرضا عما سواه هو فطرته التي
فطر عليها عباده فلو خلوا ودواعي فطرهم عن ذلك ولا اختاروا سواه ولكن غيرت لما تعلم
الفطر وافسدت كما قال النبي صلى الله عليه وسلم ما من مولود الا يولد على الفطرة فابواه يهودانه
وينصرانه ويمجسانه كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء هل تحسون فيها من جدعاء حتى تكونوا انتم
تجدعونها ثم يقول ابو هريرة رضي الله عنه اقرؤا ان شئتم فطرة الله التي فطر الناس عليها لا
تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن اكثر الناس لا يعلمون منيبين اليه ومنيبين نصب على

الحال من المفعول اي فطرهم منيبين اليه والانابه تتضمن الاقبال عليه بمحبته وحده والاعراض
عما سواه وفي صحيح مسلم عن عياض بن حمار عن النبي صلى الله عليه وسلم قال ان الله امرني ان اعلمكم
ما جهلتم مما علمني في مقامي هذا انه قال كل مال نحلته عبدا فهو له حلال واني خلقت عبادي
حنفاء فاتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم وامرتهم ان يشركوا بي ما لم انزل به سلطانا وحرمت
عليهم ما احللت لهم فاخبر سبحانه انه انما خلق عباده على الحنيفيه المتضمنه لكمال الحب والخضوع
له والذل له وكمال الطاعه وحده دون غيره وهذا من الحق الذي خلقت له وبه قامت
السموات والارض وما بينهما وعليه قام العالم ولاجله خلقت الجنه والنار ولاجله ارسل رسله
وانزل كتبه ولاجله اهلك القرون التي خرجت عنه واثرت غيره فكونه سبحانه اهلا ان يعبد
ويحب ويحمد ويثنى عليه امر ثابت له لذاته فلا يكون الا كذلك كما انه الغني القادر الحي
القيوم السميع البصير فهو سبحانه الاله الحق المبين والاله هو الذي يستحق ان يؤله محبة وتعظيما
وخشية وخضوعا وتذللا وعبادة فهو الاله الحق ولو لم يخلق خلقه وهو الاله الحق
ولو لم يعبدوه فهو المعبود حقا الاله حقا ولو قدر ان خلقه لم يعبدوه ولم يحمدوه ولم يالهوه
فهو الله الذي لا اله الا هو قبل ان يخلقهم وبعد ان خلقهم وان يفنيهم لم يستحدث بخلقه لهم
ولا بامره اياهم استحقاق الالهيه والحمد بل الالهيه وحمده ومجده وغناه اوصاف ذاتيه
له يستحيل مفارقتها له كحياته ووجوده وقدرته وعلمه وسائر صفات كماله فاولياؤه وخاصته
وحزبه لما شهدت عقولهم وفطرهم انه اهل ان يعبد وان لم يرسل اليهم رسولا ولم ينزل عليهم كتابا
ولو لم يخلق جنة ولا نارا علموا انه لا شيء في العقول والفطر احسن من عبادته ولا اقبح من الاعراض عنه
وجاءت الرسل وانزلت الكتب بتقرير ما استودع سبحانه في الفطر والعقول من ذلك وتكميله وتفصيله
وزيادته حسنا الى حسنه فاتفقت شريعته وفطرته وتطابقا وتوافقا وظهر انهما من مشكاة واحدة
فعبدوه واحبوه ومجدوه وحمدوه بداعي الفطره وداعي الشرع وداعي العقل فاجتمعت لهم الدواعي
ونادتهم من كل جهة ودعتهم الى وليهم والههم وفاطرهم فاقبلوا اليه بقلوب سليمة لم يعارض خبره
عندها شبهة توجب ريبا وشكا ولا امره شهوة توجب رغبتها عنه وايثارها سواه فاجابوا دواعي
المحبه والطاعه اذ نادت بهم حي على الفلاح وبذلوا انفسهم في مرضاة مولاهم الحق بذل المحب لمحبوبه
واعتدوا الوصول اليه بشراهم وانما يحمد القوم السرى عند الصباح فدينهم دين الحب وهو الدين
الذي لا اكراه فيه وسيرهم سير المحبين وهو السير الذي لا وقفة تعتريه

الحادي

الى دين يدين الحب ويحكم فذاك دين ولا اكراه في الدين
ومن يكن دينه كرها فليس له الا العناء ولا السير في الطين
وما استوى سير عبد في محبته وسير حال من الاسواق في دين
فقل للعيس احدي بالاشواق وتحك عيس حظك لا تغتر بالدون
بجانب الحب تعلوا بالمحب الى اعلا المراتب من فوق السلاطين
واطيب العيش في الدارين قد رغبت عنه التجار وباعوا بيع مغبون
فان ترد علمه فاقرأه وطالع في ابانه في ابيات ياسين

ولا ريب ان كمال العبوديه تابع لكمال المحبه وكمال المحبه تابع لكمال المحبوب في نفسه والله سبحانه له الكمال المطلق التام
من كل وجه الذي لا يعتريه نقص اصلا ومن هذا شانه فان القلوب لا يكون شيء احب اليها منه
ما دامت فطرها وعقولها سليمه واذا كانت احب الاشياء اليها فلا محاله ان محبته توجب عبوديته
وطاعته وتبع مرضاته واستفراغ الجهد في التعبد له والانابه اليه وهذا الباعث اكمل بواعث
العبوديه واقواها حتى لو فرض تجرده عن الامر والنهي والثواب والعقاب استفرغ الوسع واستخلص
القلب للمعبود الحق ومن هذا قول بعض السلف انه ليستخرج حبه من قلبي ما لا يستخرجه قوله ومنه
قول عمر رضي الله عنه في صهيب رضي الله عنه لو لم يخف الله لم يعصه وقد كان هذا هو الواجب على كل
عاقل كما قال بعضهم

هب البعث لم تاتنا رسله وجاحمة النار لم تضرم
اليس من الواجب المستحق طاعة رب الورى الاكرم

وقد قام النبي صلى الله عليه وسلم حتى تفطرت قدماه فقيل له تفعل هذا وقد غفر لك ما تقدم من ذنبك وما تاخر
قال افلا اكون عبدا شكورا واقتصر صلى الله عليه وسلم في جوابهم على ما تدركه عقولهم وتناله افهامهم
والا فمن المعلوم ان باعثه على ذلك الشكر امر يجل عن الوصف ولا تناله العباره ولا الاذهان فاين هذا
الشهود من شهود طايفتي القدريه والجبريه فليعرض العاقل اللبيب دينه المشيد على هذا المشهد
ولينظر ما بين الامرين من التفاوت فالله سبحانه يعبد ويحمد ويحب لانه اهل لذلك ومستحقه بل ما يستحقه
سبحانه من عباده امر لا تناله قدرتهم ولا ارادتهم ولا تتصوره عقولهم ولا يمكن احد من خلقه قط ان يعبده
حق عبادته ولا يوفيه حقه من المحبه والحمد ولهذا قال افضل خلقه واكملهم واعرفهم به واحبهم اليه
واطوعهم له لا احصي ثناء عليك واخبر ان عمله صلى الله عليه وسلم لا يستقل بالنجاه فقال لن ينجي احدا منكم

عمله قالوا ولا انت يا رسول الله قال ولا انا الا ان يتغمدني الله برحمة منه وفضل فصلوات الله وسلامه
عليه عدد ما خلق في السماء وعدد ما خلق في الارض وعدد ما بينهما وعدد ما هو خالق وفي الحديث
المرفوع المشهور ان من الملائكة من هو ساجد لله لا يرفع راسه منذ خلق ومنهم راكع لا يرفع راسه من
الركوع منذ خلق الى يوم القيمة وانهم يقولون يوم القيمة سبحانك ما عبدناك حق عبادتك ولما كانت
عبادته تعالى تابعة لمحبته واجلاله وكانت المحبة نوعان محبة تنشا عن الانعام والاحسان فتوجب
شكرا وعبودية بحسب كمالها ونقصانها ومحبة تنشا عن جمال المحبوب وكماله فتوجب عبودية وطاعة
اكمل من الاولى كان الباعث على الطاعة والعبودية لا يخرج عن هذين النوعين واما ان تقع الطاعة
صادرة عن خوف مجرد غير مقرون بمحبة فهذا لا تظنه كثير من المتكلمين وهو عندهم غاية العارف بناء
على اصلهم الباطل ان الله لا تتعلق المحبة بذاته وانما تتعلق بمخلوقاته في الجنة من النعيم فهم لا يحبونه
لذاته وكماله ولا لاحسانه وينكرون محبته لذلك وانما المحبوب عندهم في الحقيقة غيره وهذا من ابطل
الباطل وسنذكر في القسم الثاني ان شاء الله تعالى من هذا الكتاب بطلان هذا المذهب من اكثر من
مائة وجه ولو عرف القوم صفات الارواح واحكامها لعلموا ان الطاعة من غير المحب وعبادته محال فان
من اتى بصورة الطاعة خوفا مجردا عن الحب فليس بمطيع ولا عابد وانما هو كالمكره او كالاجير السوء
الذي ان اعطي عمل وان لم يعط كفر وابق وسيرد عليك بسط الكلام في هذا عن قريب ان شاء الله
والمقصود ان الطاعة والعبادة الناشية عن محبة الكمال والجمال اعظم من الطاعة الناشية
عن رؤية الانعام وان شمل النوعين اسم المحبة ولكن كم بين محبتك لذاتك واوصافك وجمالك
وبين محبتك لخيرك ودراهمك ○ فصل ○ والاسماء الحسنى والصفات العلى مقتضية
لاثارها من العبودية والامر اقتضاها لاثارها من الخلق والتكوين فلكل صفة عبودية خاصة فهي من
موجباتها ومقتضياتها اعني من موجبات العلم بها والتحقق بمعرفتها وهذا مطرد في جميع انواع العبودية
التي على القلب والجوارح فعلم العبد بتفرد الرب تعالى بالضر والنفع والعطاء والمنع والخلق والرزق
والاحياء والاماتة يثمر له عبودية التوكل عليه باطنا ولوازم التوكل وثمراته ظاهرا وعلمه بسمعه
تعالى وبصره وعلمه وانه لا يخفى عليه مثقال ذرة في السموات ولا في الارض وانه يعلم السر واخفى ويعلم خائنة
الاعين وما تخفي الصدور يثمر له حفظ لسانه وجوارحه وخطرات قلبه عن كل ما لا يرضي الله وان يجعل
تعلق هذه الاعضاء بما يحبه الله ويرضاه فيثمر له ذلك الحياء باطنا ويثمر له الحياء اجتناب المحرمات
• والقبائح ومعرفته بغناه وجوده وكرمه وبره واحسانه ورحمته توجب له سعة الرجاء ويثمر له ذلك

[illegible]

من انواع العبودية الظاهرة والباطنة بحسب معرفته وعلمه وكذلك معرفته بجلال الله وعظمته
وعزه يثمر له الخضوع له والاستكانة والمحبة ويثمر له تلك الاحوال الباطنة انواعا من العبودية
الظاهرة هي موجباتها وكذلك علمه بكماله وجماله وصفاته العلى يوجب له محبة خاصة بمنزلة
انواع العبودية ورجعت العبودية كلها الى مقتضى الاسماء والصفات وارتبطت بها ارتباط الخلق
بها فخلقه سبحانه وامره هو موجب اسمائه وصفاته في العالم واثارها ومقتضاها لا انه يتزين
من عباده بطاعتهم ولا تشينه معصيتهم وتامل قوله صلى الله عليه وسلم في الحديث الصحيح الذي
يرويه عن ربه تبارك وتعالى يا عبادي انكم لن تبلغوا ضري فتضروني ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني ذكر
هذا عقيب قوله يا عبادي انكم تخطئون بالليل والنهار وانا اغفر الذنوب جميعا فاستغفروني
اغفر لكم فتضمن ذلك ان ما يفعله تعالى بهم من غفران زلاتهم واجابة دعواتهم وتفريج كرباتهم ليس
لجلب منفعة منهم ولا لدفع مضرة يتوقعها منهم كما هو عادة المخلوق الذي ينفع غيره ليكافيه بنفع مثله
او ليدفع عنه ضررا والرب تعالى لم يحسن الى عباده ليكافئوه ولا ليدفعوا عنه ضررا فقال
انكم لن تبلغوا نفعي فتنفعوني ولن تبلغوا ضري فتضروني اني لست اذا هديت مستهديكم واطعمت
مستطعمكم وكسوت مستكسيكم وارويت مستسقيكم وكفيت مستكفيكم وغفرت لمستغفركم بالذي اطلب
منكم ان تنفعوني او تدفعوا عني ضررا فانكم لن تبلغوا ذلك وانا الغني الحميد كيف والخلق عاجزون
عما يقدرون عليه من الافعال الا باقداره وتيسيره وخلقه فكيف بما لا يقدرون عليه فكيف يبلغوا
نفع الغني الصمد الذي يمتنع في حقه ان يستجلب من غيره نفعا او يستدفع منه ضررا بل ذلك مستحيل في
حقه ثم ذكر بعد هذا قوله يا عبادي لو ان اولكم واخركم وانسكم وجنكم كانوا على اتقى قلب
رجل واحد منكم ما زاد ذلك في ملكي شيئا ولو ان اولكم واخركم وانسكم وجنكم كانوا على افجر قلب رجل
منكم ما نقص ذلك من ملكي شيئا فبين سبحانه ان ما امرهم به من الطاعات وما نهاهم عنه من السيئات لا يتضمن
استجلاب نفعهم ولا استدفاع ضررهم كامر السيد عبده والوالد ولده والامام رعيته بما ينفع الامر
والمامور ونهيهم عما يضر الناهي والمنهي فبين تعالى انه المنزه عن لحوق نفعهم وضرهم به في احسانه اليهم
بما يفعله بهم وبما يامرهم به ولهذا لما ذكر الاصلين بعد هذا وان تقواهم وفجورهم الذي هو
طاعتهم ومعصيتهم لا يزيد في ملكه شيئا ولا ينقصه وان نسبة ما يسالونه كلهم اياه فيعطيهم الى
ما عنده كلا نسبة فتضمن ذلك انه لم يامرهم ولم يحسن اليهم باجابة الدعوات وغفران الزلات
وتفريج الكربات لاستجلاب منفعة ولا لاستدفاع مضرة وانهم لو اطاعوه كلهم لم يزيدوا في ملكه شيئا

ولو عصوه كلهم لم ينقصوا من ملكه شيئاً وانه الغني الحميد ومن كان هكذا فانه لا يتضرر بطاعة عباده ولا يتأثر بمعاصيهم ولكن من له الحكم البوالغ في تكليف عباده وامرهم ونهيهم ما تقتضيه ملكه التام وحمده وحكمته ولو لم يكن في ذلك الا انه مستوجب من عباده شكر نعمه التي لا تحصى بحسب قواهم وطاقتهم لا بحسب ما ينبغي له فانه اعظم واجل من ان يقدر خلقه عليه ولكنه سبحانه رضي من عباده بما تسمح به طبائعهم وقواهم فلا شيء احسن في العقول والفطر من شكر المنعم ولا انفع للعبد منه فهذان مسلكان آخران في حسن التكليف والامر والنهي احدهما يتعلق بذاته وصفاته وانه اهل لذلك وان جماله تعالى وكماله واسماءه وصفاته تقتضي من عباده غاية الحب والذل والطاعة له والثاني يتعلق باحسانه وانعامه ولا سيما مع غناه عن عباده وانه انما يحسن اليهم رحمة منه وجوداً وكرماً لا لمعاوضة ولا لاستجلاب منفعة ولا لدفع مضرة واي المسلكين سلكه العبد اوقعه على محبته وبذل الجهد في مرضاته فاين هذين المسلكين من ذينك المسلكين وانما اتى القوم من انكارهم المحبة وذلك الذي حرمهم من العلم والايمان ما حرمهم واوجب لهم سلوك تلك الطرق المسدودة والله الفتاح العليم

الوجه التاسع والاربعون

قولكم فلا يكون نعمه تعالى ثواباً بل ابتداء كلام يحتمل حقاً وباطلاً فان اردتم بانه لا يثيبهم على اعمالهم بالجنة ونعيمها ويجزيهم باحسن ما كانوا يعملون فهو باطل والقرآن اعظم شاهد ببطلانه قال تعالى والذين هاجروا واخرجوا من ديارهم واوذوا في سبيلي وقاتلوا وقتلوا لاكفرن عنهم سيئاتهم ولادخلنهم جنات تجري من تحتها الانهار ثواباً من عند الله والله عنده حسن الثواب وقال تعالى ليكفر الله عنهم اسوأ الذي عملوا ويجزيهم اجرهم باحسن الذي كانوا يعملون وقال تعالى وتلك الجنة التي اورثتموها بما كنتم تعملون وقال تعالى ان الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون اولئك اصحاب الجنة خالدين فيها جزاء بما وقال تعالى اولئك جزاؤهم مغفرة من ربهم وجنات تجري من تحتها الانهار خالدين فيها ونعم اجر العاملين وقال تعالى والذين آمنوا وعملوا الصالحات لنبوئنهم من الجنة غرفاً تجري من تحتها الانهار خالدين فيها نعم اجر العاملين وهذا في القرآن كثير مبين ان الجنة ثوابهم وجزاؤهم فكيف يقال لا يكون نعمه ثواباً على الاطلاق بل تكون نعمه تعالى مقابلة للاعمال ولا الاعمال ثمناً لها فانه لن يدخل احد الجنة عمله ولا يدخلها احد الا بمجرد فضل الله ورحمته وهذا لا ينافي ما تقدم من النصوص فانها انما تدل على ان الاعمال اسباب لا اعواض ولا اثمان والذي نفاه النبي صلى الله عليه وسلم من الدخول بالعمل هو نفي استحقاق العوض ببذل عوضه فالمثبت باء السببية

والمنفي باء المعاوضة والمقابلة وهذا فصل الخطاب في هذه المسألة والقدرية الجبرية تنفي باء السببية جملة وتنكر ان يكون الاعمال سبباً في النجاة ودخول الجنة وتلك النصوص واضعافها تبطل قولهم والقدرية النفاة تثبت باء المعاوضة والمقابلة وتزعم ان الجنة عوض الاعمال وانها ثمن لها وان دخولها انما هو بمحض الاعمال والنصوص النافية لذلك تبطل قولهم والعقل والفطرة تبطل قول الطائفتين ولا يصح في النصوص والمعقول الا ما ذكرناه من التفصيل وبه يتبين ان الحق مع الوسط بين الفرق في جميع المسائل لا يستثنى من ذلك شيء مما اختلف الفرق لما كان الحق مع الوسط وكل من الطائفتين معه حق وباطل فاصاب الجبرية في نفي المعاوضة واخطأوا في نفي السببية واصاب القدرية في اثبات السببية واخطأوا في اثبات المعاوضة فاذا ضممت احد شقي الجبرية الى احد شقي القدرية ونفيت باطلهما كنت اسعد بالحق منهما فان اردتم بان نعمه لا تكون ثواباً هذا القدر وانها لا تكون عوضاً بل هو المنعم بالاعمال والثواب وله المنة في هذا وهذا وبنعمته بالثواب من غير استحقاق ولا ثمن يعاوض عليه بل فضل منه واحسان فهذا هو الحق فهو المان بهدايته للايمان وتيسيره للاعمال واحسانه بالجزاء كل ذلك بمجرد منته وفضله قال تعالى يمنون عليك ان اسلموا قل لا تمنوا علي اسلامكم بل الله يمن عليكم ان هداكم للايمان ان كنتم صادقين

الوجه الخمسون

قولكم واذا تعارض في العقول هذان الامران فكيف يهتدي العقل الى اختيار احدهما قلنا قد تبين بحمد الله انه لا تعارض في العقول بين الامرين اصلاً وانما يقدر التعارض بين العقل والهوى واما ان يتعارض في العقل ارشاد العباد الى سعادتهم في المعاش والمعاد وتركهم هملاً كالانعام السائمة لا يعرفون معروفاً ولا ينكرون منكراً فلم يتعارض هذان في عقل صحيح ابداً

الوجه الحادي والخمسون

قولكم فكيف يعرف العقل وجوباً على نفسه بالمعرفة وعلى الجوارح بالطاعة وعلى الرب بالثواب والعقاب فيقال واي استبعاد في ذلك واما الذي يحيله فقد عرفنا العقل من الواجبات عليه ما يقبح على العبد تركها كما عرفنا وعرف اهل العقول قاطبة وذوي الفطر التي لم تتواطأ على الاقوال الفاسدة وجوب الاقرار بالله وربوبيته وشكر نعمته ومحبته وعرفنا قبح الاشراك به والاعراض عنه ونسبته الى ما لا يليق به وعرفنا قبح الفواحش والظلم والاساءة والفجور والكذب والبهت والاثم والبغي والعدوان فكيف يستبعد منه ان يعرف وجوباً على نفسه بالمعرفة وعلى الجوارح بالشكر المقدور المستحسن في العقول التي جاءت الشرائع بتفصيل ما ادركه العقل

منه جملةً وتفصيلاً بما ادركه العقل مفصلاً واما الوجوب على الله بالثواب والعقاب فهذا مما تباين
فيه الطايفتان اعظم تباين فاثبتت القدرية من المعتزلة عليه تعالى وجوباً عقلياً وضعوا شريعةً
له بعقولهم وحجروا عليه الخروج عنه وشبهوه في ذلك كله وبدّعهم في ذلك سائر الطوائف
وسفهوا آراءهم فيه وبينوا مناقضتهم والزموهم بما لا محيد لهم عنه ونفت الجبرية ان يجب عليه ما
اوجبه على نفسه ويحرم عليه ما حرمه على نفسه وجوزوا عليه ما يتعالى ويتنزه عن فعله ومالا
يليق بجلاله مما حرمه على نفسه وجوزوا عليه ترك ما اوجبه على نفسه مما يتعالى ويتنزه عن
تركه وفعل ضده فتباين الطايفتان اعظم تباين فهدى الله الذين آمنوا اهل السنة الوسط
الطريقة المثلى التي جاء بها رسوله ونزل بها كتابه وهي ان العقول البشرية بل وسائر المخلوقات
لا توجب على ربها شيئاً ولا تحرمه وانه تعالى يتنزه عن ذلك واما ما كتبه على نفسه وحرمه على نفسه
فانه لا يخل به ولا يقع منه خلافه فهو ايجاب منه على نفسه بنفسه وتحريم منه على نفسه بنفسه
فليس فوقه تعالى موجب ولا محرم وسياتي ان شاء الله بسط ذلك وتقريره ٥ الوجه
الثاني والخمسون قولكم انه على اصول المعتزلة يستحيل الامر والنهي والتكليف وتقريركم
ذلك فكلام لا مطعن فيه والامر فيه كما ذكرتم وان حقيقة قول القوم لا امر ولا نهي ولا شرع اصلا
اذ ذلك كله انما يصح اذا ثبت قيام الكلام بالمتكلم الآمر الناهي وقيام الاقتضاء والطلب والحب لما
امر به والبغض لما نهى عنه به فاما اذا لم يثبت له كلام ولا ارادة ولا اقتضاء ولا طلب ولا حب
ولا بغض قائم به فانه لا يعقل اصلا كونه آمراً ولا ناهياً ولا باعثاً للرسل ولا محباً للطاعة
ولا باغضاً للمعصية فاصول هذه الطايفة تعطل الصفات عن صفات كماله فانها تستلزم ابطال
الرسالة والنبوة جملةً ولكن ذنب لازم لا يلتزمه صاحب المقالة وسانقرر في القول بملزومه
دون القول به ولا ريب ان نفاة اللازم مستلزم لنفاة الملزوم ولكن يقال لكم معاشر
الجبرية لا تكونوا ممن يرى القذاة في عين اخيه ولا يرى الجذع المعترض في عينه فقد الزمتم
القدرية ما لا محيد عنه وانكم من نفى فعل العبد جملة فقد عطل الشرايع والامر والنهي فان
الامر والنهي لا يتعلق الا بالفعل المامور به فهو الذي يؤمر به وينهى عنه ويثاب عليه ويعاقب
فاذا انتفى فعل العبد فقد رفع متعلق الامر والنهي وفي ذلك ابطال الامر والنهي فلا فرق
بين رفع المامور به المنهي عنه ورفع المامور المنهي نفسه فان الامر يستلزم آمراً ومأموراً به
ولا يصح له حقيقة الا بهذه الثلاث ومعلوم ان من الامر بفعل نفسه ونهيه عن نفسه يبطل

التكليف جملةً فان التكليف لا يعقل معناه الا اذا كان المكلف قد كلف بفعله هو المقدور له التابع
لارادته ومشيئته واما اذا زعمتم ان ذلك من ليس وقلتم بل هو مكلف بفعل الله حقيقته لا يدخل تحت
قدرة العبد ولا هو متمكن من الاتيان به ولا هو واقع بارادته ومشيئته فقد نفيتم التكليف جملة
من حيث اثبتموه وفي ذلك ابطال للشرائع والرسالة جملةً فقالوا فليتأمل المنصف الفطن لا
البليد المتعصب صحة هذا الالزام فلن يجد عنه محيداً قالوا فانتم معاشر الجبرية قدرية
من حيث نفيتم الفعل المامور به فان كان خصومكم قدرية من حيث نفوا تعلق القدرة القديمة فانتم
اولى ان تكونوا قدرية من حيث نفيتم فعل العبد له وتاثيره فيه وتعلقه بمشيئته فانتم اثبتم
قدراً على الله وقدراً على العبد اما القدر على الله فحيث زعمتم انه تعالى امر بفعل نفسه ونهى عن فعل
نفسه ومعلوم ان ذلك لا يصح ان يكون مأموراً منهياً عنه فانتم لم تثبتوا لا ماموراً به
ومنهياً ولا منهي عنه وهذه قدرية محضة في حق الرب واما في حق العبد فانكم جعلتموه مأموراً
منهياً من غير ان يكون له فعل يؤمر به وينهى عنه فاي قدرية ابلغ من هذه فمن الملوم بحمل قوله ابطال
الشرائع وتعطيل الاوامر وعكسته البليت لمواقعه هذه المساجلة ويتهم هذه المناضلة
ثم لنحترسها احدى خطتين ولا والله فيها حظ لمختار ولا نجوا من هذه الورطات الا باثبات
كلام الله القائم به المتضمن لامره ونهيه ووعده ووعيده واثباته ما استحقه من صفات
كماله ومن الامور الثبوتية القائمة به ثم اثبت مع ذلك فعل العبد واختياره ومشيئته وارادته
التي هي مناط الشرائع ومتعلق الامر والنهي فلا جبري ولا جهمي ولا قدري وكيف يختار العاقل
اداة ومذاهب هذه بعض لوازمها ولو صار بها الى آخرها لاستبان له من فسادها وبطلانها
ما يسجب معه من قائلها ومنتحلها والله الموفق للصواب ٥ الوجه الثالث والخمسون
قولكم انه ما من معنى يستنبط من قول او فعل او ربط به معنى مناسب له الا ومن حيث العقل يعارضه معنى آخر
يساويه في الدرجة او يفضل عليه في الرتبة فيتحير العقل في الاختيار الى ان يرد شرع يختار احدهما
او يرجحه بتعليقه فيجب على العاقل اعتباره واختيار الترجيح الشرع له لا لرجحانه في نفسه
فيقال ان اردتم هذه المعارضة انها ثابتة في جميع الافعال والاقوال المشتملة على
الاوصاف المناسبة التي ربطت بها الاحكام كما يدل عليه كلامكم فدعوى باطلة بالضرورة
وهي كذب محض وكذلك ان اردتم انها ثابتة في اكثرها فاي معارضة للعقل للوصف المقتضي للقبح
في الكذب والفجور والظلم واهلاكه والنسل والاساءة الى المحسنين وضرب الوالدين

بالجر

واحتقارهما والمبالغة في اهانتهما بلا جرم واي معارضة في العقل للاوصاف القبيحة في الشرك
بالله ومسبته وكفران نعمته واي معارضة فيه للوصف القبيح في انواع الفواحش التي فطرت
العقول والفطر على استقباحها واي معارضة في العقل للوصف القبيح في نكاح الامهات
واستفراشهن كاستفراش الاماء والزوجات الى اضعاف اضعاف ما ذكرنا مما تشهد العقول بقبحه
غير معارض فيها بل غاية ما يمكن ان يكون داعي الشهوة والهوى وداعي العقل متعارضان فان
اردتم هذا التعارض فمسلم ولكن لا يجدي عليكم الا عكس مطلوبكم وكذلك اي معارضة في العقول
للاوصاف المقتضية حسن عبادة الله وشكره وتعظيمه وتمجيده والثناء عليه بآلائه وانعامه وصفات
جلاله ونعوت كماله وافراده بالمحبة والعبادة والتعظيم والايثار وكشف الكربات وقضاء الحاجات
واغاثة اللهفات والاخذ على ايدي الظالمين وقمع المفسدين ومنع البغاة والمعتدين وحفظ
عقول العالمين واموالهم ودمائهم واعراضهم بحسب الامكان والامر بما يصلحها ويكملها والنهي عما
يفسدها وينقصها وهذه حال جملة الشرائع وجمهورها اذا تاملها العقل جزم انه يستحيل على
احكم الحاكمين ان يشرع خلافها لعباده واما ان اردتم ان في بعض ما يدق منها ما لا يعارض فيه
الاوصاف المستنبطة في العقول فيخفى على العقل من المناسب منها وغير المناسب فهذا وان كان واقعا
فانه لا ينفي حسنها الذاتي وقبح ضدها الذاتي وكون الوصف خفي المناسبة والتاثير في بعض المواضع
مما لا يدفعه وهذه حال كثير من الامور العقلية المحضة بل الحسية وهذا الطب مع انه حسي تجربي
يدرك منافع الاغذية والادوية وقواها وحرارتها وبرودتها ورطوبتها ويبوستها فيه بالحس
ومع هذا فانهم يختلفون اختلاف اهل الشرع في كثير من مسائلهم في الشيء الواحد هل هو نافع لذا ملائم له او منافر
مؤذ وهل هو حار او بارد وهل هو رطب او يابس وهل فيه قوة تصلح لامر من الامور او لا قوة فيه
ومع هذا فالاختلاف المذكور لا ينفي عند العقلاء ما جعل في الاغذية والادوية من القوى والمنافع
والمضار والكيفيات لان سبب الاختلاف خفاء تلك الاوصاف على بعض العقلاء او دقتها وعجز
الحس والعقل عن تمييزها ومعرفة مقاديرها والنسب الواقعة بين طبائعها وطبائعها ولم يكن هذا
الاختلاف بموجب عند احد من العقلاء انكار جملة العلم وجمهور قواعده ومسائله ودعوى انه ما
من وصف يستنبط من دواء مفرد او مركب او من غذاء الا وفي العقل ما يعارضه فيتحير العقل ولو
ادعى هذا مدع لضحك منه العقلاء لما علموا بالضرورة والحس من ملائمة الاوصاف ومنافرتها
واقتضاء تلك الذوات للمنافع والمضار في الغالب ولا يكون اختلاف بعض العقلاء بموجب انكار

ما علم بالضرورة والحس فهكذا الشرائع **الوجه الرابع والخمسون** قولكم اذا
قتل انسان انسانا مثله عرض للعقل ههنا آراء متعارضة مختلفة الى آخره فيقال ان اردتم
العقل يسوي بين ما شرعه الله من القصاص وبين تركه لمصلحة الجاني فهذا بهت للعقل وكذب عليه
فانه لا يستوي عند عاقل قط حسن الاقتصاص من الجاني بمثل ما فعل وحسن تركه والاعراض عنه
ولا يعلم عقل صحيح يسوي بين الامرين وكيف يستوي امران احدهما يستلزم فساد النوع
وخراب العالم وترك الانتصار للمظلوم وتمكين الجناة من البغي والعدوان والثاني يستلزم
صلاح النوع وعمارة العالم والانتصار للمظلوم وردع الجناة والبغاة والمعتدين فكان في القصاص
حياة العالم وصلاح الوجود وقد نبه تعالى على ذلك بقوله ولكم في القصاص حياة يا اولي
الالباب لعلكم تتقون وفي ضمن هذا الخطاب ما هو كالجواب لسؤال مقدر ان اعدام هذه البنية
الشريفة وايلام هذه النفس واعدامها في مقابلة اعدام المقتول تكثير لمفسدة القتل فلاي
حكمة صدر هذا ممن وسعت رحمته كل شيء وبهرت حكمته العقول فتضمن الخطاب جواب ذلك
بقوله ولكم في القصاص حياة وذلك ان القاتل اذا توهم انه يقتل قصاصا بمن قتله كف عن القتل
وارتدع وآثر حب حياته ونفسه فكان فيه حياة له ولمن اراد قتله ومن وجه آخر وهو انهم كانوا
اذا قتل الرجل من عشيرتهم وقبيلتهم قتلوا به كل من وجدوه من عشيرة القاتل وحيه وقبيلته
وكان في ذلك من الفساد والهلاك ما يعم ضرره وتشتد مؤنته فشرع الله تعالى القصاص
وان لا يقتل بالمقتول غير قاتله ففي ذلك حياة عشيرته وحيه واقاربه ولم تكن الحياة
في القصاص من حيث انه قتل بل من حيث كونه يؤخذ القاتل وحده بالمقتول لا غيره فتضمن القصاص
الحياة من الوجهين جميعا وتامل ما تحت هذه الالفاظ الشريفة من الجلالة والايجاز والبلاغة
والفصاحة والمعنى العظيم فصدر الآية بقوله لكم المؤذن بان منفعة القصاص مختصة بكم
عائدة اليكم فشرعه انما كان رحمة بكم واحسانا اليكم فمنفعته ومصلحته لكم لا لمن لا يبلغ العباد
ضره ونفعه ثم عقبه بقوله في القصاص ايذانا بان الحياة الحاصلة انما هي في العدل وهو ان
يفعل به كما فعل والقصاص في اللغة المماثلة وحقيقته راجعة الى الاتباع ومنه قوله تعالى
وقالت لاخته قصيه اي اتبعي اثره ومنه قوله فارتدا على آثارهما قصصا اي يقصان
الاثر ويتبعانه ومنه قص الحديث واقتصاصه لانه يتبع بعضه بعضا في الذكر فسمي
جزاء الجاني قصاصا لانه يتبع اثره فيفعل به كما فعل وهذا احد ما يستدل به على ان يفعل بالجاني

كما فعل ويفعل بمثل ما فعل به ليتحقق معنى القصاص وقد ذكرنا أدلة المثلة من الطرفين وترجيح
القول الراجح بالنص والآثار والمعقول في كتاب تهذيب السنن وتنكير الحياة تعظيما لها وتفخيما لشأنها
وليس المراد حياة ما بل المعنى أن في القصاص حصول هذه الحقيقة المحبوبة للنفوس المؤثرة عندها المستحسنة
في كل عقل والتنكير كثيرا ما يجيء للتعظيم والتفخيم كقوله تعالى وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة
وقوله تعالى ورضوان من الله أكبر وقوله تعالى إن هو إلا وحي يوحى ثم خص أولي الألباب وهم
أولو العقول التي عقلت عن الله تعالى أمره ونهيه وحكمه إذ هم المنتفعون بالخطاب وأين هذه الكلمات
وبين قولهم القتل أنفى للقتل بين مقدار التفاوت وعظمة القرآن وجلالته ٥ **الوجه الخامس
والخمسون** قولكم إن القصاص إتلاف بإزاء إتلاف وعدوان في مقابلة عدوان ولا يحيى الأول
بقتل الثاني ففيه تكثير المفسدة بإعدام النفسين وأما مصلحة الردع والزجر واستيفاء النوع فأمر
متوهم وفي القصاص استهلاك محقق فيقال هذا الكلام من أفسد الكلام وأبينه بطلانا فإنه يتضمن
التسوية بين القبيح الذي اتفقت الديانات على قبحه وفساده وبين الحسن الذي اتفقت العقول والديانات
على حسنه وصلاح الوجود به وهل يستوي في عقل أو دين أو فطرة القتل ظلما وعدوانا بغير حق والقتل
قصاصا وجزاء بالحق ونظير هذه التسوية تسوية المشركين بين الربا والبيع لاستوائهما في صورة
العقد ومعلوم أن استواء الفعلين في الصورة لا يوجب استواءهما في الحقيقة ومن عرف ذلك في عادة
المكابرة وهل هذا إلا استواء السجود للصنم والسجود لله في الصورة الظاهرة وهو وضع الجبهة على الأرض
على التساوي في الحقيقة حتى يتحير العقل بينهما ويتعارضان فيه ولكن قد قضت الطباع والعقلاء
قاطبة على قبح القتل الذي هو ظلم وبغي وعدوان وحسن القتل الذي هو جزاء وقصاص وردع
وزجر والفرق بين هذين مثل الفرق بين الزنا والنكاح بل أعظم وأظهر بل الفرق بينهما من جنس
الفرق بين الإصلاح في الأرض والإفساد فيها فما تعارض عقل صحيح قط في هذين الأمرين حتى يتحير
بينهما أيهما يؤثر ويختار وقولكم إنه إتلاف بإزاء إتلاف وعدوان في مقابلة عدوان فكذلك هو
إتلاف حسن هو مصلحة وحكمة وصلاح للعالم في مقابلة إتلاف هو فساد وشنعة وخراب للعالم فأنى
يستويان أم كيف يتعادلان حتى يتحير العقل بين الإتلاف الحسن وتركه وقولكم لا يحيى الأول بقتل الثاني
قلنا يحيى به عدد كثير من الناس ولو ترك ولم يؤخذ على يديه لأهلك الناس بعضهم بعضا فإن
لم يحي قتل الثاني حياة للأول ففيه حياة العالم ولذا قال تعالى ولكم في القصاص حياة بل هذا
المعنى لا يدركه حق الإدراك إلا أولو الألباب فأين هذه الشريعة وهذه الحكمة وهذه المصلحة من هذا الهذر

الفاسد وإن يقال قتل الجاني إتلاف بإزاء إتلاف وعدوان في مقابلة عدوان فيكون قبحا أول
الشرع فوازن بين هذا وبين ما شرعه الله وجعل مصالح عباده منوطة به وقولكم فيه تكثير
المفسدة بإعدام النفسين فيقال لو أعطيتم رتب المصالح حقها لم ترضوا بهذا الكلام الفاسد
فإن الشرائع والفطر والعقول متفقة على تقديم المصلحة الراجحة وعلى ذلك قام العالم وليس
فيه لذلك فإن احتمال المفسدة إتلاف الجاني إلى هذه المفسدة العامة فمن غير عقله بين هذين المفسدتين
فليس دونه والعقلاء قاطبة متفقون على أنه يحسن إتلاف جزء لسلامة كل كقطع الإصبع أو اليد
المتآكلة لسلامة البدن ولذلك يحسن الإيلام لدفع إيلام أعظم منه كقطع العروق وبط
الجراح ونحوه ولو طرد العقلاء قياسكم هذا الفاسد وقالوا هذا إيلام محقق لدفع إيلام متوهم
لفسد البدن جملة ولا فرق عند العقول بين هذا وبين قياسكم الفاسد ٥ **الوجه
السادس والخمسون** قولكم إن مصلحة الردع والزجر والحياة إنما هي أمر متوهم كلام مشتمل
فساده بل هو أمر محقق وقوعه ويدل عليه ما يشاهد من الفساد العام عند ترك الجناة
والمفسدين وإهمالهم وعدم الأخذ على أيديهم والمتوهم من زعم أن ذلك متوهم وهو بمثابة من زعم
العدو وقال لا نعرض أنفسنا للمشقة بقتالهم فإن مفسدته محققة وأما استيلاؤهم على بلادنا ٥
وسبيهم ذرارينا وقتل مقاتلتنا فموهوم فيا ليت شعري من الموهوم المخطئ في وهمه وطرد هذا
أن الرجل إذا هاج الدم فيه واضطر إلى إخراجه أن لا يعرض لشق جلده وقطع عروقه لأن الألم
محقق لأمر موهوم ولو طرد هذا القياس الفاسد لخرب العالم وتعطلت الشرائع والاعتماد في
طلب المصالح الدارين ودفع مفاسدها مبني على هذا الذي تسمونه أنتم موهوما فالعمال في الدنيا إنما
يتصرفون بناء على الغالب المعتاد الذي اطردت به العادة وإن لم يجزموا به فإن الغالب صدق
العادة واطرادها عند قيام أسبابها فالتاجر يحمل مشقة السفر في البر والبحر بناء على أنه
يسلم ويغنم ولو طرد هذا القياس الفاسد وقال السفر مشقته محققة والكسب أمر موهوم
لتعطلت أسفار الناس بالكلية وكذلك أعمال الآخرة لو قال تعب العمل ومشقته أمر محقق وحسن
الخاتمة أمر موهوم لتعطلت الأعمال جملة وكذلك الأجراء من الصناع والملوك والجند وكل طالب
أمر من الأمور الدنيوية والأخروية لو لم يبن على الغالب وما جرت به العادة لما احتمل المشقة المتيقنة
لأمر منتظر ومن هاهنا قيل إن إنكار هذه المسألة يستلزم تعطيل الدنيا والآخرة من وجوه تعد له
الوجه السابع والخمسون قولكم ومعارضة بمثل ذلك وراءها فتفكر العقل إلى أي

شروطا من ذا المجرد الانسانية من العقل والبلوغ والعلم والجهل والكمال والنقص والقرابة
والاجنبية فيتحير العقل كل التحير فلا بد اذا من شارع يفصل هذه الخطة ويعين قانونا يطرد عليه
امر الامة ويستقيم عليه مصالحهم فيقال لا ريب ان الشرائع ما تجيء الا بما تستقل العقول بادراكه
فاذا جاءت به الشريعة اهتدى العقل حينئذ الى وجه حسن مامورها وقبح منهيها فمرتبة الشريعة
على جهة الحكم والمصلحة الباعثة على شرعه تهديها الا ينكر وهذا الذي قلنا فيه ان الشرائع
تاتي بمحارات العقول لا بمحالات العقول ونحن لم ندع ولا عاقل قط ان العقل يستقل
بجميع تفاصيل ما جاءت به الشريعة بحيث لو ترك وحده لاهتدى الى كل ما جاءت به اذا
عرف هذا فغاية ما ذكرتم ان الشريعة الكاملة اشترطت في وجوب القصاص شروطا
لا يهتدي العقل اليها واي شيء يلزم من هذا وما ذا يبعد لكم وما زعمكم ينكرونه لكم
وقولكم ان هذا معارض للوصف المقتضي لثبوت القصاص من قيام مصلحة العالم اما عقله
عن شروط المعارضة واما اصلاح طار شبههم فيه ما لا يهتدي العقل اليه من شروط اقتضاء
الوصف لموجبه معارضته **فيالله العجب** اي معارضة ههنا اذا كان العقل والفطرة
قد شهدا بحسن القتل قصاصا واناطته بالعالم وتوقفه في اقتضاء هذا الوصف هل يتم اليه
شرط اخر عنده ام يكفي مجرده وفي تعيين تلك الشروط فادرك العقل ما استقل بادراكه وتوقف
عما لا يستقل بادراكه حتى اهتدى بنور الشريعة يوضح هذا ان **الوجه الثامن والخمسون**
ان ما وردت به الشريعة في اصل القصاص وشروطه ينقسم الى قسمين احدهما ما حسنه
معلوم بصريح العقل الذي لا يشترب فيه عاقل وهو اصل القصاص واناطة مصالح العالم
به والثاني ما حسنه معلوم بنظر العقل وفكره وتامله فلا يهتدي اليه الا الخواص
وهو ما اشترط اقتضاء هذا الوصف او جعل تابعا له فاشترط له المكافاة في الدين وهذا
في غاية المراعات والحكمة والمصلحة فان الدين هو الذي فرق بين الناس في العصمة وليس
في حكم الله وحسن شرعه ان يجعل دم وليه وعبده واحب خلقه اليه وخير بريته ومن خلقه
لنفسه واختصه بكرامته واهله لجواره في جنته والنظر الى وجهه وسماع كلامه في دار كرامته
كدم عدوه وامقت خلقه اليه وشر بريته والعادل به العادل عن عبادته الى عبادة الشيطان
الذي خلقه للنار وللطرد عن بابه والابعاد عن رحمته وبالجملة فحاشى حكمته ان يسوي بين دماء
خير البرية ودماء شر البرية في اخذ هذه بهذه سيما وقد ابيح لاوليائه دماء اعدائه

وجعلهم

وجعلهم قرابين لهم وانما اقتضت حكمته ان يكفوا عنهم اذا صاروا تحت قهرهم واذلالهم
كالعبيد لهم يودون اليهم الجزية التي هي خراج رؤوسهم مع بقاء السبب الموجب لاباحة دمائهم
وهذا الترك والكف لا يقتضي استواء الدمين عقلا ولا شرعا ولا مصلحة ولا ريب ان
الدمين قبل القهر والاذلال لم يكونا يستويان لاجل الكفر فاي موجب لاستوائهما بعد الاذلال
والكفر قائم بعينه فهل تقتضي الحكمة وقواعد الشريعة وموجبات العقول ان يكون الاذلال
والقهر للكافر موجبا لمساواة دمه لدم المسلم هذا مما تاباه الحكمة والمصلحة والعقول
وقد اشار صلى الله عليه وسلم الى هذا المعنى وكشف الغطاء واوضح المشكل بقوله المسلمون
تتكافأ دماؤهم اوقف المؤمنون فعلق المكافاة بوصف لا يجوز الغاؤه واهداره
وتعليقها بغيره اذ يكون ابطالا لما اعتبره الشارع واعتبارا لما ابطله فاذا علق المكافاة
بوصف الايمان كان تعليقه بسائر الاحكام بالاوصاف كتعليق القطع بوصف السرقة
والرجم بوصف الزنا والجلد بوصف القذف والشرب ولا فرق بينهما اصلا فكل من علق الاحكام
بغير الاوصاف التي علقها به الشارع كان تعليقه منقطعا مستهجنا وهذا مما اتفق عليه الفقهاء
على صحته فنادى نظر العقل الى ان دم عدو الله الكافر لا يساوي دم وليه ولا يكافيه
ابدا وجاء الشرع بوجه فاي معارضة ههنا واي حيرة انه هو البصيرة على البصر ونور على
نور وليس هذا مكان استيعاب الكلام على هذه المسالة وانما الغرض التنبيه على ان صريح
العقل شاهد لما جاء به الشرع فيها **فصل** وعلى هذا انه لم يشترط
المكافاة في علم وجهل ولا في كمال ونقص ولا في شرف وضعة ولا في عقل وجنون ولا في اجنبية
وقرابة خلا الوالد والولد وهذا من كمال الحكمة وتمام النعمة وهو غاية المصلحة اذ لو روعيت
هذه الامور لتعطلت مصلحة القصاص الا في النادر البعيد اذ قل ان يستوي شخصان من
كل وجه بل لا بد من التفاوت بينهما في هذه الاوصاف او بعضها فلو ان الشريعة جاءت بان لا يقتص
الا من مكافئ من كل وجه لفسد العالم او عظم الهرج وانتشر الفساد ولا يخفى على عاقل
وضع هذه المناسبة الجانبين وواضعها الى السفه اقرب منه الى الحكمة فلا جرم اهتدت بذلك
شرائع اعتبار ذلك واما الوالد والولد فمنع من القصاص بينهما حقيقة البعضية والجزئية
التي بينهما فان الولد جزء من الوالد لا يقتص بعض اجزاء الانسان من بعض وقد اشار تعالى
الى ذلك بقوله تعالى وجعلوا له من عباده جزءا وهو قولهم الملائكة بنات الله فدل على ان الولد جزء

من والده وعلى هذا الاصل امتنعت منها ديته له وقطعه بالسرقة من ماله وحده اياه على قذفه ومن هذا الاصل ذهب كثير من السلف منهم الامام احمد رضي الله عنه وغيره الى ان له ان يتملك ما شاء من مال ولده وهو كالمباح في حقه وقد ذكرنا هذه المسئلة مستقصاه بادلتها وبينا ادلة القران عليها من وجوه متعددة في غير هذا الموضع وهذا الماخذ احسن من قولهم ان الاب لما كان هو السبب في ايجاد الولد فلا يكون الولد سببا في اعدامه وفي المسئلة مسلك آخر وهو مسلك قوي جدا وهو ان الله سبحانه جعل في قلب الوالد من الشفقة على ولده والحرص على حياته ما يوازي شفقته على نفسه وحرصه على حياة نفسه وربما يزيد على ذلك فقد يوثر الرجل حياة ولده على حياته وكثيرا ما يحرم الرجل نفسه حظوظها ويوثر بها ولده وهذا القدر مانع من كونه يريد اعدامه واهلاكه بل لا يقصد في الغالب الا تاديبه وعقوبته على اساءته فلا يقع قتله في الاغلب عن قصد وتعمد بل عن خطا وسبق يد واذا وقع ذلك غلطا الحق بالقتل الذي لم يقصد به ازهاق النفس فان اسباب التهمة والعداوة الحاصلة على القتل لا تكاد توجد في الاباء وان وجدت نادرا فالعبرة بما اطردت عليه عادة الخليقة وهنا للناس طريقان احدهما انا اذا تحققنا التهمة وقصد القتل والازهاق بان يضجعه ويذبحه مثلا اجرينا القصاص بينهما لتحقق قصد الجناية وانتفاء المانع من القصاص وهذا قول اهل المدينة والثاني انه لا يجري القصاص بينهما بحال وان تحقق قصد القتل لمكان الجزئية والبعضية المانعة من الاقتصاص من بعض اجزاء الانسان لبعضه وهو قول الاكثرين ولا يرد عليهم قتل الولد بوالده وان كان بعضه لان الاب لم يخلق من نطفة الابن فليس الاب جزءا له حقيقة ولا حكما بخلاف الولد فانه جزء حقيقة وليس هذا موضع استقصاء الكلام على هذه المسئلة اذ المقصود بيان اشتمالها على الحكم والمصالح التي يدركها العقل وان لم يستقل بها فجاءت الشريعة بها مقررة لما استقر في العقل ادراكه ولو ببعض الوجوه وبعد التنزل عن هذا المقام فاقصى ما فيه ان يقال الشريعة جاءت بما يعجز العقول عن ادراكه لا بما يحيله العقل ونحن لا ننكر ذلك ولكن لا يلزم منه نفي الحكم والمصالح التي اشتملت عليها الافعال في ذواتها والله اعلم ۝

الوجه الثامن والخمسون قولكم وظهر بهذا ان المعاني المستنبطة راجعة الى مجرد انشاط العقل ووضع الذهن من غير ان يكون الفعل مشتملا عليها كلام في غاية الفساد والبطلان لا يرتضيه اهل العلم والانصاف وتصوره حق التصور كاف في الجزم ببطلانه من وجوه عديدة احدها

ان العقل

ان العقل والفطرة تشهدان ببطلانه والوجود يكذبه فان اكثر المعاني المستنبطة من الاحكام ليست من اوضاع الاذهان المجردة عن اشتمال الافعال عليها ومدعي ذلك في غاية المكابرة التي لا تجري عليه الا توهمي المقالة وهذه المعاني المستنبطة من الاحكام من وجوه مشهورة يعلم العقلاء انها ليست من اوضاع الذهن بل الذهن ادركها وعلمها وكان نسبة الذهن الى ادراكها كنسبة البصر الى ادراك الالوان وغيرها وكنسبة السمع الى ادراك الاصوات وكنسبة الذوق الى ادراك الطعوم والشم الى ادراك الروائح فهل يسوغ لعاقل ان يدعي ان هذه المدركات من اوضاع الحواس وكذلك العقل اذا ادرك ما اشتمل عليه الكذب والفجور وخراب العالم والظلم واهلاك الحرث والنسل والزنا بالامهات وغير ذلك من القبائح وادرك ما اشتمل عليه الصدق والبر والاحسان والعدل وشكر المنعم والعفة وفعل كل جميل من الحسن لم تكن تلك المعاني التي اشتملت عليها هذه الافعال مجرد وضع الذهن واستنباط العقل ومدعي ذلك مفتر في عقله فان المعاني التي اشتملت عليها المنهيات الموجبة لتحريمها امور ناشئة من الافعال ليست اوضاعا ذهنية والمعاني التي اشتملت عليها المامورات الموجبة لحسنها ليست مجرد اوضاع ذهنية بل امور حقيقية ناشئة من ذوات الافعال تترتب اثارها عليها كترتب اثار الادوية والاغذية عليها وما نظير هذه المقالة الا مقالة من زعم ان القوى والاثار المستنبطة من الاغذية والادوية لا حقيقة لها انما هي اوضاع ذهنية ومعلوم ان هذا باب من السفسطة فاعرض معاني الشريعة الكلية على عقلك وانظر ارتباطها بافعالها وتعلقها بها ثم تامل هل تجدها امورا حقيقية نشات من الافعال فاذا فعل الفعل نشا منه اثره او تجدها اوضاعا ذهنية لا حقيقة لها واذا اردت معرفة بطلان المقالة فكر من النظر في ادلتها فادلتها من اكبر الشواهد على بطلانها بل العاقل يستغني بادلة الباطل عن اقامة الدليل على بطلانه بل نفس دليله هو دليل بطلانه ۝

الوجه الثاني ان انشاط العقول ووضع الاذهان لما لا حقيقة له من باب الخيالات والتقديرات التي لا يترتب عليها علم ولا معلوم ولا اصلاح ولا افساد اذ هي خيالات مجردة واوهام مقدرة فوضع الذهن سائر ما يصيغه من المقدرات الذهنية ومعلوم ان المعاني المستنبطة من الاحكام هي من اجل العلوم ومعلومها من اشرف المعلومات وانفعها للعباد وهي منشا مصالحهم في معاشهم ومعادهم وترتب اثارها عليها مشهود في الخارج

معقولة الفطر قائمة في العقول فكيف يدعى انه مجرد وضع ذهني لا حقيقة له به ه
الوجه الثالث ان استنباط الذهن لما استنبطه من المعاني واعتقاده ان الافعال
مشتملة عليها مع كون الامر ليس كذلك جهل مركب واعتقاد باطل فانه اذا اعتقد ان الافعال
مشتملة على تلك المعاني وانها منشأها وليس كذلك كان اعتقادا للشيء بخلاف ما هو به
وهذا غاية الجهل فكيف يدعى هذا في اشرف العلوم وازكاها وانفعها واعظمها
تضمنا لمصالح العباد في المعاش والمعاد وهل هو الا لب الشريعة ومضمونها فكيف
يسوغ ان يدعى فيها هذا الباطل وترمى بهذا البهتان وبالجملة فبطلان هذا القول اظهر
من ان يتكلف رده ولم يقل هذا القول من شم للفقه رائحة اصلا **الوجه التاسع والخمسون**
قولكم كانت صفات نفسية للعقول لزم من ذلك ان تكون الحركة الواحدة مشتملة على صفات
متناقضة واحوال متنافية فيقال وما الذي يحيل ان يكون الفعل مشتملا على صفتين
مختلفتين تقتضي كل منهما اثرا غير الاثر الاخر ويكون احد الصفتين والاثرين اولى به
وتكون مصلحته ارجح فاذا رتب على صفته الاخرى اثرها فاتت المصلحة الراجحة المطلوبة
شرعا وعقلا بل هذا هو الواقع ونحن نجد هذا حسا في قوى الاغذية والادوية ونحوها
من صفات الاجسام الحسية المدركة بالحس فكيف صفات الافعال المدركة بالعقل وامثلة ذلك
في الشريعة تزيد على الالف فهذه الصلاة في وقت النهي فيها مصلحة تكثير العبادة وتحصيل
الارباح ومزيد الثواب والتقرب الى رب الارباب وفيها مفسدة المشابهة الصورية
بالكفار وعباد الشمس وفي تركها مصلحة سد ذريعة الشرك وقطع النفوس عن المشابهة
بالكفار حتى في وقت العبادة وكانت المفسدة اولى بالصلاة في اوقات النهي من مصلحتها فلو رغب
لما فيها من المصلحة لفاتت مصلحة الترك وحصلت مفسدة المشابهة التي هي اقوى من مصلحة الصلاة
حينئذ ولهذا لما كانت مصلحة اداء الفرائض في هذه الاوقات ارجح من مفسدة المشابهة
بحيث تغمرت هذه المفسدة بالنسبة الى الفريضة لم يمنع منها بخلاف النافلة فانه يمكن فعلها
غير هذه الاوقات غنية عن فعلها فيها فلا تفوت مصلحتها فيقع فعلها في وقت لا مفسدة
راجحة ومن ههنا جوز ذوو العلم ذوات الاسباب في وقت النهي لترجح مصلحتها فانها لا تقضى
ولا يمكن تداركها وكانت مفسدة تفويتها ارجح من مفسدة المشابهة المذكورة وليس هذا موضع
استقصاء هذه المسالة فما الذي يحيل اشتمال الحركة الواحدة على صفتين مختلفتين

المشابهة

المشابهة ويكون بعضها ارجح من بعض فيقضى للراجح عقلا وشرعا وعلى هذا المثال مسائل
عامة الشريعة ولولا الاطالة لكتبنا منها ما يبلغ الف مسالة والعالم يتنبه بالجزئيات للقاعدة
الكلية **الوجه الستون** قولكم وليس معنى قولنا ان العقل استنبط منها كانت
موجودة في الشيء فاستخرجها العقل بل العقل تردد بين اضافات الاحوال بعضها الى بعض
ونسبة الحركات والاشخاص نوعا الى نوع وشخصا الى شخص فطرا عليه من تلك المعاني
ما حكيناه وربما يبلغ مبلغا يشذ عن الانحصار فعرفه ان المعاني لم ترجع الى الذات بل الى مجرد
الخواطر وهي متعارضة فيقال ما اعجب العقل يروج عليه مثل هذا الكلام ويبنى على هذه
القاعدة العظيمة وذلك بناء على شفا جرف هار وقد تقدم ما يكفي في بطلان هذا الكلام
ونزيده ههنا انه كلام فاسد لفظا ومعنى فان الاستنباط هو استخراج الشيء الثابت الخفي الذي
لا يعثر عليه كل احد ومنه استنباط الماء وهو استخراجه من موضعه ومنه قوله تعالى
ولو ردوه الى الرسول والى اولي الامر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم اي يستخرجون حقيقته
وتدبيره بفطنتهم وذكائهم وايمانهم ومعرفتهم بمواطن الامن والخوف ولا يصح معنى الا لشيء ثابت
له حقيقة خفية يستنبطها الذهن ويستخرجها فاما ما لا حقيقة له فانما هو مجرد ذهني فلا
استنباط فيه بوجه واي شيء يستنبط منه وانما هو تقدير وفرض وهذا لا يسمى استنباطا
في عقل ولا لغة وحينئذ فنقلب الكلام عليكم ونقول من تقليبه اسعد بالحق منكم فنقول
وليس معنى قولنا ان العقل استنبط من تلك الافعال ان ذلك مجرد خواطر طارية وانما
معناه انها كانت موجودة في الافعال فاستخرجها العقل باستنباطه كما يستخرج الماء الموجود
في الارض باستنباطه ومعلوم ان هذا هو المعقول المطابق للعقل واللغة وما
ذكرتموه فخارج عن العقل واللغة جميعا فعرف انه لا يصح نفي الاستنباط الا لشيء
موجود يستخرجه العقل ثم يستدل به انواع تلك الافعال واشخاصها فانها كانت اولى
به حكم له بالاقتضاء والاثر وهذا هو المعقول وهو الذي يعرفه العقلاء والمتكلمون
على مناسبات الشريعة واوصافها وعللها التي تربطها الاحكام ولو ذهب هذا من ايديهم
لانسد عليهم باب الكلام في القياس والمناسبات والحكم واستخراج ما تضمنته الشريعة
من ذلك وتعلق الاحكام باوصافها المقتضية لها اذا كان مرد الامر عندهم الى مجرد خواطر
طارية على العقل ومجرد وضع الذهن وهذا من ابطل الباطل وابين المحال ولقد انصفكم خصومكم

في ادعائهم عليكم لازم هذا المذهب وقالوا لو ورد في الحسن والقبح في الافعال الانسانية ورد المجرد تعلق الخطاب بها بطلت المعاني العقلية التي تستنبط من الاصول الشرعية ولا يمكن ان يقاس فعل على فعل ولا قول على قول ولم يمكن ان يقال لم اذ لا تعليل للذوات ولا للصفات ولا للافعال في عللها في نفس الامر حتى يربط بها الاحكام وذلك رفع للشرائع بالكلية من حيث اثباتها الا يتبعها والتعلق امر عدمي ولا معنى لحسن الفعل وقبحه الا التعلق العدمي بينه وبين الخطاب فلا حسن في الحقيقة ولا قبح لا شرعا ولا عقلا لا سيما اذا انضم الى ذلك نفي فعل العبد واختياره بالكلية وانه مجبور محض فهذا فعله وذاك صفته فعله ولا فعل له ولا وصف لقوله البتة فاي تعطيل ورفع للشرائع اكثر من هذا فهذا الزامهم لكم كما انتم الزمتموهم نظير ذلك في نفي صفة الكلام وانصفتموهم في الالزام

الوجه الحادي والستون

قولكم لو ثبت الحسن والقبح العقليين لتعلق بهما الايجاب والتحريم شاهدا وغائبا واللازم محال فالملزوم كذلك الى اخره فنقول الكلام ههنا في مقامين احدهما في التلازم المذكور بين الحسن والقبح العقليين وبين الايجاب والتحريم غائبا والثاني في انتفاء اللازم وثبوته فاما المقام الاول فلمثبتي الحسن والقبح فيه طريقان احدهما ثبوت التلازم والقول باللازم وهذا القول هو المعروف عن المعتزلة وعليه يناظرون وهو القول الذي نصبوا الخلاف معهم فيه والقول الثاني اثبات الحسن والقبح فانهم يقولون باثباته ويصرحون بنفي الايجاب قبل الشرع على العبد ونفي ايجاب العقل على الله شيئا البتة كما صرح به كثير من الحنفية والحنابلة كابي الخطاب وغيره والشافعية كسعد بن علي الزنجاني الامام المشهور وغيره وهؤلاء نفوا الايجاب العقلي في المعرفة بالله وثبوته خلاف فالاقوال اذا اربعة لا مزيد عليها ه احدها نفي الحسن والقبح ونفي الايجاب العقلي في العمليات دون العلميات كالمعرفة وهذا اختيار ابي الخطاب وغيره فعرف بهذا انه لا تلازم بين الحسن والقبح وبين الايجاب والتحريم العقليين هذا احد المقامين واما المقام الثاني وهو انتفاء اللازم وثبوته فللناس فيه ههنا ثلاث طرق احدها التزام ذلك والقول بالوجوب والتحريم العقليين شاهدا وغائبا وهذا قول المعتزلة وهو كما المعتزلة يترتب الوجوب شاهدا ويترتب المدح والذم عليه واما العقاب فلهم فيه اختلاف وتفصيل ومن اثبته منهم لم يثبته على الوجوب الثابت بعد البعثة ولكنهم يقولون ان العذاب الثابت بعد الايجاب الشرعي نوع اخر غير العذاب الثابت على الايجاب العقلي وبذلك يجيبون عن النصوص النافية للعذاب قبل البعثة واما الايجاب والتحريم العقليان غائبا فهم مصرحون

بهما ويفسرون ذلك بانه اللائق الذي اوجبته حكمته وحرمته وانه يستحيل عليه خلافه كما يستحيل عليه الحاجة والنوم واللعب واللغوب فهذا معنى الوجوب والامتناع في حق الله عندهم فهو وجوب اقتضته ذاته وحكمته وغناه وامتناع مستحيل عليه الاتصاف به لمنافاته كماله وغناه قالوا وهذا في الافعال نظير ما تقولونه في الصفات انه يجب له كذا ويمتنع عليه كذا فقولنا نحن في الافعال نظير قولكم في الصفات ما يجب له منها وما يمتنع عليه فكما ان ذلك وجوب وامتناع ذاتي يستحيل عليه خلافه فهكذا ما تقتضيه حكمته وتاباه وجوب وامتناع يستحيل عليه الاخلال به وان كان مقدورا له لكنه لا يخل به لكمال حكمته وعلمه وغناه والفرقة الثانية منعت ذلك جملة واحالت القول به وجوزت على الرب تعالى فعل كل شيء ممكن وردت الاحالة والامتناع في افعاله الى العجز الممكن من المحالات كالجمع بين النقيضين وبابه فقابلوا المعتزلة اشد مقابلة واقتسما طرفي الافراط والتفريط وردوا كل الوجوب والتحريم الذي جاءت به النصوص الى مجرد صدق الخبر فما اخبر بانه يكون فهو واجب لتصديق خبره وما اخبر انه لا يكون فهو ممتنع لتصديق خبره فالوجوب والتحريم عندهم راجع الى مطابقة العلم لمعلومه والمخبر لخبره وقد يفسرون التحريم بالامتناع عقلا كتحريم الظلم على نفسه فانهم يفسرون الظلم بالمستحيل لذاته كالجمع بين النقيضين وليس عندهم في المقدور شيء هو ظلم يتنزه الله سبحانه عنه مع قدرته عليه لغناه وحكمته وعدله فهذا قول هؤلاء والفرقة الثالثة هم الوسط بين هاتين الفرقتين فان الفرقة الاولى اوجبت على الله شريعة بعقولها حرمت عليه واوجبت ما لم يحرمه على نفسه ولم يوجبه على نفسه والفرقة الثانية جوزت عليه ما يتعالى ويتنزه عنه تعالى لمنافاته حكمته وكماله والفرقة الوسط اثبتت له ما اثبته لنفسه من الايجاب والتحريم الذي هو مقتضى اسمائه وصفاته الذي لا يليق به نسبته الى ضده لانه موجب كماله وحكمته وعدله ولم يدخله تحت شريعة وضعتها بعقولها كما فعلت الفرقة الاولى ولم تجوز عليه ما نزه نفسه عنه كما فعلت الفرقة الثانية قالت الفرقة الوسط فقد اخبر الله سبحانه وتعالى انه حرم الظلم على نفسه كما قال على لسان رسوله يا عبادي اني حرمت الظلم على نفسي وقال تعالى ولا يظلم ربك احدا وقال تعالى وما ربك بظلام للعبيد وقال تعالى ولا يظلمون فتيلا وقال تعالى وما الله يريد ظلما للعباد فاخبر تعالى عن تحريمه على نفسه ونفى عن نفسه فعله وارادته وللناس في تفسير هذا الظلم ثلاثة اقوال بحسب اصولهم وقواعدهم احدها ان الظلم الذي حرمه على نفسه وتنزه عن فعله وارادته هو نظير

الظلم من الآدميين بعضهم لبعض وشبهوه في الأفعال ما يحسن منها وما لا يحسن بعباده فضربوا له من
قبل أنفسهم الأمثال وصاروا بذلك مشبهة ممثلة في الأفعال فامتنعوا من إثبات المثل الأعلى الذي
أثبته لنفسه ثم ضربوا له الأمثال ومثلوه في أفعاله بخلقه كما أن الجهمية المعطلة امتنعت من إثبات
المثل الأعلى الذي أثبته لنفسه ثم ضربوا له الأمثال ومثلوه في صفاته بالجمادات الناقصة بل بالمعدومات
وأهل السنة نزهوه عن هذا وهذا وأثبتوا له ما أثبته لنفسه من صفات الكمال ونزهوه فيها عن التشبيه
والتمثيل فأثبتوا له المثل الأعلى ولم يضربوا له الأمثال فكانوا أسعد الطوائف بمعرفته فأحقهم بالإيمان
به وبولايته ومحبته وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ثم ألزم أصحاب هذا التفسير عنه من اللوازم
الباطلة ما لا قبل لهم به وقالوا عن هذا التفسير الباطل إنه تعالى إذا أمر العبد ولم يعنه بجميع
مقدوره تعالى من وجوه الإعانة كان ظالما له والتزموا لذلك أنه لا يقدر أن يهدي ضالا كما قالوا
إنه لا يقدر أن يضل مهتديا وقالوا عنه أيضا إنه إذا أمر اثنين بأمر واحد وخص أحدهما بإعانته
على فعل المأمور كان ظالما إلى غير ذلك من اللوازم الباطلة التي جعلوا لأجلها ترك تسويته
بين عباده في فضله وإحسانه ظلما فعارضهم أصحاب التفسير الثاني وقالوا الظلم الممتنع عنه
الأمور الممتنعة لذاتها فلا يجوز أن يكون مقدورا ولا أنه تعالى تركه بمشيئته واختياره وإنما هو من باب
الجمع بين الضدين وجعل الجسم الواحد في مكانين وقلب القديم محدثا والمحدث قديما وإلا
فكل ما يقدره الذهن وكان وجوده ممكنا والرب قادر عليه فليس بظلم سواء فعله أو لم يفعله وتلقى
هذا القول عنهم طوائف من أهل العلم وفسروا الحديث به وأشدوا ذلك وقووه بآيات وآثار زعموا أنها
تدل عليه كقوله تعالى إن تعذبهم فإنهم عبادك بمعنى لم تتصرف في غير ملكك بل إن عذبت عذبت من تملك وعلى
هذا جوزوا تعذيب كل عبد له ولو كان محسنا ولم يروا ذلك ظلما وبقوله تعالى لا يسأل عما يفعل وهم
يسألون وبقول النبي صلى الله عليه وسلم إن الله لو عذب أهل سماواته وأهل أرضه لعذبهم وهو غير ظالم لهم
وبقوله صلى الله عليه وسلم في دعاء الهم والحزن اللهم إني عبدك وابن عبدك ماض في حكمك عدل في قضاؤك
وبما روي عن إياس بن معاوية رضي الله عنه قال ما ناظرت بعقلي كله أحدا إلا القدرية قلت لهم ما الظلم قالوا
أن تأخذ ما ليس لك وأن تتصرف فيما ليس لك قلت فلله كل شيء والزم هؤلاء على هذا القول لوازم باطلة
كقولهم إن الله تعالى يجوز عليه أن يعذب أنبياءه ورسله وملائكته وأولياءه وأهل طاعته ويخلدهم في العذاب
الأليم ويكرم أعداءه من الكفار والمشركين والشياطين ويخصهم بجنته وكرامته وكلاهما عدل وجائز عليه
وأنه يعلم أنه لا يفعل ذلك بمجرد خبره فصار ممتنعا للإخبار أنه لا يفعله لمنافاته حكمته ولا فرق بين الأمرين

[illegible]

بالنسبة

بالنسبة إليه ولكن أراد هذا وأخبر به وأراد الآخر وأخبر به فوجب هذا لإرادته وخبره
وامتنع ضده لعدم إرادته وإخباره بأنه لا يكون والتزموا أيضا أنه يجوز أن يعذب الأطفال الذين
لا ذنب لهم أصلا ويخلدهم في الجحيم وربما قالوا بوقوع ذلك وأنكر على الطائفتين معا أصحاب التفسير
الثالث وقالوا الصواب الذي دلت عليه النصوص أن الظلم الذي حرمه الله على نفسه وتنزه عنه
فعلا وإرادة هو ما فسره به سلف الأمة وأئمتها أنه لا يحمل عليه سيئات غيره ولا يعذب بما لم تكتسب
يداه ولم يكن سعى فيه ولا ينقص من حسناته فلا يجازى بها أو ببعضها إذا قارنها أو طرأ عليها
ما يقتضي إبطالها أو اقتصاص المظلومين منها وهذا الظلم الذي نفى الله تعالى خوفه عن العبد
بقوله ومن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا يخاف ظلما ولا هضما قال السلف والمفسرون
لا يخاف أن يحمل عليه سيئات غيره ولا ينقص من حسناته ما عمل فهذا هو المعقول من الظلم ومن
عدم خوفه وأما الجمع بين النقيضين وقلب القديم محدثا والمحدث قديما فمما يتنزه كلام آحاد
العقلاء عن تسميته ظلما وعن نفي خوفه عن العبد فكيف بكلام رب العالمين وكذلك قوله
وما ظلمناهم ولكن كانوا هم الظالمين فنفى أن يكون تعذيبه لهم ظلما ثم أخبر أنهم هم الظالمون
بكفرهم ولو كان الظلم المنفي هو المحال لم يحسن مقابلته قوله وما ظلمناهم بقوله ولكن كانوا
هم الظالمين بل يقتضي الكلام أن يقال وما ظلمناهم ولكن تصرفنا في ملكنا وعبيدنا فلما نفى الظلم
عن نفسه وأثبته لهم دل على أن الظلم المنفي هو أن يعذبهم بغير جرم وأنه إنما عذبهم بجرمهم وظلمهم
ولا يحتمل إلا به غير هذا ولا يجوز تحريف كلام الله لنصرة المقالات وقال تعالى ومن يعمل من
الصالحات من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون نقيرا ولا ريب
أن هذا مذكور في سياق التحريض على الأعمال الصالحة والاستكثار منها فإن صاحبها يجزى بها
ولا ينقص منها بذرة ولهذا أسمى تعالى توفية لقوله وإنما توفون أجوركم يوم القيامة
وقوله تعالى ووفيت كل نفس ما عملت فترك الظلم هو العدل لا فعل كل ممكن
وعلى هذا قام الحساب ووضع الموازين القسط ووزنت الحسنات والسيئات وتفاوت
الدرجات العلى بأهلها والدركات السفلى بأهلها وقال تعالى إن الله لا يظلم مثقال
ذرة أي لا يضيع جزاء من أجر ولو بمثقال ذرة فدل على أن إضاعتها وترك المجازاة بها مع
عدم ما يبطلها ظلم تعالى الله عنه ومعلوم أن ترك المجازاة عليها مقدور وتنزه الله عنه
لكمال عدله وحكمته ولا يحتمل إلا به قط غير معناها المفهوم منها وقال تعالى من عمل صالحا

فلنفسه ومن أساء فعليها وما ربك بظلام للعبيد أي لا يعاقب العبد بغير إساءته ولا يحرمه
ثواب إحسانه ومعلوم أن ذلك مقدور له تعالى وهذا نظير قوله أم لم ينبأ
بما في صحف موسى وإبراهيم الذي وفى ألا تزر وازرة وزر أخرى وأن ليس للإنسان إلا ما
سعى فأخبر أنه ليس على أحد من وزر غيره شيء وأنه لا يستحق إلا ما سعاه وأن هذا هو
العدل الذي نزه نفسه عن خلافه وقال الذي آمن يا قوم إني أخاف عليكم مثل يوم
الأحزاب مثل دأب قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم وما الله يريد ظلما للعباد فبين
أن هذا العقاب لم يكن ظلما من الله للعباد بل لذنوبهم واستحقاقهم ومعلوم أن المحال الذي
لا يمكن ولا يكون مقدورا أصلا لا يصلح أن يمدح الممدوح بعدم إرادته ولا فعله ولا يحمد
على ذلك وإنما يكون المدح بترك الأفعال لمن هو قادر عليها وأنه ينزه عنها لكماله وغناه
وحمده وعلى هذا فهم قوله إني حرمت الظلم على نفسي وما شاكله من النصوص فأما
أن يكون المعنى إني حرمت على نفسي ما لا حقيقة له وما ليس بممكن مثل خلق مثلي ومثل جعل القديم
محدثا والمحدث قديما ونحو ذلك من المحالات ويكون المعنى إني أخبرت عن نفسي بأن ما لا يكون مقدورا
لا يكون مني فهذا مما يتيقن المنصف أنه ليس مرادا من اللفظ قطعا وأنه يجب تنزيه كلام الله
ورسوله عن حمله على مثل ذلك فإن قالوا فما أسند لكم بتلك النصوص الدالة على أنه
سبحانه إن عذبهم فإنهم عباده وأنه غير ظالم لهم وأنه لا يسأل عما يفعل وأن قضاءه فيهم عدل
وبمناظرة إياس للقدرية قيل هذه النصوص وأمثالها كلها حق يجب القول بموجبها ولا تحرف
معانيها والكل من عند الله ولكن أي دليل فيها يدل على أنه تعالى يجوز عليه أن يعذب أهل طاعته
وينعم أهل معصيته وأنه يعذب بغير جرم ويحرم المحسن جزاء عمله ونحو ذلك بل كلها متفقة
متطابقة دالة على كمال القدرة وكمال العدل والحكمة فالنصوص التي ذكرناها تقتضي كمال عدله
وحكمته وغناه ووضعه العقوبة والثواب مواضعهما وأنه لم يعدل بهما عن سننهما والنصوص
التي ذكرتموها تقتضي كمال قدرته وانفراده بالربوبية والحكم وأنه ليس فوقه آمر ولا ناه يتعقب
أفعاله بسؤال وأنه لو عذب أهل سماواته وأرضه لكان ذلك تعذيبا بحقه عليهم وكانوا إذ ذاك
مستحقين للعذاب لأن أعمالهم لا تنجيهم كما قال النبي صلى الله عليه وسلم لن ينجي أحدا منكم عمله قالوا ولا
أنت يا رسول الله قال ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمة منه وفضل فرحمته ليست في مقابلة أعمالهم
ولا هي ثمنا لها فإنها خير منها كما قال في الحديث نفسه ولو رحمهم لكانت رحمته لهم خيرا من أعمالهم

فجمع بين الأمرين في الحديث أنه لو عذبهم لعذبهم باستحقاقهم ولم يكن ظالما لهم وأنه لو رحمهم
لكان ذلك بمجرد فضله وكرمه لا بأعمالهم إذ رحمته خير من أعمالهم فصلوات الله وسلامه على من
خرج هذا الكلام أولا من بين شفتيه فإنه أعرف الخلق بالله وبحقه وأعلمهم به وبعدله وفضله
وحكمته وما يستحقه على عباده وطاعات العبد كلها لا تكون في مقابلة نعم الله عليهم ولا مساوية
لها ولا للقليل منها فكيف يستحقون بها على الله النجاة وطاعة المطيع لا نسبة لها إلى نعمة من
نعم الله عليه فتبقى سائر النعم تقاضاه شكرا والعبد لا يقوم بمقدورها الذي يجب لله عليه
فجميع عباده تحت عفوه ورحمته وفضله فما نجا منهم أحد إلا بعفوه ومغفرته ولا فاز
بالجنة إلا بفضله ورحمته وإذا كانت هذه حال العباد فلو عذبهم لعذبهم وهو غير ظالم
لهم لا لكونه قادرا عليهم وهم ملكه بل لاستحقاقهم ولو رحمهم لكان ذلك بفضله لا بأعمالهم وأما
قوله فإنهم عبادك فليس المراد به أنك قادر عليهم مالك لهم وأي مدح في هذا ولو قلت لشخص
إن عذبت فلانا فإنك قادر على ذلك أي مدح يكون في ذلك بل في ضمن ذلك الإخبار بغاية العدل
وأنه تعالى إن عذبهم فإنهم عباده الذين أنعم عليهم بإيجادهم وخلقهم ورزقهم وإحسانه إليهم
لا بوسيلة منهم ولا في مقابلة بذل بذلوه بل ابتدأهم بنعمه وفضله فإذا عذبهم بعد ذلك
وهم عبيده لم يعذبهم إلا بجرمهم واستحقاقهم وظلمهم فإن من أنعم عليهم ابتداء بجلائل النعم كيف
يعذبهم بغير استحقاق أعظم النعم وفيه أيضا أمر آخر ألطف وهو أن كونهم عباده يقتضي
عبادته وحده وتعظيمه وإجلاله كما يجل العبد سيده ومالكه الذي لا يصل إليه نفع إلا
به ولا يدفع عنه ضر إلا هو فإذا كفروا به أقبح الكفر وأشركوا به أعظم الشرك ونسبوه
إلى كل نقيصة مما تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هدا كانوا أحق
عباده وأولاهم بالعذاب والمعنى هم عبادك الذين أشركوا بك وعدلوا بك وجحدوا حقك
فهم عباد مستحقون للعذاب وفيه أمر آخر أيضا لعله ألطف مما قبله وهو أن تعذبهم فإنهم
عبادك وشأن السيد المحسن المنعم أن يعطف على عبده ويرحمه ويحنو عليه فإذا عذبت
هؤلاء عبيدك لا تعذبهم إلا باستحقاقهم وإجرامهم وإلا فكيف يشقي العبد سيده وهو مطيع
له متبع لمرضاته فتأمل هذه المعاني ووازن بينها وبين قول من يقول إن عذبهم فإنك
الملك القادر وهم المملوكون المربوبون وإنما تصرفت في ملكك من غير أن يكون قد قام بهم
سبب العذاب فإن القوم نفاة الأسباب وعندهم أن كفر الكافر وشركهم ليس سببا للعذاب

بل العذاب بمجرد المشيئة ومحض الإرادة وكذلك الكلام في مناظرة إياس للقدرية إنما أرادوا بأن
التصرفات الواقعة منه تعالى في ملكه لا تكون ظلما قط وهذا حق فإن كل ما فعله الرب ويفعله
لا يخرج عن العدل والحكمة والمصلحة والرحمة فليس في أفعاله ظلم ولا جور ولا سفه وهذا حق
لا ريب فيه فإياس بين أنه سبحانه في تصرفه في ملكه غير ظالم فهذه مجامع طرق العالم في هذا المقام
قد ألقيتها إليك مختصرة بذكر قواعدها وأدلتها وترجيح الصواب منها وإبطال الباطل ولعلك
لا تجد هذا التفصيل والكلام على هذه المذاهب وأصولها في كتاب من كتب القوم والله تعالى
المسؤول إتمام نعمته ومزيد العلم والهدى إنه المنان بفضله.

فصل

وكذلك الكلام في الإيجاب حق الله سواء والأقوال فيه كالأقوال في التحريم وقد أخبر سبحانه عن نفسه أنه كتب على نفسه
وأحق على نفسه قال تعالى وكان حقا علينا نصر المؤمنين وقال تعالى وإذا جاءك
الذين يؤمنون بآياتنا فقل سلام عليكم كتب ربكم على نفسه الرحمة وقال تعالى إن الله اشترى
من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعدا عليه
حقا في التوراة والإنجيل والقرآن وفي الحديث الصحيح أن النبي صلى الله عليه وسلم قال
لمعاذ رضي الله عنه أتدري ما حق الله على عباده قلت الله ورسوله أعلم قال حقه عليهم أن يعبدوه
ولا يشركوا به شيئا أتدري ما حق العباد على الله إذا فعلوا ذلك قلت الله ورسوله أعلم قال
حقهم عليه أن لا يعذبهم ومنه قوله صلى الله عليه وسلم في غير حديث من فعل كذا كان حقا على
الله أن يفعل به كذا وكذا في الوعد والوعيد ونظير هذا ما أخبر سبحانه من قسمه ليفعلن ما أقسم
عليه كقوله تعالى فوربك لنسألنهم أجمعين فوربك لنحشرنهم والشياطين ثم لنحضرنهم
حول جهنم جثيا وقوله تعالى لنهلكن الظالمين وقوله لأملأن جهنم منك وممن
تبعك منهم أجمعين وقوله تعالى فالذين هاجروا وأخرجوا من ديارهم وأوذوا في سبيلي
وقاتلوا وقتلوا لأكفرن عنهم سيئاتهم ولأدخلنهم جنات تجري من تحتها الأنهار وقوله
تعالى فلنسألن الذين أرسل إليهم ولنسألن المرسلين وقوله تعالى فيما يرويه عنه
رسوله صلى الله عليه وسلم وعزتي وجلالي لأقتصن للمظلوم من الظالم ولو لطمة ولو ضربة
يد إلى أمثال ذلك من صيغ القسم المتضمن معنى إيجاب المقسم على نفسه أو منعه نفسه وهو
القسم الطلبي المتضمن للحض والمنع بخلاف القسم الخبري المتضمن للتصديق أو التكذيب ولهذا
قسم الفقهاء وغيرهم اليمين إلى موجبة للحض والمنع أو التصديق والتكذيب قالوا وإذا كان

مفعولا من العبد أن يكون طالبا من نفسه فتكون نفسه طالبة منها كقوله تعالى إن النفس لأمارة
بالسوء وقوله وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى مع كون العبد له آمر وناه فوقه
فالرب تعالى الذي ليس فوقه آمر ولا ناه كيف يمتنع منه أن يكون طالبا من نفسه فيكتب على نفسه
ويحق على نفسه ويحرم على نفسه بل ذلك أولى وأحرى في حقه من تصوره في حق العبد وقد
أخبر به عن نفسه وأخبر به عنه رسوله فالوجوب والكتابة ما أثبته على نفسه وإحقاقه ما أحقه
عليها متضمن لإرادته ذلك ومحبته له ورضاه به وأنه لا بد أن يفعله ولا ريب أن محبته لما
يريد أن يفعله ورضاه به يوجب وقوعه بمشيئته واختياره وكراهته للفعل وبغضه له يمنع
وقوعه منه مع قدرته عليه لو شاء وهذا غير ما يحبه من فعل عبده ويكرهه فذاك نوع
وهذا نوع ولما لم يميز كثير من الناس بين النوعين وأدخلوهما تحت حكم واحد اضطربت
عليهم مسائل القضاء والقدر والحكم والتعليل وبهذا التفصيل يسفر لك وجه المسألة
ويتضح صبحها فالفرق بين فعله هو سبحانه الذي هو فعله وبين فعل عباده الذي هو مفعوله
فمحبته تعالى وكراهته للأول توجب وقوعه وامتناعه وأما محبته وكراهته للثاني
فلا يوجب وقوعه ولا امتناعه فإنه يحب الطاعة والإيمان من عباده كلهم وإن لم تكن محبته
موجبة لطاعتهم وإيمانهم جميعا إذ لم يحب فعله الذي هو إعانتهم وتوفيقهم وخلق ذلك لهم
ولو أحب ذلك لاستلزم طاعتهم وإيمانهم ويبغض معاصيهم وكفرهم وفسوقهم ولم تكن هذه
الكراهة والبغض مانعة من وقوع ذلك منهم إذ لم يكره سبحانه خذلانهم وإضلالهم لما في
ذلك من الغايات المحبوبة التي فواتها يستلزم فوات ما هو أحب إليه من إيمانهم وطاعتهم ويعقل
ذلك مما يقصر عنه عقول أكثر الناس وقد أشرنا إليه فيما تقدم من الكتاب فالرب
تعالى يحب من عباده الطاعة والإيمان ويحب مع ذلك من تضرعهم وتذللهم وتوبتهم واستغفارهم
ومن مغفرته وتوبته وعفوه وصفحه وتجاوزه ما هو ملزوم لمعاصيهم وذنوبهم ووجود الملزوم
بدون لازمه ممتنع وإذا عقل هذا في حق المذنبين فيعقل مثله في حق الكفار وأن خلقهم
وإضلالهم لازم لأمور محبوبة للرب تعالى لم تكن تحصل بدون لازمها إذ وجود الملزوم بدون
لازمه ممتنع فكانت تلك الأمور المحبوبة والغايات المحمودة متوقفة على خلقهم وإضلالهم
توقف الملزوم على لازمه وهذا فصل معترض لم يكن من غرضنا وإن كان أهم مما سقنا
الكلام لأجله ونكتة المسألة الفرق بين ما هو فعل له يستلزم محبته ووقوعه منه وبين ما هو

مفعول له لا يستلزم محبته له ووقوعه من عبده واذا عرف هذا فالظلم والكفر والفسوق والعصيان
وانواع الشرور واقعة في مفعولاته المنفصلة التي لا يتصف بها دون افعاله القائمة به ومن انكشف
له هذا المقام فهم معنى قوله صلى الله عليه وسلم والشر ليس اليك فتبصر هذا الفرق العظيم تزول الامور
المشتبهة التي حارت لها عقول كثير من الناس في هذا الباب وهدى الله الذين امنوا لما اختلفوا
فيه من الحق باذنه والله يهدي من يشاء الى صراط مستقيم فالتي في مخلوقاته ومفعولاته تعالى من
الظلم والشر هو بالنسبة الى فاعله المكلف الذي قام به الفعل كما انه بالنسبة اليه يكون زنا
وسرقة وعدوانا واكلا وشربا ونكاحا فهو الزاني السارق الآكل الناكح والله خالق كل
فاعل وفعله وليست نسبة هذه الافعال الى خالقها كنسبتها الى فاعلها الذي قامت به كما ان نسبة
صفات المخلوقين اليه كطوله وقصره وحسنه وقبحه وشكله ولونه ليست كنسبتها الى
خالقها فيه فتأمل هذا الموضع واعط الفرق حقه وفرق بين النسبتين وكما ان صفات
المخلوق ليست صفات لله بوجه وان كان هو خالقها فكذلك افعاله ليست افعالا لله تعالى
ولا اليه وان كان هو خالقها فلنرجع الآن الى ما نحن بصدده فنقول الامر الذي حتمه على نفسه
يستحق عليه الحمد والثناء ويتعالى ويتقدس عن تركه اذ تركه مناف للثناء والحمد الذي يستحقه
عليه متضمنا الى ما يستحقه من ذلك لانه يقطع النظر عن كل فعل وكذلك ما حرمه على نفسه
فهو مستحق للحمد والثناء على تركه فهو يتعالى ويتقدس عن فعله لان فعله مناف لما يستحقه من الحمد
والثناء على تركه متضمنا لما يستحقه لذاته وهذا بحمد الله بين عند من اوتي العلم والايمان وهو مستقر
في فطرهم لا ينسخه منها شبهات المبطلين وهذا الموضع مما خفي على طائفة القدرية والجبرية
فخبطوا فيه عشوا وخبطوا فيه ليلا ظلما والله الموفق الهادي للصواب ٥

فصل

وقد ظهر بهذا بطلان قول الطائفتين معا الذين وضعوا لله تعالى شريعة بعقولهم واوجبوا عليه
وحرموا منها ما لم يوجبه على نفسه ولم يحرمه على نفسه وسووا بينه وبين عباده فيما يحسن منهم ويقبح
وبذلك استطال عليهم خصومهم وابدوا مناقضاتهم وكشفوا عوراتهم وبينوا فضائحهم وكذلك
بطلان قول الطائفة التي جوزت عليه كل شيء وانكرت حكمته وجحدت في الحقيقة ما يستحقه من
الحمد والثناء على ما يفعله مما يمدح بفعله وعلى ترك ما يتركه مع قدرته عليه مما يمدح بتركه وجعلت
النوعين واحدا ولا فرق عندهم بالنسبة اليه تعالى بين فعل ما يمدح بفعله وبين تركه ولا بين
ترك ما يمدح بتركه وبين فعله وبهذا استطال عليهم خصومهم وابدوا مناقضاتهم وبينوا فضائحهم

قال المتوسطون

قال المتوسطون واما نحن فلا يلزمنا شيء من هذه الفضائح والاباطيل فاذا لم نوافق
طائفة من الطائفتين على كل ما قالته بل وافقنا كل طائفة فيما اصابت فيه الحق وخالفناها
فيما خالفت فيه الحق كما اسعدنا به من الطائفتين ولله المنة والفضل وهذا قولنا قد اوضحناه في
هذه المسألة غاية الايضاح وافصحنا عنه ما امكننا من الافصاح فمن وجد سبيلا الى المعارضة
او رام طريقا الى المناقضة فليبدها فانا من وراء الرد عليه واظهار عيوب مقالته اليه ونحن نعلم
انه لا يرد علينا مقالتنا الا باحدى المقالتين اللتين كشفنا عن عوارهما وبينا فسادهما فليستر عورة
مقالته ويصلح فسادها ويرمم شعثها ثم يلق خصومه بها فالمحاكمة الى العقل الصريح والنقل الصحيح
والله المستعان ٥

الوجه الثاني والستون

قولكم الوجوب والتحريم بدون الشرع
ممتنع لانه لو ثبت لقامت الحجة بدون الرسل والله سبحانه انما اقام حجته برسله الى آخره فيقال
لا ريب ان الوجوب والتحريم الذين هما متعلق الثواب والعقاب بدون الشرع ممتنع كما قررتموه
والحجة انما قامت على العباد بالرسل ولكن هذا الوجوب والتحريم اخص من مطلق الوجوب والتحريم
بمعنى حصول المقتضي للثواب والعقاب وان تخلف عنه مقتضاه لقيام مانع او فوات شرط كما تقدم
تقريره وقد قال تعالى ولولا ان تصيبهم مصيبة بما قدمت ايديهم فيقولوا ربنا لولا ارسلت الينا رسولا
فنتبع آياتك ونكون من المؤمنين فاخبر تعالى ان ما قدمت ايديهم سبب لاصابة المصيبة اياهم وانه سبحانه
ارسل رسله وانزل كتابه لئلا يقولوا ربنا لولا ارسلت الينا رسولا فنتبع آياتك فدلت الآية على بطلان
قول الطائفتين جميعا الذين يقولون ان اعمالهم قبل البعثة ليست قبيحة لذاتها بل انما قبحت بالنهي
فقط والذين يقولون انها قبيحة ويستحقون عليها العقوبة عقلا دون البعثة فتضمنت الآية
بطلان قول الطائفتين ودلت على القول الوسط الذي اخترناه وهو انها قبيحة في نفسها
ولا يستحقون العقاب الا بعد اقامة الحجة بالرسالة فلا تلازم بين ثبوت الحسن والقبح العقليين
بلازم فالأدلة انما اقتضت ارتباط الثواب والعقاب بالرسالة وتوقفهما عليها ولم تتعرض لنفي
الحسن والقبح بكل اعتبار عليها وفرق بين الامرين ٥

الوجه الثالث والستون

قولكم كيف نعقل انه سبحانه يجب عليه ان يمدح ويذم ويعاقب ويثيب على الفعل بمجرد العقل وهل ذلك
الا عبث عابث يعرفنا انه زجر عن فاعل ويحط عن فاعل وانه سبحانه يعاقب هذا ولم يخبر عنه من
مخبر صادق ولا دل على مواقع رضاه وسخطه عقل ولا اخبر عن معلومه ومحكومه مخبر فلم يبق الا قياس
افعاله على افعال عباده وهو من افسد القياس فانه ليس كمثله شيء ٥ فيقال هذا الزام للمعتزلة

ونفي الاخص لا يستلزم نفي الاعم
يعني بطلان الوجوب والتحريم

ومن وافقهم حيث يوجبون على الله ويحرمون بالقياس على عباده ولا ريب ان هذا من افسد القياس
وابطله ولكن من اين ينفي ذلك اثبات صفات للافعال اقتضت حسنها وقبحها عقلا ولم يعلم ترتب
الثواب والعقاب عليها الا بالرسالة كما قررناه فانتم بمعاندة النفاة سلبتم الافعال خواصها
وصفاتها التي لا تنفك عنها ولا يعقل تجرده عنها ابدا وظننتم ان قول المعتزلة الباطل في ايجابها
وتحريمها على الله لا يتم الا بهذا النفي فاخطاتم في الامرين معا فان بطلان قولهم لا يتوقف على نفي
الحسن والقبح ونفيهما باطل وخصومكم من المعتزلة اثبتوا لله شريعة عقلية اوجبوا عليه فيها
وحرموا بمقتضى عقولهم وظنوا انهم لا يمكنهم اثبات الحسن والقبح الا بذلك فاخطاوا في الامرين
معا فان الله تعالى لا يقاس بعباده في افعاله كما لا يقاس بهم في ذاته وصفاته فليس كمثله شيء في
ذاته ولا في صفاته ولا في افعاله واثبات الحسن والقبح لا يستلزم هذا الايجاب والتحريم العقليين
فليتامل اللبيب هذه المواقف التي هي مجامع ما افترق فيها يتبين ان الناس انما تكلموا في
حواشي المسئلة ولم يخوضوا لجتها او تلججوا اعماقها والله المستعان واما الزامكم لخصومكم من
المعتزلة تلك اللوازم فلا ريب انها مستلزمة لبطلان قولهم مع اضعافها فهذه اللوازم التي
تبين فساد مذهبهم ونحن نساعدكم عليها بما لا محيد لهم عن الزاماتكم فيها فمنها
انكم سددتم على انفسكم طريق الاستدلال بالمعجزة على النبوة حيث جوزتم على الله ان يؤيد الكذاب
بها كما يؤيد الصادق وعندكم ان كلا الامرين بالنسبة اليه تعالى سوا ولم تعتذروا عن هذا
الالزام المقاوم لسائر الزاماتكم بعذر صحيح وهذه اعذاركم مسطورة في الصحايف
ومنها الزام الافحام ونفي المكلف النظر في المعجزة لعدم الوجوب عقلا واعذاركم
عن هذا الالزام بان الوجوب ثابت نظر او لم ينظر اعذاركم يبطل اصلكم فان ثبوت الوجوب
بدون نظر المكلف لو كان شرعيا لتوقف على الشرع المتوقف في حق المكلف على النظر في
المعجزة فاثبات الوجوب وان لم ينظر في المعجزة علم ان الوجوب عقلي لا يتوقف على ثبوت الشرع فان
قيل هو ثابت في نفس الامر على تقدير ثبوت الرسالة قيل فحينئذ يعود الالزام وهو انه لا ينظر
حتى يجب ولا يجب حتى تثبت الرسالة ولا تثبت حتى ينظر ولهذا عدل من عدل الى مقابلة هذا
الالزام بمثله وقالوا هذا الزم للمعتزلة لان الوجوب عندهم نظري وهذا لا يغني شيئا ولا يدفع
الالزام المذكور بل غايته مقابلة الفاسد بمثله وهو لا يجدي في دفع الالزام شيئا وهذا يدلك
على بطلان المقالتين واما نحن فلنا في دفع هذا الالزام عشرة مسالك وليس هذا موضع هذه

المسالك

المسالك وانما المقصود ان المعتزلة لزمت نظير ما الزموهم به ومنها الزام
التعطيل للشرائع جملة وقد تقدم بيانه وقررناه حيث بينا ان متعلق الامر والنهي انما هو فعل
العبد الاختياري فاذا بطل ان يكون له فعل اختياري بطل متعلق الامر والنهي فيلزم بطلان
الامر والنهي لان وجوده بدون متعلقه محال الى سائر تلك اللوازم التي اسلفناها قبل فلا
نطيل باعادتها فان قالوا انما يخلصنا من هذه اللوازم من الطرفين فانا لم نسلك واحدا
من الطريقين ولا سبيل لاحدى الطائفتين الى الزامنا بلازم واحد باطل ولله الحمد فمن رام ذلك
فليبده فان قيل فمن اصلكم اثبات التعليل والحكمة في الخلق والامر فما تصنعون في هذه اللوازم
التي الزمناها المعتزلة وماذا جوابكم عنها اذا وجهناها اليكم قيل لا ريب انا نثبت لله
ما اثبته لنفسه وشهدت له الفطر والعقول من الحكمة في خلقه وامره ونقول ان كل خلقه وامره
فله فيه حكمة بالغة واية قاهرة لاجلها خلقه وامر به ولكن لا نقول ان لله تعالى في خلقه وامره
كل حكمة ليست مماثلة لما للمخلوق من ذلك ولا مشابهة له بل الفرق بين الحكمتين كالفرق بين الفعلين
وكالفرق بين الوصفين والذاتين فليس كمثله شيء في وصفه ولا في فعله ولا في حكمة مطلوبة له
من فعله بل الفرق بين الخالق والمخلوق في ذلك كله اعظم فرق وابينه واوضحه عند العقول
والفطر وعلى هذا فجميع ما الزمتموه لايجاب الصلاح والاصلح بل واضعافه واضعاف اضعافه
لله تعالى فيه حكمة يختص بها لا يشاركه فيها غيره ولاجلها حسن منه ذلك وقبح من المخلوق
لانتفاء تلك الحكمة في حقه وهذا كما يحسن منه تعالى مدح نفسه والثناء على نفسه وان قبح
من اكثر خلقه ذلك ويليق بجلاله الكبرياء والعظمة ويقبح من خلقه تعاطيهما كما روى
عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم الكبرياء ازاري والعظمة ردائي فمن نازعني واحدا منهما عذبته
وكما يحسن منه اماتة خلقه وابتلاؤهم وامتحانهم بانواع المحن ويقبح ذلك من خلقه وهذا
اعظم من ان تذكر امثلته فليس بين الله وبين خلقه جامع يوجب ان يحسن منه ما يحسن منهم
ويقبح منه ما قبح منهم وانما تتوجه تلك الالزامات الى من قاس افعال الله بافعال عباده واما من
اثبت له حكمة تختص به لا تشبه المخلوقين من الحكم فهو عن تلك الالزامات بمعزل ومنزله منها
ابعد منزل ونكتة الفرق ان بطلان الصلاح والاصلح لا يستلزم بطلان الحكمة والتعليل والله
الموفق الوجه الثالث والستون قولكم انكم نبحث هذه المسئلة طريقا
للاستغناء عن النبوات وسلطتم عليكم بها الفلاسفة والبراهمة والصابئة وكل منكر للنبوات

فان هذه المسئلة بابت متساويتين فانكم اذا زعمتم ان العقل حاكما بحسن ويقبح ويوجب
ويحرم ويقاضي الثواب والعقاب لم تكن الحاجة الى البعثة ضرورية لامكان الاستغناء
عنها بهذا الحاكم الى اخره قال المثبتون هذا كلام هايل وهو عند التحقيق
باطل لو انصف مورده لعلم انا وهو كان كما قيل رمتني بدائها وانسلت وقد بينا ان
النفاة سدوا على انفسهم طريق اثبات النبوة بانكارهم هذه المسئلة وقالوا انه يحسن من الله كل
شي حتى اظهار المعجزة على يد الكاذب ولا فرق بالنسبة اليه بين اظهارها على يد الصادق ويد
الكاذب وليس في العقل ما يدل على استحالة هذا وجواز هذا وتوقف معرفته على السمع لا سيما اذا
انضم الى ذلك انكار كون العبد فاعلا ولا مختارا البتة فان ذلك يسد الباب جملة لان متعلق الامر
والنهي انما هو افعال العباد والاخبار به عمن لا فعل له ولا اختيار اصلا فكيف يعقل ان يكون
مامورا منهيا وقد تقدم حديث الالجام وعجزهم عن الجواب عنه قالوا واما نحن فانا سهلنا بذلك
الطريق الى اثبات النبوات بل لا يمكن اثباتها الا بالاعتراف بهذه المسئلة فانه اذا ثبت ان من الافعال
حسنا ومنها قبيحا وان اظهار المعجزة على يد الكاذب قبيح وان الله تعالى يتقدس عن فعل القبايح
علمنا بذلك صحة نبوة من اظهر الله تعالى على يديه الايات والمعجزات واما انتم فانكم لا يمكنكم العلم بذلك
قالوا وكذلك نحن اذا قلنا ان العبد فاعل مختار لفعله وان اوامر الشرع ونواهيه متوجهة الى مجرد
فعل الاختياري القايم به وهو متعلق الثواب والعقاب واما انتم فلا يمكنكم ذلك لان تلك الافعال
عندكم هي الله في العبد لا صنع للعبد فيها اصلا فكيف يتوجه امر الشرع ونهيه الى غير فاعلها فعل م
بل يتوجه بما لا قدرة له عليه البتة بل بفعل غيره قالوا فليتدبر المنصف هذا المقام فانه يتبين
له انه سد على نفسه طريق النبوات وفتح باب الاستغناء عنها قالوا وايضا فان الله سبحانه وتعالى
فطر عباده على الفرق بين الحسن والقبح وركب في عقولهم ادراك ذلك والتمييز بين النوعين
كما فطرهم على الفرق بين النافع والضار والملايم لهم والمنافر وركب في حواسهم ادراك ذلك والتمييز
بين انواعه والفطرة الاولى هي خاصة الانسان التي يميزها عن غيره من الحيوانات واما
الفطرة الثانية فمشتركة بين اصناف الحيوانات وحجة الله على العباد انما تقوم بواسطة الفطرة الاولى
ولهذا اختص من بين سائر الحيوانات بارسال الرسل اليه وبالامر والنهي والثواب والعقاب
فجعل سبحانه في عقله ما يفرق بين الحسن والقبح وما ينبغي ايثاره وما ينبغي اجتنابه ثم اقام عليه
حجة رسالته بواسطة هذا الحاكم الذي يتميز به العلم بالرسالة وحسن الامتثال على وحسن ما تضمنته

من الاوامر وقبح ما نهت عنه فانه لولا ما ركب في عقله من ادراك ذلك لما امكنه معرفة حسن الرسالة
وحسن المامور وقبح المحظور ولهذا انا قلنا ان من انكر الحسن والقبح العقليين لزمه انكار
الحسن والقبح الشرعية وزعم انه تقرير فان اخبار الشرع عن الفعل بانه حسن او قبيح مطابق لكونه
في نفسه كذلك فاذا كان في نفسه ليس بحسن ولا قبيح فان هذا الخبر لا مخبر له الا مجرد تعلق
افعل ولا تفعل به وهذا التعلق عندهم جايز ان يكون بخلاف ما هو به بان تعلق الطلب
بالمنهي عنه والنهي بالمامور به والتعلق لم يجعله حسنا ولا قبيحا بل غايته انه جعل الفعل مامورا
منهيا فعاد الحسن والقبح الى مجرد كونه مامورا منهيا ولا فرق عندهم بالنظر الى ذات الفعل
بين النوعين بل ما كان مامورا يجوز ان يقع منهيا وبالعكس فلم يكسب الامر والنهي صفة حسن
ولا قبح اصلا فلا حسن ولا قبح اذا عقلا ولا شرعا وانما هو تعلق الطلب بالفعل والترك وهذا
مما لا خلاص منه الا بالقول بان للافعال خواص وصفات عليها في انفسها اقتضت ان يومر
بحسنها وينهى عن شينها ويخبر عن حسنها بما هو عليه ويخبر عن قبحها بما تكون على وفق الخبر مخبر بانه
في نفسه والامر والنهي متعلق بانه في نفسه قالوا فعلم ان العقل يحسن الحسن ويقبح القبيح ثم علمه
بان ما امرت به الرسل هو الحسن وما نهت عنه هو القبيح طريق الى تصديق الرسل وانهم جاووا
بالحق من عند الله ولهذا قال بعض الاعراب وقد سيل بماذا عرفت ان محمدا رسول الله صلى الله
عليه وسلم فقال ما امر بشي فقال العقل ليته نهى عنه ولا نهى عن شي فقال العقل ليته امر به
افلا ترى هذا الاعرابي كيف جعل مطابقة الحسن والقبح الذي ركب الله تعالى في العقول
ادراكه لما جاء به الرسول شاهدا على صحة رسالته وعلما عليها ولم يقل ان ذلك يسد طريق
الاستغناء عن النبوة بحاكم العقل قالوا وايضا انما يلزم ان لو قيل بان ما جاءت به الرسل ياتي في
العقل ادراكه مستقلا قبل البعثة فحينئذ يقال هذا يسد باب الاستغناء عن الرسالة ومعلوم
ان اثبات الحسن والقبح العقليين لا يستلزم هذا ولا يدل عليه بل غاية العقل ان يدرك بالاجمال
حسن ما اتى الشرع بتفصيله او قبحه فيدركه العقل جملة وياتي الشرع بتفصيله وهذا كما ان
لعله العدل العقل يدرك حسن العقل واما كون هذا الفعل المعين عدلا او ظلما فهذا مما يعجز الشرع عن
ادراكه في كل فعل وعقد وكذلك يعجز عن ادراك حسن كل فعل وقبحه وان تاتي الشرايع بتفصيل
ذلك وتبيينه وما ادركه العقل الصريح من ذلك اتت الشرايع بتقريره وما كان حسنا في وقت قبيحا
في وقت ولم يهتد العقل لوقت حسنه من وقت قبحه اتت الشرايع بالامر به في وقت حسنه وبالنهي

عنه في وقت قبيحه ولذلك يكون الفعل مشتملا على مصلحة ومفسدة ولا تعلم العقول مفسدته
ارجح ام مصلحته فيتوقف العقل في ذلك فتأتي الشرائع ببيان ذلك وتأمر براجح المصلحة وتنهى عن
راجح المفسدة وكذلك الفعل يكون مصلحة لشخص مفسدة لغيره والعقل لا يدرك ذلك فتأتي
الشرع ببيانه فيأمر به من هو مصلحة له وينهى عنه من هو مفسدة في حقه وكذلك الفعل يكون مفسدة
في الظاهر وفي ضمنه مصلحة عظيمة لا يهتدي اليها العقل فلا تعلم الا بالشرع كالجهاد والقتل في
الله تعالى ويكون في الظاهر مصلحة وفي ضمنه مفسدة عظيمة لا يهتدي اليها العقل فتجيء الشرائع
ببيان ما في ضمنه من المصلحة والمفسدة الراجحة هذا مع ان ما يعجز العقل عن ادراكه من حسن الافعال
وقبحها ليس بدون ما يدركه من ذلك فالحاجة الى الرسل ضرورية بل هي فوق كل حاجة فليس
العالم الى شيء احوج منهم الى المرسلين صلوات الله وسلامه عليهم اجمعين ولهذا يذكر سبحانه عباده
نعمه عليهم برسوله ويعد ذلك عليهم من اعظم المنن منه لشدة حاجتهم اليه ولتوقف مصالحهم
الجزئية والكلية عليه وانه لا سعادة لهم ولا فلاح ولا قيام الا بالرسل فاذا كان العقل قد ادرك
حسن بعض الافعال وقبحها فمن اين له معرفة الله تعالى باسمائه وصفاته والائه التي تعرف بها الله تعالى
الى عباده على السنة رسله ومن اين له معرفة تفاصيل شرعه ودينه الذي شرعه لعباده ومن اين له تفاصيل
مواقع محبته ورضاه وسخطه وكراهته ومن اين له معرفة تفاصيل ثوابه وعقابه وما اعد لاوليائه
وما اعد لاعدائه ومقادير الثواب والعقاب وكيفيتهما ودرجاتهما ومن اين له معرفة الغيب
الذي لم يظهر الله عليه احدا من خلقه الا من ارتضاه من رسله الى غير ذلك مما جاءت به الرسل وبلغته عن
الله عز وجل وليس في العقل طريق الى معرفته فكيف يكون معرفة حسن بعض الافعال وقبحها بالعقل
مغنيا عما جاءت به الرسل فظهر ان ما ذكره هذا المجرد تهويل مشحون بالاباطيل ولله الحمد
وقد ظهر بهذا قصور الفلاسفة في معرفة النبوات وانهم لا علم عندهم بها الا كعلم عوام
الناس مما عندهم من العقليات بل علمهم بالنبوات وحقيقتها وعظم قدرها وما جاءت به
اقل بكثير من علم العامة بعقلياتهم فهم عوام بالنسبة اليها كما ان من لم يعرف علومهم عوام
بالنسبة اليهم فلولا النبوات لم يكن في العالم علم نافع البتة ولا عمل صالح ولا صلاح في
معيشة ولا قوام لمملكة ولكان الناس بمنزلة البهائم والسباع العادية والكلاب الضارية
التي يعدو بعضها على بعض وكل خير في العالم فمن آثار النبوة وكل شر وقع في العالم او سيقع
فبسبب خفاء آثار النبوة ودروسها فالعالم جسد روحه النبوة ولا قيام للجسد بدون

روحه

لعله خير

روحه ولهذا اذا تم انكساف شمس النبوة من العالم ولم يبق في الارض شيء من آثارها البتة
انشقت سماؤه وانتثرت كواكبه وكورت شمسه وخسف قمره ونسفت جباله وزلزلت ارضه
واهلك من عليها فلا قيام للعالم الا باثار النبوة ولهذا كان كل موضع ظهرت فيه آثار
النبوة واهله احسن حالا واصلح بالا من الموضع الذي يخفى فيه آثارها وبالجملة فحاجة العالم
الى النبوة اعظم من حاجتهم الى نور الشمس واعظم من حاجتهم الى الماء والهواء الذي لا حياة
لهم بدونه **فصل** واما ما ذكره الفلاسفة من مقصود الشرائع وان ذلك
لاستكمال النفس قوى العلم والعمل فالشرائع ترد بتمهيد ما تقرر في العقل [illegible] الى آخره
فهذا مقام يجب الاعتناء بشأنه وان لا يضرب عنه صفحا فنقول للناس في المقصود
بالشرائع والاوامر والنواهي اربعة طرق احدها طريق من يقول من الفلاسفة واتباعهم
من المنتسبين الى الملل ان المقصود بها تهذيب اخلاق النفوس وتعديلها لتستعد بذلك
لقبول الحكمة العلمية والعملية ومنهم من يقول لتستعد بذلك لان يكون محلا لانتقاش
صور المعقولات فيها فغاية ذلك عندهم كالغاية الحاصلة من صقل المرآة لتستعد لظهور
الصور فيها وهؤلاء يجعلون الشرائع من جنس الاخلاق الفاضلة والسياسات العادلة
ولهذا رام فلاسفة الاسلام الجمع بين الشريعة والفلسفة كما فعل ابن سينا والفارابي و
واضرابهما وانتهى بهم الى ان تكلموا في خوارق العادات والمعجزات على طريق الفلاسفة المشائين
وجعلوا لها اسبابا ثلاثة احدها القوى الفلكية والثاني القوى النفسية والثالث
القوى الطبيعية وجعلوا جنس الخوارق جنسا واحدا ادخلوا فيه السحر وارباب الرياضة
والكهنة وغيرهم مع الانبياء والرسل في ذلك وجعلوا سبب ذلك كله واحدا وان اختلفت
بالغايات والنبي عندهم قصده الخير والساحر قصده الشر وهذا المذهب من افسد مذاهب
العالم واخبثها وهو مبني على انكار الفاعل المختار وانه تعالى لا يعلم الجزئيات ولا يقدر على تغيير
العالم ولا يخلق شيئا بمشيئته وقدرته وعلى انكار الجن والملائكة ومعاد الاجسام وبالجملة
فهو مبني على الكفر بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وليس هذا موضع الرد
على هؤلاء وكشف باطلهم وفضائحهم اذ المقصود ذكر طرق الناس في المقصود بالشرائع
والعبادات وهذه الفرقة غاية ما عندها في العبادات والاخلاق والحكمة العملية
انهم راوا النفس لها شهوة وغضب بقوتها العملية ولها تصور وعلم بقوتها العلمية فقالوا

[illegible] ودار السعاده

كمال الشهوة في العفة وكمال الغضب في الحلم والشجاعة وكمال القوة النظرية بالعلم والتوسط
في جميع ذلك بين طرفي الافراط والتفريط هو العدل فهذا غاية ما عند القوم من المقصود
بالعبادات والشرائع وهو عندهم غاية كمال النفس وهو استكمال قوتها العلمية والعملية
فاستكمال قوتها العلمية عندهم بانطباع صور المعلومات في النفس واستكمال قوتها العملية
بالعدل وهذا مع انه غاية ما عندهم من العلم والعمل وليس فيه خاصية النفس التي لا كمال
لها بدونه البتة وهو الذي خلقت له واريد منها بل ما عرفه القوم لا يكفي عندهم من
معرفة متعلقة الاثر بشير غير مجد ولا محصل للمقصود وذلك معرفة الله باسمائه وصفاته
ومعرفة ما ينبغي لجلاله وما يتعالى ويتقدس عنه ومعرفة امره ودينه والتمييز بين مواقع
رضاه وسخطه واستفراغ الوسع في التقرب اليه وامتلاء القلب بمحبته بحيث يكون سلطان
حبه قاهرا لكل حبه ولا سعادة للعبد في دنياه ولا اخراه الا بذلك ولا كمال للروح بدون
ذلك البتة وهذا هو الذي خلق له واريد منه بل ولاجله خلقت السموات والارض
واتخذت الجنة والنار كما سيأتي تقريره ان شاء الله تعالى ومعلوم
انه ليس عند القوم من هذا خبر بل هم في واد واهل الشرائع في واد وهذا هو الذي الذي
اجمعت الانبياء عليه من اولهم الى خاتمهم كلهم جاء به واخبر عن الله انه دينه الذي رضيه
لعباده وشرعه لهم وامرهم به كما قال تعالى ولقد بعثنا في كل امة رسولا ان اعبدوا
الله واجتنبوا الطاغوت وقال تعالى وما ارسلنا من قبلك من رسول الا نوحي اليه انه لا
اله الا انا فاعبدون وقال تعالى ومن يبتغ غير الاسلام دينا فلن يقبل منه وقال
تعالى واسأل من ارسلنا من قبلك من رسلنا اجعلنا من دون الرحمن آلهة يعبدون وقال
تعالى يا ايها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحا اني بما تعملون عليم وان هذه امتكم
امة واحدة وانا ربكم فاعبدون وقال تعالى شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذي
اوحينا اليك وما وصينا به ابرهيم وموسى وعيسى ان اقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه
كبر على المشركين ما تدعوهم اليه الآية وقال تعالى فاقم وجهك للدين حنيفا فطرة الله التي
فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن اكثر الناس لا يعلمون منيبين اليه
واتقوه واقيموا الصلاة ولا تكونوا من المشركين وقال تعالى وما خلقت الجن والانس
الا ليعبدون فالغاية الحميدة التي يحصل بها كمال بني آدم وسعادتهم ونجاتهم هي معرفة الله

ومحبته

ومحبته وعبادته وحده لا شريك له وهي حقيقة قول العبد لا اله الا الله وبهذا
بعثت الرسل ونزلت جميع الكتب ولا تصلح النفس ولا تزكو ولا تكمل الا بذلك قال
تعالى فويل للمشركين الذين لا يؤتون الزكاة اي لا يؤتون ما تزكى به انفسهم من التوحيد
والايمان ولهذا فسرها غير واحد من السلف بان قالوا لا يؤتون الزكاة لا يقولون لا اله
الا الله فعبادة الله وحده لا شريك له وان يكون الله احب الى العبد من كل ما سواه هو اعظم وصية
جاءت بها الرسل ودعوا اليها الامم وسنبين ان شاء الله تعالى عن قريب بالبراهين الشافية
ان النفس ليس لها نجاة ولا سعادة ولا كمال الا بان يكون الله وحده محبوبها ومعبودها الذي
لا احب اليها منه ولا آثر عندها من رضاه والتقرب اليه وان النفوس محتاجة بل مضطرة
اليه من حيث هو معبودها ومحبوبها وغاية مرادها اعظم من اضطرارها اليه من حيث هو ربها
وخالقها وفاطرها ولهذا كان من آمن بالله خالقه ورازقه وربه ومليكه ولم يؤمن بانه لا
اله يعبد ويحب ويخشى ويخاف غيره بل اشرك معه في عبادته غيره فهو كافر به مشرك
شركا لا يغفره الله له كما قال تعالى ان الله لا يغفر ان يشرك به وقال تعالى ومن الناس
من يتخذ من دون الله اندادا يحبونهم كحب الله فاخبر ان من احب شيئا سوى الله مثل ما يحب الله فقد اتخذ من دون
الله ندا ولهذا يقول اهل النار لمعبودهم وهم معهم فيها تالله ان كنا لفي ضلال مبين اذ نسويكم
برب العالمين وهذه التسوية انما كانت في الحب والتأله لا في الخلق والقدرة والربوبية
وهي العدل الذي اخبر به عن الكفار بقوله الحمد لله الذي خلق السموات والارض وجعل الظلمات
والنور ثم الذين كفروا بربهم يعدلون واصح القولين ان المعنى والذين كفروا يعدلون بربهم
فيجعلون له عديلا يحبونه ويعبدونه كما يحبون الله ويعبدونه فما ذكره الفلاسفة
من الحكمة العلمية والعملية ليس فيها من العلوم والاعمال ما تسعد به النفوس وتنجو به من العذاب فليس في
حكمتهم العلمية ايمان بالله ولا ملائكته ولا كتبه ولا رسله ولا لقائه وليس في حكمتهم العملية عبادة
وحده لا شريك له واتباع مرضاته واجتناب مساخطه ومعلوم ان النفوس لا سعادة
لها ولا فلاح الا بذلك فليس في حكمتهم العلمية والعملية ما تسعد به النفوس وتفوز به ولهذا
لم يكونوا داخلين في الامم السعداء في الآخرة وهم الامم الاربعة المذكورون في قوله تعالى
ان الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحا
فلهم اجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون **فصل** وهذه الكلمات

المربعة التي ذكرها الفلاسفة للنفس لا بد منها في كمالها وصلاحها ولكن قصروا غاية التقصير
في انهم لم يبينوا متعلقها ولم يحدوا الحاجة فاصلا بين ما يحصل به السعادة وما لا يحصل به
فانهم لم يذكروا متعلق العفة ولا عاداتها ولا نوعها ولا مقدارها الذي اذا تجاوزه العبد
وقع في الفجور وكذلك الحلم لم يذكروا مواقعه ومقداره واين يحسن واين يقبح وكذلك
الشجاعة وكذلك العلم لم يميزوا العلم الذي تزكوا به النفوس وتسعد من غيره بل لم يعرفوه
اصلا واما الرسل صلوات الله وسلامه عليهم فبينوا ذلك غاية البيان وفصلوه احسن تفصيل
وقد جمع الله ذلك في كتابه في اية واحدة في قوله قل انما حرم ربي الفواحش ما ظهر
منها وما بطن والاثم والبغي بغير الحق وان تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانا وان تقولوا على الله
ما لا تعلمون فهذه الانواع الاربعة التي حرمها تحريما مطلقا لم يبح منها شيئا لاحد من الخلق
ولا في حال من الاحوال بخلاف الميتة والدم ولحم الخنزير فانها تحرم في حال وتباح في حال
واما هذه الاربعة فهي محرمة مطلقا فالفواحش متعلقة بالشهوة وتعديل قوة الشهوة
باجتنابها والبغي بغير الحق متعلق بالغضب وتعديل القوة الغضبية باجتنابه والشرك بالله
ظلم عظيم بل هو اظلم الظلم على الاطلاق وهو مناف للعدل والعلم وقوله وان تشركوا
بالله ما لم ينزل به سلطانا يتضمن تحريم اصل الظلم في حق الله وذلك يستلزم ايجاب العدل في حقه
وهو عبادته وحده لا شريك له فان النفس لها القوتان العلمية والعملية وعمل الانسان
عمل اختياري تابع لارادة العبد وكل ارادة فلها مراد وهو اما مراد لنفسه واما مراد لغيره ينتهي
الى المراد لنفسه ولا بد فالقوة العملية تستلزم ان يكون للنفس مراد يستكمل بارادته فان كان
ذلك المراد مضمحلا فانيا زالت الارادة بزواله ولم يكن للنفس مراد غيره ففاتها اعظم سعادتها
وفلاحها وصلاحها اذ ان يكون مرادها الذي تستكمل بارادته وحبه وايثاره باقيا لا يفنى ولا يزول
وليس ذلك الا الله وحده وسنذكر ان شاء الله تعالى عن قريب معنى تعلق الارادة به تعالى
وكونه مرادا والعبد مريدا له فان هذا مما اشكل على بعض المتكلمين حيث قالوا ان الارادة لا تتعلق
الا بالحادث واما القديم فكيف يكون مرادا وخفي عليهم الفرق بين الارادة الغائية والارادة
الفاعلية وجعلوا الارادتين واحدة والمقصود ان هؤلاء الفلاسفة لم يذكروا اهم الى كمال
النفس وانما جعلوا الارادتين واحدة كالحاجة في تعديل الشهوة والغضب والشهوة هي جلب
ما ينفع البدن ويبقي النوع والغضب دفع ما يضر البدن ولم يتعرضوا للمراد المحبوب

اداته

لذاته وجعلوا كمالها العلمي في مجرد العلم وغلطوا في ذلك من وجوه كثيرة منها انهم ذكروه
لا يعطي كمال النفس التي خلقت له كما بيناه ومنها انهم ذكروه في كمال القوة العملية ان غايته
اصلاح البدن الذي هو آلة النفس ولم يذكروا كمال النفس الارادي والعملي بالمحبة والخوف
والرجاء ومنها ان كمال النفس في العلم والارادة لا في مجرد العلم لا يعطي النفس كمالا ما لم تقترن
به الارادة والمحبة ومنها ان العلم لو كان كمالا بمجرده لم يكن ما عندهم من العلم كمالا للنفس فان غاية
ما عندهم علوم رياضية صحيحة محصلها من جنس مصالح الصناعات وربما كانت الصناعات
اصلح وانفع من كثير منها واما علم طبيعي غايته صحيحة معرفة العناصر وبعض خواصها وطبايعها
ومعرفة بعض ما يتركب منها وما يستحيل من الموجودات اليها وبعض ما يقع في العالم من الاثار
بامتزاجها واختلاطها واي كمال للنفس في هذا واي سعادة لها فيه واما علمهم الالهي فكله باطل لم
يوفقوا للاصابة الحق فيه في مسألة واحدة ومنها ان كمال النفس وسعادتها المستفاد من
الرسل صلوات الله وسلامه عليهم ليس عندهم اليوم منه حس ولا خبر ولا عين ولا اثر وهم
ابعد الناس من كمالات النفوس وسعاداتها واذا عرف ذلك وانه لا بد للنفس من مراد محبوب
لذاته لا يصلح الا به ولا يكمل الا بحبه وايثاره وقطع العلايق عن غيره وان ذلك هو النهاية
وغاية مطلوبها ومرادها الذي ينتهي اليه الطلب فليس ذلك الا الله الذي لا اله الا هو قال
تعالى ام اتخذوا الهة من الارض هم ينشرون لو كان فيهما الهة الا الله لفسدتا وليس صلاح
الانسان وحده وسعادته هو بذلك بل وكذلك الملايكة والجن وكل حي شاعر لا صلاح له
الا بان يكون الله وحده الهه ومعبوده وغاية مراده وسنبين ان شاء الله تعالى بسط القول في
ذلك واقامة البراهين على هذا المطلوب الاعظم الذي هو غاية سعادة النفوس واشرف
مطالبها فلنرجع الى ما كنا فيه من بيان طرق الناس في مقاصد العبادات

الطريق الثاني

طريق من يقول من المعتزلة ومن تابعهم ان الله سبحانه عرضهم لهذا الثواب واستأجرهم بترك الاعمال
عن حسن لما فيه من تكدر منة العطاء ابتداء ولما فيه من الاخلال بالمدح والثناء والتعظيم الذي لعلها عن
لا يستحق الا بالتكليف ومنهم من يقول ان الواجبات الشرعية لطف في الواجبات العقلية
ومنهم من يقول ان الغاية المقصودة التي يحصل بها الثواب هي العمل والعلم وسيلة اليه حتى بالغ
لعله لو قائلوا ذلك في معرفة الله تعالى وانها انما وجبت لانها لطف في اداء الواجبات العملية وهذه
تصور اللبيب العاقل لها يحتاج الى تصوره كاف في جزمه ببطلانها راجع عنه مؤنة الرد عليها

والوجوه الدالة على بطلانها أكثر من أن تذكر هاهنا **الطريق الثالث** طريق الجبرية ومن وافقهم أن الله سبحانه امتحن عباده بذلك وكلفهم لا لحكمة ولا لغاية مطلوبة ولا لسبب من الأسباب فلا لام تعليل هنا ولا باء سبب إن هو إلا محض المشيئة وصرف الإرادة كما قاله أكثر الخلق سواء وهؤلاء قابلوا من قبلهم من القدرية والمعتزلة أعظم مقابلة فهما طرفا نقيض لا يلتقيان **والطريق الرابع** طريق أهل العلم والإيمان الذين عقلوا عن الله تعالى أمره ودينه وعرفوا مراده بما أمرهم ونهاهم عنه وهي أن نفس معرفة الله عز وجل ومحبته وطاعته والتقرب إليه وابتغاء الوسيلة إليه أمر مقصود لذاته وأن الله سبحانه يستحقه لذاته وهو سبحانه المحبوب لذاته الذي لا تصلح العبادة والمحبة والذل والخضوع والتأله إلا له فهو سبحانه وتعالى يستحق ذلك لأنه أهل أن يعبد ولو لم يخلق جنة ولا نارا ولو لم يضع ثوابا ولا عقابا كما جاء في بعض الآثار لو لم أخلق جنة ولا نارا أما كنت أهلا أن أعبد فهو سبحانه يستحق غاية الحب والطاعة والثناء والمجد والتعظيم لذاته ولما له من أوصاف الكمال ونعوت الجلال وحبه والرضا به وعنه والذل له والخضوع والتعبد هو غاية سعادة النفس وكمالها والنفس إذا فقدت ذلك كانت بمنزلة الجسد الذي فقد روحه وحياته والعين التي فقدت ضوءها ونورها بل أسوأ حالا من ذلك من وجهين أحدهما أن غاية الجسد إذا فقد روحه أن يصير معطلا ميتا وكذلك العين تصير معطلة وأما النفس إذا فقدت كمالها المذكور فإنها تبقى معذبة متألمة وكلما اشتد حجابها اشتد عذابها وألمها وشاهد هذا ما يجده المحب الصادق المحبة من العذاب والألم عند احتجاب محبوبه عنه ولا سيما إذا يئس من قربه وحظي عنه بحبه ووصله هذا مع إمكان التعوض عنه بمحبوب آخر نظيره أو خير منه فكيف بروح فقدت محبوبها الحق الذي لم تخلق إلا لمحبته ولا كمال لها ولا صلاح أصلا إلا بأن يكون أحب إليها من كل ما سواه وهو محبوبها الذي لا عوض لها منه سواه بوجه ما كما قال القائل

من كل شيء إذا ضيعته عوض ... وما من الله إن ضيعته عوض

ولو لم يكن احتجابه سبحانه عن عبده أشد أنواع العذاب عليه لم يتوعد به أعداءه كما قال تعالى كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون ثم إنهم لصالوا الجحيم فأخبر تعالى أن لهم عذابين أحدهما عذاب الحجاب عنه والثاني صلي الجحيم وأحد العذابين أشد من الآخر وهذا كما أنه سبحانه ينعم على أوليائه بنعيمين نعيم كشف الحجاب فينظرون إليه ونعيم الجنة وما فيها وأحد

النعيمين أحب إليهم من الآخر وأقر لعيونهم كما في الصحيح عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال إذا دخل أهل الجنة الجنة نادى مناد يا أهل الجنة إن لكم عند الله موعدا يريد أن ينجزكموه فيقولون ما هو ألم يبيض وجوهنا ويثقل موازيننا ويدخلنا الجنة ويجرنا من النار قال فيكشف الحجاب فينظرون إليه فما أعطاهم شيئا أحب من النظر إليه وفي حديث غير هذا أنهم إذا نظروا إلى ربهم تبارك وتعالى أنساهم لذة النظر إليه ما هم فيه من النعيم **الوجه الثاني** أن البدن والأعضاء آلات للنفس ورعية للقلب وخدم له فإذا فقد بعضهم كماله الذي خلق له كان بمنزلة هلاك بعض جند الملك ورعيته وتعطل بعض آلاته ولم يلحق الملك في ذلك ضرر أصلا وأما إذا فقد القلب كماله الذي خلق له وحياته ونعيمه كان بمنزلة هلاك الملك وأسره وذهاب ملكه من يده وصيرورته أسيرا في يد أعدائه فهكذا الروح إذا عدمت كمالها وصلاحها من معرفة فاطرها وبارئها وكونه أحب شيء إليها ورضاه وابتغاء الوسيلة إليه آثر شيء عندها حتى يكون اهتمامها بمحبته ومرضاته اهتمام المحب التام المحبة بمرضاة محبوبه الذي لا يجد منه عوضا كانت بمنزلة الملك الذي ذهب ملكه وأصبح أسيرا في يدي أعاديه يسومونه سوء العذاب وهذا الألم كامن في النفس لكن يستره سكر الشهوات ويواريه حجاب الغفلة حتى إذا انكشف الغطاء وحيل بين العبد وبين ما يشتهي وجد حقيقة ذلك الألم وذاق طعمه وتجرد ألمه عما يحجبه ويواريه وهذا أمر يدرك بالعيان والتجربة في هذه الدار لكون الأسباب المولمة للروح والبدن موجودة مقتضية لآثارها ولكن يقوم للقلب من فرحه بحظ نال له من مال أو جاه أو وصال حبيب ما يواري عنه شهود الألم وربما لا يشعر به أصلا فإذا زال المعارض ذاق طعم الألم ووجد مسه ومن اعتبر أحوال نفسه وغيره علم ذلك فإذا كان هذا في هذه الدار فما الظن عند المفارقة والقدوم عن الدنيا والارتحال إلى الله تعالى والمصير إليه فليتأمل العاقل الفطن الناصح لنفسه هذا الموضع حق التأمل وليشغل به مجال فكره فإن فهمه وعقله واستمر إعراضه

فما تبلغ الأعداء من جاهل ما يبلغ الجاهل من نفسه

وإن لم يفهمه لغلظ حجابه وكثافة طبعه فليكفه الإيمان بما أعد الله تعالى في الجنة لأهلها من نعيم الأكل والشرب والنكاح والمناظر البهجة وبما أعد الله تعالى في النار لأهلها من السلاسل والأغلال والجحيم ومقطعات الثياب من النار ونحو ذلك **والمقصود** بيان أن الحاجة إلى الرسل

صلوات الله وسلامه عليهم ضرورية بل هي في اعلا مراتب الضرورة وليست نظير الحاجة لهم الى الحياة واسبابها بل هي اعظم من ذلك واما ما ذكر عن الصابية من الاستغنا عن النبوة فهذا اليس مذهبًا لجميعهم بل فيهم سعيد وشقي كما قال تعالى ان الذين امنوا والذين هادوا والنصارى والصابين من امن بالله واليوم الاخر وعمل صالحًا فلهم اجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون فادخل المومنين من الصابية في اهل السعادة ولم ينالوا ذلك الا بالايمان بالرسل ولكن منهم من انكر النبوات وعبد الكواكب وهم فرق كثيرة ليس هذا موضع ذكرهم فاما قولهم ان الموجودات في العالم السفلي مركبة على تاثير الكواكب والروحانيات وفي اتصالها بسعود ونحوس يوجب ان يكون اثارها حسن وقبح في الاخلاق والاعمال يدرك كل ذي عقل سليم فلا حاجة لنا الى يعرفنا حسنها وقبحها الى اخر كلامهم وكلام من هو اجهل الناس واضلهم وابعدهم عن الانسانية وقايل هذه المقالة ينادي على نفسه انه لم يعرف فاطر فاطر السموات والارض ولا صفاته ولا افعاله بل ولا عرف نفسه التي بين جنبيه ولا ما يسعدها ويشقيها ولا غايتها ولا الى ماذا اطلقت ولا بماذا تكمل وتبتهج وبماذا تفسد وتهلك بل هو اجهل الناس بنفسه وبفاطرها وبارئها وهل يتمكن العقل بعد معرفة النفس ومعرفة فاطرها ومبدعها ان يجحد النبوة او يجوز على الله وعلى حكمته ان يترك النوع البشري الذي هو خلاصة المخلوقات سدى ويدعهم هملا معطلا ويخلقهم عبثا باطلا ومن جوز ذلك على الله تعالى فما قدره حق قدره بل ولا عرفه ولا آمن به قال الله تعالى وما قدروا الله حق قدره اذ قالوا ما انزل الله على بشر من شي فاخبر تعالى ان من جحد رسالاته فما قدره حق قدره ولا عرفه ولا عظمه ولا نزهه عما لا يليق به تعالى الله عما يقول الظالمون علوًا كبيرًا ثم يقال لهذه الطايفة ماذا عرفتم ان الموجودات في العالم السفلي كلها مركبة على تاثير الكواكب والروحانيات وهل هذا الا دعوى مجرد وبهت فهب ان بعض الاثار المشاهدة مسبب عن تاثير بعض الكواكب والعلويات كما يشاهد من تاثير الشمس والقمر في الحيوان والنبات وغيرهما فمن اين لكم ان جميع اجزا العالم السفلي صادر عن تاثير الكواكب والروحانيات وهل هذا الا الكذب وجعل هذا العالم فيه من التغير والاستحالة والكون والفساد ما لا بد من اضافته الى موجب ولا يتصور وقوعه الا بمشيئة فاعل مختار قادر قاهر موثر في الكواكب والروحانيات يسخرها بقدرته ويدبرها بمشيته كما يشهد عليها احوالها وهيآتها وتسخيرها وانقيادها انها مدبرة مربوبة مسخرة بامر قاهر وتدبير قادر يصرفها كيف يشا ويدبرها

كابريد

كما يريد ليس لها من الامر شي ولا يمكن ان تتصرف في انفسها بذرة فضلا ان تعطي العالم وجوده فلو اراد حركة عن جرمها او مكانا عن مكانها او هيئة او حالا عن ما هي عليه لم تجد الى ذلك سبيلا فكيف تكون ربا لكل ما تحتها مع كونها عاجزة مصرفة مقهورة مسخرة اثار الفقر مسطورة في صفحاتها وايات العبودية والتسخير بادية عليها وباي اعتبار نظر اليها العاقل راى اثار الفقر وشواهد الحدوث وادلة التسخير والتصريف فيها فهي خلق من خلقه تعالى واياته من اياته عبيد مسخرات بامره الا له الخلق والامر تبارك الله رب العالمين واما قولهم في اتصالات الكواكب نظير سعود ونحوس فهما اضحكوا به العقلاء عليهم وحسم الايمة وبادوا به على جهلهم وضلالهم وصاروا به مركزا لكل كذاب وكل افاك وكل زنديق وكل مفرط في الجهل بالنبوات وما جاءت به الرسل والحقايق العقلية والبراهين اليقينية وسنريك طرفًا من حالاتهم وكذبهم وتناقضهم وبطلان مقالاتهم ليعرف اللبيب نعمة الله عليه في عقله ودينه فيقال لهم المؤثر في هذه السعود والنحوس هل هو الكوكب وحده او البرج وحده او الكوكب بشرط حصوله في البرج والكل محال اما الاول والثاني فانهما يوجبان دوام الاثر لكون المؤثر دايم الثبوت والثالث ايضا محال لانه لما اختلف اثر الكوكب بسبب اختلاف البروج لزم ان يكون طبيعة كل برج مخالفة بالماهية لطبيعة البرج الثاني اذ لو لم يكن كذلك كانت طبايع جميع البروج متساوية في تمام الماهية فيمتنع ان يلزمها لوازم مختلفة ولما كانت اثار كل كوكب واجبة الواجبات بسبب اختلاف البروج لزم القطع بكون البروج مختلفة في الطبيعة والماهية وهذا يقتضي كون الفلك مركبا لا بسيطا وقد قلتم انتم وجميع الفلاسفة ان الفلك بسيط لا تركيب فيه ومن العجب جواب بعض الاحكاميين عن هذا بان الكواكب حيوانات ناطقة فاعلة بالقصد والاختيار ولذلك تصدر عنها الافعال المختلفة وهذا مكابرة من هو كذا ظاهر فان ذلك التسخير والاضطرار عليها ولزومها حركة لا سبيل لها الى الخروج عنها ولزومها موضعًا من الفلك لا يتميز من الانتقال عنه واطراد سيرها على وجه مخصوص لا تتعداه ابين دليل على انها مسخرة مقهورة على حركاتها مجردة تحريك قاهر لها لا متحركة بارادتها واختيارها كما قال تعالى والشمس والقمر والنجوم مسخرات بامره الا له الخلق والامر تبارك الله رب العالمين ثم يقال لا ينفعكم هذا الجواب شيئا فان طبايع البروج ان كانت متنافية في تمام الماهية كان اختصاص كل برج باثره الخاص ترجيحا لاحد طرفي الممكن

على الاخر بالامتزاج وان لم يكن متساوية لزم تركيب الفلك ومما اضحكتم به العقلاء منكم انكم جعلتموها
اجساما ناطقة فاعلة بالاختيار ونفيتم ان يكون فاطرها ومبدعها حيا قيوما فاعلا بالاختيار
وهذه الحوادث مستندة الى مشيته واختياره جارية على وفق حكمته وعلمه مع كون هذه
الكواكب عبيده وخلقه مسخرات بامره لا تملك لانفسها ولا لما تحتها ضرا ولا نفعا ولا موتا ولا
حياة كما قاله العقلاء من بني آدم واتفقت عليه الرسل واتباعهم فان قيل لا نسلم ان الفلك
بسيط بل هو مركب من هذه البروج وطبيعة كل برج مخالفة لطبيعة البرج الاخر بل طبيعة كل دقيقة
وثانية مخالفة لطبيعة الدقيقة الاخرى والثانية الاخرى ولا يتم علم الاحكام الا بهذا
قيل قولكم بانه قديم ابدي غير قابل للكون والفساد ولا يقبل الانحلال ولا الخرق ولا
الالتيام مع كون كل جزء منه صغيرا او كبيرا طبيعته مخالفة لطبيعة الجزء الاخر كما صرح به
ابو معشر جمع بين النقيضين فانه اذا كان مركبا من اجزاء مختلفة الماهية لم يمتنع
انحلاله وانفطاره وانشقاقه فكيف جمعتم بين تكذيب الرسل في الاخبار عن انفطاره وانشقاقه
وانحلاله وبين دعواكم تركيبه من ماهيات مختلفة في انفسها غير ممتنع على المركب منها الانحلال
والانفطار فلا للرسل صدقتم ولا مع موجب العقل وقفتم بل انتم من اهل هذه الاية وقالوا
لو كنا نسمع او نعقل ما كنا في اصحاب السعير فان قيل لم لا يجوز ان يقال ان كل برج من البروج
الاثني عشر قد ارتسمت فيه كواكب صغيرة بلغت في الصغر الى حيث لا يمكننا ان نحس بها ثم ان
الكواكب اذا وقع في مسامته برج خاص امتزج نور ذلك الكوكب بانوار تلك الكواكب الصغار
المرتسمة في تلك القطعة من الفلك فيحصل بهذا السبب اثار مخصوصة واذا كان هذا محتملا
ولم يبطل بالدليل ثبوته تعين المصير اليه قيل طبايع تلك الكواكب ان كانت مختلفة بالماهية
عاد المحذور المذكور وان كانت واحدة لم يكن ذلك الامتزاج الا متشابها فلا يتصور صدور
الاثار المتضادة المختلفة عنه ٥ **الوجه الثاني من الكلام** على بطلان علم
الاحكام ان معرفة جميع المؤثرات الفلكية ممتنعة واذا كان كذلك امتنع الاستدلال
بالاحوال الفلكية على حدوث الحوادث السفلية وانما قلنا ان معرفة جميع المؤثرات الفلكية
ممتنعة لوجوه احدها انه لا سبيل الى معرفة الكواكب الا بواسطة القوة الباصرة
والمرئي اذا كان صغيرا او في غاية البعد من الرائي فانه يتعذر رؤيته لذلك فان اصغر
الكواكب التي في فلك الثوابت وهو الذي يمتحن به قوة البصر مثل كرة الارض بضعة عشر مرة السهى صح

وكرة

وكرة الارض اعظم من كرة عطارد كذا الف مرة فلو قدرنا انه حصل في الفلك الاعظم كواكب
كبيرة يكون حجم كل واحد منها مثل حجم عطارد فانه لا شك ان البصر لا يقوى على ادراكه
فثبت انه لا يلزم من عدم ابصارنا شيئا من الكواكب في الفلك الاعظم عدم تلك الكواكب واذا
كان كذلك فاحتمال انه في الفلك الاعظم وفي فلك الثوابت وفي سائر الافلاك كواكب
صغيرة وان كنا لا نحس بها ولا بآثارها يوجب امتناع معرفة جميع المؤثرات الفلكية فان قلتم
انها لما كانت صغيرة وآثارها ضعيفة لم تصل آثارها وقواها الى هذا العالم قيل لكم
صغر الجثة لا يوجب ضعف الاثر فان عطارد اصغر الاجرام الفلكية جرما عندكم مع ان آثاره
قوية وايضا فالراس والذنب نقطتان وهميتان وانتم قد اثبتم لهما آثارا وايضا
السهام مثل سهم السعادة وسهم الغيب نقطة وهمية ولها عندكم آثار قوية ٥ **الوجه
الثاني** مما يدل على ان معرفة جميع المؤثرات الفلكية غير معلوم ان الكواكب المرئية
غير مرصودة باسرها فانكم انتم وغيركم قد علمتم ان المجرة عبارة عن اجرام كوكبية صغيرة جدا
مرتكزة في فلك الثوابت على هذا السمت المخصوص ولا ريب ان الوقوف على طبايعها متعذر
وثالثها ان جميع الكواكب الثابتة المحسوسة لم يحصل الوقوف التام على طبايعها لان كلام
الاحكاميين قليل الحاصل في الاشياء في طبايع الثوابت بل غاية ما عندهم انهم ادعوا انهم جربوا
بعض الثوابت التي في القدر الاول والثاني فاما البقية فقلما تكلموا في معرفة طبايعها ورابعها
ان بتقدير انهم عرفوا طبايع هذه الكواكب حال تسلطها لكن لا شبهة انه لا يمكن الوقوف
على طبايعها حال امتزاج بعضها بالبعض لان الامتزاجات الحاصلة من طبايع الف كوكب
او اكثر بحسب الاجزاء الفلكية تبلغ في الكثرة الى حيث لا يقدر العقل على ضبطها وخامسها
ان آلات الرصد لا تفي بضبط الثواني والثوالث ولا شك ان الثانية الواحدة مثل الارض
كذا كذا الف مرة او اقل او اكثر ومع هذا التفاوت العظيم كيف يمكن الوصول الى الغرض وحكي
قيل ان الانسان اذا اشتد بالجري بين رفعه رجله ووضعه الاخرى يتحرك جرم الفلك الاعلى
ثلاثة الاف ميل واذا كان الامر كذلك فكيف يمكن ضبط هذه المؤثرات وسادسها انا
عرفنا تلك الامتزاجات الحاصلة في ذلك الوقت فلا ريب انه لا يمكننا معرفة الامتزاجات التي
كانت حاصلة قبله مع انا نعلم قطعا ان الاشكال السالفة ربما كانت عائقة ومانعة عن
مقتضيات الاشكال الحاصلة في الحال ولا ريب انا نشاهد اشخاصا كثيرة من النبات والحيوان

والانسان بحيث مقارنه لطالع واحد مع ان كل واحد منهما مخالف للآخر في اكثر الامور وذلك
ان الاحوال السالفة في حق كل واحد يكون مخالفة للاحوال السالفة في حق الآخر وذلك يدل
على انه لا اعتماد على منتهى الوقت بل لا بد من الاحاطة بالطوالع السالفة وذلك محال والوقوف عليها اصلا
فانه ربما كانت الطوالع السالفة دافعة مقتضيات هذا الطالع الحاضر وعلى هذا الوجه عول
ابن سينا في كتابيه اللذين سماهما الشفا والنجاة في ابطال هذا العلم فثبت بهذا ان الوقوف
التام على المؤثرات جميعها ممتنع متعذر واذا كان الامر كذلك كان الاستدلال بالاشخاص الفلكية
على الاحوال السفلية باطلا قطعا **الوجه الثالث** ان تاثير الكواكب فيما ذكر
من السعد والنحس اما بالنظر الى مفرده واما بالنظر الى انضمامه الى غيره فمتى لم يحط المنجم بهاتين
الحالتين لم يصح منه ان يحكم سابقا ولم يحصل الا على تعارض التقدير ومن المعلوم ان في ذلك الى اليوم
كواكب شذت عن الرصد معرفة اقدارها لخروج العقول عن ان اصحاب الرصد والاحكام عن الاحاطة
بما في طباعها وما عسى ان تؤثره مع السيارات عند انفرادها واجتماعها كما الذي يعلم عند
كلكم وقوع نجم من تلك النجوم المجهولة على درجة الطالع يكون موجبا ما خلاف اقدارها كما كان
من العذر الاول اثر بوقوعه على الدرجة وان لم يضبط الدقيقة وما كان من العذر الاخير لم يؤثر
الا بضبط الدقيقة ولا ريب ان الجهل بتلك الكواكب ومقاديرها يوجب تعذر الاحكام
النجومية وبطلانها **الوجه الخامس** انها لو كان لها تاثير كما يزعمون لم يخل
اما ان يكون فيه مختار مريد او غير مختار ولا مريد وكلاهما محال اما الاول فلانه يوجب جري
الاحكام على وفق اختيارها وارادتها ولم يتوقف على اتصالاتها وانفصالاتها ومفارقتها ومقارنتها
وهبوطها في حضيضها وارتفاعها في اوجها كما هو المعروف من الفاعل بالاختيار ولا سيما
الاجرام العلوية المؤثرة في سائر السفليات ولاختلفت اثارها ايضا عند هذه الامور بحسب
الدواعي والارادات ولامكنها ان تسعد من ارادت نحسه وتنحس من ارادت سعده كما هو شان الفاعل
المختار وان لم يكن مختارا مريدا فتاثيرها بحسب الذات والطبع وما كان كذلك لم يختلف اثره الا باختلاف
القوابل والمعدات وعند ذلك اختلاف تلك القوابل والمعدات مستند الى تاثيرها فاي محال
ابلغ من هذا او هل هذا الا دور ممتنع في بداية العقول **الوجه السادس** ان
هذا العلم مشتمل على اصول يشهد صريح العقل بفسادها وهي وان كانت في الكثرة الى حيث لا يمكن ذكر
تاثيرها فيجب نعد بعضها فالاول ان من المعلوم بالضرورة انه ليس في السماء حمل ولا ثور

الوجه الرابع [illegible] الكواكب [illegible]

جية ولا عقرب ولا دب ولا كلب ولا ثعلب الا ان المتقدمين لما قسموا الفلك الى اثني عشر
قسما وارادوا ان يميزوا كل قسم بعلامات مخصوصة شبهوا الكواكب المركوزة في تلك القطعة المعينة
بصورة حيوان مخصوص شبيها بعيدا جدا ثم ان هؤلاء الاحكاميين فرعوا على هذه الاسماء تفريعات
طويلة فزعموا ان الصور السفلية مطيعة للصور العلوية فالعقارب مطيعة لصورة العقرب
والافاعي مطيعة لصورة التنين وكذلك القول في الاسد والسنبلة ومن عرف كيف وضعت
هذه الاسماء ثم سمع قول هؤلاء الاحكاميين ضحك منهم وتبين له فرط جهلهم وكذبهم الثاني
ان هؤلاء لما عجزوا عن معرفة طالع القران اقاموا طالع سنة القران مقام القران ومعلوم
ان هذا في غاية الفساد الثالث انهم اختلفوا اختلافا شديدا في المسئلة الواحدة
من مسائل هذا العلم فان اقوالهم في حدود الكواكب كثيرة مختلفة وليس مع احد منهم شبهة
ولا خيال فضلا عن حجة واستدلال ثم ان كثيرا منهم من غير حجة ولا دليل ربما اخذوا احد
تلك الاقوال من غير بصيرة بل بمجرد التشهي مثل اخذهم في ذلك بحدود المصريين وذلك
من ادل الدلائل على فساد هذا العلم الرابع ان اقوالهم متناقضة فان منهم من يقول
كون زحل في بيت المال دليل الفقر ومنهم من يقول يدل على وجدان الكنز الخامس
ان هذا العلم مع انه تقليد محض وليس ايضا تقليدا منتظما لان لكل قوم فيه مذهبا ولكل طايفة
فيه مقالة فللبابليين مذهب وللفرس مذهب آخر وللهند مذهب وللصين مذهب رابع
والاقوال اذا تعارضت وتعذر الترجيح كان ذلك دليلا على فسادها وبطلانها وسياتي ان شاء
الله تعالى بسط هذه الوجوه اكثر من هذا **الوجه السابع** مما يدل على بطلان
القول بالاحكام ان الطالع عندهم هو الشكل المخصوص الحاصل للفلك عند انفصال الولد
من رحم امه فاذا ثبت هذا فقول المستدل بحصول ذلك الشكل على جميع الاحوال
الكلية التي تحصل لهذا الولد الى آخر عمره استدلال باطل قطعا ويدل عليه وجوه احدها
ان ذلك الشكل كما حدث في تلك اللحظة فانه يفنى ويزول ويحدث شكل آخر وذلك الشكل المعين
معدوم في جميع اجزاء عمر هذا الانسان والمعدوم لا يكون علة للوجود ولا جزءا من اجزاء
العلة واذا كان كذلك امتنع الاستدلال بذلك الشكل على الاحوال التي تحدث في جميع اجزاء
العمر الثاني انه لا مشابهة بين ذلك الشكل المخصوص وبين هذا الانسان الذي انفصل
من بطن امه والجامع بينهما هو ان كل واحد منهما ظهر بعد الخفاء ومجرد ذلك لا يوجب

ارتباط ذلك الشكل المخصوص للفلك بشيء من احوال هذا الانسان البتة ومع هذا فلذلك فاسد العقل والنظر السالك ان عند حدوث ذلك الطالع حدثت انواع من الحيوانات وانواع من النبات وانواع من الجمادات فلو كان ذلك الطالع يوجب اثارا مخصوصة لوجب اشتراك كل الاشياء التي حدثت في عالمنا هذا في ذلك الوقت في تلك الاثار وحيث لم يكن الامر كذلك علمنا ان القول بتاثير الطالع باطل ☉ الوجه **الرابع** هب ان الطالع له اثر الا ان الواجب ان يقال الطالع المعتبر هو طالع مسقط النطفة لا طالع الولادة وذلك لان عند مسقط النطفة يأخذ ذلك الشخص في التكون والتولد فاما عند الولادة فالشخص قديم تكونه وحدوثه ولا حادث في هذا الوقت الا انتقاله من مكان الى مكان اخر فثبت انه لو كان للطالع اعتبار لوجب ان يكون المعتبر هو طالع مسقط النطفة لا طالع الولادة ☉ **الوجه الثامن** ان الارصاد لا تنفك عن نوع من الخلل والزلل وقد صنف ابو علي ابن الهيثم رسالة بليغة في اقسام الخلل الواقع في الات الرصد وبين ان ذلك الخلل ليس في وسع الانسان دفعه وازالته واذا عرف هذا فنقول اذا بعد العهد بتجديد الرصد اجتمعت تلك المسامحات القليلة وحصل بسببها تفاوت عظيم في مواضع الكواكب ولذلك فاذا وجد موضع الكوكب بحسب بعض الزيجات درجة معينة وجد بحسب زيج اخر غير تلك الدرجة بل ربما حصل التفاوت بالبروج ولما كان علم الاحكام مبنيا على مواضع الكواكب ومناسباتها ثم قد بينا ان التفاوت الكبير واقع في مواضع الكواكب علم بطلان هذا العلم وفساده ☉ **الوجه التاسع** ان المعقول من تاثير هذه الكواكب في العالم السفلي هو انها بحسب مسامتتها ومباعدتها تسخن هذا العالم انواعا من السخونة فاما ما يدعونه في حصول الاحوال النفسانية من الذكاء والبلادة والسعادة والشقاوة وحسن الخلق وقبحه والغنى والفقر والهم والسرور واللذة والالم فلو كان يعلم لكان طريق علمه اما بالخبر الذي لا يجوز عليه الكذب او الحس الذي يشترك فيه الناس او ضرورة العقل او نظره وشيء من هذا كله غير موجود البتة فالقول به باطل ولا يمكن الاحكاميين ان يدعوا واحدا من الثلاثة الاول وغايتهم ان يدعوا ان النظر والتجربة قادهم الى ذلك واوقعهم على وجه بين فساد هذا النظر والتجربة بما لا يمكن دفعه من الوجوه التي ذكرناها ونذكر غيرها مما هو مثلها واقوى منها وكل علم صحيح فله براهين يستند اليها تنتهي الى الحس او ضرورة العقل وهذا العلم فلا ينتهي الا الى حدس وتخمين وظنون لا تغني من الحق شيئا وغاية اهله تقليد

لم يقم دليل على صدقه ☉ **الوجه العاشر** انا اذا فرضنا رجلين سالا المنجم في وقت واحد في بلد واحد عن خصمين لهما الظفر خصمه فههنا يكون ذلك الطالع مشتركا بين كل واحد من ذينك الخصمين فان دل ذلك الطالع على حال الغالب والمغلوب مع كونه مشتركا بين الخصمين لزم كون كل واحد منهما بسبب طالع الاصل وطالع التحويل او بروج الانتهاء قلنا هذا تسليم لقول من يقول ان طالع الوقت لا يدل على شيء اصلا بل لا بد من رعاية الاحوال الماضية لكن الاحوال الماضية ليس غير مضبوطة لا يمكن اعتبارها البتة وقد شاهدنا اصحاب الاحكام على الاعتراف بان الاعتماد على طالع الوقت غير مفيد بل لا يتم الامر الا عند معرفة طالع الاصل وطالع التحويل وبروج الانتهاء ومعرفة التسييرات فعند اعتبار جملة هذه الامور يتم الاستدلال على سبيل الظن لا على سبيل القطع ☉ **الوجه الحادي عشر** انا لو فرضنا جادة مسلوكة وطريقا يمشي فيه الناس ليلا ونهارا ثم حصل في تلك الجادة ابار متقاربة بحيث لا يقدر السالك لتلك الطريق على سلوكه الا بتامل كثير وتعمل شديد حتى يتخلص من الوقوع في تلك الابار فان من المعلوم بالضرورة ان سلامة من يمشي في تلك الطريق من العميان لا يكون كسلامة من يمشي من البصراء بل لا بد ان يكون عطب العميان في ذلك الطريق كثيرا جدا وان يكون سلامة البصراء غالبة جدا اذا عرف هذا فنقول مثال العميان عند الاحكاميين ميب الذين لا يعرفون احكام النجوم وهم الاكثرون من الخلائق ومثال البصراء عندهم هم اهل هذا العلم وهم الاقلون ومثال الطريق الذي حصلت فيه الابار العميقة المهلكة الزمان الذي يمضي على الخلق اجمعين ومثال تلك الابار المصائب الزمانية والمحن والبلايا فلو كان هذا العلم صحيحا لوجب ان يكون فوز المنجمين بالغنى والسلامة والنعم اتم فوز وسلامتهم فوق كل سلامة ومن المعلوم ان الامر بالعكس والغالب كون المنجمين من اشقى الناس فيهم وعمل بقولهم في الادبار والنحس والحرمان والواقع اعظم شاهد بذلك ولو ذهبنا نذكر الوقائع التي شوهدت من ذلك واشتملت عليها التواريخ لزادت على الوف عديدة فلا تجد احدا راعى هذا العلم ويعتد به في حركاته واختياراته الا وكانت عاقبته قريبا الى دمار ونكاية وبلايا لا يصاب بها سواه ومن له خبرة باحوال الناس فانه يعرف من هذا ما لا يعرفه غيره ☉ **الوجه الثاني عشر** انا نشاهد عالما من الناس يموتون في وقت واحد مع اختلاف طوالعهم واقتضائها عندكم احوالا مختلفة ولو للطوالع تاثير في هذا لامتنع عند اختلافها الاشتراك في ذلك ولا ينفعكم جواب من انتصر لكم بان الطوالع قد يكون بعضها اقوى من

لعله
طالع

بعض ولعل الطالع الوقت اقوى من طالع الاصل وكان الحكم له فان طالع الوقت لعله اقتضى هلاكا
او غرقا عاما وهو اقوى من طالع الاصل وكان الحكم له لانا نقول هذا بعينه يبطل عليكم طالع
المولود والاصل ويجعل القول سائره واعتباره جملة فان الطوالع بعده مختلفة كثيرة ولعل بعضها
او اكثرها اقوى منه فلا يكون الحكم بموجبه باطلا اذ لا امان لكم من اقتضاء الطوالع بعده ضد
ما اقتضاه وحينئذ فلا يفيد اعتباره شيئا **الوجه الثالث عشر** انا نرى الجيشين
العظيمين من الحربيين المتقاتلين يقتتلان ويختصمان وقد اخذ طالع الوقت لكل منهما ومع هذا
فالمنصور والغالب احدهما مع ان الطالع واحد ولا يتعلق في هذا جواب من انتصر لكم
بان المانع من القول بخطأ الاصل الطالع في الحساب والحكم فانه لو اخذ لهما اي طالع كان لم يكن
الغالب الا احدهما حتى لو كان الطالع قطعيا لا يتصور فيه الغلط لم يكن بد من كون احدهما
غالبا والاخر مغلوبا وهذا يبطل مذهب الاحكام بلا ريب **الوجه الرابع عشر**
ان الاجزاء المفترضة في الفلك اما ان تكون متشابهة في الطبيعة والماهية او مختلفة فيها
فان كانت متساوية كان الجزء الذي هو الطالع مساويا لسائر الاجزاء وحكم الشيء حكم
مثله فوجب ان يكون حكم الجزء الذي هو الطالع وحكم سائر الاجزاء واحدا وان كانت الاجزاء
مختلفة في الماهية والطبيعة فلا ريب ان الفلك جرم في غاية العظمة حتى قالوا ان الرجل الشديد
العدو اذا رفع رجله ووضعها يكون الفلك قد تحرك ثلاثة الاف ميل واذا كان كذلك فالوقت
الذي ينفصل المولود من بطن امه الى ان ياخذ المنجم الاصطرلاب وياخذ الارتفاع يكون الفلك قد
تحرك مثل كل الارض كذا الف مرة واذا كان الامر كذلك فالجزء الذي ياخذه المنجم بالاصطرلاب
ليس الجزء الطالع في الحقيقة واذا كانت الاجزاء الفلكية مختلفة في الطبيعة والماهية علمنا
ان اخذ الطالع محال وقد اعترف فضلاؤهم بهذا وقالوا ان الامر وان كان كذلك الا ان التجربة
قد دلت على ان هذا الطالع الذي يعسر على الانسان تحصيله يدل على كثير من مقدم المعرفة مع ما فيه
من الخلل الكبير الذي ذكرتم فوجب ان لا يهمل وهذا خطأ بين فان التجارب التي دلت على كذب
ذلك وبطلانه ووقوع الامر بخلافه اضعاف اضعاف التجربة التي دلت على صدقه كما ستذكر
قطرة من بحر عن قريب ان شاء الله ولهذا قال ابو نصر الفارابي واعلم انك لو قلبت اوضاع
المنجمين فجعلت الحار باردا والبارد حارا والسعد نحسا والنحس سعدا والذكر انثى والانثى ذكرا
ثم حكمت لكانت احكامك من جنس احكامهم تصيب تارة وتخطئ تارات وهل معهم الا الحدس

والتخمين والظنون الكاذبة ولقد حكي لنا ان امرأة اتت منجما فاعطته درهما فاخذ
طالعها وحكم وقت الطالع بحكم كذا فقالت لم يكن شيء من ذلك ثم اخذ الطالع وقال
بحكم كذا فانكرته حتى قال انه ليدل على قطع في بيت المال فقالت الآن صدقت وهو الدرهم
الذي دفعته اليك **الوجه الخامس عشر** ان الاجسام لا تفعل في غيرها الا
بواسطة المماسة وهذه الكواكب لا مماسة لها لاعضائنا وابداننا وارواحنا فيمتنع كونها
فاعلة فينا اقصى ما في الباب ان يقال انها وان لم يكن مماسة لاعضائنا الا ان شعاعاتها تتصل
الى اجسامنا فيقال لا ريب ان تاثير الشعاع انما يكون بالتسخين عند المسامتة او بالتبريد
عند الانحراف عن المسامتة فهذا بعد تصحيحه يقتضي ان لا يكون لهذه الكواكب تاثير في
هذا العالم الا على سبيل التسخين والتبريد فاما ان يعطي العلوم والاخلاق والمحبة والبغضاء
والموالاة والمعاداة والعفة والحرية والنذالة والخبث والمكر والخديعة فذلك
خارج عن معقول العقلاء وهو من خرافات الاحكاميين وجهالاتهم فان قيل التاثير
بالتسخين والتبريد يوجب اختلاف امزجة الابدان واختلاف امزجة الابدان يوجب
اختلاف افعال النفوس قيل فيجب ان يكون التسخين يقتضي حرارة وحدة في المزاج تفعل بها
هذا غاية الخير والافعال الحميدة وهذا غاية الشر والافعال الخبيثة والشعاع وقد يجمع
راكبيهما فما الموجب لاختلاف نفسيهما عن هذا التسخين هذا الانفعال المتباعد المتناقض وايضا
فما الموجب لاختلاف القوابل وتاثير الكواكب فيها بطبعه وتسخينه وتبريده فكيف
اختلفت القوابل هذا الاختلاف العظيم وهي مستندة الى تاثير واحد **الوجه
السادس عشر** ان رجلا لو جلس في دار لها بابان شرقي وغربي فقال للمنجم وقت
رايتها يقتضي الطالع خروجي وقال له المنجم من شرقي امكنه تكذيبه والخروج من الغربي
وبالعكس وكذلك السفر في يوم واحد وابتداء البناء وغيره في يوم يعينه له المنجم ويحكم
باقتضاء الطالع له فهو يقدم عنه ولا يتاخر فامكنه تكذيبه في ذلك اجمع فان قيل
ان المنجم اذا اخبر بما يفعله يكون نفس ذلك داعيا له الى مخالفته في قوله وتكذيبه
فالطريق الى عدم تكذيبه ان يعلم ذلك المنجم على تعيين ويكتبه في كتاب ويخفيه او يذكره
لانسان اخر ويخفيه عن صاحب الواقعة فههنا يظهر صدق المنجم قلنا هذا العذر
من اسقط الاعذار لانا نخوض الآن فيما كتب كما تزعمون دالة على جميع الحادثات الواقعة في

هذا العالم لعرف المنجم ذلك الذي يستتر عنا اخبار على كل حال شاء ملديه او لم يشاه
فلما لم يكن الامر كذلك سقط القول بصحة هذا القدر فان قيل الاشخاص الفلكية مؤثرات
والسفلية قوابل ويجوز ان يختلف الاحوال الصادرة عن الفاعل بسبب اختلاف القوابل فاذا
كان كذلك فهب ان الدلايل الفلكية دلت على انه انما يختار الخروج من الباب الثلاثي الا ان يكون
ذلك الانسان مسبوقا بسبب المنجم حالة حاصلة في النفس مانعة من ظهور ذلك الاثر الذي
تقتضيه الموجبات الفلكية فلهذا الامر لم يحصل الاثر على وفق حكم المنجم قيل اذا اقتضى الموجبات
الفلكية اثرا امتنع ان يحصل في النفس ما يضاده لان تلك الارادات والميول والعزوم الواقعة
في النفس هي عندكم من موجبات الاثار الفلكية فيمتنع ان يكون مضادة لموجبها لا سيما والمنجم
يحكم بانه انما يقتضي النجوم ان يريد الانسان كذا وكذا وليس حكمه ان الطالع يقتضي كذا وكذا
الا ان يريد الانسان خلافه فهذا ما لا تقولونه اصلا فعلم بطلان هذا الاعتذار

الوجه السابع عشر انه لا سبيل الى معرفة طبايع البروج وطبايع الكواكب وامتزاجاتها
الا بالتجربة واقل ما لا بد منه في التجربة ان يحصل ذلك الشي على حالة واحدة مرتين الا ان الكواكب لا
يمكن تحصيل ذلك فيها لانه اذا حصل كوكب معين في موضع معين من الفلك وكانت سائر الكواكب
متصلة به على وضع مخصوص وشكل مخصوص فان ذلك الموضع المعين بحسب الدرجة والدقيقة
لا يعود الا بعد الوف الوف من السنين وعمر الانسان الواحد لا يفي بذلك بل عمر البشر لا يفي به
والتواريخ التي تضبط هذه المدة مما لا يمكن وصولها الى الانسان فثبت انه لا سبيل الى الوصول
الى هذه الاحوال من جهة التجربة البتة ولا ينفعكم اعتذاركم عن هذا بانه لا حاجة في التجربة
الى ما ذكرتم لانا اذا شاهدنا حادثا معينا في وقت مخصوص فلا شك انه قد حصل في الفلك
اتصالات الكواكب المختلفة في ذلك الوقت فلو قدرنا عود ذلك الوضع الفلكي بتمام على تلك
الحال بعينه لم نعلم ان المؤثر في ذلك الحادث هل هو مجموع الاتصالات او اتصال معين منها
فاذا علمنا ان ذلك الوضع بجملته فات وما عاد ولكنه عاد اتصال واحد من تلك الاتصالات
وكلما عاد ذلك الاتصال المعين فانه يعود ذلك الاثر بعينه لاجل سائر الاتصالات فثبت ان الرجوع
في هذا الباب الى التجربة غير متعذر وهذا الاعتذار في غاية الفساد والمكابرة لان تخلف
ذلك الاثر عن ذلك الاتصال المعين اكثر من اقترانه به والتجربة شاهدة بذلك كما قد اشتهر
بين العقلاء ان المنجمين اذا اجمعوا على شي من الاحكام لم يكن يقع ونحن نذكر طرفا من ذلك فنقول

الوجه الثامن عشر لما نظر حذاقكم وفضلاؤكم في سنة سبع وثلاثين عام صفين في
خروج علي كرم الله وجهه من الكوفة الى محاربة اهل الشام اتفقوا على انه يقتل ويقهر جيشه
فظهر كذبهم وانتصر جيشه على اهل الشام ولم يقدروا على التخلص منهم الا بالحيلة التي وضعوها
من نشر المصاحف على الرماح والدعاء الى ما فيها وقد قيل ان هذا الاتفاق منهم انما كان
في حرب امير المومنين للخوارج فانهم اتفقوا على انه ان خرج في ذلك الطالع قتل وهزم
جيشه فان القمر اذ ذاك في العقرب فخالفهم علي رضي الله عنه وقال بل نخرج ثقة بالله وتوكلا
عليه وتكذيبا لقول المنجم فما غزا غزاة بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم اتم منها قتل عدوه وايده
الله تعالى عليهم بالنصر والظفر بهم ورجع سويا منصورا ماجورا والقصة معروفة في السير
والتواريخ ومن ذلك اتفاقهم باجمعهم في سنة ست وستين على غلبة عبيد الله بن
زياد للمختار بن عبيد وانه لا بد ان يقتله او ياسره فسار اليه في نحو ثمانين الف مقاتل فلقيه ابراهيم
ابن الاشتر صاحب المختار بارض نصيبين وهو فيما دون سبعة الاف مقاتل فانهزم اصحاب ابن
زياد بعد ان قتل منهم خلق لا يحصيهم الا الله حتى قتل منهم ثلاثون وسبعون الفا ولم يقتل من اصحاب
ابن الاشتر سوى عدد لا يبلغون ثلاثين وفيهم يقول الشاعر

برزوا نحوهم بسبعة آلاف اراهم عجايبا في اللقاء
معشر انهم ثمانون الفا او يزيدون قبل وقت العشاء
فجزاك ابن مالك وابا اسحق عنا الاله خير الجزاء

يريد بابن مالك ابرهيم بن مالك الاشتر وابو اسحق كنية المختار وقتل ابن الاشتر عبيد الله بن زياد
في المعركة ولم يعلم حتى اذا هدا الليل قال لاصحابه لقد ضربت على شاطي هذا النهر رجلا فوقع
الى شقي وفيه رايحة المسك ورايت يديه تاما وجراة فصرعته فذهبت رجلاه قبل المشرق
ويداه قبل المغرب فانظروه فاتوه بالنيران فاذا هو عبيد الله بن زياد ذكر ذلك المبرد
في الكامل فانظر حكمة الله تعالى في انعكاس ما قال الكذابون المنجمون وقيل لما علم
عبيد الله بن زياد ان امر القتال قد تغير وسال منجمه عن نجمه ونجم ابن الاشتر قال والله
اني لاعلم انه ليس بنحس الا اني كنت انا وهو صغيران وقعت بيني وبينه خصومة بسبب حمام
كان يلعب به فقربني الى الارض وقعد على صدري وقال والله اني قاتلك ولا يقتلك احد
غيري ان شا الله تعالى وانا من استثنايه بالمشية خايف فذهب منجمه الى ما قرره المنجمون له

من قوى نجمه وان هذا وهم منه وحكم النجوم يقضي على وهمه فحقق الله سبحانه ذلك الوهم وابطل حكم
الطالع والنجم ومن ذلك اتفاقهم عند ما تم بناء بغداد سنة ست واربعين ومائة ان طالعها يقضي
بانه لا يموت فيها خليفة وشاع ذلك حتى هنأ الشعراء به المنصور حتى قال بعض شعرائه

يهنيك منها بلدة تقضي لنا ان الممات بها عليك حرام
لما قضت احكام طالع وقتها ان لا يرى فيها يموت امام

واكد هذا الهذيان في نفوس من العوام موت المنصور بطريق مكة والمهدي بماسبذان ثم الهادي
بعيساباذ ثم الرشيد بطوس فلما قتل بها الامين بشارع باب الانبار انخرم الاصل الباطل
الذي اصلوه وطاح الزور الذي لفقوه حتى رجع القائل الاول فقال

كذب المنجم في مقالته التي نطقت على بغداد
قتل الامين بها لعمري يقتضي تكذيبهم في سائر الحسبان

ثم مات ببغداد جماعة من الخلفاء مثل الواثق والمتوكل والمعتمد والمعتضد والمكتفي والناصر
وغيرهم ومن ذلك اتفاقهم في سنة ثلاث وعشرين ومائتين في قصة عمورية على ان المعتصم
ان خرج لفتحها كانت عليه الدبرة وان النصر لعدوه فرزقه الله تعالى التوفيق في مخالفتهم ففتح
الله تعالى على يديه ما كان مغلقا واصبح كذبهم وخرصهم بعد ان كان مموها عند العامة محققا
ففتح عمورية وما والاها من كل حصن وقلعة وكان ذلك من اعظم الفتوحات المعدودة وفي ذلك
الفتح قال ابو تمام الطائي منشدا له على رؤوس الاشهاد

السيف اصدق انباء من الكتب في حده الحد بين الجد واللعب
بيض الصفائح لا سود الصحائف في متونهن جلاء الشك والريب
والعلم في شهب الارماح لامعة بين الخميسين لا في السبعة الشهب
اين الرواية ام اين النجوم وما صاغوه من زخرف فيها ومن كذب
تخرصا واحاديثا ملفقة ليست بنبع اذا عدت ولا غرب
عجائبا زعموا الايام مجفلة عنهن في صفر الاصفار او رجب
وخوفوا الناس من دهياء مظلمة اذا بدا الكوكب الغربي ذو الذنب
وصيروا الابرج العليا مرتبة ما كان منقلبا او غير منقلب
يقضون بالامر عنها وهي غافلة ما دار في فلك منها وفي قطب

ولو

ولو بينت قط امرا قبل موقعه لم يخف ما حل بالاوثان والصلب

وهي تسعون بيتا اجيز على كل بيت منها بالف درهم ومن ذلك اتفاقهم سنة اثنتين
وتسعين ومائتين في قصة القرامطة على ان المكتفي بالله ان خرج لقتالهم كان هو المغلوب
المهزوم وكان المسلمون قد لقوا منهم على توالي الايام شرا عظيما وخطبا جسيما فانهم
قتلوا النساء والاطفال واستباحوا الحريم والاموال وهدموا المساجد وربطوا
فيها خيولهم ودوابهم وقصدوا وفد الله وزوار بيته فاوقعوا فيهم القتل الذريع والفعل
الشنيع واباحوا محارم الله وعطلوا شرائعه فعزم المكتفي على الخروج اليهم بنفسه فجمع
وزيره القاسم بن عبيد الله من قدر عليه من المنجمين وفيهم زعيمهم ابو الحسن العاصمي وكلهم اوجب
على ان يشير على الخليفة ان لا يخرج فانه ان خرج لم يرجع وبخروجه تزول دولته وبهذا يشهد
النجوم التي يقضي بها طالع مولده واخافوا الوزير الهلاك ان خرج معه وقد كان المكتفي امر
الوزير بالخروج فلم يجد بدا من متابعته فخرج وفي قلبه ما فيه فاقام المكتفي بالرقة حتى اخذ
اعداء الله جميعا وشتت جموعهم بكاس السيف جميعا ثم جاء الخبر بمصر بموت
خمارويه بن احمد بن طولون وكان نوابه يستطيلون فارسل المكتفي من تسلمها واستخلص القواد
المصرية الحجرية ثم لما عاد امر القاسم بن عبيد الله الوزير باحضار رئيس المنجمين وصفعه
الصفع الكثير بعد ان وقفه ووبخه على عظيم كذبه وافترائه وتبرا منه ومن كل من يقول برايه
قال ابو حيان التوحيدي في كتاب الامتاع والمؤانسة وقد ذكر هذه القصة فهذا
وما اشبهه من الافتراء والكذب لو ظهر ونشر وعير اهله به ووقفوا عليه وزجروا عن الدعوى
المسرفة على الغيب لكان يقمعه لمن يطلق لسانه بالاطلاع على ما يكون في غد وقطعا لالسنتهم وكفا
لدعاويهم وتاديبا لصغيرهم وكبيرهم ومن ذلك اتفاقهم سنة ثلاث وخمسين وثلاثمائة عندما
اراد القائد جوهر العبد تاسيس مدينة القاهرة وقد كان تسنى مولاه الملقب بالمعز الى الدخول
الى الديار المصرية لما امر بالعرب بدخولها بالدعوة وامره اذا دخلها ان يبني بها مدينة
عظيمة تكون نجوم طالعها في غاية الاستقامة وتكون بطالع الكوكب القاهر وهو زحل والمريخ
على احلاف حكون فجمع القائد جوهر المنجمين بها وامر كل واحد منهم ان يحقق الرصد
ويحمله وامر البنائين ان لا يضعوا الاساس حتى يقال لهم ضعوا وان يكونوا على اهبة من السقط
والمشارع حتى يوافقوا تلك الساعة التي اتفقت عليها ارصاد اولئك الجماعة فوضعت الاساسات

على ذلك في الوقت الحاضر وسموها بالقاهرة إشارة بزعمهم الكاذب إلى الكواكب القاهر
واتفقوا كلهم بأن الوقت الذي بنيت فيه يقتضي بدوام جدهم وسعادتهم ودولتهم وأن الدعوة
فيها لا تخرج عن الفاطمية وإن تداولتها الألسن العربية والعجمية فلما ملكها أسد الدين شيركوه
ابن شادي ثم ابن أخيه الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب ومع ذلك المصريون قائمون
بدعوة العاضد عبد الله بن يوسف توهم الجهال أن ما قاله المنجمون من قبل حقاً لتبدل الممالك
وحال الدعوة مستبقي فلما رد صلاح الدين الدعوة إلى بني العباس انكشف الأمر وزال الالتباس
وظهر كذب المنجمين والحمد لله رب العالمين وكانت المدة بين وضع الأساس وانقراض دولة
الملاحدة منها نحواً من مائتين وثلاثة وتسعين عاماً فنقض انقطاع دولتهم على المنجمين أحكامهم
وخرب ديارهم وهتك أستارهم وكشف أسرارهم وأجرى الله سبحانه ذمهم والطعن عليهم على
لسان الخاص والعام حتى اعتذر من اعتذر منهم بأن البنائين كانوا قد سبقوا الراصدين إلى
وضع الأساس وليس هذا إرهاب القوم وحيلتهم فإنه لو كان كذلك لرأى الحاضرون
تبديل البناء وتغييره فإنهم لو دخلهم شك في تقديم أو تأخير أو سبق بأدون الدقيقة في التقدير
لما سامحوا بذلك مع المتمكن التام والطاعة الظاهرة والاغتباط الذي لا مزيد فوقه وليس في
تبديل حجر أو تحويله بزيغه ووضعه كبير أمر على البنائين ولا مشقة وقد أبان الأحوال في إقامة
دولة بعد بزرها وإنشائها فأغنى بتحريرها مشاهد بأن الغفلة عن مثل هذا الخطب الجسيم مما لا
يتسامح بها البتة ويا لله العجب كيف لم يظهر سبق البنائين للراصدين إلا بعد انقراض
دولة الملاحدة وأمامهم بقاء دولتهم بكمال المقارن لطالع المرصود فهلا أبهت فوق هذا
ومن ذلك أنهم في سنة خمس وتسعين وثلاثمائة في أيام الحاكم على أنها السنة التي تنقضي بها
بمصر دولة العبيديين هذا مع اتفاق أولئك على أن دعوتهم لا تنقطع من القاهرة وذلك
عند خروج الوليد بن هشام المعروف بأبي ركوة الأموي وحكم الطالع له بأنه هو القاطع
لدعوة العبيديين وأنه لا بد أن يستولي على الديار المصرية ويأخذ الحاكم أسيراً أو لم يبق
بمصر منجم إلا حكم بذلك وأكبرهم المعروف بالعذري منجم الحاكم وكان أبو ركوة قد ملك برقة
وأعمالها وكثرت جموعه وقويت شوكته وخرجت إليه جيوش الحاكم أن دعا خواص رجاله
وأمرهم أن يعملوا بما رآه راجياً له وهو أن يكاتبوا أبا ركوة بأنهم على مذهبه وأنهم مائلون عن
الدعوة الحاكمية وراغبون في الدعوة الوليدية الأموية بقطعهم بطلبها وجهوه بأنهم صادقون

وإنه منا صحيحون فلما وثق بما قالوه وخفي عليه ما احتالوه زحف بعساكره حتى نزل بوسيم وهي على
مرحلة فراسخ من مصر فخرجت إليه العساكر الحاكمية فهزمته فتحقق أنها كانت خديعة فهرب
وقتل خلق كثير من عسكره وطلب فأخذ أسيراً وأدخل إلى القاهرة على جمل مشهوراً ثم أمر الحاكم بقتله بعد
ما أحضر بين يديه مغلولاً بغل من حديد وذلك في رجب سنة سبع وتسعين وثلاثمائة وكان مبدأ
خروجه في رجب سنة خمس وتسعين وظهر كذب المنجمين وكان هذا العذري قد استولى على الحاكم
فإنه اتفقت له معه قضيتان أما الأولى إحداهما أن الحاكم عزم على إرسال الأسطول إلى مدينة
صور فقال له العذري أن يكون تدبيره إليه ليخرجه في طالع يختاره ويكون الجهد أن لم يظفر عليه
واتفق ظهور الأسطول ن والثانية أنه ذكر له أن بساحل بركة رميس مسجداً قديماً
وأن تحته كنزاً عظيماً وسأله أن يتولى هو هدمه فإن ظهر الكنز وإلا بناه هو من ماله وأود ع ة
النجمين فاتفق إصابة الكنز وظافر المعز بذلك فلما حكم على العذري بتغيير دولته
وقضى المنجمون بمثل قضائه فوقع للحاكم أن تغير أوضاع المملكة والدولة ليكون ذلك هو
مقتضى الحكم النجومي فصار يأمر في يومه بخلاف كل ما أمر به في أمسه فأمر بسب الصحابة رضي الله
عنهم على رؤوس المنابر والمساجد ثم أمر بقطع سبهم وعفو من سبهم وأمر بقطع شجر الكرم من
الأرض وأوجب القتل على من شرب الخمر ثم أمر بعد هذا التحريم وأباح شرب الخمر وأهمل الناس
حتى نهب الجانب الغربي من القاهرة وقتلت فيه عظماؤه ثم ضبط الأمر حتى أمر أن لا تغلق الحوانيت
ليلاً ولا نهاراً وأمر منادياً ينادي من عدم له شيء يساوي درهماً أخذ من بيت المال درهمين بعد
أن يحلف على ما عدمه وبعضهم بشهادة رجلين حتى يحل الناس في ستر حوانيتهم بالجريد
لئلا تدخلها الكلاب ثم عمد إلى كل متولٍّ في دولته ولاية فعزله وقتل وزيره الحسين بن
عمار كل ذلك ليكون قول أهل التنجيم أن دولته تتغير واقعاً على هذا الضرب من التغيير فلما
كان من أمر أبي ركوة ما تقدم ذكره ساءظنه بعلم النجامة فأمر بقتل منجمه العذري وأطلق
في المنجمين العيب والذم وكان قد جمع من المنجمين بالديار المصرية واستدعاهم
وأمرهم أن يرصدوا له رصداً يعتمد عليه نظار الطوائف النجومية إلى هذا الرصد
يجالون وأن ينقض بعض خلاف الرصد المأموني ووضعوا له الزيج المسمى بالحاكمي
وساعاته ورافقه العذري فقد أخذ علم النجامة عمن أخذ عن العاصمي نشر أوضاعات الحاكم وساعاته
في تعقبه على [illegible] القاهرة لم يزل أثر التنجيم من نفسه ليستولي النفس على التطلع إلى

الحوادث قبل وقوعها وكان بعض من يتولع بهذا العلم ويجمع اصحابه حكموا له في جملة احكامهم
بركوب البحار على كل حال في الزمن ان يشاهد الجبل المعظم في اكثر الايام وسفر ووحدة يخاطب
رجل بما تعلموه اياه من الكلام ويشاهد بفعل ما وضعوه له من البخورات والاعتزام وحكموا بانه
ما دام على ذلك وهو يركب البحار فهو سالم النفس من كل الداء فلزم ما اشاروا عليه واذن الله
العزيز الحكيم رب الكواكب ومسخرها ومدبرها ان هلاكه كان في ذلك الجبل على ذلك البحار فانه
خرج الى جان الى ذلك الجبل على عادته وانفرد بنفسه منقطعا عن مواليه وقد استعد له قوم من
عساكر يتقطعون منها المنايا فقطعوه هناك للوقت والحين ثم اعدموا جثته فلم يعلم لها خبر ثم هذا
قول الشاعر الملاحدة انه غايب منتظر واظهرت قدرة الرب القاهر تبارك اسمه وتعالى جده
تكذيب قول تلك الطايفة المعتزين ووقوع الامر بضد ما حكموا به ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من
حي عن بينة وان الله سميع عليم فظهر كذبهم وجهلهم دولته في خروج ابي ركوة في هذا الحين فهذا
في مبداها وهذا في ختامها فهل بعد ذلك وثوق لعاقل بالنجوم واحكامها كلا لعمر الله ليس لها
وثوق وانما غاية اهلها الاعتماد على زخارف وزروق فاما اصابة القلدي بطغرل المستولي فانما كان
بتحيل دبره على اهل صور لا بالطالع فكانت الغلبة له عليهم بالتحيل الذي دبره ساعة الغلبة لا بما حكم
من حكم الطالع قبل تلك الحال واما اصابة الكثير فليس من النجوم في شيء ومعرفة مواضع الكنوز علم متداول
بين الناس وفيه كتب مصنفة معروفة بايدي ارباب هذا الفن وفيها اخطاء كثيرة وصوابات
فدل الواقع عليها ومن ذلك اتفاقهم سنة اثنين وثمانين وخمسماية على خروج ريح سوداء
تكون في سائر اقطار الارض عامة فيهلك كل من على وجهها الا من اتخذ لنفسه مغارة في الجبال
بسبب ان الكواكب كانت بزعمهم اجتمعت في برج الميزان وهو برج هوائي لم يختلف فيه منهم اثنان
كما اجتمعت في برج الحوت زمن نوح وهو عندهم برج مائي فحصل الطوفان المائي قالوا ولكن اجتماعها
في البرج الميزاني يوجب طوفانا هوائيا ودخل ذلك في عقول الرعاع من الناس فاتخذوا المغارات
استعدادا لما اوعدهم به الكذابون من الناس فاذن الله تعالى رب العالمين مسخر الرياح ومدبر الكواكب
انه لما جاء ذلك الوقت الذي حددوه والاجل الذي عينوه قل هبوب الرياح عن عادتها حتى اهم الناس
ذلك ورأوا ان المكرب بقلة هبوب الرياح ما هو خلاف المعتاد فظهر كذبهم للخاص والعام وكانوا
قد رووا في قصة هذه الريح التي ذكروها ان عزوها الى علي رضي الله عنه وصنعوا حكاية بمعنى
هذه الريح وذكروا قصة طويلة في اخرها ان الراوي عن علي رضي الله عنه قال صدق المجنون

ما خليت

فما خليت عنك وقالوا انه تجتمع الكواكب في برج الميزان كما اجتمعت في برج الحوت على عهد
نوح واحدثت العزف فقلت له يا امير المومنين ثم تعم هذه الريح على وجه الارض قال
ثلاثة ايام ولياليها ويكون قوتها من نصف الليل الى نصف النهار من اليوم الثاني وانظر
الى اتفاقهم على ان الكواكب اذا اجتمعت في برج الميزان حصل هذا الطوفان الهوائي واتفاقهم
على اجتماعها فيه في ذلك الوقت ولم يقع ذلك الطوفان ٥ ومن ذلك اتفاقهم في
الدولة الصلاحية بحلول زحل والذنب الى ان مدينة الاسكندرية لا يموت فيها من الغز والي فلما
مات بها الملك المعظم شمس الدولة توران شاه ابن ايوب في سادس سنة خمس وسبعين وخمسماية ثم
واليها فخر الدين قراجا بن عبد الله سنة تسع وثمانين ثم واليها سعد الدين سودر بن عبد الله سنة
خمس وستماية انخرمت هذه القاعدة اصلا وبطل قولهم فرعا واصلا حتى قال بعض شعراء ذلك
العصر عند موت الامير فخر الدين

وقضى كلوح الثغر عند مماته ... ان المنجم كاذب لا يصدق
لو كان فيه لا يموت مومر ... اودى وفخر الدين حي يرزق

ومن ذلك اجماعهم في سنة خمس عشرة وستماية بمنازلة الفرنج على دمياط على انهم لا بد ان
يغلبوا على البلاد ويتملكوا ما بارض مصر من رقاب العباد وانهم لا تدور عليهم الدائرة الا اذا قام
قايم الزمان وظهر براياته الخافقة ذلك الاوان فكذب الله ظنونهم واتى من لطفه الخفي بما لم يكن
في حساب وردا الفرنج بعد القتل الذريع فيهم والاسر على الاعقاب وكان المنجمون قد اجمعوا الى
امر هذه الواقعة على نحو ما اجمع على من قبلهم في شان عمورية واتفق ان كان مبدا اهل الفتح في
سابع شهر رجب سنة ثمان عشرة وستماية ومبدا ذلك الفتح في سابع رجب سنة ثلاث وعشرين
ومايتين قال الفاضل العلامة محمد عبد الله محمود الحسيني ولما كذب الله هو كاتب القوم فيما
ادعوه نحت على منوال ابي تمام في قصيدته البائية المشهورة تعلت بابيه منوحه وهي

الحمد لله حمدا يبلغ الاربا ... نقضي من حقوق الله ما وجبا
حمدا اريد اذا النعمى تريد احراه ... اولاه يعطي ضعف ما وهبا
لا ياس المرء من روح الاله فكم ... من راح في شدة منها وكان قد صعبا
فكم شي يلم مكروه رهصت به ... من عز علم الحجا منتهى خيبا
... فكم ... وكان مثل لا على المنتهى شيبا

لا يسعى لك في مكروه حادثة ان يبتغي لك في غير الرضا طلبا
لله في الخلق تدبير يفوت مدى اسرار حكمته احكام من حسبا
ابغ النجاة اذا ما ذو النجامة في زور من القول يقضي كلما قربا
وذو الهراء راجيز فيما قد يقول فدع ما راجيزي كان قد كتبا
ما كان في ديوان قدرته من كاتب بحدوس الظن اذ كتبا
لا يعلم الغيب الا الله خالقنا لا غير من عالم عجما ولا عربا
لا تأخذ حاصلا ممن يدعي ثقة بحدسه ويرى فيما يرى ريبا
قد يجهل المرء فيما في بيته نظرا فليقنعه بما في عينه احتجبا
قد كذب الله قول القائلين غدا اذا لم أن رجب لم يحمدوا رجبا
قالوا نرى عجبا فيه فقلت لهم بالنصر يعود بامن تبصر والعجبا
في مقتضى الشهر الايام منه الى ما بات في مقتضاه الشعة الشهبا
واعتمد فيه عوا النجوم على عواذب من الكفار قد حربا
والشوبان فكل منهما شعرت بابن النجم فيهم سيف من غلبا
وحج عن قريب الافلان انهم ما فيهم غير مقهور وقد نشبا
عطاهم ردي وجهي عطاردهم الى الذي منهم ما شا قد سلبا
وقد بدت زهرة الاسلام زاهرة فذا طلعت فوقهم ردوها شجبا
واحلت جرم المريخ حكمهم وقد سرت بدم فيهم لمن خضبا
ولم يك المشتري يقضي سعادته الا الى المشتري نفعا بما طلبا
وفل مقلل الابراج ذو اصرر فعاد منه بيانا للنفع منقلبا
كم حامل نار في النور او حمل احار فيهم على جورا اهم حربا
ولم يدر فلك الا لدى ملك يدير حسنا عليهم عسكر الجبا
حتى عن ثغر دمياط وقد طلبوا ان لا يرى سما مستجمعا شنبا
يفتر عن صبح ايمان به جدلا وكان في ليل كفران مكتئبا
وبذكا له التوحيد فانتقضت رجل من الشرك في تاخيره هربا
وتلك حرب صليب عودها انقضت ان لا يعود صليب بعد منتصبا

واطلق

واطلق القول بالاذان اذ خرست له النواقيس اخرسن فاحتسبا

ومما ادعوا علماء المنجمين ان الانسان اذا اراد ان يستجيب الله دعاءه جعل الرابع وسط السماء مع المشتري او منظورا منه مقبول والقمر متصلا به او منصرفا عنه متصل بصاحب الطالع او صاحب الطالع متصلا بالمشتري ناظرا الى الرابع بنظر مودة فهنالك لا يشكون ان الدعاء حاصله قالوا وكان ملوك يونان يلزمون ذلك فيجدون عقباه والعاقل اذا تامل هذا الهذيان لم يحتج في علمه ببطلانه ومحاله الى فكر ونظر فان رب السموات والارض سبحانه لا يأثر بحركات النجوم بل يحدث ويتعالى عن ذلك فالعقول التي احالت علمها العقلاء من المؤمنين والكفار ما في هذه الاتصالات حتى يكون على وجوب اجابة الله تعالى من اقوى الدلالات ومما ادعا المنجمون متفقون او كالمتفقين ان الخبر اذا ورد في وقت او بادئ اثنا الوجود والقمر وعطارد في برج ثوابت والقمر منصرف عن السعود فالخبر حق وليس بباطل والباطل مثل هذا فانه يلزمهم ان يوضع خبرا باطلا في ذلك الوقت ان الطالع المولود يصحح او يقولوا الايمان احدا ان يكذب في ذلك الوقت وقد اورد ابو معشر المنجم هذا السؤال في كتاب المسائل له واجاب عنه ان الاخبار يختلف فان ورد خبر مكروه من اسباب الشر والجور والافعال المنسوبة الى طبايع المنجمين وفي الطالع سعد والقمر منصرف عن سعد فالخبر باطل وان ورد خبر محبوب من اسباب الخير والعدل من الافعال المنسوبة الى طوالع السعود وفي الطالع سعد والقمر منصرف عن سعد فالخبر حق قال وزحل لا يدل في كل حال على الكذب بل يدل على وجود العوايق عما يوقع ذلك الخبر بكل البلا المريخ او الذنب اذا استوليا على الامر وتادد على القمر او عطارد فانهما يدلان على الكذب والبطلان ثم قال وعلى كل حال فالقمر في العقرب والبروج الكاذبة تدل على تكذيب في نفس الخبر او زيادة او نقصان وفي الحمل والبروج الصادقة يدل على صدق فيه واستواء وفي السرطان والبروج المنقلبة لا يدل على انقلاب الخبر الى باطل ولكنه قد ينقلب فيصير اقوى مما هو عليه الان الا ان ينظر اليه نحس فيفسده ويبطله ثم قال واعرف صدق الخبر من سهم الغيب اذا شككت فيه فان كان سليما من المريخ والذنب وينظر اليه صاحبه او القمر او الشمس بنظر صلاح فهو حق هذا منتهى كلامه في الجواب وهو كما ترى متضمن ان عند هذه الاتصالات التي ذكرها يكون الخبر صحيحا صادقا وعند تلك الاتصالات الاخر يكون منذرا بالكذب فيقال لهؤلاء الكذابين المفترين الملبسين يستحيل عندكم معاشر المنجمين ان يضع احد خبرا كاذبا عند تلك الاتصالات

ثم ماله

أم ذلك واقع في حيز الإمكان بل هو موجود في الخارج ولذلك يستحيل أن نصدق ونخبر عند الاتصالات
المحرقة ونعد تصديق العالم عندها ويلوح لديهم إذ ذاك في الزمن عين ذلك الوقت وهلم
الهوس البليغ هذا ولو تتبعنا أحكامهم وقضاياهم الكاذبة التي وقع الأمر بخلافها لقام منها
عدة أسفار وأما نكبات من يعتقد بعلم أصحاب النجوم في أفعاله وسفره ودخوله البلد وخروجه
منه واختياره الطالع لعمارة الدار والبناء والتأهل وغير ذلك فعند الخاصة والعامة منهم عبر
يكفي العاقل بعضها في تكذيب هؤلاء القوم ومعرفته لافترائهم على الله تعالى وأقضيته وأقداره
بل لا يكادون يعرفون أحدا يعتد بالنجوم في مآتيه ويذره إلا وتكبه أقبح نكبة وأشنعها مقابلة له
بنقيض قصده ومرافاة المنجمين له حسب ظنه أنه يفوز بسعده وهذه سنة الله في عباده التي لا تبدل
وعادته التي لا تحول أن من طلب الخير أو دفع سوء أو ركن إلى مخلوق بدون أمر الله تعالى
له بسببه أو من جهته خلاف ما علق آماله وانظر ما كان تعلق بني برمك بالنجوم حتى في
ساعات أكلهم وركوبهم وعامة أفعالهم وكيف كانت نكبتهم الشنيعة وانظر حال علي
ابن مقلة الوزير وتعظيمه لعلم أحكام النجوم ومراعاته لها أشد المراعاة ودخوله داره التي
بناها بطالع زعم الكذابون المعثرون أنه طالع سعد لا يرى في الدار مكروها فقطعت يده
ونكب في داره أقبح نكبة نكبها وزير قبله وقتل المنجمين أكثر من أن يحصيهم إلا الله عز وجل ٥

الوجه التاسع عشر أن هؤلاء القوم قد أقروا على أنفسهم وشهد بعضهم على
بعض بفساد أصول هذا العلم وأساسه فقد كان أوائلهم من الأقدمين وكبار رصادهم عهد
بطليموس وطيموخارس ومانالاوس قد حكموا في الكواكب الثابتة بمقدار وادعوا أنه صحيح
الاعتبار وأقام الأمر على ذلك فوق سبعمائة عام والناس ليس بأيديهم سوى تقليدهم حتى كان في
عهد المأمون فاستقر رصادهم وحكامهم علماء العراقيين مثل خالد بن عبد الملك المروزي
وحبش صاحب الزيج المأموني ومحمد بن الجهم ويحيى بن أبي منصور على أنهم امتحنوا رصد الأوائل
فوجدوهم غالطين فيما رصدوه فرصدوا هم رصدا لأنفسهم وحرروه وسموا الرصد
الممتحن وجعلوه مبدأ ثابتا بعد ذلك الزمن وكان لأوائلهم الإجماع على صحة رصدهم وللمتأخرين
إجماع على خطائهم فيه فتضمن ذلك شهادة الأواخر على الأوائل أنهم كانوا غالطين وإقرار
الأواخر على أنفسهم أنهم كانوا أتباع المخطئين ثم حدثت طائفة أخرى منهم دينهم
وزعيمهم أبو معشر محمد بن جعفر وكان بعد أصحاب الرصد الممتحن بنحو من ستين عاما فرد عليهم

ومن خطائهم

وبين خطأهم كما ذكر أبو سعيد بن شاذان بن بحر المنجم في كتاب أسرار النجوم قال قال
أبو معشر أخبرني محمد بن موسى المنجم الجليس وليس بالخوارزمي قال حدثني يحيى بن أبي منصور
قال حدثني محمد بن محمد الجليس قال دخلت على المأمون وعنده جماعة المنجمين وعنده رجل قد
تنبأ وقد دعا له القضاة والفقهاء ولم يحضروا بعد ونحن لا نعلم فقال لي ولمن حضر من المنجمين
اذهبوا فخذوا الطالع لدعوى رجل في شيء يدعيه وعرفوني بما يدل عليه الفلك من صدقه وكذبه
ولم يعلمنا المأمون أنه متنبي فجئنا إلى ناحية من الصحن فأحكمنا أمر الطالع وصورناه فوقع الشمس
والقمر في دقيقة الطالع والطالع الجدي والمشتري في السنبلة ينظر إليه والزهرة وعطارد
في العقرب ينظران إليه فقال كل من حضر من المنجمين هذا الرجل صحيح لا كذب فيه قال
يحيى وأنا ساكت فقال لي المأمون قل فقلت هو في طلب تصحيحه وله حجة زهرية وعطاردية
وتصحيح ما يدعيه لا يتم له فقال لي من أين قلت فقلت لأن صحة الدعاوى من المشتري
وهو ينظر إليه نظر موافقة إلا أنه كان لهذا البرج فلا يتم له التصديق وأما التصحيح
والذي قالوا إنما هو حجة عطاردية وزهرية وذلك يكون من جنس التخمين والتزويق
والخداع من غير حقيقة فقال لله درك ثم قال تدرون ما يدعي هذا الرجل قلنا لا قال يدعي
النبوة قلت يا أمير المؤمنين ومعه شيء يحتج به فسأله فقال نعم معي خاتم ذو فصين ألبسه
فلا يتغير مني شيء ويلبسه غيري فلا يتمالك من الضحك حتى ينزعه ومعي قلم شامي آخذه
أكتب به ويأخذه غيري فلا يطلق إصبعه فقلت يا سيدي هذا عطارد والزهرة قد عملا عملهما فأمر المأمون
فأظهر ما ادعاه منهما وكان ذلك ضربا من الطلسمات فما زال به المأمون أياما كثيرة حتى أقر وتبرأ
من دعوى النبوة ووصف الحيلة التي احتالها في الخاتم والقلم فوهب له المأمون ألف دينار وصرنا فه
نلقيناه بعد ذلك فإذا هو أعلم الناس بعلم النجوم ومن أكابر أصحاب عبد الله بن السري وهو
الذي عمل طلسم الخنافس في دور بغداد قال أبو معشر ولو كان في القوم ذكي لتنبهوا أن أشياء
خفيت عليهم من أدلة الدعوى باطلة من أصلها أن البرج منقلب وهو الجدي والمشتري في الوبال
والقمر في المحاق والكوكبان الناظران إلى الطالع في برج كذاب وهو العقرب فتأمل
كيف حلت أحكامهم مع اتحاد المطالع وكل منهم يعلل تصحيح حكمه بشبهة من جنس شبهة
الآخر فلو ادعى أنه ادعى رجل صادق في ذلك الوقت والطالع دعوى لم يبرأ دعاؤه ممكنا
ويبطل يمين دعواه [illegible] البتة ومن المعلوم لجميع العقلاء أنه يبرأ إذ ذاك دعوتين

من رجل محق ومبطل بذلك الطالع بعينه مما انحف عقل من ربط هذا الهذيان وبنى عليه
جميع حوادث الزمان وليس هذا القول الا ما اعترف به فاضلهم وزعيمهم ابو معشر قال
شاذان في المذاكرات المذكورة ايضا املت لابي معشر الذنب بارد يابس فلم قلتم انه يدل على اليابس
قال هكذا املوا لو املت فقد قالوا انه ليس يبس دون يبس بل انه بارد عفن بلغمي فقال
كل الاعراض الغايبة فوهم لا يلوون بشيء منها يقينا وانما يلوون توهم اقوى من توهم وفي سائر
احوال القوم علم انما معهم زرق وتفرس يصيبون معها ويخطيون قال شاذان في كتاب المذكور
كان الداذي المسوى الذي بالهند كانت لابي معشر وهادية فاتفق لابي معشر مولد لابن ملك
سرنديب طالعه الجوزا والشمس والقمر في الجدي والقمر خارج عن الشعاع وعطارد في الدلو
والمشتري في الحمل وزحل في السرطان راجع في بحران الرجوع فحكم ابو معشر بانه يعيش دور زحل الاوسط
فقلت سبحان الله [illegible] راجع في بحران الرجوع في بيت ساقط عن الاوتاد لا يعطيه الا دوره الاصغر
ويحتاج ان يسقط منه الخمسين وجعلت انكر على ذلك واخوفه ان يسقط منزلته عند اهل تلك
البلاد الحال ذكر محاورة طويلة انتهت بهما الى ان ابا معشر اخذ ذلك من عادات اهل الهند
طول الاعمار وقال له شاذان في مثله سيل عنها [illegible] ثم حدث بعد هولاء
جماعة منهم ابو الحسين عبد الرحمن بن عمر بن عبد المعروف بالصوفي وكان بعد ابي معشر بنحو
تسعين عاما فذكر انه قد عثر من غلط الاوايل على اشيا كثيرة وصنف كتابا في معرفة الكواكب
وحمله الى عضد الدولة بن بويه فاستحسنه واجزل ثوابه وبين في هذا الكتاب من اغاليط اتباع
الرصد الثاني امورا كثيرة كعطارد المنجم ومحمد بن جابر البتاني وعلي بن عيسى الحراني فقال في مقدمة
كتابه ولما رايت هولاء القوم مع ذكرهم في الافاق وتقدمهم في الصناعة واقتدا الناس
بهم واستعمالهم مولفاتهم قد تبع كل واحد منهم من تقدمه من غير تامل لخطائه بالعيان والنظر واوهموا
الناس الرصد حتى ظن كل من نظر في مولفاتهم ان ذلك عن معرفة بالكواكب باعيانها وانما عولوا
على ما وجدوه في الكتب من اطوالها وعروضها من مواضعها في الكرة من غير معرفة خطاها وصوابها
ثم قال وزادوا ايضا على اطوال الكواكب كلها وعروضها دقايق يسيرة من تلقا انفسهم واوهموا
بذلك انهم رصدوا الكل وانهم وجدوا بين ارصادهم وارصاد بطلميوس من الخلاف في اطوالها
وعروضها القدر الذي بين الكواكب من الزيادة التي وجدوها في حركاتها في المدة التي بينهم
وبينه من السنين من غير ان عرفوا الكواكب باعيانها ولم يفطنوا [illegible]

وايضاح اكاذيبهم وتخاليطهم وشهد عليهم بانهم تارة قلدوا في الاقوال المموهة وتارة قلدوا وانما
وجدوه من الصور الكوكبية ثم قلدوا في القول والعمل لمن ليس من القوم ببصيرة وشهدوا عليهم بانهم
موهمون مدلسون بل كاذبون مفترون من جهة انهم زادوا دقايق ملفقة من رايهم ورمز بطلميوس
واوهموا انهم رصدوا ما رصده قبلهم وعثروا على ما لم يعثروا عليه ثم حدث جماعة منهم
الكوشيار بن باسر بن الديلمي [illegible] الزيجات والجامع والمجمل في الاحكام وهو عندهم نهاية
في الفن وكان بعد الصوفي بنحو ثلاثين عاما وذكر في مقدمة كتاب المجمل الذي جمع فيه هذا الكتاب
من اصول صناعة النجوم والطريق الى التصرف فيها ما ظننته كافيا في معناه مغنيا عما سواه والله الامر
فيما اخذ به [illegible] عزونه الى الناس واوضح سبيل سالكيه الى الصواب اذ هي صناعة غير
مبرهنة وللخواطر والظنون فيها مجال الا انه صواب ومجال الحال ان ذكر علم الاحكام فقال
فيه ولا سبيل الى البرهان عليه ولا هو مدرك بكليته بل ولا باكثره لان الشيء الذي يستعمل فيه هذا العلم
فانما هو من الناس وجميع ما دون الفلك القمري مطبوع على الاستحالة والتغير ولا يثبت
على حال واحدة في الدوام ولا للانسان تكامل القوى في الحدس بخواص الافعال التي تكون من امزاجات
الكواكب فبلغ من الصعوبة وتعسر الوقوف على الحال فيه ان بعض الناس ظنوا انه لا يدرك
احدا البتة واكثر المتدينين في العلم الاول يعني علم الهيئة ينكرون هذا العلم ويجحدون منفعته
ويقولون هو شيء يتبع بالاتفاق وليس عليه برهان الحال قال ومن المنفردين بالعلم الثاني يعني
الاحكام من يابى على [illegible] يحتج على سبيل النظر والجدل يظن انها برهان لجهله بطريق البرهان
وطبيعته فحصل من كلام هذا تجهيل اصحاب الاحكام كما حصل من كلام الصوفي تكذيب اصحاب
الارصاد وهذان الرجلان من عظمايهم وزعمايهم ثم حدث جماعة اخرى منهم المنجم
المعروف بالفلكي المنجم الحاكم بالديار المصرية وكان قد انتهت اليه رياسة هذا العلم وكان
قد قرا على ابن قرا على العاصمي فوضع هو واصحابه رصدا اخر وهو الرصد الحاكمي وكان الحاكم
قد اراد ان يجددوا على عمل المامون فامر ان يجتمع عنده من اهل عصره المنجمون فاجتمعوا ورئيسهم الفلكي
فوضعوا الزيج الحاكمي وخالفوا اصحاب الرصد الماموني ومالوا اتباعهم الى الرصد الحاكمي ولم
اسس بعد ذلك رصد اخر لتلك اصحابه في خلاف من تقدمهم مثلك اوايلهم هذا ومستندهم
ومعولهم المحض مع الحساب ومداها الانتقال للتغليط مما الظن بما يدعونه من علم الاحكام الذي
[illegible] على اهو اجمع الظنون وحبالات الاوهام ثم حدث جماعة اخرى منهم ابو الريحان

لعله من

البيروني مؤلف كتاب التفهيم لصناعة التنجيم جمع فيه بين الهندسة والحساب والهيئة والاحكام
وكان قد رصد بنحو من اربعين سنة فخالف من تقدمه والى زمننا تضاربهم والرد عليهم بما هو دال على
فساد الصناعة في نفسها وختم كتابه بقوله في الحكم يا لعمري ما اكذب الافتضاح المتجرين فيه وما الذي
اصاب الزاجرين فيه بما يتعاطونه من كلامه وقت السؤال ويرونه بادئا من آثار وافعال على السائر
قال وعند البلوغ الى هذا الموضع من صناعة التنجيم ها هنا ونعدها فقد عرض نفسه وصنعته
لما بلغت اليه الآن من التجربة والاستمرار فقد جهلها المتفقهون فيها فضلا عن المتشبثين اليها انتهى كلامه
ثم حدثت جماعة اخرى منهم ابو الصلت امية بن عبد العزيز بن ابي امية الاندلسي الشاعر
المنجم الطبيب الاديب وكان بعد البيروني بنحو ثمانين عاما ودخل مصر واقام بها نحو عشرين ولما
كان في المغرب توفيت والدة الامير علي بن تميم صاحب المهدية وكان قد وافق موتها اخبار بعض
المنجمين بذلك فقيل ونوعه فعمل امية قصيدة يرثيها بها وهي من جيد شعره قال فيها

وراعك قول المنجم موهم ومن بعثه زرق المنجم يوهم
فواعجبا يهدي المنجم دهره ويلذ بالافك قول المنجم

وكان المذكور رأسا في الصناعة وقد اعترف بان المنجم كذاب صاحب زرق وهذيان د
ثم حدثت طائفة اخرى بالمغرب منهم ابو اسحق الزرقالي واصحابه وهو بعد ابي
الصلت بنحو مائة عام وقد خالف الاوائل والاواخر في صناعتي الرصد والاحكامية
فاسقط من الرصد الممتحن المأموني في البروج درجات ومن الرصد الحاكمي دقائق وسلك في
الاحكام طرقا غير الطرق المعهودة عند القوم وزعم ان عليها المعول وان طرق من تقدمه ليس
بشيء ولو حدث في هذا العصر من ينتسب اليها الا هذا الضلال فيما فهموه من كلامهم الباطل وما
لم يفهموه منه فقد يظنون انه صحيح ولكن افهامهم قصرت عنه وهذا شأن جميع اهل الضلال مع
رؤسائهم ومتبوعيهم كجهال النصارى اذا ناظرهم الموحد في تثليثهم وتناقضه وتكاذبه قالوا الجواب
على القس والقس يقول الجواب على المطران والمطران يحيل بالجواب على البترك والبترك على
الاسقف والاسقف على الباب والباب على الثلثمائة والثمانية عشر اصحاب المجمع الذين اجتمعوا في عهد
قسطنطين ووضعوا للنصارى هذا التثليث والشرك المناقض للعقول والاديان ولعلهم
عند الله احسن حالا من اكثر القائلين باحكام النجوم الكافرين برب العالمين وملائكته وكتبه
ورسله واليوم الآخر فصل ورأيت لبعض فضلائهم وهو ابو القاسم عيسى بن

علي

علي بن عيسى رسالة بليغة في الرد عليهم وابان فيها تناقضهم وبين فيها لمن بصره الله رشده واراه بطلان
ما عليه هؤلاء الضلال الجهال لكنها نصيحة لبعض اخوانه فاجتنبت ان اوردها بلفظها فان تضمنت
بعض الطول والتكرار واتعقب كلامه بتقرير ما يحتاج الى تقريره وسؤال مورد عليه وبطريقه على
كلامه من الجواب عنه ليكون قوة للمسترشد وسلاحا للمتحير وتبصرة للمهتدي ونصيحة لاخواني من
المسلمين وهذا اولها بسم الله الرحمن الرحيم عصمك الله من قبول المحالات واعتقاد ما لم تقم
عليه الدلالات وضاعف لك الحسنات وكفاك المهمات بمنه ورحمته قد ادام الله توفيقك
وتسديدك ذكرت في اهتمامك بما قد لهج به وجوه اهل زماننا في النظر في احكام النجوم وتصديق كل ما
يأتي به من ادعى انه عارف بها من علم الغيب الذي تفرد الله سبحانه به ولم يجعله لاحد من الانبياء والمرسلين
ولا الملائكة المقربين ولا عباده الصالحين من معرفة طول الاعمار وقصرها وحميد العواقب
وذميمها وسائر ما يتجدد ويحدث ويتخوف ويتمنى وسألتني ان اعمل كتابا اذكر فيه بعض ما وقع الي
من اختلافهم في اصول الاحكام الدال على وهيهم وقبح اعتقادهم وما يستدل به من طريق النظر
والقياس على ضعف مذهبهم والحض على ذلك واختصره وآتي فيه بحسب الوسع والطاقة
فوعدتك بذلك وقد ضمنته كتابي هذا والله اسأل عونا على ما قربت منه وتوفيقا لما ازلف
لديه انه قريب مجيب قال لما رأيت مستعملا للتحامل على اثبات تأثير الكواكب في هذا العالم
وترك انصافهم كما فعل قوم ردوا عليهم فانهم دفعوهم عن ان يكون لها تأثير البتة عن وجود
الضياء في المواضع التي تطلع فيها الشمس والقمر وعدمه فيما غابا عنه وما جرى هذا المجرى مما اسلم
لهم انها تؤثر تأثيرا ما يجري على الامر الطبيعي مثل ان يكون البلد القليل العرض مزاجه يميل عن
الاعتدال الى الحر واليبس ولذلك ترى اهله واجسامهم ضعيفة والوانهم سود وجعدة
كالنوبة والحبشة وان يكون البلد الكبير العرض مزاجه يميل عن الاعتدال الى البرد والرطوبة
ولذلك ترى اهله واجسامهم غبلة والوانهم بيض وشعورهم شقر مثل الترك والصقالبة ومثل
ان يكون النبات ينمى ويقوى ويشتد ويتكامل وينضج ثمره بالشمس والقمر فان اهل الصحراء ومن يعانيها
مجمعون على ان القثاء يطول ويغلظ بالقمر وقد شاهدت غير شجرة حاملة من التين والتوت
وغيرهما فما قابل الشمس منها اسرع نضج الثمر الكائن فيه وما خفي منها عنها بقي ثمره فجا وتأخر
ادراكه ومثل ذلك ما يشاهد من حال الريحان الذي يقال له النيلوفر وحال الخبازى
وورق الخطمي والمرزنجوش واشباه كثيرة من النبات فانا نراه يتحرك وينفتح مع طلوع الشمس ويضعف

اذا غابت لان هذه امور محسوسة وليس الكلام في هذا الباب كيف هو وعلى اي سبيل يقع مما يليق
بغرضنا ههنا فكذلك ادعوه فاما ما يزعمونه فيما عدا هذا من ان النجوم توجب نحسًا وسعدًا وان
كذا وكذا سنة وكذا وكذا شهرًا وينتهون في التحديد الى حد من ساعة وان تدل على تقلد رجل بعينه
الملك وتقلد اخر بعينه الوزارة وتطول مدة كل واحد منهما في الولاية وقصرها وما فعله الانسان
وما يفعله في منزله وما يضمر في قلبه وما هو متوجه فيه من حاجة وما في بطن الحامل والسارق
ومن هو والمسروق وما هو واين هو وكميته وكيفيته وما يجري في الكسوف وما يحدث معه والمختار
من الاعمال في كل يوم بحسب اتصال القمر بالكواكب من انهم يقولون هذا اليوم صالح للقاء الملوك
والرؤساء واصحاب السيوف وهذا اليوم محمود للقاء الكتاب والوزراء وهذا اليوم محمود
للقاء القضاة وهذا اليوم محمود لامور النساء وهذا اليوم محمود لشرب الدواء والفصد
والحجامة وهذا اليوم محمود للعب الشطرنج والنرد وغير ذلك فمحال ان يكون معلومًا من طريق
الحس وليس عليه نص من كتاب الله بل قد نص الله سبحانه على ابطاله بقوله تبارك وتعالى قل لا يعلم
في السموات والارض الغيب الا الله ولا في سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم بل قد جاء عنه صلى الله
عليه وسلم انه قال من اتى عرافًا او كاهنًا او منجمًا فصدقه بما يقول فقد كفر بما انزل على محمد ولا ههنا
ضرورة تدعو الى القول به ولا اول في العقول ولا تقوم عليه برهان ولا دليل مقنع وهذه
هي الطرق التي تستفاد بها الموجودات وتعلم بها حاجة الاشياء لا طريق ههنا غيرها وكم نحن
لاحكام النجوم منها وانا ابتدي الان بوصف جملة من اختلافهم في الاصول التي يبنون عليها امرهم
ويفرعون عنها احكامهم واذكر المستشنع من اقاويلهم وقضاياهم وظاهر مناقضاتهم ثم
انتقل الى ابطال احتجاجهم والاحتجاج عليهم والله الموفق للصواب بفضله **ذكر اختلافهم في**
الاصول زعموا ان الخير والشر والاعطاء والمنع وما اشبه ذلك يكون في العالم بالكواكب
وبحسب السعود منها والنحوس وعلى حسب كونها في البروج الموافقة او المنافرة لها وعلى حسب
مناظرة بعضها بعضًا وعلى حسب كونها في شرفها وهبوطها ووبالها ثم اختلفوا على اي وجه
يكون ذلك فزعم قوم منهم ان فعلها يكون بطبائعها وزعم اخرون ان ذلك ليس فعلا لها لكنه
يكون على طبائعها قلت وزعم اخرون انها تفعل في البعض بالعرض وفي البعض بالذات
قلت وزعم اخرون انها تفعل بالاختيار لا بالطبع الا ان السعد منها لا يختار الا الخير والنحس
منها لا يختار الا الشر وهذا بعينه نفي للاختيار [illegible]

الضدين شاء وترك ايهما شاء قلت ليس هذا بشيء فانه لا يلزم من كون المختار مقصور
الاختيار على نوع واحد سلب اختياره ولكن الذي يبطل هذا انهم يقولون ان الكوكب النحس يكون
سعدًا في برج كذا وفي بيت كذا واذا كان الناظر اليه من النجوم كذا وكذا او كذا وان الكوكب
السعد يقولون انها تفعل بالذات خيرًا وبالعرض شرًا او بالعكس وقد يقولون انها تختار في
زمان بعد زمان اخر وقد تتفق كلها او اكثرها على ايثار الخير فيكون في العالم في ذلك الوقت
على الاكثر الخير والنفع والخصب قالوا كما كان في زمن بهمن في ايام انوشروان وبعد ذلك ايضًا
فقال اذا كانت مختارة وقد تتفق على ارادة الخير وعلى ارادة الخير والشر بطل
دلالة حصولها في البروج المعينة ودلالة نظر بعضها الى بعض بتسديس او تربيع او تثليث او مقابلة
لان هذا شان من لا يقع فعله الا على وجه واحد في وقت معين على شروط معينة ولا ريب
ان هذا ينفي الاختيار فكيف يصح قولكم هذا وجمعكم بين هذين النقيضين اعني جواز اختيارها
في زمان خلاف ما يختار في زمن اخر وجواز اتفاقها على الخير واتفاقها على الشر من غير ضابط ولا دليل
يدلكم عليه تحكمون بتلك الاحكام مستندين فيها الى حركاتها المخصوصة واوضاعها ونسبة بعضها
الى بعض وهل هذا الا ضحكة للعقلاء قال وزعم آخرون انها لا تفعل باختيار بل قد تفعل
باختيار وهذا كلام لا يعقل معناه الا الحيرة لما كان يقوله واختلفوا قلت
فرقة تزعم انها طبيعة واحدة وانما تختلف دلالتها على السعود والنحوس وان لم تكن في انفسها
مختلفة واختلفوا قلت فقوم زعموا انها تؤثر في الابدان والانفس جميعًا قلت والباقون بل في الابدان ن
دون الانفس قلت اكثر المنجمين على القول بانها تسعد وتنحس بغيرها واما الفرقة التي تقول
بان لا آلة على السعد والنحس بقولهم وان كان اقرب الى التوحيد من قول الاكثرين منهم فهو ايضًا قول
مضطرب متناقض فان الذي له الحسنة لا يختلف ولا يتناقض وهذا قول من يقول منهم ان الفلك
طبيعة مخالفة لطبيعة الاستقصات الكلية الفاسدة وانها لا حارة ولا باردة ولا يابسة ولا رطبة
ولا سعد ولا نحس وانما يدل ببعض اجرامها وبعض اجزائها على الخير وببعضها على الشر وارتباط
الخير والشر السعد والنحس ارتباط المدلولات بادلتها لا ارتباط المعلولات بعللها ولا ريب
ان قائل هذا اعقل واقرب من اصحاب القول بالاقتضاء الطبيعي والعلية واما القول بتاثيرها في
الابدان [illegible] بطليموس وشيعته والاكثر من المنجمين وهو كما قالهم قوم من اهل
[illegible] العرض لان الابدان تنفعل عن النفس والتالي انه امر

شيء جميع ما في عالم الكون والفساد وفعلها في ذلك كله بالذات وكانه لا خلاف بين الطائفتين
فان الذين قالوا انفعالها في النفوس لا يجيزون انفعال الابدان الا عن غيرها بدل انها بوسايط قال
واختلف روساوهم بطليموس ودورسوس وانطيقوس وريبس وغيرهم من علماء الروم والهند وبابل
في الحدود وغيرها وتضادوا في المواضع التي ياخذون منها دليلهم وبعضهم يغلب رب بيت الطالع
وبعضهم يقول بالدليل المستولي على الحظوظ واختلفوا فزعم بطليموس انه يعلم سهم السعادة بان
ياخذ ابدا العدد الذي يحصل من موضع الشمس الى موضع القمر ويبدي من الطالع فيعد منه مثل ذلك
العدد وياخذ الى الجهة التي نقلوا من البروج فلوق فعرف موضع السهم وزعم غيره انه يعد من الشمس ثم
يبتدي من الطالع فيعد منه مثل ذلك الى الجهة المتقدمة من البروج قلت وزعم
اخرون ان بطليموس يرى ان جميع ما يكون ويفسد انما معروف دليله من موضع اللقاء للنيرين
اما الاجتماع واما الامتلاء لان هذين الكوكبين عندهم مثل الرئيسين العظيمين احدهما يأتمر
لصاحبه وهو القمر وهما سبب جميع ما يحدث في عالم الكون والفساد وان الكواكب الجارية والثابتة
منها بمنزلة الجند والعسكر للسلطان فاذا اراد النظر في امر من الامور ان كان بعد الاجتماع او
عنده فانه ياخذ الدليل على الكوكب المستولي على جزء الاجتماع وجزوي الشمس والقمر في الحال
وبمشاركة مع الشمس بالنسبة الى الطالع واذا كان بعد الامتلاء او عنده فانه ينظر اي النيرين كان
فوق الارض عند الامتلاء وينظر الى الكوكب المستولي على ذلك الجزء وجزء النيرين الذي كان بعد
الشمس من الطالع بعد القمر من سهم السعادة فلذلك يجب عنده ان يوخذ العدد ابدا من الشمس الى القمر ليبقى
تلك النسبة وهي البعد بين كل واحد من النيرين طالعه محفوظ فهذا قول اخر غير اولئك وللمنفر
مذهب اخر وهو انهم قالوا لما كانت الشمس لها نورية النهار والقمر له نور الليل وكان سهم السعادة
بالنهار يوخذ من الشمس الى القمر وجب ان يعكس ذلك بالليل لان نسبة النهار الى الشمس مثل نسبة
الليل الى القمر وكل واحد من النيرين نور واحد من الزمانين فهؤلاء ياخذون سهم السعادة بزعمهم بالليل
من القمر الى الشمس وبالنهار بالعكس وزعموا ان كلام بطليموس انما يدل على هذا الامر فان كان
اصحاب الشمس الى القمر خلاف ما يبقى البروج والفساد ما العكس كان موافقا للاول فقال الواجب
ان يعكس الامر بالليل فهذا اختلاف المنجمين على بطليموس ينقض بعضه بعضا وليس بايدي الطايفة
برهان يرجحون به قولا على قول ان يتبعون الا الظن وان الظن لا يغني من الحق شيئا فاعرض عمن تولى عن
ذكرنا ولم يرد الا الحياة الدنيا ذلك مبلغهم من العلم ان ربك هو اعلم بمن ضل عن سبيله وهو اعلم بمن

اهتدى قال واختلفوا ايضا طايفة منهم البروج المذكرة والمؤنثة من البرج الطالع
فعدوا واحدا مذكرا وواحدا مؤنثا وصيروا الابتداء بالمذكر وقسمت طايفة اخرى البروج اربعة
اجزاء وجعلوا البروج المذكرة هي التي من الطالع الى وسط السماء والتي يقابلها من الغرب الى وتد
الارض وجعلوا الربعين الباقيين مؤنثين قلت ومن هذيانهم في هذا الذي اضحكوا
به عليهم العقلاء انهم جعلوا البروج قسمين حار المزاج وبارد المزاج وجعلوا الحار منها ذكرا والبارد
انثى وابتدوا بالحمل وصيروه ذكرا حارا ثم الذي بعده مؤنثا باردا ثم هكذا الى اخرها فصارت
ستة ذكورا وستة اناثا وليست على التوالي بل واحد ذكر ويليه اخر انثى مخالف له في الطبيعة
والذكورية والانوثية مع ان قسمة الفلك الى البروج قسمة مفروضة وضعية فهل في انواع هذيان
الهاذين اعجب من هذا ولما راى من رزق من عقل منهم تهافت هذا الكلام وسخرية العقلاء منه
رام تقريبه فغاية جهله وحذقه فقال انما ابتدا بالذكر دون الانثى لان الذكر اشرف من الانثى
لانه فاعل والانثى منفعلة فاعجبوا يا معشر العقلاء وسلوا الله ان لا يخسف بعقولكم كما خسف
بعقول هؤلاء فهذا الهذيان او ترى في البروج ناكحا ومنكوحا بل ترى المنكوح منها منفعلا عن
ناكحه بالذكورية والانوثية تابعة لهذا الفعل والانفعال فيها قال وايضا فالذكورية
والانوثية بسبب الانفراد والازدواج فيها فان الافراد ذكور والازواج اناث وهذا اعجب
من الاول ان الذكر ينضم الى الذكر فيصير المضموم اليه انثى فتبا للعقل السليم والمجوز عقله صدقهم
واصابتكم واما انتم فقد اشهد الله سبحانه عقلاء عباده والبهائم بمقدار عقولكم وسخافتها ولله الحمد والمنة
قال هذا المنتصر لهم وانما جعلوا الافراد للذكور والازواج للاناث لان الفرد يحفظ
طبيعته اعني ينقسم دائما الى فرد وزوج والزوج لا يحفظ طبيعته اعني ينقسم مرة الى الافراد ومرة
الى الازواج وانما يعرض ذلك للاناث فانها تلد مرة مثلها ومرة ذكرا مخالفا لها ومرة ذكرين ومرة
اثنين ومرة ذكرا وانثى وفساد هذا العلم بفساد عقل صاحبه ونظره يغني لمن له اللب عن
تطلب دليل فساده قال المنتصر واما لم جعلوا البروج الانثى يلي برج الذكر فلان
الطبيعة هكذا التالي عدادا واحدا فردا واخر زوجا هكذا بالغا ما بلغ وهذه القسمة عندهم
هي قسمة ذاتية للبروج ولها قسمة ثانية بالعرض وهي انهم يبدون من الطالع الى الثاني عشر واحدا ذكرا
واحدا ذكرا [illegible] اخر انثى وهو ما يليه وهذه تختلف بحسب اختلاف الطالع والقسمة
[illegible] كانت ذاتية [illegible] لما ابتدا من الحمل وهو موضع تقاطع الدائرتين الكليين من فلك البروج

ومعدل النهار واما المستعمل للقسمة الثانية فانه يبقى على حال واحد لانه ماخوذ من الجزو المماس لافق
البلد وهو دائما يتغير بحركته مع الكل وحصول الاجزا كلها واحدا بعد واحد على الافق دون واحد
واما قسمة الفلك ارباعا فانهم قالوا اذا خرج خط من افق المشرق الى افق المغرب وخط من وتد
الارض الى وسط السماء انقسمت البروج اربعة اقسام كل قسم ثلاثة بروج على طبيعة واحدة ابتدا كل
قسم من طرف قطر الى طرف الذي يليه واطراف هذين القطرين تسمى اوتاد العالم فالقسم الاول
من وتد المشرق الى وتد العاشر ذكر شرقي خفيف ربيعي ومن وتد العاشر الى وتد الغارب
مونث جنوبي محرق وسط ومن دليل الغارب الى وتد الرابع ذكر مثل رطب غربي بطي ومن وتد الرابع
الى وتد الطالع مونث دليل مبرد شمالي وسط وهذه القسمة مخالفة لتلك القسمة لان هذه
قسمة البروج باربعة اقسام متساوية كل ثلاثة بروج منها تسعين درجة لها طبيعة تخصها مع ان الفلك
شي واحد وطبيعة واحدة وقسمته الى البروج والبروج قسمة وهمية بحسب الوضع فلم اختلفت
طبايعها واحكامها وتاثيراتها واختلفت بالذكورية والانوثية ثم ان بعض الاوايل منهم لم يقتصر
على ذلك بل ابتدا بالدرجة الاولى من الحمل فنسبها الى الذكورية والثانية الى الانوثية وهكذا
الى اخر الحوت ولم يبال بهذا الهذيان اللازم لمن قال بقسمة البروج الى ذكر وانثى وقال
الذكر طبيعة الفرد والانثى طبيعة الزوج فان هذا بعينه لازم لهم في درجات البرج الواحد وكان
هذا القايل تصور لزومه لاوليك فالتزمه واما بطليموس فله هذيان اخر فانه ابتدا باول درجة
كل برج ذكر فنسب منها الى تمام اثنى عشر درجة ونصفا الى الذكورية ومنها الى تمام خمس وعشرين درجة
الى الانوثية ثم قسم باقي البروج بنصفين فنصف النصف الاول الى الذكر والنصف الاخر الى الانثى
وعلى هذه القسمة ابتدا البروج الانثى فنسب الثلث والنصف الى السدس الى الانوثية ومثلها بعده الى
الذكورية وبقي سدس قسمه بنصفين فنسب النصف الاول الى الانثى والاخر الى الذكر كما عمل بالبرج الذكر
حتى اتى على البروج كلها واما دوروثيوس فله هذيان اخر فانه يقسم البروج كلها كل برج ماية وخمسين دقيقة
ماية وخمسين دقيقة ثم ينظر فان كان البرج انثى اعطى القسم الاولى للانثى ثم الثانية للذكر الى ان
ياتي على الاقسام كلها ولو قدر ان جاهلا اخترع هذه الاوضاع وقلبها وتكلم عليها لكان حسن كلامهم
ولم يكن عندهم من البرهان ما يردون به قوله بل ان راوه قد اصاب في بعض احكامه ولم يكن عندهم
احتجوا به الظن وتقلدوا قوله وجعلوه قدوة لهم وهذا شان الباطل عدنا الى كلام عيسى في رسالته
قال واختلفوا في الحدود فزعم اهل مصر انها بوضع ارباب البيوت وزعم الكلدانيون انها

توخذ من مدبري المثلثات واذا كان اختلاف الذين يعتدون به في اصولهم هذا الاختلاف
وليس هم ممن يطالب بالبرهان ولا يعتقد الشي حتى يعرج على البحث والقياس فعرفوا مع الحق
رووساهم في اي قول يومر اقوالهم فيعملون به وانما طريقتهم التسليم لما وجدوه في الكتب
المنقولة الينا الى لسانهم فكيف يجوز لهم ان يتفردوا باتباع قول من هذه الاقوال ويعرضوا
عما سواها الا على طريق التمويه والتخمين والله المستعان ٥ ذكر بعض ما يستشنع من
اقوالهم ويستدل به على مناقضاتهم من ذلك زعمهم ان الفلك جسم واحد وطبيعة واحدة وانه
حي واحد وليس باشيا مختلفة ثم زعموا بعد ذلك ان بعضه ذكر وبعضه انثى قال
قد رام بعض الملبسين من فضلايهم تصحيح هذا الهذيان بان قال ليس يستحيل ان يكون جسم واحد
بعضه انثى وبعضه ذكر كالرجل مثلا فان العين والاذن واليد والرجل منه مونثة
والراس والصلب والصدر والظهر منه ذكر وايضا فان الجسم مركب من الهيولى والصورة
والهيولى مذكر والصورة مونثة وايضا لما وجد المنجمون الشمس تدل على الاب والاب
ذكر والقمر يدل على الام وهي انثى قالوا ان الشمس ذكر والقمر انثى قالوا وقد قال
ارسطو في كتاب الحيوان طمث المراة يدر في نقصان الشهر ولذلك قال بعض الناس ان القمر
انثى قالوا ايضا فالشمس اذا كانت قريبة من سمت الرووس كان الحر واليبس وهما طبيعة
الذكورية والقمر اذا كان يقرب من سمت الرووس بالليل كان البرد والرطوبة وهما طبيعة
الانثى وليتعجب العاقل اللبيب من هذه الخرافات فاما اعضا الانسان الذكر والانثى فذلك
راجع الى مجرد اللفظ ولحاق علامة التانيث في تصغيره ووصفه وخبره وعود الضمير عليه
بلفظ التانيث وجمعه جمع مونث وليس ذلك عايدا الى طبيعة العضو ومزاجه فنظير
هذا قول النحاة الشمس مونثة لالحاق العلامة لها في تصغيرها وقولك شميسة
وفي الخبر عنها الشمس طالعة والقمر مذكر لعدم لحاق العلامة له في ذلك فعلى هذا الوجه
وقع التذكير والتانيث في اعضا الحيوان واما قسمتهم البروج واجزا الفلك الى مذكر
ومونث فليست بهذا الاعتبار بل باعتبار الفعل والانفعال والحرارة والرطوبة فتشبيه
احد البابين بالاخر تلبيس وجهل واما تركيب الجسم من الهيولى والصورة فاكثر العقلاء ينفون
وقالوا هو شي واحد متصل يتوارد عليه الاتصال والانفصال ان يكون هناك شي اخر
غير الجسمية يتحلل به ذلك على التفصيل قالوا بتركيبه منهما لم يقل احد منهم اصلا انه مركب من ذكر

وانى والصور مونثه في اللفظ لا في الطبيعه واضحاك بهم على عقولهم السخيفه واما دلالة الشمس
على الاب وهو مذكر ودلالة القمر على الام وهي مونثه فلو سلمت لكم هذه الدلالة كيف يلزم منها
تذكير ما دل على الذكر وتانيث ما دل على الانثى واين الارتباط العقلي بين الدليل والمدلول في ذلك
كيف ودلالة الشمس على الاب والقمر على الام مبني على تلك الدعاوي الباطلة التي ليس لها مستند
الا الخيالات والاوهام لا برهان العقلا واما ما نقلوه عن ارسطو فنقل محرف ونحن نذكر
نصه في الكتاب المذكور فان لنا به نسخه صحيحه قد اعتني بها قال في المقالة الثامنة عشر
بعد ان تكلم في علة الاذكار والايناث وذكر قول من قال ان سبب الاذكار حرارة الرحم
وسبب الايناث برودته وابطل هذا بان الرحم يشتمل على الذكر والانثى معا في الانسان وفي كل
حيوان يلد قال فقد كان ينبغي على قول هذا القايل ان يكون التوامان اما ذكرين
واما انثيين وابطله بوجوه اخر وهذا راي اسدفليس وذكر قول ديمقراطيس لان ذلك
ليس لحرارة الرحم وبرودته بل بحسب الماء الذي يخرج من الذكر وطبيعته في الحرارة والبرودة
وجعل قوة الاذكار والايناث تابعه لماء الذكر وذكر قول طايفه اخرى ان خروج الماء
من الناحية اليمنى من البدن هي علة الاذكار وخروجه من الناحية اليسرى هي علة الايناث
قال ان الناحية اليمنى من الجسد اسخن من الناحية اليسرى والنضج وادكا من عندها ورجح
قول ديمقراطيس بالنسبة الى هذه الاراء ثم قال فقد بينا العلة التي من اجلها تخلق في الرحم
ذكرا وانثى والاعراض التي تعرض تشهد لما بينا ان الحرارة التي في الاحداث ليست بتامة والحرارة
التي في الشيوخ ناقصه وكل الاجسام الرطبه التي خلقتها شبيهة بخلقة بعض النساء يلدن اناثا
اكثر ثم قال فاذا كانت الريح شمالا ان الولد ذكرا واذا كانت جنوبا كان المولود
انثى لان الاجساد اذا هبت الجنوب رطبه ولذلك يكون الزرع اكثر وكلما اكثر الزرع يكون الطبخ غير
نضيج ولحال هذه العلة يكون زرع الذكورة ارطب ويكون دم طمث النسا من قبل الطباع عند
خروجه ارطب ايضا قلت ومراده بالزرع الماء الذي يكون من الرجل ثم قال
ولحال هذه العلة يكون طمث النساء من قبل الطباع في نقص الاهلة لان تلك الايام ابرد واكثر برا ايام
الشهر وهي ارطب ايضا لنقص الاهله وقلة الحرارة والشمس تصير الصيف والشتاء كل سنه
فاما القمر فيفعل ذلك في كل شهر هذا كلام الرجل فانه لم يتعرض للون القمر ذكرا او انثى
ولا احال على ذلك وانما احال على الامور الطبيعيه في الايناث والاذكار ويعني باثر النيرين في

الرطوبة واليبوسة والحرارة والبرودة وجعل لذلك تاثيرا في الاذكار والايناث لا للنجوم
والطوالع ومع ان كلامه اقرب الى العقول من كلام المنجمين فهو باطل من وجوه كثيرة معلومة بالحس
والعقل واخبار الانبياء فان الاذكار والايناث لا يقوم على دليل ولا يستند الى امر طبيعي وانما
هو مجرد مشيئة الخالق البارئ المصور الذي يهب لمن يشاء اناثا ويهب لمن يشاء الذكور او يزوجهم
ذكرانا واناثا ويجعل من يشاء عقيما انه عليم قدير الذي اعطى كل شيء خلقه ثم هدى ولهذا امر بـ
الاجل والرزق والسعادة والشقاوة حيث يستاذن الملك الموكل بالمولود ربه وخالقه فيقول
يا رب اذكر ام انثى سعيد ام شقي فما الرزق فما الاجل فيقضي الله ما يشاء ويكتب الملك ولاستقصاء
الكلام في هذه المسئلة موضع هو اليق بها من هذا وقد اشبعنا الكلام فيها في كتاب الروح والنفس
واحوالها وشقاوتها وسعادتها ومقرها بعد الموت والمقصود الكلام على قول الاحكاميين
من اصحاب النجوم وبيان تهافتهم وانها الى المحالات والتخيلات اقرب منها الى العلوم والحقايق واما
قول المنتصر لهم ان الشمس اذا كانت مسامتة للرؤوس كان الحر واليبس وهما طبيعة الذكور
واذا كان القمر مسامتا للرؤوس كان البرد والرطوبة وهما طبيعة الاناث فيقال
هذا لا يدل على تانيث القمر وتذكير الشمس بوجه من الوجوه فان البرد والرطوبة يكونان ايضا بسبب
بعد الشمس من المسامتة وميلها عن الرؤوس وحصولها في البروج الشمالية سواء كان القمر مسامتا
او غير مسامت فينبغي على قولكم ان يكون سبب هذا البرد انثى وهذا لا يقوله عاقل بل الاسبا
طبيعيه من برد الهوى وتكاثفه وضعف تاثير الشمس في تحليل الابخرة التي يكون منها الحرارة بسبب
بعدها عن الرؤوس وليس في ذلك انثى اقتضته وفعلته فقد جمعتم الى جهلكم بالطبيعة والكذب
على الخليقة القول الباطل على الله تعالى وعلى خلقه وليس العجب الا ممن يعد شيئا من العقل والمعرفه
كيف سفا دله عقله بالاصغاء الى المحالات وهذيانكم ونكر كل مجهول مهيب ولما كابر من
يكابر منكم في امر الهيولى وزعم انها انثى وان الصورة ذكر وان الجسم الواحد مشتمل على الذكر
والانثى اضحك عقلا الفلاسفة على ما ادعيتم ومعلمهم الاول قد نص في كتاب الحيوان له على
ان الهيولى في الجسم كالذكر وان علتم فهذا يشهد لقولنا ايضا انها قد كانت عنده كالذكر و
الصورة انثى فصار الجسم الواحد بعضه ذكرا وبعضه انثى قلت العاقلون من دبـ
الاجسام من الهيولى والصورة لم يقولوا ان احدهما متميز عن الاخر كما زعمتم ذلك في اجزاء الفلك
بل عندهم الهيولى والصورة قد اتحدا وصارا شيئا واحدا فالاشارة الحسية الى احدهما هي

بعضها اشارة الى الاخر وانتم جعلتم الجزء المذكور من الفلك مباينًا للجزء الاتي منه بالوضع والحقيقة
والاشارة الى احدهما غير الاشارة الى الآخر وللكلام مع اصحاب الهيولى مقام آخر ليس هذا موضعه
فان دعوى تركيب الجسم منها دعوى فاسدة مرجوحة لبرهم وليس يصح في هذا غير الهيولى الصناعية كا
كالخشب للسرير والطبيعية كالمني للمولود وهي المادة الصناعية والطبيعية وما سوى ذلك فمحال
وخيال والله المستعان ه عدنا الى كلام صاحب الرسالة قال ومن ذلك زعمهم انه ان اتفق
مولودين ابن ملك وابن حجام في البلد والوقت والطالع والدرجة وكانت سائر دلالات السعادة
موجودة في مولديهما وجب ان يكون ابن الملك ملكًا جليلا سائسًا مدبرًا وابن الحجام حجامًا حاذقًا
وهذا يخرج النجوم عن ان يكون يدل على ما يتجدد من حال الانسان ويقلها يدل على حرفة وصناعة
ابيه وتقصيره فيها قلت ومما يوضح فساد قولهم في ذلك ان بطلميوس جعل الكواكب
الدالة على الصناعات ثلاثة المريخ والزهرة وعطارد قال لان الصناعات العملية
يحتاج الى ثلاثة اشياء صورة احدها المعرفة والثاني الآلة والثالث لطافة في الكف
ليخرج المعمول المصنوع حسنًا فالآلة للمريخ لانها يكون على الاكثر اما حديد واما مصاحبة
للحديد ولذلك يقولون صورته صورة شاب بيمناه سيف مسلول وبيسراه راس إنسان
وهو راكب اسدًا وثيابه حمر تلتهب وآخرون منهم يقولون على راسه بيضة وبيسراه طير رب
وعلى خرقة حمراء وهو راكب على فرس اشهب والمعرفة لعطارد ولذلك يقولون صورته
صورة بيمناه حية وبيسراه لوح يقرأه وهو راكب على طاووس ومنهم من يقول بل صورته
صورة رجل جالس على كرسي بيده مصحف يقرأه وعلى راسه تاج وثيابه ملونة والتزاويق
والنقوش وما شاكل ذلك للزهرة ولذلك يقولون صورتها صورة امراة حسنة بين يديها
مزهر تضرب به وهي راكبة على جمل ومنهم من يقول امراة جالسة مرخاة الشعر ذوائبها بيدها
وباليمنى مرآة تنظر فيها مصبغة الثوب وعليها طوق واسورة وخلاخل واما الشمس
والقمر فهما الدالات على الملك فالشمس صورتها صورة رجل بيده اليمنى عصًا يتوكأ عليها وباليسرى
حرز راكب عجلة يجرها اربعة ثيور ومنهم من يقول صورتها رجل جالس قابض على اربعة اعنة
افراس ووجهه كالطبق يلتهب نارًا قالوا ودلائل الملك ليست باعيانها هي دالة الصناعات
ولا دلائل الصناعات هي دلائل الملك بل قد يجوز ان يدل على رياسة فالملك اخص من الرياسة
ولكل واحد من الكواكب على الاطلاق دلالة على رياسة باي...

الرابع

ارايتم ان حصلت ادلة الملك في طالع مولود ليس من الملك في شيء بل اكثر المولودين لا يكونون ملوكًا
البتة وانما يناله واحد من الناس ولا يلزم ان يكون في ابائه ملك ولا يكون ابن ملك فما بال طالع الملك
المشترك بين عدة اولاد خص هذا وحده حتى ان اكثرهم ينظر بنص بطلميوس الى جنس المولود
وما يصلح له فيحكم على ابن الملك بالملك وعلى ابن الحجام بالحجامة فان كان طالعهما واحدا لم يتقدم ابن
الحجام في رياسته صناعة ولو نظر كلهم ومعلوم ان الحس والوجود اكثر المكذبين لهم في هذه
الاحكام فما الذي نال الملك وليس هو من ابناء الملوك البتة ولا كان طالعه يقتضي ذلك وحرمه
من سقط طالعه ممن علم من ابوي ملك وكذلك الحال في غير الملك من الطالع الذي يقتضي كون المولود
حكيمًا عالمًا او حاذقًا في صناعة كم قد اختلف ذلك وحصل العلم والحكمة والتقدم في الصناعة
لغير ارباب تلك الطوالع وفي ذلك بين تكذيب لكم وابطال لقولكم والله المستعان ه قال
صاحب الرسالة ومن بعد ذلك قولهم ان الكواكب المتحيرة اجل من الثوابت واشد تاثيرا في العالم وان كل
واحد من الكواكب الثابتة يفعل فعلا واحدا لا يزول عنه من غير ان يحس او يسعد وان عطارد هو من
الكواكب المتحيرة ليس له طبع يعرف وانه يحس اذا قارن النحوس ويسعد اذا قارن السعود ومن
ذلك قولهم ان قوة القمر الرطب وان العلة في ذلك قرب فلكه من الارض وقبوله للبخارات الرطبة
التي ترتفع اليه منها وان قوة زحل ان يبرد ويجفف تجفيفًا يسيرًا وان علة ذلك بعده عن حرارة
الشمس وعن البخارات الرطبة التي ترتفع من الارض وان قوة المريخ مجففة محرقة لمشاكلة لونه للون
النار ولقربه من الشمس لان الكرة التي فيها الشمس موضوعة تحته ه قلت وليتامل
العاقل ما في هذا الكلام من ضروب المحال وما للفلك ووصول البخارات الارضية اليه وهل في
قوة البخارات تصاعدها الى سطح الفلك مع البعد المفرط والبخار اذا ارتفع فغاية ارتفاعه كارتفاع
السحاب لا يتعداه وهل يتاثر العلويات بطبائع السفليات وتتكيف بكيفياتها وتنفعل عنها ومما
يدلك على فساد ذلك ايضًا ان القمر لو كان يترطب من البخارات وجب ان يزداد رطوبته في كل يوم
لانه دائم القبول للبخارات ولا يقولون ذلك وان الذين منهم يكابرون قال كل يوم يزداد رطوبة
قيل له فما ينكر ان يكون دلالة على والمريخ على النحس تتزايد ويكون دلالته على
النحس في اليوم الذي دلالته في الامس ولو فتح عليهم هذا الباب لتعطل السعد ينقلب نحسًا
وبالعكس وهذا يرفع الامان عن اصول هذا العلم وايضا فاذا جوزتم انفعال الفلكيات
عن اجزاء هذا العالم السفلي لزمكم تجويز فساد هذه الكواكب من هذه الاجرام العنصرية

قال

ولذلكم تجوزون ان يرتفع الى القمر ما دخنه ما يوجب جفافه وبلوغه في اليبس الغاية وايضا
فاذا جوزتم ذلك فلم لا تجوزون نفوذ تلك البخارات الى ما وراء فلك القمر حتى يترطب فلك الافلاك
فان قلتم فلك القمر عايق عن ذلك قلنا فكذا جاير بين عالمنا هذا وبين فلك القمر
فكيف جوزتم وصول البخارات الارضيه الى فلك القمر وفي تشابه لون المريخ للون النار ربما
تقتضي تاثير الاحراق والتجفيف وهل في الهذيان اعجب من هذا فان ارادوا النار البسيطة فانها
لا لون لها وان ارادوا النار الحادثة فهي بحسب مادتها التي توجب حمرتها وصفرتها وبياضها
واما كون كرة الشمس تحته فهذا لا يقتضي تاثيرها فيه واعطاه قوة التجفيف والاحراق فان الشمس
لو اثرت فيه ذلك واعطته اياه لكانت بهذا التاثير والاعطا للزهرة اولى لان كونها فوق
كرة الزهرة ونسبتها الى كرة الزهرة كنسبتها الى كرة المريخ فهلا كانت فوق الزهرة التجفيف
والاحراق بل تاثير الشمس فيما تحتها اولى من تاثيرها فيما فوقها قال صاحب الرسالة
وان الكواكب الثابتة التي في الدلالة التي فوقها لهي المريخ وهذا غلط عظيم لان كون هذه الكواكب
غير مشبهة لكون النار وليست الكرة التي فيها الشمس موضوعة تحتها بل الكرة التي فيها زحل موضوعة
تحتها فهي بان يكون حالها مشبها لحال زحل اولى لانها فوقه وبعدها عن الشمس وعن حرارة الارض
اكثر بعده قلنا والعجب منهم كيف يعلون قول معلمهم بطليموس ان طبايع الاجرام
السماويه واحدة ثم يحملون على بعضها بالحرارة وعلى بعضها بالبرودة وكذلك بالرطوبة واليبوسة
قال وزعموا ان عطارد معتدل في التجفيف والترطيب لانه يبعد في وقت من الاوقات
عن حيز الشمس بعدا كثيرا او موضعه فوق كرة القمر وان الكواكب الثابتة التي في الحالة حالها
شبيهة بحاله ولكن يوجد لها من التسخين الذي يدل على طبيعة عطارد شيئا بل الذي يوجد لها
ضد ذلك وهو انها تبعد من الشمس في اكثر الاوقات وان فلكها ابعد افلاك الكواكب من كرة
القمر وقالوا ان الكواكب التي في النهار تشبه حال عطارد وزحل في بعض الاوقات وتشبه
حال المشتري والمريخ في بعضها قلت وقد استدل العقلا وهم على اختلاف
طبايع الكواكب باختلاف الوانها فالوا زحل لونه الغبرة والكمودة فحكموا بانه على طبع السودا
وهو البرد واليبس فان السودا الغامق الالوان الغبرة واما المريخ فانه يشبه لونه لون النار فلا
جرم قلنا طبعه حار يابس واما الشمس فهي حارة يابسة لوجهين احدهما ان لونها
يشبه لون الجمر الثاني انا نعلم بالتدبير انها مسخنة للاجسام منشفة للرطوبات واما الزهرة

فانا نرى

فانا نرى لونها كالمركب من البياض والصفرة ثم البياض يدل على طبيعة البلغم الذي هو البرد والرطوبة
والصفرة تدل على الحرارة ولما كان بياض الزهرة اكثر من صفرتها حكمنا عليها بان بردها ورطوبتها
اكثر واما المشتري فلما كانت صفرته اكثر مما في الزهرة كانت سخونته اكثر من سخونة الزهرة وكان
في غاية الاعتدال واما القمر فهو ابيض وفيه كمودة فبياضه يدل على البرد واما عطارد فانا نراه على
الوان مختلفة فربما رايناه اخضر وربما رايناه اغبر وربما رايناه على خلاف هذين اللونين وذلك
في اوقات مختلفة مع لونه في الافق عند ارتفاع واحد فلا جرم قلنا انه للون قابلا للالوان المختلفة
يجب ان يكون له طبايع مختلفة الا انا لما وجدنا الغالب عليه الغبرة الارضية قلنا طبيعته اميل
الى الارضية اليبس وهذا التقرير باطل من وجوه عديدة احدها ان المشاركة في بعض الصفات
لا تقتضي المشاركة في الماهية والطبيعة ولا في صفة اخرى **الوجه الثاني** ان دلالة
مجرد اللون على الطبيعة ضعيفة جدا فان اللون والنشادر والزرنيخ والدبق المصعد والكبريت
في غاية البياض مع ان طبايعها في غاية الحرارة **الثالث** ان الوان الكواكب ليست كما
ذكرتم من صاحب اللون وهذا مخالف للغبرة والسواد الخالص واما المشتري فلا يدان بياضه
اكثر من صفرته فيلزم على قولهم ان برده اكثر من حره وهم منكرون ذلك واما الزهرة فلا
صفرة فيها البتة بل الزرقة ظاهرة في ازرقها فيلزم ان يكون خالصا البرد واما المريخ فان كان
حره لتشبهه بالنار في لونه فهذه المشابهة بين الشمس والنار اتم فيلزم ان يكون حرارة الشمس
وسخونتها اقوى من حرارة المريخ وهم لا يقولون بذلك واما عطارد فانا وان رايناه مختلف
اللون في الاوقات المختلفة الا ان السبب فيه انا لا نراه الا اذا كان قريبا من الافق وحينئذ يكون بيننا
وبينه بخارات مختلفة فلا جرم اختلف لونه لهذا السبب واما القمر فقد ثبت بعلمكم انه مجوف مظلم
انه لا ينسب لونه الى البياض الا من عدم الحس البصري فبين بطلان قولكم في طبايع الكواكب ومناقضته
واختلافه ولما علم بعض فضلائهم فساد قولكم في طبايع الكواكب وان العقل يشهد بكذب صدق
عنه ما تكذبون قال انما نسير بهذه القوى والطبايع الى ما يحدث عن كل واحد من الاجرام
السماويه وينفعل بها من الكائنات الفاسدات لا انها بطبايعها تفعل ذلك بل يحدث عنها ما يكون
حارا او باردا او رطبا او يابسا كما يقال ان الحركة تسخن والصوم يجفف لا على انها تفعل ذلك بطبايعها
بل بما يحدث عنها وبطليموس قال ان القمر يرطب والشمس تسخن بحسب ما يحدث عنهما وينفعل
في المنفعلات بتلك القوى لا ان طبايعها ملتفتات فيقال نحن لم ننازعكم في تاثير الشمس والقمر

[illegible]

في هذا العالم الحرارة والرطوبة والبرودة واليبوسة وتوابعها وتأثيرها في أبدان الحيوان والنبات
ونكرها جزء من السبب المؤثر وليسا بمؤثرين تامين فإن شعاع الشمس مثلاً إنما كان بواسطة الهواء وقبوله
للسخونة والحرارة بانعكاس شعاع الشمس عليه عند مقابلتها لجرم الأرض وتختلف هذا القول عند
قرب الشمس من الأرض وبعدها فتختلف حال الهواء وأحوال الأبخرة في كثافتها وبرودتها ولطافتها
وحرارتها فتختلف هذه التأثيرات باختلاف هذه الأسباب والسبب حر الشمس في ذلك والأرض جزء
الهواء جزء والمقابلة الموجبة لانعكاس الأشعة جزء والمحل القابل للتأثير والانفعال جزء ونحن لم
ننكر أن قوة البرد عندنا بسبب بعد الشمس عن سمت رؤوسنا وقوة الحر بسبب قرب الشمس من سمت رؤوسنا
ولا ننكر أن الشمس إذا طلعت فإن الحيوان ناطقه وبهيمه يخرج من مكامنه وأكنته وتظهر القوة والحركة
فيهم ثم ما دامت الشمس صاعدة في الربع الشرقي فحركات الحيوان في الازدياد والقوة والاشتغال فإذا
مالت الشمس عن وسط السماء أخذت حركات الحيوان وقواهم في الضعف ولا تستمر هذه الحال
إلى غروب الشمس ثم كلما ازداد نور الشمس عن هذا العالم بعداً ازداد الضعف والفتور في حركة
الحيوان وهدأت الأجساد ورجعت الحيوانات إلى مكامنها فإذا طلعت الشمس رجعوا إلى الحالة
الأولى ولا ينكر أيضاً ارتباط فصول العالم الأربعة بحركات الشمس وحلولها في أبراجها ولا ننكر أن
السودان لما كان مسكنهم خط الاستواء الذي يحاذيه ممر رأس السرطان وكانت الشمس على رؤوسهم
في السنة مارة ومرتين اسودت أبدانهم وجعدت شعورهم وقلت رطوباتهم فساءت أخلاقهم
وضعفت عقولهم وأما الذين مساكنهم أقرب إلى محاذاة رأس السرطان فالسواد فيهم أقل وطبائعهم
أعدل وأخلاقهم أحسن وأجسامهم أنصف كأهل الهند واليمن وبعض أهل المغرب وعكس هؤلاء
الذين مساكنهم على ممر رأس السرطان إلى محاذاة بنات نعش الكبرى فهؤلاء لأجل أن الشمس لا تسامت
رؤوسهم ولا تبعد عنهم بعداً كثيراً لم يعرض لهم حر شديد ولا برد شديد فألوانهم متوسطة
وأجسامهم معتدلة وأخلاقهم فاضلة كأهل الشام والعراق وخراسان وفارس والصين
ثم من كان من هؤلاء أميل إلى ناحية الجنوب كان أتم في الذكاء والفهم ومن كان منهم يميل إلى ناحية
المشرق فهم أقوى نفوساً وأشد ذكورة ومن كان يميل إلى ناحية الغرب غلب عليهم اللين والرزانة
ومن تأمل هذا حق التأمل وسافر بفكره في أقطار العالم علم حكمة الله في مذهب أهل العراق وما
فيه من اللين وما شاكله في أهل المشرق ومذهب أهل المدينة وما فيه من الشدة والقوة في أهل المغرب
وأما من كانت مساكنهم محاذية لبنات نعش وهم الصقالبة والروس وأمثالهم فلبعدهم عن مسامتة الشمس صار

البرد غالباً عليهم والرطوبة الفضلية فيهم لا تجد من الحرارة هناك ما ينشفها وينضجها فلذلك
صارت أبدانهم بيضاً وشعورهم سبطة شقراً وأبدانهم رخصة وطبائعهم مائلة إلى البرودة
وأذهانهم جامدة وكل واحد من هذين الطرفين وهما الإقليم الأول والسابع يقل فيه
العمران وينقطع بعضه عن بعض لأجل غلبة الكيفيتين ثم لا يزال العمران يزداد في الإقليم الثاني
والسادس والثالث والخامس ويقل الخراب فيها وأما الإقليم الرابع فإنه أكثر الأقاليم عمارة وأقلها خراباً
لفضل الوسط على الأطراف بسبب اعتدال المزاج وهو الذي انتشرت فيه دعوة الإسلام وضرب
الدين بجرانه فيه أعظم من ظهوره في سائر الأقاليم ولهذا قال النبي صلى الله عليه وسلم زويت لي
الأرض مشارقها ومغاربها وسيبلغ ملك أمتي ما زوي لي منها فكان انتشار دعوته صلى الله عليه وسلم
في أعدل الأرض ولذلك انتشرت شرقاً وغرباً أكثر من انتشارها جنوباً وشمالاً ولهذا لما
زويت له صلى الله عليه وسلم فأرى مشارقها ومغاربها وبشر أمته بانتشار مملكتها في هذين الوجهين
فإنهما أعدل الأرض وأهلها أكمل الناس خلقاً وخلقاً وظهر الكمال في الكتاب والدين والأصحاب
والشريعة والبلاد والممالك صلوات الله وسلامه عليه فإن قيل فقد فضلتم الإقليم الرابع
على سائر الأقاليم مع أن شيئاً من الأدوية لا ينبت لدفع الأدواء ضعيفاً وإنما تكون الأدوية
في سائر الأقاليم قيل هذا من أدل الدلائل على فضله عليها لأن طبيعة الدواء لا تكون معتدلة إذ لو
حصل فيها الاعتدال لكان غذاء لا دواء والطبيعة الخارجة عن الاعتدال لا تحدث في المساكن
الخارجة عن الاعتدال وكذلك حال الشمس في المواضع التي تسامتها في موضع حضيضها وغايته
قد يهلك الأرض في البراري الجنوبية تكون تلك الأماكن محترقة نارية لا تسكن فيها حيوان البتة
وكذلك والله أعلم كانت أكثر البحار في الجانب الجنوبي دون الشمالي لأن الشمس إذا كانت في حضيضها
كانت أقرب إلى الأرض وإذا كانت في أوجها كانت أبعد وعند قربها من الأرض يعظم تسخينها والتسخين
جاذب للرطوبات وإذا انجذبت الرطوبات إلى الجانب الجنوبي انكشف الجانب الشمالي فصار
مستقراً للحيوان الأرضي والجنوبي أغلب الجانبين رطوبة والبرية مياهاً ومستقراً للحيوان المائي
وأما المواضع المسامتة لأوج الشمس في الشمال فهي غير محترقة بل معتدلة لبعد الشمس عن الأرض
وبسبب التفاوت القليل الحاصل بين أقرب قرب الشمس من الأرض وأبعد بعدها منها صار الجانب
الجنوبي محترقاً والجانب الشمالي معتدلاً فلو كانت الشمس حاصلة في فلك الكواكب لفسد هذا
العالم من شدة البرد ولو فرضنا أنها انحدرت إلى فلك القمر لاحترق هذا العالم فاقتضت

حكمة العزيز الحكيم ان وضع الشمس وسط الكواكب السبعة وجعل حركتها المعدلة وقربها المعتدل
سببا لاعتدال هذا العالم وجعل قربها وبعدها وارتفاعها وانخفاضها سببا لفصوله التي هي
نظام مصالحه فتبارك الله رب العالمين واحسن الخالقين واهل الاقليم الاول لاجل قربهم
من الموضع المحاذي لحضيض الشمس كانت سخونة هوائهم شديدة ولاجرم كانوا اشد سوادا من سكان
خط الاستواء واهل الاقليم الثاني سخونة هوائهم الطف فكانوا اتم الالوان والاقليم الثالث
والرابع اعدل الاقاليم من الجانبين بسبب اعتدال الهواء وسبب بعد ارتفاع الشمس لا بالون في البعد بعدها
عن الارض فهنا وان حصلت مسامتة الوجه الموجبة للسخونة لكن حصل ايضا البعد المقلل للسخونة فحصل
الاعتدال من بعض الوجوه وفي الجانب الجنوبي وان حصل مزيد القرب من الارض لكن لم يحصل هناك مسامتة
لمساكن المعمورة فحظ الاعتدال في الجانبين بهذه الطريقة وصار اهل الاقليم الثالث والرابع افضل
الناس صورا واخلاقا واما الاقليم الخامس فان سخونة الهواء هناك اقل من الاعتدال بمقدار يسير
فلاجرم صار في مزاج البرد وصارت طبايع اهله اقل نضجا من طبايع اهل الاقليم الرابع الا ان بعدهم
عن الاعتدال قليل واما اهل الاقليم السادس والسابع فان اهلها محرورون ولغلبة البرد والرطوبة
عليهم شديد بياض الوانهم وزرقة عيونهم واما المواضع التي يقرب من ان يكون القطب فيها فوق الراس
فهناك لا تصل سخونة الشمس اليها فلاجرم عظم البرد فيها ولم يتكون هناك حيوان البتة وهذا
كله يدل على ان الشمس جزو السبب وان الهواء جزو السبب والارض جزوه وانعكاس الشعاع
جزو وقبول المنفعلات جزو ومجموع ذلك سبب قدره العليم القدير واجرى عليه نظام العالم وقدر
سبحانه اسبابا اخر لا يعرفها هولاء الجهال ولا عندهم منها خبر من تدبير الملائكة وحركاتهم وطاعتهم
استقصات العالم وموالدهم وتصريفهم تلك المواد بحسب ما رسم لهم من التدبير الالهي والامر الرباني
ثم قدر تعالى اسبابا اخر تمانع هذه الاسباب عند التصادم وتدافعها وتقهر موجبها ومقتضاها
ليظهر عليها اثر القهر والتسخير والعبودية وانها مصرفة مدبرة بتصريف قادر قاهر كيف يشاء ليدل
عباده على انه هو وحده الفعال لما يريد المدبر لخليقته كيف يشاء وان كل ما في المملكة الالهية طوع
قدرته وتحت مشيئته وانه ليس شي مستقل وحده بالفعل الا الله وكل ما سواه لا يفعل الا بمشارك ومعاون
وله ما يعارضه ويمانعه ويسلبه تاثيره فتارة يسلب سبحانه النار احراقها ويجعلها ردا حاجبها
على خليله صلى الله عليه بردا وسلاما وتارة يمسك بين اجزاء الماء فلا يتلاقى كما فعل بالبحر لموسى
وقومه وتارة يشق الاجرام السماوية كما شق القمر لخاتم انبيائه ورسله صلى الله عليه وسلم وفتح السماء

لصعود

لصعوده وعروجه وتارة يقلب الجماد حيوانا كما قلب عصا موسى ثعبانا وتارة يغير هذا
النظام وتطلع الشمس من مغربها كما اخبر به اصدق خلقه عنه فاذا اتى الوقت المعلوم شق السموات
وفطرها ونثر الكواكب على وجه الارض ونسف جبال العالم ودكها مع الارض وكور شمس العالم وقمره
ورأى ذلك الخلائق عيانا ظهر للخلائق كلهم صدقه وصدق رسله وعموم قدرته وكمالها وان العالم
باسره منقاد لمشيئته طوع قدرته لا يستعصي عليه انفعاله لما يشاء ويريد منه وعلم الذين كفروا
وكذبوا رسله من الفلاسفة والمنجمين والمشركين والسفهاء الذين سموا انفسهم الحكماء انهم كانوا كاذبين
واجتمع جماعة من الكبراء والفضلاء يوما فقرأ قارئ اذا الشمس كورت واذا النجوم انكدرت واذا
الجبال سيرت حتى بلغ علمت نفس ما احضرت وفي الجماعة ابو الوفا ابن عقيل فقال له قائل يا سيدي هب انه
انشر الموتى للبعث والحساب وزوج النفوس بقرنائها للثواب والعقاب فما الحكمة في هدم الابنية
وتسيير الجبال ودك الارض وفطر السماء ونثر النجوم وتخريب هذا العالم وتكوير شمسه وقمره فقال
ابن عقيل على البديهة انما بنى لهم الدار للسكنى والتمتع وجعلها وما فيها للاعتبار والتفكر والاستدلال
عليه بحسن التأمل والتذكر فلما انقضت مدة السكنى واجلاهم من الدار خربها لانتقال الساكن منها
فاراد ان يعلمهم بان في احالة الاحوال واظهار تلك الاهوال وابداء ذلك الصنع العظيم بيانا
لكمال قدرته ونهاية حكمته وعظم ربوبيته وعز جلاله وعظيم شانه وتكذيبا لاهل الالحاد
وزنادقة المنجمين وعباد الكواكب والشمس والقمر والاوثان ليعلم الذين كفروا انهم كانوا كاذبين
فاذا راوا ان منار الهتهم قد انهدم وان معبوداتهم قد انتثرت والافلاك التي زعموا انها وما
حوته هي الارباب المستولية على هذا العالم قد تشققت وانفطرت ظهرت حينئذ فضائحهم وتبين
كذبهم وظهر ان العالم مربوب محدث مدبر له رب يصرفه كيف يشاء تكذيبا لملاحدة الفلاسفة
القائلين بقدمه فكم لله من حكمة في هدم هذه الدار ودلالة على عظيم قدرته وعزته وسلطانه
وانفراده بالربوبية وانقياد المخلوقات باسرها لقهره واذعانها لمشيئته فتبارك الله رب
العالمين ونحن لا ننكر ولا ندفع ان الزرع والنبات لا ينمو ولا ينشأ الا في المواضع التي تطلع عليها
الشمس ونحن نعلم ايضا ان وجود بعض النبات في بعض البلاد لا سبب له الا اختلاف البلدان
في الحر والبرد الذي سببه حركة الشمس ومقاربتها في قربها وبعدها من ذلك البلد وايضا فان
النخل ينبت في البلاد الحارة ولا ينبت في البلاد الباردة وشجر الموز لا ينبت في البلاد الباردة ولذلك
ينبت في البلاد الجنوبية اشجار وفواكه وحشائش لا يعرف شيء منها في جانب الشمال وبالعكس

فلعطه

وكذلك الحيوانات تختلف تكونها بحسب اختلاف حرارة البلاد وبرودتها فان النمر والفيل لا يكونان
بارض الهند ولا يتولدان في سائر الاقاليم التي هي دون بلاد الحرارة وكذلك غزال المسك والكركدن
وغير ذلك ولعلك لا تبدع ما يؤثر القمر في وقت امتلائه في الرطوبات حتى في جزر البحار ومدها فان منها
ما يأخذ في الازدياد حين يفارق القمر الشمس الى وقت الامتلاء ثم انه يأخذ في الانتقاص ولا يزال
نقصانه يستمر بحسب نقصان القمر حتى ينتهي الى غاية نقصانه عند حصول المحاق ومن البحار ما يحصل فيه
المد والجزر في كل يوم وليلة مع طلوع القمر وغروبه وذلك موجود في بحر فارس وبحر الهند وكذلك
بحر الصين وكيفيته انه اذا بلغ القمر مشرقا من مشارق البحر ابتدأ البحر بالمد ولا يزال كذلك
الى ان يصير القمر الى وسط سماء ذلك الموضع فعند ذلك ينتهي منتهاه فاذا زال القمر يغرب
ذلك الموضع ابتدأ المد بتحت الارض ولا يزال زائدا الى ان يصل القمر الى وتد الارض فحينئذ ينتهي
المد منتهاه ثم يبتدي الجزر راجعا ويرجع الماء كما كان وسكان البحر كلما راوا في البحر انتفاخا
وهيجان رياح عاصفة وامواج شديدة علموا انه ابتداء المد واذا ذهب الانتفاخ وقلت الامواج
والرياح علموا انه وقت الجزر واما اصحاب الشطوط والسواحل فانهم يجدون عندهم في وقت المد
للماء حركة من اسفله الى علاه فاذا رجع الماء وترك فذلك وقت الجزر وكذلك ايام البحرانات
للامراض بحسب زيادة القمر ونقصانه منطبقة عليها وكذلك الاخلاط التي في بدن الانسان
ما دام القمر آخذا في الزيادة فانها تكون ازيد وتكون ظاهر البدن الى رطوبة وحسنا فاذا انتقص
ضوء القمر صارت هذه الاخلاط في غور البدن والعروق وازداد ظاهر البدن يبسا وكذلك
البان الحيوانات تتزايد من اول الشهر الى نصفه فاذا اخذ القمر في النقصان نقصت غزارتها وكذلك
ادمغة الحيوان في اول الشهر ازيد منها في نصفه الاخير وان حدث في اجواف الطيور بيض في النصف
الاول من الشهر كان ناصحا اكثر من الحادث في نصفه الثاني وكذلك الانسان اذا نام
في ضوء القمر حدث في بدنه الاسترخاء والكسل وهاج عليه الزكام والصداع واذا وضعت
لحوم الحيوانات مكشوفة تحت ضوء القمر تغيرت طعومها وتعفنت وكذلك السمك في البحار
والاجام والمياه الجارية توجد من اول الشهر الى وقت الامتلاء اكثر خروجا من قعور البحار والاجام
اظهر ومن بعد الامتلاء الى الاجتماع فانها تدخل قعور البحار والاجام والذي يظهر من سمين السمك
في النصف الاول من الشهر اكثر من الذي يظهر في الباقي منه وكذلك حشرات الارض يكون خروجها
من اجحرتها في النصف الاول من الشهر اكثر من خروجها في النصف الثاني واصحاب الفلاحة يعرفون

ان الاشجار والغروس اذا غرست والقمر زائد الضوء كان نشوها وكمالها واسرع علوقها في النبات
اكمل من التي تغرس في محاقه وذهاب نوره وكذلك يكون الرياحين والبقول والاعشاب من
الاجتماع الى الامتلاء ازيد نشوا واكثر نموا وفي النصف ما بعد ذلك وكذلك القثاء
والقرع والخيار والبطيخ ينمو اما لما عند ازدياد الضوء واما في وسط الشهر عند حصول الامتلاء
فهنالك يعظم النمو حتى يظهر التفاوت المحسوس في الليلة الواحدة وكذلك الينابيع تزداد في
النصف الاول من الشهر وتنقص في النصف الثاني الى غير ذلك من الوجوه التي تؤثرها الشمس والقمر
في هذا العالم ونحن لم ندفع علم هذه التأثيرات واصنافها انما الذي انكره عليهم العقلاء من
اهل الملل وغيرهم ان جملة الحوادث في هذا العالم خيرها وشرها وصلاحها وفسادها وجميع
اشخاصه وانواعه وصوره وقواه ومدد بقاء اشخاصه وجميع احوالها العارضة لها وتكون
الجنين ومدة لبثه في بطن امه وخروجه الى الدنيا وعمره ورزقه وشقاوته وسعادته وحسنه
وقبحه واخلاقه وحذقه وبلادته وجهله وعلمه بل ونزول الامطار واختلاف انواع الشجر
والنبات في الشكل واللون والطعوم والروائح والمقادير بل انقسام الحيوان الى الطير
واصنافه والبحري وانواعه والبري واقسامه واشكال هذه الحيوانات واختلاف صورها
وانواعها وافعالها واخلاقها ومنافعها بل وتكون المعادن المنطبعة كالحديد والرصاص
والنحاس والذهب والفضة وغير المنطبعة كالملح والقار والزرنيخ والنفط والكبريت بل
العداوة الواقعة بين الذئاب والغنم والحيات والسباع وبني آدم والصداقة والعداوة والمودة
الواقعة بين افراد النوع الواحد سيما بين ذكوره واناثه وبالجملة فالارزاق والآجال والعز
والذل والرفعة والخفض والغنى والفقر والاحياء والاماتة والمنع والاعطاء والضر والنفع
والهدى والضلال والتوفيق والخذلان وجميع ما في العالم من الاشخاص وافعالها وقواها وصفاتها لها
وهيئاتها فالمعطي لهذا النجوم وباتصالاتها وانفصالاتها واتصالاتها ببعض وانفصالها عن بعض
ومقارنتها ومفارقتها ومسامتتها ومباينتها فهي المعطية لهذا المدبرة الفاعلة فهي الآلهة
والارباب على الحقيقة وما تحتها عبيد مصانعون لها ناظرون اليها فهذا كما انه الكفر الذي
خرجوا به عن جميع الملل وعن جملة شرائع الانبياء ولم يمكنهم ان يقيموا بين ارباب الملل الا بالتستر بهم
ومنافقتهم والتزيي بزيهم ظاهرا والا فحقيقة هؤلاء من الامر الضروري عند حمله لانهم سوسها
واعداء … الهداة الذين احتكوا بالعقلاء على عقولهم حتى ردوا عليهم لا يؤمنون بالله واليوم

من اخبر من الفلاسفه كالفارابي وابن سينا وغيرهما من عقلاء الفلاسفه وتحرزوا منهم واستضعفوا
عقولهم ونسبوهم الى الزرق والزرجنه والتلبيس وقد رد عليهم افضل المتاخرين من فلاسفه
الاسلام ابو البركات البغدادي في كتاب المعتبر له فقال وأما علم احكام النجوم فانه لا يتعلق
باكثر من قولهم بغير دليل بحر الكواكب وبردها ورطوبتها ويبوستها واعتدالها كما يقولون بان زحل
منها بارد يابس والمريخ حار يابس والمشتري معتدل من الاعتدال الخير من الافراط شر ويستخرجون من
ذلك ان الخير يوجب سعادة والشر يوجب نحسه وما جانس ذلك مما لم يقل به علما الطبيعيين
ولم ينتجه مقدماتهم في انظارهم وأما الذي انتجته هو ان السماء والسماويات فعاله فيما تحويه
وتشتمل عليه وتحرك بحركه فعلا على الاطلاق لم يحصل لهم من العلم الطبيعي حد ولا وقت ولا تقدير والقايلون
به ادعوا حصوله والتوقيف والتجربه والقياس منهما كما ادعى اهل الكيميا والا فمن يقول صاحب العلم
الطبيعي بحسب انظاره التي سبقت ان المشتري سعد والمريخ نحس والمريخ حار يابس وزحل بارد
يابس والحار والبارد من الملموسات وما دله على هذا اللمس بلمس للملموسات فان ذلك ما ظهر للحس
حيث يسخن الارض شعاعها وان كان في السمايات شي من طبايع الاضداد فكان الاولى ان يكون كلها حاره لان
ذوابها كلها منيره ومتى يقول الطبيعي بتقطيع الفلك وقسمته كما قسمه المنجمون قسمة وهميه الى بروج
ودرج ودقايق وذلك جايز للمتوهم لجوازه في غير واجب الوجود ولا حاصل ونقلوا ذلك
التوهم الجايز الى الوجود الواجب في احكامهم وكان الاصل فيه على زعمهم حركه الشمس في الايام والشهور
فجعلوا امثالها قسمة وهميه وجعلوها حيث حكموا كالحاصله الوجود المشتهره بحدود وخطوط
كان الشمس بجريها روقت الحدود مثله خطت في السما خطوطا واقامت فيها حدودا وحدودا
وغيرت في اجزايها طباعا معتبرا انتهى فسعى بالقسمه الى تلك البروج والدرج مع جواز الشمس عنها
وليس في جوهر الفلك اختلاف يتميز به موضع منه عن موضع سوى الكواكب والكواكب تتحرك عن
امكنتها فتبقى الامكنه على التشابه فبما ذا تميز درجه عن درجه وبقي اختلافها بعد حركه المتحرك
في سمتها ملف نقيس الطبيعي على هذه الاصول ويستخرج منها نتايج ويحكم بحسبها احكاما ما ملف
ان يقول بالحدود التي يجعل خمس درجات من برج الكوكب وسته لاخر واربعه لاخر ويختلف فيها
المصريون والبابليون ويصدق الحكم مع الاختلاف وارباب البيوتات كانها املاك بين يتداولونها
ويحكم بالاشد للشمس والسرطان للقمر فاذا نظر الناظر وجد الاشد برج الكواكب تشكلوها
بشكل الاشد ثم انتقلت عن مواضعها التي كانت بها اشدا كان الملك الشمس مع انتقال الكواكب

ولذلك السرطان للقمر هذا من ظواهر الصناعه وما لا يماري فيه ومن غالطه الاشد
والممتزج كوكبه وربه بينه وبين الدقايق في الحقايق النجوميه المذكر والمونثه والمظلمه
والنيره والزايده في السعاده ودرج الابار وهذه انها اجزا الفلك التي قطعوه وما انقطعت
مع اسفل الامتنقل من الكواكب اليها وعنها ثم يستخرجون من ذلك نتايج الامطار من اعداد الدرج واقسام
الفلك فيقولون ان الكوكب ينظر الى الكوكب من ستين درجه نظر تسديس لانه سدس الفلك
ولا ينظر اليه من خمسين ولا من سبعين وقد كان من قبل الستين بخمس درج وهو اقرب من ستين
وبعده بخمس درج وهو ابعد من الستين لا ينظر فليت شعري ما هو هذا النظر اترى الكوكب ينظر
للكوكب ثم يحتجب عنه او شعاعه يخلط بشعاعه عند حد لا يخلط من قبله ولا بعده وكذلك
التربيع من الربع الذي هو تسعون درجه والتثليث من الثلث الذي هو مايه وعشرون فلم لا يكون
التخميس من الخمس والتسبيع من السبع والتعشير من العشر والحمل حار يابس من البروج الناريه
والثور بارد يابس من الارضيه والجوزا حار رطب من الهوائيه والسرطان بارد رطب من المائيه
ما قال الطبيعي قط هذا ولا يقول به واذا احتجوا وقاسوا كانت مبادي قياساتهم
ان الحمل برج منقلب لان الشمس اذا نزلت فيه ينقلب الزمان من الشتا الى الربيع والثور ثابت
لانه اذا نزلت الشمس فيه يثبت على سجيته من الحر لا انقلاب في الحمل ولا ثبات في الثور بل هو في
كل يوم غير ما هو في الاخر ثم ان الزمان انقلب بحلول الشمس فيه وهو بقي دهره منقلبا مع خروج
الشمس منه وحلولها فيه اثرها تخلف فيه اثرا او تحيل منه طباعا وتبقى تلك الاستحاله الى ما يعود
فيجدده ولم لا يقول قايل ان السرطان حار يابس لان الشمس اذا نزلت اليه يشتد حر الزمان وما
جانس هذا مما لا يلزم لا هو ولا ضده ما في الفلك اختلاف معرفة الطبيعي الا بما فيه من الكواكب
ومواضعها وهو واحد متشابه الجوهر والطبع وهذه اقوال قايلها قايل وناقلها
ناقل يحسن به ظن السامع واغتر بها من لا خبره له ولا قدره على النظر ثم يحكم بحسبها الحاكمون
بجيد ورديء وسلب وايجاب وشر وخير فيصادف بعضه موافقه الوجود فيصدق فاغتر
به المغترون ولم يلتفتوا الى ما كذب منه فيكذبون بل عذروا وقالوا هو منجم ما هو نبي حتى
يصدق في كل ما يقول واعتذروا له بان العلم اوسع من ان يحيط به ولو احاط لصدق في كل شي ولعمري
انه لو احاط به علم لكان دايما الصدق والشان ان يحيط به على الحقيقه لا على ان يفرض فرضا
ويتوهم توهما فينقله الى الوجود في الموجود وينسب اليه ويبنى عليه والذي يصح منه ويلتفت

اليه العقلاء من اشياء غير هذه الخرافات التي لا اصل لها فما حصل بتوقيف او تجربة حقيقية
كالقرانات والاستقبالات والمقابلة من جملة الاتصالات فانها المقارنة من جهة ان تلك غاية القرب
وهذه غاية البعد ومن كوكب من المنجم تحت كوكب من الكتابة ومما يعرض للنجم من رجوع واستقامة
ورجوع في شمال وانحطاط في جنوب وغير ذلك وكان اريد ان اختصر الكلام ههنا واوافق
اشارتك واعمل بحسب اختيارك رسالة في ذلك اذكر ما قيل فيه من علم احكام النجوم من اصول
حقيقية او مجازية او وهمية او غلطية وفروع سايغة اتحدث عن تلك الاصول واذكر الجائز
ذلك والممتنع والقريب والبعيد فلا ارد علم الاحكام من كل وجه كما رده من جهله ولا اقبل فيه
كل قول كما قبله من لم يعقله بل اوضح موضع القبول والرد المقبول والمردود وموضع التوقف
والتجويز والذي من النجم والذي من التنجيم والذي منهما واوضح لك انه لو امكن الانسان ان يحيط
بشكل ما في الفلك علما لاحاط علما بكل ما يحويه الفلك لان منه مبادي الاسباب لكنه لا يمكن ويبعد
عن الامكان بعدا عظيما والبعض المملن منه لا يهتدي الى بعض الحكم لان البعض لاخر المجهول
قد يناقض المعلوم في حكمه ويبطله او يوجبه فتنسب المعلوم الى المجهول من الاحكام نسبة المعلوم
الى المجهول من الاسباب وكفى بذلك بعدا انتهى كلامه ولو ذهبنا نذكر من رد عليهم من عقلاء
الفلاسفة والطبايعيين والرياضيين لطال ذلك جدا هذا غير رد المتكلمين عليهم فانه لا
يقع به ولا نرضى لنا فانه فيه من المكابرات والمنوع الفاسدة والسؤالات الباردة والتطويل
الذي ليس تحته تحصيل ما يضع الزمان في غيره وكان ردهم لهذه المقابلة خيرا لهم منها فانهم
للتوحيد والاسلام نصروا ولا لاعدائه كسروا وانما المستعان وعليه التكلان

فصل

فلنرجع الى كلام صاحب الرسالة قال وزعموا ان القمر والزهرة مؤنثان وان الشمس وزحل والمشتري
والمريخ مذكر وان عطارد ذكرا انثى مشارك للجنسين جميعا وان سائر الكواكب تذكر وتؤنث
بسبب الاشكال التي يكون لها مع الشمس وذلك انها اذا كانت مشرقة متقدمة للشمس فهي
مذكر وان كانت مغربة تابعة كانت مؤنثة وان ذلك ايضا يكون بالقياس الى اشكالها الى
الافق وذلك انها اذا كانت في الاشكال التي من المشرق الى وسط السماء وما يحاذ الارض فهي مذكرة
لانها اذا كانت شرقية فهي من ناحية مهب الصبا واذا كانت في الربعين الباقيين فهي مؤنثة
لانها ناحية مهب الدبور واذا كان هذا هكذا صارت الكواكب ... ... مؤنثة مذكرة
والى ... الى انها مذكرة مؤنثة وصارت طباعها ... ... القمر والزهرة

مؤنثان والكواكب الخمسة الباقية مذكرة على الموضوع الاول فان تقدم القمر والزهرة
الشمس وكانا مشرقين صارا مذكرين وان تاخرت الكواكب الخمسة وكانت مغربة تابعة كانت
مؤنثة على الموضوع الثاني ويصير عطارد ذكرا اذا اشرق انثى اذا غرب ذكرا انثى اذا لم
ياخذ هذين الصنفين **قلت** وقد اجاب بعض فضلائهم عن هذا الالزام فقال ليس ذلك
بمحال لانا قد نقول ان الادكن ابيض اذا قسناه الى الاسود ونقول انه اسود اذا قسناه الى الابيض
ومؤنث واحد بعينه مرة يكون اسود ومرة ابيض وهو في نفسه لا اسود ولا ابيض وكذلك
الكواكب يقال انها ذكران واناث بالقياس الى الاشكال اعني الجهات والجهات اعني الرياح والريا
الى الكيفيات لانها ذكران واناث وهذا التلبيس منه فان الادكن فيه شائبة البياض
والسواد فلذلك صدق عليه اسمهما لان الكيفيتين محسوستان فيه فليس نسبتهما اوجب ان
يقال عليه الاسمان واما تقسيم الكواكب الى الذكور والاناث فهي قسمة وضعتم فيها تمييز كل
نوع عن الاخر بحقيقته وطبيعته وحده وكذلك البروج تنقسم الى ذكور واناث قسمة تميز فيها
بين قسم عن قسم لان حقيقتها رتبة من الطبيعتين في ذكورية والانوثية بحيث تصدقان على كل
برج برج فنظير ما ذكرتم من الادكن ان يكون كل برج ذكرا وانثى فاين احدالبابين من الاخر
لولا التلبيس والمحال وايضا فانقسامها عندكم الى الذكور والاناث انقسام بحسب الطبيعة
والتاثير والتاثر الذي هو الفعل والانفعال وما كان كذلك لم ينقلب حقيقته وطبيعته بحسب
الموضع والقرب والبعد **قال** صاحب الرسالة وزعموا ان القمر مبدا الوقت الذي يهل
فيه الى انتصاف الدور في الضوء يكون فاعلا للرطوبة خاصة ومن وقت الامتلاء الى
وقت الانتصاف الثاني في الضوء يكون فاعلا للتلبيس ومن وقت الانتصاف الى الوقت
الذي يخفى فيه ويفارق الشمس يكون فاعلا للبرودة واي شيء ابين من هذا ولا شيئا وقد اعطى
قائله ان القمر يرطب وانه يفعل بطبعه لا باختيار وكيف ان يفعل شيء واحد بطبيعة الاشياء
المتضادة مرة في الدهر فضلا عن ان يفعلها في كل شهر وهل القول الا ان شيئا واحدا يفعل بطبعه
الترطيب وقتا ويفعل بطبعه التجفيف في اخر ويفعل الاسخان في وقت ويفعل التبريد في اخر الا كالقول
بان شيئا واحدا يسفل عينه وقتا ويعلو وقتا **قلت** وقد قالوا ان الشمس لما كانت
هذه الافاعيل ... ... وهبوطها في فلكها فانها اذا كانت راجعة عن درجة الحوت
الى خمسة عشر من الجوزاء الى ... ... يفعل السخين وهو زمان القيظ الى خمسة عشر

درجة والسنبلة الى خمسة عشر من القوس تفعل التجفيف وهو زمان الخريف ومن خمسة عشر درجة
من القوس الى خمسة عشر من الحوت تفعل التبريد وهو زمان الشتاء وهذا دورها في الفلك مرة في
العام والقمر يدور في الشهر دورة واحدة صارت نسبة دورة القمر في الفلك كنسبة دور الشمس
فيه وكانت نسبة الشهر الى القمر كنسبة السنة الى الشمس فالشهر يجمع الفصول الاربعة كما
تجمعه السنة وما تفعله الشمس في كل تسعين يوما وكسر يفعله القمر في كل سبعة ايام وكسر
قالوا فاخر الشهر شبيه بالشتاء واوله شبيه بالربيع والربع الثاني من الشهر شبيه بالصيف
والربع الثالث شبيه بالخريف فهذا غاية ما قرروا به هذا الحكم قالوا واما
كون الشيء الواحد سببا للضدين فقد قضى ارسطاطاليس في كتاب السماع الطبيعي على جوازه
والجواب عن هذا ان الشمس ليست هي السبب الفاعل لهذه الطبائع المختلفة وانما
قربها وبعدها وارتفاعها وانخفاضها اثر في تسخينها الهواء وتبريده وفي تحلل البخارات وتكاثفها
فيحدث بذلك في الحيوان والنبات والهواء هذه الطبائع والكيفيات والشمس جزء السبب
كما قررناه واما القمر فلا يؤثر قربه وبعده وامتلاؤه ونقصانه في الهواء كما تؤثره الشمس
ولو كان في ذلك كذلك لكان كل شهر من شهور العالم يجمع الفصول الاربعة بطبائعها وتاثيراتها
واحكامها وهذا شيء يدفعه الحس فضلا عن النظر والمعقول وقياس القمر على الشمس في ذلك
من افسد القياس فان الفارق بينهما في الصفة والحركة والتاثير اكبر الجامع فالحكم على القمر بانه يحدث
الطبائع الاربعة قياسا على الشمس والجامع بينهما قطعهما للفلك في كل شهر كما تقطعه الشمس في كل
سنة لا يعتمد عليه من له خبرة بطرق الادلة وصنعة البرهان فصل واما قولكم ان ارسطاطاليس
نص في كتابه على ان الواحد قد يكون سببا للضدين فنحن نذكر كلامه بعينه في كتابه وننبه على ما فيه ه
قال في المقالة الثانية وايضا فان الواحد بعينه قد يكون سببا للضدين فان الشيء
الذي بحضوره يكون امر من الامور بعينه فقد يكون سببا للضد فيقال ان غيبة الربان سبب
عطب السفينة وهو الذي كان حضوره سبب سلامتها فتامل هذا الكلام وقابل بينه وبين
كلامهم في فعل القمر الامور المتضادة يظهر لك تلبيس القوم وجهلهم فان نظير ذلك بطلان من
الطبائع والكيفيات عند انقطاع تعلق القمر بهذا العالم كما بطل عمل السفينة وحركتها عند
غيبة الربان عنها وانقطاع تعلقه بها فلم يكن الربان هو سبب العطب الذي هو ضد السلامة
كما كان القمر سببا لليبس الذي هو ضد الرطوبة وللحرارة التي هي ضد البرودة وانما [illegible]

ان نعرف ما احدث الاسباب التي كان الربان يمنع فعلها فلما غاب عنها عمل ذلك السبب عمله
فعرفت وهذا اوضح من ان يحتاج الى تقرير ولكن الاذهان التي قد اعتادت قبول المحالات قد يحتاج
في علاجها الى ما لا يحتاج اليه غيرها وبالله التوفيق ه ه قال صاحب الرسالة وقالوا في
معرفة امهات المدن ان ذلك يعلم من المواضع التي فيها الشمس والقمر في اول بنائها ومواضع الاوتاد
وخاصة وتد الطالع كما يفعل في المواليد فان لم يوقف على الزمان الذي بنيت فيه فلينظر الى موضع
وسط السماء في مواليد الولاة والملوك الذين كانوا في ذلك الزمان الذي بنيت فيه تلك المدن
قلت ونظير هذا من هذيانهم قولهم انا نعرف احوال الاب من مولد الابن اذا لم نعرف مولد
الاب قالوا ان هذا الموضع بالتي الدرسة للطالع وهو اخص المواضع بالطالع كما ان الاب اخص
الاشياء بالابن فلذلك اخص الاشياء بالسلطان مملكته فموضع وسط سمائه يدل على مدينته واحوا لها
وكل عاقل يعلم بطلان هذه الدلالة وفسادها وانه لا ارتباط بين طالع المدينة وطالع السلطان
كما لا ارتباط بين طالع ولادة الابن وطالع ولادة ابيه وانما هذه تشبيهات بعيدة ومناسبات في غاية
البعد فصل قال صاحب الرسالة وقالوا في معرفة حال الوالدين ان الشمس وزحل مناسبان
للاباء بالطبع ولست ادري كيف تنقل دلالة شيء مما يتولد بطبيعة على شيء من طريق التوالد لان الاب
انما يكون ابا بالاضافة الى الطبيعي والاب انما يكون ابا باضافته الخاصة وانهم يستدلون على حال
المولود بالقمر والزهرة والمشتري وزحل مقام الطالع ويستدل على حال الابن من مولد ابيه
بان يقام موضع الكوكب الدال عليه وهو احد الكواكب الثلاثة القمر والمشتري والزهرة مقام
الطالع وقد يكون الانسان في اكثر الاوقات ابا فيكون الشمس او زحل يدل على مولد ابنه وله في
نفسه مولد لا محالة ويمكن ان يكون رب طالع مولده كوكبا غير الكوكبين الدالة على حاله من مولد ابنه
وابيه فيكون حاله يعرف من ثلاثة كواكب ومن ثلاثة بروج مختلفة الاشكال والطبائع ويتناقض هذا القول
بين المستعمله لتضاد ما يتوهمه قلت فقد قالوا الجواب عن هذا انه لا تناقض فيه
بل هو حق واجب قالوا اذا اردنا ان نعرف حال سقراط مثلا من حيث هو انسان ليس ينظر
الى ما يخص الحيوان او الانسان لكن اذا اراد ان يعرف حاله من حيث هو ابن ينظر الى المضاف
وما يلحقه واذا اردنا ان نعرف حاله من حيث هو عدل نظر الى الكيفية وما يخصها والكون
جوهر والثاني اعراض وسقراط واحد وتدرك احواله من مواضع مختلفة متباينة من كونه جوهرا
ومن [illegible] ملك اذا اردنا ان نعرف حاله من ولده نظرنا الى الطالع ودمه واذا اردنا ان

ان نعرف حاله من مولد ابيه نظرنا الى العاشر والشمس وكذلك اذا اردنا ان نعرف حاله
من مولد ابنه نظرنا الى موضع آخر وليس ذلك مناقضا كان الاول ليس مناقضا فيقال
هذا تشبيه فاسد واعتبار باطل فان نظرنا في طالع الاب ليستدلوا به على حال الولد ونظرهم في
الطالع ليستدلوا به على حال الاب هو استدلال على شيء واحد وحكم عليه بسبب لا يقتضيه ولا يفارقه
فاين هذا من تعرف انسانا انه سقراط وابوه وعدالته وعلمه مثلا وطبيعته فان هذه احوال
مختلفة لها ادلة واسباب مختلفة فنظرنا ان نعرف حال الولد من جهة سعادته وعيبته وصحته
وسقمه من طالعه وحاله من جهة ما يناسبه من الاغذية والادوية من مزاج وحاله من جهة اعتدال مزاجه
ورياسته من اخلاقه كالحياء والصبر والبذل وحاله من جهة اعتدال مزاجه من اعتدال الاعضاء وتركيبه
وصورته فهذه احوال تختلف باختلاف اسبابها فاما هذا ان اخذ حال الولد عمره وسعادته وشقاوته
من طالع ابيه وبالعكس فاسد بعض العقلاء على نبيكم ومحالكم وسيت عليهم ما وهبهم من العقول التي رغبت
بها ورغبوا بها عن مثل ما انتم عليه ٥ قال وزعم بطليموس ان الفلك اذا كان على
شكل ما ذكره في مولد ما وكانت الكواكب في مواضع ذكرها وجب ان يكون الولد ابيض اللون سبطها
وان يجد مولود في بلاد الحبشة والفلك متشكل ذلك الشكل والكواكب في المواضع التي ذكرها
لم يمض ذلك الحكم عليه ومضى على المولود ان كان من الصقالبة او من قرب مزاجه من مزاجهم وزعم ان الفلك
اذا كان على شكل ما ذكره في مولد ما وكانت الكواكب في مواضع ذكرها فان صاحب المولد يزوج اخته
ان كان مصريا وان لم يكن مصريا لم يزوجها وزعم ان الفلك اذا كان على شكل آخر ذكره في مولد
المواليد وكانت الكواكب في موضع يذكرهما تزوج الولد بامه ان كان فارسيا وان لم يكن فارسيا
لم يتزوجها وهذه مناقضة شنيعة لانه ذكر علة ومعلولا يوجد بوجودها ويرتفع بارتفاعها
ثم ذكر انها توجد من غير ان توجد معلولها ٥ قلت ارباب هذا الفن يقولون لا بد من
معرفة الاصول التي يحكم عليها لئلا يغلط الحاكم ويذهب كلامه هدرا ان لم يعرف الاصول وهي
الجنس والشريعة والاخلاق والعادات مما يحتاج المنجم ان يحصلها ثم يحكم عليها ولذلك قال
بطليموس انه يجب على المنجم النظر في صور الابدان وخواص حالات الانفس واخلاق العادات
والسنن قال ويجب على من نظر في هذه الاشياء على المذهب الطبيعي ان ينسب اولا السبب
الاول الصحيح لئلا يغلط بسبب اشباه المواليد فنقول مثلا ان المولود في بلاد الحبش يكون
ابيض اللون سبط الشعر وان المولود في بلاد الروم اسود اللون جعد الشعر لئلا يغلط الذي يحكي

السنن والعادات التي تخص بعض الامم في التناهل فنقول مثلا ان الرجل من اهل ارطاكيا
يتزوج باخته وكان الواجب ان ينسب ذلك الى الفارسي وفي الجملة ينبغي ان ياخذوا حالات الفضايل
الكلي ثم ياخذ حالات القضاء الجزئي ليعلم منها الامر في الزيادة والنقصان وكذلك يجب ضرورة
ان يتقدم في قسمة الازمان اصناف الاسنان الزمانية وموافقها لكل حدث من الاحداث وان
يتعدا مرها لئلا يغلط في وقت من الاوقات في الاعراض العامية البسيطة التي ينظر فيها في المواليد
فنقول ان الطفل باشر الاعمال او يتزوج او يفعل شيئا من الاشياء التي يفعلها من هو اتم سنا
منه وان الشيخ الفاني يولد له او يفعل شيئا من افعال الاحداث وهذا ونحوه يدل على ان الامور
وغيرها انما هي بحسب اختلاف العوايد والسن والبلاد وخواص الانفس واخلاق الانسان
والاغذية وقواها انما فيها ما يؤثر وكذلك الهواء والتربة والملبس وغيرها كل هذه
لها اثر في الاخلاق والاعمال واكثرها العوايد والمربا والمنشا فاحالة هذه الامور على الكواكب
والطبايع والمقارنة والمناظر من الجهل ولهذا اضطر امام المنجمين ومعلمهم الى مراعاة
هذه الامور واخبر ان الحاكم بدون معرفتها والمنسب بها يكون مخطيا وحينئذ فالطالع المعتبر
المؤثر انما هو الطالع العوايد والسن والبلاد وخواص هيات النفوس الانسانية وقوى اغذية
ابدانها وهوائها وتربتها وغير ذلك مما هو مشاهد بالعيان باين في ذلك افلين من الجهل الاعراض
عن هذه الاسباب واحالته على حركات النجوم واجتماعها وافتراقها وتقابلها في تربيع او تثليث او
تسديس بالوجه لكان غايته ان يكون جزء سبب من الاسباب التي تقتضي هذه الاثار ثم ان هذه المقارنات
والمعاوقات والصوارف والعوارض مما لا يحصي المنجم القليل عشر معشاره فاين الحكم بمجرد معرفة
جزء من الاجزاء السبب الا الظن الحدس او التقليد لمن حسن ظنه به حلم كاذب ولهذا كذب المنجم
اضعاف اضعاف ما صدق بلى حتى ان بعض الرافضة واصحاب الكهف وارباب الفراسة والخراصين اكثر
صدقا منهم وما ذاك الا لان المجهول من عمل الانسان وما يعارضه بمنع تاثيرها اكثر من المعلوم
منها فكيف لا يقع الكذب والخطا بل لا يكاد يقع الصدق والصواب الا على سبيل الاتفاق ويف
ونحن لا ننكر ارتباط المسببات باسبابها كما انكره كثير من المتكلمين وكابروا العيان وجحدوا الحقائق
كما انا لا نرضى بهذيانات الاحكاميين ومحالاتهم بل نثبت الاسباب والمسببات والعلل والمعلولات
ونبين مع ذلك بطلان ما يدعونه على علم النجوم وانها هي المدبرة لهذا العالم المسعدة المشقية المحيية
المميتة المعطية العلوم والاعمال والاخلاق والارزاق والآجال وان نظرهم في هذا العلم موجب

لكن علم الغيب ما انفردتم عن سائر الناس وليس في طوائف الناس اقل علما بالغيب منكم بل انتم اجهل
الناس بالغيب على الاطلاق ومن اعتبر حال حذاقكم وعلمائكم واعتمادهم على ملاحم وردية من اخبارات
بعض الكهان ومنامات وفراسات وقصص متوارثة عن اهل الكتاب وغيرهم وتمزج ذلك بتجارب
جعلت مع اقترانات نجومية واتصالات كوكبية تعلم بالحساب حصولها وليس معين مقتضيتها بحصول
تلك الاثار او نظيرها عندها الى امثال ذلك من اسباب علم تعظيمه المعرفة التي قد جربت من الناس منها
مثل ما جربتم فصدقت تارة وكذبت تارة فغاية الحركات النجومية والاتصالات الكوكبية ان تكون كالظل
والاسباب المشاهدة التي تاثيرها موقوفة على انضمام امور اخرى اليها وارتفاع موانع تمنعها تاثيرها
فهي اجزاء اسباب غير مستقلة ولا موجبة هذا لو اقيم على تاثيرها دليل فكيف وليس معكم الا الدعاوى
وتقليد بعضكم بعضا واعتراف حذاقكم بان الذي يجهل من بقية الاسباب المؤثرة ومن الموانع العارضة
اعظم من المعلوم منها باضعاف مضاعفة لا تدخل تحت الوهم فكيف يستقيم لعاقل الحكم بعد هذا وهل
يكون في العالم اكذب منه قال صاحب الرسالة واذا كانت العلل متى تشكل بشكل ما دل
ان كان في مولد مصري دل على انه يزوج اخته فذلك شيء كانت لهم وعادة وان كان في مولد غيره لم
يدل على ذلك ونحن نجد اهل مصر في وقتنا هذا قد زالوا عن تلك العادة وتركوا تلك السنة بدخولهم
في الاسلام والنصرانية واشتغالهم احكامها فيجب ان تسقط هذه الدلالات عن مواليدهم لزوالهم عن
العادة او تكون الدلالة لم توجب ذلك في مولد كل احد منهم غيرهم او تسقط الدلالة وتبطل بزوال
اهل مصر عما كانوا عليه وكذلك جمهور اهل فارس واي ذلك كان فهو دال على قبح المناقضة
وشدة المغالطة وقد رايت وجوه بطليموس يعترض في كتابه المعروف بالاربعة فيحدس على انه تكون
كذا وكذا او يقول فاذا كان كذا وكذا توهمنا انه يكون كذا وكذا قلت الذي صرح به
بطليموس ان علم احكام النجوم بعد استقصاء معرفة ما يسعى معرفته انما هو على جهة الحدس لا العلم
واليقين فمن ذلك قوله هذا وبالجملة فان جميع علم حال هذا العنصر انما يستقيم ان يلحق
على جهة الظن والحدس لا على جهة اليقين وخاصة ما كان مركبا من اشياء كثيرة غير متشابهة قال
شارح كلامه وانما ذهب الى ذلك لان الافعال التي صدرت عن الكواكب انما هي بطريق العرض وانها
لا تفعل بذواتها شيئا والدليل على ذلك قوله في الباب الثاني من المقول الاول من كتاب الاربعة
واذا كان الانسان قد استقصى معرفة بطبايعها قد احرز من الاخبار المتواترة من الاوقات التي يحدث
لها فيها الاشكال وكانت عنده معرفة بطبايعها قد اخذها من الاخبار المتواترة التي تقدمت وان

لم يعلم طبايعها في نفس جواهرها لكن يعلم قواها التي تفعل بها كالعلم بقوة الشمس انها تسخن وكالعلم
بقوة القمر انها ترطب وكذلك يعلم امر قوى ساير الكواكب وكان قويا على معرفة امثال ساير هذه
الاشياء الا على المذهب الطبيعي فقط لكن يعلمه ايضا انه يعلم بجودة الحدس خواص الحال التي تكون
من امتزاج جميع ذلك قال الشارح وبطليموس يرى ان علم الاحكام انما يلحق على جهة
الحدس لا على جهة اليقين قلت ولذلك صرح ارسطاطاليس في اول كتاب السماع الطبيعي انه لا سبيل
الى اليقين بمعرفة تاثير الكواكب فقال لما كانت حال العلم واليقين في جميع السبل التي لها مبادي او اسباب
او استقصات انما يلزم من قبل المعرفة بهذه فاذا لم يعرف على اي وجه تفعل هذه الافاعيل اعني بداتها
او بطريق العرض ولا نعرف ماهيتها وذواتها لم تكن معرفتنا بالكلي تفعل على جهة اليقين وهذا باب من
فرع وهو ما هو عندهم بسواد كتاب ترتيب العلوم واما علم القضاء بالنجوم فقد اختلف فيه اهله اختلافا
شديدا وخرج فيه قوم الى ادعاء ما لا يصح ولا يصدق بالا اتصال له بالامور الطبيعية حتى ادعوا فيه ذلك
ما هو من علم الغيب ومع هذا فلم يوجد منه الى زماننا هذا ان فرغت من المقام كما وجد غيره هذا لفظه
مع جنس فطنته وعدله في العلوم وهذا ابو نصر الفارابي يقول واعلم انك لو قلبت اوضاع المنجمين
فجعلت السعد نحسا والنحس سعدا والحار باردا والبارد حارا والذكر انثى والانثى ذكرا ثم حكمت لكانت احكامك
من جنس احكامهم تصيب تارة وتخطي تارة وهذا ابو علي بن سينا قد اتى في آخر كتاب الشفاء في رد هذا
العلم وابطاله بما هو موجود فيه وقرات بخط [illegible] المنجم وكان زعيمهم في كتاب المقابسات لابي
حيان التوحيدي مناظرة دارت بين جماعة من فضلائهم جمعهم بعض المجالس فذكرتها لخصتها من الاشتغال
بها بل ذكرت مقاصدها قال ابو حيان هذه مناظرة دارت في مجلس ابي سليمان محمد بن طاهر بن بهرام
السجستاني وعنده ابو زكريا الصيمري وابو الفتح النوشجاني وابو محمد العروضي وابو محمد المقدسي
والقومسي وغلام زحل وكل واحد من هولا امام في شانه وفرد في صناعته فقيل في المجلس لم خلا علم النجوم
من الفايدة والثمرة وليس علم من العلوم كذلك فان الطب ليس على هذه الحال ثم ذكرت فايدته والمنفعة
به وكذلك الحساب والنحو والهندسة والصنايع وذكرت منافعها وثمراتها ثم قال السايل وليس
علم النجوم كذلك فان صاحبه اذا استقصى وبلغ الحد الاقصى في معرفة الكواكب وتحصيل سيرها واقترانها (فيها)
ورجوعها ومقابلتها وتربيعها وتثليثها وتسديسها وضروب مزاجها في مواضعها من بروجها واشكالها
ومطالعها ومغاربها ومشارقها ومذاهبها حتى اذا حكم اصاب واذا اصاب حقق واذا
حقق جزم واذا جزم علم فانه لا يستطيع البتة قلب شيء عن شيء ولا صرف شيء عن شيء ولا يبعد حالا

مفتاح دار السعادة

قد دنت ولا نبي بلة قد لنست ولا دنو سعاده قد احمت واطلب اعني امر لا تعذر على ان يحول الاقامه
سفرا ولا الهزيمه ظفرا ولا العقد فلا ولا الابرام نقضا ولا الياس رجا ولا الاجحاف
دركا ولا العدو صديقا ولا الولي عدوا ولا البعيد قريبا ولا القريب بعيدا فكان العالم بالحادث
المساوي في هفاته بعد هذا التعب والنصب وبعد هذا الكد والدأب وبعد هذه الكلفة الشديده
والمعرفه الغليظه هو مستلزم للمقدار مستحيل لما يأتي به الليل والنهار وعادت حاله مع علمه الى
حال الجاهل بهذا العلم الذي انقياده كانقياده واعتياده كاعتياده ولعل توكل الجاهل احسن من توكل
العالم به ورضاه بالجزء المشي وبجانبه من الشر المقوي اقوى واصح رجاء هذا المدل ببحثه وحسابه
وتسويته واصطرلابه ولهذا المعنى قال ابو الحسين النوري ما شاء المنجم كان له اسحاف زحل
وانا اخاف رب زحل وانت ترجو المشتري وانا ارجو رب المشتري وانت تغدو بالاستشارة وانا
اغدو بالاستخارة فلم يستويا وهذا انوشروان وكان من الملوك الافاضل كان لا يرتفع بالنجوم راسا
فقيل له في ذلك فقال صوابه يشبه الحدس وخطاؤه شديد على النفس فمتى اعطى هذا الفاضل
النحرير والحاذق البصير الى هذا الحد والغايه كان علمه عاريا من الثمر خاليا من الفايده حايلا عن
النتيجه بلا عايدة ولا مرجوع وان امرا اوله على ما قررناه واخره على ما ذكرناه لحري ان لا
يشغل الزمان به ولا يوهب العمر له ولا يعار الهم والكد ولا يعاج عليه بوجه ولا سبب هذا ان
كانت الاحكام صحيحة مدركة محققة ومصابة ملحقة معروفة محصلة ولم يكن المذهب على ما زعم
ارباب الكلام والذين يابون تاثير هذه الاجرام العالية الاجسام الناقلة وينفون الوسائط
بينهم والوصايل ويدفعون العوامل والقوابل ثم السؤال فاجاب كل من هؤلاء بما يحتاج
له فقال قايل منهم عن هذا السؤال المهول جوابان احدهما هو زجر عن النظر فيه لان لا يكون
هذا الانسان مع ضعف بحثه واضطراب غريزته وضعف نفسه عدا على ربه متكالا في
غيبه متسلطا على عباده ظانا بانه فيما ياتي من شانه قايم بجده وقدرته وحوله وقوته وتمييزه
وتعلمه وتهجيه وتعريسه فان هذا النمط يحجز الانسان عن الخشوع والخالقه والادعان
لديه ويبعده عن التسليم لمدبره ويحول بينه وبين طرح الكاهل بين يدي من هو امالك له واولى
به واما الجواب الاخر فهو تبري عظيمه على نعم جميه لمن حصل له هذا العلم وذلك انه
لو اطلع عليه وغيب لو وصل اليه لكان بحاله الانسان في المديح والراحه والخير في العاجله
والاجله مغنية مونة هذا الخطب القادح وتغنيه عن تحمل هذا الباب الكادح ما تحمل الفا الفكر

لشرف هذا العلم بدل عسك ما يخفى عليك خفيه وملبوسه بل الله تعالى تقدس اسمه فيما اشتبان
لك معلومه ووضح عندك مظنونه ثم قال اعلم ان العلم به حق ولكن الاصابة بعيده وليس كل بعيد
محالا ولا كل قريب صوابا ولا كل صواب معروفا ولا كل محال موصوفا وانما كان العلم حقا والاجتهاد
فيه مبلغا والقايس فيه صوابا وبذل الشيء دونه محمودا لان الانسان هذا العالم السفلي بذلك العالم
العلوي واتصال هذه الاجسام القابلة بتلك الاجسام الفاعلة واستحالة هذه الصور بحركات
تلك المتحركات المتشاكلة بالوحدة واذا صح هذا الاتصال والتسابك وهذه الحبايل والروابط
التاثير من العلوي وقبول التاثير من السفلي بالمواضع الشعاعيه والمناسبات الشكليه والاحوال الخفيه
والجليه واذا صح التاثير المؤثر وقبوله من القابل صح الاعتبار واستمر القياس وصدق الرصد وتم
الالف واستحكمت العادة واتسعت الحدود واسالت العلل وتعاضدت الشواهد وصار الصواب
غامرا والخطاء معمورا والعلم جوهرا راسخا والظن عرضا زايلا فقيل هل يصح الاحكام ام لا فقال
لا يصح باسرها ولا تبطل من اصلها وذلك بسبب تبيين ذا انعم النظر وبسط الاصغاء وحمد بحق
الغايه بغير متابعة الهوى وايثار التعصب ثم قال الامور الموجودة على ضربين ضرب له الوجود
ولكن ليس الوجود الحق واما الامور الموجودة بالحق فقد اعطت الاخرى نسبة من هذا الوجود الحق واما
الامور الموجودة بالحق فقد اعطت منها حقيقة ذلك فالحاكم بالاعتبار الفاحص عن هذه الاسرار
ان اصاب فبنسبة الوجود الذي هو العالم السفلي من ذلك العالم العلوي وان اخطا فبما في هذا العالم
السفلي مع تبدله في كل حالة واستحالته في كل طرف ولمح مستقبل ذلك العلوي يتحرك شوقا الى كماله وعشقا
لجماله وطلبا للنسبة به وتحقيقا لكل ما امكن من شكله فهو يحق العقل معطي هذا العالم السفلي ما يكون به
مشابها للعالم العلوي ولهذا العقل يعقل الانسان الناقص الكامل ويقبل الكامل من البشر الملك ويقبل
الملك الباري جل وعز وقال اخر انما وجب هذا العقل والنسبة لان وجود هذا العالم وجود
متهافت مستحيل لا صورة له ثابتة ولا شكل دايم ولا هيئة معروفة وكان هذا الوجه فقيرا الى
ما يمده ويسدده فاما مستحيله فهو موجود وثابت مقابل لذلك العالم الموجود الثابت وانما عرض ما عرض
لان احدهما مؤثر والاخر قابل فحق هذه المرتبة ما وجد التواصل وقال اخر قد يفعل مع
هذا كله المنجم اعتبار حركات هذه الاجرام مختلفة لا يعجز عن نظمها وتقويمها وترجيحها وتسييرها
وتفصيل احوالها وتمييز خواصها مع بعد حركة بعضها وبطئها وسرعتها وتوسطها والتفات
صعودها والتباس تفاصيلها وتداخل اشكالها ومن الجملة في هذا الاعتبار ان الله تقدس اسمه يتم بذلك

اعطى الموجود ضربين هو
الوجود

العذر المعقل والعليل الذي لا يبرء والكبير الذي لا يحاول لبعث عنه امر لم يكن في حسبان الخلق ولا
فيما اعلموا فيه القياس والتقدير والتوهم ولهذا نجد هذا الحاذق في صناعته لهذا الملك وهذا
الماهر في عمله لهذا الملك ثم يلتقيان فتكون الدائرة على احدهما مع شدة الوقاع وصدق المصاع هذا
وقد حكم له بالظفر والغلب وقال آخر وهو التوحيدي انما نوكل حال الحاكمين لا صل المائلين لا من جهة
غلط يكون في الحساب ولا من قلة مهارة في العمل ولكن يكون في طالعه ان لا يصيب في ذلك الحكم ويكون في طالع الملك
ان لا يصيب نجحه في تلك الحرب فتقتضي حاله وحال صاحبه يحول بينه وبين الصواب ويكون الآخر مع صحة حسابه وحسن
ادراكه قد يجيء في طالع نفسه وطالع صاحبه ضد ذلك فيقع الامر الواجب ويبطل الآخر الذي ليس بواجب وقد
كان المنجمان في هذا العلم والحساب اعطيا للصناعة حقها ووفيا ما عليهما ووقفا موقفا واحدا على غير مزية
بينه ولا علة قائمة وقال آخر لولا هذه النعمة المدفوعة والغاية المشترطة التي استأثر الله بها لكان
لا يعرض هذا الخطأ مع صحة الحساب ودقة النظر وشدة الغوص وتوخي المطلوب مع غلبة الهوى والميل
الى المحكوم له وهذه النعمة دائرة في امور هذا الخلق فاضلهم وناقصهم ومتوسطهم في دقيقها وجليلها
وصعبها وذلولها ومن كان له في نفسه باعث على التصفح والنظر والتحري والاعتبار وقف على علامات
الله وسلم وحكم بجليله ضرب الله دون هذا العلم بالاسداد وطوى حقايقه عن اكثر العباد وذلك
ان العلم بما سيكون ويحدث ويستقبل علم حلو عند النفس وله موقع عند العقل فلا اصل له وهو يحيي
ان يعلم الغيب ويطلع عليه ويدرك ما سوف يكون في غد ويجد سبيلا اليه ولو دلل السبيل الى هذا الفن
لرايت الناس يهرعون اليه ولا يؤثرون شيئا عليه لان هذا العلم عند الروح ولصوقه بالنفس وعز لم
كل احد به وقسه كل انسان فيه فيتمنعه من الله لم يفتح هذا الباب الا للسعف دونه الغطاء حتى يرتع كل
روضة ويلزم حده ويرغب فيما هو احرى عليه وانفع له اما عاجلا واما آجلا وطوى الله عن الخلق
حقايق الغيب ويريهم شيئا منه وشيئا يسيرا ايتعلقون به لئلا يكون هذا العلم بحرا وصاغيا سائر
العلوم ولا يبلون ما نعار غيره وقال آخر ولولا هذه النعمة التي معها الكاملين واعجزت القادرين
لكان يعجب الخلق من غرايب الحالات وعجايب الحروف وطرايف الاحوال عبثا وشبها وتوهم على الله
لهوا ولعبا فقال آخر وهذا ينجح بمثال وليلين البيان ان يكون في زمانك وبلادك واسع الملك
عظيم الشان بعيد الصيت سابغ الهيبة معروفا بالحلم مشهورا بالحزم يضع الخير في مواضعه ويوقع
الشر في مواقعه عنده جزا كل سيئة وثواب كل حسنة قد رتب لبريده اصحاب الاولياء وكذلك نصب لبحابه
اموالا فوق الناس بها ولذلك ولى عماله ارضه افضل الناس بها وفي آخر كاتبه واخذ يدونه

واخر بنيابته

وآخر بنيابته فاذا نظرت الى مملكته وجدته موزرا بسداد الراي ومحمودا للتدبير واوليائه
حواليه وحاشيته بين يديه وكل يحن الى ما هو منوط به ويستقصي طاقته فيه ويبذل وسعه والملك يامر وينهى
ويصدر ويورد ويثني ويعاقب وقد علم صغير اوليائه وكبيرهم ووضيع رعاياه وشريفهم ونبيه
الناس وخاملهم ان الامر الذي يتعلق بكذا وكذا اصدره الملك الى كاتبه لانه من جنس الكتابة
وعلايقها وما يدخل في شرايطها ووثايقها والامر الآخر صدر الى صاحب بريده لانه من احكام
البريد وفنونه والامر الآخر الذي الى صاحب المعونة لانه من جنس ما هو مرتب له ومنصوب من اجله والحديث
الآخر صدر الى القاضي لانه من باب الدين والحلم والفضل وكل هذا اسلم الى الملك لا يفتات عليه في شيء منها
ولا يستبد بشيء دونه فالاحوال على هذا كلها جارية على اذلالها وقواعدها في مجاريها لا يرد شيء منها الى غير
شكله ولا يرتقي الى غير طبقته فلو وقف حال له من الحزم نصيب ومن اليقظة قسط على هذا الملك المحتشم
وتصفح ابوابه بابا بابا وحالا حالا وحلل شيئا شيئا ورفع سجفا سجفا لامكنه ان يعلم بما شمر لهذا النظر
ومبر له هذا القياس واوقعه على هذا الحدس ما يشغله هذا الملك غدا وما يتقدم به الى شهر
وما يكاد يكون منه الى سنة وسنين لانه يعلي الاحوال قبلنا ويقايس بينها ويلتقط الفاظ الملك ولحظاته
واشاراته وحركاته ويقول في بعضها رايت الملك يفعل كذا وكذا ويفعل كذا وكذا وهذا يدل على
كذا وكذا وانما اجراه هذه الاجراء على هذا الحكم من البناء قد ملك لحظ الملك ولفظه وحركته وسكونه
وتعريضه وتصريحه وجده وهزله وشكله وسجيته وسعده واسترساله ووجومه ونشاطه و
وانقباضه وانبساطه وغضبه ورضاه ثم يجيش في نفس هذا الملك هاجس ويخطر بباله خاطر
فيريد ان يعمل عملا او يثير اثرا او يحدث حالا لا يقف عليها اولياؤه ولا المطيعون له ولا
المختصون بقوله ولا المتعلقون بحاله ولا احد من اعدائه والمسعفين لامره والمحصين لانفاسه لا
ادري كيف فتحه وافترحه لاني متى تقدمت في ذلك الى كل من يلوذ بي ويطيف بي حتى كان الامر في ذلك
نظير جميع اموري وهذا هو القياس الذي يلزمني بحسبه ويجب علي ان لا ينقض فيه فيقدح له الفكر ان ما
ان يسعى انه ذاهب للصيد ذات يوم فيقدم بذلك وينوعه فاخذ اصحابه وخاصته في اهبة ذلك واعدا
الاله فاذا تكامل ذلك له اصحر للصيد ونعل في البيداء وحمم على ما يلوح له وامعن وراءه وركض
خلف جواده ونهى من معه ان يتبعه حتى اذا وغل في تلك الفجاج الخاوية والمدارج المتشابهة
وتباعد عن متن الجادة وخرق المحجة صادف انسانا فوقف وحاوره وفاوضه ثم وجده خصيفا
بحجته سديدا في رايه واقعا فقال له الملك خبرني قال نعم وهل الخبر الا في وعدي والامعي الذي

د

الى ما لك وحلي في ذلك وقال له ان لو اوقع عليك الحكم لك ملك هذا الاقليم فلا تزع واهدا
قال السعادة متصل لك والجد اطلعك علي فيقول له الملك اني اريد ان اصطلعك لا ريب في نفسي
وابلغ بك ان بلغت لي في ذلك اريد ان تكون عيناً لي وصاحباً لي نصوحاً واطوي عن سايح فوادك
فضلاً عن غيره فاذا بلغ منه التوثقة والتوكيد لقي اليه ما يامره ويحثه على السعي فيه وازاح علله
في حسبي ما يتعلق المراد به ثم يثني عنان دابته الى جهة عسكره واوليايه ويحق بهم فيقضي وطره ثم عاد الى
شربه ولبس عند احد من رهطه وبطانته وغاشيته وخاصته وعامته علم بما كان الملبوس الى ذلك الانسان
فبينما الناس على اشكالهم وعقلائهم اذا اصبحوا ذات يوم عن حادث عظيم وخطب جسيم وشان هايل وكل
يقول عند ذلك ما اعجب هذا من يفعل هذا اي شيء هذا هذا صاحب البريد ليس عنده منه اثر وهذا
صاحب المعونة وهو عن الخبر بمعزل وهذا الوزير الاكبر وهو متحير وهذا القاضي وهو متفكر وهذا
حاجبه وهو ذاهل وكلهم عن الامر الذي دهم غافل وقد قضى الملك ما يريد واردك حاجته وطلب
بغيته ونال غرضه فكذلك ينظر المنجم الى زحل والمشتري والمريخ والشمس والقمر وعطارد والزهرة
والى البروج وطبايعها والدرج والدقايق ومقاطعها والهيلاج والكدخداه والى جميع ما داناها او
وقاربه وكان له نتيجة وثمرة فيحسب ويمزج ويرسم ويتقلب على اشياء كثيرة من ساير الكواكب الى حركة
بطيه وانوار مطويه فيسعى فيما اهمله واغفله واضرب عنه ولم يتسع له ما يملك على جنسه وعقله
وفكره ورويته حتى لا يدري من اين اتي ومن اين دهي وكيف اعترض على الامر وانسد دونه المطلب
وفات المطلوب وعزب عنه الراي هذا ولا خطا له في الحساب ولا نقص في قصد الحق وهذا الى
بلا دما سدو وحده في الامور ويعلم انه مالك الدهور ومدبر الخلايق وصاحب الدواعي والعلايق
والقايم على كل نفس والحاضر عند كل نفس وانه اذا شاء نفع واذا شاء ضر واذا شاء عافا واذا شاء
اسقم واذا شاء اغنى واذا شاء افقر واذا شاء احيا واذا شاء امات وانه كاشف الكربات مغيث ذوي اللهفات
قاضي الحاجات مجيب الدعوات ليس فوق يده يد وهو الاحد الصمد علي الابد والسرمد وقال
اخر هذه الامور وان كانت منوطة بهذه العلويات مربوطة بالفلكيات عنها تحدث ومن جهتها تنبت
فان عرضها مما لا يتحقق ان يستلقى منها الا على جهة التقريب ومثال ذلك ملك له سلطان واسع
ونعمة جمة فهو يفرد كل احد بما هو لايق به وبما هو ناهض فيه فيولي بيت المال صالحاً اميناً كافياً
شهماً يعرف على بين ويخرج على يده ثم ان هذا الملك قد يضع في هذه الحال انسانا لا ... الخاين به وقد
يخرج منها شيئاً لا يتفق الخازن عليه ويكون هذا منه دليلاً على ملكه واستبداده وعلى تصرفه وقدرته

وقال اخر لما كان صاحب علم النجوم يريد ان يقف على احداث الزمان ومستقبل الوقت من خير وشر
وخصب وجدب وسعادة ونحس وولاية وعزل ومقام وسفر وغم وفرح وفقر ويسار ومحبة
وبغض وجد وعدم ووجدان وعافية وسقم والفة وشتات ودنيا ودين وثواب واصابة واخفاق
وحياة وممات وهو اشيا في الاصل لا تتصل بالطبع وكانه بالعرض مع هذه الحال
المحوطة بالنسج الموروقة بالطي قد بارى باريه ونازع ربه ووسع غيبه وتحلل حلمه وعارض ملكه وحرمه
الله فايدة هذا العلم وصرفه عن الانتفاع به والاستمتاع بتجربته واضافة الى من لا يحيط بشي منه ولا يحل اتي
فيه ونظمه في باب الفقر والقهر وجعل غاية سعيه فيه الخيبة ونهاية علمه به الحيرة وسلط عليه في صناعته
الظن والحدس والحيلة والرزق والكذب والخلل ولو شئت لذكرت لك من ذلك صدراً وهو مثبوت في
الكتب مشهور في المجالس ومتداول بين الناس فكذلك واشباهه حط رتبته ورده على عقبه ليعلم انه يعلم الا
ما علم وانه ليس له ان يتعاطى بما علم على ما جهل فان الله سبحانه لا شريك له في غيبه ولا وزير له في ربوبيته
وانه يونس بالعلم ليطاع ويعبد ويوحش بالجهل ليفزع اليه ويقصد عز ربنا وجل الهنا وتقدس مشاراً
اليه وتعالى معتمداً عليه وقال اخر وهو العروضي قد يقوى هذا العلم في بعض الدهر حتى تشغف
به ويدان يتعلمه بقوة سماويه وشكل فلكي فيكثر الاستنباط والبحث ويسلم العبارة والفكر فيغلب الاصابة
حتى يزول الخطا وقد يضعف هذا العلم في بعض الدهر فيكثر الخطا فيه بشكل اخر حتى يسقط النظر فيه
ويحرم البحث عنه ويكون الذي حاضر للطلب والحلم به وقد يعتدل الامر في دهر اخر حتى يكون الخطا
ذلك الصواب والصواب قدر الخطا ويكون الدواعي والصواب متكافية ويكون الذي لا يحث عليه كل الحث
ولا يحظر على طالبه كل الحظر وقال وهذه اذا صح تعلق الامر كله بما يتصل بهذا العالم السفلي من ذلك العالم
العلوي فاذا الصواب والخطا محمولان على القوى المنسية والادوار السابقة والاثار الدايبة والعلل
الموجبة والاسباب المتوافية وقال اخر ايها القوم اختصروا الكلام وقربوا البعيد
فان الاطالة مصدر الفايدة مظلم الفهم والفطنة هل تصح الاحكام قال غلام زحل ليس عن هذا
جواب سبب على كل وجه فقيل لم يترد ذلك قال لان صحتها وبطلانها يتعلقان باثار الفلك وقد
تقتضي شكل الفلك في زمان ان لا يصح منها شي وان يغيض على قايفها ويبلغ الى اعماقها وقد يزول ذلك الشكل
في وقت اخر الى ان يكثر الصواب فيها والخطا ويتقاربان وقد وقف الامر على هذا الحد ليس على قضاء ولم
يوثق بجوابه قال اخر ان الله تعالى وتقدس اخترع هذا العالم وزينه ورتبه وحسنه ووشحه
... يقومه واظهر علم ... وابطن في اثنائه الحكمة وجعله بما كان العقول التي تبحثه ومعرفته

وجاء بكل ما جاش النفوس الى علمه وتقلبه والتعجب من عاجيبه واسمع الارواح بمحاسنه واودعه
امورا واسجره اسرارا ثم حرك الالباب عليها حتى اسبارها ولقطتها واجتبها وعشقها ودارت عليها الاتها
عرفت بعارها وخالتها ولها هيها وواضعها وصانعها وحافظها وكافلها ثم انه تعالى مزج بعض ما فيه
ببعض وركب بعضه على بعض ونسج بعضه في بعض وامد بعضه من بعض واحال بعضه على بعض
بوسايط من اشخاص واجناس وطبايع وانفس وعلوم وعقول وتصرف في ملكه بقدرته وجوده وحكمته
لا بمعنى الفضل ولا معدوم الاختيار ولا مردود الحكم ولا مجحود الذات ولا محدود الصفات سبحانه وهو مع
هذا كله لم يستفد شيا ولم ينتفع بشي بل استفاد منه كل شي وانتفع به كل شي وبلغ غاية كل شي بحسب
مادته المنقادة وصورته المعتادة ولم يستفد منه شي وثبت به كل شي فهو الفاعل القادر الجواد الواهب
والمنيل المتفضل والاول السابق فلما كان الباحث عن العالم العلوي يتصفح سكانه ومعرفة اثاره
ومواقعه واسراره متعرضا لان يكون متشبها لباريه مناسبا لربه بهذا الوجه المعروف استحال
ان يستفيد خالقه بفعله ليس بعده لصورته وحكمه لذمه وكليته من منه وصفته عادت عليه وهيآته تعليه
وهذه حال ذا فطن لها واشرف ببصيرته نابيه عليها وتحقق بحقيقتها وترقى للحس سبيل ما فيها علم
اضطرارا وعقليا انها اجل واعلا وانفس واسمى وادوم وابقى من جميع فوايد سائر العلوم التي
جاوزها اولئك العالمون لان اولئك عملوا فوايد علومهم فيما حفظ عليهم حد الانسان وخلقه
وعادته وخلقه وشهوته وراحته في اجتلاب نفع ودفع ضرر ونقصت رتبتهم عن مشابهته ومناسبته
والتشبه بخاصته والتحلي بحليته ولذلك جل الله نقصهم في علمهم بفوايد الوهيه وسائغ خيرها فاما من اراد
معرفة هذه الخفايا والمسائل من هذه الاجرام والانوار على ما هيات له وبطنت عما هو حري جدير ان
يعرى من جميع ما وجد صاحب كل علم في علم المرافق والمنافع ويفرد بالحكم من بها على ما هي عليه غير
مستفيد بذلك فايدة لا جدوى وهذه الطبقة من بعد من وقف عليها حق الوقوف ونقل حق
النقل فان المدرك لها اجل من كل ما يثبت وان عن الاذهان به صارت الاهيه وجسمه استحالت روحانيه
وطينيه انقلبت نوريه ومركب عاد بسيطا وجزويا استحال كليا وهذا امر قلما اهتدي اليه وثبته
عليه وقد كان اخر وهو ابو سليمن المنطقي وقد سالة ابو حيان تلميذه عن هذه الاجوبه وما فيها من
حق وباطل ان ههنا انفسا خبيثة وعقولا رديه ومعارف خسيسة لا يجوز لاربابها ان يشتغلوا بحج
الحكمه او يتطاولوا الى غرايب الفلسفه والتي هي دون اجلهم دهو جو فاما الانفس التي قبلها الحكمه وبلغتها
العلم وعدتها الفضايل وعدها الحقايق وذخرها الخيرات وعادتها المكارم وهمتها المعالي فان

النبي

التي لم يوجه اليها والعبث لم يوقع عليها احد فيكون في ذلك وقد بان بما تكرر من القول ان فايده هذا
العلم اجل فايده وثمرته احلى ثمره ونتيجته اشرف نتيجه فليكن لك هذا كله عن سوء الظن وكان ما لك فيما وقع
فيه القول وطال بين هولاء السادة الجماحة في العلم والفهم والبيان والنصح انتهت الحكايه فليتامل
راغم الله عنا بالعقل والعلم والايمان وصابر عن تقليد هولاء واما الهم من اهل الحيره والضلال ما في هذه
المحاوره وما انطوت عليه من اعترافهم بعايه علمهم ومستقر اقدامهم فيه وما حكموا به على انفسهم من مقتضى حكم
الله تعالى فيهم ان سلبهم ثمرات علوم الناس وفوايدها وان يلبسوهم لباس الخيبه وقهر الناس لهم واذلا
اباهم وان يجعل نصيب كل احد من العلم والسعاده فوق نصيبهم وان يجعل دونهم من ابواب الكرب والطرد
والدرك وهو اخبث مكاسب العالم ومكسب البغايا وارباب المواخير خير من مكاسب هولاء لانها
كسبوها بذنوب وشهوات وهولاء اكتسبوا ما اكتسبوه بالكذب على الله وادعاء ما يعلمون هم كذب انفسهم
فيه والعجب شهادتهم على انفسهم لمن حكم الله سبحانه اقتضت ذلك فيهم لتعاطيهم مشاركته في غيبه والاطلاع
على اسرار مملكته وتعديهم طور العبوديه التي هي سمتهم الى طور الربوبيه الذي لم يجعل لاحد سبيلا اليه
فاقتضت حكمة العزيز الحكيم ان عاملهم بنقيض قصودهم وعكس مراداتهم وجعل كل احد دونهم في كل مله ونحله
الناس مع اللسان العام والخاص لهم باكذب الناس فانهم هم الزنادقة الدهريه اعدا الرسل وسوس الملك
وان طالعهم على حسن الظن بهم ويعتد باحكامهم في حركاته وسكناته وتدبيره من طالع والملك والولايه
المسوس بهم اذل ملك وافلهم لشي من تجارب الامم واخبار الدول والوزرا وغيرهم معدن من العلم بهذا
ما ليس عند غيره ولهذا الملوك والخلفا والوزرا الذين لهم قبول في العالم وصيت ولسان
صدق هم اعدا هولا الزنادقه كالمنصور والرشيد والمهدي والخلفا بني اميه وكالملوك المويدين
في الاسلام قديما وحديثا كانوا اشد الناس اعداء لهولا عن ابوابهم ولم يقم لهم سوق في عهدهم الا عند
اشباههم ونظرايهم من كل منافق مستتر بالاسلام او جاهل متورط في الجهل او ناقص العقل والدين فهولا
المذكورون في هذه المحاوره لما صححوا وخلا بعضهم ببعض ولم يمكنهم ان يعتمدوا من التلبيس والكذب والزرق
مع بعضهم بعضا ما يعتمدونه مع غيرهم تكلموا بما عندهم في ذلك من الاعتراف بالجهل وان الامر انما هو
حدس وظن وزرق وان احوال العالم العلوي اجل واعظم من ان يدخل تحت معارفهم وكان
يتفيران عقولهم وان جهلهم بذلك يوجب ولا يبيح جهلهم بالاحكام وانهم لا وثوق لهم بشي مما فيه
يجوز ان يشكل ليقضي بطلانه بحسب الاحكام ويشكل يكون بطلانها وصحتها بالنسبة اليه على
السوا وابو اليسر هم يعلم ان شتان هذا الشكل ولا يوقف حصوله فانه ليس جاريا على قانون مضبوط ولا

يفتح

لهم

بانهم هم

على حساب معروف ومع هذا فكيف ينبغي للعاقل الوثوق بشيء من علم احكامهم وهذه شهادة فضلائهم
وائمتهم ولو ان خصومهم الذين لا يشاركونهم في صناعتهم قالوا هذا القول لم يكن مقبولا لقبوله منهم
والحمد لله الذي اشهد اهل العلم والايمان جهل هؤلاء وحيرتهم وضلالهم وكذبهم وافتراهم بشهادتهم
على نفوسهم وعلى صناعتهم وان سعادة كل ذي علم بعلمه وكل ذي صناعة بصناعته اعظم استفادتهم
بعلمهم وان احدا منهم لا يمكنه ان يعيش الا في كنف من لم يحظ من هذا العلم بشيء ويحظ من هو اجهل
الناس به ومن العجب قولهم ان طالع احد الملكين المتغالبين قد يكون مقتضيا ان لا يصيب منجمه في تلك
الحرب وطالع المنجم مقتضي لخطائه في ذلك الحكم وطالع خصمه ومنجمه بالضد فليعجب ذو اللب من هذا الهذيان
وتهافته فاذا كان الطالع مقتضيا ان لا يصيب المنجم في تلك الحرب وقد اعطى الحساب والحكم حقه
عند ارباب الفن بحيث يشهد كل واحد منهم ان الحكم ما حكم به فليس هذا الا الدليل على بطلان الوثوق
بالطالع وان الحكم به حكم بغير علم وحكم بما يجري كذبه بما في الوجود ومن العجب من هذا الطالع الصادق المصيب
المخطي والعجب من هذا ان هذا الطالع بعينه يكون قد حكم لظفر عدو وهذا علم منجموا نوق الفضا والقدر
ذلك الطالع وذلك الحكم فيكون احد المنجمين قد اصاب لملكه طالعا وحكما والاخر قد اخطأ لملكه
وقد حكما بطالع واحد والعجب من هذا كله شكل وحصول طالع سعد فيه باتفاق ملايكم فيحدث معه
من علو كلمة من لا تعاونه ومن لا تعدونه وظهورهم واستيلائهم على المملكة والرياسة والعز والجاه وتحكم
بتهلكم وعيبكم وابدائه جهلكم وزندقتكم والحادكم تحاجون ان تنضموا اليهم وتعتصموا بحبلهم وتترسوا
بهم وتقولون لهم بالسنتكم ما سطوي قلوبكم على خلافه مما لو اظهرتموه لكسر حصايد شوكهم حاصر تم حصايد
السنتهم فاي سعد في هذا الطالع لعمري لامرئ خير فيه وليت شعري كيف لم يوجب لكم هذا الطالع
بارقة من سعادة او لا بحار من عز وقبول ولكن هذه حكمة رب الطالع ومدبر الفلك وما حواه ومسخر الكواكب
ومجريها على ما يشاء سبحانه ان جعلكم كالذر بل اذل منهم تحت قهر عبيده وجعل تمام سعادتهم من كل خير
وعلم ورياسة وجاه او فوز بنيابكم وسوف ترونهم في العالم اعمر بيوتكم بل خرب بيوتكم بايديهم فلا سعيد
منهايت المأمل للانضمام اليهم والانتماء الى شريعتهم وملتهم وهذا شان العز الحكيم في الكذابين
عليه قال تعالى ان الذين اتخذوا العجل سينالهم غضب من ربهم وذلة في الحياة الدنيا وكذلك نجزي
المفترين قال ابو قلابة هي لكل مفتر من هذه الامة الى يوم القيمة وهذه المحاورة التي
جرت بين اصحاب هذا المنجم من عاية ما لم [illegible] ان يقوله ولا يتصل [illegible] ومع
هذا فقد رايت حاصلها [illegible] لو علموا ان هذه الكلمات سعد [illegible]

الايمان لم ينطقوا منها ببنت شفه ويابى الله ان يفضح المفتري الكذاب ويسطعه بما يبين باطله
قال صاحب الرسالة وذكر جمل من احتجاجهم والاحتجاج عليهم من ذكر ما يستدلون به على ان
الكواكب تفعل في هذا العالم ولها دلالة على ما يحدث فيه انهم امتحنوا اعلاما لبدء صححوا طوالعها وجماعة
مسايل راعوها فوجدوا القضية في جميع ذلك صادقة فدلهم ذلك على ان الاصول التي عملوا عليها
صحيحة وقال لهم اذا كان ما يدعونه من هذا دليل على صحة الاحكام فما الفصل بينكم وبين من رد
الدليل على بطلان الاحكام انا امتحنا مواليد صححنا طوالعها ومسايل بعدنا اجوالها فوجدنا جميعها باطلا
ولم يصح الحكم في شيء منها فان قالوا انما يكون هذا الجوار الغلط على المنجم الذي عملها قيل لهم فما تنكرون
من ان يكون صدق المنجم في حكمه باتفاق وتخمين كاخراج الزوج والفرد وصدق الحزر في الوزن
والكيل والذرع والعدد واذا كانت الدلالة على صحة مقالكم صدقكم في بعض احكامكم فالدلالة
على بطلانها كذبكم في بعضها فان قالوا ليس ما قلناه تخمينا لانا انما نحكم على اصول موضوعة في كتب القدماء
قيل لهم لسنا نشك في انكم تنظرون في الكتب وتصدرون عن تقليدكم وما يقع من الصدق فانما يقع بحسب الاتفاق ٤٤ع
والذي حصلتم عليه هو الحدس والتخمين بحسب في الكتب ومما يستدل به من ينتسب الى الاسلام منهم تصحيح
دلالة النجوم قوله تعالى فنظر نظرة في النجوم فقال اني سقيم والحجة في هذا انه لا يرى ابراهيم
عليه الصلاة والسلام انما قال هذا الكلام لقومه عن نفسه الا ترى انه عز وجل قال بعد فتولوا عنه
مدبرين فراغ الى آلهتهم فبين تبارك وتعالى انه انما قال ذلك ليدفعهم به لما كان عزم عليه من امر الاصنام
وليس يحتاج احد الى معرفة الصحيح هو ام سقيم من النجوم لان ذلك يوجد حسا ويعلم ضرورة ولا
يحتاج فيه الى الاستدلال ويحث قلت قد احتج لهم بغير هذه الحجة فذكرها وبين
بطلان استدلالهم بها وسائر الباطل منها قال ابو عبد الله الرازي اعلم ان المستدل لهذا العلم
احتجوا من كتاب الله بآيات احدها الايات الدالة على تعظيم هذه الكواكب فمنها قوله تعالى فلا اقسم
بالخنس الجوار الكنس واكثر المفسرين على ان المراد هو الكواكب التي تصير راجعة تارة ومستقيمة
اخرى ومنها قوله تعالى فلا اقسم بمواقع النجوم وانه لقسم لو تعلمون عظيم وقد صرح تعالى
بتعظيم هذا القسم وذلك يدل على غاية جلالة مواقع النجوم ونهاية شرفها ومنها قوله تعالى والسماء
والطارق وما ادراك ما الطارق النجم الثاقب قال ابن عباس رضي الله عنهما الثاقب هو زحل
لانه يثقب بنوره [illegible] الشبع ومنها انه تعالى بين الهيته بكون هذه الكواكب
[illegible] والشمس والقمر والنجوم مسخرات بامره الا له الخلق والامر تبارك الله رب

العالم النوع الثاني الآيات الدالة على أن لها تأثيرا في هذا العالم كقوله تعالى فالمدبرات أمرا وقوله
تعالى فالمقسمات أمرا قال بعضهم المراد هذه الكواكب النوع الثالث الآيات الدالة على أن
في الأيام ما يكون نحسا كقوله تعالى في أيام نحسات وقوله تعالى في يوم نحس مستمر النوع الرابع
الآيات الدالة على أنه تعالى وضع حركات هذه الأجرام على وجه ينتفع بها في مصالح هذا العالم قال
هو الذي جعل الشمس ضياء والقمر نورا وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب ما خلق الله ذلك
إلا بالحق وقال تعالى تبارك الذي جعل في السماء بروجا وجعل فيها سراجا وقمرا منيرا النوع
الخامس أنه تعالى حكى عن إبرهيم أنه تمسك بعلم النجوم قال فنظر نظرة في النجوم فقال إني سقيم النوع
السادس أنه تعالى قال لخلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس ولكن أكثر الناس لا يعلمون ولا
يكون المراد منه كبر الجثة لأن كل أحد يعلم ذلك فوجب أن يكون المراد كبر القدر والشرف وقال
تعالى ويتفكرون في خلق السموات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلا ولا يجوز أن يكون المراد أنه تعالى
خلقها ليستدل بتركيبها وتأليفها على وجود الصانع لأن هذا القدر حاصل في تركيب البقة والبعوضة
وفي حصول الحيوة في بنية الحيوانات على وجود الصانع أقوى من دلالة تركيب الأجرام الفلكية على وجود
الصانع لأن الحيوة لا يقدر عليها أحد إلا الله أما تركيب الأجسام وتأليفها فقد يقدر على جنسه غير الله تعالى فلما
كان هذا النوع من الحكمة حاصلا في غير الأفلاك ثم أنه تعالى خصها بهذا التشريف وهو قوله تعالى ربنا ما
خلقت هذا باطلا علمنا أن له تعالى في تخليقها أسرارا عالية وحكما بالغة تتقاصر عقول البشر عن إدراكها
ويقرب من هذا قوله تعالى وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلا ذلك ظن الذين كفروا فويل للذين
كفروا من النار ولا يجوز أن يكون المراد أنه تعالى خلقها على وجه يمكن الاستدلال بها على وجود الصانع الحكيم لأن
كونها دالة على الافتقار إلى الصانع أمر ثابت لها لذواتها لأن كل متحيز فإنه محدث وكل محدث فإنه مفتقر
إلى الفاعل فثبت أن دلالة المتحيزات على وجود الفاعل أمر ثابت لها لذواتها وأعيانها وما كان كذلك
لم يكن بسبب الفعل والجعل فلم يمكن حمل قوله تعالى وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلا على هذا الوجه
فوجب حمله على الوجه الذي ذكرناه النوع السابع روي أن عمر بن الحسام كان يقرأ كتاب المجسطي
على أستاذه فدخل عليهم واحد من أصحاب المتفقهة فقال لهم ماذا تقرأون فقال عمر بن الحسام نحن في تفسير
آية من كتاب الله أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها وما لها من فروج فنحن ننظر كيف خلق السماء
وكيف بناها وكيف صانها عن الفروج النوع الثامن أن إبرهيم عليه الصلاة والسلام استدل
على إثبات الصانع تعالى بقوله ربي الذي يحيي ويميت فقال له نمرود [illegible]

الطبائع والعناصر أولا بواسطة هذه الأشياء فإن ادعيت الأول فذلك مما لا يجده البتة لأن
كل ما يحدث في هذا العالم فإنما يحدث بواسطة أحوال العناصر الأربعة والحركات الفلكية
وإن ادعيت الثاني فمثل هذا الإحياء والإماتة حاصل مني ومن كل أحد فإن الرجل قد يكون سببا
لحدوث الولد لكن بواسطة مزج الطبائع وتحريك الأجرام الفلكية وكذلك قد يميت بهذه الوسائط بط
وهذا هو المراد من قوله تعالى حكاية عن الخصم أنا أحيي وأميت ثم إن إبرهيم عليه الصلاة والسلام أجاب
عن هذا السؤال بقوله فإن الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب يعني هب أنه سبحانه إنما يحدث
حوادث هذا العالم بواسطة الحركات الفلكية لكنه تعالى هو المبدأ للحركات الفلكية لأن تلك الحركات
لا بد لها من سبب ولا سبب لها سوى قدرة الله تعالى فثبت أن حوادث هذا العالم وإن سلمنا أنها
إنما حصلت بواسطة حركات الفلكية لكنه لما كان المدبر لتلك الحركات الفلكية هو الله تعالى كان
الكل منه بخلاف الواحد منا فإنا وإن قدرنا على الإحياء والإماتة بواسطة الطبائع وحركات الأفلاك
إلا أن حركات الأفلاك ليست منا بدليل أنا لا نقدر على تحريكها على خلاف التحريك الإلهي وظهر الفرق
وهذا هو المراد من قول إبرهيم عليه الصلاة والسلام فإن الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب
يعني هب أن هذه الحوادث في هذا العالم حصلت بحركة الشمس من المشرق إلا أن هذه الحركة من الله لأن
كل جسم متحرك فلا بد له من محرك وذلك المحرك ليس أنت ولا أنا فلم لا تحركها من المغرب فثبت
أن اعتماد إبرهيم الخليل عليه أفضل الصلاة والسلام في التعويل على الدليل في معرفة ثبوت الصانع على الدلائل
الفلكية وأنه ما نازع الخصم في كون هذه الحوادث السفلية مرتبطة بالحركات الفلكية واعلم أنك إذا
عرفت نهج الكلام في هذا الباب علمت أن القرآن مملو من تعظيم الأجرام الفلكية وتشريف الكرات
الكوكبية وأما الأخبار فكثيرة منها ما روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه نهى عند قضاء الحاجة
عن استقبال الشمس والقمر واستدبارهما ومنها أنه لما مات ولده إبرهيم انكسفت الشمس ثم إن الناس
قالوا إنما انكسفت الشمس لموت إبرهيم فقال إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله لا ينكسفان لموت
أحد ولا لحياته فإذا رأيتم ذلك فافزعوا إلى الصلاة ومنها ما روى ابن مسعود رضي الله عنه
أن النبي صلى الله عليه وسلم قال إذا ذكر القدر فأمسكوا وإذا ذكر أصحابي فأمسكوا وإذا ذكر
النجوم فأمسكوا ومن الناس من يروي أنه صلى الله عليه وسلم قال لا تسافروا والقمر في العقرب
و[illegible] رضي الله عنه وإن كان المحدثون لا يقبلونه وأما الآثار فكثيرة منها
[illegible] أن رجلا أتاه فقال إني أريد الخروج في تجارة لي وكان ذلك في

بحال الشهر فقال تريد أن يمحق الله تجارتك استقبل هلال الشهر بالخروج وعن عكرمة رضي الله عنه
أن يهوديًا منجمًا قال لابن عباس رضي الله عنهما ويحك تخبر الناس بما لا تدري فقال اليهودي
إن لك ابنًا وهو في المكتب ويحم غدًا محمومًا ويموت في اليوم العاشر منه قال ابن عباس رضي الله عنهما
ومتى تموت أنت قال في رأس السنة ثم قال لابن عباس لا تموت أنت حتى تعمى ثم جاء ابن ابن عباس
وهو محموم ومات في العاشر ومات اليهودي في رأس الحول ولم يمت ابن عباس حتى ذهب وعن
الشعبي قال قال أبو الدرداء رضي الله عنه والله لقد فارقنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وتركنا والطائر
يطير بجناحيه إلا ونحن نعرف منه علمًا وليست الكواكب موكلة بالفناء ولا الصلاح ولكن فيها دلائل
بعض الحوادث يعرف ذلك بالتجربة وجاء في الآثار أن أول من أعطي هذا العلم آدم صلى الله عليه وسلم
وذلك أنه عاش حتى أدرك من ذريته أربعين ألف أهل بيت وتفرقوا عنه في الأرض وكان يغتم بخفاء
خبرهم عليه فأكرمه الله تعالى بهذا العلم وكان إذا أراد أن يعرف حال أحدهم حسب له بهذا الحساب
فيقف على حالته وعن ميمون بن مهران أنه قال إياكم والتكذيب بالنجوم فإنه علم من علم النبوة وعنه
أيضًا أنه قال ثلاث ارفضوهن لا تنازعوا أهل القدر ولا تذكروا أصحاب نبيكم إلا بخير وإياكم
والتكذيب بالنجوم فإنه من علم النبوة وروي أن الشافعي رضي الله عنه كان عالمًا بالنجوم وجاء لبعض
جيرانه ولد فحكم له الشافعي أن هذا الولد ينبغي أن يكون على العضو الفلاني منه خال صفته كذا وكذا فوجد
الأمر كما قال وأيضًا أنه تعالى حكى عن فرعون أنه كان يذبح أبناء بني إسرائيل ويستحيي نساءهم فالمفسرون
قالوا ذلك إنما كان لأن المنجمين أخبروه بأنه يجيء ولد من بني إسرائيل ويكون هلاكه على يده وهذه الرواية
ذكرها محمد بن إسحاق وغيره وهذا يدل على اعتراف الناس قديمًا وحديثًا بعلم النجوم وأما المعقول
فهو أن هذا علم ما خلت عنه ملة من الملل ولا أمة من الأمم ولا يعرف تاريخ من التواريخ القديمة والحديثة
إلا وكان أهل ذلك الزمان مشتغلين بهذا العلم ومعولين عليه في معرفة المصالح ولو كان هذا العلم فاسدًا
بالكلية لاستحال إطباق أهل المشرق والمغرب من أول بناء العالم إلى آخره عليه وقال بطليموس
في حجة بعض الناس يعيبون هذا العلم وذلك العيب إنما حصل من وجوه الأول عجزهم عن معرفة حقيقة مواضع
الكواكب بدقائقها وثوانيها وذلك أن الآلات الرصدية لا تسلم عن مساحات لا يضبطها الحس لأجل قلتها
في الآلات الرصدية لكنها وإن قلت في هذه الآلات إلا أنها في الأجرام الفلكية كبيرة فإذا أسندت الأرصاد
حصل بسبب تلك المساحات تفاوت عظيم في مواضع الكواكب الثاني أن هذا العلم مبني على معرفة
الدلائل الفلكية وتلك الدلائل لا تحصل إلا بمعرفة أحوال الكواكب وقوتها بحسب [illegible]

تكون متعارضة ولا بد فيها من الترجيح وحينئذ يصعب على أكثر الأفهام الإحاطة بتلك الترجيحات الكثيرة
وبعد الإحاطة بها فإنه يصعب الترجيحات الجيدة فلهذا السبب لا يتفق من يحيط بهذا العلم فإذا حكموا أخطأوا — وا
ظن الناس أن ذلك بسبب أن هذا العلم ضعيف الثالث أن هذا العلم لا يفي بإدراك الجزئيات على وجه
التفصيل الباهر فمن حكم على هذا الوجه فقد يقع في الخطأ فلهذه الأسباب الثلاثة توجهت المطاعن إلى
هذا العلم وحكي أن الأكاسرة كان إذا أراد أحدهم طلب الولد أمر بإحضار المنجم وكان ذلك الملك
يخلو بامرأته فساعة ما يقع الماء في الرحم يأمر خادمًا على الباب يضرب طستًا يكون بيده فإذا سمع المنجمون
الطست أخذ الطالع وحكم عليه ثم يخبر بعدد الساعات التي يمكث الولد في بطن أمه ثم إنه كان يأخذ الطالع
أيضًا عند الولادة مرة أخرى ويحكم على مقتضاه كانت أحكامهم كاملة قوية لأن الطالع الحقيقي هو طالع مسقط
النطفة فإن حدوث الولد إنما يكون في ذلك الوقت فأما طالع الولادة فهو طالع مستعار لأن الولد
لا يحدث في ذلك الوقت وإنما ينتقل من مكان إلى مكان آخر وروي أن في عهد أردشير بن بابك أنه قال
في العهد الذي كتبه لولده لولا اليقين بالبوار الذي على رأس ألف سنة لكتبت لكم كتابًا إن تمسكتم به لن
تضلوا أبدًا وعنى بالبوار النازل ما أخبره المنجمون من أنه يزول ملكهم عند رأس ألف سنة من ملك كستاسب
والمراد منه زوال دولتهم وظهور دولة الإسلام وروي أنه دخل الفضل بن سهل على المأمون في اليوم
الذي قتل فيه وأخبره أنه يقتل في هذا اليوم بين الماء والنار وأنكر المأمون ذلك عليه وقوي قلبه ثم اتفق
أنه دخل الحمام فقتل في الحمام وكان الأمر كما أخبره قال واعلم أن التجارب في هذا الباب كثيرة وفيما ذكرناه
كفاية قلت هذا أقصى ما قرره الرازي من كلام هؤلاء ومذهبهم ولعمري إنه لكائن ونقض الحجة
واستفرغ الوسع وبذل الجهد وروج وبهرج وقعقع وفرقع وجمجم ولا يرى طحنًا وجمع بين ما يعلم
بالاضطرار أنه كذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى أصحابه وبين ما يعلم بالاضطرار أنه خطأ في تأويل كلام الله ومع — فيه
مراده ولا يروج ما ذكره إلا على مفرط في الجهل بدين الرسل وما جاءوا به أو مقلد لأهل الباطل والمحال
من المنجمين وأقاويلهم فإن جمع بين الأمرين ترتب عليه شرًا ونحن بحمد الله ومعونته وتأييده نبين
بطلان ما قاله واحتجاجه فنقول أما الاستدلال بقوله تعالى فلا أقسم بالخنس الجوار الكنس فإن
أكثر المفسرين على أن المراد هو الكواكب التي تصير راجعة تارة ومستقيمة أخرى وهذا القول قد قاله
جماعة من المفسرين وإنها الكواكب الخمسة زحل وعطارد والمشتري والمريخ والزهرة ويروى عن علي
واختاره مقاتل وابن قتيبة [illegible] والأول وسماها خنسًا لأنها في سيرها تتقدم إلى جهة المشرق ثم تخنس أي تتأخر
وكنوسها استتارها في مغيبها كما تكنس الظباء وبقر الوحش أي تأوي إلى كناسها وهي أكنتها وتسمى هذه

الكواكب الجواري لأنها تسير مستقيمة وتسير راجعة وقيل لكونها بالنسبة إلى الناظر وهو استتارها تحت شعاع الشمس وقيل هي النجوم كلها وهو اختيار أبي عبيدة وقال الحسن وقتادة وعلى هذا القول يكون القسم بها باعتبار أحوالها الثلاث طلوعها وغروبها وما بينهما فهي خنس عند أول الطلوع لأن النجم منها يرى كأنه يبدو ويخنس وكنس عند غروبها تشبيها بالظباء التي تأوي إلى كناسها وهي جوار ما بين طلوعها وغروبها خنس عند الطلوع جوار بعده كنس عند الغروب وهذا أحكم بالنسبة إلى أفق كل بلد يكون لها الأحوال الثلاث وقال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه هي بقر الوحش وهي رواية عن ابن عباس رضي الله عنهما واختاره سعيد بن جبير وقيل وهو أضعف الأقوال أنها الملائكة حكاه الماوردي في تفسيره فإن كان المراد بعض هذه الأقوال غير ما حكاه الرازي فلا حجة له وإن كان المراد ما حكاه فغايته أن يكون الله سبحانه قد أقسم بها كما أقسم بالليل والنهار والضحى ومكة والوالد وما ولد والفجر وليال عشر والشفع والوتر والسماء والأرض واليوم الموعود وشاهد ومشهود والنفس والمرسلات والعاصفات والناشرات والفارقات والنازعات والناشطات والسابحات والسابقات وما يبصر وما لا يبصر من كل غائب عنا وحاضر مما فيه آيته على كمال ربوبيته وعزته وحكمته وقدرته وتدبيره وتنوع مخلوقاته الدالة عليه المرشدة إليه بما تضمنته من عجائب الصنعة وبديع الخلقة وتشهد لفاطرها وبارئها بأنه الواحد الأحد الذي لا شريك له وأنه الكامل علمه وقدرته ومشيئته وحكمته وربوبيته وملكه وأنها مسخرة مذللة منقادة لأمره مطيعة لمراده منها ففي الإقسام بها تعظيم لخالقها تبارك وتعالى وتنزيه له عما نسبه إليه أعداؤه الجاحدون المعطلون لربوبيته وقدرته ومشيئته ووحدانيته وأن من هذه عبيده ومماليكه وخلقه وصنعه وإبداعه فكيف يجحد ربوبيته وإلهيته وكيف ينكر صفات كماله ونعوت جلاله وكيف يسوغ لذي حس سليم وفطرة مستقيمة تعطيلها عن صانعها أو تعطيل صانعها عن نعوت جلاله وأوصاف كماله وعن أفعاله فأقسامه بها أكبر دليل على فساد قول هؤلاء المعطلة والمشركين الذين جعلوها آلهة تعبد مع دلائل الحدوث والعبودية والتسخير والافتقار عليها وأنها أدلة على باريها وفاطرها وعلى وحدانيته وأنه لا تنبغي الربوبية والإلهية لها بوجه ما بل لا تنبغي إلا لمن فطرها وبراها كما قال القائل

تأمل سطور الكائنات فإنها ... من الملإ الأعلى إليك رسائل
وقد خط فيها لو تأملت خطها ... ألا كل شيء ما خلا الله باطل

وقال آخر

فوا عجبا كيف يعصى الإله ... أم كيف يجحده الجاحد

وفي كل تحريكة وتسكينة ... أبدا شاهد
وفي كل شيء له آية ... تدل على أنه واحد

فلم يكن إقسامه بها سبحانه مقررا لما يدل علم النجوم والأحكام النجومية كما يقوله الكاذبون المفترون بل مقررا لكمال ربوبيته ووحدانيته وتفرده بالخلق والإبداع وكمال حكمته وعلمه وعظمته وهذا نظير إخباره سبحانه عن خلقها وعن حكمة خلقها بقوله تعالى الله الذي خلق سبع سماوات ومن الأرض مثلهن يتنزل الأمر بينهن لتعلموا أن الله على كل شيء قدير وأن الله قد أحاط بكل شيء علما وقوله تعالى وهو الذي خلق الليل والنهار والشمس والقمر كل في فلك يسبحون وقوله تعالى ومن آياته الليل والنهار والشمس والقمر لا تسجدوا للشمس ولا للقمر واسجدوا لله الذي خلقهن إن كنتم إياه تعبدون وقوله تعالى إن ربكم الله الذي خلق السماوات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش يغشي الليل النهار يطلبه حثيثا والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين وقوله تعالى وسخر لكم الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون وهؤلاء المشركون يعظمون الشمس والقمر والكواكب تعظيما يسجدون لها ويتذللون لها ويسبحونها تسابيح معروفة في كتبهم ودعوات لا ينبغي أن يدعى بها إلا خالقها وفاطرها وحده ويقول بعضهم في كتابه مصحف الشمس مصحف القمر مصحف زحل مصحف عطارد وبعضهم يقول تسبيحة الشمس تسبيحة القمر تسبيحة عطارد تسبيحة زحل ولا يتحاشى من ذلك وبعضهم يقول هيكل الشمس والقمر وعطارد وأصله أن الهيكل هو البيت المبني للعبادة وكان الصابئون يبنون لكل كوكب من هذه هيكلا ويصورون فيه ذلك الكوكب ويتخذونه لعبادته وتعظيمه ودعائه ويزعمون أن روحانية ذلك الكوكب تنزل عليهم فتخاطبهم وتقضي حوائجهم وشاهدوا ذلك منها وعاينوه وتلك الروحانية هي الشياطين نزلت عليهم وخاطبتهم وقضت حوائجهم ثم لما رام هذا الفعل من تستر منهم بالإسلام ولم يمكنه أن يبني لها بيوتا يعبدها فيه كتب لها دعوات وتسبيحات وأذكارا يتلوها ويدعو بها كل يوم من أشد تسترا وخوفا أخرجها في قالب حروف وكلمات لا تفهم لئلا يبادر إلى إنكارها وردها ومن لم يخف منهم خرج بتلك الدعوات والتسبيحات والأذكار بلسان يخاطبهم بالفارسية والعربية وغيرها فلما أنكر عليه أهل الإيمان قال إنما ذكرت هذا معرفة لهذا وإحاطة به لا اعتقادا له ولا رغبة فيه وقد وصف ذلك العلم وقرره على أتم تقرير وحمله هدية إلى ملك ما بأرضه فأعطاه من الذهب ما قالوا إنه ألف دينار وصار ذلك الكتاب إماما لأهل هذا الفن إليه يتحاكمون وعليه يعولون وبه يحتجون ويقولون هذا مصنفه رجل له علم وفضيلة [illegible]

وفي هذا الكتاب من مخاطبة الشمس والقمر والكواكب بالخطاب الذي لا يليق إلا بالله عز وجل ولا ينبغي
لأحد سواه من الخضوع والذل والعبادة التي لم يبلغ عباد الأصنام يبلغونها من آلهتهم فبالله العجب ولو لم
تعالى فلا أقسم بالخنس الجوار الكنس دليلا على هذا بعد ما تقدم لديه أول الكتاب فإن كان الإقسام بها دليلا
على تأثيرها في العالم كما يقولون فينبغي أن يكون سائر ما أقسم به كذلك وإن لم يكن القسم دليلا بطل الاستدلال
به وأما قوله تعالى فلا أقسم بمواقع النجوم ففيها قولان أحدهما أنها النجوم المعروفة وعلى هذا
ففي مواقعها أقوال أحدها أنه انكدارها وانتثارها يوم القيامة وهذا قول الحسن والمنجمون يكذبون
به ولا يعرفون به والثاني أن مواقعها منازلها قاله عطاء وقتادة والثالث أن مغاربها
والرابع أن مواقعها عند طلوعها وغروبها حكاه ابن عطية عن مجاهد وأبي عبيدة والخامس
أن مواقعها مواضعها من السماء وهذا الذي حكاه ابن الجوزي عن قتادة وحكاه ابن عطية عنه فيحتمل أن يكون
واحدا أو يكونا قولين والسادس أن مواقعها انقضاضها إثر العفريت وقت الرجوم حكاه ابن عطية
أيضا ولم يذكر أبو الفرج ابن الجوزي سوى الثلاثة الأول والقول الثاني أن مواقع النجوم هي
منازل القرآن ونجومه التي نزلت على النبي صلى الله عليه وسلم في مدة ثلاث وعشرين سنة قال ابن عطية ويؤيد
هذا القول عود الضمير على القرآن في قوله تعالى إنه لقرآن كريم وذلك أن ذكره لم يتقدم إلا على هذا التأويل
ومن لا يتأول هذا التأويل يقول إن الضمير يعود على القرآن وإن لم يتقدم ذكره لشهرة الأمر ووضوح
المعنى كقوله تعالى حتى توارت بالحجاب وكل من عليها فان وغير ذلك قلت ويؤيد القول الأول أنه
أعاد الضمير بلفظ الإفراد والتذكير ومواقع النجوم جمع فلو كان الضمير عائدا عليها لقال إنها لقرآن
كريم إلا أن يقال مواقع النجوم دل على القرآن فأعاد الضمير عليه لأن مفسر الضمير يلتفت فيه بذلك وهو من
أنواع البلاغة والإعجاز فإن كان المراد من القسم نجوم القرآن بطل الاستدلال به بالآية وإن كان المراد
الكواكب وهو قول الأكثرين فلما ظهر من الآيات الدالة على ربوبيته الله تعالى وانفراده بالخلق والإبداع
فإنه لا ينبغي أن تكون الإلهية إلا له وحده كما أن وجوده المعبود بخلقها وإبداعها وما تضمنته من
الآيات والعجائب فالإقسام بها أوضح دليل على كذب المشركين والمنجمين والدهرية ونوعي المعطلة
كما تقدم وكذلك قوله والنجم الثاقب على أن فيه قولين أحدهما القول الذي ذكر أحدهما أنه
الثريا وهذا قول ابن زيد حكاه عنه أبو الفرج ابن الجوزي وعنه رواية بأنه أنه زحل حكاها عنه ابن عطية
والثاني أنه الجدي حكاه ابن عطية عن ابن عباس وقول آخر حكاه أبو الفرج عن [illegible] النيسابوري
أنه جنس النجوم وأما قوله تعالى فالمدبرات أمرا فلم يقل أحد من الصحابة ولا التابعين ولا العلماء بالتفسير إنها النجوم وهذه

الروايات عنهم فقال ابن عباس رضي الله عنهما هي الملائكة قال عطاء وكلت بأمور عرفهم الله العمل بها
وقال عبد الرحمن بن سابط مدبر أمور الدنيا أربعة جبريل وهو موكل بالوحي والجنود وميكائيل وهو موكل
بالقطر والنبات وملك الموت وهو موكل بقبض الأنفس وإسرافيل وهو ينزل بالأمر عليهم وقيل جبريل للوحي
وإسرافيل للصور وقال ابن قتيبة فالمدبرات الملائكة تنزل بالحلال والحرام ولم يذكر المتوسعون
نقل أقوال المفسرين كابن الجوزي والماوردي وابن عطية غير الملائكة حتى قال ابن عطية ولا أحفظ
خلافا أنها الملائكة هذا مع توسعه في النقل وزيادته على أبي الفرج ابن الجوزي وغيره حتى أنه ليتفرد
بأقوال لا يحكيها غيره فتفسير المدبرات بالنجوم كذب على الله وعلى المفسرين وكذلك المقسمات أمرا لم يقل
أحد من أهل التفسير العالمين به إنها النجوم بل قال إنها الملائكة التي تقسم أمر الملكوت بإذن ربها
من الأرزاق والآجال والخلق في الأرحام وأمر الرياح والجبال قال ابن عطية لأن كل هذا إنما
هو بمليكه ويخدمه فالآية تتضمن جميع الملائكة لأنهم كلهم في أمور مختلفة قال أبو الطفيل عامر بن
واثلة كان علي بن أبي طالب كرم الله وجهه على المنبر فقال لا تسألوني عن آية من كتاب الله وسنة ماضية
إلا قلت فقام إليه ابن الكواء فسأله عن الذاريات ذروا والحاملات وقرا والجاريات يسرا والمقسمات
أمرا فقال الذاريات الرياح والحاملات السحاب والجاريات السفن والمقسمات الملائكة ثم قال سل
سؤال تعلم ولا تسأل سؤال تعنت ولذلك قال أبو الفرج ولم يذكر فيه خلافا المقسمات أمرا هي الملائكة تقسم
الأمور على ما أمر الله به قال ابن سابط المقسمات أربعة جبريل وهو صاحب الوحي والغلظة يعني العقوبة
على أعداء الرسل وميكائيل وهو صاحب الرزق والرحمة وإسرافيل وهو صاحب الصور واللوح وعزرائيل
وهو قابض الأرواح فتفسير هذه بأنها النجوم تفسير الجاهلين ومن سلك سبيلهم وأما وصفه تعالى بعض الأيام
بأنها أيام نحس كقوله فأرسلنا عليهم ريحا صرصرا في أيام نحسات فلا ريب أن الأيام التي أوقع الله فيها
سبحانه العقوبة بأعدائه وأعداء رسله كانت أياما نحسات عليهم لأن النحس أصابهم فيها وإن كانت
أيام خير لأوليائه المؤمنين فهي نحس على المكذبين سعد للمؤمنين وهذا كيوم القيامة فإنه عسير على
الكافرين يوم نحس لهم يسير على المؤمنين يوم سعد لهم قال مجاهد أيام نحسات مشائيم وقال
الضحاك معناه شديد أي شديد البرد حتى كان البرد عذابا لهم قال أبو علي وأنشد الأصمعي
في النحس بمعنى البرد: كأن سلافة عرضت بنحس ... يحيل شفيفها الماء الزلالا
وقال ابن عباس رضي الله عنهما نحسات متتابعات وكذلك قوله إنا أرسلنا عليهم ريحا صرصرا
في يوم نحس مستمر وكان اليوم نحسا لإرسال العذاب عليهم أي لا يقلع عنهم كما يقلع مصائب

الدنيا عن اهلها بل هذا النحس دايم على هولاء المكذبين للرسل ومستمر صفة للنحس لا لليوم ومن
ظن انه صفة لليوم وانه كان يوم اربعا اخر الشهر وان هذا اليوم نحس ابدا فقد غلط واخطا فهم
القران فان اليوم المذكور بحسب ما يقع فيه وكم لله من نعمة على اوليايه في هذا اليوم وان كان له فيه بلايا ونقم
على اعدايه كما يقع ذلك في غيره من الايام فسعود الايام ونحوسها انما هو بسعود الاعمال وموافقتها لمرضاة
الرب ونحوس الاعمال ومخالفتها لما جاءت به الرسل واليوم الواحد يكون يوم سعد لطايفة ونحس
لطايفة كما كان يوم بدر يوم سعد للمومنين ويوم نحس على الكافرين فما للكواكب والطالع والقرانات
وهذا السعد والنحس وكيف يستنبط علم احكام النجوم من ذلك ولو كان المؤثر في هذا النحس هو نفس
الكواكب والطالع لكان نحسا على العالم فاما ان يقتضي الكوكب نحسا لطايفة سعدا لطايفة فهذا
هو المحال **فصل** واما استدلاله بالايات الدالة على ان الله سبحانه وضع حركات هذه الاجرام
على وجه ينتفع بها في مصالح هذا العالم بقوله هو الذي جعل الشمس ضياء والقمر نورا وقدره منازل
لتعلموا عدد السنين والحساب ما خلق الله ذلك الا بالحق وقوله تبارك الذي جعل في السماء بروجا
الاية فمن اطرف الاستدلال فاين في هذه الايات ما يدل على ما يدعيه المنجمون من كذبهم وبهتانهم وافتراءاتهم
ولو كان الامر كما يدعيه هولاء الكذابون لكانت الدلالة والعبرة فيهم اعظم من مجرد الضيا والنور
والحساب ولكان الاليق ذكر ما يقتضيه من السعد والنحس وتعطيه من السعادة والشقاوة وتهبه من
الاعمار والارزاق والاجال والصنايع والعلوم والمعارف والصور الحيوانية والنباتية والمعدنية
وساير ما في هذا العالم من الخير والشر واما قوله تعالى تبارك الذي جعل في السماء بروجا وجعل فيها
سراجا وقمرا منيرا فهو تعظيم وثناء منه تعالى على نفسه بجعل هذه البروج والشمس والقمر في السماء وقد
اختلف في البروج المذكورة في هذه الاية فاكثر السلف على انها القصور او الكواكب العظام قال
ابن المنذر في تفسيره حدثنا موسى نا ابن نمير عن اسمعيل عن عطية جعل في السماء بروجا قال قصورا فيها
حرس حدثنا موسى نا ابو بكر نا ابو معوية نا وكيع عن سفين عن يحيى بن رافع قال قصورا في السماء
حدثني ابو احمد نا معلى نا اسمعيل عن ابي صالح تبارك الذي جعل في السماء بروجا قال النجوم الكبار
وهذا اوفق لمعنى اللفظة في اللغة فان العرب تسمي البنا المرتفع برجا قال تعالى اينما تكونوا يدرككم الموت
ولو كنتم في بروج مشيدة قال الاخطل

كانها برج رومي يشيده لز بجص واجر واحجار

قال الاعمش كان اصحاب عبد الله يقرونها تبارك الذي جعل في السماء قصورا واما المتاخرون من المفسرين

فكثير منهم

فكثير منهم يذهب الى انها البروج الاثنا عشر التي تنقسم عليها المنازل كل برج منزلتان وثلث وهذه
المنازل الثمانية والعشرون يبدو منها للناظر اربعة عشر منزلا ابدا ويخفى منها اربعة عشر ثمانية
فاولى الشامية السرطان واخرها السماك الاعزل واولى اليمانية الغفر واخرها الرشا اذا طلع منها منزل
من المشرق غاب رقيبه من المغرب وهو الخامس عشر وبها ينقسم فصول السنة الاربع فللربيع منها الحمل
والثور والجوزاء ومنازلها الشرطين والبطين والثريا والدبران والهقعة والهنعة والذراع وللصيف
منها السرطان والاسد والسنبلة ومنازلها النثرة والطرف والجبهة والزبرة والصرفة والعوا والسماك
وللخريف منها الميزان والعقرب والقوس ومنازلها الغفر والزبانا والاكليل والقلب والشولة
والنعايم والبلدة وللشتاء منها الجدي والدلو والحوت ومنازلها سعد الذابح وسعد بلع وسعد
السعود وسعد الاخبية والفرغ المقدم ويسمى الاول والفرغ المؤخر ويسمى الثاني والرشا ولما
كان نزول القمر في هذه المنازل معلوما بالعيان والمشاهدة ونزول الشمس فيها انما هو بالحساب لا بالرؤية
قال تعالى هو الذي جعل الشمس ضياء والقمر نورا وقدره منازل وقال تعالى والشمس
تجري لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم فخص
القمر بذكر تقدير المنازل دون الشمس وان كانت مقدرة المنازل لظهور ذلك للحس في القمر وظهور تفاو
ت نوره بالزيادة والنقصان في كل منزل ولذلك كان الحساب القمري اشهر واعرف عند الامم وابعد من
الغلط واصح للضبط من الحساب الشمسي ويشترك فيه الناس دون الحساب الشمسي ولهذا قال
تعالى في القمر وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب ولم يقل ذلك في الشمس ولهذا كانت
اشهر الحج والصوم والاعياد ومواسم الاسلام انما هي على حساب القمر وسيره ونزوله في منازله لا على
حساب الشمس وسيرها حكمة من الله ورحمة وحفظا لدينه لاشتراك الناس في هذا الحساب وتعذر الغلط
والخطا فيه فلا يدخل في الدين من الاختلاف والتخبيط ما دخل في دين اهل الكتاب فهذا الذي اخبر
الله تعالى به من شان المنازل وسير القمر فيها وجعل الشمس سراجا وضياء يبصر به الحيوان ولولا ذلك لم
يبصر الحيوان فاين في هذا ما يدعيه الكذابون من علم الاحكام التي كذبها اضعاف صدقها **فصل**
واما ما ذكره عن ابرهيم خليل الرحمن انه تمسك بعلم النجوم حين قال اني سقيم فمن الكذب والافترا على خليل
الرحمن صلى الله عليه وسلم فانه ليس في الاية اكثر من انه نظر نظرة في النجوم ثم قال لهم اني سقيم فمن ظن من هذا ان علم
احكام النجوم من علم الانبيا وانهم كانوا يراعونه ويعانونه فقد كذب على الانبيا ونسبهم الى ما لا يليق
بهم وهو من جنس من نسبهم الى السحر والكهانة والشعر وزعم ان تلقيهم الغيب من جنس تلقي غيرهم وان كانوا هم فيهم

في ذلك لكمال نفوسهم وقوة استعدادها وقبولها لفيض العلويات عليها وهؤلاء لم يعرفوا الأنبياء ولا آمنوا بهم
وإنما هم عندهم بمنزلة أصحاب الرياضات الذين خصوا بقوة الإدراك وزكاء النفوس وطهارة الأخلاق ونصبوا
أنفسهم لإصلاح الناس وضبط أمورهم ولا ريب أن هؤلاء أبعد الخلق عن الأنبياء وأتباعهم ومعرفتهم
رسلهم بهؤلاء في شأن والرسل صلوات الله عليهم وسلامه في شأن آخر بل هم ضدهم في علومهم وأعمالهم
وهديهم وإراداتهم وطرائقهم ومعادهم وفي شأنهم كله ولهذا تجد أتباع هؤلاء ضد أتباع الرسل
في العلوم والأعمال والهدى والإرادات ومتى بعث الله رسولا تعالى بالتنجيم والتمريحات والطلسمات
والأوفاق والتداخين والبخورات ومعرفة القرانات والحكم على الكواكب بالسعود والنحوس والحرارة
والبرودة والذكورة والأنوثة وهل هذه إلا صنائع المشركين وعلومهم وهل بعثت الرسل إلا بالإنكار
على هؤلاء ومحقهم ومحق علومهم وأعمالهم من الأرض وهل للرسل أعداء بالذات إلا هؤلاء وسالكو سبيلهم وهذا
معلوم بالاضطرار لكل من آمن بالرسل صلوات الله وسلامه عليهم وصدقهم فيما جاؤوا به وعرف مسمى رسول الله
صلى الله عليه وسلم وعرف مرسله فهل كان لإبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام عدو مثل المنجمين الصابئة وحران
كانت دار مملكتهم والخليل أعدى عدو لهم وهم المشركون حقا والأصنام التي كانوا يعبدونها كانت صورا
لها الهم وكانوا يحدثون لها هياكل وهي بيوت العبادات لكل كوكب منهم هيكل فيه أصنام تناسبه
فكانت عبادتهم للأصنام وتعظيمهم لها تعظيما منهم للكواكب التي وضعوا الأصنام عليها وعبادة لها وهذا
أقوى السببين في الشرك الواقع في العالم وهو الشرك بالنجوم وتعظيمها واعتقاد أنها أحياء ناطقة ولها
روحانيات تنزل على عابديها ومخاطبيها فصوروا لها الصور الأرضية ثم جعلوا عبادتها وتعظيمها
ذريعة إلى عبادة تلك الكواكب واستنزال روحانياتها وكانت الشياطين تنزل عليهم وتخاطبهم وتكلمهم
وتريهم العجائب ما يدعوهم إلى بذل نفوسهم وأولادهم وأموالهم لتلك الأجسام والتقرب إليها وكان مبدأ
هذا الشرك تعظيم الكواكب وظن السعود والنحوس وحصول الخير والشر في العالم منها وهذا هو
شرك قوم نوح وهو أول شرك طرق العالم منهم وهو شرك قوم إبراهيم والسبب الثاني عبادة القبور والإشراك
بالأموات وهو شرك قوم نوح وهو أول شرك طرق العالم وفتنته أعم وأهل الابتلاء به أكثر وهم جمهور أهل
الإشراك وكثيرا ما يجتمع السببان في حق المشرك يكون مقابريا نجوميا قال تعالى عن قوم نوح
وقالوا لا تذرن آلهتكم ولا تذرن ودا ولا سواعا ولا يغوث ويعوق ونسرا قال البخاري
في صحيحه قال ابن عباس رضي الله عنهما كان هؤلاء رجالا صالحين من قوم نوح فلما هلكوا أوحى
الشيطان إلى أن انصبوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون أنصابا وسموها بأسمائهم ففعلوا فلم تعبد حتى إذا

هلك

هلك أولئك ونسخ العلم عبدت ولهذا لعن النبي صلى الله عليه وسلم الذين اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد
ونهى عن الصلاة إلى القبور وقال صلى الله عليه وسلم اللهم لا تجعل قبري وثنا يعبد وقال اشتد غضب
الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد وقال إن من كان قبلكم كانوا يتخذون قبور أنبيائهم مساجد
ألا فلا تتخذوا القبور مساجد فإني أنهاكم عن ذلك وأخبر أن هؤلاء شرار الخلق عند الله يوم القيامة وهؤلاء
هم أعداء نوح كما أن المشركين بالنجوم هم أعداء إبراهيم فنوح عاداه المشركون بالقبور وإبراهيم عاداه
المشركون بالنجوم والطائفتان صوروا الأصنام على صور معبوديهم ثم عبدوها وإنما بعثت الرسل
بمحق الشرك من الأرض ومحق أهله وقطع أسبابه وهدم بيوته ومحاربة أهله فكيف يظن بإمام الحنفاء
وشيخ الأنبياء وخليل رب الأرض والسماء أنه كان يتعاطى علم النجوم ويأخذ منه أحكام الحوادث سبحانك
هذا بهتان عظيم وإنما كانت النظرة التي نظرها في علم النجوم من معاريض الأفعال كما كان قوله بل فعله كبيرهم
هذا وقوله إني سقيم وقوله عن امرأته أختي من معاريض الأقوال ليتوصل بها إلى غرضه من
كسر الأصنام كما توصل بتعريضه هذه أختي إلى خلاص امرأته من يد الفاجر ولما غلظ فهم هذا عن كثير من الناس
وكثفت طباعهم عن إدراكه ظنوا أن نظره في النجوم ليستنبط منها علم الأحكام وعلم أن نجمه وطالعه يقضي
عليه بالسقم وحاشاه أن يظن ذلك به خليل الله عليه السلام أو يأخذه أتباعه وهذا من جنس معاريض يوسف الصديق
صلى الله عليه وسلم حين تفتيش أوعية إخوته عن الصاع فإن المفتش بدأ بأوعيتهم مع علمه أنه ليس فيها ولم
يبق إلا وعاء أخيه مع علمه أنه فيها تعريضا بأنه لا يعرف في أي وعاء هي ونفيا للتهمة عنه بأنه لو كان عالما في أي وعاء
هي لبادر إليها ولم يكلف نفسه تعب التفتيش لغيرها فهذا نظر الخليل صلى الله عليه وسلم في النجوم
تورية وتعريض محض ينفي عنه تهمة قومه ويتوصل به إلى كيد أصنامهم

فصل

وأما الاستدلال
بقوله تعالى لخلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس وأن المراد به كبر القدر والشرف لا كبر الجثة ففي غاية
الفساد فإن المراد بالخلق ههنا الفعل لا نفس المفعول وهذا من أبلغ الأدلة على المعاد أي أن الذي
خلق السموات والأرض وخلقها أكبر من خلقكم كيف يعجزه خلقكم بعدما تموتون خلقا جديدا ونظير
هذا قوله في سورة يس أوليس الذي خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم بلى وهو الخلاق
العليم الذي نقل هؤلاء الملحدين هذا الاستدلال يقول القدرة للنوع وأنها صالحة لها فلا يجوز أن
تعلقها بأحد المقدورين دون الآخر فلذلك قوله تعالى لخلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس أي
لم يعجز قدرته عن خلق العالم العلوي والسفلي فكيف يعجز عن خلق الناس خلقا جديدا بعد ما أماتهم ولا تعلق
في هذا بأحكام النجوم بوجه ما قط ولا تأثير الكواكب وأما قوله تعالى ويتفكرون في خلق السموات

والارض ربنا ما خلقت هذا باطلا ولا ريب ان خلق السموات والارض من اعظم الادلة على وجود فاطرها
وكمال قدرته وعلمه وحكمته وانفراده بالربوبية والوحدانية ومن سوى بين ذلك وبين البقة وجعل
العبرة والدلالة والعلم بوجود الرب الخالق البارى المصور منهما سوا فقد كابر والله سبحانه انما يدعوا عباده
الى النظر والتفكر في مخلوقاته العظام لظهور اثر الدلالة فيها وبدو عجائب الصنعة والحكمة فيها واتساع
مجال الفكر والنظر في ارجائها وان كان في كل شيء له اية تدل على انه واحد ولكن اين الاية والدلالة
في خلق العالم العلوي والسفلي الى خلق النملة والبرغوث والبقة فليعرض مسلم عاقل على عقله ان يسوي
بينهما ويجعل الدلالة بهذا كالدلالة بالاخر والله سبحانه انما يذكر من مخلوقاته للدلالة عليه اشرفها واظهرها
للحس والعقل واسبقها دلالة واعجبها صنعة كالسماء والارض والشمس والقمر والليل والنهار والنجوم
والجبال والسحاب والمطر ونحو ذلك من اياته ولا يدعو عباده الى التفكر في القمل والبعوض والبراغيث
والبق والكلاب والحشرات ونحوها وانما يذكر من ذلك شيئا في ضرب الامثال مبالغة في
الاحتقار والضعف كقوله ان الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له وان يسلبهم الذباب
شيئا لا يستنقذوه منه ضعف الطالب والمطلوب فهذا لم يذكر الذباب في سياق الدلالة على اثبات الصانع تعالى
وكذلك قوله تعالى ان الله لا يستحيي ان يضرب مثلا ما بعوضة فما فوقها وكذلك مثل الذين اتخذوا من دون
الله اولياء كمثل العنكبوت اتخذت بيتا وان اوهن البيوت لبيت العنكبوت فتامل ذكر هذه المخلوقات
الحقيرة في اي سياق وذكر المخلوقات العظيمة في اي سياق واما قول من قال من المتكلمين
ان دلالة حصول الحياة في الابدان الحيوانية اقوى من دلالة السموات والارض على وجود الصانع تعالى
فمنشأه من هذا القائل على هذا الاصل الفاسد وهو اثبات الجوهر الفرد وان تاثير الصانع تعالى في خلق العالم
العلوي والسفلي هو تركيب تلك الجواهر وتاليفها هذا التاليف الخاص والتركيب جنسه مقدور للبشر
وغيرهم واما الاحداث والاختراع فلا يقدر عليه الا الله والقول بالجوهر الفرد من اسس المبدا والمعاد
على ما هو اصول المتكلمين الفاسدة التي نازعهم فيها جمهور العقلاء فقالوا خلق الله تعالى واحداثه لاجسام
العالم هو احداث لاجزائها وذواتها لا مجرد تركيب لجواهر منفردة فذهبوا عن خلقها وصنعها وابداعها
لمكان انما هو في تاليفها وتركيبها وهذا من اقوال اهل البدع التي ادخلوها في الاسلام وبنوا عليها المعاد
وحدوث العالم فسلطوا عليهم اعداء الاسلام ولم يمكنهم كسرهم لما بنوا المبدا والمعاد على الفرع وهي حالك
وظنوا انه لا يتم لهم القول بحدوث العالم واعادة الاجسام الا به وقام منازعوهم محتجين بما ذكرناه على ابطال
القول بالجوهر واعترفوا هم بقوة دليلها وصحته فاوقع ذلك شكا لكثير منهم في امر المبدا والمعاد لبنائهم على ضعيف

جزء بان واما ائمة الاسلام وفحول النظار فلم يعتمدوا على هذه الطريقة وهي عندهم اضعف واوهى
من ان يبنوا عليها امر الدين فضلا عن حدوث العالم واعادة الاجسام وانما اعتمدوا على الطرق التي ارشد
الله سبحانه اليها في كتابه وهي حدوث ذات الحيوان والنبات وخلق نفس العالم العلوي والسفلي وحدوث
السحاب والمطر والرياح وغيرها من الاجسام التي نشاهد حدوثها بذواتها لا مجرد حدوث تاليفها
وتركيبها فعند القائلين بالجوهر لا نشهد ان الله احدث في هذا العالم شيئا من الجواهر وانما احدث تاليفها وتركيبها
فقط وان كان احداثه لجواهر سابقا متقدما فقبل ذلك واما الآن فانما يحدث الاعراض من الاجتماع
والافتراق والحركة والسكون فقط وهي الاكوان عندهم وكذلك المعاد فانه سبحانه يفرق اجزاء العالم وهو
اعدامه ثم يولفها ويجمعها وهو المعاد وهو انما احتاجوا ان يستدلوا على كون عين الانسان وجواهره مخلوقة
اذ المشاهد عندهم بالحس انما هو حدوث اعراض في تلك الجواهر التاليف الخاص وزعموا ان كلما يحدثه
الله من السحاب والمطر والزرع والثمار والحيوان فانما يحدث فيه اعراضا وهي جميع الجواهر التي كانت
موجودة وتفريقها وزعموا ان احدا لا يعلم حدوث عين من الاعيان بالمشاهدة ولا بضرورة العقل وانما
يعلم ذلك بالاستدلال وجمهور العقلاء من الطوائف يخالفون هولاء ويقولون الرب لا يزال يحدث الاعيان
كما دل على ذلك الحس والعقل والقران فان الاجسام الحادثة بالمشاهدة ذواتها واجزاؤها حادثة بعد ان
لم تكن جواهر متفرقة فاجتمعت وتركبت بعد ذلك فقد كابر الحس والعقل فان كون الانسان والحيوان مخلوقا
محدثا كائنا بعد ان لم يكن امر معلوم بالضرورة لجميع الناس وكل احد يعلم انه حدث في بطن امه بعد ان لم يكن
وان عينه حديث كما قال تعالى وقد خلقتك من قبل ولم تك شيئا وليس هذا عندهم مما يستدل عليه بل يستدل
كما هي طريقة القران فانه جعل حدوث الانسان وخلقه دليلا لا مدلولا عليه وقولهم ان الحادث اعراض
فقط وانه تركيب الجواهر المفردة قول باطل بل نعلم حدوث عين الانسان وذواته وبطلان الجوهر
الفرد ولو كان القول بالجوهر صحيحا لم يكن معلوما الا بادلة خفية دقيقة فلا يكون اصول الدين [illegible]
مقدمة فيها فطريقهم تتضمن جحد المعلوم وهو حدوث الاعيان الحادثة وذواتها واثبات ما ليس بمعلوم
بل هو باطل وهو اثبات الجواهر الفرد وليس هذا موضع استقصاء هذه المسالة والمقصود الكلام
على قوله ان الاستدلال بحصول الحياة في بنية الحيوان على وجود الصانع اقوى من دلالة تركيب الاجرام
الفلكية هو مبني على هذا الاصل الفاسد

فصل

واما استدلاله بقوله تعالى وما خلقنا
السماء والارض وما بينهما باطلا فمن العجب فان هذا من اقوى الادلة واظهرها على بطلان قول المنجمين
والدهرية الذين يسندون جميع ما في العالم من الخير والشر الى النجوم وحركاتها واتصالاتها ويزعمون انها التي

بين الخير والشر فمعنى تعريف الرسل والمساء وبذلك تعطيه من السعود والنحوس وهذا هو العبث الذي
نزهنا الحكيم لاجله عنهم لما حكينا قولهم انه لما كانت الموجودات في العالم السفلي مرتبة على اثار الكواكب
والروحانيات التي هي مدبرات الكواكب وان كانت اتصالاتها تارة سعدا وتارة نحسا وجب ان يكون اثارها
حسن وقبح في الخلق والاخلاق والعقول الانسانية متساوية في النوع فوجب ان يدركها كل عاقل سليم
ولا يتوقف ادراكها على من هو مثل ذلك العاقل في النوع ما هذا الا بشر مثلكم يريد ان يتفضل عليكم الى اخر كلامهم
المتضمن خلق السموات والارض بغير امر ولا نهي ولا ثواب ولا عقاب وهذا هو الباطل الذي نفاه الله سبحانه عن
نفسه واخبر انه ظن اعدائه الكافرين ولهذا اتفق المفسرون على ان الحق الذي خلقت به السموات
والارض هو الامر والنهي وما يترتب عليهما من الثواب والعقاب فمن جحد ذلك وجحد رسالة الرسل وكفر بالمعاد واحال
حوادث العالم على حركات الكواكب فقد زعم ان خلق السموات والارض لغير الحق باطل وان العالم خلق عبثا وترك
سدى وخلي هملا وغاية ما خلق له ان يكون ممتعا بالملذات الحسية كالبهائم في هذه الدنيا القصيرة ثم تفارق
الوجود وتحدث حركات الكواكب اشخاصا مثله هكذا ابدا فاي باطل ابطل من هذا واي عبث فوق هذا
افحسبتم انما خلقناكم عبثا وانكم الينا لا ترجعون فتعالى الله الملك الحق لا اله الا هو رب العرش العظيم
والحق الذي خلقت به السموات والارض وما بينهما هو الهيبة الربانية المتضمنة لكمال حكمته وملكه وامره
ونهيه المتضمن لشرعه وثوابه وعقابه المتضمن لعدله وفضله ولقائه فالحق الذي وجد به العالم كون
الله سبحانه هو الاله الحق المعبود الامر الناهي المتصرف المالك بالامر والنهي وذلك يستلزم ارسال الرسل
وادرار ايجاب لهم وتمام الانعام على اوليائه وتعذيبهم وكربهم واختصاصهم بالشقاء والهلاك وذلك معقود
بكمال حكمة الرب تعالى وقدرته وعلمه وعدله وتمام ربوبيته وتصرفه وانفراده بالالهية وجريان المخلوقات
على موجب حكمته والاهيته وملكه التام وانه اهل ان يعبد ويطاع وانه اولى من ذكر واجل من عبد واولى بالاكرام
الذي يليق بعظمته وغناه وجوده وان اعداءه المعرضين عنه الجاحدين له المشركين به المسوين بينه
وبين الكواكب والاوثان والاصنام في العبادة بالالهية التي يليق بعظمته وجلاله وشدة بأسه هو الله العزيز العليم
غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب ذي الطول لا اله الا هو اليه المصير وهو ذو الرحمة الواسعة الذي لا يرد
بأسه عن القوم المجرمين الا له الخلق والامر تبارك الله رب العالمين وهو سبحانه خلق العالم العلوي والسفلي
بسبب الحق ولاجل الحق وضمنه الحق فالحق كان والحق كان وعلى الحق اشتمل والحق هو توحيده وعبادته
وحده لا شريك له ذكر ذلك ومقتضاه وتمام عدله الذي هو الحق وعلى الحق [illegible] المالكي
الحق وشرع خلقه الحق وهو شاهد من شواهد الحق فان احق الحق هو التوحيد كما ان اظلم الظلم هو الشرك

ومخلوقات

ومخلوقات الرب تعالى كلها شاهدة له بانه الله الذي لا اله الا هو وان كل معبود سواه باطل وكل مخلوق شاهد
بهذا الحق اما بنطقه واما بحاله فان اظهر شيء دلالة وفق لخلافها كالمشرك الذي يشهد حال خلقه
وابداعه وصنعه بخالقه وفاطره وانه الله الذي لا اله الا هو وانه عبد عبيد عزيز وزعم ان له شريكا فشاهد
حاله مكذب له مبطل لشهادته بقوله وقاله واما قوله انه لا يمكن الاستدلال بالمرائي على خلقها على وجه يمكن الاستدلال
بها على الصانع الحكيم الى اخر كلامه فيقال له اذا كان دلالتها على صانعها امرا ثابتا لها لذواتها
وذواتها انها وجدت بايجاده وتكوينه كانت دلالتها بسبب فعل الفاعل المختار لها ولكن هذا بناء منه
على اصل فاسد يلزم في شبهه وهو ان الذوات ليست مجعولة ولا متعلقة بفعل الفاعل وهذا مما انكره
عليه اهل العلم والايمان وقالوا ان كونها ذواتا وان وجودها واوصافها وكل ما ينسب اليها هو بفعل
الفاعل فكونها ذواتا وان وجودها وما يتبع ذلك من دلالتها على الصانع كله بجعل الجاعل فهو الذي جعل
الذوات والصفات وثبوت دلالتها لذاتها لا ينفي ان يكون بجعل الجاعل فانه لما جعلها على هذه الصفة
تستلزم لدلالتها على الصانع كانت دلالتها على جعله فان قيل لو قدر عدم الجاعل لما لم يرتفع كونها
ذوات ولو كانت ذواتا بجعله لارتفع كونها ذواتا بتقدير ارتفاعه قيل ما تعني بكونها ذوات
وماهيات اتعني به تحققها في الخارج او في الذهن او اعم منهما فان عنيت الاول فلا ريب في بطلان
كونها ذوات وماهيات على تقدير ارتفاع الجاعل وان عنيت الثاني فالصور الذهنية مجعولة له ايضا
فانه هو الذي علم فاوجد الحقائق الذهنية في العلم كما انه الذي خلق فاوجد الحقائق الذهنية في العين
فهو الاكرم الذي خلق فعلم فما في الذهن بتعليمه وما في الخارج بخلقه وان عنيت القدر المشترك بين الخارج
والذهن وهو ثبوتها ذوات وماهيات بقطع النظر عن تقيدها بالذهن او الخارج قيل لك هذه ليست
شيئا البتة فان الشيء انما يكون شيئا في الخارج او في الذهن والعلم وما ليس له حقيقة خارجية ولا ذهنية فليس
بشيء بل هو عدم صرف ولا ريب ان العدم ليس بفعل فاعل ولا جعل جاعل فان قيل فهي لا تنفك عن احد
الوجودين اما الذهني واما الخارجي ولكن اخذناها مجردة عن الوجود ونظرنا اليها من هذه الحيثية
ومن هذا الاعتبار حكمنا عليها بقطع النظر عن تقيدها بذهن او خارج قيل الحكم عليها بشيء ما
يستلزم تصورها ليمكن الحكم عليها وتصورها مع اخذها مجردة عن الوجود الذهني محال فان قيل مسلم
ان ذلك محال ولكن اذا اخذناها مع وجودها الذهني او الخارجي فهنا امران حقيقتها وماهيتها والثاني
وجودها الذهني او الخارجي فنحن اخذناها موجودة وحكمنا عليها مجردة فالحكم على مجرد هذا الماخوذ
المتميز بعقل هذا القدر الماخوذ عدم محض كما تقدم والعدم لا يكون بجعل جاعل ونكتة المسألة

ان الذوات من حيث هي ذوات اما ان يكون وجودًا او عدمًا فان كانت وجودًا فهي بجعل الجاعل وان كانت
عدمًا فالعدم كاسمه ولا يتعلق بجعل الجاعل

فصل

واما قوله ان ابرهيم صلوات الله عليه
كان اعتماده في اثبات الصانع على الدلائل الفلكية كما قرره فهذا من العجب ذكره عن خليل الرحمن في هذا
المقام وهو اعظم عدو لعباد الكواكب والاصنام التي اتخذت على صورها وهم اعداؤه الذين القوه في
النار حتى جعلها الله عليه بردًا وسلامًا وهو صلى الله عليه وسلم اعظم الخلق براءة منهم واما ذلك المدبر الذي
قرره الرازي في المناظرة بينه وبين الملك المعطل فهذا لم يخطر بقلب ابرهيم ولا بقلب المشرك ولا تدل
اللفظة عليها البتة وتلك المناظرة التي ذكرها الرازي تشبه ان تكون مناظرة بين فيلسوف ومتكلم ملحد
يسوغ ان يقال انها هي المراد من كلام الله تعالى كذب على الله وعلى خليله صلى الله عليه وسلم وعلى المشرك المعطل
وابرهيم صلى الله عليه وسلم اعلم بالله تعالى ووحدانيته وصفاته من ان يجري هذه المناظرة ونحن نذكر كلام ائمة التفسير
في ذلك ليتبين معنى المناظرة وما دل عليه القران من تفسيرها قال ابن جرير معنى قوله ألم تر الى
الذي حاج ابرهيم في ربه قال له ابرهيم ربي الذي يحيي ويميت يعني بذلك ربي الذي بيده الحياة والموت يحيي من يشاء
ويميت من اراد بعد الاحياء له وذلك عند العرب يسمى احياء كما قال تعالى ومن احياها فكانما احيا
الناس جميعًا وقال الاخر اني افعل ذلك فاحيي واميت قال ابرهيم صلى الله عليه وسلم له فان الله هو الذي
ياتي بالشمس من مشرقها فات بها ان كنت صادقًا انك اله فات بها من مغربها قال الله عز وجل فبهت الذي كفر
يعني انقطع وبطلت حجته ثم ذكر من قال ذلك من السلف فروى عن قتادة قال ذكر لنا انه دعا برجلين
فقتل احدهما واستحيا الاخر فقال انا احيي هذا واميت هذا قال ابرهيم صلى الله عليه وسلم عند ذلك
فان الله ياتي بالشمس من المشرق فات بها من المغرب وعن مجاهد انا احيي واميت اقتل من شئت واستحيي من شئت
ادعه حيًا فلا اقتله وقال ابن وهب حدثني عبد الرحمن بن زيد بن اسلم ان الجبار قال لابرهيم عليه الصلاة
والسلام انا احيي واميت ان شئت قتلتك وان شئت استحييتك فقال ابرهيم فان الله ياتي بالشمس من المشرق
فات بها من المغرب فبهت الذي كفر وقال الربيع لما قال ابرهيم ربي الذي يحيي ويميت قال هو يعني
نمرود فانا احيي واميت فدعا برجلين فاستحيا احدهما وقتل الاخر قال انا احيي واميت اي استحيي
من شئت قال ابرهيم فان الله ياتي بالشمس من المشرق وقال السدي لما خرج ابرهيم من النار ادخلوه على الملك
ولم يكن قبل ذلك دخل عليه فكلمه وقال له من ربك قال ربي الذي يحيي ويميت قال نمرود انا احيي واميت
انا ادخل اربعة نفر فادخلهم بيتًا فلا يطعمون ولا يسقون حتى اذا هلكوا من الجوع اطعمت اثنين وسقيتهما
فعاشا وتركت اثنين فماتا فعرف ابرهيم ان له قدرة بسلطانه وملكه على ان يفعل ذلك قال ابرهيم فان الله

ياتي

ياتي بالشمس من المشرق فات بها من المغرب فبهت الذي كفر وقال قتادة ان هذا انسان مجنون فاخرجوه
الا ترون انه من جنونه اجترى على الهكم فكسرها وان النار لم تاكله وخشي ان يفتضح في قومه وكان يزعم انه
رب فامر بابرهيم فاخرج وقال مجاهد فلا اقتل واميت من قتلت وقال ابن جريج اتي
برجلين فقتل احدهما وترك الاخر فقال انا احيي واميت اقتل فاميت من قتلت واحيي فلا اقتل وقال
ابن اسحق ذكر لنا والله اعلم ان نمرود قال لابرهيم ارايت الهك هذا الذي تعبد وتدعو الى عبادته وتذكر
من قدرته التي تعظمها على غيره ما هو قال له ابرهيم ربي الذي يحيي ويميت قال نمرود انا احيي واميت فقال له
ابرهيم صلى الله عليه وسلم كيف تحيي وتميت قال آخذ الرجلين قد استوجبا القتل في حكمي فاقتل احدهما
فاكون قد امته واعفو عن الاخر فاتركه فاكون قد احييته فقال له ابرهيم عند ذلك فان الله ياتي بالشمس
من المشرق فات بها من المغرب اعرف انه كما يقول فبهت عند ذلك نمرود ولم يرجع اليه شيئًا وعرف انه لا يطيق
ذلك فهذا كلام السلف في هذه المناظرة وكذلك سائر المفسرين بعدهم لم يقل احد منهم قط ان
معنى الكلام ان هذا الاحياء والاماتة حاصل مني ومن كل احد فان الرجل قد يكون سبب الحدوث بواسطة
تمزيج الطبايع وتحريك الاجرام الفلكية بل يقطع بان هذا لم يخطر بقلب المشرك المناظر البتة ولا كان
هذا مراده فلا يحل تفسير كلام الله بمثل هذه الاباطيل وهذا من القول على الله بغير علم فانه اعظم
المحرمات على الاطلاق والشرك اثمًا وقد ظن جماعة من الاصوليين وارباب الجدل ان ابرهيم انتقل مع المشرك
من حجة الى حجة ولم يجبه عن قوله انا احيي واميت قالوا وكان يمكنه ان يتم معه الحجة الاولى بان يقول مرادي
بالاحياء احياء الميت وايجاد الحياة فيه لا استبقاؤه على حياته وكان يمكنه تتميمها بمعارضة في نفسها بان
يقول فاحيي من امت وقتلت ان كنت صادقًا ولكن انتقل الى حجة اوضح من الاولى فقال ان الله ياتي بالشمس
من المشرق فات بها من المغرب فانقطع المشرك المعطل وليس الامر كما ذكروه ولا هذا انتقال بل هذا
مطالبة له بموجب دعواه الالهية والدليل الذي استدل به ابرهيم فهم وتم موجبه فلما ادعى
الكافر انه يفعل كما يفعل الله فيكون الها مع الله طالبه ابرهيم بموجب دعواه مطالبة تتضمن بطلانها فقال
ان كنت ربًا كما زعمت تحيي وتميت كما يحيي ربي ويميت فان الله ياتي بالشمس من المشرق فيستطيع لقدرته وتسخيره ومشيئته
فان كنت ربًا فات بها من المغرب وتامل قول الكافر انا احيي واميت ولم يقل انا الذي احيي واميت
يعني انا افعل ما يفعل الله فادعى انه مثله فقال له ابرهيم فان كنت صادقًا فافعل مثل فعله في طلوع الشمس
فاذا اطلعها من جهة فاطلعها انت من جهة اخرى ثم تامل ما في هذه المناظرة من حسن الاستدلال بالافعال
المشهورة المحسوسة التي تستلزم وجود ذاته وكمال قدرته ومشيئته وعلمه ووحدانيته من الاحياء والاماتة المشهودين

اللذين لا يقدر عليهما إلا الله وحده وإتيانه تعالى بالشمس من المشرق ولا يقدر أحد سواه على ذلك وهذا برهان
لا تقبل المعارضة بوجه وإنما لبس عدو الله وأوهم الحاضرين أنه قادر على الإحياء والإماتة على ما هو مماثل المقدور
الرب تعالى فقال له إبراهيم فإن كان الأمر كما زعمت فأرني قدرتك على الإتيان بالشمس من المغرب ليكون
مماثلة لقدرة الله على الإتيان بها من المشرق فأين الانتقال في هذا الاستدلال والمناظرة بل هذا من أحسن ما يكون
من المناظرة والدليل الثاني مكمل لمعنى الدليل الأول ومبين له ومقرر لمضمون الدليلين أفعال الرب الدالة عليه
وعلى وحدانيته وانفراده بالربوبية والإلهية لا يقدر أحد ولا أعزّ الله على مثلها ولما علم عدو الله صحة
ذلك وأن من هذا شأنه على كل شيء قدير لا يعجزه شيء ولا يستصعب عليه شيء خاف أن يقول له إبراهيم صلى الله عليه وسلم
فسل ربك أن يأتي بها من مغربها فيفعل ذلك فيظهر للناس بطلان دعواه وكذبه وأنه لا يصلح للربوبية
فبهت وأمسك وفي هذه المناظرة نكتة لطيفة جدا وهي أن شرك العالم إنما هو مستند إلى عبادة الكواكب
والقبور ثم صورت الأصنام على صورها كما تقدم فتضمن الدليلان اللذان استدل بهما إبراهيم إبطال الإلهية
تلك جملة بأن الله وحده هو الذي يحيي ويميت ولا يصلح الحي الذي يموت للإلهية لا في حال حياته ولا بعد موته
فإن له ربا قادرا قاهرا متصرفا فيه إحياء وإماتة ومن كان كذلك فكيف يكون إلها حتى يتخذ الصنم على صورته
ويعبد من دونه وكذلك الكواكب أظهرها وأكبرها للحس هذه الشمس وهي مربوبة مدبرة مسخرة لا تصرف لها في
نفسها بوجه ما بل ربها وخالقها سبحانه يأتي بها من مشرقها فتنقاد لأمره ومشيئته فهي مربوبة مسخرة مدبرة لا
إله يُعبد من دون الله

فصل

وأما استدلاله بأن النبي صلى الله عليه وسلم نهى عن قضاء الحاجة
باستقبال الشمس والقمر واستدبارهما لمكانهما والله أعلم المراد ببعض الفقهاء فقد قالوا ذلك في كتبهم في آداب التخلي
ولا يستقبل الشمس والقمر وظن أنهم إنما قالوا ذلك لنهي النبي صلى الله عليه وسلم عنه فاحتج بالحديث وهذا من أبطل الباطل
فإن النبي صلى الله عليه وسلم لم ينقل عنه ذلك في كلمة واحدة ولا بإسناد صحيح ولا ضعيف ولا مرسل ولا متصل وليس
لهذه المسألة أصل في الشرع والذين ذكروها من الفقهاء منهم من قال لعله في ذلك أن اسم الله مكتوب عليهما
ومنهم من قال إن نورهما من نور الله ومنهم من قال إن التنكب عن استقبالهما واستدبارهما أبلغ في التستر
وعدم ظهور الفرجين وبكل حال فما لهذا والأحكام النجومية فإن كان هذا دالا على دعواكم فدلالة النهي
عن استقبال الكعبة بذلك أولى وأولى وأما استدلاله بأن النبي صلى الله عليه وسلم قال يوم موت ولده
إبراهيم إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله لا ينكسفان لموت أحد ولا لحياته فإذا رأيتم ذلك فافزعوا إلى
الصلاة وهذا الحديث صحيح وهو من أعظم الحجج على بطلان قولكم فإنه صلى الله عليه وسلم أخبر أنهما آيتان من آيات الجزء ٣
الله لا يحصيها إلا هو فالمطر والنبات والحيوان والليل والنهار والبر والبحر والجبال والنجوم من آياته

آياته تعالى الدالة عليه وهي في القرآن أكثر من أن نذكرها ههنا فهما آيتان لا ربان ولا إلهان ولا ينفعان
ولا يضران ولا لهما تصرف في أنفسهما وذواتهما البتة فضلا عن إعطائهما كل ما في العالم من خير وشر
وصلاح وفساد بل كل ما فيه من ذلك فهو من رب واحد إله وكليا وحده سبحانه تعالى الله عن قول المفترين المشركين علوا
كبيرا وفي قوله صلى الله عليه وسلم لا ينكسفان لموت أحد ولا لحياته قولان أحدهما أن موت الميت
وحياته لا يكون سببا في انكسافهما كما كان يقوله كثير من جهال العرب وغيرهم عند الانكساف أن ذلك
لموت عظيم أو لولادة عظيم فأبطل النبي صلى الله عليه وسلم ذلك وأخبر أن موت الميت وحياته لا تؤثر في
كسوفهما البتة والثاني أنه لا يحصل عن انكسافهما موت ولا حياة فلا يكون انكسافهما سببا لموت
ميت ولا لحياة حي وإنما ذلك تخويف من الله لعباده أجرى العادة بحصوله في أوقات معلومة بالحساب
كطلوع الهلال وإبداره وسراره فأما سبب كسوف الشمس فهو توسط القمر بين جرم الشمس وبين أبصار
فإن القمر عندهم جسم كثيف مظلم وفلكه دون فلك الشمس فإذا كان على مسامتة إحدى نقطتي الرأس
أو الذنب أو قريبا منهما حالة الاجتماع مع الشمس حال بيننا وبين نور الشمس كسحاب يمر تحتها إلى أن
يتجاوزها من الجانب الآخر فإن لم يكن للقمر عرض ستر عنا نور كل الشمس وإن كان له عرض فبقدر
ما يوجبه عرضه وذلك لأن الخطوط الشعاعية تخرج من بصر الناظر إلى المرئي على مخروط رأسه
نقطة البصر وقاعدته عند جرم المرئي فإذا وهمنا أبصارنا إلى جرم الشمس حالة كسوفها فإنه
ينتهي إلى القمر أولا بمخروط الشعاع فإذا توهمنا نفوذه إلى الشمس وقع جرم الشمس وسط المخروط
وإن لم يكن للقمر عرض انكسف كل الشمس وإن كان للقمر عرض فبقدر ما يوجبه عرضه ينحرف جرم الشمس عن مخروط
الشعاع ولا يقع كله فيه فينكسف بعضه ويبقى الباقي على ضيائه وذلك إذا كان العرض المرئي أقل
من نصف مجموع القطرين كان صفحة القمر بما بين مخروط الشعاع فلا تنكسف ولا يكون كسوفا للشمس في
لا أن فلكه عند المخروط المتصل بالشمس منا ولتظن أنها لكنها بالقدر إلى القمر بالحركة بعد تمام الموازنة ينكشف
الشمس بحركة المخروط ما ابتدأ النقي بالانتقال إلا أن اللون للشمس يختلف باختلاف أوضاع المساكن
حتى لو تحجب بعضها ولا يرى في بعضها ويرى في بعضها أقل وفي بعضها أكثر بسبب اختلاف المنظر إذ الكاسف
ليس عارضا في جرم الشمس ليستوي فيه النظار من جميع الأماكن بل الكاسف شيء متوسط بينها وبين
الأبصار وهو قريب منا والمحجوب عنا بعيد فيختلف التوسط باختلاف مواضع الناظرين وكذلك يختلف
كسوف الشمس في مبادئه عند انجلائها وفي كمية ما ينكسف منها وفي زمان كسوفها الذي هو من أول
إلى وسط الكسوف ومن وسط الكسوف إلى العود إلى الانجلاء فإن قيل فجرم القمر أصغر من جرم الشمس بكثير

وكيف يحجب عنا كل الشمس قيل انما يحجب عنا جرم الشمس لقربه منا وبعدها عنا لان الشيئين المختلفين في الصغر
والكبر اذا قرب الصغير من الكبير يرى من اطراف الكبير اكثر ما يرى منها مع بعد الاصغر عنه وكلما بعد الاصغر
عنه وازداد قربه من الناظر ينقص ما يرى من اطراف الاكبر الى ان ينتهي الى حد لا يرى من الاكبر شي والحس يشاهد
بذلك واما سبب خسوف القمر فهو توسط الارض بينه وبين الشمس حتى يصير القمر ممنوعا عن اكتساب النور من الشمس
ويبقى في ظلام ظل الارض في ممره لان القمر لا ضوء له ابدا وانما يكتسب الضوء من الشمس وهل هذا الاكتساب خاص بالقمر
ام يشاركه فيه ساير الكواكب فيه قولان لارباب الهيئة احدهما ان الشمس وحدها هي المضيئة بذاتها وغيرها
من الكواكب مستضيئة بغيرها على سبيل العرض كما في القمر والقول الثاني ان القمر مخصوص بالكمودة
دون ساير الكواكب وغيره من الكواكب مضيئة بذاتها كالشمس ورد هولاء على ارباب القول الاول بان الكواكب
لو استفادت اضواءها من الشمس لاختلف مقادير تلك الاضواء فيما كان تحت فلك الشمس منها بسبب القرب والبعد
من الشمس كما في القمر فانه يختلف ضوءه بحسب قربه وبعده من الشمس والذي حمل ارباب القول الاول على ما ذهبوا اليه
من تعلق حركات الكواكب بحركات الشمس وظنوا ان اضواءها ايضا منها وليس الغرض استيفاء الحجاج من الجانبين
وما لكل قول وما عليه والمقصود ذكر سبب الخسوف القمري ولما كانت الارض جسما كثيفا فاذا اشرقت
الشمس على جانب منها فانه يقع لها ظل في الجهة الاخرى لان كل ذي ظل يقع في الجهة المقابلة للجرم المضيء فمتى
اشرقت عليها من ناحية المشرق وقع الظل الى ناحية المغرب واذا وقعت عليها من ناحية المغرب انبسط ظلها الى
ناحية المشرق والارض اصغر حجما من الشمس لهذا يقع ظلها ويرتفع في الهواء على شكل مخروط قاعدته
في سطح تدوير الارض ثم لا يزال ينخرط تدويرا حتى يدق وينتهي لان قطر الشمس لما كان اعظم من قطر الارض
فالخطوط الشعاعية المارة من جوانب الشمس الى جوانب الارض تكون متلاقية لا متوازية فاذا مرت على الاستقامة
الى الارض بعدت على جوانبها فتلتقي لا محالة الى نقطة فينحصر ظل الارض في سطح مخروط فيكون مخروطا لا محالة
قاعدته حيث سعة من الارض ورأسه عند نقطة تلاقي الخطوط ولو كان قطر الارض مساويا لقطر الشمس
لكانت الخطوط الشعاعية تخرج اليها على التوازي فيكون الظل متساوي الغلظ الى ان ينتهي الى محيط العالم ولو
كان قطر الشمس اصغر من قطر الارض لكانت الخطوط تخرج على التلاقي في جهة الشمس واوسعها عند قطر الارض
ولكان الظل يزداد غلظا كلما بعد عن الارض الى ان ينتهي الى محيط العالم ويلزم من ذلك ان ينخسف القمر في كل استقبال
والوجود بخلافه ولما ثبت ان ظل الارض مخروطي الشكل وقد وقع في الجهة المقابلة لجهة الشمس فيكون نقطة راسه
في سطح فلك البروج لا محالة ويدور بدوران الشمس مسامتا للنقطة المقابلة لموضع الشمس فيكون الظل الذي
يكون فوق الارض هو الليل فان كانت الشمس فوق الارض كان الظل تحت الارض بالنسبة الى الساكنين

وذلك النهار والزمان الذي يوازي دوام الظل فوق الارض هو زمان الليل فاذا اتفق مرور القمر على محاذاة
نقطتي الراس والذنب حالة الاستقبال يقع في مخروط الظل لا محالة لان الخط الخارج من مركز العالم المار بمركز
الشمس ثم بمركز القمر من الجانب الاخر يستقيم على سهم مخروط الظل فيقع القمر في وسط المخروط فينخسف كله
ضرورة لان الارض منعته من قبول ضياء الشمس فيبقى القمر على جوهره الاصلي فان كان للقمر عرض يحرف عن سهم
المخروط بقي الضوء فيه بقدر عرضه وقد يقع كله في المخروط وبقي بعضه خارجا وربما يماس مخروط الظل
ولا ينخسف من جرمه شي وانما يختلف هذا باختلاف بعده عن الخط الخارج من مركز العالم المار بمركز الشمس المطابق
لسهم المخروط حتى اذا عظم عرضه بان لا يكون بينه وبين احدى نقطتي الراس والذنب اكثر من اثنا عشر دقيقه
لا يماس المخروط اصلا واذا وقع في جانب منه قل مكثه وربما لم يكن له مكث اصلا وانما يعرف ذلك بتقديم
معرفة قطر الظل وقطر القمر يختلف باختلاف ابعاده عن الارض وكذلك قطر الظل ايضا يختلف باختلاف ابعاد
الشمس عن الارض فان الشمس متى قربت من الارض كان ظل الارض دقيقا قصيرا واذا بعدت عنها كان ظل الارض
طويلا غليظا لانها متى بعدت عن الارض يرى قطرها اصغر واقرب تلاقيا منها وكلما كان اعظم بعدا الى
راى العين فالخطوط الشعاعية اقصر واقرب تلاقيا فلذلك يختلف قطع القمر غلظ الظل في اوقات الكسوفات
والموضع الذي يقطعه القمر من الظل يسمونه فلك الجوزهر واذا عرف قطر الظل وعرف مقدار قطر نصف القمر وجمع
بينهما ونصف ذلك وعرف عرض القمر ان كان له عرض فان كان العرض مساويا للنصف مجموع القطرين فان القمر
يماس دايرة الظل ولا ينكسف وان كان العرض اقل من نصف مجموعهما فانه ينكسف شطر ان كان مساويا للنصف
قطر الظل انكسف من القمر مثل نصف صفحته وان كان العرض اقل من نصف قطر الظل فينقص العرض من
نصف قطر الظل فان كان الباقي مثل قطر القمر انكسف كله ولا يكون له مكث حتى اذا لم يكن له عرض انكسف كله
ويمكث زمانا اكثر واطول ما يمتد زمان الكسوف القمري اربع ساعات واما زمان الكسوف الشمسي فلا يزيد على
ساعتين وكسوف القمر لا يختلف باختلاف اوضاع المساكن اذ الكسوف عارض في جرمه وهو غيبوبته في ظلام ظل
الارض بخلاف كسوف الشمس وانما يختلف الوقت فيظهر في اول بعض المساكن على مضي ساعة من الليل وفي بعضها على مضي
نصف ساعة وقد يطلع منكسفا في بعض المساكن وينكسف بعد الطلوع في بعضها وقد لا يرى منكسفا اصلا اذا كانت
الشمس فوق الارض حالة الاستقبال ويرى الخسوف في القمر ابتداء من طرفه الشرقي اذ هو الذاهب الى الاستقبال
نحو المشرق والدخول في الظل بحركته ثم ينحرف قليلا قليلا الى الشمال او الجنوب في بدء انجلائه ايضا من طرفه
الشرقي واما [illegible] الكسوف من طرفها الغربي اذا لكاسف لها يأتي اليها من ناحية المغرب وكذلك
[illegible] ايضا من الطرف الغربي ثم ربما ينحرف منه الى الشمال او الجنوب وانما ذكرنا هذا الفصل ولم يكن

من عرضنا الان ذكر ان هؤلاء الاحكاميين يموهون على الجهال بامر الكسوف ويوهمونهم ان قضاياهم واحكامهم النجومية من السعد والنحس والظفر والغلبة وغيرها هي من جنس الحكم بالكسوف فيصدق بذلك الاغمار والرعاع ولا يعلمون ان الكسوف يعلم بحساب سير النيرين في منازلهما وذلك امر قد اجرى الله العادة المطردة به كما اجراها في الابدار والسرار والهلال فمن علم ما ذكرناه في هذا الفصل علم وقت الكسوف ودوامه ومقداره وشبهه واما ما يقتضي من التاثيرات في الخير والشر والسعد والنحس والاماتة والاحياء كذا وكذا فالحكم به المنجمون فيقولون على الله وعلى خلقه ما لا يعلمون نعم لا ينكر ان الله سبحانه وتعالى يحدث عند الكسوفين من اقضيته واقداره ما يكون بلاء لقوم ومصيبة لهم ويجعل الكسوف سببا لذلك ولهذا امر النبي صلى الله عليه وسلم عند الكسوف بالفزع الى ذكر الله والصلاة والعتاقة والصدقة والصيام لان هذه الاشياء تدفع موجب الكسف الذي جعله الله سببا لما جعله فلولا انعقاد سبب التخويف لما امر بدفع موجبه بهذه العبادات ولله تعالى في ايامه اوقات يحدث فيها ما يشاء من البلاء والنعماء ويقضي من الاسباب بما يدفع موجب تلك الاسباب لمن قام به او يقلله او يخففه فمن فزع الى تلك الاسباب او بعضها اندفع عنه الشر الذي جعل الله الكسوف سببا له او بعضه ولهذا اقل ما يسلم اطراف الارض حيث يخفى الايمان وما جاءت به الرسل فيها من شر عظيم يحصل بسبب الكسوف ويسلم منه الاماكن التي يظهر فيها نور النبوة والقيام بما جاءت به الرسل او يقل فيها فلما كسفت الشمس على عهد النبي صلى الله عليه وسلم قام فزعا مسرعا يجر رداءه ونادى في الناس الصلاة جامعة وخطبهم تلك الخطبة البليغة واخبر انه لم ير كيومه ذلك في الخير والشر وامرهم عند حصول مثل تلك الحالة بالعتاقة والصدقة والصلاة والتوبة فصلوات الله وسلامه على اعلم الخلق بالله وبامره وشانه وتعريفه بامور مخلوقاته وتدبيره وانصحهم للامة ومن دعاهم الى ما فيه سعادتهم في معاشهم ومعادهم ونهاهم عما فيه هلاكهم في معاشهم ومعادهم ولقد جنى على ما جاءت به الرسل طائفتان هلك بسببهما من شاء الله ونجا من سبقت له العناية من الله احدى الطائفتين وقعت بما شاهدته وعلمته من امور هذه الاسباب والمسببات واحالت الامر عليها وعطلت اصل الدين وجرت لاجلها العالم وجحدت ما جاءت به الرسل وكفرت بالله وصفاته وافعاله ولم يعلم هؤلاء ان الرجل يكون اماما في الحساب وهو اجهل خلق الله بالطب والهيئة والمنطق ويكون راسا في الطب وهو من اجهل الخلق بالحساب وهذه علوم متقاربة والبعد بينها وبين علوم الرسل التي جاءت بها عن الله اعظم من البعد بين بعضها وبعض فاذا كان الرجل اماما في هذه العلوم ولم يعرف ما جاءت به الرسل ولا تحلى بعلوم الاسلام فهو كالامي بالنسبة الى علومهم بل ابعد منه وهل يلزم من معرفة الرجل هيئة الافلاك والطب والهندسة والحساب ان يكون عالما بالالهيات واحوال النفوس البشرية وصفاتها ومعادها وسعادتها وشقاوتها وهل هذا الا بمنزلة من يظن ان الرجل اذا كان عالما باحوال

الابنية واوضاعها ووزن الانهار والقنى والقنيطه كان عالما بالله واسمائه وصفاته وما ينبغي له وما يستحيل عليه فعلوم هؤلاء بمنزلة هذه العلوم التي هي نتائج الافكار والتجارب وما لها ولعلوم الانبياء التي يتلقونها عن الله بوسائط الملائكة هذا وان تعلق الرياضات التي هي نظر في نوعي الكم المتصل والمنفصل والمنطقيات التي هي نظر في المعقولات الثواني ونسبة بعضها الى بعض بالكلية والجزئية والسلب والايجاب وغير ذلك بمعرفة رب العالمين واسمائه وصفاته وافعاله وامره ونهيه وما جاءت به رسله وثوابه وعقابه ومن الخدع الملبسة قول الجهال ان فهم هذه الامور موقوف على فهم هذه القضايا العقلية وهذا هو عين الجهل والحمق وهو بمنزلة قول القائل لا يعرف حدوث الرمانة من لم يعرف عدد حباتها وكيفية تركيبها وطبعها ولا يعرف حدوث العين من لم يعرف عدد طبقاتها وشرحها وما فيها من التركيب ولا يعرف حدوث هذا البيت من لم يعرف عدد لبناته واخشابه وطبائعها ومقاديرها وغير ذلك من الكلام الذي يضحك منه كل عاقل وينادي على جهل قائله وحمقه بل العلم بالله واسمائه وصفاته وافعاله ودينه لا يحتاج الى شيء من ذلك ولا يتوقف عليه وايات الله التي دعا عباده الى النظر فيها دالة عليه باول النظر دلالة يشترك فيها كل سليم العقل والحاسة واما دلالة هؤلاء الحيارى فوهمية وشبه عسرة المدرك بعيدة التحصيل متناقضة الاصول غير مودية الى معرفة الله ورسله والتصديق بها مستلزمة للكفر بالله وجحد ما جاءت به الرسل ومن وازن بين الامرين تجشم نظره له التفاوت واما من قلدهم واحسن ظنه بهم ولم يعرف حقيقة ما جاءت به الرسل فليس هذا عشه بل هو في اودية الضلال هائم حيران ينقاد لكل حيران

بعيد وابن العلم في ثوبين من ظلم معلمين بحرمان وخذلان

والطائفة الثانية رات مقابلة هؤلاء برد كل ما قالوه من حق وباطل وظنوا ان من ضرورة تصديق الرسل رد ما علمه هؤلاء بالعقل الضروري وعلموا مقدماته بالحس فنازعوهم فيه وتعرضوا لابطاله بمقدمات جدلية لا تغني من الحق شيئا وليتهم مع هذه الجناية العظيمة لم يضيفوا ذلك الى الرسل بل زعموا ان الرسل جاؤوا بما يقولونه فساء ظن الملاحدة بالرسل وظنوا انهم هم اعلم واعرف منهم ومن حسن ظنه منهم بالرسل قال انهم لم يخف عليهم ما يقولونه ولكن خاطبوهم بما يحتمل عقولهم من الخطاب الجمهوري النافع للجمهور واما الحقائق فكتموها عنهم والذي تسلط على هؤلاء جحد هؤلاء لحقهم ومكابرتهم اياهم على ما لا يمكن المكابرة عليه مما هو معلوم لهم بالضرورة كمكابرتهم اياهم في كون الافلاك كرية الشكل والارض كذلك وان نور القمر مستفاد من نور الشمس وان الكسوف القمري عبارة عن امحاء ضوء القمر بتوسط الارض بينه وبين

الشمس من حيث انه يقتبس نوره منها والارض كرة والسماء محيطة بها من الجوانب فاذا وقع القمر في ظل
الارض انقطع عنه نور الشمس كما قدمناه وكقولهم ان الكسوف الشمسي معناه وقوع جرم القمر بين الناظر
وبين الشمس عند اجتماعهما في العقدتين على دقيقة واحدة وكقولهم بتاثير الاسباب المحسوسة في مسبباتها
واثبات القوى والطبايع والافعال والانفعالات مما تقوم عليه الادلة العيانية والبراهين اليقينية
فيحرض هولاء معهم في ابطاله فيغريهم ذلك بتكفيرهم والجاديهم والوصية لاصحابهم بالتمسك بما هم عليه
فاذا قيل لهم هولاء هذا الذي يذكرونه على خلاف الشرع والمصير اليه هو تكذيب بالرسل لم يستريبوا
فيه ذلك ولم يلحقهم فيه شك ولكنهم يسيئون بالشرع وتنقص مرتبة الرسل في قلوبهم وضرر الدين وما
جاءت به الرسل بهولاء من اعظم الضرر وهو كضرر اولئك الملاحدة فهما ضرران عظيمان على الدين ضرر
من يطعن فيه وضرر من ينصره بغير طريقه وقد قيل ان العدو العاقل اقل ضررا من الصديق
الجاهل فان الصديق الجاهل يضرك من حيث يقدر انه ينفعك والشأن كل الشأن ان يجعل العاقل صديقك
ولا تجعل عدوك يعرفه بمحاربة الدين واهله فان قيل قد اطلت في شان الكسوف واسبابه وجئت
بما شئت من البيان الذي انه لم يشهد له الشرع بالصحة لم يشهد له بالبطلان بل جاء الشرع بما هو اهم
منه واجل فائدة من الامر عند الكسوفين بما يكون سببا لفلاح الامة في معاشها ومعادها واما اسباب
الكسوف وحسابه والنظر في ذلك فانه من العلم الذي لا يضر الجهل به ولا ينفع نفع العلم بما جاءت به الرسل
وان كان لا يخلو عن منفعة ولكن وهذا هو الفرق بين العلوم التي جاءت بها الرسل وبين علوم هولاء
فكيف يصنع بالحديث الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم ان الشمس والقمر ايتان من ايات الله لا ينكسفان لموت
احد ولا لحياته فاذا رايتم ذلك فافزعوا الى ذكر الله والصلاة فكيف يلائم هذا ما قاله هولاء في الكسوف
قيل واي مناقضة بينهما وليس فيه الا نفي تاثير الكسوف في الموت والحياة على احد القولين او نفي تاثير النيرين
بموت احد او حياته على القول الاخر وليس فيه تعرض لابطال حساب الكسوف ولا الاخبار به من الغيب الذي لا
يعلمه الا الله وامر النبي صلى الله عليه وسلم عنده بما امر به من العتاقة والصلاة والدعاء والصدقة كامره بالصلوات
عند الفجر والغروب والزوال مع تضمن ذلك دفع موجب الكسوف الذي جعله الله سبحانه سببا له فشرع النبي صلى الله
عليه وسلم للامة عند انعقاد هذا السبب ما هو انفع لهم واجدى عليهم في دنياهم واخراهم من اشتغالهم بعلم الهيئة
وشان الكسوف واسبابه فان قيل فما تصنعون بالحديث الذي رواه ابن ماجه في سننه والامام احمد
والنسائي من حديث النعمان بن بشير رضي الله عنه قال انكسفت الشمس في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فخرج
فزعا يجر ثوبه حتى اتى المسجد فلم يزل يصلي حتى انجلت ثم قال ان ناسا يزعمون ان الشمس والقمر لا ينكسفان الا

لموت عظيم من العظماء وليس ذلك كذلك ان الشمس والقمر لا ينكسفان لموت احد ولا لحياته فاذا تجلى الله لشيء
من خلقه خشع له قيل وهذه قال ابو حامد الغزالي هذه الزيادة لم يصح نقلها فيجب تكذيب قائلها وانما
المروي ما ذكرناه يعني الحديث الذي ليس فيه هذه الزيادة قال ولو كان صحيحا لكان تاويله اهون
من مكابرة امور قطعية فكم من ظواهر اولت بالادلة العقلية التي لا تنتهي في الوضوح الى هذا الحد واعظم
ما يفرح به الملحدة ان يصرح ناصر الشرع بان هذا وامثاله على خلاف الشرع فيسهل عليه طريق ابطال الشرع
ان كان شرطه امثال ذلك وليس الامر في هذه الزيادة كما قاله ابو حامد فان اسنادها لا مطعن فيه
قال ابن ماجه حدثنا محمد بن المثنى واحمد بن ثابت ومحمد بن الحسن قالوا حدثنا عبد الوهاب ثنا خالد الحذاء
عن ابي قلابة عن النعمان بن بشير رضي الله عنه فذكره وهولاء كلهم ثقات حفاظ ولكن لعل هذه اللفظة
مدرجة في الحديث من كلام بعض الرواة ولهذا لا توجد في سائر احاديث الكسوف فقد
رواها عن النبي صلى الله عليه وسلم بضعة عشر صحابيا عائشة ام المومنين واسماء بنت ابي بكر وعلي بن ابي طالب
وابي بن كعب وابو هريرة وعبد الله بن عباس وعبد الله بن عمرو وجابر بن عبد الله وسمرة بن جندب وقبيصة
الهلالي وعبد الرحمن بن سمرة فلم يذكر احد منهم في حديثه هذه اللفظة التي ذكرت في حديث النعمان
ابن بشير فمن ههنا مسلكا بديع المأخذ لطيف المنزع يعقله العقل المستقيم والفطرة السليمة وهو
ان كسوف الشمس والقمر يوجب لهما من الخشوع والخضوع بانمحاء نورهما وانقطاعه عن هذا العالم
ما يكون فيه ذهاب سلطانهما وبهائهما وذلك يوجب لا محالة لهما من الخشوع والخضوع لرب العالمين
وعظمته وجلاله ما يكون سببا لتجلي الرب تبارك وتعالى لهما ولا يستنكر ان يكون تجلي الله سبحانه لهما
في وقت معين كما يدنو من اهل الموقف عشية عرفة وكما ينزل كل ليلة الى سماء الدنيا عند مضي نصف الليل
فيحدث لهما بالتجلي خشوع اخر ليس هو الكسوف ولم يقل النبي صلى الله عليه وسلم ان الله اذا تجلى لهما انكسفا
ولكن اللفظة فاذا تجلى الله لشيء من خلقه خشع له ولفظ الامام احمد في الحديث اذا بدا الله لشيء من خلقه خشع
له فههنا خشوعان خشوع اوجب كسوفهما بذهاب ضوئهما وانمحائه فيتجلى الله سبحانه لهما فيحدث لهما عند
تجليه تعالى خشوع اخر بسبب التجلي كما حدث للجبل اذ تجلى تبارك وتعالى له ان صار دكا وساخ في الارض
وهذا غاية الخشوع لكن الرب تبارك وتعالى يثبتهما لتجليه عناية بخلقه لانتظام مصالحهم بهما ولو
شاء سبحانه لثبت الجبل لتجليه كما يثبتهما ولكن ارى كليمه موسى صلى الله عليه وسلم ان الجبل العظيم لم يطق الثبات لتجليه فكيف
يطيق الثبات للروية في الدنيا لها

فصل واما استدلاله بحديث ابن مسعود عن النبي صلى
الله عليه وسلم اذا ذكر القدر فامسكوا واذا ذكر اصحابي فامسكوا واذا ذكر النجوم فامسكوا فهذا الحديث

لو ثبت لكان حجة عليكم لا لكم اذ لو كان علم الاحكام النجومية حقا لا باطلا لم ينه عنه النبي صلى الله عليه وسلم
ولا امر بالامساك عنه فانه لا ينهى عن الكلام في الحق بل هذا يدل على ان الخائض فيه خائض فيما لا علم له به
وانه لا ينبغي له ان يخوض فيه ويقول على الله ما لا يعلم فاين في هذا الحديث ما يدل على صحة علم احكام النجوم
واما حديث النهي عن السفر والقمر في العقرب فصحيح من كلام المنجمين واما رسول رب العالمين
فمن نسب اليه هذا الحديث وامثاله فهو من ابعد الناس عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وعما جاء به علما وعملا
بل ليس عنده من الرسول الا اسمه وهل يسوغ لمنتسب الى الاسلام ان يظن برسول الله صلى الله عليه وسلم ان يقول
هذا الحديث وامثاله ولكن اذا بعد الانسان عن نور النبوة واشتدت غربته مما جاء به الرسول جوز عقله
مثل هذا كما يجوز عقل المشرك ان يقول النبي صلى الله عليه وسلم لو حسن احدكم ظنه بحجر نفعه وهذا يجوز
كلام عباد الاصنام الذين حسنوا ظنهم بالاحجار فما نفعهم حسن ظنهم الا دار البوار واما الرواية عن علي انه
نهى عن السفر والقمر في العقرب فمن الكذب على علي رضي الله عنه والمشهور عنه خلاف ذلك وعكسه وانه
لما اراد الخروج لحرب الخوارج اعترضه منجم فقال يا امير المومنين لا تخرج فان القمر في
العقرب فان خرجت اصبت وهزم عسكرك فقال علي رضي الله عنه ما كان لرسول الله صلى الله عليه وسلم منجم
ولا لابي بكر ولا لعمر بل اخرج ثقة بالله وتوكلا على الله وتكذيبا لقولك فما سافر بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم
سفرة ابرك منها قتل الخوارج وكفى المسلمين شرهم ورجع مؤيدا منصورا فائزا ببشارة النبي صلى الله عليه وسلم لمن
قتلهم حيث يقول شر قتلى تحت اديم السماء خير قتيل من قتلوه وفي لفظ طوبى لمن قتلهم وفي لفظ
لمن قتلهم اولى الطائفتين بالحق وفي لفظ لان ادركتهم لاقتلنهم قتل عاد وقال علي كرم الله
وجهه لاصحابه لولا ان تبطروا لحدثتكم بما لكم عند الله في قتلهم وكان الظفر ببركة خلاف ذلك المنجم وتكذيبه
والثقة بالله دون النجوم والاعتماد عليه وهذه سنة الله فيمن لم يلتفت الى النجوم ولا بنى عليها حركاته
وسكناته واسفاره واقامته كما ان سنته فيمن كان بضد ذلك ان يكون عاقبته ما يحذرونه وفي هذا ما
يكفي اللبيب المنور والله الموفق **فصل** والذي اوجب للمنجمين كراهة السفر والقمر في
العقرب انهم قالوا السفر مراد للخير والربح فاذا كان الوصول الى ذلك الامر اسرع كان اجود
فينبغي على هذا ان يكون القمر في برج منقلب والعقرب برج ثابت والثوابت عندهم تدل على الامور البطيئة
قالوا وايضا البرج للمريخ والمريخ عندهم نحس اكبر والنحس يحرق الحظوظ على اصحابها فينبغي ان لا
يكون القمر في برج نحس لان السعد يسعد والنحس ينحس وايضا فان هذا البرج هو برج هبوط القمر
واذا كان الكوكب في هبوطه لا يلتئم لصاحبه ما يريده ويتعسر بل يكون رديا لا على انه كالكوكب الهابط

عندهم كالمنكس وايضا فان القمر عندهم رب تاسع العقرب واذا كان رب التاسع منحوسا فالسفر
مكروه لان التاسع منسوب الى السفر وبالجملة فان العقرب عندهم شر البروج للقمر على الاطلاق قالوا والملك
ينبغي الحذر من السفر والقمر في العقرب قالوا فمن خرج الى السفر اذ ذاك فانما ذهب بعلمه وعقله وامير
المومنين علي بن ابي طالب كرم الله وجهه اعقل اهل زمانه واعلمهم فهو اولى بكراهته وليس ذلك
مخصوصا عندهم بالسفر وحده بل يكرهون جميع الابتداءات والاختيارات والقمر في العقرب
ولما كان القمر اسرع الكواكب حركة فهو اولى ان يكون دليلا على الامور المتنقلة والسفر من تنقل
والعقرب برج منقلب غرابات والتجربة والواقع من اكبر شاهد على كذبهم في هذا الحكم فكم ممن سافر
وتزوج وابتداء واجتاز والقمر في العقرب ولم يرد عليه الا ما كان يؤمله ولا يزال الناس ينشئون
الاسفار والابتداءات والاختيارات في كل وقت والقمر في العقرب وغيره ويحمدون عواقب اسفارهم
كما انشأ امير المومنين علي بن ابي طالب رضي الله عنه سفره لجهاد الخوارج والقمر في العقرب وانشأ
المعتصم سفره لفتح عمورية وجهاد اعداء الله والقمر في العقرب وقد اجمع الكذابون ان من خرج
كسر عسكره وقتل او اسر فنصر الله المسلمين ذلك اليوم بذلك الفتح الجليل ولو استقصينا امثال هذه
الوقائع لطال الامر جدا ومن اراد ان يعلم ذلك قطعا فليبتدئ سفرا او اختيارا او بناء او غيره
والقمر في العقرب وليتوكل على الله وليسافر فانه يرى ما يغبطه ويسره ومن ابين الكذب والبهت
الكذب على الحس والوقائع وهذا الذي ذكرتموه وحذرتم منه لو كان الواقع شاهدا به لكان
الناس لا يحتاجون ولا يسافرون ولا يبتدئون شيئا البتة والقمر في العقرب ولكان علمهم بهذا
وتجربتهم له معلوما بالضرورة فكيف والامر بالعكس وايضا فانهم قد يكون القمر في العقرب
ويجامعه السعود وهما المشتري والزهرة مثلا ويكون رب بيت السفر وبيت الطالع وبيت السفر ايضا
سعودات فهلا قلتم ان السفر حينئذ يكون صالحا لاجتماع هذه السعودات في البرج المنقلب واجتماعها
يكسبها قوة بل قد قلتم لا يكون القمر في العقرب مسعودا وان جامع السعود بل قالوا ان السعود ايضا
تنحس فيه فاذا حل السعود في العقرب انحست فيه ولذلك قلتم ان الشمس اذا حلت فيه ضعفت ايضا
جدا وان ربعها السعدان اعني المشتري والزهرة فلو قلب عليكم هذا الاستدلال وقيل اذا حلت
السعود في هذا البرج قوي فعلها وتظافر بعضها مع بعض فيقوى السعد باجتماعها ولم يقو البرج على
احالتها وقوة زحل والمريخ النحسين على هذا البرج لا يستلزم احالته هذه السعود بل يوقف القائل ان
سعادتها تؤثر في نحسهما كان من جنس قولكم وههنا قال ابو نصر الفارابي واعلم انك لو قلبت

اوضاع المنجمين فجعلت السعد نحسًا والنحس سعدًا والحار باردًا وعكسه ثم حكمت لكانت احكامك من جنس
احكامهم تصيب وتخطي **فصل** واما ما احتج به من الاثر المذكور عن علي كرم الله وجهه ان
رجلا اتاه فقال اني اريد السفر وكان ذلك في محاق الشهر فقال تريد ان يمحق الله تجارتك استقبل هلال
الشهر بالخروج فهذا لا يعلم ثبوته عن علي والكذابون كثيرا ما ينفقون سلعهم الباطلة بنسبتها الى علي واهل
بيته كاصحاب القرعة والجفر والبطاقة والهفت والكيميا والملاحم وغيرها فلا ادري ما الكذب على اهل
البيت والله المستعان ثم لو صح هذا عن علي رضي الله عنه لم يكن فيه تعرض لثبوت احكام النجوم بوجه ولا ريب
ان استقبال الاسفار والاعمال في اوائل النهار والشهر والعام لها مزية والنبي صلى الله عليه وسلم قد دعا
اللهم بارك لامتي في بكورها وكان صخر الغامدي راوي الحديث اذا بعث تجارة له بعثها في اول النهار فاثرى
وكثر ماله ونسبة اول النهار اليه كنسبة اول الشهر اليه واول العام اليه فللاوائل مزية القوة واول النهار
والشهر بمنزلة شبابه واخره بمنزلة شيخوخته وهذا امر معلوم بالتجربة وحكمة الله تعالى تقتضيه واما ما ذكره
عن اليهودي الذي اخبر ابن عباس بما اخبره من موت ابنه الى تمام ذكره القصة له فهذه الحكاية ان صحت
فهي من جنس اخبار الكهان بشيء من المغيبات وقد اخبر ابن صياد النبي صلى الله عليه وسلم بما خبا له في ضميره
فقال له انما انت من اخوان الكهان وعلم تقدمة المعرفة لا يختص بما يذكره المنجمون بل له عدة اسباب تصيب
وتخطي ويصدق الحكم معها ويكذب منها الكهانة ومنها المنامات ومنها الفال والزجر ومنها السانح
والبارح ومنها العرافة ومنها الحزاية ومنها علم الحروف وخواصها الى غير ذلك التي ينال بها جزء يسير
من علم الكهان وهذا نظير الاسباب التي يستدل بها الطبيب والفلاح والطبائعي على امور غيبية يقتضيها
تلك الادلة مثاله الطبيب اذا راى الجرح مستديرا حكم بانه عسر البرء واذا راه مستطيلا حكم
بانه اسرع برءًا وكذلك علامات البحارين وغيرها ومن تامل ما ذكره بقراط في علامات الموت راى العجائب
وهي علامات صحيحة مجربة وكذلك ما علمه الربان في امور تحدث في البحر والريح بعلامات تدل على ذلك
من طلوع كوكب او غروبه او علامات اخرى فيقول يقع مطر او تحدث ريح كذا وكذا او يضطرب البحر مكان
كذا ووقت كذا فيقع ما يحكم به وكذلك الفلاح يرى علامات فيقول هذا الزرع يصيبه كذا وتيبس في وقت
كذا وهذه الشجرة لا تحمل العام وهذه تحمل وهذا النبات يصيبه كذا وكذا الى ما يرى من علامات
يختص هو بمعرفتها بل هذا امر لا يختص بالانسان بل كثير من الحيوان يعرف اوقات المطر والصحو والبرد
وغيره كما ذكره الناس في كتب الحيوان والطير الذي الخلق اذا راى الحداة [illegible] حتى يجيء وغص
[illegible] يريد البحر علما منه بما يلون بعد الحمام وهذه النملة اذا

علما منها بانه ينبت اذا كان صحيحا وانه اذا انكسر لا ينبت فاذا حرثت الكسفرة قسمتها باربعة ارباع
علما منها بانها تنبت اذا قسمتها نصفين وهذا السنور يدفن اذاه ويغطيه بالتراب علما منه بان
الفار يهرب من رايحته فيفوته الصيد ويتمه او فانه وجد رايحته شديدة غطاه بحيث يوارى
الرايحة والجرم واذا اعيى باشر التغطية وهذا الاسد اذا مشى في لين يجر ذنبه على اثار رجليه في
ليعفيها علما منه بان المار يرى مواطي رجليه ويديه واذا الف السنور المنزل منع غيره من السنانير
الدخول الى ذلك المنزل وحاربهم اشد محاربة وهم من جنسه علما منه بان اربابه ربما استحسنوه وقدموه
عليه او شاركوه بينه وبين المطعم واذا اخذ شيئا مما يحرمه اصحاب المنزل عنه هرب علما منه بما يكون
اليه منهم من الضرب فاذا ضربوه تملقهم اشد التملق وتمسح بهم ولطع اقدامهم علما منه بما يحصل له
الملق من العفو والاحسان وهذا في الحيوان البهيم اكثر من ان يذكر فله من تقدمة المعرفة ما يليق
به وللخيل والحمام من ذلك عجائب وكذلك الثعلب وغيره فعلم ان هذا امر عام للانسان والحيوان اعطى
من تقدمة المعرفة بحسبه واسباب هذه التقدمة تختلف والامم الذين لم يتقيدوا بالشرائع لهم
اعتبار عظيم بهذا وكذلك من قل التفاته واعتناؤه بما جاءت به الرسل فانه يشتد التفاته ويكثر نظره
واعتناؤه بذلك واما اتباع الرسل فقد اغناهم الله بما جاءت به الرسل من العلوم النافعة والاعمال
الصالحة عن هذا كله فلا يعتنون به ولا يجعلونه من مطالبهم المهمة لانهم يطلبون اعلى واجل من هذا
ومع هذا فلهم منه اوفر نصيب بحسب متابعتهم الرسل من الفراسة الصادقة والمنامات الصحيحة
والكشوفات المطابقة وغيرها وهمتهم لا تقف عند شيء من ذلك بل همتهم مطالبهم نحو ما جاء به
الرسول صلى الله عليه وسلم من الهدى ودين الحق في كل مسالة وهذا اعظم الكشوف واجله وانفعه في
الدارين مع كشف عيوب النفس وافات الاعمال واما الكشف الجزئي عما اكل فلان وعما احدثه في
داره وعما جرى له في غده ونحو ذلك فهذا انما يعبا به من علت همته ومن لا يلتفت اليه ومن لا يعده شيئا
على انه يشترك فيه المؤمن والكافر والعباد الاصنام والمجوس والصابئة والفلاسفة والنصارى ومن قد
يكون فيه كثير وذلك لا ينفعهم عند الله ولا يخلصهم من عذابه وهو من اي الكهان ومن عبيد الجن والنجوم لهم
ذلك امور معروفة وهم اكفر الخلق وغاية هذا المنجم اليهودي الذي اخبر ابن عباس بما اخبر ان
يكون واحدا من هؤلاء فكان ماذا وهل يقف عند هذا الا الهمم الدنية السفلية التي لا نهضة
لها الى الله والدار الاخرة التي ليس لها بذلك من التمييز عن الهمج الرعاع كبير حاجة **فصل**
[illegible] احتجاجه [illegible] ولقد توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم وتركنا وما طائر يقلب

جناحيه الا وقد ذكر لنا منه علما فهذا حق وصدق وهو من اعظم الادلة على ابطال قولكم وتكذيبكم
فيما تدعونه من علم احكام النجوم فانه صلى الله عليه وسلم ذكر لهم علم كل شيء حتى الخراءة وذكر لهم من علم كل طائر وكل
حيوان وكل ما يأتي في هذا العالم ولم يذكر لهم من علم احكام النجوم شيئا البتة وهو صلى الله عليه وسلم
اجل من هذا واعظم وقد صانه الله سبحانه عن ذلك واما الذي ذكرتم فهذه الاحكام المشركون
عباد الاصنام والكواكب مثل بطليموس وسهلوسا وطمطم صاحب المدرج وهؤلاء مشركون عباد
اصنام وكذلك اتباعهم افلا يستحي رجل ان يذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم في هذا المقام نعم رسول الله
صلى الله عليه وسلم ذكر لامته من سلك سبيلكم وتعرفهم ومعادهم والبراءة منكم والاخبار بانكم وما تعبدون من دون الله
حصب جهنم انتم لها واردون ما يعرفه من عرف ما جاء به من براءته وبراءة البهت والفرية والكذب على الله
ورسوله هل كان رسول الله صلى الله عليه وسلم او احد من اهل بيته مثبتا لاحكام النجوم علامات لها
في حركاتها وشكلاتها واقترانها كما هو المعروف من المشركين واتباعهم سبحانك هذا بهتان عظيم واما
قولكم انه جاء في الاثار ان اول من اعطي هذا العلم ادم لانه عاش حتى ادرك من ذريته اربعين الف اهل
بيت وتفرقوا عنه في الارض فكان يغتم لخفاء خبرهم عليه فاكرمه الله بهذا العلم فكان اذا اراد
ان يعرف حال احدهم حسب له بهذا الحساب فيقف على حالته فليس هذا ببدع من بهت المنجمين
والملاحدة وافكهم وافترائهم على ادم وقد علموا بالمثل السائر هنا اذا كذبت فابعد شاهدك

فصل واما نسبة الى الشافعي من حكمه على النجوم على عمر ذلك المولود فلقد نسب الساعر
الى هذا العلم وحكمه فيه باحكام يتحير عشرها ائمة المنجمين ولطول الذي عرضه ذلك ابو عبد الله الحاكم
فانه صنف في مناقب الشافعي كتابا كبيرا وذكر علومه في ابواب وقال في الباب الرابع والعشرين في معرفة
تسيير الكواكب من علم النجوم وذكر فيه حكايات عن الشافعي تدل على تصحيحه لاحكام النجوم وكان هذا الكتاب
وقع الى الرازي فنحا فيه وزاد ونقص وصنف مناقب الشافعي من هذا الكتاب على ان كتاب الحاكم من الفوائد
ولكن كان مما لم يعلمه الرازي ان الذي عن الحاكم من هذه الحكايات ما هي له اسناد وهو يحتمل حالها الى
ان ينسبه ذلك الى الشافعي ذهب عنا وان الصحيح عنه من ذلك ما كانت العرب تعرفه من علم المنازل والاهتداء
بالنجوم في الطرقات وهذا هو الثابت الصحيح عنه باصح اسناد اليه قال الحاكم حدثنا ابو العباس
محمد بن يعقوب ثنا الربيع بن سليمان قال قال الشافعي قال الله عز وجل وهو الذي جعل لكم النجوم لتهتدوا
بها في ظلمات البر والبحر وقال تعالى وعلامات وبالنجم هم يهتدون وكانت العلامات جبالا يعرفون
مواضعها من الارض وشمسا وقمرا ونجما مما يعرفون من الفلك ورياحا يعرفون صفاتها في الهواء تدل

على قصد البيت الحرام واما الحكايات التي ذكرت في احكام النجوم فثلاث حكايات احداها قال
الحاكم قرئ على ابي يعلى حمزة بن محمد العلوي وانا حاضر ثنا ابو اسحاق ابراهيم بن محمد بن العباس الازدي
في اخرين قالوا ثنا احمد ثنا محمد بن يعقوب الجوال الدينوري ثنا عبد الله بن محمد البلوي حدثني خالي عمارة بن زيد
قال كنت صديقا لمحمد بن الحسن فدخلت معه يوما على هارون الرشيد فسايله ثم اني سمعت محمد بن الحسن وهو يقول
ان محمد بن ادريس يزعم انه للخلافة اهل قال فاستشاط هارون من قوله ذلك غضبا ثم قال علي به فلما
مثل بين يديه اطرق ساعة ثم رفع راسه اليه فقال له يا هاه قال الشافعي ما هاه يا امير المؤمنين انت الداعي
وانا المدعو وانت السائل وانا المجيب فذكر حكاية طويلة سأله فيها عن العلوم ومعرفته بها الى ان قال
كيف علمك بالنجوم قال اعرف الفلك الدائر والنجم السائر والقطب الثابت والمائي والناري وما
كانت العرب تسميه الانواء ومنازل النيرين الشمس والقمر والاستقامة والرجوع والنحوس والسعود وهياتها
وطبائعها وما استعمل في بري وبحري واستدل به على اوقات صلاتي واعرف ما مضى من الاوقات في كل
ممسى ومصبح وظعني في اسفاري قال فكيف علمك بالطب قال اعرف ما قالت الروم مثل ارسطاطاليس
ومهراريس وفرفوريوس وجالينوس وبقراط واسقلبيوس بلغاتها وما نقلت عن اطباء العرب وصنعة
عن فلاسفة الهند ونمقته علماء الفرس مثل جاماسف وشاهمرد وبزرجمهر ثم ذكر باقي العلوم على
هذا النحو في حكاية طويلة يعلم من له علم بالمنقولات انها كذب مختلق وافك مفترى على الشافعي
والبلاء فيها من عند محمد بن عبد الله البلوي هذا فانه كذاب وضاع وهو الذي وضع رحلة الشافعي
وذكر فيها مناظرته لابي يوسف بحضرة الرشيد ولم ير الشافعي ابا يوسف ولا اجتمع به قط وانما دخل بغداد
بعد موته ثم ان في سياق الحكاية ما يدل لمن له عقل على انها كذب مفترى فان الشافعي لم يعرف لغة هؤلاء
اليونان البتة حتى يقول اني اعرف ما قالوه بلغاتهم وايضا فان في هذه الحكاية ان محمد بن الحسن وشى
بالشافعي الى الرشيد واراد قتله وتعظيم محمد للشافعي ومحبته له وتعظيم الشافعي له وثناؤه عليه هو
المعروف وهو يدفع هذا الكذب وايضا فان الشافعي رحمه الله تعالى لم يكن يعرف علم الطب اليوناني بل كان
عنده من طب العرب طرف حفظ عنه منثور كلامه بعضه كنهيه عن اكل الباذنجان بالليل واكل البيض المسلوق
بالليل وكان يقول عجبا لمن يتعشى البيض وينام كيف يعيش وكان يقول عجبا لمن يخرج من الحمام ولا ياكل كيف
يعيش وعجبا لمن يحتجم ثم ياكل كيف يعيش يعني عقب الحجامة وكان يقول الجدران يشرب لهو لا الاطباء دواء
ولا تعرفونه وكان يقول لا تسكن بلدا ليس فيه عالم ينبئك عن دينك ولا طبيب ينبئك عن امر بدنك وكان يقول
لم ار شيئا انفع للوباء من البنفسج يدهن به ويشرب الى امثال هذه الكلمات التي حفظت عنه واما انه كان يعلم طب

اليونان والروم والهند والفرس بلغاتها فهذا بهت وكذب على من قد اعاذه الله من دعواه وبالجملة فمن له علم
بالمنقولات لا يسترب في هذه الحكاية عنا ولولا طولها لسقتها ليبين لكم اثر الصنعة والوضع عليها واما
الحكاية الثانية فقال الحاكم اخبرني ابو الوليد الفقيه قال حدثت عن الحسن بن سفين عن حرملة قال
كان الشافعي يديم النظر في كتب النجوم وكان له صديق وعنده جارية قد حبلت فقال انها تلد الى سبعة
وعشرين يوما ويكون في فخذ الولد الايسر خال اسود ويعيش اربعة وعشرين يوما ثم يموت فجاءت به على النعت
الذي وصف وانقضت عدته فمات فاحرق الشافعي عند ذلك تلك الكتب وما عاود النظر في شيء منها
وهذا الاسناد رجاله ثقات لكن الشان فيمن حدث ابا الوليد بهذه الحكاية عن الحسن بن سفين
او فيمن حدث بها الحسن عن حرملة وهذه الحكاية لو صحت لوجب ان تثنى الخناصر على هذا العلم
ويشد به اليدين لا يحرق كتبه مع غاية الاتقان ويجعل الطعمة للنار وهذا لا يفعله الا المبطل المحال
والباطل ثم انه ليس في علم طالع الولادة ما يقتضي هذا كله كما سنذكره عن قريب ان شاء الله تعالى
والطالع عند المنجمين طالعان طالع مسقط النطفة وهو الطالع الاصلي وهذا لا سبيل الى العلم
به الا في النادر الذي لا يقتضيه الوجود والثاني طالع الولادة وهم معترفون انه لا يدل على احوال
الولد وجزئيات امره لان انتقال الولد من مكان الى مكان وانما اخذوه بدلا عن طالع الاصل لما تعذر عليهم
اعتباره وهذه الحكاية ليس فيها اخذ واحد من الطالعين لان فيها الحكم على المولود قبل خروجه
من غير اعتبار طالعه الاصلي والمنجم يقطع ان الحكم على هذا الولد لا سبيل اليه وليس في صناعة
النجوم ما يوجب الحكم على الحالة هذه وهذا يدل على ان هذه الحكاية كذب مختلق على الشافعي على
هذا الوجه وكذلك الحكاية الثالثة وهي ما رواه الحاكم ايضا انبانا عبد الرحمن بن الحسن القاضي
ان زكريا بن يحيى الساجي حدثهم اخبرني احمد بن محمد بن بنت الشافعي قال سمعت ابي يقول كان الشافعي
وهو حدث ينظر في النجوم وما نظر في شيء الا فاق فيه فجلس يوما وامراة تلد فحسب فقال تلد جارية عوراء
على فرجها خال اسود وتموت الى كذا وكذا فولدت فكان كما قال فجعل على نفسه
ان لا ينظر فيه ابدا وامر هذه الحكاية كالتي قبلها فان ابن بنت الشافعي لم يلق الشافعي ولا رآه والشان
فيمن حدثه بها عنه والذي عندي في هذا ان الناقل ان احسن به الظن فانه غلط على الشافعي
والشافعي كان من اعلم الناس وكان قد تعانى الفراسة وكان له فيها اليد الطولى فالحكم في هذه
القضية وامثالها بالفراسة فاصاب الحكم فظن الناقل ان الحكم كان مستندا فيها الى النجوم واحكامها
وقد برا الله من هو دون الشافعي من ذلك الهذيان فكيف بمثل الشافعي رحمه الله مع فضله وعلمه

ومعرفته

ومعرفته حتى يروج عليه هذيان المنجمين الذي لا يروج الا على جاهل ضعيف العقل وبين الشافعي
رحمه الله تعالى عن هذا هو الذي ينبغي ان يكون من مناقبه فاما ان يذكر في مناقبه انه كان منجما يرى القول
باحكام النجوم ويصححها فهذا فعل من يذم بما يظنه مدحا واذا كان الشافعي شديد الانكار على
المتكلمين مزريا بهم حكمه فيهم ان يضربوا بالجريد ويطاف بهم في القبائل فما ظنك بالمنجمين وهو اجل
واعلم من ان يحكم بهذا الحكم على اهل الحق وتصانيفهم في الصدق ينتهي الى الحد الذي ذكر في هذه
الحكايات وقد ذكر عبد الرحمن بن ابي حاتم والحاكم وغيرهما عن الحميدي قال قال الشافعي خرجت الى
اليمن في طلب كتب الفراسة حتى كتبتها وجمعتها ثم لما كان انصرافي مررت في طريقي برجل وهو محتب بفناء
داره ازرق العينين ناتئ الجبهة سناط فقلت له هل من منزل قال نعم قال الشافعي وهذا النعت
اخبث ما يكون في الفراسة فانزلني فرايت اكرم رجل بعث الي بعشاء وطيب وعلف لدابتي وفراش
ولحاف وجعلت اتقلب الليل اجمع ما اصنع بهذه الكتب فلما اصبحت قلت للغلام اسرج فاسرج فركبت
ومررت عليه وقلت له اذا قدمت مكة ومررت بذي طوى فسل عن منزل محمد بن ادريس الشافعي فقال
لي الرجل امولى لابيك انا قلت لا قال فهل كانت لك عندي نعمة قلت لا قال فاين ما تكلفت لك البارحة
قلت وما هو قال اشتريت لك طعاما بدرهمين وادما بكذا وعطرا بثلاثة دراهم وعلفا لدابتك
بدرهمين وكرى الفراش واللحاف درهمان قال قلت يا غلام هل بقي شيء قال كرى المنزل فاني
وسعت عليك وضيقت على نفسي فغبطت نفسي بتلك الكتب فقلت له بعد ذلك هل بقي شيء قال
امض اخزاك الله فما رايت قط اشر منك قال الربيع اشتريت للشافعي طيبا بدينار فقال
لي ممن اشتريته فقلت من ذلك الاشقر الازرق قال اشقر ازرق اذهب فرده قال الربيع
رايته في صحن الجامع وقد عاد الى الشافعي فقال لي يا ربيع انظر الى الذي يمشي هذا احولك قلت نعم اصلحك
الله تعالى قال اذهب ولم يكن رآه قبل ذلك وقال قتيبة بن سعيد رايت محمد بن الحسن والشافعي
قاعدين بفناء الكعبة فمر رجل فقال احدهما لصاحبه تعال نزكن على هذا الآتي اي حرفة معه فقال احدهما
هذا خياط وقال الاخر هذا نجار فبعثا اليه فسالاه فقال لقد كنت خياطا واليوم نجارا او كنت نجارا واليوم
اخيط وقال الربيع سمعت الشافعي وقدم عليه رجل من اهل صنعاء فلما رآه قال له من اهل صنعاء قال نعم
قال حداد انت قال نعم وقال الربيع كنت عند الشافعي اذ اتاه رجل فقال له الشافعي انساج انت
قال عندي اجراء قال وكنا عند الشافعي اذ مر به رجل فقال الشافعي لا يخلو هذا ان يكون حائكا او
نجارا قال فبعثنا اليه فقال ما صنعتك قال نجار فقلنا او غير ذلك قال عندي غلمان يعملون

وقال حرملة سمعت الشافعي يقول احذروا من كل ذي عاهة في بدنه فانه سلطان قال حرملة
قلت من اولئك قال الاعرج والاحول والاشل وغيره وقال اشتهى الشافعي يوما عنبا ابيض فارسلني
فاشتريت له منه بدرهم فلما راه استجاده فقال لي يا ابا محمد ممن اشتريت هذا فسميت له البايع فنحا الطبق
من بين يديه وقال لي اردده عليه واشتر لي من غيره فقلت له وما شانه فقال لي الم انهك ان
تصحب الازرق الاشقر فانه لا نجيب وليفا كل من ترى اشتري لي ممن انهى عن صحبته قال
الربيع فرددت العنب على البايع واعتذرت اليه بكلام حسن واشتريت له عنبا من غيره وقال
حرملة سمعت الشافعي يقول احذروا الاعور والاحول والاعرج والاحدب والاشقر والكوسج
وكل من به عاهة في بدنه وكل ناقص الخلق فاحذروه فانه صاحب التواء ومعاملته عسرة وقال
مرة اخرى فانهم اصحاب خبث وقال الربيع دخلنا على الشافعي عند وفاته انا والبويطي والمزني
ومحمد بن عبد الله بن عبد الحكم قال فنظر الينا الشافعي ساعة فاطال ثم التفت الينا فقال اما انت يا ابا يعقوب
فتموت في حديدك يعني البويطي واما انت يا مزني فسيكون لك بمصر هنات وهنات ولتدركن زمانا
تكون اقيس اهل ذلك الزمان واما انت يا محمد فسترجع الى مذهب ابيك واما انت يا ربيع فانت انفعهم لي
في نشر الكتب يا ابا يعقوب فتسلم الحلقة قال الربيع فكان كما قال وقال الربيع ما رايت
افطن من الشافعي لقد سمى جماعة ممن يصحبه فوصف كل واحد بصفته ما اخطا فيها فذكر المزني
والبويطي وفلانا وفلانا فقال ليفعلن فلان كذا وفلان كذا وليصحبن فلان السلطان وليقلدن
القضاء وقال لهم يوما وقد اجتمعوا اما فيكم انتقل من هذا وما اتى لا اسالكم ناحيه وذكر
صفاتنا عن هذه قال فلما مات الشافعي صار كل منهم الى ما ذكر فيه ما اخطا في شيء من ذلك وقال
حرملة لما وقع الشافعي في الموت خرجنا عند مغلته لاي يا ابه كل قرابة كانت للشافعي اخرناها بدا
بيد الا قوله تعلى اشفروها في السياق فوافينا عبد الله بن عبد الحكم ويوسف بن عمرو فقلنا الى
اين فلا الى الشافعي ثم بلغنا المنزل حتى ادركنا الصراخ عليه فقلنا ما لكم قالوا مات الشافعي قال
ابن عبد الحكم قال ابو يوسف بن عمرو وكان ازرق وهذه الاثار وغيرها ذكرها ابن ابي حاتم والحاكم
في مصنفيهما في مناقب الشافعي وهي اللايقة بجلالته ومنصبه لا ما يا عند الله يعرفه من اكاذيب المنجمين
وهذيانهم والله اعلم واما ما احتج به من ان فرعون كان يذبح ابناء بني اسرائيل ويستحيي نساءهم لان المنجمين
قالوا كان ذلك بان المنجمين اخبروه بانه يجيء في بني اسرائيل مولود يكون هلاكه على يديه قال المفسرون انما
احالوا ذلك على اخبار الكهان وروى بعضهم ان فرعون اخبروه بان بني اسرائيل يزعمون ان يولد

منهم مولود

منهم مولود يكون هلاكك على يديه وهاتان الروايتان هما اللتان ذكرهما اهل التفسير واما هذه الرواية
ان المنجمين قالوا له ذلك فغايتها انها من اخبار اهل الكتاب وقد خالفها غيرها من الروايات فلتكن
يسوغ التمسك بها في الامر العظيم وفي اخبار الكهان ما هو اعجب من ذلك فقد اخبروا بظهور
خاتم الرسل محمد صلى الله عليه وسلم قبل ظهوره وذلك موجود في دلائل النبوة ونحن لا ننكر علم تقدمة
المعرفة باسباب تفضي اليه يختلف قوى الناس في ادراكها وتحصيلها وانما كلامنا معكم في اصول علم
الاحكام وبيان فساده وكذب اهل الاحكام التي يسندونها اليها وبيان ان نصرة هذا العلم لو كان
حقا اعظم نفعه في الدنيا والاخرة وان اهله لهم اوفر نصيب من قوله تعالى ان الذين اتخذوا العجل
سينالهم غضب من ربهم وذلة في الحياة الدنيا وكذلك نجزي المفترين واهل هذا العلم اذل الناس
في الدنيا واشد احدا منهم انا كل رزقه بهذا العلم الا اعظم ذل وعرايهم لا بد ان يقعد ويتضوى
الى كاسر او دكان او الى بيوت يحطه وفي شقته وسلا يوهم على الطرقات وفي اكثر الحوانيت متذبذبين
صيدهم كل ناقص العقل والايمان والدين من صبي او امراة او حمار في مسلاخ ادمي او ذي طمع
لو لاح له طمع في عبادة الاصنام والشمس والقمر والنجوم لكان اول العابدين وراس مالهم الكذب
والزور والحدس احوال السايل منه من فلتات لسانه وهيئاته واعراضه فيخبرونه بما ناسب ذلك
راجوا له فيتغفل عقله لهم ويقول لقد اعطى هو كلا علما لم يعطه غيرهم وتراهم في الغالب يقصد احدهم
قرية او دكانا منزويا عن الطريق ويحصل فيه للصيد وينصب الشبكة فاذا لاح له بدوي او
خشني او تركماني فان يستبرك بطلعته ويقول اجلس حتى ابين لك ما يقتضيه نجمك وطالعك
ويبت مالك ويبث فراشك ومشاغلك وهمومك وكم بقي عليك من القطع ثم ما اسمك واسم
امك وابيك فاذا قال له ذلك واسم ابويه اخرج له الاصطرلاب والدرهم النحاس وقال له كف علي
اسمك فاذا اخبره ثانية قال وكيف علمت اسم الوالدين طول الله عمره فاذا قال درجات الحمل رحمه الله
قال ما مات من خلف مثلك ثم يحسب ويقول فلان تسعة ويريد عليها سبعة يسقط منها خمسة تبقى
اربعة انت يا اخي واسمع يا اخي ان لي عليك محنا مملوءة وتقاربه لا بد لك من الوقوف بين يدي ولي
امر او حاكم وانا اوالي واري ذنبا خارجا عليك ما اتيت اهله واري ناسا قد اجتمعوا حولك وان
كان شكل ذلك الرجل يشكل من هو من ارباب التهمة قال واري خبثا يصيبك ومنا ميراث تضرب ونجانا
توجد نعم يا اخي برهان بالاسد وهو نار بك مدة راجد من جهته بطالح مقدار لم يطل بحمل الدهر
اشتغل بالنحت عند الناس يكثر الاحسان تعقوده الذي قال لك صاحب احد او تمرت

صحبته لك خيرا نعم يا اخي سعد لياليك يوم الجمعة وخير كسبك كسبك اعلم انه لا بد لك من اسفار
وغربة ورحلة باهوال واقتحام اخطار وامور عظام ابينها لك ان شاء الله تعالى هات لا تبخل على نفسك
حط يدك في جيبك حل الكيس ولا تزال بالكيس ويحبه ويطعمه حتى يخرج منه ما يسمح به نفسه
فان راى منه نشاطا قال له عجل قبل خروج هذه الساعة السعيدة فانها ساعة مباركة اما تسمع قول
نبيك يسرا ولا تعسرا فاذا جاز ما اخذه منه قال له زدني فان امورك ذهب ونجاح الى تعب وكد
وحساب طويل فاذا تم له ما ياخذه منه يبقى هو من حوانجال له من حراك الكذب ما امكنه ولا يبالي
اكذب ام صدق ثم نقول له يا اخي برجك الاسد وهو نجم العداوة والحسد وما عاداك احد قط
وافلح بل يظفرك الله به فينصرك الله عليه نعم وهو برج ناري والنار من النور والنور فيه البهجة والسرور
ابشر فانت طويل العمر لا تموت في هذا الوقت عمرك من الستين الى السبعين الى الثمانين الى التسعين
بيت تسكنه دارا ولدا واري حاجة مهمة قد خرجت عن يدك نعم بعيد مرادك وانت غالب احوالك
الخارج عن يدك اكثر من الداخل فيها يا سيدي صدقت ام لا فيقول والله صحيح والا كاملت فيقول
ولكن احمد الله كلما تنتهي عليك من القطع اربعة اشهر وعشرة ايام وتخرج من نحسك وتدخل في برج
سعادتك ونحو ويخلف الله عليك بالخيرات والبركات ولا بد لك الساعة من رزق ياتيك الله
به وتفرح به اهلك وعيالك ويصلح حالك وتستقيم سعادتك ا لها السابع يا اخي من برج
برج الميزان وهو بيت الاخوان سعدك يا اخي منهم سقوط وحظك منهم نحوس غالب من اوليته
منهم خيرا جازاك بالشر وغالب من قلت فيه الخير منهم يقول فيك الشر يا سيدي الامر هكذا او ذلك
يا اخي انك خفيف الدم كل من رآك مال اليك وانس بك وانت محسود بجسدك في مالك وفي عافيتك وفي
اهلك واولادك وكل ما تعمله بيدك وتكن العين لا تؤثر فيك لان كل من برجه الاسد لا بد ان يكون له في
راسه او جسده علامة مثل شجة او ضربة بين اكتافه او في ساقه وما هو بعيد ان في جسدك شامة او في
جسمك ثلة وهذا هو الذي يدفع عنك العين وانت لا تدري السابع من برج زحل العقرب وهو بيت
الماء اراك في قليل الثقة من ابويك ومع هذا انك اكبر منهم واشفاقهم مع غيرك عليك وكان
حظك منهم ناقصا وهم تطلع الى كدك وكسبك الخامس من برج حل القوس بيت البنين اراك
قليلا ما يعيش لك اولاد تدفعهم قليلهم ثم تموت ابعدهم بل سوف يكون لك ولد يشد الله عضدك
وتقوى امرك وتنال رحمه راحة وخيرا وربما لمون سعادتك على يديه السادس من برج حل
الجدي وهو برج امراضك واعلالك يا اخي امراضك واسقامك كثيرة والترقبة رأسك وربما الموت

في احبابك

في احبابك وهي امراض قوية طوال سبعا فينا واياك وذاك في صغرك لا ترقد في الشهر الا بعد
جهد جهيد وعهدي بك الان لا ترقد في فراشك الا بعد شدة نعم وانما امراضك في الصيف والخريف
السابع من برج حل الدلو وهو بيت الفراش واري فراشك خاليا اثم زوجة بين فان قال
نعم قال لا بد لك من فراقها عن قريب ما يموت واما بطلاق وان المرح منك في بيت الفراش وان قال لا
عجب والله لقد ابصرت في الطالع ان فراشك فارغ واري روحا ناظرة اليك بعين المحبة والمحبة
حضورك عنها وحظوره عليك واري لك من قبله منفعة ولك به اتصال وفرح ابن لك على اي شيء
يكون اجتماعكما نعم فان قال له نعم قال هات فان الذي اعطيتني قليل فاذا اخذ منه قال اعلم انه لا بد لك
من اتصال هذا الشخص على كل حال الا اني ارى قد عمل لك عمل وعقد لك عقد وانت في هم وغم من ذلك
فان شئت عملت لك كتابا نافعا يكون لك حرزا من كل ما تخافه وتحذره ولا تزال تقبل له في الذروة والعارت
حتى يسلب الحرز ولدى هذه الطائفة وحيلها ودرفها يعني سهرته عند الخاصة والعامة عن تكلف ايراده
هنا فان المنجم الدب وما الدر والعرف كان على الجهال روح فصل واما قوله ان هذا
علم ما خلت منه ملة من الملل ولا امة من الامم ومن لا يعرف تاريخ من التواريخ القديمة والحديثة لما وكان اهل ذلك
الزمان مشتغلين بهذا العلم ومعولين عليه في معرفة المصالح ولو كان هذا الكلام فاسدا بالكلية لاستحال
اطباق اهل المشرق والمغرب عليه فانظر ما في هذا الكلام من الدب والبهت والافترا على العالم
اول ساعة الى اخره فان ادم واولاده كانوا ابرأ من ذلك وانما معترفون بان اول من عرف عنه الكلام في
هذا العلم ونقلت عنه اصوله واوضاعه هو ادريس النبي صلى الله عليه وسلم وكان بعد بنان هذا العالم
بزمن طويل هذا الوقت ذلك عن ادريس ولف وهو من الدب الذي ليس مع صاحبه الا مجرد القول بلا علم
والكذب على رسل الله لو ليس من العزو والبهتان نسبه هذا العلم الى امة موسى في زمنه وبعده وانهم كانوا
معولين في مصالحهم على هذا العلم وكذلك امة عيسى فامة يونس والذين اتبعوا نوح ونجوا معه في السفينة
وحسبك بهذا الكذب والافترا على امة المضبوطة من المحفوظ فعلها اهل كان النبي صلى الله عليه وسلم
واصحابه يعولون على هذا العلم ويعتمدون عليه في مصالحهم وقرن التابعين بعده او قرن تابعي التابعين
وهذه هي خير قرون العالم على الاطلاق كما ان هذه الامة خير امة اخرجت للناس وهم اعلم الامم
واعرفها وابرها هديا وتصانيف واعلاها شانا واكملها في كل خير ورشد وصلاح كما ثبت في المسند
وغيره عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال انتم توفون سبعين امة انتم خيرها واكرمها على الله فهل كان خيار قرون
هذه الامة وانبوغيين [illegible] ساداتها وكبرائها معولين على هذا العلم او معتمدين على

في مصالحهم وهذه سيرتهم بأعيانها من قدم ولا سائر الكتب عليهم هذا وقد أعطوا من التأييد والنصر
والظفر بعدوهم والاستيلاء على ممالك العالم ما لم يظفر به أحد من المعولين على أحكام النجوم بل لا تجد
المنجمين المدمنين لهم لولا اعتصامهم بحبل منهم لقطعت حبال أعناقهم ولا تجد المعولين على هذا العلم
إلا مخصوصين بالخذلان والحرمان وهذا أنهم جرى عليهم قوله تعالى إن الذين اتخذوا العجل سينالهم
غضب من ربهم وذلة في الحياة الدنيا وكذلك نجزي المفترين قال أبو قلابة هي لكل مفتر من
هذه الأمة إلى يوم القيامة نعم لا ننكر أن هذا العلم له طلاب مشتركون معنيون بأمره وهذا لا يدل
على صحته فهذا السحر لم يزل في العالم مشتغل به وبتطلبه أعظم من اشتغالهم بالنجوم وطلبهم لها بالليل
وتأثيرهم في الناس ما لا يخفى أفكان هذا دليلا على صحته وهذه الأصنام لم تزل تعبد في الأرض من
قبل نوح وإلى الآن ولها الهياكل المبنية والسدنة ولها الجيوش التي تقاتل عنها وتحارب لها وتحارب
الفيل والنبي وعقوبة الله تعالى لا تنتهي عنها أفدلك هذا على صحة عبادتها وأن عابدها على الحق
ومن العجب قوله لو كان هذا العلم فاسدا لاستحال أطباق أهل المشرق والمغرب من أول بناء العالم
إلى حين علينا وليس في العقد أبلغ من هذا ولا في البهتان أن يرى هذا الرجل ما وقف على ما ليف لأحد
من أهل المشرق والمغرب في إبطال هذا العلم والرد على أهله فقد رأينا نحن وغيرنا ما ربت على مائة
مصنف في الرد على أهله وإبطال أقوالهم وهو في كتبهم بأيدي الناس وكثير منها للفلاسفة الذين
يعظمهم هؤلاء ويرون أنهم خلاصة العالم كالفارابي وابن سينا وأبي البركات أوحد وغيرهم
وقد حكينا كلامهم وأما الردود في ضمن الكتب ترد على أهل المقالات فأكثر من أن تذكر
ولعلها أن تزيد على عدة آلاف بحث في كل كتاب منها الرد على هؤلاء وإبطال مذهبهم ونسبتهم إلى الكذب
والزرق ولو أن مقابلا قابله وقال لو كان هذا العلم صحيحا لاستحال أطباق أهل المشرق والمغرب
على رده وإبطاله لكان قوله من جنس قوله ولكن أهل المشرق فيهم هذا وهذا كما يشهد به الحس والتواريخ
القديمة والحديثة ولقد رأينا من الردود القديمة قبل قيام الإسلام على هؤلاء ما يدل على أن العقلاء
لم يزالوا يشهدون عليهم بالجهل وفساد المذهب وينسبونهم إلى الدعاوى الكاذبة والآراء
الباطلة التي ليس مع أصحابها إلا القول بلا علم **فصل** وأما ما ذكر من أن الطالع عن
العدس وأنهم كانوا يعتبرون طالع مسقط النطفة وهو طالع الأصل ثم يحكم بموجبه حتى يحكم بعدد [illegible]
الساعات التي يمكثها الولد في بطن أمه فهذا من الكذب والبهت ومن أراد أن يختبر كذبه فليجرب فإن تجربة
مثل هذا ليست ممتنعة ولا عسرة ثم إن هذا الواطئ لا علم له ولا للواطئة بحين انعقاد الولد إنما يخلق من أول وطئه

الذي

الذي أنزل فيه دون ما بعده وإن فرض أنه أمسك عن وطئها بعد المرة الأولى وحيضها بحيث يتعين أن
غيرها لم يقربها وهذه غاية الندرة لم يمكن المنجم أن يعلم أحوال ذلك المولود ولا تفاصيل أمره البتة
ومدعي ذلك مجاهر بالكذب والبهت وقد اعترف القوم بأن طالع الولادة مستعار لا يفيد شيئا لأن
الولد لا يحدث في ذلك الوقت وإنما ينتقل من مكان إلى مكان وقد اعترفوا بأن ضبطه متعسر جدا بل
متعذر فإن في اللحظة الواحدة من اللحظات يتغير بصفة الفلك تغيرا لا ينضبط ولا يحصيه إلا الله
ولا ريب أن الطالع يتغير بذلك تغيرا عظيما لا يمكن ضبطه وقد اعترفوا هم بهذا وأن بسبب هذا
التفاوت تختل أحكامهم واعترفوا بأنه لا سبيل إلى الاحتراز من ذلك فأي وثوق لعاقل بهذا العلم بعد
هذا كله وقد بينا أن غاية هذا الوجه وسلم من الخلل جميعه ولا سبيل إليه لكان جزءا من السبب والعلة والحكم لا
يضاف إلى جزء سببه ثم لو كان سببا تاما لكان لعوارضه وموانعه لا تدخل تحت الضبط البتة والحكم إنما يضاف
إلى وجود سببه التام وانتفاء مانعه وهذه الأسباب والموانع مما لا تدخل تحت حصر ولا ضبط إلا لمن
أحصى كل شيء عددا وأحاط بكل شيء علما لا إله إلا هو علام الغيوب فلو ساعدناهم على صحة أصول
هذا العلم وقواعده لكانت أحكامهم باطلة وهي أحكام بلا علم لما ذكرنا من تعذر الإحاطة بمجموع
الأسباب وانتفاء الموانع ولهذا أكثر ما يجتمعون على حكم من أحكامهم الكاذبة ويقع الأمر بخلافه كما تقدم
وأما تلك الحكايات المتضمنة لإصاباتهم في الأحوال فليست بأكثر من الحكايات عن أصحاب الكشف
والفال والزجر والطائر والضرب بالحصى والطرق والعيافة والكهانة والخط والحدس وغيرها
من علوم الجاهلية وأعني بالجاهلية كل من ليس من أتباع الرسل كالفلاسفة والمنجمين والكهان وجاهلية
العرب الذين كانوا قبل النبي صلى الله عليه وسلم فإن هذه كانت علوم القوم ليس لهم علم بما جاءت به الرسل
ومن هؤلاء من يزعم أنه يأخذ من الحروف علم الكهان ولهم في ذلك تصانيف وكتب حتى يقولوا إذا أردت
ما في رؤيا السائل من خير أو شر فخذ أول حرف من كلامه الذي يكلمك به وفسر رؤياه على معنى ذلك الحرف
فإن كان أول ما نطق به باء فرؤياه خير لأن الباء البهاء والبها والخير لمن رآها في البر والبركة وبلوغ الآمال
والبقاء والبشارة والبيان والبحث فإذا كان أول الحروف من كلامه تاء فاعلم أنه قد عاين ما ابتهاه
وبشر من الخيرات وإن كان أول كلامه تاء فقد بشر بالتمام والكمال وإن كان ثاء فبشره بالإناث
والمتاع لقوله تعالى هم أحسن أثاثا ورئيا ثم قالوا فعليك بهذه الأحرف البلاء فليس شيء يخلو
منها أو يجاوزها وإذا تأملت جهل هؤلاء رأيته شديدا فكيف حكموا على الباء بالبهاء والبركة دون
البأس والبغي والبين والبلاء والبوار والبعد وكيف حكموا على التاء بالتمام والكمال دون التنفس

والشباب والتدبير والتلف ونحوه وكيف حكموا على البنات بالاناث دون الثقل والنعل والثلث
ونحوه وكذلك استدلاله باول ما يقع بصره عليه كما حكي عن ابي معشر انه وقف هو وصاحب له على واحد
من هؤلاء وكان ما رتبه خلاص مسجونين فسأله فقال اسماء طلب خلاص مسجون فتحيرا في ذلك
فقال له ابو معشر هل يخلص ام لا فقال تذهبان تجيئان وقد خلص فوجد الامر كما قال فاستدعاه ابو
معشر واكرمه وتلطف له في السؤال عن كيفية علم ذلك فقال نحن قوم ناخذ الفال بالعين والنظر
فننظر واجدا الى الارض ثم يرفع رأسه فاول شيء يقع عليه نظره يكون الحكم به فلما سألتماني كان اول ما
رأيت ماء في قربة فقلت هذا محبوس ثم لما سألتماني الثانية نظرت فاذا هو قد افرغ من القربة
فقلت يخلص ونصيب تارة ونخطي تارة ومن هذا اخذ بعضهم الجواب من التفاول بالايام فاذا رأى
احد رؤيا مثلا يوم الاحد واستدا فيه لعزا قال حده وقوة وان كان يوم جمعة قال اجتماع والفة
وان كان يوم سبت قال قطع وفرقة ومن هذا استدلال المسؤول بالمكان الذي يضع السائل يده من جسده
وقت السؤال فان وضع يده على راسه فهو رئيسه وكبيره والرجلين قوامه والانف بناء مرتفع او
جبل ونحوه والفم بئر عذبة واللحية اشجار وزروع وعلى هذا النحو من ذلك ما حكي عن المهدي
انه رأى رؤيا وانسيها فاصبح مغتما بها فدل على رجل كان يعرف الزجر والفال وكان رجلا دقيقا
اسمه خويلد فلما دخل عليه اخبره بالذي اراد فقال له يا امير المؤمنين صاحب الزجر والفال
ينظر الى الحركة واخطار الناس فغضب المهدي وقال سبحان الله العظيم احدكم يذكر بعلم
ولا يدري ما هو ومسح بيده على راسه ووجهه وضرب بها على فخذه فقال له اخبرك برؤياك يا امير
المؤمنين قال هات قال رأيت كأنك صعدت جبلا فقال المهدي لله ابوك يا ساحر صدقت
قال ما انا بساحر يا امير المؤمنين غير انك مسحت بيدك على راسك فزجرت لك وعلمت ان الراس ليس
فوقه احد الا السماء فاولته بالجبل ثم نزلت يدك الى جبهتك فزجرت الى نزولك الى الارض
ملساء فيها عينان ما الجان ثم انحدرت الى سفح الجبل فلقيت رجلا من قريش لان امير المؤمنين
مسح بعد ذلك على فخذه فعلمت ان الرجل الذي لقيه من قرابته قال صدقت وامر له بمال وامر ان لا
يحجب عنه ومن ذلك هو اصحاب الطير السانح والبارح والقعيد والناطح واصل هذا انهم
كانوا يزجرون الطير والوحش ويثيرونها فما تيامن منها واخذ ذات اليمين سموه سانحا
وما تياسر منها سموه بارحا وما استقبلهم منها فهو الناطح وما جاء من خلفهم سموه القعيد ومن العرب
من يتشاءم بالبارح ويتبرك بالسانح ومنهم من يرى خلاف ذلك قال [illegible]

العجاج ما السانح فقال ما ولاك ميامنه قال قلت فما البارح قال ما ولاك مياسره قال
والذي يجيء من امامك فهو الناطح والنطيح والذي يجيء من خلفك هو القاعد والقعيد وقال
المفضل الضبي البارح ما يأتيك عن اليمين يريد يسارك والسانح ما يأتيك من اليسار فيمر على اليمين وانما
اختلفوا في تأويلها ومذاهبها لانها خواطر وحدوس وتخمينات لا اصل لها فمن يتبرك تبرك به ومن
يتشاءم به ذمه ومن اشتهر باحسان الزجر عندهم ووجوهه حتى قصده الناس بالسؤال عن حوادثهم
وما املوه من اعمالهم سموه عائفا وعرافا وقد كان في العرب جماعة يعرفون بذلك كعراف اليمامة
والابلق الاسدي والاجلح وعروة بن زيد وغيرهم فكانوا يحكمون بذلك ويعملون به ويتقدمون
ويتأخرون في جميع ما يستقبلون فيه ويتصرفون في حال الامن والخوف والسعة والضيق والحرب
والسلم فان نجحوا فيما يتفاءلون به مدحوه وداوموا عليه وان عطبوا فيه تركوه وذموه وان اصابوا
فيه ذموه وتركوه ومنهم من انكرها بعقله وابطل تأثيرها بنظره وذم من اغتر فيها واعتمد عليها
وتوهم تأثيرها فمنهم المرقش اذ يقول

ولقد غدوت وكنت لا اغدو على واق وحاتم
فاذا الاشائم كالايامن والايامن كالاشائم
وكذاك لا خير ولا شر على احد بدائم
لا يمنعنك من بغا الخير تعقاد التمائم
قد خط ذلك في السطور الاوليات القدائم

وقال جهم الهذلي

الم تر ان العائفين وان جرت لك الطير عما في غد عميان
يظنان ظنا مرة يخطئانه واخرى على بعض الذي يصفان
قضى الله ان لا يعلم الغيب غيره ففي اي امر الله تمتريان

وقال اخر

وما انا ممن يزجر الطير همه اصاح غراب ام تعرض ثعلب
ولا السانحات البارحات عشية امر سليم القرن ام مر اعضب

وقال اخر يمدح منكرها

وليس بهياب اذا شد رحله يقول عداني اليوم واق وحاتم

ولكنه يمضي على ذاك مقدماً إذا صد عن تلك الهنات الخثارم

يعني بالواق الصرد وبالحاتم الغراب سموه حاتماً لأنه كان عندهم يحتم بالفراق والخثارم العاجز الضعيف
الرأي المتطير وقد نفى النبي صلى الله عليه وسلم أمته في الطيرة حيث سئل عنها فقال ذلك شيء يجده أحدكم
فلا يصدنه وفي ... إذا خرجت فلا ترجع أي امض لما قصدت له ولا يصدنك عنه الطيرة واعلم
أن التطير إنما يضر من أشفق منه وخاف وأما من لم يبال به ولم يعبأ به شيئاً لم يضره البتة ولا سيما إن قال عند
رؤية ما يتطير به أو سماعه اللهم لا طير إلا طيرك ولا خير إلا خيرك ولا إله غيرك اللهم لا يأتي بالحسنات
إلا أنت ولا يذهب بالسيئات إلا أنت ولا حول ولا قوة إلا بك فالطيرة باب من الشرك وإلقاء الشيطان
وتخويفه ووسوسته فكبر وتعظم شأنها على من اتبعها نفسه واشتغل بها وأكثر العناية بها وتذهب
وتضمحل عمن لم يلتفت إليها ولا ألقى إليها باله ولا أشغل بها نفسه وفكره واعلم أن من كان معتنياً بها قائلاً
بها كانت إليه أسرع من السيل إلى منحدره وتفتحت له أبواب الوساوس فيما يسمعه ويراه ويعطاه ويفتح له
الشيطان فيها من المناسبات البعيدة والقريبة في اللفظ والمعنى ما يفسد عليه دينه وينكد عليه عيشته
فإذا سمع سفرجلاً أو أهدي إليه تطير به وقال سفر وجلاء وإذا رأى ياسميناً أو سمع اسمه تطير
وقال يأس ومين وإذا رأى سوسنة أو سمعها قال سوء يبقى سنة وإذا خرج من داره فاستقبل أعور
أو أشل أو أعمى أو صاحب آفة تطير به وتشاءم بيومه ويحكى عن بعض الولاة أنه خرج في بعض الأيام لبعض
مهماته فاستقبله رجل أعور فتطير به وأمر به إلى الحبس فلما رجع من مهمه ولم يلق شراً أمر بإطلاقه فقال له
سألتك بالله ما كان جرمي الذي حبستني لأجله فقال له الوالي لم يكن لك عندنا جرم ولكن تطيرت
بك لما رأيتك فقال فما أصبت في يومك برؤيتي فقال لم ألق إلا خيراً فقال أيها الأمير أنا خرجت من منزلي
فرأيتك فلقيت في يومي الشر والحبس وأنت رأيتني فلقيت في يومك الخير والسرور فمن أشأم منا والطيرة
بمن كانت فاستحيا منه الوالي ووصله وقال أبو القاسم الزجاجي لما أراد تطيراً من ابن الرومي
الشاعر وكان قد تجاوز الحد في ذلك فعاتبه يوماً على ذلك فقال يا أبا القاسم الفأل لسان الزمان
والطيرة عنوان الحدثان وهذا جواب من استحكمت عليه فخرج عنه طيبه بمنزلة من قد غلب الوسواس
في الطهارة فلا يلتفت إلى علم ولا إلى ناصح وهذه حال من تنقطع به أسباب التوكل وتقلص عنه لباسه بل تعرى منه
ومن كان هكذا فالبلايا إليه أسرع والمصائب به أعلق والمحن له ألزم بمنزلة صاحب الدملة والقرحة الذي
يهدي لقرحته كل موذ وكل مصادم فلا يكاد يصدم جسده أو يصاب غيرها والتطير يعمي القلب
ويكد الصدر كاسف البال سيء الخلق يتخيل من كل ما يراه أو يسمعه أشد الناس خوفاً وأنكدهم عيشاً وأضيق

ب

الناس صدراً وأحزنهم قلباً لكثرة الاحتراز والمراعاة لما لا يضره ولا ينفعه وكم قد حرم نفسه بذلك
من حظ ومنعها من رزق وقطع عليها من فائدة ويكفيك من ذلك قصة النابغة مع زبان بن سيار الفزاري
حين تجهزا للغزو فلما أراد الرحيل نظر النابغة إلى جرادة سقطت عليه فقال جرادة تجرد وذات
ألوان عدي من خرج في هذا الوجه ونفذ زبان لوجهه ولم يتطير فلما رجع زبان سالماً غانماً
أنشأ يقول

تخبر طيره فيها زياد لتخبره وما فيها خبير
أقام كأن لقمان بن عاد أشار له بحكمته مشير
تعلم أنه لا طير إلا على متطير وهو الثبور
بلى شيء يوافق بعض شيء أحايينا وباطله كثير

ولم يحك الله التطير إلا عن أعداء الرسل كما قالوا لرسلهم إنا تطيرنا بكم لئن لم تنتهوا لنرجمنكم وليمسنكم
منا عذاب أليم قالوا طائركم معكم أئن ذكرتم بل أنتم قوم مسرفون وكذلك حكى الله عن قوم فرعون سبحانه
فقال فإذا جاءتهم الحسنة قالوا لنا هذه وإن تصبهم سيئة يطيروا بموسى ومن معه ألا إنما طائرهم
عند الله يعني إذا أصابهم الخصب والسعة والعافية قالوا لنا هذه أي نحن الجديرون الحقيقون
به ونحن أهله وإن أصابهم بلاء وضيق وقحط ونحوه قالوا هذا بسبب موسى وأصحابه أصبنا
بشؤمهم ونقض علينا غبارهم كما يقوله المتطير لمن يتطير به فأخبر سبحانه أن طائرهم عنده كما قال
تعالى عن أعداء رسوله صلى الله عليه وسلم وإن تصبهم حسنة يقولوا هذه من عند الله وإن تصبهم سيئة
يقولوا هذه من عندك فهذه ثلاثة مواضع حكى فيها التطير عن أعدائه وأجاب سبحانه عن تطيرهم
بموسى وقومه بأن طائرهم عند الله لا بسبب موسى وأجاب عن تطير أعداء رسوله نبينا صلى الله عليه وسلم
بقوله قل كل من عند الله وأجاب الرسل لمن تطير بهم بقولهم طائركم معكم وأما قوله تعالى ألا إنما
طائرهم عند الله فقال ابن عباس رضي الله عنهما طائرهم ما قضي عليهم وقدر لهم وفي رواية
شؤمهم عند الله ومن قبله أي إنما جاءهم الشؤم من قبله بكفرهم وتكذيبهم بآياته ورسله وقال
أيضاً إن الأرزاق والأقدار تتبعكم وهذا كقوله تعالى وكل إنسان ألزمناه طائره في عنقه أي ما
تطير له من الخير والشر فهو لازم له في عنقه والعرب تقول جرى له الطائر بكذا من الخير والشر قال
أبو عبيدة الطائر عندهم الحظ وهو الذي تسميه العامة البخت يقولون هذا يطير لفلان أي يحصل له
ذلك ومنه الحديث فطار لنا عثمان بن مظعون أي أصابنا بالقرعة لما اقترع الأنصار على نزول

المهاجرين عليهم وفي حديث رويفع بن ثابت ان كان احدنا ليطير له النصل والريش وللاخر القدح اي
يحصل له بالقرعة في الغنيمة وقيل في قوله تعالى وكل انسان الزمناه طائره في عنقه اي ان الطائر ههنا هو
العمل فآله الى العذاب وهو يتضمن الرد على نفاة القدر وخص العنق بذلك من بين سائر اجزاء البدن لانها محل
الطوق الذي يطوقه الانسان في عنقه فلا يستطيع فكاكه ومنه قولهم هذا لك في عنقك وافعل كذا
واثمه في عنقي والعرب تقول تطوقها طوق الحمامة وهذا ربقة في رقبته وعن الحسن يا ابن ادم بسطت
لك صحيفة اذا بعثت قلدتها في عنقك وخصوا العنق بذلك لانه موضع القلادة والتميمة واستعمالهم
التعاليق فيها كثير كما خصت الايدي بالذكر في نحو بما كسبت ايديكم بما قدمت يداك ونحوه وقيل المعنى
ان الشؤم العظيم هو الذي لهم عند الله من عذاب النار لا هذا الذي اصابهم في الدنيا وقيل المعنى
ان سبب شؤمهم عند الله وهو علمه المكتوب عنده الذي يجري عليهم ما يسوءهم ويعاقبون عليه بعد موتهم بما
وعدهم الله ولا طائر اشام من هذا وقيل حظهم ونصيبهم وهذا لا يناقض قول الرسل عليهم الصلاة والسلام
طائركم معكم اي حظكم وما نالكم من خير وشر معكم بسبب افعالكم وكفركم ومخالفتكم الناصحين ليس هو
من اجلنا ولا بسببنا بل ببغيكم وعدوانكم فطائر الباغي الظالم معه وهو عند الله كما قال تعالى وان
تصبهم سيئة يقولوا هذه من عندك قل كل من عند الله فما لهؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثا
ولو فقهوا وفهموا لما تطيروا بما جئت به لانه ليس فيما جاء به الرسول ما يقتضي الطيرة فانه كله خير
محض لا شر فيه وصلاح لا فساد فيه وحكمة لا عيب فيها ورحمة لا جور فيها فلو كان هؤلاء القوم من اهل
الفهم والعقول السليمة لم يتطيروا من هذا فان الطيرة انما تكون بالشر لا بالخير المحض والمصلحة والحكمة
والرحمة وليس فيما جئتم به لو فهموا ما يوجب تطيرهم بل طائرهم معهم بسبب كفرهم وشركهم وبغيهم وهو
عند الله كسائر حظوظهم وانصبائهم التي ينالونها باعمالهم وكسبهم ويحتمل ان يكون المعنى طائركم معكم
اي راجع عليكم فالتطير الذي حصل لكم انما يعود عليكم وهذا من باب القصاص في الكلام مثل
قوله في الحديث اضربنا وكاالكاس قبلك ونظيره قول النبي صلى الله عليه وسلم اذا سلم عليكم اهل الكتاب فقولوا وعليكم
فعلى هذا معنى طائركم معكم اي نصيبكم طيرتكم التي تطيرتم بها لانهم اعتقدوا الشؤم فيما لا شؤم فيه
البتة فقيل لهم الشؤم منكم وهو نازل بكم فتأمله وهذا يشبه قوله تعالى وقد مكروا مكرهم وعند الله
مكرهم قيل جزاء مكرهم عنده يجازيهم كما مكروا برسله ومكره تعالى بهم انما كان بسبب مكرهم فهو مكرهم
عاد عليهم وكيدهم عاد عليهم وكذلك طيرتهم عادت عليهم وحلت بهم وسمي جزاء المكر مكرا وجزاء الكيد
كيدا تنبيها على ان الجزاء من جنس العمل ولما ذكر سبحانه ان ما اصابهم من حسنة وسيئة اي نعمة ومحنة

فالكل منه تعالى بقضائه وقدره وكانهم قالوا ما بالك انت يحسك الحسنات والسيئات كما تقدما
فذكر سبحانه ان ما اصابه من حسنة فمن الله من بها عليه وانعم بها عليه وما اصابه من سيئة فمن نفسه
اي بسببه ومن قبله اي لا لنقص فيما جاء به ولا لشر فيه ولا لشؤم يقتضي ان يصيبه السيئة بل بسبب من نفسه
ومن قبله وقد قيل في قوله تعالى طائركم عند الله بل انتم قوم تفتنون ان طائرهم ههنا هو السبب
الذي يجيء منه خيرهم وشرهم هو عند الله وحده وهو قدره وقسمه ان شاء رزقكم وعافاكم وان شاء حرمكم
وابتلاكم ومن هذا قالوا طائر الله لا طائرك اي قدر الله الغالب الذي ياتي بالحسنات ويصرف
السيئات ومنه اللهم لا طير الا طيرك ولا خير الا خيرك ولا اله غيرك وعلى هذا فالمعنى
طائركم حظكم الذي يطير لكم وفسره بالعمل فالمعنى طائركم الذي طار عليكم من اعمالكم
ولهذين القولين فسر قوله تعالى وكل انسان الزمناه طائره في عنقه بانه ما طار عنه من عمله او طار له مما قضي
عليه وقدر عليه وكتب له من الرزق والاجل والشقاوة والسعادة **فصل** وقد ثبت في
الصحيحين عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال في وصف السبعين الفا بغير حساب انهم الذين لا يكتوون
ولا يسترقون ولا يتطيرون وعلى ربهم يتوكلون وزاد مسلم وحده ولا يرقون فسمعت شيخ
الاسلام ابن تيمية يقول هذه الزيادة وهم من الراوي لم يقل النبي صلى الله عليه وسلم ولا يرقون لان الراقي
محسن الى اخيه وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم وقد سئل عن الرقى قال من استطاع منكم ان
ينفع اخاه فلينفعه وقال لا باس بالرقى ما لم تكن شركا والفرق بين الراقي والمسترقي ان
المسترقي سائل مستعط ملتفت الى غير الله بقلبه والراقي محسن نافع قال والنبي صلى الله
عليه وسلم لا يجعل ترك الاحسان الماذون فيه سببا للسبق الى الجنان وهذا بخلاف ترك
الاسترقاء فانه توكل على الله ورغبة عن سؤال غيره ورضاه بما قضاه وهذا شيء وهذا شيء
وفي الصحيحين من حديث ابي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم لا عدوى ولا طيرة واحب
الفال الصالح ونحوه من حديث انس وهذا يحتمل ان يكون نفيا اي لا تتطيروا ولكن قوله في الحديث
ولا عدوى ولا صفر ولا هامة يدل على ان المراد النفي وابطال هذه الامور التي كانت الجاهلية تعانيها
والنفي في هذا ابلغ من النهي لان النفي يدل على بطلان ذلك وعدم تاثيره والنهي انما يدل على المنع
منه وقد روى ابن ماجه في سننه من حديث سفيان عن سلمة عن عيسى بن عاصم عن زر عن عبد الله بن مسعود
رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم الطيرة شرك وما منا الا ولكن الله يذهبه بالتوكل
وهذه اللفظة وهي وما منا الى اخره مدرجة في الحديث ليست من كلام النبي صلى الله عليه وسلم كذلك

الذين يدخلون الجنة

[illegible]

قاله الحفاظ وهو الصواب فان الطيرة نوع من الشرك كما في اثر مرفوع من ردته الطيرة فقد قارف
الشرك وفي اثر آخر من رجعته الطيرة من حاجة فقد اشرك قالوا وما كفارة ذلك قال
يقول احدكم لا طير الا طيرك ولا خير الا خيرك وفي صحيح مسلم من حديث معوية بن الحكم السلمي
انه قال لرسول الله ومنا اناس يتطيرون فقال ذاك شيء يجده احدكم في نفسه فلا يصدنه فاخبر
ان تاذيه وتشاؤمه بالتطير انما هو في نفسه وعقيدته لا في المتطير به فوهمه وخوفه واشراكه هو
الذي يطيره ويصده لا ما رآه وسمعه فاوضح صلى الله عليه وسلم لامته الامر وبين لهم فساد الطيرة
ليعلموا ان الله سبحانه لم يجعل لهم عليها علامة ولا فيها دلالة ولا نصبها سببا لما يخافونه ويحذرونه لتطمئن
قلوبهم وتسكن نفوسهم الى وحدانيته تعالى التي ارسل بها رسله وانزل بها كتبه وخلق لاجلها السموات
والارض وعمر الدارين الجنة والنار بسبب التوحيد فمن اجله وجعل الجنة دار التوحيد وموجباته
وحقوقه والنار دار الشرك ولوازمه وموجباته فقطع صلى الله عليه وسلم علق الشرك من قلوبهم لئلا
يبقى فيها علقة منها ولا يتلبسوا بعمل من اعمال اهله البتة وفي الحديث المعروف عنه اقروا الطير
على مكناتها قال ابو عبيد في الغريب اراد لا تزجروها ولا تلتفتوا اليها اقروها على مواضعها
التي جعلها الله لها ولا تعدوا ذلك الى غيره اي انها لا تضر ولا تنفع وقال غيره المعنى اقروها
على امكنتها فانهم كانوا في الجاهلية اذا اراد احدهم سفرا او امرا من الامور اثار الطير من اوكارها
لينظر اي وجه تسلك والى اي ناحية تطير فان خرجت ذات اليمين خرج لسفره ومضى لامره وان
اخذت ذات الشمال رجع ولم يمض فامرهم ان يقروها في امكنتها وابطل فعلهم ذلك ونهاهم عنه
كما ابطل الاستقسام بالازلام وقال آخرون معنى ذلك اقروا الطير التي تزجرونها
في مواضعها المتمكنة فيها التي هي بها مستقرة وامضوا لاموركم فان زجركم اياها غير مجد عليكم
نفعا ولا دافع عنكم ضرا وقال اخرون هذا تصحيف من الرواة وخطأ منهم ولا تعرف
المكنات الا اسما لبيض الضباب دون غيرها قال الجوهري المكن بيض الضب قال
ومكن الضباب طعام العريب لا تشتهيه نفوس العجم وفي الحديث اقروا الطير على مكناتها
ومكناتها بالضم والفتح قال ابو زياد الكلابي وغيره انا لا نعرف للطير مكنات وانما هي
وكنات فاما المكنات فانما هي للضباب قال ابو عبيد ويجوز في الكلام وان كان المكن للضباب
ان يجعل للطير تشبيها بذلك كقولهم مشافر الحبشي وانما المشافر للابل وكقول زهير يصف الاسد
له لبد اظفاره لم تقلم وانما له المخالب قال وهؤلاء فلعل الراوي سمع اقروا الطير وكناتها

بالواو لان وكنات الطير عشها وحيث يسقط عليه من الشجر ويأوي اليه وفي اثر آخر [illegible]
[illegible] لم ينل الدرجات العلى من تكهن او استقسم او رجع من سفره تطيرا وقد رفع هذا الحديث
فمن استمسك بعروة التوحيد الوثقى واعتصم بحبله المتين وتوكل على الله قطع هاجس الطيرة من قبل
استقرارها وبادر خواطرها من قبل استمكانها قال عكرمة كنا جلوسا عند ابن عباس رضي الله
عنهما فمر طائر يصيح فقال رجل من القوم خير خير فقال له ابن عباس لا خير ولا شر فبادره
بالانكار عليه لئلا يعتقد له تاثيرا في الخير والشر وخرج طاوس مع صاحب له في سفر فصاح
غراب فقال الرجل خير فقال طاوس واي خير عنده والله لا تصحبني وقيل لكعب هل
تتطير فقال نعم فقيل له فكيف تقول اذا تطيرت قال اقول اللهم لا طير الا طيرك ولا خير الا خيرك ولا
رب غيرك ولا قوة الا بك وكان بعض السلف يقول عند ذلك طير الله لا طيرك وصباح الله لا صباحك حك
ومساء الله لا مساءك وقال ابن عبد الحكم لما خرج عمر بن عبد العزيز من المدينة قال مزاحم فنظرت فاذا
القمر في الدبران فكرهت ان اقول له فقلت الا تنظر الى القمر ما احسن استواءه في هذه الليلة قال فنظر
عمر فاذا هو في الدبران فقال كأنك اردت ان تعلمني ان القمر في الدبران يا مزاحم انا لا نخرج بشمس ولا
بقمر ولكنا نخرج بالله الواحد القهار فان قيل فما تقولون فيما روي عن النبي صلى الله عليه وسلم انه كان يحب
الفال ففي الصحيحين من حديث انس وابي هريرة رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم لا عدوى ولا
طيرة وخيرها الفال وفي لفظ واصدقها الفال وفي لفظ وكان يعجبه الفال وفي لفظ
لمسلم ويعجبني الفال الصالح الكلمة الحسنة وقال اذا ابردتم الي بريدا فاجعلوه حسن الاسم
حسن الوجه وروى مالك عن يحيى بن سعيد ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال للقحة تحلب من يحلب
هذه فقام رجل فقال له النبي صلى الله عليه وسلم ما اسمك فقال الرجل مرة فقال النبي صلى الله عليه وسلم اجلس
ثم قال من يحلب هذه فقام رجل فقال له النبي صلى الله عليه وسلم ما اسمك فقال الرجل حرب فقال له
النبي صلى الله عليه وسلم اجلس ثم قال من يحلب هذه فقام رجل فقال له النبي صلى الله عليه وسلم ما اسمك فقال
يعيش قال احلب فحلب زاد ابن وهب في جامعه هذا الحديث فقام عمر بن الخطاب فقال اتكلم يا رسول الله
ام اصمت قال بل اصمت واخبرك بما اردت ظننت يا عمر انها طيرة ولا طير الا طيره ولا خير الا خيره ولكن احب
الفال الحسن وفي جامع ابن وهب ان رسول الله صلى الله عليه وسلم اتي بغلام فقال ما سميتم هذا الغلام
قالوا السائب فقال لا تسموه السائب ولكن عبد الله فغلبوا على اسمه فلم يمت حتى ذهب عقله وفي صحيح
البخاري من رواية الزهري عن سعيد بن المسيب عن ابيه ان اباه جاء الى النبي صلى الله عليه وسلم فقال ما اسمك قال

قال حزن قال انت سهل قال لا اغير اسما سمانيه ابي قال ابن المسيب فما زالت الحزونة فينا بعد
وروى مالك عن يحيى بن سعيد ان عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال لرجل ما اسمك قال جمرة قال ابن من قال ابن شهاب
قال ممن انت قال من الحرقة قال اين مسكنك قال بحرة النار قال بايها قال بذات لظى فقال له عمر ادرك
اهلك فقد احترقوا فكان كما قال عمر وفي رواية مثل هذه القصة عن مجالد عن الشعبي قال جاء رجل من
جهينة الى عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال ما اسمك قال شهاب قال ابن من قال ابن جمرة قال ابن من قال ابن ضرام
قال ممن قال من الحرقة قال واين منزلك قال بحرة النار قال ويحك ادرك منزلك واهلك فقد احترقتم
او قال فقد احترقوا قال فاتاهم فالفاهم قد احترق عامتهم وقالت عائشة رضي الله عنها كان رسول الله
صلى الله عليه وسلم يعجبه التيمن ما استطاع في نعله وترجله ووضوءه وفي شانه كله وفي صحيح البخاري
عن ابن عمر رضي الله عنهما ان النبي صلى الله عليه وسلم قال الشؤم في ثلاث المراة والدار والدابة وفي الصحيح ايضا
من حديث سهل بن سعد الساعدي ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ان كان ففي الفرس والمراة والمسكن يعني
الشؤم وفي الموطا عن يحيى بن سعيد قال جاءت امراة الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت يا رسول الله
دار سكناها والعدد كثير والمال وافر فقل العدد وذهب المال فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم دعوها ذميمة
ولما راى النبي صلى الله عليه وسلم يوم احد فرسا قد لوح بذنبه ورجلا قد استل سيفه فقال له شم سيفك
فاني ارى السيوف ستسل اليوم وكذلك قوله لما رمى واقد بن عبد الله عمرو بن الحضرمي فقتله فقال
وقدت الحرب وعامر عمرت الحرب وابن الحضرمي حضرت الحرب ولما خرج النبي صلى الله عليه وسلم الى بدر
استقبل في طريقه جبلين فسال عنهما فقال اسم احدهما مسلح والاخر مخرئ واهلهما بنو النار وبنو حراق
فكره المرور بينهما ومضى على يساره وسلك ذات اليمين وعرض عبد الله بن جعفر مالا له على معوية فقال
له الدعاء وقال له اشتر مني فقال له معوية هذا قال يقول دعني ولما نزل الحسين بن علي بكربلا
قال ما اسم هذا الموضع قالوا كربلا قال كرب وبلا ولما خرج عبد الله بن الزبير من المدينة الى مكة
انشد احد اخوته

وكل بني ام سيمسون ليلة ... ولم يبق من اعيانهم غير واحد

فقال له عبد الله ما اردت الى هذا قال لم اتعمده قال هو اشد علي وقد كره السلف من بعدهم
ان يتبع الميت بنار الى قبره بمجمر او غيره ولم يعنوا الا التيمن قالت عائشة لا تجعلوا اخر زاده ان تتبعوه
بالنار ولما بايع طلحة بن عبيد الله علي بن ابي طالب وكان اول من بايع قال رجل اول يد بايعته يد شلاء لا يتم
هذا الامر له ولما بعث علي رضي الله عنه معقل بن قيس الرياحي من المداين في ثلاثة الاف امره ان ياخذ على

الموصل

الموصل وباجيس وراس العين حتى ياتي الرقة ويقيم بها فسار معقل حتى نزل الحديثة فبينا هو
ذات يوم جالسا اذ نظر الى كبشين يتناطحان حتى جاء رجلان فاخذ كل منهما كبشا فذهب به
فقال شداد بن ربعي الخثعمي ستنصرفون من وجهكم هذا لا تغلبون ولا تغلبون لافتراق
الكبشين سالمين فكان كذلك ولما بعث معوية في شان حجر بن عدي واصحابه كان الذي جاءهم
اعور يقال له هدبة وكانوا ثلاثة عشر رجلا مع حجر فنظر اليه رجل منهم فقال ان صدق
الفال قتل نصفنا لان الرسول اعور فلما قتلوا سبعة وافى رسول بان نهي عن قتلهم فخلوا عن
الباقين وقال عوانة بن الحكم لما دعي ابن الزبير الى نفسه قام عبد الله بن مطيع ليبايع فقبض عبد الله
ابن الزبير يده وقال لعبد الله بن علي بن ابي طالب قم فبايع فقال عبد الله قم يا مصعب فبايع
فقام فبايع فتفال الناس وقالوا ابى ان يبايع ابن مطيع وبايع مصعبا ليلوين في امره صعوبة او شر
فكان كذلك وقال مسلمة بن محارب نزل الحجاج في محاربته لابن الاشعث دير قرة ونزل عبد
الرحمن بن الاشعث دير الجماجم فقال الحجاج استقر الامر في يدي وتجمجم امره والله لاقتلنه وقال
عمرو بن مروان الكلبي حدثني مروان بن بشار عن مسلمة مولى يزيد بن الوليد قال خرج مع يزيد بن
الوليد بناحية القريتين قبل خروجه على الوليد بن يزيد ونحن نتذاكر امره اذ عرض لنا ذيب
هناك فتناول يزيد قوسه فرمى الذيب فاصاب حلقه فقلت قتلت الوليد ورب الكعبة فكان كما
قال وقال داود بن عيسى بن محمد بن علي خرج ابي وابو جعفر غازيين بلاد الروم ومعه
غلام له ومع ابي جعفر مولى له فسنحت له اربعة اضب ثم مضت على الناحية فانثنى ثلاث ورجعت
ومضى واحد فقال لنا ابو جعفر والله لا يرجع جميعا فمات مولى ابي جعفر وامر بعض الامرا
جارية له تغني فاندفعت تقول

هم قتلوه كي يكونوا مكانه ... كما غدرت يوما بكسرى مرازبه

قال ويلك غني غير هذا فغنت

هذا مقام مطرد هدمت منازله ودوره

قال ويلك غني غير هذا فقالت والله يا سيدي ما اعتمدت الا ما يسرك وسبق الى لساني ما ترى ثم غنت

كليب لعمري كان اكثر ناصرا ... وايسر جرما منك ضرج بالدم

قال يا جارية اخرجي الا قربت فنعم قالت لا اعقل في الامر الذي فيه تسعنا وقد ذكر في حرب
بني تغلب ان ثم الثلاثة رشابعيه في طلب ماله فلما امسى سمع صوت الريح فقال الامراة انظري من اين

نشأ السحاب ورأى بنات الريح فاخبره ان الريح طالع من وجه السحاب فقال واللّه اني لارى ريحا تجد هبله
الصخر وتمحق الاثر فلما دخل على بنيه قال لهم ما القيتم قالوا سرنا من عندك فلما بلغنا دعص السعتمين
اذا بعقرجان نامت على دعص من رمل فقال أمشرقات ام مغربات قال فما يحلم ناطح ام داب ام بارح ام
سانح فقالوا ناطح قال لحسه ما اسم اللات دعص السعتمين والسعتم الشيخ الكبير وانت سعتم بن بكر
وجوانم بدعص وريح ناطح نطحت فرحت قال ثم ماذا قالوا ثم راينا دبا قد دلع لسانه من فيه وهو
يجر شعره على فقال ذلك حران نابر ولسان عدو لجالي الظهر همه شغل الدار وهو ارقم الاراقم
يعني مهلهلا قال ثم ماذا قالوا ثم راينا رخما وبحاثا قال نفل بطونهم قالوا بلى قال بيرف قالوا قد كان
ذلك قال ما شابل فقال ذلك دم شابل ومرهفات قال ثم مه قالوا ثم طلعنا قلعة الصفا ثم تصوبنا
رتل تعاران قال فلم شوا او مترادفين قالوا بل شوا قالوا فما شام ما لواد حتى قال فما يحلم قالوا
ناطح قال فما فعل الجيش الذي لقيتم قالوا نجونا منه هربا وجل القوم في اثرنا قال ثم مه قالوا رأينا
عقابا منقضة على عقاب فتشابكا وهويا الى الارض قال ذاك جمع رام جمعا فهو كآفيه قال ثم مه قالوا
ثم رأينا سبعا على سبع ينهسه وبه بقية لم يمت فقال الدروني اما واللّه انها القبيلة مصروعة ما كواله ينقوله
من بني وايل بعد عز وامتناع وذكروا ان بني اللات هذا مزيوما بجمل اجرب وعلى بلاد عزليت فقال
لبنيه سنعفون على معتول فكان كما قال وقتل عن قريب وكذلك قول علقمة في مسير مع اصحابه وقد
مروا في الليل بشيخ فان فقال لقيتم شيخا كبيرا فانيا تعاله الدهر والدهر يغاله يخبركم انكم ستلقون
قوما فيهم ضعف ووهن ثم لقي سبعا فقال دلاح لا يغلب ثم راى غرابا ينقض بحوجوه فقال ابشروا
الا تدرون انه يخبركم انه قد اطمأنت بكم الدار فكان كذلك وذكر المدايني ان رجلا خرج رجل من
لهب ولهم عيافة في حاجة له ومعه سقاء لبن فسار صدر يومه ثم عطش فاناخ ليشرب فاذا الغراب
ينعب فاثار راحلته ومضى فلما اجهده العطش اناخ ليشرب فنعب الغراب فاثار راحلته ثم الثالثة
نعب الغراب وتمرغ في التراب فضرب الرجل السقاء بسيفه فاذا فيه اسود ضخم ثم مضى فاذا غراب
على سدرة فصاح به فوقع على سلمة فصاح به فوقع على صخرة فانتهى اليه فاذا تحت الصخرة كنسية
فلما رجع الى اهله قال له ما صنعت فقال له سرت صدر يومي ثم انخت لاشرب فاذا الغراب ينعب
قال اثره واللّه لتتبايني قال اثرته ثم انخت لاشرب فنعب الغراب وتمرغ في التراب قال اضرب السقاء
والا فلست بابي قال ففعلت فاذا اسود ضخم قال ثم مه قال ثم رايت غرابا واقعا على سدرة قال
اطره والا فلست بابي قال اطرته فوقع على سلمة قال اطره والا فلست بابي قال ففعلت فوقع على صخرة قال

اخبرني

اخبرني بما وجدت فاخبره   وذكروا ايضا ان اعرابيا اظل ذودا له وخادما فخرج في
طلبها اذا اشتدت على الشمس وحمي النهار مر برجل يحلب ناقة قال له اطعمني ابتغي ضالة لي عن
ضالتي قال ادن فاشرب من اللبن وادلك على ضالتك قال فشرب ثم قال له ما سمعت حين خرجت
قال بكاء الصبيان ونباح الكلاب وصراخ الديك وثغاء الشاء قال ينهاك عن الغدو ثم مه قال
ثم ارتفع النهار فعرض لي ذئب قال كسوب ذو ظفر ثم مه قال ثم عرضت لي نعامة قال ذات ريش
واسمها حسن هل تركت في اهلك مريضا يعاد قال نعم قال ارجع الى اهلك فذودك وخادمك عندهم
فرجع فوجدهم وذكر ابو خالد التيمي قال كنا اضللنا ابلا بعمان فارعا بها نظر البصرة فطردت
فخرجت اقفوا اثرها حتى انتهيت الى القادسية فاختلطت على الاثار فقلت لو دخلت الكوفة فتحسست
عنها فاتيت الكناسة فاذا الناس مجتمعون على عراف اليمامة فوقفت ثم قلت له حاجتي فقال
بعيدة اسطار الهوى جمع شملها على العاجز الباغي الغني ذو تكاثف
ولم يجبني فوجدتها في الشام مع ابن عم لي فضالة اصحابها عنها وقال المدايني كان
بالسواد زاجر لعامل له مهر فاخبره بعض العمال الجبل بالدرب زجره ثم ارسل اليه فلما اتاه قال له اني
قد بعثت غنما الى مكان كذا وكذا فانظر هل وصلت ام لم تصل وقد عزا العامل قبل ذلك ان بينها
وبين الكلام مرحلة فقال للغلام اخرج فانظر اي شيء تسمع قال وكان العامل قد امر غلامه ان يكمن
في ناحية الدار ويصيح صياح ابن اوى فخرج غلام الزاجر ليسمع وصاح غلام العامل فرجع الى
الزاجر غلامه واخبره بما سمع قال للعامل قد ذهبت غنمك وقطع عليها الطريق فاستبعث
قال فضحك العامل وقال قد جاءني خبرها انها قد وصلت والصائح الذي صاح غلامي قال
ان كان الصائح الذي صاح لغلامي فقد ذهبت وان كان غلامك فقد قتل الراعي قال
فبلغه بعد ذلك ذهاب الغنم وقتل الراعي وذكر عن العكلي انه خرج في تسعة نفر هو عاشرهم ليصيبوا
الطريق فراى غرابا واقعا على بانة فقال يا قوم انكم تصابون في سفركم هذا فازدجروا وطيعوا
وارجعوا فابوا عليه فاخذ قوسه وانصرف وقتلت التسعة فانشا يقول

رأيت غرابا واقعا فوق بانة ينتف اعلى ريشه ويطايره
فقلت غرابا واغترابا من النوى وبان فبين من حبيب تحاوره
فما اعيف العكلي لا در دره وازجره للطير لا عز ناصره

وذكر عن كثير عزة انه خرج يريد مصر وكانت بها عزة فلقيه اعرابي من لهب فقال له اين تريد قال

اريد عزة بمصر قال رايتك وجهك شيئا قال رايت غرابا ساقطا فوق بانة ينتف ريشه فقال
بانت عزة فاتيتهم ونعني نواحي مصر والناس ينصرفون من جنازتها فانشا يقول

فاما غراب فاغتراب وغربة ... وبان فبين من حبيب تعاشره

وذكر عنه ايضا انه هوي امراة من قومه بعد عزة يقال لها ام الحويرث وكانت فائقة الجمال كثيرة المال فقالت له اخرج فاصب مالا واتزوجك فخرج الى اليمن وكان عليها رجل من بني مخزوم فلما كان ببعض الطريق عرض له قوط والقوط الجماعة من الظباء ثم عرض له غراب ينعب ويفحص التراب على راسه فاتى حيا من الحي من بني لهب وهم ازجر العرب وفيهم شيخ قد سقط حاجباه على عينيه فقص عليه ما عرض له فقال ان كنت صادقا فلقد ماتت هذه المراة او تزوجت رجلا من بني كعب فاغتم لذلك وسقي بطنه فكان ذلك سبب موته وقال في ذلك

تيممت لهبا ابتغي العلم عندها ... وقد رد علم العائفين الى لهب
تيممت شيخا منهم ذا امانة ... بصيرا بزجر الطير منحني الصلب
فقلت له ماذا ترى في سوانح ... وصوت غراب يفحص الارض بالترب
فقال جرى الطير السنيح ببينها ... ونادى غراب بالفراق وبالسلب
فان لا تكن ماتت فقد حال دونها ... سواك خليل باطن من بني كعب

وقال رجل من بني اسد تزوجت ابنة عم لي فخرجت اريدها فلقيني شيء كالكلب مثل الشاة في شق فقلت اخفقت ورب الكعبة فاتيت القوم فلم اصل اليها وما فرق اهلها فخرجت عنهم فمكثت زمانا ثم بلغني خبرهم فخرجت نحوهم فلقيت كلبه سطف اطيارها البسا فقلت ادركت ورب الكعبة فدخلت باهلي وحملت مني بغلام ثم اخرى فولدت اولادا وذكر عن يحيى بن خالد قال لح رجلان فقيل لهما ههنا امراة تزجر قال فاتيناها فلما اتيناها سالها احدهما ما تضمر قالت انك لتسالني عن رجل محبوس مقيد ثم سالها الاخر قالت انك لتسالني عن رجل مقتول قال هو والله الذي سال عنه صاحبي فقالت هو كما قلت فسالناها عن تفسير ذلك فقالت اما رايتما الجارية التي مرت ومعها ديك مشدود الرجلين حين سالني الاول فالانجاء لذلك قلت انه محبوس مقيد قالت ورات الجارية حين رجعت وسالني انت والديك مذبوح فقلت مقتول وذكر المدائني ان اهل بيت من النخع كانوا اذا غاب الرجل عن اهله ولم ياتهم خبره اربع حجج زوجوا امراته فتزوج رجل منهم جارية وغاب اربع حجج لا ياتيهم فارادوا تزويج الجارية وكانت مشغوفة به فقالت دعوني سنة اخرى فاتوا عليها واتوا زاجرا لهم

فخرج الزاجر

فخرج الزاجر ومعه تلميذ له فلقاهم قوم يحملون ميتا ويد الميت على صدره فقال الزاجر لتلميذه مات الرجل قال ما مات الا ترى يد الميت على صدره تخبر انه هو الميت والرجل صحيح فرجعا فاخبر الحاكم انه لم يمت فامر باجيلها سنة فجاء زوجها بعد شهر وذكر ابن قتيبة عن ابرهيم بن عبد الله قال دخل على رجل ضرير زاجر العرب قد حبات تحت به عنوان من ذئاب فقلت اخبرني بما خبات لك فنظر قليلا ثم قال هو من باب الماء فقلت زدني قال هو قطعة من كتاب قال فسالته عن ذلك فقال سالني عن الخبي فوقعت يدي على الحصير فقلت انه من باب الماء قال فقلت زدني وصاح صائح من جانب الدار يا سويد فقضيت بالسواد وبانه صغير للتصغير ثم نظرت فلم ار هناك شيئا اولى بان يكون قطعة من كتاب قال وسالته عن معراض في يدي فاخذت اصبعي في حلقتها فقال في يدك خاتم من حديد وذكر ابن عيينة عن الزهري عن محمد بن جبير بن مطعم عن ابيه ان عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان يرمي الجمرة فجاءه حجر فاصاب جبهته ففصدت منه عرقا فقال رجل من لهب اشعر امير المومنين ورب الكعبة لا يقوم هذا المقام ابدا فقتل بعد ذلك وفي الصحيحين من حديث ابن عمر رضي الله عنهما ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال الشوم في الدار والمراة والفرس وفي لفظ اخر فيهما لا عدوى ولا صفر ولا طيرة وانما الشوم في ثلثة المراة والفرس والدار وفي لفظ اخر فيهما ان لم يكن الشوم حقا ففي الفرس والمسكن والمراة وفي بعض طرق البخاري والدابة بدل الفرس وفي الصحيحين ايضا عن سهل بن سعد الساعدي قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان كان ففي المراة والفرس والمسكن يعني الشوم وقال البخاري ان كان في شيء ففي الربع والخادم والفرس وفي صحيح مسلم عن ابي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال لا يورد ممرض على مصح وفي الموطا لمالك انه بلغه عن بكير بن عبد الله بن الاشج عن ابن عطية ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لا عدوى ولا طيرة ولا هام ولا صفر ولا يحل الممرض على المصح وليحلل المصح حيث شاء فقالوا يا رسول الله وما ذاك فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم انه اذى وقال ابن وهب اخبرني يونس عن ابن شهاب ان ابا سلمة بن عبد الرحمن قال كان ابو هريرة يحدثنا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم لا عدوى ويحدثنا ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لا يورد ممرض على مصح الحديث قال ثم صمت ابو هريرة بعد ذلك عن قوله لا عدوى واقام على ان لا يورد ممرض على مصح قال فقال الحارث بن ابي ذباب وهو ابن عم ابي هريرة قد كنت اسمعك يا ابا هريرة تحدثنا مع هذا

الحديث حديثا آخر قد سكت عنه كنت تقول قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا عدوى فأبى أبو هريرة
أن يعرف ذلك وقال لا يورد ممرض على مصح فما رآه الحارث في ذلك حتى غضب أبو هريرة ورطن
بالحبشية فقال للحارث أتدري ماذا قلت قال لا قال أبو هريرة إني قلت أبيت قال أبو سلمة
فلعمري لقد كان أبو هريرة يحدثنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لا عدوى فلا أدري أنسي
أبو هريرة أو نسخ أحد القولين الآخر قالوا فهذا النهي عن إيراد الممرض على المصح إنما هو لأجل الطيرة
التي تلحق المصح وقال مسدد ثنا يحيى ثنا هشام عن يحيى بن أبي كثير عن الحضرمي بن لاحق عن سعيد بن المسيب
قال سألت سعد بن مالك عن الطيرة فانتهرني وقال من حدثك فكرهت أن أحدثه فقال سمعت رسول
الله صلى الله عليه وسلم يقول لا عدوى ولا طيرة ولا هامة وإن كانت الطيرة في شيء ففي الفرس والمرأة والدار
وإذا كان الطاعون بأرض وأنتم بها فلا تفروا وفي صحيح مسلم عن الشريد بن سويد قال كان
في وفد ثقيف رجل مجذوم فأرسل إليه النبي صلى الله عليه وسلم إنا قد بايعناك فارجع وفي حديث
آخر فر من المجذوم فرارك من الأسد **فصل** الآن التقت حلقتا البطان وتداعى
نزال الفريقان ثم وههنا أضعاف أضعاف ما ذكرتم وأضعاف أضعافه ولكن ليس ههنا مسلكان
عليهما يعتمد المتكلمون في هذا الباب لا نرتضيهما بل نسلك مسلك العدل والتوسط بين طرفي الإفراط
والتفريط فدين الله بين الغالي فيه والجافي عنه والوادي بين الجبلين والهدى بين الضلالين وقد
جعل الله هذه الأمة هي الأمة الوسط في جميع أبواب الدين فإذا انحرف غيرها من الأمم إلى أحد الطرفين
كانت هي في الوسط كما كانت وسطا في باب أسماء الرب تعالى وصفاته بين الجهمية المعطلة والمشبهة
الممثلة وكانت وسطا في باب الإيمان بالرسل بين من عبدهم وأشركهم بالله كالنصارى وبين من
قتلهم وكذبهم فآمنوا بهم وصدقوهم ونزلوهم منازلهم من العبودية وكانت وسطا في القدر بين
الجبرية الذين يمنعون أن يكون للعبد فعل أو كسب أو اختيار البتة بل هو مجبور مقهور لا اختيار له
ولا فعل وبين القدرية النفاة الذين يجعلونه مستقلا بفعله ولا يدخل فعله تحت مقدور الرب
ولا هو واقع بمشيئة الله وقدرته فأثبتوا له فعلا وكسبا واختيارا حقيقة هو متعلق الأمر والنهي
والثواب والعقاب وهو مع ذلك واقع بقدرة الله ومشيئته فما شاء الله من ذلك كان وما لم يشأ
لم يكن ولا يتحرك ذرة إلا بمشيئته وإرادته والعبد أضعف وأعجز أن يفعل ما لم يشأ الله ولا
قدره ولا قدر عليه وكذلك هو وسط في المطاعم والمشارب بين اليهود الذين حرمت عليهم
الطيبات عقوبة لهم وبين النصارى الذين يستحلون الخبائث فأحل الله لهذه الأمة الوسط

الطيبات

الطيبات وحرم عليهم الخبائث وكذلك لا تجد أهل الحق دائما إلا وسطا بين طرفي الباطل وأهل
السنة وسط في النحل كما أن المسلمين وسط في الملل وكذلك فيما نحن فيه في هذا الباب فإنهم
وسط بين النفاة الذين ينفون الأسباب جملة ويمنعون ارتباطها بالمسببات وتأثيرها فيها ويلغون
هذا الباب بجملته ويضطربون فيما ورد من ذلك ويقابلونه بالتكذيب منه ما يمكنهم تكذيبه
ويحملون على الاتفاق والمصادفة ما لا قبل لهم بدفعه من غير أن يكون لشيء من هذه الأمور مدخل
في التأثير أو تعلق بالمشيئة البتة وربما يقولون إن ذلك مجرد خيالات وأوهام في النفوس
تنفعل عليها النفوس كما تنفعل أرباب الخيالات والأمراض والأوهام وليس عندهم وراء ذلك شيء
وهذا مسلك نفاة الأسباب وارتباط المسببات بها وهذا جواب جمهور المتكلمين فالمسلك
الثاني مسلك المثبتين لهذه الأمور المعتقدين لها الذاهبين إلى أنها وهي عندهم أقوى من
الأسباب الحسية أو في درجتها ولا يلتفتون إلى قدح قادح فيها والقدح فيها عندهم من
جنس القدح في الحسيات والضروريات ونحن لا نسلك سبيل هؤلاء ولا سبيل هؤلاء بل نسلك
سبيل التوسط والإنصاف ونجانب طريق الجور والانحراف فلا نبطل الشرع بالقدر ولا نكذب
بالقدر لأجل الشرع بل نؤمن بالقدر ونصدق الشرع فنؤمن بقضاء الله وقدره وشرعه ولا
نعارض بينهما فنبطل الأسباب المقدرة أو نقدح في الشريعة المنزلة كما فعله الطائفتان المنحرفتان
فإحداهما أبطلت ما قدره الله من الأسباب بما فهمته من الشرع وهذا من تقصيرها في الشرع
والقدر والأخرى توصلت إلى القدح في الشرع وإبطاله بما شاهدته من تأثير الأسباب وارتباطها
بمسبباتها فظنتا أن الشرع نفاها فكذبت بالشارع فالطائفتان جنايتان على القدر والشرع
لكن الموفقون المهتدون آمنوا بقدر الله وشرعه ولم يعارضوا أحدهما بالآخر بل صدق كل
منهما الآخر عندهم وقواه فكان الأمر تفصيلا للقدر وكاشفا عنه وحاكما عليه والقدر أصل
للأمر ومنفذ له وشاهد له ومصدق له فلولا القدر لما وجد الأمر ولا تحقق ولا قام على
ساقه ولولا الأمر لما تميز القدر ولا تبينت مراتبه وتصاريفه فالقدر مظهر للأمر والأمر تفصيل
له والله سبحانه له الخلق والأمر فلا يكون إلا خالقا آمرا فأمره تصريف لقدره وقدره منفذ لأمره
ومن أبصر هذا حق التبصر وانفتحت له عين قلبه تبين له سر ارتباط الأسباب بمسبباتها وتأثيرها
فيها وأن القدح فيها وإبطالها إبطال للأمر وتبين له أن كمال التوحيد إثبات الأسباب لا أن إثباتها
نقص للتوحيد كما زعم منكروها حيث جعلوا إبطالها من لوازم التوحيد فجنوا على التوحيد والشرع

والزموا تكذيب الحس والعقل ووقعوا في انواع من المكابرة سلطت عليهم اعداء الشريعة واوجبت
لهم ان اساؤا بها الظن وتنقصوها وزعموا انها خطابية واقناعية وجدلية لا برهانية فعظم
الخطب وتفاقم الامر واشتدت البلية بالطائفتين وقد قيل ان العدو العاقل خير من الصديق
الجاهل ونحن بحمد الله نبين الحق في ذلك ونوضحه ايضاحا يتبين به تصديق كل واحد من الامرين
للاخر وشهادته له وتبين ارتباط كل من الامرين بالاخر وعدم انفكاكه عنه فنقول
وبالله التوفيق اما ما ذكرتم من ان النبي صلى الله عليه وسلم كان يعجبه الفال الحسن فلا ريب في ثبوته عنه
وقد قرن ذلك بابطال الطيرة كما في الصحيحين من حديث الزهري عن عبيد الله بن عبد الله عن ابي هريرة
رضي الله عنه قال قال النبي صلى الله عليه وسلم لا طيرة وخيرها الفال قال وما الفال يا رسول الله قال
الكلمة الصالحة يسمعها احدكم فابتدا النبي صلى الله عليه وسلم بازالة الشبهة وابطال الطيرة لئلا يتوهم ان
اعجابه بالفال الصالح ليس من الاعجاب بالفال ومحبته من الشرك بل ذلك ابانة عن مقتضى الطبيعة
وموجب الفطرة الانسانية التي تميل الى ما يلائمها ويوافقها مما ينفعها كما اخبرهم انه حبب اليه من الدنيا النسا
والطيب وفي بعض الاثار انه صلى الله عليه وسلم كان يعجبه الفاغية وهي نور الحناء وكان يحب
الحلوا والعسل وكان يحب الشراب البارد الحلو ويحب حسن الصوت بالقران والاذان ويستمع
اليه ويحب معالي الاخلاق ومكارم الشيم وبالجملة يحب كل كمال وخير وما يفضي اليهما والله سبحانه
قد جعل في غرائز الناس الاعجاب بسماع الاسم الحسن ومحبته وميل نفوسهم اليه وكذلك جعل فيها
الارتياح والاستبشار والسرور باسم السلام والفلاح والنجاح والتهنئة والبشرى والفوز
والظفر والغنم والربح والطيب ونيل الامنية والفرح والغوث والعز والغنى وامثالها
فاذا قرعت هذه الاسماء الاسماع استبشرت بها النفس وانشرح لها الصدر وقوي بها القلب
واذا سمعت اضدادها اوجب لها ضدها هذه الحال فاحزنها ذلك واثار لها خوفا وطيرة وانكماشا
وانقباضا عما قصدت له وعزمت عليه فاورث لها ذلك ضررا في الدنيا ونقصا في الايمان ومقارفة
الشرك كما ذكر ابو عمر في التمهيد من حديث المقري عن ابن لهيعة عن ابن هبيرة عن ابي عبد الرحمن
الحبلي عن عبد الله بن عمرو عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال من رجعته الطيرة من حاجته فقد اشرك
قالوا وما كفارة ذلك يا رسول الله قال ان يقول احدهم اللهم لا طير الا طيرك ولا خير الا خيرك
ولا اله غيرك ثم يمضي لحاجته وذكر ابن وهب قال اخبرني اسامة بن زيد قال سمعت
نافع بن جبير بن مطعم يقول سال كعب الاحبار عبد الله بن عمرو قال هل تتطير قال نعم قال

فكيف

فكيف تقول اذا تطيرت قال اقول اللهم لا طير الا طيرك ولا خير الا خيرك ولا رب غيرك ولا قوة
الا بك فقال كعب انه افقه العرب والله انها لكذلك في التوراة وهذا الذي جعله الله في طبايع
الناس وغرايزهم من الاعجاب بالاسماء الحسنة والالفاظ المحبوبة هو نظير ما جعل في غرايزهم من الاعجاب
بالمناظر الانيقة والرياض المنورة والمياه الصافية والالوان الحسنة والروايح الطيبة
والمطاعم المستلذة وذلك امر لا يمكن دفعه ولا يجد القلب عنه انصرافا فهو ينفع المومن ويسر نفسه
وينشطها ولا يضرها في ايمانها وتوحيدها واخبر صلى الله عليه وسلم في حديث ابي هريرة ان الفال
من الطيرة وهو خيرها فقال لا طيرة وخيرها الفال فابطل الطيرة واخبر ان الفال منها ولكنه
خيرها ففصل بين الفال والطيرة لما بينهما من الامتياز والتضاد ونفع احدهما ومضرة الاخر
ونظير هذا منعه من الرقى بالشرك واذنه في الرقية اذا لم يكن فيها شرك لما فيها من المنفعة الخالية
عن المفسدة وقد اعتاص هذا الفرقان على افهام كثير ممن غلظ عن معرفة الحق والذي حجابه
وغلظ عنه طبعه وكثف عنه فهمه فقال السامع اذا سمع مثلا يا بسام او يا بشير ولا تخف او
يا نجيح ونحوه وسمع ضد ذلك فاما ان يوجب الامران ما يشاكلهما واما ان لا يوجبا شيئا فاما
ان يوجب احدهما دون الاخر فلا وجه له وهذا قول من عمي عن الهدى وصم عن سماعه وانما
تحصل الهداية من الفاظ رسول الله صلى الله عليه وسلم ويشرق الفاظها في صدر من تلقاها بالتصديق
والقبول واذعن لها بالسمع والطاعة وقابلها بالرضى والتسليم وعلم انها منبع الهدى ومعدن
الحق ونحن بحول الله نوضح لمن اشتبه ذلك عليه فرقان ما بينهما وفايدة الفال ومضرة الطيرة فنقول
فقول القائل الفال والطيرة وان كان ماخذهما سواء ومجتناهما واحدا فانهما يختلفان في المقاصد
ويفترقان في المذاهب فما كان محبوبا مستحسنا تفالوا به وسموه الفال واحبوه ورضوه وما كان
مكروها قبيحا منفرا تشاموا به وكرهوه وتطيروا منه وسموه طيرة تفرقة بين الامرين وتفصيلا
بين الوجهين وسئل بعض الحكماء فقيل له ما بالكم تكرهون الطيرة وتحبون الفال فقال
لنا في الفال عاجل البشرى وان قصر عن الامل ونكره الطيرة لما يلزم قلوبنا من الوجل وهذا
الفرقان حسن جدا واحسن مما قال ابن الرومي في ذلك الفال لسان الزمان والطيرة
عنوان الحدثان وقد كانت العرب تقلب الاسماء تطيرا وتفاؤلا فيسمون اللديغ
سليما باسم السلامة وتطيرا من اسم السقم ويسمون العطشان ناهلا اي سينهل والنهل
الشرب تفاؤلا باسم الري ويسمون الفلاة مفازة اي منجاة تفاؤلا بالفوز والنجاة ولم يسموها

مهلكة لاجل الطيرة وكانت لهم مذاهب في تسمية اولادهم فمنهم من سموه باسماء تفاؤلا بالظفر على
اعدائهم نحو غالب وغلاب ومالك وظالم وعارم ومنازل ومقاتل ومعارك ومسهر ومورق
ومصبح وطارق ومنهم من تفاءل بالسلامة كتسميتهم سالم وثابت ونجيح ومنهم من تفاءل بنيل الحظوظ
والسعادة كسعد وسعيد واسعد ومسعود وسعدى وغانم ونحو ذلك ومنهم من قصد التسمية
باسماء السباع ترهيبا لاعدائهم نحو اسد وليث وذيب وضرغام وشبل ونحوها ومنهم من
قصد التسمية بما غلظ وخشن من الاجسام تفاؤلا بالقوة نحو حجر وصخر وفهر وجندل ومنهم
من كان يخرج من منزله وامراته تمخض فيسمي ما تلد باسم اول ما يلقاه كائنا ما كان من سبع او ثعلب او
ضب او كلب او ظبي او حشيش او غيره وكان القوم على ذلك الى ان جاء الله بالاسلام وبمحمد رسوله
صلى الله عليه وسلم ففرق به بين الهدى والضلال والغي والرشاد وبين الحسن والقبيح والمحبوب والمكروه
والنافع والضار والحق والباطل فكره الطيرة وابطلها واستحب الفال وحمده فقال لا طيرة وخيرها
الفال قالوا وما الفال قال الكلمة الصالحة يسمعها احدكم وقال عبد الله بن عباس رضي الله عنهما
لا طيرة ولكنه فال والفال المرسل يسار وسالم ونحو من الاسم يعرض لك على غير ميعاد وسئل
بعض العلماء عن الفال فقال ان تسمع وانت قد اضللت بعيرا او شيئا يا واجد او وانت خائف يا
سالم وقال الاصمعي سالت ابن عون عن الفال فقال ان يكون مريضا فيسمع يا سالم واجرك
بتصنيه من ذلك وبين اني اضللت بعض الاولاد يوم التروية بمكة وكان طفلا فجهدت في طلبه والنداء عليه
في سائر الركب الى وقت يوم الثامن فلم اقدر له على خبر فايست منه فقال لي انسان ان هذا عجز ارجع
وادخل الان الى مكة فتطلبه فيها فركبت فرسا فما هو الا ان استقبلت جماعة يتحدثون في سواد الليل في الطريق
واحدهم يقول ضاع له شي فلقيته فما ادري انقضاء كلمته كان اسرع او وجداني للطفل مع بعض اهل
مكة في محمله عرفته بصوته وقوله صلى الله عليه وسلم لا طيرة وخيرها الفال ينفي عن الفال الطيرة من تاثير
او فعل او شرك ويخلص الفال منها وفي الفرقان بينهما فائدة كبيرة وهي ان التطير هو التشاؤم
من الشي المرئي والمسموع فاذا استعملها الانسان فرجع بها عن سفره وامتنع بها مما عزم عليه فقد قرع
باب الشرك بل ولجه وبرئ من التوكل على الله وفتح على نفسه باب الخوف والتعلق بغير الله والتطير
بما يراه او يسمعه وذلك قاطع له عن مقام اياك نعبد واياك نستعين واعبده وتوكل عليه وعليه
توكلت واليه انيب فيصير قلبه متعلقا بغير الله عبادة وتوكلا فيفسد عليه قلبه وايمانه وحاله ويبقى
هدفا لسهام الطيرة ويساق اليه من كل اوب ويقيض له الشيطان من ذلك ما يفسد عليه دينه ودنياه

وكم

وكم ممن هلك بذلك وخسر الدنيا والاخرة فاين هذا من الفال الصالح السار للقلوب المؤيد للامال
الفاتح باب الرجاء المسكن للخوف الرابط للجاش الباعث للاستعانة بالله والتوكل عليه والاستبشار
المقوي لامله السار لنفسه فهذا ضد التطير فالفال يفضي بصاحبه الى الطاعة والتوحيد
والطيرة تفضي بصاحبها الى المعصية والشرك فلهذا استحب النبي صلى الله عليه وسلم الفال وابطل
الطيرة واما حديث اللقحة ومنع النبي صلى الله عليه وسلم حربا ومرة من حلبها واذنه ليعيش في حلبها فليس
هذا بحمد الله في من الطيرة لانه محال ان ينهى عن شي ويبطله ثم يتعاطاه هو وقد اعاذه الله سبحانه
من ذلك قال ابو عمر ليس هذا عندي من باب الطيرة لانه محال ان ينهى عن شي ويفعله وانما هو
من طلب الفال الحسن وقد كان اخبرهم عن اقبح الاسماء انه حرب ومرة فاكد ذلك حتى لا يتسمى بها احد ثم
ساق من طريق ابن لهيعة عن جعفر بن ربيعة عن ربيعة بن زيد عن عبد الله بن عامر اليحصبي عن
معاوية بن ابي سفيان رضي الله عنه ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال خير الاسماء عبد الله وعبد الرحمن
واصدقها حارث وهمام حارث يحرث لدنياه وهمام يهم بالخير وكان يكره الاسم القبيح لانه كان يتفاءل
بالحسن من الاسماء ثم ساق من طريق ابن وهب حدثني ابن لهيعة عن الحرث بن يزيد عن عبد الرحمن
ابن جبير عن يعيش الغفاري قال دعا النبي صلى الله عليه وسلم يوما بناقة فقال من يحلبها فقام رجل
فقال انا فقال ما اسمك قال مرة قال اقعد ثم قام اخر فقال ما اسمك قال جمرة قال اقعد ثم قام اخر فقال
ما اسمك قال يعيش قال احلبها وروى حماد بن سلمة عن حميد عن بكر بن عبد الله المزني ان رسول الله
صلى الله عليه وسلم كان اذا توجه لحاجة يحب ان يسمع يا نجيح يا راشد يا مبارك وقد روى من حديث
بريدة رضي الله عنه ان النبي صلى الله عليه وسلم لم يكن يتطير من شي ولكن كان اذا سال عن اسم الرجل فكان حسنا
رئي البشاشة في وجهه صلى الله عليه وسلم وان كان سيئا رئي ذلك في وجهه صلى الله عليه وسلم واذا سال عن اسم الارض
فكان حسنا رئي ذلك فيه قلت الحديث رواه الامام احمد رضي الله عنه في مسنده حدثنا
عبد الصمد ثنا هشام عن قتادة عن عبد الله بن بريدة عن ابيه قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يتطير
من شي ولكنه اذا اراد ان ياتي ارضا سال عن اسمها فان كان حسنا رئي البشر في وجهه وكان اذا
بعث رجلا سال عن اسمه فان كان حسن الاسم رئي البشر في وجهه وان كان قبيحا رئي ذلك في وجهه
وقال ابو عمر ثنا عبد الوارث ثنا قاسم ثنا احمد بن زهير ثنا حسين بن حرب ثنا اوس بن عبد الله بن
بريدة عن الحسين بن واقد عن عبد الله بن بريدة عن ابيه قال كان النبي صلى الله عليه وسلم لا يتطير ولكن كان يتفاءل
فركب بريدة في سبعين راكبا من اهل بيته من بني اسلم فلقي النبي صلى الله عليه وسلم ليلا فقال له النبي صلى الله عليه وسلم

من انت قال انا بريده فالتفت الى ابي بكر فقال يا ابا بكر برد امرنا وصلح ثم قال ممن قال من اسلم فقال لابي بكر سلمنا ثم قال ممن قال من بني سهم قال خرج سهمك قال ابو عمر بن عبد البر قال لنا ابو عمار سمعت اوسا يحدث هذا الحديث بعد ذلك عن اخيه سهل بن عبد الله عن ابيه عبد الله بن بريده فاعرف بلنا من حدثك قال سهل اخي ذو الذي يتشف امر حديث اللقحة ما زاد ابن وهب في جامعه في الحديث فقال بعد ان ذكره فقام عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال اتكلم يا رسول الله ام اصمت قال بل اصمت واخبرك بما اردت ظننت يا عمر انها طيره ولا طيره الا طيره ولا خير الا خيره ولكن احب الفال الحسن قال فرد بذلك تعلق المتطير من روح لم الحديث والحمد لله رب العالمين ويمكن ان يكون هذا منه صلى الله عليه وسلم على سبيل الادب لامته صلى الله عليه وسلم لئلا يسموا ابناءهم بالاسماء القبيحه ولسادر من اسلم منهم وله اسم قبيح الى ابداله بغيره من غير الحاء منه ولا الزام ولكن لوجهين من الاستحباب احدهما استنقاله عن مذاهب اباءهم ومقاصد سلفهم الفاسده القبيحه التي تجري لبعضهم بعضا عند سماعها وموافاة اهلها ومخالطتهم وعفا جاتهم لما يقع في ذلك من اثار الطيره الكاينه في الغريزه فان سلم العبد منها وجاهد نفسه عليها عند لقا صاحبها وسماع الاسم اخيه لم يسلم من الكمد وحزن القلب وقد يودي ذلك الى البغضاء والى حرج النفس والتفرقه كما الصديق يدعو الصديق القبيح الاسم فيدعي خاطره انه لم يصحبه ولا راه ولا سمع اسمه حتى اذا صاح به ودعاه ذو الاسم الحسن ابتهج اليه واقبل عليه وسر بصاحبه ودعايه له لراحه قلبه الى حسن اسمه فقد يدنو البعيد من قلبه ويبعد الصديق من نفسه من اجل اسمه فليف به اذا راه ربيعه وعبر له تعبير السوء من اسفاق اسمه كيف يعود شينا المعقد في رقاده متكرها للقايه متطيرا لرويته وهذا اصل التوادد والتراحم والتوالف الذي قصد الشارع ربطه بين المومنين فلم يرد صلى الله عليه وسلم لامته مقاما على حال يودي بها بعضهم بعضا لغير عذر ولا فايده تعود عليهم لا في الدنيا ولا في الاخره ويودي الى هذا التقاطع والتنافر مع انه صلى الله عليه وسلم قد ندبهم واستحب لهم ادخال احدهم السرور على اخيه المسلم ما استطاع ودفع الاذى والمكروه عنه فقال لا تقاطعوا ولا تدابروا وكونوا عباد الله اخوانا المسلم اخو المسلم وقد امرهم يوم الجمعه بالغسل والطيب لئلا يودي بعضهم بعضا برايحه التي تما يحتشها ساعه الاجتماع ثم تفترقات ومنع اكل الثوم والبصل من دخول المسجد لاجل اذى الناس والملايكه ومنع الاثنين ان يتناجيا دون صاحبهما خشيه ان يريبه ويحزنه ومنع احدهم ان ياكل مع اخيه الا عنا لا ان ذلك يوذيه ومعلوم ان ضرر الاسم القبيح على الكبير منهم اشد عليهم عندهم وخروجه من منزله وروية صاحبه في منامه ودعايه له من رايحه الثوم والبصل وهذا

من كمال رافته ورحمته صلى الله عليه وسلم بالمومنين وعزه ما عنتوا عليه وهذا والله اعلم غير كراهه الاسماء القبيحه باحسن منها وعن اسما حسنه الى غيرها خشيه الطيره والتمادي عند تغيرها والخروج من عند المسمى بها او ليعمها تزكيه النفس ونحوها فالاول تغيير اسم الحباب بن المنذر بعبد الرحمن قال الحباب اسم الشيطان وعن ابا مرو الى ابي حلو وعن ابا العاص الى مطيع وعن عاصيه بجميله وعن اسم بني الشيطان الى بني عبد الله وعن اسم اصرم باسم زرعه وعن اسم حزن جد سعيد بن المسيب بسهل فابى وقول في ذلك فلزمه مشتي اسمه من الحزونه له ولذريته قال ابو داود وغير النبي صلى الله عليه وسلم اسم العاص وعزيز وعتله وشيطان والحكم وغراب وحباب وشهاب فسماه هشاما وسمى حربا سلما وسمى المضطجع المنبعث وارضا اسمها عفره سماها خضره وشعب الضلاله سماه شعب الهدى وبنو الزنيه سماهم بني الرشده وسمى بني مغويه بني رشده قال ابو داود وتركت اسانيدها للاختصار قال وقال مسروق لقيت عمر فقال من انت فقلت مسروق بن الاجدع قال عمر سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول الاجدع شيطان واما الثاني ففي صحيح مسلم عن سمره رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا تسمين غلامك يسارا ولا رباحا ولا نجيحا ولا افلح فانك تقول اثم هو فيقول لا وغير اسم بره بنت [illegible] وكره ان يقال خرج من عند بره واما الثالث فلتغييره ابا الحكم بابي شريح وتغييره ايضا بره بزينب وقال لا تزكوا انفسكم وروى مسلم في صحيحه عن محمد بن عمرو بن عطاء ان زينب بنت ابي سلمه سالته ما سميت ابنتك قال سميتها بره فقالت ان رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى عن هذا الاسم وسميت بره فقال النبي صلى الله عليه وسلم لا تزكوا انفسكم الله اعلم باهل البر منكم فقال ما نسميها قال سموها زينب ومن هذا ما في الصحيحين عن ابي هريره رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم ان اخنع اسم عند الله يوم القيامه رجل يسمى ملك الاملاك لا مالك الا الله قال سفين بن عيينه مثل شاهان شاه وذكر ابن وهب ان رسول الله صلى الله عليه وسلم اتي بغلام فقال ما سميتم هذا قالوا السايب فقال لا تسموه السايب ولكن سموه عبد الله قال فغلبوا على اسمه فلم يمت حتى ذهب عقله فان قيل فقد كان لرسول الله صلى الله عليه وسلم غلام اسمه رباح وكان لابي ايوب غلام اسمه افلح ولعبد الله بن عمر غلام اسمه رباح قيل هذا النهي من النبي صلى الله عليه وسلم لم يكن على وجه العزيمه والحتم ولكن كان على جهه الكراهه والدليل على ما روى البخاري في صحيحه عن سعيد بن المسيب عن ابيه عن جده حزن انه اتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال له ما اسمك قال حزن فقال انت سهل قال لا اغير اسما سمانيه ابي فلم يبلغ على النبي صلى الله عليه وسلم ولا اجبره على ذلك

معصية بل نهى عنه ولذلك لما اعتذر اتم الناس فابوا تغيير لم ينكر عليهم وايضا فروى مسلم في
صحيحه من حديث ابي الزبير عن جابر قال اراد النبي صلى الله عليه وسلم ان ينهى ان يسمى بيعلى وبركة وبافلح وبيسار
وبنافع وبنحو ذلك ثم رايته سكت بعد عنها فلم يقل شيئا ثم قبض ولم ينه عن ذلك ثم اراد عمر ان ينهى عن
ذلك ثم تركه ورايت لبعضهم فرقا بين الفال والطيرة كلاما اذكره بلفظه قال اما ما روي ان
النبي صلى الله عليه وسلم كان يتفال ولا يتطير فهما وان كان معناهما واحدا في الاستدلال فيهما افتراق
لان الفال امارة والتطير استدلال والامارة اكثر واشهر واوضح وافصح لان من كان في قلبه وصنع
امرا فسمع قايلا يقول اقبل الخير او امض سالما او ابشر ونحو ذلك فقد اكتفى بما سمع من الاستدلال
والذي يرى طايرا ايمنا او بارحا فليس معه الا الاستدلال على اليمين بالسانح والشوم بالبارح
وهذا العرف يعلمون وقد لا يعلمون وذلك الفال الاعم يعلمون قال اخرون النبي صلى الله
عليه وسلم لم يكن يتطير اي لم يكن يتبع الامور الكاينة من الخير والشر الى الطير كما يفعل الكهنة وقال
اخرون ان النبي صلى الله عليه وسلم كان اذا جلس مع اصحابه فتكلم احدهم بخير او سمع فالا من متكلم حضهم
عليه وعرفهم به ومعلوم انه لا بد لطاير ان يمر سانحا او بارحا او قعيدا او ناطحا فلا يوقفهم عليه
ولا يعرفهم به اذ ذلك من فعل الكهان فكان الحديث المروي عنه صلى الله عليه وسلم انه كان يتفال ولا يتطير
من هذا المعنى وقد اغنى الله رسوله صلى الله عليه وسلم باخباره اياه او بارسال جبريل اليه بما يحدثه
شيئا عن الاستدلال على احداثه بالاشياء التي يتطير فيها غيره تفرقة منه سبحانه بين النبوة وغيرها
فان قيل فهذا الذي نزل بهذين الرجلين وهما الناس وحزن هل كان من اجل اسميهما ام
عن جهة الاثم قيل قد يظن من لا يعلم النظر ان الذي نزل بهما هو من جهة اسميهما ويصحح ذلك
امر الطيرة وتاثيرها ولو كان ذلك كما ظنوه لوجب ان ينزل بجميع من تسمى باسميهما ابد الدهر ولكان
اقتضاء الاسم لذلك كاقتضاء النار للاحراق والماء للتبريد ونحوه ولكن يحمل ذلك والله اعلم
على ان الامرين الجاريين عليهما قد تقدم ما في ام الكتاب كما تقدم لهما ايضا ان يسميا باسميهما الى ان
يختار لهما رسول الله صلى الله عليه وسلم غيرهما فيرغبون عن اختياره ويتخلفون عن استحبابه فيعاقبا بما
قد سبق لهما عقوبة تطابق اسميهما ليكون ذلك زاجرا لمن سواهما وقد يكون خوفه صلى الله عليه وسلم
على اهل الاسماء المكروهة ايضا من مثل هذه الحوادث اذ قد ينزل بالانسان بلاء مشبه بما في
اسمه فيظن هو او من بلغه ان ذلك كان من اجل اسمه فما دعا بشومه فيعصي الله عز وجل وقد
كره قوم من الصحابة والتابعين ان يسموا عبيدهم عبد الله او عبد الرحمن او عبد الملك ونحو ذلك مخافة

ان يعتقهم ذلك قال سعيد بن جبير دخلت على ابن عباس سنة لا اكلمه ولا يعرفني حتى اتاه يوم كذا
من امراء من اهل العراق فدعا غلاما له يجعل يلي عبد الله وعبد الله واشباههم ويدعوهم بانحراف
يا وثاب قال وروى ابو معوية عن الاعمش عن ابرهيم قال كانوا يكرهون ان يسمي الرجل غلامه
عبد الله مخافة ان ذلك يعتقه وروى مغيرة عن ابي معشر عن ابرهيم انه كره ان يسمي مملوكه عبد الله
وعبد الله وعبد الملك وعبد الرحمن واشباهه مخافة العتق قال بعض اهل العلم كراهتهم
لذلك نظير ما كرهه رسول الله صلى الله عليه وسلم من تسمية المماليك برباح ونافع وافلح لان ذلك كان
منه صلى الله عليه وسلم حذرا من ان يقال اههنا نافع فيقال لا او ثم افلح فيقال لا او بركة او يسار
او رباح فيقال لا ومعلوم ان السايل عن انسان اسمه افلح ونافع ورباح هل هو في مكان كذا انما
مسالته تلك عن مسمى شخص من الاشخاص من بني ادم سمي باسم جعل عليه دليلا يعرف به اذا ذكر اذ كانت
الاسماء العواري المفرقة بين الاشخاص المشتبهة انما هي ادلة على المسمين بها لا اسئلة عن شخص
صفته النفع والفلاح والبركة وذلك من كراهته صلى الله عليه وسلم نظير كراهته تسمية تلك المراة
برة وتحويله اسمها جويرية وتحويله اسم ارض كان اسمها عفرة فردها خضرة ونحو ذلك كثير
ومعلوم ان تحويله ما حول من هذه الاسماء عما كان عليه لم يكن لان التسمية بما كان المسمى
منهم مسمى قبل تحويله ذلك كان حراما التسمية ولكن كان ذلك منه على وجه الاستحباب واختيار
الحسن على الذي هو دونه في الحسن اذ كان لا اثم في التسمية بالاسماء الاولى والجميل الحسن منها
مثله من الدلالة على المسمى مع تحيل الحسن بفضل الحسن والجمال زعموا به يلزم صاحبه بشيء
التسمي به فكذلك كراهة من كره تسمية مملوكه عبد الله وعبد الرحمن انما كانت كراهته ذلك حذرا
ان يوجب ذلك له العتق ولا شك ان جميع بني ادم عبيد الله احرارهم وعبيدهم وصفهم بذلك
واصف او لم يصفهم ولكن الذين كرهوا التسمية بذلك صرفوا هذه الاسماء عن رقيقهم لئلا يقع
اللبس في السامع بذلك من اسمايهم فيظن انهم احرار اذ كان استعمال اكثر الناس التسمية بهذه
الاسماء في الاحرار فتجنبوا ذلك الى ما يزيل اللبس عنهم من اسماء المماليك والله اعلم

فصل

واما الامر الذي ذكر مالك عن يحيى بن سعيد ان عمر بن الخطاب قال لرجل ما اسمك فقال جمرة الحديث
الى اخره فالجواب عنه انه ليس بحمد الله فيه شي من الطيرة وحاشا امير المومنين رضي الله عنه من ذلك
وكيف يتطير رضي الله عنه وهو يعلم ان الطيرة شرك من الجبت وهو القايل في حديث اللقحة
ما تقدم ولكن وجه ذلك والله اعلم ان هذا القول كان منه مبالغة في الانكار عليه

لاجتماع اسماء البار والجربوع اسمه واسم ابيه وجده وقبيلته وداره ومسكنه توافق قوله اذهب
فقد احترق منزلك قدراً لعل قوله كان السبب فيه وكثيراً ما يجري مثل هذا لمن هو دون عمر بكثير فكيف
بالمحدث الملهم الذي قال للشيء اني لاظنه كذا الا كان كما قال وكان يقول الشيء ويشير به فينزل القرآن
بموافقته فاذا نزل الامر الديني بموافقة قوله فلذلك وقوع الامر الكوني القدري موافقاً لقوله
وفي الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها عن النبي صلى الله عليه وسلم انه كان يقول قد كان في الامم قبلكم محدثون
فان يكن في امتي احد منهم فعمر بن الخطاب رضي الله عنه قال ابن وهب تفسير محدثون ملهمون وفي صحيح
البخاري عن ابي هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لقد كان فيمن كان قبلكم من بني اسرائيل
رجال يكلمون من غير ان يكونوا انبياء فان يكن في امتي احد فعمر وفي الصحيحين عن عمر رضي الله عنه
قال وافقت ربي في ثلاث في مقام ابرهيم وفي الحجاب وفي اسارى بدر وفي صحيح البخاري
عن انس رضي الله عنه قال قال عمر رضي الله عنه وافقت الله في ثلاث او وافقني ربي في ثلاث قلت يا رسول الله لو
اتخذت مقام ابرهيم مصلى وقلت يا رسول الله يدخل عليك البر والفاجر فلو امرت امهات المؤمنين بالحجاب
فانزل الله آية الحجاب وبلغني معاتبة النبي صلى الله عليه وسلم بعض نسائه فدخلت عليهن فقلت ان انتهيتن
او ليبدلن الله رسوله خيراً منكن حتى اتيت احدى نسائه فقالت يا عمر اما في رسول الله صلى الله عليه وسلم ما يعظ
نساءه حتى تعظهن انت فانزل الله عز وجل عسى ربه ان طلقكن ان يبدله ازواجاً خيراً منكن الآية وفي
الصحيحين انه صلى الله عليه وسلم لما قام ليصلي على عبد الله بن ابي بن سلول رأس المنافقين قام عمر فاخذ بثوبه
فقال يا رسول الله اتصلي عليه وقد نهاك الله ان تصلي عليه فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم انما خيرني
الله فقال استغفر لهم او لا تستغفر لهم ان تستغفر لهم سبعين مرة وسازيد على السبعين فصلى عليه
رسول الله صلى الله عليه وسلم فانزل الله عز وجل ولا تصل على احد منهم مات ابداً ولا تقم على قبره فترك
الصلاة عليهم فاذا كانت هذه موافقة عمر لربه في شرعه ودينه ينطق بالشيء فيكون هو المأمور المشروع فلذلك
لا يبعد موافقته له تعالى في قضائه وقدره ينطق بالشيء فيكون هو المقضي المقدور وبهذا الوقت والطيرة
لون وكذلك جرى له نظير هذه القصة مع رجل آخر سأله عن اسمه فقال ظالم فقال ابن من قال
ابن سراق قال تظلم انت ويسرق ابوك وذكر المدائني عن صخر وهو ابو المهلب انه اتاه
سلعة ساجين من رجل من بني سعد فاراد ان يشهد عليه فقال ما اسمك قال ظالم قال ابن من قال ابن
سراق قال لا والله لا يكون لي عليك شاهداً ابداً **فصل** واما محبة النبي صلى الله عليه وسلم التيمن
في تنعله وترجله وطهوره وشأنه كله فليس هذا من باب الفال ولا التطير بالشمال في شيء ولكن تفضيل اليمين

على الشمال وكان يحبه صلى الله عليه وسلم ان يباشر الافعال التي من قبيل الكرامة باليمين كالاكل
والشرب والاخذ والعطاء وضدها بالشمال كالاستنجاء وامساك الذكر وازالة النجاسة
فان كان الفعل مشتركاً بين العضوين في افعال التكريم وما دونه كالوضوء ودخول المسجد وباليسار
في ضد ذلك كدخول الخلاء والخروج من المسجد ونحوه والله تعالى فضل بعض مخلوقاته على بعض وفضل بعض
جوارح الانسان واعضائه على بعض ففضل العين على الكعب والوجه على الرجل وكذلك
فضل اليد اليمنى على اليسار وخلق خلقه صنفين سعداء وجعلهم اصحاب اليمين واشقياء وجعلهم
اصحاب الشمال وقال النبي صلى الله عليه وسلم المقسطون عند الله على منابر من نور عن يمين الرحمن
وكلتا يديه يمين الذين يعدلون في حكمهم واهليهم وما ولوا وفي الصحيح عنه صلى الله عليه وسلم
انه لما اسري به راى آدم صلى الله عليه وسلم في السماء الدنيا واذا عن يمينه اسودة وعن يساره اسودة
فاذا نظر قبل يمينه ضحك واذا نظر قبل شماله بكى فقال ما هذا يا جبريل قال هذا آدم وهذه
الاسودة التي عن يساره نسم بنيه فاهل اليمين اهل السعادة من ذريته واهل اليسار اهل الشقاوة
وفي المسند عن عائشة رضي الله عنها قالت كانت يد رسول الله صلى الله عليه وسلم اليمنى لطهوره
وطعامه وكانت يده اليسرى لخلائه وما كان من اذى وفي المسند ايضاً وسنن ابي داود
عن حفصة بنت عمر زوجه كان يجعل يمينه لطعامه وشرابه ويجعل شماله لما سوى ذلك وقالت
احمد كانت يمينه لطعامه وطهوره وصلاته وشأنه وكانت شماله لما سوى ذلك

مطلب عظيم في تحقيق قوله عليه السلام الشوم في ثلث الحديث

فصل واما قوله صلى الله عليه وسلم الشوم في ثلاث الحديث فهو حديث صحيح من رواية ابن عمر وسهل بن
سعد ومعوية بن حكيم وقد روي ان ام سلمة كانت تزيد السيف يعني في حديث الزهري
عن حمزة وسالم عن ابيهما في الشوم وقد اختلف الناس في هذا الحديث وكانت ام المؤمنين
رضي الله عنها تنكر ان يكون من كلام النبي صلى الله عليه وسلم وتقول انما حكاه رسول الله صلى الله عليه وسلم
عن اهل الجاهلية واقوالهم فذكر ابو عمر بن عبد البر من حديث هشام بن عمار ثنا الوليد بن
مسلم عن سعيد عن قتادة عن ابي حسان ان رجلين دخلا على عائشة وقالا ان ابا هريرة يحدث
ان النبي صلى الله عليه وسلم قال انما الطيرة في المرأة والدار والدابة فطارت شقة منها في السماء وشقة
في الارض ثم قالت كذب والذي انزل الفرقان على ابي القسم من حدث عنه بهذا ولكن رسول الله
صلى الله عليه وسلم كان يقول كان اهل الجاهلية يقولون ان الطيرة في المرأة والدار والدابة ثم قرأت
عائشة رضي الله عنها ما اصاب من مصيبة في الارض ولا في انفسكم الا في كتاب من قبل ان نبرأها ان ذلك

على الله شيئًا قال ابو عمرو وكانت عايشة تنفي الطير ولا تعتقد شيئًا منها حتى قالت لنسوة كن
يكرهن البناء بأزواجهن في شوال ما تزوجني رسول الله صلى الله عليه وسلم الا في شوال وما دخل بي الا في
شوال فمن كان احظى مني عنده وكانت تستحب ان يدخل على ازواجهن في شوال قال ابو عمرو قولها
في ابي هريرة رضي الله عنه كذب فان العرب تقول كذبت بمعنى غلطت فيما قدرت واوهمت فيما قلت ولم تظن
حقا ونحو هذا وذلك معروف من كلامهم موجود في اشعارهم كثيرا قال ابو طالب

كذبتم وبيت الله نترك مكة ونظعن الا امركم في بلابل
كذبتم وبيت الله نبزى محمدا ولما نطاعن دونه ونناضل
ونسلمه حتى نصرع حوله ونذهل عن ابنائنا والحلائل

وقال شاعر من همدان

كذبتم وبيت الله لا تأخذونها مراغمة ما دام للسيف قائم

وقال زفر بن الحرث العبسي

افي الحق اما بحدل وابن بحدل فيحيى واما ابن الزبير فيقتل
كذبتم وبيت الله لا تقتلونه ولما يكن امر اغر محجل

قال الا ترى ان هذا ليس من باب الكذب الذي هو ضد الصدق وانما هو من باب الغلط وظن ما ليس
بصحيح وذلك ان قريشا زعموا انهم يخرجون بني هاشم من مكة ان لم يتركوا جوار محمد صلى الله عليه وسلم فقال
لهم ابو طالب كذبتم اي غلطتم فيما قلتم وظننتم وكذلك معنى قول الهمداني والعبسي وهذا مشهور من
كلام العرب قلت ومن هذا قول سعيد بن جبير كذب جابر بن زيد يعني في قوله الطلاق بيد
السيد اي اخطأ ومن هذا قول عبادة بن الصامت كذب ابو محمد لما قال الوتر واجب اي اخطأ وفي
قول النبي صلى الله عليه وسلم قال كذب ابو السنابل لما افتى بان الحامل المتوفى عنها زوجها لا تتزوج حتى
يتم لها اربعة اشهر وعشر ولو وضعت وهذا كثير والمقصود ان عايشة رضي الله عنها ردت هذا
الحديث وانكرته وخطأت قائله ولكن قول عايشة هذا مرجوح ولها رضي الله عنها اجتهاد في بعض
الاحاديث الصحيحة خالفها فيه غيرها من الصحابة وهي رضي الله عنها لما ظنت ان هذا الحديث يقتضي
اثبات الطيرة التي هي من الشرك لم يسعها غير تكذيبه ورده ولكن الذين رووه ممن لا يمكن رد روايتهم
ولم ينفرد بهذا ابو هريرة وحده ولو انفرد به فهو حافظ الامة على الاطلاق وكل ما رواه عن
النبي صلى الله عليه وسلم فهو صحيح بل قد رواه عن النبي صلى الله عليه وسلم عبد الله بن عمر بن الخطاب وسهل بن

سعد الساعدي وجابر بن عبد الله الانصاري واحاديثهم في الصحيح فالواجب بيان معنى الحديث
ومباينته للطيرة الشركية فنقول وبالله التوفيق هذا الحديث قد روي على وجهين احدهما
بالجزم والثاني بالشرط فاما الاول فرواه مالك عن ابن شهاب عن سالم وحمزة ابني عبد الله بن عمر
عن ابيهما رضي الله عنهم ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال الشؤم في الدار والمراة والفرس
متفق عليه وفي لفظ في الصحيحين عنه لا عدوى ولا صفر ولا طيرة وانما الشؤم في ثلاثة
المراة والفرس والدار واما الثاني ففي الصحيحين ايضا عن سهل بن سعد قال قال رسول الله
صلى الله عليه وسلم ان كان ففي المراة والفرس والمسكن يعني الشؤم وقال البخاري ان كان في شيء
وفي صحيح مسلم عن جابر مرفوعا ان كان في شيء ففي الربع والخادم والفرس وفي الصحيحين
عن ابن عمر مرفوعا ان يكن الشؤم حقا ففي الفرس والمسكن والمراة وروى زهير بن معوية
عن عتبة بن حميد قال حدثني عبيد الله بن ابي بكر انه سمع انسا يقول قال قال رسول الله
صلى الله عليه وسلم لا طيرة والطيرة على من تطير وان تكن في شيء ففي المراة والدار والفرس ذكره ابو عمر
وقالت طايفة اخرى لم يجزم النبي صلى الله عليه وسلم بالشؤم في هذه الثلاثة بل علقه على الشرط
فقال صلى الله عليه وسلم ان يكن الشؤم في شيء ولا يلزم من صدق الشرطية صدق كل واحد من مفرديها
فقد يصدق التلازم بين المستحيلين قالوا ولعل الوهم وقع من ذلك وهو ان الراوي غلط وقال
الشؤم في ثلاثة وانما الحديث ان كان الشؤم في شيء ففي ثلاثة قالوا وقد اختلف على ابن عمر والروايتان
صحيحتان عنه قالوا وبهذا يزول الاشكال ويتبين وجه الصواب وقالت طايفة اخرى
اضاف رسول الله صلى الله عليه وسلم الشؤم الى هذه الثلاثة مجازا واتساعا اي قد يحصل مقارنا لها
وعندها لا انها هي في انفسها مما يوجب الشؤم قالوا وقد يكون الدار قد قضى الله عز وجل عليها ان
يميت فيها خلقا من عباده كما يقدر ذلك في البلد الذي ينزل الطاعون به وفي المكان الذي يكثر
الوباء به فيضاف ذلك الى المكان مجازا والله خلقه عنده وقدره فيه كما يخلق الموت عند قتل القاتل
والسبع والذي عند اكل الاكل وشرب الشارب فالدار التي يهلك بها اكثر ساكنيها توصف بالشؤم
لان الله عز وجل قد خصها بكثرة من قبض فيها ممن كتب الله عليه الموت في تلك الدار فحبب اليه سكناها
وحركه اليها حتى يقبض روحه في المكان الذي كتبه له كما ساق الرجل من بلد الى بلد للاثر والبقعة
التي قضى ان يكون مدفنه بها قالوا وكذلك ما يوصف من طول الاعمار بعض اهل البلاد ليس ذلك
من اجل صحة هواه ولا طيب تربه ولا طبع يزداد به الاجل وينقص لفواته ولكن الله سبحانه قد خلق

ذلك المكان وقضى أن يسكنه أطول خلقه أعمارا فيسوقهم إليه ويجمعهم فيه ويحببه إليهم قالوا
وإذا كان هذا على ما وصفنا في الدور والبقاع جاز مثله في النساء والخيل فيكون المرأة قد قدر
الله عليها أن تتزوج عددا من الرجال ويموتون معها فلا بد من إنفاذ قضائه وقدره حتى إن الرجل
ليقدم عليها من بعد علمه بكثرة من مات عنها لوجه من الطمع يقوده إليها حتى تتم قضاؤه وقدره فيوصف
المرأة بالشؤم لذلك وكذلك الفرس وإن لم يكن لشيء من ذلك فعل ولا تأثير قال ابن القيم رحمه الله
سئل مالك عن الشؤم في الفرس والدار فقال إن ذلك كذب فيما نرى كم من دار قد سكنها ناس
فهلكوا ثم سكنها آخرون فهلكوا فهذا تفسيره فيما نرى والله أعلم وقالت طائفة أخرى لعله ملكوا
شؤم الدار مجاورة جار السوء وشؤم الفرس أن لا يغزى عليها في سبيل الله وشؤم المرأة
أن لا تلد وتكون سيئة الخلق وقالت طائفة أخرى منهم الخطابي هذا مستثنى من الطيرة
أي الطيرة منهي عنها إلا أن يكون له دار يكره سكناها أو امرأة يكره صحبتها أو فرس أو خادم فليفارق
الجميع بالبيع والطلاق ونحوه ولا يقيم على الكراهة والتأذي به فإنه شؤم وقد سلك هذا
المسلك أبو محمد بن قتيبة في كتاب مشكل الحديث له لما ذكر أن بعض الملاحدة اعترض بحديث هذه
الثلاثة وقالت طائفة أخرى الشؤم بهذه الثلاثة إنما يلحق من تشاءم بها وتطير بها فيكون
شؤمها عليه ومن توكل على الله ولم يتشاءم ولم يتطير لم يكن مشؤومة عليه قالوا ويدل عليه حديث أنس
الطيرة على من تطير وقد يجعل الله سبحانه تطير العبد وتشاؤمه سببا لحلول المكروه به كما يجعل
الثقة به والتوكل عليه وإفراده بالخوف والرجاء من أعظم الأسباب التي يدفع بها الشر المتطير منه
وسر هذا أن الطيرة إنما تتضمن الشرك بالله والخوف من غيره وعدم التوكل عليه والثقة به كان
صاحبها غرضا لسهام الشر والبلاء فيتسرع نفوذها فيه لأنه لم يتدرع من التوحيد والتوكل بجنة
واقية وكل من خاف شيئا غير الله سلط عليه كما أن من أحب مع الله غيره عذب به ومن رجا مع
الله غيره خذل من جهته وهذه أمور تجربتها تكفي عن أدلتها والنفس لا بد أن تتطير ولكن المؤمن القوي
الإيمان يدفع موجب تطيره بالتوكل على الله فإن من توكل عليه وحده كفاه من غيره قال تعالى
فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى
ربهم يتوكلون إنما سلطانه على الذين يتولونه والذين هم به مشركون ولهذا قال ابن مسعود
رضي الله عنه وما منا إلا يعني من تقارب التطير ولكن الله يذهبه بالتوكل ومن هذا قول
زبان بن سيار: أطار الطير إذ سرنا زياد ليخبرنا وما فيها خبير

أفام كان

أفام كان لقمن بن عاد أشار له بحكمته مشير
تعلم أنه لا طير إلا على متطير وهو الثبور
بلى شيء يوافق بعض شيء أحايينا وباطله كثير

قالوا فالشؤم الذي في الدار والمرأة والفرس قد يكون مخصوصا بمن تشاءم بها وتطير وأما من توكل
على الله وخافه وحده ولم يتطير ولم يتشاءم فإن الفرس والمرأة والدار لا يكون شؤما في حقه
وقالت طائفة أخرى معنى الحديث إخباره صلى الله عليه وسلم عن الأسباب المثيرة للطيرة الكامنة
في الغرائز يعني أن المثير للطيرة في غرائز الناس هي هذه الثلاثة فأخبرنا بهذا لنأخذ الحذر منها فقال
الشؤم في الدار والمرأة والفرس أي إن الحوادث التي تكثر مع هذه الثلاثة أشياء والمصائب التي تتوالى
عندها تدعو الناس إلى التشاؤم بها فقال الشؤم فيها أي إن الله قد يقدره فيها على قوم دون قوم
فخاطبهم صلى الله عليه وسلم بذلك لما استقر عندهم منه صلى الله عليه وسلم من إبطال الطيرة وإنكار العدوى
ولذلك لم يستفهموه في ذلك عن معنى ما أراده صلى الله عليه وسلم كما تقدم لهم في قوله لا يورد الممرض على المصح
فقالوا عنده وما ذاك يا رسول الله فأخبرهم أنه خاف في ذلك الأذى الذي يدخله الممرض على المصح لا
العدوى لأنه صلى الله عليه وسلم أمر بالتوادد وإدخال السرور بين المؤمنين وحسن التجاور ونهى عن
التقاطع والتباغض والأذى فمن اعتقد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نسب الطيرة والشؤم إلى شيء
من الأشياء على سبيل أنه مؤثر بذلك دون الله فقد أعظم الفرية على الله وعلى رسوله وضل ضلالا
بعيدا والنبي صلى الله عليه وسلم ابتدأهم بنفي الطيرة والعدوى ثم قال والشؤم في ثلاث قطعا لتوهم الطيرة
المنفية في الثلاثة التي أخبر أن الشؤم يكون فيها فقال لا عدوى ولا طيرة والشؤم في ثلاثة فابتدأهم
بالمؤخر من الخبر تعجيلا لهم بالإخبار بفساد العدوى والطيرة المتوهمة من قوله الشؤم في ثلاثة وبالجملة
فإخباره صلى الله عليه وسلم بالشؤم أنه يكون في هذه الثلاثة ليس فيه إثبات الطيرة التي نفاها وإنما غايته
أن الله سبحانه قد يخلق منها أعيانا مشؤومة على من قاربها وسكنها وأعيانا مباركة لا يلحق من قاربها
منها شؤم ولا شر وهذا كما يعطي سبحانه الوالدين ولدا مباركا يريان الخير على وجهه ويعطي غيرهما
ولدا مشؤوما نذلا يريان الشر على وجهه وكذلك ما يعطاه العبد من ولاية أو غيرها فكذلك الدار والمرأة
والفرس والله سبحانه خالق الخير والشر والسعود والنحوس فيخلق بعض هذه الأعيان سعودا مباركة
ويقضي بسعادة من قاربها وحصول اليمن له والبركة ويخلق بعض ذلك نحوسا يتنحس بها من قاربها وكل
ذلك بقضائه وقدره كما خلق سائر الأسباب وربطها بمسبباتها المتضادة والمختلفة فكما خلق المسك

وغيره من حامل الارواح الطيبه ولذبها من قاربها من الناس وخلو صدره وجعلها شيئا لا الم فاربها من الناس والعرق من هذين النوعين يدرك بالحس فلذلك في الدبار والبنا والجبل هذا الوث والطيره الشديده لون

وصل واما الاثر الذي ذكره مالك عن يحيى بن سعيد جات امراه الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت يا رسول الله دار سكناها والعدد كثير والمال وافر فقل العدد وذهب المال فقال النبي صلى الله عليه وسلم دعوها ذميمة وقد ذكر هذا الحديث عن مالك من رواية انس ان رجلا جاء الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يا رسول الله انا نزلنا دارا فكثر فيها عددنا وكثرت فيها اموالنا ثم تحولنا عنها الى اخرى فقلت فيها اموالنا وقل عددنا فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم فليس هذا من الطيره المنهي عنها وانما امرهم صلى الله عليه وسلم بالتحول عنها عندما وقع في قلوبهم منها لمصلحتين ومنفعتين احديهما مفارقتهم لمكان هم له مستثقلون ومنه مستوحشون لما لحقهم فيه ونالهم عنده ليتعجلوا الراحه مما داخلهم من الجزع في ذلك المكان والحزن والهلع لان الله عز وجل قد جعل في غرائز الناس وتركيبهم استثقال ما نالهم الشر فيه وان كان لا سبب له في ذلك وحب من جرى لهم على يديه الخير وان لم يردهم به فامرهم بالتحول مما كرهوا لان الله عز وجل بعثه رحمة ولم يبعثه عذابا وارسله ميسرا ولم يرسله معسرا فكيف يامرهم بالمقام في مكان قد احضر بهم المقام به واستوحشوا عنده لكثرة ما فقدوا فيه لغير منفعه ولا طاعه ولا مزيد تقوى وهدى لا سيما وطول مقامهم فيها بعد ما وصل الى قلوبهم منها ما وصل قد يبعثهم ويقودهم الى التشاؤم والتطير فيوقعهم ذلك في امرين عظيمين احدهما مقاربة الشرك والثاني حلول مكروه احرتهم بسبب الطيره التي انما يلحق المتطير فحماهم صلى الله عليه وسلم بكمال رافته ورحمته من هذين المكروهين بمفارقه تلك الدار والاستبدال بها من غير ضرر يلحقهم بذلك في دنيا ولا نقص في دين وهو صلى الله عليه وسلم حين فهم عنهم في سؤالهم ما ارادوه من التعرف عن حال رحلتهم عنها هل ذلك لهم ضار مؤد الى الطيره قال دعوها ذميمة وهذا بمنزلة الخارج من ارض بها الطاعون غير فار منه ولو منع الناس الرحلة من الدار التي تتوالى عليهم فيها المصائب والمحن وتعذر الارزاق مع سلامة التوحيد في الرحلة للزم ذلك كل من ضاقت عليه رزق في بلد ان لا ينتقل منه الى بلد اخر ومن قلت فائدة صناعته ان لا ينتقل عنها الى غيرها

وصل واما قول النبي صلى الله عليه وسلم للذي سل سيفه يوم احد شم سيفك فاني ارى السيوف ستسل اليوم هذه القصة لم يكن الرجل قد سل فيها السيف ولكن الفرس لوح بذنبه فسل السيف ولم يرد صاحبه سله هكذا في القصه ولا ريب ان الحرب يقوم اهلها بالسيوف

والوح

ولما لوح الفرس بذنبه فاستل السيف قال النبي صلى الله عليه وسلم اني ارى السيوف ستسل اليوم فهذا له محمل من الفال يحتمل احد امرين احدهما ان النبي صلى الله عليه وسلم اخبر عن ظنه في ذلك ولم يجعل هذا دليلا عاما في كل واقعة تشبه هذه واذا كان عمر بن الخطاب وهو احد اتباع رسول الله صلى الله عليه وسلم ورجل من امته كان اذا قال اظن كذا اوارى كذا خرج الامر كما ظنه وحسبه فكيف يظن برسول الله صلى الله عليه وسلم الثاني ان النبي صلى الله عليه وسلم كان قد علم قبل خروجه ان السيوف ستسل ويقع القتال وهذا اخبرهم انه رأى في منامه بقرا تنحر وعلم ان ذلك شهادة من قبل اصحابه انا لنجا الذي كان يعرف به رسول الله صلى الله عليه وسلم الحوادث والنوازل كان معينا له عن الاشارات والعلامات والامارات وما في معناها مما يحتاج اليه غيره وامن بانه خبر السماء صباحا ومساء فاجابه بقوله اني ارى السيوف ستسل اليوم عن تلك الامارة وانما وقع الاخبار عقيبها والتي بها النبي يذكر

وصل واما ما احتج به ويشبه الى قوله صلى الله عليه وسلم وقد نشبت الحرب لعامر بن الحضرمي وواقد بن عبد الله الحضرمي حضرت الحرب فكذب عليه صلى الله عليه وسلم وانما قال ذلك اعداؤه من اليهود فتطيروا بذلك وتفالوا به فكانت الطيرة عليهم ووقدت الحرب عليهم

وصل واما استعفاؤه صلى الله عليه وسلم الجبلين في طريقه وهما مُخزٍ وفاضح فترك المرور بينهما وعدل ذات اليمين فليس هذا من الطيره وانما هو من العدول عما يؤدي النفوس ويشوش القلوب الى ما هو بخلافه كالعدول عن الاسم القبيح وتغييره باحسن منه وقد تقدم تقرير ذلك بما فيه كفايه وايضا فان الاماكن فيها الميمون المبارك والمشؤوم المذموم فاطلع رسول الله صلى الله عليه وسلم على شؤم ذلك المكان وانه مكان سوء فجاوزه الى غيره كما جاوز الوادي الذي ناموا فيه عن الصبح الى غيره وقال هذا مكان حضرنا فيه الشيطان والشيطان يحب الامكنه المذمومه ويتناسبها وايضا فلما كان المرور بين ذينك الجبلين قد تشوش القلب على ما تقوله في ذلك قولا كليا شافيا في شرح هذا الباب بحول الله وعونه فيقلب وتوفيقه اعلم ان بين الاسماء ومسمياتها ارتباطا قدره العزيز العليم والهمه نفوس العباد وجعله في قلوبهم لا ينصرف عنه وهذا الارتباط هو ارتباط العله بمعلولها ولا ارتباط المقتضي الموجب لمقتضاه وموجبه بل ارتباط تناسب وتشاكل اقتضته حكمة الحكيم فقل ان ترى اسما قبيحا الا وبين مسماه وبينه رابطة من القبح وكذلك اذا تاملت الاسم الثقيل الذي تنفر عنه الاسماع وتنبو عنه الطباع فانك تجد مسماه يقارب او يعلم ان يطابق ولهذا ان المشهور على السنة الناس ان

لبرم

للالقاب تدل على مسمياتها ولا تكاد تجد الاسم الشنيع القبيح الا على مسمى يناسبه وفي ذلك قول القائل

وقلّ ان ابصرت عيناك ذا لقب الا ومعناه ان فكرت في لقبه

وهذا اكثر ما يوجد ايضا في اسماء الاجناس والواضع له عناية بمطابقة الالفاظ للمعاني ومناسبتها لها فجعل الحروف الهوائية الخفيفة للمسمى المشاكل لها كالهواء والحروف الشديدة للمسمى المناسب لها كالصخر والحجر واذا شاء نعت حركة المسمى بتوالي حركة اللفظ كالدوران والغليان والنزوان واذا تكررت الحركة كرروا اللفظ كقلقل وزلزل ودكدك وصرصر واذا اكثروا جمعت اجزاؤه جعلوا في اسمه من الضم الدال على الجمع والاشارة ما يناسب المسمى كالبحتر للقصير المجتمع الخلق واذا طال جعلوا في المسمى من الفتح الدال على الامتداد ونظيره في المعنى العشنق للطويل ونظائر ذلك اكثر من ان تستوعب وانما اشرنا اليها ادنى اشارة هذا هو الذي اراده من قال بين الاسم والمسمى مناسبة فلم يفهم عنه بعض المتاخرين مراده فاخذ يشنع عليه بانه لا يناسب طبيعيا بينهما واستدل على انكار ذلك بما لا طائل تحته فان عاقلا لم يقول ان التناسب الذي بين الاسم والمسمى كالتناسب الذي بين العلة والمعلول وانما هو ترجيح واولوية تقتضي اختصاص الاسم بمسماه وقد يتخلف عن اقتضائها كثيرا والمقصود ان هذه المناسبة تضم الحكم جعل الله في طباع الناس وغرائزهم من النفور من الاسم القبيح المكروه وكراهته وتطير اكثرهم به وذلك يوجب عدم ملابسته ومجاورته الى غيره فهذا اصل الباب

فصل واما كراهية السلف ان يتبع الميت بشيء من النار وان يدخل القبر شيء مسته النار وقول عائشة رضي الله عنها لا يكون اخر زاده ان يتبعوه بالنار فيجوز ان يكون كراهيتهم لذلك مخافة الاحداث لما لم يكن في عصر رسول الله صلى الله عليه وسلم وليف وذلك بما يهيج الطير به والظنون الردية بالميت وقد قال غير واحد من السلف منهم عبد الملك بن حبيب وغيره انما هو لذلك تفاولا بالنار في هذا المقام ان يتبعه وذكر ابن حبيب وغيره ان النبي صلى الله عليه وسلم اراد ان يصلي على جنازة فجاءت امراة ومعها مجمر فما زال يصيح بها حتى تواريت باجام المدينة قال بعض اهل العلم واشد خوفهم من ذلك على الميت لكن على الاحياء المجبولين على التطير لئلا يحدثهم انفسهم بالميت انه من اهل النار لما راوا من النار التي تتبعه في اول اثاره من الاخرة ولا سيما في مكان يراد منهم فيه كثرة الاجتهاد للميت بالدعاء اذ لم يبق له زاد غيره فيظنون ان تلك النار من تقاد به زاده الى الاخرة فيسيء ظنونهم به وتنفر عن رحمته قلوبهم في مكان هم فيه شهداء الله كما جاء في الحديث الصحيح لما مر على النبي صلى الله عليه وسلم بجنازة فاثنوا عليها خيرا فقال وجبت فقالوا وما وجبت

قال وجبت لها الجنة انتم شهداء الله في الارض من اثنيتم عليه خيرا وجبت له الجنة ومن اثنيتم عليه شرا وجبت له النار وفي اثر اخر اذا اردتم ان تعلموا ما للميت عند الله فانظروا ما يتبعه من حسن الثناء وقالت عائشة رضي الله عنها لا يكون اخر زاده من الثناء والدعاء ان يتبعوه بالنار فتهيج بها الخواطر الناس ويتبعوا ظنونهم بالنار والعذاب والله اعلم

فصل واما تلك الوقائع التي ذكروها مما يدل على وقوع ما تطير به من تطير فنعم وههنا اضعافها واضعاف اضعافها ولسنا ننكر موافقة القضاء والقدر لهذه الاسباب وغيرها كثيرا وموافقة حزر الحازرين وظنون الكاذبين وزجر الزاجرين للقدر احيانا مما لا ينكر احد وقوع الاسباب التي توجب وقوع المكروه المطير كما تقدم وان الطيرة على من تطير ولكن الله سبحانه لها اسبابا تدفع بها موجبها وضررها من التوكل عليه وحسن الظن به واعراض القلب عن الطيرة وعدم التفاته اليها وخوفه منها وثقته بالله عز وجل ولسنا ننكر ان هذه الامور ظنون وتخمين وحدس وحزر وما كان هذا سبيله فتصيب تارة وتخطي تارات وليس كل ما يظنونه المتطيرون ويتشاءمون به وقع جميعه وصدق بل اكثره كاذب وصادقه نادر والناس في هذا المقام انما يقولون ويتقلون ما ج منه ووقع ويعتنون به فالاكثر والكاذب منه اكثر من ان ينقل في [illegible] ويشار فحفظ الصواب للتعجب والتشوف والاستغراب وتناسي الخطا قال ومن ذا الذي يحدث انه سال منجما فاخطا وانما الذي يحدث به ويتناقل انه سال فاصاب قال والصواب في المسلة اذا كان من امرين قد يقع للمعتوه والطفل فضلا عن اولي العقل وقد تقدم من بطلان الطيرة وادلتها ما فيه كفاية وقد كانت عائشة ام المومنين رضي الله عنها تستحب ان تتزوج المراة ويبنى بها في شوال وتقول تزوجني رسول الله صلى الله عليه وسلم في شوال فاي نسائه كان احظى عنده مني مع تطير الناس بالنكاح في شوال وهذا فعل اولي العزم والقوة من المومنين الذين صح توكلهم على الله عز وجل واطمانت قلوبهم الى ربهم ووثقوا به وعلموا ان ما شاء الله كان وما لم يشا لم يكن وانهم لا يصيبهم الا ما كتب الله لهم وان ما اصابهم من مصيبة الا وهي في كتاب من قبل ان يخلقهم ويوجدهم وعلموا ان لا بد ان يصيروا الى ما كتبه الله وقدره ولا بد ان يجري عليهم وان تطيرهم لا يرد قضاه ويرد عنهم بل قد يكون تطيرهم من اعظم الاسباب التي يجري عليهم بها القضاء والقدر فيعينون على انفسهم وقد جرى لهم القضاء والقدر بان نفوسهم هي سبب اصابة المكروه لهم فطائرهم معهم واما المتوكلون على الله المفوضون اليه العالمون به وبامره فنفوسهم اشرف من ذلك

وهمهم أعلى وثقتهم بالله وحسن ظنهم به عدة لهم وقوة وجنة مما يتطير به المتطيرون ويتشاءم المتشائمون عالمون أنه لا طير إلا طيره ولا خير إلا خيره ولا إله غيره له الملك والخلق وله الأمر تبارك الله رب العالمين

فصل ومما كان الجاهلية يتطيرون به ويتشاءمون العطاس كما يتشاءمون بالبوارح والسوانح قال رؤبة بن العجاج يصف فلاة قطعها: ولا أهاب العطاسا وقال امرؤ القيس:

وقد اغتدي قبل العطاس بهيكل شديد مشك الجنب فعم المنطق

أراد أنه كان ينتبه للصيد قبل أن ينتبه الناس من نومهم لئلا يسمع عطاسا فيتشاءم بعطاسه وكانوا إذا عطس من يحبونه قالوا له عمرا وشبابا وإذا عطس من يبغضونه قالوا وريا وقحابا والوري كالرمي داء يصيب الكبد فيفسدها والقحاب كالسعال وزنا ومعنى فكان الرجل إذا سمع عطاسا فتشاءم به يقول بك لا بي أي أسأل الله أن يجعل شؤم عطاسك بك لا بي وكان تشاؤمهم بالعطسة الشديدة كما يحكى عن بعض الملوك أن مسامرا له عطس عطسة شديدة راعته فغضب الملك فقال سميره والله ما تعمدت ذلك ولكن هذا عطاسي فقال والله لئن لم تأتني بمن يشهد لك بذلك لأقتلنك فقال أخرجني إلى الناس لعلي أجد من يشهد لي فأخرجه وقد وكل به الأعوان فوجد رجلا فقال يا سيدي نشدتك بالله إن سمعت عطاسي يوما فلعلك تشهد لي به عند الملك فقال نعم أنا أشهد لك فنهض معه وقال أيها الملك أنا أشهد لهذا الرجل يوما عطس فطار ضرس من أضراسه فقال له الملك عد إلى حديثك ومجلسك فلما جاء الله بالإسلام وأبطل برسول الله صلى الله عليه وسلم ما كان عليه أهل الجاهلية من الضلال نهى أمته عن التشاؤم والتطير وشرع لهم أن يجعلوا مكان الدعاء على العاطس بالمكروه دعاء له بالرحمة كما أمر العائن أن يدعو بالتبريك للمعين ولما كان الدعاء على العاطس نوعا من الظلم والبغي جعل الدعاء له بلفظ الرحمة المنافي للظلم وأمر العاطس أن يدعو للسامع ومشمته بالمغفرة والهداية وإصلاح البال فيقول يغفر الله لنا ولكم أو يهديكم الله ويصلح بالكم فأما الدعاء بالهداية فلما أنه اهتدى إلى طاعة الرسول ورغب عما كان عليه أهل الجاهلية فدعا له أن يثبته الله ويهديه إليها وكذلك الدعاء بإصلاح البال وهي كلمة جامعة لصلاح شأنه كله وهي من باب الجزاء على دعائه لأخيه بالرحمة فناسب أن يجازيه بالدعاء له بإصلاح البال وأما الدعاء بالمغفرة فجاء بلفظ يشمل العاطس والمشمت كقوله يغفر الله لنا ولكم ليتحصل من مجموع دعوى العاطس والمشمت لهما المغفرة والرحمة معا فصلوات الله وسلامه على المبعوث بصلاح الدنيا والآخرة ولأجل هذا والله أعلم لم يؤمر بتشميت من لم يحمد الله فإن الدعاء له بالرحمة نعمة فلا يستحقها من لم يحمد الله ويشكره على هذه النعمة ويتأسى بأبيه آدم فإنه لما نفخ فيه

الروح

الروح وبلغت إلى خياشيمه عطس فألهمه ربه تبارك وتعالى أن نطق بحمده فقال الحمد لله فقال الله سبحانه يرحمك الله يا آدم فصارت تلك سنة العاطس فمن لم يحمد الله لم يستحق هذه الدعوة ولما سبقت هذه الكلمة لآدم قبل أن يصيبه ما أصابه كان مآله إلى الرحمة وكان ما جرى عارضا وزال فإن الرحمة سبقت العقوبة وغلبت الغضب وأيضا فإنما أمر العاطس بالتحميد عند العطاس لأن الجاهلية كانوا يعتقدون فيه أنه داء ويكره أحدهم أن يعطس ويود أنه لم يصدر منه لما في ذلك من الشؤم وكان العاطس يحبس نفسه عن العطاس ويمتنع من ذلك جهده من اعتقاد جهالهم فيه ولذلك والله أعلم بنوا لفظه على بناء الأدواء كالزكام والسعال والدوار والسهام وغيرها فأعلمهم أنه ليس بداء ولكنه أمر يحبه الله وهو نعمة منه يستوجب عليها من عبده أن يحمده عليها وفي الحديث المرفوع إن الله يحب العطاس ويكره التثاؤب والعطاس ريح مختنقة تخرج وتفتح السدد من الكبد وهو دليل جيد للمريض يؤذن بانفراج بعض علته وفي بعض الأمراض يستعمل ما يعطس العليل ويجعل نوعا من العلاج ومعينا عليه هذا قدر زائد على ما أوجبه الشارع من ذلك وأمر بحمد الله عليه وبالدعاء لمن صدر منه وحمد الله عليه ولهذا والله أعلم يقال شمته إذا قال له يرحمك الله وسمته بالمعجمة وبالمهملة وبهما روي الحديث فأما التسميت بالمهملة فهو تفعيل من السمت الذي يراد به حسن الهيئة والوقار فيقال لفلان سمت حسن فمعنى سمت العاطس وقرته وأكرمته وتأدبت معه بأدب الله ورسوله في الدعاء له لا بأخلاق الجاهلية من الدعاء عليه والتطير والتشاؤم منه وقيل سمته دعا له أن يعيده الله إلى سمته قبل العطاس من السكون والوقار وطمأنينة الأعضاء فإن في العطاس من انزعاج الأعضاء واضطرابها ما يخرج العاطس عن سمته فإذا قال له السامع يرحمك الله فقد دعا له أن يعيده الله إلى سمته وهيئته وأما التشميت بالمعجمة فقالت طائفة منهم ابن السكيت وغيره أنه بمعنى التسميت وأنهما لغتان ذكر ذلك في كتاب القلب والإبدال ولم يذكر أيهما الأصل ولا أيهما البدل وقال أبو علي الفارسي المهملة هي الأصل في الكلمة والمعجمة بدل منها واحتج بأن العاطس إذا عطس انتفش وتغير شكل وجهه فإذا دعا له فكأنه أعاده إلى سمته وهيئته وقال تلميذه ابن جني لو جعل جاعل الشين المعجمة أصلا واحدا من الشوامت وهي القوائم لكان وجها صحيحا وذلك أن القوائم هي التي تحمل الفرس ونحوه وبها عصمته وهي قوامه فكأنه إذا دعا له فقد أنهضه وثبت أمره وأحكم دعائمه وأنشد للنابغة:

طوع الشوامت من خوف ومن صرد

وقالت طائفة

منهم ابن الاعرابي هو من قولهم اشمت الله الابل اذا حسنت وسمنت وقالت فرقة اخرى معنى
شمت العاطس ازلت عنه الشماتة يقال مرضت العليل اي قمت عليه لتزول مرضه ومثله قذيت عينه
ازلت قذاها فكان الداعي له بالرحمة قد قصد ازالة الشماتة عنه وينشد في ذلك

ما كان ضر المريض يعودونه لو كان مرض متيّما من مرضا

والى هذا ذهب ثعلب والمقصود ان التطير من العطاس من فعل الجاهلية الذي ابطله الاسلام
واخبر النبي صلى الله عليه وسلم ان الله يحب العطاس ويكره التثاؤب فاذا تثاءب احدكم فليرده ما استطاع
فانه اذا فتح فاه فقال اه اه ضحك منه الشيطان **فصل** واما قوله صلى الله عليه وسلم لا يورد ممرض
على مصح فالممرض الذي ابله مراض والمصح الذي ابله صحاح وقد ظن بعض الناس ان هذا معارض لقوله
لا عدوى ولا طيرة وقال لعل احد الحديثين نسخ الاخر وورد الحرث بن ابي ذباب وهو ابن عم ابي
هريرة عليه جمعه بين الروايتين وظن انهما متعارضان فروى الزهري عن ابي سلمة بن عبد الرحمن قال
كان ابو هريرة يحدثنا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم لا عدوى ثم حدثنا ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال
لا يورد ممرض على مصح قال فقال الحرث بن ابي ذباب وهو ابن عم ابي هريرة رضي الله عنه قد كنت اسمعك يا ابا
هريرة تحدثنا حديثا اخر قد سكت عنه كنت تقول قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا عدوى ولا طيرة
رضي الله عنه ان يحدث بذلك وقال لا يورد ممرض على مصح فماراه الحرث في ذلك حتى غضب ابو هريرة
ورطن بالحبشية ثم قال للحرث اتدري ما قلت قال لا قال اني قلت ابيت ابيت قال فلا ادري انسي
ابو هريرة رضي الله عنه او نسخ احد القولين الاخر قلت قد اتفق مع ابي هريرة سعد بن ابي وقاص
وجابر بن عبد الله وعبد الله بن عباس وانس بن مالك وعمير بن سلمة على روايتهم عن النبي صلى الله عليه وسلم
قوله لا عدوى وحديث ابي هريرة محفوظ عنه بلا شك من رواية اوثق اصحابه واحفظهم ابي
سلمة بن عبد الرحمن ومحمد بن سيرين وعبيد الله بن عبد الله بن عتبة والحرث بن ابي ذباب ولم ينفرد ابو هريرة بروايته
عن النبي صلى الله عليه وسلم بل رواه معه من الصحابة من ذكرنا وقوله لا يورد ممرض على مصح صحيح ايضا
ثابت عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم فالحديثان صحيحان ولا نسخ ولا تعارض بينهما بحمد الله بل كل منهما له وجه
وقد طعن اعداء السنة في اهل الحديث وقالوا يروون الاحاديث التي ينقض بعضها بعضا ويصححونها
والاحاديث التي تخالف العقل فانتدب انصار السنة للرد عليهم ونفي التعارض عن الاحاديث الصحيحة
وبيان موافقتها للعقل قال ابو محمد بن قتيبة في كتاب مختلف الحديث له قالوا حديثان متناقضان
قالوا رويتم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قال لا عدوى ولا طيرة وانه قيل له ان النقبة

تقع

تقع بمشفر البعير فيجرب لذلك الابل فقال فما اعدى الاول هذا او معناه ثم رويتم في خلاف ذلك
لا يوردن ذو عاهة على مصح وفر من المجذوم فرارك من الاسد واتاه رجل مجذوم ليبايعه بيعة الا سلام
فارسل اليه البيعة وامره بالانصراف ولم يأذن له وقال الشوم في المرأة والدار والدابة قالوا
وهذا كله مختلف لا يشبه بعضه بعضا قال ابو محمد ونحن نقول انه ليس في هذا اختلاف
ولكل واحد معنى منها وقت وموضع فاذا وضع موضعه زال الاختلاف والعدوى جنسان احدهما
عدوى الجذام فان المجذوم يشتد رائحته حتى يسقم من اطال مجالسته ومواكلته وكذلك المرأة تكون تحت
المجذوم فيضاجعها في شعار واحد فيوصل اليها الاذى وربما جذمت وكذلك ولده ينزعون في الكبر
اليه وكذلك من كان به سل ودق ونقب والاطباء تأمر ان لا يجالس المجذوم ولا المسلول ولا يريدون
بذلك معنى العدوى وانما يريدون به معنى تغير الرائحة وقد يسقم من اطال اشتمامها والاطباء ابعد الناس
من الايمان بيمن وشوم وكذلك النقبة تكون بالبعير وهو جرب رطب فاذا خالط الابل او حاكها
واوى في مباركها اوصل اليها الماء الذي يسيل منه والنطف نحو ما به فهذا هو المعنى الذي قال
رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يوردن ذو عاهة على مصح كره ان يخالط المعيوه الصحيح فينا له من نطفه وحكه
نحو مما به قال وقد ذهب قوم الى انه اراد بذلك ان لا يظن الذي نال ابله من ذوات العاهة
فيأثم وليس هذا عندي وجه الا الذي خبرتك به عيانا واما الجنس الاخر من العدوى فهو الطاعون
ينزل ببلد فيخرج منه خوف العدوى حدثني سهل بن محمد قال حدثني الاصمعي عن بعض البصريين انه
هرب من الطاعون فركب حمارا ومضى باهله نحو سفوان فسمع حاديا يحدو خلفه وهو يقول
لن يسبق الله على حمار ولا على ذي ميعة مطار او ياتي الحتف على مقدار قد يصبح الله امام الساري
وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا كان بالبلد الذي انتم فيه فلا تخرجوا منه وقال ان كان ببلد فلا تدخلوه
يريد بقوله لا تخرجوا من البلد الذي اذا كان فيه كانكم تظنون ان الفرار من قدر الله ينجيكم من الله ويريد
اذا كان ببلد فلا تدخلوه ان مقامكم في الموضع الذي لا طاعون فيه اسكن لانفسكم واطيب لمعيشتكم ومن
ذلك المرأة تعرف بالشوم او الدار فينال الرجل مكروه او جائحة فيقول اعدتني بشومها فهذا
هو العدوى الذي قال فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم لا عدوى فاما الحديث الذي رواه ابو هريرة
رضي الله عنه انه قال الشوم في المرأة والدار والدابة فان هذا حديث يتوهم فيه الغلط على ابي هريرة
وانه سمع فيه شيئا من رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم يعه حدثني محمد بن يحيى القطعي ثنا عبد الاعلى
عن سعيد عن قتادة عن ابي حسان الاعرج ان رجلين دخلا على عائشة رضي الله عنها فقالا ان ابا هريرة يحدث

عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قال انما الطيرة في المرأة والدابة والدار فطارت شفقاً ثم قالت
كذب والذي انزل الفرقان على ابي القاسم من حدث بهذا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انما قال رسول الله
صلى الله عليه وسلم كان اهل الجاهلية يقولون ان الطيرة في الدابة والمرأة والدار ثم قرأت ما اصاب
من مصيبة في الارض ولا في انفسكم الا في كتاب من قبل ان نبرأها حدثني ابي قال نا احمد بن الخليل
نا موسى بن مسعود النهدي عن عكرمة بن عمار عن اسحق بن عبد الله بن ابي طلحة عن انس بن مالك قال
جاء رجل الى النبي صلى الله عليه وسلم فقال يا رسول الله انا نزلنا دارا فكثر فيها عددنا وكثرت فيها اموالنا ثم
تحولنا عنها الى اخرى فقلت فيها اموالنا وقل فيها عددنا فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ذروها
وهي ذميمة قال ابو محمد وهذا ليس ينقض للحديث الاول ولا الحديث الاول ينقض لهذا وانما
امرهم بالتحول منها لانهم كانوا مقيمين فيها على استثقال لظلها واستيحاش لما نالهم فيها فامرهم بالتحويل
وقد جعل الله في غرائز الناس وتركيبهم استثقال ما نالهم السوء فيه وان كان لا سبب له في ذلك
وحب من جرى على يده الخير لهم وان لم يردهم به وبغض من جرى على يده الشر لهم وان لم يردهم به وكيف
يتطير صلى الله عليه وسلم والطيرة من الجبت وكان كثير من الجاهلية لا يرونها شيئا ويمدحون من كذب بها
ثم انشد ما ذكرنا من الابيات سالفا ثم قال حدثنا اسحق بن راهويه نا عبد الرزاق عن معمر عن
اسمعيل بن امية قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلث لا يسلم منهن احد الطيرة والظن والحسد
قيل فما المخرج منهن قال اذا تطيرت فلا ترجع واذا ظننت فلا تحقق واذا حسدت فلا تبغ هذه
الالفاظ او نحوها حدثني ابو حاتم قال نا الاصمعي عن سعيد بن مسلم عن ابيه انه كان يعجب ممن يصدق
بالطيرة ويعيبها اشد العيب وقال فرقت لنا ناقة وانا بالطائف فركبت في اثرها فلقيني هانئ
ابن عبيد من بني وائل وهو مسرع وهو يقول ولئن بعثت لهم بغاة ما البغاة بواحدنا ثم دفعنا الى
غلام قد وقع في صعره ماء فاجترفه فقبح وجهه وفنده فقلت له هل ذكرت من ناقة فارق قال
ههنا اهل بيت من الاعراب فانظر فنظرت فاذا هي عندهم وقد انتجت فاخذتها وولدها قال
ابو محمد الفارق التي حملت ففارقت صواحبها وقال عكرمة كنا جلوسا عند ابن عباس فمر طائر يصيح
فقال رجل خير خير فقال ابن عباس لا خير ولا شر وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يستحب
الاسم الحسن والفال الصالح حدثني الرياشي نا الاصمعي قال سالت ابن عون عن الفال فقال هو ان
يكون مريضا فيسمع يا سالم او يكون باغيا فيسمع يا واجد وهذا ايضا مما جعل في غرائز الناس من
استحسانه والانس به كما جعل على السنة من التحية بالسلام والمدح بالامنية والتبشير بالخير وكما يقال

انعم

انعم واسلم وانعم صباحا وكما يقول العجم عش الف نوروز ومهرجان والسامع لهذا يعلم انه لا يقدم ولا
يوخر ولا يزيد ولا ينقص ولكن جعل في الطباع محبة الخير والارتياح للبشرى والمنظر الانيق
والوجه الحسن والاسم الخفيف وقد يمر الرجل بالروضة المنورة فتسره وهي لا تنفعه
وبالماء الصافي فيعجبه وهو لا يشربه ولا يورده وفي بعض الحديث ان رسول الله صلى الله عليه وسلم
كان يعجبه الاترج ويعجبه الحمام الاحمر ويعجبه الفاغية وهي نور الحناء وهذا مثل اعجابه
بالاسم الحسن والفال الحسن وعلى حسب هذا كانت كراهيته الاسم القبيح كبني النار وبني حراق واشباه
هذا انتهى كلامه وقد سلك ابو عمر بن عبد البر في هذا الحديث نحوا من مسلك ابي محمد قتيبة
فقال اما قوله صلى الله عليه وسلم لا عدوى فهو نهي ان يقول احد ان شيئا يعدي شيئا واخبار ان شيئا
لا يعدي شيئا فكانه قال لا يعدي شيء شيئا يقول لا يصيب احد من احد شيئا من خلق او فعل او داء او
مرض وكانت العرب تقول في جاهليتها مثل هذا انه اذا اتصل شيء من ذلك بشيء اعداه فاخبرهم رسول
الله صلى الله عليه وسلم ان قولهم واعتقادهم في ذلك ليس كذلك ونهى عن ذلك القول اعلاما منه بان ما
اعتقد من ذلك من اعتقده منهم كان باطلا قال واما الممرض فالذي ابله مراض والمصح الذي
ابله صحاح وروى ابن وهب عن ابن لهيعة عن ابي الزبير عن جابر قال يكره ان يدخل المريض على
الصحيح منها وليس بالمنقول لنا انه فاشار الى ان المنع من ذلك سدا للذريعة قول الناس وحماية
للقلب مما يسبق اليه من الاوهام ويقع فيه من التطير والتشاؤم بذلك وقد قال ابو عبيد قولا
قريبا من ذلك فقال في قوله في هذا الحديث انه اذا نهى ايراد الممرض على المصح قال يعني الاذى
عندي المأثم يعني ان المورد يأثم بايراده من اورد عليه ويعرضه للتشاؤم والتطير وقد سلك
بعضهم مسلكا اخر فقال ما يخبر به النبي صلى الله عليه وسلم نوعان احدهما عن الوحي فهذا خبر مطابق
لمخبره من جميع الوجوه ذهنا وخارجا وهو الخبر المعصوم والثاني ما يخبر به عن ظنه من امور
الدنيا التي هم اعلم بها منه فهذا ليس في رتبة النوع الاول ولا يثبت له احكامه قالوا وقد
اخبر النبي صلى الله عليه وسلم عن نفسه الكريمة بذلك تفريقا بين النوعين فانه لما سمع اصواتهم في
النخل تؤبرونها وهو التلقيح قال ما هذا فاخبروه بانهم يلقحونها فقال ما ارى لو تركتموه يضر شيئا
فتركوه فجاء شيصا فقال انما اخبرتكم عن ظني وانتم اعلم بامر دنياكم ولكن ما اخبرتكم عن الله
والحديث صحيح مشهور وهو من ادلة نبوته واعلامها فان من خفي عليه مثل هذا من امركم وما
اجرى الله به عادته فيها ثم جاء من العلوم التي لا يمكن البشر ان يطلع عليها البتة الا بوحي من الله

فأخبر عما كان وما يكون وما هو كائن من لدن خلق العالم إلى أن استقر أهل الجنة في الجنة
وأهل النار في النار وعن غيب السموات والأرض وعن كل شيء دقيق وجليل ينال به سعادة الدارين
وعن مصالح الدنيا والآخرة وأسبابها ومفاسد الدنيا والآخرة وأسبابها مع كون معرفتهم بالدنيا
وأمورها وأسباب حصولها ووجوه تمامها أكبر من معرفته كما أنهم أعرف بالحساب والهندسة
والصناعات والفلاحة وعمارة الأرض والكتابة فلو كان ما جاء به مما ينال بالتعلم والتفكر والنظر
والطرق التي يسلكها الناس لكانوا أولى به منه وأسبق إليه لأن أسباب ما ينال بالفكر والكتابة
والحساب والنظر والصناعات بأيديهم فهذا من أقوى براهين نبوته وأمارات صدقه وأن هذا
الذي جاء به لا صنع للبشر فيه البتة ولا هو مما ينال بسعي وكسب وفكر ونظر إن هو إلا وحي يوحى
علمه شديد القوى الذي يعلم السر في السموات والأرض أنزله عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحدا
إلا من ارتضى من رسول قالوا فهكذا إخباره عن عدم العدوى إخبار عن ظنه كإخباره عن عدم
تأثير التلقيح لا سيما وأحد البابين قريب من الآخر بل هو في النوع فإن اتصال الذكر بالأنثى وتأثيره
كاتصال المعدي بالمعدى وتأثيره فيه ولا ريب أن كليهما من أمور الدنيا لا مما يتعلق بحكم
من أحكام الشرع فليس الإخبار به كالإخبار عن الله سبحانه وصفاته وأسمائه وأحكامه قالوا فلما تبين له
صلى الله عليه وسلم من أمر الدنيا الذي أجرى الله سبحانه عادته بارتباط هذه الأسباب بعضها ببعض في تأثير
التلقيح في صلاح الثمار وتأثير إيراد الممرض على المصح أقرهم على تأثير النخل ونهاهم أن يورد ممرض
على مصح فإن سمي هذا نسخا بهذا الاعتبار فلا مشاحة في التسمية إذا ظهر المعنى ولهذا قال
أبو سلمة بن عبد الرحمن ولا أدري أنسي أبو هريرة رضي الله عنه أو نسخ أحد القولين بالآخر يعني بحديثه
الحديثين فجوز أبو سلمة النسخ في ذلك مع أنه خبر وهو بما ذكرناه من الاعتبار وهذا المسلك
حسن لولا أنه قد اجتمع القبيلان في حديث واحد كما في موطأ مالك أنه بلغه عن بكير بن عبد الله
ابن الأشج عن ابن عطية أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لا عدوى ولا هام ولا صفر ولا يحل
الممرض على المصح حيث شاء قالوا يا رسول الله وما ذاك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إنه أذى وقد
يجاب عن هذا بجوابين أحدهما أن الحديث لا يثبت لوجهين أحدهما إرساله والثاني أن
ابن عطية هذا ويقال أبو عطية مجهول لا يعرف إلا في هذا الحديث الجواب الثاني قوله فيه
لا عدوى نهي لا نفي أي لا يعدي الممرض على المصح بحلوله عليه ويدل على ذلك ما رواه أبو عمر
النمري حدثنا خلف بن قاسم نا محمد بن عبد الله نا يحيى بن صاعد نا أبو هشام الرفاعي نا بشر بن عمر

الزهراني قال مالك أنه بلغه عن بكير بن عبد الله بن الأشج عن أبي عطية أو ابن عطية شك بشر عن أبي
هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا طيرة ولا هام ولا يعدي سقيم صحيحا
وليحل المصح حيث شاء ففي هذا النهي كالإثبات للعدوى والنهي عن أسبابها ولعل بعض الرواة رواه
بالمعنى فقال لا عدوى ولا طيرة ولا هام إنما مخرج الحديث النهي عن العدوى لا نفيها وهذا
أيضا حسن لولا حديث ابن شهاب عن أبي سلمة عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم
فمن أعدى الأول فهذا الحديث قد فهم منه السامع النفي وأقره عليه صلى الله عليه وسلم ولهذا
استشكل نفيه وأورد ما أورده فأجابه النبي صلى الله عليه وسلم بما يتضمن إبطال العدوى وهو فمن
أعدى الأول وهذا أصح من حديث عطية المتقدم فحينئذ فيرجع إلى مسلك التلقيح المذكور
آنفا أو قبله من المسالك وعندي في الحديثين مسلك آخر يتضمن إثبات الأسباب والحكم ونفي ما
كانوا عليه من الشرك واعتقاد الباطل ووقوع النفي والإثبات كل منهما على وجهه فإن العرب
كانوا يثبتون العدوى على مذهبهم من الشرك الباطل كما يقوله المنجمون في تأثير الكواكب في
هذا العالم وسعودها ونحوسها كما تقدم الكلام عليهم ولو قالوا إنها أسباب وأجزاء أسباب
إذا شاء الله صرف مقتضياتها بمشيئته وإرادته وأنها مسخرة بأمره لما خلقت له وأنها في ذلك بمنزلة
سائر الأسباب التي ربط بها مسبباتها وجعل لها أسبابا أخر تعارضها وتمانعها وتمنع اقتضاءها
لما جعلت أسبابا له وأنها لا تقتضي مسبباتها إلا بإذنه ومشيئته وإرادته ليس لها من ذاتها ضر ولا
نفع ولا تأثير البتة إن هي إلا خلق مسخر مصرف مربوب لا تتحرك إلا بإذن خالقها ومشيئته
وغايتها أنها جزء سبب ليست سببا تاما فسببيتها من جنس وطء الوالد في حصول الولد فإنه
جزء واحد من أجزاء كثيرة من الأسباب التي خلق الله بها الجنين وكسببية شق الأرض وإلقاء
البذر فيها فإنه جزء يسير من جملة الأسباب التي يكون الله بها النبات وهكذا جملة أسباب العالم من الغذاء
والدواء والعافية والسقم وغير ذلك وأن الله سبحانه يجعل من ذلك سببا ما يشاء ويبطل السببية عما
يشاء ويخلق من الأسباب المعارضة له ما يحول بينه وبين مقتضاه فهم لو أثبتوا العدوى على هذا
الوجه لما أنكر عليهم كما أن ذلك ثابت في الداء والدواء وقد تداوى صلى الله عليه وسلم وأمر بالدواء
وأخبر أن الله ما أنزل داء إلا وأنزل له دواء إلا الهرم فأعلمنا أنه خالق أسباب الداء وأسباب
الدواء المعارضة المقاومة لها وأمرنا بدفع تلك الأسباب المكروهة بهذه الأسباب وعلى
هذا قيام مصالح الدارين بل الخلق والأمر مبني على هذه القاعدة فإن تعطيل الأسباب وإخراجها

عن ان يكون اسبابا تعطيل للشرع ومصالح الدنيا والاعتماد عليها والركون اليها واعتقاد ان المسببات
بها وحدها شرك ولهذا اثباتها تامة شرك بالخالق عز وجل وجهل به وخروج عن حقيقة التوحيد واثبات
سببيتها على هذا الوجه الذي خلقها الله عليه وجعلها اسباب الخلق والامر للشرع والقدر والسبب
والمسببه والتوحيد والحكمة فالشارع يثبت هذا ولا ينفيه وينفي ما عليه المشركون من اعتقادهم في
ذلك ويشبه هذا نفيه سبحانه وتعالى للشفاعة في قوله واتقوا يوما لا تجزي نفس عن نفس شيئا ولا يقبل منها
شفاعة ولا يؤخذ منها عدل وفي اية البقرة الاخرى ولا تنفعها شفاعة وفي قوله من قبل ان ياتي يوم لا بيع فيه
ولا خلة ولا شفاعة واثباتها في قوله ولا يشفعون الا لمن ارتضى وفي قوله من ذا الذي يشفع عنده الا باذنه
وقوله لا يملكون الشفاعة الا من اتخذ عند الرحمن عهدا فانه سبحانه نفى الشفاعة الشركية التي كانوا يعتقدونها
وامثالهم من المشركين وهي شفاعة الوسائط لهم عند الله في جلب ما ينفعهم ودفع ما يضرهم بذواتها وانفسها
بدون توقف ذلك على اذن الله ورضاه لمن شاء ان يشفع فيه الشافع فهذه الشفاعة التي ابطلها الله
سبحانه ونفاها وهي اصل الشرك كله وقاعدته التي عليها بناؤه واخيته التي يرجع اليها واثبت سبحانه
الشفاعة التي لا تكون الا باذنه للشافع ورضاه عن المشفوع قوله وعمله وهي الشفاعة التي تنال
بتجريد التوحيد كما قال صلى الله عليه وسلم اسعد الناس بشفاعتي من قال لا اله الا الله خالصا من قلبه
والشفاعة الاولى هي الشفاعة التي ظنها المشركون وجعلوا الشرك وسيلة اليها فالمقامات ثلاثة
احدها تجريد التوحيد واثبات الاسباب وهذا هو الذي جاءت به الشرائع وهو مطابق
للواقع في نفس الامر والثاني الشرك في الاسباب بالمعبود كما هو حال المشركين على اختلاف
اصنافهم الثالث انكار الاسباب بالكلية محافظة من منكرها على التوحيد فالمنحرفون
طرفان مذمومان اما قادح في التوحيد بالاسباب واما منكر للاسباب بالتوحيد والحق غير ذلك
وهو اثبات التوحيد والاسباب وربط احدهما بالاخر فالاسباب محل حكمة الدين والكوني
والجزائي عليها يجريان بل عليها يترتب الامر والنهي والثواب والعقاب ورضى الرب وسخطه
ولعنته وكرامته والتوحيد تجريد الربوبية والالهية عن كل شرك فانكار الاسباب انكار
لحكمته والشرك بها قدح في توحيده واثباتها والتعلق بالمسبب والتوكل عليه والثقة به والخوف
منه والرجاء له وحده هو محض التوحيد والمعرفة فيفرق بين ما اثبته الرسول وبين ما ابطله وبين
ما اعتبره هؤلاء وهذا لون والله الموفق للصواب   ويشبه هذا ما روي عنه صلى
الله عليه وسلم من نهيه عن وطء الغيل وهو وطء المراة اذا كانت ترضع وانه يشبه قتل الولد سرا وانه

يدرك الفارس فيدعثره   وقوله صلى الله عليه وسلم في حديث اخر لقد هممت ان انهى عنه ثم رايت
فارس والروم يفعلونه ولا يضر ذلك اولادهم شيئا وقد قيل ان احد الحديثين منسوخ بالاخر وان
لم يعلم عين الناسخ منهما من المنسوخ لعدم علمنا بالتاريخ وقيل وهو احسن ان النفي والاثبات
لم يتواردا على محل واحد فانه صلى الله عليه وسلم اخبر في احد الحديثين انه يفعل في الولد مثل ما يفعل من
يصرع الفارس عن فرسه فانه يدعثره ويصرعه وذلك يوجب نوع وهن ولكنه ليس بقتل للولد
واهلاك له وان كان قد يترتب عليه نوع اذى للطفل فارشدهم الى تركه ولم ينه عنه بل قال
علام يفعل احدكم ذلك ولم يقل لا تفعلوه فلم يجئ عنه صلى الله عليه وسلم لفظ واحد بالنهي عنه ثم عزم على
النهي سدا للذريعة الاذى الذي ينال الرضيع فراى ان سد هذه الذريعة لا يقاوم المفسدة التي
تترتب على الامساك عن وطء النساء مدة الرضاع ولا سيما من الشباب وارباب الشهوة التي لا يكسرها الا مواقعة
نسائهم فراى ان هذه المصلحة ارجح من مفسدة سد الذريعة ونظر وراى الامتين اللتين هما من
اكثر الامم واشدها باسا يفعلونه ولا يتقونه مع قوتهم وشدتهم فامسك عن النهي عنه فلا تعارض
اذا بين الحديثين ولا ناسخ ولا منسوخ والله اعلم بمراد رسوله   ويشبه هذا قوله
صلى الله عليه وسلم للذي قال له ان لي امة واني اكره ان تحمل واني اعزل عنها فقال سياتيها ما قدر
لها

فليس بين هذه الاحاديث تعارض فانه صلى الله عليه وسلم لم يقل ان الولد يخلق من غير ماء الوطء بل اخبر انه
سياتيها ما قدر لها ولو عزل فانه اذا قدر خلق الولد قد يسبق الماء والواطئ لا يشعر بل يخرج منه
ما يمازج ماء المراة لا يشعر به يكون سببا في خلق الولد ولهذا فانه ليس من كل الماء يكون الولد فلو
خرج منه نطفة لا يحس بها لجعلها الله مادة للولد فليس مادة الولد مقصورة على وقوع الماء بجملته في
الرحم بل اذا قدر الله خلق الولد من الماء فلو وضع على صخرة لخلق منه الولد كيف والذي يعزل في الغالب
انما يلقي ماءه قريبا من الفرج وذلك انما يكون غالبا عندما يحس بالانزال ولكن انما يبرز بعض الماء
ولا يشعر به فيبرز له خارج الفرج ولا شعور له بما يترك في الفرج وربما خالط المراة منه وبالجملة
فليس شيء خلق الولد مقصورا على الانزال التام في الفرج ولقد حدثني غير واحد ممن اثق به
ان امراته حملت مع عزله عنها لرضاع ونحوه ورايت بعض اولادهم ضعيفا ضئيلا فصلوات الله وسلامه
على من يصدق كلامه بعضه بعضا ويشهد بعضه لبعض فالاختلاف والاشكال والاشتباه انما هو

في الافهام الا فيما خرج من بين شفتيه من الكلام والواجب على كل مؤمن ان يكل ما اشكل عليه الى
اصدق قائل ويعلم ان فوق كل ذي علم عليم وانه لو اعترض على ذي صناعة او علم من العلوم
التي استنبطتها معاول الافكار ولم يحط علما بتلك الصناعة او العلم لازرى على نفسه واضحك
صاحب تلك الصناعة والعلم على عقله والنبي صلى الله عليه وسلم يذكر المقتضي في موضع والمانع في موضع
اخر ويثبت الشيء وينفي مثله في الصورة وعكسه في الحقيقة ولا يحيط اكثر الناس بمجموع نصوصه علما
ويسمع النص ولا يسمع شرطه ولا موانع مقتضاه ولا تخصيصه ولا تبيينه للفرق بين ما اثبته ونفاه فينشأ
من ذلك في حقه من الاشكالات ما ينشأ ويضاف الى هذا الى عدم علم معرفة المخاطب بخطابه ومجاري
كلامه ويضاف الى ذلك تنزيل كلامه على الاصطلاحات التي احدثها ارباب العلوم من الاصوليين والفقهاء
وعلم احوال القلوب وغيرهم فان لكل من هولاء اصطلاحات حادثة في مخاطباتهم وتصانيفهم فيجي
من قد الف تلك الاصطلاحات الحادثة وسبقت معانيها الى قلبه فلم يعرف سواها فيسمع كلام الشارع
فيحمله على ما الفه من الاصطلاحات فيقع بسبب ذلك في الفهم عن الشارع ما لم يرده بكلامه ويقع من الخلل في
نظره ومناظرته ما يقع وهذا من اعظم اسباب الغلط عليه مع قلة البضاعة من معرفة نصوصه فاذا اجتمعت
هذه الامور مع نوع فساد في التصور او القصد او فيهما ما شئت من خبط وغلط واشكالات واحتمالات
وضرب كلامه بعضه ببعض واثبات ما نفاه ونفي ما اثبته والله المستعان   واما قصة
المجذوم فلا ريب انه روي عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال فر من المجذوم فرارك من الاسد وارسل الى ذلك
المجذوم انا قد بايعناك فارجع واخذ بيد مجذوم فوضعها في القصعة وقال كل ثقة بالله وتوكلا عليه
ولا تنافي بين هذه الاثار ومن احاط علما بما قدمناه تبين له وجهها وان غاية ذلك ان مخالطة المجذوم من اسباب
العدوى وهذا السبب يعارضه اسباب اخر تمنع اقتضاه فمن اقواها التوكل على الله والثقة به
فانه يمنع تاثير ذلك السبب المكروه ولكن لا يقدر كل واحد من الامة على هذا فارشدهم الى مجانبة السبب
المكروه والفرار والبعد منه ولذلك ارسل الى ذلك المجذوم الاخر بالبيعة تشريعا منه للفرار من اسباب
الاذى والمكروه وان لا يتعرض العبد لاسباب البلاء ثم وضع يده معه في القصعة فانما هو سبب التوكل
على الله والثقة به الذي هو من اعظم الاسباب التي يدفع بها المكروه والمحذور وتعليما منه للامة دفع
الاسباب المكروهة بما هو اقوى منها واعلاما بان الضرر والنفع بيد الله عز وجل فان شاء ان يضر عبده
ضره وان شاء ان يصرف عنه الضر صرفه بل ان شاء ان ينفعه بما هو من اسباب الضرر ويضره بما هو من اسباب
النفع فعل ليتبين للعباد انه وحده الضار النافع وان اسباب الضر والنفع بيده وهو الذي جعلها اسبابا

وان شاء خلع منها سببيتها وان شاء جعل ما يقتضيه بخلاف المعهود منها ليعلم انه الفاعل المختار وانه
لا يضر شيء ولا ينفع الا باذنه وان التوكل عليه والثقة به يحيل الاسباب المكروهة الى خلاف موجباتها
وبين مرتبتها وانها مجال المجاري مشيئة الله وحكمته وانه سبحانه هو الذي يضر بها وينفع ليس اليها ولا لها
من الامر شيء وان الامر كله لله وانها انما ينال ضررها من علق قلبه بها ووقف عندها وتطير بما يتطير
منها فذلك الذي يصيبه مكروه الطيرة والطيرة سبب للمكروه على المتطير فاذا توكل على الله ووثق
به واستعان به ولم يصده التطير عن حاجته وقال اللهم لا طير الا طيرك ولا خير الا خيرك
ولا اله غيرك اللهم لا ياتي بالحسنات الا انت ولا يذهب بالسيئات الا انت ولا حول ولا قوة الا
بك فانه لا يضره ما تطير منه شيئا قال ابن مسعود رضي الله عنه ما منا الا من يجد يتطير ولكن الله يذهبه
بالتوكل وقد روي مرفوعا والصواب عن ابن مسعود وقوله فالطيرة انما تضر المتطير لشركه
والخوف دائما مع الشرك والامن دائما مع التوحيد قال تعالى حكاية عن خليله ابرهيم صلى الله
عليه وسلم انه قال في محاجته لقومه وكيف اخاف ما اشركتم ولا تخافون انكم اشركتم بالله ما لم ينزل به سلطانا
فاي الفريقين احق بالامن ان كنتم تعلمون فحكم الله عز وجل بين الفريقين بحكمه فقال الذين امنوا ولم يلبسوا
ايمانهم بظلم اولئك لهم الامن وهم مهتدون   وقد صح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم تفسير الظلم فيها
بالشرك وقال الم تسمعوا قول العبد الصالح ان الشرك لظلم عظيم فالتوحيد من اقوى اسباب
الامن من المخاوف والشرك من اعظم اسباب حصول المخاوف ولذلك من خاف شيئا غير الله سلط عليه
وكان خوفه منه هو سبب تسليطه عليه ولو خاف الله دونه ولم يخفه لكان عدم خوفه منه وتوكله
على الله من اعظم اسباب نجاته منه وكذلك من رجا شيئا غير الله حرم ما رجاه منه وكان رجاؤه غير الله
من اقوى اسباب حرمانه فاذا رجا الله وحده كان توحيد رجائه اقوى اسباب الفوز بما رجاه
او بنظيره او بما هو انفع له منه والله الموفق للصواب ولنختم هذا الكتاب فقد جلبت
اليك فيه نفائس في مثلها يتنافس المتنافسون وجليت عليك فيه عرائس الى مثلهن بادر الخاطبون
فان شئت اقتبست منه معرفة العلم وفضله وشدة الحاجة اليه وشرفه وشرف اهله وعظم موقعه
في الدارين وان شئت اقتبست منه معرفة اثبات الصانع بطرق واضحات جليات تلج القلب
بغير استئذان وتعرف حكمته في خلقه وامره وان شئت اقتبست منه معرفة قدر الشريعة وشدة الحاجة
اليها ومعرفة جلالتها وحكمها وان شئت اقتبست منه معرفة النبوة وشدة الحاجة اليها بل ضرورة الوجود
اليها وانه يستحيل من احكم الحاكمين ان يخلي العالم عنها وان شئت اقتبست منه معرفة ما فطر الله عليه

العقول من تحسين الحسن وتقبيح القبيح وان ذلك امر عقلي فطري بالادله والبراهين التي اشتمل
عليها هذا الكتاب ولا يوجد في غيره وان شيت اقتبست منه معرفة الرد على المنجمين القايلين بالاحكام
بابلغ طرق الرد من نفس صناعتهم وعلمهم والزامهم بالالزامات المفحمه التي لا جواب عنها لهم وابدا
تناقضهم في صناعتهم وفضايحهم وكذبهم على الخلق والامر وان شيت اقتبست منه معرفة الطيره والفال
والزجر والعيافه وبيان صحيح ذلك وباطله ومعرفة مراتب هذه في الشريعه والقدر وان شيت
اقتبست منه اصولا نافعة جامعة فيما تكمل به النفس البشريه وتنال به سعادتها في معاشها
ومعادها الى غير ذلك من الفوايد التي ما كان منها صوابا فمن الله وحده هو المان به وما كان منها
من خطا فمن مولفه ومن الشيطان والله بري منه ورسوله صلى الله عليه وسلم والله سبحانه المسوول
والمرغوب اليه المامول ان يجعله خالصا لوجهه وان يعيذنا من شرور انفسنا وسيات اعمالنا وان
يوفقنا لما يحبه ويرضاه انه قريب مجيب والحمد لله رب العالمين وصلى الله على سيدنا محمد واله وصحبه
اجمعين وسلم تسليما كثيرا الى يوم الدين وهو حسبنا الله ونعم الوكيل

[illegible] علي عفي عنهما

نجز كتابه على يد مالكه افقر عباد الله واحوجهم الى رحمته وعفوه ولطفه الراجي غفرانه لكل ذنوبه
وزلله المقر بخطيئته وجرمه محمد بن موسى بن ابراهيم بن عبد الرحيم بن علي بن حاتم بن عمر بن محمد بن يوسف
ابن احمد بن محمد الشهير بابن الجمال الانصاري الحراني الحنبلي لطف الله تعالى به وبالمسلمين انه جواد
كريم في يوم [illegible] الثاني عشر شهر رمضان المعظم قدره من شهور عام اثنين وتسعين وثمانمايه
احسن الله تعالى خاتمتها بخير واله بمدينة طرابلس المحروسه جعلها الله تعالى دار الاسلام الى يوم القيمه
وساير بلاد المسلمين يا ارحم الراحمين والحمد لله حمدا كثيرا طيبا مباركا فيه كما يحب ربنا ويرضى
وكما ينبغي لكرم وجهه وعز جلاله وصلواته على نبي الرحمه وكاشف الغمه والمحن خير الخلق محمد واله وصحبه

الحمد لله وحده
بلغ هذا الكتاب الموسوم بمفتاح دار السعادة قراءة
وسماعا بعد مقابلة على نسخة وجدت بخط المؤلف
رحمه الله ثم بلغت قراءة على مولانا الشيخ شيخ العارفين
قدوة العلما العاملين شمس الملة والحقيقة [illegible]
والبحر الزاخر [illegible] الزمان امام العصر والاوان [illegible]
مفتي مصر والشام الامام ابي الحسن البكري [illegible] رضي الله
تعالى عنه وارضاه وجعل الجنة ماواه بمحمد وآله وصحبه وسلم تسليما

[illegible] بلغ [illegible] قراءة [illegible] بلغت سماعا [illegible] الشيخ [illegible] الكاملي [illegible] المغربي [illegible] الاصفار [illegible] اجازة [illegible] والحمد لله [illegible] التوفيق